البداية والنهاية

للإمام الحافظ أبو الفداء

إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

الجزء الأول

خرج أحاديثه

الشيخ / محمد بيومي أ / عبد الله المنشاوى

أ / محمد رضوان مهنا

الناشر
مكتبة الإيمان
بالمنصورة ت :٢٥٧٨٨٢

الناشـــر
مكتبة الإيمان
بالمنصورة ٢٥٧٨٨٢



﴿ومَا آتَاكُمُ الرسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

(سورة الحشر : آية ٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

يعتبر كتاب " البداية والنهاية " موسوعة ضخمة فى التاريخ الإسلامى العام. ولا شك أن المكتبة الإسلامية تفخر بهذه الموسوعة العظيمة .

ويتحدث المؤلف عن موضوع كتابه فيقول :

" فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات من خلق العرش والكرسى والسماوات والأرضين وما فيهن وما عليهن من الملائكة والجان والشياطين وكيفية خلق آدم عليه السلام ، وقصص النبيين ، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بنى إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهى النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه فنذكر سيرته كما ينبغى ، فتشفى الصدور والعليل ، وتزيح الداء عن العليل .

ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا ، ونذكر الفتن والملاحم، وأشراط الساعة ثم " البعث والنشور وأهوال القيامة ، ثم صفة ذلك ، وما فى ذلك اليوم ، وما يقع فيه من الأمور الهائلة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان ، وغير ذلك ، وما يتعلق به وما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة ، والآثار والأخبار المقبولة المقبولة عند العلماء وورثة الأنبياء الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام " .

ومن الملاحظ أن ابن كثير قسم كتابه إلى قسمين ، الأول فى الكلام على الأحداث والقصص والغرائب من بدء الخلق إلى الهجرة النبوية. والثانى، أنه رتب ما بعد ذلك حسب السنين الهجرية إلى سنة ٧٣٨ هـــ حيث أكمل الكتاب بعد ذلك إلى سنة ٧٦٧هـــ أحد تلامذة ابن كثير على لسان أستاذه .

أما منهج الكتاب فهو الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية والأخبار والآثار المنقولة والمقبولة عند العلماء كما قال ابن كثير نفسه . فهو لا يقبل أثراً أو خبراً إلا إذا كان مقبولاً معقولاً .

ويقبل كثير من العلماء الإسرائيليات التى ذكرها أهل الكتاب . والكثير منها لا يصح ولا فائدة فيه . وابن كثير يعد إماما فى نقد الإسرائيليات وخرافاتها وعجائبها وغرائبها

كما فعل فى التفسير . وهو إذا ذكر بعضها فى تاريخه فإنه لا يذكرها على سبيل التدليل أو الاحتجاج بل على سبيل التحلى وبسط ما فيه مختصره عنده .

ولنتركه يتحدث عن موقفه من الإسرائيليات، ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع فى نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وهو القسم الذى لا يصدق ولا يكذب مما فيه بسط لمختصر عندنا ، وتسمية لمبهم ، ورد به شرعنا مما لا فائدة فى تعيينه لنا ، فنذكره على سبيل التحلى لا على سبيل الاحتجاج إليه والاعتماد عليه وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ما صح نقله أو حسن ، وما كان فيه ضعف نبينه" .

ومن هذا يتبين لنا سبب وقوفه طويلا عند الأحاديث التى ذكرها فى كتابه ، يوضح إسنادها ، ومتنها وصحتها أو ضعفها ولا يقبل الروايات على علاتها بل يناقشها ويدقق فيها ، ويحقق متونها ، وأسانيدها كما يفعل رجال الحديث وحفاظه .

ويستطرد ابن كثير فى الحديث عن منهجه فيقول : " سنورد عند كل فصل ما وصل إلينا عنه - صلوات الله وسلامه عليه - من ذلك ، تلو الآيات الواردات فى ذلك .

فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك . وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ، ويتزاحم فى فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب ، مما لا فائدة فيه لكثير من الناس إليه ، وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ولسنا نحذو حذوهم ولا ننحو نحوهم ، ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار ، ونبين ما فيه حق مما وافق ما عندنا ، وما خالفه فوقع فيه الإنكار .

فالمؤلف يقرر أنه قد اتخذ منهجاً فريدا فى البعد عن الإسرائيليات والخرافات وإنكار ما خالف ديننا وإبطاله . ومنهجه هذا لم يجد فيه حذو غيره من العلماء الذين ضمنوا كتبهم كثيرا من الإسرائيليات.

وقد يستشهد هؤلاء الذين يضمنون كتبهم كثيرا من الإسرائيليات بالحديث الذى رواه البخارى - رحمه الله - فى صحيحه عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ، ولا حرج ، وحدثوا عنى ولا تكذبوا على ومن كذب على فليتبوأ مقعده من النار** » (١).

---

(١) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) .

ولكن يرد ابن كثير على هذا فيقول : « هو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا ، فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها فيجوز روايتها للاعتبار ، وهذا هو الذى نستعمله فى كتابنا هذا ، فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة لنا به إليه استغناء بما عندنا وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود ولا يجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال » .

فإذا كان الله سبحانه وله الحمد قد أغنانا رسولنا محمد ﷺ من سائر الشرائع وبكتابه عن سائر الكتب فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخلط ، وكذب ووضع، وتحريف وتبديل ، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير .

ومن هنا نعلم أن ابن كثير كان إماما فى انتقاده للإسرائيليات وأباطيلها وما فيها من كذب ووضع وتحريف وتغيير .

وإذا عرفت منهج ابن كثير هذا ، وتفرده فيه ، ومناقشته للآراء وعدم قبوله للآثار والأخبار إلا إذا كانت صحيحة مقبولة ، واعتماده على الكتاب والسنة والروايات الصحيحة فإنك تعجب كل العجب حينما تقرأ لأحد المحدثين هذه العبارة التى كتبت فى منهج ابن كثير فى البداية والنهاية ، ولم يخرج ابن كثير على منهج الذين سبقوه من مؤرخى المسلمين ، فهو يعتمد على النقل فى أكثر رواياته ، وتكاد تكون عبارته هى العبارات التى نقلها عن غيره .

ولا شك أن فى هذا الحكم على منهج ابن كثير تجنياً كبيراً ، وبخاصة أنه كان إماما فى نقد الإسرائيليات ، وإبطال الخرافات ، والروايات الواهية ، وهذا هو الحافظ أبو المحاسن الحسينى الدمشقى يمدحه بالإتقان والتحقيق والنقد فيقول فى ذيل تذكرة الحفاظ للذهبى نقلا عن المعجم المختص : هو فقيه ، متقن ، محدث محقق ، ومفسر نقاد - بالدال لا باللام.

أما فى أية سنة انتهى ابن كثير نفسه من كتاب البداية والنهاية وفى أى عام انتهى ابن كثير من تأليفه ؛ فإن صاحبنا يجيب عن ذلك فيقول فى حوادث سنة ٧٣٨ هـ : وهذا آخر ما أرخه شيخنا الحافظ علم الدين البرازلى فى كتاب الذى ذيل به على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبى شامة المقدسى وقد ذيلت على تاريخه إلى زماننا هذا وكان فراغى من الانتقاء من تاريخه فى يوم الأربعاء ، العشرين من جمادى الآخرة من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة أحسن الله خاتمتها آمين .

وإلى هنا انتهى ما كتبته من لدن خلق آدم إلى زماننا هذا ولله الحمد والمنة . وما أحسن ما قال الحريرى :

وإن تجد عيبا فسد الخللا فجل من لا عيب فيه وعلا

كتبه إسماعيل بن كثير بن ضوء القرشى الشافعى عفا الله تعالى عنه آمين.

هذا وقد أكمل كتابه إلى سنة ٧٦٧ هـ أحد تلامذته على لسان أستاذه وقد اختصر هذه الموسوعة ابن حجر فى كتاب أسماه " ما ورد من الرواية مختصر البداية والنهاية " وهو مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٢٢ تاريخ [1].

* * * * *

(١) ابن كثير ومنهجه فى التفسير . الدكتور إسماعيل سالم عبد العال ص ١٤٤ - ١٤٨ باختصار يسير . ط مكتبة الملك فيصل الإسلامية .

ترجمة المؤلف [١]

*** اسمه ونسبه :**

هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشى ، لقبه عماد الدين ، ولكنه اشتهر بلقب ابن كثير.

*** مولده ونشأته :**

قال الحافظ أبو المحاسن الحسينى فى " ذيل تذكرة الحفاظ للذهبى " وابن قاضى شهبة فى "طبقات الشافعية" والداودى فى "طبقات المفسرين " وابن تغرى بردى فى " المنهل الصافى " والشوكانى فى " البدر الطالع " أنه ولد سنة ٧٠١ هـــ .

وقال ابن حجر العسقلانى فى " الدرر الكامنة " : ولد فى سنة ٧٠٠ هـــ أو بعدها بيسير.

وكانت ولادته فى قرية " بجيدل " وهو بلد أمه ، وهى قرية بشرقى بصرى .

*** حبه للعلم :**

شغف ابن كثير بالعلم منذ صغره ، منشأ محباً للقرآن وتفسيره والحديث وحفظه ومعرفة سنده ومتنه ، والتاريخ وروايته ، والفقه وأحكامه ، والسيرة وأحداثها والنحو وغيره من سائر العلوم ، لذلك أقبل على حفظ المتون والأسانيد والعلل والرجال والتاريخ حتى برع فى ذلك، وهو شاب كما يقول الداودى وابن قاضى شهبة، وقد حفظ القرآن فى سن الحادية عشرة عند شيخه ابن غيلان وحفظ " التنبيه " وعرضه وسنه ثمانى عشرة وكذلك حفظ " مختصر ابن الحاجب " وقد صنف فى صغره كما يقول الداودى كتاب "الأحكام على أبواب التنبيه ".

*** شيوخه :**

كان أول شيخ تلقى ابن كثير العلم عليه ، وتفتح عقله على يديه هو أخوه كمال الدين عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٥٠ هـــ .

وقد تتلمذ ابن كثير على رجال العلم المشهورين فى ذلك العصر وتلقى عليهم التفسير والحديث وعلومه، والفقه وأصوله ، والتاريخ وغيره . ومن هؤلاء الأساتذة :

---

(١) انظر كتاب " ابن كثير ومنهجه فى التفسير " للدكتور إسماعيل عبد العال .

١ – شيخ الإسلام ابن تيمية :

وقد نهل ابن كثير من علم ابن تيمية ، وكان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق ، وامتحن بسبب ذلك وأوذى وقد تردد اسم ابن تيمية أكثر من مرة فى تفسير ابن كثير يذكر له تلميذه رأياً فى إسناد حديث أو فى متنه أو يستشيره فى مسألة فقهية أو شرح آية قرآنية أو غير ذلك .

وكان ابن كثير يستحسن رأى شيخه فى تفسير بعض آيات الله، ففى تفسير قوله تعالى: ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ بسط عدة آراء ثم قال : " وثم قول " رابع نصره أبو العباس ابن تيمية فى بعض كتبه وهو أن المراد بقوله : ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ نفى الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعى أيضاً وهو قول حسن أيضاً والله أعلم .

٢ – أبو الحجاج المزى :

وقد لازمه ابن كثير وانتفع به وقرأ عليه " تهذيب الكمال " وتوثقت صلته بأستاذه وتزوج ابنته زينب ، ولم يفارق ابن كثير شيخه وصهره حتى وفاة الحافظ المزى بمرض الطاعون سنة ٧٤٢ هـ .

٣ – الإمام الذهبى :

تتلمذ ابن كثير على يدى شيخه الذهبى فأفاد منه فى التفسير وتأثر به فى الحديث والتاريخ وغير ذلك .

٤– ابن الشحنة المتوفى سنة ٧٣٠ هـ .

٥– برهان الدين الفزارى المتوفى سنة ٧٢٩ هـ .

٦– ابن قاضى شهبه المتوفى سنة ٧٢٦ هـ .

٧ – ابن الزملكانى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ .

٨ – محيى الدين أبو زكريا الشيبانى الشافعى المتوفى سنة ٧٢٤ هـ .

٩ – علم الدين البرزالى الشافعى وصاحب التاريخ المشهور باسمه .

١٠ – شمس الدين الشيرازى المتوفى سنة ٧٢٣ هـ

١١ - شمس الدين الأصبهانى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ .

١٢ - عفيفى الدين إسحاق الآمدى المتوفى سنة ٧٢٥ هـ .

١٣ بهاء الدين بن عساكر المتوفى سنة ٧٢٣ هـ .

١٤ - عيسى بن المطعم المتوفى سنة ٧١٩ هـ .

١٥ - عفيفى الدين محمد بن عمر الصقلى المتوفى سنة ٧٢٥ هـ .

١٦ - ابن الرضى المتوفى سنة ٧٢٨ هـ .

١٧ - ابن السويدى المتوفى سنة ٧١١ هـ .

١٨ - ابن غيلان المتوفى سنة ٧٣٠ .

١٩ - عبد المؤمن الدمياطى المتوفى سنة ٧٠٥ هـ .

٢٠ - ركن الدين البجلى .

٢١ - نجم الدين البجلى المتوفى سنة ٧١٦ هـ .

٢٢ - جمال الدين بن الخطيب .

٢٣ - شمس الدين بن بركات المتوفى سنة ٧٥٦ هـ .

٢٤ - شمس الدين المقدسى النابلسى الحنبلى المتوفى سنة ٧٣٧ هـ .

٢٥ - نجم الدين بن العسقلانى سمع منه ابن كثير صحيح مسلم فى تسعة مجالس .

٢٦ - جمال الدين بن القلانسى المتوفى سنة ٧٣١ هـ .

٢٧- عمر بن أبى بكر البسطى المتوفى فى سنة ٧٤٢هـ .

٢٨ - ضياء الدين عبد الله الزريندى النحوى أخذ عنه ابن كثير علم النحو .

٢٩ - أبو الحسن المنتزه المتوفى سنة ٧١٣ هـ .

**** زواجه وولده :***

تزوج ابن كثير " زينب " ابنة شيخه المزى وكانت زوجة طيبة صالحة تحفظ القرآن الكريم، وتذكر ما يتلى فى بيت أبيها ثم فى بيت زوجها من آيات الله والحكمة ، ولقد كانت والدها " عائشة " تحفظ القرآن كله .

وقد أنجب ابن كثير من زوجته ولداً أسماه محمداً سنة ٧٥٩ هـ وهو مثل أبيه فى أنه محدث حافظ مؤرخ ولكن باعه أقل بكثير من والده ، ومن آثاره تاريخ للحوادث التى فى زمنه ، ونبراس القلق ومقياس الغسق . وقد توفى سنة ٨٠٣ هـ .

ولابن كثير ولد آخر ، اسمه أحمد ولد سنة ٧٦٥ هـ تزيا بزى الجند ، وكان أحسن أخوته سمتاً ، عارفاً بالأمور ، توفى سنة ٨٠١ هـ .

*** مؤلفاته :**

للحافظ ابن كثير مؤلفاته كثيرة ، ولكن بعضها مفقود أو مخطوط والذى وقف عليه الدارسون لتراث ابن كثير من مؤلفاته هى :

١- تفسير القرآن العظيم ، والذى اشتهر بتفسير ابن كثير ، وقد طبع هذا التفسير عدة طبعات ويقوم الآن على تحقيقه تحقيقاً علمياً دقيقاً أخونا الشيخ أبو إسحاق الحوينى وقد أصدر منه جزأين حتى الآن.

٢- فضائل القرآن ، وهو ملحق بآخر التفسير ، وطبع مفرداً فى عدة طبعات .

٣- أحاديث الأصول . لم يطبع ، وقد أشار إليه الحافظ ابن كثير فى تفسيره عند تفسير قول الله تعالى ﴿ **ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾ وهذا الكتاب لاندرى عن وجوده شيئاً .

٤- شرح البخارى .

شرع ابن كثير فى شرح البخارى ولم يكمله ، وقد ذكره ابن كثير من بين المصادر التى رجع إليها فى التفسير وغالباً ما يقول : " وفى أول شرح البخارى " وقال فى تفسيره (٥٥٧/٤) : "وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه فى شرح كتاب العلم من صحيح البخارى ولله الحمد والمنة " .

وهذا الجزء الذى كتبه ابن كثير فى شرح البخارى لاندرى أين هو .

٥ - التكميل فى الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل .

ولا يوجد من هذا الكتاب إلا المجلد التاسع والأخير فى مجلدين فى نسخة مصورة عن نسخة خطية قدمها الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة لدار الكتب تحت رقم ٢٤٢٢٧ بـ مخطوط.

وكتاب التكميل يعتبر مقدمة لكتاب " جامع المسانيد " كما قال ابن كثير فى مقدمة الكتاب الأخير .

وقد جمع ابن كثير فى كتاب " التكميل " بين كتابى " تهذيب الكمال فى أسماء الرجال" لشيخه المزى ، و" ميزان الاعتدال فى نقد الرجال " لأستاذه الذهبى وزاد عليها زيادات مفيدة فى الجرح والتعديل .

٦- جامع المسانيد ، والستر الهادى لأقوم سنن :

وقد طبع هذا الكتاب فى بيروت .

أما منهج الكتاب فيقول عنه ابن كثير : " وشرطى فيه أن أترجم كل صحابى له رواية عن رسول الله ﷺ مرتب على حروف المعجم وأورد له جميع ما وقع له فى الكتب وما تيسر لى من غيرها .

فهو يترجم كل صحابى بذكر اسمه ونسبه وشيء من سيرته وحياته ثم يورد جميع الأحاديث التى رويت عنه فى كتب السنة المعتمدة ، ومن ذلك الكتب الستة وهى : الصحيحان - البخارى ومسلم - والسنن الأربعة لأبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه . ومن ذلك مسند الإمام أحمد ، ومسند أبى بكر البزار ، ومسند أبى يعلى الموصلى ، والمعجم الكبير للطبرانى - رحمهم الله - فهذه عشرة كاملة ، أذكر فى كتابى هذا مجموع ما فى هذه العشرة ، وربما زدت عليها من غيرها، وقلّ ما يخرج عنها من الأحاديث مما يحتاج إليها من الدين ، وهذه الكتب العشرة تشتمل على أدنى من مائة ألف حديث بالمكررة .
مسانيد الخلفاء الراشدين والمكثرين وهى :

٧- مسند أبى بكر الصديق .

٨ - مسند عمر بن الخطاب .

٩ - مسند على بن أبى طالب .

١٠ - مسند عثمان بن عفان .

١١ - مسند أنس بن مالك .

١٢ - مسند جابر بن عبد الله الأنصارى .

١٣ - مسند أبى سعيد الخدرى.

١٤ - مسند عبد الله بن عباس .

١٥ - مسند عبد الله بن عمر .

١٦ - مسند عبد الله بن عمرو .

١٧ - مسند عبد الله بن مسعود .

١٨ - مسند أبي هريرة .

١٩ - مسند عائشة رضى الله عنها .

٢٠- اختصار علوم الحديث . وقد شرحه الشيخ أحمد شاكر وأسماه " الباعث الحثيث ".

٢١ - الأحكام الصغرى فى الحديث .

٢٢ - تخريج أحاديث أدلة التنبيه فى فقه الشافعية .

٢٣ - تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب .

٢٤ - مختصر كتاب " المدخل إلى كتاب السنن " لأبى بكر البيهقى .

٢٥ - جزء فى حديث الصور .

٢٦ - جزء فى الرد على حديث السجل .

٢٧ - الأحكام الكبرى وهو كتاب فى الفقه .

٢٨ - كتاب الصيام .

٢٩ - أحكام التنبيه .

٣٠ - جزء فى الصلاة الوسطى .

٣١ - جزء فى ميراث الأبوين مع الأخوة .

٣٢ - جزء فى الذبيحة التى لم يذكر اسم الله عليها .

٣٣ - جزء فى الأحاديث الواردة فى فضل الأيام العشرة من ذى الحجة .

٣٤ - جزء فى الأحاديث الواردة فى قتل الكلاب .

٣٥ - جزء فى الأحاديث الواردة فى كفارة المجلس .

٣٦ - جزء فى الرد على كتاب رفع الجزية .

٣٧ - جزء فى تطهير المساجد .

٣٨ - جزء فى فضل يوم عرفة .

٣٩ - المقدمات وهو فى علم الأصول ، وقد أشار إليه فى تفسيره وفى " اختصار علوم الحديث " عند الكلام على الحديث المرسل .

٤٠ – البداية والنهاية وهو كتابنا هذا .

٤١ – الكواكب الدرارى ، وذكره صاحب " كشف الظنون " وبين أنه منتخب من كتابه " البداية والنهاية " .

٤٢ – جزء مفرد فى فتح القسطنطينية .

٤٣ – السيرة المطولة والموجزة أشار إليه ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٤٧٨) وقد طبع كتاب السيرة المختصر تحت عنوان " الفصول فى اختصار سيرة الرسول " .

٤٤ – جزء فى مولد النبى ﷺ.

٤٥ – سيره أبى بكر الصديق ، أشار إليه فى تفسيره (١ / ٢٢٥)

٤٦ – سيرة عمر بن الخطاب ، أشار إليه فى تفسيره (٤ / ١٦٧ و٤١٧) .

٤٧ – فضائل الشيخين وهما أبى بكر وعمر ، أشار إليه فى الفتن والملاحم .

٤٨ – طبقات الشافعية .

٤٩ – الواضح النفيس فى مناقب الإمام إدريس ، ذكر صاحب " كشف الظنون " وهو من الكتب المفقودة .

٥٠ – مناقب ابن تيمية ، أشار إليه فى البداية والنهاية .

٥١ – الاجتهاد فى طلب الجهاد ، وهو مطبوع ، نشر جمعية النشر والتأليف الأزهرية .

٥٢ – أحاديث التوحيد والرد على الشرك ، وهو مطبوع على هامش كتاب "جامع البيان" المعين بن شافع .

٥٣ – الأذكار وفضائل الأعمال .

٥٤– مقدمة فى الأنساب،أشار إليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾.

٥٥ – جزء فى دخول مؤمنى الجن الجنة ، أشار إليه فى تفسيره (٤ / ١٧١).

• تلامذته :

ذكر ابن العماد الحنبلى أن تلامذته كثيرة ، لكنه لم يذكر إلا ابن حجر علاء الدين حجى بن موسى الشافعى الذى وصف أستاذه ابن كثير بأنه " أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ، وما أعرف أنى اجتمعت به على كثرة ترددى إليه إلا واستفدت منه " [1].

---

(١) شذرات الذهب (٦ / ٢٣١) .

ويذكر السيوطي أن من تلاميذه محمد بن محمد بن خضر القرشي الذي ينتهي نسبه إلى عروة بن الزبير والمتوفى سنة ٨٠٨ هـ [١].

ويعد شرف الدين مسعود بن عمر الأنطاكي النحوي المتوفى سنة ٨١٥ هـ ، ممن تلقى العلم على يدي ابن كثير [٢].

ويذكر السخاوي في ضوئه أن ابن الجزري محمد بن محمد أبا الخير الدمشقي الذي انتهت إليه رئاسة علم القراءات قد تتلمذ على العماد ابن كثير .

وذكر في موضع آخر أن عبد الله بن عبد القادر أبا الكرم الشافعي المتوفى سنة ٨٣٣هـ ممن أجاز لهم ابن كثير .

ومن المعلوم أن ابنه « محمد » كان من تلامذته ، وقد تمكن من علم الحديث وصار يدرس فيه بعد وفاة أبيه في مشيخة أم صالح كما سبق أن ذكرنا .

وهناك كثيرون جلسوا بين يدي ابن كثير لم تعرف أسماؤهم ، ولم تمدنا كتب التراجم بشيء عن حياتهم ، يدل على ذلك كثرة دروس ابن كثير التي بلغت في سنة ٧٦٦ هـ أكثر من عشرة دروس يوميا في أماكن مختلفة كما ذكر هو في بدايته .

وفي درس التفسير الذي أنشأه منكلي بغا سنة ٧٦٧ هـ من أوقاف الجامع التف حول ابن كثير خمسة عشر طالبا من كل مذهب غير المعيدين . ولا تمدنا أيضاً كتب التراجم عن بعض هؤلاء ولا عن ذلك التلميذ الذي أكمل " البداية والنهاية " حتى سنة ٧٦٢ هـ بعد أن وقف فيه ابن كثير حتى سنة ٧٣٨ هـ .

***** وفاته :**

توفي ابن كثير – رحمه الله – في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ٧٧٤ هـ ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية . قال ابن ناصر : وكانت له جنازة حافلة مشهودة ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية خارج باب النصر من دمشق [٣].

* * * * *

(١) انظر بغية الوعاة : ٩٥ ، ٩٦ .
(٢) انظر شذرات الذهب (٧ / ١١٤) .
(٣) نقلاً عن عمدة التفسير (١ / ٣٤) .

* ***عملنا في الكتاب :***

١- ضبط الكتاب لغوياً ومراجعته على أكثر من مطبوعة .

٢- تخريج الآيات القرآنية من مصدرها .

٣- تخريج الأحاديث النبويه وبيان صحتها أو ضعفها .

٤- وضع مقدمة للكتاب مبيناً فيها ترجمة كاملة للمؤلف .

وأخيراً ندعو الله عز وجل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه ويعم به النفع للمسلمين جميعاً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المحققـون

أ / محمد بيومي **أ / عبد الله المنشاوي**

أ / محمد رضوان مهنا

البداية والنهاية

الجزء الأول

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنَ الرّحِيمِ

خطبة الكتاب

الحمد للّه الأول والآخر، الباطن الظاهر، الذي هو بكل شيء عليم، الأول فليس قبله شيء، الآخر فليس بعده شيء، الظاهر فليس فوقه شيء ، الباطن فليس دونه شيء، الأزلي القديم الذي لم يزل موجوداً بصفات الكمال، ولا يزال دائمًا مستمرا باقياً سرمدياً بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال. يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وعدد الرمال. وهو العلي الكبير المتعال، العلي العظيم الذي ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** ﴾ [الفرقان : ٢] .

و﴿ **رَفَعَ السَّمَوَات بِغَيْرِ عَمَد** ﴾ [الرعد : ٢]، وزينها بالكواكب الزاهرات، ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً** ﴾ [الفرقان : ٦١] وسوى فوقهن سريراً شرجعاً [١] عالياً منيفاً متسعاً مقبياً مستديراً. وهو العرش العظيم – له قوائم عظام، تحمله الملائكة الكرام، وتحفه الكروبيون عليهم الصلاة والسلام، ولهم زجل بالتقديس والتعظيم. وكذا أرجاء السَّمَوَات مشحونة بالملائكة، ويفد منهم فِي كل يوم سبعون ألفا إِلَى البيت المعمور بالسماء الرابعة لا يعودون إليه، هذا آخر مَا عليهم فِي تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم .

ووضع الأرض للأنام على تيار الماء ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** ﴾ [فصلت: ١٠] قبل خلق السماء، وأنبت فيها من كل زوجين اثنين دلالة للألباء من جميع مَا يحتاج العباد إليه فِي شتائهم وصيفهم، ولكل مَا يحتاجون إليه ويملكونه من حيوان بهيم .

﴿ **وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ** ﴾ [السجدة : ٧] ، و﴿ **ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ** ﴾ [السجدة : ٨]، فِي قرار مكين فجعله سميعاً بصيراً، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً. وشرفه بالعلم والتعليم. خلق بيده الكريمة آدم أبا البشر، وصور جثته ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وخلق منه زوجه حواء أم البشر فآنس بها وحدته، وأسكنهمَا جنّته، وأسبغ عليهمَا نعمته. ثم أهبطهمَا إِلَى الأرض لمَا سبق فِي ذلك من حكمة الحكيم: ﴿ **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً** ﴾ [النساء : ١] ، وقسمهم بقدرة العظيم ملوكاً ورعاة، وفقراءً وأغنياءً، وأحراراً وعبيداً، وحرائر وإماء. وأسكنهم أرجاء الأرض، طولها والعرض، وجعلهم خلائف فيها يخلف البعض منهم البعض، إِلَى يوم الحساب والعرض على العليم الحكيم. وسخر لهم الأنهار من سائر الأقطار، تشق الأقاليم إِلَى الأمصار، مَا بين صغار وكبار، على مقدار الحاجات والأوطار، وأنبع لهم العيون والآبار. وأرسل عليهم السحائب بالأمطار، فأنبت لهم سائر صنوف الزرع والثمار. وآتاهم من كل مَا سألوه بلسان حالهم وقال لهم : ﴿ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ ﴿ **إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] : فسبحان الكريم العظيم الحليم. وكان من أعظم

---

(١) الشرجع : الطويل . كما فى اللسان .

نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، بعد أن خلقهم ورزقهم ويسر لهم السبيل وأنطقهم، أن أرسل رسله إليهم، وأنزل كتبه عليهم مبينة حلاله وحرامه، وأخباره وأحكامه، وتفصيل كل شيء في المبدأ والمعاد إلى يوم القيامة .

فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم، والأوامر بالانقياد والنواهي بالتعظيم. ففاز بالنعيم المقيم، وزحزح عن مقام المكذبين في الجحيم ذات الزقوم والحميم، والعذاب الأليم.

أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه يملأ أرجاء السمٰوات والأرضين، دائمًا أبد الآبدين، ودهر الداهرين، إلى يوم الدين، في كل ساعة وآن ووقت وحين، كما ينبغي لجلاله العظيم، وسلطانه القديم ، ووجهه الكريم.

وأشهد أن لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له، ولا ولد له ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا نظير ، ولا وزير له ، ولا مشير له، ولا عديد ، ولا نديد ، ولا قسيم .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، المصطفى من خلاصة العرب العرباء من الصميم، خاتم الأنبياء، وصاحب الحوض الأكبر الرواء، صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة، وحامل اللواء الذي يبعثه اللّٰه المقام المحمود الذي يرغب إليه فيه الخلق كلهم حتى الخليل إبراهيم صلى اللّٰه عليه وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين وسلم وشرف وكرم أزكى صلاة وتسليم، وأعلى تشريف وتكريم. ورضي اللّٰه عن جميع أصحابه الغرّ الكرام، السادة النجباء الأعلام، خلاصة العالم بعد الأنبياء. مَا اختلط الظلام بالضياء، وأعلن الداعي بالنداء، ومَا نسخ النهار ظلام الليْل البهيم.

أمّا بعد : فهذا كتاب أذكر فيه بعون اللّٰه وحسن توفيقه مَا يسره اللّٰه تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات ؛ من خلق العرش والكرسي والسموات، والأرضين ومَا فيهن ومَا بينهن من الملائكة والجان والشياطين، وكيفية خلق آدم عليه السلام، وقصص النبيين، ومَا جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات اللّٰه وسلامه عليه. فنذكر سيرته كمَا ينبغي فتشفي الصدور والغليل، وتزيح الداء عن العليل.

ثم نذكر مَا بعد ذلك إلى زماننا، ونذكر الفتن ، والملاحم ، وأشراط الساعة، ثم البعث والنشور وأهوال القيامة . ثم صفة ذلك ومَا في ذلك اليوم، ومَا يقع فيه من الأمور الهائلة. ثم صفة النار، ثم صفة الجنان ومَا فيها من الخيرات الحسان، وغير ذلك ومَا يتعلق به، ومَا ورد في ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة المقبولة عند العلماء وورثة الأنبياء، الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

ولسنا نذكر من الإسرائيليات [1] إلا مَا أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب اللّٰه ، وسنة رسوله ﷺ وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب، مما فيه بسط لمختصر عندنا، أو

---

١) الإسرائيليات : أى الآثار والروايات الواردة فى كتب بنى إسرائيل ، وإسرائيل هو : نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام . وأغلب الإسرائيليات مأخوذة من كتب اليهود والقليل منها=

تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه. وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ ، مَا صح نقله أو حسن ومَا كان فيه ضعف نبينه. وبالله المستعان وعليه التكلان.ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم العلي العظيم.

فقد قال الله تعالى في كتابه : ﴿ **كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَد آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً** ﴾ [طه : ٩٩] وقد قص الله على نبيه ﷺ خبر مَا مضى من خلق المخلوقات، وذكر الأمم الماضين، وكيف فعل بأوليائه، وماذا أحل بأعدائه. وبين ذلك رسول الله ﷺ لأمته بياناً شافياً، سنورد عند كل فصل مَا وصل إلينا عنه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ من ذلك تلو الآيات الواردات في ذلك فأخبرنا بمَا نحتاج إليه من ذلك، وترك مَا لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ، ويتراجم في فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس إليه.وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ، ولسنا نحذو حذوهم ، ولا ننحو نحوهم ، ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار.ونبيّن مَا فيه حق مما وافق مَا عندنا،ومَا خالفه فوقع فيه الإنكار .

فأمَا الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **بَلِّغُوا عَنِّي ولو آيَةً، وحَدِّثُوا عَن بني إسْرَائيلَ ولاحَرَجَ، وحَدِّثُوا عنّي ولا تَكْذِبُوا عَلَيَّ ومَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ** »[١] فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا. فليس عندنا مَا يصدقها ولا مَا يكذبها، فيجوز روايتها للاعتبار. وهذا هو الذي نستعمله في كتابنا هذا ، فأمَا مَا شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بمَا عندنا. ومَا شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال ، فإذا كان الله سبحانه وله الحمد، قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع ، وبكتابه عن سائر الكتب، فلسنا نترامى على مَا بأيديهم مما وقع فيه خبط وخلط، وكذب ووضع، وتحريف وتبديل، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير .

فالمحتاج إليه قد بينه لنا رسولنا، وشرحه وأوضحه. عرفه من عرفه، وجهله من جهله. كمَا قال علي بن أبي طالب: كتاب الله فيه خبر مَا قبلكم ونبأ مَا بعدكم، وحكم مَا بينكم وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله[٢] وقال أبو ذر، رضي الله عنه : لقد توفي رسول الله ﷺ ومَا طائر يطير بجناحيه إلا أذْكَرَنَا منه علْمًا .

= من كتب النصارى ؛ لأن المروى عن موسى أكثر عدداً من المروى عن عيسى ، وكان اليهود كثيراً بالمدينة فى العهد النبوى .

(١) رواه البخارى (٣٤٦١) كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل .

(٢) رواه الدارمى (٣٣٣١) .

وقال البخارى فى كتاب بدء الخلق ، وروى عن عيسى بن موسى غنجار عن رقية عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب : قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قام فينا رسول الله ﷺ مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه، قال أبو مسعود الدمشقى فى أطرافه : هكذا قال البخارى ، وإنما رواه عيسى غنجار عن أبى حمزة عن رقية .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللَّه فِي مسنده: حدثنا أبو عاصم حدثنا عزرة بن ثابت، حدثنا علباء بن أحمر اليشكري: حدثنا أبو زيد الأنصاري، قال: « صلى بنا رسول اللَّه ﷺ صلاة الصبح ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى الظهر. ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر،ثم نزل فصلى العصر.ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشَّمْس فحدثنا بمَا كان، ومَا هو كائن فأعلمنا أحفظنا »[1].

انفرد بإخراجه مسلم فرواه فى كتاب الفتن من صحيحه عن يعقوب بن إبراهيم الدورقى، وحجاج بن الشاعر ، جميعاً عن أبى عاصم الضحاك بن مخلد النبيل عن عزرة عن علباء عن أبى زيد عمرو بن أخطب بن رفاعة الأنصارى رضى الله عنه عن النبى ﷺ بنحوه .

فصل فِي قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ..﴾

قال اللَّه تعالى فِي كتابه العزيز : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢] فكل مَا سواه تعالى فهو مخلوق له، مربوب مدبَّر، مكوَّن بعد أن لم يكُن محدث بعد عدمه. فالعرش الذي هو سقف المخلوقات إِلَى مَا تحت الثرى، ومَا بين ذلك من جامد وناطق، الجميع خلقه، وملكه وعبيده وتحت قهره وقدرته، وتحت تصريفه ومشيئته ﴿ هو الَّذي خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءَ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد :٤].

وقد أجمع العلماء قاطبة لا يشك فِي ذلك مسلم أن اللَّه خلق السَّمَوَات والأرض، ومَا بينهمَا فِي ستة أيام كمَا دل عليه القرآن الكريم. فاختلفوا فِي هذه الأيام أهي كأيامنا هذه أو كل يوم كألف سنة ممَا تعدون ؟ على قولين كمَا بينا ذلك فِي التفسير، وسنتعرض لإيراده فِي موضعه. واختلفوا هل كان قبل خلق السَّمَوَات والأرض شيء مخلوق قبلهما. فذهب طوائف من المتكلمين إِلَى أنه لم يكن قبلهمَا شيء وأنهمَا خلقتا من العدم المحض. وقال آخرون بل كان قبل السَّمَوَات والأرض مخلوقات أخر لقوله : ﴿ وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ﴾ [هود : ٧] الآية.وفي حديث عمران بن حصين كمَا سيأتِي « كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ شَيْءٌ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ »[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٩٢) .

(٢) رواه البخارى (٣١٩١)كتاب بدء الخلق، باب ما جاء فى قوله تعالى ﴿وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده﴾.

وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو يعلى بن عطاء عن وكيع بن حُدس عن عمه أبي رُزَين - لقيط بن عامر العقيلي - أنه قال : يا رسول اللّه أين كان ربنا قبل أن يخلق السَّمَوَات والأرض ؟ قال :« **كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى المَاءِ** » [(١)].

ورواه عن يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة به، ولفظه « **أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟** » وباقيه سواء ، وأخرجه الترمذي عن أحمد بن منيع وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن الصباح ثلاثتهم عن يزيد بن هارون، وقال الترمذي : حسن. واختلف هؤلاء في أيها خلق أولا ؟ فقال قائلون : خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها، وهذا هو اختيار ابن جرير، وابن الجوزي، وغيرهما . قال ابن جرير : وبعد القلم السحاب الرقيق. واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إنّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللّهُ القَلمَ. ثُمّ قال لَه : اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تلك السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ** »[(٢)] لفظ أحمد. وقال الترمذي : حسن صحيح غريب. والذي عليه الجمهور فيمَا نقله الحافظ أبـــو العلاء الهمداني وغيره : "أن العرش مخلوق قبل ذلك " . وهذا هو الذي رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس كمَا دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، حيث قال : حدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح ، حدثنا ابن وهب : أخبرني أبو هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **كَتَبَ اللّه مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخلقَ السَّمَوَات والأَرْضَ بِخَمْسِينَ ألفَ سَنَة، قال وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ** » [(٣)] قالوا : فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير. وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش . فثبت تقدم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كمَا ذهب إِلَى ذلك الجمهور. ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم. ويؤيد هذا مَا رواه البخاري عن عمران بن حصين قال : قال أهل اليمن لرسول اللّه ﷺ : جئناك لنتفقه في الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ، فقال :« **كَانَ اللّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ** » وفي رواية « **معه** » وفي رواية « **غيره** » ، « **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ. وَكَتَبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شَيْءٍ وخَلَقَ السَّمَوَات والأَرْضَ** » و في لفظ : « **ثم خلق السَّمَوَات والأرض** » . فسألوه عن ابتداء خلق السَّمَوَات والأرض. ولهذا قالوا : جئناك نسألك عن أول هذا الأمر ، فأجابهم عمَا سألوا فقط. ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كمَا أخبر به في حديث أبي رزين المتقدم.

---

(١) **ضعيف** : رواه الترمذى (٣١٠٩) وابن ماجه (١٨٢) وأحمد (١٦١٨٨) وفى سنده وكيع بن حُدُس مقبول كما فى " التقريب " (٣٣١/٢) .

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذى (٢١٥٥) وأحمد (٢٢٧٦٨) .

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٣ / ١٦) .

قال ابن جرير : وقال آخرون " : بل خلق اللّٰه عز وجل الماء قبل العرش " رواه السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول اللّٰه ﷺ قالوا : إن اللّٰه كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير مَا خلق قبل الماء . وحكى ابن جرير عن محمد بن إسحاق أنه قال : أول مَا خلق اللّٰه عزّ وجلّ النور والظُّلمة ثم ميز بينهمَا فجعل الظُّلمة ليلا أسود مظلما، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً . قال ابن جرير وقد قيل " إن الذي خلق ربُّنا بعد القلم الكرسيَّ. ثم خلق بعد الكرسيِّ العرشَ. ثم خلق بعد ذلك الهواءَ والظُّلمةَ. ثم خلق الماءَ فوضع عرشَه على الماءِ " واللّٰه سبحانه وتعالى أعلم .

فصل فيمَا ورد في صفة خلق العرش والكرسي

قال اللّٰه تعالى :﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ [غافر : ١٥] .

وقال تعالى:﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦]

وقال اللّٰه : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٦] .

وقال : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ . ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [البروج : ١٤، ١٥] .

وقال تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] .

وقال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يونس : ٣] .

في غير مَا آية من القرآن، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥] .

وفي الدعاء المروي في الصحيح في دعاء الكرب « لا إله إلا اللّٰه العظيم الحليم. لا إله إلا اللّٰه رب العرش الكريم. لا إله إلا اللّٰه رب السَّمَوَات ورب الأرض رب العرش الكريم ». وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد حدثني سماك بن حرب عن عبد اللّٰه بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن عباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوساً مع رسول اللّٰه ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول اللّٰه ﷺ : « أتَدرُون مَا هذا؟ » قال: قلنا السحاب. قال: « والمزن » قال : قلنا: والمزن .قال : « والعَنَان » . قال : فسكتنا ، فقال: « هل تدرون كَمْ بين السماء والأرض ؟ » . قال : قلنا : اللّٰه ورسوله أعلم. قال : « بينهمَا مَسيرة خمسمائة سَنَة ومن كل سماء إلى سماء مَسيرة خمسمائة سَنَة، وكشفُ [1] كلّ سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وفوقَ السماءِ

(١) كذا بالأصل . والصواب كثف كل سماء بالثاء المثلثة .

السابعة بَحْر بين أسفله وأعلاه كمَا بين السماء والأرض. ثم فوق ذلك ثمانية أوْعَالٍ بين رُكَبهن وأظْلافِهن كمَا بين السماء والأرض ، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعْلاه كمَا بين السماء والأرض واللَّه فوق ذلك ، وليس يَخفى عليه من أعمال بَنِي آدم شيء »[1] هذا لفظ الإمام أحمد. ورواه أبو داود وابن ماجه والترمذي من حديث سماك بإسناده نحوه. وقال الترمذي : هذا حديث حسن، وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك، ووقفه، ولفظ أبي داود : « وهل تدرون بُعد مَا بين السماء والأرض؟ » قالوا : لا ندري . قال : « بُعْدَ مَا بينهمَا إمَا واحدة أو اثنتَيْن أو ثلاثة وسبعون سنة » ، والباقي نحوه. وقال أبو داود : حدثنا عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار، وأحمد بن سعيد الرباطي. قالوا : حدثنا وهب بن جرير. قال أحمد : كتبناه من نسخته وهذا لفظه . قال : حدثنا أبي قال: سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن يعقوب بن عقبة عن جُبَيْر بن محمد بن جُبَيْر بن مطعم عن أبيه عن جده . قال : أتى رسول اللَّه ﷺ أعرابي ، فقال : يارسول اللَّه جُهِدت الأنفُسُ ، وجَاعَت العيالُ ، ونُهِكَت الأموالُ ، وهَلَكت الأنعامُ. فاسْتَسق اللَّهَ لنا فإنَّا نستَشفع بك على اللَّه ونستشفع باللَّه عليكَ، قال رسول اللَّه ﷺ : « ويْحَكَ أتدري مَا تقَول » ؟ وسبح رسول اللَّه ﷺ فمَا زال يسبح حتى عرف ذلك فِي وجوه أصحابه. ثم قال : « ويْحَك إنَّه لا يُسْتشفَع باللَّه على أحد من خلقه شأن اللَّه أعظم من ذلكَ ، ويحك أتدري مَا اللَّه ؟ إن عرشه على سَمواته لَهكذا– وقال: بأصابعه مثل القُبَّة عليه– وإنه لَيئط به أطِيطَ[2] الرَّحل بالرَّاكب »[3] قال ابن بشار فِي حديثه : « إن اللَّه فوق عرشه وعرشه فوق سمواته » وساق الحديث.

وقال عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب بن عقبة وجُبير بن محمد بن جُبير عن أبيه عن جده ، قال أبو داود والحديث بإسناد أحمد بن سعيد وهو الصحيح. وافقه عليه جماعة منهم يحيى بن مَعين وعلي بن المديني ، ورواه جماعة منهم عن ابن إسحاق كمَا قال أحمد أيضاً، وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار فِي نسخة واحدة فيمَا بلغني. تفرد بإخراجها أبو داود.

وقد صنف الحافظ أبو القاسم ابن عساكر الدمشقي جزء فِي الرد على هذا الحديث. سماه " بيان الوهم والتخليط الواقع فِي حديث الأطيط " ، واستفرغ وسعه فِي الطعن علي محمد بن إسحاق بن بشار راويه. وذكر كلام الناس فيه، ولكن قد روي هذا اللفظ من طريق أخرى عن

---

(١) **ضعيف** : رواه أبو داود (٤٧٢٣) وابن ماجه (١٩٣) وأحمد(١٧٧٠)وابن خزيمة فى "التوحيد"(٦٨) والآجرى فى " الشريعة " (١ / ٢٩٢) ، وفى سنده يحيى بن العلاء وهو متهم بالوضع كما فى " التقريب " (٢/ ٣٥٥) ، وعبد الله بن عميرة ، قال الذهبى: فيه جهالة، قال البخارى: لا يعرف له سماع من الأحنف بن قيس .

(٢) يئط : يصيح ، والأطيط : صوت الإبل من ثقلتها .

(٣) رواه أبو داود (٤٧٢٦) وابن خزيمة فى " التوحيد " (ص٦٩) والآجرى فى "الشريعة" (١ / ٢٩٣) وابن أبي عاصم فى "السنة" (٥٧٥) وفى سنده ابن إسحاق وهو مدلس ، قال الألبانى : ومثله لا يحتج به إلا إذا صرح بالتحديث ، وهذا ما لم يفعله فى ما وقفت عليه الطرق إليه ، وبذلك استغربه الحافظ ابن كثير فى تفسير آية الكرسى من "تفسيره" وانظر"ظلال الجنة" للألبانى (٢٥٢/١).

غير محمد بن إسحاق، فرواه عبد بن حُمَيد وابن جرير فِي تفسيريهما، وابن أبي عاصم والطبراني فِي كتابي السنة لهمَا ، والبزار فِي مسنده والحافظ الضياء المقدسي فِي مختاراته من طريق أبي إسحاق السبيعي عن عبد اللَّه بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قال : أتت امرأة إِلَى رسول اللَّه ﷺ فقالت : ادع اللَّه أن يدخلني الجنة قال : فعظم الربَّ تبارك وتعالى ، وقال: « إن كرسيه وسع السَّمَوَات والأرض وإن له أطيطا كأطيط الرحْلِ الجديد من ثقله » . عبد اللَّه بن خليفة هذا ليس بذاك المشهور. وفِي سماعه من عمر نظر. ثم منهم من يرويه موقوفا ومرسلا، ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة واللَّه أعلم .

وثبت فِي صحيح البخاري عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **إذا سألتم اللَّه الجنة فسَلوه الفِردوسَ فإنه أعْلَى الجنة وأوسط الجنة وفوقَه عرش الرحمن** »[1] ، ويروى وفوقه بالفتح على الظرفية، وبالضم. قال شيخنا الحافظ المزي : وهو أحسن، أي وأعلاها عرش الرحمن. وقد جاء فِي بعض الآثار أن أهل الفردوس يسمعون أطيطَ العرش وهو تسبيحه وتعظيمه ومَا ذاك إلا لقربهم منه. وفِي الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ قالَ : « **لقد اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن مُعَاذ** »[2]. وذكر الحافظ ابن الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة فِي كتاب " صفة العرش عن بعض السلف " : أن العرش مخلوق من ياقُوتَة حمراء ، بُعد مَا بين قطريه مَسيرة خمسين ألف سنة . وذكرنا عند قوله تعالى : ﴿**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج : ٤] أنه بعد مَا بين العرش إِلَى الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة ، واتساعه خمسون ألف سنة. وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إِلَى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ولذا سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس والأثير. وهذا ليس بجيد لأنه قد ثبت فِي الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل ، وأيضا فإنه فوق الجنة والجنة فوق السَّمَوَات ، وفيها مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فالبعد الذي بينه وبين الكرسي ليس هو نسبة فلك إِلَى فلك. وأيضا فإن العرش فِي اللغة عبارة عن السرير الذي للملك كمَا قال تعالى : ﴿ **وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾ [النمل : ٢٣] . وليس هو فلكا ولا تفهم منه العرب ذلك. والقرآن إنمَا نزل بلغة العرب ، فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات. قال اللَّه تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً**﴾ [غافر : ٧] وقد تقدم فِي حديث الأوعال أنهم ثمانية، وفوق ظهورهن العرش، وقال تعالى :﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴾ [الحاقة : ١٧] .

وقال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حِلمك بعد عِلمك ، وأربعة يقولون: سبحانك اللَّهم وبحمدك لك

---

(١) رواه البخارى (٧٤٢٣) كتاب التوحيد، باب ﴿ **وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم** ﴾.
(٢) رواه مسلم (٢٤٦٦ / ١٢٣) .

الحمد على عَفوك بعد قُدرتك . فأمَا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا عبد اللّه بن محمد وهو أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عقبة عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ صدق أمية- يعني - ابن أبي الصلت فِي بيتين من شعره فقال :

رَجُلُ وثـــورُ تحـتَ رجـل يمينـه   والنسْـرُ للأخـرى وليـثُ مرصـد

فقال رسول اللّه ﷺ: «صدق»، فقال:

والشَّمْسُ تطلـعُ كلَّ آخـرِ ليلـة   حمـراءَ مطلـعُ لونُها مُتَـوَرِّدُ
تَأْبـى فـلا تبدو لنـا فِي رِسْلِهـا   إلا مُعَـذَّبَـةً وإلا تَجْـلَـدُ

فقال رسول اللّه ﷺ : « صَدَق » [1] . فإنه حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات. وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة، فيعارضه حديث الأوعال. اللهم إلا أن يقال إن إثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لا ينفِي مَا عداهم، واللّه أعلم.

ومن شعر أمية بن أبي الصلت فِي العرش قوله :

مجّدوا اللّـهَ فهـو للمجـدِ أهـلُ   ربُّنا فِي السمـاءِ أمْسَـى كبيـرا
بالبناءِ العالـي الـذي بَهَـر النـا   سَ وسوّى فوقَ السمـاءِ سريـرًا
شَرْجعـاً لا ينالـه بَصَـرُ الـعيـ   ـنِ ترى حوله الملائـكَ صـورا

صُوَر جمع أَصْور وهو : المائل العنق لنظره إِلَى العلو، والشَّرجَع هو العالي المنيف والسرير هو العرش فِي اللغة.

ومن شعر عبد اللّه بن رواحة رضي اللّه عنه الذي عرّض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته

شهـدتُ بـأنّ وعدَ اللّه حقٌّ   وأنّ النارَ مَثْوَى الكْافرينَـا
وأنّ العرشَ فَوْقَ الماءِ طـاف   وَفوْقَ العرش ربُّ العالَمينـاَ
وتَحْمِلُـه ملائكـةٌ كـرِامٌ   مَـلائِكَـةُ الإله مُسوَّمِيناَ

ذكره ابن عبد البر وغير واحد من الأئمة . وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن حفص بن عبد اللّه حدثني أبي حدثنا إبراهيم بن طَهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر ابن عبد اللّه أن النبي ﷺ قال : « أُذِنَ لي أن أحدِّثَ عن مَلَك من ملائكة اللّه عزّ [illegible] العرش أن مَا بين شَحْمة أُذُنه إِلَى عاتِقه مَسيرة سَبعمائة عامٍ» [2].ورواه ابن أبي عاصم ولفظه محقق [3] الطير مسيرة سبعمائة عام .

---

(١) [illegible] : رواه أحمد (١ / ٢٥٦) رقم (٢٣١٤) .
(٢) : رواه أبو داود (٤٧٢٧) .
(٣) كذا بالأصول محقق الطير ، والصواب : مخفق الطير .

وأمّا الكرسيّ

فروى ابن جَرير من طريق جُوَيْبر ، وهو ضعيف عن الحسن البصري ، أنه كان يقول : الكرسي هو العرش ، وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه ، وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره ، وعن ابن عباس ، وسعيد بن جُبَيْر أنهمَا قالا في قوله تعالى: ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾ : [البقرة : ٢٥٥] أيْ علمه والمحفوظ عن ابن عباس كمَا رواه الحاكم في مستدركه. وقال : إنه على شرط الشيخيْن ، ولم يخرجاه من طريق سفيان الثوري عن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعيد ابن جُبير عن ابن عباس أنه قال : الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله عزّ وجلّ . وقد رواه شجاع بن مخلد الفلاس في تفسيره عن أبي عاصم النبيل عن الثوري فجعله مرفوعا ، والصواب أنه موقوف على ابن عباس وحكاه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري والضحاك بن مزاحم ، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير ، ومسلم البطين ، وقال السدي عن أبي مالك : الكرسي تحت العرش وقال السدي : السَّمَوَات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش ، وروى ابن جرير ، وابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال : لو أن السَّمَوَات السبع والأرَضِينَ السبع بُسِطْن ، ثم وُصِلْنَ بَعضهن إلَى بَعض مَا كنَّ في سَعَة الكرسي إلا بمنـــزلة الحلقة في المَفَازة .

وقال ابن جرير : حدثني يونس حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : حدثني أبي ، قال : قال رسول الله ﷺ: « **مَا السَّمَوَات السبع في الكرسيّ إلا كَدَرَاهِمَ سبعة أُلقيت في تُرْس** » . قال : وقال أبو ذرٍّ : سمعت رسول الله ﷺ يقولُ : « **مَا الكرسيُّ في العرش إلا كَحَلقة من حديد أُلقيت بين ظَهرَيْ فَلاةٍ من الأرض** » أول الحديث مرسل، وعن أبي ذر منقطع. وقد روي عنه من طريق أخرى موصولًا ، فقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه في تفسيره : أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني، أنبأنا عبد الله بن وهيب المغربيّ أنبأنا محمد بن أبي سري العسقلاني أنبأنا محمد بن عبد الله التميمي عن القاسم بن محمد الثقفي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري ، أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسيّ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **والذي نفسي بيده مَا السَّمَوَات السبعُ والأرَضُون السبعُ عند الكرسيّ إلا كحلَقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على تلك الحلَقة** » .

وقال ابن جرير في تاريخه : حدثنا ابن وكيع قال : حدثنا أبي عن سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جُبير قال : سئل ابن عباس عن قوله عزّ وجلّ ﴿ **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ** ﴾ على أي شيء كان الماء قال : على متن الريح . قال : والسَّمَوَات والأرضون وكل مَا فيهن من شيء تحيط بها البحار ويحيط بذلك كله الهيكل ويحيط بالهيكل فيمَا قيل الكرسي. وروي عن وهب بن منبه نحوه. وفسر وهب الهيكل فقال : شيء من أطراف السَّمَوَات يحـــدق

بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط [١] . وقد زعم بعض من ينتسب إِلَى علم الهيئة أن الكرسي عبارة عن الفلك الثامن الذي يسمونه فلك الكواكب الثوابت. وفيمَا زعموه نظر لأنه قد ثبت أنه أعظم من السَّمَوَات السبع بشيء كثير ، ورد الحديث المتقدم بأن نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة ، وهذا ليس نسبة فلك إِلَى فلك. فإن قال قائلهم فنحن نعترف بذلك ، ونسميه مع ذلك فلكا ، فنقول الكرسي ليس فِي اللغة عبارة عن الفلك ، وإنمَا هو كمَا قال غير واحد من السلف بين يدي العرش كالمرقاة إليه. ومثل هذا لا يكون فلكا. وزَعم أن الكواكب الثوابت مرصعة فيه لا دليل لهم عليه. هذا مع اختلافهم فِي ذلك أيضا كمَا هو مقرر فِي كتبهم والله أعلم .

ذكر اللوح المحفوظ

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث عن عبد الملك بن سعيد بن جُبير عن أبيه عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال : « إن الله خلق لَوحا محفوظا من دُرَّة بيْضَاء صَفَحَاتها من يَاقُوتة حمراء، قَلَمُه نور وكِتَابه نور لله فيه فِي كل يوم ستُّون وثَلثُمائة لَحظة يَخْلق ويَرْزق ويُمِيت ويحيى ويُعِزُّ ويُذِلُّ ويفعل مَا يشاء » [٢] ، وقال إسحاق بن بشر : أخبرني مقاتل، وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن فِي صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله. فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة . قال: واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء. طوله مَا بين السماء والأرض، وعرضه مَا بين المشرق والمغرب. وحافتاه الدر والياقوت ودَفَّتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه معقود بالعرش، وأصله فِي حجر ملك

وقال أنس بن مالك، وغيره من السلف : اللوح المحفوظ فِي جبهة إسرافيل . وقال مقاتل: هو عن يمين العرش .

مَا ورَد فِي خلق السَّمَوَات والأرض ومَا بينهما

قال الله تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ للّه الّذي خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ . [الأنعام : ١] وقال تعالى :﴿ **الَّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

فِي غير مَا آية من القرآن ، وقد اختلف المفسرون فِي مقدار هذه الستة الأيام على قولين. فالجمهور على أنها كأيامنا هذه. وعن ابن عباس، ومجاهد والضحاك، وكعب الأحبار : إن كل

---

(١) أطناب الفسطاط : حبال طويلة تشد بها سرادق البيوت .

(٢) **ضعيف** : فى سنده زياد بن عبد الله البكائى . قال الحافظ : فى حديثه عن غير ابن إسحاق لين كما فى "التقريب" (٢٦٨/١) وليث بن أبى سليم اختلط أخيراً و لم يتميز حديثه فترك كما فى "التقريب"(١٣/٢).

يوم منها كألف سنة مَمّا تعدون. رواهن ابن جرير، وابن أبي حاتم. واختار هذا القول الإمام أحمد بن حنبل في كتابه الذي رد فيه على الجهمية، وابن جرير وطائفة من المتأخرين والله أعلم. وسيأتي مَا يدل على هذا القول. وروى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم، وغيره أن أسماء الأيام الستة : « أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت » . وحكى ابن جرير في أول الأيام ثلاثة أقوال، فروى عن محمد بن إسحاق أنه قال : يقول أهل التوراة: ابتدأ الله الخلق يوم الأحد، ويقول أهل الإنجيل: ابتدأ الله الخلق يوم الإثنين، ونقول نحن المسلمون فيمَا انتهى إلينا عن رسول الله ﷺ ابتدأ الله الخلق يوم السبت وهذا القول الذي حكاه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية، وغيرهم. وسيأتي فيه حديث أبي هريرة « **خلق الله التُّربَةَ يوم السبت** » والقول بأنه الأحد رواه ابن جرير عن السدي عن أبي مالك، وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن جماعة من الصحابة ، ورواه أيضا عن عبد الله بن سلام، واختاره ابن جرير. وهو نص التوراة، ومال إليه طائفة آخرون من الفقهاء. وهو أشبه بلفظ الأحد، ولهذا كمل الخلق في ستة أيام فكان آخرهن الجمعة، فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع وهو اليوم الذي أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا كمَا سيأتي بيانه إن شاء الله. وقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : ٢٩] .

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ و هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ** ﴾ [فصلت : ٩-١٢] .

فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء كمَا قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ** ﴾ [غافر :٦٤] قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً وَالجِبَالَ أَوْتَاداً** ﴾ [النبأ : ٦،٧] .

إِلَى أن قال :﴿ **وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً** ﴾ [النبأ : ١٢،١٣]

وقال ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠]

أي فصلنا مَا بين السماء والأرض حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار وجرت العيون، والأنهار وانتعش الحيوان. ثم قال : ﴿ **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٣٢] أي عمَا خلق فيها من الكواكب الثوابت، والسيارات والنجوم الزاهرات

والأجرام النيرات، ومَا فِي ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسَّمَوَات كمَا قال تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّنْ منْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٥،١٠٦] فأمَا قوله تعالى : ﴿ **أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ** ﴾ [النازعات : ٢٧-٣٣] فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض. فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين ولم يفهموا هذه الآية الكريمة فإن مقتضى هذه الآية أن دَحْيَ الأرض وإخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء . وقد كان ذلك مقدرا فيها بالقوة كمَا قال تعالى : ﴿**وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا**﴾ [فصلت: ١٠] أي هيأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار ثم لَما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحى الأرض فأخرج منها مَا كان مودعاً فيها فخرجت العيون وجرت الأنهار، ونبت الزرع والثمار، ولهذا فسر الدحي بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال فقال : ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا**﴾ [النازعات: ٣٠ ، ٣١] وقوله : ﴿ **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** ﴾ [النازعات : ٣٢] أي قررها فِي أماكنها التي وضعها فيها وثبتها وأكدها وأطدها ، وقوله : ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بأيْد وَإنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ . وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الذاريات: ٤٧- ٤٩]: بأيد أي بقوة. وإنا لموسعون، وذلك أن كل مَا علا اتسع فكل سماء أعلى من التي تحتها فهي أوسع منها. ولهذا كان الكرسي أعلى من السموات. وهو أوسع منهن كلهن. والعرش أعظم من ذلك كله بكثير. وقوله بعد هذا ﴿ **وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا** ﴾ [الذاريات:٤٨] أي بسطناها وجعلناها مهدا أي قارة ساكنة غير مضطربة ولا مائدة بكم. ولهذا قال: ﴿**فَنِعْمَ المَاهِدُونَ**﴾ [الذاريات:٤٨] والواو لا يقتضي الترتيب فِي الوقوع. وإنَما يقتضي الإخبار المطلق فِي اللغة واللّه أعلم.

وقال البخاري: حدثنا عمر بن جعفر بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا جامع بن شداد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن حصين قال : دخلت على النبيﷺ ، وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم، فقال :«**اقبلوا البشرى يا بني تميم** ». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا مرتين ثم دخل عليه ناس من اليمن، فقال : «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إن لم يقبلها بنو تميم** ». قالوا: قد قبلنا يا رسول اللّه. قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر. قال: «**كان اللّه ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب فِي الذكر كل شيء وخلق السَّمَوَات والأرض** » . فنادى مناد ذهبت ناقتك يابن الحصين فانطلقت، فإذا هي تقطع دونها السراب فواللّه لوددت أني كنت تركتها [١]. هكذا رواه هاهنا، وقد رواه فِي كتاب المغازي، وكتاب التوحيد وفِي بعض ألفاظه

---

(١) رواه البخارى (٣١٩١) كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى قول الله تعالى ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ .

« **ثم خلق السَّمَوَات والأرض** »[١] وهو لفظ النسائي أيضا. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا حجاج حدثني ابن جريج أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد اللّه بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال : أخذ رسول اللّه ﷺ بيدي، فقال :« **خلق اللّه التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة فِي آخر الخلق، خلق فِي آخر ساعة من ساعات الجمعة فيمَا بين العصر إِلَى اللَّيْل** »[٢] . وهكذا رواه مسلم عن سريج بن يونس وهارون ابن عبد اللّه والنسائي عن هارون ويوسف بن سعيد ثلاثتهم عن حجاج بن محمد المصيصي الأعور عن ابن جريج به مثله سواء .

وقد رواه النسائي فِي التفسير عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني عن محمد بن الصباح عن أبي عبيدة الحداد عن الأخضر بن عجلان عن ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة أنَّ رسول اللّه ﷺ أخذ بيدي فقال : « **يا أبا هريرة إن اللّه خلق السَّمَوَات والأرض، ومَا بينهمَا فِي ستة أيام ثم استوى على العَرش يوم السابع، وخلق التُّربة يوم السبت** »، وذكر تمامه بنحوه فقد اختلف فيه على ابن جريج، وقد تكلم فِي هذا الحديث علي بن المديني، والبخاري والبيهقي، وغيرهم من الحفاظ. قال البخاري : فِي التاريخ وقال بعضهم عن كعب وهو أصح. يعني أن هذا الحديث ممَا سمعه أبو هريرة وتلقاه من كعب الأحبار، فإنهمَا كانا يصطحبان، ويتجالسان للحديث، فهذا يحدثه عن صحفه، وهذا يحدثه بمَا يصدقه عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديث ممَا تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعا إِلَى النبي ﷺ، وأكد رفعه بقوله : « أخذ رسول اللّه ﷺ بيدي »، ثم فِي متنه غرابة شديدة. فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات، وفيه ذكر خلق الأرض ومَا فيها فِي سبعة أيام.

وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت فِي أربعة أيام، ثم خلقت السَّمَوَات فِي يومين من دخان. وهو بخار الماء الذي ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من ربذة الأرض بالقدرة العظيمة البالغة كمَا قال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير فِي خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ** ﴾ [البقرة:٢٩] قال: إنَّ اللّه كان عرشه علَى الماء، ولم يخلق شيئاً ممَا خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا، فارتفع فوق الماء فسمَا عليه فسماه سماء. ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعل سبع أرضين فِي يومين ، الأحد والإثنين وخلق الأرض على حوت وهو النون الذي قال اللّه تعالى: ﴿ **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ [القلم:١] والحوت فِي الماء، والماء

---

(١) رواه البخارى (٧٤١٨) كتاب التوحيد ، باب : ﴿ **وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم** ﴾ .
(٢) رواه مسلم (٢٧٨٩ / ٢٧) .

على صفات، والصفات على ظهر مَلك، والمَلك على صخرة، والصخرة، في الريح. وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض فتحرك الحوت، فاضطرب فتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقرَّت. وخلق اللّه يوم الثلاثاء الجبال، ومَا فيهن من المنافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، وفتق السماء، وكانت رتقا فجعلها سبع سموات في يومين: الخميس والجمعة. وإنّمَا سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السَّمَوَات والأرض، وأوحى في كل سماء أمرها. ثم قال: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد ومَا لا يعلمه غيره. ثم زين السماء بالكواكب فجعلها زينة وحفظا يحفظ من الشياطين، فلما فرغ من خلق مَا أحب استوى على العرش. هذا الإسناد يذكر به السدي أشياء كثيرة فيها غرابة، وكان كثير منها متلقى من الإسرائيليات. فإن كعب الأحبار لَمَا أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه بأشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفاً له، وتعجباً مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر، فاستجاز كثير من الناس نقل مَا يورده كعب الأحبار لهذا، ولَمَا جاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل ، لكنَّ كثيرا مَا يقع مما يرويه غلط كبير وخطأ كثير.

وقد روى البخاري في صحيحه عن معاوية: أنه كان يقول في كعب الأحبار: « وإن كنا مع ذلك لَنَبلو عليه الكذب » [١] أي فيمَا ينقله لا أنه يتعمد ذلك واللّه أعلم.

ونحن نورد مَا نورده من الذي يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين عنهم . ثم نتبع ذلك من الأحاديث بمَا يشهد له بالصحة أو يكذبه ويبقى الباقي مما لا يصدق ولا يكذب وبه المستعان وعليه التُّكلان .

قال البخاري : حدثنا قتيبة حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **لَمّا قَضَى اللّهُ الخلقَ كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إنّ رحمتي غَلبت غَضَبي** » [٢] وكذا رواه مسلم والنسائي عن قتيبة به ثم قال البخاري .

مَا جَاء في سبع أرضين

وقوله تعالى : ﴿ **اللّهُ الّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوات وَمنَ الأَرْض مثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْء قَديرٌ وَأنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بكُلّ شَيْء علْمًا** ﴾ [الطلاق:١٢] ثم قال: حدثنا علي بن عبد اللّه أخبرنا ابن عُلية عن علي بن المبارك حدثنا يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وكانت بينه وبين ناس خصومة في أرض فدخل على عائشة، فذكر لها ذلك. فقالت : يا أبا سلمة اجتنب الأرض فإن رسول اللّه ﷺ قال: « **من ظَلم**

---

(١) رواه البخاري (٧٣٦١) في الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ « **لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء** » .

(٢) **متفق عليه** : رواه البخاري (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١ / ١٤) .

قَيْد شِبر طُوِّقَهُ من سَبْع أرَضين »[١] ورواه أيضا فِي كتاب المظالم ، ومسلم من طرق عن يحيى بن كثير به. ورواه أحمد من حديث محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة به، ورواه أيضا عن يونس عن أبان عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عائشة بمثله. ثم قال البخاري: حدثنا بشر بن محمد قال: أخبرنا عبد اللّه عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال : قال النبي ﷺ: « من أخذ شيئا من الأرض بغير حقه خُسِف به يوم القيامة إِلَى سَبْع أرَضين » [٢] ورواه فِي المظالم أيضا عن مسلم بن إبراهيم عن عبد اللّه – هو ابن المبارك – عن موسى بن عقبة به وهو من أفراده، وذكر البخاري هاهنا حديث محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، قال : قال رسول اللّه ﷺ: « إن الزمان قد استَدار كَهيئته يوم خلق اللّه السَّمَوَات والأرض السنة اثنا عشَرَ شَهْراً » [٣] الحديث ومراده واللّه أعلم تقرير قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أي فِي العدد كمَا أن عدة الشهور الآن اثنا عشر مطابقة لعدة الشهور عندَ اللّه فِي كتابه الأول ، فهذه مطابقة فِي الزمان كمَا أن تلك مطابقة فِي المكان. ثم قال البخاري : حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل أنه خاصمته أروى فِي حق زعمت أنه انتقصه لها إِلَى مروان . فقال سعيد رضي اللّه عنه: أنا أنتقص من حقها شيئا ؟ أشهد لسمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « من أخذ شبرا من الأرض ظُلمًا فإنه يُطَوَّقُهُ يوم القيامة من سبع أرَضين »[٤] ورواه [٥] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد اللّه بن لهيعة حدثنا عبيد اللّه بن أبي جعفر عن أبي عبد الرحمن عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول اللّه أيُّ الظلم أعظم قال :« ذِرَاع من الأرض ينتقِصُه المَرء المسلم من حق أخيه فليس حَصَاة من الأرض يأخذها أحد إلا طُوِّقها يوم القيامة إِلَى قَعْر الأرضِ، ولا يَعلم قَعْرَهَا إلا الذي خَلَقها » [٦] . تفرد به أحمد، وهذا إسناد لا بأس به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « من أخذ شبرا من الأرض بغير حقه طُوِّقَهُ من سبع أرَضين » [٧] . تفرد به من هذا الوجه وهو علي شرط مسلم. وقال أحمد: حدثنا يحيى عن ابن عجلان حدثني أبي عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « من اقتطَعَ شبرا من الأرض بغير حقه طُوِّقَهُ إِلَى سبع

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٢٤٥٣ ، ٣١٩٥) ومسلم (١٦١٢ / ١٤٢) .

(٢) رواه البخارى (٢٤٥٤) كتاب المظالم ، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض .

(٣) رواه البخارى (٧٤٤٧) كتاب التوحيد، باب قوله الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾.

(٤) رواه البخارى (٣١٩٨) كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى سبع أرضين .

(٥) قوله : ورواه هكذا فى الأصول .

(٦) ضعيف : رواه أحمد (٣٧٦٧) وفى سنده ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ ، وأبى عبد الرحمن هو عبدالله بن يزيد المعافرى المصرى وهو لم يدرك ابن مسعود .

(٧) صحيح : رواه أحمد (٩٠٢١).

أرَضين » [١] . تفرد به أيضاً، وهو على شرط مسلم. وقال أحمد أيضا: حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « **من أخذ من الأرض شِبرا بغير حقه طُوِّقَهُ من سبع أرضين »**[٢] . تفرد به أيضا، وقد رواه الطبراني من حديث معاوية بن قرة عن ابن عباس مرفوعا مثله. فهذه الأحاديث كالمتواترة فِي إثبات سبع أرضين ، والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى والتي تحتها فِي وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهي الأمر إِلَى السابعة وهي صماء لا جوف لها، وفِي وسطها المركز وهي نقطة مقدرة متوهمة. وهو محط الأثقال، إليه ينتهي مَا يهبط من كل جانب إذا لم يعاوقه مانع. واختلفوا هل هن متراكمات بلا تفاصل أو بين كل واحدة والتي تليها خلاء على قولين؟ وهذا الخلاف جار فِي الأفلاك أيضا .

والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة لظاهر قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ** ﴾ [الطلاق:١٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا شريح حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة قال : بينا نحن عند رسول اللَّه ﷺ إذ مرت سحابة، فقال : « **أتدرون مَا هذه ؟** » قلنا : اللَّه ورسوله أعلم . قال : « **العَنَان وزَوَايَا الأرض تَسُوقُه إِلَى مَن لا يشكُرونه من عباده ولا يدعونه ، أتدرون مَا هذه فوقكم ؟** » قلنا : اللَّه ورسوله أعلم. قال : « **الرَّقيع مَوج مَكفُوف وسَقْف محفوظ ، أتدرون كم بينكم وبينها ؟** » قلنا : اللَّه ورسوله أعلم. قال : « **مسيرة خمسمائة سنة** » ثم قال : « **أتدرون مَا الذي فوقها ؟** » قلنا: اللَّه ورسوله أعلم. قال : « **مسيرة خمسمائة عام** » حتى عد سبع سموات، ثم قال : « **أتدرون مَا فوق ذلك ؟** » قلنا : اللَّه ورسوله أعلم. قال : « **العرش ، أتدرون كم بينه وبين السماء السابعة ؟** » قلنا : الله ورسوله أعلم. قال: « **مسيرة خمسمائة عام** » ثم قال: « **أتدرون مَا هذه تحتكم ؟** » قلنا: الله ورسوله أعلم. قال : « **أرض أتدرون مَا تحتها ؟** » قلنا : الله ورسوله أعلم، قال: « **أرض أخرى أتدرون كم بينهمَا ؟**» قلنا : الله ورسوله أعلم. قال : « **مسيرة سبعمائة عام** » حتى عد سبع أرضين، ثم قال : « **وأيمُ اللَّهِ، لو دَلَّيتُم أحدَكم إِلَى الأرضِ السُّفلَى السابعة لَهَبَطَ** » – ثم قرأ : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ »[الحديد:٣] [٣]. ورواه الترمذي عن عبد ابن حميد، وغير واحد عن يونس بن محمد المؤدب عن شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة، قال: حدث الحسن عن أبي هريرة وذكره إلا أنه ذكر أن بُعْد مَا بين كل أرضين خمسمائة عام [٤]، وذكر فِي آخره كلمة ذكرناها عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، قال: ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد أنهم قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة ، ورواه أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم فِي تفسيره من حديث

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٩٥٨٨).

(٢) صحيح : رواه أحمد (٨٩٩٦).

(٣) ضعيف : رواه أحمد (٨٨١٣) وفى سنده الحكم بن عبد الملك القرشى، وهو ضعيف كما فى "التقريب"(١/١٩١).

(٤) ضعيف : رواه الترمذى (٣٢٩٨) وقد عنعنه وانظر

أبي جعفر الرازي عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة، فذكر مثل لفظ الترمذي سواء بدون زيادة في آخره ، ورواه ابن جرير في تفسيره عن بشر عن يزيد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلا. وقد يكون هذا أشبه والله أعلم. ورواه الحافظ أبو بكر البزار والبيهقي من حديث أبي ذر الغفاري عن النبي ﷺ ولكن لا يصح إسناده والله أعلم .

وقد تقدم عند صفة العرش من حديث الأوعال مَا يخالف هذا في ارتفاع العرش عن السماء السابعة ومَا يشهد له. وفيه " وبُعد مَا بين كل سماءين خمسُمائة عام، وكثفُها أي سُمْكُهَا خمسُمائة عام ". وأمَا مَا ذهب إليه بعض المتكلمين على حديث " طُوِّقَهُ من سَبْع أرضين " أنها سبع أقاليم. فهو قول يخالف ظاهر الآية، والحديث الصحيح وصريح كثير من ألفاظه ممَا يعتمد من الحديث الذي أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة. ثم إنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل والله أعلم. وهكذا مَا يذكره كثير من أهل الكتاب وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والتي تحتها من حديد والأخرى من حجارة من كبريت والأخرى من كذا، فكل هذا إذا لم يخبر به ويصح سنده إلى معصوم ؛ فهو مردود على قائله. وهكذا الأثر المروي عن ابن عباس أنه قال : في كل أرض من الخلق مثل مافي هذه حتى آدم كآدمكم وإبراهيم كإبراهيمكم؛ فهذا ذكره ابن جرير مختصراً، واستقصاه البيهقي في الأسماء والصفات وهو محمول إن صح نقله عنه على أنه أخذه ابن عباس رضي الله عنه عن الإسرائيليات والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « **لما خلق الله الأرض جَعَلت تَميدُ، فخلق الجبالَ، فألقاها عليها فاستقرت فتَعَجَّبت الملائكةُ من خلق الجبال، فقالت : يا ربُّ هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال : نعم، الحَديد. قالت : يا ربُّ فهل من خلقك شيء أشدُّ من الحديد؟ قال : نعم النار، قالت : يا ربُّ فهل من خلقك شيء أشد من النار قال: نعم، الرِّيح. قالت : يا ربُّ فهل من خلقك شيء أشد من الرِّيح؟ قال: نعم، ابن آدم يَتصدَّقُ بيمينه يُخفيهَا من شِمَالِه** » تفرد به أحمد [1].

وقد ذكر أصحاب الهيئة أعداد جبال الأرض في سائر بقاعها شرقا وغربا، وذكروا طولها وبعد امتدادها وارتفاعها وأوسعوا القول في ذلك بمَا يطول شرحه هنا. وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ** ﴾ [فاطر:٢٧] قال ابن عباس وغير واحد : الجُدُد : الطَّرائق، وقال عكرمة وغيره : الغَرَابيبُ: الجبال الطوال السُّود. وهذا هو الشاهد من الجبال في سائر الأرض تختلف باختلاف بقاعها وألوانها. وقد ذكر الله تعالى في كتابه الجوديّ على التعيين وهو جبل عظيم شرقيّ جزيرة ابن عمر إلى دجلة عند الموصل امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام ، وارتفاعه مسيرة نصف يوم، وهو أخضر ؛ لأن فيه شجرا من

---

(١) **ضعيف** : رواه أحمد (١٢١٩٣) وفي سنده سليمان بن أبي سليمان الهاشمي وهو مقبول كما في "التقريب"(٣٢٥/١).

البلوط وإِلَى جانبه قرية يقال لها : قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا فِي السفينة مع نوح عليه السلام فِي موضعها فيمَا ذكره غير واحد من المفسِّرين واللَّه أعلم .

فصل فِي البحار والأنهار

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ. أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل:١٤-١٨] وقال تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ و هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر:١٢] وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً ﴾ [الفرقان:٥٣] وقال تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩ ، ٢٠] فالمراد بالبحرين البحر المالح المر وهو الأجاج والبحر العذب هو هذه الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار لمصالح العباد قاله ابن جريج وغير واحد من الأئمة. وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا و يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٢-٣٤] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان:٣١،٣٢] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤] فامتن تعالى على عباده بمَا خلق لهم من البحار والأنهار فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض ، ومَا ينبت منه فِي جوانبها الجميع مالح الطعم مُرّ وفِي هذا حكمة عظيمة لصحة الهواء إذ لو كان حلوا لأَنْتَنَ الجو وفسد الهواء بسبب مَا يموت فيه من الحيوانات فكان يؤدي إِلَى تفاني بني آدم ، ولكن اقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة. ولهذا لَمَا سئل رسول اللَّه ﷺ عن البحر : قال : « **هو الطَّهور ماؤه الحِلُّ مَيْتَتُهُ** » [١].

وأمَا الأنهار فماؤها حلو عذب فرات سائغ شرابها لمن أراد ذلك. وجعلها جارية سارحة ينبعها تعالى فِي أرض، ويسوقها إِلَى أخرى رزقا للعباد. ومنها كبار، ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة. وقد تكلم أصحاب علم الهيئة والتفسير على تعداد البحار، والأنهار الكبار،

---

(١) **صحيح** : رواه الترمذى (٦٩) وأبو داود (٨٣) ومالك (١/٤٤،٤٥) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه وابن ماجه (٣٨٦) وأحمد (٧٢٣٧) وانظر " الصحيحة " (٤٨٠) .

وأصول منابعها وإِلَى أين ينتهي سيرها بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى، وأنه فاعل بالاختيار والحكمة - وقوله تعالى : ﴿والبَحْرِ المَسْجُور ﴾ [الطور:٦] فيه قولان، أحدهمَا: أن المراد به البحر الذي تحت العرش المذكور فِي حديث الأوعال. وأنه فوق السَّمَوَات السبع بين أسفله وأعلاه كمَا بين سماء إِلَى سماء، وهو الذي ينـــزل منه المطر قبل البعث فتحيى منه الأجساد من قبورها. وهذا القول هو اختيار الربيع بن أنس. والثاني: أن البحر اسم جنس يعمُّ سائر البحار التِي فِي الأرض وهو قول الجمهور.

واختلفوا فِي معنى البحر المسجور، فقيل: المملوء، وقيل: يصير يوم القيامة نارا تؤجج فيحيط بأهل الموقف. كمَا ذكرناه فِي التفسير عن علي وابن عباس وسعيد بن جبير وابن مجاهد وغيرهم. وقيل: المراد به الممنوع المكفوف المحروس عن أن يطغى فيغمر الأرض ومن عليها فيغرقوا. رواه الوالبي عن ابن عباس، وهو قول السدي، وغيره ويؤيده الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا العوام حدثني شيخ كان مرابطا بالساحل قال : لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب، فقال: حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول اللَّه ﷺ قال : « **ليس من ليلة إلا والبحر يُشرف فيها ثلاث مرات يَستأذن اللَّه عزّ وجلّ أن يَتَفَصَّحَ [1] عليهم فيكُفّه اللَّه عزّ وجلّ** »[2]

ورواه إسحاق بن راهويه عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب : حدثني شيخ مرابط قال: خرجت ليلة إلمحرس لم يخرج أحد من المحرس غيري فأتيت الميناء، فصعدت فجعل يخيل إِلَى أن البحر يشرف يحاذي برؤوس الجبال فعل ذلك مرارا، وأنا مستيقظ فلقيت أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب: أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **مَا من ليلة إلا والبحر يُشرف ثلاث مرات يستأذن اللَّه أن يَتَفَصَّحَ عليهم فَيَكُفّهُ اللَّه عزّ وجلّ** » فِي إسناده رجل مبهم واللَّه أعلم. وهذا من نعمه تعالى على عباده أن كف شر البحر عن أن يطغ عليهم وسخره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها إِلَى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها وهداهم فيه بمَا خلقه فِي السماء والأرض من النجوم والجبال التِي جعلها لهم علامات يهتدون بها فِي سيرهم وبمَا خلق لهم فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التِي لا توجد إلا فيه وبمَا خلق فيه من الدواب الغريبة وأحلها لهم حتى ميتتها كمَا قال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ﴾ وقال النبي ﷺ: « **هو الطهور ماؤه الحل ميتته** » ، وفِي الحديث الآخر: « **أُحِلَّت لنا مَيْتتان ودَمَان السَّمَك والجَرَاد والكَبِد والطِّحَال** »[3]. رواه أحمد وابن ماجه وفِي إسناده نظر.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فِي مسنده : وجدت فِي كتاب عن محمد بن معاوية البغدادي حدثنا عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عمر وعن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه قال: « **كلّم اللَّهُ هذا البحرَ الغربيَّ وكلّم البحرَ الشرقيَّ، فقال للغربيِّ : إني حَامل فيك عباداً**

---

(١) يتفصح : يستوضح .

(٢) **ضعيف** : رواه أحمد (٣٠٣) وفى سنده مجهول ، وكذا أبى صالح مولى مجهول أيضاً .

(٣) أحمد (٥٧٢٧) وابن ماجة (٣٢١٨) .

من عبادي فكيف أنت صانع بهم ؟ قال : أغرقهم. قال: بَأسُك فِي نَواحيك وحَرَمَةُ الحِلية والصَّيد، وكلّم هذا البحرَ الشرقي فقال: إنِي حامل فيك عباداً من عبادي فمَا أنت صانع بهم ؟ قال : أَحْمِلُهم على يدِي، وأكونُ لهم كالوالدةِ لولَدِها فأثابه الحِلية والصَّيدَ، ثم قال : لا تُعْلم أحداً » مَا رواه عن سهيل إلا عبد الرحمن بن عبد اللّٰه بن عمر وهو منكر الحديث. قال: وقد رواه سهيل عن عبدَ الرحمن بن أبي عياش عن عبد اللّه بن عمرو موقوفاً. قلت: الموقوف على عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص أشبه فإنه قد كان وجد يوم اليرموك ذا ملتين مملوءتين كتباً من علوم أهل الكتاب فكان يحدث منهمَا بأشياء كثيرة. من الإسرائيليات منها المعروف، والمشهور، والمنكور، والمردود. فأمَا المعروف فتفرد به عبد الرحمن بن عبد اللّٰه بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدني قاضيها. قال فيه الإمام أحمد: ليس بشيء وقد سمعته منه. ثم مزقت حديثه كان كذاباً وأحاديثه مناكير. وكذا ضعفه ابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والجوزجاني، والبخاري، وأبو داود، والنسائي ، وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير، وأفظعها حديث البحر.

قال علماء التفسير المتكلمون: على العروض والأطوال والبحار والأنهار والجبال والمساحات ومَا فِي الأرض من المدن والخراب والعمارات والأقاليم السبعة الحقيقية فِي اصطلاحهم والأقاليم المتعددة العرفية ومافِي البلدان والأقاليم من الخواص والنباتات، ومَا يوجد فِي كل قطر من صنوف المعادن والتجارات، قالوا: الأرض مغمورة بالماء العظيم إلا مقدار الربع منها، وهو تسعون درجة والعناية الإلهية اقتضت انحسار الماء عن هذا القدر منها لتعيش الحيوانات عليها، وتنبت الزرع والثمار منها كمَا قال تعالى : ﴿ **وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ وَالحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانِ فَبِأيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ [الرحمن: ١٠-١٣] قالوا : المعمور من هذا البادي، منها قريب الثلثين منه أو أكثر قليلاً. وهو خمس وتسعون درجة. قالوا: فالبحر المحيط الغربي ويقال له: أوقيانوس، وهو الذي يتاخم بلاد المغرب وفيه الجزائر الخالدات وبينها وبين ساحله عشر درجات مسافة شهر تقريباً، وهو بحر لايمكن سلوكه ولاركوبه لكثرة موجه، واختلاف مافيه من الرياح والأمواج، وليس فيه صيد ولايستخرج منه شيء، ولايسافر فيه لمتجر ولا لغيره وهو آخذ فِي ناحية الجنوب حتى يسامت الجبال القُمَر، ويقال: جبال القُمَر التي منها أصل منبع نيل مصر، ويتجاوز خط الاستواء . ثم يمتد شرقاً، ويصير جنوبي الأرض. وفيه هناك جزائر الزابج وعلى سواحله خراب كثير. ثم يمتد شرقاً وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند. ثم يمتد شرقاً حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة. وهناك بلاد الصين. ثم ينعطف فِي شرق الصين إِلَى جهة الشمال حتى يجاوز بلاد الصين. ويسامت سد يأجوج ومأجوج. ثم ينعطف ويستدير على أراض غير معلومة الأحوال. ثم يمتد مغرباً فِي شمال الأرض، ويسامت بلاد الروس، ويتجاوزها ويعطف مغرباً وجنوباً، ويستدير على الأرض، ويعود إِلَى جهة الغرب، وينبثق من الغربي إِلَى متن الأرض الزقاق الذي ينتهي أقصاه إِلَى أطراف الشام من الغرب. ثم يأخذ فِي بلاد الروم حتى يتصل بالقسطنطينية وغيرها من بلادهم.

وينبعث من المحيط الشرقي بحار أخر فيها جزائر كثيرة، حتى إنه يقال إن في بحر الهند ألف جزيرة وسبعمائة جزيرة فيها مدن وعمارات سوى الجزائر العاطلة، ويقال لها البحر الأخضر فشرقيه بحر الصين وغربيه بحر اليمن وشماله بحر الهند وجنوبيه غير معلوم. وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبالاً فاصلة بينهمَا، وفيها فجاج تسلك المراكب بينها يسيّرها لهم الذي خلقها كمَا جعل مثلها في البر أيضاً قال اللَّه تعالى : ﴿ **وَ جَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ [الأنبياء :٣١] وقد ذكر بطليموس أحد ملوك الهند في كتابه المسمى " بالمجسطي " الذي عرب في زمان المأمون، وهو أصل هذه العلوم أن البحار المتفجرة من المحيط الغربي والشرقي والجنوبي والشمالي كثيرة جداً. فمنها مَا هو واحد، ولكن يسمى بحسب البلاد المتاخمة له. فمن ذلك بحر القلزم. والقلزم قرية على ساحله قريب من أيلة. وبحر فارس وبحر الخزر وبحر ورنك وبحر الروم وبحر بنطش وبحر الأزرق، مدينة على ساحله ، وهو بحر القرم أيضاً، ويتضايق حتى يصب في بحر الروم عند جنوبي القسطنطينية وهو خليج القسطنطينية، ولهذا تسرع المراكب في سيرها من القرم إِلَى بحر الروم وتبطئ إذا جاءت من الإسكندرية إِلَى القرم لاستقبالها جريان الماء. وهذا من العجائب في الدنيا فإن كل ماء جار فهو حلو إلا هذا وكل بحر راكد فهو ملح أجاج إلا مَا يذكر عن بحر الخزر وهو بحر جرجان وبحر طبرستان أن فيه قطعة كبيرة ماء حلو فراتاً على مَا أخبر به المسافرون عنه .قال أهل الهيئة وهو بحر مستدير الشكل إِلَى الطول مَا هو. وقيل إنه مثلث كالقلع وليس هو متصلاً بشيء من البحر المحيط بل منفرد وحده، وطوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة، وقيل : أكثر من ذلك واللَّه أعلم .

ومن ذلك البحر الذي يخرج منه المد والجزر عند البصرة. وفي بلاد المغرب نظيره أيضاً يتزايد الماء من أول الشهر، ولا يزال في زيادة إِلَى تمام الليلة الرابعة عشر منه وهو المد. ثم يشرع في النقص وهو الجزر إِلَى آخر الشهر. وقد ذكروا تحديد هذه البحار ومبتداها، وذكروا مَا في الأرض من البحيرات المجتمعة من الأنهار وغيرها من السيول وهي البطائح .

وذكروا مَا في الأرض من الأنهار المشهورة الكبار، وذكروا ابتداءها وانتهاءها ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه وإنمَا نتكلم على مَا يتعلق بالأنهار الوارد ذكرها في الحديث. وقد قال اللَّه تعالى :﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ [إبراهيم : ٣٢ - ٣٤]. ففي الصحيحين من طريق قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن رسول اللَّه ﷺ لَمَا ذكر سدرة المنتهى. قال : « **فإذا يخرج من أصلها نهران باطنان، ونهران ظاهران. فأمَا الباطنان : ففي الجنة، وأمَا الظاهران : فالنيل والفُرات** » [(١)] وفي لفظ في

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤/ ٢٦٤) .

البخاري وعنصرهمَا أي مادتهمَا أو شكلهمَا وعلى صفتهمَا ونعتهمَا وليس فِي الدنيا مما فِي الجنة إلا سماوية .

وفي صحيح مسلم من حديث عبيد اللّه بن عمر عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ. قال : « **سَيْحَان وجَيْحَان والفُرات والنيل كلٌّ من أنهار الجنة** »[١].

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ويزيد أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال رسول اللّه ﷺ : « **فُجِّرت أربعة أنهار من الجنة الفرات والنيل وسَيْحان وجَيْحان** »[٢] وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم. وكأن المراد واللّه أعلم من هذا أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة فِي صفائها وعذوبتها وجريانها ، ومن جنس تلك فِي هذه الصفات ونحوها كمَا قال فِي الحديث الآخر الذي رواه الترمذي وصححه من طريق سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « **العَجْوة من الجنة وفيه شفاء من السُّمِّ** ».[٣] أي تشبه ثمر الجنة لأنها مجتناة من الجنة، فإن الحس يشهد بخلاف ذلك فتعين أن المراد غيره ، وكذا قوله ﷺ : « **الحُمَّى من فَيْح جهنم فأبْرِدُوها بالماء** »، [٤] وكذا قوله : « **إذا اشتد الحُمَّى فابرِدُوها بالماء فإنَّ شدةَ الحر من فَيْح جهنم** » [٥]. وهكذا هذه الأنهار أصل منبعها مشاهد من الأرض .

أمَا النيل وهو النهر الذي ليس فِي أنهار الدنيا له نظير فِي خفته ولطافته وبعد مسراه فيمَا بين مبتداه إِلَى منتهاه . فمبتداه من الجبال الْقَمَر أي البيض ، ومنهم من يقول جبال الْقَمَر بالإضافة إِلَى الكواكب وهي فِي غربي الأرض وراء خط الاستواء إِلَى الجانب الجنوبي. ويقال : إنها حمر ينبع من بينها عيون. ثم يجتمع من عشر مسيلات متباعدة. ثم يجتمع كل خمسة منها فِي بحر. ثم يخرج أنهار ستة. ثم يجتمع كلها فِي بحيرة أخرى. ثم يخرج منها نهر واحد هو النيل فيمر على بلاد السودان والحبشة ثم على النوبة ومدينتها العظمى دمقلة ثم على السودان ثم يفد على ديار مصر. وقد تحمل إليها من بلاد الحبشة زيادات أمطارها ومَا احترف من ترابها وهي محتاجة إليهمَا معاً لأن مطرها قليل لا يكفي زروعها وأشجارها ، وتربتها رمال لا تنبت شيئاً حتى يجيء النيل بزيادته ، وطينه فينبت فيه مَا يحتاجون إليه ، وهي من أحق الأراضي بدخولها فِي قوله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ** ﴾ [السجدة : ٢٧] ثم يجاوز النيل مصر قليلاً فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه يقال لها : شطنوف فيمر الغربي على رشيد ويصب فِي البحر المالح. وأمَا الشرقي فتفترق أيضاً عند جوجر فرقتين تمر الغربية منهمَا على دمياط من غربيها ، ويصب فِي البحر ، والشرقية

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٩ / ٢٦) .

(٢) **صحيح** : رواه أحمد (٧٥٣٥).

(٣) **صحيح** : رواه الترمذى (٢٠٦٦) .

(٤) **صحيح** : رواه الترمذى (٢٠٧٤) وأحمد (٤٧١٩) .

(٥) لم أقف عليه بهذا اللفظ، والذى فى الصحيحين « **إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة ، فإن شدة الحرمن فيح جهنم** ».

منها تمر على أشمون طناح ، فيصب هناك فِي بحيرة شرقي دمياط. يقال لها : بحيرة تنيس، وبحيرة دمياط. وهذا بعد عظيم فيمَا بين مبتداه إِلَى منتهاه. ولهذا كان ألطف المياه. قال ابن سينا : له خصوصيات دون مياه سائر الأرض. فمنها : أنه أبعدها مسافة من مجراه إِلَى أقصاه. ومنها : أنه يجري على صخور ورمال ليس فيه خز ولا طحلب ولا أوحال، ومنها : أنه لا يخضر فيه حجر ولا حصاة ومَا ذاك إلا لصحة مزاجه وحلاوته ولطافته. ومنها أن زيادته فِي أيام نقصان سائر الأنهار. ونقصانه فِي أيام زيادتها وكثرتها، وأمَا مَا يذكره بعضهم من أن أصل منبع النيل من مكان مرتفع اطلع عليه بعض الناس فرأى هناك هولا عظيمًا وجواري حساناً وأشياء غريبة، وأن الذي اطلع على ذلك لا يمكنه الكلام بعد هذا فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين .

وقد قال عبد اللَّه بن لهيعة عن قيس بن الحجاج عمن حدثه: قال : لَمَا فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر بؤونة من أشهر العجم " القبطية " فقالوا : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سُنَّةٌ لا يجري إلا بها، فقال لهم : ومَا ذاك؟ قالوا : إذا كان لثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إِلَى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب فضل مَا يكون ثم ألقيناها فِي هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون فِي الإسلام، وإن الإسلام يهدم مَا قبله، فأقاموا بؤونة والنيل لا يجري لا قليلاً ولا كثيراً. وفِي رواية : فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى، وهو لا يجري حتى هموا بالجلاء فكتب عمرو إِلَى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي هذا، فألقها فِي النيل فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها من عبد الله عمر أمير المؤمنين إِلَى نيل مصر : أمَا بعد : فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر وإن كان اللَّه الواحد القهار هو الذي يُجريك فنسأل اللَّه أن يجريك ، فألقى عمرو البطاقة فِي النيل فأصبح يوم السبت وقد أجرى اللَّه النيل ستة عشر ذراعاً فِي ليلة واحدة وقطع اللَّه تلك السنة عن أهل مصر إِلَى اليوم .

وأمَا الفرات : فأصلها من شمالي الروم فتمر إِلَى قرب ملطية، ثم تمر على شميشاط. ثم على البيرة قبليها، ثم تشرق إِلَى بالس وقلعة جعبر ثم الرقة ثم إِلَى الرحبة شماليها، ثم إِلَى عانة ثم إِلَى هيت، ثم إِلَى الكوفة، ثم تخرج إِلَى فضاء العراق، ويصب فِي بطائح كبار أي بحيرات وترد إليها ويخرج منها أنهار كبار معروفة .

وأمَا سيحان : ويقال له : سيحون أيضا، فأوله من بلاد الروم ويجري من الشمال والغرب إِلَى الجنوب والشرق وهو غربي مجرى جيحان ودونه فِي القدر وهو ببلاد الأرض التي تعرف اليوم ببلاد سيس، وقد كانت فِي أول الدولة الإسلامية فِي أيدي المسلمين. فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية، وملكوا الشام، وأعمالها عجزوا عن صونها عن الأعداء فتغلب تقفور الأرمني على هذه البلاد أعني بلاد سيس فِي حدود الثلاثمائة وإِلَى يومنا هذا. واللَّه المسؤول عودها إلينا بحوله وقوته . ثم يجتمع سيحان، وجيحان عند أذنة فيصيران نهرا واحدا . ثم يصبان فِي بحر الروم بين إياس وطرسوس .

وأمّا جيحان : ويقال له : جيحون أيضا، وتسميه العامة جاهان. وأصله فِي بلاد الروم ويسير فِي بلاد سيس من الشمال إِلَى الجنوب، وهو يقارب الفرات فِي القدر ثم يجتمع هو، وسيحان عند أذنة، فيصيران نهرا واحدا. ثم يصبان فِي البحر عند إياس وطرسوس والله أعلم .

فَصل فِي بيان سائر المخلوقات فِي البراري والبحار

قال الله تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ. وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد:٢-٤]، وقال تعالى : ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [النمل: ٦٠، ٦١]، وقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**﴾ [النحل : ١٠ - ١٣] .

فذكر تعالى مَا خلق فِي الأرض من الجبال والأشجار والثمار والسهول والأوعار، ومَا خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات فِي البراري والقفار والبر والبحار مَا يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه، ومَا سهل لكل دابة من الرزق الذي هي محتاجة إليه فِي ليلها ونهارها وصيفها وشتائها وصباحها ومسائها كمَا قال تعالى : ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [هود : ٦] . وقد روى الحافظ أبو يعلى عن محمد بن المثنى عن عبيد بن واقد عن محمد بن عيسى بن كيسان عن محمد بن المنكدر عن جابر عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« **خلق الله الف أمَّة منها ستمائة فِي البحر وأربعمائة فِي البر، وأول شيء يهلك من هذه الأُمَم الجَرَاد فإذا هلك تتابعت مثل النِّظام إذا قُطِعَ سِلكُه** » [١] .

عبيد بن واقد : أبو عباد البصري ضعفه أبو حاتم، وقال ابن عدي : عامة مَا يرويه لا يتابع عليه وشيخه أضعف منه. قال الفلاس والبخاري : منكر الحديث، وقال أبو زرعة : لا ينبغي أن يحدث عنه. وضعفه ابن حبان، والدارقطني، وأنكر عليه ابن عدي هذا الحديث بعينه وغيره والله

---

(١) **ضعيف**: رواه أبو يعلى (٢٦٠٧) كما فى " المطالب العالية " النسخة المسندة، وفى سنده محمد بن عيسى ابن كيسان وهو ضعيف .

أعلم. وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام : ٣٨].

باب ذكر مَا يتعلق بخلق السَّمَوَات ومَا فيهنّ من الآيات

قد قدمنا أن خلق الأرض قبل خلق السماء كمَا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ و تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعَاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِيْنَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ [فصلت : ٩-١٢] وقال تعالى : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقَاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : ٢٧ - ٣٠]. فإن الدحي غير الخلق وهو بعد خلق السماء. وقال تعالى :﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الغَفُورُ. الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ. وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١ - ٥]، وقال تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ [النبأ :١٢ ، ١٣]، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦]. وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَالأَرْضَ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق : ١٢]، وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان :٦١ ، ٦٢]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : ٦ - ١٠]، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر : ١٦ - ١٨]، وقال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢ ، ٣٣]، وقال تعالى :﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٧ - ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ

تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام : ٩٥ ، ٩٦]، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف:٥٤]، والآيات في هذا كثيرة جدا، وقد تكلمنا على كل منها في التفسير.

والمقصود أنه تعالى يخبر عن خلق السَّمَوَات، وعظمة اتساعها، وارتفاعها، وأنها في غاية الحسن والبهاء والكمال والسناء كمَا قال تعالى : ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُك** ﴾ [الذاريات : ٧]، أي الخلق الحسن، وقال تعالى : ﴿ **فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ** ﴾ [الملك : ٣ ،٤]، أي : خاسئا عن أن يرى فيها نقصا أو خللا ، وهو حسير أي : كليل ضعيف ولو نظر حتى يعي ويكل ويضعف لَمَا اطلع على نقص فيها ولا عيب لأنه تعالى قد أحكم خلقها وزين بالكواكب أفقها كمَا قال : ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ** ﴾ [البروج : ١]: أي النجوم. وقيل محال الحرس التي يرمى منها بالشهب لمسترق السمع ، ولا منافاة بين القولين ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ** ﴾ [الحجر : ١٦ ، ١٧]، فذكر : أنه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات - الشَّمْس والْقَمَر والنجوم الزاهرات - وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها، وهذا زينة معنى. فقال : وحفظناها من كل شيطان رجيم كمَا قال : ﴿ **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلأِ الأَعْلَى** ﴾ [الصافات :٦ - ٨] .

قال البخاري في كتاب بدء الخلق ، وقال قتادة : ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ** ﴾ [الملك : ٥]. خلق هذه النجوم الثلاث : جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول بغير ذلك، فقد أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف مَا لا علم له به. وهذا الذي قاله قتادة مصرح به في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ** ﴾ [الملك : ٥]، وقال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** ﴾ [الأنعام : ٩٧] فمن تكلف غير هذه الثلاث أي من علم أحكام مَا تدل عليه حركاتها ومقارناتها في سيرها، وأن ذلك يدل على حوادث أرضيَّة فقد أخطأ. وذلك أن أكثر كلامهم في هذا الباب ليس فيه إلا حدس وظنون كاذبة ودعاوى باطلة. وذكر تعالى : أنه خلق سبع سموات طباقا أي واحدة فوق واحدة. واختلف أصحاب الهيئة هل هن متراكمات أو متفاصلات بينهن خلاء على قولين. والصحيح الثاني لَمَا قدمنا من حديث عبد اللَّه بن عميرة عن الأحنف عن العباس في حديث الأوعال : أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **أتدرون كم بين السماء والأرض ؟** » قلنا : اللَّه ورسوله أعلم. قال : « **بينهمَا مسيرة خمسمائة عام. ومن كل سماء إِلَى سماء خمسمائة سنة وكِثَفُ كل سماء خمسمائة سنة** »[1] . الحديث بتمامه رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه

---

(١) سبق تخريجه وهو ضعيف .

والترمذي وحسنه. وفي الصحيحين من حديث أنس في حديث الإسراء قال فيه : « **ووجد في السماء الدنيا آدم. فقال له جبريل : هذا أبوك آدم فسلِّم عليه فردَّ عليه السلام. وقال : مرحبا وأهلا بابني نعم الابنُ أنت. إلى أن قال : ثم عرج إلى السماء الثانية. وكذا ذكر في الثالثة، والرابعة، والخامسة والسادسة، والسابعة** » فدل على التفاضل بينهما لقوله « **ثم عرج بنا حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح فقيل : من هذا** » [(١)]- الحديث -. وهذا يدل على مَا قلناه واللَّه أعلم .

وقد حكى ابن حزم، وابن المنير، وأبو الفرج بن الجوزي، وغير واحد من العلماء : الإجماع على أن السَّمَوَات كرة مستديرة. واستدل على ذلك بقوله : ﴿ **كل في فلك يسبحون** ﴾ [الأنبياء : ٣٣] .

قال الحسن : يدورون، وقال ابن عباس : في فلكة مثل فلكة المغزل. قالوا : ويدل على ذلك أن الشَّمْس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع في آخرها من المشرق، كمَا قال أمية بن أبي الصلت :

والشَّـــمْسُ تَطلُــعُ كلَّ آخرِ ليلة حمــراءَ مَطْلِــع لَونِهـــا متـــــورِّدُ
تَأبَى فــلا تَبْــدُو لنا في رِسْلِها إلا مُعــــــذَّبه وإلا تَجْـــــلُدُ

فأمَا الحديث الذي رواه البخاري حيث قال : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر. قال : قال رسول اللَّه ﷺ لأبي ذر حين غربت الشَّمْس : « **تدري أين تذهب ؟** » قلت : اللَّه ورسوله أعلم. قال :« **فإنها تذهب حتى تسجُدَ تحت العرش فتستأذنَ فيؤذَنَ لها، ويوشك أن تسجد فلا يُقبلُ منها وتستأذن فلا يُؤذن لها. يقال لها : ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها** » فذلك قوله تعالى : ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [(٢)] [يس : ٣٨] .

هذا لفظه في بدء الخلق ورواه في التفسير. وفي التوحيد من حديث الأعمش أيضا ، ورواه مسلم في الإيمان من طريق الأعمش ومن طريق يونس بن عبيد وأبو داود من طريق الحكم بن عتبة كلهم عن إبراهيم بن يزيد بن شريك عن أبيه عن أبي ذر به نحوه. وقال الترمذي : حسن صحيح. إذا علم هذا فإنه حديث لا يعارض مَا ذكرناه من استدارة الأفلاك التي هي السَّمَوَات على أشهر القولين، ولا يدل على كرية العرش كمَا زعمه زاعمون. قد أبطلنا قولهم فيمَا سلف ولا يدل على أنها تصعد إلَى فوق السَّمَوَات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش بل هي تغرب عن أعيننا وهي مستمرة في فلكها الذي هي فيه، وهو الرابع فيمَا قاله غير واحد من علماء التفسير. وليس في الشرع مَا ينفيه بل في الحس وهو الكسوفات مَا يدل عليه ويقتضيه فإذا ذهبت فيه حتى تتوسطه وهو وقت نصف اللَّيْل مثلا في اعتدال الزمان بحيث يكون بين القطبين الجنوبي والشمالي، فإنها تكون أبعد مَا يكون من العرش لأنه مقبب من جهة وجه العالم،

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٤٩) كتاب الصلاة ، باب كيف فرضت الصلوات فى الإسراء . ومسلم (٤٠٨) كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات .

(٢) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣١٩٩، ٤٨٠٢، ٧٤٢٤) ومسلم (١٥٩ / ٢٥٠) .

وهذا محل سجودها كمَا يناسبها كمَا أنها أقرب مَا تكون من العرش وقت الزوال من جهتنا فإذا كانت في محل سجودها استأذنت الرب جل جلاله في طلوعها من الشرق فيؤذن لها فتبدو من جهة الشرق وهي مع ذلك كارهة لعصاة بني آدم أن تطلع عليهم ، ولهذا قال أمية :

تَأْبَى فَلاَ تَبْدُو لَنَا فِي رَسْلِهَا ... إِلاَّ مُعَــذَّبَــةً وإلاَّ تُــجَــلَد

فإذا كان الوقت الذي يريد الله طلوعها من جهة مغربها تسجد على عادتها وتستأذن في الطلوع من عادتها فلا يؤذن لها فتجاء أنها تسجد أيضا ثم تستأذن فلا يؤذن لها ثم تسجد فلا يؤذن لها وتطول تلك الليلة كمَا ذكرنا في التفسير، فتقول : يا رب إن الفجر قد اقترب، وإن المدى بعيد فيقال : لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا جميعا. وذلك حين ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُن آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، وفسروا بذلك قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس : ٣٨]. قيل : لوقتها الذي تؤمر فيه تطلع من مغربها. وقيل : مستقرها موضعها الذي تسجد فيه تحت العرش. وقيل : منتهى سيرها وهو آخر الدنيا .

وعن ابن عباس أنه قرأ : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لاَ مُسْتَقَرَّ لَهَا » أي : ليست تستقر فعلى هذا تسجد وهي سائرة. ولهذا قال تعالى : ﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَنْ تُدرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

أي : لا تدرك الشَّمْس الْقَمَر فتطلع في سلطانه ودولته ولا هو أيضا، ولا اللَّيْل سابق النهار أي ليس سابقه بمسافة يتأخر ذاك عنه فيها ، بل إذا ذهب النهار جاء اللَّيْل في أثره متعقبا له كمَا قال في الآية الأخرى ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطلُبُه حثيثاً والشَّمْسَ والقَمَر والنجومَ مُسَخَّراتٍ بأمْرِه ألاَ لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ العَالَمينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤].

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلفَةً لمَنْ أرَادَ أنْ يَذَّكَّرَ أوْ أرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : ٦٢] .

أي يخلف هذا لهذا، وهذا لهذا كمَا قال رسول اللّه ﷺ : « **إذا أقبل اللَّيْل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشَّمْس فقد أفطر الصائم** » فالزمان المحقق ينقسم إلى ليل ونهار وليس بينهمَا غيرهمَا ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسمًّى ﴾ [لقمان : ٢٩] .

فيولج من هذا في هذا، أي يأخذ من طول هذا في قصر هذا فيعتدلان كمَا في أول فصل الربيع يكون اللَّيْل قبل ذلك طويلا والنهار قصيرا فلا يزال اللَّيْل ينقص والنهار يتزايد حتى يعتدلا وهو أول الربيع. ثم يشرع النهار يطول ويتزايد واللَّيْل يتناقص حتى يعتدلا أيضا في أول فصل الخريف. ثم يشرع اللَّيْل يطول ويقصر النهار إلى آخر فصل الخريف. ثم يترجح النهار قليلا

قليلا ويتناقص اللَّيْل شيئا فشيئا حتى يعتدلا في أول فصل الربيع كمَا قدمنا ، وهكذا في كل عام . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ﴾ [المؤمنون : ٨٠]

أي : هو المتصرف في ذلك كله الحاكم الذي لا يخالف ولا يمانع ولهذا يقول في ثلاث آيات عند ذكر السَّمَوَات والنجوم واللَّيْل والنهار : ﴿ **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ [الأنعام : ٩٦] أي : العزيز الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فلا يمانع ولا يغالب. العليم بكل شيء فقدر كل شيء تقديرا على نظام لا يختلف ولا يضطرب .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ: « **قال اللَّه : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب اللَّيْل والنهار**».[1] وفي رواية : « **فأنا الدهر أقلب ليله ونهاره** »[2].

قال العلماء كالشافعي، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وغيرهمَا: يسب الدهر أي يقول : فعل بنا الدهر كذا يا خيبة الدهر، أيتم الأولاد، أرمل النساء. « **قال اللَّه تعالى : وأنا الدهر**» أي أنا الدهر الذي يعنيه فإنه فاعل ذلك الذي أسنده إلَى الدهر، والدهر مخلوق، وإنمَا فعل هذا هو اللَّه فهو يسب فاعل ذلك ويعتقده الدهر. واللَّه هو الفاعل لذلك الخالق لكل شيء المتصرف في كل شيء كمَا قال : « **وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره**» وكمَا قال تعالى : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْك تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ و تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب** ﴾ [آل عمران : ٢٦ ، ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**﴾ [يونس : ٦،٥] أي فاوت بين الشَّمْس والْقَمَر في نورهمَا وفي شكلهمَا وفي وقتهمَا، وفي سيرهمَا فجعل هذا ضياء وهو شعاع الشَّمْس برهان ساطع وضوء باهر والْقَمَر نورا أي أضعف من برهان الشَّمْس وجعله مستفادا من ضوئها وقدره منازل أي يطلع أول ليلة من الشهر صغيرا ضئيلا قليل النور لقربه من الشَّمْس وقلة مقابلته لها فبقدر مقابلته لها يكون نوره، ولهذا في الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف مَا كان في الليلة الأولي، فيكون نوره بضعف النور أول ليلة. ثم كلمَا بعد ازداد نوره حتى يتكامل إبداره ليلة مقابلته إياها من المشرق وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر. ثم يشرع في النقص لاقترابه إليها من الجهة الأخرى إلَى آخر الشهر فيستتر حتى يعود كمَا بدأ في أول الشهر الثاني. فيه تعرف الشهور،وبالشَّمْس تعرف الليالي والأيام، وبذلك تعرف السنين والأعوام،ولهذا قال تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾ [يونس : ٥] .

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٤٨٢٦ ، ٧٤٩١) ومسلم (٢٢٤٦ / ٢)

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٧٢٤٤) .

وقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَّبِكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** ﴾ [الإسراء : ١٢] .

وقال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ**﴾ [البقرة : ١٨٩] .

وقد بسطنا القول على هذا كله فِي التفسير. فالكواكب التي فِي السماء منها سيارات، وهي المتحيرة فِي اصطلاح علماء التفسير، وهو علم غالبه صحيح بخلاف علم الأحكام، فإن غالبه باطل ودعوى مالا دليل عليه وهي سبعة : الْقَمَر فِي سماء الدنيا، وعطارد فِي الثانية، والزهرة فِي الثالثة والشَّمْس فِي الرابعة، والمريخ فِي الخامسة، والمشتري فِي السادسة، وزحل فِي السابعة. وبقية الكواكب يسموها الثوابت وهي عندهم فِي الفلك الثامن، وهو الكرسي فِي اصطلاح كثير من المتأخرين. وقال آخرون : بل الكواكب كلها فِي السماء الدنيا، ولا مانع من كون بعضها فوق بعض. وقد يستدل على هذا بقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ** ﴾ [الملك : ٥] .

وبقوله : ﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ** ﴾ [فصلت : ١٢] .

فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب، فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون واللَّه أعلم. وعندهم أن الأفلاك السبعة بل الثمانية تدور بمَا فيها من الكواكب الثوابت ، والسيارات تدور على خلاف فلكه من المغرب إِلَى المشرق. فالْقَمَر يقطع فلكه فِي شهر، والشَّمْس تقطع فلكها وهو الرابع فِي سنة. فإذا كان السيران ليس بينهمَا تفاوت وحركاهمَا متقاربة كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا ثنتي عشرة مرة، وزحل يقطع فلكه وهو السابع فِي ثلاثين سنة فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلثمائة وستين مرة.

وقد تكلموا على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحركاها، وتوسعوا فِي هذه الأشياء حتى تعدوا إِلَى علم الأحكام ومَا يترتب على ذلك من الحوادث الأرضية، وممَا لا علم لكثير منهم به. وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور لهم فِي هذا كلام كثير يطول بسطه، وهم الذين بنوا مدينة دمشق، وجعلوا لها أبوابا سبعة وجعلوا على رأس كل باب هيكلا على صفة الكواكب السبعة. يعبدون كل واحد فِي هيكله، ويدعونه بدعاء يأثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ وغيرهم. وذكره صاحب كتاب « السر المكتوم فِي مخاطبة الشَّمْس والْقَمَر والنجوم » وغيره من علماء الحرنانيين - فلاسفة حران فِي قديم الزمان - وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة وهم طائفة من الصابئين. ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِه اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [فصلت : ٣٧] .

وقال تعالى إخبارا عن الهدهد : أنه قال لسليمان عليه السلام مخبرا عن بلقيس وجنودها ملكة سبأ فِي اليمن ومَا والاها : ﴿ **إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ**

عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ. أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل : ٢٣ -٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ و مَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيه العَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [الحج : ١٨] وقال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّئُوا ظِلاَلُهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [النحل:٤٨-٥٠] وقال تعالى : ﴿ **وللَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلاَلُهُمْ بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ [الرعد :١٥] وقال تعالى : ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾ [الإسراء :٤٤] . والآيات في هذا كثيرة جدا.

ولَما كان أشرف الأجرام المشاهدة في السَّمَوَات والأرض هي الكواكب وأشرفهن منظرا وأشرفهن معتبرا الشَّمْس والْقَمَر استدل الخليل على بطلان إلهية شيء منهن. وذلك في قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ** ﴾ [الأنعام:٧٦].

فبين بطريق البرهان القطعي أن أي الغائبين ﴿ **فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ** ﴾ [الأنعام: ٧٧ -٧٩] فبين بطريق البرهان القطعي أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والْقَمَر والشَّمْس لا يصلح شيء منها للإلهية ؛ لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة في سيرها لا تحيد عمَا خلقت له ولا تزيغ عنه إلا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف. وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدونَ** ﴾ [فصلت : ٣٧] .

وثبت في الصحيحين في صلاة الكسوف من حديث ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم من الصحابة أن رسول اللَّه ﷺ قال في خطبته يومئذ : « **إن الشَّمْس والْقَمَر آيتان من آيات اللَّه عزّ وجلّ وإنهمَا لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته** »[(١)] .

وقال البخاري في بدء الخلق حدثنا مسدد حدثنا عبد العزيز بن المختار حدثنا عبد اللَّه الداناج حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **الشَّمْس والْقَمَر مكوران يوم القيامة** ».[(٢)] انفرد به البخاري .

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (١٠٤٢) ومسلم (٩٠٢ / ٦) .

(٢) رواه البخارى (٣٢٠٠) كتاب بدء - باب صفة الشمس والقمر .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار بأبسط من هذا السياق، فقال : حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي حدثنا يونس بن محمد حدثنا عبد العزيز بن المختار عن عبد اللَّه الداناج : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن زمن خالد بن عبد اللَّه القسري في هذا المسجد مسجد الكوفة وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال : حدثنا أبو هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **إن الشَّمْس والْقَمَر ثوران في النار يوم القيامة** » فقال الحسن: ومَا دينهمَا فقال : أحدثك عن رسول اللَّه ﷺ وتقول: ومَا دينهما؟ ثم قال البزار : لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، ولم يرو عبد اللَّه الداناج عن أبي سلمة سوى هذا الحديث.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي من طريق يزيد الرقاشي وهو ضعيف عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « **الشَّمْس والْقَمَر ثوران عقيران في النار** » وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد اللَّه الأزدي حدثنا أبو أسامة عن مجالد عن شيخ من بجيلة عن ابن عباس ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ [التكوير : ١]. قال : يكور اللَّه الشَّمْس والْقَمَر والنجوم يوم القيامة في البحر، ويبعث اللَّه ريحا دبورا فتضرمها نارا.

فدلت هذه الآثار على أن الشَّمْس والْقَمَر من مخلوقات اللَّه خلقها اللَّه لمَا أراد. ثم يفعل فيها مَا يشاء، وله الحجة الدافعة والحكمة البالغة فلا يسأل عمَا يفعل لعلمه وحكمته وقدرته ومشيئته النافذة وحكمه الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب. ومَا أحسن مَا أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في أول كتاب السيرة من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل في خلق السماء والأرض والشَّمْس والْقَمَر وغير ذلك.

قال ابن هشام هي لأمية بن أبي الصلت :

إِلَى الله أهدى مدحتي وثنائيا ... وقولاً رضياً لأيني الدهر باقيا
إِلَي الملك الأعلىِ الذي ليس فو ... قه إلهُ ولا ربٌّ يكونٌ مدانيا
أَلا أَيّها الإنسانُ إِيّاك والردىَ ... فإنّك لا تُخفي من الله خافيا
وإِيّاكَ لا تجعلْ معَ الله غيرَه ... فإنّ سَبيل الرشد أصبحَ باديا
حَنَانَيْكَ إنّ الجنَّ كانت رجاءهم ... وأَنْت إلهي ربَّنا ورجائيَا
رضيتُ بك اللهم رَبًّا فلن أرى ... أدين إلهًا غيرك الله ثانيا
وأنت الذي من فضل منٍّ ورحمة ... بعثتَ إِلَى موسى رسولاً مناديا
فقلتَ له اذهبْ وهارونَ فادعُوَا ... إِلَى الله فرعونَ الذي كان طاغيا
وقولا له أأنْتَ سوّيْتَ هذه ... بلا وَتَد حتى اطمأنت كمَا هيا
وقولا له أأنْتَ رفعتَ هذه ... بلا عمدٍ، أرفق إذاً بك بانيا
وقولا له أأنت سّويتَ وسطَها ... منيرا إذا ماجنه اللّيْلُ هاديا
وقولا له مَنْ يرسلُ الشَّمْسَ غدوة ... فيصبحُ مَا مست من الأرض ضاحيا

وقولا له مَنْ يُنْبِتُ الحبَّ فِي الثرى ... فيصبحُ منه البقل يَهْتَزُّ رابيا
ويخرجُ منه حبَّه فِي رؤوسه ... وفِي ذاك آياتُ لِمَنْ كان واعيا
وَأَنْتْ بفضلٍ منْك نَجَّيْتَ يُونُسا ... وقد باتَ فِي أضعاف حُوت لياليا
وإنّي لو سَبَّحْتُ باسمك ربّنا ... لأكثرُ إلا مَا غفرتَ خطائيا
فربُّ العبادِ أَلْقِ سيبا ورحمة ... عليّ وبارك فِي بنِيّ وماليا

فإذا علم هذا فالكواكب التِي فِي السماء من الثوابت والسيارات الجميع مخلوقة خلقها اللَّه تعالى كمَا قال : ﴿ **وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [فصلت : ١٢] .

وأمَا مَا يذكره كثير من المفسرين فِي قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها على نفسها فأبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها ، فقالته ، فرفعت كوكبا إِلَى السماء فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين ، وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار ، وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل .

وقد روى الإمام أحمد وابن حبان فِي صحيحه فِي ذلك حديثا رواه أحمد عن يحيى بن بكير عن زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ وذكر القصة بطولها. وفيه فمثلت لهمَا الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءهمَا فسألاها نفسها [1] وذكر القصة .

وقد رواه عبد الرزاق فِي تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار به. وهذا أصح وأثبت .

وقد روى الحاكم فِي مستدركه، وابن أبي حاتم فِي تفسيره عن ابن عباس فذكره، وقال: فيه وفِي ذلك الزمان امرأة حسنها فِي النساء كحسن الزهرة فِي سائر الكواكب وذكر تمامه. وهذا أحسن لفظ روي فِي هذه القصة واللَّه أعلم.

وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الملك الواسطي حدثنا يزيد بن هارون حدثنا مبشر بن عبيد عن يزيد بن أسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ. وحدثنا عمرو بن عيسى حدثنا عبد الأعلى حدثنا إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ ذكر سهيلا ، فقال: « **كان عشارا ظلومًا فمسخه اللَّه شهابا** »، ثم قال: لم يروه عن زيد بن أسلم إلا مبشر بن عبيد وهو ضعيف الحديث ولا عن عمرو بن دينار إلا إبراهيم ابن يزيد وهو لين الحديث. وإنمَا ذكرناه على مَا فيه من علة لأنا لم نحفظه إلا من هذين الوجهين .

---

(١) **ضعيف** : رواه أحمد (٦١٧٨) وابن حبان (٦١٨٦ - إحسان) والبزار (٢٩٣٨) والبيهقى فى " السنن " (٥،٤/١٠) وابن السنى فى " عمل اليوم والليلة " (٦٥١) وفى سنده موسى بن جبير وهو مستور كما فى " التقريب " (٢٨١/٢) وانظر " الضعيفة " (١٧٠) .

قلت : أمّا مبشر بن عبيد القرشي فهو أبو حفص الحمصي وأصله من الكوفة. فقد ضعفه الجميع ، وقال فيه الإمام أحمد والدارقطني : كان يضع الحديث ويكذب؛ وأمّا إبراهيم بن يزيد فهو الخوزي وهو ضعيف باتفاقهم. قال فيه أحمد والنسائي : متروك .

وقال ابن معين : ليس بثقة ، وليس بشيء. وقال البخاري : سكتوا عنه. وقال أبو حاتم وأبو زرعة : منكر الحديث ضعيف الحديث. ومثل هذا الإسناد لا يثبت به شيء بالكلية. وإذا أحسنا الظن قلنا : هذا من أخبار بني إسرائيل كمّا تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار. ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها والله أعلم .

الكلام على المجرّة وقوس قُزح

قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا عارم أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هرقل كتب إلى معاوية، وقال : إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عمّا أسألهم عنه. قال : فكتب إليه يسأله عن المجرة وعن القوس وعن بقعة لم تصبها الشّمْس إلا ساعة واحدة. قال : فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال : إن هذا الشيء مَا كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومي هذا من لهذا؟ قيل : ابن عباس فطوى معاوية كتاب هرقل فبعث به إلى ابن عباس فكتب إليه أن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق. والمجرة باب السماء الذي تنشق منه الأرض. وأمّا البقعة التي لم تصبها الشّمْس إلا ساعة من النهار فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنه.

فأمّا الحديث الذي رواه الطبراني حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج حدثنا إبراهيم بن مخلد حدثنا الفضل بن المختار عن محمد بن مسلم الطائفي عن ابن أبي يحيى عن مجاهد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « **يا معاذ إني مرسلك إلى قوم أهل كتاب فإذا سئلت عن المجرة التي في السماء، فقل : هي لعاب حية تحت العرش** » [1] فإنه حديث منكر جداً بل الأشبه أنه موضوع وراويه الفضل بن المختار هذا أبو سهل البصرى. ثم انتقل إلى مصر قال فيه أبو حاتم الرازي : هو مجهول حدث بالأباطيل. وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي : منكر الحديث جدا. وقال ابن عدي : لا يتابع على أحاديثه لا متنا، ولا إسنادا في الكامل في الضعفاء.

وقال الله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** ﴾ [الرعد : ١٢ ، ١٣] .

---

(١) الطبراني في الكبير (١٧٥٤) وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ١٣٥) فيه الفضل بن مختار وهو ضعيف .
قلت : أورده ابن الجوزي في الموضوعات (١ / ١٤٢) والفضل بن مختار مجهول .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وروى الإمام أحمد عن يزيد بن هارون عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن شيخ من بني غفار قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك** »(١).

وروى موسى بن عبيدة بن سعد بن إبراهيم أنه قال : إن نطقه الرعد، وضحكه البرق. وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا هشام عن عبيد اللّه الرازي عن محمد بن مسلم قال : بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد فإذا مصع بذنبه فذاك البرق .

وقد روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي والبخاري في كتاب الأدب والحاكم في مستدركه من حديث الحجاج بن أرطأة حدثني أبو مطر عن سالم عن أبيه قال : كان رسول اللّه إذا سمع الرعد والصواعق قال : « **اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك** »(٢) وروى ابن جرير من حديث ليث عن رجل عن أبي هريرة رفعه كان إذا سمع الرعد قال : « **سبحان من يسبح الرعد بحمده** » وعن علي أنه كان يقول : « **سبحان من سبحت له** » وكذا عن ابن عباس والأسود بن يزيد وطاوس وغيرهم .

وروى مالك عن عبد اللّه بن عمر أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته - ويقول : - إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « **قال ربكم لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولما اسمعتهم صوت الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكرا** »(٣). وكل هذا مبسوط في التفسير ولله الحمد والمنة .

باب ذكر خلق الملائكة وصفاتهم عليهم السلام

قال اللّه تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُم إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٢٦ -٢٩].

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (٢٣٥٧٦) والرامهرمزى فى " الأمثال" (١٢٥) والبيهقى فى " الأسماء والصفات" (٤٧٣).

(٢) **ضعيف** : رواه أحمد (٥٧٦٣) والترمذى (٣٤٥٠) والنسائى (٩٢٧و٩٢٨) وابن السنى فى " عمل اليوم والليلة " (٢٩٨) والحاكم (٢٨٦/٤) والبيهقى (٣٦٢/٣) وفى سنده أبى مطر وهو مجهول كما فى "التقريب " (٤٧٣/٢) .

(٣) رواه أحمد (٨٦٩٣) والطيالسى (٢٥٨٦) والحاكم (٢٥٦/٤) وقال الحاكم : صحيح الإسناد وتعقبه الذهبى بقوله : صدقة ضعفوه ، وفى السند أيضاً شتير ويقال سُمير ، قال الذهبى فى " الميزان " " نكرة " .

وقال تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتفطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالمَلآئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشورى : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [غافر: ٧، ٨].

وقال تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ﴾ [فصلت : ٣٨] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ، وَإِنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات : ١٦٤ - ١٦٦] وقال تعالى : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم : ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ. مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ١٠-١٢]
وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ ﴾ [المدثر : ٣١]

وقال تعالى : ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ. سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد : ٢٣ ، ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلآئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١] .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ وَنُزِّلَ المَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً. المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكَافِرِينَ عَسِيراً ﴾ [الفرقان : ٢٥ ، ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُواً كَبِيراً. يَوْمَ يَرَوْنَ المَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً ﴾ [الفرقان : ٢١ ، ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٩٨] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

والآيات في ذكر الملائكة كثيرة جدا يصفهم تعالى بالقوة في العبادة وفي الخلق وحسن المنظر وعظمة الأشكال وقوة الشكل في الصور المتعددة كما قال تعالى : ﴿وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ. وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ الآيات [هود: ٧٧، ٧٨] .

فذكرنا في التفسير مَا ذكره غير واحد من العلماء من أن الملائكة تبدو لهم في صورة شباب حسان امتحانا واختبارا حتى قامت على قوم لوط الحجة، وأخذهم اللّه أخذ عزيز مقتدر. وكذلك كان جبريل يأتي إِلَى النبي ﷺ في صفات متعددة فتارة يأتي في صورة دحية ابن خليفة الكلبي، وتارة في صورة أعرابي، وتارة في صورته التي خلق عليها. له ستمائة جناح مَا بين كل جناحين كمَا بين المشرق والمغرب كمَا رآه على هذه الصفة مرتين. مرة منهبطا من السماء إِلَى الأرض. وتارة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى. وهو قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى، وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ [النجم : ٥ - ٨] .

أي جبريل كمَا ذكرناه عن غير واحد من الصحابة. منهم ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو ذر، وعائشة : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٩ ، ١٠] .

أي إِلَى عبد اللّه محمد ﷺ ثم قال : ﴿ وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٣ - ١٧] .

وقد ذكرنا في أحاديث الإسراء في سورة سبحان أن سدرة المنتهى في السماء السابعة. وفي رواية في السادسة أي أصلها وفروعها في السابعة فلما غشيها من أمر اللّه مَا غشيها. قيل: غشيها نور الرب جلّ جلاله. وقيل : غشيها فراش من ذهب. وقيل : غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة. وقيل : غشيها الملائكة مثل الغربان. وقيل : غشيها من نور اللّه تعالى فلا يستطيع أحد أن ينعتها. أي من حسنها وبهائها. ولا منافاة بين هذه الأقوال إذ الجميع ممكن حصوله في حال واحدة. وذكرنا أن رسول اللّه ﷺ قال :« **ثم رفعت إلي سدرة المنتهى فإذا نبقها كالقلال** » [(١)]. وفي رواية « **كقلال هجر، وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران. فأمّا الباطنان ففي الجنة. وأمّا الظاهران فالنيل والفرات** ». وتقدم الكلام على هذا في ذكر خلق الأرض، ومَا فيها من البحار والأنهار. وفيه : « **ثم رفع لي البيت المعمور، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر مَا عليهم** » وذكر أنه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مستندا ظهره إِلَى البيت المعمور. وذكرنا وجه المناسبة في هذا أن البيت المعمور هو في السماء السابعة بمنــزلة الكعبة في الأرض .

وقد روى سفيان الثوري، وشعبة، وأبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة، أن ابن الكوَّا سأل علي بن أبي طالب عن البيت المعمور، فقال : هو مسجد في السماء السابعة يقال له : الضُراح، وهو بحيال الكعبة من فوقها. حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه أبدا . وهكذا روى علي بن ربيعة وأبو الطفيل عن علي مثله .

وقال الطبراني : أنبأنا الحسن بن علوية القطان حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار حدثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة حدثنا ابن جريج عن صفوان بن سليم عن كريب عن ابن عباس

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٢ / ٢٥٩) .

قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **البيت المعمور في السماء يقال له الضراح وهو على مثل البيت الحرام بحياله لو سقط لسقط عليه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يرونه قط فإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة** ». يعني في الأرض وهكذا قال العوفي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والربيع ابن أنس، والسدي وغير واحد . وقال قتادة : ذكر لنا أن رسول اللّه ﷺ قال يومًا لأصحابه : « **هل تدرون مَا البيت المعمور؟** » قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال : « **مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر مَا عليهم** » . وزعم الضحاك أنه تعمره طائفة من الملائكة يقال لهم : الجن من قبيلة إبليس لعنه اللّه كان يقول : سدنته وخدامه منهم واللّه أعلم .

وقال آخرون : في كل سماء بيت يعمره ملائكته بالعبادة فيه، ويفدون إليه بالنوبة والبدل كمَا يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج في كل عام والاعتماد في كل وقت والطواف والصلاة في كل آن . قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في أوائل كتابه المغازي : حدثنا أبو عبيد في حديث مجاهد : « **أن الحرم حرم مناه يعني قدره من السَّمَوَات السبع والأرضين السبع، وأنه رابع أربعة عشر بيتا في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت لو سقطت سقط بعضها على بعض** » ثم روى مجاهد قال : مناه أي مقابله وهو حرف مقصور. ثم قال : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سليمان مؤذن الحجاج سمعت عبد اللّه بن عمرو يقول : إن الحرم محرم في السَّمَوَات السبع مقداره من الأرض - وإن بيت المقدس مقدس في السَّمَوَات السبع مقداره من الأرض كمَا قال بعض الشعراء :

إنّ الذي سَمَكَ السّماءَ بَنَــى لها … بَيْتــــاً دَعائمهُ أشــدُّ وأطْــوَلُ

واسم البيت الذي في السماء بيت العزة. واسم الملك الذي هو مقدم الملائكة فيها إسماعيل. فعلى هذا يكون السبعون ألفاً من الملائكة الذين يدخلون في كل يوم إلَى البيت المعمور، ثم لا يعودون إليه. " آخر مَا عليهم " "أي لا يحصل لهم نوبة فيه إلَى آخر الدهر " يكونون من سكان السماء السابعة وحدها. ولهذا قال تعالى : ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر : ٣١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبي ذر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إني أرى مَا لا ترون وأسمع مَا لا تسمعون أطّت السماء وحق لها أن تئط مَا فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لو علمتم مَا أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ولَمَا تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلَى الصعدات تجأرون** (١) **إلَى اللّه عز وجل** »(٢) فقال أبو ذر : واللّه لوددت أني شجرة تعضد، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث إسرائيل، فقال الترمذي : حسن غريب ويروى عن أبي ذر موقوفا .

---

(١) تجأرون : ترفعون أصواتكم بالدعاء .

(٢) **حسن**: رواه الترمذى (٢٣١٢) وأحمد (٢١٥٧٢) وابن ماجه (٤١٩٠) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا حسين بن عرفة المصري حدثنا عروة بن عمران الرقي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « **مَا فِي السَّمَوَات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً : مَا عبدناك حق عبادتك إلا أنا لا نشرك بك شيئاً** » [1] فدل هذان الحديثان على أنه مَا من موضع في السَّمَوَات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة وهم في صنوف من العبادة. منهم من هو قائم أبداً. ومنهم من هو راكع أبداً، ومنهم من هو ساجد أبداً، ومنهم من هو في صنوف أخر والله أعلم بها. وهم دائمون في عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم الله بها، ولهم منازل عند ربهم كمَا قال تعالى : ﴿ **وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ** ﴾ [الصافات :١٦٤- ١٦٦].

وقال ﷺ : « **ألا تصفون كمَا تصف الملائكة عند ربها** ». قالوا : وكيف يصفون عند ربهم، قال : « **يكملون الصف الأول ويتراصون في الصف** » [2] . وقال : « **فُضلنا على الناس بثلاث : جُعلت لنا الأرض مسجداً ، وتربتها لنا طهوراً ، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة** ». [3] وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب جل جلاله صفوفا كمَا قال تعالى : ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً** ﴾ [الفجر : ٢٢] .

ويقفون صفوفا بين يدي ربهم عزّ وجلّ يوم القيامة كمَا قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً** ﴾ [النبأ : ٣٨] .

والمراد بالروح هاهنا : بنو آدم قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة. وقيل : ضرب من الملائكة يشبهون بني آدم في الشكل. قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش. وقيل: جبريل. قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك. وقيل : ملك يقال له : الروح بقدر جميع المخلوقات. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : ﴿ **يوم يقوم الروح** ﴾. قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقا.

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن خلف العسقلاني حدثنا داود بن الجراح عن أبي حمزة عن الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود. قال : الروح في السماء الرابعة هو أعظم السَّمَوَات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكا من الملائكة يجيء يوم القيامة صفا وحده. وهذا غريب جدا.

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم المصري، حدثنا ابن وهب بن رزق أبو هبيرة، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثني عطاء عن عبد الله بن عباس. قال

---

(١) الطبراني في الكبير (١٧٥١) وقال الهيثمي في المجمع (١ / ٥٢) فيه عروه بن مروان .

(٢) رواه مسلم (٤٣٠) في الصلاة ، باب الأمر بالسكون في الصلاة وإتمام الصفوف الأول والتراص فيها . عن جابر بن سمرة رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم (١١٤٥) كتاب الصلاة ، باب كتاب المساجد عن حذيفة رضي الله عنه .

سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول : « **إن للّٰه ملكا لو قيل له : التقم السَّمٰوَات والأرضين بلقمة واحدة لفعل. تسبيحه سبحانك حيث كنت** ». وهذا أيضا حديث غريب جدا. وقد يكون موقوفا. وذكرنا في صفة حملة العرش عن جابر بن عبد اللّٰه قال رسول اللّٰه ﷺ : «**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة اللّٰه من حملة العرش إن مَا بين شحمة أذنه إِلَى عاتقه مسيرة سبعمائة عام** ». [1]رواه أبو داود وابن أبي حاتم ولفظه : «**مخفق الطير سبعمائة عام** ».

وقد ورد في صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم. قال اللّٰه تعالى : ﴿ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى** ﴾ [النجم : ٥] .

قالوا : كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط وكن سبعاً بمن فيها من الأمم وكانوا قريبا من أربعمائة ألف ومَا معهم من الدواب والحيوانات ومَا لتلك المدن من الأراضي والمعتملات والعمارات وغير ذلك. رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فهذا هو شديد القوى. وقوله : ﴿ **ذو مرة** ﴾ أي خلق حسن وبهاء وسناء كمَا قال في الآية الأخرى : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾ [الحاقة : ٤٠، والتكوير : ١٩] أي جبريل رسول من اللّٰه كريم أي حسن المنظر ذي قوة أي له قوة وبأس شديد عند ذي العرش، مكين أي له مكانه ومنـــزلة عالية رفيعة عند اللّٰه ﴿ **ذي العرش المجيد** ﴾ مطاع ثم ، أي مطاع في الملأ الأعلى أمين ، أي ذي أمانة عظيمة. ولهذا كان هو السفير بين اللّٰه وبين أنبيائه عليهم السلام الذي ينـــزل عليهم بالوحي. فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة. وقد كان يأتي إِلَى رسول اللّٰه ﷺ ، وينـــزل عليه في صفات متعددة كمَا قدمنا. وقد رآه على صفته التي خلقه اللّٰه عليها مرتين. له ستمائة جناح كمَا روى البخاري عن طلق بن غنام عن زائدة الشيباني. قال : سألت زرا عن قوله ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى** ﴾ [النجم : ٩، ١٠]. قال : حدثنا عبد اللّٰه يعني ابن مسعود أن محمدا ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح. وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن جامع بن راشد عن أبي وائل عن عبد اللّٰه قال : رأى رسول اللّٰه ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل من الدر والياقوت مَا اللّٰه به عليم [2] .

وقال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود في هذه الآية : ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى** ﴾ [النجم: الآية ١٣] .

قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « **رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل الدر والياقوت** » [3]. وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنا الحسين حدثني عاصم بن بهدلة سمعت

---

(١) صحيح : رواه أبو داود (٤٧٢٧) .

(٢) حسن : رواه أحمد (١ / ٤٦٠).

(٣) حسن : رواه أحمد (١/٤١٢و٤٦٠).

شقيق بن سلمة يقول : سمعت ابن مسعود يقول : قال رسول اللَّه ﷺ: « رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ». [١] فسألت عاصمًا عن الأجنحة فأبى أن يخبرني قال : فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح مَا بين المشرق والمغرب. وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد.

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثني حسين حدثني حصين، حدثني شقيق سمعت ابن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أتاني جبريل فِي خَضْرٍ تعلق به الدر » [٢]. إسناده صحيح .

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بزيغ البغدادي. قال : حدثنا إسحاق بن منصور : قال : حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد اللَّه ﴿ مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [النجم : ١١].

قال : رأى رسول اللَّه ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ مَا بين السماء والأرض. إسناد جيد قوي. وفِي الصحيحين من حديث عامر الشعبي عن مسروق قال : كنت عند عائشة فقلت : أليس اللَّه يقول : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بالأُفُقِ المُبِينِ ﴾ [التكوير : ٢٣] ﴿ولَقَدْ رَءَآه نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم : الآية ١٣ فقالت أنا أول هذه الأمة سأل رسول اللَّه ﷺ عنها فقال : « إنَمَا ذاك جبريل لم يره فِي صورته التي خلق عليها إلا مرتين رآه منهبطاً من السماء إِلَى الأرض سادا عظمُ خلقه مَا بين السماء والأرض » [٣] .

وقال البخاري : حدثنا أبو نعيم حدثنا عمر بن ذر "ح " وحدثني يحيى بن جعفر حدثنا وكيع عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال : رسول اللَّه ﷺ لجبريل : « ألا تزورنا أكثر مما تزورنا » قال : فنـــزلت : ﴿ ومَا نَتنَزّلُ إلاَ بأمْرِ ربِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أيدِينَا ومَا خَلْفَنَا ﴾ [٤] [مريم : ٦٤] .

وروى البخاري : من حديث الزهري عن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه عن ابن عباس قال: «كان رسول اللَّه ﷺ أجود الناس، وكان أجود مَا يكون فِي رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه فِي كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن » فرسول اللَّه ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة [٥].

وقال البخاري : حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخر العصر شيئاً فقال له عروة : أمَا إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول اللَّه ﷺ فقال عمر : أعلم مَا تقول يا عروة. قال : سمعت بشير بن أبي مسعود يقول : سمعت أبا مسعود يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « نزل جبريل فأمني فصليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه – يحسب بأصابعه خمس صلوات» [٦] .

---

(١) حسن : رواه أحمد (٣٨٦٢).

(٢) صحيح : رواه أحمد (٣٨٦٣).

(٣) متفق عليه : رواه البخارى (٣٢٣٥) ومسلم (١٧٧ / ٢٨٧) .

(٤) رواه البخارى (٣٢١٨) .

(٥) رواه البخارى (٦) كتاب بدء الوحى .

(٦) رواه البخارى (٤٠٠٧) كتاب المغازى.

ومن صفة إسرافيل عليه السلام، وهو أحد حملة العرش، وهو الذي ينفخ في الصور بأمر ربه نفخات ثلاثة ، أولاهن : نفخة الفزع . والثانية : نفخة الصعق. والثالثة : نفخة البعث كمَا سيأتي بيانه في موضعه من كتابنا هذا بحول اللّه وقوته وحسن توفيقه ، والصور قرن ينفخ فيه . كل دارة منه كمَا بين السماء والأرض. وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره اللّه بالنفخ للبعث فإذا نفخ تخرج الأرواح تتوهج فيقول الرب جلّ جلاله : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إِلَى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا، فتدخل على الأجساد في قبورها فتدب فيها كمَا يدب السم في اللديغ، فتحيى الأجساد، وتنشق عنهم الأجداث، فيخرجون منها سراعاً إِلَى مقام المحشر كمَا سيأتي تفصيله في موضعه .

ولهذا قال رسول اللّه ﷺ : « **كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له؟** » . قالوا : كيف نقول يا رسول اللّه ؟ قال : « **قولوا : حسبنا اللّه ونعم الوكيل، على اللّه توكلنا** »[١] . رواه أحمد والترمذي من حديث عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية حدثنا الأعمش عن سعد الطائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد قال : ذكر رسول اللّه ﷺ صاحب الصور، فقال : « **عن يمينه جبريل، وعن يساره ميكائيل عليهم السلام** » [٢].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد اللّه الحضرمي حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى حدثني عن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس، قال : بينا رسول اللّه ﷺ ومعه جبريل بناحية إذ انشق أفق السماء فأقبل إسرافيل يدنو من الأرض، ويتمايل فإذا ملك قد مثل بين يدي النبي ﷺ، فقال : يا محمد إن اللّه يأمرك أن تختار بين نبي عبد أو ملك نبي قال : « **فاشار جبريل إلي بيده أن تواضع فعرفت أنه لي ناصح فقلت عبد نبي** ». فعرج ذلك الملك إِلَى السماء، فقلت : « **يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك مَا شغلني عن المسألة فمن هذا يا جبريل ؟** » فقال : هذا إسرافيل عليه السلام خلقه اللّه يوم خلقه بين يديه صافا قدميه لا يرفع طرفه بينه وبين الرب سبعون نورا مَا منها من نور يكاد يدنو منه إلا احترق بين يديه لوح فإذا أذن اللّه في شيء من السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر فإن كان من عملي أمرني به وإن كان من عمل ميكائيل أمره به وإن كان من عمل ملك الموت أمره به . « **قلت : يا جبريل وعلى أي شيء أنت** » قال : على الريح والجنود. « **قلت : وعلى أي شيء ميكائيل؟** » قال : على النبات والقطر : « **قلت : وعلى أي شيء ملك الموت؟** » قال : على قبض الأنفس، ومَا ظننت أنه نزل إلا لقيام الساعة، ومَا الذي رأيت مني إلا خوفا من قيام الساعة. هذا حديث غريب من هذا الوجه. وفي صحيح مسلم عن عائشة : أن رسول اللّه ﷺ

---

(١) **ضعيف** : رواه الترمذى (٣٢٤٣) وأحمد (٣٠١٠) وفى سنده عطية العوفى وهو ضعيف .

(٢) رواه أحمد (١١٠٦٩) .

كان إذا قام من اللَّيْل يصلي يقول : « **اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السَّمَوَات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيمَا كانوا فيه يختلفون اهدني لِمَا اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إِلَى صراط مستقيم** »[1] .

وفِي حديث الصور أن إسرافيل أول من يبعثه اللَّه بعد الصعق لينفخ فِي الصور. وذكر محمد بن الحسن النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة فجوزي بولاية اللوح المحفوظ. حكاه أبو القاسم السهيلي فِي كتابه " التعريف والأعلام. بمَا أبهم فِي القرآن من الأعلام" .

وقال تعالى: ﴿ **مَنْ كَانَ عَدُوّاً للَّهِ وَمَلائكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ** ﴾ [البقرة:٩٨] عطفهمَا على الملائكة لشرفهمَا فجبريل ملك عظيم قد تقدم ذكره. وأمَا ميكائيل فموكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عز وجل ومن أشراف الملائكة المقربين.

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو اليمان حدثنا ابن عباس عن عمارة بن غزنة الأنصاري أنه سمع حميدَ بن عبيد مولى بني المعلى يقول : « سمعت ثابت البناني يحدث عن أنس بن مالك عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال لجبريل : « **مالي لم أر ميكائيل ضاحكا قط** » فقال : « مَا ضحك ميكائيل منذ خلقت النار »[2]. فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم فِي القرآن وفِي الصحاح هم المذكورون فِي الدعاء النبوي « **اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل** »[3]. فجبريل ينـــزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم. وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهمَا الأرزاق فِي هذه الدار، وله أعوان يفعلون مَا يأمرهم به بأمر ربه. يصرفون الرياح والسحاب كمَا يشاء الرب جل جلاله. وقد روينا : أنه مَا من قطرة تنـــزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها فِي موضعها من الأرض وإسرافيل موكل بالنفخ فِي الصور للقيام من القبور. والحضور يوم البعث والنشور ليفوز الشكور. ويجازى الكفور. فذاك ذنبه مغفور. وسعيه مشكور. وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور. وهو يدعو بالويل والثبور فجبريل عليه السلام يحصل بمَا ينـــزل به الهدى. وميكائيل يحصل بمَا هو موكل به الرزق. وإسرافيل يحصل بمَا هو موكل به النصر والجزاء.

وأمَا ملك الموت، فليس بمصرح باسمه فِي القرآن، ولا فِي الأحاديث الصحاح. وقد جاء تسميته فِي بعض الآثار بعزرائيل واللَّه أعلم. قد قال اللَّه تعالى : ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَّلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ** ﴾ [السجدة : ١١] .

وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم فيتناولها ملك الموت بيده فإذا أخذها لم يدعوها فِي يده طرفة عين حتى يأخذوها منه فيلقوها فِي أكفان تليق بها كمَا قد بسط عند قوله : ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرةِ** ﴾ [إبراهيم :٢٧].

---

(١) رواه مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠) .

(٢) **ضعيف**: رواه أحمد (١٣٢٧٦) وفى سنده حميد بن عبيد مولى بنى المعلى قال فى "تعجيل المنفعة" (ص١٢٣) لايدرى من هو ، وإسماعيل بن عياش . ضعيف فى روايته عن غير أهل بلده وهو هنا يروى عن المدنيين .

(٣) رواه مسلم (١٧٨٠) وأحمد (١٥٦/٦) وأبو داود (٧٦٧) والترمذى (٣٤٢) والنسائى (٢٥١/٣)وابن ماجه (١٣٥٧) عن عائشة رضى الله عنها .

ثم يصعدون بها فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا غلقت دونها وألقي بها إِلَى الأرض قال اللَّه تعالى : ﴿**وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الحَقُّ أَلاَ لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ**﴾ [الأنعام : ٦١ ،٦٢].

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنهم قالوا : إن الأرض بين يدي ملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء، وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الإنسان على حسب عمله إن كان مؤمنا أتاه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب طيبة الأرواح. وإن كان كافرا فبالضد من ذلك. عياذا باللَّه العظيم من ذلك.

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقري حدثنا عمرو بن شمر قال: سمعت جعفر بن محمد قال : سمعت أبي يقول : نظر رسول اللَّه ﷺ إِلَى ملك الموت عند رأس رجل منْ الأنصار فقال له النبي ﷺ : « **يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن** » فقال ملك الموت : يا محمد طب نفسا وقر عينا فإني بكل مؤمن رفيق. واعلم أن مَا فِي الأرض بيت مدر ولا شعر فِي بر ولا بحر إلا وأنا أتفحصهم فِي كل يوم خمس مرات حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم واللَّه يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة مَا قدرت على ذلك حتى يكون اللَّه هو الآمر بقبضها. قال جعفر بن محمد أبي هو الصادق : بلغني بتفحصهم عند مواقيت الصلاة فإذا حضر عند الموت، فإذا كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك " لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه " فِي تلك الحال العظيمة. هذا حديث مرسل وفيه نظر.

وذكرنا فِي حديث الصور من طريق إسماعيل بن رافع المدني القاص عن محمد ابن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ الحديث بطوله. وفيه « **ويأمر اللَّه إسرافيل بنفخة الصعق. فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السَّمَوَات وأهل الأرض إلا من شاء اللَّه فإذا هم قد خمدوا جاء ملك الموت إِلَى الجبار عزّ وجلّ فيقول : يا رب قد مات أهل السَّمَوَات والأرض إلا من شئت. فيقول اللَّه وهو أعلم بمن بقي فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقي جبريل وميكائيل. فيقول : ليمت جبريل وميكائيل فينطق اللَّه العرش فيقول يا رب يموت جبريل وميكائيل فيقول : اسكت فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي فيموتان ثم يأتي ملك الموت إِلَى الجبار عزّ وجلّ، فيقول : يا رب قد مات جبريل وميكائيل فيقول اللَّه وهو أعلم بمن بقي : فمن بقي؟ فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا يموت، وبقيت حملة عرشك وبقيت أنا فيقول اللَّه : لتمت حملة عرشي فتموت، ويأمر اللَّه العرش فيقبض الصور من إسرافيل ثم يأتي ملك الموت فيقول : يا رب قد مات حملة عرشك فيقول اللَّه وهو أعلم بمن بقي : فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحي لا يموت وبقيت أنا، فيقول اللَّه : أنت خلق من خلقي خلقتك لَمَا أردت فمت فيموت فإذا لم يبق إلا اللَّه الواحد القهار الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. كان آخراً كمَا كان أولا** » [1] . وذكر تمام

(١) **ضعيف جداً** : قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (١٥٢/٢) : هذا حديث مشهور غريب جداً ولبعضه شواهد فى الأحاديث المتفرقة وفى بعض ألفاظه نكارة ، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضى أهل المدينة وقد=

الحديث بطوله رواه الطبراني وابن جرير والبيهقي ورواه الحافظ أبو موسى المديني فِي كتاب "الطوالات" وعنده زيادة غريبة وهي قوله : « **فيقول اللَّه له : أنت خلق من خلقي خلقتك لَمَا أردت فمت موتا لا تحيى بعده أبدا**» .

ومن الملائكة المنصوص على أسمائهم فِي القرآن : هاروت وماروت فِي قول جماعة كثيرة من السلف. وقد ورد فِي قصتهمَا ومَا كان من أمرهمَا آثار كثيرة غالبها إسرائيليات .

وروى الإمام أحمد حديثا مرفوعا عن ابن عمر وصححه ابن حبان فِي تقاسيمه. وفِي صحته عندي نظر والأشبه أنه موقوف على عبد اللَّه بن عمر ويكون ممَا تلقاه عن كعب الأحبار كمَا سيأتى بيانه واللَّه أعلم. وفيه : « أنه تمثلت لهمَا الزهرة امرأة من أحسن البشر » وعن علي وابن عباس وابن عمر أيضا أن الزهرة كانت امرأة وأنهمَا لَمَا طلبا منها مَا ذكر أبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته فارتفعت إِلَى السماء فصارت كوكبا .

وروى الحاكم فِي مستدركه عن ابن عباس قال : وفِي ذلك الزمان امرأة حسنها فِي النساء كحسن الزهرة فِي سائر الكواكب، وهذا اللفظ أحسن مَا ورد فِي شأن الزهرة. ثم قيل: كان أمرهمَا وقصتهمَا فِي زمان إدريس وقيل : فِي زمان سليمان بن داود كمَا حررنا ذلك فِي التفسير.

وبالجملة فهو خبر إسرائيلي مرجعه إِلَى كعب الأحبار كمَا رواه عبد الرزاق فِي تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار بالقصة. وهذا أصح إسنادا وأثبت رجالا واللَّه أعلم. ثُمَّ قد قيل : إن المراد بقوله : ﴿**وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ**﴾ [البقرة : ١٠٢] . قبيلان من الجان قاله ابن حزم وهذا غريب وبعيد من اللفظ. ومن الناس من قرأ « ومَا أنزل على الملكين » بالكسر ويجعلهمَا علجين من أهل فارس. قاله الضحاك. ومن الناس من يقول: همَا ملكان من السماء، ولكن سبق فِي قدر اللَّه لهمَا مَا ذكره من أمرهمَا إن صح به الخبر ويكون حكمهمَا كحكم إبليس إن قيل : إنه من الملائكة لكن. الصحيح أنه من الجن كمَا سيأتى تقريره.

ومن الملائكة المسمين فِي الحديث منكر ونكير عليهمَا السلام. وقد استفاض فِي الأحاديث ذكرهمَا فِي سؤال القبر. وقد أوردناها عند قوله تعالى : ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

= اختلف فيه فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وأبى حاتم الرازى وعمرو بن على الفلاس . ومنهم من قال فيه هو متروك . وقال ابن عدى أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه فى جملة الضعفاء . قلت : وقد اختلف عليه فى إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردها فى جزء على حدة . وأما سياقه فغريب جداً ويقال إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك ، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث فالله أعلم .

وهمَا فتانا القبر موكلان بسؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه ويمتحنان البر والفاجر وهمَا أزرقان أفرقان لهمَا أنياب، وأشكال مزعجة وأصوات مفزعة أجارنا اللّه من عذاب القبر وثبتنا بالقول الثابت آمين.

وقال البخاري : حدثنا عبد اللّه بن يوسف حدثنا ابن وهب حدثني يونس عن ابن شهاب حدثني عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال : « **لقد لقيت من قومك وكان أشد مَا لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إِلَى مَا أردت فانطلقت، وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال : إن اللّه قد سمع قول قومك لك ومَا ردوا به عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بمَا شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال : يا محمد فقال : ذلك فمَا شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّه وحده ولا يشرك به شيئا** » [1] .ورواه مسلم من حديث ابن وهب به.

فصل في أقسام الملائكة

ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إِلَى مَا هيأهم اللّه له أقسام . فمنهم حملة العرش كمَا تقدم ذكرهم ، ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش، وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش. وهم الملائكة المقربون كمَا قال تعالى : ﴿ **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾. [النساء : ١٧٢].

ومنهم جبريل وميكائيل عليهمَا السلام. وقد ذكر اللّه عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كمَا قال تعالى : ﴿ **وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ. إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ. وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [غافر : ٧ -٩] .

ولمَا كانت سجاياهم هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة فثبت في الحديث عن الصادق المصدوق أنه. قال : « **إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ولك بمثل** » [2].

ومنهم سكان السمَوَات السبع يعمرونها عبادة دائبة ليلا ونهارا صباحا ومساء كمَا قال تعالى : ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٢٠] .

فمنهم الراكع دائمًا، والقائم دائمًا، والساجد دائما. ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إِلَى البيت المعمور كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر مَا عليهم. ومنهم الموكلون بالجنان

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٢٧١) ومسلم (١٧٩٥ /١١١) .

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (١٥٣٤) والخرائطى فى " مكارم الأخلاق " (٧٨٧) .

وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وخازن الجنة ملك يقال له : رضوان جاء مصرحا به في بعض الأحاديث. ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية. ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة. وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ** ﴾ الآية. [غافر : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ. قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ [الزخرف : ٧٧ ، ٧٨] .

وقال تعالى: ﴿**عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم:٦].

وقال تعالى : ﴿ **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً. كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ** ﴾ [المدثر: ٣٠،٣١] .

وهم الموكلون بحفظ بني آدم كمَا قال تعالى : ﴿ **سَوَاءٌ مِّنكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ. لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** ﴾ [الرعد : ١٠ ، ١١] .

قال الوالبي عن ابن عباس : ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ والمعقبات من أمر الله هي الملائكة، وقال عكرمة عن ابن عباس : يحفظونه من أمر اللّه. قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه، ومن خلفه فإذا جاء قدر اللّه خلوا عنه ، وقال مجاهد : مَا من عبد إلا وملك موكل بحفظه في نومه. ويقظته من الجن والإنس والهوام. وليس شيء يأتيه يريده إلا قال : وراءك إلا شيء يأذن اللّه فيه فيصيبه.

وقال أبو أسامة:مَا من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له

وقال أبو مجلز: جاء رجل إِلَى علي فقال : إن نفرا من مراد يريدون قتلك فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه ممَا لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، إن الأجل جُنة حصينة. ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كمَا قال تعالى : ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق : ١٧، ١٨] .

وقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الانفطار:١٠-١٢] .

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في تفسيره : حدثنا أبي. حدثنا علي ابن محمد الطنافسي. حدثنا وكيع حدثنا سفيان ومسعر عن علقمة بن يزيد عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ : « **أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين الجنابة، والغائط فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجذم حائط أو بعيره أو يستره أخوه** ». هذا مرسل من هذا الوجه، وقد وصله البزار في مسنده من طريق جعفر بن سليمان.وفيه كلام عن علقمة عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله ينهاكم عن التعري استحيوا من الله والذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط، والجنابة، والغسل. فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذْمَة [1]حائط أو بعيره** » [2] . ومعنى إكرامهم أن يستحي منهم فلا يملي عليهم الأعمال القبيحةَ التي يكتبونها فإن الله خلقهم كرامًا في خلقهم وأخلاقهم. ومن كرمهم أنه قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال :« **لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب** » [3] . وفي رواية عن عاصم بن ضمرة عن علي « **ولا بول** » وفي رواية رافع عن أبي سعيد مرفوعا : « **لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا تمثال** » [4] .

وفي رواية مجاهد عن أبي هريرة مرفوعا : « **لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو تمثال** » .

وفي رواية ذكوان أبي صالح السماك عن أبي هريرة : قال: قال رسول الله ﷺ : « **لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس** » [5] رواه زرارة بن أوفى عنه « **لا تصحب الملائكة رفقة معهم جرس** ».

وقال البزار : حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقلوس. حدثنا بيان بن حمران حدثنا سلام عن منصور بن زاذان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « **إن ملائكة الله يعرفون بني آدم** » - وأحسبه قال - : « **ويعرفون أعمالهم فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا : أفلح الليلة فلان نجا الليلة فلان. وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه. وقالوا : هلك فلان الليلة** ». ثم قال سلام : أحسبه سلام المدائني وهو لين الحديث.

وقد قال البخاري : حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **الملائكة يتعاقبون ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في**

---

(١) جذمة حائط : بقية حائط .

(٢) **ضعيف** : رواه البزار (٣١٧-كشف) وفى سنده حفص بن سليمان وهو ضعيف.

(٣) **ضعيف** : رواه أحمد (١/ ٨٠و٨٣و١٠٤و١٠٧و١٣٩و١٥٠) وأبو داود (٢٢٧و٤١٥٢) والنسائى (١/ ١٤١و١٥٨/٧) وابن ماجه (٣٦٥٠) والحاكم (١٧١/١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه . وفى سنده نجى الحضرمى وهو مقبول كما فى " التقريب " (٢٩٨/٢) وأصل الحديث فى الصحيحين دون ذكر الجنب من حديث أبى طلحة رضى الله عنه .

(٤) **صحيح** : رواه أحمد (٩٠/٣) ومالك فى " الموطأ " (٩٦٥/٢،٩٦٦) والترمذى (٢٨٠٥) وابن حبان (٥٨٤٩ - إحسان).

(٥) **صحيح** : رواه أبو داود (٢٥٥٥)والترمذى (١٧٠٣) وأحمد (٩١٠٠)والدارمى (٢ / ٢٨٨).

صلاة الفجر وصلاة العصر. ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم فيقول كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون » [(١)] . هذا اللفظ في كتاب بدء الخلق بهذا السياق وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الوجه. وقد أخرجاه في الصحيحين في البدء من حديث مالك عن أبي الزناد به .

وقال البزار : حدثنا زياد بن أيوب حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي حدثنا تمام بن نجيح عن الحسن – يعني البصري – عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **مَا من حافظين يرفعان إِلَى اللّه عزّ وجلّ مَا حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفارا إلا قال اللّه غفرت لعبدي مَا بين طرفي الصحيفة** ». ثم قال : تفرد به تمام بن نجيح وهو صالح الحديث.

قلت : وقد وثقه ابن معين، وضعفه البخاري، وأبو حاتم، وأبو زرعة، والنسائي، وابن عدي ، ورماه ابن حبان بالوضع. وقال الإمام أحمد : لا أعرف حقيقة أمره والمقصود أن كل إنسان له حافظان ملكان اثنان واحد من بين يديه وآخر من خلفه يحفظانه من أمر اللّه بأمر اللّه عزّ وجلّ. وملكان كاتبان عن يمينه وعن شماله وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال. كمَا ذكرنا ذلك عند قوله تعالى : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق :١٧ ، ١٨] .

فأمّا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا سفيان حدثنا منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد اللّه –هو ابن مسعود– قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **مَا منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة** ». قالوا : وإياك يا رسول اللّه قال : « **وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير** ». [(٢)] انفرد بإخراجه مسلم من حديث منصور به، فيحتمل أن هذا القرين من الملائكة غير القرين بحفظ الإنسان وإنّمَا هو موكل به ليهديه ويرشده بإذن ربه إِلَى سبيل الخير وطريق الرشاد كمَا أنه قد وكل به القرين من الشياطين لايألوه جهدا في الخبال والإضلال. والمعصوم من عصمه اللّه عزّ وجلّ وباللّه المستعان.

وقال البخاري : حدثنا أحمد بن يونس. حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن والأغر عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاؤوا يسمعون الذكر** ». [(٣)] وهكذا رواه منفردا به من هذا الوجه وهو في الصحيحين من وجه آخر. وقد قال اللّه تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾. [الإسراء : ٧٨].

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسباط حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ وحدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ

(١) رواه البخاري (٥٥٥) كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة العصر .
(٢) رواه مسلم (٦٩٧٠) وأحمد (٣٧٧٩).
(٣) رواه البخاري (٣٢١١) كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة .

الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ قال تشهده ملائكة اللَّيْل وملائكة النهار . ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أسباط. وقال الترمذي : حسن صحيح [١]. قلت : وهو منقطع.

قال البخاري : حدثنا عبد اللّه بن محمد. حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « **فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، ويجتمع ملائكة اللَّيْل وملائكة النهار فِي صلاة الفجر** » يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **وَقُرْآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** ﴾ [٢] .

وقال البخاري حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ : « **إذا دعا الرجل امرأته إِلَى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح** ».[٣] تابعه شعبة وأبو حمزة وأبو داود وأبو معاوية عن الأعمش .

وثبت فِي الصحيحين أن رسول اللّه ﷺ قال : « **إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له مَا تقدم من ذنبه** ». [٤] وفِي صحيح البخاري حدثنا إسماعيل بلفظ : « **إذا قال الإمام آمين فإن الملائكة تقول فِي السماء آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له مَا تقدم من ذنبه** ».[٥] وفِي صحيح البخاري حدثنا إسماعيل حدثني مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « **إذا قال الإمام سمع اللّه لمن حمده فقولوا : اللهم ربنا ولك الحمد فإن من وافق قول الملائكة غفر له مَا تقدم من ذنبه** »[٦].ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث مالك.

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد هو شك – يعني الأعمش – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إن للّه ملائكة سياحين فِي الأرض فضلا عن كُتَّاب الناس، فإذا وجدوا أقوامًا يذكرون اللّه فنادوا هلموا إِلَى بغيتكم يجيئون بهم إِلَى السماء الدنيا فيقول اللّه : أي شيء تركتم عبادي يصنعون ؟ فيقولون : تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك. فيقول وهل رأوني ؟ فيقولون: لا. فيقول : كيف لو رأوني؟ فيقولون : لو رأوك لكانوا أشد تحميدا وتمجيدا وذكرا. قال : فيقول : فأي شيء يطلبون ؟ فيقولون : يطلبون الجنة، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا. فيقول : وكيف لو رأوها؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا. قال: فيقول : من أي يتعوذون؟ فيقولون : من النار، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا. فيقول : فكيف لو**

---

(١) **صحيح** : رواه أ حمد (١٠٠٨٩) والترمذى (٣١٣٥) والنسائى (٢٤١/١) وابن ماجه (٦٧٠) .

(٢) رواه البخارى (٤٧١٧) كتاب التفسير – باب ﴿ **إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ .

(٣) رواه البخارى (٣٢٣٧) كتاب بدء الخلق – باب إذا كان قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء فوافقت أحدهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه .

(٤) **متفق عليه** : رواه البخارى (٧٨٠) ومسلم (٤١٠ / ٧٢) .

(٥) رواه البخارى (٧٨١) كتاب الأذان – باب فضل التأمين .

(٦) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٢٢٨) ومسلم (٤٠٩ / ٧١) .

رأوها؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها هربا، وأشد منها خوفا. قال : فيقول : أشهدكم أني قد غفرت لهم. قال : فيقولون : إن فيهم فلانا الخطاء لم يردهم إنّمَا جاء لحاجة. فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم »[١].

وهكذا رواه البخاري عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن الأعمش به. وقال : رواه شعبة عن الأعمش ولم يرفعه. ورفعه سهيل عن أبيه. وقد رواه أحمد عن عفان عن وهيب عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، كمَا ذكره البخاري معلقا عن سهيل. ورواه مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد عن وهب به. وقد رواه الإمام أحمد أيضا عن غندر عن شعبة عن سليمان هو الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة كمَا أشار إليه البخاري رحمه اللّٰه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية. حدثنا الأعمش وابن نمير. أخبرنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « **من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس اللّٰه عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلمًا ستره اللّٰه فِي الدنيا والآخرة. واللّٰه فِي عون العبد مَا كان العبد فِي عون أخيه. ومن سلك طريقا يلتمس به علمًا سهل اللّٰه له به طريقا إِلَى الجنة. ومَا اجتمع قوم فِي بيت من بيوت اللّٰه يتلون كتاب اللّٰه ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم اللّٰه فيمن عنده. ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه** »[٢]. وكذا رواه مسلم من حديث أبي معاوية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أبي إسحاق عن الأغر أبي مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد عن رسول اللّٰه ﷺ قال : « **مَا اجتمع قوم يذكرون اللّٰه إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم اللّٰه فيمن عنده** »[٣]. وكذا رواه أيضا من حديث إسرائيل وسفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق به نحوه. ورواه مسلم من حديث شعبة والترمذي من حديث الثوري. وقال : حسن صحيح. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن آدم عن عمار بن زريق عن أبي إسحاق بإسناده نحوه.

وفِي هذا المعنى أحاديث كثيرة . وفِي مسند الإمام أحمد والسنن عن أبي الدرداء مرفوعا : « **وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بمَا يصنع** »[٤] أي: تتواضع له كمَا قال تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء :٢٤] .

وقال تعالى: ﴿ وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥]

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد اللّٰه بن السائب عن زاذان عن عبد اللّٰه بن مسعود أن رسول اللّٰه ﷺ قال :« **إن للّٰه ملائكة سياحين فِي الأرض ليبلغوني عن أمتي**

---

(١) رواه البخارى (٦٤٠٨) ومسلم (٦٧١٣) وأحمد (٢/٢٥١و٢٥٢و٣٥٨و٣٥٩) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩ / ٣٨) وأحمد (٢/٢٥٢) وأبو داود (٤٩٤٦) والترمذى (١٩٣٠) وابن ماجه (٢٢٥) .

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٠ / ٣٩) وأحمد (٢/٢٥٢) والترمذى (١٩٣٠) وابن ماجه (٢٢٥) .

(٤) **حسن** : رواه أحمد (٢١٦١٢) وأبو داود (٣٦٤١) وابن ماجة (٢٣٣) .

السلام ».[1] وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان الأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب به. وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « **خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم** »[2] وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع وعبدة بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به.

والأحاديث في ذكر الملائكة كثيرة جدا. وقد ذكرنا : مَا يسره الله تعالى، وله الحمد .

فصل في تفضيل الملائكة على البشر

وقد اختلف الناس في تفضيل الملائكة على البشر على أقوال. فأكثر مَا توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين، والخلاف فيها مع المعتزلة، ومن وافقهم وأقدم كلام رأيته في هذه المسألة مَا ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص ؛ أنه حضر مجلسا لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر: مَا أحد أكرم على الله من كريم بني آدم واستدل بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** ﴾ [البينة: ٧].

ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد فقال عراك بن مالك مَا أحد أكرم على الله من ملائكته هم خدمة داريه ورسله إِلَى أنبيائه واستدل بقوله تعالى: ﴿ **مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ** ﴾ [الأعراف:٢٠] .

فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي : مَا تقول أنت يا أبا حمزة. فقال: قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ومنْ يزوره الملائكة فوافق عمر بن عبد العزيز في الحكم واستدل بغير دليله. وأضعف دلالة مَا صرح به من الآية وهو قوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ مضمونه أنها ليست بخاصة بالبشر. فإن الله قد وصف الملائكة بالإيمان في قوله : ﴿ **ويؤمنون به** ﴾ وكذلك الجان : ﴿ **وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ** ﴾ [الجن:١٣] ﴿ **وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ** ﴾ [الجن : ١٤]. قلت وأحسن مَا يستدل به في هذه المسألة مَا رواه عثمان بن سعيد الدارمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعا وهو أصح قال: « **لما خلق الله الجنة قالت الملائكة : يا ربنا اجعل لنا هذه نأكل منها ونشرب فإنك خلقت الدنيا لبني آدم . فقال الله : لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان** ».

باب ذكر خلق الجان وقصّة الشيطان

قال الله تعالى : ﴿ **خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِن نَّارٍ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ [الرحمن : ١٤ - ١٦] .

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (١/٣٨٧و٤٥٢) والنسائى (٣/٤٣) والدارمى(٢/٤٠٩) وابن حبان (٢٣٩٣- موارد) والحاكم (٢/٤٢١) والبيهقى فى " شعب الإيمان " (٢/٢١٧، ٢١٨) والبغوى فى " شرح السنة " (٣/١٩٧) .

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٦ / ٦٠) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٦، ٢٧] .

وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد : ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ قالوا : من طرف اللهب ، وفي رواية من خالصه وأحسنه. وقد ذكرنا آنفا من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « **خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم** » . رواه مسلم .

قال كثير من علماء التفسير : خلقت الجن قبل آدم عليه السلام، وكان قبلهم في الأرض الجن والإنس، فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها، وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم. وذكر السدي في تفسيره عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم : الجن وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة. وكان إبليس مع ملكه خازنا فوقع في صدره: إنما أعطاني الله هذا لمزية لي على الملائكة[1] . وذكر الضحاك عن ابن عباس : أن الجن لما أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء بعث الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور .

وقال محمد بن إسحاق عن خلاد عن عطاء عن طاووس عن ابن عباس كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل. وكان من سكان الأرض ومن أشد الملائكة اجتهادا، وأكثرهم علما، وكان من حي يقال لهم : الجن. وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عنه كان اسمه عزازيل، وكان من أشرف الملائكة من أولي الأجنحة الأربعة. وقد أسند عن حجاج عن ابن جريج قال ابن عباس. كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة. وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا. وكان له سلطان الأرض. وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس : كان يسوس ما بين السماء والأرض رواه ابن جرير . وقال قتادة عن سعيد بن المسيب : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا. وقال الحسن البصري : لم يكن من الملائكة طرفة عين ، وأنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر. وقال شهر بن حوشب وغيره : كان إبليس من الجن الذين طردوهم الملائكة فأسره بعضهم وذهب به إلى السماء. رواه ابن جرير.

قالوا : فلما أراد الله خلق آدم ليكون في الأرض هو وذريته من بعده وصور جثته منها جعل إبليس وهو رئيس الجان، وأكثرهم عبادة إذ ذاك وكان اسمه عزازيل يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك. وقال : أما لئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت علي لأعصينك فلما أن نفخ الله في آدم من روحه كما سيأتي وأمر الملائكة بالسجود له دخل

---

(١) جميع ما ذكر من أن إبليس كان من الملائكة إلى آخر ما ذكر هذه الأقوال لم تقم على دليل صحيح من الكتاب والسنة . والصواب أن إبليس لم يكن من الملائكة طرفة عين كما قال الحسن البصري رحمه الله .

إبليس منه حسد عظيم، وامتنع من السجود له، وقال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فخالف الأمر، واعترض على الرب عزّ وجلّ، وأخطأ في قوله، وابتعد من رحمة ربه، وأنزل من مرتبته التي كان قد نالها بعبادته، وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نار وهم من نور، فخانه طبعه في أحوج مَا كان إليه ورجع إِلَى أصله الناري ﴿فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]. ﴿ إلاَّ إبْلِيسَ أبَىَ وَاستَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال تعالى : ﴿ وَإذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجدُوا إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٠] .

فأهبط إبليس من الملأ الأعلى وحرم عليه قدر أن يسكنه فنـــزل إِلَى الأرض حقيرا ذليلا مذمومًا مدحورا متوعدا بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس إلا أنه مع ذلك جاهد كل الجهد على إضلال بني آدم بكل طريق وبكل مرصد كمَا قال : ﴿أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلاَّ قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلاَّ غُرُوراً. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢-٦٥].

وسنذكر القصة مستفاضة عند ذكر خلق آدم عليه السلام. والمقصود أن الجان خلقوا من النار وهم كبني آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون. ومنهم : المؤمنون . ومنهم : الكافرون كمَا أخبر تعالى عنهم في صورة الأحقاف في قوله تعالى: ﴿ وَإذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ -٣٢].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً. وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً. وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً. وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً. وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً. وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً. وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً. وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً. وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً. وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً. وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً. وَأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ وَمِنَّا القَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً.

وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً. وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَّاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ [الجن:١– ١٧] .

وقد ذكرنا تفسير هذه السورة وتمام القصة في آخر سورة الأحقاف. وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك هنالك. وأن هؤلاء النفر كانوا من جن نصيبين. وفي بعض الآثار : من جن بصرى؛ وأنهم مروا برسول اللَّه ﷺ وهو قائم يصلي بأصحابه ببطن نخلة من أرض مكة فوقفوا استمعوا لقراءته. ثم اجتمع بهم النبي ﷺ ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها، ونهاهم عنها وسألوه الزاد فقال لهم : « **كل عظم ذكر اسم اللَّه عليه تجدونه أوفر مَا يكون لحمًا وكل روثة علف لدوابكم** ». ونهى النبي ﷺ أن يستنجى بهمَا، وقال : « **إنمَا زاد إخوانكم الجن** »[1]. ونهى عن البول في السرب لأنها مساكن الجن. وقرأ عليهم رسول اللَّه ﷺ سورة الرحمن فمَا جعل يمر فيها بآية ﴿ **فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ [سورة الرحمن] إلا قالوا : « **ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد** » . وقد أثنى عليهم النبي ﷺ في ذلك لَمَا قرأ هذه السورة على الناس فسكتوا. فقال : « **الجن كانوا أحسن منكم ردا مَا قرأت عليهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد** » [2]. رواه الترمذي عن جبير وابن جرير والبزار عن ابن عمر.

وقد اختلف في مؤمني الجن : هل يدخلون الجنة ؟ أو يكون جزاء طائعهم أن لا يعذب بالنار فقط ؟ على قولين؛ الصحيح : أنهم يدخلون الجنة لعموم القرآن. ولعموم قوله تعالى : ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرحمن:٤٦، ٤٧] .

فامتن تعالى عليهم بذلك فلولا أنهم ينالونه لَمَا ذكره وعده عليهم من النعم. وهذا وحده دليل مستقل كاف في المسألة وحده واللَّه أعلم.

وقال البخاري : حدثنا قتيبة عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه أن أبا سعيد الخدري قال له : « **إني أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت في غنمك** وباديتك فأذنت بالصلاة **فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا** شهد له يوم القيامة » [3] قال أبو سعيد : سمعته من رسول اللَّه ﷺ. انفرد به البخاري دون مسلم.

وأمَا كافرو الجن : فمنهم الشياطين، ومقدمهم الأكبر إبليس عدو آدم أبي البشر وقد سلطه هو وذريته على آدم وذريته. وتكفل اللَّه عزّ وجلّ بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم. كمَا قال: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً** ﴾ [الإسراء :٦٥]

قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

---

(١) رواه مسلم (٩٩٠) وأبو داود (٨٥) و الترمذى (٣٢٥٨) .

(٢) حسن : رواه الترمذى (٣٢٩١) .

(٣) رواه البخارى (٣٢٩٦) كتاب بدء الخلق ،باب الجن وثوابهم وعقابهم .

وقال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أخْرَجَ أبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّة يَنْزِعُ عَنْهُمَا لبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

وقال : ﴿ وَإذْ قَالَ رَبُّك لِلْمَلاَئكَة إنِّي خَالقٌ بَشَراً منْ صَلْصَال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُون. فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُّوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجدينَ. فَسَجَدَ المَلاَئكَةُ كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ. إلاَّ إبْليسَ أبَى أنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجدينَ قَالَ يَا إبْليسُ مَالَكَ أنْ لاَ تَكُونَ مَعَ السَّاجدينَ قَالَ لَمْ أكُنْ لأَسْجُدَ لبَشَرٍ خَلَقْتَهُ من صَلْصَال مِّنْ حَمإٍ مَّسْنُون قَالَ فَاخْرُجْ منْهَا فَإنَّكَ رَجيمٌ وَإنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إلَى يَوْمِ الدِّين. قَالَ رَبِّ فَأَنْظرني إلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإنَّكَ منَ الْمُنْظَرينَ إلَى يَوْمِ الوَقْت المَعْلُومِ. قَالَ رَبِّ بمَا أغْوَيْتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ في الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعينَ. إلاَّ عبَادَكَ منْهُمُ الْمُخْلَصينَ قَالَ هَذَا صرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقيمٌ. إنَّ عبَادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ منَ الغَاوينَ. وَإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعدُهُمْ أجْمَعينَ. لَهَا سَبْعَةُ أبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : ٢٨ - ٤٤]

وقد ذكر تعالى هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وههنا وفي سورة سبحان وفي سورة طه وفي سورة ص. وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه في كتابنا التفسير ولله الحمد. وسنوردها في قصة آدم إن شاء الله. والمقصود أن إبليس أنظره وأمره الله إلى يوم القيامة محنة لعباده واختبارا منه لهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ. وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾. [سبأ : ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدْتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّنْ سُلْطَانٍ إلاَّ أنْ دَعَوْتُكمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إنِّي كَفَرْتُ بِمَا أشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إنَّ الظَّالمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ. وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢، ٢٣].

فإبليس لعنه الله حي الآن منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن. وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن. وقد قال الله تعالى : ﴿ إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : ٧٦] .

وكان اسمه قبل معصيته العظيمة. عزازيل. قال النقاش : وكنيته أبو كردوس ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد : « **ما ترى؟** » قال : أرى عرشا على الماء. فقال له النبي ﷺ: « **اخسأ فلن تعدو قدرك** ».[1]. فعرف أن مادة مكاشفته التي كاشفه بها شيطانية مستمدة من إبليس الذي هو يشاهد عرشه على البحر. ولهذا قال له : « **اخسأ فلن تعدو قدرك** » . أي لن تجاوز قيمتك الدنية الخسيسة الحقيرة .

---

(١) رواه مسلم (٧٢٠٦) كتاب الفتق - باب ذكر ابن صياد .

والدليل على أن عرش إبليس على البحر الذي رواه الإمام أحمد؛ حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثني معاذ التميمي عن جابر بن عبد اللّه : قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **عرش إبليس في البحر يبعث سراياه في كل يوم يفتنون الناس فأعظمهم عنده منـــزلة أعظمهم فتنة للناس** »[1]. ورواه [2].

وقال أحمد : حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد اللّه يقول : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **عرش إبليس على البحر يبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة** » [3] تفرد به من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا مؤمل. حدثنا حماد. حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن جابر بن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ لابن صائد : « **مَا ترى ؟** » قال : أرى عرشا على الماء، أو قال على البحر حوله حيات. قال ﷺ : « **ذاك عرش إبليس** » [4] . هكذا رواه في مسند جابر.

وقال في مسند أبي سعيد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن رسول اللّه ﷺ قال لابن صائد : « **مَا ترى ؟** » قال : أرى عرشا على البحر حوله الحيات. فقال رسول اللّه ﷺ : «**صدق ذاك عرش إبليس**» [5].

وروى الإمام أحمد من طريق معاذ التميمي وأبي الزبير عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ :« **إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينهم** »[6] .

وروى الإمام مسلم من حديث الأعمش عن أبي سفيان طلحة بن نافع عن جابر عن النبي ﷺ قال : « **إن الشيطان يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منـــزلة أعظمهم عنده فتنة. يجيء أحدهم فيقول : مَا زلت بفلان حتى تركته، وهو يقول كذا وكذا. يقول إبليس : لا واللّه مَا صنعت شيئا. ويجيء أحدهم فيقول : مَا تركته حتى فرقت بينه وبين أهله. قال فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نعم أنت** » [7]. يروى بفتح النون بمعنى نعم أنت ذاك الذي تستحق الإكرام. وبكسرها أي نعم منك. وقد استدل به بعض النحاة على جواز كون فاعل نعم مضمرا وهو قليل. واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج الأول ورجحه ووجهه بمَا ذكرناه واللّه أعلم.

وقد أوردنا هذا الحديث عند قوله تعالى : ﴿ **مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ** ﴾ [البقرة : ١٠]. يعني أن السحر المتلقى عن الشياطين من الإنس والجن يتوصل به إلى التفرقة بين المتآلفين غاية

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (١٤٤٩٠).
(٢) بياض بالأصل .
(٣) **صحيح** : رواه أحمد (١٥٠٥٧).
(٤) **حسن** : رواه أحمد (١٥١٠٣).
(٥) **ضعيف** : في سنده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف كما في " التقريب " (٣٧/٢) .
(٦) **صحيح** : رواه أحمد (١٤٣٠٣) ، والتحريش : الإغراء بين الناس ، وبين الكلاب .
(٧) رواه مسلم (٢٨١٣ / ٦٧) .

التآلف المتوادين المتحابين، ولهذا يشكر إبليس سعي من كان السبب في ذلك. فالذي ذمه الله يمدحه، والذي يغضب الله يرضيه عليه لعنة الله. وقد أنزل الله عزّ وجل سورتي المعوذتين مُطْردة لأنواع الشر، وأسبابه وغاياته. ولا سيمّا سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَٰهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾. وثبت في الصحيحين عن أنس. وفي صحيح البخاري عن صفية بنت حسين : أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الشيطان يجري من ابن آدم مجري الدم** » .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا محمد بن جبير. حدثنا عدي بن أبي عمارة حدثنا زياد النميري عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسي التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس** » [(١)]. ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب كان فيه تذكراً للناس كمّا قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف : ٢٤]. وقال صاحب موسى ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف : ٦٣]. قال تعالى : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : ٤٢] .

يعني الساقي لّما قال له يوسف : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ [يوسف : ٤٢] نسي الساقي أن يذكره لربه يعني مولاه الملك. وكان هذا النسيان من الشيطان فلبث يوسف في السجن بضع سنين. ولهذا قال بعده : ﴿ وَ قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : ٤٥].

أي مدة. وقرئ بعد أمة أي نسيان. وهذا الذي قلنا : من أن الناسي هو الساقي هو الصواب من القولين كمّا قررناه في التفسير والله أعلم. قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر. حدثنا شعبة عن عاصم سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حماره فقلت تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ : « **لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم، وقال : بقوتي صرعته وإذا قلت : بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب** » [(٢)]. تفرد به أحمد وهو إسناد جيد.

وقال أحمد حدثنا أبو بكر الحنفي حدثنا الضحاك بن عثمان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشيطان فأبس به كمّا يبس الرجل بدابته فإذا سكن له زنقه أو ألجمه** » [(٣)]. قال أبو هريرة وأنتم ترون ذلك. أمّا المزنوق فتراه مائلا كذا لا يذكر إلا الله. وأمّا الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عزّ وجلّ . تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا ثور -يعني ابن يزيد- عن مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « **العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم** »[(٤)] . وقال الإمام أحمد:

---

(١) **ضعيف** : رواه أبو يعلى (٤٣٠١) وأبو نعيم في " الحلية " (٦/٢٦٨) وفي سنده عدى بن أبي عمارة وهو ضعيف.
(٢) **حسن** : رواه أحمد (٢٠٤٦٩و٢٠٤٧٠).
(٣) **حسن** : رواه أحمد (٢ / ٣٣٠) وأبس هو زجر الإبل .
(٤) رواه أحمد (٩٦٧٤).

حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن ذر بن عبد اللّٰه الهمداني عن عبد اللّٰه بن شداد عن ابن عباس قال : جاء رجل إِلَى النبي ﷺ فقال : يا رسول اللّٰه إني أحدث نفسي بالشيء لأَنْ أَخِرُّ من السماء أحب إلي من أن أتكلم به، فقال النبي ﷺ: « **اللّٰه أكبر الحمد للّٰه الذي رد كيده إِلَى الوسوسة** »[1] .

ورواه أبو داود والنسائي من حديث منصور. زاد النسائي والأعمش كلاهمَا عن أبي ذر به.

وقال البخاري : حدثنا يحيى بن بكير. حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة قال : قال أبو هريرة : قال رسول اللّٰه ﷺ : « **يأتِي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك فإذا بلغه فليستعذ باللّٰه ولينته** »[2]. وهكذا رواه مسلم من حديث الليث ومن حديث الزهري وهشام بن عروة كلاهمَا عن عروة به. قد قال اللّٰه تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقال تعالى : ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ** ﴾ [المؤمنون : ٩٧ ، ٩٨] .

وقال تعالى: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰه مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِين آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾. [النحل : ٩٨ - ١٠٠] .

وروى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيد قال : كان رسول اللّٰه ﷺ يقول : « **أعوذ باللّٰه السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه** »[3]. وجاء مثله من رواية جبير بن مطعم وعبد اللّٰه بن مسعود وأبي أمامة الباهلي. وتفسيره في الحديث فهمزه الموتة وهو الخنق الذي هو الصرع. ونفخه الكبر. ونفثه الشعر.

وثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول اللّٰه ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال : « **أعوذ باللّٰه من الخبث والخبائث** » [4] . قال كثير من العلماء : استعاذ من ذُكران الشياطين وإناثهم وروى الإمام أحمد عن شريح عن عيسى بن يونس عن ثور عن الحسين عن ابن سعد الخير وكان من أصحاب عمر عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « **ومن أتى الغائط فليستتر فإن لم يجد إلا أن يجمع كثيبا فليستدبره فإن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم، من فعل فقد أحسن ومن لا فلا حرج** » [5].

ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث ثور بن يزيد به.

---

(١) **صحيح** : رواه أبو داود (٥١١٢) وأحمد (٢٠٩٧).

(٢) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٢٧٦) ومسلم (٢١٤ / ١٣٤) .

(٣) **صحيح** : رواه أبو داود (٧٧٥) والدارمى (١ / ٢٨٢) وأحمد (١١٤٧٣).

(٤) **متفق عليه** : رواه البخارى (١٤٢) ومسلم (١٢٢ / ٣٧٥) .

(٥) **ضعيف** : رواه أحمد (٣٧١/٢) وأبو داود (٣٥) وابن ماجة (٣٣٧) والدارمى (١٦٩/١،١٧٠) وفى سنده الحصين الجرانى وهو مجهول كما فى " التقريب " (١٨٤/١) .

وقال البخاري : حدثنا عثمان بن أبي شيبة. حدثنا جرير عن الأعمش عن عدي بن ثابت قال : قال سليمان بن صرد : استب رجلان عند النبيﷺ ونحن عنده جلوس فأحدهمَا يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه، فقال النبيﷺ : «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه مَا يجد. لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم** ».[١] فقالوا للرجل : ألا تسمع مَا يقول النبيﷺ فقال: إني لست بمجنون. ورواه أيضا مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن الأعمش.

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد. حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع. عن ابن عمر أن رسول اللهﷺ قال : «**لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله** »[٢] . وهذا على شرط الصحيحين بهذا الإسناد وهو فِي الصحيح من غير هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن أبي حكيم عن عروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**من أكل بشماله أكل معه الشيطان، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان** » [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر. أنبأنا شعبة عن أبي زياد الطحان سمعت أبا هريرة يقول عن النبيﷺ : أنه رأى رجلا يشرب قائمًا، فقال له : «**قه** » قال : لم؟ قال : «**أيسرك أن يشرب معك الهر؟** » قال : لا. قال :«**فإنه قد شرب معك من هو شر منه: الشيطان** » [٤]. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أيضا : حدثنا عبد الرزاق. حدثنا معمر عن الزهري عن رجل عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ : «**لو يعلم الذي يشرب وهو قائم مَا فِي بطنه لاستقاء** »[٥].

قال : وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثل حديث الزهري. وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى. حدثنا ابن لهيعة عن ابن الزبير ، أنه سأل جابراً سمعت النبيﷺ قال : «**إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا. وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله. قال : أدركتم المبيت. وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه. قال : أدركتم المبيت والعشاء قال : نعم** » [٦].

---

(١)**متفق عليه** : رواه البخارى (٦١١٥) ومسلم (٢٦١٠ / ١٠٩) .

(٢)**صحيح** : رواه أحمد (٥٥١٤) .

(٣)**حسن لشواهده** : رواه أحمد (٢٤٣٦٠) .

(٤)**صحيح** : رواه أحمد (٧٩٩٠).

(٥)**حديث صحيح وإسناده ضعيف** : لجهالة الراوى عن أبى هريرة وهو عند أحمد (٢/٢٨٣) رقم (٧٧٩٥) وابن حبان (٥٣٢٤-إحسان) ورواه أحمد بإسناد متصل (٢/٢٨٣) والبزار (٢٨٩٧) وابن حبان عقب الحديث (٥٣٢٤)وانظر ما قاله الشيخ أحمد شاكر فى فقه هذا الحديث فى تعليقه على المسند .

(٦)**صحيح** : رواه أحمد (٣/ ٣٤٦) وفى سنده ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ ولكن تابعه ابن جريج عند مسلم (٥١٦٤) وأبو داود (٣٧٦٥) وابن ماجه (٣٨٨٧) .

وقال البخاري : حدثنا محمد. حدثنا عبدة. حدثنا محمد عن هشام بن عروة عن أبيه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا طلع حاجب الشَّمْس فدعوا الصلاة حتى يبرز، وإذا غاب حاجب الشَّمْس فدعوا الصلاة حتى يغيب، ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشَّمْس ولا غروبها، فإنها تطلع بين قرني الشيطان** »[(١)] أو « **الشياطين** » لا أدري أي ذلك. قال هشام : ورواه مسلم والنسائي من حديث هشام به. وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : رأيت رسول الله ﷺ يشير إِلَى المشرق فقال : « **ها إن الفتنة ههنا إن الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان** ».[(٢)] هكذا رواه البخاري منفردا به من هذا الوجه.

وفِي السنن : أن رسول الله ﷺ نهى أن يجلس بين الشَّمْس والظل. وقال : « **إنه مجلس الشيطان** ». وقد ذكروا فِي هذا معاني. من أحسنها : أنه لَما كان الجلوس فِي مثل هذا الموضع فيه تشويه بالخلقة فيمَا يرى كان يحبه الشيطان لأن خلقته فِي نفسه مشوه وهذا مستقر فِي الأذهان. ولهذا قال تعالى : ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴾ [الصافات:٦٥] .

الصحيح : أنهم الشياطين لا ضرب من الحيات كمَا زعمه من زعمه من المفسرين والله أعلم. فإن النفوس مغروز فيها قبح الشياطين وحسن خلق الملائكة وإن لم يشأوا. ولهذا قال تعالى: ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴾ وقال النسوة لَما شاهدن جمال يوسف : ﴿ **حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٣١] .

قال البخاري : حدثنا يحيى بن جعفر. حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري. حدثنا ابن جريج أخبرني عطاء عن جابر عن النبي ﷺ قال : « **إذا استجنح** » أو « **كان جنح الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فحلوهم، وأغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك، واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله، وخمر إناءك واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئاً** »[(٣)].

ورواه أحمد عن يحيى عن ابن جريج وعنده « **فإن الشيطان لا يفتح مغلقا** » .

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن فطر عن أبي الزبير عن جابر. قال: قال رسول الله: « **أغلقوا أبوابكم، وخمروا آنيتكم، وأوكوا أسقيتكم، وأطفئوا سرجكم فإن الشيطان لا يفتح بابا مغلقا ولا يكشف غطاء ولا يحل وكاء وإن الفويسقة تضرم البيت على أهله** »[(٤)] يعني الفأرة.

وقال البخاري حدثنا آدم حدثنا شعبة عن منصور عن سالم بن أبي الجعد عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مَا رزقتني فإن كان بينهمَا ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه** »[(٥)]. وحدثنا الأعمش عن سالم عن كريب عن ابن عباس مثله.

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٢٧٢) ومسلم (٢٩١/ ٨٢٩) .

(٢) رواه البخارى (٣٢٧٩) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .

(٣) رواه البخارى (٣٢٨٠) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .

(٤) **صحيح** : رواه أحمد (٣٠١/٣) وابن أبي شيبة (٢٣٠/٨) وابن خزيمة (١٣٢) وابن حبان (١٢٧٠-إحسان).

(٥) رواه البخارى (٣٢٨٣) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .

ورواه أيضا عن موسى بن إسماعيل عن همام عن منصور عن سالم عن كريب عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « **أمَا لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مَا رزقتنا فرزقا ولدا لم يضره الشيطان** » [(١)].

وقال البخاري : حدثنا إسماعيل. حدثنا أخي عن سليمان عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد. يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة. فإن توضأ انحلت عقدة. فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان** »[(٢)] هكذا رواه منفردا به من هذا الوجه.

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم عن حمزة. حدثني ابن أبي حازم عن يزيد يعني ابن الهادي عن محمد بن إبراهيم عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثا فإن الشيطان يبيت على خيشومه** » [(٣)].

ورواه مسلم عن بشر بن الحكم عن الدراوردي. والنسائي عن محمد بن زنبور عن عبد العزيز ابن أبي حازم كلاهما عن يزيد بن الهادي به.

وقال البخاري حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن عبد الله قال : ذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليله ثم أصبح قال : « **ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه** »[(٤)] أو قال « **في أذنه** » . ورواه مسلم عن عثمان وإسحاق كلاهما عن جرير به.

وأخرجه البخاري أيضا والنسائي وابن ماجه من حديث منصور بن المعتمر به. وقال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف ، أنبأنا الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط فإذا قضي أقبل فإذا ثوب بها أدبر فإذا قضي أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه. فيقول : اذكر كذا وكذا حتى لا يدري أثلاثا صلى أم أربعا فإذا لم يدر أثلاثا صلى أم أربعا سجد سجدتي السهو** » [(٥)] . هكذا رواه منفردا به من هذا الوجه.

قال أحمد : حدثنا أسود بن عامر، حدثنا جعفر -يعني الأحمر- عن عطاء بن السائب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **راصوا الصفوف فإن الشيطان يقوم في الخلل** » [(٦)] وقال أحمد :

---

(١) رواه البخارى (٣٢٧١) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .
(٢) رواه البخارى (٣٢٦٩) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .
(٣) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٢٩٥) ومسلم (٢٣٨ / ٢٣) .
(٤) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٢٧٠) ومسلم (٧٧٤ / ٢٠٥) .
(٥) رواه البخارى (٣٢٨٥) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .
(٦) رواه أحمد (١٢٥١٠).

حدثنا أبان حدثنا قتادة عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يقول: « **راصوا الصفوف وقاربوا بينهما وحاذوا بين الأعناق فوالذي نفس محمد بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنه الحذف** » [(١)] .

وقال البخاري : حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا يونس عن حميد بن هلال عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول اللَّه ﷺ: « **إذا مر بين يدي أحدكم شيء فليمنعه فإن أبى فليمنعه فإن أبى فليقاتله فإنمَا هو شيطان** »[(٢)].

ورواه أيضا مسلم وأبو داود من حديث سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال به.

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أحمد. حدثنا بشير بن معبد. حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائمًا يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني. ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول اللَّه ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه يقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال : « **لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فمَا زلت أخنقه حتى وجدت برد لُعَابه بين أصبعي هاتين الإبهام والتي تليها ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل** » [(٣)].
وروى أبو داود منه : « **فمن استطاع** ». إِلَى آخره عن أحمد بن أبي سريج عن أبي أحمد محمد بن عبد اللَّه بن محمد بن الزبير به.

وقال البخاري : حدثنا محمود. حدثنا شبابة، حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ صلى صلاة الصبح فقال : « **إن الشيطان عرض لي فسد عليّ لقطع الصلاة علي فأمكنني اللَّه منه** ». [(٤)] فذكر الحديث. وقد رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به مطولا.

ولفظ البخاري عند تفسير قوله تعالى إخبارا عن سليمان عليه السلام أنه قال : ﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ**﴾ [ص:٣٥] من حديث روح وغندر عن شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة** » أو- كلمة نحوها - « **ليقطع على الصلاة فأمكنني اللَّه منه فأردت أن أربطه إِلَى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان**﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴾ »[(٥)] قال روح : فرده خاسئاً.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (١٣٦٧٠) والنسائى (٩٢/٢) .
(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٢٧٤) ومسلم (٥٠٥ / ٢٥٩) .
(٣) **حسن**: رواه أحمد (١١٧١٩) وأبو داود (٦٩٩) .
(٤) رواه البخارى (٣٢٨٤) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .
(٥) رواه البخارى (٤٨٠٨) كتاب التفسير - باب ﴿ **هب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب** ﴾ .

وروى مسلم من حديث أبي إدريس عن أبي الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول : « **أعوذ بالله منك**». ثم قال : « **ألعنك بلعنة الله ثلاثا** »، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك ! فقال : « **إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات. ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر، ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة**»[(١)].

وقال تعالى : ﴿ **فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّه الغَرُورُ** ﴾ [لقمان : ٣٣] يعني، الشيطان : وقال تعالى : ﴿ **إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [فاطر : ٦] .

فالشيطان لا يألو الإنسان خبالا جهده وطاقته في جميع أحواله وحركاته وسكناته، كمَا صنف الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتابا في ذلك سماه "مصائد الشيطان " وفيه فوائد جمة . وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه :« **وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت**»[(٢)]. وروينا في بعض الأخبار أنه قال : يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم مَا دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم مَا استغفروني. وقال الله تعالى: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : ٢٦٨]. فوعد الله هو الحق المصدق، ووعد الشيطان هو الباطل. وقد روى الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن للشيطان لَمَّة**[(٣)] **بابن آدم وللملك لمة. فأمَا لمة الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيب بالحق. وأمَا لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله. ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان**» ثم قرأ ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾[(٤)].

وقد ذكرنا في فضل سورة البقرة أن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وذكرنا في فضل آية الكرسي أن من قرأها في ليلة لا يقربه الشيطان حتى يصبح.

---

(١) رواه مسلم (٥٤٢ / ٤٠) .

(٢) **صحيح** رواه أبو داود (١٥٥٢) .

(٣) اللمة : المس والشيء القليل .

(٤) **ضعيف** رواه الترمذى (٢٩٨٨) والطبرى فى تفسيره (٨٨/٣) والنسائى فى " الكبرى (١١٠٥١) وابن حبان (٩٩٧-إحسان) وفى سنده عطاء بن السائب وكان قد اختلط ، والراوى عنه – وهو سلامة بن سليم سمع منه بعد الاختلاط .

وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن يوسف. أنبأنا مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك** » [١] وأخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه من حديث مالك. وقال الترمذي حسن صحيح.

وقال البخاري : أنبأنا أبو اليمان. أنبأنا شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال ﷺ : « **كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبيه بأصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب** » [٢] . تفرد به من هذا الوجه.

وقال البخاري : حدثنا عاصم بن علي. حدثنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإن أحدكم إذا قال : ها ضحك الشيطان** »[٣] .

ورواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه النسائي من حديث ابن أبي ذئب به. وفي لفظ: « **إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع فإن الشيطان يدخل** » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق. أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله يحب العطاس ويبغض أو يكره التثاؤب فإذا قال أحدكم: ها ها فإنما ذلك الشيطان يضحك من جوفه** »[٤] .

ورواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به.

وقال البخاري : حدثنا الحسن بن الربيع. حدثنا أبو الأحوص عن أشعث عن أبيه عن مسروق قال : قالت عائشة : سألت النبي ﷺ عن التفات الرجل في الصلاة، فقال: « **هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم** »[٥]. وكذا رواه أبو داود والنسائي من رواية أشعث بن أبي الشعثاء سليم بن أسود المحاربي عن أبيه عن مسروق به.

وروى البخاري من حديث الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه : قال : قال رسول الله ﷺ : « **الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان فإذا حلم أحدكم حلمًا يخافه فليبصق عن يساره وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره** »[٦] .

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري (٣٢٩٣) ومسلم (٢٦٩١ / ٢٨) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٦) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .

(٣) رواه البخاري (٣٢٨٩) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .

(٤) **صحيح** : رواه أحمد (٧٥٨٩) والترمذي (٢٧٤٦) والحاكم (٢٦٣/٤،٢٦٤) .

(٥) رواه البخاري (٣٢٩١) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .

(٦) رواه البخاري (٣٢٩٢) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينـــزع في يده فيقع في حفرة من النار** »[١]. أخرجاه من حديث عبد الرزاق . وقال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾ [الملك : ٥] .

وقال : ﴿ **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾ [الصافات : ٦-١٠] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ. وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ** ﴾ [الشعراء:٢١٠ - ٢١٢] وقال تعالى إخباراً عن الجان : ﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً. وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً** ﴾ [الجن: ٨ - ١٠] .

وقال البخاري : وقال الليث : حدثني خالد بن يزيد سعيد بن أبي هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « **الملائكة تحدث في العنان – والعنان الغمام– بالأمر يكون في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كمّا تقر القارورة فيزيدون معها مائة كلمة** »[٢]. هكذا رواه في صفة إبليس معلقا عن الليث به. ورواه في صفة الملائكة عن سعيد ابن أبي مريم عن الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود عن عروة عن عائشة بنحوه. تفرد بهذين الطريقين دون مسلم. وروى البخاري في موضع آخر ومسلم من حديث الزهري عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال : قالت عائشة: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : « **إنهم ليسوا بشيء** ». فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحيانا بشيء فيكون حقاً فقال ﷺ : « **تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجني فَيُقَرْقِرُهَا في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة** »[٣]. هذا لفظ البخاري.

وقال البخاري : حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان. حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول : إن نبي الله ﷺ قال : « **إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة**

---

(١) رواه البخاري (٧٠٧٢) ومسلم (٦٥٤٥) وأحمد (٨١٩٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٨) كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده .

(٣) **متفق عليه** : رواه البخاري (٧٥٦١) ومسلم (٢٢٢٨ / ١٢٣) .

بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان. فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم؟. قالوا : للذي قال الحق وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترق السمع. ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض. ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه. فيسمع الكلمة فيلقيها إِلَى من تحته ثم يلقيها الآخر إِلَى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن. فربمَا أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربمَا ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال : أليس قد قال لنا: يوم كذا وكذا كذا وكذا؟. فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء ». انفرد به البخاري.

وروى مسلم من حديث الزهري عن علي بن الحسين زين العابدين عن ابن عباس عن رجال من الأنصار عن النبيﷺ نحو هذا [1]. وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾ [الزخرف:٣٦ - ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ [فصلت : ٢٥] الآية.

وقال تعالى : ﴿ **وَقَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ. قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ. مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ [ق : ٢٧-٢٩]، وقال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً. وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَى إِلَيهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ** ﴾ [الأنعام : ١١٢، ١١٣] .

وقد قدمنا في صفة الملائكة مَا رواه أحمد ومسلم من طريق منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه واسمه رافع عن ابن مسعود قال : قال رسول اللّهﷺ : «**مَا منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة** » قالوا : وإياك يا رسول اللّه؟ قال : «**وإياي، ولكن اللّه أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير** »[2] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن أبي شيبة. حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه واسمه حصين بن جندب وهو أبو ظبيان الجنبي عن ابن عباس قال : قال رسول اللّهﷺ : «**ليس منكم** من أحد إلا وقد وكل به قرينه **من الشياطين** » قالوا : وأنت يا رسول اللّه قال : «**نعم، ولكن اللّه** أعانني عليه فأسلم » [3]. تفرد به أحمد وهو على شرط الصحيح. وقال الإمام أحمد : حدثنا هارون. حدثنا عبد اللّه بن وهب أخبرني أبو صخر عن يزيد بن قسيط حدثه أن عروة بن الزبير

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٤٨٠٠) ومسلم (٢٢٢٨ / ١٢٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٨١٤ / ٦٩) .

(٣) صحيح : رواه أحمد (٢٣٢٣).

حدثه أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته : أن رسول اللّه ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت : فغرت عليه قالت : فجاء فرأى ما أصنع فقال : « **مالك يا عائشة أغرت؟** » قالت : فقلت : وما لي أن لا يغار مثلي على مثلك!. فقال رسول اللّه ﷺ : « **أفأخذك شيطانك؟** » قالت : يا رسول اللّه أو معي شيطان؟. قال: « **نعم** » قلت : ومع كل إنسان. قال : « **نعم** ». قلت : ومعك يا رسول اللّه؟. قال : « **نعم ، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم** » (١). وهكذا رواه مسلم عن هارون وهو ابن سعيد الأيلي بإسناده نحوه.

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد. حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « **إن المؤمن لَيُنْصِي شيطانه كما يُنْصِي أحدكم بعيره في السفر** ». (٢)تفرد به أحمد من هذا الوجه. ومعنى ((**لينصي شيطانه**)) : ليأخذ بناصيته فيغلبه ويقهره كما يفعل بالبعير إذا شرد، ثم غلبه. وقوله تعالى إخبارا عن إبليس: **﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾** [الأعراف:١٧،١٦].

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل هو عبد اللّه بن عقيل الثقفي حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي فاكه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ قال: « **إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ؛ فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ قال : فعصاه وأسلم. قال : وقعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول؟ فعصاه وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال فقال : أتقاتل فَتُقْتَلُ فتنكح المرأة ويقسم المال؟ قال : فعصاه وجاهد** » قال رسول اللّه ﷺ : « **فمن فعل ذلك منهم كان حقاً على اللّه أن يدخله الجنة. وإن قتل كان حقاً على اللّه أن يدخله الجنة وإن كان غرق كان حقاً على اللّه أن يدخله الجنة وإن وقصته دابته كان حقا على اللّه أن يدخله الجنة** »(٣). وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع. حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري. حدثني جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم سمعت عبد اللّه بن عمر يقول : لم يكن رسول اللّه ﷺ يَدَعُ هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسي « **اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي** »(٤). قال وكيع : يعني الخسف، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به. وقال الحاكم صحيح الإسناد .

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٥ / ٧٠) .

(٢) **ضعيف** : رواه أحمد (٨٩٢٠) وفى سنده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٣) **حسن** : رواه أحمد (١٥٩٠٠) والنسائى (٢١/٦) والطبرانى فى " الكبير" (٦٥٥٨) وابن حبان (٤٥٩٤-إحسان).

(٤) **صحيح** : رواه أحمد (٤٧٨٥) وأبو داود (٥٠٧٤) والنسائى (٥٥٤٤) وابن ماجه (٣٨٧١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمِ

باب خلق آدم عليه السلام

قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئكَة إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنُحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ. قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا. ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئكَة فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَات وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئكَة اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَر وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ. وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذه الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيه. وَقُلْنَا اهْبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّه كَلِمَات. فَتَابَ عَلَيه إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئكَ أَصْحَابُ النَّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّه كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١] .

كمَا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّه أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ . [الحجرات : ١٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَة وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] الآية.

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئكَة اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَن لاَ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي من نَّارٍ وَخَلَقْتَه مِنْ طِين. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ. قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ. وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذه الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذه الشَّجَرَة إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلاهُمَا بِغُرُورٍ. فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّة. وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرة وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ. قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي

الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ.قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف : ١١-٢٥] كمَا قال في الآية الأخرى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه : ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَنْ لاَ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعلُومِ. قال ربِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لهم فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر:٢٦-٤٤] .

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ. قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً. قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء:٦١-٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ. فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ. أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف:٥٠].

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى. فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى. إِنَّ لَكَ أَنْ لاَ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى. وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى. فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ. قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى. فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ. وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى. قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدىً فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى.وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى.قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً.قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه:١١٥ - ١٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ

أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ. قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٦٧- ٨٨].

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن. وقد تكلمنا على ذلك كله في التفسير . ولنذكر ههنا مضمون مَا دلت عليه هذه الآيات الكريمات ومَا يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول اللّه ﷺ . واللّه المستعان .

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلا لهم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] أعلم بمَا يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كمَا قال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كمَا يخبر بالأمر العظيم قبل كونه فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم كمَا قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين . ﴿ قالوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] قيل : علموا أن ذلك كائن بمَا رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن. قاله قتادة.

وقال عبد اللّه بن عمر : كانت الجن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء فبعث اللّه إليهم جندا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور. وعن ابن عباس نحوه. وعن الحسن ألهموا ذلك. وقيل : لَمَّا اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ فقيل أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهمَا يقال له السجل. رواه ابن أبي حاتم عن أبي جعفر الباقر.

وقيل : لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالبا ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة :٣٠] . أي نعبدك دائمًا لا يعصيك منا أحد.فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فيها نحن أولاء لا نفتر ليلا ولا نهارا.

﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة :٣٠] أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء مَا لا تعلمون أي سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون ثم بين لهم شرف آدم عليهم في العلم فقال : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] . قال ابن عباس : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وفي رواية علمه اسم الصحفة والقدر حتى الفسوة والفسية . وقال مجاهد : علمه اسم كل دابة ، وكل طير وكل شيء. وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد .

وقال الربيع : علمه أسماء الملائكة. وقال عبد الرحمن بن زيد : علمه أسماء ذريته .

والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها كمَا أشار إليه ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وذكر البخاري هنا مَا رواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام عن قتادة عن أنس بن مالك عن رسول اللّه ﷺ قال : «**يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا إِلَى ربنا فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر خلقك اللّه بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء** »[1] وذكر تمام الحديث.

﴿ **ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة:٣١] . قال الحسن البصري : لَما أراد اللّه خلق آدم قالت الملائكة : لا يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه. فابتلوا بهذا وذلك قوله : ﴿ **إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة :٣١].

وقيل : غير ذلك كمَا بسطناه فِي التفسير .

قالوا ﴿ **سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ** ﴾ [البقرة:٣٢] أي سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك كمَا قال: ﴿ **وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ** ﴾ [البقرة :٢٥٥] .

﴿ **قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ [البقرة :٣٣] أي : أعلم السر كمَا أعلم العلانية .

وقيل إن المراد بقوله : ﴿ **وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ** ﴾ مَا قالوا ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها** ﴾ [البقرة:٣٠] وبقوله ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ المراد بهذا الكلام : إبليس حين أسر الكبر والنفاسة على آدم عليه السلام قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدي والضحاك والثوري واختاره ابن جرير.

وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ قولهم لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه.

وقوله : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ**﴾ [البقرة:٣٤]. هذا إكرام عظيم من اللّه تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كمَا قال : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [الحجر :٢٩] فهذه أربع تشريفات خلْقه له بيده الكريمة ونفخه فيه من روحه. وأمره الملائكة بالسجود له وتعليمه أسماء الأشياء .

ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه فِي الملأ الأعلى وتناظرا كمَا سيأتي : "أنت آدم أبو البشر الذي خلقك اللّه بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء ". وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة كمَا تقدم وكمَا سيأتي إن شاء اللّه تعالى .

وقال فِي الآية الأخرى : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾ [الأعراف :١١،١٢] .

قال الحسن البصري : قاس إبليس وهو أول من قاس. وقال محمد بن سيرين : أول من قاس إبليس ومَا عبدت الشَّمْس ولا الْقَمَر إلا بالمقاييس. رواهمَا ابن جرير .

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٧٥١٦) ومسلم (٢٦٥٣ / ١٥) .

ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع عن السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود. والقياس إذا كان مقابلا بالنص كان فاسد الاعتبار. ثم هو فاسد في نفسه فإن الطين أنفع وخير من النار لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق.

ثم إن آدم شرفه اللّه بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه. ولهذا أمر الملائكة بالسجود له. كمَا قال : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَنْ لاَ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٥].

استحق هذا من اللّه تعالى لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الإلهي ومعاندة الحق في النص على آدم على التعيين .

وشرع في الاعتذار بمَا لا يجدي عنه شيئاً وكان اعتذاره أشد من ذنبه كمَا قال تعالى في سورة سبحان : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ. قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً. قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً.إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً**﴾ [الإسراء:٦١ - ٦٥] .

وقال في سورة الكهف ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى** ﴾ [الكهف:٥٠] أي خرج عن طاعة اللّه عمدا وعنادا واستكبارا عن امتثال أمره ومَا ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج مَا كان إليها فإنه مخلوق من نار كمَا قال وكمَا روينا في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول اللّه ﷺ قال:« **خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**» [(١)] .

قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط. وقال شهر بن حوشب : كان من الجن فلما أفسدوا في الأرض بعث اللّه إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك. فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه.

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وجماعة من الصحابة ، وسعيد بن المسيب ، وآخرون : كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا. قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل ، وفي رواية عنه الحارث. قال النقاش : وكنيته " أبو كردوس". قال ابن عباس : وكان من حي من الملائكة

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦ / ٦٠) .

يقال لهم : الجن ، وكانوا خزان الجنان ، وكان من أشرفهم ومن أكثرهم علمًا وعبادة وكان من أولي الأجنحة الأربعة فمسخه اللّٰه شيطانا رجيما.

وقال في سورة ص: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ.قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [ص :٧١ - ٨٥].

وقال في سورة الأعراف: ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ [الأعراق:١٧،١٦] أي بسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم كل مرصد . ولآتينهم من كل جهة منهم، فالسعيد من خالفه والشقي من اتبعه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل هو - عبد اللّٰه بن عقيل الثقفي - حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي الفاكه قال : سمعت رسول اللّٰه ﷺ قال : «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه** » [1] . وذكر الحديث .

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم . أهم جميع الملائكة كمَا دل عليه عموم الآيات وهو قول الجمهور. أو المراد هم ملائكة الأرض. كمَا رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس. وفيه انقطاع. وفي السياق نكارة وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه ولكن الأظهر من السياقات الأول، ويدل عليه الحديث «**وأسجد له ملائكته** » وهذا عموم أيضا واللّٰه أعلم .

وقوله تعالى لإبليس ﴿**فَاهْبِطْ مِنهَا**﴾ [الأعراف:١٣] و﴿**اخرُجْ مِنهَا**﴾ [الأعراف:١٨]. دليل على أنه كان في السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من المنـــزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته تشبهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه فأهبط إلى الأرض مذؤومًا مدحورا.

وأمر اللّٰه آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال : ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة :٣٥].

وقال في الأعراف : ﴿ **قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ. وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأعراف :١٨، ١٩] وقال تعالى : ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ**

---

(١) سبق تخريجه .

إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ [طه : ١١٦-١١٩] وسياق هذه الآيات يقتضي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة لقوله ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ وهذا قد صرح به إسحاق بن بشار وهو ظاهر هذه الآيات .

ولكن حكى السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : أنهم قالوا : أخرج إبليس من الجنة ، وأسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة. خلقها الله من ضلعه. فسألها من أنت ؟ . قالت : امرأة . قال : ولِمَا خلقت ؟ قالت ، لتسكن إلي ، فقالت له الملائكة ينظرون مَا بلغ من علمه : مَا اسمها يا آدم ؟ قال : حواء . قالوا : ولم كانت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من شيء حي .

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس : أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم [1] مكانه لحمًا .

ومصداق هذا في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] الآية ، وفي قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف : ١٨٩] الآية وسنتكلم عليها فيمَا بعد إن شاء الله تعالى .

وفي الصحيحين من حديث زائدة عن ميسرة الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « **استوصوا بالنساء خيرا – فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا** » [2] لفظ البخاري.

قد اختلف المفسرون في قوله تعالى :﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [الأعراف : ١٩] فقيل : هي الكرم. وروى ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والشعبي وجعدة بن هبيرة ، ومحمد بن قيس ، والسدي في رواية عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وناس من الصحابة قال : وتزعم يهود أنها الحنطة وهذا مروي عن ابن عباس ، والحسن البصري ووهب بن منبه ، وعطية العوفي وأبي مالك ، ومحارب بن دثار ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى قال وهب : والحبة منه ألين من الزبد وأحلى من عسل. قال الثوري عن أبي حصين عن أبي مالك : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [الأعراف : ١٩] وهي النخلة. وقال ابن جريج عن مجاهد هي التينة. وبه قال قتادة وابن جريج. وقال أبو العالية كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي في الجنة حدث . وهذا الخلاف قريب. وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها. ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا

---

(١) لأم : أصلح .

(٢)**متفق عليه** : رواه البخاري (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨ / ٦٠) .

كمَا في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن . وإنمَا الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي دخلها آدم هل هي في السماء أو في الأرض ؟ هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه . والجمهور على أنها هي التي في السماء ، وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة:٣٥] والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي وإنمَا تعود على معهود ذهني وهو المستقر شرعا من جنة المأوي وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام : " علام أخرجتنا ونفسك من الجنة " الحديث كمَا سيأتي الكلام عليه . وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي واسمه سعد بن طارق عن أبي حازم سلمة بن دينار عن أبي هريرة. وأبو مالك عن ربعي عن حذيفة قالا : قال رسول الله ﷺ: « **يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم** » [١] وذكر الحديث بطوله. وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوي وليست تخلو عن نظر .

وقال آخرون : بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ، ولأنه نام فيها ، وأخرج منها ، ودخل عليه إبليس فيها ، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى. هذا القول محكي عن أبي بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة واختاره ابن قتيبة في المعارف والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره ، وأفرد له مصنفا على حدة. وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله. ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي بن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلخي ، وأبي مسلم الأصبهاني ، ونقله القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية .

وهذا القول : هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب . وممن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في " الملل والنحل " وأبو محمد بن عطية في تفسيره وأبو عيسى الرماني في تفسيره .

وحكى عن الجمهور : الأول وأبو القاسم الراغب ، والقاضي الماوردي في تفسيره فقال : واختلف في الجنة التي أسكناها يعني آدم وحواء على قولين : أحدهمَا :أنها جنة الخلد . الثاني : جنة أعدها الله لهمَا وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء. ومن قال بهذا : اختلفوا على قولين: أحدهمَا :أنها في السماء لأنه أهبطهمَا منها ، وهذا قول الحسن. والثاني : أنها في الأرض لأنه امتحنهمَا فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار. وهكذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم والله أعلم بالصواب من ذلك. هذا كلامه. فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة وأشعر كلامه أنه متوقف في المسألة. ولقد حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال . هذه الثلاثة التي

---

(١) رواه مسلم (١٩٥ / ٣٢٩) .

أوردها الماوردي. ورابعها الوقف. وحكي القول بأنها في السماء وليست جنة المأوى عن أبي علي الجبائي. وقد أورد أصحاب القول الثاني سؤالا يحتاج مثله إلى جواب فقالوا : لاشك أن الله سبحانه وتعالى طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية ، وأمره بالخروج عنها والهبوط منها وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته وإنما هو أمر قدري لا يخالف ولا يمانع ولهذا قال : ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَدْحُوراً﴾ [الأعراف:١٨] ، وقال : ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣] ، وقال : ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر : ٣٤] والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنـــزلة وأيا مَا كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدرا في المكان الذي طرد عنه وأبعد منه لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز. قالوا : ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾ [طه : ١٢٠] وبقوله : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فلما ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [الأعراف:٢٠-٢٢] الآية ، هذا ظاهر في اجتماعه معهمَا في جنتهما .

وقد أجيبوا عن هذا : بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهمَا في الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها ، أو أنه وسوس لهمَا وهو على باب الجنة أو من تحت السماء. وفي الثلاثة نظر . والله أعلم .

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة مَا رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في الزيادات عن هدبة ابن خالد عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن البصري عن يحيى بن ضمرة السعدي عن أبي بن كعب . قال : " إن آدم لما احتضر اشتهى قطفا من عنب الجنة. فانطلق بنوه ليطلبوه له. فلقيتهم الملائكة ، فقالوا : أين تريدون يا بني آدم ؟ فقالوا : إن أبانا اشتهى قطفا من عنب الجنة. فقالوا : لهم ارجعوا فقد كفيتموه . فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل ومن خلفه من الملائكة ودفنوه. وقالوا : هذه سنتكم في موتاكم " وسيأتي الحديث بسنده. وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام . قالوا : فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التي كان فيها آدم التي اشتهى منها القطف ممكنا لما ذهبوا يطلبون ذلك فدل على أنها في الأرض لا في السماء والله تعالى أعلم . قالوا: والاحتجاج بأن الألف واللام في قوله: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥] لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهني مسلم ولكن هو مَا دل عليه سياق الكلام فإن آدم خلق من الأرض ولم ينقل أنه رفع إلى السماء وخلق ليكون في الأرض وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠] قالوا وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ [القلم:١٧] فالألف واللام ليس للعموم ولم يتقدم معهود لفظي وإنما هي للمعهود الذهني الذي دل عليه

السياق وهو البستان . قالوا . وذكر الهبوط لا يدل على النـــزول من السماء، قال الله تعالى : ﴿**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ**﴾ [هود : ٤٨] الآية، وإنما كان في السفينة حين استقر على الجودي ونضب الماء عن وجه الأرض أمر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركا عليه وعليهم .

وقال الله تعالى : ﴿ **اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ** ﴾ [البقرة : ٦١] الآية، وقال تعالى : ﴿**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ٧٤] الآية. وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير. قالوا ولا مانع بل هو الواقع أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور كمَا قال تعالى: ﴿ **إِنَّ لَكَ أَنْ لاَ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى**﴾ [طه : ١٨] أي لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعري. ﴿**وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى**﴾ [طه : ١١٩] أي لا يمس باطنك حر الظمأ ، ولا ظاهرك حر الشمس. ولهذا قرن بين هذا وهذا وبين هذا وهذا لمَا بينهمَا من الملاءمة.

فلما كان منه مَا كان من أكله من الشجرة التي نهي عنها أهبط إلَى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعي والنكد والابتلاء والاختبار والامتحان واختلاف السكان دينا وأخلاقا وأعمالا وقصودا وإرادات وأقوالا وأفعالا كمَا قال تعالى : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ [البقرة : ٣٦] . ولا يلزم من هذا أنهم كانوا في السماء كمَا قال تعالى : ﴿ **وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً** ﴾ [الإسراء : ١٠٤] ومعلوم أنهم كانوا فيها لم يكونوا في السماء . قالوا وليس هذا القول مفرعا على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم ولا تلازم بينهمَا فكل من حكي عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم كمَا دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح كمَا سيأتي إيرادها في موضعها والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وقوله تعالى : ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا** ﴾ [البقرة:٣٦] أي عن الجنة ﴿**فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾ [البقرة : ٣٦] أي من النعيم والنضرة والسرور إلَى دار التعب والكد والنكد وذلك بمَا وسوس لهمَا وزينه في صدورهمَا كمَا قال تعالى : ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا. وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠] يقول مَا نهاكمَا عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين أي ولو أكلتمَا منها لصرتمَا كذلك ﴿ **وَقَاسَمَهُمَا** ﴾ [الأعراف : ٢١] أي حلف لهمَا على ذلك ﴿ **إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ [الأعراف : ٢١] كمَا قال في الآية الأخرى ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَـــرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى** ﴾ [طه : ١٢٠] أي هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيمَا أنت فيه من النعيم واستمررت في ملك لا يبيد ولا ينقضي وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع .

والمقصود : أن قوله شجرة الخلد التي إن أكلت منها خلدت وقد تكون هي الشجرة التي قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي . حدثنا شعبة عن أبي الضحاك سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول اللهﷺ : «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها شجرة الخلد** »[1].

وكذا رواه أيضا عن غندر وحجاج عن شعبة ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده عن شعبة أيضا به. قال غندر : قلت لشعبة : هي شجرة الخلد قال : ليس فيها هي.تفرد به الإمام أحمد.

وقوله ﴿ **فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾ [الأعراف : ٢٢].

كمَا قال في طه ﴿ **فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾ [طه : ١٢١] .

وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهي التي حَدَتْه على أكلها والله أعلم .

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا بشر بن محمد حدثنا عبد الله أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه : « **لولا بنو إسرائيل لم يخنــز [2] اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها** » [3] . تفرد به من هذا الوجه وأخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة به . ورواه أحمد ومسلم عن هارون بن معروف عن أبي وهب عن عمرو بن حارث عن أبي يونس عن أبي هريرة به.

وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب : أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية ، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام وليس فيها ذكر لإبليس فعند ذلك انفتحت أعينهمَا وعلمَا أنهمَا عريانان فوصلا من ورق التين وعملا مآزر وفيها أنهمَا كانا عريانين. وكذا قال وهب بن منبه : كان لباسهمَا نورا على فرجه وفرجها. هذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم وتحريف وخطأ في التعريب فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يكاد يتيسر لكل أحد ولا سيمَا ممن لا يعرف كلام العرب جيدا ولا يحيط علمًا بفهم كتابه أيضا . فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظا ومعنى. وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهمَا لباس في قوله: ﴿ **يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا**﴾ [الأعراف:٢٧] فهذا لا يرد لغيره من الكلام والله تعالى أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب . حدثنا علي بن عاصم عن سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ: « **إن الله خلق**

---

(١) **ضعيف**:رواه أحمد (٩٩١٢) رفى سنده أبى الضحاك وهو مقبول كما فى " التقريب " (٢ / ٤٣٩) .
(٢) يخنــز : ينتن .
(٣) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٣٣٠) ومسلم (١٤٧٠ / ٦٣) .

آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق (١) **فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول مَا بدا منه عورته فلما نظر إِلَى عورته جعل يشتد فِي الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعنها فناداه الرحمن عز وجل يا آدم متى تفر فلما سمع كلام الرحمن . قال : يا رب لا ولكن استحياء »**. وقال الثوري عن ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾ [طه : ١٢١] ورق التين . وهذا إسناد صحيح إليه وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب. وظاهر الآية يقتضي أعم من ذلك وبتقدير تسليمه فلا يضر والله تعالى أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن بن ذكوان عن الحسن البصري عن أبي بن كعب : قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ستين ذراعا كثير الشعر موارى العورة فلما أصاب الخطيئة فِي الجنة بدت له سوأته ، فخرج من الجنة ، فلقيته شجرة ، فأخذت بناصيته ، فناداه ربه أفرارا مني يا آدم قال : بل حياء منك والله يارب مما جئت به** ».
ثم رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن يحيى بن ضمرة عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ بنحوه . و هذا أصح فإن الحسن لم يدرك أبيا.

ثم أورده أيضا من طريق خيثمة بن سليمان الأطرابلسي عن محمد بن عبد الوهاب أبي قرصافة العسقلاني عن آدم بن أبي إياس عن شيبان عن قتادة عن أنس مرفوعا بنحوه : ﴿**وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ. قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف : ٢٢ ، ٢٣] .

هذا اعتراف ورجوع إِلَى الإنابة وتذلل وخضوع واستكانة وافتقار إليه تعالى فِي الساعة الراهنة ، وهذا السر مَا سرى فِي أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إِلَى خير فِي دنياه وأخراه. ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ [الأعراف : ٢٤] وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس قيل والحية معهم أمروا أن يهبطوا من الجنة فِي حال كونهم متعادين متحاربين . وقد يستشهد لذكر الحية معهمَا بمَا ثبت فِي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات وقال« **مَا سالمناهن منذ حاربناهن** » (٢) .

وقوله فِي سورة طه ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ [طه : ١٢٣] هو أمر لآدم وإبليس واستتبع آدم حواء وإبليس الحية . وقيل هو أمر لهم بصيغة التثنية كمَا فِي قوله تعالى : ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٧٨].

والصحيح أن هذا لَمَا كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدع ومدعى عليه قال ﴿**وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ**﴾ [الأنبياء : ٧٨] .

---

(١) سحوق : النخلة طالت .
(٢) أحمد (١ / ٢٣٠) وأبو داود (٥٢٥٠) .

وأمَا تكريره الإهباط فِي سورة البقرة فِي قوله: ﴿ **وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة : ٣٥ - ٣٩].

فقال بعض المفسرين المراد بالإهباط الأول الهبوط من الجنة إِلَى السماء الدنيا وبالثاني من السماء الدنيا إِلَى الأرض .

وهذا ضعيف لقوله فِي الأول: ﴿ **وقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ [البقرة : ٣٦] فدل على أَنهم أَهبطوا إِلَى الأرض بالإهباط الأول واللّٰه أعلم.

والصحيح أنه كرره لفظا وإن كان واحدا وناط مع كل مرة حكمًا فناط بالأول عداوتهم فيمَا بينهم ، وبالثاني الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينـــزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقي وهذا الأسلوب فِي الكلام له نظائر فِي القرآن الكريم. وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال : أمر اللّٰه ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره فنـــزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول : العفو العفو فقال اللّٰه : فرارا مني قال : بل حياء منك يا سيدي، قال الأوزاعي عن حسان هو بن عطية : مكث آدم فِي الجنة مائة عام ، وفِي رواية ستين عامًا ، وبكى على الجنة سبعين عامًا ، وعلى خطيئته سبعين عامًا وعلى ولده حين قتل أربعين عاما. رواه ابن عساكر.

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن سعيد عن ابن عباس قال:أهبط آدم عليه السلام إِلَى أرض يقال لها: " دحنا "بين مكة والطائف.

وعن الحسن قال: أهبط آدم بالهند ، وحواء بجدة ، وإبليس بدستميسان من البصرة على أميال ، وأهبطت الحية بأصبهان . رواه ابن أبي حاتم أيضا. وقال السدي : نـــزل آدم بالهند ، ونزل معه بالحجر الأسود ، وبقبضة من ورق الجنة ، فبثه فِي الهند . فنبتت شجرة الطيب هناك. وعن ابن عمر قال : أهبط آدم بالصفا ، وحواء بالمروة. رواه ابن أبي حاتم أيضا .

وقال عبد الرزاق : قال معمر : أخبرني عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري. قال : إن اللّٰه حين أهبط آدم من الجنة إِلَى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة ، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

وقال الحاكم فِي مستدركه : أنبأنا أبو بكر بن بالويه عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمر عن زائدة عن عمار بن أبي معاوية البجلي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : مَا أسكن آدم الجنة إلا مَا بين صلاة العصر إِلَى غروب الشمس . ثم قال : صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

وفي صحيح مسلم من حديث الزهري عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **خير يوم طلعت فيه الشَّمْس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها** » [(١)]. وفي الصحيح من وجه آخر « **وفيه تقوم الساعة** »[(٢)].

وقال أحمد : حدثنا محمد بن مصعب . حدثنا الأوزاعي عن أبي عمار عن عبد الله بن فروخ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **خير يوم طلعت فيه الشَّمْس يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة** » [(٣)] على شرط مسلم.فأمَا الحديث الذي رواه ابن عساكر من طريق أبي القاسم البغوي. حدثنا محمد بن جعفر الوركاني حدثنا سعيد بن ميسرة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : « **هبط آدم وحواء عريانين جميعا عليهمَا ورق الجنة فأصابه الحر حتى قعد يبكي ، ويقول لها : يا حواء قد أذاني الحر . قال : فجاءه جبريل بقطن وأمرها أن تغزل وعلمها وأمر آدم بالحياكة وعلمه أن ينسج** » ، وقال :« **كان آدم لم يجامع امرأته في الجنة حتى هبط منها للخطيئة التي أصابتهمَا بأكلهمَا من الشجرة** » قال:« **وكان كل واحد منهمَا ينام على حدة ينام أحدهمَا في البطحاء والآخر من ناحية أخرى حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتي أهله** » . قال : « **وعلمه كيف يأتيها فلما أتاها جاءه جبريل ، فقال : كيف وجدت امرأتك ؟ . قال : صالحة** » . فإنه حديث غريب ورفعه منكر جدا. وقد يكون من كلام بعض السلف ، وسعيد بن ميسرة هذا هو أبو عمران البكري البصري. قال فيه البخاري : منكر الحديث ، وقال ابن حبان : يروي الموضوعات ، وقال ابن عدي: مظلم الأمر .

وقوله : ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة : ٣٧] .

قيل : هي قوله : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ٢٣] . روي هذا عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، والحسن، وقتادة ، ومحمد بن كعب ، وخالد بن معدان ، وعطاء الخراساني ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب حدثنا علي بن عاصم عن سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « **قال آدم عليه السلام أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة ؟ . قال نعم** » فذلك قوله : ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ [البقرة : ٣٧] وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : قال الكلمات : " اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الراحمين اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم " .

---

(١) رواه مسلم (٨٥٤ / ١٧) وأحمد (١٠٦٥٠) والنسائى (٣ / ٨٩) .

(٢) رواه مسلم (٨٥٥ / ١٧) والترمذى (٤٨٨) .

(٣) **صحيح** : رواه أحمد (١٠٩١٢) .

وروى الحاكم في مستدركه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٣٧] قال : قال آدم : يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قيل له : بلى. ونفخت في من روحك قيل له بلى وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك قيل له بلى وكتبت علي أن أعمل هذا قيل له بلى . قال أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة. قال نعم . ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وروى الحاكم أيضا ، والبيهقي ، وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « **لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي ، فقال الله : فكيف عرفت محمدا ولم أخلقه بعد ؟ فقال : يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي ، وإذ سألتني بحقه ، فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك** » .

قال البيهقي تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف والله أعلم وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه : ١٢١ ، ١٢٢].

ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

قال البخاري : حدثنا قتيبة . حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **حاج موسى آدم عليهما السلام ، فقال له : أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم. قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني أو قدره علي قبل أن يخلقني؟** » قال رسول الله ﷺ :« **فحج آدم موسى** » [١] وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد ، والنسائي عن محمد بن عبد الله بن يزيد عن أيوب بن النجار به. قال أبو مسعود الدمشقي : ولم يخرجاه عنه في الصحيحين سواه .

وقد رواه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة. ورواه مسلم عن محمد ابن رافع عن عبد الرزاق به.

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل.حدثنا إبراهيم . حدثنا ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **احتج آدم وموسى فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة ، فقال له آدم : وأنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه تلومني على أمر قدّر عليَّ قبل أن اخلق**».قال رسول الله ﷺ: « **فحج آدم موسى فحج آدم موسى**» مرتين[٢].

قلت : وقد روى هذا الحديث البخاري ومسلم من حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه .

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٤٨٣٨) ومسلم (٢٦٥٢ / ١٥) .

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٤٠٩) ومسلم (٢٦٥٢/ ١٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو . حدثنا زائدة عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «**احتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه أغويت الناس ، وأخرجتهم من الجنة ، قال : فقال آدم ، وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه تلومني على عمل أعمله كتبه الله علي قبل أن يخلق السموات والأرض . قال : فحج آدم موسى** »[١]. وقد رواه الترمذي والنسائي جميعا عن يحيى بن حبيب بن عدي عن معمر بن سليمان عن أبيه عن الأعمش به. قال الترمذي : وهو غريب من حديث سليمان التيمي عن الأعمش. قال : وقد رواه بعضهم عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد. قلت : هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن محمد بن مثنى عن معاذ بن أسد عن الفضل بن موسى عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد .

ورواه البزار أيضا حدثنا عمرو بن على الفلاس حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو أبي سعيد عن النبي ﷺ فذكره.

وقال أحمد حدثنا سفيان عن عمرو سمع طاووسا سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله : « **احتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا ، وأخرجتنا من الجنة ، فقال له آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله بكلامه** - وقال مرة - **برسالته وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ قال : حج آدم موسى ، حج آدم موسى ، حج آدم موسى** » [٢] .

وهكذا رواه البخاري عن علي بن المديني حدثنا عن سفيان قال: حفظناه من عمرو عن طاووس قال : سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال : « **احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة فحج آدم موسى فحج آدم موسى** »[٣] هكذا ثلاثا. قال سفيان حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مثله.

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه من عشر طرق عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال أحمد : حدثنا عبد الرحمن . حدثنا حماد عن عمار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **لقي آدم موسى ، فقال : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته وأسكنك الجنة ثم فعلت . فقال: أنت موسى الذي كلمك الله ، واصطفاك برسالته ، وأنزل عليك التوراة أنا أقدم أم الذكر . قال . لا . بل الذكر ، فحج آدم موسى** » [٤] .

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٢ / ٣٩٨) رقم (٩١٤٩) .
(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٧٣٨١) .
(٣) **متفق عليه**: رواه البخارى (٦٦١٤) ومسلم (٢٦٥٢ / ١٣) .
(٤) **حسن** : رواه أحمد (٢ / ٤٦٤) رقم (٩٩٤٧) .

قال أحمد : وحدثنا عفان حدثنا حماد عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وحميد عن الحسن عن رجل قال حماد : أظنه جندب بن عبد الله البجلي عن النبي ﷺ قال : « **لقي آدم موسى** » [١] فذكر معناه. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أحمد : حدثنا الحسن حدثنا جرير هو ابن حازم عن محمد هو ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لقي آدم موسى فقال : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، ثم صنعت مَا صنعت. قال آدم : يا موسى أنت الذي كلمه الله وأنزل عليه التوراة. قال نعم. قال فهل تجده مكتوبا علي قبل أن أخلق ؟ . قال : نعم** ». قال : « **فحج آدم موسى فحج آدم موسى** » [٢].

وكذا رواه حماد بن زيد عن أيوب وهشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رفعه.

وكذا رواه على بن عاصم عن خالد وهشام عن محمد بن سيرين. وهذا على شرطهمَا من هذه الوجوه.

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني أنس بن عياض عن الحارث بن أبي ذُباب عن يزيد بن هرمز سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ : «**احتج آدم وموسى عند ربهمَا ، فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك جنته ، ثم أهبطت الناس إِلَى الأرض بخطيئتك. قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة ؟ قال موسى بأربعين عاما. قال آدم : فهل وجدت فيها ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ ؟** [طه : ١٢١] **قال : نعم. قال : أفتلومني على أن عملت عملا كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟** » قال: قال رسول الله ﷺ : «**فحج آدم موسى** » [٣].

قال الحارث : وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ .

وقد رواه مسلم عن إسحاق بن موسى الأنصاري عن أنس بن عياض عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن يزيد بن هرمز والأعرج كلاهمَا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق . أنبأنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « **احتج آدم وموسى ، فقال موسى لآدم : يا آدم أنت الذي أدخلت ذريتك النار. فقال آدم : يا موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأنزل عليك التوراة فهل وجدت أن أهبط ؟** » . قال : نعم . قال : « **فحجه آدم** » [٤] وهذا على شرطهمَا ولم يخرجاه من هذا الوجه. وفي قوله: « **أدخلت ذريتك النار** » نكارة.

---

(١) **حسن** : رواه أحمد (٢ / ٤٦٤) رقم (٩٩٤٨) .
(٢) **صحيح** : رواه أحمد (٢ / ٢٩٢) رقم (٩٠٧١) .
(٣) رواه مسلم (٢٦٥٢ / ١٥) .
(٤) رواه أحمد (٢ / ٢٦٨) رقم (٧٦٢٣) .

فهذه طرق هذا الحديث عن أبي هريرة رواه عنه حميد بن عبد الرحمن وذكوان أبو صالح السمان وطاووس بن كيسان وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وعمار بن أبي عمار ومحمد بن سيرين وهمام بن منبه ويزيد بن هرمز ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن.

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : حدثنا الحارث بن مسكين المصري . حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال : «**قال موسى عليه السلام : يا رب أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة ، فأراه آدم عليه السلام. فقال : أنت آدم. فقال له آدم : نعم . قال : أنت الذي نفخ الله فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته، وعلمك الأسماء كلها. قال : نعم. قال : فمَا حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم : من أنت قال : أنا موسى. قال : أنت موسى نبي بني إسرائيل أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب فلم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه. قال . نعم. قال : تلومني على أمر قد سبق من الله عزّ وجلّ القضاء به قبل** » قال رسول الله ﷺ : « **فحج آدم موسى فحج آدم موسى** » [1]. ورواه أبو داود عن أحمد بن صالح المصري عن ابن وهب به .

قال أبو يعلى : وحدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعي . حدثنا عمران عن الرديني عن أبي مجلز عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر ، قال أبو محمد : أكبر ظني أنه رفعه. قال : « **التقى آدم وموسى ، فقال موسى لآدم : أنت أبو البشر أسكنك الله جنته ، وأسجد لك ملائكته. قال آدم: يا موسى أمَا تجده علي مكتوبا؟ قال : فحج آدم موسى فحج آدم موسى** »[2]. وهذا الإسناد أيضاً لا بأس به والله أعلم .

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد ورواية الإمام أحمد له عن عفان عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن رجل. قال حماد : أظنه جندب بن عبد الله البجلي عن النبي ﷺ :« **لقي آدم موسى** » فذكر معناه .

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث : فرده قوم من القدرية لَمّا تضمن من إثبات القدر السابق. واحتج به قوم من الجبرية وهو ظاهر لهم بادئ الرأى حيث قال : « **فحج آدم موسى** » لَمّا احتج عليه بتقديم كتابه ، وسيأتي الجواب عن هذا. وقال آخرون : إنّمَا حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

وقيل : إنّمَا حجه لأنه أكبر منه وأقدم. وقيل : لأنه أبوه. وقيل : لأنهمَا في شريعتين متغايرتين. وقيل : لأنهمَا في دار البرزخ ، وقد انقطع التكليف فيمَا يزعمونه.

---

(١) حسن: أبو داود (٤٧٠٢) وأبو يعلى (٢٤٣) .

(٢) حسن: رواه أبو يعلى (٢٤٤) .

والتحقيق أن هذا الحديث روي بألفاظ كثيرة بعضها روي بالمعنى. وفيه نظر.

ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم: أنا لم أخرجكم وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة، والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق هو الله عزّ وجلّ فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إلي أكثر مما أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها وكون الإخراج مترتبا على ذلك ليس من فعلي، فأنا لم أخرجكم، ولا نفسي من الجنة، وإنما كان هذا من قدرة الله، وصنعه، وله الحكمة في ذلك فلهذا حج آدم موسى.

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند لأنه متواتر عن أبي هريرة رضي الله عنه وناهيك به عدالة وحفظا وإتقانا. ثم هو مروي عن غيره من الصحابة كمَا ذكرنا. ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفا فهو بعيد من اللفظ والمعنى. ومَا فيهم من هو أقوى مسلكا من الجبرية. وفيمَا قالوه نظر من وجوه. أحدها: أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب منه فاعله. الثاني: أنه قد قتل نفسا لم يؤمر بقتلها وقد سأل الله في ذلك بقوله: ﴿ **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ** ﴾ [القصص: ١٦]. الثالث: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد لا نفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة. فلهذا قال من قال من العلماء: بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا المعصية. والله تعالى أعلم.

ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيي، ومحمد بن جعفر. حدثنا عوف. حدثني قسامة بن زهير عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: « **إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض، والأحمر، والأسود وبين ذلك. والخبيث، والطيب، والسهل، والحزن، وبين ذلك** » [1].

ورواه أيضا عن هوذة عن عوف عن قسامة بن زهير سمعت الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: « **إن الله عزّ وجلّ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض، والأحمر، والأسود، وبين ذلك. والسهل، والحزن، وبين ذلك، والخبيث، والطيب، وبين ذلك** » [2].

وكذا رواه أبو داود والترمذي، وابن حبان في صحيحه من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي عن قسامة بن زهير المازني البصري عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري عن النبي ﷺ بنحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤ / ٤٠٠) رقم (١٩٤٨٣).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٤ / ٤٠٦) رقم (١٩٥٣٢) وأبو داود (٤٦٩٣) والترمذي (٢٩٥٥).

وقد ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ قالوا : « فبعث اللّه عزّ وجلّ جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت الأرض : أعوذ باللّه منك أن تنقص مني أو تشينني ، فرجع ، ولم يأخذ ، وقال : رب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل ، فعاذت منه ، فأعاذها ، فرجع ، فقال كمَا قال جبريل . فبعث ملك الموت فعاذت منه ، فقال : وأنا أعوذ باللّه أن أرجع ، ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض ، وخلطه ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة بيضاء ، وحمراء، وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، فصعد به فَبَلّ التراب حتى عاد طيناً لازباً ؛ واللازب هو الذي يلزق بعضه ببعض. ثم قال للملائكة : **﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾** [ص : ٧١،٧٢] فخلقه اللّه بيده لئلا يتكبر إبليس عنه فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرت به الملائكة ، ففزعوا منه لَما رأوه ، وكان أشدهم منه فزعاً إبليس ، فكان يمر به ، فيضربه فيصوت الجسد كمَا يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول : **﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ﴾** [الرحمن: ١٤] . ويقول : لأمر مَا خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره ، وقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه فلما بلغ الحين الذي يريد اللّه عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحي ، فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس . فقالت الملائكة : قل الحمد للّه فقال : الحمد للّه ، فقال له اللّه : رحمك ربك ، فلما دخلت الروح في عينيه نظر إِلَى ثمار الجنة فلما دخلت الروح في جوفه اشتهي الطعام ، فوثبت قبل أن تبلغ الروح إِلَى رجليه عجلان إِلَى ثمار الجنة وذلك حين يقول اللّه تعالى: **﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾** [الأنبياء: ٣٧] **﴿فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾** [الحجر: ٣٠ ، ٣١] » ، وذكر تمام القصة .

ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات. فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد . حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قال : « **لَما خلق اللّه آدم تركه مَا شاء أن يدعه فجعل إبليس يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْقٌ لا يتمالك** »[1].

وقال ابن حبان في صحيحه : حدثنا الحسن بن سفيان . حدثنا هدبة بن خالد . حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول اللّه ﷺ قال : « **لَما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس ، فقال : الحمد للّه رب العالمين ، فقال له تبارك وتعالى : يرحمك اللّه** »[2].

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يحيي بن محمد بن السكن . حدثنا حبان بن هلال . حدثنا مبارك بن فضالة عن عبيد اللّه عن حبيب عن حفص – هو ابن عاصم – بن عبيد اللّه بن

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (٣ / ١٥٢) رقم (١٢٤٧٨) ومسلم (٢٦١١) والطيالسى (٢٠٢٤) وابن حبان (٦١٦٣ – إحسان) والحاكم (١/ ٣٧) .

(٢) **صحيح** : رواه ابن حبان (٦١٦٥ – إحسان) والحاكم (٤ / ٢٦٣) .

عمر بن الخطاب عن أبي هريرة رفعه قال : « لَمَا خلق اللَّه آدم عطس ، فقال : الحمد للَّه ، فقال له ربه ، رحمك ربك يا آدم » وهذا الإسناد لا بأس به و لم يخرجوه. وقال عمر بن عبد العزيز : « لَمَا أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم إسرافيل فآتاه اللَّه أن كتب القرآن فِي جبهته» رواه ابن عساكر .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا عقبة بن مكرم . حدثنا عمرو بن محمد عن إسماعيل بن رافع عن المقبري عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إن اللَّه خلق آدم من تراب ، ثم جعله طيناً، ثم تركه حتى إذا كان حَمَأ مسنوناً خلقه وصوره ، ثم تركه حتى إذا كان صلصالا كالفخار » . قال : « فكان إبليس يمر به ، فيقول : لقد خلقت لأمر عظيم . ثم نفخ اللَّه فيه من روحه فكان أول مَا جرى فيه الروح بصره وخياشيمه ، فعطس فلقاه اللَّه رحمة ربه فقال اللَّه : يرحمك ربك. ثم قال اللَّه : يا آدم اذهب إِلَى هؤلاء النفر ، فقل لهم : السلام عليكم فانظر ماذا يقولون ، فجاء فسلم عليهم فقالوا : وعليك السلام ورحمة اللَّه وبركاته. فقال : يا آدم هذه تحيتك ، وتحية ذريتك قال : يا رب ومَا ذريتي ؟ قال : اختر يدي يا آدم ، قال : أختار يمين ربي ، وكلتا يدي ربي يمين وبسط كفه ، فإذا من هو كائن من ذريته فِي كف الرحمن، فإذا رجال منهم أفواههم النور ، فإذا رجل يعجب آدم نوره ، قال : يا رب من هذا ؟ قال : ابنك داود . قال : يا رب فكم جعلت له من العمر ؟ قال : جعلت له ستين. قال: يا رب فأتم له من عمري حتى يكون له من العمر مائة سنة ، ففعل اللَّه ذلك ، وأشهد على ذلك . فلما نفد عمر آدم بعث اللَّه ملك الموت ، فقال آدم : أو لم يبق من عمري أربعون سنة قال له الملك: أو لم تعطها ابنك داود، فجحد ذلك ، فجحدت ذريته ، ونسي ، فنسيت ذريته »[(١)] .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار والترمذي والنسائي فِي "اليوم والليلة" من حديث صفوان بن عيسي عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. وقال الترمذي : حديث حسن غريب من هذا الوجه [(٢)] . وقال النسائي : هذا حديث منكر ، وقد رواه أحمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه عن عبد اللَّه بن سلام .

وقال الترمذي : حدثنا عبد بن حميد . حدثنا أبو نعيم . حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لَمَا خلق اللَّه آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إِلَى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً [(٣)] من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : أي رب من هؤلاء . قال : هؤلاء ذريتك، فرأى رجلا منهم ، فأعجبه وبيص مَا بين عينيه ، فقال : أي رب من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له

---

(١) ضعيف : رواه أبو يعلى (٦٥٨٠) وفى سنده إسماعيل بن رافع وهو ضعيف كما فى " التقريب " (١ / ٦٩) وقال النسائى والدارقطنى وعلى بن الجنيد : متروك .

(٢) حسن : رواه الترمذى (٣٣٦٨) والنسائى فى " عمل اليوم والليلة " (٢١٨) وابن حبان (٦١٦٧ - إحسان) والحاكم (١ / ٦٤ و ٢٦٣) والبيهقى فى " الأسماء والصفات " ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٣) وبيص : لمع وبرق .

داود . قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال ستين سنة . قال : أي رب زده من عمري أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت . قال : أو لم يبق من عمري أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد، فجحدت ذريته ، ونسي آدم ، فنسيت ذريته ، وخطئ آدم فخطئت ذريته »(١).

ثم قال الترمذي : حسن صحيح ، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ورواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين وقال : صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه .

وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة مرفوعاً فذكره، وفيه : « ثم عرضهم على آدم ، فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الأجذم ، والأبرص ، والأعمى ، وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يا رب لم فعلت هذا بذريتي؟ قال : كي تشكر نعمتي ». ثم ذكر قصة داود. وستأتي من رواية ابن عباس أيضاً.

وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا الهيثم بن خارجة ، حدثنا أبو الربيع عن يونس بن ميسرة عن أبي إدريس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم. فقال للذي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي. وقال للذي في كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالي » (٢).

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا خلف بن هشام . حدثنا الحكم بن سنان عن حوشب عن الحسن قال : خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى ، فألقوا على وجه الأرض منهم الأعمى ، والأصم ، والمبتلى. فقال آدم يارب ألا سويت بين ولدي. قال يا آدم : إني أردت أن أُشكَر . وهكذا روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن بنحوه.

وقد رواه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه فقال : حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة . حدثنا محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى . حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم ، ونفخ فيه الروح عطس فقال : الحمد لله ، فحمد الله بإذن الله ، فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس فسلم عليهم ، فقال : السلام عليكم . فقالوا : وعليكم السلام ورحمة الله. ثم رجع إلى ربه فقال : هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم. وقال الله ويداه مقبوضتان : اختر أيهما شئت ، فقال : اخترت يمين ربي ، وكلتا يدي ربي يمين مباركة ، ثم بسطهما ، فإذا فيهما آدم ، وذريته ، فقال : أي رب ما هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، وإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه ، وإذا فيهم رجل أضوؤهم– أو – من أضوئهم لم يكتب له إلا أربعون سنة . قال : يا رب من هذا. قال هذا ابنك داود . وقد كتب

---

(١) صحيح : رواه الترمذى (٣٠٧٦) وقال : حسن صحيح، وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة عن .
(٢) صحيح : رواه أحمد (٦ / ٤٤١) رقم (٢٧٣٦١) .

الله عمره أربعين سنة. قال : أي رب زد في عمره ، فقال : ذاك الذي كتب له . قال : فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة . قال : أنت وذاك. اسكن الجنة. فسكن الجنة ما شاء الله ، ثم هبط منها ، وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت ، فقال له آدم : قد عجلت قد كتب لي ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة فجحد آدم ، فجحدت ذريته ، ونسي ، فنسيت ذريته » [(١)] فيومئذ أمر بالكتاب والشهود هذا لفظه.

وقد قال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد . حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا. ثم قال : اذهب فسلم على أولئك من الملائكة ، واستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ، ورحمة الله ، فزادوه ، ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن** »[(٢)]. وهكذا رواه البخاري في كتاب الاستئذان عن يحيى بن جعفر ومسلم عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح . حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **كان طول آدم ستين ذراعا في سبع أذرع عرضا** » [(٣)]. انفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان . حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « **إن أول من جحد آدم إن أول من جحد آدم إن أول من جحد آدم أن الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارى إلى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلا يزهر قال : أي رب من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود . قال : أي رب كم عمره ؟ . قال : ستون عامًا . قال : أي رب زد في عمره . قال : لا إلا أن أزيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاما. فكتب الله عليه بذلك كتابا وأشهد عليه الملائكة . فلما احتضر آدم أتته الملائكة لقبضه قال إنه قد بقي من عمري أربعون عاما. فقيل له إنك قد وهبتها لابنك داود. قال ما فعلت وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة** » [(٤)].

وقال أحمد : حدثنا أسود بن عامر . حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أول من جحد آدم ، قالها ثلاث مرات أن الله عزّ وجلّ لما خلقه مسح ظهره ، فأخرج ذريته ، فعرضهم عليه ، فرأى فيهم رجلا يزهر، فقال : أي رب زد في عمره . قال : لا إلا أن تزيده أنت من عمرك ، فزاده أربعين سنة من عمره. فكتب الله تعالى**

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٢٦) وفى الاستئذان (٦٢٢٧)

(٣) **ضعيف** : رواه أحمد (٢ / ٥٣٤) رقم (١٠٨٥٥) وفى سنده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف كما فى " التقريب " (٢ / ٣٧) .

(٤) **ضعيف** : رواه أحمد (٢٢٧٠) وفى سنده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف .

عليه كتابًا ، وأشهد عليه الملائكة فلما أراد أن يقبض روحه ، قال : إنه بقي من أجلي أربعون سنة ، فقيل له : إنك قد جعلتها لابنك داود . قال : فجحد . قال : فأخرج الله الكتاب ، وأقام عليه البينة ، فأتمها لداود مائة سنة ، وأتم لآدم عمره ألف سنة »[١] تفرد به أحمد وعلي بن زيد فِي حديثه نكارة.

وروى الطبراني عن علي بن عبد العزيز عن حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة عن علي ابن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس وغير واحد عن الحسن قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ « **إن أول من جحد آدم ثلاثا** » وذكره.

وقال الإمام مالك بن أنس فِي موطئه عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية . ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف : ١٧٢]. الآية ، فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال : « **إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار . وبعمل أهل النار يعملون** ». فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: « **إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة . فيدخل به الجنة وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار** »[٢].

وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو حاتم ابن حبان فِي صحيحه من طرق عن الإمام مالك به. وقال الترمذي : هذا حديث حسن. ومسلم بن يسار لم يسمع عمر. وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة ، زاد أبو حاتم ، وبينهمَا نعيم ابن ربيعة. وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جُثعم عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث . قال الحافظ الدارقطني وقد تابع عمر بن جُعثم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوي عن زيد بن أبي أنيسة قال : وقولهمَا أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله .

---

(١) **ضعيف** : رواه أحمد (١ / ٢٩٩) رقم (٢٧١٣) وفى سنده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف .

(٢) **ضعيف**: رواه مالك فى " الموطأ " (٢ / ٨٩٨ ، ٨٩٩) وأحمد (١ / ٤٤ ، ٤٥) وأبو داود (٤٧٠٣) والترمذى (٣٠٧٥) وابن حبان (٦١٦٦) والطبرانى فى تفسيره (١٥٣٥٧) وفى " التاريخ " (١/ ١٣٥) واللالكائى فى " أصول الاعتقاد " (٩٩٠) والأجرى فى " الشريعة " (ص ١٧٠) والحاكم (١/ ٢٧ و٢ / ٣٢٤ ، ٣٢٥ و ٥٤٤) والبيهقى فى " الأسماء والصفات " (ص ٣٢٥) والبغوى فى " شرح السنة" (٧٧) وفى " معالم التنـــزيل " (٢ / ٢١١ و ٥٤٤) وفى سنده مسلم بن يسار الجهنى وهو مقبول كما فى " التقريب " (٢ / ٢٤٨) وهو مع ذلك لم يسمع من عمر بن الخطاب رضى الله عنه فالسند منقطع . وخالفه فى الموضع الأول فقال : فيه إرسال .

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم قسمين : أهل اليمين ، وأهل الشمال وقال : « **هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي** ».

فأما الإشهاد عليهم واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية فلم يجئ في الأحاديث الثابتة. وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر كمَا بيناه هناك. وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها. فمن أراد تحريره فليراجعه ثم والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير – يعني ابن حازم – عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: « **إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان** [١] **يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه كالذر. ثم كلمهم قبلا قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾** [الأعراف:١٧٢] **﴿ أَو تَقُولُوا ﴾** إِلَى قوله **﴿ الْمُبْطِلُونَ ﴾** [الأعراف:١٧٣] » [٢] فهو بإسناد جيد قوي على شرط مسلم. رواه النسائي وابن جرير والحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد المروزي به. وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر فروي عنه مرفوعاً وموقوفاً ، وكذا روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفا. وهكذا رواه العوفي والوالبي والضحاك وأبو جمرة عن ابن عباس قوله. وهذا أكثر وأثبت والله أعلم. وهكذا روي عن عبد الله بن عمر موقوفا ومرفوعا والموقوف أصح.

واستأنس القائلون بهذا القول وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور بمَا قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثني شعبة عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « **يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : لو كان لك مَا على الأرض من شيء أكنت مفتديا به قال : فيقول : نعم. فيقول : قد أردت منك مَا هو أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي** »[٣] أخرجاه من حديث شعبة به.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى : **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾** [الأعراف : ١٧٢] الآية والتي بعدها. قال : فجمعهم له يومئذ جميعا مَا هو كائن منه إلى يوم القيامة فخلقهم ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهد عليهم أنفسهم : **﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾** [الأعراف : ١٧٢] الآية . قال : فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن لا تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا. اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً ، وإني سأرسل إليكم رسلا ينذرونكم عهدي ، وميثاقي ، وأنزل عليكم

---

(١) نعمان : واد إلى جنب عرفة .

(٢) صحيح : رواه أحمد (٢٤٥٥) .

(٣) متفق عليه : رواه أحمد (١٢٢٩١) والبخارى (٣٣٣٤) ومسلم (٦٩٤٥) .

كتابي. قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة. ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : يارب لو سويت بين عبادك . فقال : إني أحببت أن أشكر.

ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذي يقول الله تعالى : **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾** [الأحزاب : ٧] وهو الذي يقول **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾** [الروم : ٣٠] وفي ذلك قال **﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾** [النجم: ٥٦] وفي ذلك قال **﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾** [الأعراف : ١٠٢] .

رواه الأئمة عبد الله بن أحمد ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وابن مردويه في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر. وروي عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصري ، وقتادة ، والسدي ، وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث ، وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم امتثلوا كلهم الأمر الإلهي وامتنع إبليس من السجود له حسدا وعداوة له فطرده الله ، وأبعده ، وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعونا شيطانا رجيما.

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، ويعلى ومحمد ابنا عبيد قالوا : حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :« **إذا قرأ ابن آدم السجدة ، فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار** »[1]. ورواه مسلم من حديث وكيع وأبي معاوية عن الأعمش به .

ثم لما أسكن آدم الجنة التي أسكنها سواء كانت في السماء أو في الأرض على مَا تقدم من الخلاف فيه أقام بها هو وزوجته حواء عليهمَا السلام يأكلان منها رغدا حيث شاءا فلما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها سلبا مَا كانا فيه من اللباس ، وأهبطا إلى الأرض. وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطه منها .

واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة فقيل : بعض يوم من أيام الدنيا ، وقد قدمنا مَا رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعا و« **خلق آدم في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة** »[2]وتقدم أيضا حديثه عنه ، وفيه يعني يوم الجمعة : « **خلق آدم وفيه أخرج منها** » .

فإن كان اليوم الذي خلق فيه أخرج فيه وقلنا إن الأيام الستة كهذه الأيام فقد لبث بعض يوم من هذه. وفي هذا نظر وإن كان إخراجه في غير اليوم الذي خلق فيه أو قلنا بأن تلك

---

(١) رواه مسلم (٨١ / ١٣٣) وأحمد (٩٦٧٤) .

(٢) رواه مسلم (٨٥٤ / ١٧) .

الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كمَا تقدم عن ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، واختاره ابن جرير فقد لبث هناك مدة طويلة.

قال ابن جرير : ومعلوم أنه خلق فِي آخر ساعة من يوم الجمعة والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر فمكث مصورا طينا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة ، وأقام فِي الجنة قبل أن يهبط ثلاثا وأربعين سنة وأربعة أشهر واللَّه تعالى أعلم.

وقد روى عبد الرزاق عن هشام بن حسان عن سوار خبر عطاء بن أبي رباح أنه كان -لما أهبط- رجلاه فِي الأرض ورأسه فِي السماء فحطه اللَّه إِلَى ستين ذراعا. وقد روي عن ابن عباس نحوه.

وفِي هذا نظر لَمَا تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إن اللَّه خلق آدم وطوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن** »[1]. وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعا ، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن.

وذكر ابن جرير عن ابن عباس أن اللَّه قال : يا آدم إن لي حرمَا بحيال عرشي فانطلق فابن لي فيه بيتا فطف به كمَا تطوف ملائكتي بعرشي ، وأرسل اللَّه له ملكا فعرفه مكانه وعلمه المناسك. وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك .

وعنه أن أول طعام أكله آدم من الأرض أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة فقال : مَاهذا ؟ قال : هذا من الشجرة التي نهيت عنها ، فأكلت منها ، فقال : ومَا أصنع بهذا ؟ قال: ابذره فِي الأرض ، فبذره وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف ، فنبتت فحصده . ثم درسه. ثم ذراه. ثم طحنه. ثم عجنه. ثم خبزه . فأكله بعد جهد عظيم ، وتعب ، وكد وذلك قوله تعالى: ﴿ **فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى** ﴾ [طه : ١١٧] . وكان أول كسوهمَا من شعر الضأن جزّاه ثم غزلاه فنسج آدم له جبة ولحواء درعاً وخماراً .

واختلفوا هل ولد لهمَا بالجنة شيء من الأولاد فقيل : لم يولد لهمَا إلا فِي الأرض. وقيل : بل ولد لهمَا فيها فكان قابيل وأخته ممن ولد بها واللَّه أعلم.

وذكروا : أنه كان يولد له فِي كل بطن ذكر وأنثى وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التي ولدت معه والآخر بالأخرى وهلم جرا و لم يكن تحل أخت لأخيها الذي ولدت معه.

ذكر قصّة ابني آدم قابيل وهابيل

قال اللَّه تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ**

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٣٢٦) ومسلم (٧٠٢٣) وأحمد (٢ / ٣١٥) .

يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧-٣١] وقد تكلمنا على هذه القصة في سورة المائدة في التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد.

ولنذكر هنا ملخص مَا ذكره أئمة السلف في ذلك : فذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة : أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى ، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل ، وكان أكبر من هابيل ، وأخت قابيل أحسن ، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها ، فأبى ، فأمرهمَا أن يقربا قربانا ، وذهب آدم ليحج إِلَى مكة ، واستحفظ السَّمَوَات على بنيه فأبين والأرضين والجبال فأبين فتقبل قابيل بحفظ ذلك.

فلما ذهب قربا قربانهمَا ، فقرب هابيل جذعة سمينة ، وكان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه ، فنــزلت نار فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل فغضب وقال :لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال : إنما يتقبل اللّه من المتقين.

وروي عن ابن عباس من وجوه أخر ، وعن عبد اللّه بن عمرو ، وقال عبد اللّه بن عمرو: وأيم اللّه إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده.

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشرا لتقربهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم : إنما تقبل منه لأنك دعوت له ، ولم تدع لي وتوعد أخاه فيمَا بينه وبينه.

فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي فبعث آدم أخاه قابيل لينظر مَا أبطأ به فلما ذهب إذا هو به ، فقال له تقبل منك . ولم يتقبل مني ، فقال : إنما يتقبل اللّه من المتقين. فغضب قابيل عندها ، وضربه بحديدة كانت معه فقتله. وقيل : إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه ، وهو نائم فخدشته. وقيل : بل خنقه خنقا شديدا ، وعضه كمَا تفعل السباع فمات واللّه أعلم.

وقوله له لما توعده بالقتل: ﴿ **لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٨] دل على خلق حسن وخوف من اللّه تعالى ، وخشية منه ، وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله. و لهذا ثبت في الصحيحين عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « **إذا تواجه المسلمان بسيفيهمَا فالقاتل والمقتول في النار** » قالوا : يا رسول اللّه هذا القاتل فمَا بال المقتول ؟ . قال : « **إنه كان حريصا على قتل صاحبه** »[1]. وقوله: ﴿ **إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٩] أي إني أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى إذ قد عزمت على مَا عزمت عليه أن تبوء بإثمي وإثمك أي تتحمل إثم قتلي مع مالك من الآثام المتقدمة قبل ذلك قاله مجاهد والسدي وابن جرير وغير واحد ، وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إِلَى القاتل كمَا قد توهمه بعض

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣١) ومسلم (٢٨٨٨/ ١٤) .

الناس فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك. وأمّا الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ أنه قال : « ما ترك القاتل على المقتول من ذنب » فلا أصل له ولا يعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضا ، ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل كمّا ثبت به الحديث الصحيح في سائر المظالم والقتل من أعظمها والله أعلم. وقد حررنا هذا كله في التفسير ولله الحمد .

وقد روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي والماشي خير من الساعي » قال : أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني قال : « كن كابن آدم » [1]. ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعا وقال:« كن كخير ابني آدم» . وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا .

وأمّا الآجر فقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا : حدثنا الأعمش عن عبد الله ابن مرة عن مسروق عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل »[2].

ورواه الجماعة سوى أبي داود من حديث الأعمش به وهكذا روي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص وإبراهيم النخعي أنهمّا قالا : مثل هذا سواء.

وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها : مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها ، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب ، فالله أعلم بصحة ذلك.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن كثير وقال : إنه كان من الصالحين أنه رأى النبي ﷺ ، وأبا بكر ، وعمر ، وهابيل ، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له ، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء ، فأجابه إلى ذلك ، وصدقه في ذلك رسول الله ﷺ وقال : إنه ، وأبا بكر ، وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس.

وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعي والله أعلم.

وقوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٣١] ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة . وقال آخرون : حمله مائة سنة ، ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين. قال السدي بإسناده عن الصحابة : أخوين فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر فلما

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٦٠٩) وأبو داود (٤٢٥٧) والترمذى (٢١٩٤) .

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٣٥) ومسلم (١٦٧٧ / ٢٧) وأحمد (٤٠٩٢) .

قتله عمد إِلَى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه فلما رآه يصنع ذلك : ﴿ **قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي**﴾ [المائدة: ٣١]ففعل مثل مَا فعل الغراب فواراه ودفنه.

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزنا شديدا ؛ وأنه قال فِي ذلك شعرا وهو قوله فيمَا ذكره ابن جرير عن ابن حميد :

تغيـــــرت البلادُ ومَنْ عَلَيها   فَوجْـــهُ الأرضِ مُغبرٌّ قبيحُ
تغيّــرَ كـــلُّ ذي لونٍ وطعمٍ   وقَـــلَّ بشاشةُ الوجــهِ المليحُ

فأجيب آدم :

أَبَا هـــــابيلَ قد قُتلا جميعاً   وصارَ الحيّ كالميْتِ الذبيـــح
وجـــاء بشّرةٍ قد كانَ منها   على خوفٍ فجاءَ بِهَا يصيح

وهذا الشعر فيه نظر وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاما يتحزن به بلغته فألفه بعضهم إِلَى هذا ، وفيه أقوال واللّٰه أعلم .

وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه فعلقت ساقه إِلَى فخذه وجعل وجهه إِلَى الشَّمْس كيفمَا دارت تنكيلا به وتعجيلا لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه .

وقد جاء فِي الحديث عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال : «**مَا من ذنب أجدر أن يعجل اللّٰه عقوبته فِي الدنيا مع مَا يدخر لصاحبه فِي الآخرة من البغي وقطيعة الرحم** » [١].

والذي رأيته فِي الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة : أن اللّٰه عزّ وجلّ أجله وأنظره وأنه سكن فِي أرض نود فِي شرقي عدن وهم يسمونه قنين وأنه ولد له خنوخ ولخنوخ عندر ولعندر محوايل ولمحوايل متوشيل ولمتوشيل لامك وتزوج هذا امرأتين عدا وصلا فولدت عدا ولدا اسمه "إبل" وهو أول من سكن القباب ، واقتنى المال وولدت أيضا "نوبل" وهو أول من أخذ فِي ضرب الونج والصنج [٢] وولدت صلا ولدا اسمه " توبلقين " وهو أول من صنع النحاس والحديد وبنتا اسمها "نعمى" . وفيها أيضا أن آدم طاف على امرأته فولدت غلاما ودعت اسمه : شيث . وقالت : من أجل أنه قد وهب لِي خلفا من هابيل الذي قتله قابيل وولد لشيث "أنوش" .

قالوا : وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائة وثلاثين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمسا وستين وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين. وولد له بنون وبنات غير أنوش فولد لأنوش " قينان " وله من العمر تسعون سنة وعاش

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٥ / ٣٦ و ٣٨) وأبو داود (٤٩٠٢) والترمذى (٢٥١١) وابن ماجه (٤٢١١) والحاكم (٢ / ٣٥٦ و ٤ / ١٦٢ ، ١٦٣) وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٢) الونج : ضرب – نوع – من العود أو المعزف " وفارسية " والصنج : صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للضرب – آلة أخرى لها أوتار . وهى صنج الجن كما فى اللسان .

بعد ذلك ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة وولد له بنون وبنات ، فلما كان عمر قينان سبعين سنة ولد له مهلاييل وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وأربعين سنة وولد له بنون وبنات فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له " يرد " وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة وولد له بنون وبنات.

فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون سنة ولد له خنوخ ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات .

فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له متوشلخ وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات فلما كان لمتوشلخ مائة وسبع وثمانون سنة ولد له لامك وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنة وولد له بنون وبنات .

فلما كان للامك من العمر مائة واثنتان وثمانون سنة ولد له نوح وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمسا وتسعين سنة . وولد له بنون وبنات فلما كان لنوح خمسمائة سنة ولد له بنون سام وحام ويافث .

هذا مضمون مَا فِي كتابهم صريحا وفِي كون هذه التواريخ محفوظة فيمَا نزل من السماء نظر كمَا ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم فِي ذلك والظاهر أنها مقحمة فيها. ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير. وفيها غلط كثير كمَا سنذكره فِي مواضعه إن شاء اللّٰه تعالى .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير فِي تاريخه عن بعضهم أن حواء ولدت لآدم أربعين ولدا فِي عشرين بطنا قاله ابن إسحاق وسماهم واللّٰه تعالى أعلم. وقيل :مائة وعشرين بطنا فِي كل واحد ذكر وأنثى أولهم قابيل وأخته قليما. وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث .

ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا وامتدوا فِي الأرض ونموا كمَا قال اللّٰه تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾** [النساء : ١] الآية .

وقد ذكر أهل التاريخ : أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة واللّٰه أعلم .

وقال تعالى : **﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللّٰهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّٰهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾** [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] الآيات. فهذا تنبيه أولا بذكر آدم ثم استطرد إِلَى الجنس وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء بل لما جرى ذكر الشخص استطرد إِلَى الجنس كمَا فِي قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِّنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾** [المؤمنون : ١٢ ، ١٣] .

وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾** [الملك:٥] .

ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء ، وإنّمَا استطرد من شخصها إِلَى جنسها. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد . حدثنا عمر بن إبراهيم. حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال : « **لما ولدت حواء طاف بها إبليس** ، وكان **لا يعيش لها ولد فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان** وأمره »[1].

وهكذا رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه فِي تفاسيرهم عند هذه الآية وأخرجه الحاكم فِي مستدركه كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به. وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الترمذي : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ، ولم يرفعه فهذه علة قادحة فِي الحديث أنه روي موقوفا على الصحابي وهذا أشبه والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات.

وهكذا روي موقوفاً عن على ابن عباس. والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار وذوّيه واللّٰه أعلم .

وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا. فلو كان عنده عن سمرة مرفوعا لَمَا عدل عنه إِلَى غيره واللّٰه أعلم.

وأيضا فاللّٰه تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهمَا رجالا كثيرا ونساء فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كمَا ذكر فِي هذا الحديث إن كان محفوظا.

والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إِلَى النبي ﷺ خطأ والصواب وقفه واللّٰه أعلم. وقد حررنا هذا فِي كتابنا التفسير وللّٰه الحمد.

ثم قد كان آدم وحواء أتقى للّٰه مما ذكر عنهمَا فِي هذا. فإن آدم أبو البشر الذي خلقه اللّٰه بيده ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته .

وقد روى ابن حبان فِي صحيحه عن أبي ذر قال : قلت يا رسول اللّٰه كم الأنبياء قال : « **مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا** ». قلت : يا رسول اللّٰه كم الرسل منهم ؟ قال : « **ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير** ». قلت : يا رسول اللّٰه من كان أولهم ؟ قال : « **آدم** ». قلت : يا رسول اللّٰه نبي مرسل . قال : « **نعم خلقه اللّٰه بيده . ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا** »[2].

---

(١) **ضعيف** : رواه أحمد (١٩٩٩٨) والترمذى (٣٠٧٧) والحاكم (٢ / ٥٤٥) وفى سنده عمر بن إبراهيم العبدى ، قال الحافظ : صدوق فى حديثه عن قتادة ، ضعيف كما فى " التقريب " (٢ / ٥١) وقال أحمد : يروى عن قتادة أحاديث علة أخرى وهو أن الحسن البصرى مدلس وقد عنعن .

(٢) **ضعيف جداً** : رواه ابن حبان (٣٦١ - إحسان) وأبو نعيم فى " الحلية " (١ / ١٦٦ - ١٦٨) وفى سنده إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغسانى الدمشقى . قال أبو حاتم كذاب كما فى " الجرح والتعديل" (٢ / ١٤٢ و ١٤٣) وقال الذهبى : متروك ، وكذبه أبو زرعة كما فى " ميزان الاعتدال " (١ / ٧٣ و ٤ / ٣٧٨).

وقال الطبراني : حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني ، حدثنا شيبان بن فروخ . حدثنا نافع أبو هرمز عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **ألا أخبركم بأفضل الملائكة ؛ جبريل وأفضل النبيين آدم ، وأفضل الأيام : يوم الجمعة ، وأفضل الشهور: شهر رمضان ، وأفضل الليالي : ليلة القدر ، وأفضل النساء مريم بنت عمران** » (١). وهذا إسناد ضعيف فإن نافعا أبا هرمز كذبه ابن معين وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم واللّه أعلم.

وقال كعب الأحبار : ليس أحد فِي الجنة له لحية إلا آدم. لحيته سوداء إِلَى سرته. وليس أحد يكنى فِي الجنة إلا آدم كنيته فِي الدنيا أبو البشر وفِي الجنة أبو محمد.

وقد روى ابن عدي من طريق شيخ بن أبي خالد عن حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد اللّه مرفوعا « **أهل الجنة يدعون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد** ». ورواه ابن عدي أيضا من حديث علي بن أبي طالب وهو ضعيف من كل وجه واللّه أعلم.

وفِي حديث الإسراء الذي فِي الصحيحين : « **أن رسول اللّه ﷺ لما مر بآدم وهو فِي السماء الدنيا قال له : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى. فقلت : يا جبريل مَا هذا ؟ قال : هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه. فإذا نظر قبل أهل اليمين وهم أهل الجنة ضحك وإذا نظر قبل أهل الشمال وهم أهل النار بكى** » (٢). هذا معنى الحديث.

وقال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا يزيد بن هارون . أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن قال كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده .

وقال بعض العلماء فِي قوله ﷺ : « **فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن** ». قالوا معناه : أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام. وهذا مناسب. فإن اللّه خلق آدم، وصوره بيده الكريمة ، ونفخ فيه من روحه فمَا كان ليخلق إلا أحسن الأشباه.

وقد روينا عن عبد اللّه بن عمر وابن عمرو أيضا موقوفا ومرفوعاً : أن اللّه تعالى لما خلق الجنة قالت الملائكة : يا ربنا اجعل لنا هذه فإنك خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون. فقال اللّه تعالى : وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له : كن فكان . وقد ورد الحديث المروي فِي الصحيحين وغيرهمَا من طرق أن رسول اللّه ﷺ قال : « **إن اللّه خلق آدم على صورته** » (٣) وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها واللّه أعلم .

---

(١) موضوع: رواه الطبرانى فى " الكبير " (١٠ / ١٢٩) رقم (١١٣٦١) وفى سنده نافع أبو هرمز ، كذبه ابن معين ، وقال النسائى : ليس بثقة . وهو مخالف للحديث الصحيح " وأنا سيد الناس يوم القيامة" فنبينا ﷺ هو أفضل النبيين . وقال الهيثمى فى " المجمع " (٨ / ١٩٨) فيه نافع بن هرمز وهو متروك .

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٤٢) ومسلم (١٦٣/ ٢٦٣) .

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١ / ٢٨) .

ذكر وفاة آدم ووَصيّته إِلَى ابنه شيث

ومعنى : "شيث" هبة اللَّه ، وسمياه بذلك لأنهمَا رزقاه بعد أن قتل هابيل. قال أبو ذر في حديثه عن رسول اللَّه ﷺ : «إن اللَّه أنزل مائة صحيفة وأربع صحف. على شيث خمسين صحيفة »[١].

قال محمد بن إسحاق : ولما حضرت آدم الوفاة عهد إِلَى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار ، وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك. قال : ويقال : إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إِلَى شيث. وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا واللَّه أعلم.

ولما توفي آدم عليه السلام وكان ذلك يوم الجمعة جاءته الملائكة بحنوط وكفن من عند اللَّه عزّ وجلّ من الجنة. وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثا عليه السلام. قال ابن إسحاق : وكسفت الشَّمْس والْقَمَر سبعة أيام بلياليهن.

وقد قال عبد اللَّه ابن الإمام أحمد : حدثنا هدبة بن خالد . حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن يحيي – هو ابن ضمرة السعدي – قال : رأيت شيخا بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أبي بن كعب. فقال: إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أي بني إني أشتهي من ثمار الجنة . قال: فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل فقالوا لهم : يا بني آدم مَا تريدون ؟ ومَا تطلبون ؟ ، أو مَا تريدون ؟ وأين تطلبون ؟ قالوا : أبونا مريض ، واشتهى من ثمار الجنة ، فقالوا لهم : ارجعوا فقد قضى أبوكم فجاؤوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم فقال : إليك عني ، فإني إنما أتيت من قبلك فخلي بيني وبين ملائكة ربي عزّ وجلّ فقبضوه ، وغسلوه ، وكفنوه ، وحنطوه، وحفروا له ، ولحدوه، وصلوا عليه. ثم أدخلوه قبره فوضعوه فِي قبره.ثم حثوا عليه. ثم قالوا : يا بني آدم هذه سنتكم [٢] . إسناده صحيح إليه.

وروى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ عن محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قال : « كبّرت الملائكة على آدم أربعا ، وكبر أبو بكر على فاطمة أربعاً ، وكبر عمر على أبي بكر أربعا ، وكبر صهيب على عمر أربعاً ». قال ابن عساكر: ورواه غيره عن ميمون . فقال: عن ابن عمر.

واختلفوا فِي موضع دفنه فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط فيه فِي الهند ، وقيل : بجبل أبي قبيس بمكة. ويقال : إن نوحا عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء فِي تابوت فدفنهمَا ببيت المقدس. حكى ذلك ابن جرير.

وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال : رأسه عند مسجد إبراهيم ، ورجلاه عند صخرة بيت المقدس. وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة.

---

(١) سبق تخريجه وهو ضعيف جداً .

(٢) رواه أحمد (٢١٢٩٨) .

واختلف في مقدار عمره عليه السلام ؛ فقدمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً : أن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة.

وهذا لا يعارضه مَا في التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود ، إذا خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم.

وأيضا فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين مَا في الحديث ، فإن مَا في التوراة إن كان محفوظا محمول على مدة مقامه في الأرض بعد الإهباط وذلك تسعمائة وثلاثون شمسية وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة ويضاف إِلَى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط على مَا ذكره ابن جرير وغيره فيكون الجميع ألف سنة.

وقال عطاء الخراساني: لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام. رواه ابن عساكر فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام. وكان نبيا بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعاً:« **أنه أنزل عليه خمسون صحيفة** » ، فلما حانت وفاته أوصى إِلَى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده ثم بعده ولده قينان. ثم من بعده ابنه مهلاييل وهو الذي يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة ، وأنه أول من قطع الأشجار وبنى المدائن والحصون الكبار. وأنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى. وأنه قهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إِلَى أطرافها وشعاب جبالها وأنه قتل خلقا من مردة الجن والغيلان. وكان له تاج عظيم وكان يخطب الناس . ودامت دولته أربعين سنة. فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد فلما حضرته الوفاة أوصى إِلَى ولده خنوخ وهو إدريس عليه السلام على المشهور .

قصة إدريس عليه السلام

قال اللّه تعالى : ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً. وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً**﴾ [مريم : ٥٦، ٥٧] . فإدريس عليه السلام قد أثنى اللّه عليه ، ووصفه بالنبوة ، والصديقية ، وهو خنوخ هذا وهو في عمود نسب رسول اللّه ﷺ على مَا ذكره غير واحد من علماء النسب. وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهمَا السلام.

وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين. وقد قال طائفة من الناس : إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول اللّه ﷺ عن الخط بالرمل فقال: « **إنه كان نبي يخط به فمن وافق خطه فذاك** »[1] .

ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام : أنه أول من تكلم في ذلك ، ويسمونه هرمس الهرامسة ، ويكذبون عليه أشياء كثيرة كمَا كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.

---

(١) رواه مسلم (١١٧٩) كتاب الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة .

وقوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو كمّا ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء : أن رسول اللّٰه ﷺ مرّ به وهو في السماء الرابعة. وقد روى ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعبا وأنا حاضر فقال له: مَا قول اللّٰه تعالى لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ فقال كعب: أمّا إدريس فإن اللّٰه أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم – لعله من أهل زمانه – فأحب أن يزداد عملا فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن اللّٰه أوحى إلي كذا وكذا فكلّم ملك الموت حتى أزداد عملا فحمله بين جناحيه . ثم صعد به إلَى السماء فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدرا فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس فقال: وأين إدريس ؟ قال : هو ذا على ظهري فقال ملك الموت فالعجب بعثت وقيل لي اقبض روح إدريس في السماء الرابعة . فجعلت أقول كيف أقبض روحه في السماء الرابعة . وهو في الأرض ؟ . فقبض روحه هناك فذلك قول اللّٰه عزّ وجلّ : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ .

ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها. وعنده فقال لذلك الملك: سل لي ملك الموت كم بقي من عمري فسأله وهو معه كم بقي من عمره فقال : لا أدري حتى أنظر فنظر فقال : إنك لتسألني عن رجل مَا بقي من عمره إلا طرفة عين فنظر الملك إلَى تحت جناحه إلَى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر .

وهذا من الإسرائيليات وفي بعضه نكارة.وقول ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كمّا رفع عيسى إن أراد أنه لم يمت إلَى الآن ففي هذا نظر وإن أراد أنه رفع حيا إلَى السماء ثم قبض هناك فلا ينافي مَا تقدم عن كعب الأحبار واللّٰه أعلم.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾: رفع إلَى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك. والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصح وهو قول مجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصري : ﴿ ورفعناه مكانا عليا ﴾ قال : إلَى الجنة. وقال . قائلون : رفع في حياة أبيه يرد بن مهلاييل واللّٰه أعلم. وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل في زمان بني إسرائيل .

قال البخاري : ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس [1] واستأنسوا في ذلك بمَا جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء أنه لما مر به عليه السلام قال له: « **مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح** » [2] ولم يقل كمّا قال آدم وإبراهيم ، مرحبا بالنبي الصالح، والابن الصالح . قالوا: فلو كان في عمود نسبه لقال له كمّا قال له.

---

(١) " فتح الباري " (٦ / ٤٣٠) ط الريان .

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٢) كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ذكر إدريس عليه السلام .

وهذا لا يدل ولابد لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيدا. أو لعله قاله له على سبيل الهضم، والتواضع ، ولم ينتصب له فِي مقام الأبوة كمَا انتصب لآدم أبي البشر وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أولي العزم بعد محمد صلوات اللّٰه عليهم أجمعين.

قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلاييل بن قينان ابن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام. وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة فيمَا ذكره ابن جرير وغيره .

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح ، وموت آدم ؛ مائة وست وأربعون سنة . وكان بينهمَا عشرة قرون كمَا قال الحافظ أبو حاتم ابن حبان فِي صحيحه حدثنا محمد بن عمر بن يوسف حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه وحدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة أن رجلاً قال : يارسول اللّٰه أنبي كان آدم قال: « **نعم مكلم** ». قال: فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال: « **عشرة قرون** » [1] . قلت : وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه.

وفِي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: « **كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام**». فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كمَا هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهمَا ألف سنة لا محالة لكن لا ينفِي أن يكون أكثر باعتبار مَا قيد به ابن عباس بالإسلام إذ قد يكون بينهمَا قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر فِي عشرة قرون ، وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام.

وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ ، وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار واللّٰه أعلم .

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كمَا فِي قوله تعالى : ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ**﴾ [الإسراء:١٧] وقوله : ﴿ **ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِم قَرْناً آخَرِينَ**﴾ [المؤمنون:٣١] وقال تعالى : ﴿**وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً**﴾ [الفرقان : ٣٨] وقال : ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ قَرْنٍ**﴾ [مريم: ٧٤] وكقوله عليه السلام: « **خير القرون قرني**» الحديث. فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة. فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين واللّٰه أعلم.

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه اللّٰه تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس فِي الضلالة والكفر فبعثه اللّٰه رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إِلَى أهل الأرض كمَا يقول له أهل الموقف يوم القيامة. وكان قومه يقال لهم : بنو راسب فيمَا ذكره ابن جبير وغيره .

---

(١) صحيح: رواه الطبراني فى " الكبير" (٨ / ١٣٩ ، ١٤٠) رقم (٧٥٤٥) وابن حبان (٦١٩٠ - إحسان) .

واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث فقيل : كان ابن خمسين سنة. وقيل : ابن ثلاثمائة وخمسين سنة . وقيل : ابن أربعمائة وثمانين سنة. حكاها ابن جرير ، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصته ومَا كان من قومه ومَا أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير مَا موضع من كتابه العزيز. ففي الأعراف ، ويونس ، وهود ، والأنبياء، والمؤمنون ، والشعراء ، والعنكبوت ، والصافات ، واقتربت ، وأنزل فيه سورة كاملة.

فقال في سورة الأعراف: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ [الأعراف ٥٩ - ٦٤].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ. فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [يونس ٧١ - ٧٣] .

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ. فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ. وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ. وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ. وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ. وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ. وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ. حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ. وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ

وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود ٢٥- ٤٩] .

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء٧٦،٧٧]

وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿وَلَقَد أرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِه فَقَالَ يَا قَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُه أَفَلاَ تَتَّقُونَ. فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِه مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِه حَتَّى حِين. قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون. فَأَوْحَيْنَا إِلَيْه أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ. فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْك فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون ٢٣ - ٣٠] .

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون. قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ. قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَه يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ. قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء ١٠٥ - ١٢٢] .

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِه فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمْ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت١٤، ١٥].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ. سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ [الصافات ٧٥ - ٨٢].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ. فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى

أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ. وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [الْقَمَر ٩ - ١٧] .

وقال تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُم إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً. فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً. مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً. وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً. قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً. وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً. مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً. وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً. رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً ﴾ [نوح ١ - ٢٨] وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في التفسير وسنذكر مضمون القصة مجموعا من هذه الأماكن المتفرقة ومما دلت عليه الأحاديث والآثار .

وقد جرى ذكره أيضا في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه ، وذم من خالفه فقال تعالى في سورة النساء : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً. رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء ١٦٣ - ١٦٥] .

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام ٨٣ - ٨٧] الآيات.

وتقدمت قصته في الأعراف. وقال في سورة براءة: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة : ٧٠] .

وتقدمت قصته في يونس وهود وقال في سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم: ٩] .

وقال في سورة سبحان: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ [الإسراء: ٣] .

وقال فيها أيضا ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ [الإسراء : ١٧] .

وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت. وقال في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ [الأحزاب : ٧] .

وقال في سورة ص: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب﴾ [ص١٢ - ١٤] .

وقال في سورة غافر: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ. وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غافر ٥ ، ٦] .

وقال في سورة الشورى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ. اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٣]. وقال تعالى في سورة ق ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق ١٢ - ١٤]. وقال في الذاريات: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات : ٤٦]. وقال في النجم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم: ٥٢] وتقدمت قصته في سورة ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ [القمر:١] .

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٦] وقال تعالى في سورة التحريم ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحريم] .

وأمَا مضمون مَا جرى له مع قومه مأخوذا من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام رواه البخاري. وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على مَا سلف. ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إِلى عبادة الأصنام ، وكان سبب ذلك مَا رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ

سُوَاعاً. وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ [نوح: ٢٣] قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت [1] .

قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق.

وقال ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد ابن قيس قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا . قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذ ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير : أنه قال: ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان ود أكبرهم وأبرهم به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور . حدثنا الحسن بن موسى . حدثنا يعقوب عن أبي المطهر . قال: ذكروا عند أبي جعفر هو الباقر – و هو قائم يصلي– يزيد بن المهلب . قال: فلما انفتل من صلاته . قال: ذكرتم يزيد بن المهلب أمَا إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير اللّه. قال: ذكر وداً رجلا صالحا . وكان محبباً في قومه فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه . فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ، ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا: نعم. فصور لهم مثله. قال: فوضعوه في ناديهم ، وجعلوا يذكرونه. فلما رأى مَا بهم من ذكره. قال : هل لكم أن أجعل في منـــزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له في بيته فتذكرونه. قالوا: نعم . قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به. قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون مَا يصنعون به . قال : وتناسلوا ودرس أثر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون اللّه أولاد أولادهم فكان أول مَا عبد غير اللّه وداً الصنم الذي سموه وداً.

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس. وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم ثم عبدت بعد ذلك من دون اللّه عزّ وجلّ . ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جدا قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير وللّه الحمد والمنة.

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول اللّه ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها ، قال :

---

(١) رواه البخاري (٤٩٢٠) كتاب التفسير ، باب ﴿ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ﴾ .

« أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل[(١)].

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض ، وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحا عليه السلام يدعو إِلَى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة مَا سواه فكان أول رسول بعثه الله إِلَى أهل الأرض كمَا ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة قال: « **فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة ، فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إِلَى ربك. ألا ترى مَا نحن فيه ومَا بلغنا فيقول : ربي قد غضب غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة ، فعصيت، نفسي نفسي اذهبوا إِلَى غيري اذهبوا إِلَى نوح فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إِلَى أهل الأرض ، وسماك الله عبدا شكورا ألا ترى إِلَى مَا نحن فيه ألا ترى إِلَى مَا بلغنا ألا تشفع لنا إِلَى ربك عزّ وجلّ ، فيقول : ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي»**[(٢)].

وذكر تمام الحديث بطوله كمَا أورده البخاري في قصة نوح.

فلما بعث الله نوحا عليه السلام دعاهم إِلَى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن لا يعبدوا معه صنما ، ولا تمثالا ، ولا طاغوتا ، وأن يعترفوا بوحدانيته ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كمَا أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته كمَا قال تعالى : ﴿**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**﴾ [الصافات : ٧٧] . وقال فيه وفي إبراهيم : ﴿**وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ**﴾ [الحديد : ٢٦] أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته. وكذلك إبراهيم . قال الله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾ [الزخرف : ٤٥] وقال تعالى : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون**﴾ [الأنبياء : ٢٥] ولهذا قال نوح لقومه : ﴿**اُعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [الأعراف : ٥٩] . وقال: ﴿ **أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ**﴾ [هود: ٢٦] وقال : ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ**﴾ [الأعراف : ٦٥].

وقال : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُون. يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّه إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً. فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٧) ومسلم (٥٢٨ / ١٦) .

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤/ ٣٢٧) .

أَنْهَاراً. مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للَّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح ٢- ١٤] الآيات الكريمات. فذكر أنه دعاهم إِلَى اللَّه بأنواع الدعوة فِي اللَّيْل والنهار والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى ، وكل هذا فلم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة فِي كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا فِي أمرهم .

﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ** ﴾ أي السادة الكبراء منهم ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأعراف : ٦٠] .

﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَّبٍّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف : ٦١] أي لست كمَا تزعمون من أني ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين أي الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف : ٦٢] وهذا شأن الرسول أن يكون بليغا أي فصيحا ناصحا أعلم الناس باللَّه عز وجل .

وقالوا له فيمَا قالوا : ﴿ **مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَـا نَـرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ** ﴾ [هود : ٢٧] تعجبوا أن يكون بشرا رسولا وتنقصـوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم. وقد قيل : إنهم كانوا من أقياد الناس وهم ضعفاؤهم كمَا قال هرقل : وهم أتباع الرسل ومَا ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق .

وقولهم ﴿ **بَادِيَ الرَّأْيِ** ﴾ [هود : ٢٧] أي بمجرد مَا دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية وهذا الذي رموهم به هو عين مَا يمدحون بسببه رضي اللَّه عنهم فإن الحق الظاهر لا يحتاج إِلَى روية ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر.

ولهذا قال رسول اللَّه ﷺ مادحاً للصديق: « **مَا دعوت أحدا إِلَى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم** » . ولهذا كانت بيعته يوم الثقيفة أيضا سريعة من غير نظر ولا روية لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي اللَّه عنهم ، ولهذا قال رسول اللَّه ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه وقال:« **يأبى اللَّه والمؤمنون إلا أبا بكر** رضي اللَّه عنه ».

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به ﴿**وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ**﴾ [هود : ٢٧] . أي لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا ﴿ **بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** ﴾ [هود : ٢٧، ٢٨].

وهذا تلطف فِي الخطاب معهم وترفق بهم فِي الدعوة إِلَى الحق كمَا قال تعالى : ﴿**فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ [طه : ٤٤] .

وقال تعالى: ﴿**اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل : ١٢٥] .

وهذا منه يقول لهم: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِيَ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [هود:٢٨] أي النبوة والرسالة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي فلم تفهموها و لم تهتدوا إليها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي أنغضبكم بها ونجبركم عليها ﴿ وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه ﴿ ويَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ [هود : ٢٩] . أي لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم مَا ينفعكم في دنياكم وأخراكم إن أطلب ذلك إلا من اللّه الذي ثوابه خير لي وأبقى مما تعطوني أنتم .

وقوله ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩] كأهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿ إِنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ ﴾ [هود : ٢٩] أي فأخاف إن طردهم أن يشكوني إلى اللّه عز وجل ولهذا قال ﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : ٣٠] .

ولهذا لما سأل كفار قريش رسول اللّه ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه اللّه عن ذلك كمَا بيناه في سورتي الأنعام والكهف .

﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [هود:٣١] أي بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم اللّه إلا مَا أعلمني به ولا أقدر إلا على مَا أقدرني عليه ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً إلا مَا شاء اللّه﴿وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود:٣١] يعني من أتباعه ﴿ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٣١] أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند اللّه يوم القيامة اللّه أعلم بهم وسيجازيهم على مَا في نفوسهم إن خيراً فخير وإن شرا فشر كمَا قالوا في المواضع الأخرى. ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء : ١١١ - ١١٥] .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كمَا قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمْ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤] أي ومع هذه المدة الطويلة فمَا آمن به إلا القليل منهم .

وكان كلما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته. وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيمَا بينه وبينه أن لا يؤمن بنوح أبدا مَا عاش ودائمًا مَا بقي وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ، ولهذا قال : ﴿وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح:٢٧] .

ولهذا قالوا ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [هود : ٣٢ ، ٣٣] أي إنمَا يقدر على ذلك اللّه عز وجل فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود:٣٤] أي من يرد اللّه فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو

الفعال لَمَا يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية. وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦] تسلية له عمَا كان منهم إليه ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : ٣٦] وهذه تعزية لنوح عليه السلام فِي قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن أي لا يسوأنك مَا جرى فإن النصر قريب والنبأ عجباً عجيب ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [هود : ٣٧] .

وذلك أن نوحا عليه السلام لَمَا يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إِلَى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب فلبى اللّه دعوته وأجاب طلبته قال اللّه تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الصافات : ٧٥ ، ٧٦] وقال تعالى : ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء : ٧٦] وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٧ ، ١١٨] وقال تعالى : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر : ١٠] وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون :٣٩] وقال تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً. وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : ٢٥ - ٢٧] .

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم فعند ذلك أمره اللّه تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها.

وقدم اللّه تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال: ﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود : ٣٧].

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ [هود : ٣٨] أي يستهزئون به استبعاداً لوقوع مَا توعدهم به : ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود :٣٨] أي نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فِي استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود:٣٩] .

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ ، والعناد البالغ فِي الدنيا ، وهكذا فِي الآخرة فإنهم يجحدون أيضا أن يكون جاءهم رسول.

كمَا قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل . حدثنا عبد الواحد بن زياد . حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال: قال رسول اللّه ﷺ: « **يجيء نوح عليه السلام وأمته فيقول اللّه عزّ وجلّ هل بلغت ؟ فيقول : نعم أي رب فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا مَا جاءنا**

من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ . فيقول : محمد ، وأمته فتشهد أنه قد بلغ». [١] وهو قوله تعالى : **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾** [البقرة :١٤٣] والوسط العدل. فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن اللّه قد بعث نوحا بالحق وأنــزل عليه الحق وأمره به ، وأنه بلغه إِلَى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ، ولم يدع شيئا مّما ينفعهم فِي دينهم إلا وقد أمرهم به ولا شيئا مّما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه.

وهكذا شأن جميع الرسل حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال وإن كان لا يتوقع خروجه فِي زمانهم حذرا عليهم وشفقة ورحمة بهم كمَا قال البخاري : حدثنا عبدان . حدثنا عبد اللّه عن يونس عن الزهري قال سالم : قال ابن عمر: قام رسول اللّه ﷺ فِي الناس فأثنى على اللّه بمَا هو أهله. ثم ذكر الدجال فقال : « **إِنِي لأنذركموه ومَا من نبي إلا وقد أنذره قومه. لقد أنذره نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن اللّه ليس بأعور** » [٢].

وهذا الحديث فِي الصحيحين أيضا من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **الا أحدثكم عن الدجال حديثا مَا حدث به نبي قومه إنه أعور ، وإنه يجيء معه بمثال الجنة ، والنار والتي يقول عليها الجنة هي النار وإِني أنذركم كمَا أنذر به نوح قومه** » [٣] لفظ البخاري .

وقد قال بعض علماء السلف : لما استجاب اللّه له أمره أن يغرس شجرا ليعمل منه السفينة، فغرسه ، وانتظره مائة سنة ثم نجره فِي مائة أخرى وقيل : فِي أربعين سنة فاللّه أعلم.

قال محمد بن إسحاق عن الثوري : وكانت من خشب الساج. وقيل : من الصنوبر. وهو نص التوراة. قال الثوري: وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا ، وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار ، وأن يجعل لها جؤجؤاً [٤] أزور يشق الماء. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع فِي عرض خمسين ذراعا وهذا الذي فِي التوراة على مَا رأيته.

وقال الحسن البصري : ستمائة فِي عرض ثلاثمائة ، وعن ابن عباس ألف ومائتا ذراع فِي عرض ستمائة ذراع. وقيل : كان طولها ألفِي ذراع وعرضها مائة ذراع.

قالوا : كلهم وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا وكانت ثلاث طبقات. كل واحدة عشرة أذرع. فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس والعليا للطيور ، وكان بابها فِي عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

---

(١) رواه البخارى (٣٣٣٩) كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله عز وجل **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾**.
(٢) رواه البخارى (٣٣٣٧) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾**.
(٣) رواه البخارى (٣٣٣٨) كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله عز وجل **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾**.
(٤) جؤجؤ السفينة : صدر السفينة كما فى مختار الصحاح .

قال اللَّه تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** ﴾ [المؤمنون : ٢٦ ، ٢٧] أي بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك لنرشدك إِلَى الصواب فِي صنعتها.

﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٢٧] .

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل فِي هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر مَا فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها ، وأن يحمل معه أهله أي أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم أي إلا من كان كافرا فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد ، وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم مَا يعاينه من العذاب العظيم الذي قد حتمه عليهم الفَعَّالُ لِمَا يريد كمَا قدمنا بيانه قبل.

والمراد بالتنور عند الجمهور : وجه الأرض أي نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار. وعن ابن عباس التنور عين فِي الهند ، وعن الشعبي بالكوفة ، وعن قتادة بالجزيرة. وقال علي بن أبي طالب : المراد بالتنور فلق الصبح ، وتنوير الفجر أي إشراقه وضياؤه أي عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وهذا قول غريب.

وقوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [هود : ٤٠] هذا أمر بأنه عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

وفِي كتاب أهل الكتاب : أنه أمر أن يحمل من كل مَا يؤكل سبعة أزواج ومما لا يؤكل زوجين ذكرا وأنثى ، وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى فِي كتابنا الحق ﴿ **اثْنَيْنِ** ﴾ إن جعلنا ذلك مفعولا به.وأمَا إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافِي واللَّه أعلم.

وذكر بعضهم : ويروى عن ابن عباس أن أول مَا دخل من الطيور الدَّرَّة [1] وآخر مَا دخل مِن الحيوانات الحمار. ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار. وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبد اللَّه بن صالح . حدثني الليث . حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **لما حمل نوح فِي السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف نطمئن أو كيف تطمئن المواشي ومعنا الأسد ؟ فسلط اللَّه عليه الحمى ، فكانت أول حمى نزلت فِي الأرض. ثم شكوا الفأرة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى اللَّه إِلَى الأسد فعطس ، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها** ». هذا مرسل.

---

(١) الدرَّة : الببغاء المتقدمة وهو طائر لونه أخضر وهو فى قدر الحمام يتخذها الناس للانتفاع بصوتها كما فى حياة الحيوان الكبرى .

وقوله : ﴿ **وَأَهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ** ﴾ [المؤمنون : ٢٧] أي من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه يام الذي غرق كمَا سيأتي بيانه ﴿**وَمَنْ آمَنَ**﴾أي : واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال اللّه تعالى: ﴿ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ**﴾ [هود:٤٠] .

هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى.

وقد اختلف العلماء فِي عدة من كان معه فِي السفينة فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم. وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفسا. وقيل كانوا عشرة وقيل إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام الذي انخزل وانعزل وسلك عن طريق النجاة فمَا عدل إذ عدل.

وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هي نص فِي : أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به كمَا قال : ﴿**وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء:١١٨] وقيل كانوا سبعة.

وأمَا امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم وهم : حام ، وسام ، ويافث ، ويام . وتسميه أهل الكتاب : كنعان وهو الذي قد غرق وعابر فقد ماتت قبل الطوفان. وقيل : إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها . وعند أهل الكتاب : أنها كانت فِي السفينة فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك ، أو أنها أنظرت ليوم القيامة ، والظاهر الأول لقوله : ﴿ **لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً** ﴾ [نوح : ٢٦] .

قال اللّه تعالى : ﴿ **فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُل رَّبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ** ﴾ [المؤمنون : ٢٨] .

أمره أن يحمد ربه على مَا سخر له من هذه السفينة فنجاه بها ، وفتح بينه وبين قومه وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كمَا قال تعالى : ﴿ **والَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ. لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ** ﴾ [الزخرف:١٢-١٤] .

وهكذا يؤمر بالدعاء فِي ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة كمَا قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر : ﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً** ﴾ [الإسراء:٨٠].

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية : ﴿**وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [هود : ٤١] أي على اسم اللّه ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿**إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [هود:٤١] أي وذو عقاب أليم مع كونه غفوراً رحيمًا لا يرد بأسه عن القوم المجرمين كمَا أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره.

قال اللّه تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود : ٤٢] وذلك أن اللّه تعالى أرسل من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب ، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كمّا قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر:١٠-١٣] والدسر السائر. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر : ١٤] أي : بحفظنا وكلائتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها جزاء لمن كان كفر.

وقد ذكر ابن جرير وغيره : أن الطوفان كان في ثالث عشر شهر آب في حساب القبط. وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة:١١] أي السفينة ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٢] .

قال جماعة من المفسرين : ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعاً وهو الذي عند أهل الكتاب وقيل : ثمانين ذراعا وعم جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها. ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف. ولا صغير ولا كبير.

قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم : كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لم تكن بقعة في الأرض إلا ولها مالك وحائز . رواهما ابن أبي حاتم.

﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : ٤٢ ، ٤٣] .

وهذا الابن هو : يام أخو سام ، وحام ، ويافث. وقيل : اسمه كنعان. وكان كافرا عمل عملا غير صالح فخالف أباه في دينه ومذهبه . فهلك مع من هلك. هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود : ٤٤] أي لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير اللّه عزّ وجلّ. أمر اللّه الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أي نقص عمّا كان ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ [هود : ٤٤] .

أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم. ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود : ٤٤] أي نودي عليهم بلسان القدرة بعداً لهم من الرحمة والمغفرة كما قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ [الأعراف : ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس:٧٣] .

وقال تعالى : ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفُلْك المَشْحُون. ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ. إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء:١١٩-١٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت:١٥].

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ [الصافات : ٨٢] .

وقال : ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَل مِّنْ مُدَّكِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٥-١٧] .

وقال تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً. وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح:٢٥-٢٧] .

وقد استجاب اللّه تعالى وله الحمد والمنة دعوته فلم يبق منهم عين تطرف.

وقد روى الإمامان أبو جعفر ابن جرير ، وأبو محمد ابن أبي حاتم في تفسيريهمَا من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن قائد مولى عبد اللّه بن أبي رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبرَه أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول اللّه ﷺ قال : « **فلو رحم اللّه من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي** » . قال رسول اللّه ﷺ : « **مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة يعني إلا خمسين عاما وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب . ثم قطعها . ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون : تعمل سفينة في البر كيف تجري قال : سوف تعلمون ، فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا خرجت به إِلَى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم اللّه منهم أحداً لرحم أم الصبي** ». وهذا حديث غريب. وقد روي عن كعب الأحبار ، ومجاهد ، وغير واحد شبيه لهذه القصة. وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفا متلقى عن مثل كعب الأحبار واللّه أعلم.

والمقصود أن اللّه لم يبق من الكافرين ديارا فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق ويقال ابن عناق كان موجودا من قبل نوح إِلَى زمان موسى . ويقولون : كان كافرا متمرداً جبارا عنيداً ، ويقولون : كان لغير رشده بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا وإنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس وإنه كان يقول لنوح وهو في السفينة : مَا هذه القصيعة [١] التي لك ، ويستهزئ به. ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف

---

(١) القصيعة : تصغير القصعة وهى الصحفة .

ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا إِلَى غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لَمَا تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها. ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول.

أما المعقول فكيف يسوغ فيه أن يهلك اللّه ولد نوح لكفره وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان ، ولا يهلك عوج بن عنق . ويقال : عناق وهو أظلم وأطغى على مَا ذكروا. وكيف لا يرحم اللّه منهم أحداً ولا أم الصبي ولا الصبي ، ويترك هذا الدعي الجبار العنيد الفاجر الشديد الكافر الشيطان المريد على مَا ذكروا ؟ .

وأما المنقول فقد قال اللّه تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ** ﴾ [الشعراء : ١٢٠] وقال: ﴿ **رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً** ﴾ [نوح : ٢٦] .

ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالف لِمَا فِي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « **إن اللّه خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن** » [1] .

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم : ٤] أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن أي لم يزل الناس في نقصان فِي طولهم من آدم إِلَى يوم أخباره بذلك وهلم جرا إِلَى يوم القيامة. وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه ، فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إِلَى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب اللّه المنــزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها فمَا ظنك بمَا هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه ومَا أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء واللّه أعلم .

ثم ذكر اللّه تعالى مناشدة نوح ربه فِي ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ووجه السؤال أنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق فأجيب بأنه ليس من أهلك أي الذين وعدت بنجاتهم أي : أمَا قلنا لك ﴿ **وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ** ﴾ [هود : ٤٠] فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأن سيغرق بكفره ولهذا ساقته الأقدار إِلَى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان.

ثم قال تعالى : ﴿ **قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [هود : ٤٨] .

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي. وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور ، وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال ﴿ **بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ** ﴾

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١ / ٢٨) .

[هود: ٤٨] أي اهبط سالمًا مباركا عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد ، أي من أولادك ، فإن اللّه لم يجعل لأحد ممَّنْ كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقبا سوى نوح عليه السلام ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات : ٧٧] فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافث.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبي ﷺ قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » (١) ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعا نحوه .

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر وقد روي عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ مثله . قال : والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام.

ثم روي من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : «ولد نوح ثلاثة ، سام ، ويافث ، وحام وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة ؛ فولد سام العرب ، وفارس ، والروم. وولد يافث الترك ، والسقالبة ، ويأجوج ومأجوج . وولد حام القبط ، والسودان ، والبربر » .

قلت: وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا إبراهيم بن هانئ وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا: حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي حدثني أبي عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « ولد لنوح سام ، وحام ، ويافث . فولد لسام العرب ، وفارس ، والروم ، والخير فيهم. وولد ليافث : يأجوج ومأجوج ، والترك ، والسقالبة ولا خير فيهم. وولد لحام القبط ، والبربر ، والسودان » (٢) ثم قال: لا نعلم يروى مرفوعا إلا من هذا الوجه. تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه. وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه. ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلا . ولم يسنده وإنما جعله من قول سعيد.

قلت : وهذا الذي ذكره أبو عمرو هو المحفوظ عن سعيد قوله. وهكذا روي عن وهب ابن منبه مثله واللّه أعلم. ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرة لا يعتمد عليه.

وقد قيل : إن نوحا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان وإنما ولد له قبل السفينة كنعان الذي غرق وعابر مات قبل الطوفان.

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة. وقد ذكر أن حاما واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته فولد له ولد

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (١٩٩٨٢) والترمذى (٣٩٣١) والحاكم (٢ / ٥٤٦) وفى سنده الحسن البصرى وهو مدلس وقد عنعن .

(٢) ضعيف: فى سنده يزيد بن سنان ، أبو فروة الرهاوى وهو ضعيف كما فى " التقريب " (٢ / ٢١٩) .

أسود وهو كنعان بن حام جد السودان. وقيل : بل رأى أباه نائما وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته .

وذكر الإمام أبو جعفر ابن جرير من طريق علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها قال: فانطلق بهم حتى أتى إِلَى كثيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه قال: أتدرون مَا هذا؟ قالوا : اللّٰه ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح قال: وضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن اللّٰه ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب فقال له عيسى عليه السلام هكذا كهلت قال: لا ولكني مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت.

قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير. فلما كثر أرواث الدواب أوحى اللّٰه عزّ وجلّ إِلَى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنـــزير وخنـــزيرة فأقبلا على الروث ولما وقع الفأر يخرز السفينة بقرضه أوحى اللّٰه عزّ وجلّ إِلَى نوح عليه السلام أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى: كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت . قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت.

قال : ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التي فِي عنقها ودعا لها أن تكون فِي أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت. قال : فقالوا : يا رسول اللّٰه ألا ننطلق به إِلَى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا قال : كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال فقال له : عد بإذن اللّٰه فعاد ترابا . وهذا أثر غريب جداً.

وروى علْبَاء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مع نوح فِي السفينة ثمانون رجلا معهم أهَلوهم ، وإنهم كانوا فِي السفينة مائة وخمسين يوما وإن اللّٰه وجه السفينة إِلَى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما . ثم وجهها إِلَى الجودي فاستقرت عليه ، فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء قد نضب ، فهبط إِلَى أسفل الجودي ، فابتنى قرية، وسماها ثمانين ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها العربي ، وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم.

وقال قتادة وغيره : ركبوا فِي السفينة فِي اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما ، واستقرت بهم على الجودي شهراً ، وكان خروجهم من السفينة فِي يوم عاشوراء من المحرم.وقد روى ابن جرير : خبراً مرفوعاً يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب ابن عبد اللّٰه عن شبل عن أبي هريرة قال : مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم

عاشوراء فقال: « **ما هذا الصوم؟** » فقالوا : هذا اليوم الذي نجّا اللّه موسى وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون ؛ وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصام نوح وموسى عليهمَا السلام شكراً للّه عزّ وجلّ . فقال النبي ﷺ: « **أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم** ». وقال لأصحابه: « **من كان منكم أصبح صائما فَلْيُتِمّ صومه ومن كان منكم قد أصاب من غداء أهله فَلْيُتِمّ بقية يومه** »(1). وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من وجه آخر والمستغرب ذكر نوح أيضاً واللّه أعلم. وأما مَا يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها واطحنوا الحبوب يومئذ واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لَمّا انهارت من الضياء بعد مَا كانوا في ظلمة السفينة فكل هذا لا يصح فيه شيء وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها واللّه أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : لما أراد اللّه أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر وكان استواء الفلك فيمَا يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشر ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ، ثم أرسل الغراب لينظر له مَا فعل الماء فلم يرجع إليه ، فأرسل الحمامة ، فرجعت إليه لم تجد لرجلها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له مَا فعل الماء فلم ترجع فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض. ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت فلما كملت السنة فيمَا بين أن أرسل اللّه الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك. وهذا الذي ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب. قال ابن إسحاق وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه ﴿ **قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [هود : ٤٨] .

وفيمَا ذكر أهل الكتاب أن اللّه كلم نوحا قائلا له : اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التي معك ولينموا وليكبروا في الأرض ، فخرجوا وابتنى نوح مذبحا للّه عزّ وجلّ ، وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قربانا إلى اللّه عزّ وجلّ ، وعهد اللّه إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض. وجعل تذكارا لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام وهو قوس قزح الذي قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الغرق. قال بعضهم : فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة.

---

(١) **ضعيف**: رواه أحمد (٢ / ٣٥٩ ، ٣٦٠) رقم (٨٧٠٢) وفي سنده عبد الصمد وهو حبيب بن عبد الله الأزدي وهو مجهول كما في " التقريب " (١ / ١٥٠) .

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان ، واعترف به آخرون منهم، وقالوا : إنَّما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا. قالوا : ولم نزل نتوارث الملك كابرا عن كابر من لدن " كيومرث " يعنون : آدم إِلَى زماننا هذا. وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان ؛ وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسموات وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع مَا تواتر عند الناس فِي سائر الأزمان على وقوع الطوفان ، وأنه عم جميع البلاد ولم يبق اللَّه أحدا من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذا لِمَا سبق فِي القدَر المحتوم.

ذكر شَيْء منْ أخبار نوح نفسه عليه السلام

قَالَ اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ [الإسراء : ٣] قيل: إنَّه كَانَ يحمد اللَّه على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله . وقَالَ الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة . حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن سعيد بن أبي بردة عن أنس بن مالك قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها** » [1] وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي منْ حديث أبي أسامة. والظاهر أن الشكور هُوَ الَّذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كمَا قَالَ الشاعر :

أَفَادَتْكُم النعماءُ منِّي ثلاثةً يَدي ولساني والضمير المحجّبا

ذكر صومه عليه السلام

وقَالَ ابن ماجه - باب صيام نوح عليه السلام - : حدثنا سهل بن أبي سهل . حدثنا سعيد بن أبي مريم عن ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة عن أبي فراس أنَّه سمع عبد اللَّه بن عمرو يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى** » [2]. هكذا رواه ابن ماجه منْ طريق عبد اللَّه بن لهيعة بإسناده ولفظه. وقد قَالَ الطبراني : حدثنا أبو الزنباع - روح بن فرج - حدثنا عمرو بن خالد الحراني حدثنا ابن لهيعة عن أبي قتادة عن يزيد بن رباح أبي فراس أنَّه سمع عبد اللَّه بن عمرو يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام منْ كل شهر : صام الدهر وأفطر الدهر** » [3] .

حَجُّه عليه السلام

وقَالَ الحافظ أبو يعلى : حدثنا سفيان بن وكيع . حدثنا أبي عن زمعة - هُوَ ابن أبي صالح- عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال: حج رسول اللَّه ﷺ فلمّا أتى

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤ / ٨٩) وأحمد (١١٩١٢ و ١٢١٠٧) .

(٢) **ضعيف** : رواه ابن ماجه (١٧١٤) وقال البوصيرى فى " مصباح الزجاجة " (٢ / ٢٤) هذا إسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة .

(٣) **ضعيف** : الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (٣/ ١٩٥) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

وادي عسفان قال: « يا أبا بكر أي واد هذا ؟ » قَالَ : هذا وادي عسفان . قال: « **لقد مر بهذا الوادي نوح، وهود ، وإبراهيم على بكرات لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يحجون البيت العتيق** »[١] . فيه غرابة.

وصيّتُه لولده عليه السلام

قَالَ الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب . حدثنا حماد بن زيد عن الصقعب بن زهير عن زيد بن أسلم، قَالَ حماد : أظنه عن عطاء بن يسار عن عبد اللّٰه بن عمرو قَالَ: كنا عند رسول اللّٰه ﷺ فجاء رجل منْ أهل البادية عليه جبة سيحان مزرورة بالديباج فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس أو قَالَ : يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ورفع كل راع ابن راع قَالَ فأخذ رسول اللّٰه ﷺ بمجامع جبته وقال: « **لا أرى عليك لباس من لا يعقل** ». ثُمَّ قَالَ : « **إن نبي اللّٰه نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قَالَ لابنه: إنِّي قاصّ عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين : آمرك بلا إله إلا اللّٰه فإن السَّمَوَات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا اللّٰه في كفة رجحت بهن لا إله إلا اللّٰه . ولو أن السَّمَوَات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة فضمتهن لا إله إلا اللّٰه وسبحان اللّٰه وبحمده فإن بها صلات كل شَيْء وبها يرزق الخلق . وأنهاك عن الشرك والكبر** » قَالَ : قلت – أو قيل : يا رسول اللّٰه هذا الشرك قد عرفناه فمَا الكبر أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهمَا شراكَانَ حسنان ؟ قال: « **لا** ». قَالَ هُوَ أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ قال: « **لا** ». قَالَ : هُوَ أن يكون لأحدنا دابة يركبها ؟ قال: « **لا** ». قَالَ : هُوَ أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟. قال: « **لا** ». قلت : أو قيل : يا رسول اللّٰه فمَا الكبر ؟ قال : « **سفه الحق وغمط الناس** »[٢]. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه .

ورواه أبو القاسم الطبراني منْ حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد اللّٰه بن عمرو أن رسول اللّٰه ﷺ قَالَ : « **كَانَ في وصية نوح لابنه أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين** » فذكر نحوه. وقد رواه أبو بكر البزار عن إبراهيم بن سعيد عن أبي معاوية الضرير عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد اللّٰه بن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ بنحوه. والظاهر أنَّه عن عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص كمَا رواه أحمد والطبراني واللّٰه أعلم.

ويزعم أهل الكتاب أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة كَانَ عمره ستمائة سنة.وقدمنا عن ابن عباس مثله ، وزاد وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة. وفي هذا القول نظر. ثُمَّ إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهُوَ خطأ محض فإن القرآن يقتضي أن نوحاً مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . ثُمَّ اللّٰه أعلم

---

(١) **ضعيف** : رواه أحمد (٢٠٦٧) وفى سنده زمعة بن صالح وهو ضعيف ، وعسفان : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة : وبكرات : جمع بكرة ، وهى الفتية من الإبل . الخطم : جمع خطام . النمار : جمع نمرة وهى الشملة المخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لون النمر .

(٢) **صحيح** : رواه أحمد (٢ / ٢٢٥) رقم (٧١٠١) .

كم عاش بعد ذلك فإن كَانَ مَا ذكر محفوظاً عن ابن عباس منْ أنّه بعث وله أربع مائة وثمانون سنة، وأنّه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة.

وأمّا قبره عليه السلام فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره منْ التابعين مرسلاً أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام. وهذا أقوى وأثبت من الّذي يذكره كثير من المتأخرين من أنّه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم: بكرك نوح، وهناك جامع قد بني بسبب ذلك فيمَا ذكر واللّه أعلم .

قصة هود عليه السلام

وهُوَ هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. ويقال: إن هوداً هُوَ عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. ويقال: هود بن عبد اللّه بن رباح بن الجارود بن عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. ذكره ابن جرير.

وكَانَ من قبيلة يقال لهم: عاد بن عوص بن سام بن نوح كانوا عرباً يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها: الشحر . واسم واديهم مغيث. وكانوا كثيراً مَا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كمَا قَالَ تعالى: **﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾**[الفجر:٦ ، ٧] أي عاد إرم وهم عاد الأولى . وأمّا عاد الثانية فمتأخرة كمَا سيأتي بيان ذلك في موضعه . وأمّا عاد الأولى فهم عاد **﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾** [الفجر: ٧ ، ٨] أي مثل القبيلة . وقيل: مثل العمد. والصحيح: الأول كمَا بيناه في التفسير.

ومن زعم: أن إرم مدينة تدور في الأرض، فتارة في الشام، وتارة في اليمن، وتارة في الحجاز، وتارة في غيرها فقد أبعد النجعة وقَالَ مالا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه.

وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قَالَ فيه: « منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر» [١] . ويقال: إن هوداً عليه السلام أول منْ تكلم بالعربية. وزعم وهب بن منبه أن أباه أول منْ تكلم بها. وقَالَ غيره: أول منْ تكلم بها نوح. وقيل: آدم وهُوَ الأشبه. وقيل :غير ذلك واللّه أعلم.

ويقال للعرب الّذينَ كانوا قبل إسماعيل عليه السلام: العرب العاربة وهم قبائل كثيرة منهم عاد. وثمود.وجرهم.وطسم. وجديس . وأميم. ومدين. وعملاق.وعبيل. وجاسم. وقحطان. وبنو يقطن. وغيرهم .

---

(١) سبق تخريجه وهو ضعيف جداً .

وأمّا العرب المستعربة فهم منْ ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وكَانَ إسماعيل بن إبراهيم عليهمَا السلام أول منْ تكلم بالعربية الفصيحة البليغة. وكَانَ قد أخذ كلام العرب منْ جرهم الَّذينَ نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء اللَّه تعالى ولَكن أنطقه اللَّه بها غاية في الفصاحة والبيان. وكذلك كَانَ يتلفظ بها رسول اللَّه ﷺ.

والمقصود: أن عاداً وهُم عاد الأولى كانوا أول منْ عبد الأصنام بعد الطوفان. وكَانَت أصنامهم ثلاثة صداً وصمودًا وهرًا. فبعث اللَّه فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى اللَّه كمَا قَالَ اللَّه تعالى بعد ذكر قوم نوح ومَا كَانَ منْ أمرهم في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً. قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُون. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ. أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً. فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ. فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٧٢] .

وقَالَ تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ. يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ. قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ. وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ. قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ. وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٠ - ٦٠] .وقَالَ تعالى في سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ بعد قصة قوم نوح : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ. وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ. هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ. قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ. قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣١ - ٤١] .

وقَالَ تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّات وَعُيُون. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء :١٢٣ - ١٤٠] .

وقَالَ تعالى في سورة فصلت : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً. أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت:١٥، ١٦].

وقَالَ تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ٢١ - ٢٥] .

وقَالَ تعالى في الذاريات : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : ٤١ ، ٤٢] وقَالَ تعالى في النجم: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى. وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى. وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى. فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٥] .

وقَالَ تعالى في سورة اقتربت : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[القمر: ١٨-٢٢] .

وقَالَ في الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾[الحاقة:٦-٨].

وقَالَ في سورة الفجر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر:٦-١٤] .

وقد تكلمنا على كل منْ هذه القصص في أماكنها منْ كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة .

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، والعنكبوت. وفي سورة ص . وفي

سورة ق لنذكر مضمون القصة مجموعاً منْ هذه السياقات مع مَا يضاف إلى ذلك من الأخبار. وقد قدمنا: أهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان. وذلك بين في قوله لهم: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً**﴾[الأعراف: ٦٩] أي: جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش . وقَالَ في المؤمنون : ﴿ **ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ** ﴾ [المؤمنون:٣١] وهم قوم هود على الصحيح . وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً** ﴾ [المؤمنون: ٤١] قَالُوا وقوم صالح هم الَّذينَ أهلكوا بالصيحة ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ** ﴾ [الحاقة : ٦] وهذا الَّذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة، والريح العاتية عليهم كمَا سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة . فإِنَّه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات. ثُمَّ لا خلاف أن عاداً قبل ثمود.

والمقصود: أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين عتاة متمردين في عبادة الأصنام فأرسل اللَّه فيهم رجلا منهم يدعوهم إلى اللَّه وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم اللَّه أخذ عزيز مقتدر.

فلمّا أمرهم بعبادة اللَّه، ورغبهم في طاعته، واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدُّنْيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدُّنْيا والآخرة ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ**﴾ [الأعراف:٦٦] أي هذا الأمر الَّذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى مَا نحن عليه منْ عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن اللَّه أرسلك .

﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف: ٦٧] أي ليس الأمر كمَا تظنون ولا كما تعتقدون ﴿ **أُبَلِّغُكُم رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾[الأعراف: ٦٨] والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب .

وهُوَ مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم لا يبتغي منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلاً بل هُوَ مخلص للَّه عزّ وجلّ في الدعوة إليه والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلا منْ الَّذي أرسله فإن خير الدُّنْيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه ولهذا ﴿ **يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ [هود : ٥١] أي مَا لكم عقل تميزون به وتفهمون إنِّي أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها وهُوَ دين الحق الَّذي بعث اللَّه به نوحاً وأهلك منْ خالفه منْ الخلق وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه بل أبتغي ذلك عند اللَّه مالك الضر والنفع ولهذا قَالَ مؤمن يس ﴿ **اتَّبِعُوا مَن لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [يس :٢١ ، ٢٢] .

وقَالَ قوم هود له فيمَا قَالُوا : ﴿ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** ﴾ [هود : ٥٣ ، ٥٤] يقولون: مَا جئتنا

بخارق يشهد لك بصدق مَا جئت به ومَا نحن بالّذينَ نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته. ومَا نظن إلا أنك مجنون فيمَا تزعمه. وعندنا إنّما أصابك هذا أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهُوَ قولهم: ﴿ **إن نَّقُولُ إلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ** ﴾ [هود : ٥٤ ، ٥٥] .

وهذا تحدّ منه لهم وتبرّ منْ آلهتهم وتنقص منه لها وبيان أنها لا تنفع شيئا ولا تضر وأنّها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله. فإن كانت كمَا تزعمون منْ أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا بريء منها لاعن لها ﴿ **فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ** ﴾ [هود : ٥٥] أنتم جميعاً بجميع مَا يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين فإنّي لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم ﴿ **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِنْ دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[هود: ٥٦] أي أنا متوكل على اللّه ومتأيد به وواثق بجنابه الّذي لا يضيع منْ لاذ به واستند إليه فلست أبالي مخلوقاً سواه ولست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه .

وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد اللّه ورسوله؛ وأنهم على جهل وضلال في عبادهم غير اللّه لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهاً فدل على صدقه فيمَا جاءهم به وبطلان مَا هم عليه وفساد مَا ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قوله: ﴿ **يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ** ﴾ [يونس : ٧١] .

وهكذا قَالَ الخليل عليه السلام: ﴿ **وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ. وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ. وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنعام : ٨٠ -٨٣] .

﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ. أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٣٣ - ٣٥] استبعدوا أن يبعث اللّه رسولاً بشرياً وهذه الشبهة أدلى بها كثير منْ جهلة الكفرة قديما وحديثاً كمَا قَالَ تعالى: ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُم أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ** ﴾ [يونس:٢] .

وقَالَ تعالى : ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً. قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً** ﴾ [الإسراء : ٩٤ ،٩٥]

لهذا قَالَ لهم هود عليه السلام : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف : ٦٣] أي ليس هذا بعجيب فإن اللَّه أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ. هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ. إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ. قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون : ٣٥ - ٣٩] استبعدوا المعاد، وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاما، وقَالُوا: هيهات هيهات أي بعيد بعيد هذا الوعد ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣٧] أي يموت قوم ويحيا آخرون. وهذا هُوَ اعتقاد الدهرية كمَا يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع وأرض تبلع.

وأما الدورية: فهم الَّذينَ يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الَّذينَ لا يعقلون ولا يهتدون كمَا قَالَ تعالى : ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٣] .

وقَالَ لهم فيمَا وعظهم به : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨،١٢٩] يقول لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيما هائلاً كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنَّه لا حاجة لكم فيه ومَا ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام كمَا قَالَ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر:٦-٨] فعاد إرم هم عاد الأولى الَّذينَ كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام .

ومن زعم: أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهي تتنقل في البلاد فقد غلط وأخطأ وقال مالا دليل عليه .وقوله : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾[الشعراء :١٢٩] قيل : هي القصور. وقيل : بروج الحمام. وقيل : مآخذ الماء﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾[الشعراء : ١٢٩] أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعماراً طويلة ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الشعراء: ١٣٠- ١٣٥] .

وقَالُوا له مما قَالُوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف:٧٠] أي أجئتنا لنعبد اللَّه وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا ومَا كانوا عليه. فإن كنت صادقاً فيمَا جئت به،فأتنا بمَا تعدنا من العذاب والنكال فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك.

كمَا قَالُوا : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٨] أمّا على قراءة فتح الخاء فالمراد به اختلاق الأولين أي أن هذا الَّذي جئت به إلا اختلاق منك وأخذته من كتب الأولين. هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين. وأمّا على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين أي هذا الَّذي نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا ولن نتحول عنه ولا نتغير ولا نزال متمسكين به. ويناسب كلا القراءتين

الأولى والثانية قولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٨] . ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٧١] .

أي قد استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من اللّه أتعارضون عبادة اللّه وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ما نزل اللّه بها من سلطان؟ أي: لم ينـــزل على ماذهبتم إليه دليلاً ولا برهاناً وإذَا أبيتم قبول الحق وتماديتم في الباطل وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب اللّه الواقع بكم وبأسه الَّذي لا يرد ونكاله الَّذي لا يصد.

وقَالَ تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون ﴾ [المؤمنون : ٣٩] ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[المؤمنون:٤٠،٤١] .

وقَالَ تعالى ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٢- ٢٥] .

وقد ذكر اللّه تعالى خبر إهلاكهم في غير مَا آية كمَا تقدم مجملا ومفصلا كقوله ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:٧٢] .

وكقوله ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود : ٥٨- ٦٠] وكقوله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤١] وقَالَ تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرحيم ﴾ [الشعراء : ١٣٩، ١٤٠] .

وأمّا تفصيل إهلاكهم فلمّا قَالَ تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ٢٤] كَانَ هذا أول مَا ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين [١] مسنتين فطلبوا السقيا فرأوا عارضا في السَّمَاء وظنوه سقيا رحمة فإذَا هُوَ سقيا عذاب. ولهذا قَالَ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] أي من وقوع العذاب وهُوَ قولهم : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأحقاف :٢٢] ومثلها في الأعراف. وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الَّذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار قَالَ. فلمّا أبوا إلا الكفر باللّه عزّ وجلّ أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك قَالَ. وكَانَ الناس إذَا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من اللّه الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه

---

(١) ممحلين : أى انقطع عنهم المطر ويبست أرضهم من الكلأ .

ومكَانَ بيته وكَانَ معروفا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكَانَ سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له : معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهذة ابنة الخيبري. قَالَ: فبعث عاد وفداً قريبا من سبعين رجلا ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنـــزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه في شهر. فلمّا طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعراً فيعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنيهم به فقال :

ألاَ يـــا قِيـــلُ ويحـــك قُـــمْ فهيِّم	لـــعل اللـــهَ يـــمنحُنا غـــمـــاما
فيـــسقيَ أرضَ عـــادٍ إنَّ عـــاداً	قـــد أمـــسوا لا يـــبينون الكلاما
مـــن العطشِ الشديدِ فليس نرجُوَ	بـــه الشيـــخَ الكبـــيرَ ولا الغلامَا
وقـــد كـــانَتْ نســـاؤُهم بـــخير	فـــقد أَمْـــسَتْ نساؤُهم أياما [1]
وإن الوحـــشَ يـــأتيهم جـــهاراً	ولا يَـــخْشَى لعـــاديٍّ سهامَـــا
وأَنْتُـــمَ هَهُـــنا فيمَـــا اشتهيْتُـــم	نـــهارَكُـــمُ وليـــلَكُمُ تـــمامـــا
فَقِـــبِّحَ وفـــدُكُم مـــنْ وَفْدِ قومٍ	ولا لقُّـــوا التـــحيّةَ والســـلامـــا

قَالَ : فعند ذلك تنبه القوم لَمَا جاؤوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهُوَ قيل بن عنـــز فأنشأ اللّه سحابات ثلاثاً : بيضاء ، وحمراء . وسوداء . ثُمَّ ناداه مناد من السَّمَاء اختر لنفسك ولقومك منْ هذا السحاب فقَالَ : اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادا ومددا لا تبقي منْ عاد أحدا. لا والداً يترك ولا ولداً. إلا جعلته همدا إلا بني اللوذية الهمدا. قَالَ : وهُوَ بطن منْ عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم مَا أصاب قومهم قَالَ : ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة.

قَالَ : وساق اللّه السحابة السوداء التي اختارها قِيلُ بن عنـــز بمَا فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم منْ واد يقال له : المغيث فلمّا رأوها استبشروا وقَالُوا : هذا عارض ممطرنا فيقول تعالى: ﴿ **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا** ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ، ٢٥] أي تهلك كل شَيْء أمرت به.

فكَانَ أول منْ أبصر مَا فيها وعرف أنها ريح فيمَا يذكرون امرأة من عاد يقال لها : فهد فلمّا تبينت مَا فيها صاحت ثُمَّ صعقت. فلمّا أفاقت قَالُوا : مَا رأيت يا فهد ؟ قالت : رأيت ريحاً فيها كشهب النَّار أمامها رجال يقودونها ، فسخرها اللّه عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، والحسوم الدائمة فلم تدع منْ عاد أحداً إلا هلك ، قَالَ : واعتزل هود عليه السلام فيمَا ذكر لي في حظيرة هُوَ ومن معه من المؤمنين مَا يصيبهم إلا مَا يلين عليهم الجلود وتلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالظعن فيمَا بين السَّمَاء والأَرْض وتدمغهم بالحجارة. وذكر تمام القصة.

---

(١) الأيّم : المرأة التي فارقت زوجها .

وقد روى الإمام أحمد حديثاً في مسنده يشبه هذه القصة ، فقَالَ : حدثنا زيد بن الحباب. حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي . حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث - وهُوَ ابن حسان - ويقال : ابن يزيد البكري . قَالَ : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول اللَّه ﷺ فمررت بالربذة فإذَا عجوز منْ بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : ياعباد اللَّه إن لي إلى رسول اللَّه ﷺ حاجة فهل أنت مبلغي إليه ؟ قَالَ : فحملتها فأتيت المدينة فإذَا المسجد غاص بأهله وإذَا راية سوداء تخفق وإذَا بلال متقلد السيف بين يدي رسول اللَّه ﷺ فقلت : مَا شأن الناس ؟ قَالُوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها . قَالَ : فجلست قَالَ فدخل منــزله ، أو قَالَ : رحله . فاستأذنت عليه ، فأذن لي فدخلت فسلمت فقَالَ : « هل كَانَ بينكم وبين بني تميم شَيْء » ؟ فقلت : نعم. وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز منْ بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب فأذن لها فدخلت فقلت : يا رسول اللَّه إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً فاجعل الدهناء فإنها كانت لنا . قَالَ : فحميت العجوز واستوفزت ، وقالت : يا رسول اللَّه« فإلى أين تضطر مضرك ؟ » قَالَ : فقلت : إن مثلي مَا قَالَ الأول معزى حملت حتفها حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لي خصماً أعوذ باللَّه ورسوله أن أكون كوافد عاد قال: « هيه ومَا وافد عاد » وهُوَ أعلم بالحديث منه ولَكِن يستطعمه[1].

قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وفدا لهم يقال له قيل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ويغنيه جاريتان يقال لهمَا: الجرادتان فلمّا مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة. فقَالَ: اللهم إنك تعلم أنِّي لم أجئ إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم اسق عاداً مَا كنت تسقيه فمرت به سحابات سود فنودي منها اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودي منها خذها رماداً رمدداً لا تبقي منْ عاد أحداً قَالَ : فمَا بلغني أنَّه بعث عليهم من الريح إلا كقدر مَا يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا. قَالَ أبو وائل : وصدق . وكانت المرأة والرجل إذَا بعثوا وفداً لهم قَالُوا : لا تكن كوافد عاد . وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به ، ورواه النسائي منْ حديث سلام أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة ، ومن طريقه رواه ابن ماجه. وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير وغيره . وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة فإن فيمَا ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل فنــزلت جرهم عندهم كمَا سيأتي . وعاد الأولى قبل الخليل وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره وهُوَ من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى لا يشبه كلام المتقدمين. وفيه أن في تلك السحابة شرر نار وعاد الأولى إنّما أهلكوا بريح صرصر. وقد قَالَ ابن مسعود ، وابن عباس ، وغير واحد منْ أئمة التابعين : هي الباردة ، والعاتية الشديدة الهبوب ﴿**سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً**﴾ [الحاقة: ٧] أي كوامل متتابعات. قيل : كَانَ أولها الجمعة وقيل : الأربعاء ﴿**فَتَرَى**

---

(١) حسن : رواه أحمد (٣ / ٤٨٢) رقم (١٥٨٩٦) .

الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧] شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثُمَّ تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كمَا قَالَ : ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ** ﴾ [الْقَمَر : ١٩] أي : في يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم ﴿**تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ** ﴾ [الْقَمَر : ٢٠] ومنْ قَالَ : إن اليوم النحس المستمر هُوَ يوم الأربعاء وتشاءم به [(١)] لهذا الفهم فقد أخطأ ، وخالف القرآن فإنَّه قَالَ في الآية الأخرى ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ**﴾[فصلت :١٦] ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤومة وهذا لا يقوله أحد . وإنما المراد في أيام نحسات أي عليهم .

وقَالَ تعالى : ﴿**وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ** ﴾ [الذاريات : ٤١] أي التي لا تنتج خيراً فإن الريح المفردة لا تنثر سحابا ولا تلقح شجراً بل هي عقيم لا نتيجة خير لها ولهذا قَالَ : ﴿ **مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ** ﴾ [الذاريات:٤٢] أي كالشيء البالي الفاني الَّذي لا ينتفع به بالكلية. وقد ثبت في الصحيحين منْ حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول اللَّهﷺ أنَّه قال:« **نصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور** » [(٢)] . وأمّا قوله تعالى : ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأحقاف :٢١] فالظاهر أن عاداً هذه هي عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى. ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية. ويدل عليه مَا ذكرنا ومَا سيأتي من الحديث عن عائشة رضي اللَّه عنها.

وأمّا قوله : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا** ﴾ [الأحقاف: ٢٤] فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهُوَ الناشئ في الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر . فإذَا هُوَ سحاب عذاب اعتقدوه رحمة فإذَا هُوَ نقمة رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر . قَالَ اللَّه تعالى: ﴿ **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ** ﴾ [الأحقاف : ٢٤] أي من العذاب ثُمَّ فسره بقوله ﴿ **رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [الأحقاف :٢٤] يحتمل أن ذلك العذاب هُوَ مَا أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحداً بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة فكمَا منوا بقوتهم وشدتهم وقَالُوا : منْ أشد منا قوة سلط اللَّه

---

(١) ورد حديث ضعيف فى أن يوم الأربعاء الأخير من الشهر يوم نحس . وهذا الحديث ذكره السيوطى فى الدر المنثور " (٦ / ١٨١) وضعفه . وقد صح عن النبىﷺ ما يخالف هذا الاعتقاد فقد روى الإمام أحمد فى مسنده (٣ / ٣٣٢) بسند حسن عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبىﷺ دعا على الأحزاب يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الظهر والعصر ، قال جابر : فما نزل بما أمر مهم إلا توضيت ذلك الوقت فدعوت الله فيه فرأيت الإجابة .

(٢)**متفق عليه** : رواه البخارى (٣٢٠٥) ومسلم (٩٠٠/ ١٧) والصبا. هى الريح الشرقية. والدبور : هى الريح الغربية .

عليهم مَا هُوَ أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهُوَ الريح العقيم. ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ظن منْ بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمنْ بقي منهم فأرسلها اللّه عليهم شرراً وناراً كمَا ذكره غير واحد ويكون هذا كمَا أصاب أصحاب الظلة منْ أهل مدين وجمع لهم بين الريح الباردة ، وعذاب النَّار وهُوَ أشد مَا يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون واللّه أعلم.

وقد قَالَ ابن أبي حاتم :حدثنا أبي . حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس . حدثنا ابن فضل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قَالَ : قَالَ رسول اللّه ﷺ: « **مَا فتح اللّه على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السَّمَاء والأَرْض فلمّا رأى ذلك أهل الحاضرة منْ عاد الريح ومَا فيها﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**[الأحقاف:٢٤] **فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة** »[١] .

وقد رواه الطبراني عن عبدان بن أحمد عن إسماعيل بن زكريا الكوفي عن أبي مالك عن مسلم الملائي عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس قَالَ : قَالَ رسول اللّه ﷺ: « **مَا فتح اللّه على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم** ». ثُمَّ أرسلت عليهم البدو إلى الحضر فلمّا رآها أهل الحضر ﴿ **قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا** ﴾ [الأحقاف:٢٤] مستقبل أوديتنا . وكَانَ أهل البوادي فيها فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا قَالَ : « **عتت على خزائنها حتى خرجت منْ خلال الأبواب** ». قلت : وقَالَ غيره : خرجت بغير حساب [٢] .

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر. ثُمَّ اختلف فيه على مسلم الملائي وفيه نوع اضطراب واللّه أعلم. وظاهر الآية أنهم رأوا عارضا والمفهوم منه لمعة السحاب كمَا دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري إن جعلناه مفسراً لهذه القصة. وأصرح منه في ذلك مَا رواه مسلم في صحيحه حيث قَالَ : حدثنا أبو الطاهر . حدثنا ابن وهب سمعت بن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي اللّه عنها قالت كَانَ رسول اللّه ﷺ « **إذَا عصفت الريح قَالَ : اللهم إنِّي أسألك خيرها وخير مَا فيها وخير مَا أرسلت به وأعوذ بك منْ شرها وشر مَا فيها وشر مَا أرسلت به** » [٣] قالت : وإذَا عبيت السَّمَاء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذَا أمطرت سري عنه فعرفت ذلك عائشة فسألته : فقَالَ : « **لعله يا عائشة كمَا قَالَ قوم عاد ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا** ﴾ [الأحقاف:٢٤]» رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه منْ حديث ابن جريج [٤].

---

(١) **ضعيف**: فى سنده مسلم الملائى وهو ضعيف .

(٢) **ضعيف** : رواه الطبرانى فى ا الكبير " (١٢/ / ٣٣) رقم (١٢٤١٦) وقال الهيثمى فى " المجمع " (٧ / ١١٣) فيه مسلم الملائى وهو ضعيف .

(٣) رواه مسلم (٨٩٩ / ١٥) .

(٤) صحيح : رواه الترمذى (٣٤٤٩) وابن ماجه (٣٨٩١)

طريق أخرى : قَالَ الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف أنبأنا عبد اللّه بن وهب أنبأنا عمرو وهُوَ ابن الحارث أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة أنها قالت : مَا رأيت رسول اللّه ﷺ مستجمعاً ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته إنما كَانَ يتبسم. وقالت : كَانَ إذَا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك في وجهه قالت : يا رسول اللّه الناس إذَا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذَا رأيته عرف في وجهك الكراهية فقَالَ : « يا عائشة مَا يؤمنني أن يكون فيه عذاب. قد عذب قوم نوح بالريح. وقد رأى قوم عاد العذاب فقَالُوا : هذا عارض ممطرنا » [(١)].

وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف وأخرجه البخاري وأبو داود من حديث ابن وهب. فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كمَا أشرنا إليه أولاً. فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية. وتكون بقية السياقات في القرآن خبراً عن عاد الأولى واللّه أعلم بالصواب. وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف ، وأخرجه البخارى وأبو داود من حديث ابن وهب وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : أنَّه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن. وذكر آخرون : أنَّه بدمشق وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنَّه قبر هود عليه السلام واللّه أعلم .

قصة صالح – نبي ثمود – عليه السلام

وهم قبيلة مشهورة يقال لهم : ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس وهمَا ابنا عابر بن إرم ابن سام بن نوح وكانوا عرباً منْ العاربة يسكنون الحجر الَّذي بين الحجاز وتبوك. وقد مر به رسول اللّه ﷺ وهُوَ ذاهب إلى تبوك بمنْ معه من المسلمين كمَا سيأتي بيانه . وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك فبعث اللّه فيهم رجلا منهم وهُوَ عبد اللّه ورسوله صالح ابن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح فدعاهم إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ، ولا يشركوا به شيئا ، فآمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقَال والفعال ، وهموا بقتله ، وقتلوا الناقة التي جعلها اللّه حجة عليهم فأخذهم اللّه أخذ عزيز مقتدر كمَا قَالَ تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ. هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٦٧) رقم (٢٤٢٥٠) والبخارى (٤٨٢٨ و ٤٨٢٩) ومسلم (٨٩٩) ولهواته جمع لهاة وهى اللحمة المتعلقة فى أعلى الحنك .

فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٣-٧٩].

وقَالَ تعالى في سورة هود : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ. هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ. قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيب. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ. وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ. فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوب. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ. وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ﴾[هود: ٦١-٦٨] .

وقَالَ تعالى في سورة الحجر : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ. وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ. فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر ٨٠-٨٤] وقَالَ سبحانه وتَعالى في سورة سبحان ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ. وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾[الإسراء :٥٩].

وقَالَ تعالى في سورة الشعراء : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحُ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُون. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ. وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ. قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ. فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الشعراء :١٤١-١٥٩]

وقَالَ تعالى في سورة النمل : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ. قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَن مَّعَكَ. قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ. وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ. قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [النمل : ٤٥- ٥٣] .

وقَالَ تعالى في سورة فصلت : ﴿وَأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت:١٧،١٨] .

وقَالَ تعالى في سورة اقتربت : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنُّذُر. فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحداً نَّتَّبعُهُ إنَّا إذاً لَّفي ضَلَال وسُعُر. أَأُلْقيَ الذِّكْرُ عَلَيْه منْ بَيْننَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشرٌ. سَيَعْلَمُونَ غداً مَنِ الْكَذَّابُ الأَشرُ. إنَّا مُرْسلُوا النَّاقَة فتْنَةً لَهُمْ فارْتَقبْهُمْ واصْطَبرْ. وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شرْب مُّحْتَضَرٌ. فَنَادَوْا صَاحبَهُمْ فَتعَاطَى فَعقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابي وَنُذُر. إنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهمْ صَيْحَةً وَاحدَةً فكَانُوا كَهَشيمِ الْمُحْتَظر وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ للذِّكْر فَهَلْ من مُّدَّكر ﴾ [الْقمَر:٢٣- ٣٢].

وقَالَ تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بطَغْوَاهَا إذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّه نَاقَةَ اللَّه وَسُقْيَاهَا. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهمْ رَبُّهُمْ بذَنْبهمْ فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[الشَّمْس:١١- ١٥].

وكثيراً مَا يقرن اللَّه في كتابه بين ذكر عاد وثمود كمَا في سورة براءة وإبراهيم ، والفرقان. وسورة ص . وسورة ق . والنجم والفجر . ويقال : إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهمَا أهل الكتاب وليس لهمَا ذكر في كتابهم التوراة ولَكن في القرآن مَا يدل على أن موسى أخبر عنهمَا كمَا قَالَ تعالى في سورة إبراهيم : ﴿وَقَالَ مُوسَى إنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ في الأَرْض جَميعاً فَإنَّ اللَّهَ لَغَنيٌّ حَميدٌ. أَلَمْ يَأْتكُمْ نَبَأُ الَّذينَ منْ قَبْلكُمْ قَوْم نُوح وَعَاد وَثَمُودَ وَالَّذينَ منْ بَعْدهمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالْبَيِّنَات ﴾ [إبراهيم:٨ ، ٩] الآية. الظاهرَ أن هذا منْ تمام كلام موسى مع قومه ولَكن لما كَانَ هاتان الأمتان منْ العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ولا اعتنوا بحفظه وإن كَانَ خبرهمَا كَانَ مشهورا في زمان موسى عليه السلام. وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير متقصياً وللَّه الحمد والمنة.

والمقصود الآن ذكر قصتهم ومَا كَانَ منْ أمرهم وكيف نجى اللَّه نبيه صالحا عليه السلام ومنْ آمن به ؟ وكيف قطع دابر القوم الَّذينَ ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام ؟ قد قدمنا أنهم كانوا عربا وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بمَا كَانَ منْ أمرهم. ولهذا قَالَ لهم نبيهم عليه السلام : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إلَه غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذه نَاقَةُ اللَّه لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْض اللَّه وَلاَ تَمَسُّوهَا بسُوء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَليمٌ. وَاذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ منْ بَعْد عَاد وَبَوَّأَكُمْ في الأَرْض تَتَّخذُونَ منْ سُهُولهَا قُصُوراً وَتَنْحتُونَ الْجبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّه وَلاَ تَعْثَوْا في الأَرْض مُفْسدينَ ﴾ [الأعراف :٧٣ ، ٧٤] أي إنما جعلكم خلفاء منْ بعدهم لتعتبروا بمَا كَانَ أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الأَرْض تبنون في سهولها القصور ﴿وَتَنْحتُونَ منَ الْجبَال بُيُوتاً فَارهينَ﴾[الشعراء:١٤٩]. أي حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها فقابلوا نعمة اللَّه بالشكر والعملَ الصالح والعبادة له وحده لا شريك له وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته فإن عاقبة ذلك وخيمة ولهذا وعظهم بقوله : ﴿ أَتُتْرَكُونَ في مَا هَاهُنَا آمنينَ. في جَنَّات وَعُيُون وزُرُوع وَنَخْل طَلْعُهَا هَضيمٌ ﴾ [الشعراء : ١٤٦ - ١٤٨] أي متراكم كثير حسن هي ناضج ﴿وَتَنْحتُونَ منَ الْجبَال بُيُوتاً فَارهينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطيعُون وَلاَ تُطيعُوا أَمْرَ الْمُسْرفينَ الَّذينَ يُفْسدُونَ في الأَرْض وَلاَ يُصْلحُونَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩ - ١٥٢] وقَالَ لهم أيضاً : ﴿ يَا قَوْم اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إلَه غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ منَ الأَرْض وَاسْتَعْمَرَكُمْ فيهَا ﴾ [هود : ٦١] أي هُوَ الَّذي خلقكم فأنشأكم منْ الأَرْض وجعلكم عمارها أي أعطاكموها بمَا فيها من الزروع والثمار فهُوَ الخالق الرازق فهُوَ

الَّذي يستحق العبادة وحده لا سواه ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٦١] أي أقلعوا عمَا أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فإنَّه يقبل منكم وَيتجاوز عنكمَ ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا ﴾ [هود : ٦١، ٦٢] أي قد كنَا نرجو أن يكوَن عقلك كامَلا قبل هذه المَقالة وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة وترك مَا كنا نعبده منْ الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قَالُوا : ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيب ﴾ [هود :٦٢] ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود : ٦٣] وهذا تلطفَ منَه لهم في العبارة ولين الجانب وحسن تأتَ في الَدعوة لهم إلَى الخير أي فمَا ظنكم إن كَانَ الأمر كمَا أقول لكم وأدعوكم إليه ماذا يكون عذركم عند اللّه ؟ وماذا يخلصكم من بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته وأنا لا يمكنني هذا لأنَّه واجب علي ولو تركته لَما قدر أحد منكم ولا منْ غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني فأنا لا أزال أدعوكم إلى اللّه وحده لا شريك له حتى يحكم اللّه بيني وبينكم وقَالُوا له أيضاً : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٣] أي منْ المسحورين يعنون مسحوراً لا تدري مَا تَقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة للّه وحده وخلع مَا سواه من الأنداد وهذا القول عليه الجمهور أن المراد بالمسحرين المسحورين ، وقيل : من المسحرين أي ممن له سحر ، وهي الرئة كأنهم يقولون : إنّما أنت بشر له سحر والأول أظهر لقولهم بعد هذا ﴿ مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء :١٥٤] وقولهم : ﴿فَأْتِ بِآيَة إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٤] سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدقَ مَا جَاءهم ﴿ قَالَ هَذِه نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُم شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُوم وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء : ١٥٥ ، ١٥٦] وَقَالَ : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

وقَالَ تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم فجاءهم رسول اللّه صالح فدعاهم إلى اللّه وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقَالُوا : له إن أنت أخرجت لنا منْ هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة منْ صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة منْ صفتها كذا وكذا فقَالَ لهم النبي صالح عليه السلام : أرأيتم إن أجبتكم إلى مَا سألتم على الوجه الَّذي طلبتم أتؤمنون بمَا جئتكم به وتصدقوني فيمَا أرسلت به؟. قَالُوا : نعم فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثُمَّ قام إلى مصلاه فصلى للّه عزّ وجلّ مَا قدر له ثُمَّ دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى مَا طلبوا فأمر اللّه عزّ وجلّ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الَّذي طلبوا أو على الصفة التي نعتوا. فلمّا عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيمًا ومنظراً هائلا وقدرة باهرة ودليلا قاطعاً وبرهانا ساطعاً فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم. ولهذا قَالَ ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي جحدوا بها و لم

يتبعوا الحق بسببها أي أكثرهم. وكَانَ رئيس الَّذينَ آمنوا جندع بن عمرو بن محلاه بن لبيد بن جواس. وكَانَ منْ رؤسائهم وهم بقية الأشرافَ بالإسلام قصدهم ذؤاب بن عمر بن لبيد ، والخباب صاحبا أوثانهم ، ورباب بن صمعر بن جمس ودعا جندع ابن عمه شهاب ابن خليفة وكَانَ منْ أشرافهم فهم بالإسلام فنهاه أولئك فمال إليهم فقَالَ في ذلك رجل من المسلمين يقال له : مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه اللّٰه :

وكانتْ عصبةُ منْ آلِ عمرو	إلى دين النبيِّ دَعَوْا شهابا
عزيـــزَ ثمودَ كلّهُـــمَ جميعًـــا	فَهَمَّ بأنْ يُجيبَ ولو أجابا
لأصبحَ صالحُ فينـــا عزيـــزًا	ومَا عَدَلوا بصاحبِهم ذؤابا
ولَكنَّ الغُواةَ منْ آلِ حجـــرِ	تولوا بعد رُشدهم ذآبا

ولهذا قَالَ لهم صالح عليه السلام : ﴿ هَذه نَاقَةُ اللَّه لَكُمْ آيَةً ﴾ [الأعراف : ٧٣] أضافها للّٰه سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم كقوله بيت اللّٰهَ وعبد اللّٰه ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف : ٧٣] أي دليلا على صدق مَا جئتكم به ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْض اللَّه وَلاَ تَمَسُّوهَا بسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود : ٦٤] فاتفق الحال على أن تبقى هذه النَاقةَ بين أظهرهم ترعى حيث شاءت منْ أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم وكانت إذَا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ، ويقال : إنهم كانوا يشربون منْ لبنها كفايتهم ، ولهذا قَالَ : ﴿ لَهَا شرْبٌ وَلَكُمْ شرْبُ يَوْم مَّعْلُوم ﴾ [الشعراء : ١٥٥] ولهذا قَالَ تعالى : ﴿ إنَّا مُرْسلُوا النَّاقَةَ فتْنَةً لَهُمْ ﴾ [الْقَمَر : ٢٧] أي اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون؟ واللّٰه أعلم بما يفعلَون ﴿ فَارْتَقبْهُمْ ﴾ [الْقَمَر : ٢٧] أي انتظر مَا يكون منْ أمرهم ﴿وَاصْطَبرْ ﴾ [الْقَمَر : ٢٧] على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شرْب مُّحْتَضَرٌ ﴾ [الْقَمَر : ٢٨] فلمّا طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم واتفق رأيَهم على أن يعقَروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم قَالَ اللّٰه تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْر رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالحُ ائْتنَا بمَا تَعدُنَا إنْ كُنْتَ منَ الْمُرْسَلينَ﴾ [الأعراف : ٧٧] وكَانَ الَّذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدَار بَن سَالفَ بنَ جندع وكَانَ أحمر أزرق أصهب ، وكَانَ يقال: إنَّه ولد زانية ولد على فراش سالف وهُوَ ابن رجل يقال له : صيبان. وكَانَ فعله ذلك باتفاق جميعهم فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم .

وذكر ابن جرير وغيره منْ علماء المفسرين أن امرأتين منْ ثمود اسم إحداهمَا صدوق بنت المحيا بن زهير بن المختار وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له مصرع بن مهرج بن المحيا وعرضت عليه نفسها إن هُوَ عقر الناقة ، واسم الأخرى عنيزة بنت غنيم بن مجلز وتكنى أم عثمان ، وكانت عجوزا كافرة لها بنات منْ زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هُوَ عقر الناقة فله أي بناتها شاء فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ في الْمَدينَة تسْعَةُ رَهْط

يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل : ٤٨] وسعوا في بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم في ذلك فانطلقوا يرصدون الناقة فلمّا صدرت منْ وردها كمنْ لها مصرع فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها وجاء النساء يزمرن القبيلة في قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيبا لهم فابتدرهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأَرْض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ثُمَّ طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقيها. وهُوَ فصيلها. فصعد جبلا منيعا ودعا ثلاثا.

وروى عبد الرزاق عن معمر عمنْ سمع الحسن أنّه قَالَ : يا رب أين أمي؟ ثُمَّ دخل في صخرة فغاب فيها ، ويقال بل اتبعوه فعقروه أيضا قَالَ اللّه تعالى : ﴿ **فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ [الْقَمَر : ٣٠] وقَالَ تعالى : ﴿**إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا**﴾ [الشَّمْس:١٣] أي احذروها ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا** ﴾ [الشَّمْس:١٥] .

قَالَ الإمام أحمد : حدثنا عبد اللّه بن نمير حدثنا هاشم هُوَ أبو عزرة عن أبيه عبد اللّه بن زمعة قَالَ خطب رسول اللّهﷺ فذكر الناقة وذكر الّذي عقرها فقَالَ : ﴿ **إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا** ﴾ [الشَّمْس:١٢] انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة[1]. أخرجاه منْ حديث هشام بن عارم أي شهم عزيز أي رئيس منيع أي مطاع في قومه.

وقَالَ محمد بن إسحاق : حدثني يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب عن محمد بن خيثم عن يزيد عن عمار بن ياسر قَالَ : قَالَ رسول اللّهﷺ لعلي : «**ألا أحدثك بأشقى الناس؟** » قَالَ : بلى . قَالَ : «**رجلان أحدهمَا أحيمر ثمود الّذي عقر الناقة والّذي يضربك يا علي على هذا يعني قرنه حتى تبتل منه هذه يعني لحيته** »[2] رواه ابن أبي حاتم.

وقَالَ تعالى : ﴿ **فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأعراف : ٧٧] فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ منْ وجوه: منها أنهم خالفوا اللّه ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها اللّه لهم آية. ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه منْ وجهين : أحدهمَا : الشرط عليهم في قوله: ﴿**وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ** ﴾ [هود :٦٤] وفي آية: ﴿**عَظِيمٌ**﴾[الشعراء: ١٥٦] وفي الأخرى ﴿ **أَلِيمٌ** ﴾[الأعراف : ٧٣] والكل حق. والثاني: استعجالهم على ذلك. ومنها أنهم

---

(١)**متفق عليه** : رواه البخارى (٤٩٤٢) ومسلم (٧٠٥١) وأحمد (١٦٢٢٣) . وعارم : أى كثير الشهامة والشر . وعزيز أى قليل المثل . ومنيع فى رهطه : أى قوى ذو منعة ومطاع فى قومه .

(٢)**حسن** : رواه أحمد (٤ / ٢٦٣) والنسائى فى " خصائص على " (١٤٩) والطحاوى فى " مشكل الآثار" (١ / ٣٥١ ، ٣٥٢) والطبرى فى : " تاريخه " (٢ / ٤٠٨) والحاكم (٣ / ١٤٠ ، ١٤١) والبيهقى فى " دلائل النبوة " (٣ / ١١ ، ١٢) . وانظر " السلسلة الصحيحة " (١٧٤٣) وأحيمر : تصغير أحمر ، وقيل لأنه أحمر أشقر أزرق دميم .

كذبوا الرسول الَّذِي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علما جازما ولَكِن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم.

قَالَ اللَّه تعالى: **﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّام ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوب﴾**[هود: ٦٥] وذكروا أُهم لما عقروا الناقة كَانَ أول منْ سطاَ عليها قدار بن سالف لعنه اللَّه فعرقبها فسقطت إلى الأَرْض ثُمَّ ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلمّا عاين ذلك سقبها وهُوَ ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قَالَ لهم صالح: **﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّام ﴾** [هود: ٦٥] أي غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضا في هذا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيمَا يزعمون أن يلحقوه بالناقة **﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّه لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾** [النمل : ٤٩] أي لنكسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ثُمَّ نجحدنَّ قتله وننكرنَّ ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه. ولهذا قَالُوا : **﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّه مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِه وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾** [النمل : ٤٩] قَالَ اللَّه تعالى: **﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾** [النمل: ٥٠-٥٣] وذلك أن اللَّهَ تعالى أرسَلَ علىَ أولئكَ النفَر الَّذِينَ قصدواَ قتل صالح حجارة رضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس وهُوَ اليوم الأول منْ أيام النظرة ووجوههم مصفرة كمَا أنذرهم صالح عليه السلام فلمّا أمسوا نادوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل . ثُمَّ أصبحوا في اليوم الثاني منْ أيام التأجيل. وهُوَ يوم الجمعة ووجوههم محمرة فلمّا أمسوا نادوا ألا قد مضى يومان منْ الأجل. ثُمَّ أصبحوا في اليوم الثالث منْ أيام المتاع وهُوَ يوم السبت ووجوهم مسودة فلمّا أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل فلمّا كَانَ صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة ؟ لا يدرون كيف يفعل بهم ولا منْ أي جهة يأتيهم العذاب ، فلمّا أشرقت الشَّمْس جاءهم صيحة منْ السَّمَاء منْ فوقهم ، ورجفة شديدة منْ أسفل منهم . ففاضت الأرواح ، وزهقت النفوس ، وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق . فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها. قَالُوا : ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها : كلبة بنت السلق. ويقال لها : الذريعة وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام فلمّا رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شَيْء فأتت حياً من العرب فأخبرتهم بمَا رأت ومَا حل بقومها واستسقتهم ماء فلمّا شربت ماتت. قَالَ اللَّه تعالى: **﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾** [هود:٦٨] أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء **﴿أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ﴾** [هود:٦٨] أي نادى عليهم لسان القدر بهذا.

قَالَ الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق . حدثنا معمر . حدثنا عبد اللَّه بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر قَالَ : لَمَا مر رسول اللَّهﷺ بالحجر قَالَ: **«لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت يعني الناقة ترد منْ هذا الفج وتصدر منْ هذا الفج ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ فعقروها**

وكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا فعقروها فأخذهم صيحة أهمد الله منْ تحت أديم السَّمَاء منهم إلا رجلا واحدا كَانَ في حرم الله ». فقَالُوا: منْ هُوَ يا رسول الله ؟ قَالَ : « **هُوَ أبو رغال. فلمّا خرج منْ الحرم أصابه مَا أصاب قومه**» [1] وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هُوَ في شَيْء منْ الكتب الستة والله أعلم .

وقد قَالَ عبد الرزاق أيضا : قَالَ معمر أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقَالَ : « **أتدرون منْ هذا** »؟ قَالُوا : الله ورسوله أعلم . قَالَ :« **هذا قبر أبي رغال رجل منْ ثمود كَانَ في حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله. فلمّا خرج أصابه مَا أصاب قومه فدفن ههنا ودفن معه غصن منْ ذهب فنـــزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن** » قَالَ عبد الرزاق : قَالَ معمر قَالَ الزهري : أبو رغال أبو ثقيف. هذا مرسل منْ هذا الوجه. وقد جاء منْ وجه آخر متصلا كمَا ذكره محمد بن إسحاق في السيرة عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير سمعت عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله ﷺ يقول : حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقَالَ : « **إن هذا قبر أبي رغال. وهُوَ أبو ثقيف. وكَانَ منْ ثمود وكَانَ بهذا الحرم يدفع عنه فلمّا خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكَانَ فدفن فيه وآية ذلك أنّه دفن معه غصن منْ ذهب. إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه**» [2]. فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن. وهكذا رواه أبو داود منْ طريق محمد بن إسحاق به. قَالَ شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله هذا حديث حسن عزيز.

قلت : تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ، ولا يعرف إلا بهذا الحديث ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أمية. قَالَ شيخنا فيحتمل أنّه وهم في رفعه وإنّما يكون منْ كلام عبد الله بن عمرو منْ زاملته والله أعلم. قلت : لكن في المرسل الّذي قبله وفي حديث جابر أيضا شاهد له. والله أعلم.

وقوله تعالى : ﴿ **فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ولَكِن لاَّ تُحبُّونَ النَّاصحينَ** ﴾ [الأعراف :٧٩] إخبار عن صالح عليه السلام أنّه خاطب قومه بعد هلاكهم ، وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلا لهم : ﴿ **يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسَالات رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ** ﴾ [الأعراف :٧٩] أي جهدت في هدايتكم بكل مَا أمكنني وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي ﴿ **ولَكِن لاَّ تُحبُّونَ النَّاصحينَ** ﴾ [الأعراف:٧٩] أي لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم، المستمر بكم المتصل إلى الأبد ، وليس لى فيكم حيلة ولا لى بالدفع عنكم يدان . والذى وجب على أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ، ولكن الله يفعل ما يريد .

---

(١) **ضعيف**: رواه أحمد (٣ / ٢٩٦) برقم (١٤٠٩٢) والحاكم (٢ / ٣٢٠) وفى سنده أبى الزبير المكى وهو مدلس وقد عنعن .

(٢) **ضعيف**: رواه أبو داود (٣٠٨٨) وفى سنده بجبر بن أبى بجير وهو مجهول كما فى التقريب " (١ / ٩٣).

وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل منْ آخر اللّيْل فقَالَ :« **يا أهل القليب هل وجدتم مَا وعدكم ربكم حقا فإنِّي قد وجدت مَا وعدني ربي حقا** » وقَالَ لهم فيمَا قَالَ : « **بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم** »، فقَالَ له عمر : يا رسول اللّه تخاطب أقواما قد جيفوا . فقَالَ: « **والَّذِي نفسي بيده مَا أنتم بأسمع لَمَا أقول منهم ولكنهم لا يجيبون** »[١]. وسيأتي بيانه في موضعه إن شاء اللّه. ويقال : إن صالحا عليه السلام انتقل إلى حرم اللّه فأقام به حتى مات.

قَالَ الإمام أحمد : حدثنا وكيع . حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قَالَ: لَمَا مر النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج قَالَ « **يا أبا بكر أي واد هذا** ». قَالَ: وادي عسفان قَالَ : « **لقد مر به هود وصالح عليهم السلام على بكرات خطمها الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق** »[٢]. إسناد حسن. وقد تقدم في قصة نوح عليه السلام منْ رواية الطبراني وفيه نوح وهود وإبراهيم .

ذكر مرور النبي ﷺ بوادى الحجر منْ أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد . حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قَالَ: لَمَا نزل رسول اللّه ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس منْ الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول اللّه ﷺ فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثُمَّ ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الَّذِينَ عذبوا: « **إنِّي أخشى أن يصيبكم مثل مَا أصابهم فلا تدخلوا عليهم** » [٣].

وقَالَ أحمد أيضا : حدثنا عفان . حدثنا عبد العزيز بن مسلم . حدثنا عبد اللّه بن دينار عن عبد اللّه بن عمر قَالَ : قَالَ رسول اللّه ﷺ وهُوَ بالحجر: « **لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل مَا أصابهم** » [٤]. أخرجاه في الصحيحين منْ غير وجه. وفي بعض الروايات أنّه عليه السلام لَمَا مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم « **إلا أن تكونوا باكين** » وفي رواية: « **فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل مَا أصابهم** ». صلوات اللّه وسلامه عليه .

وقَالَ الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون . حدثنا المسعودي عن إسماعيل بن أوسط عن محمد بن أبي كبشة الأنباري عن أبيه واسمه عمرو بن سعد ويقال : عامر بن سعد رضي اللّه عنه

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (٢ / ١٣١) برقم (٦١٤٥) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) **صحيح** : رواه أحمد (٢ / ١١٧) .

(٤) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٣٨٠) ومسلم (٢٩٨٠ / ٣٨) .

قَالَ : لَمَا كَانَ في غزوة تبوك فسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ فنادى في الناس : « **الصلاة جامعة** » قَالَ : فأتيت النبي ﷺ وهُوَ ممسك بعيره وهُوَ يقول: « **مَا تدخلون على قوم غضب اللَّه عليهم** » ؛ فناداه رجل تعجب منهم يا رسول اللَّه قَالَ : « **أفلا أنبئكم بأعجب منْ ذلك رجل منْ أنفسكم ينبئكم بمَا كَانَ قبلكم ومَا هُوَ كائن بعدكم؟ فاستقيموا وسددوا فإن اللَّه لا يعبأ بعذابكم شيئا وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً** »[1]. إسناد حسن و لم يخرجوه .

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة فكانوا يبنون البيوت منْ المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم فنحتوا لهم بيوتاً في الجبال. وذكروا : أن صالحا عليه السلام لَما سألوه آية فأخرج اللَّه لهم الناقة منْ الصخرة أمرهم بها وبالولد الَّذي كَانَ في جوفها وحذرهم بأس اللَّه إن هم نالوها بسوء وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سببَ هلاكهم ذلك . وذكر لهم صفة عاقرها وأنَّه أحمر أزرق أصهب فبعثوا القوابل في البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلنه فكانوا على ذلك دهرا طويلا وانقرض جيل وأتي جيل آخر. فلمّا كَانَ في بعض الأعصار خطب رئيس منْ رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله في الرياسة فزوجه فولد بينهمَا عاقر الناقة ، وهُوَ قدار بن سالف فلم تتمكن القوابل منْ قتله لشرف أبويه وجديه فيهم فنشأ نشأة سريعة فكَانَ يشب في الجمعة كمَا يشب غيره في شهر حتى كَانَ منْ أمره أن خرج مطاعاً فيهم رئيساً بينهم فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانية منْ أشرافهم وهم التسعة الَّذينَ أرادوا قتل صالح عليه السلام. فلمّا وقع منْ أمرهم مَا وقع منْ عقر الناقة وبلغ ذلك صالحا عليه السلام وجاءهم باكيا عليها فتلقوه يعتذرون إليه ويقولون : إن هذا لم يقع عن ملأ منا وإنّما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا. فيقال : إنَّه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا إليه عوضا عنها فذهبوا وراءه فصعد جبلا هناك فلمّا تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير وبكى الفصيل حتى سالت دموعه. ثُمَّ استقبل صالحا عليه السلام ودعا ثلاثاً فعندها قَالَ صالح ﴿ **تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** ﴾ [هود : ٦٥] وأخبرهم أنهم يصبحون منْ غدهم صفراً ثُمَّ تحمر وجوههم في الثاني . وفي اليوم الثالث تسود وجوههم. فلمّا كَانَ في اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأخذتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين. وفي بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر مَا يفهم منْ القرآن في شأنهم وقصتهم كمَا قدمنا واللَّه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

قصّة إبراهيم خليل الرحمن

هُوَ إبراهيم بن تارخ (٢٥٠) بن ناحور (١٤٨) بن ساروغ (٢٣٠) بن راعو (٢٣٩) بن فالغ (٤٣٩) بن عابر (٤٦٤) بن شالخ (٤٣٣) بن أرفخشذ (٤٣٨) بن سام (٦٠٠) بن نوح

---

(١) **حسن** : رواه أحمد (٤ / ٢٣١) رقم (١٧٩٥٢) والطبراني فى الكبير " (١٢ / ٣٤٠) رقم (٨٥١) والدولابي فى " الكنى " (١ / ٥٠) .

عليه السلام. هذا نص أهل الكتاب في كتابهم وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كمَا ذكروه منْ المدد وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته.

وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل منْ تاريخه عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب المبتدأ : أن اسم أم إبراهيم أميلة. ثُمَّ أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة. وقَالَ الكلبي : اسمها بونا بنت كربنا بن كرثى منْ بني أرفخشذ بن سام بن نوح .

وروى ابن عساكر منْ غير وجه عن عكرمة أنَّه قَالَ : كَانَ إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان قَالُوا : ولَمَّا كَانَ عمر تارخ خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران وولد لهاران لوط. وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هُوَ الأوسط وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض الكلدانيين – يعنون أرض بابل. وهذا هُوَ الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر بعد مَا روى منْ طريق هشام بن عمار عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول عن ابن عباس قَالَ : ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها : برزة في جبل يقال له قاسيون. ثُمَّ قَالَ : والصحيح أنَّه ولد ببابل. وإنَّما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام.

قَالُوا : فتزوج إبراهيم سارة وناحور ملكا ابنة هاران يعنون بابنة أخيه . قَالُوا وكانت سارة عاقراً لا تلد . قَالُوا : وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران فخرج بهم منْ أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين فنــزلوا حران فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة وهذا يدل على أنَّه لم يولد بحران وإنَّما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل ومَا والاها. ثُمَّ ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين. وهي بلاد بيت المقدس . فأقاموا بحران وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان . وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً وكانوا يعبدون الكواكب السبعة .

والَّذينَ عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع منْ الفعال والمقال. ولهذا كَانَ على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ويعملون لها أعياداً وقرابين.

وهكذا كَانَ أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل منْ كَانَ على وجه الأَرْض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام ، وكَانَ الخليل عليه السلام هُوَ الَّذي أزال اللَّه به تلك الشرور ، وأبطل به ذاك الضلال فإن اللَّه سبحانه وتعالى أتاه رشده في صغره وابتعثه رسولا واتخذه خليلا في كبره قَالَ تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١] أي كَانَ أهلا لذلك.

وقَالَ تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّه أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّه لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّه الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْه تُرْجَعُونَ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ

البَلاغُ المُبينُ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدئُ اللَّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ إنَّ ذَلكَ عَلَى اللَّه يَسيرٌ قُلْ سيرُوا في الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشئُ النَّشْأَةَ الآخرَةَ إنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ يُعَذّبُ مَن يَشَاءُ ويَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وإلَيْه تُقْلَبُونَ ومَا أَنتُم بمُعْجزينَ في الأَرْضِ ولا في السَّمَاء ومَا لَكُم مِّن دُون اللَّه من وليٍّ ولا نَصيرٍ والَّذينَ كَفَرُوا بآيَات اللَّه ولقَائه أُوْلَئكَ يَئسُوا من رَّحْمَتي وأُوْلَئكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمه إلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ منَ النَّارِ إنَّ في ذَلكَ لآيَات لِّقَوْمٍ يُؤْمنُونَ وقَالَ إنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُون اللَّه أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنكُمْ في الحَيَاة الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ القيَامَة يَكْفُرُ بَعْضُكُم ببَعْضٍ ويَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ومَأْوَاكُمُ النَّارُ ومَا لَكُم مِّن نَّاصرينَ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وقَالَ إنِّي مُهَاجرٌ إلَى رَبِّي إنَّهُ هُوَ العَزيزُ الحَكيمُ ووَهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ ويَعْقُوبَ وجَعَلْنَا في ذُرِّيَّته النُّبُوَّةَ والْكتَابَ وآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ في الدُّنْيَا وإنَّهُ في الآخرَة لَمنَ الصَّالحينَ﴾ [العنكبوت: ١٦-٢٧] ثُمَّ ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه كمَا سنذكره إن شاء اللَّه تعالى .

وكَانَ أول دعوته لأبيه وكَانَ أبوه ممنْ يعبد الأصنام لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كمَا قَالَ تعالى : **﴿واذْكُرْ في الكتَاب إبْرَاهيمَ إنَّهُ كَانَ صدِّيقاً نَّبياً . إذْ قَالَ لأَبيه يَا أَبَت لمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ ولا يُبْصرُ ولا يُغْني عَنكَ شَيْئاً . يَا أَبَت إنِّي قَدْ جَاءَني منَ العلْمِ مَا لَمْ يَأْتكَ فَاتَّبعْني أَهْدكَ صرَاطاً سَوياً . يَا أَبَت لا تَعْبُد الشَّيْطَانَ إنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ للرَّحْمَنِ عَصياً . يَا أَبَت إنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ للشَّيْطَان ولياً . قَالَ أَرَاغبٌ أَنتَ عَنْ آلهَتي يَا إبْرَاهيمُ لَئن لَّمْ تَنته لأَرْجُمَنَّكَ واهْجُرْني مَلياً. قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفرُ لَكَ رَبِّي إنَّهُ كَانَ بي حَفياً . وأَعْتَزلُكُمْ ومَا تَدْعُونَ من دُون اللَّه وأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بدُعَاء رَبِّي شَقياً﴾**.[مريم:٤١-٤٨] فذكر تعالى مَا كَانَ بينه وبين أبيه منْ المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة بين له بطلان مَا هُوَ عليه منْ عبادة الأوثان التي لا تسمع ذعاء عابدها ولا تبصر مكانه فكيف تغني عنه شيئا أو تفعل به خيرا منْ رزق أو نصر.

ثُمَّ قَالَ منبها على مَا أعطاه اللَّه منْ الهدى والعلم النافع وإن كَانَ أصغر سناً منْ أبيه **﴿يَاأَبَت إنِّي قَدْ جَاءَني منَ العلْمِ مَا لَمْ يَأْتكَ فَاتَّبعْني أَهْدكَ صرَاطاً سَوياً ﴾** [مريم : ٤٣] أي مستقيمًا واضحا سهلا حنيفا يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك فلمّا عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ولا أخذها عنه بل هدده وتوعده قَالَ **﴿ قَالَ أَرَاغبٌ أَنتَ عَنْ آلهَتي يَا إبْرَاهيمُ لَئن لَّمْ تَنته لأَرْجُمَنَّكَ ﴾** [مريم : ٤٦] : قيل : بالمقَالَ ، وقيل : بالفعال **﴿واهْجُرْني مَلياً﴾** [مريم : ٤٦] أي وأقطعني وأطل هجراني فعندها قَالَ له إبراهيم : **﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ ﴾** [مريم : ٤٧] أي لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذى بل أنت سالم منْ ناحيتي وزاده خير فقَالَ: **﴿ سَأَسْتَغْفرُ لَكَ رَبِّي إنَّهُ كَانَ بي حَفياً ﴾** [مريم: ٤٧] قَالَ ابن عباس وغيره : أي لطيفا يعني في أن هداني لعبادته والإخلاص له ولهذا قال: **﴿ وأَعْتَزلُكُمْ ومَا تَدْعُونَ من دُون اللَّه وأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بدُعَاء رَبِّي شَقياً ﴾** [مريم : ٤٨] وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كمَا وعده في أدعيته. فلمّا تبين له أنّه عدو للّه تبرأ منه كمَا قَالَ تعالى : **﴿ ومَا كَانَ اسْتغْفَارُ إبْرَاهيمَ لأَبيه إلاَّ عَن مَّوْعدَة وعَدَهَا إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّه تَبَرَّأَ منْهُ إنَّ إبْرَاهيمَ لأَوَّاهٌ حَليمٌ ﴾** [التوبة: ١١٤] وقَالَ البخاري : حدثنا إسماعيل بن عبد اللَّه حدثني أخي عبد الحميد عن ابن

أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قَالَ : « **يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصيني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون وأي خزي أخزى منْ أبي الأبعد ، فيقول اللّه : إنِّي حرمت الْجَنَّة على الكافرين. ثُمَّ يقال : يا إبراهيم مَا تحت رجليك فينظر فإذَا هُوَ بِذَبْخٍ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فِي النَّار** »(١) هكذا رواه في قصة إبراهيم منفردا .

وقَالَ في التفسير : وقَالَ إبراهيم بن طهمان عن ابن أبي ذؤيب عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة. وهكذا رواه النسائي عن أحمد بن حفص بن عبد اللّه عن أبيه عن إبراهيم بن طهمان به.

وقد رواه البزار منْ حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . وفي سياقه غرابة.

ورواه أيضا منْ حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبي سعيد عن النبي ﷺ بنحوه وقَالَ تعالى : ﴿ **وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام :٧٤] هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر . وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه: تارح وأهل الكتاب يقولون : تارخ بالخاء المعجمة فقيل إِنَّه لقب بصنم كَانَ يعبده اسمه آزر.

وقَالَ ابن جرير والصواب : إن اسمه آزر ولعل له اسمان علمان ، أو أحدهَما لقب والآخر علم وهذا الَّذِي قاله محتمل واللّه أعلم.

ثُمَّ قَالَ تعالى : ﴿ **وكَذَلكَ نُرِي إبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ولِيَكُونَ منَ الْموقنينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْه اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحبُّ الآفلينَ. فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئن لَّمْ يَهْدني رَبِّي لأَكُونَنَّ منَ القَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وجَّهْتُ وجْهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنيفاً ومَا أَنَا منَ الْمُشْرِكِينَ وحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّه وقَدْ هَدَانِ ولا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ به إلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وسعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ علْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ وكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ولا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّه مَا لَمْ يُنَزِّلْ به عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَذينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُم مُّهْتَدُونَ وتلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنعام: ٧٥-٨٣] .

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة منْ الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع اللّه عز وجل لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة تطلع تارة وتأفل أخري فتغيبُ عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شَيْء ولا تخفي عليه خافية بل هُوَ الدائم الباقي بلا زوال لا إله إلا هُوَ ولا رب سواه فبين لهم أولا عدم صلاحية الكوكب

---

(١) رواه البخارى (٣٣٥٠) كتاب الأنبياء - باب قول الله تعالى ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلاً** ﴾ .

لذلك . قيل هُوَ الزهرة ثُمَّ ترقى منها إلى الْقَمَر الَّذي هُوَ أضوأ منها وأبهى منْ حسنها. ثُمَّ ترقى إلى الشَّمْس التِي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة كمَا قَالَ تعالى : ﴿ ومنْ آيَاته اللَّيْلُ والنَّهَارُ والشَّمْسُ والْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا للشَّمْسِ ولا للْقَمَرِ واسْجُدُوا للَّه الَذي خَلَقَهُنَّ إن كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت :٣٧] ولهذا قَالَ : ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ [الأنعام : ٧٨] أي طالعة. ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وجَّهْتُ وجْهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّمَوَات والأَرْضَ حَنيفاً ومَا أَنَا منَ الْمُشْرِكينَ. وحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وقَدْ هَدَانِ ولا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً ﴾ [الأنعام : ٧٨- ٨٠] أي لست أبالي في هذه الآلهة التي تعبدونها منْ دون اللَّه فإنها لا تنفع شيئا ولا تسمع ولا تعقل بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها أو مصنوعة منحوتة منجورة .

والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران فإنهم كانوا يعبدونها ، وهذا يرد قول منْ زعم أَنَّه قَالَ هذا حين خرج منْ السرب لَمَا كَانَ صغيرا كمَا ذكره ابن إسحاق وغيره وهُوَ مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولا سيمَا إذَا خالفت الحق. وأمّا أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام وهم الَّذينَ ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها كمَا قَالَ تعالى: ﴿وقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّه أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ويَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ومَأْوَاكُمُ النَّارُ ومَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[العنكبوت:٢٥] .

وقَالَ فِي سورة الأنبياء : ﴿ ولَقَدْ آتَيْنَا إبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ من قَبْلُ وكُنَّا به عَالمينَ. إذْ قَالَ لأَبيه وقَوْمه مَا هَذه التَّمَاثِيلُ الَتي أَنتُمْ لَهَا عَاكفُونَ . قَالُوا وجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابدينَ. قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِين . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ منَ اللاَّعبِينَ . قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَات والأَرْضِ الَذي فَطَرَهُنَّ وأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهدينَ . وتَاللَّه لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إلَيْه يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إنَّهُ لَمنَ الظَّالمينَ . قَالُوا سَمعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبْرَاهِيمُ. قَالُوا فَأْتُوا به عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إن كَانُوا يَنطِقُونَ . فَرَجَعُوا إلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّه مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً ولايَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّه أَفَلا تَعْقِلُونَ . قَالُوا حَرِّقُوهُ وانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وسَلاماً عَلَى إبْرَاهِيمَ . وأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء:٥١-٧٠] .

وقَالَ فِي سورة الشعراء : ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إبْرَاهِيمَ. إذْ قَالَ لأَبِيه وقَوْمه مَا تَعْبُدُونَ . قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلكَ يَفْعَلُونَ . قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إلاَّ رَبَّ العَالَمينَ . الَذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدِينِ . والَّذي هُوَ يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ . وإذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . والَّذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . والَّذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ . رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء :٦٩-٨٣] .

وقَالَ تعالى في سورة الصافات: ﴿ وإنَّ من شيعَته لإبْرَاهيمَ. إذْ جَاءَ رَبَّهُ بقَلْب سَليم. إذْ قَالَ لأَبيه وقَوْمه مَاذَا تَعْبُدُونَ. أَئفكاً آلهَةً دُونَ اللَّه تُريدُونَ. فَمَا ظَنُّكُم بربِّ العَالَمينَ . فَنظَرَ نَظْرَةً في النُّجُوم . فقَالَ إنِّي سَقيمٌ . فتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبرينَ . فَرَاغَ إلَى آلهَتهِمْ فقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لا تَنطقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهمْ ضَرْباً باليَمين. فَأَقْبَلُوا إلَيْه يَزفُّونَ. قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحتُونَ. واللَّهُ خَلَقَكُمْ ومَا تَعْمَلُونَ . قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ في الجَحيم. فَأَرَادُوا به كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلينَ﴾ [الصافات : ٨٣ - ٩٨].

يخبر اللَّه تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام : أنَّه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها فقَال : ﴿ مَا هَذه التَّمَاثيلُ التي أَنتُمْ لَهَا عَاكفُونَ﴾ [الأنبياء :٥٢] أي معتكفون عندها وخاضعون لها قَالُوا : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابدينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٣] مَا كَانَ حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد ومَا كانوا عليه منْ عبادة الأنداد ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وآبَاؤُكُم في ضَلال مُّبين ﴾ [الأنبياء : ٥٤] كمَا قَالَ تعالى : ﴿ إذْ قَالَ لأَبيه وقَوْمه مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَئفكاً آلهَةً دُونَ اللَّه تُريدُونَ . فَمَا ظَنُّكُم بربِّ العَالَمينَ ﴾ [الصافات : ٨٥-٨٧] قَالَ قتادة : فمَا ظنكم به أنَّه فاعل بكم إذَا لقيتموه وقد عبدتم غيره وقَالَ لهم : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٧٢-٧٤] سلموا له أنها لا تسمع داعيا ولا تنفع ولا تضر شيئا وإنّما الحامل لهم على عبادها الاقتداء بأسلافهم ومنْ هُوَ مثلهم في الضلال منْ الآباء الجهال ولهذا قَالَ لهم : ﴿ أَفرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إلاَّ رَبَّ العَالَمينَ ﴾ [الشعراء : ٧٥ - ٧٧] وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية مَا ادعوه منْ الأصنام لأنه تبرأ منها وتنقص بها فلو كانت تضر لضرته أو تؤثر لأثرت فيه ﴿قَالُوا أَجئْتَنَا بالْحَقِّ أَمْ أَنتَ منَ اللاَّعبينَ﴾ [الأنبياء : ٥٢] يقولون هذا الكلام الَّذي تقوله لنا وتنتقص به آلهتنا وتطعن بسببه في آبائنا تقوله محقا جادا فيه أم لاعبا ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَات والأَرْض الَذي فطَرَهُنَّ وأَنَا عَلَى ذَلكُم مِّنَ الشَّاهدينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٦] يعني بل أقول لكم ذلك جاداً محقا وإنّما إلهكم اللَّه الَّذي لا إله إلا هُوَ ربكم ورب كل شَيْء فاطر السَّمَوَات والأَرْض الخالق لهمَا على غير مثال سبق فهُوَ المستحق للعبادة وحده لا شريك له وأنا على ذلكم منْ الشاهدين. وقوله : ﴿ وتَاللَّه لأَكيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبرينَ﴾ [الأنبياء : ٥٧] أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم، قيل إنَّه قَالَ هذا خفية في نفسه ، وقَالَ ابن مسعود سمعه بعضهم وكَانَ لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقَالَ إنِّي سقيم كمَا قَالَ تعالى : ﴿ فَنظَرَ نَظْرَةً في النُّجُوم . فَقَالَ إنِّي سَقيمٌ ﴾ [الصافات : ٨٨ ، ٨٩]. عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده منْ إهانة أصنامهم ونصرة دين اللَّه الحق في بطلان مَا هم عليه منْ عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة. فلمّا خرجوا إلى عيدهم واستقر هُوَ في بلدهم ﴿ فَرَاغَ إلَى آلهَتهمْ ﴾ [الصافات : ٩١] أي ذهب إليها مسرعاً مستخفياً فوجدها في بهُوَ عظيم وقد وضعوا بين أيديها أنواعا منْ الأطعمة قرباناً إليها ﴿فقَالَ﴾ لها على سبيل التهكم والازدراء ﴿فَرَاغَ إلَى آلهَتهمْ فقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لا تَنطقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهمْ

ضَرْباً بالْيَمين﴾ [الصافات : ٩١ - ٩٣] لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدوم في يده كمَا قَالَ تعالى : ﴿**فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً** ﴾ [الأنبياء : ٥٨] أي حطاما كسرها كلها ﴿ **إلاَّ كَبيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إلَيْهِ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٥٨] قيل إنَّه وضع القدوم في يد الكبير إشارة إلى أنَّه غار أن تعبد معه هذه الصغار. فلمّا رجعوا منْ عيدهم ووجدوا مَا حل بمعبودهم ﴿ **قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بآلِهَتِنَا إنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٥٩].

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهُوَ مَا حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها منْ أرادها بسوء لكنهم قَالُوا منْ جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم : منْ فعل هذا بآلهتنا إنَّه لمنْ الظالمين ؟ ﴿ **قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبْرَاهِيمُ** ﴾ [الأنبياء : ٦٠] أي يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها فهُوَ المقيم عليها والكاسر لها. وعلى قول ابن مسعود أي يذكرهم بقوله ﴿ **وتَاللَّه لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٥٧] ﴿ **قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٦١] أي في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد لعلهم يشهدون مقالته ، ويسمعون كلامه ، ويعاينون مَا يحل به منْ الاقتصاص منه وكَانَ هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان مَا هم عليه كمَا قَالَ موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ **مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**﴾ [طه : ٥٩] فلمّا اجتمعوا وجاؤوا به كمَا ذكروا ﴿ **قَالُوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم. قَالَ بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ [الأنبياء : ٦٢، ٦٣] قيل معناه هُوَ الحامل لي على تكسيرها وإنما عرض لهم في القول ﴿ **فَاسْأَلُوهُمْ إن كَانُوا يَنطِقُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٦٣] وإنّما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات ﴿ **فَرَجَعُوا إلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٦٤] أي فعادوا على أنفسهم بالملامة فقَالُوا. : إنكَم أنتم الظالمون أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها ﴿ **ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ** ﴾ [الأنبياء:٦٥] قَالَ السدي : أي ثُمَّ رجعوا إلى الفتنة فعلى هذا يكون قوله : إنكم أنتم الظالمون أي في عبادها. وقَالَ قتادة : أدركت القوم حيرة سوء أي فأطرقوا ثُمَّ قَالُوا : ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٦٥] أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها فعند ذلك قَالَ لهم الخليل عليه السلام: ﴿ **أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً ولا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ [الأنبياء : ٦٦ ، ٦٧] كمَا قَالَ : ﴿ **فَأَقْبَلُوا إلَيْهِ يَزِفُّونَ** ﴾ [الصافات : ٩٤] قَالَ مجاهد يسرعون. قَالَ : ﴿ **أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ**﴾ [الصافات : ٩٥] أي كيف تعبدون أصنامًا أنتم تنحتونها منْ الخشب والحجارة وتصورونها وتشكلونها كمَا تريدون ﴿ **واللَّهُ خَلَقَكُمْ ومَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الصافات : ٩٦] وسواء كانت مَا مصدرية أو بمعنى الَّذي فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة فكيف يتعبد مخلوق لمخلوق مثله ؟ فإنَّه ليس عبادتكم لها بأولى منْ عبادها لكم وهذا باطل فالآخر باطل للتحكم إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له ﴿**قَالُوا ابْنُوا لَهُ**

بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾[الصافات:٩٧، ٩٨] عدلوا عن الجدال والمناظرة لَمَّا انقطعوا وغلبوا ولَمْ تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوقم وسلطانهم لينصروا مَا هم عليه منْ سفههم وطغيانهم فكادهم الرب جلّ جلاله وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كمَا قَالَ تعالى:﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾[الأنبياء : ٦٨-٧٠] وذلك أنهم شرعوا يجمعوا حطبا منْ جميع مَا يمكنهم منْ الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذَا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم. ثُمَّ عمدوا إلى جوبة [1] عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النَّار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط. ثُمَّ وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق صنعه لهم رجل منْ الأكراد يقال له : هزن وكَانَ أول منْ صنع المجانيق فخسف اللَّه به الأَرْض فهُوَ يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ثُمَّ أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهُوَ يقول : " لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك " . فلمّا وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفا ثُمَّ ألقوه منه إلى النَّار قَالَ : " حسبنا اللَّه ونعم الوكيل " . كمَا روى البخاري عن ابن عباس أنَّه قَالَ : " حسبنا اللَّه ونعم الوكيل ". قالها إبراهيم حين ألقي في النَّار. وقالها محمد حين قيل له : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ.فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ واللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٧٣، ١٧٤] الآية.

وقَالَ أبو يعلى : حدثنا أبو هشام الرفاعي حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي جعفر الرازي عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة قَالَ : قَالَ ﷺ: « **لمَا ألقي إبراهيم في النَّار قَالَ اللهم إنك في السَّمَاء واحد وأنا في الأَرْض واحد أعبدك** » .

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء ، فقَالَ : ألك حاجة ؟ فقَالَ أمّا إليك فلا . ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير ، أنَّه قَالَ : جعل ملك المطر يقول متى أومر فأرسل المطر ؟ فكَانَ أمر اللَّه أسرع . ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء : ٦٩] قَالَ علي بن أبي طالب . أي لا تضريه .

وقَالَ ابن عباس وأبو العالية : لولا أن اللَّه قَالَ : وسلاما على إبراهيم لأذى إبراهيم بردها.

وقَالَ كعب الأحبار : لم ينتفع أهل الأَرْض يومئذ بنار ولم يحرق منه سوى وثاقه.

وقَالَ الضحاك : يروى أن جبريل عليه السلام كَانَ معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شَيْء غيره .

وقَالَ السدي : كَانَ معه أيضا ملك الظل. وصار إبراهيم عليه السلام في ميل الجوبة حوله النَّار وهُوَ في روضة خضراء ، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ولا هُوَ يخرج

(١) جوبة : فجوة كما في اللسان.

إليهم فعن أبي هريرة أنّه قَالَ : أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قَالَ لَمَا رأى ولده على تلك الحال : نعم الرب ربك يا إبراهيم .

وروى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام ، فنادته يا بني إنّي أريد أن أجيء إليك فادع اللّه أن ينجيني منْ حر النّار حولك ، فقَالَ : نعم فأقبلت إليه لا يمسها شَيْء منْ حر النار. فلمّا وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثُمَّ عادت.

وعن المنهال بن عمرو أنّه قَالَ : أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إمّا أربعين وإمّا خمسين يومًا . وأنّه قَالَ : مَا كنت أياما وليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها صلوات اللّه وسلامه عليه . فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا . وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا. قَالَ اللّه تعالى : ﴿**وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ**﴾ [الأنبياء : ٧٠] وفي الآية الأخرى ﴿ **الأَسْفَلِينَ**﴾ [الصافات:٩٨] ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدُّنْيَا . وأمّا في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا ولا سلاما ولا يلقون فيها تحية ولا سلاما بل هي كمَا قَالَ تعالى:﴿**إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً**﴾ [الفرقان : ٦٦] .

قَالَ البخاري : حدثنا عبد اللّه بن موسى أو ابن سلام عنه أنبأنا ابن جريج عن عبد الحميد ابن جبير عن سعيد بن المسيب عن أم شريك أن رسول اللّه ﷺ أمر بقتل الوزغ . وقَالَ : وكَانَ ينفخ على إبراهيم [1] . ورواه مسلم منْ حديث ابن جريج. وأخرجاه النسائي وابن ماجه منْ حديث سفيان بن عيينة كلاهمَا عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة به.

وقَالَ أحمد : حدثنا محمد بن بكر حدثنا ابن جريج أخبرني عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبي أمية أن نافعا مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول اللّه ﷺ قَالَ : « **اقتلوا الوزغ فإنّه كَانَ ينفخ النّار على إبراهيم** » [2] قَالَ : فكانت عائشة تقتلهن .

وقَالَ أحمد : حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن نافع أن امرأة دخلت على عائشة فإذَا رمح منصوب فقالت : مَا هذا الرمح فقالت : نقتل به الأوزاغ. ثُمَّ حدثت عن رسول اللّه ﷺ : « **أن إبراهيم لَمَا ألقي في النّار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ فإنّه جعل ينفخها عليه** »[3]. تفرد به أحمد منْ هذين الوجهين .

وقَالَ أحمد : حدثنا عفان حدثنا جرير . حدثنا نافع . حدثتني سمامة مولاة الفاكه بن المغيرة . قالت : دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحا موضوعا فقلت : يا أم المؤمنين مَا تصنعين بهذا الرمح . قالت : هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به فإن رسول اللّه ﷺ حدثنا « **أن إبراهيم**

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري (٣٣٥٩) ومسلم (٢٢٣٧ / ١٤٣) .
(٢) **صحيح** : رواه أحمد (٢٥٥١٩) قلت : الوزغ : ضرب : نوع من الزواحف ، دويبات .
(٣) **صحيح** : رواه أحمد (٢٥٧٠٣) .

حين ألقي في النّار لم يكن في الأرْض دابة إلا تطفئ عنه النّار غير الوزغ كَانَ ينفخ عليه » فأمرنا رسول اللّه ﷺ بقتله »[1]. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن جرير بن حازم به.

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع منْ ادَّعى الربوبيَّة

وهُوَ أحدُ العبيد الضعفاء

قَالَ اللّه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الّذي ادعى لنفسه الربوبية فأبطل الخليل عليه السلام دليله وبين كثرة جهله وقلة عقله وألجمه الحجة وأوضح له طريق المحجة.

قَالَ المفسرون وغيرهم منْ علماء النسب والأخبار : وهذا الملك هُوَ ملك بابل ، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح قاله مجاهد. وقَالَ غيره : نمرود بن فالح بن عابر ابن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح. قَالَ مجاهد وغيره : وكَانَ أحد ملوك الدُّنْيَا ، فإنَّه قد ملك الدُّنْيَا فيمَا ذكروا أربعة مؤمنان وكافران. فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان. والكافران النمرود ، وبختنصر ، وذكروا : أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة وكَانَ قد طغى وبغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا. ولَمَّا دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع فحاج إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية فلمّا قَالَ الخليل : ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

قَالَ قتادة ، والسدي ، ومحمد بن إسحاق : يعني أنَّه إذَا أوتي بالرجلين قد تحتم قتلهمَا فإذَا أمر بقتل أحدهمَا وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر. وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هُوَ كلام خارج عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة بل هُوَ تشغيب محض وهُوَ انقطاع في الحقيقة فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات منْ إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الّذي لابد منْ استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها ولابد منْ فاعل لهذه الحوادث المشاهدة منْ خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة . ثُمَّ إماتتها ولهذا ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] فقول هذا الملك الجاهل : أنا أحيي وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدة فقد كابر وعاند وإن عنى مَا ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئا يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل.

ولَمَّا كَانَ انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير منْ الناس ممنْ حضره وغيرهم ذكر دليلا آخر بين وجود الصانع وبطلان مَا ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢٤٨٣٤) وابن ماجه (٣٢٣١) .

يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] أي هذه الشَّمْس مسخرة كل يوم تطلع منْ المشرق كمَا سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها. وهُوَ اللَّه الَّذي لا إله إلا هُوَ خالق كل شيء. فإن كانت كمَا زعمت منْ أنك الَّذي تحيي وتميت فأت بهذه الشَّمْس منْ المغرب فإن الَّذي يحيي ويميت هُوَ الَّذي يفعل مَا يشاء ولَا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شَيْء ودان له كل شَيْء فإن كنت كمَا تزعم فافعل هذا فإن لم تفعله فلست كمَا زعمت وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شَيْء منْ هذا بل أنت أعجز وأقل منْ أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها فبين ضلاله وجهله وكذبه فيمَا ادعاه وبطلان مَا سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ولم يبق له كلام يجيب الخليل به بل امتنع وسكت ولهذا قَالَ : **﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** [البقرة : ٢٥٨].

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج منْ النَّار ، ولم يكن اجتمع به يومئذ فكانت بينهمَا هذه المناظرة. وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن زيد ابن أسلم : أن النمرود كَانَ عنده طعام ، وكَانَ الناس يفدون إليه للميرة فوفد إبراهيم في جملة منْ وفد للميرة فكَانَ بينهمَا هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم منْ الطعام كمَا أعطي الناس بل خرج وليس معه شَيْء منْ الطعام. فلمّا قرب منْ أهله عمد إلى كثيب منْ التراب فملأ منه عدليه ، وقَالَ : أشغل أهلي إذَا قدمت عليهم فلمّا قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهمَا ملآنين طعاما طيباً فعملت منه طعاماً. فلمّا استيقظ إبراهيم وجد الَّذي قد أصلحوه فقَالَ : أنى لكم هذا ؟ قالت : منْ الَّذي جئت به فعرف أنَّه رزق رزقهموه اللَّه عزّ وجلّ . قَالَ زيد بن أسلم : وبعث اللَّه إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان باللَّه فأبى عليه. ثُمَّ دعاه الثانية فأبى عليه. ثُمَّ الثالثة فأبى عليه. وقَالَ : اجمع جموعك وأجمع جموعي فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشَّمْس ، فأرسل اللَّه عليه ذبابا منْ البعوض بحيث لم يروا عين الشَّمْس وسلطها اللَّه عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظَاماً بادية ودخلت واحدة منها في منخر الملك فمكثت في منخره أربعمائة سنة عذبه اللَّه تعالى بها فكَانَ يضرب رأسه بالمزارب [1] في هذه المدة كلها حتى أهلكه اللَّه عزّ وجلّ بها.

هجرة الخليل إلى بلاد الشام ثُمَّ الديّار المصرية

واستقراره في الأَرْض المقدسة

قَالَ اللَّه تعالى : **﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وقَالَ إنِّي مُهَاجِرٌ إلَى رَبِّي إنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . ووَهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ ويَعْقُوبَ وجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ والْكِتَابَ وآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وإنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾** [العنكبوت : ٢٦ ، ٢٧] .

وقَالَ الله تعالى : **﴿ ونَجَّيْنَاهُ ولُوطاً إلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ . ووَهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ ويَعْقُوبَ نَافِلَةً وكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ . وجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وأَوْحَيْنَا إلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وإقَامَ**

---

(١) المزارب : مسيل الماء .

﴿الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٧١ - ٧٣] لَمّا هجر قومه في اللّه وهاجر منْ بين أظهرهم ، وكانت امرأته عاقرا لا يولد لها و لم يكن له منْ الولد أحد بل معه ابن أخيه لوط ابن هاران بن آزر وهبه اللّه تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل في ذريته النبوة والكتاب فكل نبي بعث بعده فهُوَ منْ ذريته ، وكل كتاب نزل منْ السَّمَاء على نبي منْ الأنبياء منْ بعده فعلى أحد نسله وعقبه خلعة منْ اللّه وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن فيها منْ عبادة ربه عزّ وجلّ . ودعوة الخلق إليه والأَرْض التي قصدها بالهجرة أرض الشام وهي التي قَالَ اللّه عزّ وجلّ : ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ٧١] قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم. وروى العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:٧١] مكة ألم تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٦] .

وزعم كعب الأحبار أنها حران. وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب أنه خرج منْ أرض بابل هُوَ وابن أخيه لوط وأخوه ناحور وامرأة إبراهيم سارة وامرأة أخيه ملكا فنـــزلوا حران فمات تارح أبو إبراهيم بها .

وقَالَ السدي : انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها على أن لا يغيرها رواه ابن جرير وهُوَ غريب. والمشهور أنها ابنة عمه هاران الَّذي تنسب إليه حران . ومنْ زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كمَا حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش فقد أبعد النجعة وقَالَ : بلا علم وادعى أن تزويج بنت الأخ كَانَ إذ ذاك مشروعا فليس له على ذلك دليل. ولو فرض أن هذا كَانَ مشروعا في وقت كمَا هُوَ منقول عن الربانيين منْ اليهود فإن الأنبياء لا تتعاطاه واللّه أعلم. ثُمَّ المشهور أن إبراهيم عليه السلام لَمّا هاجر منْ بابل خرج بسارة مهاجراً منْ بلاده كمَا تقدم واللّه أعلم. وذكر أهل الكتاب أنّه لَمّا قدم الشام أوحى اللّه إليه إنِّي جاعل هذه الأَرْض لخلفك منْ بعدك فابتنى إبراهيم مذبحاً للّه شكراً على هذه النعمة وضرب قبته شرقي بيت المقدس ثُمَّ انطلق مرتحلا إلى التيمنْ وإنّه كَانَ جوع أي قحط وشدة وغلاء فارتحلوا إلى مصر وذكروا قصة سارة مع ملكها وأن إبراهيم قَالَ لها : قولي أنا أخته وذكروا إخدام الملك إياها هاجر. ثُمَّ أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمنْ يعني أرض بيت المقدس ومَا والاها ومعه دواب وعبيد وأموال.

وقد قَالَ البخاري : حدثنا محمد بن محبوب . حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبي هريرة قَالَ : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتان منهن في ذات اللّه قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات :٨٩] وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء :٦٣] وقَالَ : بينا هُوَ ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار منْ الجبابرة فقيل له : هاهنا رجل معه امرأة منْ أحسن الناس فأرسل إليه وسأله عنها ، فقَالَ : منْ هذه ؟ فقَالَ : أختي فأتى سارة . فقَالَ : يا سارة ليس على وجه الأَرْض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني فأرسل

إليها فلمّا دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ فقَالَ : ادعي اللّه لي ولا أضرك فدعت اللّه ، فأطلق . ثُمَّ تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقَالَ : ادعي اللّه لي ولا أضرك فدعت فأطلق فدعا بعض حجبته . فقَالَ : إنك لم تأتني بإنسان وإنّما أتيتني بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهُوَ قائم يصلي فأومأ بيده مهيم فقالت : رد اللّه كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر. قَالَ أبو هريرة : فتلك أمكم يا بني ماء السماء . تفرد به منْ هذا الوجه موقوفا[1].

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن علي الفلاس عن عبد الوهاب الثقفي عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قَالَ : « **إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات كل ذلك في ذات اللّه قوله** : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩] **وقوله** ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء :٦٣] **وبينمَا هُوَ يسير في أرض جبار منْ الجبابرة إذ نزل منـــزلا فأتى الجبار فقيل له : إنَّه قد نزل هاهنا رجل معه امرأة منْ أحسن الناس. فأرسل إليه فسأله عنها ، فقَالَ : إنها أختي فلمّا رجع إليها . قَالَ : إن هذا سألني عنك فقلت : إنك أختي وإنَّه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك وإنك أختي فلا تكذبيني عنده فانطلق بها فلمّا ذهب يتناولها أُخذ، فقَالَ : ادعي اللّه لي ولا أضرك فدعت له ، فأرسل فذهب يتناولها ، فأخذ مثلها أو أشد منها. فَقَالَ : ادعى اللّه لي ولا أضرك ، فدعت ، فأرسل ثلاث مرات فدعا أدنى حشمه ، فقَالَ: إنك لم تأتني بإنسان ولَكِن أتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر ، فجاءت وإبراهيم قائم يصلي . فلمّا أحس بها انصرف ، فقَالَ : مهيم ، فقالت : كفى اللّه كيد الظالم وأخذ مني هاجر** » . وأخرجاه منْ حديث هشام. ثُمَّ قَالَ البزار : لا نعلم أسنده عن محمد عن أبي هريرة إلا هشام ورواه غيره موقوفا.

وقَالَ الإمام أحمد : حدثنا علي بن حفص عن ورقاء هُوَ ابن عمر اليشكري عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قَالَ : قال رسول اللّه ﷺ : « **لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات. قوله حين دعي إلى آلهتهم : فقَالَ** : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:٨٩]. **وقوله** ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء :٦٣] **وقوله لسارة إنها أختي . قَالَ : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك منْ الملوك أو جبار منْ الجبابرة فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة منْ أحسن الناس قَالَ : فأرسل إليه الملك أو الجبار منْ هذه معك؟ قَالَ : أختي. قَالَ : فأرسل بها . قَالَ : فأرسل بها إليه ، وقَالَ : لا تكذبي قولي : فإِنِّي قد أخبرته أنك أختي إن ليس على الأَرْض مؤمن غيري وغيرك فلمّا دخلت عليه قام إليها فأقبلت توضأ وتصلي ، وتقول : "اللهم إن كنت تعلم إِنِّي آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر" . قَالَ : فغط حتى ركض برجله** » قَالَ أبو الزناد : قَالَ أبو سلمة بن عبد الرحمن بن أبي هريرة : إنها قالت اللهم : « إن يمت يقال : هي قتلته . قَالَ : فأرسل . قَالَ : ثُمَّ قام إليها . قَالَ : فقامت توضأ وتصلي، وتقول اللهم إن كنت تعلم أنِّي آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر » قَالَ : فغط حتى ركض برجله . قَالَ أبو الزناد : وقَالَ أبو

---

(١) رواه البخارى (٣٣٥٨) كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلاً** ﴾ .

سلمة عن أبي هريرة : أنها قالت : « اللهم إن يمت يقل : هي قتلته . قَالَ : فأرسل . قَالَ: فقَالَ في الثالثة أو الرابعة : مَا أرسلتم إلي إلا شيطانا أرجعوها إلى إبراهيم ، وأعطوها هاجر . قَالَ : فرجعت . فقالت لإبراهيم : أشعرت أن اللّه رد كيد الكافرين وأخدم وليدة[1]. تفرد به أحمد منْ هذا الوجه وهُوَ على شرط صحيح.

وقد رواه البخاري عن أبي اليمان عن شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ به مختصرا. وقَالَ ابن أبي حاتم : حدثنا أبي . حدثنا سفيان عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد قَالَ : قَالَ رسول اللّه ﷺ : « **في كلمات إبراهيم الثلاث التي مَا قَالَ منها كلمة إلا مَاحل بها عن دين اللّه فقَالَ** : ﴿ **إِنِّي سَقِيمٌ** ﴾ [الصافات:٨٩] **وقَالَ** : ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** ﴾ [الأنبياء:٦٣] **وقَالَ للملك حين أراد امرأته: هي أختي** » فقوله في الحديث: « **هي أختي** ». أي في دين اللّه ، وقوله لها : « **إنه ليس على وجه الأرْض مؤمن غيري وغيرك** » يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك. ويتعين حمله على هذا لأن لوطا كَانَ معهم وهُوَ نبي عليه السلام، وقوله لها لَمَا رجعت إليه : « **مهيم** » معناه مَا الخبر ؟ فقالت : إن اللّه رد كيد الكافرين ، وفي رواية الفاجر وهُوَ الملك وأخدم جارية وكَانَ إبراهيم عليه السلام منْ وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلي للّه عزّ وجلّ ، ويسأله أن يدفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الّذي أراد أهله بسوء . وهكذا فعلت هي أيضا فلمّا أراد عدو اللّه أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها ودعت اللّه عزّ وجلّ بمَا تقدم منْ الدعاء العظيم ولهذا قَالَ تعالى: ﴿**واستعينوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ**﴾ [البقرة:٤٥] فعصمها اللّه، وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة : سارة. وأم موسى. ومريم عليهن السلام. والّذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي اللّه عنهن وأرضاهن. ورأيت في بعض الآثار: أن اللّه عزّ وجلّ كشف الحجاب فيمَا بين إبراهيم عليه السلام وبينها فلم يزل يراها منذ خرجت منْ عنده إلى أن رجعت إليه وكَانَ مشاهدا لها وهي عند الملك ، وكيف عصمها اللّه منه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته فإنَّه كَانَ يحبها حبا شديدا ، لدينها ، وقرابتها منه ، وحسنها الباهر . فإنَّه قد قيل إنَّه لم تكن امرأةً بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رضي اللّه عنها. وللّه الحمد والمنة.

وذكر بعض أهل التواريخ : أن فرعون مصر هذا كَانَ أخا للضحاك الملك المشهور بالظلم، وكَانَ عاملا لأخيه على مصر. ويقال : كَانَ اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج بن عملاق ابن لاود بن سام بن نوح. وذكر ابن هشام في " التيجان " : أن الّذي أرادها عمرو بن امرئ القيس بن مايلون بن سبأ وكَانَ على مصر . نقله السهيلي فاللّه أعلم.

ثُمَّ إن الخليل عليه السلام رجع منْ بلاد مصر إلى أرض التيمنْ وهي الأرْض المقدسة التي كَانَ فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية . ثُمَّ إن لوطا عليه

(١) **صحيح** : رواه أحمد (٩٢١٣) .

السلام نزح بماله منْ الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور زغر فنـــزل بمدينة سدوم وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان . وكَانَ أهلها أشراراً كفارا فجاراً . وأوحى اللّه تعالى إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا وبشره بأن هذه الأرْض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض. وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل مَا كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية. يؤيد ذلك قول رسول اللّهﷺ : « **إن اللّه زوى لي الأرْض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي مَا زوى منها** »[1].

قَالُوا : ثُمَّ إن طائفة منْ الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلمّا بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلا . فاستنقذ لوطا عليه السلام واسترجع أمواله وقتل منْ أعداء اللّه ورسوله خلقا كثيرا وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شمالي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة وأظن مقام إبراهيم إنّما سمي لأنه كَانَ موقف جيش الخليل واللّه أعلم .

ثُمَّ رجع مؤيداً منصورا إلى بلاده وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين واستقر ببلاده صلوات اللّه وسلامه عليه .

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر

قال أهل الكتاب : إن إبراهيم عليه السلام سأل اللّه ذرية طيبة . وأن اللّه بشره بذلك . وأنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة قالت سارة لإبراهيم عليه السلام : إن الرب قد أحرمني الولد فأدخل على أمتي هذه لعل اللّه يرزقني منها ولدا فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام فحين دخل بها حملت منه قالوا : فلما حملت ارتفعت نفسها ، وتعاظمت على سيدتها . فغارت منها سارة . فشكت ذلك إلى إبراهيم ، فقال لها : افعلي بها ما شئت فخافت هاجر فهربت فنـــزلت عند عين هناك . فقال لها ملك من الملائكة ؛ لا تخافي فإن اللّه جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيراً . وأمرها بالرجوع ، وبشرها أنها ستلد ابنا وتسميه إسماعيل ويكون وحش الناس يده على الكل ويد الكل به ، ويملك جميع بلاد إخوته فشكرت اللّه عزّ وجلّ على ذلك. وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات اللّه وسلامه عليه . فإنه الذي سادت به العرب وملكت جميع البلاد غربا وشرقا وأتاها اللّه من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل وبركة رسالته ويمن بشارته وكماله فيما جاء به وعموم بعثته لجميع أهل الأرض.

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام قالوا : وولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة. ولما ولد إسماعيل أوحى اللّه إلى إبراهيم يبشره

---

(١) رواه مسلم : (٧١١٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض .

بإسحاق من سارة ، فخر للّه ساجداً . وقال له : قد استجبت لك في إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جداً كثيرا ويولد له اثنا عشر عظيما. وأجعله رئيساً لشعب عظيم وهذه أيضا بشارة بهذه الأمة العظيمة ، وهؤلاء الاثنا عشر عظيما : هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر المبشر بهم في حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ قال : « **يكون اثنا عشر أميراً** » ثم قال : كلمة لم أفهمها فسألت أبي ما قال : قال : « **كلهم من قريش** »[1] أخرجاه في الصحيحين. وفي رواية « **لا يزال هذا الأمر قائما** » وفي رواية : « **عزيزاً حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش** » فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة : أبو بكر . وعمر . وعثمان . وعلي. ومنهم : عمر بن عبد العزيز أيضا. ومنهم : بعض بني العباس وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسقاً بل لابد من وجودهم : وليس المراد الأئمة الاثنا عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم على بن أبي طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون ، فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية وأخمد نار الفتنة وسكن رحى الحروب بين المسلمين . والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور. وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هوس في الرؤوس وهذيان في النفوس لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم . ويقال : إن ولدها كان إذ ذاك رضيعا فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه . وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا ؟ فلم يجبها. فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له : اللّه أمرك بهذا ؟ . قال : نعم . قالت : فإذاً لا يضيعنا. وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمه اللّه في كتاب النوادر : أن سارة تغضبت على هاجر فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها . فأمرها الخليل : أن تثقب أذنيها ، وأن تخفضه ، فتبر قسمها. قال السهيلي : فكانت أول من اختتن من النساء ، وأول من ثقبت أذنها منهن ، وأول من طولت ذيلها .

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمّه هاجر إلى جبال فاران

وهي أرض مكّة وبنائه البيت العتيق

قَالَ البخاري : قَالَ عبد اللّه بن محمد – هُوَ أبو بكر بن أبي شيبة – حدثنا عبد الرزاق . حدثنا معمر عن أيوب السختياني ، وكثير بن المطلب بن أبي وداعة ، يزيد أحدهمَا على الآخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قَالَ : أول مَا اتخذ النساء المنطق منْ قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة ، ثُمَّ جاء بها إبراهيم ، وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهمَا عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد . وليس بمكة يومئذ أحد . وليس بها ماء .

---

(١) رواه البخارى (٧٢٢٢، ٧٢٢٣) .

فوضعهمَا هنا لك ، ووضع عندهمَا جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء . ثُمَّ قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الَّذي ليس به أنس ولا شَيْء؟. فقالت له ذلكِ مراراً وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آللَّه أمركَ بهذا ؟ قَالَ : نعم . قالت: إذَا لا يضيعنا. ثُمَّ رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذَا كَانَ عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثُمَّ دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه فقَالَ : ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [إبراهيم:٣٧] وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب منْ ذلك الماء حتى إذَا نفد مَا في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يلتوي أو قَالَ : يتلبط [١] فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأَرْض يليها فقامت عليه . ثُمَّ استقبلت الوادي تنظر . هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً فهبطت منْ الصفا حتى إذَا بلغت بطن الوادي رفعت طرف ذراعها . ثُمَّ سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذَا جاوزت الوادي ثُمَّ أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات. قَالَ ابن عباس قَالَ النبي ﷺ: « **فلذلك سعى الناس بينهما** » . فلمّا أشرفت على المروة سمعت صوتا ، فقالت : صه تريد نفسها. ثُمَّ تسمعت فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كَانَ عندك غواث فإذَا هي بالملك عند مؤضع زمزم فبحث بعقبه أو قَالَ : بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه ، وتقول : بيدها هكذا ، وجعلت تغرف منْ الماء في سقائها وهي تفور بعد مَا تغرف.

قَالَ ابن عباس : قَالَ النبي ﷺ : « **يرحم اللَّه أم إسماعيل لو تركت زمزم** » . أو قَالَ: « **لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا** » . فشربت وأرضعت ولدها ، فقَالَ لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيت اللَّه يبني هذا الغلام وأبوه وإن اللَّه لا يضيع أهله وكَانَ البيت مرتفعا منْ الأَرْض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة منْ جرهم أو أهل بيت منْ جرهم مقبلين منْ طريق كذا . فنــزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا [٢] ، فقَالُوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادي ومَا فيه ماء . فأرسلوا جريا أو جريين ، فإذَا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا قَالَ : وأم إسماعيل عند الماء فقَالُوا : تأذنين لنا أن ننــزل عندك . قالت : نعم ولَكن لا حق لكم في الماء . قَالُوا : نعم . قَالَ عبد اللَّه بن عباس : قَالَ النبي ﷺ : « **فألقى ذَلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنــزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنــزلوا معهم حتى إذَا كَانَ بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلمّا أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد مَا تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته ، فقالت: خرج يبتغي لنا. ثُمّ سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشر في ضيق وشدة وشكت إليه. قَالَ : فإذَا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي**

---

(١) لبط البعير : ضرب بقوائمه .

(٢) عائفا : باحثا عن الماء كما فى اللسان .

له : يغير عتبة بابه ، فلمّا جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً ، فقَالَ : هل جاءكم منْ أحد ؟ . فقالت : نعم . جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قَالَ : فهل أوصاك بشَيْء ؟ قالت : نعم . أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك : غير عتبة بابك . قَالَ : ذاك أبي وأمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك . فطلقها وتزوج منهم أخرى ولبث عنهم إبراهيم مَا شاء اللَّه. ثُمَّ أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته ، فسألها عنه ، فقَالَ : خرج يبتغي لنا . قَالَ : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير ، وسعة ، وأثنت على اللَّه . فقَالَ : مَا طعامكم؟ قالت : اللحم . قَالَ: فمَا شرابكم ؟ قالت : الماء. قَالَ : اللهم بارك لهم في اللحم والماء» .

قَالَ النبي ﷺ « **ولم يكن لهم يومئذ حب. ولو كَانَ لهم حب لدعا لهم فيه فهمَا لا يخلو عليهمَا أحد بعين مكة إلا لم يوافقاه قَالَ : فإذَا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلمّا جاء إسماعيل . قَالَ : هل أتاكم منْ أحد ؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه . فسألني عنك ، فأخبرته ، فسألني : كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير قَالَ : فأوصاك بشيء . قالت : نعم ، هُوَ يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قَالَ : ذاك أبي ، وأمرني أن أمسكك . ثُمَّ لبث عنهم مَا شاء اللَّه . ثُمَّ جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا منْ زمزم فلمّا رآه قام إليه . فصنعا كمَا يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد. ثُمَّ قَالَ : يا إسماعيل إن اللَّه أمرني بأمر . قَالَ : فاصنع مَا أمرك به ربك . قَالَ: وتعينني. قَالَ : وأعينك. قَالَ : فإن اللَّه أمرني أن أبني هاهنا بيتا. وأشار إلى أكمة مرتفعة على مَا حولها. قَالَ : فعند ذلك رفعا القواعد منْ البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذَا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر ، فوضعه له ، فقام عليه وهُوَ يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهمَا يقولان :﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [البقرة :١٢٧] قَالَ : وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهمَا يقولان : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧] »** [١].

ثُمَّ قَالَ : حدثنا عبد اللَّه بن محمد ، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو . حدثنا إبراهيم ابن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قَالَ : لَمَا كَانَ منْ إبراهيم وأهله مَا كَانَ خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء [٢]. وذكر تمامه بنحو مَا تقدم وهذا الحديث منْ كلام ابن عباس ، وموشح برفع بعضه وفي بعضه غرابة وكأنه ممَا تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات. وفيه : أن إسماعيل كَانَ رضيعا إذ ذاك. وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره اللَّه بأن يختن ولده إسماعيل ، وكل منْ عنده منْ العبيد ، وغيرهم فختنهم وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة منْ عمره فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة وهذا امتثال لأمر اللَّه عزّ وجلّ في أهله فيدل على أن فعله على وجه الوجوب لهذا كَانَ الصحيح منْ أقوال العلماء : إنَّه واجب على الرجال كمَا هُوَ مقرر في موضعه .

---

(١) رواه البخارى (٣٣٦٤) .

(٢) رواه البخارى (٣٣٦٥) .

وقد ثبت في الحديث الَّذي رواه البخاري ؛ حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قَالَ : قَالَ النبي ﷺ : « **اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهُوَ ابن ثمانين سنة بالقدوم** » [(١)]. تابعه عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي الزناد ، وتابعه عجلان عن أبي هريرة ، ورواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة. وهكذا رواه مسلم عن قتيبة به. وفي بعض الألفاظ : « **اختتن إبراهيم بعد مَا أتت عليه ثمانون سنة ، واختتن بالقدوم** » . والقدوم هُوَ الآلة ، وقيل : موضع ، وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين. واللّه أعلم لَما سيأتي منْ الحديث عند ذكر وفاته .

وعن أبي هريرة عن رسول اللّه ﷺ أنّه قَالَ : « **اختتن إبراهيم وهُوَ ابن مائة وعشرين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة** » . رواه ابن حبان في صحيحه. وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وإنَّه إسماعيل و لم يذكر فيه قدمات [(٢)] إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث مرات : أولاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر . وكيف تركهم منْ حين صغر الولد على مَا ذكر إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم. وقد ذكر أن الأَرْض كانت تطوى له ، وقيل : إنَّه كَانَ يركب البراق إذَا سار إليهم فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة. وكَانَ بعض هذا السياق متلقى منْ الإسرائيليات ومطرز بشَيْء منْ المرفوعات و لم يذكر فيه قصة الذبيح . وقد دللنا على أن الذبيح هُوَ إسماعيل على الصحيح في سورة الصافات.

قصَّة الذبيح

قَالَ اللّه تعالى: ﴿ **وقَالَ إنِّي ذَاهِبٌ إلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . ونَادَيْنَاهُ أَن يَا إبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ . إنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ . وفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلامٌ عَلَى إبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ . إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ . وبَشَّرْنَاهُ بِإسْحَاقَ نَبِياً مِّنَ الصَّالِحِينَ. وبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعَلَى إسْحَاقَ ومِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ** ﴾.[الصافات:٩٩-١١٣].

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنَّه لَما هاجر منْ بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولداً صالحا فبشره اللّه تعالى بغلام حليم وهُوَ إسماعيل عليه السلام لأنه أول منْ ولد له على رأس ست وثمانين سنة منْ عمر الخليل. وهذا مَا لا خلاف فيه بين أهل الملل لأنه أول ولده وبكره، وقوله: ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ** ﴾ [الصافات: ١٠٢] أي شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه.قَالَ مجاهد: ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ** ﴾ [الصافات:١٠٢] أي شب وارتحل وأطاق مَا يفعله أبوه منْ السعي والعمل. فلمّا كَانَ هذا رئي إبراهيم عليه السلام في المنام أنَّه يؤمر بذبح ولده. هذا. وفي الحديث

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٣٥٦) و مسلم (٢٣٧٠ / ١٥١) .

(٢) قدمات : المراد منا المراث التى قدم إبراهيم على إسماعيل .

عن ابن عباس مرفوعا « **رؤيا الأنبياء وحي** » . قاله عبيد بن عمير أيضا . وهذا اختبار منْ اللَّه عز وجل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الَّذي جاءه على كبر وقد طعن في السن بعد مَا أمر بأن يسكنه هُوَ وأمه في بلاد قفر ، وواد ليس به حسيس [١] ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل أمر اللَّه في ذلك وتركهمَا هناك ثقة باللَّه وتوكلا عليه فجعل اللَّه لهمَا فرجا ومخرجا ورزقهمَا منْ حيث لا يحتسبان. ثُمَّ لَمَا أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الَّذي قد أفرده عن أمر ربه وهُوَ بكره ووحيده الَّذي ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته . ثُمَّ عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه منْ أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى** ﴾ [الصافات: ١٠٢] فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال:﴿**قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٢] وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد قَالَ اللَّه تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ** ﴾ [الصافات: ١٠٣] قيل : أسلمَا أي استسلمَا لأمر اللَّه وعزمَا على ذلك. وقيل . هذا منْ المقدم والمؤخر والمعنى: ﴿ **وتَلَّهُ لِلْجَبِينِ** ﴾ أي ألقاه على وجهه. قيل : أراد أن يذبحه منْ قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك. وقيل بل أضجعه كمَا تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لاصقا بالأَرْض و ﴿ **أَسْلَمَا** ﴾ أي : سمى إبراهيم وكبر وتشهد الولد للموت . قَالَ السدي وغيره : أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئا ويقال: جعل بينها وبين حلقه صفيحة منْ نحاس واللَّه أعلم. فعند ذلك نودي منْ اللَّه عزّ وجلّ: ﴿ **أن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا** ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥] أي : قد حصل المقصود منْ اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك وبذلت ولدك للقربان كمَا سمحت ببدنك للنيران وكمَا مالك مبذول للضيفان ولهذا قَالَ تعالى:﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ**﴾ [الصافات: ١٠٦] أي الاختبار الظاهر البين.

وقوله : ﴿ **وفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الصافات: ١٠٧] أي وجعلنا فداء ذبح ولده مَا يسره اللَّه تعالى له منْ العوض عنه والمشهور عن الجمهور أَنَّه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطا بسمرة في ثبير. قَالَ الثوري عن عبد اللَّه بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : قَالَ : كبش قد رعى في الْجَنَّة أربعين خريفا . وقَالَ سعيد بن جبير كَانَ يرتع في الْجَنَّة حتى تشقق عنه ثبير وكَانَ عليه عهن [٢] أحمر .

وعن ابن عباس : هبط عليه منْ ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهُوَ الكبش الَّذي قربه ابن آدم فتقبل منه رواه ابن أبي حاتم.

قَالَ مجاهد : فذبحه بمنى ، وقَالَ عبيد بن عمير : ذبحه بالمقام. فأمَّا مَا روي عن ابن عباس أَنَّه كَانَ وعلا . وعن الحسن أَنَّه كَانَ تيسا منْ الأروى. واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما. ثُمَّ

---

(١) الحسيس : الصوت الخفى كما فى اللسان.

(٢) العهن : الصوف .

غالب مَا هاهنا منْ الآثار مأخوذ منْ الإسرائيليات. وفي القرآن كفاية عمّا جرى منْ الأمر العظيم والاختبار الباهر وأنّه فدي بذبح عظيم ، وقد ورد في الحديث أنّه كَانَ كبشا.

قَالَ الإمام أحمد : حدثنا سفيان . حدثنا منصور عن خاله نافع عن صفية بنت شيبة . قالت : أخبرتني امرأة منْ بني سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت : أرسل رسول اللّه ﷺ إلى عثمان بن طلحة ؛وقَالَت مرة : إلها سألت عثمان لم دعاك رسول اللّه ﷺ قَالَ : قال لي رسول الله ﷺ : « **إنّي كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنّه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي** »[1] قَالَ سفيان : لم تزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا.

وهذا روي عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقا عند ميزاب الكعبة قد يبس وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كَانَ هُوَ المقيم بمكة. وإسحاق لا نعلم إنّه قدمها في حال صغره واللّه أعلم.

وهذا هُوَ الظاهر منْ القرآن بل كأنه نص على أن الذبيح هُوَ إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثُمَّ قَالَ بعده : ﴿ **وبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِياً مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [الصافات : ١١٢] ومنْ جعله حالا فقد تكلف ومستنده إنّه إسحاق إنّما هُوَ إسرائيليات وكتابهم فيه تحريف ولا سيمَا هاهنا قطعا لا محيد عنه فإن عندهم أن اللّه أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفي نسخة منْ المعربة بكره إسحاق ، فلفظة إسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة لأنه ليس هُوَ الوحيد ولا البكر. ذاك إسماعيل. وإنّما حملهم على هذا حسد العرب فإن إسماعيل أبو العرب الّذينَ يسكنون الحجاز الّذينَ منهم رسول اللّه ﷺ ، وإسحاق والد يعقوب وهُوَ إسرائيل الذى ينتسبون إليه فأرادوا أنَ يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام اللّه وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد اللّه يؤتيه منْ يشاء .

وقد قَالَ بأنه إسحاق طائفة كثيرة منْ السلف وغيرهم. وإنّما أخذوه واللّه أعلم منْ كعب الأحبار . أو من صحف أهل الكتاب . وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز . ولا يفهم هذا منْ القرآن بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنّه إسماعيل . ومَا أحسن مَا استدل محمد بن كعب القرظي على أنّه إسماعيل وليس بإسحاق منْ قوله : ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ومن ورَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** ﴾ [هود : ٧١] قَالَ فكيف تقع البشارة بإسحاق وإنّه سيولد له يعقوب ثُمَّ يؤمر بذبح إسحاق وهُوَ صغير قبل أن يولد له هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة واللّه أعلم .

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بمَا حاصله أن قوله : ﴿ **فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ** ﴾ [هود: ٧١] جملة تامة وقوله : ﴿**وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** ﴾ [هود : ٧١] جملة أخرى ليست

---

(١) **حسن**: رواه أحمد (٤ / ٦٨) رقم (١٦٥٩٠) .

في حيز البشارة قَالَ : لأنه لا يجوز منْ حيث العربية أن يكون مخفوضا إلا أن يعاد معه حرف الجر . فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومنْ بعده عمرو حتى يقال ومنْ بعده بعمر. وقَالَ فقوله : ﴿ ومنْ وراءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] منصوب بفعل مضمر تقديره : ﴿وَوَهَبْنَا لإِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ وفي هذا الَّذي قاله نظر. ورجح أَنَّه إسحاق واحتج بقوله ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] قَالَ : وإسماعيل لم يكن عنده إنّما كَانَ في حال صغره هُوَ وأمه بجبال مكة فكيف يبلغ معه السعي. وهذا أيضا فيه نظر لأنه قد روى أن الخليل كَانَ يذهب في كثير منْ الأوقات راكبا البراق إلى مكة يطلع على ولده وابنه ثُمَّ يرجع . واللَّه أعلم. فمنْ حكى القول عنه بأنه إسحاق كعب الأحبار. وروي عن عمر ، والعباس وعلي وابن مسعود ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن عمير وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبد اللَّه بن شقيق والزهري والقاسم وابن أبي بردة ومكحول وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبي الهذيل وابن سابط . وهُوَ اختيار ابن جرير وهذا عجب منه . وهُوَ إحدى الروايتين عن ابن عباس ولَكِن الصحيح عنه،وعن أكثر هؤلاء : أَنَّه إسماعيل عليه السلام. قَالَ مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس: هُوَ إسماعيل عليه السلام.

وقَالَ ابن جرير : حدثني يونس . أنبأنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أَنَّه قَالَ : المفدى إسماعيل وزعمت اليهود أَنَّه إسحاق وكذبت اليهود .

وقَالَ عبد اللَّه ابن الإمام أحمد عن أبيه هُوَ إسماعيل. وقَالَ ابن أبي حاتم : سألت أبي عن الذبيح فقَالَ الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام.

قَالَ ابن أبي حاتم : وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح أنهم قَالُوا : الذبيح هُوَ إسماعيل عليه السلام. وحكاه البغوي أيضا عن الربيع بن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء. قلت : وروي عن معاوية وجاء عنه أن رجلا قَالَ لرسول اللَّه : ﷺ يا ابن الذبيحين فضحك رسول اللَّه ﷺ. وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسار ، وكَانَ الحسن البصري يقول : لا شك في هذا. وقَالَ محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمد بن كعب : أنه حدثهم أَنَّه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهُوَ خليفة إذ كَانَ معه بالشام يعني استدلاله بقوله بعد العصمة ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] فقَالَ له عمر : إن هذا الشَيْء مَا كنت أنظر فيه وإِنِّي لأراه كمَا قلت ثُمَّ أرسل إلي رجل كَانَ عنده بالشام كَانَ يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكَانَ يرى أَنَّه منْ علمائهم قَالَ : فسأله عمر بن عبد العزيز أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقَالَ إسماعيل : واللَّه يا أمير المؤمنين وإن اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الَّذي كَانَ منْ أمر اللَّه فيه والفضل الَّذي ذكره اللَّه منه لصبره لَمَا أمر به . فهم يجحدون ذلك . ويزعمون أَنَّه إسحاق لأن إسحاق أبوهم.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها ، وآثارها في كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة.

ذكر مولد إسحاق عليه السلام

قَالَ اللَّه تعالى : ﴿ وبَشَّرْنَاهُ بِإسْحَاقَ نَبِياً مِّنَ الصَّالِحِينَ . وبَارَكْنَا عَلَيْه وعَلَى إسْحَاقَ ومن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وظَالِمٌ لِّنفْسه مُبِينٌ ﴾. [الصافات : ١١٢ ، ١١٣] وقد كانت البشارة به منْ الملائكة لإبراهيم وسارة لَمَّا مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم كمَا سيأتي بيانه في موضعه إن شاء اللَّه تعالى .

قَالَ اللَّه تعالى : ﴿ ولَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بعجْلٍ حَنِيذ . فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصلُ إلَيْه نَكِرَهُمْ وأَوْجَسَ منْهُمْ خيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إنَّا أُرْسِلْنَا إلَى قَوْمِ لُوط . وامْرَأَتُهُ قَائمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإسْحَاقَ ومن وراء إسْحَاقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ يَا ويْلَتَى أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ وهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود :٦٩-٧٣] .

وقَالَ تعالى : ﴿ ونَبِّئْهُمْ عَن ضَيْف إبْرَاهِيمَ . إذْ دَخَلُوا عَلَيْه فقَالُوا سَلاماً قَالَ إنَّا منكُمْ وجلُونَ . قَالُوا لا تَوْجَلْ إنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ.قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ.قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ القَانِطِينَ . قَالَ ومَن يَقْنَطُ من رَّحْمَة رَبِّه إلاَّ الضَّالُّونَ﴾[الحجر:٥١-٥٦] .

وقَالَ تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إذْ دَخَلُوا عَلَيْه فقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ . فَرَاغَ إلَى أَهْلِه فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فقَرَّبَهُ إلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ فاقبلت امرأته فى صرة فضحكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ [الذاريات ٢٤ — ٣٠] .

يذكر تعالى أن الملائكة قَالُوا : وكانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، لَمَا وردوا على الخليل حسبهم أضيافا فعاملهم معاملة الضيف وشوى لهم عجلاً سميناً منْ خيار بقره فلمّا قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية. وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام. فنكرهم إبراهيم ﴿ وأَوْجَسَ منْهُمْ خيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إنَّا أُرْسِلْنَا إلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : ٧٠]. أي لندمر عليهم . فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا للّه عليهم، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كمَا جرت به عادة الناس منْ العرب وغيرهم فلمّا ضحكت استبشاراً بذلك قَالَ اللَّه تعالى : ﴿ فبَشَّرْنَاهَا بِإسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود:٧١] أي بشرتها الملائكة بذلك ﴿فَأَقْبَلَت امْرَأَتُهُ فِي صَرَّة ﴾ [الذاريات : ٢٩] أي في صرخة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات : ٢٩] أي كمَا يفعل النساء عند التعجب و﴿ قَالَتْ يَا ويْلَتَى أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ وهَذَا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ [هود : ٧٢] أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضاً وهذا بعلي أي زوجي شيخاً ؟ ! تعجبت منْ وجود ولد والحالة هذه ولهذا قالت: ﴿ إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّه رَحْمَةُ اللَّه وبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود : ٧٢ ، ٧٣] وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه

البشارة وتثبيتا لها وفرحاً بها ﴿**قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ . قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ القَانِطِينَ**﴾ [الحجر:٥٤ ، ٥٥] أكدوا الخبر بهذه البشارة ، وقرروه معه فبشروهما : ﴿**بِغُلامٍ عَلِيمٍ**﴾ [الحجر:٥٣]. وهُوَ إسحاق وأخوه إسماعيل غلام حليم مناسب لمقامه وصبره، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر. وقَالَ في الآية الأخرى : ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾ [هود : ٧١] وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هُوَ إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق منْ العقب منْ بعده .

وعند أهل الكتاب أنَّه أحضر مع العجل الحنيذ وهُوَ المشوي رغيفا منْ مكة فيه ثلاثة أكيال وسمنْ ولبن. وعندهم أنهم أكلوا وهذا غلط محض. وقيل : كانوا يودون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى في الهواء. وعندهم أن اللَّه تعالى قَالَ لإبراهيم : أمّا سارا امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ولَكِن اسمها سارة ، وأبارك عليها ، وأعطيك منها ابناً وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه ، فخر إبراهيم على وجهه يعني ساجدا وضحك قائلا في نفسه أبعد مائة سنة يولد لي غلام . أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة. وقَالَ إبراهيم للَّه تعالى : ليت إسماعيل يعيش قدامك . فقَالَ اللَّه لإبراهيم: بحقي إن امرأتك سارة تلد لك غلاما وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين منْ قابل وأوثقه ميثاقي إلى الدهر ولخلفه منْ بعده وقد استجبت لك في إسماعيل وباركت عليه وكبرته ونميته جدا كثيرا ويولد له اثنا عشر عظيمًا وأجعله رئيسا لشعب عظيم .

وقد تكلمنا على هذا بمَا تقدم واللَّه أعلم. فقوله تعالى : ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾ [هود : ٧١] دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ثُمَّ منْ بعده يولد ولده يعقوب أي يولد في حياتهمَا لتقر أعينهمَا به كمَا قرت بولده. ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب . وتخصيص التنصيص عليه منْ دون سائر نسل إسحاق فائدة ، ولَما عين بالذكر دل على أنهمَا يتمتعان به ويسران بولده كمَا سرا بمولد أبيه منْ قبله وقَالَ تعالى : ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا**﴾ [الأنعام : ٨٤] .

وقَالَ تعالى:﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾ [مريم: ٤٩] .

وهذا إن شاء اللَّه ظاهر قوي ويؤيده مَا ثبت في الصحيحين منْ حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه عن أبي ذر قَالَ : قلت : يا رسول اللَّه أي مسجد وضع أول؟ قَالَ :« **المسجد الحرام** ». قلت : ثُمَّ أي؟ قَالَ: « **المسجد الأقصى** ». قلت : كم بينهمَا؟ قال:« **أربعون سنة** » . قلت : ثُمَّ أي ؟ قَالَ :« **ثُمَّ حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد** » [١].

وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هُوَ الَّذي أسس المسجد الأقصى وهُوَ مسجد إيليا بيت المقدس شرفه اللَّه. وهذا متجه ويشهد له مَا ذَكرناه منْ الحديث. فعلى هذا يكون بناء

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٣٦٦) ومسلم (٥٢٠ / ١) .

يعقوب وهُوَ إسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء. وقد كَانَ بناؤهُمَا ذلك بعد وجود إسحاق لأن إبراهيم عليه السلام لَمَا دعا قَالَ فِي دعائه: كمَا قَالَ تعالى : ﴿ وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمناً واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ . رَبِّ إنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإنَّهُ مِنِّي ومَنْ عَصَانِي فَإنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . رَّبَّنَا إنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . رَبَّنَا إنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي ومَا نُعْلِنُ ومَا يَخْفَى عَلَى اللَّه من شَيْءٍ فِي الأَرْضِ ولا فِي السَّمَاءِ . الحَمْدُ للَّه الَذي وهَبَ لي عَلَى الكِبَرِ إسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ إنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ . رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ ومن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وتَقَبَّلْ دُعَاءِ . رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ولِوَالِدَيَّ ولِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٣٥-٤١] . ومَا جاء فِي الحديث منْ أن سليمان بن داود عليهمَا السلام لَمَا بنى بيت المقدس سأل اللَّه خلالا ثلاثا [(١)] كمَا ذكرناه عند قوله : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ [ص : ٣٥] وكمَا سنورده فِي قصته فالمراد منْ ذلك واللَّه أعلم أنَّه جدد بناءه كمَا تقدم منْ أن بينهمَا أربعين سنة ولم يقل أحد : إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تقاسيمه وأنواعه وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه .

ذكر بناء البيت العتيق

قَالَ اللَّه تعالى : ﴿ وَإذْ بَوَّأْنَا لإبْرَاهِيمَ مَكَانَ البَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج : ٢٦ ، ٢٧] .

وقَالَ تعالى : ﴿ إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إبْرَاهِيمَ ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ولِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً ومَن كَفَرَ فَإنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦ ، ٩٧].

وقَالَ تعالى : ﴿ وإذِ ابْتَلَى إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَاماً قَالَ ومِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ . وإذْ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وأَمْناً واتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وعَهِدْنَا إلَى إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والْعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ . وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ واليوم الآخِرِ قَالَ ومَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلَى عَذَابِ النَّارِ وبِئْسَ المَصِيرُ . وإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (٢ ١٧٦) والنسائي (٢ / ٣٤) وابن حبان (١٦٣٣ ـــ إحسان) والحاكم (١ / ٣٠ ، ٣١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص وتمام الحديث قال ﷺ ((**أن سليمان بن داود سأل الله تبارك وتعالى ثلاثاً ، فأعطاه اثنتين ، وأرجو أن يكون قد أعطاه الثالثة . سأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه وسأله حكما يواطئ حكمه فأعطاه إياه ، وسأله من أتى هذا البيت يريد بيت المقدس ، لا يريد إلا الصلاة فيه أن يخرج منه كيوم ولدته أمه**)) فقال رسول الله ﷺ : ((**وأرجو أن يكون قد أعطاه الثالثة**)).

إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومن ذُرِّيَّتنا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وأَرِنَا مَناسكَنا وتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتكَ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾[البقرة:١٢٤-١٢٩] .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه أفضل صلاة وتسليم أَنَّه بنئ البيت العتيق الَّذِي هُوَ أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون اللَّه فيه وبوأه اللَّه مكانه أي أرشده إليه ودله عليه. وقد روينا عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب وغيره أَنَّه أرشد إليه بوحي منْ اللَّه عز وجل. وقد قدمنا في صفة خلق السَّمَوَات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث إِنَّه لو سقط لسقط عليها وكذلك معابد السَّمَوَات السبع. كمَا قَالَ بعض السلف : إن في كل سماء بيتا يعبد اللَّه فيه أهل كل سماء وهُوَ فيها كالكعبة لأهل الأَرْض . فأمر اللَّه تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتا يكون لأهل الأَرْض كتلك المعابد لملائكة السَّمَوَات ، وأرشده اللَّه إلى مكَانَ البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السَّمَوَات والأَرْض كمَا ثبت في الصحيحين « **أن هذا البلد حرمه اللَّه يوم خلق السَّمَوَات والأَرْض فهُوَ حرام بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة** » [1]. ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كَانَ مبنيا قبل الخليل عليه السلام. ومنْ تمسك في هذا بقوله مكَانَ البيت فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكانه المقدر في علم اللَّه المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضعه منْ لدن آدم إلى زمان إبراهيم.

وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قَالُوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافتْ به أربعين يومًا أو نحو ذلك ولَكِن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل. وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها ، فأمّا إن ردها الحق فهي مردودة. وقد قَالَ اللَّه تعالى : ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [آل عمران : ٩٦] أي أول بيت وضع لعموم الناس للبركة. والهدى البيت الَّذِي ببكة. قيل : مكة ، وقيل : محل الكعبة ﴿ **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ** ﴾ [آل عمران : ٩٧] أي على أَنَّه بناء الخليل والد الأنبياء منْ بعده وإمام الحنفاء منْ ولده الَّذينَ يقتدون به ويتمسكون بسنته ، ولهذا قَالَ : ﴿ **مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ** ﴾[آل عمران : ٩٧] أي الحَجر الَّذي كَانَ يقف عليه قائمًا لَمَا ارتفع البناء عن قامته فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لَمَا تعالى البناء وعظم الفناء كمَا تقدم في حديث ابن عباس الطويل. وقد كَانَ هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على مَا كَانَ عليه منْ قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه، فأخره عن البيت قليلا لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت . واتبع عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه في هذا. فإِنَّه قد وافقه ربه في أشياء منها في قوله لرسوله ﷺ : « لو اتخذنا منْ مقام إبراهيم مصلى » [2] فأنزل اللَّه : ﴿ **واتَّخِذُوا منْ مقَامِ إبراهيمَ مُصَلىً** ﴾ [البقرة : ١٢٨] وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام . وقد قَالَ أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة :

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣ / ٤٤٥) .

(٢) رواه البخارى (٤٤٨٣) كتاب التفسير - باب ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾.

وثور وَمَنْ أرسـى ثبيـراً مكانـه	وراقَ لبـرّ في حـراء ونــازل
وبالبيت حقُّ البيت منْ بطن مكـة	وباللّـه أنّ اللّهَ ليـس بغـافـلَ
وبالحجرِ المسـودِّ إذ يَمْسَحُونَـه	إذ اكتنفوهُ بالضُّحـى والأَصائـلِ
وموطئ إبراهيمَ في الصَّخْـر رطبـةً	عَلَى قَـدَمَيه حَافياً غيرَ ناعـلِ

يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا منتعلة ، ولهذا قَالَ تعالى:﴿**وإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْمَاعِيلُ**﴾[البقرة : ١٢٧] أي في حال قولهمَا ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ [البقرة : ١٢٧] فهمَا في غاية الإخلاص والطاعة للّه عز وجل وهمَا يسألان منْ اللّه السميع العليم أن يتقبل منهمَا مَا همَا فيه منْ الطاعة العظيمة والسعي المشكور ﴿ **رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ وأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة : ١٢٨].

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في واد غير ذي زرع ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا منْ الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار وأن يجعله حرمًا محرمًا وآمنا محتمًا ، فاستجاب اللّه وله الحمد له مسألته ولبى دعوته . وأتاه طلبته فقَالَ تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ويُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**﴾ [العنكبوت: ٦٧] وقَالَ تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا**﴾[القصص:٥٧] وسأل اللّه أن يبعث فيهم رسولا منهم أي منْ جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى. وقد استجاب اللّه له فبعث فيهم رسولا وأي رسول ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له منْ الدين مَا لم يؤت أحداً قبله وعم بدعوته أهل الأرْض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة. كَانَ هذا منْ خصائصه منْ بين سائر الأنبياء لشرفه في نفسه. وكمال مَا أرسل به . وشرف بقعته وفصاحة لغته . وكمال شفقته على أمته ولطفه ورحمته وكريم محتده وعظيم مولده وطيب مصدره ومورده .

ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كَانَ باني الكعبة لأهل الأرْض أن يكون منصبه ومحله وموضعه في منازل السَّمَوَات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الّذي هُوَ كعبة أهل السَّمَاء السابعة المبارك المبرور الّذي يدخله كل يوم سبعون ألفا منْ الملائكة يتعبدون فيه. ثُمَّ لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور . وقد ذكرنا في التفسير منْ سورة البقرة صفة بناية البيت . ومَا ورد في ذلك منْ الأخبار والآثار بمَا فيه كفاية فمنْ أراده فليراجعه .

ثُمَّ وللّه الحمد فمنْ ذلك مَا قَالَ السدي : لمَا أمر اللّه إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت . ثُمَّ لم يدريا أين مكانه ؟ حتى بعث اللّه ريحا يقال له : الخجوج لها جناحان ورأس في صورة حية فكنست لهمَا مَا حول الكعبة عن أساس البيت الأول وأتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا

الأساس . وذلك حين يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج:٢٦] فلمّا بلغا القواعد بنيا الركن قَالَ إبراهيم لإسماعيل : يا بني اطلب لي الحجر الأسود منْ الهند . وكَانَ أبيض ياقوتة بيضاء مثل النعامة وكَانَ آدم هبط به منْ الْجنَّة . فاسود منْ خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن. فقَالَ: يا أبت منْ جاءك بهذا؟ . قَالَ : جاء به منْ هُوَ أنشط منك ؟ فبنيا وهمَا يدعوان اللّه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧] وذكر ابن أبي حاتم : أنّه بناه منْ خمسة أجبل . وأن ذا القرنين وكَانَ ملك الأرْض إذ ذاك مر بهمَا وهمَا يبنيانه فقَالَ : منْ أمركمَا بهذا؟ فقَالَ إبراهيم . اللّه أمرنا به . فقَالَ : ومَا يدريني بمَا تقول؟ فشهدت خمسة أكبش؛ أنّه أمره بذلك فآمن وصدق .

وذكر الأزرقي أنّه طاف مع الخليل بالبيت، وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة . ثُمَّ بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم منْ جهة الشمال ممّا يلي الشام على مَا هي عليه اليوم. وفي الصحيحين منْ حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد اللّه بن محمد بن أبي بكر أخبر عن ابن عمر عن عائشة أن رسول اللّه ﷺ قَالَ : « **ألم ترى إلى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم** » . فقلت : يا رسول اللّه لا تردها على قواعد إبراهيم . فقَالَ: « **لولا حدثان قومك** »[١] وفي رواية : « **لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية** »[٢] أو قَالَ :« **بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل اللّه ، ولجعلت بابها بالأرْض ولأدخلت فيها الحجر** » . وقد بناها ابن الزبير رحمه اللّه في أيامه على مَا أشار إليه رسول اللّه ﷺ حسبمَا أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه . فلمّا قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك فاعتقدوا أن ابن الزبير إنّما صنع ذلك منْ تلقاء نفسه فأمر بردها إلى مَا كانت عليه فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر . ثُمَّ سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقي وسدوا الغربي بالكلية . كمَا هُوَ مشاهد إلى اليوم . ثُمَّ لمّا بلغهم أن ابن الزبير إنّما فعل هذا لمّا أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على مَا فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه ومَا تولى منْ ذلك. ثُمَّ لمّا كَانَ في زمنْ المهدي بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير فقَالَ له : إنِّي أخشى أن يتخذها الملوك لعبة يعني كلمَا جاء ملك بناها على الصفة التي يريد فاستقر الأمر على مَا هي عليه اليوم .

ذكر ثناء اللّه ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم

قَالَ تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] . لمّا وفى مَا أمره ربه به منْ التكاليف العظيمة جعله للناس إماما يقتدون به ويأتمون بهديه وسأل اللّه أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري (٤٤٨٤) ومسلم (١٣٣٣/ ٣٩٩) .

(٢) **متفق عليه** : رواه البخاري (١٥٨٦)ومسلم (١٣٣٣ / ٤٠٠) .

في نسبه وخالدة في عقبه فأجيب إلى مَا سأل ورام. وسلمت إليه الإمامة بزمام واستثنى منْ نيلها الظالمون . واختص بها منْ ذريته العلماء العاملون كمَا قَالَ تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت : ٢٧]. وقَالَ تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام : ٨٤ - ٨٧] . فالضمير في قوله ﴿ ومنْ ذريته ﴾ عائد على إبراهيم على المشهور، ولوط وإن كَانَ ابن أخيه إلا أنَّه دخل في الذرية تغليباً. وهذا هُوَ الحامل للقائل الآخر أن الضمير عائد على نوح كمَا قدمنا في قصته واللَّه أعلم. وقَالَ تعالى :﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [الحديد : ٢٦] الآية. فكل كتاب أنزل منْ السَّمَاء على نبي منْ الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمنْ ذريته وشيعته. وهذه خلعة سنية لا تضاهى ومرتبة عليه لا تباهى. وذلك : أنَّه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان إسماعيل منْ هاجر ؛ ثُمَّ إسحاق منْ سارة وولد له يعقوب وهُوَ إسرائيل الَّذي ينتسب إليه سائر أسباطهم[1] فكانت فيهم النبوة وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الَّذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم منْ بني إسرائيل . وأمَّا إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها كمَا سنبينه فيمَا بعد إن شاء اللَّه تعالى ولم يوجد منْ سلالته منْ الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخر بني آدم في الدُّنْيَا والآخرة محمد بن عبد اللَّه ابن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي المكي . ثُمَّ المدني صلوات اللَّه وسلامه عليه . فلم يوجد منْ هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة وواسطة العقد الفاخرة وهُوَ السيد الَّذي يفتخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة. وقد ثبت عنه في صحيح مسلم كمَا سنورده أنَّه قَالَ :« **سأقوم مقاما يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم** » فمدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق ودل كلامه على أنَّه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق في هذه الحياة الدُّنْيَا ويوم يكشف عن ساق.

وقَالَ البخاري : حدثنا عثمان بن أبي شيبة . حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قَالَ : كَانَ رسول اللَّه ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول : « **إن أباكمَا كَانَ يعوذ بهمَا إسماعيل وإسحاق. أعوذ بكلمات اللَّه التامة. منْ كل شيطان وهامة ومنْ كل عين لامة** »[2] ورواه أهل السنن منْ حديث منصور به .

وقَالَ تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ

(١) أسباطهم : جمع : سبط وهو ولد الولد ، ويغلب على ولد البنت مقابل الحفيد الذى هو ولد الابن .
(٢) رواه البخارى (٣٣٧١) كتاب أحاديث الانبياء .

سَعْياً واعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة :٢٦٠] ذكر المفسرون لهذا السؤال أسبابا بسطناها في التفسير. وقررناها بأتم تقرير.

والحاصل : أن اللَّه عزّ وجلّ أجابه إلى مَا سأل فأمره أن يعمد إلى أربعة منْ الطيور واختلفوا في تعيينها على أقوال، والمقصود حاصل على كل تقدير فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه في بعض. ثُمَّ يقسمه قسمًا ويجعل على كل جبل منهن جزءًا ففعل مَا أمر به ثُمَّ أمر أن يدعوهن بإذن ربهن فلمّا دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه وكل ريشة تأتي إلى أختها حتى اجتمع بدن كل طائر على مَا كَانَ عليه وهُوَ ينظر إلى قدرة الَّذي يقول للشَيْء كن فيكون فأتين إليه سعيا ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته منْ أن يأتين طيرانًا. ويقال إنَّه أمر أن يأخذ رؤوسهن في يده فجعل كل طائر يأتي فيلقى رأسه فيتركب على جثته كمَا كَانَ فلا إله إلا اللَّه . وقد كَانَ إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة اللَّه تعالى على إحياء الموتى علمًا يقينيا لا يحتمل النقيض . ولَكن أحب أن يشاهد ذلك عيانا ويترقى منْ علم اليقين إلى عين اليقين فأجابه اللَّه إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله .

وقَالَ تعالى : ﴿ **يَا أَهْلَ الكتَاب لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إبْرَاهِيمَ ومَا أُنزلَت التَّوْرَاةُ والإنجيلُ إلاَّ منْ بَعْده أَفَلا تَعْقلُونَ . هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فيمَا لَكُم به علْمٌ فَلمَ تُحَاجُّونَ فيمَا لَيْسَ لَكُم به علْمٌ واللَّهُ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إبْرَاهيمُ يَهُوديّاً ولا نَصْرَانيّاً ولَكن كَانَ حَنيفاً مُّسْلماً ومَا كَانَ منَ الْمُشْركينَ . إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا واللَّهُ وليُّ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران٦٥-٦٨].

ينكر تعالى على أهل الكتاب منْ اليهود والنصارى في دعوى كل منْ الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم . فبرأه اللَّه منهم وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله : ﴿**ومَا أُنزلَت التَّوْرَاةُ والإنجيلُ إلاَّ منْ بَعْده** ﴾ أي فكيف يكون على دينكم وأنتم إنّما شرع لكم مَا شرع بعده بمدد متطاولة ولهذا قَالَ ﴿ **أفَلاَ تَعْقلُونَ** ﴾ إلى أن قَالَ : ﴿**مَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولا نَصْرَانِيّاً ولَكن كَانَ حَنيفاً مُّسْلماً ومَا كَانَ منَ الْمُشْركينَ**﴾ .

فبين أنَّه كَانَ على دين اللَّه الحنيف وهُوَ القصد إلى الإخلاص والانحراف وعمدا عن الباطل إلى الحق الَّذي هُوَ مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية كمَا قَالَ تعالى : ﴿**ومَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّة إبْرَاهيمَ إلاَّ مَن سَفهَ نَفْسَهُ ولَقَد اصْطَفَيْنَاهُ في الدُّنْيَا وإنَّهُ في الآخرَة لَمنَ الصَّالحينَ . إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لرَبِّ العَالَمينَ . ووَصَّى بهَا إبْرَاهيمُ بَنيه ويَعْقُوبُ يَا بَنيَّ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنتُم مُّسْلمُونَ . أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إذْ قَالَ لبَنيه مَا تَعْبُدُونَ منْ بَعْدي قَالُوا نَعْبُدُ إلَهَكَ وإلَهَ آبَائكَ إبْرَاهيمَ وإسْمَاعيلَ وإسْحَاقَ إلَهاً واحداً ونَحْنُ لَهُ مُسْلمُونَ . تلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ولَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ولا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ ملَّةَ إبْرَاهيمَ حَنيفاً ومَا كَانَ منَ الْمُشْركينَ . قُولُوا آمَنَّا باللَّه ومَا أُنزلَ إلَيْنَا ومَا أُنزلَ إلَى إبْرَاهيمَ وإسْمَاعيلَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاط ومَا أُوتيَ مُوسَى وعيسَى ومَا أُوتيَ النَّبيُّونَ من رَّبِّهمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد مِّنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسْلمُونَ . فَإنْ آمَنُوا بمثْلِ مَا آمَنتُم به فَقَد اهْتَدَوْا وإن تَوَلَّوْا فَإنَّمَا هُمْ في شقَاقٍ فَسَيَكْفيكَهُمُ اللَّهُ**

وهُوَ السَّميعُ العَليمُ . صبْغَةَ اللَّه ومَنْ أَحْسَنُ منَ اللَّه صبْغَةً ونَحْنُ لَهُ عَابدُونَ . قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا في اللَّه وهُوَ رَبُّنَا ورَبُّكُمْ ولَنَا أَعْمَالُنَا ولَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ونَحْنُ لَهُ مُخْلصُونَ . أَمْ تَقُولُونَ إنَّ إبْرَاهيمَ وإسْمَاعيلَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَم اللَّهُ ومَنْ أَظْلَمُ ممَّن كَتَمَ شَهَادَةً عندَهُ منَ اللَّه ومَا اللَّهُ بغَافلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ تلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ - ١٤١] فنـــزه اللَّه عزّ وجلّ خليله عليه السلام عن أن يكون يهوديا أو نصرانيا وبين أنّه إنّما كَانَ حنيفا مسلمًا و لم يكن منْ المشركين ولهذا قَالَ تعالى : **﴿إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بإبْرَاهيمَ لَلَّذينَ اتَّبَعُوهُ﴾** [آل عمران : ٦٨] يعني الّذينَ كانوا على ملته منْ أتباعه في زمانه ومنْ تمسك بدينه منْ بعدهم **﴿وهَذَا النَّبيُّ ﴾** [آل عمران : ٦٨] يعني محمدا ﷺ فإن اللّه شرع له الدين الحنيف الّذي شرعه للخليل وكمله اللّه تعالى له وأعطاه مَا لم يعط نبيا ولا رسولا من قبله كمَا قَالَ تعالى : **﴿قُلْ إنَّني هَدَاني رَبِّي إلَى صرَاط مُسْتَقيمٍ ديناً قيَماً مِّلَّةَ إبْرَاهيمَ حَنيفاً ومَا كَانَ منَ الْمُشْركينَ. قُلْ إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحْيَايَ ومَمَاتي للَّه رَبِّ الْعَالَمينَ . لا شَريكَ لَهُ وبذَلكَ أُمرْتُ وأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلمينَ ﴾**[الأنعام:١٦١-١٦٣] وقَالَ تعالى: **﴿إنَّ إبْرَاهيمَ كَانَ أُمَّةً قَانتاً لِّلَّه حَنيفاً ولَمْ يَكُ منَ الْمُشْركينَ . شَاكراً لأَنْعُمه اجْتَبَاهُ وهَدَاهُ إلَى صرَاط مُّسْتَقيم . وآتَيْنَاهُ في الدُّنْيَا حَسَنَةً وإنَّهُ في الآخرَة لَمنَ الصَّالحينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ أَن اتَّبعْ ملَّةَ إبْرَاهيمَ حَنيفاً ومَا كَانَ منَ الْمُشْركينَ﴾**[النحل : ١٢٠ -١٢٣] .

وقَالَ البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ لَمَا رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت . ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهمَا الأزلام فقَالَ :« **قاتلهم اللّه واللّه إن يستقسمَا بالأزلام قط** » [(١)] لم يخرجه مسلم . وفي بعض ألفاظ البخاري :« **قاتلهم اللّه لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط** »[(٢)].

فقوله **﴿ أُمَّةً ﴾** أي قدوة إماما مهتديا داعيا إلى الخير يقتدي به فيه **﴿ قَانتاً لِّلَّه ﴾** أي خاشعا له في جميع حالاته وحركاته وسكناته **﴿ حَنيفاً ﴾** أي مخلصا على بصيرة **﴿ ولَمْ يَكُ منَ الْمُشْركينَ . شَاكراً لأَنْعُمه ﴾** أي قائمًا بشكر ربه بجميع جوارحه منْ قلبه ولسانه وأعماله . **﴿اجتباه ﴾** أي اختاره اللّه لنفسه، واصطفاه لرسالته، واتخذه خليلا وجمع له بين خيري الدُّنْيا والآخرة ، وقَالَ تعالى :**﴿ومَنْ أَحْسَنُ ديناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ للَّه وهُوَ مُحْسنٌ واتَّبَعَ ملَّةَ إبْرَاهيمَ حَنيفاً واتَّخَذَ اللَّهُ إبْرَاهيمَ خَليلاً ﴾**[النساء : ١٢٥] يرغب تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام لأنه كَانَ على الدين القويم والصراط المستقيم.وقد قام بجميع مَا أمره به ربه ومدحه تعالى بذلك فقَالَ: **﴿وإبْرَاهيمَ الَّذي وفَّى﴾**[النجم:٣٧] ولهذا اتخذه اللّه خليلا والخلة هي غاية المحبة كمَا قَالَ بعضهم:

قد تخللتَ مسلكَ الروحِ منيّ   وبذا سُمِّـــيَ الخليلُ خَليلاَ

وهكذا نال هذه المنـــزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد صلوات اللّه وسلامه عليه كمَا ثبت في الصحيحين وغيرهمَا منْ حديث جندب البجلي وعبد اللّه بن عمرو وابن مسعود عن

---

(١) رواه البخارى (٣٣٥٢) وإن هنا نافية .

(٢) رواه البخارى (١٦٠١) كتاب الحج – باب من كبر فى نواحى الكعبة .

رسول اللَّه ﷺ أنَّه قَالَ :« **أيها الناس إن اللَّه اتخذني خليلا كمَا اتخذ إبراهيم خليلا** » [(١)]. وقَالَ أيضا في آخر خطبة خطبها :« **أيها الناس لو كنت متخذا منْ أهل الأرْض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولَكِن صاحبكم خليل اللَّه** » [(٢)] أخرجاه منْ حديث أبي سعيد . وثبت أيضا منْ حديث عبد اللَّه بن الزبير وابن عباس وابن مسعود. وروى البخاري في صحيحه : حدثنا سليمان بن حرب . حدثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن جبير عن عمرو بن ميمون قَالَ : إن معاذا لَمَا قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ : ﴿ **واتخذ اللَّه إبراهيم خليلا** ﴾ [النساء : ١٣٥]. فقَالَ رجل منْ القوم : لقد قرت عين أم إبراهيم [(٣)].

وقَالَ ابن مردويه : حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة ، حدثنا عبد اللَّه الحنفي، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس . قَالَ : جلس ناس منْ أصحاب رسول اللَّه ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذَا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم وإذَا بعضهم يقول : عجب أن اللَّه اتخذ منْ خلقه خليلا فإبراهيم خليله. وقَالَ آخر : ماذا بأعجب منْ أن اللَّه كلم موسى تكليما. وقَالَ آخر: فعيسى روح اللَّه وكلمته. وقَالَ آخر : آدم اصطفاه اللَّه. فخرج عليهم فسلم وقَالَ :« **قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل اللَّه وهُوَ كذلك . وموسى كليمه وهُوَ كذلك . وعيسى روحه وكلمته وهُوَ كذلك . وآدم اصطفاه اللَّه وهُوَ كذلك . ألا وإنِّي حبيب اللَّه ولا فخر . ألا وإنِّي أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول منْ يحرك حلقة باب الْجَنَّة فيفتحه اللَّه فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين . وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر** ». هذا حديث غريب منْ هذا الوجه وله شواهد منْ وجوه أخر واللَّه أعلم .

وروى الحاكم في مستدركه منْ حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قَالَ : أتنكرون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين؟ وقَالَ ابن أبي حاتم : حدثنا أبي. حدثنا محمود بن خالد السلمى ، حدثنا الوليد عن إسحاق بن بشار قَالَ: لَمَا اتخذ اللَّه إبراهيم خليلا ألقي في قلبه الوجل حتى أن كَانَ خفقان قلبه ليسمع منْ بعد كمَا يسمع خفقان الطير في الهواء. وقَالَ عبيد بن عمير : كَانَ إبراهيم عليه السلام يضيف الناس فخرج يومًا يلتمس إنسانا يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه فرجع إلى داره فوجد فيها رجلا قائمًا فقَالَ : يا عبد الله مَا أدخلك داري بغير إذني؟ قَالَ : دخلتها بإذن ربها. قَالَ : ومنْ أنت؟ قَالَ : أنا ملك الموت أرسلني ربي إلى عبد منْ عباده أبشره بأن اللَّه قد اتخذه خليلا. قَالَ: منْ هو؟ فواللَّه إن أخبرتني به ثُمَّ كَانَ بأقصى البلاد لآتينه ثُمَّ لا أبرح له جاراً حتى يفرق بيننا الموت. قَالَ: ذلك العبد أنت. قَالَ : أنا؟ قَالَ : نعم قَالَ : فبم اتخذني ربي خليلا؟ قَالَ : بأنك تعطي الناس ولا تسألهم. رواه ابن أبي حاتم.

---

(١) رواه مسلم (٥٣٢ / ٢٣)

(٢) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٩٠٤) ومسلم (٢٣٨٢ / ٢) .

(٣) رواه البخارى (٤٣٤٨) كتاب المغازى ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع.

وقد ذكره اللّه تعالى في القرآن كثيراً في غير مَا موضع بالثناء عليه والمدح له فقيل إِنَّه مذكور في خمسة وثلاثين موضعا ، منها : خمسة عشر في البقرة وحدها. وهُوَ أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا منْ بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى وهمَا قوله تعالى : ﴿ وإذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ومنكَ ومن نُوحٍ وإبْرَاهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وأَخَذْنَا منْهُم مِّيثَاقاً غَليظاً ﴾ [الأحزاب:٧] وقوله : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وصَّى به نُوحاً والَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ومَا وصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى أَنْ أَقيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفرَّقُوا فِيه﴾ [الشورى:١٣] الآية. ثُمَّ هُوَ أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ وهُوَ الَّذي وجده عليه السلام في السَّمَاء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الَّذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً منْ الملائكة، ثُمَّ لا يعودون إليه آخر مَا عليهم. ومَا وقع في حديث شريك بن أبي نمير عن أنس في حديث الإسراء منْ أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة فممَا انتقد على شريك في هذا الحديث والصحيح الأول.

وقَالَ أحمد : حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو . حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قَالَ : قَالَ رسول اللّه ﷺ :« **إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن** »[1] تفرد به أحمد .

ثُمَّ مما يدل على أن إبراهيم أفضل منْ موسى الحديث الَّذي قَالَ فيه : « **وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم** » رواه مسلم [2]منْ حديث أُبي بن كعب رضي اللّه عنه. وهذا هُوَ المقام المحمود الَّذي أخبر عنه صلوات اللّه وسلامه عليه بقوله : « **أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر** » [3] ثُمَّ ذَكر استشفاع الناس بآدم . ثُمَّ بنوح . ثُمَّ إبراهيم . ثُمَّ موسى . ثُمَّ عيسى فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول : « **أنا لها أنا لها ...** » الحديث. وهكذا رواه البخاري في مواضع أخر ومسلم والنسائي منْ طرق عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد اللّه وهُوَ ابن عمر العمري به .

قَالَ البخاري : حدثنا عليّ بن عبد اللّه، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبد اللّه حدثني سعيد عن أبيه، عن أبي هريرة قَالَ : قيل : يا رسول اللّه منْ أكرم الناس . قَالَ : « **أتقاهم** » . قَالُوا : ليس عن هذا نسألك . قَالَ :« **فيوسف نبي اللّه ابن نبي اللّه ابن نبي اللّه ابن خليل اللّه** ». قَالُوا : ليس عن هذا نسألك، قَالَ :« **فعن معادن العرب تسألوني خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذَا فقهوا** »[4].

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (٢ / ٣٣٢) رقم (٨٣٧٣) .

(٢) رواه مسلم (٨٢٠ / ٢٧٣) .

(٣) رواه مسلم (٢٢٧٨ / ٣) .

(٤) رواه البخارى (٣٣٨٣) .

ثُمَّ قَالَ البخاري : قَالَ أبو أسامة ومعتمر عن عبيد اللَّه عن سعيد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قلت : وقد أسنده في موضع آخر منْ حديثهمَا وحديث عبدة بن سليمان والنسائي منْ حديث محمد بن بشر أربعتهم عن عبيد اللَّه بن عمر عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . وقَالَ أحمد : حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « **إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل اللَّه** » [1] . تفرد به أحمد . وقَالَ البخاري : حدثنا عبدة . حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قَالَ : « **الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم** » [2]. تفرد به منْ طريق عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن دينار عن أبيه عن ابن عمر به.

فأمّا الحديث الَّذي رواه الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن سفيان ، حدثني مغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ : « **يحشر الناس حفاة عراة غرلا فأول منْ يكسى إبراهيم عليه السلام** »[3] ثُمَّ قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤] فأخرجاه في الصحيحين منْ حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج، كلاهمَا عن مغيرة بن النعمان النخعي الكوفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى مَا قابلها ممَا ثبت لصاحب المقام المحمود الَّذي يغبطه به الأولون والآخرون.

وأمّا الحديث الآخر الَّذي قَالَ الإمام أحمد : حدثنا وكيع وأبو نعيم،حدثنا سفيان هُوَ الثوري عن مختار بن فلفل عن أنس بن مالك قَالَ: قَالَ رجل للنبي ﷺ : يا خير البرية . فقال : « **ذاك إبراهيم** » [4] فقد رواه مسلم منْ حديث الثوري، وعبد اللَّه بن إدريس، وعلى بن مسهر، ومحمد بن فضيل،أربعتهم عن المختار بن فلفل. وقَالَ الترمذي : حسن صحيح. وهذا منْ باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام كمَا قَالَ : « **لا تفضلوني على الأنبياء** »[5] وقَالَ : « **لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول منْ يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور** »[6] .

وهذا كله لا ينافي في مَا ثبت بالتواتر عنه صلوات اللَّه وسلامه عليه منْ إنَّه سيد ولد آدم يوم القيامة، وكذلك حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم ((**وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم**)).

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (٢ / ٣٣٢) رقم (٨٣٧٣) .
(٢) رواه البخارى (٣٣٩٠).
(٣) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٣٤٩) ومسلم (٢٨٦٠ / ٥٨) .
(٤) رواه مسلم (٦٠٢٣) وأحمد (١٢٨٤٣) وأبو داود (٤٦٧٢) والترمذى (٣٣٥٢) .
(٥) **صحيح** : رواه أحمد (٣ / ٤٠ ، ٤١) رقم (١١٣٠٤) ورواه مسلم (٦٠٤١) بمعناه.
(٦) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٤١٤ ، ٧٤٧٢) ومسلم (٦٠٣٦ ، ٦٠٣٨) .

ولما كَانَ إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد صلوات اللّه عليهم أجمعين أمر المصلي أن يقول في تشهده مَا ثبت في الصحيحين منْ حديث كعب بن عجرة وغيره قَالَ : قلنا : يا رسول اللّه هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك ؟ قَالَ : « **قولوا : اللّهم صلى على محمد وعلى آل محمد كمَا صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كمَا باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد** » [(١)].

وقَالَ تعالى : ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ [النجم : ٣٧] قَالُوا : وفي جميع مَا أمر به ، وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه وكَانَ لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار.

قَالَ عبد الرزاق : أنبأنا معمر، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿**وإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾ [البقرة : ١٢٤] قَالَ : ابتلاه اللّه بالطهارة ؛ خمس في الرأس ، وخمس في الجسد ؛ في الرأس : قص الشارب والمضمضة والسواك والاستنشاق وفرق الرأس ، وفي الجسد : تقليم الأظافر وحلق العانة ، والختان . ونتف الإبط . وغسل أثر الغائط والبول بالماء. رواه ابن أبي حاتم .

وقَالَ : وروي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك . قلت : وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قَالَ : « **الفطرة خمس : الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط** » [(٢)]. وفي صحيح مسلم وأهل السنن من حديث وكيع عن زكريا بن أبي زائدة عن مصعب بن شيبة العبدري المكي الحجبي عن طلق بن حبيب العتري عن عبد اللّه بن الزبير عن عائشة قالت : قال رسول اللّه ﷺ :« **عشر منْ الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء** » [(٣)]. يعني الاستنجاء وسيأتي في ذكر مقدار عمره الكلام على الختان. والمقصود أنّه عليه الصلاة والسلام كَانَ لا يشغله القيام بالإخلاص للّه عزّ وجلّ وخشوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه وإعطاء كل عضو مَا يستحقه منْ الإصلاح والتحسين وإزالة مَا يشين منْ زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح أو وسخ فهذا منْ جملة قوله تعالى في حقه منْ المدح العظيم : ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ [النجم : ٣٧].

ذكر قصره في الجنة

قَالَ الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطي ومحمد بن موسى القطان قالا : حدثنا يزيد بن هارون،حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبي هريرة

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٣٧٠) ومسلم (٤٠٦ / ٦٦) .
(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (٥٨٨٨) ومسلم (٢٥٧ / ٤٩) .
(٣) رواه مسلم (٢٦١ / ٥٦) .

قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « إن في الْجَنَّة قصرا أحسبه قَالَ: منْ لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهن أعده اللَّه لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا » . قَالَ البزار : وحدثناه أحمد بن جميل المروزي،حدثنا النضر ابن شميل،حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه. ثُمَّ قَالَ: وهذا الحديث لا نعلم من رواه عن حماد بن سلمة فأسنده إلا يزيد بن هارون والنضر بن شميل وغيرهمَا يرويه موقوفا . قلت لولا هذه العلة لكَانَ على شرط الصحيح و لم يخرجوه.

صفة إبراهيم عليه السلام

قَالَ الإمام أحمد : حدثنا يونس وحجين ، قالا : حدثنا الليث عن أبي الزبير عن جابر عن رسول اللَّه ﷺ أنه قَالَ :« عرض عليّ الأنبياء فإذَا موسى ضرب منْ الرجال كأنه منْ رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم فإذَا أقرب منْ رأيت به شبها عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم فإذَا أقرب منْ رأيت به شبها دحية » (1). تفرد به الإمام أحمد منْ هذا الوجه وبهذا اللفظ .

وقَالَ أحمد : حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل عن عثمان يعني ابن المغيرة عن مجاهد، عن ابن عباس قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ :« رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم فأمّا عيسى فأحمر جعد عريض الصدر وأمّا موسى فآدم جسيم ». قَالُوا له: فإبراهيم قَالَ: « انظروا إلى صاحبكم » (2)يعني نفسه .

وقَالَ البخاري : حدثنا بنان بن عمرو، حدثنا النضر، أنبأنا ابن عون عن مجاهد أنَّه سمع ابن عباس وذكروا له الدجال ، وأنه مكتوب بين عينيه كافراً أو (ك ف ر) فقَالَ لم أسمعه ولكنه قَالَ : قَالَ ﷺ :« أمّا إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم وأمّا موسى فجعد آدم علي جمل أحمر مخطوم بخلبه كأني أنظر إليه انحدر في الوادي »(3). ورواه البخاري أيضا ومسلم عن محمد بن المثني عن ابن أبي عدي عن عبد اللَّه بن عون به. وهكذا رواه البخاري أيضا في كتاب الحج وفي اللباس ومسلم جميعا عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدي عن عبد اللَّه بن عون به.

وفاة إبراهيم الخليل ومَا قيل في عمره

ذكر ابن جرير في تاريخه أن مولده كَانَ في زمنْ النمرود بن كنعان وهُوَ فيمَا قيل الضحاك الملك المشهور الَّذي يقال إنَّه ملك ألف سنة وكَانَ في غاية الغشم والظلم. وذكر بعضهم أنَّه منْ بني راسب الَّذينَ بعث إليهم نوح عليه السلام وإنَّه كَانَ إذ ذاك ملك الدنيا. وذكروا أنَّه طلع نجم أخفى ضوء الشَّمْس والْقَمَر فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود. فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقَالُوا : يولد مولود في رعيتك يكون زوال ملكك على يديه. فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء وأن يقتل المولودون منْ ذلك الحين فكَانَ مولد إبراهيم الخليل

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (٣ / ٣٣٤) رقم (١٤٥٢٤) .

(٢) **صحيح** : رواه أحمد (٢٦٩٧) .

(٣) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٣٥٥) ومسلم (١٦٦ / ٢٧٠) .

في ذلك الحين فحماه اللّٰه عز وجل وصانه منْ كيد الفجار وشب شبابا باهرا وأنبته اللّٰه نباتا حسنا حتى كَانَ منْ أمره مَا تقدم وكَانَ مولده بالسوس وقيل : ببابل . وقيل : بالسواد منْ ناحية كوثى. وتقدم عن ابن عباس إنَّه ولد ببرزة شرقي دمشق فلمّا أهلك الله نمرود على يديه وهاجر إلى حران،ثُمَّ إلى أرض الشام، وأقام ببلاد إيليا كمَا ذكرنا وولد له إسماعيل وإسحاق ، وماتت سارة قبله بقرية حبرون التي في أرض كنعان ولها منْ العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيمَا ذكر أهل الكتاب فحزن عليها إبراهيم عليه السلام ورثاها رحمها اللّٰه واشترى منْ رجل منْ بني حيث يقال له : عفرون بن صخر مغارة بأربع مائة مثقال، ودفن فيها سارة هنالك قَالُوا : ثُمَّ خطب إبراهيم على ابنه إسحاق فزوجه رفقا بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح، وبعث مولاه فحملها منْ بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الإبل . قَالُوا : ثُمَّ تزوج إبراهيم عليه السلام قنطورا فولدت له زمران ويقشان ومادان ومدين وشياق وشوح. وذكروا مَا ولد كل واحد منْ هؤلاء أولاد قنطورا.

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد منْ السلف عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة اللّٰه أعلم بصحتها. وقد قيل : إنَّه مات فجأة وكذا داود وسليمان والَّذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك. قَالُوا : ثُمَّ مرض إبراهيم عليه السلام ومات عن مائة وخمس وسبعين. وقيل : وتسعين سنة . ودفن في المغارة المذكورة التي كانت بحبرون الحيثي عند امرأته سارة التي في مزرعة عفرون الحيثي وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات اللّٰه وسلامه عليهم أجمعين. وقد ورد مَا يدل على أنَّه عاش مائتي سنة كمَا قاله ابن الكلبي.

وقَالَ أبو حاتم ابن حبان في صحيحه : أنبأنا المفضل بن محمد الجندي بمكة ، حدثنا على ابن زياد اللخمي ، حدثنا أبو قرة عن ابن جريج عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قَالَ : « **اختتن إبراهيم بالقدوم وهُوَ ابن عشرين ومائة سنة . وعاش بعد ذلك ثمانين سنة** » وقد رواه الحافظ ابن عساكر منْ طريق عكرمة بن إبراهيم وجعفر بن عون العمري عن يحيى بن سعيد عن سعيد عن أبي هريرة موقوفا.

ثُمَّ قَالَ ابن حبان : ذكر الخبر المدحض قول منْ زعم أن رفع هذا الخبر وهم أخبرنا محمد ابن عبد اللّٰه بن نمير . حدثنا قتيبة بن سعيد . حدثنا الليث عن ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قَالَ :« **اختتن إبراهيم حين بلغ مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة واختتن بقدوم** » .

وقد رواه الحافظ ابن عساكر منْ طريق يحيى بن سعيد عن ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ :« **وقد أتت عليه ثمانون سنة** ». ثُمَّ روى ابن حبان عن عبد الرزاق أنَّه قَالَ : القدوم اسم القرية. قلت : الَّذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة. وفي رواية وهُوَ ابن ثمانين سنة وليس فيهمَا تعرض لما عاش بعد ذلك واللّٰه أعلم.

وقَالَ محمد بن إسماعيل الحساني الواسطي : زاد في تفسير وكيع عنه فيمَا ذكره منْ الزيادات ، حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قَالَ :

«كَانَ إبراهيم أول منْ تسرول . وأول منْ فرق . وأول منْ استحد . وأول منْ اختتن بالقدوم وهُوَ ابن عشرين ومائة سنة . وعاش بعد ذلك ثمانين سنة . وأول منْ قرى الضيف . وأول منْ شاب » هكذا رواه موقوفا وهُوَ أشبه بالمرفوع خلافا لابن حبان واللّه أعلم.

وقَالَ مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب : قَالَ : كَانَ إبراهيم أول منْ أضاف الضيف . وأول الناس اختتن . وأول الناس قص شاربه . وأول الناس رأى الشيب . فقَالَ: يا رب مَا هذا ؟ فقَالَ اللّه : « وقار» فقَالَ : يا رب زدني وقارا. وزاد غيرهمَا . وأول منْ قص شاربه . وأول منْ استحد . وأول منْ لبس السراويل. فقبره وقبر ولده إسحاق وقبر ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون وهُوَ البلد المعروف بالخليل اليوم ، وهذا تلقي بالتواتر أمة بعد أمة وجيل بعد جيل منْ زمنْ بني إسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقا. فأمّا تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم فينبغي أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها وأن تبجل وأن تجل أن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد منْ أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها. وروى ابن عساكر بسنده إلى وهب بن منبه قَالَ:وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة .

إلهي جَهُولاً أملُهُ ... يموتُ مَنْ جاء أجَلُه
وَمَنْ دنا مِنْ حَتْفه ... لم تُغنِ عَنْهُ حيَلُه
وكيفَ يَبْقَي آخَرُ ... مَنْ مَاتَ عَنْه أوّلُه
والمرءُ لا يصحبه ... في القبِر إلا عَملُه

ذكر أولاد إبراهيم الخليل عليه السلام

أول منْ ولد له إسماعيل منْ هاجر القبطية المصرية . ثُمَّ ولد له إسحاق منْ سارة بنت عم الخليل . ثُمَّ تزوج بعدها قنطورا بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة : مدين وزمران . وسرج يقشان ونشق ولم يسم السادس، ثُمَّ تزوج بعدها حجون بنت أمين فولدت له خمسة : كيسان. وسورج. وأميم. ولوطان. ونافس. هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في "كتابه التعريف والإعلام".

قصة لوط عليه السلام

وممَا وقع في حياة إبراهيم الخليل منْ الأمور العظيمة قصة قوم لوط عليه السلام، ومَا حل بهم منْ النقمة العميمة وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح وهُوَ آزر كمَا تقدم ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كمَا قدمنا ، ويقال: إن هاران هذا هُوَ الَّذي بنى حران وهذا ضعيف لمخالفته مَا بأيدي أهل الكتاب واللّه أعلم.

وكَانَ لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهمَا السلام بأمره له وإذنه فنـزل بمدينة سدوم منْ أرض غور زغر وكَانَ أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل منْ

أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس مَا كانوا يفعلون ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد منْ بني آدم . وهي إتيان الذكران منْ العالمين ، وترك مَا خلق اللَّه منْ النسوان لعباده الصالحين فدعاهم لوط إلى عبادة اللَّه تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم فأحلَّ اللَّه بهم منْ البأس الَّذي لا يرد مَا لم يكن في خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثلة في العالمين وعبرة يتعظ بها الألباء منْ العالمين، ولهذا ذكر اللَّه تعالى قصتهم في غير مَا موضع منْ كتابه المبين فقَالَ تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ . وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤] .

وقَالَ تعالى في سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ . وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ . فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ . يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ. وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ. وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ . قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ . قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٦٩ -٨٣]. وقَالَ تعالى في سورة الحجر : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ . قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ . قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ . قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ . قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ . قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ . فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ. قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ . وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ . وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ . وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ . قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا

تُخزُون . قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمِينَ . قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إن كُنتُمْ فَاعلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ . وإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٥١ - ٧٧] .

وقَالَ تعالى في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ . ومَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ . أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ . وتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ . قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ . قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ القَالِينَ . رَبِّ نَجِّنِي وأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ . فَنَجَّيْنَاهُ وأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ . ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ . وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ومَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٦٠- ١٧٥].

وقَالَ تعالى في سورة النمل : ﴿ ولُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ وأَنتُمْ تُبْصِرُونَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . فَأَنجَيْنَاهُ وأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغَابِرِينَ . وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل : ٥٤ -٥٨] وقَالَ تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ ولُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِينَ . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى القَوْمِ الْمُفْسِدِينَ . ولَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ . ولَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وقَالُوا لا تَخَفْ ولا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ . إِنَّا مُنــزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . ولَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٥] .

وقَالَ تعالى في سورة الصافات : ﴿ وإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ. ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ . وإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات : ١٣٣-١٣٨] .

وقَالَ تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ . قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ . فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ . وتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [الذاريات : ٣١-٣٧].

وقَالَ في سورة الانشقاق ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ . نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ . ولَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ . ولَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي ونُذُرِ . ولَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ . فَذُوقُوا عَذَابِي ونُذُرِ . ولَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القَمَر : ٣٣- ٤٠].

وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها منْ هذه السورة في التفسير. وقد ذكر اللّٰه لوطاً وقومه في مواضع أخر منْ القرآن تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود. والمقصود الآن إيراد مَا كَانَ منْ أمرهم ومَا أحل اللّٰه بهم مجموعا منْ الآيات والآثار واللّٰه المستعان.

وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة اللّٰه وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي مَا ذكر اللّٰه عنهم منْ الفواحش فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا مَا عنه نهوا بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم وهموا بإخراج رسولهم منْ بين ظهرانيهم ومَا كَانَ حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قَالُوا: ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل : ٥٦] فجعلوا غاية المدح ذمًا يقتضي الإخراج ومَا حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج فطهره اللّٰه وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج وتركهم في محلتهم خالدين لَكِن بعد مَا صيرها عليهم بحيرة منتنة ذات أمواج لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج ومَا كَانَ هذا جوابهم إلا لَمَا نهاهم عن الطامة العظمى والفاحشة الكبرى التي لم يسبقهم إليها أحد منْ أهل الدنيا. ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمنْ عليها وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون في ناديهم وهُوَ مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر منْ الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ولا يستحيون منْ مُجالسيهم وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون[1] لوعظ واعظ ولا نصيحة منْ عاقل وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ولا ندموا على مَا سلف منْ الماضي ولا راموا في المستقبل تحويلا فأخذهم اللّٰه أخذاً وبيلا وقَالُوا له فيمَا قَالُوا : ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] فطلبوا منه وقوع مَا حذرهم عنه منْ العذاب الأليم وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل منْ رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين فغار اللّٰه لغيرته وغضب لغضبته واستجاب لدعوته وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم وأخبروه بمَا جاؤوا له منْ الأمر الجسيم والخطب العميم : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ . قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات : ٣١- ٣٤].

وقَالَ : ﴿ ولَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣١ -٣٢].

---

(١) يرعوى عن القبيح : يرجع ويكف .

وقَالَ اللَّه تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤] . وذلك أنَّه كَانَ يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا . ولهذا قَالَ تعالى : ﴿إنَّ إبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَا إبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وإنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود : ٧٥ ، ٧٦] أي أعرض عن هذا وتكلم في غيره فإنَّه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم﴿إنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود : ٧٦] أي قد أمر به منْ لا يرد أمره ولا يرد بأسه ولا معقب لحكمه وإنهم آتيهم عذاب غير مردود. وذكر سعيد بن جبير والسدي وقتادة ومحمد بن إسحاق : أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قَالُوا : لا، قَالَ : فمائتا مؤمن؟ قَالُوا : لا، قَالَ : فأربعون مؤمنا؟ قالوا: لا، قَالَ : فأربعة عشر مؤمنا؟ قَالُوا : لا، قَالَ ابن إسحاق : إلى أن قَالَ : أفرأيتم إن كَانَ فيها مؤمن واحد؟ قَالُوا: لا،قَالَ : إن فيها لوطاً ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ [العنكبوت : ٣٢] الآية.

وعند أهل الكتاب أنَّه قَالَ : يا رب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلا صالحا فقَالَ اللَّه لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحا . ثُمَّ تنازل إلى عشرة فقَالَ اللَّه : لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون قَالَ اللَّه تعالى : ﴿ ولَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود : ٧٧] قَالَ المفسرون لَمَا فصلت الملائكة منْ عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان اختباراً منْ اللَّه تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطاً عليه السلام،وذلك عند غروب الشَّمْس فخشي إن لم يضفهم يضيفهم غيره وحسبهم بشراً منْ الناس ﴿ سِيءَ بِهِمْ وضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾.

قَالَ ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق : شديد بلاؤه وذلك لَمَا يعلم منْ مدافعته الليلة عنهم كمَا كَانَ يصنع بهم في غيرهم . وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدا ولَكِن رأى منْ لا يمكن المحيد عنه.

وذكر قتادة : أنهم وردوا عليه وهُوَ في أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم وجعل يعرّض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينـــزلوا في غيرها ، فقَالَ لهم فيمَا قَالَ : يا هؤلاء مَا أعلم على وجه الأَرْض أهل بلد أخبث منْ هؤلاء ثُمَّ مشى قليلا . ثُمَّ أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قَالَ : وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك .

وقَالَ السدي : خرجت الملائكة منْ عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النَّهَار فلمّا بلغوا نهر سدوم فلقوا ابنة لوط تستقي منْ الماء لأهلها . وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريثا . والصغرى ذعرتا فقَالُوا لها : يا جارية هل منْ منـــزل ؟ فقالت لهم : مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت عليهم منْ قومها فأتت أباها ، فقالت : يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة مَا رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم . وقد كَانَ قومه ينهوه أن

يضيف رجلا . فقالوا : خل عنا فلنضيف الرجال . فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت : إن في بيت لوط رجالا مَا رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه.وقوله**﴿ومن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾**[هود: ٧٨] أي هذا مع مَا سلف لهم منْ الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة:**﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾**[هود:٧٨] يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعا لأن النبي للأمة بمنـــزلة الوالد كمَا ورد في الحديث وكمَا قَالَ تعالى: **﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾** [الأحزاب : ٦].

وفي قول بعض الصحابة والسلف وهُوَ أب لهم. وهذا كقوله : **﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾** [الشعراء ١٦٥ ، ١٦٦] وهذا هُوَ الَّذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وهُوَ الصواب . والقول الآخر خطأ مأخوذ منْ أهل الكتاب وقد تصحف عليهم كمَا أخطأوا في قولهم إن الملائكة كانوا اثنين وأنهم تعشوا عنده وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطاً عظيمًا وقوله : **﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ولا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾** [هود : ٧٨] نهي لهم عن تعاطي مَا لا يليق منْ الفاحشة وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير بل الجميع سفهاء. فجرة أقوياء. كفرة أغبياء. وكَانَ هذا منْ جملة مَا أراد الملائكة أن يسمعوا منه منْ قبل أن يسألوه عنه. فقَالَ قومه : عليهم لعنة اللَّه الحميد المجيد. مجيبين لنبيهم فيمَا أمرهم به منْ الأمر السديد **﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾** [هود : ٧٩] يقولون عليهم لعائن اللَّه : لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا في نسائنا [١] وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا. واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم و لم يخافوا سطوة العظيم ذي العذاب الأليم. ولهذا قال عليه السلام : **﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾** [هود : ٨٠] ود أن لو كَانَ له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم مَا يستحقونه منْ العذاب على هذا الخطاب. وقد قَالَ الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعا:« **نحن أحق بالشك منْ إبراهيم ويرحم اللَّه لوطاً لقد كَانَ يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن مَا لبث يوسف لأجبت الداعي** » [٢]ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

وقَالَ محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، أن رسول اللَّه ﷺ قَالَ : « **رحمة اللَّه على لوط لقد كَانَ يأوي إلى ركن شديد يعني اللَّه عزّ وجلّ فمَا بعث اللَّه بعده منْ نبي إلا في ثروة منْ قومه** »[٣]. وقَالَ تعالى : **﴿ وجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ . قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ.**

---

(١) أى لا حاجه لنا فى نسائنا .

(٢) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٣٧٢) كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى **﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾** ومسلم (٣٧٥) كتاب الإيمان ، باب زيادة طمأنينة القلب بتظافر الأدلة . وأحمد (٢/ ٢٣٦) وابن ماجه (٤٠٢٦) .

(٣) **صحيح** : رواه أحمد (٢ / ٢٣٢) والترمذى (٣١٢٧) .

واتَّقُوا اللَّهَ ولا تُخْزُونِ . قَالُوا أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ العَالَمِينَ . قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الحجر ٦٧ - ٧١] فأمرهم بقربان نسائهم وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيآتهم هذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون بل كلمَا قَالَ لهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرضون. ولم يعلموا مَا حم به القدر ممَا هم إليه صائرون. وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون ولهذا قَالَ تعالى مقسمًا بحياة نبيه محمد صلوات اللّه وسلامه عليه :**﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾** [الحجر : ٧٢] وقَالَ تعالى:**﴿ولَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ . ولَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي ونُذُرِ. ولَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾**[الْقَمَر: ٣٦-٣٨].

ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي اللّه لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهُوَ يعظهم وينهاهم منْ وراء الباب وكل مَا لهم في إلجاج وإلعاج فلمّا ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال : **﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾** لأحللت بكم النكال. قالت الملائكة : **﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾** [هود : ٨١] وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل : إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر . فرجعوا يتجسسون مع الحيطان. ويتوعدون رسول الرحمن. ويقولون : إذَا كَانَ الغد كَانَ لنا وله شأن قَالَ اللّه تعالى : **﴿ ولَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي ونُذُرِ. ولَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾** [الْقَمَر:٣٧ ، ٣٨] فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليه السلام آمرين له بأن يسري هُوَ وأهله منْ آخر اللَّيْل **﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾** [هود : ٨١] يعني عند سماع صوت العذاب إذَا حل بقومه وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم. وقوله : **﴿ إلاَّ امْرَأَتَكَ ﴾** [هود : ٨١] على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى منْ قوله **﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾** [هود : ٨١] كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها. ويحتمل أن يكون منْ قوله **﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ ﴾** [هود : ٨١]. أي فإنها ستلتفت فيصيبها مَا أصابهم ويقوي هذا الاحتمال قراءة الرفع ولَكِن الأول أظهر في المعنى واللّه أعلم .

قَالَ السهيلي : واسم امرأة لوط والهة ، واسم امرأة نوح : والغة. وقَالُوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه الَّذينَ جعلهم اللّه سلفاً لكل خائن مريب : **﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾** [هود : ٨١] فلمّا خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجل واحد ، ويقال : إن امرأته خرجت معه فاللّه أعلم . فلمّا خلصوا منْ بلادهم وطلعت الشَّمْس فكَانَ عند شروقها جاءهم منْ أمر اللّه مَا لا يرد . ومنْ البأس الشديد مَا لا يمكن أن يصد .

وعند أهل الكتاب أن الملائكة أروه أن يصعد إلى رأس الجبل الَّذي هناك فاستبعده وسأل منهم أن يذهب إلي قرية قريبة منهم فقَالُوا : اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها ثُمَّ نحل بهم العذاب فذكروا أنَّه ذهب إلي قرية صغر التي يقول الناس : غور زغر فلمّا أشرقت

الشَّمْس نزل بهم العذاب قَالَ اللَّه تعالى : ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ [هود : ٨٢ ، ٨٣] قَالُوا : اقتلعهن جبريل بطرف جناحه منْ قرارهن وكن سبع مدن بمَنْ فيهن منْ الأمم ، فقَالُوا : إنهم كانوا أربع مائة نسمة . وقيل : أربعة آلاف نسمة و مَا معهم منْ الحيونات ومَا يتبع تلك المدن منْ الأراضي والأماكن والمعتملات فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السَّمَاء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثُمَّ قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها قَالَ مجاهد : فكَانَ أول مَا سقط منها شرفاتها ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ**﴾ [هود :٨٢] والسجيل فارسي معرب : وهُوَ الشديد الصلب القوي ﴿ **مَّنْضُودٍ** ﴾ [هود :٨٢] أي يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم منْ السماء﴿ **مُسَوَّمَةً** ﴾ [هود :٨٣] أيْ معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الَّذي يهبط عليه فيدمغه كمَا قَالَ : ﴿ **مُسَوَّمَةً عندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الذاريات : ٣٤] وكمَا قَالَ تعالى : ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ [الشعراء :١٧٣ ، النمل : ٥٨] وقَالَ تعالى : ﴿**والْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى** ﴾[النجم :٥٣ ، ٥٤] يعني قلبها فهوى بها منكسة عاليها سافلها وغشاها بمطر منْ حجارة منْ سجيل متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه منْ الحاضرين منهم في بلدهم والغائبين عنها منْ المسافرين والنازحين والشاذين منها . ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ؛ ويقال : إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لَمَا سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلي قومها وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثا . وقالت : واقوماه فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم وكانت عينا لهم على منْ يكون عند لوط منْ الضيفان كمَا قَالَ تعالى : ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ** ﴾ [التحريم : ١٠] أي خانتاهمَا في الدين فلم يتبعاهمَا فيه. وليس المراد أنهمَا كانتا على فاحشة حاشا وكلا ولَمَا . فإن اللَّه لا يقدر على نبي أن تبغي امرأته كمَا قَالَ ابن عباس وغيره منْ أئمة السلف والخلف : مَا بغت امرأة نبي قط . ومنْ قَالَ : خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرا . قَالَ اللَّه تعالى في قصة الإفك : لَمَا أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول اللَّه ﷺ حين قَالَ لها أهل الإفك : مَا قَالُوا فعاتب اللَّه المؤمنين وأنب وزجر ووعظ وحذر وقَالَ فيمَا قَالَ : ﴿ **إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيم** ﴾ [النور:١٥، ١٦] أي سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة . وقوله هاهنا ﴿**وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ [هود : ٨٣] أي ومَا هذه العقوبة ببعيدة ممنْ أشبههم في فعلهم . ولهذا ذهب منْ ذهب منْ العلماء إلي أن اللائط يرجم سواء كَانَ محصنا أولا نص عليه الشافعي، وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة منْ الأئمة.

واحتجوا أيضا بمَا رواه الإمام أحمد وأهل السنن منْ حديث عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ قَالَ : « **منْ وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** » [1] . وذهب أبو حنيفة إلي أن اللائط يلقى منْ شاهق جبل . ويتبع بالحجارة كمَا فعل بقوم لوط لقوله تعالى: ﴿**ومَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ [هود:٨٣] وجعل اللّه مكَانَ تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بمَا حولها منْ الأراضي المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة اللّه تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممنْ خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه ودليلا على رحمته بعباده المؤمنين إنجائه إياهم منْ المهلكات. وإخراجه إياهم منْ الظلمات إلي النور كمَا قَالَ تعالى: ﴿ **إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ومَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الشعراء:٨ ، ٩].

وقَالَ تعالى : ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ. إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ . وإنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ . إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[الحجر ٧٣- ٧٧] أي منْ نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم كيف غير اللّه تلك البلاد وأهلها وكيف جعلها بعد مَا كانت آهلة عامرة . هالكة غامرة . كمَا روى الترمذي وغيره مرفوعا:« **اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور اللّه** »[2] ثُمَّ قرأ : ﴿**إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ [الحجر:٧٥] وقوله ﴿**وإنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ** ﴾ [الحجر:٧٦] أي لبطريق مهيع مسلوكٍ إلى الآن كمَا قَالَ:﴿**وإنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

وقَالَ تعالى : ﴿ **ولَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٣٥] وقَالَ تعالى: ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المُؤْمِنِينَ . فَمَا وجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المُسْلِمِينَ وتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ [الذاريات : ٣٥ - ٣٧] أي تركناها عبرةً وعظة لمنْ خاف عذاب الآخرة وخشي الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم اللّه وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط ومن تشبه بقوم فهو منهم . وإن لم يكن منْ كل وجه فمنْ بعض الوجوه كمَا قَالَ بعضهم:

فَإِنْ لم تكُونُوا قومَ لوطٍ بِعَيْنِهِم   فمَا قومُ لوطٍ مِنْكُمُ بِبَعِيدِ

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (١ / ٣٠٠) وأبو داود (٤٤٦٢) والترمذى (١٤٦١) وابن ماجه (٢٥٦١) وابن الجارود فى " المنتقى " (٨٢٠) والدارقطنى (٣ / ١٢٢) والحاكم (٤/ ٣٥٥) والبيهقى فى "السنن" (٨ / ٢٣٢) والبغوى فى شرح السنة " (١٠ /٣٠٨).

(٢) **ضعيف** : رواه الترمذى (٣١٢٥) وأبو نعيم " الحلية " (١٠ / ٢٨١) وابن الجوزى فى " الموضوعات " (٣ / ١٤٦) والخطيب البغدادى فى " تاريخه " (٧ / ٢٤٢) والطبرى فى " تفسيره " (١٤ / ٣١) والعقيلى فى " الضعفاء " (٤ / ١٢٩) وأبو الشيخ فى "الأمثال " (١٢٧) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه . وفى سنده عطية العوفى وهو ضعيف مدلس .

فالعاقل اللبيب الخائف منْ ربه الفاهم يمتثل مَا أمره اللّه به عزّ وجلّ ، ويقبل مَا أرشده إليه رسول اللّه ﷺ منْ إتيان مَا خلق له منْ الزوجات الحلال . والجواري منْ السراري ذوات الجمال. وإياه أن يتبع كل شيطان مريد. فيحق عليه الوعيد. ويدخل في قوله تعالى: ﴿ومَا هيَ منَ الظَّالمينَ ببَعيد﴾ [هود : ٨٣].

قصَّة مدين قوم شعيب عليه السلام

قَالَ اللّه تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط ﴿ وإلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْم اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إلَه غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ والْميزَانَ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ولا تُفْسدُوا في الأَرْض بَعْدَ إصْلاحهَا ذَلكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمنينَ . ولا تَقْعُدُوا بكُلِّ صرَاط تُوعدُونَ وتَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللّه مَنْ آمَنَ به وتَبْغُونَهَا عوَجاً واذْكُرُوا إذْ كُنتُمْ قَليلاً فَكَثَّرَكُمْ وانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ الْمُفْسدينَ . وإن كَانَ طَائفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بالَّذي أُرْسلْتُ به وطَائفَةٌ لَّمْ يُؤْمنُوا فَاصْبرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وهُوَ خَيْرُ الحَاكمينَ . قَالَ المَلأُ الَذينَ اسْتَكْبَرُوا من قَوْمه لَنُخْرجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ والَّذيـنَ آمَنُوا مَعَكَ من قَرْيَتنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مَلَّتنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارهينَ . قَد افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّه كَذباً إنْ عُدْنَا في ملَّتكُم بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللَّهُ منْهَا ومَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فيهَا إلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وسعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ علْماً عَلَى اللَّه تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وبَيْنَ قَوْمنَا بالْحَقِّ وأَنتَ خَيْرُ الفَاتحينَ . وقَالَ المَلأُ الَذينَ كَفَرُوا من قَوْمه لَئن اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إنَّكُمْ إذاً لَّخَاسرُونَ . فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارهمْ جَاثمينَ . الَذينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فيهَا الَذينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الخَاسرينَ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وقَالَ يَا قَوْم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسَالات رَبِّي ونَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْم كَافرينَ ﴾ [الأعراف : ٨٥ - ٩٣].

وقَالَ في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضا ﴿ وإلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْم اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إلَه غَيْرُهُ ولا تَنقُصُوا المكْيَالَ والْميزَانَ إنِّي أَرَاكُم بخَيْرٍ وإنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحيط . ويَا قَوْم أَوْفُوا المكْيَالَ والْميزَانَ بالْقسْط ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ولا تَعْثَوْا في الأَرْض مُفْسدينَ . بَقيَّتُ اللَّه خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمنينَ ومَا أَنَا عَلَيْكُم بحَفيظ . قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ في أَمْوَالنَا مَا نَشَاءُ إنَّكَ لأَنتَ الحَليمُ الرَّشيدُ . قَالَ يَا قَوْم أَرَأَيْتُمْ إن كُنتُ عَلَى بَيِّنَة مِّن رَّبِّي ورَزَقَني منْهُ رزْقاً حَسَناً ومَا أُريدُ أَنْ أُخَالفَكُمْ إلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إنْ أُريدُ إلاَّ الإصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ومَا تَوْفيقي إلاَّ باللَّه عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وإلَيْه أُنيبُ . ويَا قَوْم لا يَجْرمَنَّكُمْ شقَاقي أَن يُصيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالح ومَا قَوْمُ لُوط مِّنكُم ببَعيد . واسْتَغْفرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْه إنَّ رَبِّي رَحيمٌ ودُودٌ . قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثيراً مِّمَّا تَقُولُ وإنَّا لَنَرَاكَ فينَا ضَعيفاً ولَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ومَا أَنتَ عَلَيْنَا بعَزيز . قَالَ يَا قَوْم أَرَهْطي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّه واتَّخَذْتُمُوهُ ورَاءَكُمْ ظهْرياً إنَّ رَبِّي بمَا تَعْمَلُونَ مُحيطٌ . ويَا قَوْم اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتكُمْ إنِّي عَاملٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتيه عَذَابٌ يُخْزيه ومَنْ هُوَ كَاذبٌ وارْتَقبُوا إنِّي مَعَكُمْ رَقيبٌ . ولَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ برَحْمَة مِّنَّا وأَخَذَت الَذينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا في ديَارهمْ جَاثمينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فيهَا أَلا بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود : ٨٤ — ٩٥].

وقَالَ في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضا: ﴿ وإن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ . فَانتَقَمْنَا مِنهُمْ وإنَّهُمَا لَبِإمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : ٧٨ ، ٧٩] .

وقَالَ تعالى في الشعراء بعد قصتهم ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ . إذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ . إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ . ومَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ . أَوْفُوا الكَيْلَ ولا تَكُونُوا مِنَ المُخْسِرِينَ . وزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ . ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. واتَّقُوا الَذِي خَلَقَكُمْ والْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ . قَالُوا إنَّمَا أَنتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ . ومَا أَنتَ إلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وإن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ومَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ.وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء : ١٧٦ - ١٩١].

كَانَ أهل مدين قومًا عرباً يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية منْ أرض معان منْ أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً منْ بحيرة قوم لوط . وكانوا بعدهم بمدة قريبة . ومدين قبيلة عرفت بهم القبيلة وهم منْ بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل وشعيب نبيهم هُوَ ابن ميكيل ابن يشجن . ذكره ابن إسحاق قَالَ : ويقال له بالسريانية : بنـــزون ، وفي هذا نظر . ويقال : شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب : ويقال : شعيب بن نويب بن عيفا بن مدين بن إبراهيم . ويقال : شعيب بن ضيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم ، وقيل : غير ذلك في نسبه.

وقَالَ ابن عساكر: ويقال : جدته . ويقال : أمه بنت لوط عليه السلام وكَانَ ممنْ آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق . وعن وهب بن منبه أنَّه قال: شعيب وملغم ممنْ آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنَّار وهاجرا معه إلى الشام فزوجهمَا بنتي لوط عليه السلام. ذكره ابن قتيبة. وفي هذا كله نظر أيضا واللَّه أعلم .

وذكر أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة سلمة بن سعد العنـــزي : أنه قدم على رسول اللَّه ﷺفأسلم وانتسب إلى عنـــزة فقَالَ : « **نعم الحي عنـــزة مبغي عليهم منصورون قوم شعيب وأختان موسى** » فلو صح هذا دل على أن شعيبا منْ موسى وأنَّه منْ قبيلة منْ العرب العاربة يقال لهم : عنـــزة لا أنهم منْ عنـــزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. فإن هؤلاء بعده بدهر طويل واللَّه أعلم .

وفي حديث أبي ذر الَّذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال: « **أربعة منْ العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر** » وكَانَ بعض السلف يسمي شعيبا خطيب الأنبياء يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلي الإيمان برسالته. وقد روى ابن إسحاق ابن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قَالَ : كَانَ رسول اللَّه ﷺ إذَا ذكر شعيبا قال: « **ذاك خطيب الأنبياء** » وكَانَ أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وهي شجرة منْ الأيك حولها غيضة ملتفة بها ، وكانوا منْ أسوأ الناس معاملة

يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهمَا يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث اللّه فيهم رجلا منهم وهُوَ رسول اللّه شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة منْ بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل اللّه بهم البأس الشديد. وهُوَ الولي الحميد كمَا قَالَ تعالى : ﴿ **وإلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إلَه غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [الأعراف :٨٥] أي دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ماجئتكم به . وأنّه أرسلني وهُوَ مَا أجرى اللّه على يديه منْ المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلا وإن كَانَ هذا اللفظ قد دل عليها إجمالا ﴿ **فَأَوْفُوا الكَيْلَ والْميزَانَ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ولا تُفْسدُوا في الأَرْض بَعْدَ إصْلاحهَا** ﴾ [الأعراف : ٨٥] أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقَالَ : ﴿**ذَلكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمنينَ . ولا تَقْعُدُوا بكُلِّ صرَاط توعدون**﴾ [الأعراف:٨٥ ، ٨٦] أي طريق ﴿ **تُوَعدُونَ** ﴾ أي تتوعدون النَاس بأخذ أموالهم منْ مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل .

قَالَ السدي في تفسيره عن الصحابة: ﴿ **وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ** ﴾ [الأعراف:٨٦] أنهم كانوا يأخذون العشور منْ أموال المارة.

وقَالَ إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : كانوا قومًا طغاة بناة يجلسون على الطريق يبخسون الناس يعني يعشرونهم وكانوا أول منْ سن ذلك ﴿**وتَصُدُّونَ عَن سَبيل اللّه مَنْ آمَنَ به وتَبْغُونَهَا عوَجاً**﴾ [الأعراف :٨٦] فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمَعنَوية الدينية ﴿ **وَاذْكُرُوا إذْ كُنتُمْ قَليلاً فَكَثَّرَكُمْ وانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ الْمُفْسدينَ** ﴾ [الأعراف : ٨٦] ذكرهم بنعمة اللّه تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة وحذرهم نقمة اللّه بهم إن خالفوا مَا أرشدهم إليه ودلهم عليه كمَا قَالَ لهم في القصة الأخرى : ﴿**ولا تَنقُصُوا المكْيَالَ والْميزَانَ إنِّي أَرَاكُم بخَيْر وإنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحيطٍ**﴾ [هود: ٨٤] أي لا تركبوا مَا أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق اللّه بركة مَا في أيديكم ويفقركم ويذهب مَا به يغنيكم وهذا مضاف إلي عذاب الآخرة ومنْ جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة الخاسرة فنهاهم أولاً عن تعاطي مَا لا يليق منْ التطفيف وحذرهم سلب نعمة اللّه عليهم في دنياهم وعذابه الأليم في أخراهم، وعنفهم أشد تعنيف .

ثُمَّ قَالَ لهم آمراً بعد مَا كَانَ عن ضده زاجراً : ﴿ **ويَا قَوْمِ أَوْفُوا المكْيَالَ والْميزَانَ بالْقسْط ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ولا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسدينَ. بَقيَّةُ اللّه خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمنينَ ومَا أَنَا عَلَيْكُم بحَفيظ** ﴾ [هود : ٨٥ ، ٨٦] قَالَ ابن عباس والحسن البصري ﴿ **بقيَّةُ اللّه خيرٌ لكم** ﴾ [هود:٨٦] أيَ رزق اللّه خير لكم منْ أخذ أموال الناس. وقَالَ ابن جرير : مَا فضل لكم منْ الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم منْ أخذ أموال الناس بالتطفيف. قال: وقد روي هذا عن ابن عباس.

وهذا الّذي قاله وحكاه حسن وهُوَ شبيه بقوله تعالى : ﴿ **قُل لاَّ يَسْتَوِي الخَبيثُ والطَّيِّبُ ولَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبيث** ﴾ [المائدة : ١٠٠] يعني أن القليل منْ الحلال خير لكم منْ الكثير منْ الحرام فإن

الحلال مبارك وإن قل والحرام ممحوق وإن كثر كمَا قَالَ تعالى: ﴿**يمحق اللّه الربا ويربي الصدقات**﴾ [البقرة :٢٧٦] .

وقَالَ رسول اللّه ﷺ : « **إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل** » (١) رواه أحمد أي إلى قلة. وقَالَ رسول اللّه ﷺ : « **البيعان بالخيار مَا لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهمَا في بيعهمَا وإن كتمَا وكذبا محقت بركة بيعهما** » (٢)والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل والحرام لا يجدي وإن كثر ولهذا قَالَ نبي اللّه شعيب : ﴿ **بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [هود : ٨٦] وقوله : ﴿ **ومَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظ** ﴾ [هود :٨٦] أيَ افعلوا مَا آمركم به ابَتغاء وجه اللّه ورجاء ثوابه لا لأراكم أنا وغيريَ ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ [هود : ٨٧] يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم أصلواتك هَذه التيَ تصليها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك ونترك مَا يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الّذي ترتضيه أنت ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها ﴿ **إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ [هود : ٨٧] قَالَ ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جَرير يقَولون ذلك قول أعداء اللّه على سبيل الاستهزاء : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ومَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ومَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود : ٨٨] هذا تلطفَ معهم في العبارة ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة يقول لهم أرَأيتم أيها المكذبون ﴿**إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي**﴾ [هود : ٨٨] أي على أمر بين منْ اللّه تعالى أنّه أرسلني إليكم ﴿**وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً** ﴾ [هود:٨٨] يعني النبوة والرسالة يعني وعمي عليكم معرفَتها فأي حيلة لي فيكمَ. وَهذا كمَا تقدم عن نوح عليه السلام أنّه قَالَ لقومه سواء ، وقوله: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ [هود :٨٨] أي لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له وإذَا نهيتكَم عن الشَيْء فأنا أول منْ يتركه وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة وضدها هي المردودة الذميمة كمَا تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم وخطباؤهم الجاهلون .

قَالَ اللّه تعالى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ٤٤] وذكر عندها في الصحيحَ عَن رسول اللّه ﷺ أنّه قال: « **يؤتى بالرجل فيلقى في النّار فتندلق أقتاب بطنه أي تخرج أمعاؤه منْ بطنه فيدور بها كمَا يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النّار فيقولون : يا فلان ما لك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ . فيقول : بلى . كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه** » (٣) . وهذه صفة مخالفي الأنبياء منْ الفجار والأشقياء ، فأمّا السادة منْ النجباء والألباء منْ العلماء الّذينَ يخشون ربهم بالغيب فحالهم كمَا قَالَ نبي اللّه شعيب : ﴿**ومَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ**﴾[هود : ٨٨]

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (١ / ٣٩٥) وابن ماجه (٢٢٧٩) .

(٢) **متفق عليه** : رواه البخارى (٢٠٧٩) ومسلم (٣٧٨٤) كتاب البيوع – باب الصدق فى البيع والبيان .

(٣) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩ / ٥١) .

أي مَا أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقَالَ بجهدي وطاقتي ﴿ **ومَا تَوْفيقي** ﴾ أي في جميع أحوالي ﴿ **إلاَّ باللَّه عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وإلَيْه أُنيبُ** ﴾ [هود : ٨٨] أي عليه أتوكل في سائر الأمور وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري وهَذَا مقام ترغيب. ثُمَّ انتقل إلي نوع منْ الترهيب فقَالَ : ﴿ **ويَا قَوْم لا يَجْرِمَنَّكُمْ شقَاقي أَن يُصيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوح أَوْ قَوْمَ هُود أَوْ قَوْمَ صَالح ومَا قَوْمُ لُوط مِّنكُم ببَعيدَ** ﴾ [هود : ٨٩] أي لَا تحملنكم مخالفتي وبغضكُم مَا جئتكُم به على الاستمرار على ضلالكُم وجهلكم ومخالفتكم فيحل اللَّه بكم منْ العذاب والنكال نظير مَا أحله بنظرائكم وأشباهكم منْ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح منْ المكذبين المخالفين. وقوله ﴿**ومَا قَوْمُ لُوط مِّنكُم ببَعيد** ﴾ [هود : ٨٩] قيل معناه في الزمان : أي مَا بالعهد منْ قدم مما قد بلغكم مَا أحَل بهم عَلَىً كفرهم وعتوهم. وقيل : معناه ومَا هم منكم ببعيد في المحلة والمكان. وقيل : في الصفات والأفعال المستقبحات منْ قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات والجمع بين هذه الأقوال ممكن فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانا ولا مكانا ولا صفات ثُمَّ مزج الترهيب بالترغيب فقَالَ : ﴿ **واسْتَغْفرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْه إنَّ رَبِّي رَحيمٌ ودُودٌ** ﴾ [هود:٩٠] أي أقلعوا عمَا أنتم فيه وتوبوا إلي ربكمَ الرحيم الودود . فإنَّه منْ تابَ إليه تاب عليه . فإنَّه رحيم بعباده أرحم بهم منْ الوالدة بولدها ودود وهُوَ الحبيب ولو بعد التوبة على عبده ولو منْ الموبقات العظام : ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثيراً مِّمَّا تَقُولُ وإنَّا لَنَرَاكَ فينَا ضَعيفاً** ﴾ [هود:٩١] روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهمَ قَالُوا : كَانَ ضرير البصَر.

وقد روي في حديث مرفوع : أنَّه بكى منْ حب اللَّه حتى عمي فرد اللَّه عليه بصره. وقَالَ: يا شعيب أتبكي خوفا منْ النَّار أو منْ شوقك إلي الْجَنَّة ؟ . فقَالَ : بل منْ محبتك . فإذَا نظرت إليك فلا أبالي ماذَا يصنع بي . فأوحى اللَّه إليه هنيئا لك يا شعيب لقائي فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي. رواه الواحدي عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي عن علي ابن الحسن بن بندار عن أبي عبد اللَّه محمد بن إسحاق الرملي عن هشام بن عمار عن إسماعيل ابن عباس عن يحيى بن سعيد عن شداد بن أمين عن النبي ﷺ بنحوه وهُوَ غريب جداً وقد ضعفه الخطيب البغدادي. وقولهم : ﴿ **ولَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ومَا أَنتَ عَلَيْنَا بعَزيز** ﴾ [هود : ٩١] وهذا منْ كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قَالُوا ﴿ **مَا نَفْقَهُ كَثيراً مِّمَّا تَقُولُ** ﴾ [هود : ٩١] أي مَا نفهمه ولا نتعقله لأنا لا نحبه ولا نريده وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه وهُوَ كمَا قَالَ كفار قريش لرسول اللَّه ﷺ : ﴿ **وقَالُوا قُلُوبُنَا في أَكنَّة مِّمَّا تَدْعُونَا إلَيْه وفي آذَاننَا وقْرٌ ومنْ بَيْننَا وبَيْنكَ حجَابٌ فَاعْمَلْ إنَّنَا عَاملُونَ** ﴾ [فصلت: ٥] وقولَهم ﴿**وَإنَّا لَنَرَاكَ فينَا ضَعيفاً**﴾ [هود :٩١] أي مَضطهداً مهجورا ﴿**وَلَوْلاَ رَهْطُكَ** ﴾ [هود : ٩٢] أي قبيلتك وعَشيرتك فينا ﴿**لَرَجَمْنَاكَ ومَا أَنتَ عَلَيْنَا بعَزيز. قَالَ يَا قَوْم أَرَهْطي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّه**﴾ [هود : ٩١ ، ٩٢] أي تخافون قبيلتي وعشيرَتي وترعوني بسببهم ولا تخافون جنبة اللَّه ولا تراعوني لأني رسول اللَّه فصار رهطي أعز عليكم منْ اللَّه ﴿**وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظهْريّاً**﴾[هود: ٩٢] أي جانب اللَّه وراء ظهوركم ﴿**إنَّ رَبِّي بمَا تَعْمَلُونَ مُحيطٌ**﴾[هود:٩٢] أي : هُوَ عليم بمَا تعملونه ومَا تصنعونه محيط بذلك كله

وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه ﴿ **وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ** ﴾ [هود:٩٣] وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون منْ تكون له عاقبة الدار. ومنْ يحل عليه الهلاك والبوار ﴿ **مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ** ﴾ [هود:٩٣] أي في هذه الحياة الدُّنْيَا ﴿**وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾ [هود :٣٩] أيَ في الأخرى ﴿ **وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ** ﴾ أي مني ومنكم فيمَا أخبر وبشر وحذر ﴿**وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُم رَقِيبٌ** ﴾ [هود : ٩٣].

وهذا كقوله ﴿ **وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ . قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾ [الأعراف:٨٧- ٨٩] طلبوا بزعمهم أن يردوا منْ آمن منهم إلى ملتهم فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقالَ ﴿ **أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ**﴾ أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً وإنّما يعودون إليه إن عادوا اضطرارا مكرهين وذلك لأن الإيمان إذَا خالطته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد ولا يرتد أحد عنه ولا محيد لأحد منه. ولهذا قالَ : ﴿ **قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً . عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ [الأعراف : ٨٩] أي فهُوَ كافينا وهُوَ العاصم لنا وإليه ملجأنا في جميع أمرنا . ثُمَّ استفتح على قومه واستنصر ربه عليه في تعجيل مَا يستحقونه إليهم فقالَ : ﴿ **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾ [الأعراف : ٨٩] أي الحاكمين فدعا عليهم واللّه لا يرد دعاء رسله إذَا استنصروه على الَّذِينَ جحدوه وكفروه ورسوله خالفوه. ومع هذا صمموا على مَا هم عليه مشتملون. وبه متلبسون ﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ.**﴾ [الأعراف : ٩٠] قالَ اللّه تعالى : ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ [الأعراف : ٩١] ذكر في سورة الأعراف : أنهم أخذهم رجفة أي رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالا شديدا أزهقت أرواحهم منْ أجسادهم وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها وأصبحت جثتهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها. وقد جمع اللّه عليهم أنواعا منْ العقوبات وصنوفا منْ المثلات وأشكالا منْ البليات وذلك لَما اتصفوا به منْ قبيح الصفات سلط اللّه عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات وظلة أرسل عليهم منها شرر النَّار منْ سائر أرجائها والجهات. ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بمَا يناسب سياقها ويوافق طباقها في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي اللّه وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج منْ قريتهم أو ليعودون في ملتهم راجعين فقالَ تعالى : ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ [الأعراف:٩١] فقابل الإرجفاف بالرجفة والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياقَ ومتعلقَ بمَا تقدمه منْ السياق.

وأمّا في سورة هود فذكر : أهم أخذهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأهم قَالُوا لنبي اللّه على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : **﴿قالوا يا شعيب أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾** [هود:٨٧] فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزَجر عَن تعاطي هذا الكلام القَبيح الَّذِي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم.

وأمّا في سورة الشعراء فذكر أنّه أخذهم عذاب يوم الظلة. وكَانَ ذلك إجابة لَما طلبوا. وتقريبا إلى مَا إليه رغبوا. فإنهم **﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُون ﴾** [الشعراء:١٨٥ - ١٨٨] قَالَ اللّه تعالى:**﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّة إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم ﴾** [الشعراء : ١٨٨ ، ١٨٩] ومنْ زعم منْ المفسرين كقتادةَ وغيرَه أن أصحاب الأيكةَ أُمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف . وإنّما عملتهم شيئان أحدهمَا أنّه قَالَ : **﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَة الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾** [الشعراء : ٧٦ ، ١٧٧] ولم يقل أخوهم كمَا قَالَ : وإلى مدين أخاهمَ شعيبا. والثاني : أنّه ذكر عذابهم بيوم الظلة وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة والجواب عن الأول : أنّه لم يذكر الأخوة بعد قوله **﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَة الْمُرْسَلِينَ ﴾** [الشعراء : ١٧٦] لأنه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا ولَمَا نسَبهم إلي القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم. وهذا الفرق منْ النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة. وأمّا إحتجاجهم بيوم الظلة فإن كَانَ دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلا على أهمَا أمتان أخريان وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئا منْ هذا الشأن.

فأمّا الحديث الَّذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام منْ طريق محمد بن عثمان بن أَبي شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن شفيق بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد اللّه بن عمرو مرفوعاً : « **إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث اللّه إليهمَا شعيبا النبي عليه السلام** » فإنَّه حديث غريب وفي رجاله منْ تكلم فيه. والأشبه أنّه منْ كلام عبد اللّه بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك منْ تلك الزاملتين منْ أخبار بني إسرائيل واللّه أعلم.

ثُمَّ قد ذكر اللّه عن أهل الأيكة منْ المذمة مَا ذكره عن أهل مدين منْ التطفيف في المكيال والميزان فدل على أهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع منْ العذاب. وذكر في كل موضع مَا يناسب منْ الخطاب. وقوله : **﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّة إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم﴾** [الشعراء : ١٨٩] ذكروا : أهم أصابهم حر شديد وأسكن اَللّه هبوب الهواء عنهم سَبعةَ أيام فكَانَ لا ينفعهم منْ ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم في الأسراب فهربوا منْ محلتهم إلي البرية فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها فلمّا تكاملوا فيه أرسلها اللّه ترميهم بشرر وشهب ورجفت بهم الأَرْض وجاءهم صيحة منْ السَّمَاء فأزهقت الأرواح وخربت الأشباح ، **﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ**

جَاثِمِينَ . الَذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩١ ، ٩٢] . ونجى اللَّه شعيبا ومنْ معه منْ المؤمنين ، كمَا قَالَ تعالى وهُوَ أصدق القائلين : ﴿ولَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وأَخَذَتِ الَذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ [هود : ٩٤ ، ٩٥] وقَالَ تعالى : ﴿وقَالَ المَلأُ الَذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِه لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إنَّكُمْ إذاً لَّخَاسِرُونَ . فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ [الأعراف: ٩٠ – ٩٢] وهذا في مقابلة قولهم ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إنَّكُمْ إذاً لَّخَاسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٠].

ثُمَّ ذكر تعالى عن نبيهم أنَّه نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً فقَالَ تعالى: ﴿فتولى عنهم وقال يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ونَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف : ٩٣] أي قد أديت مَا كَانَ واجباً عليّ منْ البلاغ التام والنصح الكامل وحرصت على هدايتكم بكل مَا أقدر عليه وأتوصل إليه فلم ينفعكم ذلك لأن اللَّه لا يهدي منْ يضل ومَا لهم منْ ناصرين فلست أتأسف بعد هذا عليكم لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا تخافون يوم الفضيحة ولهذا قَالَ : ﴿ فَكَيْفَ آسَى ﴾ أي أحزن على قوم كافرين ، أي لا تقبلون الحق ولا ترجعون إليه ولا تلتفون إليه فحل بهم منْ بأس اللَّه الَّذي لا يرد مَا لا يدافع ولا يمانع ولا محيد لأحد أريد به عنه ولا مناص منه. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس : أن شعيبا عليه السلام كَانَ بعد يوسف عليه السلام. وعن وهب بن منبه : أن شعيبا عليه السلام مات بمكة ومنْ معه منْ المؤمنين وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم .

ذكر ذرّية إبراهيم

قد قدمنا قصته مع قومه ومَا كَانَ منْ أمرهم ومَا آل إليه أمره عليه السلام والتحية والإكرام وذكرنا مَا وقع في زمانه منْ قصة قوم لوط. وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام لأنها قرينتها في كتاب اللَّه عز وجل في مواضع متعددة فذكر تعالى بعد قصة قوم لوط قصة مدين وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كمَا قدمنا . فذكرناها تبعا لها اقتداء بالقرآن العظيم. ثُمَّ نشرع الآن في الكلام على تفضيل ذرية إبراهيم عليه السلام لأن اللَّه جعل في ذريته النبوة والكتاب فكل نبي أرسل بعده فمنْ ولده .

ذكر إسماعيل عليه السّلام

وقد كَانَ للخليل بنون كمَا ذكرنا . ولَكِن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان أسنهمَا وأجلهمَا الذي هُوَ الذبيح على الصحيح إسماعيل بكر إبراهيم الخليل منْ هاجر القبطية المصرية عليها السلام منْ العظيم الجليل. ومنْ قَالَ : إن الذبيح هُوَ إسحاق فإنّما تلقاه منْ نقلة بني إسرائيل الَّذِينَ بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل وخالفوا مَا بأيديهم في هذا منْ التنــزيل. فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر. وفي رواية الوحيد وأيا مَا كَانَ فهُوَ إسماعيل بنص

الدليل ففي نص كتابهم إن إسماعيل ولد ولإبراهيم منْ العمر ست وثمانون سنة. وإنّما ولد إسحاق بعد مضي مائة سنة منْ عمر الخليل فإسماعيل هُوَ البكر لا محالة وهُوَ الوحيد صورة ومعنى على كل حالة. أمّا في الصورة فلأنه كَانَ وحده ولده أزيد منْ ثلاثة عشر سنة وأمّا أنّه وحيد في المعني فإنّه هُوَ الّذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر وكَانَ صغيراً رضيعا فيمَا قيل : فوضعهمَا في وهاد جبال فاران وهي الجبال التي حول مكة نعم المقيل وتركهمَا هنالك ليس معهمَا منْ الزاد والماء إلا القليل وذلك ثقة باللّه وتوكلا عليه. فحاطهمَا اللّه تعالى بعنايته وكفايته فنعم الحسيب والكافي والوكيل والكفيل فهذا هُوَ الولد الوحيد في الصورة والمعنى ولَكن أين منْ يتفطن لهذا السر؟ وأين منْ يحل بهذا المحل ؟ والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل. وقد أثنى اللّه تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد والمحافظة على الصلاة والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب مع مَا كَانَ يدعو إليه منْ عبادة رب الأرباب . قَالَ تعالى : ﴿ **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الصافات: ١٠١، ١٠٢] فطاوع أباه على مَا إليه دعاه. ووعده بأن سيصبر فوفى بذلك وصبر على ذلك.

وقَالَ تعالى : ﴿ **واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وكَانَ رَسُولاً نَّبِياً . وكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِياً** ﴾ [مريم : ٥٤ ، ٥٥] وَقَالَ تعالى : ﴿ **واذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي والأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ. واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار** ﴾ [ص:٤٥-٤٨] .

وقَالَ تعالى : ﴿ **وإِسْمَاعِيلَ وإِدْرِيسَ وذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ . وأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٨٥ ، ٨٦] وقَالَ تعالى : ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ** ﴾[النساء: ١٦٣] الآية. وقَالَ تعالى : ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ومَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ومَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ** ﴾ [البقرة : ١٣٦] الآية. ونظيرها منْ السورة الأخرى. وقَالَ تعالى: ﴿ **أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ومَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة : ١٤٠] الآية. فذكر اللّه عنه كل صفة جميلة وجعله نبيه ورسوله وبرأه منْ كل مَا نسب إليه الجاهلون. وأمر بأن يؤمن بمَا أنزل عليه عباده المؤمنون. وذكر علماء النسب وأيام الناس أنّه أول منْ ركب الخيل وكانت قبل ذلك وحوشاً فأنسها وركبها. وقد قَالَ سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه: حدثنا شيخ منْ قريش حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن عبد اللّه بن عمر أن رسول اللّه ﷺ قَالَ : « **اتخذوا الخيل واعتقبوها فإنها ميراث أبيكم إسماعيل** » وكانت هذه العراب وحشا فدعا لها بدعوته التي كَانَ أعطي فأجابته وأنّه أول منْ تكلم بالعربية الفصيحة البليغة. وكَانَ قد تعلمها منْ العرب العاربة الّذينَ نزلوا عندهم بمكة منْ جرهم والعماليق وأهل اليمن منْ الأمم المتقدمين منْ العرب قبل الخليل.

قَالَ الأموي: حدثني علي بن المغيرة . حدثنا أبو عبيدة . حدثنا مسمع بن مالك عن محمد ابن علي بن الحسين عن آبائه عن النبي ﷺ أنّه قَالَ : « **أول منْ فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل** وهُوَ ابن أربع عشرة سنة » فقَالَ له يونس : صدقت يا أبا سيار هكذا أبو جري حدثني. وقد قدمنا: أنّه تزوج لَمَا شب منْ العماليق امرأة وأن أباه أمره بفراقها ففارقها. قَالَ الأموي: هي عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقي. ثُمَّ نكح غيرها فأمره أن يستمر بها فاستمر بها وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي وقيل هذه ثالثة فولدت له اثني عشر ولدا ذكرا. وقد سماهم محمد بن إسحاق رحمه اللّه وهم: نابت . وقيذر . وإزبل . وميشى . ومسمع . وماش . ودوصا . وأرر . ويطور . ونبش . وطيمَا . وقيذما. وهكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم. وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيمَا المبشر بهم المتقدم ذكرهم. وكذبوا في تأويلهم ذلك . وكَانَ إسماعيل عليه السلام رسولا إلى أهل تلك الناحية ومَا والاها منْ قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات اللّه وسلامه عليه. ولَمَا حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق وزوج ابنته نسمة منْ ابن أخيه العيص بن إسحاق فولدت له الروم. ويقال لهم : بنو الأصفر لصفرة كانت في العيص. وولدت له اليونان في أحد الأقوال. ومنْ ولد العيص الأشبان . قيل : منهمَا أيضا. وتوقف ابن جرير رحمه اللّه.

ودفن إسماعيل نبي اللّه بالحجر مع أمه هاجر . وكَانَ عمره يوم مات مائة وسبعا وثلاثين سنة. وروي عن عمر بن عبد العزيز أنّه قال: شكى إسماعيل عليه السلام إلى ربه عزّ وجلّ حر مكة فأوحى اللّه إليه إنِّي سأفتح لك بابا إلى الْجَنَّة إلى الموضع الَّذِي تدفن فيه تجري عليك روحها إلى يوم القيامة.

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه نابت وقيذار. وسنتكلم على أحياء العرب وبطونها ، وعمائرها وقبائلها وعشائرها من لدن إسماعيل عليه السلام إلى زمان رسول الله ﷺ . وذلك إذا انتهينا إلى أيامه الشريفة وسيرته المنيفة بعد الفراغ من أخبار أنبياء إسرائيل إلى زمان عيس ابن مريم خاتم أنبيائهم ومحقق أنبائهم . ثم نذكر ما كان فى زمن بنى إسرائيل . ثم ما وقع فى أيام الجاهلية ثم ينتهى الكلام إلى سيرة نبينا رسول الله إلى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم من الأمم إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم العزيز الحكيم .

إسحاق بن إبراهيم عليهمَا الصَّلاة والتسليم

قد قدمنا : أنّه ولد ولأبيه مائة سنة بعد أخيه إسماعيل بأربع عشر سنة. وكَانَ عمر أمه سارة حين بشرت به تسعين سنة قَالَ اللّه تعالى : ﴿ **وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِياً مِّنَ الصَّالحينَ. وبَارَكْنَا عَلَيْه وعَلَى إِسْحَاقَ ومن ذُرِّيَّتهمَا مُحْسنٌ وظَالمٌ لِّنَفْسه مُبينٌ** ﴾ [الصافات:١١٢، ١١٣]. وقد ذكره اللّه تعالى بالثناء عليه في غير مَا آية منْ كتابه العزيز. وقدمنا في حديث أبي هريرة عن رسول اللّه

ﷺ: « أن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »[1].
وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لَمّا تزوج رفقا بنت بتوايل في حياة أبيه كَانَ عمره أربعين سنة وأنها كانت عاقراً فدعا اللّه لها فحملت فولدت غلامين توأمين أولهمَا : سموه عيصو وهُوَ الّذي تسميه العرب العيص وهُوَ والد الروم. والثاني : خرج وهُوَ آخذ بعقب أخيه فسموه يعقوب وهُوَ إسرائيل الّذي ينتسب إليه بنو إسرائيل قَالُوا : وكَانَ إسحاق يحب العيصو أكثر منْ يعقوب لأنه بكره وكانت أمهمَا رفقا تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر.

قَالُوا : فلمّا كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعاما وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له . وكَانَ العيص صاحب صيد فذهب يبتغي ذلك فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين منْ خيار غنمه ويصنع منهمَا طعاما كمَا اشتهاه أبوه ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له فقامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت على ذراعيه وعنقه منْ جلد الجديين لأن العيص كَانَ أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك فلمّا جاء به وقربه إليه قَالَ : منْ أنت ؟ قَالَ : ولدك فضمه إليه وجسه وجعل يقول : أمّا الصوت فصوت يعقوب . وأمّا الجس والثياب فالعيص فلمّا أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدرا وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده وأن يكثر رزقه وولده.

فلمّا خرج منْ عنده جاء أخوه العيص بمَا أمره به والده فقربه إليه. فقَالَ له: مَا هذا يا بني؟ قَالَ : هذا الطعام الّذي اشتهيته فقَالَ : أمّا جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقَالَ: لا واللّه وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك فوجد في نفسه عليه وجداً كثيراً. وذكروا أنّه تواعده بالقتل إذَا مات أبوهمَا وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى وأن يجعل لذريته غليظ الأرْض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم فلمّا سمعت أمهمَا مَا يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها لابان الّذي بأرض حران . وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه ، وأن يتزوج منْ بناته. وقَالت لزوجها إسحاق : أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل . فخرج يعقوب عليه السلام منْ عندهم منْ آخر ذلك اليوم فأدركه المساء في موضع فنام فيه وأخذ حجرا فوضعه تحت رأسه ونام فرأى في نومه ذلك معراجا منصوبا منْ السَّمَاء إلى الأرْض وإذَا الملائكة يصعدون فيه وينـــزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له : إنِّي سأبارك عليك وأكثر ذريتك وأجعل لك هذه الأرْض ولعقبك منْ بعدك.

فلمّا هب منْ نومه فرح بمَا رأى ونذر للّه لئن رجع إلى أهله سالمًا ليبنين في هذا الموضع معبد اللّه عزّ وجلّ وأن جميع مَا يرزقه منْ شَيْء يكون للّه عشره ثُمَّ عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنا يتعرفه به وسمي ذلك الموضع بيت إيل أي بيت اللّه وهُوَ موضع بيت المقدس اليوم الّذي بناه يعقوب بعد ذلك كمَا سيأتي قَالُوا : فلمّا قدم يعقوب على خاله أرض حران إذَا له

---

(١) سبق تخريجه .

ابنتان اسمْ الكبرى: ليا ، واسم الصغرى : راحيل ، وكانت أحسنهمَا وأجملهمَا فأجابه إلى ذلك بشرط أن ترعى على غنمه سبع سنين فلمّا مضت المدة على خاله لابان صنع طعاما وجمع الناس عليه وزف إليه ليلا ابنته الكبرى ليا وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر. فلمّا أصبح يعقوب إذَا هي ليا ، فقَالَ لخاله : غدرت بي وأنت إنّما خطبت إليك راحيل ، فقَالَ : إنَّه ليس منْ سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها فعمل سبع سنين . وأدخلها عليه مع أختها ، وكَانَ ذلك سائغا في ملتهم . ثُمَّ نسخ في شريعة التوراة . وهٰذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم. ووهب لابان لكل واحدة منْ ابنتيه جارية فوهب لليا جارية اسمها : زلفى، ووهب لراحيل جارية اسمها : بلهى. وجبر اللّٰه تعالى ضعف ليا بأن وهب لها أولاداً فكَانَ أول منْ ولدت ليعقوب روبيل . ثُمَّ شمعون . ثُمَّ لاوي . ثُمَّ يهوذا فغارت عند ذلك راحيل . وكانت لا تحبل فوهبت ليعقوب جاريتها بلهى فوطئها فحملت وولدت له غلاما سمته دان وحملتْ وولدت غلاما آخر سمته نيفتالي فعمدت عند ذلك ليا فوهبت جاريتها زلفى منْ يعقوب عليه السلام . فولدت له جاد وأشير غلامين ذكرين . ثُمَّ حملت ليا أيضا فولدت غلاما خامساً منها وسمته : إيساخر. ثُمَّ حملت وولدت غلاما سادساً سمته زابلون . ثُمَّ حملت وولدت بنتا سمتها دينا فصار لها سبعة منْ يعقوب. ثُمَّ دعت اللّٰه تعالى راحيل وسألته أن يهب لها غلاما منْ يعقوب فسمع اللّٰه نداءها وأجاب دعائها فحملت منْ نبي اللّٰه يعقوب فولدت له غلاما عظيمَا شريفا حسنا جميلا ، سمته يوسف كل هذا وهم مقيمون بأرض حران وهُوَ يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى فصار مدة مقامه عشرين سنة فطلب يعقوب منْ خاله لابان أن يسرحه ليمر إلى أهله فقَالَ له خاله إنِّي قد بورك لي بسببك فسلني منْ مالي مَا شئت فقَالَ تعطيني كل حمل يولد منْ غنمك هذه السنة أبقع وكل حمل ملمع أبيض بسواد وكل أملح ببياض وكل أجلح أبيض منْ المعز . فقال: نعم . فعمد بنوه فأبرزوا منْ غنم أبيهم مَا كَانَ على هذه الصفات منْ التيوس لئلا يولد شَيْء منْ الحملان على هذه الصفات وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم . قَالُوا : فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض منْ لوز ولب فكَانَ يقشرها بلقا وينصبها في مساقي الغنم منْ المياه لينظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها في بطونها فتصير ألوان حملانها كذلك وهذا يكون منْ باب خوارق العادات وينتظم في سلك المعجزات فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد وتغير له وجه خاله وبنيه وكأنهم انحصروا منه.

وأوحى اللّٰه تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ، ووعده بأن يكون معه . فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته فتحمل بأهله وماله . وسرقت راحيل أصنام أبيها . فلمّا جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم لحقهم لابان وقومه فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه وهلا أعلمه فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول وحتى يودع بناته وأولادهن

و لم أخذوا أصنامه معهم . ولم يكن عند يعقوب علم منْ أصنامه فأنكر أن يكون أخذوا له أصناما فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئاً . وكانت راحيل قد جعلتهن في بردعة الحمل وهي تحتها فلم تقم واعتذرت بأنها طامث فلم يقدر عليهن فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها : جلعاد على أنَّه لا يهين بناته ولا يتزوج عليهن ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر لا لابان ولا يعقوب وعملا طعاما وأكل القوم معهم وتودع كل منهمَا منْ الآخر وتفارقوا راجعين إلى بلادهم فلمّا اقترب يعقوب منْ أرض ساعير تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم، وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك في أربعمائة راجل فخشي يعقوب منْ ذلك . ودعا اللَّه عزّ وجلّ وصلى له وتضرع إليه وتمسكن لديه وناشده عهده ووعده الَّذي وعده به وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص ، وأعد لأخيه هدية عظيمة وهي مائتا شاة وعشرون تيساً ومائتا نعجة وعشرون كبشاً وثلاثون لقحة [1] وأربعون بقرة وعشرة منْ الثيران وعشرون أتاناً وعشرة منْ الحمر وأمر عبيده أن يسوقوا كلا منْ هذه الأصناف وحده وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة. فإِذَا لقيهم العيص فقَالَ للأول : لمنْ أنت ؟ . ولمنْ هذه معك ؟ . فليقل لعبدك يعقوب أهداها لسيدي العيص وليقل الَّذي بعده كذلك وكذا الَّذي بعده ويقول كل منهم : وهُوَ جاء بعدنا.

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين . وجعل يسير فيهمَا ليلاً، ويكمنْ نهاراً . فلمّا كَانَ وقت الفجر منْ الليلة الثانية تبدى له ملك منْ الملائكة في صورة رجل فظنه يعقوب رجلاً منْ الناس فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه فظهر عليه يعقوب فيمَا يرى إلا أن الملك أصاب وركه ، فعرج يعقوب فلمّا أضاء الفجر قَالَ له الملك : مَا اسمك ؟ . قَالَ يعقوب : قَالَ : لا ينبغي أن تدعي بعد اليوم إلا إسرائيل . فقَالَ له يعقوب : ومنْ أنت .ومَا اسمك ؟ فذهب عنه ، فعلم أنَّه ملك منْ الملائكة وأصبح يعقوب وهُوَ يعرج منْ رجله فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء ورفع يعقوب عينيه ، فإِذَا أخوه عيصو قد أقبل في أربعمائة راجل، فتقدم أمام أهله فلمّا رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات . وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان ، وكَانَ مشروعاً لهم كمَا سجدت الملائكة لآدم تحية له وكمَا سجد أخوة يوسف وأبوه له كمَا سيأتي فلمّا رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ورفع العيص عينيه ، ونظر إلى النساء والصبيان ، فقَالَ : منْ أين لك هؤلاء ؟ . فقَالَ : هؤلاء الَّذينَ وهب اللَّه لعبدك فدنت الأمتان وبنوهمَا ، فسجدوا له ، ودنت ليا وبنوها فسجدوا له ، ودنت راحيل وابنها يوسف فخرّا سجداً له وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها ورجع العيص فتقدم أمامه ولحقه يعقوب بأهله ومَا معه منْ الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبال ساعير فلمّا مر بساحور ابتنى له بيتاً ولدوابه ظلالا . ثُمَّ مر على أورشليم قرية شخيم فنـــزل قبل القرية واشترى مزرعة شخيم بن جمور بمائة نعجة فضرب هنالك فسطاطه وابتنى . ثمّ مذبحا فسماه إيل إلـــه إسرائيل

---

(١) اللقحة : هي الناقة الحلوب .

وأمره اللّه ببنائه ليستعلن له فيه. وهُوَ بيت المقدس اليوم الَّذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهُوَ مكَانَ الصخرة التي أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك كمَا ذكرنا أولاً.

وذكر أهل الكتاب هنا قصة دينا بنت يعقوب بنت ليا ، ومَا كَانَ منْ أمرها مع شخيم ابن جمور الَّذي قهرها على نفسها ، وأدخلها منــزله ثُمَّ خطبها من أبيها وإخوتها ، فقَالَ : إخوتها إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا فإنا لا نصاهر قومًا غلفاً فأجابوهم إلى ذلك، واختتنوا كلهم فلمّا كَانَ اليوم الثالث واشتد وجعهم منْ ألم الختان مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا شخيمًا وأباه جمور لقبيح مَا صنعوا إليهم مضافاً إلى كفرهم ومَا كانوا يعبدونه منْ أصنامهم فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة .

ثُمَّ حملت راحيل فولدت غلاما وهُوَ بنيامين إلا أنها جهدت في طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه . فدفنها يعقوب في أفراث وهى بيت لحم ، وصنع يعقوب قبرها حجراً وهى الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم. وكَانَ أولاد يعقوب الذكور اثني عشر رجلاً فمنْ ليا : روبيل . وشمعون . ولاوي . ويهوذا . وايساخر . وزايلون . ومنْ راحيل : يوسف . وبنيامين . ومنْ أمة راحيل : دان . ونفتالي . ومنْ أمة ليا : حاد . وأشير . عليهم السلام .

وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التي في أرض كنعان حيث كَانَ يسكن إبراهيم . ثُمَّ مرض إسحاق . ومات عن مائة وثمانين سنة . ودفنه ابناه العيص ، ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها كمَا قدمنا.

مَا وقع منْ الأمور العجيبة في حياة إسرائيل

قصَّة يوسف بن راحيل عليه السلام

فمن ذلك قصة يوسف بن راحيل . وقد أنزل اللّه عزّ وجلّ في شأنه ومَا كَانَ منْ أمره سورة منْ القرآن العظيم ليتدبر مَا فيها منْ الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم. أعوذ باللّه منْ الشيطان الرجيم . بسم اللّه الرحمن الرحيم : ﴿ **الـر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ [يوسف:١-٣] قد تكلمنا على الحروف المقطعة أول تفسير سورة البقرة فمنْ أراد تحقيقه فلينظره ثم. وتكلمنا على هذه السورة مستقصى في موضعها منْ التفسير ونحن نذكرههنا نبذاً مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز .

وجملة القول في هذا المقام أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الَّذي أنزله على عبده ورسوله الكريم بلسان عربي فصيح بين واضح جلي يفهمه كل عاقل ذكي زكي ، فهُوَ أشرف كتاب نزل منْ السَّمَاء أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان. بأفصح لغة وأظهر بيان .فإن كَانَ السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ودمغ الباطل وزيفه ورده .

وإن كَانَ في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج وأبين حكمًا . وأعدل حكمًا فهُوَ كمَا قَالَ تعالى:**﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾** [الأنعام:١١٥]. يعني صدقا في الأخبار عدلا في الأوامر والنواهي .

ولهذا قَالَ تعالى : **﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وإن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ ﴾** [يوسف : ٣] أي بالنسبة إلى مَا أوحى إليك فيه .

كمَا قَالَ تعالى: **﴿ وكَذَلكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ ولا الإِيمَانُ ولَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِه مَن نَّشَـــاءُ مِنْ عِبَادِنَا وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾** [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] وقَالَ تعالى : **﴿كَذَلكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وقَدْ آتَيْنَاكَ من لَّدُنَّا ذِكْراً . مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْراً . خَالِدِينَ فِيهِ وسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً ﴾** [طه:٩٩-١٠١] .

يعني منْ أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره منْ الكتب فإنَّه يناله هذا الوعيد كمَا قَالَ في الحديث المروي في المسند والترمذي عن أمير المؤمنين علي مرفوعا وموقوفا : «**منْ ابتغى الهدى في غيره أضله اللّه**» [1]. وقَالَ الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان . حدثنا هشام أنبأنا خالد عن الشعبي عن جابر أن عمر بن الخطاب أتى النبيﷺ بكتاب أصابه منْ بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قَالَ : فغضب . وقَالَ : « **أتتهوكون فيها يابن الخطاب ؟ والّذِي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شَيْء فيخبرونكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه والّذِي نفسي بيده لو أن موسى كَانَ حيا مَا وسعه إلا أن يتبعني** » [2] إسناد صحيح. ورواه أحمد منْ وجه آخر عن عمر فقَالَ رسول اللّه ﷺ : « **والّذِي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثُمَّ اتبعتموه وتركتموني لضللتم إنكم حظي منْ الأمم وأنا حظكم منْ النبيين** » [3].

وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف. وفي بعضها أن رسول اللّه ﷺ خطب الناس فقَالَ في خطبته : « **يا أيها الناس إنّي قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لي اختصارا ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون** » . ثُمَّ أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفا حرفا **﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ويُعَلِّمُكَ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ويُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾** [يوسف : ٤ - ٦] قد قدمنا أن

---

(١) **ضعيف** : رواه الترمذى (٢٩٠٦) وفى سنده الحارث الأعور وهو ضعيف . وقال الترمذى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول . وفى الحارث مقال .

(٢) **صحيح** : رواه أحمد (٣ / ٣٨٧) رقم (١٥٠٩٤) .

(٣) **ضعيف** : رواه أحمد (٣ / ٤٧٠ ، ٤٧١) رقم (١٥٨٠٨) وعبد الرزاق (١٠١٦٤) وفى سنده جابر ابن يزيد الجعفى وهو ضعيف كما فى التقريب (١ / ١٢٣) .

يعقوب كَانَ له منْ البنين اثنا عشر ولدا ذكرا وسميناهم وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم، وكَانَ أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام . وقد ذهب طائفة منْ العلماء إلى أنّه لم يكن فيهم نبي غيره وباقي إخوته لم يوح إليهم. وظاهر مَا ذكر منْ فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول . ومنْ استدل على نبوتهم بقوله : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [البقرة:١٣٦] وزعم : أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل ومَا كَانَ يوجد فيهم منْ الأنبياء الَّذينَ ينـــزل عليهم الوحي منْ السَّمَاء واللَّه أعلم .

وقد اختار هذا القول الزمخشري ، وحكاه فخر الدين عن طائفة ويدل عليه كلام القاضي عياض بن موسى السبتي في كتابه الشفاء حيث قَالَ : وأمّا قصة يوسف وإخوته فليس عن يوسف فيها تعقيب ، وأمّا إخوته فلم تثبت نبوتهم فيلزم الكلام على أفعالهم وذكر الأسباط وعدهم في القرآن ذكر الأنبياء . فقَالَ المفسرون : يريد منْ النبي منْ أبناء الأسباط وقد قيل :إنهم كانوا حين فعلوا بيوسف مَا فعلوه صغار الأسنان ولهذا لم يميزوا يوسف حين اجتعوا به ، ولهذا قَالُوا : أرسل معنا أخانا نرتع ونلعب وإن ثبت لهم نبوة بعد هذا والله أعلم انتهى مَا ذكره .

ومَا يؤيد أن يوسف عليه السلام هُوَ المختص منْ بين إخوته بالرسالة والنبوة أنّه مَا نص على واحد منْ إخوته سواه فدل على مَا ذكرناه ويستأنس لهذا بمَا قَالَ الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد. حدثنا عبد الرحمن عن عبد اللَّه بن دينار عن أبيه عن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم** » [1] انفرد به البخاري فرواه عن عبد اللَّه بن محمد وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به. وقد ذكرنا طرقه في قصة إبراهيم بمَا أغنى عن إعادته ههنا وللَّه الحمد والمنة .

قَالَ المفسرون وغيرهم : رأى يوسف عليه السلام وهُوَ صغير قبل أن يحتلم كَأَنَّ ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾ وهم إشارة إلى بقية إخوته ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ وهمَا عبارة عن أبويه قد سجدوا له فهاله ذلك ، فلمّا استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أنّه سينال منـــزلة عالية ورفعة عظيمة في الدُّنْيَا والآخرة بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها فأمره بكتمانها ، وأن لا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر وهذا يدل على مَا ذكرناه. ولهذا جاء في بعض الآثار : « **استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود** »، وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معاً وهُوَ غلط منهم ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي وكمَا أراك هذه الرؤيا العظيمة فإذَا كتمتها ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أي يفهمك منْ معاني الكلام وتعبير المنام مَا لا يفهمه غيرك ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي بالوحي إليك ﴿ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أي بسببك ويحصل لهم بك خير الدُّنْيَا

---

(١) رواه البخارى (٣٣٩٠) كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿ **لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين** ﴾ وأحمد (٥٧١٢) .

والآخرة **﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾** أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة كمَا أعطاها أباك يعقوب وجدك إسحاق ووالد جدك إبراهيم الخليل **﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** كمَا قَالَ تعالى:**﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾** [الأنعام: ١٢٤] .

لهذا قَالَ رسول اللَّه ﷺ لَمَا سئل أي الناس أكرم ؟ قَالَ : « **يوسف نبي اللَّه ابن نبي اللَّه ابن نبي اللَّه ابن خليل اللَّه** » [1] وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهمَا وأبو يعلى والبزار في مسنديهمَا منْ حديث الحكم بن ظهير . وقد ضعفه الأئمة عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قَالَ : أتى النبي ﷺ رجل منْ اليهود يقال له : بستانة اليهودي ، فقَالَ : يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له مَا أسماؤها. قَالَ : فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشَيْء ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها . قَالَ: فبعث إليه رسول اللَّه ، فقال: « **هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها ؟** » قَالَ : نعم . فقال: « **هي جريان والطارق والديال وذو الكتفان وقابس ووثاب وعمودان والفيلق والمصبح والضروح وذو الفرع والضياء والنور** » فقَالَ اليهودي : أي واللَّه إنها لأسماؤها . وعند أبي يعلى فلمّا قصها على أبيه قَالَ هذا أمر مشتت يجمعه اللَّه والشَّمْس أبوه والْقَمَر أمه **﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ . إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ . قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾**[يوسف:٧-١٠] .

ينبه تعالى على مَا في هذه القصة منْ الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات. ثُمَّ ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه يعنون شقيقه لأمه بنيامين أكثر منهم وهم عصبة أي جماعة يقولون : فكنا نحن أحق بالمحبة منْ هذين **﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾** أي بتقديمه حبهمَا علينا. ثُمَّ اشتوروا فيمَا بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ليخلو لهم وجه أبيهم أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم وأضمروا التوبة بعد ذلك فلمّا تمالأوا على ذلك وتوافقوا عليه **﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾** قَالَ مجاهد : هُوَ شمعون. وقَالَ السدي : هُوَ يهوذا. وقَالَ قتادة ومحمد بن إسحاق : هُوَ أكبرهم روبيل **﴿ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾** أي المارة منْ المسافرين **﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾** مَا تقولون : لا محالة فليكن هذا الَّذي أقول لكم فهُوَ أقرب حالا منْ قتله أو نفيه وتغريبه . فأجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك **﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ. قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾** [يوسف:١١-١٤] طلبوا منْ أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف ، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم ، وأن يلعب وينبسط وقد أضمروا له مَا اللَّه به عليم فأجابهم الشيخ

---

(١) رواه البخارى (٤٦٨٩) .

عليه منْ اللّه أفضل الصلاة والتسليم : يا بني يشق علي أن أفارقه ساعة منْ النَّهَار ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم ومَا أنتم فيه فيأتي الذئب فيأكله ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه : ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ أي لئن عدا عليه الذئب فأكله منْ بيننا أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة إنا إذًا لخاسرون أي عاجزون هالكون.

وعند أهل الكتاب أنَّه أرسله وراءهم يتبعهم فضل عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم. وهذا أيضا منْ غلطهم وخطئهم في التعريب فإن يعقوب عليه السلام كَانَ أحرص عليه منْ أن يبعثه معهم فكيف يبعثه وحده ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ . وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٥ - ١٨] .

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم ، فمَا كَانَ إلا أن غابوا عن عينيه ، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقَالَ ، وأجمعوا على إلقائه في غيابت الجب أي في قعره على راعوفته وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح وهُوَ الَّذي ينـــزل ليملي الدلاء إذَا قل الماء والَّذي يرفعها بالحبل يسمى الماتح فلمّا ألقوه فيه أوحى اللّه إليه : أنَّه لا بد لك منْ فرج ومخرج منْ هذه الشدة التي أنت فيها ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز وهم محتاجون إليك خائفون منك ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾.

قَالَ مجاهد ، وقتادة : وهم لا يشعرون بإيحاء اللّه إليه ذلك . وعن ابن عباس ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها.رواه ابن جرير عنه.

فلمّا وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصه فلطخوه بشَيْء منْ دم ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون أي على أخيهم. ولهذا قَالَ بعض السلف لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهُوَ باك وذكر بكاء إخوة يوسف ، وقد جاؤوا أباهم عشاء يبكون أي في ظلمة اللَّيْل ليكون أمشى لغَدرهم لا لعُذْرهم .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ [يوسف : ١٧] أي ثيابنا ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ أي في غيبتنا عنه في استباقنا وقوله ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف:١٧] أي ومَا أنت بمصدق لنا في الَّذي أخبرناك منْ أكل الذئب له ولو كنا غير متهمين عندك فكيف وأنت تتهمنا في هذا فإنك خشيت أن يأكله الذئب وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله فصرنا غير مصدقين عندك فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه . ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : ١٨] أي مكذوب مفتعل لأنهم عمدوا إلى سخلة [١] ذبحوها فأخذوا منْ دمها فوضعوه على قميصه ليوهموه أنَّه أكله الذئب . قَالُوا : ونسوا أن يخرقوه . وآفة الكذب

(١) السخلة : الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة مايولد .

النسيان. ولَما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يَرُجْ صنيعهم على أبيهم فإنّه كَانَ يفهم عداوتهم له وحسدهم إياه على محبته له منْ بينهم أكثر منهم : لَما كَانَ يتوسم فيه منْ الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره لَما يريد اللَّه أن يخصه به منْ نبوته. ولَما راودوه عن أخذه فبمجرد مَا أخذوه أعدموه وغيبوه عن عينيه جاؤوا وهم يتباكون وعلى مَا تمالأوا عليه يتواطئون ولهذا **﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾**[يوسف:١٨].

وعند أهل الكتاب : أن روبيل أشار بوضعه في الجب ليأخذه منْ حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه فغافلوه وباعوه لتلك القافلة. فلمّا جاء روبيل منْ آخر النَّهار ليخرج يوسف لم يجده . فصاح وشق ثيابه وعمد أولئك إلى جدي فذبحوه ولطخوا منْ دمه جبة يوسف. فلمّا علم يعقوب شق ثيابه ولبس مئزرا أسود وحزن على ابنه أياما كثيرة. وهذه الركاكة جاءت منْ خطئهم في التعبير والتصوير **﴿وجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً واللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . وشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ . وقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِه أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ولِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ واللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً وكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** [يوسف : ١٩ - ٢٢] .

يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب أنّه جلس ينتظر فرج اللَّه ولطفه به فجاءت سيارة أي مسافرون . قَالَ أهل الكتاب : كانت بضاعتهم منْ الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر منْ الشام ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا منْ ذلك البئر فلمّا أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف فلمّا رآه ذلك الرجل **﴿قَالَ يَا بُشْرَى﴾** أي يا بشارتي **﴿ هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾** أي أوهموا أنّه معهم غلام منْ جملة متجرهم **﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾** أي : هُوَ عالم بمَا تمالأ عليه إخوته وبمَا يسره واجدوه منْ إنَّه بضاعة لهم ومع هذا لا يغيره تعالى لَما له في ذلك منْ الحكمة العظيمة ، والقدر السابق ، والرحمة بأهل مصر بمَا يجري اللَّه على يدي هذا الغلام الَّذي يدخلها في صورة أسير رقيق ثُمَّ بعد هذا يملكه أزمة الأمور ، وينفعهم اللَّه به في دنياهم وأخراهم بمَا لا يحد ولا يوصف. ولَما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم ، وقَالُوا : هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم. بثمنْ بخس أي قليل [1] نزر ، وقيل : هُوَ الزيف **﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾** قَالَ ابن مسعود ، وابن عباس ، ونوف البكالي والسدي ، وقتادة ، وعطية العوفي : باعوه بعشرين درهمَا اقتسموها درهمين درهمين. وقَالَ مجاهد : اثنان وعشرون درهما. وقَالَ عكرمة ، ومحمد بن إسحاق : أربعون درهمَا فاللَّه أعلم .

---

(١) ذكر بعض المفسرين أن الذين باعوا يوسف هم السيارة الذين وجدوه فى البئر وليس إخوته . وقال ابن كثير : قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : إن الضمير فى قوله **﴿ وشروه ﴾** عائد على إخوة يوسف . وقال قتادة بل عائد على السيارة والأول أقوى لأن قوله **﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾** إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة ، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ولو كانوا فيه من الزاهدين لما اشتروه فترجع من هذا أن الضمير فى **﴿ شروه ﴾** إنما هو لإخوته . أهـ . تفسير ابن كثير (٢ / ٤٨٤) .

﴿ وقَالَ الَذي اشْتَرَاهُ من مِّصْرَ لامْرَأَته أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ [يوسف : ٢١] أي أحسني إليه **﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخذَهُ ولَداً ﴾** وهذا منْ لطَف اللّه به ورحمته وإحسانه إليه بمَا يريد أن يؤهله له ويعطيه منْ خيري الدُّنْيَا والآخرة. قَالُوا : وكَانَ الَّذي اشتراه منْ أهل مصر عزيزها وهُوَ الوزير بها الَّذي الخزائن مسلمة إليه. قَالَ ابن إسحاق: واسمه أطفير بن روحيب . قَالَ : وكَانَ ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد رجل منْ العماليق . قال: واسم امرأة العزيز راعيل بنت رعاييل. وقَالَ غيره : كَانَ اسمها زليخا ، والظاهر أنَّه لقبها. وقيل : فكا بنت ينوس . رواه الثعلبي عن أبي هشام الرفاعي. وقَالَ محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس: كَانَ اسم الَّذي باعه بمصر يعني الَّذي جلبه إليها مالك بن ذعر بن نويب بن عفقا بن مديان بن إبراهيم فاللّه أعلم .

وقَالَ ابن إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود : قال: أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قَالَ لامرأته : أكرمي مثواه ، والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى : **﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ ﴾** [القصص : ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي اللّه عنهما .

ثُمَّ قيل : اشتراه العزيز بعشرين دينارا. وقيل : بوزنه مسكا . ووزنه حريرا . ووزنه ورقا. فاللّه أعلم. وقوله: **﴿ وكَذَلكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾** [يوسف : ٢١] أي وكمَا قيضنا هذا العزيز ، وامرأته يحسنان إليه ، ويعتنيان به مكنا له في أرض مصر **﴿ ولِنُعَلِّمَهُ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾** [يوسف : ٢١] أي فهمها. وتعبير الرؤيا منْ ذلك **﴿ واللّهُ غَالبٌ عَلَى أَمْرِه ﴾** [يوسف : ٢١] أي إذَا أراد شيئا فإنَّه يقيض له أسبابا وأموراً لا يهتدي إليها العباد ولهذا قَالَ تعالى : **﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾** [يوسف : ٢١] .

﴿ ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وعلْماً وكَذَلكَ نَجْزِي الُمحْسنينَ ﴾ [يوسف : ٢٢]. فدل على أن هذا كله كَانَ وهُوَ قبل بلوغ الأشد. وهُوَ حد الأربعين الَّذي يوحي اللّه فيه إلى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام منْ رب العالمين .

وقد اختلفوا في مدة العمر الَّذي هُوَ بلوغ الأشد . فقَالَ مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هُوَ الحلم. وقَالَ سعيد بن جبير : ثماني عشرة سنة. وقَالَ الضحاك : عشرون سنة . وقَالَ عكرمة : خمس وعشرون سنة. وقَالَ السدي : ثلاثون سنة. وقَالَ ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة. وقَالَ الحسن : أربعون سنة. ويشهد له قوله تعالى : **﴿ حتى إذَا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾** [الأحقاف : ١٥].

﴿وراودته الَتي هُوَ في بَيْتهَا عَن نَّفْسه وغَلَّقَت الأَبْوَابَ وقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّه إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إنَّهُ لا يُفْلحُ الظَّالمُونَ . ولَقَدْ هَمَّتْ به وهَمَّ بهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّه كَذَلكَ لنَصْرفَ عَنْهُ السُّوءَ والْفَحْشَاءَ إنَّهُ منْ عبَادنَا الُمخْلَصينَ . واسْتَبَقَا البَابَ وقَدَّتْ قَميصَهُ من دُبُرٍ وأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا البَابِ

قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ . وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخَاطِئِينَ﴾ [يوسف : ٢٣ - ٢٩] .

يذكر تعالى : مَا كَانَ مِنْ مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه مَا لا يليق بحاله ومقامه وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها وهي مع هذا كله امرأة الوزير. قَالَ ابن إسحاق : وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر. وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء إلا أنَّه نبي مِنْ سلالة الأنبياء . فعصمه ربه عن الفحشاء. وحماه عن مكر النساء. فهُوَ سيد السادة النجباء السبعة الأتقياء. المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء. في قوله عليه الصلاة والسلام، مِنْ رب الأرْض والسَّمَاء : « **سبعة يظلهم اللّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل. ورجل ذكر اللّه خاليا ففاضت عيناه. ورجل معلق قلبه بالمسجد إذَا خرج منه حتى يعود إليه. ورجلان تحابا في اللّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله مَا تنفق يمينه. وشاب نشأ في عبادة اللّه. ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقَالَ : إنِّي أخاف اللّه** » [1].

والمقصود أنها دعته إليها ، وحرصت على ذلك أشد الحرص فقَالَ : **﴿مَعَاذَ اللّه إِنَّهُ رَبِّي﴾** يعني زوجها صاحب المنـــزل سيدي **﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾** أي أحسن إلي وأكرم مقامي عنده **﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾** وقد تكلمنا على قوله تعالى : **﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾** [يوسف : ٢٤] بمَا فيه كفاية ومقنع في التفسير .

وأكثر أقوال المفسرين ههنا متلقى مِنْ كتب أهل الكتاب فالإعراض عنه أولى بنا. والَّذي يجب أن يعتقد أن اللّه تعالى عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها. ولهذا قَالَ تعالى:**﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ. وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾** [يوسف : ٢٤، ٢٥] أي هرب منها طالباً إلى الباب ليخرج منه فراراً منها فاتبعته في أثره **﴿وَأَلْفَيَا ﴾** أي وجدا **﴿ سَيِّدَهَا ﴾** أي زوجها لدى الباب فبدرته بالكلام وحرضته عليه **﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [يوسف : ٢٥]. اتهمته وهي المتهمة وبرأت عرضها ونزهت ساحتها فلهذا قَالَ يوسف عليه السلام : **﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾** احتاج إلى أن يقول: الحق عند الحاجة .

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل : كَانَ صغيراً في المهد قاله ابن عباس . وروي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك واختاره ابن جرير. وروى فيه

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (٢٣٤٢) .

حديثًا مرفوعا عن ابن عباس ووقفه غيره عنه. وقيل كَانَ رجلا قريبا إلى أطفير بعلها. وقيل: قريبا إليها. وممنْ قَالَ إِنَّه كَانَ رجلا : ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم فقَالَ : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ أي لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه ، فانشق قميصه لذلك . وكذلك كان. ولهذا قَالَ تعالى :﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف : ٢٨] أي هذا الَّذي جرى منْ مكركن أنت راودتيه عن نفسه. ثُمَّ اهمتيه بالباطل ثُمَّ ضرب بعلها عن هذا صفحاً فقَالَ : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ [يوسف : ٢٩] أي لا تذكره لأحد لأن كتمان مثل هذه الأمور هُوَ الأليق والأحسن . وأمرها بالاستغفار لذنبها الَّذي صدر منها والتوبة إلى ربها فإن العبد إذَا تاب إلى اللَّه تاب اللَّه عليه. وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الَّذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هُوَ اللَّه وحده لا شريك له في ذلك. ولهذا قَالَ لها بعلها وعذرها منْ بعض الوجوه لأنها رأت مَا لا صبر لها على مثله إلا إنَّه عفيف نزيه بريء العرض سليم الناحية ، فقَالَ : ﴿ واستَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخَاطِئِينَ. وقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِه قَدْ شَغَفَهَا حُباً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وقُلْنَ حَاشَ لِلَّه مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَذِي لُمْتُنَّنِي فِيه ولَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِه فَاسْتَعْصَمَ ولَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ولَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ . قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْه وإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[يوسف:٢٩-٣٤] .

يذكر تعالى مَا كَانَ منْ قبل نساء المدينة منْ نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز وعيبها والتشنيع عليها في مراودتها فتاها وحبها الشديد له تعنين وهُوَ لا يساوي هذا لأنه مولى منْ الموالي وليس مثله أهلا لهذا ولهذا قلن : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أي في وضعها الشَيْء في غير محله ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها فأظهرن ذمًا وهي معذورة في نفس الأمر . فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتى ليس كمَا حسبن ولا منْ قبيل مَا لديهن. فأرسلت إليهن فجمعتهن في منـــزلها.واعتدت لهن ضيافة مثلهن . وأحضرت في جملة ذلك شيئا مَما يقطع بالسكاكين كالأترج [1] ونحوه وآتت كل واحدة منهن سكينا . وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام . وألبسته أحسن الثياب وهُوَ في غاية طراوة الشباب ، وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة. فخرج وهُوَ أحسن منْ البدر لا محالة ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي أعظمنه وأجللنه وهبنه ومَا ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن

---

(١) الأترج : شجر ثمره كالليمون الكبار .

وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح **﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَراً إِنْ هَٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾**. وقد جاء في حديث الإسراء : « **فمررت بيوسف وإذَا هُوَ قد أعطي شطر الحسن** »[1].

قَالَ السهيلي وغيره منْ الأئمة : معناه أَنّه كَانَ على النصف منْ حسن آدم عليه السلام لأن اللَّه تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه منْ روحه . فكَانَ في غاية نهايات الحسن البشري. ولهذا يدخل أهل الْجَنَّة الْجَنَّة على طول آدم وحسنه ويوسف كَانَ على النصف منْ حسن آدم و لم يكن بينهمَا أحسن منهمَا كمَا إِنّه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها منْ سارة امرأة الخليل عليه السلام .

قَالَ ابن مسعود : وكَانَ وجه يوسف مثل البرق وكَانَ إِذَا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه. وقَالَ غيره : كَانَ في الغالب مبرقعا لئلا يراه الناس ولهذا لَمَا قام عذر امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور وجرى لهن وعليهن مَا جرى منْ تقطيع أيديهن بجراح السكاكين ، ومَا ركبهن منْ المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته : **﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾** [يوسف : ٣٢] ثُمَّ مدحته بالعصمة التامة فقالت: **﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾** أي امتنع **﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾** [يوسف : ٣٢] وكَانَ بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته فأبى أشد الإباء. ونأى لأنه منْ سلالة الأنبياء ودعا فقَالَ في دعائه لرب العالمين **﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾** [يوسف : ٣٣] يعني إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منْ نفسي إلا العجز والضعف ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا مَا شاء اللَّه فأنا ضعيف إلا مَا قويتني وعصمتني وحفظتني وحطني بحولك وقوتك.

ولهذا قَالَ تعالى : **﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ . وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ . يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾** [يوسف : ٣٤ - ٤١] .

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم أي ظهر لهم منْ الرأي بعد مَا علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية وأحمد لأمرها وليظهروا أنّه راودها عن نفسها فسجن بسببها فسجنوه ظلمًا وعدوانا. وكَانَ هذا مما قدر اللَّه

---

(١) رواه مسلم (٤٠٤) كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات .

له. ومنْ جملة مَا عصمه به فإنَّه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم. ومنْ ههنا استنبط بعض الصوفية مَا حكاه عنهم الشافعيّ أن منْ العصمة أن لا تجد .

قَالَ اللَّه : ﴿ ودَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾[يوسف : ٣٦] قيل : كَانَ أحدهمَا ساقي الملك واسمه فيمَا قيل : بنو . والآخر خبازه يعني الَّذي يلي طعامه وهُوَ الَّذي يقول له الترك «الجاشنكير » . واسمه فيمَا قيل : "مجلث" كَانَ الملك قد اتهمهمَا في بعض الأمور فسجنهما. فلمّا رأيا يوسف في السجن أعجبهمَا سمته وهديه ودله وطريقته وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه وإحسانه إلى خلقه فرأى كل واحد منهمَا رؤيا تناسبه. قَالَ أهل التفسير : رأيا في ليلة واحدة. أمّا الساقي فرأى : كَأنَ ثلاثة قضبان منْ حبلة [1] وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها في كَأس الملك وسقاه. ورأى الخبّاز على رأسه ثلاث سلال منْ خبز وضواري الطيور تأكل منْ السلة الأعلى. فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهمَا لهمَا وقالا ﴿ إنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسنِينَ ﴾ فأخبرهمَا أنّه عليم بتعبيرها خبير بأمرها و﴿ قَالَ لا يَأتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِه إلاَّ نَبَّأتُكُمَا بِتَأوِيلِه قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف : ٣٧] . قيل معناه مهمَا رأيتمَا منْ حلم فإنِّي أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كمَا أقول. وقيل معناه : إنِّي أخبركمَا بمَا يأتيكمَا منْ الطعام قبل مجيئه حلوا أو حامضا كمَا قَالَ عيسى ﴿وأنَبِّئُكُم بِمَا تَأكُلُونَ ومَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران : ٤٩] وقَالَ لهمَا : إن هذا منْ تعليم اللَّه إياي لأني مؤمن به موحد له متبع ملة آبائي الكرام إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف: ٣٨] أي بأن هدانا لهذا ﴿ وعَلَى النَّاسِ ﴾ أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهُوَ في فطرهم مركوز وفي جبلتهم مغروز ﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾. ثُمَّ دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى اللَّه عز وجل وصغّر أمر الأوثان وحقرها وضعف أمرها فقَالَ ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِه إلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٣٩] أي هُوَ المتصرف في خلقه الفعال لمَا يريد الَّذي يهدي منْ يشاء ويضل منْ يشاء ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ﴾ أي وحده لا شريك له و ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ أي المستقيم والصراط القويم ﴿ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٩] أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره وكانت دعوته لهمَا في هذه الحال في غاية الكمال لأن نفوسهمَا معظمة له منبعثة على تلقي مَا يقول بالقبول فناسب أن يدعوهمَا إلى مَا هُوَ الأنفع لهمَا ممَا سألا عنه وطلبا منه. ثُمَّ لَما قام بمَا وجب عليه وأرشد إلى مَا أرشد إليه قَالَ : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً ﴾ [يوسف : ٤١] قَالُوا: وهُوَ الساقي ﴿وأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾ قَالُوا وهُوَ الخباز ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف :

---

(١) الحبلة : الكرم أو القضيب من الكرم .

٤١] أي وقع هذا لا محالة ووجب كونه على حاله ولهذا جاء في الحديث « **الرؤيا على رجل طائر مَا لم تعبر فإذَا عبرت وقعت** » (١).

وقد روي عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهمَا قالا : لم نر شيئا فقَالَ لهمَا ﴿ **قُضِيَ الأَمْرُ الَذي فِيه تَسْتَفْتِيَان. وقَالَ لِلَذي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ [يوسف: ٤١ ، ٤٢]. يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام قَالَ للذي ظنه ناجيا منهمَا وهُوَ الساقي: ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾ يعني: اذكر أمري ومَا أنا فيه منْ السجن بغير جرم عند الملك. وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب. ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب. وقوله : ﴿ **فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** ﴾ [يوسف : ٤٢] أي فأنسَى الناجي منهمَا الشيطان أن يذكر مَا وصاه به يوسف عليه السلام. قاله مجاهد ومحمد ابن إسحاق وغير واحد وهُوَ الصواب وهُوَ منصوص أهل الكتاب ﴿**فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾ [يوسف : ٤٢] والبضع مَا بين الثلاث إلى التسع. وقيل : إلى السبع. وقيل إلى الخمس. وقيل : مَا دون العشرة. حكاها الثعلبي. ويقال: بضع نسوة وبضعة رجال. ومنع الفراء استعمال البضع فيمَا دون العشر . قَالَ : وإنّما يقال : نيف. وقَالَ اللّه تعالى : ﴿ **فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ وقَالَ تعالى : ﴿ **فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾ وهذا رد لقوله. قَالَ الفراء : ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين ولا يقال : بضع ومائة وبضع وألف وخالف الجوهري فيمَا زاد على بضعة عشر فمنع أن يقال : بضعة وعشرون إلى تسعين. وفي الصحيح « **الإيمان بضع وستون** » وفي رواية « **وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا اللّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق** » (٢).

ومنْ قَالَ : إن الضمير في قوله ﴿ **فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** ﴾ عائد على يوسف فقد ضعف مَا قاله . وإن كَانَ قد روي عن ابن عباس وعكرمة ، والحديث الّذي رواه ابن جرير في هذا الموضع ضعيف منْ كل وجه. تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي المَكي وهُوَ متروك. ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل ولا ههنا بطريق الأولى والأخرى واللّه أعلم .

فأمّا قول ابن حبان في صحيحه عند ذكر السبب الّذي منْ أجله لبث يوسف في السجن مَا لبث ، أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحي ، حدثنا مسدد بن مسرهد ، حدثنا خالد بن عبد اللّه ، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قَالَ : قَالَ رسول اللّه ﷺ: « **رحم اللّه يوسف لولا الكلمة التي قالها : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾** [يوسف:٤٢] **مَا لبث في السجن مَا لبث ورحم اللّه لوطا إن كَانَ** ليأوي إلى ركن شديد إذ قَالَ لقومه : ﴿**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ [هود:٨٠] قَالَ : فمَا

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٤ / ١٠ ، ١٣) وأبو داود (٥٠٢٠) والترمذى (٢٢٧٨) وابن ماجه (٣٩١٤) وابن أبى شيبة (١٢ / ١٨٩/ ١) والطيالسى (١٠٨٨) والحاكم (٤ / ٣٩٠) وصححه ووافقه الذهبى : وهو من حديث أبى رزين العقيلى رضى الله عنه .

(٢) متفق عليه : رواه البخارى (٩) ومسلم (١٥١، ١٥٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

بعث اللَّه نبيا بعده إلا في ثروة منْ قومه »[١] . فإنَّه حديث منكر منْ هذا الوجه ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها ، وفيها نكارة . وهذه اللفظة منْ أنكرها وأشدها. والَّذي في الصحيحين يشهد بغلطها واللَّه أعلم .

﴿وقَالَ المَلكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَات سمَان يَأْكُلُهنَّ سَبْعٌ عجَافٌ وسَبْعَ سُنْبُلات خُضْرٍ وأُخَرَ يَابسَات يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إن كُنتُمْ للرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ . قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ومَا نَحْنُ بتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بعَالمينَ . وقَالَ الَّذي نَجَا منْهُمَا وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّة أَنَا أُنَبِّئُكُم بتَأْويله فَأَرْسلُون . يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتنَا في سَبْعِ بَقَرَات سمَان يَأْكُلُهنَّ سَبْعٌ عجَافٌ وسَبْعِ سُنْبُلات خُضْرٍ وأُخَرَ يَابسَات لَعَلِّي أَرْجعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ . قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سنينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُله إلاَّ قَليلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي منْ بَعْد ذَلكَ سَبْعٌ شدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إلاَّ قَليلاً مِّمَّا تُحْصنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي منْ بَعْد ذَلكَ عَامٌ فيه يُغَاثُ النَّاسُ وفيه يَعْصرُونَ ﴾ [يوسف : ٤٣ – ٤٩] هذا كَانَ منْ جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام منْ السجن على وجه الاحترام والإكرام . وذلك أن ملك مصر وهُوَ الريان بن الوليد بن ثروان ابن أراشه بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح رأى هذه الرؤيا.

قَالَ أهل الكتاب: رأى كأنه على حافة نهر وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان فجعلن يرتعن في روضة هناك فخرجت سبع هزال ضعاف منْ ذلك النهر فرتعن معهن ثُمَّ ملن عليهن فأكلنهن فاستيقظ مذعورا. ثُمَّ نام فرأى سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة وإذَا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن فاستيقظ مذعورا. فلمّا قصها على ملأه وقومه لم يكن فيهم منْ يحسن تعبيرها بل **﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ﴾** أي أخلاط أحلام منْ اللَّيْل لعلها لا تعبير لها ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك ولهذا قَالُوا **﴿ ومَا نَحْنُ بتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بعَالمينَ ﴾** فعند ذلك تذكر الناجي منهمَا الَّذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا. وذلك عن تقدير اللَّه عزّ وجلّ وله الحَكمة في ذلك فلمّا سمع رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها تذكر أمر يوسف ومَا كَانَ أوصاه به منْ التذكار .

ولهذا قَالَ تعالى : **﴿ وقَالَ الَّذي نَجَا منْهُمَا وادَّكَرَ ﴾** أي تذكر **﴿ بَعْدَ أُمَّة ﴾** أي بعد مدة منْ الزمان وهُوَ بضع سنين وقرأ بعضهم كمَا حكي عن ابن عباس وعكرمة والضحاك **﴿ وادَّكَرَ بَعْدَ أَمَة ﴾** أي بعد نسيان ، وقرأها مجاهد **﴿ بَعْدَ أَمْة ﴾** بإسكَانَ الميم ، وهُوَ النسيان أيضا يقال : أمه الرجل يأمه أمهاً وأمها إذَا نسي قَالَ الشاعر:

أَمهتُ وكنتُ لا أَنْسى حَديثا . كذاك الدهرُ يزري بالعقولِ

فقَالَ لقومه وللملك **﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بتَأْويله فَأَرْسلُون ﴾** أي فأرسلوني إلى يوسف فجاءه فقَالَ : **﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتنَا في سَبْعِ بَقَرَات سمَان يَأْكُلُهنَّ سَبْعٌ عجَافٌ وسَبْعِ سُنْبُلات خُضْرٍ وأُخَرَ يَابسَات لَعَلِّي أَرْجعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾** [يوسف : ٤٦] وعند أهل الكتاب أن الملك لمَا

(١) رواه ابن حبان (٦٢٠٦ــ إحسان) .

ذكره له الساقي استدعاه إلى حضرته وقص عليه مَا رآه ففسره له وهذا غلط . والصواب مَا قصه اللّه في كتابه القرآن لا ما عرفه هؤلاء الجهلة الثيران منْ قراي وربان. فبذل يوسف عليه السلام ما عنده منْ العلم بلا تأخر ، ولا شرط ، ولا طلب الخروج سريعا . بل أجابهم إلى مَا سألوا وعبر له مَا كَانَ منْ منام الملك الدال على وقوع سبع سنين منْ الخصب ويعقبها سبع جدب.﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ**﴾ يعني يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية ﴿ **وفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾ يعني : مَا كَانوا يعصرونه منْ الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها . فعبر لهم. وعلي الخير دلهم وأرشدهم إلى مَا يعتمدونه في حالتي خصبهم وجدبهم ومَا يفعلونه منْ ادخار حبوب سني الخصب في السبع الأول في سنبله إلا مَا يرصد بسبب الأكل ومنْ تقليل البذر في سني الجدب في السبع الثانية إذ الغالب على الظن أنّه لا يرد البذر منْ الحقل. وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم .

﴿ **وقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ . قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ . ومَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٥٠ – ٥٣] لَما أحاط الملك علمًا بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه أمر بإحضاره إلى حضرته ليكون منْ جملة خاصته . فلمّا جاءه الرسول بذلك أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد إنّه حبس ظلمًا وعدوانا وأنّه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتانا ﴿**قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ**﴾ يعني الملك ﴿ **فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ**﴾ قيل : معناه إن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إلي أي فمر الملك فليسألهن كيف كَانَ امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي وحثهن لي على الأمر الّذي ليس برشيد ولا سديد ؟ فلمّا سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع منْ الأمر ومَا كَانَ منه منْ الأمر الحميد ﴿ **قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ** ﴾ فعند ذلك ﴿ **قَالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ** ﴾ وهي : زليخا ﴿**الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ**﴾ أي ظهر وتبين ووضح والحق أحق أن يتبع ﴿ **أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ أي فيمَا يقوله منْ أنّه بريء وإنّه لم يراودني وأنّه حبس ظلمًا وعدوانا وزوراً وبهتانا.

وقوله: ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ** ﴾ قيل : إنّه منْ كلام يوسف أي إنّما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنّي لم أخنه بظهر الغيب. وقيل إنّه منْ تمام كلام زليخا أي إنّما اعترفت بهذا ليعلم زوجي إنّي لم أخنه في نفس الأمر وإنّما كَانَ مراودة لم يقع معها فعل فاحشة . وهذا القول هُوَ الّذي نصره طائفة كثيرة منْ أئمة المتأخرين وغيرهم و لم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوى الأول .

﴿ ومَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قيل : إنَّه منْ كلام يوسف . وقيل : منْ كلام زليخا وهُوَ مفرع على القولين الأولين. وكونه منْ تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى واللّه أعلم .

﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف : ٥٤ ـــ ٥٧].

لما ظهر للملك براءة عرضه ، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ﴿قَالَ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ أى أجعله من خاصتى ، ومن أكابر دولتى ، ومن أعيان حاشيتى ، فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿ قَالَ إِنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أى ذو مكانة وأمانة .

﴿ قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء[1]، لما يتوقع من حصول الخلل فيها بعد مضى سبع سنى الخصب ، لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه ، من الاحتياط لهم والرفق بهم ، وأخبر الملك : أنه حفيظ،أى قوى على حفظ ما لديه أمين عليه ، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهراء.

وفى هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة .

وعند أهل الكتاب : أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جداً، وسلطه على جميع أرض مصر ، وألبسه خاتمه، وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثانى ، ونودى بين يديه: أنت رب ومسلط ، وقال له : لست أعظم منك إلا بالكرسى .

قالوا : وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة ، وزوجه امرأة عظيمة الشأن . وحكى الثعلبي أنّه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف. وقيل إنَّه لَما مات زوجه امرأته زليخا فوجدها عذراء . لأن زوجها كَانَ لا يأتي النساء فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهمَا : أفرايم ومنشا قَالَ : واستوثق ليوسف ملك مصر وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء.

وذكر محمد بن إسحاق : أن صاحب مصر الوليد بن الريان أسلم على يدي يوسف عليه السلام فاللّه أعلم. وقد قَالَ بعضهم :

وراءَ مضيقِ الخوف مُتَّسعُ الأَمْنِ   وَأَوّلُ مفـــروحٍ به غايةُ الحـــزْنِ
فَلاَ تَيْأَسَنْ ، فاللُه مَلَّكَ يَوسُفَا   خزَائنه بَعْدَ الخَلاَصِ مِنَ السِّجْنِ

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّيَ أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا انْقَلَبُوٓاْ إِلَىَ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف : ٥٨ - ٦٢].

---

(١) الهرى : بيت كبير يجمع فيه القمح ونحوه وهى (لاتينية) كما فى المنجد.

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون طعاماً، وذلك بعد إتيان سنىْ الجدب وعمومها على سائر العباد والبلاد .

وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم فى أمور الديار المصرية ديناً ودنيا . فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه ، لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة ، فلهذا عرفهم وهم له منكرون .

وعند أهل الكتاب أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم ، وأراد أن لا يعرفوه فأغلظ لهم فى القول ، وقال : أنتم جواسيس ، جئتم لنا لتأخذوا خير بلادى . فقالوا: معاذ الله ، إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذى أصابنا ، ونحن بنو أب واحد من كنعان ، ونحن اثنا عشر رجلا ذهب منا واحد ، وصغيرنا عند أبينا . فقال : لابد أن أستعلم أمركم . وعندهم : أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم ، واحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر . وفى بعض هذا نظر.

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أى أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته ، من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه ﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ، وكان قد سألهم عن حالهم ، وكم هم ؟ فقالوا : كنا اثنى عشر رجلاً ، فذهب منا واحد وبقى شقيقه عند أبينا. فقال : إذا قدمتم من العام المقبل فأتونى به معكم .

﴿ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّيَ أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ؟ أى قد أحسنت نزلكم وقراكم ، فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ أى فلست أعطيكم ميرة ، ولا أقريكم بالكلية ، عكس ما أسدى إليهم أولاً.

فاجتهد فى إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب .

﴿ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أى سنجتهد فى مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن : ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أى : وإنا لقادرون على تحصيله.

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهى ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا انقَلَبُواْ إِلَىَ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . قيل : أراد أن يردوها إذا وجدوها فى بلادهم ، وقيل : خشى أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية ، وقيل : تذمم أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة .

وقد اختلف المفسرون فى بضاعتهم على أقوال سيأتى ذكرها . وعند أهل الكتاب : أنها كانت صرراً من ورق ، وما أشبه ، والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىَ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىَ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَأَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ

أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلكَ كَيْلٌ يَسيرٌ . قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىَ تُؤْتُون مَوْثقاً مِّنَ اللّه لَتَأْتُنَّني به إلاَّ أَن يُحَاطَ بكُمْ فَلَمَّآ آتَوْهُ مَوْثقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَىَ مَا نَقُولُ وَكيلٌ. وَقَالَ يَبَنيَّ لاَ تَدْخُلُواْ من بَاب وَاحد وَادْخُلُواْ منْ أَبْوَاب مّتَفَرّقَة وَمَآ أُغْني عَنكُمْ مّنَ اللّه من شَيْءٍ إِن الْحُكْمُ إلاّ للّه عَلَيْه تَوَكّلْتُ وَعَلَيْه فَلْيَتَوَكّلِ الْمُتَوَكّلُونَ . وَلَمّا دَخَلُواْ منْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مّا كَانَ يُغْني عَنهُمْ مّنَ اللّه من شَيْءٍ إلاّ حَاجَةً في نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنّهُ لَذُو علْمٍ لّمَا عَلّمْنَاهُ وَلَـكنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٣ – ٦٨].

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له:﴿ مُنعَ منّا الْكَيْلُ ﴾ أى بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا ، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا .

﴿ وَلَمّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بضَاعَتَهُمْ رُدّتْ إلَيْهِمْ قَالُواْ يَأَبَانَا مَا نَبْغي ﴾ أى شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا ؟ ، ﴿ وَنَميرُ أَهْلَنَا ﴾ أى نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم فى سنتهم ومحلهم ، ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ ﴾ بسببه ﴿ كَيْلَ بَعيرٍ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ ذَلكَ كَيْلٌ يَسيرٌ ﴾ أى فى مقابلة ذهاب ولده الآخر .

وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين ، لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه ، ويتعوض بسببه منه .

فلهذا قال : ﴿ لَنْ أُرْسلَهُ مَعَكُمْ حَتّىَ تُؤْتُون مَوْثقاً مّنَ اللّه لَتَأْتُنّني به إلاّ أَن يُحَاطَ بكُمْ ﴾ أى : إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به . ﴿ فَلَمّآ آتَوْهُ مَوْثقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَىَ مَا نَقُولُ وَكيلٌ ﴾ .

أكد المواثيق وقرر العهود، واحتاط لنفسه فى ولده، ولن يغنى حذر من قدر؛ ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة ، لما بعث الولد العزيز ، ولكن الأقدار لها أحكام، والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم .

ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد ، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة. قيل : أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين ، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصوراً بديعة . قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدى والضحاك .

وقيل: أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأثر. قاله إبراهيم النخعى والأول أظهر . ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أُغْني عَنكُمْ مّنَ اللّه من شَيْءٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمّا دَخَلُواْ منْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مّا كَانَ يُغْني عَنْهُمْ مّنَ اللّه من شَيْءٍ إلاّ حَاجَةً في نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنّهُ لَذُو علْمٍ لّمَا عَلّمْنَاهُ وَلَـكنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنبور والبطم والعسل ، وأخذوا الدراهم الأولى وعرضاً آخر .

﴿وَلَمّا دَخَلُواْ عَلَىَ يُوسُفَ آوَىَ إلَيْه أَخَاهُ قَالَ إنّيَ أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئسْ بمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . فَلَمّا جَهّزَهُمْ بجَهَازِهِمْ جَعَلَ السّقَايَةَ في رَحْلِ أَخيه ثُمّ أَذّنَ مُؤَذّنٌ أَيّتُهَا الْعيرُ إنّكُمْ لَسَارِقُونَ . قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ

عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ . قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ . قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ . قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ . قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ . فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ما كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ . قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ . قَالُواْ يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّـآ إِذاً لَّظَالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٩ – ٧٩].

يذكر تعالى : ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف ، وإيوائه إليه وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم ، وسلاه عما كان منهم الإساءة إليه.

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم ، فأمر فتيانه بوضع سقايته ، وهى التى كان يشرب بها ، ويكيل بها للناس الطعام ، عن غرة فى متاع بنيامين ، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ، ووعدهم جعالة على رده ، حمل بعير ، وضمنه النادى لهم . فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم ﴿ **قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ** ﴾ يقولون : أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة .

﴿ **قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ . قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ وهذه كانت شريعتهم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه. ولهذا قالوا:﴿ **كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ .

قال الله تعالى ﴿**فَبَدَأَ بِأَوعِيَتِهِم قَبلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ استَخرَجَهَا من وِعَاءِ أَخيه**﴾ [يوسف:٧٦] ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ فى الحيلة ، ثم قال الله تعالى : ﴿**كَذلكَ كِدنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأخُذ أَخَاهُ فِى دِينِ المَلِكِ** ﴾ [يوسف:٧٦] أى لولا اعترافهم : بأن جزاءه من وجد فى رحله فهو جزاؤه، ولما يقدر يوسف على أخذه منهم فى سياسة ملك مصر ﴿**إِلاَّ أَن يَشاءَ اللَّهُ نَرفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشاءُ**﴾ أى فى العلم ﴿**وَفَوقَ كُلِ ذِى عِلمٍ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف:٧٦] .

وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم، وأتم رأيا وأقوى عزماً وجزماً، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له فى ذلك، لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك: من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه.

فلما عاينوا استخراج الصواع من جمل بنيامين ﴿ **قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ** ﴾ يعنون يوسف ، قبل كان قد سرق صنم جده أبى أمه فكسره : وقيل : كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقاً كانت لإسحاق ، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت ، وإنما أرادت أن يكون عندها وفى حضانتها لمحبتها له . وقيل : كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء . وقيل : غير ذلك . فلهذا : ﴿ **قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ من قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ** ﴾ وهى كلمته بعدها ، وقوله : ﴿ **أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ** ﴾ أجابهم سرا لا جهرا ، حلما وكرما وصفحا وعفوا ، فدخلوا معه فى الترفق والتعطف فقالوا :

﴿ يأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَاً شَيخَاً كَبِيراً فَخُذ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحسنينَ قَالَ مَعاذَ اللَّه أَن نَّأخُذَ إلاَّ مَن وَجدنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذَن لَّظَالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٧٨ ، ٧٩] أى : إن أطلقنا المتهم ، وأخذنا البرىء، وهذا ما لا نفعله ولا نسمع به، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده.

وعند أهل الكتاب : أن يوسف تعرف إليهم حينئذ. وهذا مما غلطوا فيه و لم يفهموه جيداً.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ اللَّه وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِيَ أَبِيَ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . ارْجِعُوٓاْ إِلَىَ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ . وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِيَ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَتَوَلَّىَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَأَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ . قَالُواْ تَاالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىَ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ . قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّه وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّه مَا لاَ تَعْلَمُونَ . يَبَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّه إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّه إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٧٨ — ٨٠].

يقول تعالى مخبراً عنهم : لما استيئسوا من أخذه منه : خلصوا يتناجون فيما بينهم ، قال كبيرهم وهو روبيل : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ اللَّه ﴾ لتأتنى به إلا أن يحاط بكم ؟. لقد أخلفتم عهده ، وفرطتم فيه كما فرطتم فى أخيه يوسف من قبله ، فلم يبق لى وجه أقابله به ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ أى لا أزال مقيما ها هنا ﴿ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِيَ أَبِيَ ﴾ فى القدوم عليه ، ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بأن يقدرنى على رد أخى إلى أبى﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

﴿ ارْجِعُوٓاْ إِلَىَ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ أى أخبروه بما رأيتم من الأمر فى ظاهر المشاهدة ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ . وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِيَ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أى : فإن هذا الذى أخبرناك به – من أخذهم أخانا لأنه سرق – أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التى كنا نحن وهم هناك ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى ليس الأمر كما ذكرتم، لم يسرق، فإنه ليس سجية له ولا خلقه . وإنما ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

قال ابن إسحاق وغيره : لما كان التفريط منهم فى بنيامين مترتباً على صنيعهم فى يوسف قال لهم ما قال.وهذا كما قال بعض السلف : إن من جزاء السيئة السيئة بعدها ! .

ثم قال : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾يعنى : يوسف وبنيامين وروبيل .﴿ إِنَّهُ الْعَلِيمُ ﴾ أى بحالى.وما أنا فيه من فراق الأحبة﴿ الْحَكِيمُ ﴾فيما يقدره ويفعله ، وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة .

﴿ وَتَوَلَّىَ عَنْهُمْ ﴾ أى : أعرض عن بنيه ﴿ وَقَالَ يَأَسَفَا عَلَى يُوسُفَ ﴾ ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم ، وحرك ما كان كامناً ، كما قال بعضهم :

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهوى ... مَـا الحبُّ إِلاَّ للحبيـبِ الأوّلِ

وقَالَ آخر :

لَقَـدْ لاَمَني عندَ القُبورِ على البُكـا ... رَفيقي لتذرافِ الدّموعِ السّوافـك[١]
فقـالَ أتبْكي كُـلّ قَبْرٍ رأيتَهُ ... لقبرَ ثـوَي بينَ اللّوَى فالدكادكَ[٢]
فقلتُ له إن الأَسَى يبعثُ الأسَى ... فَـدَعْني فهـذَا كلّهُ قبرُ مَالِكِ

وقوله : ﴿ وَابْيَضّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أي من كثرة البكاء ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿ قَالُواْ ﴾ له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه ﴿ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتّىَ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ يقولون : لا تزال تتذكره حتى تنحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك ﴿ الَ إِنّمَآ أَشْكُو بَثّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّه مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يقول : لبنيه لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكو إلى اللّه عزّ وجلّ وأعلم أن اللّه سيجعل لي مما أنا فيه فرجا ومخرجاً وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع ولابد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى ولهذا قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّه مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم قال لهم محرضا على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿ .يَبَنِيّ اذْهَبُواْ فَتَحَسّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رّوْحِ اللّهِ إِنّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رّوْحِ اللّهِ إِلاّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة فإنه لا ييأس من روح اللّه وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق إلا القوم الكافرون .

﴿فَلَمّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَأَيّهَا الْعَزِيزُ مَسّنَا وَأَهْلَنَا الضّرّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدّقْ عَلَيْنَآ إِنّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدّقِينَ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ . قَالُوَاْ أَإِنّكَ لأنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـَذَا أَخِي قَدْ مَنّ اللّهُ عَلَيْنَآ إِنّهُ مَن يَتّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنّا لَخَاطِئِينَ . قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ . اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىَ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨ - ٩٣] .

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ورغبتهم فيما لديه من الميرة والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم ﴿ فَلَمّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَأَيّهَا الْعَزِيزُ مَسّنَا وَأَهْلَنَا الضّرّ ﴾ أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مّزْجَاةٍ ﴾ أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنا. قيل : كانت دراهم رديئة. وقيل: قليلة وقيل : حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك. وعن ابن عباس كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدّقْ عَلَيْنَآ إِنّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدّقِينَ ﴾ قيل : بقبولها قاله السدي: قيل : برد أخينا إلينا قاله ابن جريج. وقال سفيان بن عيينة : إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد ﷺ ونزع بهذه الآية رواه ابن جرير.

---

(١) السوافك : سفك الماء أو الدم أو الدمع : صبَّه كما فى القاموس .
(٢) اللوى : الرمل الملتوى . الدكادك : أرض فيها غِلَظ كما فى اللسان - مادة دكَّ .

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاؤوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال تعرف إليهم وعطف عليهم قائلا لهم عن أمر ربه وربهم. وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الحال فيه الذي يعرفون ﴿ **هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ . قَالُواْ** ﴾ وتعجبوا كل العجب وقد ترددوا إليه مرارا عديدة وهم لا يعرفون أنه هو ﴿ **أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي** ﴾ يعني : أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم وسلف من أمركم فيه ما فرطتم ، وقوله : ﴿ **وَهَـذَا أَخِي** ﴾ تأكيد لما قال ، وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد، وعملوا في أمرهما من الاحتيال ولهذا قال : ﴿ **قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَآ** ﴾ أي بإحسانه إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا وصبرنا على ما كان منكم إلينا وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا** ﴾ أي: فضلك وأعطاك ما لم يعطنا ﴿ **وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ** ﴾. أي : فيما أسدينا إليك وها نحن بين يديك ﴿ **قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ** ﴾ أي لست أعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا ثم زادهم على ذلك فقال : ﴿ **الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ . ومن زعم أن الوقف على قوله ﴿ **لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ** ﴾ وابتدأ بقوله ﴿ **الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ** ﴾ . فقوله : ضعيف والصحيح الأول. ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذي يلي جسده فيضعوه على عيني أبيه فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب بإذن اللّه وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات. ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجه وأعلى الأمور ﴿ **وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ . قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ . فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . قَالُواْ يَأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ . قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [يوسف:٩٤ - ٩٨] .

قال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل عن أبي سنان عن عبد اللّه بن أبي الهذيل سمعت ابن عباس يقول: فلما فصلت العير قال: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف ﴿ **فقال إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ** ﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي سنان به. وقال الحسن البصري ، وابن جريج المكي: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخا وكان له منذ فارقه ثمانون سنة ، وقوله : ﴿ **لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ** ﴾ أي تقولون : إنما قلت : هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن. قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : تفندون تسفهون. وقال مجاهد أيضا والحسن تهرمون ﴿ **قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ** ﴾ قال قتادة والسدي : قالوا له كلمة غليظة. قال اللّه تعالى : ﴿ **فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً** ﴾ أي بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيرا بعد ما كان ضريرا وقال لبنيه عند ذلك : ﴿ **أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ أي أعلم أن اللّه سيجمع شملي بيوسف ومستقر عيني به وسيريني فيه ومنه ما يسرني فعند ذلك

﴿ **قَالُواْ يَأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَا كُنَا خَاطِئِينَ** ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم اللّه عزّ وجلّ عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه وما كانوا عزموا عليه. ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل وفقهم اللّه للاستغفار عند وقوع ذلك منهم فأجابهم أبوهم إلى ماسألوا وما عليه عولوا قائلا: ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّيَ إِنَهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ** ﴾ .

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر . قال ابن جرير : حدثني أبو السائب ، حدثنا ابن إدريس سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال : كان عمر يأتي المسجد فسمع إنسانا يقول: « **اللهم دعوتني فاجبت وأمرتني فاطعت وهذا السحر فاغفر لي** » قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد اللّه بن مسعود فسأل عبد اللّه عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله : ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ** ﴾ وقد قال اللّه تعالى: ﴿ **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بالأسْحَارِ** ﴾ [آل عمران : ١٧] .

وثبت في الصحيح عن رسول اللّه ﷺ قال : « **ينـــزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من تائب فأتوب عليه . هل من سائل فأعطيه . هل من مستغفر فأغفر له .** »[1] وقد ورد في حديث أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة . قال ابن جرير: حدثني المثنى. حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ابن أيوب الدمشقي حدثنا الوليد أنبأنا ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس عن رسول اللّه ﷺ : « **سوف أستغفر لكم ربي** » يقول : حتى تأتي ليلة الجمعة وهو قول أخي يعقوب لبنيه. وهذا غريب من هذا الوجه. وفي رفعه نظر والأشبه أن يكون موقوفا على ابن عباس رضي اللّه عنه .

﴿ **فَلَمّا دَخَلُواْ عَلَىَ يُوسُفَ آوَىَ إِلَيْه أَبَوَيْه وَقَالَ ادْخُلُواْ مصْرَ إِن شَآءَ اللّهُ آمنينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْه عَلَى الْعَرْشِ وَخَرّواْ لَهُ سُجّداً وَقَالَ يَأَبَت هَـَذَا تَأْويلُ رُؤْيَايَ من قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَيَ إِذْ أَخْرَجَني منَ السّجْنِ وَجَآءَ بكُمْ مّنَ الْبَدْوِ من بَعْد أَن نّزغَ الشّيْطَانُ بَيْني وَبَيْنَ إِخْوَتيَ إِنّ رَبّي لَطيفٌ لّمَا يَشَآءُ إِنّهُ هُوَ الْعَليمُ الْحَكيمُ رَبّ قَدْ آتَيْتَني منَ الْمُلْك وَعَلّمْتَني من تَأْويلِ الأَحَاديث فَاطرَ السّمَاوَات وَالأرْضِ أَنتَ وَليّي في الدّنُيَا وَالآخرَة تَوَفّني مُسْلماً وَأَلْحقْني بالصّالحينَ** ﴾ [يوسف:٩٩-١٠١] .

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة التي قيل : إنها ثمانون سنة ، وقيل ثلاث وثمانون سنة ، وهما روايتان عن الحسن. وقيل : خمس وثلاثون سنة قاله قتادة. وقال محمد بن إسحاق : ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة. قال : وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة. وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريبا فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة فيما قاله غير واحد فامتنع فكان في السجن بضع سنين وهي سبع عند عكرمة وغيره. ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي جاء إخوته يمتارون في السنة الأولى وحدهم . وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين. وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين فجاءوا كلهم ﴿ **فَلَمّا دَخَلُواْ عَلَيه آوَىَ إِلَيْه أَبَوَيْه** ﴾ اجتمع

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (١١٤٥) ومسلم (١٧٤١) .

بهما خصوصا وحدهما دون إخوته ﴿ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ قيل : هذا من المقدم والمؤخر تقديره ادخلوا مصر وآوى إليه أبويه. وضعفه ابن جرير وهو معذور. قيل : تلقاهما وآواهما في منـزل الخيام. ثم لما اقتربوا من باب مصر ﴿ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ قال السدي: ولو قيل : إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضا وإنه ضمن قوله : ادخلوا بمعنى اسكنوا مصر أو أقيموا بها ﴿ إِن شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ لكان صحيحا مليحا أيضا .

وعند أهل الكتاب أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر وهي أرض بلبيس خرج يوسف لتلقيه ، وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشرا بقدومه وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم. وقد ذكر جماعة من المفسرين أنه لما أزف قدوم نبي الله يعقوب وهو إسرائيل أراد يوسف أن يخرج لتلقيه فركب معه الملك وجنوده خدمة ليوسف وتعظيما لنبي الله إسرائيل وأنه دعا للملك .وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سني الجدب ببركة قدومه إليهم فالله أعلم .

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم فيما قاله أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود : ثلاثة وستين إنسانا . وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن عبد الله بن شداد : كانوا ثلاثة وثمانين إنسانا. وقال أبو إسحاق عن مسروق : دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون إنسانا. قالوا : وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل. وفي نص أهل الكتاب أنهم كانوا سبعين نفسا وسموهم .

وقال الله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قيل : كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة. وقال بعض المفسرين : فأحياها الله تعالى وقال آخرون : بل كانت خالته ليا والخالة بمنـزلة الأم. وقال ابن جرير وآخرون : بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه وهذا قوي والله أعلم. ورفعهما على العرش أي أجلسهما معه على سريره ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً ﴾ أي سجد له الأبوان والأخوة الأحد عشر تعظيما وتكريما وكان هذا مشروعا لهم ولم يزل ذلك معمولا به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا. ﴿ وَقَالَ يَأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ أي هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين وأمرتني بكتمانها ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَيَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ أي بعد الهم والضيق جعلني حاكما نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت ﴿ وَجَآءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ أي البادية ، وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيَ ﴾ أي فيما كان منهم من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره. ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ أي إذا أراد شيئا هيأ أسبابه ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ أي بجميع الأمور ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في خلقه وشرعه وقدره.

وعند أهل الكتاب أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده بأموالهم كلها من الذهب والفضة والعقار والأثاث وما يملكونه كله حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء. ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ويكون خمس مايشتغلون من زرعهم وثمارهم للملك فصارت سنة أهل مصر بعده .

وحكى الثعلبي أنه كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان . وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار قال : فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك. قلت : وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب .

قال الشافعي : قال رجل من الأعراب لعمر بعد ما ذهب عام الرمادة: لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة. ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت وشمله قد اجتمع عرف أن هذه الدار لا يقربها قرار وأن كل شيء فيها ومن عليها فان. وما بعد التمام إلا النقصان . فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله واعترف له بعظيم إحسانه وفضله. وسأل منه وهو خير المسؤولين أن يتوفاه أي حين يتوفاه على الإسلام وأن يلحقه بعباده الصالحين. وهكذا كما يقال في الدعاء : « **اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين** » أي حين تتوفانا . ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام كما سأل النبي ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين كما قال: « **اللهم في الرفيق الأعلي ثلاثا ثم قضى** » (١).

ويحتمل أن يوسف عليه السلام : سأل الوفاة على الإسلام منجزاً في صحة بدنه وسلامته . وأن ذلك كان سائغا في ملتهم وشرعتهم كما روي عن ابن عباس أنه قال: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف. فأما في شريعتنا فقد نهي عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد: « **وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين** » (٢) وفي الحديث الآخر: « ابن آدم الموت خير لك من الفتنة » وقالت مريم عليها السلام: ﴿**يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا**﴾ [مريم : ٢٣] وتمنى الموت علي بن أبي طالب لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال وكثر القيل والقال وتمنى ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب الصحيح لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفيه الأهوال .

فأما في حال الرفاهية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك: قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به إما محسنا فيزداد وإما مسيئا فلعله يستعتب ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي** » (٣) والمراد بالضر ههنا ما يخص العبد في بدنه من مرض ونحوه لا في دينه. والظاهر. أن نبي الله يوسف عليه السلام سأل ذلك إما عند احتضاره أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك .

---

(١) رواه البخارى (٥٦٧٤) .

(٢) صحيح : أحمد (١/٣٦٨) عن ابن عباس و (٥/٢٤٣) عن معاذ بن جبل.

(٣) متفق عليه : رواه البخارى (٦٣٥١) ومسلم (٢٦٨٠ / ١٠) .

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ثم توفي عليه السلام ، وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق. قال السدي فصبر وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام .

وعند أهل الكتاب : أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة. وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة ومع هذا قالوا : فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة. هذا نص كتابهم وهو غلط إما في النسخة أو منهم أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا وقد قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ من بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] يوصي بنيه بالإخلاص وهو دين الإسلام الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام .

وقد ذكر أهل الكتاب : أنه أوصى بنيه واحداً واحداً وأخبرهم بما يكون من أمرهم وبشر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله تطيعه الشعوب وهو عيسى ابن مريم والله أعلم .

وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوما وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوما.ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله. فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها ، فلما وصلوا حبرون ودفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثي وعملوا له عزاء سبعة أيام . قالوا : ثم رجعوا إلى بلادهم وعزى إخوة يوسف في أبيهم وترققوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم فأقاموا ببلاد مصر. ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه فحنطوه ووضعوه في تابوت فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه كما سيأتي. قالوا : فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين. هذا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضاً. وقال مبارك بن فضالة عن الحسن : ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة. وقال غيره : أوصى إلى أخيه يهوذا صلوات الله عليه وسلامه.

قصّة نبى الله أيّوب

قَالَ ابن إسحاق: كَانَ رجلا منْ الروم . وهُوَ أيوب بن موص بن زراح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وقَالَ غيره : هُوَ أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق ابن يعقوب . وقيل غير ذلك في نسبه. وحكى ابن عساكر : أن أمه بنت لوط عليه السلام. وقيل : كَانَ أبوه ممنْ آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقي في النّار فلم تحرقه . والمشهور الأول لأنه منْ ذرية إبراهيم كمّا قررنا عند قوله تعالى : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وكذلك نجزى المحسنين ﴾ [الأنعام : ٨٤] الآيات منْ أن الصحيح أن الضمير

عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام. وهُوَ منْ الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ **إنَّا أَوْحَيْنَا إلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إلَى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وأَوْحَيْنَا إلَى إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وعِيسَى وأَيُّوبَ** ﴾ [النساء:١٦٣] الآية فالصحيح أنه منْ سلالة العيص بن إسحاق . وامرأته قيل : اسمها ليا بنت يعقوب . وقيل : رحمة بنت أفرائيم. وقيل : منشا بن يوسف بن يعقوب. وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا. ثُمَّ نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء اللّٰه وبه الثقة وعليه التكلان .

قَالَ اللّٰه تعالى : ﴿**وأَيُّوبَ إذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ومِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء:٨٣،٨٤] وقَالَ تعالى في سورة ص : ﴿ **واذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وعَذَابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وشَرَابٌ. ووَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ومِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ . وخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ ولا تَحْنَثْ إنَّا وجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص:٤١- ٤٤] وروى ابن عساكر منْ طريق الكلبي أنّه قال: أول نبي بعث إدريس. ثُمَّ نوح. ثُمَّ إبراهيم. ثُمَّ إسماعيل. ثُمَّ إسحاق. ثُمَّ يعقوب. ثُمَّ يوسف. ثُمَّ لوط . ثُمَّ هود. ثُمَّ صالح. ثُمَّ شعيب. ثُمَّ موسى وهارون. ثُمَّ إلياس. ثُمَّ اليسع. ثُمَّ عرفي بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب. ثُمَّ يونس بن متى منْ بني يعقوب. ثُمَّ أيوب بن آموص بن ليفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم. وفي بعض هذا الترتيب نظر . فإن هوداً وصالحاً المشهور أهمَا بعد نوح . وقبل إبراهيم واللّٰه أعلم.

قَالَ علماء التفسير والتاريخ وغيرهم : كَانَ أيوب رجلا كثير المال منْ سائر صنوفه وأنواعه منْ الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البثينة منْ أرض حوران . وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكَانَ له أولاد وأهلون كثير فسلب منْ ذلك جميعه وابتلي في جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه. يذكر اللّٰه عزّ وجلّ بهمَا وهُوَ في ذلك كله صابر محتسب ذاكر للّٰه عزّ وجلّ في ليله ونهاره وصباحه ومسائه. وطال مرضه حتى عافه الجليس . وأوحش منه الأنيس. وأخرج منْ بلده. وألقي على مزبلة خارجها. وانقطع عنه الناس. ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها. فكانت تتردد إليه فتصلح منْ شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته. وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده رضي اللّٰه عنها وأرضاها وهي صابرة معه على مَا حل بهمَا منْ فراق المال، والولد ، وما يختص بها منْ المصيبة بالزوج. وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة فإنا للّٰه وإنا إليه راجعون. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول اللّٰه ﷺقَالَ : « **أشد الناس بلاء الأنبياء. ثُمَّ الصالحون. ثُمَّ الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كَانَ في دينه صلابة زيد في بلائه** » [(١)] . ولم يزد

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذى (٢٣٩٨) وقال : حديث حسن صحيح .

هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبرا واحتسابا وحمداً وشكراً حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام. ويضرب المثل أيضا بمَا حصل له منْ أنواع البلايا.

وقد روي عن وهب بن منبه وغيره منْ علماء بني إسرائيل في قصة أيوب خبر طويل في كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه في جسده واللّه أعلم بصحته. وعن مجاهد أنَّه قَالَ: كَانَ أيوب عليه السلام أول منْ أصابه الجدري وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال فزعم وهب أنَّه ابتلي ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص. وقَالَ أنس: ابتلي سبع سنين وأشهراً وألقي على مزبلة لبني إسرائيل تختلف الدواب في جسده حتى فرج اللّه عنه وعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه.

وقَالَ حميد : مكث في بلواه ثماني عشرة سنة . وقَالَ السدي : تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب . فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته فلمّا طال عليها. قالت: يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك ، فقَالَ: قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهُوَ قليل للّه أن أصبر له سبعين سنة. فجزعت منْ هذا الكلام وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام .

ثُمَّ إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفاً أن ينالهم منْ بلائه أو تعديهم بمخالطته فلمّا لم تجد أحداً يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير فأتت به أيوب . فقَالَ: منْ أين لك هذا وأنكره؟ فقالت: خدمت به أناساً فلمّا كَانَ الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام ، فأتته به ، فأنكره أيضا وحلف لا يأكله حتى تخبره منْ أين لها هذا الطعام ؟ فكشفت عن رأسها خمارها فلمّا رأى رأسها محلوقاً قَالَ في دعائه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣] .

وقَالَ ابن أبي حاتم: حدثنا أبي. حدثنا أبو سلمة. حدثنا جرير بن حازم عن عبد اللّه بن عبيد بن عمير قَالَ: كَانَ لأيوب أخوان فجاءا يومًا فلم يستطيعا أن يدنوا منه منْ ريحه فقاما منْ بعيد، فقَالَ أحدهمَا لصاحبه: لو كَانَ اللّه علم منْ أيوب خيراً مَا ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب منْ قولهمَا جزعا لم يجزع منْ شَيْء قط. قَالَ :"اللهم إن كنت تعلم أنِّي لم أبت ليلة قط شبعانا وأنا أعلم مكَانَ جائع فصدقني " . فصدق منْ السَّمَاء وهمَا يسمعان. ثُمَّ قال: " اللهم إن كنت تعلم أنِّي لم يكن لي قميصان قط وأنا أعلم مكَانَ عار فصدقني. فصدق منْ السَّمَاء وهمَا يسمعان" . ثُمَّ قال: " اللهم بعزتك وخر ساجداً فقَالَ: " اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني فمَا رفع رأسه حتى كشف عنه ".

وقَالَ ابن أبي حاتم وابن جرير جميعا: حدثنا يونس بن عبد الأعلى. أنبأنا ابن وهب. أخبرني نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قَالَ : « إن نبي اللّه أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين منْ إخوانه كانا منْ أخص إخوانه له كانا يغدوان إليه ويروحان. فقَالَ أحدهمَا لصاحبه: يعلم اللّه لقد أذنب أيوب ذنبا مَا أذنبه أحد منْ العالمين. قَالَ له صاحبه: ومَا ذاك قَالَ منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف مَا به. فلمّا راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقَالَ أيوب: لا أدري مَا تقول غير أن اللّه عز وجل يعلم أنِّي كنت أمر على الرجلين

يتنازعان فيذكران اللّه فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهمَا كراهية أن يذكرا اللّه إلا في حق. قَال: وكَانَ يخرج في حاجته فإذَا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلمّا كَانَ ذات يوم أبطأت عليه فأوحى اللّه إلى أيوب في مكانه: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فاستبطأته فتلقته تنظر ، وأقبل عليها قد أذهب اللّه مَا به منْ البلاء وهُوَ على أحسن مَا كَانَ فلمّا رأته قالت: أي بارك اللّه فيك هل رأيت نبي اللّه هذا المبتلى فواللّه على ذلك مَا رأيت رجلا أشبه به منك إذ كَانَ صحيحاً ؟ قال: فإنّي أنا هو. قَالَ : وكَانَ له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث اللّه سحابتين فلمّا كانت إحداهمَا على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر[1] الشعير الورق حتى فاض »[2] هذا لفظ ابن جرير ، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حرملة عن ابن وهب به. وهذا غريب رفعه جدا. والأشبه أن يكون موقوفاً.

وقَالَ ابن أبي حاتم: حدثنا أبي . حدثنا موسى بن إسماعيل . حدثنا حماد أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: وألبسه اللّه حلة منْ الجَنَّة . فتنحى أيوب وجلس في ناحية . وجاءت امرأته فلم تعرفه . فقالت : يا عبد اللّه أين ذهب هذا المبتلى الّذي كَانَ ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة ؟ قال: ولعل أنا أيوب . قالت : أتسخر مني يا عبد اللّه ؟ فقَالَ : ويحك أنا أيوب قد رد اللّه علي جسدي [3].

قَالَ ابن عباس : ورد اللّه عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم. وقَالَ وهب بن منبه. : أوحى اللّه إليه قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قربانا . واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك . رواه ابن أبي حاتم. وقَالَ ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة . حدثنا عمرو بن مرزوق . حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قَالَ :« لَمّا عافى اللّه أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً منْ ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل في ثوبه . قَالَ : فقيل له : يا أيوب أمّا تشبع. قَالَ : يارب ومنْ يشبع منْ رحمتك »[4] وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي داود الطيالسي وعبد الصمد عن همام عن قتادة به. ورواه ابن حبان في صحيحه عن عبد اللّه بن محمد الأزدي عن إسحاق بن راهويه عن عبد الصمد به . ولم يخرجه أحد منْ أصحاب الكتب وهُوَ على شرط الصحيح فاللّه أعلم.

وقَالَ الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أرسل على أيوب رجل منْ جراد منْ ذهب فجعل يقبضها في ثوبه . فقيل : يا أيوب ألم يكفك مَاأعطيناك؟

---

(١) الأندر : الكدس من القمح ، والكدس : الحب المحصود المجموع كما فى اللسان .

(٢) **صحيح** : رواه ابن حبان (٢٨٩٨ــ إحسان) والطبرى فى تفسيره (٢٣/ ١٦٧) وأبو يعلى (٣٦١٧) والبزار(٢٣٥٧) والحاكم (٢ / ٥٨١ ، ٥٨٢) وأبو نعيم فى " الحلية " (٣ / ٣٧٤ ، ٣٧٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى : وقال الهيثمى فى " المجمع " (٨ / ٢٠٨) رواه أبو يعلى والبزار ورجال البزار رجال الصحيح .

(٣) ضعيف : فى سنده على بن زيد جدعان وهو ضعيف .

(٤) صحيح : رواه أحمد (٢ / ٣٠٤ و ٤٩٠ و ٥١١) والطيالسى (٢٤٥٥) وابن حبان (٦٢٣٠ ــ إحسان) .

قَالَ : أي رب ومنْ يستغني عن فضلك؟ . هذا موقوف. وقد روي عن أبي هريرة منْ وجه آخر مرفوعا .

وقَالَ الإمام أحمد . حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام بن منبه قَالَ : هذا مَا حدثنا أبو هريرة قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « **بينمَا أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد منْ ذهب فجعل أيوب يحثي** [(١)] **في ثوبه فناداه ربه عزّ وجلّ : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عمّا ترى ؟ قَالَ : بلى يا رب ولَكِن لا غنى لي عن بركتك** » [(٢)] رواه البخاري منْ حديث عبد الرزاق به .

وقوله ﴿ **ارْكُضْ بِرِجْلِكَ** ﴾ أي اضرب الأرْض برجلك فامتثل مَا أمر به فأنبع اللَّه له عيناً باردة الماء ، وأمر أن يغتسِل فيها ويشرب منها . فأذهب اللَّه عنه مَا كَانَ يجده منْ الألم والأذى والسقم والمرض الَّذي كَانَ في جسده ظاهراً وباطناً وأبدله اللَّه بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالا تامّا ومالا كثيراً حتى صب له منْ المال صبا مطراً عظيمًا جراداً منْ ذهب وأخلف اللَّه له أهله كمَا قَالَ تعالى : ﴿ **وآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ومِثْلَهُم مَّعَهُمْ** ﴾ فقيل : أحياهم اللَّه بأعيانهم. وقيل : آجره فيمنْ سلف وعوضه عنهم في الدُّنْيَا بدلهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة. وقوله : ﴿ **رَحْمَةً مِّنْ عندنَا** ﴾ أي رفعنا عنه شدته ﴿ **فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ** ﴾ رحمة منا به ورأفة وإحسانا ﴿ **وذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ** ﴾ أي تذكرة لمنْ ابتلي في جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبي اللَّه أيوب حيث ابتلاه اللَّه بمَا هُوَ أعظم منْ ذلك فصبر واحتسب حتى فرج اللَّه عنه .

ومنْ فهم منْ هذا اسم امرأته فقَالَ : هي رحمة منْ هذه الآية فقد أبعد النجعة وأغرق النـــزع. وقَالَ الضحاك عن ابن عباس : رد اللَّه إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرون ولداً ذكرا .

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ثُمَّ غيروا بعده دين إبراهيم وقوله : ﴿ **وخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ ولا تَحْنَثْ إنَّا وجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص : ٤٤] هذه رخصة منْ اللَّه تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيمَا كَانَ منْ حلفه ليضربن امرأته مائة سوط . فقيل : حلفه ذلك لبيعها ضفائرها. وقيل : لأنه عرضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فأخبرته فعرف أنَّه الشيطان فحلف ليضربها بمائة سوط. فلمّا عافاه اللَّه عزّ وجلّ أفتاه أن يأخذ ضغثا وهُوَ كالعثكال [(٣)] الَّذِي يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منـــزلا منـــزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث. وهذا منْ الفرج والمخرج لمنْ اتقى اللَّه وأطاعه ولا سيمَا في حق امرأته الصابرة

---

(١) أى يغترف بيديه فى ثوبه .

(٢) رواه البخارى (٢٧٩) فى الغسل ، باب من اغتسل عرياناً وحده . وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٩١) - باب قول الله تعالى : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ .

(٣) العثكال : ما علق من عهن أو صوف أوزينة فتذبذب فى الهواء .

المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة رضي اللّه عنها. ولهذا عقب اللّه هذه الرخصة وعللها بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وقد استعمل كثير منْ الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص منْ الأيمان وصدروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء منْ العجائب والغرائب.وسنذكر طرفا منْ ذلك في كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء اللّه تعالى.

وقد ذكر ابن جرير وغيره منْ علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لَمَا توفي كَانَ عمره ثلاثا وتسعين سنة. وقيل إِنَّه عاش أكثر منْ ذلك. وقد روى ليث عن مجاهد مَا معناه أن اللّه يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء وبيوسف عليه السلام على الأرقاء وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء . رواه ابن عساكر بمعناه وإِنَّه أوصى إلى ولده حومل وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب وهُوَ الَّذي يزعم كثير منْ الناس : أنَّه ذو الكفل فاللّه أعلم. ومات ابنه هذا وكَانَ نبياً فيمَا يزعمون وكَانَ عمره منْ السنين خمساً وسبعين.ولنذكر ههنا قصة ذي الكفل إذ قَالَ بعضهم : إِنَّه ابن أيوب عليهمَا السلام وهذه.

قصة ذي الكفل

الَّذي زعم قوم : أنَّه ابن أيوب . قَالَ اللّه تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنبياء ٨٥ ، ٨٦] وقَالَ تعالى بعد قصة أيوب أيضا في سورة ص ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ. وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾[ص:٤٥– ٤٨] فالظاهر منْ ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء إِنَّه نبي عليه منْ ربه الصلاة والسلام وهذا هُوَ المشهور. وقد زعم آخرون أنَّه لم يكن نبيا وإِنَّما كَانَ رجلاً صالحاً وحكماً مقسطاً عادلاً. وتوقف ابن جرير في ذلك فاللّه أعلم .

وروى ابن جرير وابن أبي نجيح عن مجاهد أنَّه لم يكن نبيا وإنّما كَانَ رجلا صالحا ، وكَانَ قد تكفل لبني قومه أن يكفيه أمرهم ويقضي بينهم بالعدل فسمي ذا الكفل . وروى ابن جرير وابن أبي حاتم منْ طريق داود بن أبي هند عن مجاهد أنَّه قَالَ لَمَا كبر اليسع قَالَ : لو إِنِّي استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس فقَالَ : منْ يتقبل لي بثلاث أستخلفه. يصوم النَّهَار ويقوم اللَّيْل ولا يغضب. قَالَ : فقَالَ : رجل تزدريه العين فقَالَ : أنا فقَالَ: أنت تصوم النَّهَار وتقوم اللَّيْل ولا تغضب . قَالَ : نعم. قَالَ : فردهم ذلك اليوم وقَالَ مثلها اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقَالَ : أنا ، فاستخلفه قَالَ : فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان فأعياهم ذلك ، فقَالَ : دعوني وإياه فأتاه في صورة شيخ كبير فقير وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة وكَانَ لا ينام اللَّيْل والنَّهَار إلا تلك النومة فدق

الباب . فقَالَ : منْ هذا ؟ قَالَ : شيخ كبير مظلوم. قَالَ : فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه فقَالَ : إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا حتى حضر الرواح وذهبت القائلة . وقَالَ : إذَا رحت فأتني آخذ لك بحقك فانطلق وراح. فكَانَ في مجلسه . فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلمّا كَانَ الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه. فلمّا رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقَالَ منْ هذا ؟ فقَالَ : الشيخ الكبير المظلوم ففتح له فقَالَ : ألم أقل لك إذَا قعدت فأتني ؟ فقَالَ : إنهم أخبث قوم إذَا عرفوا أنك قاعد . قَالُوا : نحن نعطيك حقك وإذَا قمت جحدوني قَالَ : فانطلق فإذَا رحت فأتني . قَالَ : ففاتته القائلة فراح فجعل ينتظر فلا يراه وشق عليه النعاس ، فقَالَ لبعض أهله : لا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فإنِّي قد شق عليّ النوم. فلمّا كَانَ تلك الساعة جاء فقَالَ له الرجل : وراءك وراءك فقَالَ : إنِّي قد أتيته أمس فذكرت له أمري. فقَالَ : لا واللّه لقد أمرنا أن لا ندع أحدا يقربه فلمّا أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها فإذَا هُوَ في البيت وإذَا هُوَ يدق الباب منْ داخل . قَالَ : فاستيقظ الرجل . فقَالَ : يا فلان ألم آمرك ؟ . قَالَ : أمّا منْ قبلي واللّه فلم تؤت فانظر منْ أين أتيت ؟ قَالَ : فقام إلى الباب فإذَا هُوَ مغلق كمَا أغلقه وإذَا الرجل معه في البيت فعرفه . فقَالَ : أعدو اللّه ؟ . قَالَ : نعم . أعييتني في كل شَيْء ففعلت مَا ترى ؟. لأغضبنك فسماه اللّه ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به . وقد روى ابن أبي حاتم أيضا عن ابن عباس قريبا منْ هذا السياق .

وهكذا روى عن عبد اللّه بن الحارث ومحمد بن قيسٌ وابن حجيرة الأكبر وغيرهم منْ السلف نحو هذا ، وقَالَ ابن أبي حاتم : حدثنا أبي . حدثنا أبو الجماهر . أنبأنا سعيد بن بشير . حدثنا قتادة عن كنانة بن الأخنس قَالَ : سمعت الأشعري يعني أبا موسى رضي اللّه عنه وهُوَ على هذا المنبر يقول : مَا كَانَ ذو الكفل نبيا ولَكِن كَانَ رجلا صالحا يصلي كل يوم مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل منْ بعده يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل . ورواه ابن جرير منْ طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قَال : قَالَ أبو موسى الأشعري ، فذكره منقطعا.

فأمّا الحديث الّذي رواه الإمام أحمد ؛ حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن عبد اللّه ابن عبد اللّه عن سعدَ مولى طلحة عن ابن عمر قَالَ : سمعت منْ رسول اللّه ﷺ حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرار ولَكِن قد سمعته أكثر منْ ذلك قَالَ : « **كَانَ الكفل منْ بني إسرائيل لا يتورع منْ ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلمّا قعد منها مقعد الرجل منْ امرأته أرعدت**[1] **وبكت فقَالَ لها : ما يبكيك أكرهتك ؟ قالت : لا ولَكِن هذا عمل لم أعمله قط ؛ وإنّما حملتني عليه الحاجة . قَالَ : فتفعلين هذا ولم تفعليه قط. ثُمَّ نزل فقَالَ : اذهبي بالدنانير لك. ثُمَّ قَالَ : واللّه لا يعصي اللّه الكفل أبدا فمات منْ ليلته فأصبح مكتوبا على بابه قد غفر اللّه للكفل** » .

---

(١) أرعدت : ارتجفت واضطربت عند الفزع .

ورواه الترمذي منْ حديث الأعمش به وقَالَ : حسن. وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر فهُوَ حديث غريب جدا . وفي إسناده نظر فإن سعدا هذا قَالَ أبو حاتم : لا أعرفه إلا بحديث واحد ووثقه ابن حبان ولم يرو عنه سوى عبد اللّه بن عبد اللّه الرازي هذا فاللّه أعلم. وإن كَانَ محفوظا فليس هُوَ ذا الكفل وإنّما لفظ الحديث الكفل بغير إضافة فهُوَ رجل آخر غير المذكور في القرآن فالله أعلم .

باب ذكر أممٍ أهلكوا بعامّة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى** ﴾ [القصص : ٤٣] الآية. كمَا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار منْ حديث عوف الأعرابي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قَالَ : مَا أهلك اللّه قومًا بعذاب منْ السَّمَاء أو منْ الأَرْض بعد مَا أنزلت التوراة على وجه الأَرْض غير القرية التي مسخوا قردة. ألم تر أن اللّه تعالى يقول : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى** ﴾ [القصص : ٤٣] ورفعه البزار في رواية له. والأشبه واللّه أعلم وقفه فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام. فمنهم :

أصحاب الرس

قَالَ اللّه تعالى في سورة الفرقان ﴿ **وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً . وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً** ﴾ [الفرقان ٣٨ ، ٣٩] وقَالَ تعالى في سورة ق ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ . وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ** ﴾ [ق : ١٢ - ١٤] وهذا السياق والّذي قبله يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا وهُوَ الهلاك . وهذا يرد اختيار ابن جرير منْ أنهم أصحاب الأخدود الّذينَ ذكروا في سورة البروج لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام وفيه نظر أيضا.

وروى ابن جرير قَالَ : قَالَ ابن عباس : أصحاب الرس أهل قرية منْ قرى ثمود وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر في أول تاريخه عند ذكر بناء دمشق عن تاريخ أبي القاسم عبد اللّه بن عبد الله بن جرداد وغيره أن أصحاب الرس كانوا بحضور فبعث اللّه إليهم نبيا ، يقال له : حنظلة بن صفوان فكذبوه وقتلوه فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرس فنـــزل الأحقاف وأهلك اللّه أصحاب الرس وانتشروا في اليمن كلها وفشوا مع ذلك في الأَرْض كلها حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح دمشق وبنى مدينتها وسماها جيرون وهي إرم ذات العماد وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق فبعث اللّه هود بن عبد اللّه بن رباح بن خالد بن الحلود بن عاد إلى عاد يعني أولاد عاد

بالأحقاف فكذبوه وأهلكهم اللّٰه عز وجل فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة فاللّٰه أعلم .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي عاصم عن أبيه عن شبيب بن بشر عن عكرمة عَنْ ابن عباس قَالَ : الرس بئر بأذربيجان. وقَالَ الثوري عن أبي بكر عن عكرمة قَالَ : الرس بئر رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها. وقال ابن جريج : قَالَ عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب ياسين. وقَالَ قتادة : فلج منْ قرى اليمامة .

قلت : فإن كانوا أصحاب ياسين كمَا زعمه عكرمة فقد أهلكوا بعامة قَالَ اللّٰه تعالى في قصتهم : ﴿ إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس : ٢٩] وستأتي قصتهم بعد هؤلاء. وإن كانوا غيرهم وهُوَ الظاهر فقد أهلكوا أيضا وتبروا. وعلى كل تقدير فينافي مَا ذكره ابن جرير . وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقاش أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفي أرضهم جميعها وكَانَ لهم ملك عادل حسن السيرة . فلمّا مات وجدوا عليه وجدا عظيمًا . فلمّا كَانَ بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته . وقَالَ: إنِّي لم أمت ولَكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم ففرحوا أشد الفرح وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه وأخبرهم أنَّه لا يموت أبدا فصدق به أكثرهم وافتتنوا به وعبدوه . فبعث اللّٰه فيهم نبيا وأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم منْ وراء الحجاب ونهاهم عن عبادته وأمرهم بعبادة اللّٰه وحده لا شريك له.

قَالَ السهيلي : وكَانَ يوحي إليه في النوم وكَانَ اسمه حنظلة بن صفوان فعدوا عليه ، فقتلوه وألقوه في البئر ، فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ويبست أشجارهم ، وانقطعت ثمارهم، وخربت ديارهم وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة وبعد الاجتماع بالفرقة وهلكوا عن آخرهم وسكن في مساكنهم الجن والوحوش فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسد وصوت الضباع. فأمّا مَا رواه - أعني ابن جرير - عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قَالَ : قَالَ رسول اللّٰه ﷺ: « **إن أول الناس يدخل الجَنَّة يوم القيامة العبد الأسود** » وذلك أن اللّٰه تعالى بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به منْ أهلها إلا ذلك العبد الأسود. ثُمَّ إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئراً فألقوه فيها . ثُمَّ أطبقوا عليه بحجر أصم . قَالَ فكَانَ ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ثُمَّ يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري به طعاما وشرابا . ثُمَّ يأتي به إلى ذلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه اللّٰه عليها ويدلي إليه بطعامه وشرابه . ثُمَّ يردها كمَا كانت . قَالَ : فكَانَ كذلك مَا شاء اللّٰه أن يكون. ثُمَّ إنَّه ذهب يومًا يحتطب كمَا كَانَ يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته . وفرغ منها فلمّا أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع ينام فضرب اللّٰه على أذنه سبع سنين نائمًا . ثُمَّ إنَّه هب فتمطى وتحول لشقه الآخر . فاضطجع فضرب اللّٰه على أذنه سبع سنين أخرى . ثُمَّ إنَّه هب واحتمل حزمته ولا يحسب أنه نام إلا ساعة منْ نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته . ثُمَّ اشترى طعاما وشراباً كمَا كَانَ يصنع. ثُمَّ إنَّه ذهب إلى الحفرة إلى موضوعها الَّذي كانت فيه فالتمسه فلم يجده وقد كَانَ بدا لقومه فيه

بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه. قَالَ : فكَانَ نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود مَا فعل . فيقولون له : مَا ندري حتى قبض اللّه النبي عليه السلام وأهب الأسود منْ نومه بعد ذلك فقَالَ رسول اللّه ﷺ : « **إن ذلك الأسود لأول منْ يدخل الجنة** » فإنَّه حديث مرسل ومثله فيه نظر[1] . ولعل بسط قصته منْ كلام محمد بن كعب القرظي واللّه أعلم. ثُمَّ قد رده ابن جرير نفسه . وقَالَ : لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أهم أصحاب الرس المذكورون في القرآن . قَالَ : لأن اللّه أخبر عن أصحاب الرس أنّه أهلكهم وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم واللّه أعلم. ثُمَّ اختار أهم أصحاب الأخدود وهُوَ ضعيف لَمَا تقدم ولَمَا ذكر في قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا و لم يذكر هلاكهم وقد صرح بهلاك أصحاب الرس واللّه أعلم .

قصّة قوم يس وهم أصحاب القرية

قَالَ اللَّه تعالى : **﴿ واضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ القَرْيَةِ إذْ جَاءَهَا المُرْسَلُونَ . إذْ أَرْسَلْنَا إلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بثَالث فَقَالُوا إنَّا إلَيْكُم مُّرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنتُمْ إلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ومَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ من شَيْءٍ إنْ أَنتُمْ إلاَّ تَكْذبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إنَّا إلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . ومَا عَلَيْنَا إلاَّ البَلاغُ المُبِينُ . قَالُوا إنَّا تَطَيَّرْنَا بكُمْ لَئن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ولَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَليمٌ . قَالُوا طَائرُكُم مَّعَكُمْ أَئن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ. وجَاءَ منْ أَقْصَا المَدينَة رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وهُم مُّهْتَدُونَ. ومَا ليَ لا أَعْبُدُ الَذي فَطَرَني وإلَيْه تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخذُ مــن دُونه آلهَةً إن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ولا يُنقذُون . إنِّي إذاً لَّفي ضَلالٍ مُّبِينٍ . إنِّي آمَنتُ برَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ . قيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمُونَ. بمَا غَفَرَ لي رَبِّي وجَعَلَني منَ المُكْرَمينَ . ومَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمه منْ بَعْده من جُند مِّنَ السَّمَاء ومَا كُنَّا مُنــزلينَ . إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحدَةً فَإذَا هُمْ خَامدُونَ ﴾** [يس: ١٣- ٢٩] .

اشتهر عن كثير منْ السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية. رواه ابن إسحاق فيمَا بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، وكذا روي عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهري وغيرهم . قَالَ ابن إسحاق فيمَا بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب : أهم قَالُوا: وكَانَ لها ملك اسمه أنطيخس بن أنطيحس وكَانَ يعبد الأصنام فبعث اللّه إليه ثلاثة منْ الرسل وهم صادق ومصدوق وشلوم فكذبهم .

وهذا ظاهر أهم رسل منْ اللّه عزّ وجلّ . وزعم قتادة أهم كانوا رسلا منْ المسيح. وكذا قَالَ ابن جرير عن وهب عن ابن سليمان عن شعيب الجبائي : كَانَ اسم المرسلين الأوليين شمعون ، ويوحنا . واسم الثالث : بولس . والقرية أنطاكية. وهذا القول ضعيف جدا لأن أهل أنطاكية لَمَا بعث إليهم المسيح ثلاثة منْ الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكون فيها بتاركة النصارى وهن : أنطاكية . والقدس .

---

(١) الحديث مع إرساله ففى سنده محمد بن حميد الرازى وهو ضعيف كما فى " التقريب " (٢ / ١٥٦) .

وإسكندرية . ورومية . ثُمَّ بعدها إلى القسطنطينية ولم يهلكوا وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا كمَا قَالَ في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين : ﴿ **إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ** ﴾ لَكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن بعثوا إلى أهل أنطاكية قديمًا فكذبوهم وأهلكهم الله . ثُمَّ عمرت بعد ذلك فلمّا كَانَ في زمنْ المسيح آمنوا برسله إليهم فلا يمنع هذا والله أعلم .

فأمّا القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح فضعيف لَما تقدم. ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل منْ عند الله. قَالَ الله تعالى : ﴿**واضْرِبْ لَهُم مَّثلاً** ﴾ يعني لقومك يا محمد ﴿ **أَصْحَابَ القَرْيَةِ** ﴾ يعني المدينة ﴿ **إذْ جَاءَهَا المُرْسَلُونَ . إذْ أَرْسَلْنَا إلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِث** ﴾ أي أيدناهمَا بثالث في الرسالة ﴿**فَقَالُوا إنَّا إلَيْكُم مُّرْسَلُونَ**﴾ فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم كمَا قالت الأمم الكافرة لرسلهم يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام ﴿**ومَا عَلَيْنَا إلاَّ البَلاغُ المُبِينُ** ﴾ أي إنّما علينا أي نبلغكم مَا أرسلنا به إليكم والله هُوَ الَّذي يهدي منْ يشاء ويضل منْ يشاء ﴿ **قَالُوا إنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ** ﴾ أي تشاء منا بمَا جئتمونا به ﴿ **لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ** ﴾ بالمقَالَ ، وقيل : بالفعال ويؤيد الأول قوله : ﴿ **ولَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ فوعدوهم بالقتل والإهانة ﴿ **قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ** ﴾ أي مردود عليكم ﴿ **أَئِن ذُكِّرْتُم** ﴾ أي بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿ **بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ** ﴾ أي لا تقبلون الحق ولا تريدونه. وقوله تعالى : ﴿ **وجَاءَ مِنْ أَقْصَا المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى** ﴾ يعني لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ أي يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة. ثُمَّ دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن عبادة مَا سواه ممَا لا ينفع شيئاً لا في الدُّنْيَا ولا في الآخرة ﴿**إنّي إذاً لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ أي إن تركت عبادة الله وعبدت معه مَا سواه. ثُمَّ قَالَ مخاطبا للرسل : ﴿ **إنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ** ﴾ قيل : فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم. وقيل : معناه فاسمعوا يا قومي إيماني برسل الله جهرة. فعند ذلك قتلوه. قيل : رجما. وقيل : عضا ، وقيل وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه. وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قَالَ : وطئوه بأرجلهم حتى أخرجوا قصبته .

وقد روى الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز : كَانَ اسم هذا الرجل حبيب بن مري. ثُمَّ قيل : كَانَ نجارا ، وقيل : حبالا. وقيل : إسكافا. وقيل : قصارا ، وقيل : كَانَ يتعبد في غار هناك ، فالله أعلم . وعن ابن عباس : كَانَ حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام وكَانَ كثير الصدقة قتله قومه. ولهذا قَالَ تعالى : ﴿ **ادْخُلِ الجَنَّةَ** ﴾ يعني لَما قتله قومه أدخله الله الْجَنَّة فلمّا رأى فيها منْ النضرة والسرور ﴿ **قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ** ﴾ يعني ليؤمنوا بمَا آمنت به فيحصل لهم مَا حصل لي .

قَالَ ابن عباس : نصح قومه في حياته ﴿ **يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ** ﴾ وبعد مماته ﴿ **يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ** ﴾ رواه ابن أبي حاتم ، وكذلك قَالَ قتادة : لا يلقى المؤمن إلا ناصحا لا يلقى غاشا لَمَا عاين مَا عاين منْ كرامة اللّه ﴿**قال يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ تمنى واللّه أن يعلم قومه بمَا عاين منْ كرامة اللّه ومَا هُوَ عليه ، قَالَ قتادة: فلا واللّه مَا عاتب اللّه قومه بعد قتله ﴿**إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحدَةً فإذا هُمْ خَامِدُونَ**﴾ وقوله تعالى:﴿**ومَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِه مِنْ بَعْدِهِ من جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ ومَا كُنَّا مُنــزِلِينَ**﴾ أي مَا احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند منْ السَّمَاء عليهم .هذا معنى مَا رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود.

قَالَ مجاهد وقتادة ومَا أنزل عليهم جند أي رسالة أخرى قَالَ ابن جرير والأول أولى.

قلت وأقوى ولهذا قَالَ : ﴿ **ومَا كُنَّا مُنــزِلِينَ** ﴾ أي ومَا كنا نحتاج في الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿**إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾ قَالَ المفسرون : بعث اللّه إليهم جبريل عليه السلام فأخذ بعضادتي الباب الّذي لبلدهم ثُمَّ صاح بهم صيحة واحدة فإذَا هم خامدون أي قد أخمدت أصواقم وسكنت حركاقم و لم يبق منهم عين تطرف .

وهذا كله ممَا يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل اللّه إليهم وأهل أنطاكيه آمنوا واتبعوا رسل المسيح منْ الحواريين إليهم فلهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح .

فأمّا الحديث الّذي رواه الطبراني منْ حديث حسين الأشقر عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قَالَ:« **السبق ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون. والسابق إلى عيسى صاحب يس . والسابق إلى محمد علي بن أبي طالب** » فإنَّه حديث لا يثبت لأن حسينا هذا متروك وشيعي منْ الغلاة وتفرده بهذا ممَا يدل على ضعفه بالكلية والله أعلم .

قصَّة يونس عليه السلام

قَالَ اللّه تعالى في سورة يونس:﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنفَعَهَا إِيمَانُهَا إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ومَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾ [يونس : ٩٨] .

وقَالَ تعالى في سورة الأنبياء ﴿ **وذَا النُّونِ إذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْه فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ونَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨] .

وقَالَ تعالى في سورة الصافات ﴿ **وإنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إذْ أَبَقَ إِلَى الفُلْكِ المَشْحُون . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وهُوَ مُلِيمٌ . فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِه إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وهُوَ سَقِيمٌ . وأَنْبَتْنَا عَلَيْه شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ . وأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾ [الصافات : ١٣٩ - ١٤٨] .

وقَالَ تعالى في سورة نون﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[القلم:٤٨-٥٠]

قَالَ أهل التفسير : بعث اللّه يونس عليه السلام إلى أهل نينوى منْ أرض الموصل فدعاهم إلى اللّه عزّ وجلّ فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم فلمّا طال ذلك عليه منْ أمرهم خرج منْ بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قَالَ ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد منْ السلف والخلف : فلمّا خرج منْ بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف اللّه في قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على مَا كَانَ منهم إلى نبيهم فلبسوا المسوح ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها . ثُمَّ عجوا [1] إلى اللّه عزّ وجلّ وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات وجأرت الأنعام والدواب والمواشي فرغت الإبل ، وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف اللّه العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الّذي كَانَ قد اتصل بهم بسببه ودار على رؤوسهم كقطع اللّيْل المظلم ولهذا قَالَ تعالى : ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [يونس : ٩٨] أي هلا وجدت فيمَا سلف منْ القرون قرية آمنت بكمالها فدل على أنه لم يقع ذلك بل كمَا قَالَ تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ:٣٤] وقوله: ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس:٩٨] أي آمنوا بكمالهم .

وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة فينقذهم منْ العذاب الأخروي كمَا أنقذهم منْ العذاب الدنيوي ؟ على قولين الأظهر منْ السياق نعم واللّه أعلم.

كمَا قَالَ تعالى : ﴿ لَمَّا آمَنُوا ﴾ وقَالَ تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [الصفات : ١٤٧] وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره منْ رفع العذاب الأخروي واللّه أعلم .

وقد كانوا مائة ألف لا محالة واختلفوا في الزيادة فعن مكحول عشرة آلاف. وروى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم منْ حديث زهير عمنْ سمع أبا العالية حدثني أبي بن كعب أنه سأل رسول اللّه ﷺ عن قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصفات : ١٤٧] قَالَ : يزيدون عشرين ألفا فلولا هذا الرجل المبهم لكَانَ هذا الحديث فاصلا في هذا الباب. وعن ابن عباس : كانوا مائة ألف وثلاثين ألفا وعنه وبضعة وثلاثين ألفا. وعنه وبضعة وأربعين ألفا ، وقَالَ سعيد بن جبير : كانوا مائة ألف وسبعين ألفا .

---

(١) عجوا : تضرعوا .

واختلفوا هل كَانَ إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده أو همَا أمتان على ثلاثة أقوال هي مبسوطة في التفسير. والمقصود أنّه عليه السلام لَمَا ذهب مغاضبا بسبب قومه ركب سفينة في البحر فلجت بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بمَا فيها وكادوا يغرقون على مَا ذكره المفسرون، قَالُوا : فاشتوروا فيمَا بينهم على أن يقترعوا فمنْ وقعت عليه القرعة ألقوه منْ السفينة ليتحفظوا منه. فلمّا اقترعوا وقعت القرعة على نبي اللّه يونس ، فلم يسمحوا به ، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً فشمر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك. ثُمَّ أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً لَمَا يريده اللّه به منْ الأمر العظيم. قَالَ اللّه تعالى : **﴿ وإنّ يُونُسَ لَمنَ الْمُرْسَلينَ . إذْ أَبَقَ إلَى الفُلْك الْمَشْحُون . فَسَاهَمَ فَكَانَ منَ الْمُدْحَضينَ . فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وهُوَ مُليمٌ ﴾** [الصافات : ١٣٩ - ١٤٢] . وذلك أنّه لَمَا وقعت عليه القرعة ألقي في البحر وبعث اللّه عز وجل حوتا عظيمًا منْ البحر الأخضر فالتقمه وأمره اللّه تعالى أن لا يأكل له لحمًا ولا يهشم له عظمًا فليس لك برزق فأخذه فطاف به البحار كلها ، وقيل: إنّه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه. قَالُوا ولَمَا استقر في جوف الحوت حسب أنّه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فإذَا هُوَ حي فخر للّه ساجدا وقَالَ: يا رب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد في مثله .

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه. فقَالَ مجالد عن الشعبي : التقمه ضحى ولفظه عشية. وقَالَ قتادة: مكث فيه ثلاثا. وقَالَ جعفر الصادق: سبعة أيام ويشهد له شعر أمية بن أبي الصلت :

وَأَنْتَ بفضلٍ منـــكَ نجّيـــتَ يُونساً وقدْ باتَ في أضعاف [1]حُوتٍ لياليا

وقَالَ سعيد بن أبي الحسن وأبو مالك مكث في جوفه أربعين يومًا واللّه أعلم كم مقدار مَا لبث فيه .

والمقصود أنّه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية ويقتحم به لجج الموج الأجاجي [2] فسمع تسبيح الحيتان للرحمنْ وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ورب السَّمَوَات السبع والأرضين السبع ومَا بينها ومَا تحت الثرى. فعند ذلك وهنالك قَالَ مَا قَالَ بلسان الحال والمقَالَ كمَا أخبر عنه ذو العزة والجلال الّذي يعلم السر والنجوى ويكشف الضر والبلوى سامع الأصوات وإن ضعفت وعالم الخفيات وإن دقت ومجيب الدعوات وإن عظمت حيث قَالَ في كتابه المبين المنـــزل على رسوله الأمين وهُوَ أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين : **﴿ وذَا النُّون إذ ذَّهَبَ﴾** إلى أهله **﴿ مُغَاضباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدرَ عَلَيْه فَنَادَى في الظُّلُمَات أَن لاَّ إلَهَ إلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنتُ منَ الظَّالمينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ونَجَّيْنَاهُ منَ الغَمِّ وكَذَلكَ نُنجي الْمُؤْمنينَ ﴾** [الأنبياء:٨٧-٨٨] **﴿فظن أن لا نقدر عليه﴾** أن نضيق. وقيل : معناه نقدر منْ التقدير وهي لغة مشهورة قدر وقدِرَ وقدّر كمَا قَالَ الشاعر :

---

(١) أضعاف : الأضعاف من الجسد : أعضاؤه أو عظامه .

(٢) الأجاج : مِلْحٌ مُرٌّ .

فَلا عائدٌ ذاكَ الزمانُ الَّذي مضَى تبارَكْتَ مَا يُقدَرْ يَكُنْ فلَكَ الأمرُ

﴿ **فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ** ﴾ قَالَ ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك : ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة اللّيل ، وقَالَ سالم بن أبي الجعد : ابتلع الحوت حوت آخر فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر. وقوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ قيل : معناه لولا أنّه سبح اللّه هنالك وقَالَ مَا قَالَ منْ التهليل والتسبيح والاعتراف للّه بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة. ولبعث منْ جوف ذلك الحوت. هذا معنى مَا روي عن سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه. وقيل معناه : ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ**﴾ منْ قبل أخذ الحوت له ﴿ **مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**﴾ أي المطيعين المصلين الذاكرين اللّه كثيرا قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب ابن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وعطاء بن السائب والحسن البصري وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير . ويشهد لهذا مَا رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ قَالَ لي : « **يا غلام إنّي معلمك كلمات احفظ اللّه يحفظك احفظ اللّه تجده تجاهك تعرّف إلى اللّه في الرخاء يعرفك في الشدة** »[1].

وروى ابن جرير في تفسيره والبزار في مسنده منْ حديث محمد بن إسحاق عمنْ حدثه عن عبد اللّه بن رافع مولى أم سلمة سمعت أبا هريرة يقول : قَالَ رسول اللّه ﷺ: « **لمّا أراد اللّه حبس يونس في بطن الحوت أوحى اللّه إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحمًا ولا تكسر عظمًا** » فلمّا انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقَالَ في نفسه : مَا هذا ؟ فأوحى اللّه إليه وهُوَ في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر. قَالَ : فسبح وهُوَ في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقَالُوا : يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفاً بأرض غريبة ، قَالَ : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قَالُوا : العبد الصالح الَّذي كَانَ يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قَالَ: نعم. قَالَ: فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل كمَا قَالَ اللّه : ﴿**وَهُوَ سَقِيمٌ** ﴾ [الصافات:١٤٥] هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً. ثُمَّ قَالَ البزار : لا نعلمه يروي عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد كذا قال .

وقد قَالَ ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا أبو عبد اللّه أحمد بن عبد الرحمن أخي ابن وهب حدثنا عمي حدثني أبو صخر أن يزيد الرقاشي حدثه سمعت أنس بن مالك ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول اللّه ﷺ « **أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهُوَ في بطن الحوت قَالَ** : ﴿ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] **فأقبلت الدعوة تحنّ بالعرش . فقالت الملائكة : يا رب صوت ضعيف معروف منْ بلاد غريبة ، فقَالَ : أمّا تعرفون ذاك ؟ قَالُوا : يا رب ومنْ هُوَ ؟ قَالَ : عبدي يونس . قَالُوا : عبدك يونس الَّذي لم يزل ترفع له**

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٢/٢٩٣، ٣٠٧) برقم (٢٦٦٩و٢٨٠٤) والترمذى (٢٥١٦) وقال : حديث حسن صحيح.

عملا متقبلا ودعوة مجابة . قَالُوا : يا ربنا أو لا ترحم مَا كَانَ يصنعه في الرخاء فتنجيه منْ البلاء ؟ قَالَ : بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء » . ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به زاد ابن أبي حاتم. قَالَ أبو صخر حميد بن زياد : فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث أنّه سمع أبا هريرة يقول : طرح بالعراء وأنبت اللّه عليه اليقطينة، قلنا: يا أبا هريرة ومَا اليقطينة ؟ قَالَ : شجرة الدباء. قَالَ أبو هريرة: وهيأ اللّه له أروية وحشية تأكل منْ خشاش [1] الأَرْض أو قَالَ : هشاش الأرض. قَالَ : فتنفشخ عليه فترويه منْ لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت وقَالَ أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً منْ شعره :

فأنْبَتَ يقطيناً عَليـــهِ برحمـــةٍ   منْ اللّهِ لولا اللّهُ أصبحَ ضَاوِيا

وهذا غريب أيضا منْ هذا الوجه ويزيد الرقاشي ضعيف ، ولَكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم كمَا يتقوى ذاك بهذا واللّه أعلم. وقد قَالَ اللّه تعالى : **﴿ فَنَبَذْنَاهُ﴾** أي ألقيناه **﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾** وهُوَ المكَانَ القفر الّذي ليس فيه شَيْء منْ الأشجار بل هُوَ عار منها **﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾** أي ضعيف البدن. قَالَ ابن مسعود : كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقَالَ ابن عباس والسدي وابن زيد : كهيئة الضبي حين يولد وهُوَ المنفرش ليس عليه شَيْء وأنبتنا عليه شجرة منْ يقطين. قَالَ ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد اللّه ابن طاووس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخرساني وغير واحد : هُوَ القرع .

قَالَ بعض العلماء : في إنبات القرع عليه حكم جمة. منها أن ورقه في غاية النعومة وكثير وظليل ولا يقربه ذباب ويؤكل ثمره منْ أول طلوعه إلى آخره نيا ومطبوخا وبقشره وببذره أيضا وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير اللّه تعالى له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها وترعى في البرية وتأتيه بكرة وعشية . وهذا منْ رحمة اللّه به ونعمته عليه وإحسانه إليه ، ولهذا قَالَ تعالى : **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾** أي الكرب والضيق الّذي كَانَ فيه **﴿ وكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾** أي وهذا صنيعنا بكل منْ دعانا واستجار بنا .

قَالَ ابن جرير : حدثني عمران بن بكّار الكلاعي ، حدثنا يحيى بن صالح حدثنا أبو يحيى ابن عبد الرحمن حدثني بشر بن منصور عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قَالَ : سمعت سعد بن مالك – وهُوَ ابن أبي وقاص ، يقول سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **اسم اللّه الّذي إذَا دعي به أجاب وإذَا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى**» قَالَ : فقلت : يا رسول اللّه هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين قَالَ :« **هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذَا دعوا بها** ». ألم تسمع قول اللّه تعالى: **﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾** [الأنبياء :٨٧ ، ٨٨] فهُوَ شرط منْ اللّه لمَنْ دعاه به [2]. وقَالَ ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج. حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب.

---

(١) الخشاش : حشرات الأرض والعصافير ونحوها .

(٢) **ضعيف**: رواه الطبرى فى تفسيره (١٧ / ٨٢) وفى سنده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف .

قَالَ أبو خالد : أحسبه عن مصعب يعني ابن سعد عن سعد ، قَالَ: قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « **منْ دعا بدعاء يونس استجيب له** » قَالَ أبو سعيد الأشج : يريد به ﴿**وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وهذان طريقان عن سعد. وثالث أحسن منهما .

قَالَ الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمذاني حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثني والدي محمد عن أبيه سعد وهُوَ ابن أبي وقاص قَالَ : مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني . ثُمَّ لم يرد على السلام فأتيت عمر ابن الخطاب ، فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث في السلام شَيْء . قَالَ: لا ومَا ذاك ؟ قلت: لا ، إلا أنِّي مررت بعثمان آنفا في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني . ثُمَّ لم يرد عليَ السلام، قَالَ : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقَالَ : مَا منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام، قَالَ : مَا فعلت. قَالَ سعد : قلت بلى حتى حلف وحلفت. قَالَ ثُمَّ إن عثمان ذكر فقَالَ بلى وأستغفر اللَّه وأتوب إليه إنك مررت بي آنفا وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها منْ رسول اللَّه ﷺ لا واللَّه مَا ذكرتها قط ألا تغشى بصري وقلبي غشاوة . قَالَ سعد : فأنا أنبئك بها أن رسول اللَّه ﷺ ذكر لنا أول دعوة . ثُمَّ جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول اللَّه ﷺ فاتبعته فلمّا أشفقت أن يسبقني إلى منـــزله ضربت بقدمي الأَرْض فالتفت إلي رسول اللَّه ﷺ فقَالَ «**منْ هذا أبو إسحاق ؟**» قَالَ : قلت : نعم يا رسول اللَّه قَالَ « **مه** » قلت لا واللَّه إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة. ثُمَّ جاء هذا الأعرابي فشغلك. قَالَ «**نعم دعوة ذي النون إذ هُوَ في بطن الحوت**﴿**لا إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ **فإنَّه لم يدع بها مسلم ربه في شَيْء قط إلا استجاب له**» [1] ورواه الترمذي والنسائي منْ حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به .

فضل يونس عليه السلام

قَالَ اللَّه تعالى : ﴿ **وإنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الصافات : ١٣٩] وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام عليهم منْ اللَّه أفضل الصلاة والسلام .

وقَالَ الإمام أحمد : حدثنا وكيع . حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد اللَّه قَالَ: قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « **لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير منْ يونس بن متى** »[2] ورواه البخاري منْ حديث سفيان الثوري به .

وقَالَ البخاري أيضا : حدثنا حفص بن عمر . حدثنا شعبة عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس عن النبي ﷺ قَالَ : « **مَا ينبغي لعبد أن يقول إِنِّي خير منْ يونس بن متي** » ونسبه إلى أبيه [3]. ورواه أحمد ومسلم وأبو داود منْ حديث شعبة به قَالَ شعبة فيمَا حكاه أبو داود عنه : لم يسمع قتادة منْ أبي العالية سوى أربعة أحاديث هذا أحدها .

---

(١) **صحيح** : رواه : وأحمد (١٤٦٢) والترمذى (٣٥٠٥) والنسائى فى " عمل اليوم والليلة " (٦٦١) .

(٢) رواه أحمد (٣٧٠٣) والبخارى (٣٤١٢) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿**وإن يونس لمن المرسلين**﴾ .

(٣) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٤١٣) ومسلم (٢٣٧٧ / ١٦٧) وأحمد (٢٢٩٨) .

وقد رواه الإمام أحمد عن عفان بن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبي ﷺ قَالَ : « **ومَا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير منْ يونس بن متى** »[(١)] **تفرد به أحمد.**

ورواه الحافظ أبو القاسم الطبراني . حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان حدثنا عبد اللّه بن رجاء أنبأنا إسرائيل عن أبي يحيى العتاب عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ قَالَ : « **لا ينبغي لأحد أن يقول أنا عند اللّه خير من يونس بن متى** » [(٢)]إسناده جيد ولم يخرجوه . وقَالَ البخاري : حدثنا أبو الوليد . حدثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم سمعت حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قَالَ : « **لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير منْ يونس بن متى** »[(٣)] وكذا رواه مسلم منْ حديث شعبة به ، وفي البخاري ومسلم منْ حديث عبد اللّه بن الفضل عن عبدالرحمن ابن هرمز الأعرج عن أبي هريرة في قصة المسلم الّذي لطم وجه اليهودي حين قَالَ : لا والّذي اصطفى موسى على العالمين .

قَالَ البخاري في آخره : « **ولا أقول إن أحداً خير منْ يونس بن متى** »[(٤)]وهذا اللفظ يقوى أحد القولين من المعنى لا ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى ، أي ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس. والقول الآخر : « **لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى** » كمَا ورد في بعض الأحاديث : « **لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى** » . وهذا منْ باب الهضم والتواضع منه صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء اللّه والمرسلين .

قصة موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، قال تعالى : ﴿ **واذْكُرْ فِي الكِتَابِ مُوسَى إنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وكَانَ رَسُولاً نَّبياً . ونَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وقَرَّبْنَاهُ نَجِياً . ووَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِياً** ﴾ [مريم ٥١- ٥٣] وقد ذكره اللّه تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن. وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير. وسنورد سيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء اللّه وبه الثقة وعليه التكلان.

قال اللّه تعالى : بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿ **طسم. تلك آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ . نَتْلُوُ عَلَيْكَ مِن نَّبَأ مُوسَى وفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ويَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ . ونُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ . ونُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ونُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ [القصص : ١ - ٦] .

---

(١) فى سنده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف ولكن الحديث يتقوى بالأحاديث الأخرى التى ذكرها المصنف .

(٢) **حسن** : رواه الطبرى فى " الكبير " (١١ / ٧٠) رقم (١١١٢٢) .

(٣) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٤١٦) ومسلم (٢٣٧٧ / ١٦٦) .

(٤) رواه البخارى (٣٤١٤ ، ٣٤١٥) كتاب أحاديث الأنبياء - باب قول الله تعالى ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾.

يذكر تعالى ملخص القصة . ثم يبسطها بعد هذا فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق أي بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً** ﴾ أي تجبر وعتا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى وجعل أهلها شيعا أي قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع يستضعف طائفة منهم وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي اللّٰه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل اللّٰه . وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض. وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ومع هذا ﴿**يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه . وذلك واللّٰه أعلم حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء وعصمة اللّٰه لها. وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلى فرعون . فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون [1] عنده فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذرا من وجود هذا الغلام ولن يغني حذر من قدر.

وذكر السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والحذقة والسحرة وسألهم عن ذلك فقالوا : هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان ولهذا قال اللّٰه تعالى : ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿ **وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾ أي الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم ﴿ **وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ أي سنجعل الضعيف قويا والمقهور قادراً والذليل عزيزاً وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل كما قال تعالى : ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] الآية .

وقال تعالى : ﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴾ [الدخان : ٢٥] ﴿ **وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الشعراء : ٥٨، ٥٩] وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء اللّٰه.

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته. وعند أهل الكتاب أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بني إسرائيل فلا

---

(١) أساورته : مفردها : إسوار وهم الفوارس الثابتون على ظهور الخيل . ويسمرون : يتحدثون بالليل.

يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم. وهذا فيه نظر بل هو باطل وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ واسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ [غافر: ٢٥] ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ومِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف : ١٢٩] فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولا حذراً من وجود موسى. هذا والقدر يقول : يا أيها ذا الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف أقداره إن هذا المولود الذي تحترز منه .وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ولا يغذي إلا بطعامك وشرابك في منـــزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتعداه ولا تطلع على سر معناه . ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين. وتكذيبك ما أوحى إليه لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد. وأنه هو القوى الشديد ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون فأمر فرعون بقتل الأبناء عاما وأن يتركوا عاما فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم فضاقت أمه به ذرعاً واحترزت من أول ما حبلت ولم يكن يظهر عليها مخائيل الحبل. فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتاً فربطته في حبل وكانت دارهما متاخمة للنيل . فكانت ترضعه ، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت ، فأرسلته في البحر ، وأمسكت طرف الحبل . عندها فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قال اللّه تعالى : ﴿ وأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ولا تَخَافِي ولا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ. وقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي ولَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ ولَداً وهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٧-٩] هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى : ﴿ وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ومِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ [النحل : ٦٨ ، ٦٩] الآية وليس هو بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم ، وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة.

قال السهيلي : واسم أم موسى أيارخا. وقيل : أياذخت. والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه وألقى في خلدها وروعها أن لا تخافي ولا تحزني فإنه إن ذهب فإن اللّه سيرده إليك وإن اللّه سيجعله نبيا مرسلا، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة فكانت تصنع ما أُمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ قال اللّه تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وحَزَناً ﴾ قال بعضهم : هذه لام العاقبة وهو ظاهر إن كان متعلقا بقوله فالتقطه. وأما إن جعل متعلقا بمضمون الكلام وهو أن آل فرعون

قيضوا لالتقاطه ليكون لهم عدوا وحزنا صارت اللام معللة كغيرها والله أعلم. ويقوي هذا التقدير الثاني قوله ﴿ إنَّ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ ﴾ وهو الوزير السوء ﴿ وجُنُودَهُمَا ﴾ المتابعين لهما ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ أي كانوا على خلاف الصواب فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة .

وذكر المفسرون أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف. وقيل : إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى. وقيل : بل كانت عمته حكاه السهيلي فالله أعلم .

وسيأتي مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران . وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ في الجنة فلما فتحت الباب وكشف الحجاب رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية فلما رأته . ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً جدا. فلما جاء فرعون قال ما هذا وأمر بذبحه فاستوهبته منه ودفعت عنه ﴿وقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي ولَكَ ﴾ فقال لها فرعون : أما لك فنعم وأما لي فلا. أي لا حاجة لي به والبلاء موكل بالمنطق وقولها ﴿عَسَى أن يَنفَعَنَا﴾ وقد أنالها الله ما رجت من النفع أما في الدنيا فهداها الله به ، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه ﴿ أَوْ نَتَّخذَهُ ولَداً ﴾ وذلك أنهما تبنياه لأنه لم يكن يولد لهما ولد. قال الله تعالى : ﴿وهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده.

وقال تعالى ﴿ وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إن كَادَتْ لَتُبْدي به لَوْلا أن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبهَا لتَكُونَ منَ الْمُؤْمنينَ . وقَالَتْ لأُخْته قُصِّيه فَبَصُرَتْ به عَن جُنُبٍ وهُمْ لا يَشْعُرُونَ . وحَرَّمْنَا عَلَيْه الْمَرَاضِعَ من قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْت يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وهُمْ لَهُ نَاصحُونَ . فَرَدَدْنَاهُ إلَى أُمِّه كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ولا تَحْزَنَ ولِتَعْلَمَ أَنَّ وعْدَ اللَّه حَقٌّ ولَكنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص:١٠-١٣] .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : ﴿ وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً ﴾ أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿ إن كَادَتْ لَتُبْدي به ﴾ أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿لَوْلا أن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبهَا﴾ أي صبرناها وثبتناها ﴿ لتَكُونَ منَ الْمُؤْمنينَ وقَالَتْ لأُخْته ﴾ وهي ابنتها الكبيرة : ﴿ قُصِّيه﴾ أي اتبعي أثره واطلبي له خبره ﴿فَبَصُرَتْ به عَن جُنُب﴾. قال مجاهد: عن بعد. وقال قتادة جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده. ولهذا قال : ﴿ وهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثديا ولا أخذ طعاما . فحاروا في أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل. كما قال تعالى : ﴿ وحَرَّمْنَا عَلَيْه الْمَرَاضِعَ من قَبْلُ ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعل يجدون من يوافق رضاعته فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت : ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وهُمْ لَهُ

نَاصِحُونَ﴾ [القصص : ١٢]. قال ابن عباس : لما قالت ذلك قالوا لها : ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبة في صهر الملك ورجاء منفعته فأطلقوها وذهبوا معها إلى منــزلهم فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ففرحوا بذلك فرحا شديداً، وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك فاستدعتها إلى منــزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن إليها. فأبت عليها ، وقالت : إن لي بعلا وأولاداً ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي فأرسلته معها ورتبت لها رواتب وأجرت عليها النفقات والكساوي والهبات فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها .

قال الله تعالى: **﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ولا تَحْزَنَ ولِتَعْلَمَ أَنَّ وعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾** [القصص : ١٣] أي كما وعدناها برده ورسالته فهذا رده وهو دليل على صدق البشارة برسالته **﴿ ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾** [القصص : ١٣] وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه فقال له فيما قال له : **﴿ولَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى . إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى . أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وعَدُوٌّ لَّهُ وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾** وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه **﴿ ولِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾** [طه : ٣٧ - ٣٩] إذ قال قتادة وغير واحد من السلف : أي تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري **﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ولا تَحْزَنَ وقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾** [طه : ٤٠] وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان .

﴿ ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً وكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . ودَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص : ١٤ - ١٧] لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى وهو احتكام الخَلْق والخلق وهو سن الأربعين في قول الأكثرين آتاه الله حكما وعلماً وهو النبوة والرسالة التي كان بشر بها أمه حين قال : **﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾** ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك حتى كمل الأجل وانقضى الأمد وكان من كلام الله له وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتي. قال تعالى : **﴿ ودَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾** قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي وذلك نصف النهار. وعن ابن عباس بين العشاءين **﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ﴾** أي يتضاربان ويتهاوشان **﴿ هَذَا مِن شِيعَتِهِ﴾** أي إسرائيلي **﴿ وهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾** أي قبطي قاله ابن عباس وقتادة ، والسدي ومحمد بن إسحاق : **﴿ فَاسْتَغَاثَهُ**

الَذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاها وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله أي من الرضاعة فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿ فَوَكَزَهُ ﴾. قال مجاهد : أي طعنه بجمع كفه. وقال قتادة : بعصا كانت معه ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ أي فمات منها. وقد كان ذلك القبطي كافرا مشركا بالله العظيم ولم يرد موسى قتله بالكلية وإنما أزاد زجره وردعه ومع هذا ﴿ قَالَ﴾ موسى ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ أي من العز والجاه ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ. فَأَصْبَحَ فِي المَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا المَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:١٧-٢١] .

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً أي من فرعون وملئه أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ويترتب على ذلك أمر عظيم فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ أي يلتفت فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله ، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ، ومخاصمته قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي فيردعه عنه ويخلصه منه فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي : ﴿ قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ ﴾ قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس : وكأنه لما رأى موسى مقبلا إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله : ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾. فقال : ما قال لموسى وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس فذهب القبطي فاستعدى موسى إلى فرعون. وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه. ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي ، وأنه لما رآه مقبلا إليه خافه ورأى من سجيته انتصارا جيدا للإسرائيلي فقال : ما قال من باب الظن والفراسة إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين أستصرخه عليه ما دله على هذا والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه وسبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب ﴿ وجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا المَدِينَةِ ﴾ ساعيا إليه مشفقا عليه فقال : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أي من هذه البلدة ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أي فيما

أقوله لك قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ أي فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه قائلا ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٢ - ٢٤] .

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفا يترقب أي يتلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون وهو لا يدري أين يتوجه ولا إلى أين يذهب وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أي اتجه له طريق يذهب فيه ﴿ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي عسى أن تكون هذا الطريق موصلة إلى المقصود. وكذا وقع فقد أوصلته إلى مقصود وأي مقصود ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ وكانت بئرا يستقون منها. ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب عليه السلام. وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء. ولما ورد الماء المذكور ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس. وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات. وهذا أيضاً من الغلط [1] وكأنه كن سبعا ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن . وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظا وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتان ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء لضعفنا وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره . قال الله تعالى ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ .

قال المفسرون : وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء هاتان المرأتان فيشربان غنمهما في فضل أغنام الناس فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده. ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر كما كان. قال أمير المؤمنين عمر : وكان لا يرفعه إلا عشرة وإنما استقى ذنوبا واحدا فكفاهما. ثم تولى إلى الظل قالوا وكان ظل شجرة من السمر. روى ابن جرير عن ابن مسعود أنه رآها خضراء ترف ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

قال ابن عباس : سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

---

(١) والصواب : أنهما اثنتان . والنص القرآنى صريح فى وضوح ذلك حيث عبر بالمثنى وضميره فى قوله تعالى : ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ ﴾ وضمير المثنى الألف فى الفعل ﴿ تَذُودَانِ ﴾ و كما فى ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ وألف الاثنين فى قوله : " ثالثا " ، والضمير فى لهما : هما ضمير المثنى . وضمير المثنى فى الاسم ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا ﴾ قالت : إحداهما : هما ضمير المثنى وقوله : ﴿ إِنِّيَ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ فسياق القصة فى الآيات أنهما اثنتان لا غير ، والله تعالى أعلى وأعلم .

قال عطاء بن السائب ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ اسمع المرأة.

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ . قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٥ -٢٨] لما جلس موسى عليه السلام في الظل و﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[القصص : ٢٤] سمعته المرأتان فيما قيل ، فذهبتا إلى أبيهما . فيقال : إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السلام فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه فجاءته إحداهما تمشي على استحياء أي مشي الحراير . قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة. وهذا من تمام حيائها وصيانتها . فلما جاءه وقص عليه القصص وأخبره خبره وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فرارا من فرعونها ﴿ قَالَ ﴾ ذلك الشيخ : ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم .

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو ؟ فقيل : هو شعيب عليه السلام. وهذا هو المشهور عند كثيرين وممن نص عليه الحسن البصري ، ومالك بن أنس. وجاء مصرحا به في حديث ولكن في إسناده نظر . وصرح طائفة بأن شعيبا عليه السلام عاش عمراً طويلا بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته. وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري أن صاحب موسى عليه السلام هذا اسمه شعيب وكان سيد الماء ولكن ليس بالنبي صاحب مدين. وقيل : إنه ابن أخي شعيب. وقيل : ابن عمه. وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب. وقيل : رجل اسمه يثرون هكذا هو في كتب أهل الكتاب يثرون كاهن مدين أي كبيرها وعالمها. قال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد اللَّه : اسمه يثرون. زاد أبو عبيدة وهو ابن أخي شعيب. زاد ابن عباس صاحب مدين.

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا . فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها : يا أبت استأجره أي لرعي غنمك . ثم مدحته بأنه قوي أمين ، قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد : لما قالت ذلك ؟ قال لها أبوها : وما علمك بهذا ؟ فقالت : إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة. وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال : كوني من ورائي . فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته : ﴿ أكرمي مثواه﴾. وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾[القصص :٢٦] . وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب .

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ استدل بهذا جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك أنه يصح لقوله إحدى ابنتي هاتين. وفي هذا نظر لأن هذه مراوضة لا معاقدة والله أعلم.

واستدل أصحاب أحمد على صحة الإيجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه مترجماً في كتاب باب استئجار الأجير على طعام بطنه . حدثنا محمد بن الصفي الحمصي ، حدثنا بقية بن الوليد عن مسلمة بن علي عن سعيد بن أبي أيوب عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح قال : سمعت عتبة بن الدر يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طس حتى إذا بلغ قصة موسى قال : « **إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثماني سنين أو عشرة على عفة فرجه وطعام بطنة** » [1] وهذا من هذا الوجه لا يصح لأن مسلمة ابن علي الحسني الدمشقي البلاطي ضعيف عند الأئمة لا يحتج بتفرده . ولكن قد روى من وجه آخر . فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر . حدثني ابن لهيعة ح ، وحدثنا أبو زرعة . حدثنا صفوان . حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال : سمعت عتبة بن النُدّر السلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « **إن موسى عليه السلام آجر نفسه لعفة فرجه وطعمة بطنه** » [2].

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص : ٢٨] يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان عليّ والله على مقالتنا سامع ومشاهد ووكيل علي وعليك ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة .

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الرحيم . حدثنا سعيد بن سليمان . حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال : سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل [3]. تفرد به البخاري من هذا الوجه وقد رواه النسائي في حديث الفتون كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير ، وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسي وابن أبي حاتم عن أبيه كلاهما عن الحميدي عن سفيان بن عيينة حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحكم بن أبان عن

---

(١) **ضعيف جداً** : رواه ابن ماجه (٢٤٤٤) وفى سنده بقية بن الوليد وهو مدلس وقد عنعنه وشيخه مسلمة ابن على ، وهو الخشنى متروك كما فى " التقريب " (٢ / ٢٤٩) .

(٢) **ضعيف** : فى سنده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٣) رواه البخارى (٢٦٨٤) .

عكرمة عن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ قال : « **سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما** » وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث.

وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى عن سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره .

وقد رواه سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد مرسلا أن رسول اللّه ﷺ سأل عن ذلك جبريل . فسأل جبريل إسرافيل . فسأل إسرافيل الرب عزّ وجلّ فقال : أبرهما ، وأوفاهما .

وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرح مرسلا ، ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب أن رسول اللّه ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : « **أوفاهما وأتمهما** ».

وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران الجوني وهو ضعيف عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : « **أوفاهما وأبرهما** » قال : وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل : الصغرى منهما

وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح عن عتبة بن النُدْر أن رسول اللّه ﷺ قال : « **إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه** » [1]. فلما وفى الأجل قيل : يا رسول اللّه أي الأجلين ؟ قال : « **أبرهما وأوفاهما** » . فلما أراد فراق شعيب سأل امرأة أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام وكانت غنمه سوداً حساناً فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها. ثم وضعها في أدنى الحوض . ثم أوردها فسقاها ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال فأتمئت وآنثت [2] ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كموش تفوت الكف قال النبي ﷺ « **لو اقتحمتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية** ».

قال ابن لهيعة : الفشوش واسعة الشخب . والضبوب طويلة الضرع تجره . والعزوز ضيقة الشخب . والثعول الصغيرة الضرع كالحلمتين . والكموش التي لا يحكم الكف على ضرعها لصغره . وفي صحة رفع هذا الحديث نظر. وقد يكون موقوفا كما قال ابن جرير : حدثنا محمد ابن المثنى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي عن قتادة حدثنا أنس بن مالك قال : لما دعا نبي اللّه موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما . قال له صاحبه : كل شاة ولدت على لونها فلك ولدها فعمد فوضع خيالا على الماء فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة فذهب بأولادهن ذلك العام . وهذا إسناد رجاله ثقات واللّه أعلم. وقد

---

(١) **ضعيف** : فى سنده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٢) اتمئت : ولدت توأماً ، وآنثت : ولدت أنثى .

تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقا ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام فالله أعلم .

قال الله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وسَارَ بأَهْله آنسَ من جَانب الطُّور نَاراً قَالَ لأَهْله امْكُثُوا إنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَة الْمُبَارَكَة منَ الشَّجَرَة أَن يَا مُوسَى إنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ . وأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً ولَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إنَّكَ منَ الآمنينَ.اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ منْ غَيْرِ سُوء واضْمُمْ إلَيْكَ جَنَاحَكَ منَ الرَّهْبِ فَذَانكَ بُرْهَانَان من رَّبِّكَ إلَى فرْعَوْنَ ومَلَئه إنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسقينَ﴾ [القصص : ٢٩ - ٣٢] .

تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما وقد يؤخذ هذا من قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ﴾ وعن مجاهد أنه أكمل عشراً وعشراً بعدها. وقوله : ﴿ وسَارَ بأَهْله ﴾ أي من عند صهره زاعماً فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق إلى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختف فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه قالوا واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف وجعل يوري زناده فلا يوري شيئا واشتد الظلام والبرد فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج في جانب الطور وهو الجبل الغربي منه عن يمينه فقال لأهله : ﴿ امْكُثُوا إنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم لأن هذه النار هي نور في الحقيقة ولا يصلح رؤيتها لكل أحد ﴿لَّعَلِّي آتيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي لعلي أستعلم من عندها عن الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة لقوله في الآية الأخرى ﴿ وهَلْ أَتَاكَ حَديثُ مُوسَى . إذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْله امْكُثُوا إنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ٩ ، ١٠] فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق. وجمع الكل في سورة النمل في قوله ﴿ إذْ قَالَ مُوسَى لأَهْله إنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل : ٧]. وقد أتاهم منها بخبر وأي خبر . ووجد عندها هدى وأي هدى . واقتبس منها نورا وأي نور. قال الله تعالى :﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وقال في النمل ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ومَنْ حَوْلَهَا وسُبْحَانَ اللَّه رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [النمل : ٨] أي سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ يَا مُوسَى إنَّهُ أَنَا اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [النمل : ٩] وقال في سورة طه ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى . إنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إنَّكَ بالْوَاد المُقَدَّسِ طُوًى . وأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وأَقِمِ الصَّلاَةَ لذكْرِي . إنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ أَكَادُ أُخْفيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى . فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا واتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ [طه : ١١ - ١٦] .

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف : لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج[١] وكل ما لتلك النار في اضطرام وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد فوقف متعجباً وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [القصص : ٤٤] وكان موسى في واد اسمه طوى فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ولا سيما في تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور مهابة له وخوفاً على بصره ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له : ﴿ **إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [القصص : ٣٠] ، ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾ [طه : ١٤] أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له .

ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية يوم القيامة التي لابد من كونها ووجودها ﴿ **لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى** ﴾ أي من خير وشر. وحضه وحثه على العمل لها ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه ثم قال له مخاطباً ومؤنساً ومبيناً له أنه القادر على كل شيء الذي يقول للشيء كن فيكون. ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ [طه : ١٧] أي أما هذه عصاك التي نعرفها منذ صحبتها ﴿ **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى** ﴾ [طه : ١٨]. أي بل هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها: ﴿ **قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى** ﴾. [طه:٢٠،١٩] وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه يقول للشيء كن فيكون وأنه الفعال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب أنه سأل برهاناً على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر فقال له الرب عز وجل ما هذه التي في يدك قال عصاي قال ألقها إلى الأرض ﴿**فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى**﴾ فهرب موسى من قدامها فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده وقد قال اللّه تعالى في الآية الأخرى ﴿ **وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾ [القصص : ٣١] أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان وهو ضرب من الحيات. يقال له الجان والجنان وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدا فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿ **وَلَّى مُدْبِراً** ﴾ أي هاربا منها لان طبيعته البشرية تقتضي ذلك ﴿ **وَلَمْ يُعَقِّبْ** ﴾ أي ولم يلتفت ﴿**فَنَادَاهُ رَبُّهُ**﴾ قائلا له : ﴿ **يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ** ﴾ [القصص : ٣١] فلما رجع أمره اللّه تعالى أن يمسكها. ﴿ **قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ**

---

(١) العوسج : الشوك .

سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى ﴾ [طه : ٢١] فيقال : إنه هابها شديدا فوضع يده في كم مدرعته ثم وضع يده في وسط فمها.

وعند أهل الكتاب أمسك بذنبها فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين فسبحان القدير العظيم رب المشرقين والمغربين ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه. ثم أمره بنــزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء أي من غير برص ولا بهق. ولهذا قال : **﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ واضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾** [القصص:٣٢]. قيل معناه : إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك. وهذا وإن كان خاصا به إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء . وقال في سورة النمل : **﴿ وأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾** [النمل : ١٢] أي هاتان الآيتان وهما العصا واليد وهما البرهانان المشار إليهما في قوله : **﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ من رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ ومَلَئِه إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾** [القصص : ٣٢] ومع ذلك سبع آيات أخر فذلك تسع آيات بينات وهي المذكورة في آخر سورة سبحان حيث يقول تعالى: **﴿ ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر ، وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾** [الإسراء:١٠١، ١٠٢] وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله : **﴿ ولَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ونَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُون فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِه وإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى ومَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّه ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ. وقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِه مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ والْجَرَادَ والْقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾**[الأعراف: ١٣٠-١٣٣] كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه وهذه التسع آيات غير العشر الكلمات فإن التسع من كلمات اللّه القدرية، والعشر من كلماته الشرعية وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة فظن أن هذه هي هذه كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل .

والمقصود أن اللّه سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون **﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون . وأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون. قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ونَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا ومَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ ﴾** [القصص : ٣٣- ٣٥] .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام في جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فرارا من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ولهذا **﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون . وأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون ﴾** أي اجعله معي معينا وردأ ووزيراً يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لسانا وأبلغ بيانا. قال اللّه

تعالى مجيبا له إلى سؤاله ﴿ **قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ** ﴾ [القصص : ٣٥] أي برهانا ﴿ **فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا** ﴾ أي فلا ينالون منكما مكروها بسبب قيامكما بآياتنا. وقيل ببركة آياتنا ﴿ **بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ** ﴾ وقال في سورة طه ﴿ **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . ويَسِّرْ لِي أَمْرِي. واحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي** ﴾ [طه : ٢٤ - ٢٨] قيل : إنه أصابه في لسانه لثغة سبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه التي كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله . فخافت عليه آسية وقالت : إنه طفل فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة . فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ولم يسأل زوالها بالكلية .

قال الحسن البصري : والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ولهذا بقيت في لسانه بقية ولهذا قال فرعون قبحه الله فيما زعم إنه يعيب به الكليم ﴿**وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ** ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي يفصح عن مراده ويعبر عما في ضميره وفؤاده. ثم قال موسى عليه السلام ﴿**واجْعَل لِّي وزِيراً مِّنْ أَهْلِي . هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً . ونَذْكُرَكَ كَثِيراً. إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً. قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى** ﴾[طه : ٢٩ - ٣٦] أي قد أجبناك إلى جميع ما سألت وأعطيناك الذي طلبت وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه فأوحى إليه وهذا جاه عظيم قال الله تعالى:﴿**وكَانَ عِندَ اللَّهِ وجِيهاً** ﴾ [الأحزاب:٦٩].

وقال تعالى : ﴿ **ووَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِياً** ﴾ [مريم : ٥٣] وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلا يقول لأناس وهم سائرون طريق الحج : أي أخ أَمَنّ على أخيه ؟ فسكت. القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه قال الله تعالى : ﴿ **ووَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِياً** ﴾ [مريم : ٥٣] .

قال تعالى في سورة الشعراء ﴿ **وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون . قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَآ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ . فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيَ إِسْرَائِيلَ . قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [الشعراء : ١٠ - ١٩].

تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك ، وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن يفك أسارى بنى إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته ، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا ، ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه .

فتكبر فرعون فى نفسه وعتا وطغى ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلاً له : ﴿**أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** ﴾ أى أما أنت الذى ربيناه فى منـــزلنا ؟ . وأحسنا إليه وأنعمنا علية مدة من الدهر ؟ .

وهذا يدل على أن فرعون الذى بعث إليه هو الذى فر منه ، خلافاً لما عند أهل الكتاب : من أن فرعون الذى فر منه مات فى مدة مقامه بمدين ، وأن الذى بعث إليه فرعون آخر .

وقوله :﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى وقتلت الرجل القبطى ، وفررت منا وجحدت نعمتنا .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى قبل أن يوحى إلى وينـــزل على. ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه:﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيّ أَنْ عَبّدتّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى وهذه النعمة التى ذكرت، من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله، واستعبدهم فى أعمالك وخدمتك وأشغالك.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبّ السّمَاوَات وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مّوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبّكُمْ وَرَبّ آبَآئِكُمُ الأوّلِينَ . قَالَ إِنّ رَسُولَكُمُ الّذِيَ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٣ – ٢٨].

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناظرة وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية. وذلك أن فرعون قبحه اللّه أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى. وزعم أنه الإله ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [النازعات : ٢٣ ، ٢٤].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأَيّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص:٣٨] وهو في هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب وأن اللّه هو الخالق البارئ المصور الإله الحق كما قال تعالى : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤] ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته والإظهار أنه ما ثم رب أرسله : ﴿ وَمَا رَبّ الْعَالَمِينَ ﴾ لأنهما قالا له : ﴿ إِنّا رَسُولُ رَبّ الْعَالَمِينَ ﴾ فكأنه يقول لهما ومن رب العالمين الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما ؟ . فأجابه موسى قائلا: ﴿ رَبّ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مّوقِنِينَ ﴾[الشعراء : ٢٤] يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق. وهو اللّه الذي لا إله إلا هو رب العالمين. ﴿ قَالَ﴾ أي فرعون لمن حوله من أمرائه ومرازبته ووزرائه على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام ألا تسمعون يعني كلامه هذا قال موسى مخاطبا له ولهم : ﴿ رَبّكُمْ وَرَبّ آبَآئِكُمُ الأوّلِينَ ﴾ أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباد فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه ولم يحدث من غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين.

وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِيَ أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالته بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الّذِي أرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الشعراء :٢٧،٢٨] أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة . المسير للأفلاك الدائرة . خالق الظلام والضياء . ورب الأرض والسماء رب الأولين والآخرين خلاق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة خالق الليل بظلامه والنهار بضيائه والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون وفى فلك يسبحون يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء. فلما قامت الحجج على فرعون ، وانقطعت شبهه ، ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ﴿ قَالَ لَئِنِ اتّخَذْتَ إِلَـهَاً غَيْرِي لأجْعَلَنّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مّبِينٍ . قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ . فَأَلْقَىَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مّبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنّاظِرِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩ - ٣٣] وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما وهما العصا واليد. وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذي بهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. أي عظيم الشكل بديع في الضخامة والهول والمنظر العظيم الفظيع الباهر حتى قيل : إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رهب شديد وخوف عظيم بحيث أنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة في يوم . وكان قبل ذلك لا يتبرز في كل أربعين يوما إلا مرة واحدة فانعكس عليه الحال.

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه ، واستخرجها أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نورا بهر الأبصار . فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى ومع هذا كله لم ينتفع فرعون لعنه الله بشيء من ذلك بل استمر على ما هو عليه وأظهر أن هذا كله سحر وأراد معارضته بالسحرة فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن في رعيته وتحت قهره ودولته كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه وأهل دولته وملته ولله الحمد والمنة .

وقال تعالى في سورة طه : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيَ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمّ جِئْتَ عَلَىَ قَدَرٍ يَمُوسَىَ . وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي . اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي . اذْهَبَآ إِلَىَ فِرْعَوْنَ إِنّهُ طَغَىَ . فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لّيّناً لّعَلّهُ يَتَذَكّرُ أَوْ يَخْشَىَ . قَالاَ رَبّنَآ إِنّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىَ . قَالَ لاَ تَخَافَآ إِنّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىَ﴾ [طه : ٤٠ - ٤٦] يقول تعالى مخاطبا لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه وأنعم بالنبوة عليه وكلمه منه إليه قد كنت مشاهدا لك وأنت في دار فرعون وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري فلبثت فيها سنين ﴿ثُمّ جِئْتَ عَلَىَ قَدَرٍ ﴾ [طه: ٤٠] أي مني لذلك فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا

فِي ذِكْرِي ﴾ يعني ولا تفترا في ذكري إذ قَدِمتما عليه ووفدتما إليه فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته وإهداء النصيحة إليه وإقامة الحجة عليه. وقد جاء في بعض الأحاديث «**يقول اللّٰه تعالى :إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه** » . قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتُوا واذكروا اللّٰه كثيراً لعلكم تفلحون﴾** [الأنفال: ٤٥] الآية ، ثم قال تعالى : **﴿اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾** [طه : ٤٣، ٤٤] وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره وهو إذ ذاك أردي خلقه وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي هي أحسن برفق ولين ويعاملان معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى كما قال لرسوله: **﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾** [النحل : ١٢٥] . وقال تعالى **﴿ وَلاَ تُجَادِلُوۤاْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾**[العنكبوت :٤٦] الآية قال الحسن البصري : **﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيناً ﴾** [طه : ٤٤] أعذرا إليه قولا له أن لك رباً ولك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً .

وقال وهب بن منبه : قولا له : إني لي العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة. قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية : يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه **﴿قَالاَ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾** [طه : ٤٤] وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطانا مريداً له سلطان في بلاد مصر طويل عريض وجاه وجنود وعساكر وسطوة فهاباه من حيث البشرية وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأمر فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى فقال : **﴿لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾** [طه : ٤٦] كما قال في الآية الأخرى **﴿ إنا معكم مستمعون ﴾** [الشعراء:١٥] . **﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولاۤ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيۤ إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾** [طه: ٤٧ ، ٤٨] يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى اللّٰه تعالى أن يعبده وحده لا شريك له وأن يرسل معهم بني إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم **﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾** وهو البرهان العظيم في العصى واليد **﴿ وَالسَّلاَمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾** تقيد مفيد بليغ عظيم. ثم تهدداه وتواعده على التكذيب فقالا : **﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾** [طه: ٤٨] أي كذب بالحق بقلبه وتولى عن العمل بقالبه .

وقد ذكر السدي وغيره: أنه لما قدم من بلاد مدين دخل على أمه وأخيه هارون وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل وهو اللفت فأكل معهما. ثم قال: يا هارون إن اللّٰه أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته فقم معي فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق فقال موسى للبوابين والحجبة: أعلموه أن رسول اللّٰه ﷺ بالباب فجعلوا يسخرون منه ويستهزؤون به.

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل. وقال محمد بن إسحاق : أذن لهما بعد سنتين لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما فاللّٰه أعلم. ويقال : إن موسى

تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما فوقفا بين يديه فدعواه إلى اللّه عز وجل كما أمرهما .

وعند أهل الكتاب أن اللّه قال لموسى عليه السلام : إن هارون اللاوي يعني من نسل لاوي ابن يعقوب سيخرج ويتلقاك وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى عند فرعون وأمره أن يظهر ما آتاه من الآيات. وقال له سأقسي قلبه فلا يرسل الشعب وأكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر. وأوحى اللّه إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه. فلما دخل مصر جمعا شيوخ بني إسرائيل وذهبا إلى فرعون فلما بلغاه رسالة اللّه قال : من هو اللّه لا أعرفه ولا أرسل بني إسرائيل . وقال اللّه مخبراً عن فرعون : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَمُوسَىَ . قَالَ رَبُّنَا الَّذِيَ أَعْطَىَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىَ . قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأولَىَ. قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىَ . كُلُواْ وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَاتٍ لأوْلِي النُّهَىَ . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىَ ﴾ [طه : ٤٩ — ٥٥] .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون : أنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلا : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَمُوسَىَ . قَالَ رَبُّنَا الَّذِيَ أَعْطَىَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىَ ﴾ أي هو الذي خلق الخلق وقدر لهم أعمالا وأرزاقا وآجالا تنته وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له فطابق عمله فيهم على الوجه الذي قدره وعلمه لكمال علمه وقدرته وقدره وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَىَ . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىَ . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىَ ﴾ [الأعلى:١-٣] أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأولَىَ ﴾[طه:٥١] يقول فرعون لموسى : فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلائق لما قدره وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه فلم عبد الأولون غيره وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه : ٥٢] أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك ولا يدل على خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك كل شيء فعلوه مستطر عليهم في الزبر من صغير وكبير وسيجزيهم على ذلك ربي عز وجل ولا يظلم أحدا مثقال ذرة لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئا .

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء وجعله الأرض مهادا والسماء سقفا محفوظا وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم كما قال: ﴿كُلُواْ وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَاتٍ لأوْلِي النُّهَىَ ﴾ [طه : ٥٤] أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة والفطر القويمة غير السقيمة فهو تعالى الخالق والرازق. وكما قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة :٢١ ، ٢٢] ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال : ﴿منها﴾ أي

من الأرض ﴿ خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخرِجُكُمْ تَارَةً أخرَىَ ﴾ [طه : ٥٥]كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] . وقال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأعْلَىَ فِي السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلّهَا فَكَذّبَ وَأَبَىَ . قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَىَ . فَلَنَأْتِيَنّكَ بِسِحْرٍ مّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَاناً سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النّاسُ ضُحًى ﴾ [طه:٥٦ -٥٩].

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن إتباعها وقوله لموسى إن هذا الذي جئت به سحر ونحن نعارضك بمثله ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس ولهذا قال ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزّينَةِ ﴾ [طه : ٥٩] وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٩] أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس فيكون الحق أظهر وأجلى ولم يطلب أن يكون ذلك ليلا في ظلام كيما يروج عليهم محالا وباطلا بل طلب أن يكون نهاراً جهرة لأنه على بصيرة من ربه ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه وإن رغمت أنوف القبط.

قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلّىَ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمّ أَتَىَ . قَالَ لَهُمْ مّوسَىَ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىَ . فَتَنَازَعُوَاْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرّواْ النّجْوَىَ . قَالُوَاْ إِنْ هَـَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىَ . فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمّ ائْتُواْ صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىَ﴾ [طه :٦٠-٦٤] .

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء في فنهم غاية فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير فقيل : كانوا ثمانين ألفاً قاله محمد بن كعب. وقيل : سبعين ألفاً قاله القاسم بن أبي بردة. وقال السدي : بضعة وثلاثين ألفاً. وعن أبي أمامة تسعة عشر ألفاً.

وقال محمد بن إسحاق : خمسة عشر ألفاً . وقال كعب الأحبار : كانوا اثني عشر ألفا. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : كانوا سبعين . رجلا وروى عنه أيضاً : أنهم كانوا أربعين غلاما من بني إسرائيل أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر ولهذا قالوا وما أكرهتنا عليه من السحر وفي هذا نظر .

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم. وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم فخرجوا وهم يقولون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين. وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال : ﴿وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ

وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ فَتَنَازَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾[طه : ٦١ ،٦٢] قيل : معناه : أهم اختلفوا فيما بينهم فقائل يقول : هذا كلام نبي وليس بساحر وقائل منهم يقول : بل هو ساحر فاللّه أعلم. وأسروا التناجي بهذا وغيره ﴿ **قَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا** ﴾ [طه : ٦٣] يقولون: إن هذا وأخاه هارون ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة ﴿ **فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمّ ائْتُواْ صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىَ**﴾ [طه : ٦٤]. وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان. وهيهات كذبت واللّه الظنون وأخطأت الآراء. أنى يعارض البهتان والسحر والهذيان. خوارق العادات التي أجراها الديان على يدي عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذي يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان .

وقولهم ﴿**فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ** ﴾ أي جميع ما عندكم ﴿ **ثُمّ ائْتُواْ صَفّاً** ﴾ أي جملة واحدة ثم حضوا بعضهم بعضا على التقدم في هذا المقام لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴿ **قَالُواْ يَمُوسَىَ إِمّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمّآ أَن نّكُونَ أَوّلَ مَنْ أَلْقَىَ . قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيّهُمْ يُخَيّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنّهَا تَسْعَىَ . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مّوسَىَ . قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنّكَ أَنتَ الأعْلَىَ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السّاحِرُ حَيْثُ أَتَىَ** ﴾ [طه:٦٥-٦٩].

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له : إما أن تلقي قبلنا وإما أن نلقي قبلك ﴿ **قَالَ بَلْ أَلْقُواْ** ﴾ أنتم . وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطرابا يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها. وإنما تتحرك بسبب ذلك. فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم وألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون : ﴿**بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون**﴾[طه : ٤٤]. قال اللّه تعالى : ﴿ **فَلَمّآ أَلْقُوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ النّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأعراف : ١١٦] وقال تعالى: ﴿ **فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيّهُمْ يُخَيّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنّهَا تَسْعَىَ . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مّوسَىَ** ﴾ [طه: ٦٦ ، ٦٧] أي خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقي ما في يده فإنه لا يصنع شيئا قبل أن يؤمر فأوحى اللّه إليه في الساعة الراهنة ﴿ **لاَ تَخَفْ إِنّكَ أَنتَ الأعْلَىَ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السّاحِرُ حَيْثُ أَتَىَ** ﴾ [طه : ٦٨ ، ٦٩] فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال : ﴿ **مَا جِئْتُمْ بِهِ السّحْرُ إِنّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقّ اللّهُ الْحَقّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ [يونس : ٨١ ،٨٢] .

وقال تعالى : ﴿ **فَأَلْقِيَ** ﴾ موسى عصاه ﴿**فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ . وَأُلْقِيَ السّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوٓاْ آمَنّا بِرَبّ الْعَالَمِينَ . رَبّ مُوسَىَ وَهَارُونَ**﴾ [الأعراف: ١١٧ - ١٢٢] وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم فيما ذكره غير واحد من علماء السلف وعنق عظيم وشكل هائل مزعج

بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعا وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي فجعلت تلقفه واحدا واحدا في أسرع ما يكون من الحركة والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها. وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم واطلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم. فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعبذة ولا محال ولا خيال ولا زور ولا بهتان ولا ضلال بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوٓاْ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىَ . قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىَ . قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىَ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَـَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَآ . إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىَ . إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَىَ . وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَـَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىَ . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىَ ﴾ [طه : ٧٠ - ٧٦] .

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بردة والأوزاعي وغيرهم : لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة أفزعه ذلك ورأى أمرا أبهره وأعمى بصيرته وبصره وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله فقال مخاطبا للسحرة بحضرة الناس : ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ ﴾ أي هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد وكذب فأبعد قائلا : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ هَـَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] وهذا الذي قاله من البهتان يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان بل لا يروج مثله على الصبيان فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر. ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ومن المدن والأرياف. قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىَ بِآيَاتِنَآ إِلَىَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ. وَقَالَ مُوسَىَ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيَ إِسْرَائِيلَ . قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ

الصّادقِينَ . فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مّبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنّاظِرِينَ . قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوَاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ . وَجَآءَ السّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْوَاْ إِنّ لَنَا لأجْراً إِن كُنّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرّبِينَ . قَالُواْ يَمُوسَىَ إِمّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمّآ أَن نّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ . قَالَ أَلْقَوْاْ فَلَمّآ أَلْقُوْاْ سَحَرُوَاْ أَعْيُنَ النّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . وَأَوْحَيْنَآ إِلَىَ مُوسَىَ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ . وَأُلْقِيَ السّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوَاْ آمَنّا بِرَبّ الْعَالَمِينَ . رَبّ مُوسَىَ وَهَارُونَ. قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . لأُقَطّعَنّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مّنْ خِلاَفٍ ثُمّ لأُصَلّبَنّكُمْ أَجْمَعِينَ . قَالُوَاْ إِنّآ إِلَىَ رَبّنَا مُنقَلِبُونَ . وَمَا تَنقِمُ مِنّآ إِلاّ أَنْ آمَنّا بِآيَاتِ رَبّنَا لَمّا جَآءَتْنَا رَبّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٣-١٢٦] .

وقال تعالى في سورة يونس ﴿ثُمّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ مّوسَىَ وَهَارُونَ إِلَىَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مّجْرِمِينَ . فَلَمّا جَآءَهُمُ الْحَقّ مِنْ عِندِنَا قَالُوَاْ إِنّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مّبِينٌ . قَالَ مُوسَىَ أَتقُولُونَ لِلْحَقّ لَمّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلاَ يُفْلِحُ السّاحِرُونَ . قَالُوَاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الأرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ . فَلَمّا جَآءَ السّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مّوسَىَ أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مّلْقُونَ. فَلَمّآ أَلْقَواْ قَالَ مُوسَىَ مَا جِئْتُمْ بِهِ السّحْرُ إِنّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقّ اللّهُ الْحَقّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٧٥-٨٢] .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿قَالَ لَئِنِ اتّخَذْتَ إِلَـٰهَاً غَيْرِي لأجْعَلَنّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مّبِينٍ . قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ . فَأَلْقَىَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مّبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنّاظِرِينَ . قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوَاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلّ سَحّارٍ عَلِيمٍ . فَجُمِعَ السّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مّعْلُومٍ . وَقِيلَ لِلنّاسِ هَلْ أَنتُمْ مّجْتَمِعُونَ . لَعَلّنَا نَتّبِعُ السّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ . فَلَمّا جَآءَ السّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَإِنّ لَنَا لأجْراً إِن كُنّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنّكُمْ إِذاً لّمِنَ الْمُقَرّبِينَ . قَالَ لَهُمْ مّوسَىَ أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مّلْقُونَ . فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزّةِ فِرْعَونَ إِنّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ . فَأَلْقَىَ مُوسَىَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَأُلْقِيَ السّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُواْ آمَنّا بِرَبّ الْعَالَمِينَ . رَبّ مُوسَىَ وَهَارُونَ . قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنّهُ لَكَبِيرُكُمُ الّذِي عَلّمَكُمُ السّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأقَطّعَنّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مّنْ خِلاَفٍ وَلأصَلّبَنّكُمْ أَجْمَعِينَ . قَالُواْ لاَ ضَيْرَ إِنّآ إِلَىَ رَبّنَا مُنقَلِبُونَ . إِنّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنّآ أَوّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢٩-٥١] .

والمقصود أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر في قوله ﴿ إِنّهُ لَكَبِيرُكُمُ الّذِي عَلّمَكُمُ السّحْرَ ﴾ وأتى ببهتان يعلمه العالمون بل العالمون في قوله : ﴿ إِنّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله: ﴿ لأقَطّعَنّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مّنْ خِلاَفٍ ﴾ يعني يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ﴿ لأصَلّبَنّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي ليجعلهم مثلة ونكالا لئلا يقتدي

بهم أحد من رعيته وأهل ملته ولهذا قال : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه : ٧١] أي على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىَ ﴾ يعني في الدنيا .

﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ قيل معطوف. وقيل قسم ﴿ فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه : ٧٢] أي فافعل ما قدرت عليه ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَـذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَآ ﴾[طه : ٧٢] أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله ﴿ إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىَ ﴾ [طه : ٧٣] أي وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب وأبقى أي وأدوم من هذه الدار الفانية وفي الآية الأخرى ﴿قَالُواْ لاَ ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىَ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ . إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ ﴾ [شعراء: ٥٠، ٥١] أي ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي من القبط بموسى وهارون عليهما السلام.

وقالوا له أيضاً ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ [الأعراف : ١٢٦] أي ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ [الأعراف : ١٢٦] أي ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد والسلطان الشديد بل الشيطان المريد ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وقالوا أيضا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَىَ ﴾ [طه : ٧٤] يقولون له فإياك أن تكون منهم فكان منهم ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىَ ﴾ [طه : ٧٥] أي المنازل العالية ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىَ ﴾ [طه: ٧٦] فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب ولا تمانع وحكم العلي العظيم بأن فرعون لعنه اللّه من أهل الجحيم ليباشر العذاب الأليم يصب من فوق رأسه الحميم. ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] .

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه اللّه صلبهم وعذبهم رضي اللّه عنهم. قال عبد اللّه ابن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخره شهداء بررة. ويؤيد هذا قولهم ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧ -١٢٩] .

فصل في تحريض كبراء القبط لفرعون على أذية موسى بعد إسلام السحرة

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً وبعداً عن الحق .

قال اللّه تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . قَالُوا

أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧-١٢٩].

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبي اللّه موسى عليه السلام ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى ، قالوا: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ يعنون : قبحهم اللّه أن دعوته إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له والنهي عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط لعنهم اللّه. وقرأ بعضهم ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ﴾ أي وعبادتك ويحتمل شيئين أحدهما : ويذر دينك وتقويه القراءة الأخرى. والثاني : ويذر أن يعبدك فإنه كان يزعم أنه إله لعنه اللّه و ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أي لئلا يكثر مقاتلتهم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ أي غالبون و﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي إذا هموا هم بأذيتكم والفتك بكم فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ . فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦] .

وقولهم : ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٢٩] .

وقال اللّه تعالى في سورة حم المؤمن ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٣ ، ٢٤] وكان فرعون الملك وهامان الوزير. وكان قارون إسرائيليا من قوم موسى إلا أنه كان على دين فرعون وملأه وكان ذا مال جزيل جدا كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء اللّه تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ [غافر : ٢٥] وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملأ بني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ويصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون فلم ينفعهم ذلك لم يردّ عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦] . ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم : صار فرعون مذكرا. وهذا منه فإن فرعون في زعمه . يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام.﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧] أي عذت باللّه ولجأت إليه بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره عليَ بسوء وقوله ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ [غافر: ٢٧] أي جبار عنيد لا يرعوي ولا ينتهي ولا يخاف عذاب اللّه وعقابه لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء . ولهذا قال : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

الحساب .وقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر : ٢٧ — ٢٩] .

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه من قومه خوفا منهم على نفسه. وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليا وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظا ومعنى والله أعلم .

قال ابن جريج : قال ابن عباس: لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا ، والذي جاء من أقصى المدينة ، وامرأة فرعون. رواه ابن أبي حاتم. قال الدارقطني : لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون. حكاه السهيلي.

وفي تاريخ الطبراني أن اسمه خير فالله أعلم. والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هم فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام ، وعزم على ذلك ، وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأي وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر** » [(١)] . وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإن فرعون لأشد جوراً منه وهذا الكلام لا أعدل منه لأن فيه عصمة نبي. ويحتمل أنه كاشرهم [(٢)] بإظهار إيمانه وصرح لهم بما كان يكتمه والأول . أظهر والله أعلم .

قال: ﴿ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ** ﴾ أي من أجل أنه قال : ربي الله فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام يعني لأنه ﴿ **قَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ** ﴾ أي بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة لأنه ﴿ **إن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ** ﴾ ولا يضركم ذلك ﴿ **وإن يَكُ صَادِقاً** ﴾ وقد تعرضتم له ﴿ **يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ** ﴾ أي وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به فكيف بكم إن حل جميعه عليكم؟ وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام.

وقوله : ﴿ **يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ** ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعرض الدول للدين إلا سلبوا ملكهم ، وذلوا بعد عزهم وكذا وقع لآل فرعون ما زالوا في شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة والحبور ثم حولوا إلى البحر مهانين ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين .

---

(١) **حسن**: رواه أبو داود (٤٣٤٤) و الترمذي (٢١٧٤) وابن ماجه (٤٠١١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . وانظر " الصحيحة " (٤٩١) .

(٢) كاشرهم : كاشفهم .

ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه الكامل العقل ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي عالين على الناس حاكمين عليهم ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ﴾ أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة والشدة لما نفعنا ذلك ولأردعنا بأس مالك الممالك . ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أي في جواب هذا كله ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾ أي ما أقول لكم إلا ما عندي ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند اللّه لا محالة وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدوانا وعتواً وكفراناً قال اللّه تعالى إخباراً عن موسى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً . فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ [الإسراء:١٠٢-١٠٤] وقال تعالى:﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣ ، ١٤] .

وأما قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾. فقد كذب أيضا فإنه لم يكن على رشاد من الأمر بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال فكان أولا ممن يعبد الأصنام والأمثال. ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر المحال في دعواه أنه رب تعالى اللّه ذو الجلال. قال اللّه تعالى : ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ. فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ [الزخرف:٥١-٦١] .

وقال تعالى : ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى. فَكَذَّبَ وَعَصَى. ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[النازعات:٢٠-٢٦].

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ . يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ . وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾[هود : ٩٦ - ٩٩] .

والمقصود بيان كذبه في قوله : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى ﴾ وفي قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ . الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[غافر:٢٩-٣٥] .

يحذرهم ولي الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات مما تواتر عندهم وعند غيرهم ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة في صدق ما جاءت به الأنبياء لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة وهو يوم التناد أي حين ينادي الناس بعضهم بعضاً حين يولون إن قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيل ﴿يَقُولُ الإنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ . كَلاَّ لا وزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة : ١٠ - ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إلاَّ بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ونُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٣٣ - ٣٦] وقرأ بعضهم ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ بتشديد الدال أي يوم الفرار ويحتمل أن يكون يوم القيامة ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس فيودون الفرار ولات حين مناص ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ. لا تَرْكُضُوا وارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ومَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء:١٢، ١٣]

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر ما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم وهذا من سلالته وذريته ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته وأن لا يشركوا به أحدا من بريته وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان أي من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ولهذا قال : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ أي وكذبتم في هذا ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أي يريدون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت أي يبغض من تلبس به من الناس ومن اتصف به من الخلق ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ قرئ بالإضافة وبالنعت وكلاهما متلازم أي هكذا إذا خالفت القلوب الحق ولا تخالفه إلا بلا برهان فإن الله يطبع عليها أي يختم عليها بما فيها.

﴿ وقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ومَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] كذب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ [القصص : ٣٨] وقال ههنا ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ ﴾ أي طرقها ومسالكها ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ [غافر : ٣٧] ﴿وإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ [غافر: ٣٧] ويحتمل هذا معنيين أحدهما وإني لأظنه كاذبا في قوله إن للعالم ربا غيري والثاني في دعواه أن الله أرسله. والأول أشبه بظاهر حال فرعون فإنه كان ينكر ظاهر إثبات الصانع والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ [غافر : ٣٧]

أي فأسأله هل أرسله أم لا ﴿ وإنّي لأظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ أي في دعواه ذلك. وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يحثهم على تكذيبه .

قال اللّه تعالى : ﴿وكَذَلكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِه وصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ وقرئ ﴿ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد يقول : إلا في خسار أي باطل لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً أعني السماء الدنيا فكيف بما بعدها من السموات العلي وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا اللّه عز وجل؟ . وذكر غير واحد من المفسرين: أن هذا الصرح وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له لم ير بناء أعلى منه وإن كان مبنياً من الآجر المشوي بالنار ولهذا قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أن بني إسرائيل كانوا يسخرون في ضرب اللبن وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه ويصلب منهم كل يوم قسط معين إن لم يفعلوه وإلا ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية. ولهذا قالوا لموسى ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ومِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ويَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط وكذلك وقع وهذا من دلائل النبوة.

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه قال اللّه تعالى : ﴿ وقَالَ الَّذي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذه الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ومَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر:٣٨-٤٠] يدعوهم رضي اللّه عنه إلى طريق الرشاد والحق وهي متابعة نبي اللّه موسى وتصديقه فيما جاء به من ربه. ثم زهدهم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ورغبهم في طلب الثواب عند اللّه الذي لا يضيع عمل عامل لديه. القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه الذي يعطى على القليل كثيراً ومن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلها.وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار التي من وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات فلهم الجنات العاليات والغرف الآمنات والخيرات الكثيرة الفائقات والأرزاق الدائمة التي لا تبيد. والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد .

ثم شرع في إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال : ﴿ ويَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّه وأُشْرِكَ بِه مَا لَيْسَ لِي بِه عِلْمٌ وأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ . لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْه لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا ولا فِي الآخِرَةِ وأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّه وأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّه إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُواً وعَشِياً ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ [غافر :٤١ - ٤٦] .

كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار فقال : ﴿ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي لا تملك تصرفا ولا حكما في هذه الدار فكيف تملكه يوم القرار. وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم إلى النار .

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ قال الله:﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ومكرهم في صدهم عن سبيل الله مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التي ألبسوا بها على عوامهم وطغامهم ولهذا قال ﴿وَحَاقَ﴾ أي أحاط ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُواً وَعَشِياً﴾ أي تعرض أرواحهم في برزخهم صباحا ومساء على النار ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في التفسير ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم وإرسال الرسول إليهم وإزاحة الشبه عنهم وأخذ الحجة عليهم منهم فبالترهيب تارة والترغيب أخرى كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ . وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣] .

يخبر تعالى : أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهي أعوام الجدب التي لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع وقوله : ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ وهي قلة الثمار من الأشجار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي فلم ينتفعوا ولم يرعوا بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾ والخصب ونحوه ﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ أي هذا الذي نستحقه وهذا الذي يليق بنا ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾ أي يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ولا يقولون في الأول إنه بركتهم وحسن مجاورتهم ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق إذا جاء الشر أسندوه إليه وإن رأوا خيرا ادعوه لأنفسهم. قال الله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي مهما جئتنا به من الآيات وهي الخوارق للعادات فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكل آية. وهكذا أخبر الله عنهم في قوله : ﴿ إِنَّ

الَذينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمنُونَ . ولَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَة حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] قال اللّه تعالى : **﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ والْجَرَادَ والْقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ آيَات مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾** أما الطوفان فعن ابن عباس هو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار. وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك. وعن ابن عباس وعطاء هو كثرة الموت. وقال مجاهد: الطوفان الماء ، والطاعون على كل حال. وعن ابن عباس أمر طاف بهم. وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان عن المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن مينا عن عائشة عن النبي ﷺ « **الطوفان الموت** » [(١)] وهو غريب. وأما الجراد فمعروف. وقد روى أبو داود عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي ، قال : سئل رسول اللّه ﷺ عن الجراد . فقال « **أكثر جنود اللّه لا آكله ولا أحرمه** » [(٢)] وترك النبي ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذر له كما ترك أكل الضب وتنـــزه عن أكل البصل والثوم والكراث لما ثبت في الصحيحين عن عبد اللّه بن أبي أوفي . قال : غزونا مع رسول اللّه ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد[(٣)].

وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير. والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعا ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً [(٤)]. وأما القمل فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة وعنه أنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له. وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة. وقال سعيد بن جبير والحسن هو دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم هي البراغيث. وحكي ابن جرير عن أهل العربية أنها الحمنان وهو صغار القردان . فدخل معهم البيوت والفرش فلم يقر لهم قرار ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش. وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف. وأما الضفادع فمعروفة لبستهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع. وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئا إلا وجدوه دما عبيطا[(٥)] ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دما في الساعة الراهنة. هذا كله لم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية. وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام فينا لهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل وفي هذا أدل دليل. قال محمد بن إسحاق : فرجع عدو اللّه فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مفلولاً ثم أبي إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر

---

(١) **ضعيف** : فى سنده المنهال بن خليفة وهو ضعيف كما فى " تقريب " (٢ / ٢٧٧) .

(٢) رواه أبو داود (٣٨١٣) وابن ماجه (٣٢١٩) وفى سنده أبى العوام وهو فائد بن كيسان وهو مقبول كما فى " التقريب " (٢ / ١٠٧) والحديث اختلف فى وصله وإرساله . وانظر " الضعيفة " (١٥٣٣).

(٣) **متفق عليه** : رواه البخارى : (٥٤٩٥) ومسلم (٥٢ / ١٩٥٢)

(٤) يقال : ماله سبد ولا لبد ، أى : ماله قليل ولا كثير والسبد : حلق الشعر ، واللبد : الصوف .

(٥) أى دماً طرياً .

فتابع اللّٰه عليه بالآيات . فأخذه بالسنين فأرسل عليه الطوفان . ثم الجراد . ثم القمل . ثم الضفادع . ثم الدم آيات مفصلات فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض. ثم ركد. لا يقدرون على أن يخرجوا ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا فلما بلغهم ذلك ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ولَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ فدعا موسى ربه فكشفه عنهم فلما لم يفوا له بشيء . فأرسل اللّٰه عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا : مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل اللّٰه عليهم القمل فذكر لي: أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه. فمشي إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة، ومنعهم النوم والقرار . فلما جهدهم. قالوا له : مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل اللّٰه عليهم الضفادع . فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلم يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا بشيء منه مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً . وقال زيد بن أسلم المراد بالدم الرعاف . رواه ابن أبي حاتم . قال الله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَمُوسَىَ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنّ مَعَكَ بَنِيَ إِسْرَآئِيلَ . فَلَماّ كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرّجْزَ إِلَىَ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمّ بِأَنّهُمْ كَذّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف : ١٣٤ ـــ ١٣٦] .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن اتباع آيات اللّٰه وتصديق رسوله مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة التي أراهم اللّٰه إياها عياناً وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً وكلما شهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه فيرسل اللّٰه عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى فيقولون فيكذبون. ويعدون ولا يفون ﴿ **لَئِن كَشَفْتَ عَنّا الرّجْزَ لَنُؤْمِنَنّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنّ مَعَكَ بَنِيَ إِسْرَآئِيل** ﴾ فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل. ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم ولا يعجل عليهم ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والإنذار إليهم . أخذ عزيز مقتدر فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين ومثلا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين في سورة حم والكتاب المبين ﴿ **ولَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ ومَلَئه فَقَالَ إِنّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمينَ . فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ . ومَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ**

يَرْجِعُونَ . وقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ . ونَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ولا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ . فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ومَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٦ - ٥٦] .

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون وعن سبيل الله يصدون وعن الحق يصدون فأرسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضاً . وكل آية أكبر من التي تتلوها لأن التوكيد أبلغ مما قبله ﴿وأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيبا لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه وضراعتهم لديه قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ . ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها. وهي الخلجانات التي يكسروها أمام زيادة النيل . ثم تبجح بنفسه وحليته وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه ﴿ ولا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة التي هي شرف له وكمال وجمال ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى ، وأوحي إليه وأنزل بعد ذلك التوراة عليه. وتنقصه فرعون لعنه الله بكونه لا أساور في بدنه ولا زينة عليه وإنما ذلك من حلية النساء لا يليق بشهامة الرجال فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلا وأتم معرفة وأعلي همة وأزهد في الدنيا وأعلم بما أعد الله لأوليائه في الأخرى وقوله : ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان المراد أن تعظمه الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير كما جاء في الحديث إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع[1] فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم. وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعا لذوي الألباب ولمن قصد إلى الحق والصواب ويعمي عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك لب اللباب وطبع على قلبه رب الأرباب وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب كما هو حال فرعون القبطي العمي الكذاب قال الله تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً

---

(١) حسن : رواه أحمد (٥ / ١٩٦) وأبو داود (٣٦٤١) وابن ماجه (٢٢٣) والدارمى (١ / ٩٨) وابن عبد البر فى " جامع بيان العلم " (ص ٣٩ و ٤٠)وابن حبان (٨٨ ــ إحسان) والبغوى فى " شرح السنة " (١٢٩) عن أبى الدرداء رضى الله عنه .

فاسقينَ . ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي أغضبونا ﴿ انتقَمْنَا منهُمْ ﴾ أي بالغرق والإهانة وسلب العز والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة والهوان بعد الرفاهية والنار بعد طيب العيش عياذاً بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ﴾ أي لمن اتبعهم في الصلات ﴿ ومَثَلاً ﴾ أي لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ممن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم . كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتنَا بَيِّنَات قَالُوا مَا هَذَا إلاَّ سحرٌ مُّفْتَرًى ومَا سَمعْنَا بهَذَا في آبَائنَا الأَوَّلينَ. وقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بمَن جَاءَ بالْهُدَى منْ عنده ومَن تَكُونُ لَهُ عَاقبَةُ الدَّار إنَّهُ لا يُفْلحُ الظَّالمُونَ . وقَالَ فرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلمْتُ لَكُم مِّنْ إلَه غَيْري فَأَوْقدْ لي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّين فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلعُ إلَى إلَه مُوسَى وإنِّي لأَظُنُّهُ منَ الكَاذبينَ . واستَكْبَرَ هُوَ وجُنُودُهُ في الأَرْض بغَيْر الحَقِّ وظَنُّوا أَنَّهُمْ إلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ . فَأَخَذْنَاهُ وجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ في اليَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ الظَّالمينَ. وجَعَلْنَاهُمْ أَئمَّةً يَدْعُونَ إلَى النَّار ويَوْمَ القيَامَة لا يُنصَرُونَ . وأَتْبَعْنَاهُمْ في هَذه الدُّنْيَا لَعْنَةً ويَوْمَ القيَامَة هُم مِّنَ المَقْبُوحينَ ﴾ [القصص : ٣٦ - ٤٢] يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق وادعى ملكهم الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه اشتد غضب الرب القدير العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع عليهم . فانتقم منهم أشد الانتقام ، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة . فلم يفلت منهم أحد . ولم يبق منهم ديار بل كل قد غرق فدخل النار ، وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ويوم القيامة هم من المقبوحين .

ذكر هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم متابعة لملكهم فرعون ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام . وأقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول وهم مع ذلك لا يرعون ولا ينتهون ولا ينـــزعون ولا يرجعون ولم يؤمن منهم إلا القليل. قيل ثلاثة وهم امرأة فرعون ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ومؤمن آل فرعون الذي تقدم حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم. والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصي المدينة فقال ﴿ يَمُوسَىَ إنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠] قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه . ومراده غير السحرة فإنهم كانوا من القبط. وقيل : بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون والسحرة كلهم وجميع شعب بني إسرائيل. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وإنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وإنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس : ٨٣] فالضمير في قوله : ﴿ إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه. وقيل على موسى لقربه والأول أظهر كما هو مقرر في التفسير وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته وجبروته وسلطته ومن ملئهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم قال الله تعالى مخبرا عن فرعون وكفي بالله شهيداً : ﴿وإنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ أي جبار عنيد مشتغل بغير الحق: ﴿وإنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي في جميع أموره وشؤونه وأحواله ولكنه

جرثومة قد حان انجعافها [١] وثمرة خبيثة قد آن قطافها ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها. وعند ذلك قال موسى ﴿ **يَا قَوْمِ إن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّسْلِمِينَ . فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القَوْمِ الكَافِرِينَ** ﴾ [يونس : ٨٤ ــ ٨٦] يأمرهم بالتوكل على اللّه والاستعانة به والالتجاء إليه فأتمروا بذلك فجعل اللّه لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس : ٨٧] أوحي اللّه تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذوا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة في الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض وقوله : ﴿**واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً**﴾ قيل مساجد . وقيل : معناه كثرة الصلاة فيها قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم. ومعناه على هذا الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى:﴿**واسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ**﴾ [البقرة : ٤٥] وكان رسول اللّه ﷺ إذا حزبه أمر صلى. وقيل معناه : أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم فأمروا أن يصلوا في بيوتهم عوضا عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفا من فرعون وملئه. والمعني الأول أقوي لقوله ﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وإن كان لا ينافي الثاني أيضا واللّه أعلم .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ **واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً** ﴾ أي متقابلة ﴿ **وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ . قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ولا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يونس : ٨٨، ٨٩] هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم اللّه موسى على عدو اللّه فرعون غضبا للّه عليه لتكبره عن اتباع الحق وصده عن سبيل اللّه ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي والبرهان القطعي فقال : ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ** ﴾ يعني قومه من القبط ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿ **زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ** ﴾ أي وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا فيحسب الجاهل أنهم على شيء لكون هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية والدور الأنيقة والقصور المبنية والمآكل الشهية والمناظر البهية والملك العزيز والتمكين والجاه العريض في الدنيا لا الدين ﴿ **رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : أي أهلكها . وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت . وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم صارت حجارة .

---

(١) أى الاقتلاع والاستئصال .

وقال محمد بن كعب : جعل سكرهم حجارة . وقال أيضا : صارت أموالهم كلها حجارة. ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له : قم ائتني بكيس فجاءه بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة. رواه ابن أبي حاتم. وقوله : ﴿**واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ قال ابن عباس : أي اطبع عليها وهذه دعوة غضب للّه تعالى ولدينه ولبراهينه . فاستجاب اللّه تعالى لها وحققها وتقبلها كما استجاب لنوح في قومه حيث قال : ﴿**رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً . إنَّكَ إن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ولا يَلِدُوا إلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً**﴾[نوح : ٢٦ ، ٢٧] ولهذا قال تعالى مخاطبا لموسى حين دعا على فرعون وملئه وأمن أخوه هارون على دعائه فنـــزل ذلك منـــزلة الداعي أيضا : ﴿ **قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ولا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ .

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم فأذن لهم وهو كاره ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له وإنما كان في نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم وأمرهم اللّه تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن يستعيروا حليا منهم فأعاروهم شيئا كثيراً فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم قال اللّه تعالى : ﴿ **وأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعبَادِي إنَّكُم مُّتَّبَعُونَ . فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ . إنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وإنَّا لَجمِيعٌ حَاذِرُونَ . فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وعُيُونٍ . وكُنُوزٍ ومَقَامٍ كَرِيمٍ. كَذَلِكَ وأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ . فَلَمَّا تَرَاءَى الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلاَّ إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ البَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ . وأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ . وأَنجَيْنَا مُوسَى ومَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ . إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ومَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الشعراء :٥٢-٦٨]

قال علماء التفسير : لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل : كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف. فاللّه أعلم. وقيل : إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستاً وعشرين سنة شمسية.

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود ، فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون : ﴿**إنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه . وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه ، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة وفرعون قد غالقهم

وواجههم وعاينوه في جنوده وجيوشه وعدده وعدده [١] وهم منه في غاية الخوف والذعر لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمنكر فشكوا إلى نبي اللّٰه ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه فقال لهم الرسول الصادق المصدوق : ﴿ **كَلاَّ إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ وكان في الساقة فتقدم إلى المقدمة ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ويتزايد زبد أجاجه وهو يقول : ههنا أمرت ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون ، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار وقد أوحى اللّٰه إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء اللّٰه. ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون وهم وقوف وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف. ويقال : إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً في البحر هل يمكن سلوكه ؟ فلا يمكن . ويقول لموسى عليه السلام يا نبي اللّٰه أههنا أمرت. فيقول : نعم. فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر . فعند ذلك أوحي الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم ﴿ **أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ** ﴾ فلما ضربه يقال : إنه قال له انفلق بإذن اللّٰه ، ويقال : إنه كناه بأبي خالد فاللّٰه أعلم قال اللّٰه تعالى : ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الشعراء : ٦٣] ويقال : إنه انفلق اثنتي عشرة طريقاً لكل سبط طريق يسيرون فيه حتى . قيل : إنه صار أيضاً شبابيك ليري بعضهم بعضاً وفي هذا نظر لأن الماء جرم شفاف إذا كان في ورائه ضياء حكاه. وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون وأمر اللّٰه ريح الدبور فلقحت حال [٢] البحر فأذهبته حتى صار يابساً لا يعلق في سنابك الخيول والدواب. قال اللّٰه تعالى : ﴿ **ولَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَّ تَخَافُ دَرَكاً ولا تَخْشَى . فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ . وأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ومَا هَدَى** ﴾ [طه:٧٧-٧٩].

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل . فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين . ويهدي قلوب المؤمنين فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه. ولا سبيل عليه فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال وهو الصادق في المقال : ﴿ **ولَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . وإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي ورَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ. وإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ . فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ . واتْرُكِ الْبَحْرَ**

---

(١) عَدده وعُدده : الأولى بفتح العين " الجنود والأفراد " والثانية بضمها : الأسلحة .

(٢) الحال : الطين الأسود كما فى مختار الصحاح .

رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ . كَمْ تَرَكُوا من جَنَّات وعُيُون . وزُرُوعٍ ومَقَامٍ كَرِيمٍ . ونَعْمَةٍ كَانُوا فيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلكَ وأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ والأَرْضُ ومَا كَانُوا مُنظَرِينَ . ولَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ . من فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المُسْرِفِينَ . ولَقَد اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ. وآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ ﴾ [الدخان : ١٧ ــ ٣٣] فقوله تعالى : **﴿واتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً ﴾** أي ساكنا على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة. قاله عبد اللّه بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم. فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون. فرأى ما رأى وعاين ما عاين هاله هذا المنظر العظيم وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم فأحجم ولم يتقدم وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم لكنه أظهر لجنوده تجلدا وعاملهم معاملة العدا وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه : انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي الخارجين عن طاعتي وبلدي ؟ وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيهات ويقدم تارة ويحجم تارات. فذكروا : أن جبريل عليه السلام تبدي في صورة فارس راكب على رمكة حايل [1] فمر بين يدي فحل فرعون لعنه اللّه فحمحم إليها وأقبل عليها وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر واستبق الجواد وقد أجاد فبادر مسرعا هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعاً فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين حتى هم أولهم بالخروج منه . فعند ذلك أمر اللّه تعالى كليمه فيما أوحاه إليه : أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فارتفع عليهم البحر كما كان فلم ينج منهم إنسان قال اللّه تعالى : **﴿ وأَنجَيْنَا مُوسَى ومَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ . إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ومَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾** [الشعراء : ٦٥ - ٦٨] أي في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة. وقال تعالى : **﴿ وجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وجُنُودُهُ بَغْياً وعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِه بَنُو إِسْرَائِيلَ وأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ . آلآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنتَ مِنَ المُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾** [يونس: ٩٠ - ٩٢] .

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط . وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل اللّه به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ليكون أقر لأعين بني إسرائيل وأشفي لنفوسهم فلما عاين فرعون الهلكة

---

(١) رمكة حايل : أنثى من البراذين ، واحدها : الدابة للحمل الثقيل من الخيل وخلافها .

وأحيط به وباشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] وقال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [غافر : ٨٤ ،٨٥] وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم ﴿ **فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ [يونس:٨٨] أي حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم وقد قال تعالى لهما أي لموسى وهارون حين دعوا بهذا ﴿ **قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا** ﴾[يونس : ٨٩] فهذا من إجابة اللّٰه تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام.

ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب . حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول اللّٰه ﷺ « **لما قال فرعون** : ﴿ **آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ** ﴾ [يونس : ٩٠] **قال : قال لي جبريل : لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة** [١] ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة . وقال الترمذي : حديث حسن. وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال: قال رسول اللّٰه ﷺ : « **قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر، فأدسه في فم فرعون مخافة أن يناله الرحمة** [٢] ورواه الترمذي وابن جرير من حديث شعبة: وقال الترمذي: حسن غريب صحيح وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج. حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد اللّٰه ابن يعلي الثقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أغرق اللّٰه فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته : ﴿ **آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ** ﴾[يونس : ٩٠] قال : فخاف جبريل أن تسبق رحمة اللّٰه فيه غضبه فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه[٣]. ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به. وقد رواه ابن جرير من طريق كثير ابن زاذان وليس بمعروف وعن أبي حازم عن أبي هريرة. قال: قال رسول اللّٰه ﷺ : « **قال لي جبريل يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة اللّٰه فيغفر له** ». يعني فرعون. وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمي وقتادة وميمون بن مهران. ويقال: إن الضحاك بن قيس خطب به الناس. وفي بعض الروايات إن جبريل قال: ما بغضت أحدا بغضي لفرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى. ولقد جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال. وقوله تعالى : ﴿ **آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [يونس : ٩١] استفهام إنكار، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك لأنه

---

(١) **حسن** : رواه أحمد (١ / ٣٠٩) رقم (٢٨٢١) والترمذى (٣١٠٧) .

(٢) **حسن** : رواه الطيالسى (٢٦١٨) .

(٣) **ضعيف** : فى سنده عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى وهو ضعيف كما فى " التقريب " (٢ / ٥٩) .

والله أعلم لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ونَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنعام : ٢٧] قال الله: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ولَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨] وقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾[يونس : ٩٢] قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون حتى قال بعضهم . إنه لا يموت فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع. قيل على وجه الماء. وقيل: على نجوة من الأرض وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه. ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي مصاحباً درعك المعروفة بك ﴿ لِتَكُونَ ﴾ أي أنت آية ﴿ لِمَن خَلْفَكَ ﴾ أي من بني إسرائيل ودليلاً على قدرة الله الذي أهلكه. ولهذا قرأ بعض السلف: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً﴾. ويحتمل أن يكون المراد ننجيك مصاحباً لتكون درعك علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك، وأنك هلكت والله أعلم. وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء. كما قال الإمام البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال « **ما هذا اليوم الذى تصومونه ؟**» فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. قال النبي ﷺ لأصحابه: « **أنتم أحق بموسى منهم فصوموا** »[1]. وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما والله أعلم .

أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ. وأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ ومَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ودَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وقَوْمُهُ ومَا كَانُوا يَعْرِشُونَ . وجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ ويَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٣٦ - ١٤١] يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم وكيف سلبهم عزهم وما لهم وأنفسهم وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم كما قال : ﴿ كَذَلِكَ وأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] وقال : ﴿ونُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] وقال ههنا: ﴿ وأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ ومَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ودَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وقَوْمُهُ ومَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف : ١٣٧] أي أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا وهلك الملك

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٤٦٨٠) ومسلم (١١٣٠ / ١٢٧) .

وحاشيته وأمراؤه وجنوده ولم يبق ببلد مصر سوى العَامة والرعايا. فذكر ابن عبد الحكم في تاريخ مصر : أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة فكانت لهن السطوة عليهم واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومك هذا.

وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل اللّٰه ذلك الشهر أول سنتهم وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملا من الغنم فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار وجاره فيه فإذا ذبحوه فلينضحوا [1] من دمه على أعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم ولا يأكلونه مطبوخا ولكن مشويا برأسه وأكارعه وبطنه ولا يبقوا منه شيئا ، ولا يكثروا له عظما، ولا يخرجوا منه شيئاً إلى خارج بيوتهم. وليكن خبزهم فطيرا سبعة أيام ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم. وكان ذلك في فصل الربيع. فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة وخفافهم في أرجلهم وعصيهم في أيديهم وليأكلوا بسرعة قياما. ومهما فضل عن عشائهم فما بقي إلى الغد فيحرقوه بالنار وشرع لهم هذا عيدا لأعقابهم ما دامت التوراة معمولا بها فإذا نسخت بطل شرعها وقد وقع. قالوا: وقتل اللّٰه عزّ وجلّ في تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم ليشتغلوا عنهم وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم ليس من بيت إلا وفيه عويل. وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين فحملوا العجين قبل اختماره وحملوا الأزواد في الأردية وألقوها على عواتقهم. وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوي الذراري بما معهم من الأنعام. وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة. هذا نص كتابهم. وهذه السنة عندهم تسمي سنة الفسخ. وهذا العيد عيد الفسخ. ولهم عيد الفطي. وعيد الحمل وهو أول السنة. وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم منصوص عليها في كتابهم.

ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجوا على طريق بحر سوف. وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عامود نور. وبالليل أمامهم عامود نار. فانتهي بهم الطريق إلى ساحل البحر فنــزلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين. وهم هناك حلول على شاطئ اليم فقلق كثير من بني إسرائيل حتى قال قائلهم كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية. وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا. قالوا: وأمر اللّٰه موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس. وصار الماء من ههنا وههنا كالجبلين وصار وسطه يبساً لأن اللّٰه سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر واتبعهم فرعون وجنوده فلما توسطوه أمر اللّٰه موسى فضرب البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم. لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل، وأن البحر ارتطم عليهم

---

(١) ينضح : يَرُشُّ .

عند الصبح وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعزيهم والله أعلم. قالوا: ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب. وقالوا : نسبح الرب البهي الذي قهر الجنود ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود "و هو تسبيح طويل. قالوا: وأخذت مريم النبية أخت هارون دفا بيدها وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول وجعلت مريم ترتل لهن. وتقول: سبحان الرب القهار الذي قهر الخيول وركبانها إلقاء في البحر هكذا رأيته في كتابهم. ولعل هذا هو من الذي حمل محمد بن كعب القرظي على زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسي هي أخت هارون وموسى مع قوله يا أخت هارون. وقد بينا غلطه في ذلك وأن هذا لا يمكن أن يقال، ولم يتابعه أحد عليه بل كل واحد خالفه فيه ولو قدر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليها السلام، وأم عيسي عليها السلام وافقتها في الاسم واسم الأب واسم الأخ لأنهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة لما سأله أهل نجران عن قوله : يا أخت هارون. فلم يدر ما يقول لهم. حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: « **أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم** »[1] رواه مسلم. وقولهم النبية كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة ومن بيت الإمرة أميرة وإن لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك فكذا هذه استعارة لها لا أنها نبية حقيقة يوحي إليها. وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع لمن قبلنا ضرب الدف في العيد. وهذا مشروع لنا أيضا في حق النساء لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدف في أيام مني ورسول الله ﷺ مضطجع مولى ظهره إليهم ووجهه إلى الحائط. فلما دخل أبو بكر زجرهن[2] وقال أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ فقال : « **دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا** »[3]. وهكذا يشرع عندنا في الأعراس ولقدوم الغياب كما هو مقرر في موضعه والله أعلم. وذكروا: أنهم لما جاوزوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك فوجدوا ماء زعاقاً أجاجاً[4] لم يستطيعوا شربه فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه فحلا وساغ شربه وعلمه الرب هنالك فرائض وسنناً ووصاه وصايا كثيرة .

وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز المهيمن على ما عداه ، من الكتب : ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِيَ إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىَ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىَ أَصْنَامٍ لّهُمْ قَالُواْ يَمُوسَىَ اجْعَلْ لّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنّ هَـٰؤُلاۤءِ مُتَبّرٌ مّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ، ١٣٩] قالوا هذا الجهل والضلال ، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ، ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذى الجلال والإكرام . وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناماً ، قيل: كانت على

---

(١) رواه مسلم (٢١٣٥ / ٩) .

(٢) الزجر : المنع والنهى صائحا به .

(٣) رواه البخارى (٩٥٢) كتاب العيدين ، باب سنة العيدين لأهل الإسلام.

(٤) الزعاق : الملح : الأجاج : المر : شراب لا يطاق ولا يستاغ .

صور البقر، فكأنهم سألوهم لم يعبدونها ؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات ، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم فى ذلك ، فسألوا نبيهم الكليم العظيم، أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة، فقال لهم مبيناً لهم إنهم لا يعقلون ولا يهتدون: **﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾** [الأعراف : ١٣٩] .

ثم ذكرهم نعمة الله عليهم ، فى تفضيله إياهم على عالمى زمانهم بالعلم والشرع ، والرسول الذى بين أظهرهم ، وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد ، وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة ، وما كانوا يعرشون ، وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له ، لأنه الخالق الرازق القهار ، وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال ، بل هذا الضمير عائد على الجنس فى قوله : **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَـٰمُوسَى اجْعَلْ لَّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾** [الأعراف : ١٣٨] أى قال بعضهم كما فى قوله : **﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً . وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً ﴾** [الكهف: ٤٧، ٤٨] فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم.

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهرى ، عن سنان بن أبى سنان الديلى عن أبى واقد الليثى ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله. اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة [(١)] ويعكفون حولها ، فقال النبى ﷺ : « **الله أكبر . هذا كما قالت بنو إسرئيل لموسى : ﴿ اجْعَلْ لَّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ ، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم** » [(٢)] . ورواه النسائى عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به. ورواه الترمذى عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومى ، عن سفيان بن عيينة ، عن الزهرى به ، ثم قال : حسن صحيح .

وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق ومعمر وعقيل ، عن الزهرى، عن سنان ابن أبى سنان ، عن أبى واقد الليثى : أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، قال : وكان للكفار سدرة يعكفون عليها ، ويعلقون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط . قال : فمررنا بسدرة خضراء عظيمة ، قال : فقلنا : يا رسول الله ؛ اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . قال: قلتم: والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى: **﴿اجْعَلْ لَّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾**[الأعراف:١٣٨ ، ١٣٩].

---

(١) ينوطون : يعلقون . سدرة : شجرة النبق .

(٢) **صحيح**: رواه عبد الرزاق (٢٠٧٦٣) وأحمد (٥/ ٢١٨) والحميدى (٨٤٨) والترمذى (٢١٨٠) وقال: حسن صحيح. والنسائى فى "الكبرى" (٦/ ٣٤٦) رقم (١١١٨٥) وابن أبى شيبة (١٥/١٠١) والطيالسى (١٣٤) وأبو يعلى (١٤٤١) والطبرانى فى "الكبير" (٣٢٩١و٣٢٩٢و٣٢٩٣و٣٢٩٤) وابن حبان (٦٧٠٣).

والمقصود أن موسى عليه السلام ، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين ، من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم .

فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم ، وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس، فإن الله كتبه لهم ، ووعدهم إياه على لسان إبراهم الخليل وموسى الكليم الجليل فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون كما قال الله تعالى : ﴿ وإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وجَعَلَكُم مُّلُوكاً وآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ العَالَمِينَ . يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ التِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ولا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ . قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ ورَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وبَيْنَ القَوْمِ الفَاسِقِينَ . قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾[المائدة: ٢٠-٢٥].

يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم إحسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ولا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ ﴾ أي تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم ﴿ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أي فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ ﴾ أي عتاة كفرة متمردين ﴿وإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً وأكثر جمعا وأعظم جنداً وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة ومذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الأعداء ومقاومة المردة الأشقياء .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاما جداً حتى إنهم ذكروا: أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحداً واحداً ويلفهم في أكمامه وحجزة سراويله وهم اثنا عشر رجلاً فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبارين. فقال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفي الرجل وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم وهذا ليس بصحيح. وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع هكذا ذكره

البغوي وغيره وليس بصحيح كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ: « **إن اللّه خلق آدم طوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن** »[١].

قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقا في عنق عوج بن عنق. ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع فوصل إلى كعب قدمه فقتله. يروي هذا عن عوف البكالي. ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفي إسناده إليه نظر. ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل فإن الأخبار الكذبة قد كثرت عندهم ولا تميز لهم بين صحتها وباطلها. ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول[٢] عن قتالهم. وقد ذمهم اللّه على نكولهم وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم. وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ونهياهم عن الإحجام. ويقال: إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس وغير واحد ﴿ **قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ** ﴾ أي يخافون اللّه وقرأ بعضهم يخافون أي يهابون ﴿**أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا** ﴾ أي بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ﴿ **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٣] أي إذا توكلتم على اللّه واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم . ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ [المائدة :٢٤] فصمم ملاؤهم على النكول عن الجهاد ووقع أمر عظيم ووهن كبير. فيقال إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقا ثيابهما وإن موسى وهارون سجدا إعظاما لهذا الكلام وغضباً للّه عز وجل وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٥] .

قال ابن عباس ﴿ **اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ** ﴾. ﴿ **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ [المائدة:٢٦] عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلا ونهاراً وصباحا ومساء ويقال: إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم سوي يوشع وكالب عليهما السلام. لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن وغيره من المهاجرين ثم جعل يقول أشيروا على حتى . قال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول اللّه فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن يلقي بنا عدونا غدا إنا لصبر

---

(١) **متفق عليه** رواه البخارى (٣٣٢٦) ومسلم (٧٠٢٣) عن أبي هريرة رضى الله عنه .

(٢) النكول : نكص وجبن .

في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله ﷺ بقول سعد وبسطه ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع. حدثنا سفيان عن مخارق بن عبد الله الأحمسي عن طارق هو ابن شهاب أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون[1]. وهذا إسناد جيد من هذا الوجه وله طرق أخرى. قال أحمد: حدثنا أسود بن عامر: حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال قال عبد الله بن مسعود لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين. قال : والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤] ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك [2]رواه البخاري في التفسير والمغازي من طرق عن مخارق به.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا علي بن الحسن بن علي، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر. ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا: إذا لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ والذي بعثك بالحق إن ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك [3] رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد عن حميد الطويل عن أنس به ورواه النسائي عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن حميد عن أنس به نحوه وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى عن عبد الأعلى بن حماد عن معتمر عن حميد عن أنس به نحوه .

دخول بني إسرائيل التّيه وما فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبارين. وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين ولكن فيها أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار . وأن موسى وهارون وخور جلسوا على رأس أكمة ورفع موسى عصاه فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم. وكلما مالت يده بها من

---

(١) حسن : رواه أحمد (١١٨٤٩) .
(٢) رواه البخارى (٣٩٥٢) .
(٣) صحيح : رواه أحمد (٣ / ١٠٥و ١٨٨) والنسائى فى " الكبرى " كما فى " التحفة " (١ / ١٨٥) وأبو يعلى (٣٧٦٦) وابن حبان (٤٧٢١ ـــ إحسان) .

تعب أو نحوه غلبهم أولئك وجعل هارون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس فانتصر حزب يوشع عليه السلام وعندهم أن يثرون كلهن مدين وختن موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره اللّٰه بعدوه فرعون. فقدم على موسى مسلما ومعه ابنته صفورا زوجة موسى وابناها منه جرشون وعازر. فتلقاه موسى وأكرمه واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظموه وأجلوه. وذكروا أنه رأي كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفاء يبغضون الرشاء والخيانة فيجعلهم على الناس رؤوس ألوف ورؤوس مئين ورؤوس خمسين ورؤوس عشرة فيقضوا بين الناس فإذا أشكل عليهم أمر جاءك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم ففعل ذلك موسى عليه السلام. قالوا: ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء في الشهر الثالث من خروجهم من مصر وكان خروجهم في أول السنة التي شرعت لهم وهي أول فصل الربيع فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف واللّٰه أعلم.

قالوا: ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء وصعد موسى الجبل فكلمه ربه وأمره أن يذكر بني إسرائيل ما أنعم اللّٰه به عليهم من إنجائه إياهم من فرعون وقومه وكيف حملهم على مثل جناحي نسر من يديه وقبضته وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث فإذا كان في اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ولا يقتربن أحد منهم إليه فمن دنا منه قتل حتى ولا شيء من البهائم ما داموا يسمعون صوت القرن فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا. فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جداً ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً وخرجوا فقاموا في سفح الجبل وغشي الجبل دخان عظيم في وسطه عمود نور وتزلزل الجبل كله زلزلة شديدة واستمر صوت الصور وهو البوق واشتد وموسى عليه السلام فوق الجبل واللّٰه يكلمه ويناجيه وأمر الرب عزّ وجلّ موسى أن ينـــزل فيأمر بني إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية اللّٰه ويأمر الأحبار وهم علماؤهم أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدموا بالقرب وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة فقال موسى يا رب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوه. وقد نهيتهم عن ذلك فأمره اللّٰه تعالى أن يذهب فيأتي معه بأخيه هارون وليكن الكهنة وهم العلماء والشعب وهم بقية بني إسرائيل غير بعيد ففعل موسى وكلمه ربه عزّ وجلّ فأمره حينئذ بالعشر كلمات .

وعندهم أن بني إسرائيل سمعوا كلام اللّٰه ولكن لم يفهموا حتى فهّمهم موسى وجعلوا يقولون لموسى: بلغنا أنت عن الرب عزّ وجلّ. فإنا نخاف أن نموت فبلغهم عنه فقال: هذه العشر الكلمات وهي الأمر بعبادة اللّٰه وحده لا شريك له. والنهي عن الحلف باللّٰه كاذباً. والأمر بالمحافظة على السبت. ومعناه: تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة. وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ اللّٰه به السبت. أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض الذي يعطيك اللّٰه ربك لا تقتل.

لا تزن . لا تسرق . لا تشهد على صاحبك شهادة زور . لا تمد عينك إلى بيت صاحبك . ولا تشته امرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا من الذي لصاحبك. ومعناه النهي عن الحسد. وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم: مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن وهما قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ولا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإِيَّاهُمْ ولا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . ولا تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وأَوْفُوا الكَيْلَ والْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وسْعَهَا وإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ولَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٣] الآية وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكاماً متفرقة عزيزة كانت فزالت وعملت بها حينا من الدهر. ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها. ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرفوها وأولوها. ثم بعد ذلك كله سلبوها فصارت منسوخة مبدلة بعدما كانت مشروعة مكملة فللّه الأمر من قبل ومن بعد وهو الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد الإله الخلق والأمر تبارك اللّه رب العالمين. وقد قال اللّه تعالى : ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ووَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ ونَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوَى. كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ولا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ومَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى . وإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى** ﴾ [طه: ٨٠، ٨٢] .

يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن أي منهم لينـــزل عليه أحكاماً عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم. وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع مناً من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد. ومن أخذ منه قليلاً كفاه أو كثيراً لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز وهو في غاية البياض والحلاوة فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشاهم. وإذا كان فصل الصيف ظلل اللّه عليهم الغمام وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوئها الباهر. كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون. وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ** ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤١] إلي أن قال : ﴿ **وإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ . وإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وأَنتُمْ تَنظُرُونَ . وإِذْ واعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأَنتُمْ ظَالِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم**

مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ والفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . وإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وأَنتُمْ تَنظُرُونَ.ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغَمَامَ وأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ومَا ظَلَمُونَا ولَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٩ ، ٥٧] إلي أن قال: ﴿وإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا واشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ . وإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وقِثَّائِهَا وفُومِهَا وعَدَسِهَا وبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والْمَسْكَنَةُ وبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ويَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[البقرة: ٦٠ ، ٦١] فذكر تعالى إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه بل ينـــزل الله المن باكراً ويرسل عليهم طير السلوى عشياً وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط عين منه تنبجس. ثم تتفجر ماءاً زلالاً فيستقون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم. وظلل عليهم الغمام من الحر. وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها. ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها وسألوا: أن يستبدلوا منها ببدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلا : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة: ٦١] أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها وإذا هبطتم إليها أي ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها تجدوا بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ههنا ولا أبلغكم ما تعنتم به من المني وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه كما قال تعالى : ﴿ولاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ومَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾[طه : ٨١] أي فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار وقد حل عليه غضب الملك الجبار، ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال :﴿ وإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه : ٨٢] .

سؤال الرّؤية

قال تعالى : ﴿ ووَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وأَصْلِحْ ولا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ . ولَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ

رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ . وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ. سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٤٢، ١٤٧]. قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد: الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله، وأتمت أربعين ليلة بعشر من ذي الحجة فعلى هذا يكون كلام اللّه له يوم عيد النحر. وفي مثله أكمل اللّه عزّ وجلّ لمحمدﷺ دينه وأقام حجته وبراهينه. والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائماً يقال: إنه لم يستطعم الطعام فلما كمل الشهر أخذ لحاء شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه فأمر اللّه أن يمسك عشراً أخرى فصارت أربعين ليلة. ولهذا ثبت في الحديث : «أن خلوف [1]**فم الصائم أطيب عند اللّه من ريح المسك** » .

فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون المحبب المبجل الجليل وهو ابن أمه وأبيه ووزيره في الدعوة إلى مصطفيه فوصاه وأمره وليس في هذا لعلو منـــزلته في نبوته منافاة قال اللّه تعالى : **﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾** أي في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه **﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾** أي كلمه اللّه من وراء حجاب إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقربه وأدناه. وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ومنصب شريف ومنـــزل منيف فصلوات اللّه عليه تترى وسلامه عليه في الدنيا والأخرى. ولما أعطي هذه المنـــزلة العلية والمرتبة السنية وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار القوي البرهان **﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قال لن تراني﴾**. ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى لأن الجبل الذي هو أقوي وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان لا يثبت عند التجلي من الرحمن ولهذا قال : **﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾**.

وفي الكتب المتقدمة أن اللّه تعالى قال له: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده.[2] وفي الصحيحين عن أبي موسى عن رسول اللّهﷺ أنه قال «**حجابه النور** ». وفي رواية «**النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهي إليه بصره من خلقه** » [3] . وقال ابن عباس في قوله تعالى : **﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾** ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلي لشيء لا يقوم له شيء

---

(١) **الخلوف** : تغيرّ رائحة الفم .

(٢) **دهده : هدمه .**

(٣) **رواه مسلم (٤٣٨) كتاب الإيمان ، باب فى قوله عليه السلام «إن الله لا ينام » وأحمد (٤ / ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥) وابن ماجه فى المقدمة (١٩٥) .**

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾. قال مجاهد : ﴿ **ولَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي** ﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقا فلما تجلى ربه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا. وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت. زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول اللّه ﷺ قرأ ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً** ﴾ قال : هكذا بأصبعه ووضع النبي ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل [1] لفظ ابن جرير.

وقال السدي عن عكرمة وعن ابن عباس ما تجلي يعني من العظمة إلا قدر الخنصر فجعل الجبل دكا، قال : ترابا: ﴿ **وخَرَّ مُوسَى صَعِقاً** ﴾ أي مغشيا عليه وقال قتادة ميتا. والصحيح الأول لقوله ﴿ **فَلَمَّا أَفَاقَ** ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي قال ﴿**سُبْحَانَكَ**﴾ تنــزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ﴿**تُبْتُ إِلَيْكَ**﴾ أي فلست أسأل بعد هذا الرؤية ﴿**وأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أنه لا يراك حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده. وقد ثبت في الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه ﷺ: « **لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور** » . لفظ البخاري وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاريُّ حين قال لا والذي اصطفي موسى على البشر فقال رسول اللّه ﷺ: « **لا تخيروني من بين الأنبياء** »[2] . وفي الصحيحين من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه وفيه: « **لا تخيروني على موسى** » [3] وذكر تمامه. وهذا من باب الهضم والتواضع أو نهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية أو ليس هذا إليكم بل اللّه هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات وليس ينال هذا بمجرد الرأي بل بالتوقيف. ومن قال: إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم ففي قوله نظر: لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخراً فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا واللّه أعلم ولا شك أنه صلوات اللّه وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليقة. قال اللّه تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران : ١١٠] وما كملوا إلا بشرف نبيهم وثبت بالتواتر عنه صلوات اللّه وسلامه عليه أنه قال : «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر** » [4] ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي

---

(١) **صحيح** : رواه الطبرى فى تفسيره (٩/٥٣)والترمذى (٣٠٧٤) والحاكم (٢ /٣٢٠) وقال الترمذى : حسن غريب صحيح . وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

(٢)**متفق عليه** : رواه البخارى (٢٤١٢) ومسلم (٢٣٧٥ / ١٦٣) .

(٣)**متفق عليه** : رواه البخارى (٣٤٠٨) ومسلم (٢٣٧٣/ ١٦٠) .

(٤)**صحيح** : رواه الترمذى (٣١٤٨) وأحمد (١٠٩٨٧) وقال الترمذى : حسن صحيح .

يغبطه به الأولون والآخرون الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون حتى أولو العزم الأكملون نوح وإبراهيم وموسى وعيسي ابن مريم. وقوله ﷺ : « **فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش** – أي آخذاً بها – **فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور** » دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات[1] القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ومصطفي رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش قال الصادق المصدوق : لا أدري أصعق فأفاق قبلي، أي كانت صعقته خفيفة لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق أو جوزي بصعقة الطور يعني فلم يصعق بالكلية وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية. ولا يلزم تفضيله بها مطلقا من كل وجه. ولهذا نبه رسول اللّه ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال: « **لا والذي اصطفى موسى على البشر** » قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام فبين النبي ﷺ فضيلته وشرفه. وقوله تعالى : **﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وبِكَلامِي ﴾** أي في ذلك الزمان لا ما قبله لأن إبراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم ولا ما بعده لأن محمداً ﷺ أفضل منهما كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء وكما ثبت أنه قال: « **سأقوم مقاماً يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم** » وقوله تعالى : **﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾** أي فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ولا تسأل زيادة عليه وكن من الشاكرين على ذلك.

قال اللّه تعالى : **﴿ وكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾**[الأعراف: ١٤٥] وكانت الألواح من جوهر نفيس ففي الصحيح أن اللّه كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام **﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾** أي بعزم ونية صادقة قوية **﴿ وأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾** أي يضعوهما على أحسن وجوهها وأجمل محاملها **﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الفَاسِقِينَ ﴾** [الأعراف:١٤٥] أي ستروا عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري المكذبين لرسلي. **﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾** [الأعراف:١٤٦] عن فهمها وتدبرها وتعقل معناها الذي أريد منها ودل عليه مقتضاها **﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وإن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾** أي ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادوا لاتباعها **﴿ وإن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾** أي لا يسلكوه ولا يتبعوه **﴿وإن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾** [الأعراف:١٤٦] أي صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها وإعراضهم عن التصديق بها والتفكر في معناها وترك العمل بمقتضاها **﴿ والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ولِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الأعراف:١٤٧].

---

(١) عرصات : جمع :عرصة وهى الفسحة الواسعة أمام الدار .

قصَّة عبادتهم العجْل في غيبة

قال اللّه تعالى : ﴿ واتَّخذَ قَوْمُ مُوسَى منْ بَعْده منْ حُليِّهمْ عجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ ولا يَهْديهمْ سَبيلاً اتَّخذُوهُ وكَانُوا ظَالمينَ . ولَمَّا سُقطَ فِي أَيْديهمْ ورَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ويَغْفرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ منَ الخَاسرينَ . ولَمَّا رَجَعَ مُوسَى إلَى قَوْمه غَضْبَانَ أَسفاً قَالَ بئْسَمَا خَلَفْتُمُوني منْ بَعْدي أَعَجلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وأَلْقَى الأَلْوَاحَ وأَخَذَ برَأْسِ أَخيه يَجُرُّهُ إلَيْه قَالَ ابْنَ أُمَّ إنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُوني وكَادُوا يَقْتُلُونَني فَلا تُشْمتْ بيَ الأَعْدَاءَ ولا تَجْعَلْني مَعَ القَوْمِ الظَّالمينَ . قَالَ رَبِّ اغْفرْ لي ولأَخي وأَدْخلْنَا في رَحْمَتكَ وأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحمينَ . إنَّ الَّذينَ اتَّخَذُوا العجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهمْ وذلَّةٌ في الحَيَاة الدُّنْيَا وكَذَلكَ نَجْزي المُفْترينَ . والَّذينَ عَملُوا السَّيِّئَات ثُمَّ تَابُوا منْ بَعْدهَا وآمَنُوا إنَّ رَبَّكَ منْ بَعْدهَا لَغَفُورٌ رَّحيمٌ . ولَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وفي نُسْخَتهَا هُدًى ورَحْمَةٌ لِّلَّذينَ هُمْ لرَبِّهمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف:١٤٨-١٥٤]

وقال تعالى : ﴿ ومَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمكَ يَا مُوسَى . قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَى أَثَري وعَجلْتُ إلَيْكَ رَبِّ لتَرْضَى . قَالَ فَإنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ منْ بَعْدكَ وأَضَلَّهُمُ السَّامريُّ. فَرَجَعَ مُوسَى إلَى قَوْمه غَضْبَانَ أَسفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعدْكُمْ رَبُّكُمْ وعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعدي . قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعدَكَ بمَلْكنَا ولَكنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زينَة القَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلكَ أَلْقَى السَّامريُّ . فَأَخْرَجَ لَهُمْ عجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إلَهُكُمْ وإلَهُ مُوسَى فَنَسيَ . أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجعُ إلَيْهمْ قَوْلاً ولا يَمْلكُ لَهُمْ ضَرّاً ولا نَفْعاً . ولَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ من قَبْلُ يَا قَوْمِ إنَّمَا فُتنتُم به وإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبعُوني وأَطيعُوا أَمْري . قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْه عَاكفينَ حَتَّى يَرْجعَ إلَيْنَا مُوسَى . قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلاَّ تَتَّبعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْري . قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بلحْيَتي ولا برَأْسي إنِّي خَشيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَني إسْرَائيلَ ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلي . قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامريُّ . قَالَ بَصُرْتُ بمَا لَمْ يَبْصُرُوا به فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وكَذَلكَ سَوَّلَتْ لي نَفْسي . قَالَ فَاذْهَبْ فَإنَّ لَكَ في الحَيَاة أَن تَقُولَ لا مسَاسَ وإنَّ لَكَ مَوْعداً لَّن تُخْلَفَهُ وانظُرْ إلَى إلَهكَ الَّذي ظَلْتَ عَلَيْه عَاكفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسفَنَّهُ في اليَمِّ نَسْفاً . إنَّمَا إلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذي لا إلَهَ إلاَّ هُوَ وسعَ كُلَّ شَيْءٍ علْماً﴾[طه: ٨٣ - ٩٨] .

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها فعمد رجل منهم يقال له: هارون السامري فأخذ ما كان استعاره من الحلي فصاغ منه عجلا وألقي فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق اللّه فرعون على يديه. فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي. ويقال: إنه استحال عجلا جسدا أي لحما ودما حيا يخور. قال قتادة وغيره وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة فيرقصون حوله ويفرحون ﴿ فَقَالُوا هَذَا إلَهُكُمْ وإلَهُ مُوسَى فَنَسيَ ﴾ أي فنسي موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو ههنا تعالى اللّه عما يقولون علواً كبيرا وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وهباته .

قال الله تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيوانا بهيما وشيطاناً رجيما : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ولا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً ولا نَفْعاً﴾ وقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ ولا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جوابا ولا يملك ضرا ولا نفعاً ولا يهدي إلى رشد اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال ﴿ ولَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ندموا على ما صنعوا ﴿ورَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ويَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٩]. ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها. فيقال: إنه كسرها. وهكذا هو عند أهل الكتاب وأن الله أبدله غيرها وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين. وعند أهل الكتاب أنهما كانا لوحين وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره بمعاينة ذلك. ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس الخبر كالمعاينة »[1] . ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا إنا : ﴿حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾[طه:٨٧] تحرجوا من تملك حلي آل فرعون وهم أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار. ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام قائلاً له : ﴿ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ﴾ [طه:٩٢، ٩٣] أي هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتني فأعلمتني بما فعلوا فقال : ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ولأَخِي وأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأعراف:١٥١] .

وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي وزجرهم عنه أتم الزجر قال الله تعالى : ﴿ ولَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾ [طه:٩٠] أي إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختبارا لكم ﴿ وإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾ أي لا هذا ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي فيما أقول لكم ﴿ وأَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾[طه:٩٠ ، ٩١] يشهد الله لهارون عليه السلام ﴿وكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه ثم أقبل موسى على السامري ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾[طه:٩٥] أي ما حملك على ما صنعت ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي رأيت جبرائيل وهو راكب فرساً ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ أي من أثر فرس جبريل. وقد ذكر بعضهم أنه رآه ولكما وطئت بحوافرها على موضع أخضر وأعشب فأخذ من أثر حافرها فلما ألقاه في هذا العجل

---

(١)صحيح : رواه أحمد (١ / ٢١٥) رقم (١٨٤٢) .

المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال : ﴿ فَنَبَذْتُهَا وكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي . قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾[طه:٩٦، ٩٧] وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحداً معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه . هذا معاقبة له في الدنيا ثم توعده في الأخرى فقال : ﴿ وإنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ﴾ وقرئ « لن نخلفه » ﴿ وانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً ﴾ [طه:٩٧] قال فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرقه بالنار كما قاله قتادة وغيره. وقيل بالمبارد كما قاله علي وابن عباس وغيرهما وهو نص أهل الكتاب ثم ذراه في البحر وأمر بني إسرائيل فشربوا فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه وقيل بل اصفرت ألوانهم ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ [طه:٩٨] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وكَذَلِكَ نَجْزِي المُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٢] وهكذا وقع وقد قال بعض السلف ﴿ وكَذَلِكَ نَجْزِي المُفْتَرِينَ﴾ مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة. ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال : ﴿ والَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٥٣] لكن لم يقبل اللّه توبة عابدي العجل إلا بالقتل كما قال تعالى:﴿ وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥٤] فيقال : إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف وألقي اللّه عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه. ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفاً .

ثم قال تعالى : ﴿ ولَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وفِي نُسْخَتِهَا هُدًى ورَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٤] استدل بعضهم بقوله وفي نسختها على أنها تكسرت وفي هذا الاستدلال نظر وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت واللّه أعلم. وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون كما سيأتي أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر وما هو ببعيد لأنهم حين خرجوا ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٨٣] .

وهكذا عند أهل الكتاب فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس. وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف. ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة .

﴿ واخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا وأَنتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ . واكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ورَحْمَتِي وسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ والَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا

يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٥ - ١٥٧] .

ذكر السدي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وأبيهو ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل. وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع وصعد موسى الجبل فيذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين وحملوا عليه قوله تعالى : **﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾** [البقرة:٧٥] وليس هذا بلازم لقوله تعالى : **﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ﴾** أي مبلغاً وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسى عليه السلام وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله وهذا غلط منهم لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة كما قال تعالى : **﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾** [البقرة:٥٥ ، ٥٦] وقال ههنا **﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾** [الأعراف:١٥٥] الآية .

قال محمد بن إسحاق. اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخير فالخير. وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله، فقال: أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشي الجبل كله ودنا موسى، فدخل في الغمام وقال للقوم: ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمر .وينهاه افعل ولا تفعل. فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا : **﴿ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾** [البقرة : ٥٥] فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: **﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾** [الأعراف : ١٥٥] أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا براء مما عملوا. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل وقوله : **﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾** [الأعراف : ١٥٥] أي اختبارك وابتلاؤك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف. يعني أنت الذي قدرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما **﴿ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم**

به ﴾ [طه : ٩٠] أي اختبرتم ولهذا قال : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾[الأعراف : ١٥٥] أي من شئت أضللته باختبارك إياه ومن شئت هديته. لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ . وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف : ١٥٥،١٥٦] أي تبنا إليك ورجعنا وأنبنا قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمي والضحاك والسدي وقتادة وغير واحد وهو كذلك في اللغة. ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال:« إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي» [(١)] ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٦] أي فسأوحيها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ [الأعراف : ١٥٧] الآية. وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى عليه السلام في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه . وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها في التفسير بما فيه كفاية ومقنع ، ولله الحمد والمنة.

وقال قتادة : قال موسى عليه السلام : يا رب . إنى أجد فى الألواح أمة هى خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رب اجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد.

قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون فى الخلق ، السابقون فى دخول الجنة ، رب اجعلها أمتى ، قال : تلك أمة أحمد . قال: رب . إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها ، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاهم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم ، قال : رب اجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب إنى أجد فى الألوح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فضول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ، ويؤجرون عليها . وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها ، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم ، قال : رب فاجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب فإنى أجد فى الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال : رب اجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد .

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١ / ١٤) .

قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم ، فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد .

قال قتادة : فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح ، وقال : اللهم اجعلني من أمة أحمد .

وقد ذكر كثير من الناس من مناجاة موسى عليه السلام، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه ، وحسن هدايته ومعونته وتأييده.

ذكر سؤال كليم الله ربه عزّ وجلّ عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان في صحيحه : ذكر سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منــزلة :

أخبرنا عمر بن سعيد الطائي ببلخ ، حدثنا حامد بن يحيى البلخي. حدثنا سفيان ،حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن ابجر شيخان صالحان قالا : سمعنا الشعبي يقول سمعت المغيرة ابن شعبة يقول على المنبر عن النبي ﷺ : **«إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل أي أهل الجنة أدنى منــزلة؛ فقال: رجل يجيء بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال: ادخل الجنة. فيقول: كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخاذاتهم؟ فيقال له: ترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا؟. فيقول. نعم أي رب. فيقال: لك هذا ومثله ومثله فيقول. أي رب رضيت. فيقال له: لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك وسأل ربه أي أهل الجنة أرفع منــزلة قال: سأحدثك عنهم غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ومصداق ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾** [السجدة : ١٧]» [(١)] .

وهكذا رواه مسلم والترمذي كلاهما عن ابن أبي عمر عن سفيان – وهو ابن عيينة – به ولفظ مسلم : « **فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله فيقول في الخامسة: رضيت رب . فيقال: هذا لك وعشرة أمثاله. ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول رضيت رب. قال: رب فأعلاهم منــزلة. قال: أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر** ».

قال « **ومصداقه من كتاب الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** » [السجدة : ١٧] . وقال الترمذي : حسن صحيح. قال : ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة فلم يرفعه والمرفوع أصح .

---

(١) رواه مسلم (١٨٩ / ٣١٢) والترمذي (٣١٩٨) والطبري في تفسيره (٢١/١٠٤) .

سؤال موسى ربه عن خصال سبع

وقال ابن حبان : « ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع » حدثنا عبد اللّه بن محمد بن مسلم ببيت المقدس. حدثنا حرملة بن يحيى. حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « **سأل موسى ربه عزّ وجلّ عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها. قال : يارب أي عبادك أتقى ؟ قال: الذي يذكر ولا ينسى . قال : فأي عبادك أهدى ؟ قال : الذي يتبع الهدى . قال : فأي عبادك أحكم ؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه. قال: فأي عبادك أعلم ؟ قال : عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه . قال فأي عبادك أعز؟ قال : الذي إذا قدر غفر . قال : فأي عبادك أغنى ؟ قال : الذي يرضى بما يؤتى قال: فأي عبادك أفقر قال صاحب منقوص** » . قال : رسول اللّه ﷺ : « **ليس الغنى عن ظهر إنما الغنى غنى النفس وإذا أراد اللّه بعبد خيراً جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه . وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره بين عينيه** »[1] .

قال ابن حبان: قوله «صاحب منقوص » يريد به منقوص حالته يستقل ما أوتي ويطلب الفضل. وقد رواه ابن جرير في تاريخه عن ابن حميد عن يعقوب التميمي عن هارون بن هبيرة عن أبيه عن ابن عباس. قال: سأل موسى ربه عز وجل فذكر نحوه وفيه قال : أي رب فأي عبادك أعلم. قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يجد كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى. قال: أي رب فهل في الأرض أحد أعلم مني؟ قال: نعم الخضر. فسأل السبيل إلى لقيه فكان ما سنذكره بعد إن شاء اللّه وبه الثقة .

ذكر حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق. حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: « **إن موسى قال: أي رب عبدك المؤمن مقتر عليه في الدنيا. قال: ففتح له باب من الجنة فنظر إليها. قال: يا موسى هذا ما أعددت له. فقال موسى: يارب وعزتك وجلالك لو كان مقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بؤساً قط. قال ثم قال أي رب عبدك الكافر موسع عليه في الدنيا؟. قال: ففتح له باب إلى النار فيقول يا موسى هذا ما أعددت له. فقال: أي رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط** »[2]. تفرد به أحمد من هذا الوجه. وفي صحته نظر واللّه أعلم . وقال ابن حبان : ذكر سؤال كليم اللّه ربه جلّ وعلاً أن يعلمه شيئا يذكره به

---

(١) حسن : رواه ابن حبان (٦٢١٧- إحسان) .

(٢) ضعيف : رواه أحمد (٣ / ٨١) رقم (١١٧٠٦) وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف ، ودراج ضعيف في روايته عن أبي الهيثم .

حدثنا ابن سلمة حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجاً حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « **قال موسى: يارب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به قال : قل يا موسى : لا إله إلا اللّه . قال : يارب كل عبادك يقول : هذا. قال : قل : لا إله إلا اللّه . قال : إنما أريد شيئاً تخصني به. قال : يا موسى لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا اللّه في كفة مالت بهم لا إله إلا اللّه** » [1] .

ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « **أفضل الدعاء دعاء عرفة وأفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير** » وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية الكرسي : حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية. حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدسكي . حدثني أبي عن أبيه . حدثنا أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : « **أن بني إسرائيل قالوا لموسى : هل ينام ربك . قال : اتقوا اللّه فناداه ربه يا موسى سألوك هل ينام ربك؟ فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه . ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا. فقال : يا موسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك . قال : وأنزل اللّه على رسوله آية الكرسي** » .

وقال ابن جرير : حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة . قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال : « **وقع في نفس موسى عليه السلام . هل ينام اللّه عزّ وجلّ ؟ فأرسل اللّه إليه ملكا فأرقه ثلاثاً . ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما . قال : فجعل ينام ، وكادت يداه تلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان . قال : ضرب اللّه له مثلا أن لو كان ينام لم يستمسك السماء والأرض** » . وهذا حديث غريب رفعه . والأشبه أن يكون موقوفاً. وأن يكون أصله إسرائيليا .

وقال اللّه تعالى : ﴿ **وإذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ورَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ واذْكُرُوا مَا فِيه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّه عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الخَاسِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٦٣ ، ٦٤] . وقال تعالى : ﴿ **وإذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ واذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٧١] .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم فقالوا انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها فقال

---

(١) ضعيف : رواه النسائى فى " عمل اليوم والليلة " (٨٣٤ و١١٤١) والطبرانى فى " الدعاء " (١٤٨٠) وابن حبان (٦٢١٨-إحسان) والحاكم (٥١٨/١) والبيهقى فى "الأسماء والصفات" (ص١٠٢، ١٠٣) ودراج فى روايته عن ابن الهيثم ضعف .

بل اقبلوها بما فيها فراجعوه مراراً فأمر اللّه الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة أي غمامة على رؤوسهم . وقيل لهم : إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم فصارت سنة لليهود إلى اليوم يقولون : لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب. وقال سنيد بن داود عن حجاج بن محمد عن أبي بكر بن عبد اللّه : قال : فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز فليس على وجه الأرض يهودي صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه. قال اللّه تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ [البقرة:٦٤]. أي ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿ فَلَوْلا فَضْلُ اللّه عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ ﴾ بأن تدارككم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم ﴿ لَكُنتُم مِّنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦٤] .

قِصّة بقرة بني إسرائيل

قال اللّه تعالى: ﴿ وإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إنَّ اللّهَ يَأمُرُكُمْ أن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ باللّه أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وإنَّا إن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ ولا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا ومَا كَادُوا يَفْعَلُونَ. وإذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا واللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ المَوْتَى ويُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٦٧-٧٣] .

قال ابن عباس وعبيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسدي وغير واحد من السلف : كان رجل في بني إسرائيل كثير المال وكان شيخا كبيراً وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق ويقال على باب رجل منهم فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي اللّه فجاء ابن أخيه فشكي أمر عمه إلى رسول اللّه موسى ﷺ فقال موسى عليه السلام : أنشد اللّه رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به فلم يكن عند أحد منهم علم منه ، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز وجل فسأل ربه عز وجل في ذلك فأمره اللّه أن يأمرهم بذبح بقرة فقال : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ أي أعوذ باللّه أن أقول عنه غير ما أوحي إلي. وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتموني عنه أن أسأله فيه.

قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدي وأبو العالية وغير واحد : فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ولكنهم شَدَّدُوا فَشُدِّدَ عليهم ، وقد ورد فيه حديث مرفوع. وفي إسناده ضعف فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها فأجيبوا بما عز وجوده

عليهم وقد ذكرنا في تفسير ذلك كله في التفسير. والمقصود أهم أمروا بذبح بقرة عوان وهي الوسط بين النصف الفارض وهي الكبيرة والبكر وهي الصغيرة قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة. ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها أي مشرب بحمرة تسر الناظرين. وهذا اللون عزيز. ثم شددوا أيضاً : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه : « **لولا أن بني إسرائيل استثنوا لما أعطوا** » وفي صحته نظر والله أعلم ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ ولا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا ومَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهي المذللة بالحراثة وسقي الأرض بالساقية مسلمة وهي الصحيحة التي لا عيب فيها قاله أبو العالية وقتادة. وقوله : ﴿ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي ليس فيها لون يخالف لونها بل هي مسلمة من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ ويقال : إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه فطلبوها منه فأبى عليهم فأرغبوه في ثمنها حتى أعطوه فيما ذكره السدي بوزنها ذهبا . فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها منهم فأمرهم نبي الله موسى بذبحها ﴿ فَذَبَحُوهَا ومَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي وهم يترددون في أمرها. ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها. قيل : بلحم فخذها . وقيل : بالعظم الذي يلي الغضروف . وقيل: بالبضعة التي بين الكتفين فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو يشخب أوداجه فسأله نبي الله من قتلك ؟ قال : قتلني ابن أخي. ثم عاد ميتا كما كان قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ المَوْتَى ويُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له كذلك أمره في سائر الموتى إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعة واحدة كما قال: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] الآية .

قِصّة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى : ﴿ وإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً . فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَباً . فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً . قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ ومَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ واتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَباً . قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً . فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً . قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً . قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً . وكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً . قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً ولا أَعْصِي لَكَ أَمْراً . قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً . فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً . قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً . فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا

غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكراً . قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً . فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِداراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَستَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً . أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وكَانَ ورَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً . وأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وكُفراً . فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وأَقْرَبَ رُحماً . وأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وكَانَ تَحْتَهُ كَنــز لَّهُمَا وكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ويَستَخْرِجَا كَنــزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ومَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ [الكهف : ٦٠-٨٢] .

قال بعض أهل الكتاب : إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي . ويقال : إنه دمشقي وكانت أمه زوجة كعب الأحبار. والصحيح الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن ، ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل .

قال البخاري: حدثنا الحميدي. حدثنا سفيان. حدثنا عمرو بن دينار أخبرني سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. قال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « **إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم. فقال: أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يارب وكيف لي به ؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتا فجعله بمكتل. ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه، فسقط في البحر، واتخذ سبيله في البحر سربا. وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد** ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾ **ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به قال له فتاه:** ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ ومَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ واتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَباً ﴾ **قال : فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا فقال له موسى :** ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ **قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة. فإذا رجل مسجي بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر: وإني بأرضك السلام. قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل. قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً،** ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ **ياموسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال :** ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً ولا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ **قال له الخضر:** ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن

شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً . فَانطَلَقَا ﴾ يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول . فلما ركبا في السفينة لم يفاجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم. فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً . قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ » قال: وقال رسول الله ﷺ : « وكانت الأولى من موسى نسيانا ». قال: «وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة. فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً . قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً . فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ قال مائل فقام الخضر بيده ﴿فَأَقَامَهُ ﴾ فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ قال رسول الله ﷺ « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » .

قال سعيد بن جبير : فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين[١] .

ثم رواه البخاري أيضا عن قتيبة عن سفيان بن عيينة بإسناده نحوه. وفيه «فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنـــزلا عندها. قال: فوضع موسى رأسه فنام». قال سفيان : وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي فأصاب الحوت من ماء تلك العين. قال: فتحرك وانسل من المكتل ودخل البحر فلما استيقظ قال موسى: ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾ وساق الحديث. وقال: « ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر. فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره » [٢] وذكر تمام الحديث. وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى. حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم. قال: أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جبير يزيد أحدهما على صاحبه. وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير. قال : إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال : سلوني. فقلت : أي أبا عباس جعلني الله فداك بالكوفة رجل قاصّ. يقال له : نوف يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل أما عمرو، فقال لي: قال : قد كذب عدو الله وأما يعلى. فقال لي : قال ابن عباس :

---

(١) رواه البخارى (٤٧٢٥) .

(٢) رواه البخارى (٤٧٢٧) .

حدثني أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ :« **موسى رسول الله قال : ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فادركه رجل. فقال : أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك ؟ قال : لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله. قيل: بلى. قال : أي رب فأين ؟ قال : بمجمع البحرين. قال : أي رب اجعل لي علماً أعلم ذلك به** » [1] قال لي عمرو : قال : حيث يفارقك الحوت. وقال لي يعلى قال : خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح فأخذ حوتا فجعله في مكتل فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت. قال : ما كلفت كبيراً فذلك قوله : ﴿ **وإذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ** ﴾ يوشع بن نون. ليست عن سعيد بن جبير. قال : فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرّب الحوت وموسى نائم . فقال فتاه : لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره وتضرّب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حجر قال لي عمرو : وهكذا كان أثره في حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليان ﴿ **لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً** ﴾ قال : وقد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيد أخبره فرجعا فوجدا الخضر. قال لي عثمان بن أبي سليمان : على طنفسة خضراء على كبد البحر. قال سعيد : مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه فسلم عليه. موسى فكشف عن وجهه. وقال : هل بأرض من سلام ؟. من أنت ؟ قال : أنا موسى. قال : موسى بني إسرائيل. قال : نعم. قال : فما شأنك؟. قال : جئتك ﴿ **تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً** ﴾ قال : أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحي يأتيك يا موسى ؟ إن لي علما لا ينبغي لك أن تعلمه وإن لك علما لا ينبغي لي أن أعلمه فأخذ طائر بمنقاره من البحر. فقال : والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر ﴿ **حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ** ﴾ وجدا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل أهل هذا إلى الساحل الآخر عرفوه فقالوا : عبد الله الصالح: قال: فقلنا لسعيد خضر. قال : نعم. لا نحمله بأجر ﴿ **فَخَرَقَهَا** ﴾ ووتد فيها وتدا ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى ﴿ **أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً** ﴾ قال مجاهد منكرا. ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً** ﴾ كانت الأولي نسيانا والوسطي شرطاً والثالثة عمداً ﴿ **قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً . فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ** ﴾ قال يعلى: قال سعيد : وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ﴿ **قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بغير نفس**﴾ لم تعمل بالخبث. وكان ابن عباس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلاماً زكيا ﴿ **فَانطَلَقَا** ﴾ ﴿ **فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ** ﴾ قال سعيد : بيده هكذا ورفع يده فاستقام ، قال يعلى : حسبت أن سعيداً قال: فمسحه بيده فاستقام ﴿**قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً** ﴾ قال سعيد:أجرا نأكله ﴿**وكَانَ وَرَاءَهُم**﴾ وكان أمامهم قرأها ابن عباس أمامهم. ملك يزعمون عن غير سعيد أنه هدد بن بدد والغلام المقتول يزعمون جيسور ﴿ **مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً** ﴾ فإذا هي مرت به يدعها بعيبها

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٦) كتاب التفسير ، باب ﴿ **فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً** ﴾ .

فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها . ومنهم من يقول سدوها بقارورة ومنهم من يقول بالقار ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وكان كافراً ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وكُفْراً ﴾ أي يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه. ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً ﴾ لقوله أقتلت نفساً زكية ﴿ وأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر. وزعم سعيد بن جبير أنه ابن لا جارية وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية.

وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : خطب موسى بني إسرائيل. فقال : ما أحد أعلم بالله وبأمره مني فأمر أن يلقي هذا الرجل. فذكر نحو ما تقدم وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضا ورواه العوفي عنه موقوفا وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس: أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى. فقال ابن عباس: هو خضر فمر بهما أبي ابن كعب فدعاه ابن عباس. فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه فهل سمعت من رسول الله فيه شيئا ؟ قال : نعم. وذكر الحديث وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه في تفسير سورة الكهف ولله الحمد. وقوله: ﴿ وأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ ﴾ قال السهيلي: وهما أصرم وصريم ابنا كاشح. ﴿ وكَانَ تَحْتَهُ كَنـــزٌ لَّهُمَا ﴾ قيل: كان ذهبا قاله عكرمة. وقيل: علما قاله ابن عباس والأشبه أنه كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه علم.

قال البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري. حدثنا بشر بن المنذر. حدثنا الحرث بن عبد الله اليحصبي عن عياش بن عباس الغساني عن ابن حجيرة عن أبي ذر رفعه. قال : إن الكنـــز الذي ذكره الله في كتابه لوح من الذهب مصمت. عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب ؟! وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك ؟! وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل لا إله إلا الله ؟. وهكذا روي عن الحسن البصري وعمر مولى عفرة وجعفر الصادق نحو هذا . وقوله : ﴿ وكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾ وقد قيل: إنه كان الأب السابع وقيل: العاشر. وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته فالله المستعان. وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ دليل على أنه كان نبياً وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبي ، وقيل: رسول. وقيل: ولي. وأغرب من هذا من قال : كان ملكا. قلت : وقد أغرب جدا من قال : هو ابن فرعون. وقيل : إنه ابن ضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة.

قال ابن جرير : والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن أفريدون. ويقال: إنه كان على مقدمة ذي القرنين الذي قيل: إنه كان أفريدون. وذو الفرس هو الذي كان في زمن الخليل. وزعموا: أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن. وقيل: إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل. وقيل: اسمه ملكان. وقيل: أرميا بن خلقيا. وقيل: كان نبيا في زمن سباسب بن لهراسب. قال ابن جرير : وقد كان بين أفريدون. وبين سباسب دهور

طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب. قال ابن جرير : والصحيح: أنه كان في زمن أفريدون واستمر حيا إلى أن أدركه موسى عليه السلام. وكانت نبوة موسى في زمن منو شهر الذي هو من ولد أبرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس. وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده. وكان عادلا. وهو أول من خندق الخنادق. وأول من جعل في كل قرية دهقانا. وكانت مدة ملكه قريبا من مائة وخمسين سنة. ويقال: إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم. وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكلم البليغ الفصيح ما يبهر العقل، ويحير السامع وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل. والله أعلم. وقد قال الله تعالى : ﴿**وإذْ أخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**﴾ الآية [آل عمران: ٨١] .

فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره واستلزم ذلك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ﷺ لأنه خاتم الأنبياء وحق على كل نبى أدركه أن يؤمن به وينصره فلو كان الخضر حيا في زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة. وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيا. وهو الحق أو رسولا كما قيل: أو ملكا فيما ذكر. وأيا ما كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر ولو كان حيا لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته فكيف إن كان الخضر وليا كما يقوله طوائف كثيرون فأولى أن يدخل في عموم البعثة وأحرى ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوما واحدا إلى رسول الله ﷺ ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه وإن كان الحاكم قد رواه فإسناده ضعيف والله أعلم وسنفرد لخضر ترجمة على حدة بعد هذا .

حديث الفتون المتضمن

قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب التفسير من سننه عند قوله تعالى في سورة طه: ﴿ **وقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ وفَتَنَّاكَ فُتُوناً** ﴾ [طه : ٤٠] : حدثنا عبد الله بن محمد. حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا أصبغ بن زيد. حدثنا القاسم بن أبي أيوب أخبرني سعيد بن جبير. قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى: ﴿**وفَتَنَّاكَ فُتُوناً**﴾ فسأله عن الفتون ما هو ؟ فقال : استأنف النهار يابن جبير فإن لها حديثا طويلا فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون. فقال: تذكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكا. فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب فلما هلك. قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم فقال فرعون : فكيف ترون ؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم

الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون. قالوا : توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر فتقل بناتهم ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم ولن تفتنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا تقتل فيه الغلمان فولدته علانية آمنة. فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن وذلك من الفتون يابن جبير ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد فأوحى اللّه إليها أن ﴿ **ولا تَخَافِي ولا تَحْزَنِي إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [القصص : ٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليم فلما ولدت فعلت ذلك فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها : ما فعلت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلى من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه فانتهى الماء به حتى أوفى عند فرضة [(١)] تستقي منها جواري امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت. فقال بعضهم: إن هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئا حتى دفعنه إليها فلما فتحته رأت فيه غلاما فألقى الله عليه منها محبة لم تلق منها على أحد قط ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أمِّ مُوسَىَ فَارِغاً** ﴾. من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى. فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه وذلك من الفتون يابن جبير. فقالت لهم: أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه فإن وهبه مني كنتم قد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم ألمكم فأتت فرعون فقالت : ﴿ **قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي ولَكَ** ﴾ [القصص : ٩] فقال فرعون : يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه. فقال رسول اللّه ﷺ : « **والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه اللّه كما هداها ولكن حرمه ذلك** » فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن تختار له ظئرا [(٢)] فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً يأخذه منها. فلم يقبل وأصبحت أم موسى وإلها. فقالت لأخته : قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرا أَحَيٌّ ابني أم قد أكلته الدواب ؟. ونسيت ما كان اللّه وعدها فيه .

﴿ **فَبَصُرَت بِهِ** ﴾ أخته ﴿ **عَن جُنُبٍ وَهُم لاَ يَشعُرُونَ** ﴾ [القصص:١١] والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات أنا ﴿ **أَدُلُّكُم عَلَى أَهلِ بَيتٍ يَكفُلُونَهُ لَكُم وَهُم لَهُ نَاصِحُونَ** ﴾ [القصص:١٢] فأخذوها فقالوا : ما يدريك ما نصحهم ؟ هل يعرفونه؟. حتى شكوا في ذلك. وذلك من الفتون يابن جبير فقالت :

---

(١) فرضة : فوهة النهر .

(٢) الظئر : المرضعة له فى الناس .

نصحهم له وشفقتهم عليه ورغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك فأرسلوها. فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئرا فأرسلت إليها فأتت بها وبه. فلما رأت ما يصنع بها. قالت : امكثي ترضعي ابني هذا فإني لم أحب شيئا حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيراً فعلت فإني غير تاركة بيتي وولدي وذكرت أم موسى ما كان اللّه وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون. وأيقنت أن اللّه منجزٌ موعوده فرجعت إلى بيتها من يومها وأنبته اللّه نباتاً حسنا وحفظ لما قد قضى فيه فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أريني ابني فوعدتها يوما تريها إياه فيه. وقالت امرأة فرعون لخزانها وظئورها وقهارمتها : لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهدية وكرامة ، لأرى ذلك فيه وأنا باعثة أمينا يحصى كل ما يصنع كل إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون . فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به، وانحلت أمه لحسن أثرها عليه. ثم قالت : لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه .

فلما دخلت به عليه جعله فى حجره ، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه ؟. إنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك ! فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون يابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به وأريد به .

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون ، فقالت : ما بدا لك فى هذا الغلام الذى وهبته لى؟. فقال : ألا ترينه يزعم أنه يصرعنى ويعلونى ؟. فقالت : اجعل بينى وبينك أمرا تعرف فيه الحق ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه ! فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل . فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن تحرقا يده ، فقالت المرأة: ألا ترى ؟. فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به ، وكان الله بالغا فيه أمره .

فلما بلغ أشده وكان من الرجال ، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرة ، حتى امتنعوا كل الامتناع . فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة ، إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعونى والآخر إسرائيلى ، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى ، فغضب موسى غضبا شديداً ، لأنه تناوله وهو يعلم منــزلته من بنى إسرائيل ، وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاع إلا أم موسى ، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره . فوكز موسى الفرعونى فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله عزّ وجلّ والإسرائيلى ، فقال موسى حين قتل الرجل : ﴿هَــذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾

[القصص : ١٥] . ثم قال ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ . فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾[القصص:١٦-١٨] الأخبار .

فأتى فرعون فقيل له : إن بنى إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم ، فقال : ابغونى قاتله ومن يشهد عليه ، فإن الملك وإن كان صفوة من قومه، لا ينبغى له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت ، فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم .

فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة ، إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر ، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى ، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه وكره الذى رأى ، فغضب الإسرائيلى وهو يريد أن يبطش بالفرعونى ، فقال للإسرائيلى لما فعل بالأمس واليوم : ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٨] . فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعد ما قال له ما قال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى ، فخاف أن يكون بعد ما قاله له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده ، إنما أراد الفرعونى ، فخاف الإسرائيلى وقال : ﴿ يَمُوسَىَ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ [القصص : ١٩] وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا .

وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هينتهم ، يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة ، فاختصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره . وذلك من الفتون يابن جبير فخرج موسى متوجها نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عزّ وجلّ فإنه قال : ﴿ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [القصص : ٢٢ ، ٢٣] . يعني بذلك حابستين غنمهما فقال لهما : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ [القصص : ٢٣] . معتزلتين لا تسقيان مع الناس قالتا ليس لنا قوة تزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم فسقى لهما فجعل يغترف من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما وانصرف موسى فاستظل بشجرة ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلا بطانا. فقال: إن لكما اليوم لشأنا فأخبرتاه بما صنع موسى. فأمر إحداهما أن تدعوه فأتت موسى فدعته فلما كلمه ﴿ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٢٥] ليس لفرعون ولا قومه علينا من سلطان ولسنا فى مملكته ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وأمانته ؟. فقالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلا قط أقوى في ذلك السقي منه. وأما الأمانة فإنه نظر إلى حين أقبلت إليه وشخصت له فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك. ثم قال لي: امش خلفي وانعتي لي

الطريق فلم يفعل هذا إلا وهو أمين فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت فقال له : هل لك **﴿ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** [القصص:٢٧] ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة وكانت السنتان عدة منه فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرا. قال سعيد – هو ابن جبير –: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم. قال : هل تدري أي الأجلين قضى موسى. قلت : لا. وأنا يومئذ لا أدري فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له. فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة لم يكن نبي الله لينقص منها شيئا وتعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التي وعده فإنه قضي عشر سنين. فلقيت النصراني فأخبرته ذلك. فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت: أجل وأولى فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصي ويده ما قص الله عليك في القرآن فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام. وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فأتاه الله عزّ وجلّ سؤله وحل عقدة لسانه وأوحى الله إلى هارون فأمره أن يلقاه فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون. فانطلقا جميعا إلى فرعون فأقاما على بابه حينا لا يؤذن لهما. ثم أذن لهما بعد حجاب شديد. فقالا: إنا رسولا ربك. فقال: فمن ربكما ؟. فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن. قال : فما تريدان ؟. وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت. قال : أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل ؟. فأبى عليه. وقال : ائت بآية إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه، فإذا هي ثعبان عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها واقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل. ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص. ثم ردها فعادت إلى لونها الأول فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له : **﴿ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾** [طه:٦٣] يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش وأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب وقالوا له اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما .

فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم فلما أتوا فرعون قالوا بم يعمل السحر. قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله ما أحد من الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل وما أجرنا إن نحن غلبنا. قال: لهم أنتم أقاربي وخاصتي وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم فتواعدوا **﴿ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾** [طه:٥٩] قال سعيد : فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو: يوم عاشوراء فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبون يعنون موسى وهارون استهزاء بهما فقالوا: يا موسى بعد تريثهم بسحرهم **﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ . قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ**

واسْتَرْهَبُوهُمْ وجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٥ ، ١١٦] فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه **﴿ أن ألقِ عَصاكَ ﴾** [الأعراف : ١١٧] فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جُرزًا على الثعبان أن تدخل فيه حتى ما أبقت عصا ولا حبلا إلا ابتلعته فلما عرف السحرة ذلك قالوا : لو كان هذا سحرا لم تبلغ من سحرنا كل هذا . ولكنه أمر من الله تعالى آمنا بالله وبما جاء به موسى ونتوب إلى الله مما كنا عليه فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق **﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ ﴾** [الأعراف : ١١٨، ١١٩] .

وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه وإنما كان حزنها وهمها لموسى، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا مضت أخلف من غده. وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟. فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ويوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا كف ذلك عنه أخلف بوعده ونكث عهده حتى أمر موسى بالخروج بقومه. فخرج بهم ليلا فلما أصبح فرعون ورأي أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة فأوحي الله إلى البحر إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه. ثم التقي على من بقي بعد من فرعون وأشياعه فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصي وانتهي إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا لله عزّ وجلّ فلما تراءى الجمعان وتقاربا. قال أصحاب موسى: إنا لمدركون افعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب و لم تكذب. قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ثم ذكر بعد ذلك العصي فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه التقي عليهم البحر كما أمر فلما جاوز موسى البحر. قال أصحابه: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم **﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** [الأعراف : ١٣٨ ،١٣٩] قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضي فأنزلهم موسى منـــزلا . وقال : أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم فإني ذاهب إلى ربي وأجلهم ثلاثين يوما أن يرجع إليهم فيها فلما أتي ربه عزّ وجلّ وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوما. وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم فتناول موسى شيئا من نبات الأرض فمضغه. فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت وهو أعلم بالذي كان. قال : يارب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال : أو ما

علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أحب من ريح المسك ارجع فصم عشراً ثم ائتني. ففعل موسى ما أمره به ربه فلما رأي قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك وكان هارون قد خطبهم. فقال : إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع ولكم فيها مثل ذلك وأنا أري أن تحتسبوا مالكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية ولسنا برادين إليهم شيئا من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير. ثم أوقد عليه النار فأحرقه. فقال : لا يكون لنا ولا لهم. وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا فقضي له أن رأي أثرا. فقبض منه قبضة فمر بهارون. فقال له هارون: يا سامري ألا تلقي ما في يديك ؟. وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك. فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو اللّٰه إذا ألقيتها أن يكون ما أريد فألقاها ودعا له هارون فقال أريد أن تكون عجلا فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد فصار عجلا أجوف ليس فيه روح وله خوار.

قال ابن عباس : لا واللّٰه ما كان فيه صوت قط إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك فتفرق بنو إسرائيل فرقا. فقالت فرقة : يا سامري ما هذا؟. وأنت أعلم به. قال : هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق. وقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حتى رأيناه وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا عدم التكذيب به. فقال لهم هارون عليه السلام : يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن ليس هذا. قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا. هذه أربعون يوما قد مضت. وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويبتغيه فلما كلم اللّٰه موسى. وقال له ما قال أخبره بما لقي قومه من بعده فرجع إلى قومه غضبان أسفا. فقال لهم: ما سمعتم ما في القرآن ﴿ وأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إليه ﴾ وألقي الألواح من الغضب. ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له فانصرف إلى السامري. فقال له: ما حملك على ما صنعت ؟ قال ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ [طه :٩٦] وفطنت لها وعميت عليكم فقذفتها ﴿ وكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً ﴾ [طه: ٩٦ ، ٩٧] ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفر عنا ما عملنا فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك لا يألوا الخير خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في الحق فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبي اللّٰه عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل. فقال: لو شئت لأهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل

السفهاء منا وفيهم من كان اللّه اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمان به فلذلك رجفت بهم الأرض فقال : ﴿ ورَحْمَتِي وسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا للَّذينَ يَتَّقُونَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ والَّذينَ هُم بِآيَاتنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٦، ١٥٧] فقال : يا رب سألتك التوبة لقومي. فقلت : إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم. فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف لا يبالي من قتل في ذلك الموطن. وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون واطلع اللّه من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر اللّه للقاتل والمقتول. ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها ونتق اللّه عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم وأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم.

ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر وذكر من ثمارهم أمراً عجبا من عظمها فقالوا: ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَومَاً جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢] لا طاقة لنا بهم ولا ندخلها ماداموا فيها ﴿ فَإِن يَخرُجُواْ مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ [المائدة:٢٢] . ﴿ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ [المائدة:٢٣] قيل: ليزيد هكذا قرأه. قال : نعم من الجبارين آمنا بموسى وخرجنا إليه. فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. ويقول: أناس إنهم من قوم موسى. فقال الذين يخافون من بني إسرائيل ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وربُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] فأغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين و لم يدع عليهم قبل ذلك لما رأي منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب اللّه له وسماهم موسى كما سماهم فاسقين فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار.

ثم ظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم ثياباً لا تبلي ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية ثلاثة أعين وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها فلا يرتحلون من محله إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذي كان فيه بالأمس. رفع ابن عباس يحدث هذا الحديث إلى النبي ﷺ وصدق ذلك عندي: أن معاوية سمع ابن عباس هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشي على موسى أمر القتيل الذي قتل. فقال: كيف يفشي عليه و لم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟ فغضب ابن عباس فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري. فقال له : يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول اللّه ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون الإسرائيلي الذي أفشي عليه أم الفرعوني قال :إنما أفشي عليه الفرعوني

بما مع الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره [1] هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون والأشبه والله أعلم أنه موقوف. وكونه مرفوعا فيه نظر وغالبه متلقي من الإسرائيليات وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام وفي بعض ما فيه نظر ونكارة والأغلب أنه كلام كعب الأحبار. وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك والله أعلم .

ذكر بناء قبّة الزمان

قال أهل الكتاب : وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشار وجلود الأنعام وشعر الأغنام وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب ولها عشر سرادقات طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً وعرضه أربعة أذرع ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره وبعمل تابوت من خشب الشمشار يكون طوله ذراعين ونصفا وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعاً ونصفاً ويكون مضبباً بذهب خالص من داخله وخارجه وله أربع حلق في أربع زواياه ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب يعنون صفة ملكين بأجنحة وهما متقابلان صفة رجل اسمه بصليال وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشار طولها ذراعا وعرضها ذراع ونصف لها ضباب ذهب وإكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب وأربع حلق من نواحيها من ذهب معذرة في مثل الرمان من خشب ملبس ذهبا واعمل صحافاً ومصافي وقصاعاً على المائدة واصنع منارة من الذهب دلي فيها ست قصبات من ذهب من كل جانب ثلاثة. على كل قصبة ثلاث سرج وليكن في المنارة أربع قناديل ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب صنع ذلك بصليال أيضا وهو الذي عمل المذبح أيضا ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم وهو أول يوم من الربيع ونصب تابوت الشهادة وهو والله أعلم المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولا جدا وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم وكيفيته وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ويتقربون عندها وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها وينـــزل عمود الغمام على بابها فيخرون عند ذلك سجدا لله عزّ وجلّ ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه

---

(١) **منكر** : رواه النسائي في " التفسير " في " الكبرى " (٦/٣٩٦ - ٤٠٦) رقم (١١٣٢٦) والطبري في تفسيره (١٦/١٦٤-١٦٧) وانظر تعليق المصنف على الحديث.

ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبين فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهي وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء يجيء إلى قبة الزمان ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة وقد كان هذا مشروعاً لهم في زمانهم أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ في معبدهم وعند مصلاهم فأما ما في شريعتنا فلا، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسع في مسجد رسول الله ﷺ الذي وكله على عمارته ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس [1] . وقال ابن عباس لا نزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم [2] وهذا من باب التشريف والتكريم والتنـــزيه فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم إذ جمع الله همهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة فلله الحمد والمنة.

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه يصلون إليها وهي قبلتهم وكعبتهم وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام. فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمرت بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام وهو الذي دخل بيت المقدس كما سيأتي بيانه والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس فكانوا يصلون إليها فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي الصخرة فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة وكان يجعل الكعبة بين يديه. فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلي إليها ستة عشر. وقيل: سبعة عشر شهراً. ثم حولت القبلة إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر. وقيل: الظهر كما بسطنا ذلك في التفسير عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ إلي قوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٠-١٤٤] الآيات .

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ

---

(١) ذكره البخارى تعليقاً (٥٣٩/١ فتح) .

(٢) ذكره البخارى تعليقاً (٥٣٩/١ فتح) ووصله أبو داود (٤٤٨) وابن حبان (١٦١٥ - إحسان) .

يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ويْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً ولا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ومَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ . وأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ ويْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ويَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ويْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ . تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ ولا فَسَاداً والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:٧٦- ٨٣] .

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان قارون ابن عم موسى وكذا قال إبراهيم النخعي وعبد اللّه بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وزاد: فقال: هو قارون بن يصهر بن قاهث وموسى بن عمران بن هافث. قال ابن جريج : وهذا قول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى، ورد قول ابن إسحاق: أنه كان عم موسى. قال قتادة: وكان يسمي النور لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو اللّه نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله. وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبرا طولا ترفعا على قومه.

وقد ذكر اللّه تعالى كثرة كنوزه حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على الفئام [١] من الرجال الشداد وقد قيل: إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلا فاللّه أعلم. وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين لا تفرح أي لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ . وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾** يقولون لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب اللّه في الدار الآخرة فإنه خير وأبقي ومع هذا **﴿ ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾** أي وتناول منها بمالك ما أحل اللّه لك فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال **﴿وأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾** أي وأحسن إلى خلق اللّه كما أحسن اللّه خالقهم وبارئهم إليك **﴿ ولا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾** أي ولا تسيء إليهم ولا تفسد فيهم فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾** فما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن **﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾** يعني أنا لا أحتاج إلى استماع ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشرتم فإن اللّه إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه وأني أهل له ولولا أني حبيب إليه وحظي [٢] عنده لما أعطاني ما أعطاني، قال اللّه تعالى ردا عليه فيما ذهب إليه : **﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأَكْثَرُ جَمْعاً ولا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ ﴾** أي قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالا منه ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به كما قال تعالى: **﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾**

---

(١) الفئام : الجماعة من الناس .

(٢) حظى : بفتح الحاء وكسر الظاء وضم الياء مع التشديد .

[سبأ : ٣٧] وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥، ٥٦] .

وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال فليس بصحيح لأن الكيمياء تخييل وصنعة لا تحيل الحقائق ولا تشابه صنعة الخالق والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به . وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر. ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير ولا يبقى بين الكلامين تلازم وقد وضحنا هذا في كتابنا التفسير ولله الحمد .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ [القصص : ٧٩] ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء قالوا لهم : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [القصص : ٨٠] أي ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٠] أي وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده .

وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

قال الله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] . لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها قال : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ كما روي البخاري من حديث الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ قال : "بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة " [1].

ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه. وقد ذكر ابن عباس والسدي أن قارون أعطى امرأة بغياً مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في الملأ من الناس: إنك فعلت بي كذا وكذا. فيقال: إنها قالت له ذلك فأرعد من الفرق وصلى ركعتين. ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك. وما حملك عليه؟ فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه فعند ذلك خر موسى ساجداً ودعا الله على قارون فأوحى الله إليه أني قد أمرت الأرض أن تعطيك فيه فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك فالله أعلم وقد قيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته مر بجحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام وهو يذكر قومه بأيام الله فلما رآه الناس انصرفت

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٥) .

وجوه كثير من الناس ينظرون إليه فدعاه موسى عليه السلام فقال له ما حملك على هذا ؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة فلقد فضلت عليك بالمال ولئن شئت لتخرجن فلتدعون علي ولأدعون عليك فخرج وخرج قارون في قومه. فقال له موسى: تدعو أوأدعو أنا. قال: أدعو أنا فدعي قارون فلم يجب له في موسى. فقال موسى: أدعو. قال: نعم. فقال موسى: اللهم مر الأرض فلتطعني اليوم فأوحي الله إليه أني قد فعلت. فقال موسى: يا أرض خذيهم إلى أقدامهم. ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم. ثم إلى مناكبهم. ثم قال: اقبلي بكنوزهم وأموالهم فأقبلت بها حتى نظروا إليها. ثم أشار موسى بيده. فقال: اذهبوا بني لاوي فاستوت بهم الأرض. وقد روي عن قتادة أنه قال: يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة. وعن ابن عباس أنه قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة.

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا إسرائيليات كثيرة أضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً. وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص :٨١] لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال : ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ١٠] ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار وإهلاك النفس والأهل والعقار ندم من كان تمنى مثل ما أوتي وشكروا الله تعالى الذي يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ولهذا قالوا : ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٢] وقد تكلمنا على لفظ ويك في التفسير وقد قال قتادة : ويكأن بمعنى ألم تر أن وهذا قول حسن من حيث المعنى والله أعلم. ثم أخبر تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ ﴾ [القصص:٨٣] وهي دار القرار وهي الدار التي يغبط من أعطيها ويعزي من حرمها إنما هي معدة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر والفساد هو عمل المعاصي اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر لقوله فخسفنا به وبداره الأرض فإن الدار ظاهرة في البنيان وقد تكون بعد ذلك في التيه وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تضرب فيه الخيام كما قال عنترة :

يَا دارَ عبلةَ بالجَواءِ [1] تَكلَّمي وَعِمي صَبَاحــاً دارَ عبلةَ واسْلَمي

والله أعلم. وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن. قال الله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٣، ٢٤].

وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود، وقارون وفرعون وهامان : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ . فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ

(١) الجواء : واد في ديار عبس .

ولَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٣٩ ،٤٠] فالذي خسف به الأرض: قارون كما تقدم والذي أغرق: فرعون وهامان وجنودهما إنهم كانوا خاطئين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن. حدثنا سعيد . حدثنا كعب بن علقمة عن عيسى ابن هلال الصدفي عن عبد اللّه بن عمرو عن النبي ﷺ : أنه ذكر الصلاة يوما . فقال : «من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف » [1] . انفرد به أحمد رحمه اللّه .

باب فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته ووفاته

قال اللّه تعالى : ﴿واذْكُرْ فِي الكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وكَانَ رَسُولاً نَّبِياً . ونَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وقَرَّبْنَاهُ نَجِياً . ووَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِياً﴾ [مريم:٥١-٥٣]. وقال تعالى : ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وبِكَلامِي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ [الأعراف:١٤٤] . وتقدم في الصحيحين عن رسول اللّه ﷺ أنه قال «لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدري أصعق فأفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » [2]. وقد قدمنا أنه من رسول اللّه ﷺ من باب الهضم والتواضع وإلا فهو صلوات اللّه وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة قطعا جزما لا يحتمل النقيض. وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ ﴾ [النساء:١٦٣] إلى أن قال : ﴿ ورُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ورُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ [النساء:١٦٤] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وكَانَ عِندَ اللَّهِ وجِيهاً ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

قال الإمام أبو عبد اللّه البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم عن روح بن عبادة عن عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : «إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يري من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص أو أدرة وإما آفة وأن اللّه عزّ وجلّ أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر. ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق اللّه وبرأه الله مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فواللّه إن

---

(١) حسن : رواه أحمد (١٦٩/٢) والدارمي (٣٠١/٢) والطحاوي في " مشكل الآثار " (٢٢٩/٤) وابن حبان (١٤٦٧ - إحسان) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٣٤٠٨) ومسلم (١٦٠/٢٣٧٣) .

بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا قال فذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وكَانَ عِندَ اللَّهِ وجِيهاً** ﴾ [الأحزاب : ٦٩] » [١] .

وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد اللّٰه بن شقيق وهمام بن منبه عن أبي هريرة به وهو في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عنه به ورواه مسلم من حديث عبداللّٰه بن شقيق العقيلي عنه .

قال بعض السلف: كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند اللّٰه وطلب منه أن يكون معه وزيراً فأجابه اللّٰه إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً كما قال: ﴿**ووَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِياً**﴾ [مريم:٥٣] ثم قال البخاري : حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة حدثنا الأعمش سألت أبا وائل قال : سمعت عبد اللّٰه، قال: قسم رسول اللّٰه ﷺ قسما فقال رجل: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه اللّٰه فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه. ثم قال: «**يرحم اللّٰه موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» [٢]. وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن حجاج سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبي هاشم مولى لهمدان عن زيد بن أبي زائد عن عبد اللّٰه بن مسعود قال : قال رسول اللّٰه ﷺ لأصحابه: « **لا يبلغني أحد عن أحد شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر** ». قال: وأتي رسول اللّٰه ﷺ مال فقسمه قال: فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه. واللّٰه ما أراد محمد بقسمته وجه اللّٰه ولا الدار الآخرة ؟. فثبت حتى سمعت ما قالا. ثم أتيت رسول اللّٰه فقلت يا رسول اللّٰه : إنك قلت لنا لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا فاحمر وجه رسول اللّٰه ﷺ وشق عليه. ثم قال : « **دعنا منك فقد أوذي موسى أكثر من ذلك فصبر** » [٣] . وهكذا رواه أبو داود والترمذي من حديث إسرائيل عن الوليد ابن أبي هاشم به وفي رواية للترمذي ولأبي داود من طريق ابن عبد عن إسرائيل عن السدي عن الوليد به وقال الترمذي غريب من هذا الوجه. وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء أن رسول اللّٰه ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره. ورواه مسلم عن أنس.

وفي الصحيحين من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ : « **أنه مر ليلة أسري به بموسى في السماء السادسة. فقال له جبريل: هذا موسى فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فقال: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح فلما تجاوزت بكي. قيل له: ما يبكيك ؟ قال: أبكي لأن غلاما**

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٤٠٤) ومسلم (٣٣٩ / ٧٥) .

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٤٠٥) ومسلم (١٠٦٢/ ١٤١) .

(٣) **ضعيف**: رواه أحمد (٣٩٦/١) رقم (٣٧٥٩) وأبو داود (٤٨٦٠) والترمذى (٣٨٩٦) وفى سنده الوليد بن هشام الهمدانى وهو مستور كما فى " التقريب " (٣٣٦/٢) وقال أبو حاتم الرازي : ليس بالمشهور . وزيد بن زائدة مقبول كما فى " التقريب " (٢٧٤/١) .

بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي »[١] . وذكر إبراهيم في السماء السابعة. وهذا هو المحفوظ وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام اللّه فقد ذكر غير واحد من الحفاظ : أن الذي عليه الجادة أن موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة، وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم . واتفقت الروايات كلها على أن اللّه تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة فمر بموسى . قال : «**ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة وأن أمتك أضعف أسماعا وأبصارا وأفئدة فلم يزل يتردد بين موسى وبين اللّه عزّ وجلّ ويخفف عنه في كل مرة حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة. وقال اللّه تعالى: هي خمس وهي خمسون** » أي بالمضاعفة فجزي اللّه عنا محمدا ﷺ خيراً وجزي اللّه عنا موسى عليه السلام خيراً.

وقال البخاري: حدثنا مسدد. حدثنا حصين بن نمير عن حصين بن عبد الرحمن عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول اللّه ﷺ يوما فقال: «**عرضت على الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق. فقيل: هذا موسى في قومه** »[٢]. هكذا روي البخاري هذا الحديث ههنا مختصراً وقد رواه الإمام أحمد مطولا. فقال: حدثنا شريح. حدثنا هشام. حدثنا حصين بن عبد الرحمن. قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ قلت: أنا. ثم قلت: إني لم أكن في صلاة ولكن لدغت. قال: وكيف فعلت؟ قلت: استرقيت. قال: وما حملك على ذلك ؟ قال: قلت: حديث حدثناه الشعبي عن بريدة الأسلمي أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة. فقال سعيد يعني ابن جبير. قد أحسن من انتهي إلى ما سمع. ثم قال: حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ : قال: « **عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي معه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم. فقلت: هذه أمتي. فقيل: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم. ثم قيل: انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم. فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب** » .

نهض رسول الله ﷺ فدخل ، فخاض القوم فى ذلك ، فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟ ، فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ . وقال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا باللّه شيئا قط وذكروا أشياء فخرج إليهم رسول اللّه ﷺ . فقال: ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه ؟. فأخبروه بمقالتهم فقال: «**هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلي ربهم يتوكلون** » فقام عكاشة بن محيصن الأسدي. فقال: أنا منهم يا رسول اللّه. قال: « **أنت منهم** ». ثم قام آخر: فقال أنا منهم يا رسول اللّه. فقال: «**سبقك بها عكاشة** » [٣] .

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٢٠٧) ومسلم (٢٣٧٦/ ١٦٥) .

(٢) رواه البخارى (٣٤١٠) .

(٣) **متفق عليه** : رواه البخارى (٦٥٤١) ومسلم (٢٢٠/ ٣٧٤) .

وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً وهو في الصحاح والحسان وغيرها وسنوردها إن شاء اللّه تعالى في باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها.

وقد ذكر اللّه تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيراً وأثني عليه وأورد قصته في كتابه العزيز مراراً وكررها كثيراً مطولة ومبسوطة ومختصرة وأثنى عليه ثناء بليغا.

وكثيراً ما يقرنه اللّه ويذكره ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه كما قال في سورة البقرة : ﴿ ولَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عند اللّه مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَذينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ ورَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠١] .

وقال تعالى : ﴿ الـــم. اللَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وأَنزَلَ التَّوْرَاةَ والإنجِيلَ . مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وأَنزَلَ الفُرْقَانَ إنَّ الَذينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ واللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [آل عمران:١-٤].

وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ومَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَذي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيراً وعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ ولاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ . وهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَذي بَيْنَ يَدَيْهِ ولِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى ومَنْ حَوْلَهَا والَّذينَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١ ، ٩٢] فأثنى تعالى على التوراة ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيما.

وقال تعالى في آخرها ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَذي أَحْسَنَ وتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى ورَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأنعام:١٥٤].

وقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ إنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى ونُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَذينَ أَسْلَمُوا لِلَّذينَ هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا من كِتَابِ اللّه وكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ ولا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ومَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] إلي أن قال ﴿ولْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ومَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ. وأَنزَلْنَا إلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ ومُهَيْمِناً عليه ﴾ [٤٧،٤٨] الآية.

فجعل القرآن حاكما على سائر الكتب غيره وجعله مصدقا لها ومبينا ما وقع فيها من التحريف والتبديل فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء فهمهم وقصورهم في علومهم ورداءة قصودهم وخيانتهم لمعبودهم عليهم لعائن اللّه المتتابعة إلى يوم القيامة ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على اللّه وعلي رسوله ما لا يحد ولا يوصف وما لا يوجد مثله ولا يعرف. وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وهَارُونَ الفُرْقَانَ وضِيَاءً وذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ . الَذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ . وهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٨-٥٠] وقال اللّه تعالى في سورة القصص : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ

مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ . قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص:٤٨ ،٤٩] . فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام. وقالت الجن لقومهم: إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى. وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أول الوحي وتلا عليه **﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾** [العلق:١-٥] : قال : سبوح سبوح هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران .

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت شريعة عظيمة وأمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وألباء وملوك وأمراء وسادات وكبراء. لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير. ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله. وبه الثقة وعليه التكلان .

حجته عليه السلام إلى البيت العتيق وصفته

قال الإمام أحمد: حدثنا هشام. حدثنا داود بن أبي هند عن أبي العالية عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ : مر بوادي الأزرق فقال:« أي واد هذا ؟ » قالوا: وادي الأزرق. قال: « كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية [(١)] وله جؤار [(٢)] إلى الله عزّ وجلّ بالتلبية » حتى أتى على ثنية هرشاء. فقال : « أي ثنية هذه قالوا هذه ثنية هرشاء » قال : « كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خطام [(٣)] ناقته خلبة »[(٤)] . قال هشيم : يعني ليفاً وهو يلبي. أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به .

وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً أن موسى حج على ثور أحمر، وهذا غريب جداً.

صفة موسى عليه السلام

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن مجاهد. قال: كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال. فقال: إنه مكتوب بين عينيه ك ف ر . قال : ما يقولون. قال: يقولون: مكتوب بين عينيه (ك ف ر) . فقال ابن عباس: لم أسمعه قال ذلك ولكن قال : « أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم. وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي » [(٥)] قال هشيم الخلبة الليف .

---

(١) الثنية : المنعطف .

(٢) الجؤار : صاح ورفع صوته بالدعاء .

(٣) الخطام : الحبل الذى يقاد به البعير .

(٤) رواه مسلم (١٦٦ / ٢٦٨) وابن ماجه (٢٨٩١) .

(٥) صحيح : رواه أحمد (٢٧٦/١، ٢٧٧) رقم (٢٥٠١) .

ثم رواه الإمام أحمد عن أسود عن إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر وأما موسى فآدم جسيم سبط** » . قالوا : فإبراهيم قال: « **قال : انظروا إلى صاحبكم** »[1] .
وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس. حدثنا شيبان. قال: حدث قتادة عن أبي العالية. حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس. قال : قال نبي الله ﷺ : « **رأيت ليلة أسري بي موسى ابن عمران رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس** »[2]
وأخرجاه من حديث قتادة به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق. حدثنا معمر قال الزهري : وأخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **حين أسري به لقيت موسى** » فنعته فقال : « **رجل** » قال: حسبته. قال : مضطرب : « **رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة. ولقيت عيسى** » . فنعته رسول الله ﷺ . فقال : « **ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس** » يعني حماماً . قال : « **ورأيت إبراهيم، وأنا أشبه ولد به** »[3] الحديث. وقد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل .

ذكر وفاته عليه السّلام

قال البخاري في صحيحه: وفاة موسى عليه السلام .حدثنا يحيى بن موسى. حدثنا عبدالرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة. قال : أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عزّ وجلّ. فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت . قال : ارجع إليه . فقل له : يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال: أي رب. ثم ماذا ؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن. قال: فسأل الله عزّ وجلّ أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر. قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ : « **فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر** » [4]. قال: وأنبأنا معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

وقد روى مسلم الطريق الأول من: حديث عبد الرزاق به . ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة مرفوعا وسيأتي .

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن. حدثنا بن لهيعة. حدثنا أبو يونس يعني سليم بن جبير عن أبي هريرة. قال الإمام أحمد: لم يرفعه . قال: جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام. فقال: أجب ربك. فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها. فرجع الملك إلى الله. فقال: إنك بعثتني إلى

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٢٦٩٧)
(٢) رواه أحمد (٢١٩٧) والبخارى (٣٢٣٩) ومسلم (٤١٢) وقال الجوهرى : الشنوءة التعزز وهو التباعد من الأدناس ، ومنه أزد شنوءة رحم حى من اليمن ينسب إليهن شنئ .
(٣) رواه أحمد (٧٧٩٤) والبخارى (٣٣٩٤) ومسلم (٤١٧) .
(٤) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٤٠٧) ومسلم (٢٣٧٢ / ١٥٨) .

عبد لك لا يريد الموت. قال: وقد فقأ عيني. قال: فرد الله عينه. وقال: ارجع إلى عبدي. فقل له: الحياة تريد فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة. قال: ثم مه. قال: ثم الموت. قال: فالآن يا رب من قريب[١]. تفرد به أحمد وهو موقوف بهذا اللفظ. وقد رواه ابن حبان في صحيحه من طريق معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة. قال: معمر، وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله فذكره، ثم استشكله ابن حبان وأجاب عنه بما حاصله أن ملك الموت لما قال له: هذا لم يعرفه لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام كما جاء جبريل في صورة أعرابي وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولاً، وكذلك موسى لعله لم يعرفه لذلك ولطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذنه، وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن. ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه. قال له: أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه** » وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخاري ثم تأوله على أنه لمّا رفع يده ليلطمه. قال: له أجب ربك وهذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله أجب ربك بلطمه ولو استمر على الجواب الأول لتمشى له وكأنه لم يعرفه في تلك الصورة ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق إذ لم يتحقق في الساعة الراهنة أنه ملك كريم لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها في حياته من خروجه من التيه ودخولهم الأرض المقدسة وكان قد سبق في قدره الله أنه عليه السلام يموت في التيه بعد هارون أخيه كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة. وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين. ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت : رب أدنني إلى الأرض المقدسة رمية بحجر ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها وحث قومه عليها ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر ولهذا قال سيد البشر، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر : « **فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر** » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان. حدثنا حماد. حدثنا ثابت وسليمان التيمي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « **لما أسري بي مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر** » [٢] ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به .

---

(١) **ضعيف** : رواه أحمد (٣/٨٦٢٤) وفى سنده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٢) رواه مسلم (٦٨٧٤) كتاب الفضائل ، باب من فضائل موسى عليه السلام ، وأحمد (٣/١٢٠ و٢٤٨ و٢٤٩) والنسائى (٣/٦ ٢،٢١٥) فى قيام الليل ، باب ذكر صلاة نبى الله ﷺ .

وقال السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا : ثم إن اللّه تعالى أوحى إلى موسى أني متوفٍ هارون فائت به جبل كذا وكذا. فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا هم بشجرة لم ترً شجرة مثلها وإذا هم ببيت مبني وإذا هم بسرير عليه فرش وإذا فيه ريح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه. قال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير. قال له موسى: فنم. عليه قال: إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ. قال له : لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فنم. قال: يا موسى نم معي فإن جاء رب هذا البيت غضب علي وعليك جميعاً. فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد حسه. قال: يا موسى خدعتني فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا فإن موسى قتل هارون وحسده على حب بني إسرائيل له وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى وكان في موسى بعض الغلظة عليهم فلما بلغه ذلك قال لهم ويحكم كان أخي أفتروني أقتله. فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين. ثم دعا اللّه فنـــزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض. ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة فالتزم موسى وقال تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي اللّه فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص في يدي يوشع. فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل. وقالوا : قتلت نبي اللّه. فقال: لا واللّه ما قتلته ولكنه أستل مني. فلم يصدقوه وأرادوا قتله. قال: فإذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام فدعا اللّه فأتي كل رجل ممن كان يحرسه في المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى وإنا قد رفعناه إلينا فتركوه و لم يبق أحد ممن أبي أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات و لم يشهد الفتح. وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة واللّه أعلم .

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وهو زوج مريم أخت موسى وهارون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم وذكر وهب بن منبه أن موسى عليه السلام مر بملأ من الملائكة يحفـــرون قبرا فلم يُر أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج. فقال يا ملائكة اللّه لمن تحفرون هذا القبر. فقـــالوا لعبد من عباد اللّه كريم: فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدد فيه وتوجه إلى ربك وتنفس أسهل تنفس. ففعل ذلك فمات صلوات اللّه وسلامه عليه فصلت عليه الملائكـــة ودفنوه. وذكر أهل الكتاب وغيرهم: أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة. وقد قال الإمـــام أحمد : حدثنا أمية بن خالد ويونس قالا: حدثنا حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عـــن أبي هريرة عن النبي ﷺ. قال: يونس رفع هذا الحديث إلى النبي ﷺ. قال: « **كان ملك المـــوت يـــأتي الناس عيانا. قال: فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه فأتى ربه. فقال : يا رب عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامتـــه عليه لعتبت عليه** » . وقال يونس : « **لشققت عليه**» . « **قال له** :

اذهب إلى عبدي. فقل له فليضع يده على جلد أو مَسْك [١] **ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة فأتاه. فقال له فقال: ما بعد هذا. قال: الموت. قال: الآن. قال: فشمه شمة فقبض روحه »** [٢]. قال يونس: فرد الله عليه عينه وكان يأتي الناس خفية. وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به فرفعه أيضاً .

ذكر نبوة يوشع وقيامه بأعباء بني إسرائيل

بعد موسى وهارون عليهما السلام

هو يوشع بن نون بن أفرائيم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. وأهل الكتاب يقولون: يوشع ابن عم هود وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر كما تقدم من قوله :﴿وإذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ﴾ [الكهف :٦٢] وقدمنا ما ثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ من: أنه يوشع بن نون وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب فإن طائفة منهم وهم السامرة لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون لأنه مصرح به في التوراة ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم من ربهم فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما أحدث الله إليه من الأوامر والنواهي حتى قال له: يا كليم الله إني كنت لا أسألك عما يوحى الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت. ففي هذا نظر لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفاه الله عزّ وجلّ ولم يزل معززاً مكرماً مدللاً وجيهاً عند الله كما قدمنا في الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت. ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها. قال : ثم ماذا ؟. قال: الموت. قال: فالآن يا رب وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر وقد أجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه .

فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة أن الوحي لم يزل ينـــزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان .

وقد ذكروا في السفر الثالث أن الله أمر موسى، وهارون أن يعد بني إسرائيل على أسباطهم، وأن يجعلا على كل سبط من الاثني عشر أميراً وهو النقيب وما ذاك إلا ليتأهبوا

---

(١) مَسك : جلد .

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٥٣٢/٢) رقم (١٠٨٤٦) .

للقتال قتال الجبارين عند الخروج من التيه، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة. ولهذا قال بعضهم : إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت لأنه لم يعرفه في صورته تلك، ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجي وقوعه في زمانه ولم يكن في قدر اللّه أن يقع ذلك في زمانه بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام .

كما أن رسول اللّه ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك. ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع ثم حج في سنة عشر. ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه. ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ولا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ورَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ [التوبة : ٢٩] ولما جهز رسول اللّه جيش أسامة توفي عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيّم بالجرف فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه. ثم لما لَمَّ شعث جزيرة العرب وما كان دهى من أمر أهلها وعاد الحق إلى نصابه جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم ففتح اللّه لهم ومكّن لهم وبهم وملكهم نواصي أعدائهم كما سنورده عليك في موضعه إذا انتهينا إليه إن شاء اللّه بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده. وهكذا موسى عليه السلام كان اللّه قد أمره أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى :﴿ **ولَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً** ﴾[المائدة :١٢] .

وقال اللّه : ﴿ **إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وآمَنتُم بِرُسُلِي وعَزَّرْتُمُوهُمْ وأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ولأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ [المائدة: ١٢] يقول لهم: لئن قمتم بما أوجبت عليكم ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة لأجعلن ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول اللّه ﷺ في غزوة الحديبية: ﴿ **قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً** ﴾ [الفتح : ١٦].

وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿ **فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ [المائدة: ١٢] ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم وقد ذكرنا ذلك في التفسير مستقصى وللّه الحمد .

والمقصود أن اللّه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً وأن يجعل على كل سبط نقيبا منهم. السبط الأول: سبط روبيل لأنه بكر يعقوب وكان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم منهم وهو إليصور بن شديئورا. السبط الثاني: سبط شمعون وكانوا تسعة وخمسين ألفا وثلاثمائة. ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداي. السبط الثالث: سبط يهوذا وكانوا أربعة وسبعين

ألفاً وستمائة. ونقيبهم نحشون بن عميناداب . السبط الرابع: سبط إيساخر وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم نشائيل بن صوغر. السبط الخامس: سبط يوسف عليه السلام وكانوا أربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم يوشع بن نون. السبط السادس: سبط ميشا وكانوا أحدا وثلاثين ألفا ومائتين ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور . السبط السابع: سبط بنيامين وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم أبيدن بن جدعون . السبط الثامن: سبط حاد وكانوا خمسة وأربعة ألفاً وستمائة وخمسين رجلاً ونقيبهم إلياساف بن رعوئيل. السبط التاسع سبط أشير وكانوا واحداً وأربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن. السبط العاشر : سبط دان وكانوا اثنين وستين ألفاً وسبعمائة ونقيبهم أخيعرز بن عمشداي . السبط الحادي عشر : سبط نفتالي وكانوا ثلاثة وخمسين ألفاً وأربعمائة. ونقيبهم أخيرع بن عين السبط الثاني عشر سبط زبولون وكانوا سبعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم الباب بن حيلون .

هذا نص كتابهم الذي بأيديهم والله أعلم. وليس منهم بنو لاوي فأمر الله موسى أن لا يعدهم معهم لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا وهم سبط موسى وهارون عليهما السلام وكانوا اثنين وعشرين ألفاً من ابن شهر فما فوق ذلك. وهم في أنفسهم قبائل من كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحهم ونصبها وحملها وهم كلهم حولها ينــــزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي خمسمائة ألف واحد وسبعون ألفا وستمائة وستة وخمسون لكن قالوا فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ممن حمل السلاح ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلاً سوى بني لاوي .

وفي هذا نظر فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم لا تطابق الجملة التي ذكروها والله أعلم. فكان بنو لاوي الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون في وسط بني إسرائيل وهم القلب ورأس الميمنة بنو روبيل ورأس الميسرة بنوران وبنو نفتالي يكونون ساقه. وقرر موسى عليه السلام بأمر الله تعالى له الكهانة في بني هارون كما كانت لأبيهم من قبلهم وهم ناداب وهو بكرة وأبيهو وإلعازر ويثمر. والمقصود أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤] قاله الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس . وقاله قتادة وعكرمة ورواه السدي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف. ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التيه جميعاً .

وقد زعم ابن إسحاق: أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى وإنما كان يوشع على مقدمته وذكر في مروره إليها قصة بلعام بن باعوراء الذي قال تعالى فيه : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:١٧٥- ١٧٧] .

وقد ذكرنا قصته في التفسير وأنه كان فيما قاله ابن عباس وغيره: يعلم الاسم الأعظم وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه فامتنع عليهم ولما ألحوا عليه ركب حمارة له. ثم سار نحو معسكر بني إسرائيل فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها حتى قامت فسارت غير بعيد وربضت فضربها ضرباً أشد من الأول فقامت ثم ربضت فضربها فقالت له : يا بلعام أين تذهب أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم فلم ينـــزع عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسبان. ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ويدعو على قوم نفسه فلاموه على ذلك فاعتذر إليهم بأنه لا يجري على لسانه إلا هذا، واندلع لسانه حتى وقع على صدره. وقال لقومه: ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة. ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم لعلهم يقعون في الزنا فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم ففعلوا وزينوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر فمرت امرأة منهم اسمها كستى برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم. يقال: إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب فدخل بها قبته فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل فجعل يجوس [(١)] فيهم فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن ألعزار بن هارون أخذ حربته وكانت من حديد فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعاً فيها. ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته ورفعهما نحو السماء وجعل يقول: اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفاً. والمقلل يقول: عشرين ألفاً وكان فنحاص بكر أبيه ألعزار بن هارون فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة اللية والذراع واللحى ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسهم. وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية ولعله مراد ابن إسحاق ولكنه غير ما فهمه بعض الناقلين عنه وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا والله أعلم. ولعل هذه قصة أخرى كانت في خلال سيرهم في التيه فإن في هذا السياق ذكر حسبان وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس أو لعله كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون حين خرج بهم من التيه قاصداً بيت المقدس كما صرح به السدي. والله أعلم. وعلى كل تقدير فالذي عليه الجمهور: أن هارون توفي بالتيه قبل موسى أخيه بنحو سنتين. وبعده موسى في التيه أيضاً كما قدمنا وأنه سأل ربه أن يقربه إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك .

---

(١) يجوس : يتخلل .

فكأن الذي خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع بني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً وأكثرها أهلاً فحاصرها ستة أشهر. ثم إنهم أحاطوا بها يوما وضربوا بالقرون يعني الأبواق وكبروا تكبيرة رجل واحد فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم وقتلوا اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء وحاربوا ملوكا كثيرة، ويقال: إن يوشع ظهر على واحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام. وذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعة بعد العصر. فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان قال لها إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علي. فحبسها اللّٰه عليه حتى تمكن من فتح البلد وأمر القمر فوقف عند الطلوع وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر الأول وهو قصة الشمس المذكورة في الحديث الذي سأذكره. وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب ولا ينافي الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق ولا تكذب ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا فيها نظر والأشبه واللّٰه أعلم أن هذا كان في فتح بيت المقدس الذي هو المقصود الأعظم وفتح أريحا كان وسيلة إليه واللّٰه أعلم .

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر. حدثنا أبو بكر عن هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّٰه ﷺ :« **إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس** »[1]. انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري. وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسى وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا. وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام فيدل على ضعف الحديث الذي رويناه أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب صلاة العصر بعدما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته فسأل رسول اللّٰه أن يردها الله عليه حتى يصلي العصر فرجعت. وقد صححه علي بن صالح المصري ولكنه منكر ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان وهو مما تتوفر الدواعي على نقله وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها واللّٰه أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق. حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّٰه ﷺ : « **غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولّما يبنِ، ولا آخر قد بني بنياناً ولم يرفع سقفها ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها .**

قال : فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس: أنت مأمورة، وأنا مأمور اللهم احبسها علي شيئا فحبست عليه حتى فتح اللّٰه عليه. قال: فجمعوا ما غنموا فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه. فقال: فيكم غلول فليبايعني من كل قبيلة رجل فبايعوه فلصقت يد رجل بيده. فقال: فيكم الغلول ولتبايعني قبيلتك فبايعته قبيلته فلصق بيد رجلين أو ثلاثة. فقال : فيكم الغلول أنتم غللتم .

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٨٣٢٢) .

قال : فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب. قال : فوضعوه بالمال وهو بالصعيد فأقبلت النار فأكلته فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأن اللّه رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا »[١] . انفرد به مسلم من هذا الوجه . وقد روي البزار من طريق مبارك بن فضالة عن عبيد اللّه عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه. قال : ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبري. قال: ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجدا أي ركعا متواضعين شاكرين للّه عزّ وجلّ على ما منّ به عليهم من الفتح العظيم الذي كان اللّه وعدهم إياه وأن يقولوا حال دخولهم: ﴿**حطة**﴾ أي حط عنا خطايانا التي سلفت من نكولنا الذي تقدم منا. ولهذا لما دخل رسول اللّه ﷺ مكة يوم فتحها دخلها وهو راكب ناقته وهو متواضع حامد شاكر حتى إن عثنونه وهو طرف لحيته ليمس مورك رحله مما يطأطئ رأسه خضعاناً للّه عزّ وجلّ ومعه الجنود والجيوش ممن لا يري منه إلا الحدق ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول اللّه ﷺ، ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثماني ركعات وهي صلاة الشكر على النصر على المنصور من قولي العلماء. وقيل: إنها صلاة الضحى وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى. وأما إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولًا وفعلاً فدخلوا الباب يزحفون على استاههم وهم يقولون: حبة في شعرة وفي رواية حنطة في شعرة. وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزؤوا به كما قال تعالى حاكيا عنهم في سورة الأعراف وهي مكية :﴿ **وإذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِه القَرْيَةَ وكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وقُولُوا حِطَّةٌ وادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ . فَبَدَّلَ الَذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ**﴾ [الأعراف: ١٦١ ،١٦٢] .

وقال في سورة البقرة وهي مَدَنِيَّة مخاطباً لهم:﴿**وإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِه القَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾[البقرة:٥٨ ،٥٩]. وقال الثوري عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿**وادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً**﴾ قال ركعاً من باب صغير. رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم . وكذا روي العوفي عن ابن عباس وكذا روي الثوري عن ابن إسحاق عن البراء. قال مجاهد والسدي والضحاك: والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس. قال ابن مسعود فدخلوا مقنعي رؤوسهم ضد ما أمروا به وهذا لا ينافي قول ابن عباس: أنهم دخلوا يزحفون على استاههم. وهكذا في الحديث الذي سنورده بعد فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رؤوسهم . وقوله : ﴿**وقولوا حطة** ﴾ الواو هنا حالية لا عاطفة أي ادخلوا سجدا في حال قولكم حطة . قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع: أمروا أن يستغفروا.

---

(١) رواه مسلم (١٧٤٧ / ٣٢) .

قال البخاري: حدثنا محمد. حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا: حطة فدخلوا يزحفون على استاههم فبدلوا وقالوا: حطة حبة في شعرة** » [1] . وكذا رواه النسائي من حديث ابن المبارك ببعضه ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن ابن مهدي به موقوفاً .

وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن همام بن منبه: أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ :«**قال الله لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾**[البقرة:٥٨] **فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على استاههم. فقالوا: حبة في شعرة** » [1] . ورواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عبد الرزاق وقال الترمذي: حسن صحيح .

وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « **دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً يزحفون على استاههم وهم يقولون: حنطة في شعرة** » . وقال أسباط عن السدي عن مرة عن ابن مسعود: قال في قوله : ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ**﴾ [البقرة : ٥٩] قال: قالوا : « **هطى سقانا أزمة مزيا** » **فهي في العربية** « **حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء** ». وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم وهو الطاعون كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن عامر بن سعد ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم أبي النضر عن عامر بن سعد عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن هذا الوجع – أو – السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم** » [2].

وروى النسائي وابن أبي حاتم وهذا لفظه من حديث الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله ﷺ : « **الطاعون رجز عذب به من كان قبلكم** » [3] وقال الضحاك عن ابن عباس : الرجز العذاب. وكذا قال مجاهد وأبو مالك والسدي والحسن وقتادة وقال أبو العالية: هو الغضب. وقال الشعبي: الرجز إما الطاعون وإما البرد. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون. ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة فكان مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة.

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٤٤٧٩) كتاب التفسير ، باب ﴿ **وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم رغداً** ﴾ ، ومسلم (٧٣٧٠) كتاب التفسير .

(٢) **متفق عليه** : رواه البخارى (٥٧٢٨) ومسلم (٥٦٧٠) .

(٣) **صحيح** : رواه النسائى فى " الكبرى " (٤/٣٦٣) رقم (٥٧٢٥) .

ذكر قصتي الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخضر فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللدني وقص اللّه من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف. وذكرنا في تفسير ذلك هنالك وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر عليه السلام وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام الذي أنزلت عليه التوراة .

وقد اختلف في الخضر في اسمه ونسبه ونبوته وحياته إلى الآن على أقوال سأذكرها لك ههنا إن شاء اللّه وبحوله وقوته. قال الحافظ ابن عساكر : يقال: إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه. ثم روى من طريق الدارقطني. حدثنا محمد بن الفتح القلانسي. حدثنا العباس بن عبد اللّه الرومي، حدثنا رواد بن الجراح. حدثنا مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس. قال: الخضر ابن آدم لصلبه ونسئ له في أجله حتى يكذب الدجال وهذا منقطع وغريب. وقال أبوحاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني: سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره. قالوا: إن أطول بني آدم عمراً الخضر واسمه خضرون بن قابيل بن آدم. قال: وذكر ابن إسحاق أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة وأن يدفنوه معهم في مكان عيّنه لهم. فلما كان الطوفان حملوه معهم فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى. فقالوا: إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة فحرضهم وحثهم على ذلك. وقال إن آدم دعا لمن يلي دفنه بطول العمر فهابوا المسير إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه وأنجز اللّه ما وعده فهو يحيى إلى ما شاء اللّه له أن يحيى.

وذكر ابن قتيبة في المعارف عن وهب بن منبه أن اسم الخضر بليا. ويقال: إيليا بن ملكان ابن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. وقال إسماعيل بن أبي أويس: اسم الخضر فيما بلغنا واللّه أعلم المعمر بن مالك بن عبد اللّه بن نصر بن الأزد. وقال غيره: هو خضرون بن عمياييل بن أليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال: هو أرميا بن حلقيا فاللّه أعلم. وقيل: إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر وهذا غريب جداً. قال ابن الجوزي: رواه محمد بن أيوب عن ابن لهيعة وهما ضعيفان. وقيل: إنه ابن مالك. وهو أخو إلياس قاله السدي كما سيأتي. وقيل: إنه كان على مقدمة ذي القرنين. وقيل: كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه وقيل: كان نبياً في زمن بشتاسب بن لهراسب .

قال ابن جرير والصحيح: أنه كان متقدماً في زمن أفريدون بن أثفيان حتى أدركه موسى عليه السلام.وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال: الخضر أمه رومية وأبوه فارسي.

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضاً. قال أبو زرعة في دلائل النبوة: حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي. حدثنا الوليد. حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة

عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول اللّه ﷺ أنه ليلة أسري به وجد رائحة طيبة. فقال : « **يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟** » قال : هذه ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها. وقال: وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل وكان ممره براهب في صومعته فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام فلما بلغ الخضر زوّجه أبوه امرأة فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً وكان لا يقرب النساء. ثم طلقها. ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً. ثم طلقها فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى فانطلق هارباً حتى أتى جزيرة في البحر فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر قال قد رأيت العزقيل ومن رآه معك. قال: فلان. فسئل فكتم وكان من دينهم أنه من كذب قتل فقتل وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة. قال : فبينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها. فقالت: تعس فرعون فأخبرت أباها وكان للمرأة ابنان وزوج فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما. فأبيا. فقال : إني قاتلكما فقالا : إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد فجعلهما في قبر واحد. فقال: وما وجدت ريح أطيب منهما. وقد دخلت الجنة وقد تقدمت قصه مائلة بنت فرعون وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجاً من كلام أبي بن كعب أو عبد اللّه بن عباس واللّه أعلم. وقال بعضهم: كنيته أبو العباس والأشبه واللّه أعلم أن الخضر لقب غلب عليه .

قال البخاري رحمه اللّه: حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني. حدثنا ابن المبارك عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء** »[1]. تفرد به البخاري وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر به. ثم قال عبد الرزاق: الفروة الحشيش الأبيض وما أشبهه يعني الهشيم اليابس. وقال الخطابي. وقال أبو عمر: الفروة الأرض البيضاء التي لا نبات فيها. وقال غيره: هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة ومنه. قيل: فروة الرأس وهي جلدته بما عليها من الشعر كما قال الراعي :

وَلقدْ تَرى الْحَبَشيَّ حَوْلَ بيوُتنَــا ... جَذلاً إذا مَا نَــالَ يَوْمــاً مَأْكَــلاً
جعداً أَصَــكَّ كَــأَنَّ فَرْوَةَ رَأْسه ... بُذرَتْ فَــأَنْبَتَ جَــانِبَــاهُ فُلْفُــلاً

قال الخطابي: إنما سمي الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه. قلت: هذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح فإن كان ولابد من التعليل بإحداهما فما ثبت في الصحيح أولى وأقوى بل لا يلتفت إلى ما عداه وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضاً من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الأيلي: حدثنا عثمان وأبو جزي وهمام بن يحيى عن قتادة عن عبد اللّه بن الحارث بن نوفل عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: « **إنما سمي الخضر خضراً لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء** ». وهذا غريب من هذا الوجه. وقال قبيصة عن الثوري عن منصور عن مجاهد: قال: إنما سمي

(١) رواه البخاري (٣٤٠٢) كتاب أحاديث الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام .

الخضر لأنه كان إذا صلى أخضر ما حوله. وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر وهو مسجي بثوب قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه فسلم موسى عليه السلام فكشف عن وجهه فرد. وقال: إني بأرضك السلام من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: نبي بني إسرائيل. قال: نعم. فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه عنهما .

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه. أحدها : قوله تعالى : ﴿ **فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا عِلْماً** ﴾[الكهف : ٦٥] الثاني : قول موسى له : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً . قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً . وكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً . قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً ولا أَعْصِي لَكَ أَمْراً . قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً** ﴾ [الكهف:٦٦ ،٧٠] فلو كان ولياً وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة ولم يرد على موسى هذا الرد بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه فلو كان غير نبي لم يكن معصوماً ولم تكن لموسى وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمة ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عليه ولو أنه يمضي حقبا من الزمان. قيل: ثمانين سنة ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه واتبعه في صورة مستفيد منه دل على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم نبي بني إسرائيل الكريم وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرماني على نبوة الخضر عليه السلام. الثالث : أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام. وهذا دليل مستقل على نبوته. وبرهان ظاهر على عصمته لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقي في خلده؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق ولما أقدم الخضر على قتل الغلام الذي لم يبلغ الحلم علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه عن الكفر لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته. وقد رأيت الشيخ أبا الفرج بن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه . وحكى الاحتجاج عليه الرماني أيضاً.

الرابع : أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلي قال : بعد ذلك كله ﴿ **رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ومَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي** ﴾ [الكهف: ٨٢] يعني ما فعلته من تلقاء نفسي بل أمر أمرت به وأوحي إلي فيه فدلت هذه الوجوه على نبوته. ولا ينافي ذلك حصول ولايته بل ولا رسالته كما قاله آخرون. وأما كونه ملكاً من الملائكة فغريب جداً. وإذا ثبتت نبوته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته، وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون إليه ولا معتمد يعتمدون عليه .

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا فالجمهور على: أنه باق إلى اليوم. قيل: لأنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة. وقيل: لأنه شرب من عين الحياة فحيي .

وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن وسنوردها إن شاء اللّٰه تعالى وبه الثقة وهذه وصيته لموسى حين ﴿ **قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً** ﴾ [الكهف : ٧٨] روي في ذلك آثار منقطعة كثيرة. قال البيهقي: أنبأنا أبو سعيد ابن أبي عمرو. حدثنا أبو عبد اللّٰه الصفار. حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا. حدثنا إسحاق بن إسماعيل. حدثنا جرير. حدثني أبو عبد اللّٰه الملطي. قال: لما أراد موسى أن يفارق الخضر. قال له موسى : أوصني . قال : كن نفاعا ولا تكن ضرارا. كن بشاشا ولا تكن غضبان. ارجع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة. وفي رواية من طريق أخرى زيادة. ولا تضحك إلا من عجب ، وقال وهب بن منبه. قال الخضر: يا موسى إن الناس معذبون في الدنيا على قدر همومهم بها. وقال بشر بن الحارث الحافي. قال موسى للخضر: أوصني. فقال: يسر اللّٰه عليك طاعته .

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر من طريق زكرياء بن يحيى الوقاد إلا أنه من الكذابين الكبار. قال: قرئ على عبد اللّٰه بن وهب وأنا أسمع. قال الثوري: قال مجالد: قال أبو الوداك: قال أبو سعيد الخدري: قال عمر بن الخطاب: قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « قال أخي موسى يا رب وذكر كلمته فأتاه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب مشمرها. فقال: السلام عليك ورحمة اللّٰه يا موسى بن عمران إن ربك يقرأ عليك السلام. قال موسى: هو السلام وإليه السلام والحمد للّٰه رب العالمين الذي لا أحصي نعمه ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته. ثم قال موسى: أريد أن توصيني بوصية ينفعني بها بعدك. فقال الخضر : يا طالب العلم إن القائل أقل ملامة من المستمع فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم. واعلم أن قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك، واعزف من الدنيا وانبذها وراءك. فإنها ليست لك بدار ولا لك فيها محل قرار. وإنما جعلت بلغة للعباد والتزود منها ليوم المعاد. ورض نفسك على الصبر تخلص من الإثم. يا موسى تفرغ للعلم إن كنت تريده فإنما العلم لمن تفرغ له. ولا تكن مكثارا للعلم مهذارا فإن كثرة المنطق ستشين العلماء وتبدي مساوئ السخفاء. ولكن عليك بالاقتصاد فإن ذلك من التوفيق والسداد. وأعرض عن الجهال وماطلهم. واحلم عن السفهاء فإن ذلك فعل الحكماء. وزين العلماء إذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلما، وجانبه حزما. فإن ما بقي من جهله عليك وسبه إياك أكثر وأعظم. يا ابن عمران ولا ترى أنك أوتيت من العلم إلا قليلا. فإن الاندلاث والتعسف من الاقتحام والتكلف. يا ابن عمران لا تفتحن بابا لا تدري ما غلقه ولا تغلقن بابا لا تدري ما فتحه. يا ابن عمران من لا تنتهي من الدنيا نهمته ولا تنقضي منها رغبته ومن يحقر حاله ويتهم اللّٰه فيما قضي له كيف يكون زاهدا. هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه؟ أو ينفعه طلب العلم والجهل قد حواه؟ لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه؟ يا موسى تعلم ما تعلمت لتعمل به ولا تعلمه لتحدث به فيكون عليك بواره ولغيرك نوره. يا موسى بن عمران اجعل الزهد والتقوى لباسك والعلم والذكر

كلامك واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يرضي ربك واعمل خيراً فإنك لابد عامل سوء قد وعظت إن حفظت» . قال: فتولى الخضر وبقي موسى محزوناً مكروباً يبكي. لا يصح هذا الحديث وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقاد المصري كذبه غير واحد من الأئمة والعجب أن الحافظ بن عساكر سكت عنه.

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني. حدثنا عمرو ابن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصي. حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندي. حدثنا بقية بن الوليد عن محمد بن زياد عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « الا أحدثكم عن الخضر؟ » قالوا : بلي يا رسول الله. قال : « بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجل مكاتب فقال تصدق علي بارك الله فيك فقال الخضر آمنت بالله ما شاء الله من أمر يكون ما عندي من شيء أعطيكه. فقال المسكين: أسألك بوجه الله لما تصدقت علي فإني نظرت إلى السماء في وجهك ورجوت البركة عندك. فقال الخضر: آمنت بالله ما عندي من شيء أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعني. فقال المسكين: وهل يستقيم هذا؟. قال: نعم الحق أقول لك لقد سألتني بأمر عظيم أما إني لا أخيبك بوجه ربي بعني. قال: فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء. فقال له: إنك ابتعتني التماس خير عندي فأوصي بعمل. قال: أكره أن أشق عليك إنك شيخ كبير ضعيف. قال: ليس يشق علي. قال: فانقل هذه الحجارة وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة. فقال: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه. ثم عرض للرجل سفر. فقال: إني أحسبك أمينا فاخلفني في أهلي خلافة حسنة. قال: فأوصني بعمل. قال: إني أكره أن أشق عليك. قال: ليس تشق علي. قال: فاضرب من اللبن لبيتي حتى أقدم فمضي الرجل لسفره وقد شيد بناؤه. فقال: أسألك بوجه الله ما سبيلك وما أمرك؟ فقال: سألتني بوجه الله والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية سأخبرك من أنا؟ أنا الخضر الذي سمعت به سألني مسكين صدقة فلم يكن عندي من شيء أعطيه فسألني بوجه الله فأمكنته من رقبتي فباعني وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة جلده لا لحم له ولا عظم يتقعقع. فقال الرجل: آمنت بالله شققت عليك يا نبي الله ولم أعلم. فقال: لا بأس أحسنت وأبقيت. فقال الرجل: بأبي وأمي يا نبي الله أحكم في أهلي ومالي بما أراك الله أو أخيرك فأخلي سبيلك. فقال: أحب أن تخلي سبيلي فاعبد ربي فخلى سبيله. فقال: الخضر الحمد لله الذي أوقعني في العبودية ثم نجاني منها » . وهذا حديث رفعه خطأ والأشبه أن يكون موقوفاً وفي رجاله من لا يعرف فالله أعلم .

وقد رواه ابن الجوزي في كتابه: « عجالة المنتظر في شرح حال الخضر » من طريق عبدالوهاب بن الضحاك وهو متروك عن بقية. وقد روى الحافظ بن عساكر بإسناده إلى السدي أن الخضر وإلياس كانا أخوين وكان أبوهما ملكاً. فقال إلياس لأبيه: إن أخي الخضر لا رغبة له في الملك فلو أنك زوجته لعله يجيء منه ولد يكون الملك له فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر، فقال لها الخضر: إنه لا حاجة لي في النساء فإن شئت أطلقت سراحك وإن شئت أقمت معي

تعبدين اللّٰه عزّ وجلّ وتكتمين على سري. فقالت: نعم، وأقامت معه سنة. فلما مضت السنة دعاها الملك. فقال: إنك شابة وابني شاب فأين الولد؟ فقالت: إنما الولد من عند اللّٰه إنْ شاء كان وإن لم يشأ لم يكن فأمره أبوه فطلقها وزوجه بأخرى ثيبا قد ولد لها فلما زفت إليه. قال لها: كما قال للتي قبلها فأجابت إلى الإقامة عنده. فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد. فقالت: إن ابنك لا حاجة له بالنساء فتطلبه أبوه فهرب فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه. فيقال: إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره فهرب من أجل ذلك وأطلق سراح الأخرى فأقامت تعبد اللّٰه في بعض نواحي تلك المدينة فمر بها رجل يوماً فسمعته يقول: بسم اللّٰه. فقالت له: أني لك هذا الاسم؟. فقال: إني من أصحاب الخضر فتزوجته فولدت له أولاداً. ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون فبينما هي يوماً تمشطها إذ وقع المشط من يدها، فقالت: بسم اللّٰه. فقالت ابنة فرعون: أبي. فقالت: لا ربي، وربك، ورب أبيك اللّٰه فأعلمت أباها فأمر بنقرة من نحاس فأحميت. ثم أمر بها. فألقيت فيه فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها. فقال لها ابن معها صغير: يا أمه اصبري فإنك على الحق فألقت نفسها في النار فماتت رحمها اللّٰه. وقد روي ابن عساكر عن أبي داود الأعمى نفيع، وهو كذاب وضاع عن أنس بن مالك ومن طريق كثير بن عبد اللّٰه بن عمرو بن عوف وهو كذاب أيضاً عن أبيه عن جده أن الخضر جاء ليلة فسمع النبي ﷺ وهو يدعو ويقول: « **اللهم أعني على ما ينجيني مما خوفتني وارزقني شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه** » فبعث إليه رسول اللّٰه أنس بن مالك فسلم عليه فرد عليه السلام. وقال: قل له: إن اللّٰه فضلك على الأنبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور، وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على غيره الحديث وهو مكذوب لا يصح سنداً ولا متناً كيف لا يتمثل بين يدي رسول اللّٰه ﷺ ويجيء بنفسه مسلماً ومتعلماً .

وهم يذكرون في حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم أن الخضر يأتي إليهم ويسلم عليهم ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالهم وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليم اللّٰه الذي اصطفاه اللّٰه في ذلك الزمان على من سواه حتى يتعرف إليه بأنه موسى بني إسرائيل. وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادي بعد إيـــــراده حديث أنس هذا وأهل الحديث متفقون على أنه حديث منكر الإسناد سقيم المتن يتبين فيه أثر الصنعة .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي قائلاً أنبأنا أبو عبد اللّٰه الحافظ أخبرنا أبو بكر بن بالويه حدثنا محمد بن بشر بن مطر حدثنا كامل بن طلحة حدثنا عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك قال: لما قبض رسول اللّٰه ﷺ أحدق به أصحابه فبكوا حوله واجتمعوا فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى. ثم التفت إلى أصحاب رسول اللّٰه ﷺ فقال: إن في اللّٰه عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فإلي اللّٰه فأنيبوا وإليه فارغبوا وانظر إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبر وانصرف فقال بعضهم لبعض: تعرفون الرجل؟ فقال أبو بكر وعلي: نعم هو أخو رسول اللّٰه ﷺ الخضر عليه

السلام. وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كامل ابن طلحة به وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي. ثم قال البيهقي عباد بن عبد الصمد ضعيف: وهذا منكر بمرة . قلت عباد بن عبد الصمد هذا هو ابن معمر البصري. روى عن أنس نسخة قال ابن حبان والعقيلي: أكثرها موضوع .

وقال البخاري: منكر الحديث. وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث جداً منكره. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه في فضائل علي وهو ضعيف غال في التشيع .

وقال الشافعي في مسنده: أخبرنا القاسم بن عبد اللّٰه بن عمر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين قال: لما توفي رسول اللّٰه ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول: إن في اللّٰه عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت فباللّٰه فثقوا وإياه فارجعوا فإن المصاب من حرم الثواب . قال علي بن الحسين أتدرون من هذا؟. هذا الخضر. شيخ الشافعي القاسم العمري متروك . قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يكذب. زاد أحمد ويضع الحديث ثم هو مرسل ومثله لا يعتمد عليه ههنا واللّٰه أعلم .

وقد روي من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن أبيه عن علي، ولا يصح.

وقد روى عبد اللّٰه بن وهب عمن: حدثه عن محمد بن عجلان عن محمد بن المنكدر: أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفا وهو يقول: لا تسبقنا يرحمك اللّٰه فانتظره حتى لحق بالصف فذكر دعاءه للميت إن تعذبه فكثيرا عصاك وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك. ولما دفن. قال: طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفاً أو جابيا أو خازنا أو كاتبا أو شرطيا. فقال عمر: خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو؟. قال: فتوارى عنهم فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع. فقال عمر: هذا واللّٰه الخضر الذي حدثنا عنه رسول اللّٰه ﷺ. وهذا الأثر فيه مبهم وفيه انقطاع ولا يصح مثله.

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثوري عن عبد اللّٰه بن محرز عن يزيد بن الأصم عن علي ابن أبي طالب. قال: دخلت الطواف في بعض الليل فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يمنعه سمع من سمع، ويا من لا تغلطه المسائل، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحين، ولا مسألة السائلين ارزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك. قال: فقلت: أعد علي ما قلت لي أو سمعته. قلت: نعم. فقال لي: والذي نفس الخضر بيده. قال: وكان هو الخضر لا يقولها عبد خلف صلاة مكتوبة إلا غفر اللّٰه له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم لغفرها اللّٰه له. وهذا ضعيف من جهة عبد اللّٰه بن المحرز فإنه متروك الحديث ويزيد بن الأصم لم يدرك علياً ومثل هذا لا يصح واللّٰه أعلم .

وقد رواه أبو إسماعيل الترمذي، حدثنا مالك بن إسماعيل. حدثنا صالح بن أبي الأسود عن محفوظ بن عبد اللّٰه الحضرمي عن محمد بن يحيى. قال: بينما علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة

إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع ويا من لا يغلطه السائلون ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين ارزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك. قال: فقال له علي: يا عبد الله أعد دعاءك هذا. قال: وقد سمعته. قال: نعم. قال: فادع به في دبر كل صلاة فوالذي نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها وحصباء الأرض وترابها لغفر لك أسرع من طرفة عين. وهذا أيضاً منقطع وفي إسناده من لا يعرف والله أعلم .

وقد أورد ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن يوسف. حدثنا مالك بن إسماعيل فذكر نحوه. ثم قال: وهذا إسناد مجهول منقطع وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر .

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر: أنبأنا أبو القاسم بن الحصين أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد أنبأنا أبو إسحاق المزكي. حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة. حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملاه علينا بعبادان أنبأنا عمرو بن عاصم. حدثنا الحسن بن زريق عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس. قال: ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال : « **يلتقي الخضر وإلياس** كل عام في الموسم **فيحلق** كل واحد منهما رأس صاحبه **ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات** : **بسم الله ما شاء الله لا** يسوق الخير **إلا الله ما شاء الله لا يصرف الشر إلا الله ما شاء الله ما** كان **من نعمة فمن الله ما شاء الله** لا حول ولا قوة إلا بالله» . قال : وقال ابن عباس: من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات آمنه الله من الغرق والحرق والسرق قال : وأحسبه قال ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب .

قال الدارقطني في الإفراد هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه يعني الحسن بن زريق هذا. وقد روى عنه محمد بن كثير العبدي أيضاً ومع هذا: قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي: ليس بالمعروف. وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي: مجهول وحديثه غير محفوظ. وقال أبو الحسن بن المنادى : هو حديث واهب الحسن بن زريق. وقد روى ابن عساكر نحوه من طريق علي بن الحسن الجهضمي وهو كذاب عن ضمرة بن حبيب المقدسي عن أبيه عن العلاء بن زياد القشيري عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب مرفوعاً قال : يجتمع كل يوم عرفة بعرفات جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر، وذكر حديثاً طويلاً موضوعاً تركنا إيراده قصداً ولله الحمد .

وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد عن الحسن بن يحيى الخشني عن ابن أبي رواد. قال: إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ويحجان في كل سنة ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابل. وروى ابن عساكر أن الوليد بن عبد الملك بن مروان باني جامع دمشق أحب أن يتعبد ليلة في المسجد فأمر القومة أن يخلوه له ففعلوا فلما كان من الليل جاء من باب الساعات فدخل الجامع فإذا رجل قائم يصلي فيما بينه وبين باب الخضراء فقال للقومة ألم آمركم أن تخلوه فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجيء كل ليلة يصلي ههنا .

وقال ابن عساكر أيضاً: أنبأنا أبو القاسم بن إسماعيل بن أحمد أنبأنا أبو بكر بن الطبري أنبأنا أبو الحسين بن الفضل أنبأنا عبد اللّٰه بن جعفر حدثنا يعقوب هو ابن سفيان الفسوي حدثني محمد بن عبد العزيز حدثنا حمزة عن السري بن يحيى عن رباح بن عبيدة. قال: رأيت رجلاً يماشي عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه فقلت في نفسي: إن هذا الرجل حافي قال: فلما انصرف من الصلاة قلت من الرجل الذي كان معتمداً على يديك آنفاً؟. قال: وهل رأيته يا رباح؟. قلت: نعم. قال: ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً؟. ذاك أخي الخضر بشرني أني سألي وأعدل. قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي الرملي: مجروح عند العلماء. وقد قدح أبو الحسين بن المنادي في ضمرة والسري ورباح. ثم أورد من طرق أخر عن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع بالخضر وضعفها كلها .

وروى ابن عساكر أيضاً أنه اجتمع بإبراهيم التيمي وبسفيان بن عيينة وجماعة يطول ذكرهم. وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لا يقوم بمثلها حجة في الدين والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد. وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره لأنه يجوز عليه الخطأ واللّٰه أعلم .

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن الزهري أخبرني عبيد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن عتبة أن أبا سعيد قال: حدثنا رسول اللّٰه ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجال، وقال فيما يحدثنا: « يأتي الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خيرهم فيقول: أشهد أنك أنت الدجال الذي حدثنا عنك رسول اللّٰه ﷺ بحديثه فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر؟. فيقولون: لا. فيقتله. ثم يحيه فيقول حين يحي: واللّٰه ما كنت أشد بصيرة فيك مني الآن قال: فيريد قتله الثانية فلا يسلط عليه »[1] قال معمر : بلغني أنه يجعل على حلقه صحيفة من نحاس وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري به وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوي عن مسلم الصحيح أن يقال: إن هذا الرجل الخضر وقول معمر وغيره بلغني ليس فيه حجة وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث فيأتي بشاب ممتلئ شبابا فيقتله وقوله الذي حدثنا عنه رسول اللّٰه ﷺ لا يقتضي المشافهة بل يكفي التواتر .

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه اللّٰه في كتابه « عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر » للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعات ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد. وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات ومنهم البخاري وإبراهيم الحربي

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى (١٨٨٢) ومسلم (٢٩٣٨/ ١١٢) .

وأبوالحسين بن المنادي والشيخ أبو الفرج بن الجوزي وقد انتصر لذلك وألف فيه كتاباً سماه "عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر" فيحتج لهم بأشياء كثيرة. منها قوله : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٤] فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة ولا يجوز تخصيصه منه .إلا بدليل صحيح انتهى والأصل عدمه حتى يثبت ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله. ومنها أن الله تعالى قال : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [آل عمران : ٨١] .

قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه. وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه. ذكره البخاري عنه فالخضر إن كان نبياً أو ولياً فقد دخل في هذا الميثاق فلو كان حياً في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه لأنه إن كان ولياً فالصديق أفضل منه وإن كان نبياً فموسى أفضل منه وقد روى الإمام أحمد في مسنده حدثنا شريح بن النعمان حدثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » (١).
وهذا الذي يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة. وقد دلت الآية الكريمة أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله ﷺ لكانوا كلهم أتباعاً له وتحت أوامره وفي عموم شرعه كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الإسراء رفع فوقهم كلهم ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم فدل على أنه الإمام الأعظم والرسول الخاتم المبجل المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. فإذا علم هذا وهو معلوم عند كل مؤمن علم أنه لو كان الخضر حياً لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك. هذا عيسى ابن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة لا يخرج منها ولا يحيد عنها وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه عزّ وجلّ واستنصره واستفتحه على من كفره: « **اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض** » (٢)
وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب .

---

(١) حسن : رواه أحمد (٣٨٧/٣) رقم (١٥٠٩٤) .
(٢) صحيح : رواه أحمد (٣٠/١) رقم (٢٠٨) .

وَثَبِيرُ بذرٍ إذْ يردُّ وجُوهَهم جبْريل تحتَ لِوائنا ومحمــدُ

فلو كان الخضر حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته. قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي: سئل بعض أصحابنا عن الخضر هل مات. فقال: نعم. قال : وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري. قال: وكان يحتج بأنه لو كان حياً لجاء إلى رسول الله ﷺ، نقله ابن الجوزي في العجالة. فإن قيل فهل يقال: إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحد يراه؟. فالجواب أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العمومات بمجرد التوهمات. ثم ما الحاصل له على هذا الاختفاء وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته وأظهر لمعجزته. ثم لو كان باقياً بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم وتسديده العلماء والحكام وتقريره الأدلة والأحكام أفضل ما يقال عنه من كنونه [1] في الأمصار. وجوبه الفيافي والأقطار. واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء ثم قال : « أرأيتم ليلتكم هذه فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد؟ » [2] . وفي رواية « عين تطرف ». قال ابن عمر: فَوُهِلَ الناس في مقالة رسول الله ﷺ هذه وإنما أراد انخرام قرنه .

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري قال أخبرني سالم بن عبد الله وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة أن عبد الله بن عمر قال صلى رسول الله ﷺ : ذات ليلة العشاء في آخر حياته فلما سلم قام فقال : « أرأيتم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد » [3] وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الزهري .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي عن سليمان التيمي عن أبي نضرة عن جابر ابن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر: « ما من نفس منفوسة » أو « ما منكم من نفس اليوم منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية » [4] .

وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود. حدثنا ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر: « يسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله أقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة » . وهكذا رواه مسلم [5] من طريق أبي نضرة وأبي الزبير كل منهما عن جابر بن

---

(١) كنونه : تستره .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (١١٦) ومسلم (٢٥٣٧ / ٢١٧) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري (٦٠١) ، ومسلم (٦٣٦١) .

(٤) صحيح : رواه أحمد (٣/٣٠٦،٣٠٥) ح (١٤٢١٥) .

(٥) رواه مسلم (٦٣٦٣) كتاب الفضائل ، باب قوله ﷺ : «لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم».

عبد الله به نحوه. وقال الترمذي حدثنا عباد حدثنا أبومعاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة »[1] وهذا أيضا على شرط مسلم. قال ابن الجوزي فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر .

قالوا: فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع فلا إشكال وإن كان قد أدرك زمانه فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعد مائة سنة فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً لأنه داخل في هذا العموم والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله والله أعلم .

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتابه التعريف والإعلام عن البخاري رحمه الله وشيخه أبي بكر بن العربي أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث وفي كون البخاري رحمه الله يقول: بهذا وأنه بقي إلى زمان النبي ﷺ نظر. ورجح السهيلي بقاءه وحكاه عن الأكثرين. قال وأما اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعده فمروي من طرق صحاح ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه و لم يورد أسانيدها والله أعلم

قصة إلياس عليه السلام

فقال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات : ﴿ وإنَّ إلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إذْ قَالَ لِقَوْمِه ألا تَتَّقُونَ . أتَدْعُونَ بَعْلاً وتَذَرُونَ أحْسَنَ الخَالقِينَ . اللَّهَ رَبَّكُمْ ورَبَّ آبَائكُمُ الأوَّلِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَإنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . إلاَّ عبَادَ اللَّه الْمُخْلَصينَ . وتَرَكْنَا عَلَيْه في الآخرِينَ . سَلامٌ عَلَى إلْ يَاسينَ . إنَّا كَذَلكَ نَجْزِي المُحْسنينَ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ [الصافات : ١٢٣-١٣٢] .

قال علماء النسب: هو إلياس التشبي. ويقال: ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون. وقيل: إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران. قالوا: وكان أرساله إلى أهل بعلبك غربي دمشق فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا. وقيل: كانت امرأة اسمها بعل والله أعلم .

والأول أصح. ولهذا قال لهم : ﴿ ألا تَتَّقُونَ . أتَدْعُونَ بَعْلاً وتَذَرُونَ أحْسَنَ الخَالقِينَ . اللَّهَ رَبَّكُمْ ورَبَّ آبَائكُمُ الأوَّلِينَ ﴾ [الصافات : ١٢٤-١٢٦] فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله. فيقال: إنه هرب منهم واختفى عنهم ، قال أبو يعقوب الأذرعي عن يزيد بن عبد الصمد عن هشام بن عمار. قال: وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال: إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم عشر سنين حتى أهلك الله الملك وولي غيره فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم. وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو محمد القاسم بن هاشم. حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي. حدثنا

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٤٣٧٩) والترمذي (٢٢٥٠) .

سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال: أقام إلياس عليه السلام هاربا من قومه في كهف جبل عشرين ليلة أو قال: أربعين ليلة تأتيه الغربان برزقه .

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي: أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه. قال: أول نبي بعث إدريس ثم نوح ثم إبراهيم ثم إسماعيل وإسحاق ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ثم موسى وهارون ابنا عمران ثم إلياس التشبي بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوي ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام هكذا. قال: وفي هذا الترتيب نظر. وقال مكحول عن كعب: أربعة أنبياء أحياء اثنان في الأرض إلياس والخضر واثنان في السماء إدريس وعيسى عليهم السلام .

وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان ببيت المقدس، وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل. وأوردنا الحديث الذي فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة وبينا أنه لم يصح شيء من ذلك وأن الذي يقوم عليه الدليل أن الخضر مات وكذلك إلياس عليهما السلام. وما ذكره وهب بن منبه وغيره أنه لما دعا ربه عزّ وجلّ أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه فجاءته دابة لونها لون النار فركبها وجعل الله له ريشا وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملكيا بشريا سماويا أرضيا وأوصى إلى اليسع بن أخطوب ففي هذا نظر وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب بل الظاهر أن صحتها بعيدة والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثني أبو العباس أحمد بن سعيد المعداني ببخارى. حدثنا عبد الله بن محمود. حدثنا عبدان بن سنان حدثني أحمد ابن عبد الله البرقي. حدثنا يزيد بن يزيد البلوي. حدثنا أبو إسحاق الفزاري عن الأوزاعي عن مكحول عن أنس بن مالك. قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنـزلنا منـزلا فإذا رجل في الوادي يقول: اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المتاب لها. قال: فأشرفت على الوادي فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع. فقال لي: من أنت؟ فقلت: أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال : فأين هو؟ قلت: هو ذا يسمع كلامك. قال: فاته فأقرئه السلام. وقل له: أخوك إلياس يقرئك السلام. قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم. ثم قعدا يتحادثان. فقال له: يا رسول الله إني ما آكل في السنة إلا يوماً وهذا يوم فطري فآكل أنا وأنت. قال : فنـزلت عليهما مائدة من السماء عليها خبز وحوت وكرفس فأكلا وأطعماني وصلينا العصر. ثم ودعه ورأيته مر في السحاب نحو السماء. فقد كفانا البيهقي أمره. وقال: هذا حديث ضعيف بمرة والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في مستدركه على الصحيحين وهذا مما يستدرك به على المستدرك فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه. ومعناه لا يصح أيضاً فقد تقدم في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا في السماء » إلى أن. قال: « ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن »[1] وفيه أنه لم يأت إلى رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه. وهذا لا يصح

---

(١)متفق عليه : رواه البخاري (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١ / ٢) .

لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء. وفيه: أنه يأكل في السنة مرة وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب وفيما تقدم عن بعضهم أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر. وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شيء منها.
وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق أخرى واعترف بضعفها وهذا عجب منه كيف تكلم عليه فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة عن هانئ بن الحسن عن بقية عن الأوزاعي عن مكحول عن وائلة بن الأسقع فذكر نحو هذا مطولا وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان قالا: فإذا هو أعلى جسما منا بذراعين أو ثلاثة واعتذر بعدم قدرته لئلا تنفر الإبل وفيه: أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنة. وقال: إن لي في كل أربعين يوما أكلة وفي المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورطب وبقل ما عدا الكراث وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر فقال: عهدي به عام أول. وقال لي: إنك ستلقاه قبلي فأقرئه مني السلام. وهذا يدل على أن الخضر وإلياس بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة وهذا لا يسوغ شرعاً وهذا موضوع أيضاً.
وقد أورد ابن عساكر طرقا فيمن اجتمع بإلياس من العباد وكلها لا يفرح بها لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها. ومن أحسنها ما قال أبو بكر بن أبي الدنيا. حدثني بشر بن معاذ. حدثنا حماد بن واقد عن ثابت. قال: كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة فدخلت حائطا أصلي فيه ركعتين فافتتحت ﴿ **حم . تَنــزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنبِ وقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ** ﴾ [غافر : ١]. فإذا رجل من خلفي على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية فقال لي: إذا قلت غافر الذنب فقل: يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي. وإذا قلت: قابل التوب. فقل: يا قابل التوب تقبل توبتي. وإذا قلت: شديد العقاب، فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبني. وإذا قلت: ذي الطول. فقل: يا ذا الطول تطول علي برحمة فالتفت فإذا لا أحد وخرجت فسألت مر بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية. فقالوا: ما مر بنا أحد فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس .

وقوله تعالى : ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** ﴾ [الصافات : ١٢٧] أي للعذاب إما في الدنيا والآخرة أو في الآخرة والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون. وقوله : ﴿**إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [الصافات : ١٢٨] أي إلا من آمن منهم وقوله: ﴿ **وتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ** ﴾ [الصافات : ١٢٩] أي أبقينا بعده ذكراً حسناً له في العالمين فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال : ﴿**سَلامٌ عَلَى إلياسين** ﴾ [الصافات: ١٣٠] أي سلام على إلياس والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا: إسماعيل وإسماعين وإسرائيل وإسرائين وإلياس وإلياسين. ومن قرأ سلام على آل ياسين أي: على آل محمد وقرأ ابن مسعود وغيره: سلام على إدراسين. ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه. قال: إلياس هو إدريس، وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق والصحيح: أنه غيره كما تقدم والله أعلم .

تم الجزء الأول من البداية والنهاية

والحمد لله رب العالمين

البداية والنهاية

للإمام الحافظ أبو الفداء

إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

الجزء الثاني

خرج أحاديثه

الشيخ / محمد بيومي　　　أ / عبد الله المنشاوي

أ / محمد رضوان مهنا

الناشر

مكتبة الإيمان

بالمنصورة ت: ٢٥٧٨٨٢

الناشـــر
مكتبة الإيمان
بالمنصورة ٢٥٧٨٨٢



﴿ وما آتاكُمُ الرسُولُ فَخُذُوهُ وما نَهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا ﴾

(سورة الحشر : آية ٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام

قال ابن جرير في تاريخه : لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا يعني أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج أخته مريم، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله وهما يوشع وكالب وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] ، قال ابن جرير ثم من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل حزقيل بن بوذي وهو الذي دعا الله فأحيا ﴿ الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ [البقرة : ٢٤٣].

قصة حزقيل

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[البقرة:٢٤٣].

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه : إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف في بني إسرائيل حزقيل بن بوذي وهو ابن العجوز وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه فيما بلغنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ [البقرة:٢٤٣]، قال ابن إسحاق : فرُّوا من الوباء فنـــزلوا بصعيد من الأرض، فقال لهم الله: موتوا فماتوا جميعاً فحظروا عليهم حظيرة دون السباع فمضت عليهم دهور طويلة . فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكراً فقيل له أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر ، فقال: نعم . فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسي لحماً وأن يتصل العصب بعضه ببعض . فناداهم عن أمر الله له بذلك فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد.

وقال أسباط عن السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] قالوا : كانت قرية يقال لها : داوردان قبل واسط وقع بها الطاعون فهرب عامة أهلها فنـــزلوا ناحية منها فهلك من بقي في القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا : أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم . فوقع في قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً حتى نزلوا ذلك المكان وهو واد أفيح .

فناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه أن موتوا فماتوا، حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مر بهم نبي يقال له حزقيل فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوي شدقيه وأصابعه فأوحى الله إليه : تريد أن أريك كيف أحييهم ؟ قال : نعم، وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم فقيل له: ناد فنادى يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعي فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض حتى كانت أجساداً من عظام . ثم أوحى الله إليه أن ناد يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً فاكتست لحماً ودماً وثيابها التي ماتت فيها. ثم قيل له : ناد فنادى أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومي فقاموا. قال أسباط : فزعم منصور عن مجاهد: أنهم قالوا حين أحيوا : سبحانك اللَّهم وبحمدك لا إله إلا أنت . فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى ، سحنة [1] الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد رسماً[2] حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم. وعن ابن عباس : أنهم كانوا أربعة آلاف . وعنه ثمانية آلاف. وعن أبي صالح تسعة آلاف. وعن ابن عباس أيضاً : كانوا أربعين ألفاً. وعن سعيد بن عبد العزيز : كانوا من أهل أذرعات. وقال ابن جريج عن عطاء: هذا مثل يعني أنه سيق مثلا مبينا أنه لن يغني حذر من قدر ، وقول الجمهور أقوى أن هذا وقع. وقد روى الإمام أحمد وصاحبا الصحيح من طريق الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن عباس : أن عمر بن الخطاب خرج إلي الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام، فذكر الحديث يعني في مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً ببعض حاجته . فقال : إن عندي من هذا علما سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه** » [3] فحمد الله عمر ثم انصرف.

وقال الإمام : حدثنا حجاج ويزيد المفتي [4] قالا : حدثنا ابن أبي ذؤيب عن الزهري عن سالم عن عبدالله بن عامر بن ربيعة : أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي ﷺ : « **أن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه** »[5] قال : فرجع عمر من الشام. وأخرجاه من حديث مالك عن الزهري بنحوه .

---

(١) سحنة : هيئة .

(٢) رسماً : رثًا .

(٣) **متفق عليه** : رواه البخاري (٥٧٢٩) ومسلم (٩٨/٢٢١٩) .

(٤) هو يزيد بن أبي حبيب ؛ قال ابن سعد: كان مفتي أهل مصر في زمانه ، وكان حليماً عاقلاً . وكان أول من أظهر العلم بمصر .

(٥) رواه أحمد (١٩٣/١) رقم (١٦٨٧) .

قال محمد بن إسحاق : ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل في بني إسرائيل. ثم إن الله قبضه إليه. فلما قبض نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له : بعل فبعث اللّه إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص ابن العيزار بن هارون بن عمران .

قلت : وقد قدمنا قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر لأنهما يقرنان في الذكر غالبا ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات فتعجلنا قصته لذلك والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق فيما ذكر له عن وهب بن منبه قال : ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصية إليسع بن أخطوب عليه السلام وهذه .

قصة إليسع عليه السّلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله : ﴿ **وإِسْمَاعِيلَ والْيَسَعَ ويُونُسَ ولُوطاً وكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام:٨٦] وقال تعالى في سورة ص: ﴿**واذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ والْيَسَعَ وذَا الكِفْلِ وكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ**﴾ [ص:٤٨] قال إسحاق بن بشر، أبو حذيفة: أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال : كان بعد إلياس إليسع عليهما السلام فمكث ماشاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عزّ وجلّ إليه . ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء. وكان فيهم ملك عنيد طاغ، ويقال: إنه الذي تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة فسمي ذا الكفل .

قال محمد بن إسحاق : هو إليسع بن أخطوب. وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في حرف الياء من تاريخه : إليسع وهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال : هو ابن عم إلياس النبي عليهما السلام. ويقال : كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك. ثم ذهب معه إليها . فلما رفع إلياس خلفه إليسع في قومه ونبأه الله بعده. ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه. قال وقال غيره : وكان ببانياس. ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ إليسع بالتخفيف وبالتشديد ومن قرأ والليسع، وهو اسم واحد لنبي من الأنبياء. قلت : قد قدمنا قصة ذا الكفل بعد قصة أيوب عليهما السلام لأنه قد قيل : إنه ابن أيوب فالله أعلم.

فصل

قال ابن جرير وغيره : ثم مرج أمر بني إسرائيل وعظمت منهم الخطوب [1] والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم

(١) الخطوب : جمع خطب ، وهى الأمور العظيمة .

وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً ، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان كما تقدم ذكره فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً [1] ، وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبيا من الأنبياء يقال له : شمويل فطلبوا منه أن يقيم لهم – ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله في كتابه. قال ابن جرير : فكان من وفاة يوشع بن نون أن بعث الله عزّ وجلّ شمويل بن بالي أربعمائة سنة وستون سنة. ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحداً تركنا ذكرهم قصداً.

قصّة شمويل وفيها بدأ أمر داود عليهما السلام

هو شمويل ويقال له : أشمويل بن بالي بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا. قال مقاتل : وهو من ورثة هارون. وقال مجاهد : هو أشمويل بن هلفاقا ، ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا فالله أعلم.

حكى السدي بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبي وغيرهم : أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً وانقطعت النبوة من سبط لاوي ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى فجعلت تدعو الله عزّ وجلّ أن يرزقها ولداً ذكراً، فولدت غلاماً فسمته أشمويل، ومعناه بالعبرانية: إسماعيل؛ أي سمع الله دعائي فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته، فكان عنده فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد، فانتبه مذعوراً فظنه الشيخ يدعوه، فسأله : أدعوتني؟ فكره أن يفزعه. فقال : نعم نم. فنام. ثم ناداه الثانية فكذلك . ثم الثالثة، فإذا جبريل يدعوه فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك. فكان من أمره معهم ما قص الله في كتابه، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ

---

(١) الكمد : الغمُّ والحزن .

هَارُونَ تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ . فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٦ - ٢٥١] .

قال أكثر المفسرين : كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل. وقيل : شمعون . وقيل : هما واحد ، وقيل : يوشع، وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه : أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة وستين سنة فالله أعلم.

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب ، وقهرهم الأعداء سألوا نبي الله في ذلك الزمان ، وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء فقال لهم : **﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** [البقرة : ٢٤٦] أي وأي شيء يمنعنا من القتال **﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾** [البقرة:٢٤٦] يقولون : نحن محروبون موتورون، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المقهورين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم.قال تعالى:**﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾** [البقرة : ٢٤٦] كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل ، والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال **﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾** [البقرة : ٢٤٧] . قال الثعلبي: وهو طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

قال عكرمة والسدي : كان سقَّاءً، وقال وهب بن منبه : كان دباغاً. وقيل : غير ذلك فالله أعلم، ولهذا **﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ المَالِ﴾** [البقرة : ٢٤٧] وقد ذكروا أن النبوة كانت في سبط لاوى ؛ وأن الملك كان في سبط يهوذا فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه ، وطعنوا في إمارته عليهم ، وقالوا : نحن أحق بالملك منه ، وذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه ، فكيف يكون مثل هذا ملكا ؟. **﴿ قَالَ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾** [البقرة : ٢٤٧] . قيل : كان الله قد أوحي إلى شمويل ، أن أي بني إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا ، وإذا حضر عندك يفور هذا القرن[1] الذي فيه من دهن القدس فهو ملكهم فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا ، فلم

---

(١) القرن : عظم ينبت فى رؤوس بعض الحيوانات .

يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ، ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه وعينه الملك عليهم وقال لهم : ﴿ **قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ** ﴾ قيل : في أمر الحروب . وقيل : بل مطلقاً ﴿ **والجِسْمِ** ﴾ قيل: الطول . وقيل : الجمال . والظاهر من السياق : أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام ﴿ **واللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ** ﴾ فإنه الحَكَمُ وله الخلق والأمر ﴿ **واللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ . وقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِه أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٧ ، ٢٤٨] وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ، ويمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان سُلِبَ منهم وقهرهم الأعداء عليه وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه ﴿**فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ . قيل : طشت من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء. وقيل : السكينة مثل الريح الخجوج [1]. وقيل : صورتها مثل الهرة إذا صرخت في حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر ﴿ **وبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وآلُ هَارُونَ** ﴾ قيل : كان فيه رضاض [2] الألواح وشيء من المن الذي كان نزل عليهم بالتيه ﴿ **تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ** ﴾ أي تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عيانا ليكون آية لله عليكم ، وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم ، وعلي صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم ولهذا قال : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ وقيل : إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت ، وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة. وقيل : كان فيه التوراة أيضاً فلما استقر في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم ، فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم ، فوضعوه تحته . فلما كان اليوم الثاني إذا التابوت فوق الصنم ، فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى ، فأخرجوه من بلدهم وجعلوه في قرية من قراهم ، فأخذهم داء في رقابهم ، فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين ، وأرسلوهما. فيقال : إن الملائكة ساقتهما حتى جاءا بهما ملأ بني إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك فالله أعلم على أي صفة جاءت به الملائكة ، والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم بالجنود من الآية والله أعلم. وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بالْجُنُود قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ومَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِه**﴾ [البقرة : ٢٤٩] قال ابن عباس وكثير من المفسرين : هذا النهر هو نهر الأردن ، وهو المسمى بالشريعة فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبي الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبني في هذه الغزوة ولا يصحبني إلا من لم يطعمه إلا غرفة في يده. قال الله تعالى:﴿**فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ**﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

---

(١) الخجوج : دائمة الهبوب .

(٢) الرضاض : الرضُ : الدقُّ ، والمرضوض : ما دق من الحصى كما فى مختار الصحاح .

قال السدي : كان الجيش ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفاً فبقي معه أربعة آلاف كذا قال. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث إسرائيل وزهير والثوري عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب : قال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثمائة مؤمن [(١)].

وقول السدي: إن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً فيه نظر؛ لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً والله أعلم. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] أي استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عددهم ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٩] يعني بها الفرسان منهم. والفرسان أهل الإيمان والإيقان الصابرون على الجلاد [(٢)] والجدال والطعان.﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠] طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر، أي يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى [(٣)] والدعاء إلى النـــزال فسألوا التثبت الظاهر والباطن ، وأن ينـــزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا وأنالهم ما إليه فيه رغبوا ولهذا قال : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾، أي بحول الله لا بحولهم وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] وقوله تعالى : ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٥١] فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام وأنه قتله قتلا أذل به جنده وكسره ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ويأسر الأبطال والشجعان والأقران وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ويُدَالُ لأولياء الله على أعدائه. ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه. وقد ذكر السدي فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه وكانوا ثلاثة عشر ذكراً ، كان سمع طالوت ملك بني إسرائيل وهو يحرض بني إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول : من قتل جالوت زوجته بابنتي وأشركته في ملكي، وكان داود عليه السلام يرمي بالقذافة وهو المقلاع رمياً عظيماً ، فبينا هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حجر أن خذني فإن بي تقتل جالوت فأخذه . ثم حجر آخر كذلك . ثم آخر كذلك ، فأخذ الثلاثة في مخلاته فلما تواجه الصفان ، برز جالوت ودعا إلى

(١) رواه البخاري (٣٩٥٨) .

(٢) الجلاد : الطعان .

(٣) حومة الوغى : ساحة الحرب .

نفسه فتقدم إليه داود فقال له : ارجع فإني أكره قتلك . فقال : لكني أحب قتلك وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في القذافة ، ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً. ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفرَّ جيشه منهزماً فوفى له طالوت بما وعده فزوجه ابنته وأجرى حكمه في ملكه وعظم داود عليه السلام عند بني إسرائيل وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت ، فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله واحتال على ذلك فلم يصل إليه وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود فتسلط عليهم فقتلهم ، حتى لم يبق منهم إلا القليل. ثم حصل له توبة وندم وإقلاع عما سلف منه وجعل يكثر من البكاء ويخرج إلى الجبانة فيبكي حتى يبل الثرى [1] بدموعه فنودي ذات يوم من الجبانة أن يا طالوت قتلتنا ونحن أحياء وآذيتنا ونحن أموات فازداد لذلك بكاؤه وخوفه واشتد وجله . ثم جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره وهل له من توبة فقيل له وهل أبقيت عالما ؟ حتى دُلَّ على امرأة من العابدات فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه السلام قالوا : فدعت الله . فقام يوشع من قبره . فقال : أقامت القيامة . فقالت : لا ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة ؟ فقال : نعم ينخلع من الملك ويذهب فيقاتل في سبيل الله حتى يقتل. ثم عاد ميتا، فترك الملك لداود عليه السلام وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده فقاتلوا في سبيل الله حتى قتلوا قالوا فذلك قوله : ﴿وآتاهُ اللَّهُ المُلكَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ﴾ هكذا ذكره ابن جرير في تاريخه من طريق السدي بإسناده. وفي بعض هذا نظر ونكارة والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق: النبي الذي بعث فأخبر طالوت بتوبته هو إليسع بن أخطوب حكاه ابن جرير أيضا. وذكر الثعلبي : أنها أتت به إلى قبر شمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور وهذا أنسب. ولعله إنما رآه في النوم لا أنه قام من القبر حيا ، فإن هذا إنما يكون معجزة لنبي وتلك المرأة لم تكن نبية والله أعلم . وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده أربعون سنة فالله أعلم.

قصةُ داود عليه السلام

وما كان في أيامه ثم فضائله وشمائله ودلائل نبوّته وإعلامه

هو داود بن إيشار بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن أرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس. قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه : كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه. تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام وجمع الله

---

(١) الثرى : التراب الندى .

له بين الملك والنبوة بين خيرى الدنيا والآخرة وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمع في داود هذا وهذا كما قال تعالى : **﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾** [البقرة : ٢٥١] أي لولا إقامة الملوك حكاماً على الناس لأكل قوي الناس ضعيفهم. ولهذا جاء في بعض الآثار (السلطان ظل الله في أرضه) وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : (إن الله ليزعُ [١] بالسلطان ما لا يزعُ بالقرآن) وقد ذكر ابن جرير في تاريخه : أن جالوت لما بارز طالوت . فقال له : أخرج إليّ وأخرج إليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت. قال وهب بن منبه : فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود. وقيل : إن ذلك عن أمر شمويل حتى قال بعضهم : إنه ولاه قبل الوقعة.

قال ابن جرير : والذي عليه الجمهور إنه إنما ولي ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم. وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية فالله أعلم. وقال تعالى: **﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْـــرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ.أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**[سبأ: ١٠، ١١] وقال تعالى **﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ . وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾** [الأنبياء : ٧٩ ، ٨٠] .

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ، ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال : **﴿ وَقَدِرْ فِي السَّرْدِ ﴾** [سبأ:١١]، أي لا تدق المسمار فيغلق ولا تغلظه فيفصم[٢] قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة.

قال الحسن البصري وقتادة والأعمش : كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده ، لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة. قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد [٣] وإنما كانت قبل ذلك من صفائح. قال ابن شوذب : كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم ، وقد ثبت في الحديث «أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده » وقال تعالى : **﴿ واذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ. وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾** [ص: ١٧-٢٠] قال ابن عباس ومجاهد : الأيد: القوة في الطاعة ، يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح قال قتادة : أعطي قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام ، قال : وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أحب الصلاة إلى

---

(١) ليزعُ : يغرى .

(٢) فصم : كَسَرَ .

(٣) الزرد : الدرع المزرودة ومعناه : تداخل حلق الدرع بعضها فى بعض .

الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود» كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى[1]. وقوله : ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالْعَشِيِّ والإِشْرَاق . والطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص : ١٨،١٩] كما قال : ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْــرَ** ﴾ [سبأ:١٠] أي سبحي معه . قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ والإِشْرَاقِ** ﴾ [ص : ١٨] أي عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه ، يقف الطير في الهواء يُرجّع [2] بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرةً وعشياً صلوات الله وسلامه عليه. وقال الأوزاعي : حدثني عبد الله ابن عامر قال: أعُطي داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط ، حتى أن الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً وحتي إن الأنهار لتقف. وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حجَّل [3] كهيئة الرقص وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله ، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً، وقال أبو عوانة الإسفراييني : حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن منصور الطوسي سمعت صبيحا أنبأنا برادح . قال أبوعوانة : وحدثني أبو العباس المدني . حدثنا محمد بن صالح العدوي . حدثنا سيار هو ابن حاتم عن جعفر عن مالك . قال : كان داود عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تفنقت العذاري وهذا غريب. وقال عبد الرزاق عن ابن جريج : سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال : وما بأس بذلك سمعت عبيد بن عمر يقول : كان داود عليه السلام يأخذ العزفة[4] فيضرب بها فيقرأ عليها فترد عليه صوته يريد بذلك أن يبكي وتبكي.

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال: «**لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود** » [5] وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه .وقال أحمد : حدثنا حسن . حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمر عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **لقد أعطي أبو موسى من مزامير داود** » [6] على شرط مسلم، وقد روينا عن أبي عثمان الترمذي أنه قال : لقد سمعت البربط [7] والمزمار فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبي موسى

---

(١)**متفق عليه** : رواه البخارى (٣٤١٩) ومسلم (١١٥٩ / ١٨٩) .

(٢) يرجع : يردد .

(٣) حجَّل : وثب فى مشيه .

(٤) العزفة : المعازف : الملاهى كالعود والطنبور .

(٥)**صحيح**: رواه أحمد (٦/١٦٧) .

(٦)**حسن** : رواه أحمد (٢/٣٥٤) .

(٧) البربط : العود .

الأشعري. وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور . كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق . حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة : قال : قال رسول الله ﷺ : « **خفف على داود القراءة فكان يأمر بدابته فتسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل إلا من عمل يديه** »[1] وكذلك رواه البخاري منفرداً به عن عبد الله بن محمد عن عبد الرزاق به ولفظه « **خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يديه** »[2] . ثم قال البخاري : ورواه موسى بن عقبة عن صفوان هو ابن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في تاريخه من طرق عن إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة ومن طريق أبي عاصم عن أبي بكر السبري عن صفوان بن سليم به.

والمراد بالقرآن ههنا الزبور الذي أُنزل عليه وأُوحي إليه وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظاً، فإنه كان ملكاً له أتباع ، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشع صلوات الله وسلامه عليه وقد قال الله تعالى: ﴿**وآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً**﴾ [الإسراء : ٥٥] والزبور كتاب مشهور وذكرنا في التفسير الحديث الذي رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه. وقوله : ﴿**وشَدَدْنَا مُلْكَهُ وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخِطَابِ**﴾ [ص : ٢٠] أي أعطيناه ملكاً عظيماً وحكماً نافذاً. روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام في بقرة ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه ، فأنكر المدعي عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعي ، فلما أصبح قال له داود : إن الله قد أوحى إليَّ أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة ، فما خبرك فيما ادعيته على هذا ؟ قال : والله يا نبي الله إني لمحق فيما ادعيت عليه ، ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا فأمر به داود فقتل ، فعظُم أمر داود في بني إسرائيل جداً وخضعوا له خضوعاً عظيماً. قال ابن عباس : وهو قوله تعالى : ﴿ **وشَدَدْنَا مُلْكَهُ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿**وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ**﴾ أي النبوة ﴿**وفَصْلَ الخِطَابِ**﴾ قال شريح والشعبي وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمي وغيرهم : فصل الخطاب الشهود والأيمان ، يعنون بذلك البينة على المدعي واليمين على من أنكر. وقال مجاهد والسدي : هو إصابة القضاء وفهمه. وقال مجاهد : هو الفصل في الكلام وفي الحكم واختاره ابن جرير وهذا لا ينافي ما روي عن أبي موسى أنه قال : (أما بعد) . وقال وهب بن منبه : لما كثر الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل أعطي داود سلسلة لفصل القضاء، فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس ، وكانت من ذهب فإذا تشاجر الرجلان في حق ، فأيهما كان محقاً نالها والآخر لا يصل إليها ، فلم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلا

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (٣١٤/٢) .

(٢) رواه البخاري (٣٤١٧) .

لؤلؤة فجحدها منه واتخذ عكازاً وأودعها فيه ، فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعي ، فلما قيل للآخر : خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه المدعي وفيه تلك اللؤلؤة ، وقال اللهم : إنك تعلم أني دفعتها إليه . ثم تناول السلسلة فنالها فأشكل أمرها على بني إسرائيل . ثم رفعت سريعاً من بينهم. ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين. وقد رواه إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه .

﴿ وهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المحْرَابَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ولا تُشْطِطْ واهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً ولِيَ نَعْجَةٌ واحدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وعَزَّنِي في الخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وإِنَّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وقَلِيلٌ مَّا هُمْ وظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وخَرَّ رَاكِعاً وأَنَابَ . فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص : ٢١ - ٢٥] .

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات. ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا إيرادها في كتابنا قصداً اكتفاء واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقد اختلف الأئمة في سجدة " ص " هل هي من عزائم السجود أو إنما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود على قولين .

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الله . حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي عن العوام قال : سألت مجاهداً عن سجدة ﴿ص﴾ فقال سألت ابن عباس من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ **﴿ومن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وسُلَيْمَانَ﴾** [الأنعام : ٨٤] **﴿ أُوْلَئِكَ الَّذينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾** [الأنعام: ٩٠] فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به فسجدها داود عليه السلام . فسجدها رسول الله ﷺ (١)وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل - هو ابن علية - عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس : أنه قال في السجود في «ص»: ليست من عزائم السجود. وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها (٢). وكذا رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أيوب وقال الترمذي حسن صحيح ، وقال النسائي : أخبرني إبراهيم بن الحسن المقسمي . حدثنا حجاج بن محمد عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في "ص" وقال : « سجدها داود توبة ونسجدها شكراً » (٣) تفرد به النسائي ورجاله ثقات .

---

(١) رواه البخارى (٤٨٠٧) .

(٢) رواه البخارى (٣٤٢٢) .

(٣) صحيح : رواه النسائى (١٥٩/٢) والدارقطنى (٤٠٧/١) .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح . حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري . قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر « ص » فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد معه الناس ، فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود . فقال : « إنما هي توبة نبي ولكن رأيتكم تشرفتم فنــزل وسجد » [(١)]، تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيح .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان . حدثنا يزيد بن زريع . حدثنا حميد . حدثنا بكر هو – ابن عمرو – وأبو الصديق الناجي : أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري ، رأي رؤيا أنه يكتب "ص" فلما بلغ إلى التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً . قال : فقصها على النبي ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد [(٢)]. تفرد به أحمد .

وروى الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خنيس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد : قال : قال لي ابن جريج : حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله إني رأيت فيما يري النائم كأني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودي ، فسمعتها تقول وهي ساجدة : « اللهم اكتب لي بها عندك أجراً . واجعلها لي عندك ذخراً . وضع عني بها وزراً [(٣)]. واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود » وقال ابن عباس : فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة [(٤)] . ثم قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقد ذكر بعض المفسرين : أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يوما . وقاله مجاهد والحسن وغيرهما : وورد في ذلك حديث مرفوع لكنه من رواية يزيد الرقاشي وهو ضعيف متروك الرواية.

---

(١) **صحيح** : رواه أبو داود (١٤١٠) .

(٢) **صحيح** : رواه أحمد (٧٨/٣) والحاكم (٤٣٢/٢) والبيهقى فى السنن (٣٢٠/٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

(٣) الوزر : العبء والذنب .

(٤) **ضعيف** : رواه الترمذى (٥٧٩،٣٤٢٤) وابن ماجه (١٠٥٣) وابن خزيمة (٥٦٢) وابن حبان (٢٧٦٨) والطبرانى فى " الكبير " (١٠٥/١١) رقم (١١٣٦٢) والحاكم (٢١٩،٢٢٠/١) والمزى فى " تهذيب الكمال " (٣١٤/٦) والبغوى فى " شرح السنة " (٧٧١) والعقيلى فى "الضعفاء" (٢٤٣/١) وفى سنده الحسن بن محمد بن عبيد الله ، قال الذهبى فى " الميزان " (٥٢/١) قال العقيلى : لا يتابع على حديثه . وقال غيره : فيه جهالة . وقال الذهبى أيضاً فى "المغنى" غير معروف . وقال فى " الكاشف " غير حجة . قلت : وهذا الحديث قد صححه الحاكم ووافقه الذهبى ! وهذا عجيب من الذهبى رحمه الله فإنه هو القائل فى الحسن بن محمد ما سبق .

قال الله تعالى: ﴿ **فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآبٍ** ﴾. [ص:٢٥] أي إن له يوم القيامة لزلفى وهي القربة التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها كما ثبت في حديث « **المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وحكمهم وما ولوا** »[1].

وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا يحيى بن آدم وحدثنا فضيل عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل. وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر** » [2] وهكذا رواه الترمذي من حديث فضيل بن مرزوق الأغر به وقال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر ابن سليمان سمعت مالك بن دينار في قوله: ﴿**وإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآبٍ**﴾ [ص: ٢٥] قال: يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله: يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني في الدنيا فيقول : وكيف وقد سلبته ؟ فيقول : إني أرده عليك اليوم . قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان :

﴿ **يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾[ص:٢٦] هذا خطاب من الله تعالى مع داود والمراد ولاة الأمور وحكام الناس ، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنـــزل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء ، وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك ، وقد كان داود عليه السلام هو المقتدي به في ذلك الوقت في العدل ، وكثرة العبادة وأنواع القربات حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار ، إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً كما قال تعالى: ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ : ١٣] قال أبو بكر ابن أبي الدنيا : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام حدثنا صالح المزي عن أبي عمران الجوني عن أبي الجلد . قال :قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال: يارب كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟ قال: فأتاه الوحي : " أن يا داود ألست تعلم أن الذي بك من النعم مني؟. قال : بلى يارب . قال : فإني أرضى بذلك منك " . وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ . أنبأنا أبو بكر بن بالويه . حدثنا محمد بن يونس القرشي . حدثنا روح بن عبادة ، حدثني عبد الله بن لاحق عن ابن شهاب قال : قال داود : " الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله فأوحى الله إليه إنك أتعبت الحفظة يا داود " ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن على ابن الجعد عن الثوري مثله. وقال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد : أنبأنا سفيان الثوري عن

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٧ / ١٨) .

(٢) **ضعيف** : رواه أحمد (٢٢/٣) والترمذى (١٣٢٩) والطبرانى فى " الأوسط " (١٥٩١و٤٧٧٠) وأبو نعيم فى " الحلية " (١١٤/١٠) وفى سنده عطية العوفى وهو ضعيف مدلس .

رجل عن وهب بن منبه قال : « إن في حكمة آل داود حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه. وحق على العاقل أن لا يظعن [1] إلا في إحدي ثلاث زاد لمعاده ومرمة لمعاشه ولذة في غير محرم » ، وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن أبي بكر بن أبي خيثمة عن ابن مهدي عن سفيان عن أبي الأغر عن وهب بن منبه فذكره. ورواه أيضاً عن على بن الجعد عن عمر بن الهيثم الرقاشي عن أبي الأغر عن وهب بن منبه فذكره ،وأبو الأغر هذا هو الذي أبهمه ابن المبارك في روايته. قاله ابن عساكر .

وقال ابن عساكر وقال عبد الرزاق : أنبأنا بشر بن رافع حدثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له أبو عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه فذكر مثله.

وقد روي الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة منها قوله «كن لليتيم كالأب الرحيم. واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد». وروي بسند غريب مرفوعاً قال داود : « يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها [2] » وعن داود عليه السلام أنه قال: « مثل الخطيب الأحمق في نادي القوم كمثل المغني عند رأس الميت » وقال أيضاً : « ما أقبح الفقر بعد الغني وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدي » وقال : « انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت ». وقال : « لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه ». وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر الواقدي حدثني هشام بن سعد عن عمر مولي عفرة . قال : قالت يهود لما رأت رسول الله ﷺيتزوج النساء : انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام ولا والله ماله همة إلا إلى النساء ، حسدوه لكثرة نسائه ، وعابوه بذلك فقالوا : لو كان نبيا ما رغب في النساء وكان أشدهم في ذلك حيي بن أخطب فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله عليه وسلامه . فقال: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ [النساء: ٤٥] يعني بالناس رسول الله ﷺ : ﴿ **فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً** ﴾ [النساء : ٥٤] يعني ما أتى الله سليمان بن داود كانت له ألف امرأة سبعمائة مهرية وثلاثمائة سرية ، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة هذا أكثر مما لمحمد ﷺ وقد ذكر الكلبي : نحو هذا وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة منهن ثلاثمائة سرية .

---

(١) الظعن : الرحيل .

(٢) الحَسَكُ : نبات من الفصيلة الرُّطريطية له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل .

وروى الحافظ في تاريخه في ترجمة صدقة الدمشقي الذي يروي عن ابن عباس من طريق الفرج بن فضالة الحمصي . عن أبي هريرة الحمصي عن صدقة الدمشقي : أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام . فقال : لأحدثنك بحديث كان عندي في البحث مخزونا إن شئت أنبأتك بصوم داود . فإنه كان صواماً قواماً ، وكان شجاعاً لا يفر إذا لاقى وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً وقال رسول الله ﷺ : «أفضل الصيام صيام داود وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يكون فيها وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويصرف بصوته الهموم والمحموم ». وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان ؛ فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ومن وسطه ثلاثة أيام ومن آخره ثلاثة أيام يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام. وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى ابن مريم ؛ فإنه كان يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشعر ، يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب وكان أينما أدركه الليل صفن [(١)] بين قدميه وقام يصلي حتى يصبح وكان راميا لا يفوته صيد يريده وكان يمر بمجالس بني إسرائيل فيقضي لهم حوائجهم. وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم ابنة عمران : فإنها كانت تصوم يوما وتفطر يومين . وإن شئت أنبأتك بصوم النبي العربي الأمي محمد ﷺ : فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام . ويقول : « إن ذلك صوم الدهر » . وقد روى الإمام أحمد عن أبي النصر عن فرج بن فضالة عن أبي هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعاً في صوم داود.

كميّة حياة داود وكيفية وفاته عليه السّلام

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم ؛ أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ، ورأى فيهم رجلا يزهر [(٢)] فقال : أي رب من هذا قال : هذا ابنك داود . قال : أي رب كم عمره ؟ قال : ستون عاماً . قال : أي رب زد في عمره؟ قال : لا إلا أن أزيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، فقال : بقي من عمري أربعون سنة ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة [(٣)].

رواه أحمد عن ابن عباس والترمذي وصححه عن أبي هريرة وابن خزيمة وابن حبان. وقال الحاكم : على شرط مسلم. وقد تقدم ذكر طرقه وألفاظه في قصة آدم. قال ابن جرير : وقد

---

(١) صفن : صفّ .

(٢) يزهر : يتلألأ ، والمزهر : المشرق الوجه .

(٣) صحيح: رواه الترمذى (٣٣٦٨) والنسائى فى " عمل اليوم والليلة" (٢١٨) والطبرى فى التاريخ (٩٦/١) وابن حبان (٦١٦٧- إحسان) والحاكم (٤٦/١، ٦٤و٢٦٣/٤) والبيهقى فى "الأسماء والصفات" (ص ٣٢٤ ، ٣٢٥) من حديث أبي هريرة . ورواه أحمد (٢٥١/١، ٢٥٢) عن ابن عباس وفى سنده على بن زيد ابن جدعان وهو ضعيف . ولكن حديث أبي هريرة يشهد له .

زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعاً وسبعين سنة. قلت : هذا غلط مردود عليهم . قالوا : وكان مدة ملكه أربعين سنة، وهذا قد يقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه.

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا قتيبة حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع. قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت : لمن في البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟ والله لنفتضحن بداود . فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسط الدار . فقال له داود: من أنت ؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب ، فقال داود : أنت والله إذن ملك الموت مرحبا بأمر الله . ثم مكث حتى قبضت روحه ، فلما غُسل وكفن وفُرِغ من شأنه طلعت عليه الشمس. فقال سليمان للطير : أظلي على داود فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال سليمان للطير : اقبضي جناحاً » . قال : قال أبو هريرة : فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير وقبض رسول الله ﷺ بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية . انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوي رجاله ثقات[1] ، ومعنى قوله: وغلبت عليه يومئذ المضرحية، أي وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة واحدها مضرحي. قال الجوهري : وهو الصقر الطويل الجناح .

وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال : مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت وكانت الطير تظله. وقال السدي أيضاً عن أبي مالك وعن سعيد بن جبير قال: مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة ، وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن : قال : مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الأربعاء فجأة. وقال أبو السكن الهجري : مات إبراهيم الخليل فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . رواه ابن عساكر ، وروي عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه . فقال له : دعني أنزل أو أصعد فقال: يا نبي الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والأرزاق. قال : فخر ساجداً على مرقاة [2] من تلك المراقي فقبضه وهو ساجد. وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا وافر بن سليمان عن أبي سليمان الفلسطيني عن وهب بن منبه . قال : إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف . قال : وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود . قال: فآذاهم الحر ، فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر ، فخرج سليمان فنادى الطير

---

(١) حسن : رواه أحمد (٤١٩/٢) .

(٢) مرقاة : الإهاب من الجلد .

فأجابت ، فأمرها أن تظل الناس فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه ، حتى استمسكت الريح، فكاد الناس أن يهلكوا غمًّا ، فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم ، فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي عن ناحية الريح ، ففعلت فكان الناس في ظل وتهب عليهم الريح ، فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان.

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع حدثني الوليد بن مسلم عن الهيثم ابن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء . قال : قال رسول الله ﷺ : « **لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فُتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سننه وهديه مائتي سنة** » [1] . هذا حديث غريب وفي رفعه نظر ، والوضين بن عطاء كان ضعيفاً في الحديث والله أعلم.

قِصَّةُ سليمانَ بن داودَ عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر : هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عمينا داب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبي الربيع نبي الله ابن نبي الله. جاء في بعض الآثار: أنه دخل دمشق. قال ابن ماكولا : فارص بالصاد المهملة . وذكر نسبه قريبا مما ذكره ابن عساكر .

قال الله تعالى : ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** ﴾ [النمل : ١٦] أي ورثه في النبوة والملك وليس المراد ورثه في المال ، لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخص بالمال دونهم؛ ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « **لا نورث ما تركناه فهو صدقة** » [2] وفي لفظ: « **نحن معاشر الأنبياء لا نورث** » فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم ، عنهم كما يورث غيرهم بل يكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج ، لا يخصون بها أقرباءهم؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وأوتينا من كل شيء** ﴾ [النمل : ١٦] الآية يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها. وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ . أنبأنا على بن حشاد . حدثنا إسماعيل بن قتيبة حدثنا على بن قدامة . حدثنا أبو جعفر الأسواني يعني محمد بن عبدالرحمن عن أبي يعقوب العمي . حدثني أبو مالك . قال : مرَّ سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة . فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : وما يقول يا نبي الله ؟، قال :

---

(١) **ضعيف** : في سنده الوليد بن مسلم وهو مدلس، وقد عنعن ونصر بن علقمة مقبول كما في " التقريب " (٢٩٩/٢) .
(٢) **متفق عليه** : رواه البخاري (٣٠٩٤) ومسلم (١٧٥٧ / ٤٩) .

يخطبها إلى نفسه ويقول : زوجيني أسكنك أي غرف دمشق شئت ؟ قال سليمان عليه السلام: لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ولكن كل خاطب كذّاب. رواه ابن عساكر عن أبي القاسم زاهر بن طاهر عن البيهقي به وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات، والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات : **﴿وأوتينا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾** أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود ، والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور ، والوحوش والشياطين السارحات ، والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ، ثم قال : **﴿إنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾** [النمل : ١٦] أي من بارئ البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى: **﴿ وحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إذَا أَتَوْا عَلَى وادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لايَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وجُنُودُهُ وهُمْ لا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلَى والِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾** [النمل : ١٧ - ١٩] .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام : أنه ركب يوما في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير، فالجن والإنس يسيرون معه ، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلي كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة أي نقباء يردون أوله على آخره ، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه . قال الله تعالى: **﴿ حَتَّى إذَا أَتَوْا عَلَى وادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لايَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وجُنُودُهُ وهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾** [النمل: ١٨] فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور. وقد ذكر وهب : أنه مر وهو على البساط بواد بالطائف ، وأن هذه النملة كان اسمها جرساً، وكانت من قبيلة يقال لهم : بنو الشيطان ، وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب. وفي هذا كله نظر بل في هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكبا في خيوله وفرسانه ، لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط ؛ لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيئاً ولا وطء؛ لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام والطير ، من فوق ذلك كله كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

والمقصود : أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد ، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور ، بما أطلعه الله عليه دون غيره وليس كما يقوله الجهلة : من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان ، وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك ، فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم لغاتهم مزية على غيره، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره ، وكان هو يفهمها لم يكن في هذا أيضاً فائدة يعول عليها . ولهذا قال : **﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾**

أي ألهمني وأرشدني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلَى والدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالحاً تَرْضَاهُ وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٩] فطلب من الله أن يقيضه [١] للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره وييسر عليه العمل الصالح ، وأن يحشره إذا توفّاه مع عباده الصالحين ، وقد استجاب الله تعالى له. والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه، وكانت من العابدات الصالحات . كما قال سنيد بن داود : عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبي ﷺ قال: « قالت أم سليمان بن داود يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة » [٢]. رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه. وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري : أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأي نملة قائمة رافعة إحدي قوائمها تستسقي ، فقال لأصحابه : ارجعوا فقد سقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها. قال ابن عساكر : وقد روي مرفوعاً ولم يذكر فيه سليمان . ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز عن سلامة بن روح بن خالد عن عقيل عن ابن شهاب . حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون اللّه فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء . فقال النبي : ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة » وقال السدي : أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها ، وهي تقول : « اللهم أنا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك » قال : فصب الله عليهم المطر.

وقال تعالى : ﴿ وتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ . لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ . إِنِّي وجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ولَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وجَدتُّهَا وقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ . أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ويَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ ومَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ . قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ . اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ . قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ والأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ . قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . وإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ . فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ . ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ولَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل:٢٠- ٣٧]

---

(١) يقيضه : يعوضه .

(٢) ضعيف : رواه ابن ماجه (١٣٣٢) وفى سنده سنيد بن داود ويوسف بن محمد وهما ضعيفان .

يذكر تعالى : ما كان من أمر سليمان والهدهد ؛ وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة ، كما هي عادة الجنود مع الملوك ، وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره : أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار (١) في حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم (٢) الأرض ، فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم ، فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده في موضعه من محل خدمته ﴿ **فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ** ﴾ أي ماله مفقود من ههنا أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي ﴿**لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً**﴾ توعده بنوع من العذاب. اختلف المفسرون فيه والمقصود حاصل على كل تقدير ﴿ **أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ أي بحجة تنجيه من هذه الورطة. قال الله تعالى : ﴿**فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾ أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها ﴿ **فَقَالَ** ﴾ لسليمان ﴿ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ**﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿ **وجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ**﴾ أي بخبر صادق ﴿ **إنِّي وجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ولَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين، وكان الملك قد آل في ذلك إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم.

وذكر الثعلبي وغيره : أن قومها ملّكوا عليهم بعد أبيها رجلاً فعم به الفساد فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها ، فلما دخلت عليه سقته خمراً ، ثم حزت رأسه ونصبته على بابها ، فأقبل الناس عليها وملّكوها عليهم ، وهي بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد ، وقيل : شراحيل بن ذي جدن ابن السيرح بن الحرث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان أبوها من أكابر الملوك وكان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن فيقال إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت السكن ، فولدت له هذه المرأة وسمها تلقمة ويقال لها : بلقيس. وقد روى الثعلبي من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : أنه قال: « **كان أحد أبوي بلقيس جنياً** ». وهذا حديث غريب وفي سنده ضعف.

وقال الثعلبي : أخبرني أبوعبد الله بن قبحونة . حدثنا أبو بكر بن جرجة . حدثنا ابن أبي الليث . حدثنا أبو كريب . حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن أبي بكرة . قال: ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال : « **لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة** ». إسماعيل بن مسلم هذا هو المكي ضعيف. وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عوف عن الحسن عن أبي بكرة : أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملّكوا عليهم ابنة كسرى . قال : « لن

---

(١) القفَارُ : مفردها القفر ، وهى الأراضى المقفرة الخالية من الناس والكلأ.

(٢) تخَوم : جمع : تُخْم وهى الحدود .

يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »[١]. رواه الترمذي والنسائي من حديث حميد عن الحسن عن أبي بكرة عن النبى ﷺ وقال الترمذي : حسن صحيح وقوله : **﴿ وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾** أي مما من شأنه أن تؤتاه الملوك **﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾** يعني سرير مملكتها كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلي الباهر. ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون ، أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات **﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾** [النمل : ٢٦]، أي له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات. فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان [٢] إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ولهذا قال لهم: **﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾** أي لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري **﴿ وأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾** أي وأقدموا على سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة ؟ فلما جاءها الكتاب مع الطير ومن ثَّم اتخذ الناس البطائق ، ولكن أين الثريا من الثرى ؟ [٣] تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ، ويقال له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها ، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها **﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾** [النمل : ٢٩] ثم قرأت عليهم عنوانه أولا **﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾** ثم قرأته **﴿ وإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾** [النمل:٢٩ ، ٣٠] . ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون **﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾** [النمل : ٣٢] تعني ما كنت لأبتُ أمراً إلا وأنتم حاضرون **﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾** يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين **﴿ وَ ﴾** مع هذا **﴿ الأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾** [النمل: ٣٣] فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة ، وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم ، فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع **﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾** [النمل : ٣٤] تقول برأيها السديد: إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إليَّ ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا عليَّ **﴿ وإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾** [النمل : ٣٥] أرادت أن تصانع عن

---

(١) رواه البخارى (٤٤٢٥) .

(٢) الإذعان : الخضوع والانقياد .

(٣) الثريا : كواكب كثيرة لامعة . والثرى : التراب .

نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ، ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم- والحالة هذه - صرفاً ولا عدلاً لأنهم كافرون ، وهو وجنوده عليهم قادرون ولهذا ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل:٣٦] هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة كما ذكره المفسرون. ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[النمل : ٣٧]

يقول : ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قدمَنْ بها فإن عندي مما قد أنعم الله علي وأسداه إلى من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ، ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ، ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل : ٣٧] عليهم الصغار والعار والدمار .

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله ، لم يكن لهم بد من السمع والطاعة فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة ، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين ، فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه، قال : لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ . قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ . وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ. قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل : ٣٨ - ٤٤] .

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني قبل أن ينقضي مجلس حكمك وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال ، يتصدي لمهمات بني إسرائيل ومالهم من الأشغال ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل : ٣٩] أي وإني لذو قدرة على إحضاره إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان. وقيل : هو رجل من مؤمني الجان كان فيما يقال : يحفظ الاسم الأعظم. وقيل : رجل من بني إسرائيل من علمائهم . وقيل : إنه سليمان وهذا غريب جداً. وضعفه السهيلي بأنه لا يصح في سياق الكلام . قال : وقد قيل فيه قول رابع : وهو جبريل ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قيل ، معناه : قبل أن تبعث

رسولا إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك. وقيل : قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس وقيل : قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك. وقيل : قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته وهذا أقرب ما قيل .

﴿ **فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ**﴾ أي فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ﴿ **قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** ﴾ أي هذا من فضل الله علي وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ **وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ [النمل : ٤٠] أي غني عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين .

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حُلي هذا العرش ويُنكر لها ليختبر فهمها وعقلها ولهذا قال: ﴿ **نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ** ﴾ [النمل : ٤١، ٤٢] وهذا من فطنتها وغزارة فهمها؛ لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب ، قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه : ﴿ **وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ . وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾ [النمل: ٤٢، ٤٣] أي ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم ، لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك ، وكان سليمان قد أمر ببناء صرح [1] من زجاج وعمل في مَمَرِّه ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء ، وأُمِرَت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿ **فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [النمل: ٤٤] وقد قيل : إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان ، وأن تبدي عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فَيُنفره ذلك منها ، وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه. وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة وهذا ضعيف وفي الأول أيضاً نظر والله أعلم. إلا أن سليمان قيل : إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها سأل الإنس عن زواله فذكروا له الموسى فامتنعت من ذلك ، فسأل الجان فصنعوا له النورة ووضعوا له الحمام ، فكان أول من دخل الحمام ، فلما وجد مسه قال أوه من عذاب أوه أوه قبل أن لا ينفع أوه. رواه الطبراني مرفوعاً وفيه نظر.

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليه ، وكان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ، ثم يعود على البساط وأمر الجان فبنوا له ثلاثة

---

(١) الصرح : البناء العالي .

قصور باليمن غمدان ، وسالحين ، وبيتون فالله أعلم. وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أن سليمان لم يتزوجها بل زوجها بملك همدان وأقرها على ملك اليمن وسخر زوبعة ملك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن والأول أشهر وأظهر والله أعلم.

وقال تعالى في سورة ص : ﴿ ووَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ والأَعْنَاقِ. ولَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَد مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ . فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . والشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وغَوَّاصٍ . وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:٣٠-٤٠] يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام . ثم أثني الله عليه تعالى فقال: ﴿ نِعْمَ العَبدُ إِنه أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] أي رجاع مطيع لله. ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة. الجياد وهي المضمرة السراع .

﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص : ٣٢] يعني الشمس. وقيل الخيل على ما سنذكره من القولين. ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ والأَعْنَاقِ﴾ [ص : ٣٣] قيل : مسح عراقيبها [١] وأعناقها بالسيوف. وقيل : مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر.

والذي عليه أكثر السلف الأول . فقالوا : اشتغل بعرض تلك الخيول ، حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس . روي هذا عن علي بن أبي طالب وغيره والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر ، اللهم إلا أن يقال : إنه كان سائغاً في شريعتهم فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك .

وقد ادعي طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف قاله الشافعي وغيره. وقال مكحول والأوزاعي: بل هو حكم محكم إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف. وقال آخرون : بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسيانا ، وعلي هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا والله أعلم. وأما من قال : الضمير في قوله : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ عائد على الخيل وإنه لم تفته وقت صلاة وأن المراد بقوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ والأَعْنَاقِ ﴾ [ص : ٣٣] يعني مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها فهذا القول اختاره ابن جرير ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق.

---

(١) العرقوب : عرق فى العنق .

ووجَّه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ، ويهلك مالا بلا سبب ولا ذنب لها ، وهذا الذي قاله فيه نظر : لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملتهم . وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر [1] الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يتقووا بها ، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بمؤته وقد قيل : إنها كانت خيلاً عظيمة. قيل : كانت عشرة آلاف فرس. وقيل : عشرين ألف فرس. وقيل : كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة.

وقد روي أبو داود في سننه : حدثنا محمد بن عوف . حدثنا سعيد بن أبي مريم . أنبأنا يحيى بن أيوب . حدثني عمارة بن عزية أن محمداً بن إبراهيم حدثه عن محمد بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة . قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة تلعب فقال: « **ما هذا يا عائشة** » ؟. فقالت: بناتي ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع فقال : « **ما هذا الذي أرى وسطهن** »؟. قالت : فرس . قال: « وما الذي عليه هذا » ؟. قالت : جناحان . قال : « **فرس له جناحان** »؟. قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟! قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ [2]. وقال بعض العلماء : لما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خير له منها ، وهو الريح التي كانت غدوها شهراً ورواحها شهراً كما سيأتي الكلام عليها.

كما قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل . حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالا : أتينا على رجل من أهل البادية . فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عزّ وجلّ وقال : « **إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منه** » [3].

وقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ** ﴾ [ص:٣٤] ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين ههنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة ، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير واقتصرنا ههنا على مجرد التلاوة ومضمون ما ذكروه : أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوماً . ثم عاد إليه ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء محكما. وقد قدمنا أنه جدده وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل عليه السلام ، كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : « **المسجد الحرام** » . قلت : ثم أي ؟. قال:

---

(١) ظفر : فاز وامتلك .

(٢) **صحيح** : رواه أبو داود (٤٩٣٢) نواجذ (الأضراس) في أقصى الأسنان . يقال : ضحك حتى بدت نواجذه ، إذا استغرب فيه – في الضحك – .

(٣) **صحيح** : رواه أحمد (٧٩/٥) .

« **مسجد بيت المقدس** » قلت : كم بينهما ؟ قال : "**أربعون سنة**" [١] ، ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بني المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة دَعْ أربعين سنة وكان سؤاله الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله البيت المقدس ، كما قال الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص : قال: قال رسول الله ﷺ : « **إن سليمان لما بني بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثاً فأعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة ، سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها** » [٢].

فأما الحكم الذي وافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلي أبيه في قوله : ﴿**وداوُدَ وسُلَيْمَانَ إذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ وكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وعِلْماً**﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم ، فنفشت فيه غنم قوم آخرين ، أي رعته بالليل فأكلت شجرة بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته ، فلما خرجوا على سليمان . قال : بما حكم لكم نبي الله ؟ فقالوا : بكذا وكذا . فقال : أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودراً حتى يصلح أصحاب الغنم الكرم أولئك ، ويردوه إلى ما كان عليه . ثم يتسلموا غنمهم فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به، وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « **بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر ، فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغرى : بل إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان . فقال : ائتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها** » [٣] ولعل كلا من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال: ﴿ **وكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وعِلْماً وسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ والطَّيْرَ وكُنَّا فَاعِلِينَ . وعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٧٩ ، ٨٠] .

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٣٦٦) ومسلم (١١٤١و١١٤٢) .

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (١٧٦/٢) والنسائى (٣٤/٢) وابن ماجه (١٤٠٨) وابن خزيمة (١٣٣٤) وابن حبان (١٦٣٣- إحسان) والحاكم (٣٠/١و٤٢٤/٢) وقوله: " وسأله حكما يصادف حكمه " أى يوافق حكمه فى السداد والإصابة .

(٣) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٤٢٧) ومسلم (١٧٢٠ / ٢٠) .

ثم قال : ﴿ ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ [الأنبياء : ٨١] أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ . ومِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ويَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ . [الأنبياء : ٨١ ، ٨٢] .

وقال في سورة ص : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . والشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وغَوَّاصٍ . وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآبٍ﴾: [ص: ٣٦-٤٠] لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح ، التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها تجري بأمره رخاء ﴿ حيث أَصَابَ ﴾ أي حيث أراد من أي البلاد. كان له بساط مركب من أخشاب ، بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان وغير ذلك ، من الحيوانات والطيور ، فإذا أراد سفراً أو مستنــــزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء ، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته ، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء بحيث كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر ، فيقيم هناك إلى آخر النهار. ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس .

كما قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ : ١٢ ،١٣] قال الحسن البصري : كان يغدو من دمشق فينــــزل بإصطخر فيتغدي بها ويذهب رائحا منها فيبيت بكابل وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر .

قلت : قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان ، أن إصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً وكذلك غيرها من بلدان شتي كتدمر وبيت المقدس وباب جبرون وباب البريد اللذين بدمشق على أحد الأقوال.

وأما القطر فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن أنبعها الله له . قال السدي : ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها .

وقوله: ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ : ١٢] أي وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذّبه ونكل به ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ وهي الصور في الجدران وكان هذا سائغاً في

شريعتهم وملتهم ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ [سبأ : ١٣] . قال ابن عباس: الجفنة كالجوبة من الأرض وعنه كالحياض، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء كما قال الأعشى :

تَروحُ على آلِ المحلّق جَفْنَةٌ كجابية الشّيخ العراقي يَفْهَقُ

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة : أثافيها منها يعني أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن وهكذا . قال مجاهد وغير واحد : ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان . قال تعالى:﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣].

وقال تعالى:﴿والشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وغَوَّاصٍ . وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ [ص:٣٧،٣٨] يعني أن منهم من قد سخره في البناء ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك، وقوله : ﴿ وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ أي قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود. هذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ولم يكن أيضاً لمن كان قبله، وقد قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار . حدثنا محمد بن جعفر . حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ليقطع على صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ [ص : ٣٥] فرددته خاسئاً »[1]. وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة وقال مسلم : حدثنا محمد بن سلمة المرادي . حدثنا عبد الله بن وهب عن معاوية بن صالح . حدثني ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي الدرداء . قال : قام رسول الله ﷺ فصلى فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثاً » وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة ، فلم يستأخر ثلاث مرات. ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة»[2] . وكذا رواه النسائي عن محمد بن سلمة به. وقال أحمد : حدثنا أبو أحمد . حدثنا مرة بن معبد . حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان . قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي فذهبت أمر بين يديه فردني . ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة. فلما فرغ من صلاته .

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٢٣) ومسلم (٥٤١ / ٣٩) .

(٢) رواه مسلم (٥٤٢ / ٤٠) .

قال : « **لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الإبهام والتي تليها ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد ، يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل** » [(١)]. روى أبو داود منه فمن استطاع إلى آخره عن أحمد بن سريج عن أحمد الزبيري به.

وقد ذكر غير واحد من السلف : أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة سبعمائة بمهور وثلاثمائة سراري وقيل : بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء. وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً . قال البخاري : حدثنا خالد بن مخلد . حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة** على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله . **فقال له صاحبه : إن شاء الله فلم يقل فلم** تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه » فقال النبي ﷺ : « **لو قالها لجاهدوا في سبيل الله** » [(٢)]. وقال شعيب وابن أبي الزناد تسعين وهو أصح تفرد به البخاري من هذا الوجه .

وقال أبو يعلي : حدثنا زهير . حدثنا يزيد . أنبأنا هشام بن حسان عن محمد عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : « **قال سليمان بن داود لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلاماً** يضرب بالسيف في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله . **فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة إلا امرأة** ولدت نصف إنسان » فقال رسول الله ﷺ: « **لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب** بالسيف في سبيل الله عزّ وجلّ » [(٣)]. إسناده على شرط الصحيح و لم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم . حدثنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة . قال: قال سليمان بن داود : « **لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ولم يستثن فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان** » قال: قال رسول الله ﷺ : « **لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل في سبيل الله عزّ وجلّ** » تفرد به أحمد أيضاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق . أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة. قال : قال رسول الله ﷺ : « **قال سليمان بن داود : لأطوفنَّ الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله . قال : ونسي أن يقول إن شاء الله فطاف بهن . قال : فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان** » فقال رسول الله ﷺ : « **لو قال : إن شاء الله لم يحنث** [(٤)] **وكان دركا لحاجته** » وهكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله .

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٨٣،٨٢/٣) .

(٢) رواه البخارى (٣٤٢٤) .

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٢٣٠/٢) وقوله : لم يستثن ، أى لم يقل : إن شاء الله . وقوله : بشق إنسان : أى بنصفه . والمراد – والله أعلم – أنه ضعيف لا يستطيع قتالاً ولا يغنى شيئاً .

(٤) حَنَثَ : فى يمينه – حنثاً : لم يبرّ .فيها وأثم .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا مقاتل عن أبي الزناد وابن أبي الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبي هريرة : « أن سليمان بن داود كان له أربعمائة امرأة وستمائة سرية فقال يوماً : لأطوفن الليلة على ألف امرأة فتحمل كل واحدة منهن بفارس ، يجاهد في سبيل الله ولم يستثن فطاف عليهن ، فلم تحمل واحدة منهن ، إلا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان » فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لو استثنى فقال إن شاء الله لولد له ما قال فرسان ولجاهدوا في سبيل الله عزّ وجلّ »[1] . وهذا إسناد ضعيف لحال إسحاق بن بشر فإنه منكر الحديث ولا سيما وقد خالف الروايات الصحاح. وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله ولا يعطيه الله أحداً بعده كما قال : ﴿ وأوتينا من كُلّ شيْء ﴾ [النمل : ١٦] و﴿ قَالَ رَبِّ اغفِرْ لِي وهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إنَّكَ أنتَ الوَهَّابُ ﴾ [ص:٣٥] وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق. ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أوْ أمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩] أي أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك ، أي تصرف في المال كيف شئت فإن الله قد سوغ[2] لك كل ما تفعله من ذلك، ولا يحاسبك على ذلك وهذا شأن النبي الملك بخلاف العبد الرسول ، فإن من شأنه أن لا يعطي أحداً ولا يمنع أحداً إلا بإذن الله له في ذلك وقد خير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبداً رسولاً. وفي بعض الروايات : أنه استشار جبريل في ذلك فأشار إليه أن تواضع ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً صلوات الله وسلامه عليه ، وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة فلله الحمد والمنة.

ولما ذكر تعالى : ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه على ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التي تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى: ﴿ وإنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص : ٤٠].

ذكر وَفاته ومدّة ملكه وحياته

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِه إلاَّ دَابَّةُ الأرْضِ تَأكُلُ مِنسَأتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾. [سبأ: ١٤] روي ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « كان سليمان نبي الله عليه السلام إذا صلى رأي شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا . فيقول : لأي شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس غرست وإن

---

(١) ضعيف : في سنده إسحاق بن بشر وهو منكر الحديث .
(٢) سوَّغ : جوَّز .

كانت لدواء أنبتت ، **فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأي شجرة بين يديه . فقال ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأي شيء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت. فقال سليمان : اللهم عم على الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا والجن تعمل فأكلتها الأرضة** [١] **فتبينت الإنس « أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولا** [٢] **في العذاب المهين »** . قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال : فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء . لفظ ابن جرير وعطاء الخراساني في حديثه نكارة. وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً وهو أشبه بالصواب والله أعلم. وقال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه فأدخله في المرة التي توفي فيها ، فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ، ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمي كذا وكذا، فإن كانت لغرس غرسها وإن كانت نبتت دواء . قالت : نبتُ دواء لكذا وكذا فيجعلها كذلك حتى نبتتْ شجرة يقال لها : الخروبة فسألها ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . فقال : ولأي شيء نبت ؟ فقالت : نبتُ لخراب هذا المسجد . فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس ، فنـــزعها وغرسها في حائط له. ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئاً على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب وكان المحراب له كوي بين يديه وخلفه فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول : ألست جليداً إن دخلت ؟ فخرجت من ذلك الجانب ، فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر ، فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلا احترق ولم يسمع صوت سليمان . ثم رجع فلم يسمع . ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ، ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته وهي العصا بلسان الحبشة قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة. ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وهي قراءة ابن مسعود فمكثوا يدأبون [٣] له من بعد موته حولا كاملا فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له وذلك قول الله عز وجل : **﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ** أن

---

(١) الأرضة : جمع أرض ، وهى حشرة بيضاء مصفرة تشبه النملة تعيش فى مستعمرات كبيرة ، وتأكل الخشب ونحوه .

(٢) الحول : العام .

(٣) يدأبون : يجِدّون ويتعبون .

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم . ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ولكنا سننقل إليك الماء والطين . قال : فإنهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت . قال : ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب ؟. فهو ما يأتيها به الشيطان تشكراً لها وهذا فيه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب.

وقال أبو داود في كتاب القدر : حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا قبيصة . حدثنا سفيان عن الأعمش عن خيثمة . قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت : إذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني . قال : ما أنا أعلم بذاك منك . إنما هي كتب يلقى إلي فيها تسمية من يموت. وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال : قال سليمان لملك الموت : إذا أمرت بي فأعلمني فأتاه فقال : يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة [1] فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه . قال : فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي . قال : فبعث الله دابة الأرض – يعني إلى منسأته [2] – فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها ، فخر فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾. [سبأ:١٤] قال أصبغ : وبلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل في منسأته ، حتى خرَّ ، وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله أعلم.

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهري وغيره : إنَّ سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة . وقال إسحاق : أنبأنا أبو روق عن عكرمة عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة والله أعلم، وقال ابن جرير : فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفاً وخمسين سنة وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس ، فيما ذكر ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير ، وقال : ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل.

جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد داود وسليمان

وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام

فمنهم : شعيا بن أمصيا. قال محمد بن إسحاق : وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام وكان في زمانه ملك اسمه حزقيا على بني إسرائيل ببلاد بيت

---

(١) سويعة : تصغير ساعة .

(٢) منسأته : العصا الغليظة التي تكون مع الراعي .

المقدس وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح، وكانت الأحداث قد عَظُمَتْ في بني إسرائيل فمَرض الملك وخرجت في رجله قرحة. وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان وهو « سنحاريب » قال ابن إسحاق : في ستمائة ألف راية وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً ، وقال الملك للنبي شعيا : ماذا أوحي الله إليك في أمر «سنحاريب» وجنوده ؟ فقال : لم يوحَ إليَّ فيهم بشيء بعد. ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك حزقيا بأن يوصي ويستخلف على ملكه من يشاء ، فإنه قد اقترب أجله فلما أخبره بذلك ، أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى ، فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله عزّ وجلّ بقلب مخلص وتوكل وصبر : « اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم ، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم ، اذكرني بعلمي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسي، سري وإعلاني لك » . قال : فاستجاب الله له ورحمه وأوحى الله إلى شعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر في أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه « سنحاريب » فلما قال له ذلك : ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخرَّ ساجداً وقال في سجوده : «اللهم أنت الذي تعطي الملك من تشاء وتنــزعه ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتجيب دعوة المضطرين» فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا ، أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ. ففعل ذلك فشفي وأرسل الله على جيش « سنحاريب » الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوي « سنحاريب » وخمسة من أصحابه منهم بختنصر ، فأرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم فجعلهم في الأغلال [١] وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ، ثم أودعهم السجن وأوحي الله تعالى إلى شعيا ، أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم . فلما رجعوا جمع «سنحاريب» قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم فقال له السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر «سنحاريب» مما خوفهم الله به. ثم مات « سنحاريب » بعد سبع سنين. قال ابن إسحاق . ثم لما مات «حزقيا» ملك بني إسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم فأوحى الله تعالى إلى شعيا . فقام فيهم فوعظهم وذكّرهم وأخبرهم عن اللّه بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه. فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة [٢] ثوبه فأبرزها ، فلما رأوا ذلك جاؤوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) الأغلال : القيود .

(٢) هدبة الثوب : ذيله .

ومنهم أرميا بن حلقيا من سبط لاوي بن يعقوب

وقد قيل : إنه الخضر، رواه الضحاك عن ابن عباس وهو غريب وليس بصحيح. قال ابن عساكر : جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق ، فقال : أيها الدم فتنت الناس فاسكن . فسكن. ورسب حتى غاب. وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني علي بن أبي مريم عن أحمد بن حباب عن عبد الله بن عبد الرحمن . قال : قال أرميا : أي رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لي ذكراً الذين يشتغلون بذكري عن ذكر الخلائق. الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء. الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قاوموه وإذا زوي عنهم سروا بذلك. أولئك أنحلهم (١) محبتي وأعطيهم فوق غاياتهم .

ذكر خراب بيت المقدس

وقوله تعالى : ﴿ وآتَيْنَا مُوسَى الكتَابَ وجَعَلْنَاهُ هُدَى لِّبَنِي إسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخذُوا من دُونِي وكِيلاً . ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً . وقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتَاب لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ولَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيراً . فَإِذَا جَاءَ وعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عباداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيد فَجَاسُوا خلالَ الدِّيَارِ وكَانَ وعْداً مَّفْعُولاً . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وبَنِينَ وجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً . إنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسكُمْ وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وعْدُ الآخرَةِ لِيَسُؤُوا وجُوهَكُمْ ولِيَدْخُلُوا المَسْجدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ولِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً . عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ [الإسراء : ٢ – ٨] أو قال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له أرميا : حين ظهرت فيهم المعاصي أن قم بين ظهراني قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون (٢) وأعينا ولا يبصرون وآذاناً ولا يسمعون وإني تذكرت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم فسلهم كيف وجدوا غب (٣) طاعتي ؟ وهل سعد أحد ممن عصاني بمعصيتي ؟ وهل شقي أحد ممن أطاعني بطاعتي ؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتنـــزع إليها ،وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم، والتمسوا الكرامة من غير وجهها ، أما أحبارهم فأنكروا حقي، وأما قراؤهم فعبدوا غيري ، وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا ، وأما ولاتهم فكذبوا علي وعلى رسلي. خزنوا المكر في قلوبهم ،وعودوا الكذب ألسنتهم، وإني أقسم بجلالي وعزتي لأهيجن عليهم جيولا لا يفقهون ألسنتهم ، ولا يعرفون وجوههم ، ولا يرحمون بكاءهم، ولأبعثن فيهم ملكاً جباراً قاسياً له عساكر كقطع السحاب، ومواكب كأمثال الفجاج(٤) كان خفقان راياته طيران النسور، وكان حمل فرسانه كر العقبان ، يعيدون العمران

---

(١) نَحل : أعطى .

(٢) فَقِه : فَهِم .

(٣) غَبَّ : عاقبة الشيء ونتيجته .

(٤) الفج : الطريق الواسع البعيد، جمع فجاج ، وأفجة .

خراباً ،ويتركون القرى وحشة فيا ويل إيليا وسكانها . كيف أذللهم للقتل وأسلط عليهم السبا وأعيد بعد لجب [١] الأعراس صراخاً وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب ،وبعد شرافات القصور مساكن السباع، وبعد ضوء السرج وهج العجاج [٢] وبالعز ذلاً وبالنعمة العبودية ، وأبدلن نساءهم بعد الطيب التراب، وبالمشي على الزرابي [٣] الخبب [٤] ولأجعلن أجسادهم زبلاً للأرض، وعظامهن ضاحية للشمس، ولأدوسنهم بألوان العذاب ، ثم لآمرن السماء فتكون طبقاً من حديد، والأرض سبيكة من نحاس ، فإن أمطرت لم تنبت الأرض وإن أنبتت شيئاً في خلال ذلك فبرحمتي للبهائم. ثم أحبسه في زمان الزرع وأرسله في زمان الحصاد ، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئاً سلطت عليه الآفة [٥] فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة، فإن دعوني لم أجبهم، وإن سألوا لم أعطهم، وإن بكوا لم أرحمهم، وإن تضرعوا صرفت وجهي عنهم.رواه ابن عساكر بهذا اللفظ.

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا إدريس عن وهب بن منبه . قال : إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بني إسرائيل وذلك حين عظمت الأحداث فيهم ، فعملوا بالمعاصي وقتلوا الأنبياء طمع «بخت نصر» فيهم ،وقذف الله في قلبه ،وحدث نفسه بالمسير إليهم ، لما أراد الله أن ينتقم به منهم ، فأوحى الله إلى أرميا إني مهلك بني إسرائيل ومنتقم منهم ، فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمري ووحيي ، فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجداً وقال : يارب وددت أمي لم تلدني حين جعلتني آخر أنبياء بني إسرائيل ، فيكون خراب بيت المقدس وبوار بني إسرائيل من أجلي. فقال له: ارفع رأسك فرفع رأسه فبكى . ثم قال : يا رب من تسلط عليهم؟ فقال عبدة النيران : لا يخافون عقابي ولا يرجون ثوابي ، قم يا أرميا فاستمع وحيي أخبرك خبرك وخبر بني إسرائيل. من قبل أن أخلقك اخترتك. ومن قبل أن أصورك في رحم أمك قدستك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ نبأتك، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك ولأمر عظيم اجتبيتك ، فقم مع الملك تسدده وترشده ، فكان مع الملك يسدده ويأتيه الوحي من الله ، حتى عظمت الأحداث ونسوا ما نجاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده، فأوحى الله إلى أرميا قم فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتي عليهم وعرفهم أحداثهم ، فقال أرميا : « يارب إني ضعيف إن لم تقوني، عاجز إن لم تبلغني ، مخطئ إن لم تسددني ، مخذول إن لم تنصرني ، ذليل إن لم تعزني » فقال الله تعالى : أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي، وأن الخلق والأمر كله لي وأن القلوب والألسنة كلها بيدي فاقلبها كيف شئت فتطيعني ، فأنا الله الذي ليس شيء مثلي. قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتي. وإنه لا

(١) اللجب : الجلبة والصياح .
(٢) العجاج : الغبار والدخان .
(٣) الزرابي : النمارق .
(٤) الخبب : ضرب من سير الإبل .
(٥) الآفة : الحشرات والأمراض .

يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلا لي ،ولا يعلم ما عندي غيري ، وأنا الذي كلمت البحار ففهمت قولي وأمرها ففعلت أمري وحددت عليها حدوداً فلا تعدو حدي وتأتي بأمواج كالجبال ، فإذا بلغت حدي ألبستها مذلة لطاعتي وخوفاً واعترافاً لأمري وإني معك ولن يصل إليك شيء معي وإني بعثتك إلى خلق عظيم من خلقي لتبلغهم رسالاتي فتستوجب لذلك أجر من اتبعك ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم : إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم فلذلك استبقاكم ، يا معشر أبناء الأنبياء : وكيف وجد آباؤكم مغبة طاعتي ؟ وكيف وجدتم مغبة معصيتي ؟ وهل وجدوا أحداً عصاني فسعد بمعصيتي ؟ وهل علموا أحداً أطاعني فشقي بطاعتي ؟ إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها، وإن هؤلاء القوم رتعوا في مروج الهلكة وتركوا الأمر الذي به أكرمت آباءهم وابتغوا الكرامة من غير وجهها. أما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادي خولا يتعبدونهم ، ويعملون فيهم بغير كتابي حتى أجهلوهم أمري، وأنسوهم ذكري وسنتي وعزوهم عني ، فدان لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي فهم يطيعونهم في معصيتي.

وأما ملوكهم وأمراؤهم فبطروا [١] نعمتي وأمنوا مكري، وغرتهم الدنيا ، حتى نبذوا كتابي ونسوا عهدي ، فهم يحرفون كتابي ويفترون على رسلي جرأة منهم على وغرة بي ، فسبحان جلالي وعلو مكاني وعظمة شأني ، هل ينبغي أن يكون لي شريك في ملكي ؟ وهل ينبغي لبشر أن يطاع في معصيتي ؟ وهل ينبغي لي أن أخلق عباداً أجعلهم أرباباً من دوني ؟ أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهي لا تنبغي إلا لي.

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني ويطيعونهم فى معصيتي ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي ، فهم جهلة بما يعلمون ولا ينتفعون بشيء مما علموا من كتابي.

وأما أولاد النبيين فمقهورون ومفتونون ، يخوضون مع الخائضين ، يتمنون مثل نصري آباءهم والكرامة التي أكرمتهم بها ويزعمون أنه لا أحد أولي بذلك منهم بغير صدق منهم ولا تفكر، ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم وكيف كان جهدهم في أمري حين اغتر المغترون، وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمري وظهر ديني ، فتأنيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون مني ويرجعون ، فتطولت عليهم وصفحت عنهم فأكثرت ومددت لهم في العمر وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون. وكل ذلك أمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض وألبسهم العافية وأظهرهم على العدو ولا يزدادون إلا طغياناً وبعداً مني ، فحتى متى هذا ؟ أبي يسخرون أم بي يتحرشون أم إياي يخادعون أم علي يجترؤون ؟

---

(١) بطر : طغوا بالنعمة .

فإني أقسم بعزتي لأتيحن عليهم فتنة يتحير فيها الحكيم، ويضل فيها رأي ذوي الرأي وحكمة الحكيم ، ثم لأسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً ، ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة، وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم، له فيه عساكر مثل قطع السحاب ومواكب مثل العجاج، وكأن حفيف راياته طيران النسور وحمل فرسانه كسرب العقبان ، يعيدون العمران خراباً والقرى وحشاً ويعيثون في الأرض فساداً ويتبرون ما علوا تتبيراً ، قاسية قلوبهم لا يكترثون ولا يرقبون ولا يرحمون ولا يبصرون ولا يسمعون ، يجولون في الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد ، تقشعر من هيبتها الجلود ، وتطيش من سمعها الأحلام بألسنة لا يفقهونها ووجوه ظاهر عليها المنكر لا يعرفونها. فوعزتي لأعطلن بيوتهم من كتبي وقدسي، ولأخلين مجالسهم من حديثها ودروسها، ولأوحشن مساجدهم من عمارها وزوارها الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيري، ويتهجدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين ، ويتفقهون فيها لغير الدين، ويتعلمون فيها لغير العمل، لأبدلن ملوكها بالعز الذل ، وبالأمن الخوف، وبالغني الفقر وبالنعمة الجوع وبطول العافية والرخاء أنواع البلاء ،وبلباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعباء وبالأرواح الطيبة والأدهان جيف القتل وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال ، ثم لأعيدنّ فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب، وبعد البروج المشيدة مساكن السباع، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد ضوء السراج دخان الحريق، وبعد الإنس الوحشة والقفار، ثم لأبدلن نساءها بالإسورة الأغلال وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد وبألوان الطيب والأدهان النقع [1] والغبار، وبالمشي على الزرابي عبور الأسواق والأنهار والخبب إلى الليل في بطون الأسواق وبالخدور والستور الحسور عن الوجوه والسوق، والأسفار والأرواح السموم ، ثم لأدوسنهم بأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حالق لوصل ذلك إليه ، إني إنما أكرم من أكرمني وإنما أهين من هان عليه أمري ، ثم لآمرن السماء خلال ذلك فلتكونن عليهم طبقاً من حديد، ولآمرن الأرض فلتكونن سبيكة من نحاس ، فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت ، فإن أمطرت خلال ذلك شيئاً سلطت عليهم الآفة ، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة، وإن دعوني لم أجبهم، وإن سألوني لم أعطهم، وإن بكوا لم أرحمهم، وإن تضرعوا إلى صرفت وجهي عنهم، وإن قالوا : اللهم أنت الذي ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ثم مكنت لنا في البلاد، واستخلفتنا فيها وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغاراً وحفظتنا وإياهم برحمتك كباراً ، فأنت أوفي المنعمين وإن غيرنا. ولا تبدل وإن بدلنا وإن تتم فضلك ومنك وطولك وإحسانك ، فإن قالوا ذلك قلت لهم : إني أبتدئ عبادي برحمتي ونعمتي. فإن قبلوا أتممت، وإن استزادوا زدت وإن شكروا ضاعفت، وإن غيروا غيرت، وإذا غيروا غضبت، وإذا غضبت عذبت، وليس يقوم شيء بغضبي.

---

(١) النقع : غبار المعارك .

قال كعب : فقال أرميا : برحمتك أصبحت أتعلم بين يديك، وهل ينبغي ذلك لي ؟ وأنا أذل وأضعف من أن ينبغي لي أن أتكلم بين يديك، ولكن برحمتك أبقيتني لهذا اليوم وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد مني بما رضيت به مني طولاً والإقامة في دار الخاطئين وهم يعصونك حولي بغير نكر ولا تغيير مني ، فإن تعذبني فبذنبي وإن ترحمني فذلك ظني بك ، ثم قال : يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت ، أهلك هذه القرية وما حولها وهي مساكن أنبيائك ومنـــزل وحيك ؟ يارب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت لمخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التي رفعت لذكرك . يارب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمقتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك وأمة موسى نجيك وقوم داود صفيك . يا رب أي القرى تأمن عقوبتك بعد ؟ وأي العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم وأمة نجيك موسى وقوم خليفتك داود تسلط عليهم عبدة النيران ؟ قال الله تعالى : « يا أرميا من عصاني فلا يستنكر نقمتي فإني إنما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي ولو أنهم عصوني لأنزلتهم دار العاصين ، إلا أن أتداركهم برحمتي » .

قال أرميا : يا رب اتخذت إبراهيم خليلا وحفظتنا به وموسى قربته نجيا ، فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا ، فأوحى الله إليه : « يا أرميا إني قدستك في بطن أمك وأخرتك إلى هذا اليوم ، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل لكنت الداعم لهم وكانوا عندي بمنـــزلة جنة ناعم شجرها طاهر ماؤها ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ولكن سأشكو إليك بني إسرائيل ، إني كنت لهم بمنـــزلة الداعي الشفيق أجنبهم كل قحط وكل عسرة واتبع بهم الخصب ، حتى صاروا كباشا ينطح بعضها بعضا ، فيا ويلهم ثم يا ويلهم ، إنما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمري إن من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتي وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتي تبرعاً فيظهرونها في المساجد والأسواق وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار ، حتى عجت [(١)] السماء إلى منهم وعجت الأرض والجبال ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها وفي كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب ».

قال : فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه وقالوا : كذبت وأعظمت على الله الفرية [(٢)] فتزعم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده ، فمن يعبده حين لا يبقى له في الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب ؟ لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك [(٣)] الجنون ، فأخذوه وقيدوه وسجنوه فعند ذلك بعث الله

(١) عج – عجا ، وعجه ، وعجيجاً : رفع صوته وصاح .
(٢) الفرية : الكذب المصنوع المختلق – الكذب العظيم – .
(٣) اعترى : أصاب .

عليهم بختنصر، فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصرهم فكان كما قال تعالى: ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء : ٥] قال : فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمه ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة وذلك قوله : ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين ، فقتل منهم الثلث وسبي [١] الثلث وترك الزمنى [٢] والشيوخ والعجائز ،ثم وطئهم بالخيل ،وهدم بيت المقدس وساق الصبيان ، وأوقف النساء في الأسواق حاسرات وقتل المقاتلة وخرب الحصون ، وهدم المساجد وحرق التوراة ، وسأل عن دانيال الذي كان قد كتب له الكتاب فوجدوه قد مات، وأخرج أهل بيته الكتاب إليه وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر وميشائيل وعزرائيل وميخائيل فأمضى لهم ذلك الكتاب، وكان دانيال بن حزقيل خلفا من دانيال الأكبر، ودخل بختنصر بجنوده بيت المقدس ووطئ الشام كله، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم. فلما فرغ انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها وساق السبايا فبلغ معه عدة صبياهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف غلام وقذف الكناسات في بيت المقدس وذبح فيه الخنازير ،وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود، وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف ابن يعقوب وأخيه بنيامين، وثمانية آلاف من سبط إيشا بن يعقوب، وأربعة عشر ألفاً من سبط زيالون ونفتالي ابني يعقوب، وأربعة عشر ألفاً من مسبط دان بن يعقوب ، وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب ، وألفين من سبط زيالون بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي ، واثني عشر ألفاً من سائر بني إسرائيل ، وانطلق حتى قدم أرض بابل.

قال إسحاق بن بشر : قال وهب بن منبه : فلما فعل ما فعل قيل له : كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم ، ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم فكذبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه ، فأمر بختنصر فأخرج أرميا من السجن فقال له : أكنت تحذر هؤلاء القوم ما أصابهم ؟ قال : نعم. قال : فإني علمت ذلك قال : أرسلني الله إليهم فكذبوني ، قال : كذبوك وضربوك وسجنوك ؟ قال: نعم . قال : بئس القوم قوم كذبوا نبيهم وكذبوا رسالة ربهم، فهل لك أن تلحق بي فأكرمك وأواسيك؟ وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمنتك ، قال له أرميا : إني لم أزل في أمان الله منذ كنت لم أخرج منه ساعة قط ، ولو أن بني إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ، ولم يكن لك عليهم سلطان، فلما سمع بختنصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض إيليا. وهذا سياق غريب. وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة وفيه من جهة التعريب غرابة.

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كان بختنصر أصفهانيا لما بين الأهواز إلى الروم للملك على الفرس وهو لهراسب ، وكان قد بنى مدينة بلخ التي تلقب بالخنساء ، وقاتل الترك

---

(١) سبى : أسر وصاروا عبيداً .

(٢) الزمنى : أصحاب العاهات .

وألجأهم إلى أضيق الأماكن ، وبعث بختنصر لقتال بني إسرائيل بالشام فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق ، وقد قيل : إن الذي بعث بختنصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب وذلك لتعدي بني إسرائيل على رسله إليهم. وقد روي ابن جرير عن يونس بن عبدالأعلي عن ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب أن بختنصر لما قدم دمشق وجد بها دما يغلي على كبا، يعني القمامة، فسألهم ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا ، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر . قال : فقتل على ذلك سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن. وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب ، وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا ، وهذا لا يصح لأن يحيى بن زكريا بعد بختنصر بمدة، والظاهر أن هذا دم نبي متقدم أو دم لبعض الصالحين أو لمن شاء الله ممن الله أعلم به.

قال هشام بن الكلبي : ثم قدم بختنصر بيت المقدس فصالحه ملكها ، وكان من آل داود، وصانعه عن بني إسرائيل وأخذ منه بختنصر رهائن ورجع. فلما بلغ طبرية بلغه أن بني إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه، فضرب رقاب من معه من الرهائن ، ورجع إليهم فأخذ المدينة عنوة ، وقتل المقاتلة وسبى الذرية، قال: وبلغنا أنه وجد في السجن أرميا النبي فأخرجه وقص عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه، فقال بختنصر : بئس القوم قوم عصوا رسول الله ، وخلى سبيله وأحسن إليه ، واجتمع إليه من بقي من ضعفاء بني إسرائيل . فقالوا : إنا قد أسأنا وظلمنا ونحن نتوب إلى الله عزّ وجلّ مما صنعنا، فادع الله أن يقبل توبتنا، فدعا ربه فأوحى إليه أنه غير فاعل، فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة، فأخبرهم ما أمره الله تعالى به. فقالوا : كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب الله على أهلها فأبوا أن يقيموا؟.

قال ابن الكلبي : ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد، فنـزلت طائفة منهم الحجاز ، وطائفة يثرب ، وطائفة وادي القري ، وذهبت شرذمة منهم إلى مصر، فكتب بختنصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه فأبى عليه، فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم [1]، ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصي تلك الناحية ، قال : ثم انصرف بسبي كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن ، وفي السبي دانيال. قلت : والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر على ماذكره وهب بن منبه والله أعلم .

شيء من خبر دانيال عليه السّلام

قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أحمد بن عبد الأعلي الشيباني . قال : إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان فحدثني بعض أصحابنا عنه عن الأجلح الكندي عن عبد الله بن أبي الهذيل

(١) الزرارى : النساء .

قال: ضرا بخت نصر أسدين فألقاهما في جب [1] ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه، فمكث ما شاء الله، ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب فأوحي الله إلى أرميا وهو بالشام أن أعدد طعاماً وشراباً لدانيال ، فقال : يارب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق ، فأوحى الله إليه أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت، ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده ، حتى وقف على رأس الجب، فقال دانيال : من هذا ؟ قال: أنا أرميا، فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلني إليك ربك ، قال : وقد ذكرني ربي؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، والحمد لله الذي يجيب من رجاه، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا.

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن أبي خلد بن دينار : حدثنا أبوالعالية . قال: لما افتتحنا تستر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف، فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعبا فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا، فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم ، وما هو كائن بعد ، قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه، قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال . قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة ، قلت : ما تغير منه شيء ؟ قال : لا ، إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع، وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمائة سنة، فليس بنبي بل هو رجل صالح، لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في البخاري ، والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة. وقيل : ستمائة . وقيل : ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر ، إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قربت الظنون أنه دانيال لأن دانيال؛ كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونا كما تقدم. وقد روي بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبر. وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع فيحتمل على هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد والله أعلم .

---

(١) جب : بئر .

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب أحكام القبور : حدثنا أبو بلال محمد بن الحارث ابن عبد الله بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري . حدثنا أبو محمد القاسم بن عبد الله عن أبي الأشعث الأحمري . قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن دانيال دعا ربه عزَّ وجلَّ أن يدفنه أمة محمد** » فلما افتتح أبو موسى الأشعري تستر وجده في تابوت تضرب عروقه ووريده ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : « **من دل على دانيال فبشروه بالجنة** » فكان الذي دل عليه رجل يقال له : حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر بخبره فكتب إليه عمر أن ادفنه وابعث إلى حرقوص، فإن النبي ﷺ بشره بالجنة وهذا مرسل من هذا الوجه وفي كونه محفوظاً نظر والله أعلم.

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو بلال حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد ، وكان عالما . قال : وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً ، وجرة فيها ودك [1] ودراهم وخاتمه، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر ، أما المصحف فابعث به إلينا ، وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به ، واقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفلناكه. وروي عن ابن أبي الدنيا من غير وجه أن أبا موسى لما وجده وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبله. وكتب إلى عمر يذكر له أمره وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض وأن عنده ربعة فأمر عمر بأن يُغسَّل بماء وسدر [2] ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال ، وبالربعة فتحمل إليه ونفله [3] خاتمه. وروى عن أبي موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسكروا نهراً وحفروا في وسطه قبراً فدفنه فيه ، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم، فلم يعلم موضع قبره غير أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وقال ابن أبي الدنيا : حدثني إبراهيم بن عبد الله . حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح . حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه . قال : رأيت في يد ابن بردة بن أبي موسى الأشعري خاتماً نقش فصه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال : أبو بردة هذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه.قال أبو بردة: فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم، فقالوا: إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم، فقالوا له : إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يعور [4] ملكك ويفسده، فقال الملك: والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنهم أخذوا دانيال، فألقوه في أجمة الأسد ، فبات الأسد ولبوته يلحسانه ، ولم يضراه فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه، فنجاه الله بذلك حتى

---

(١) ودك : دسم اللحم .
(٢) سدر : شجر النبق .
(٣) نفل : أهدى وأعطى .
(٤) يعور : يعيب .

بلغ ما بلغ قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلا يَنْسَي نعمة الله عليه في ذلك. إسناد حسن.

عمارة بيت المقدس بعد خَرَابها واجتماع بني إسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض

قال الله تعالى في كتابه المبين وهو أصدق القائلين : **﴿ أَوْ كَالَّذي مَرَّ عَلَى قَرْيَة وهيَ خَاويَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذه اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبثْتَ قَالَ لَبثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبثْتَ مائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إلَى طَعَامكَ وشَرَابكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وانظُرْ إلَى حمَارِكَ ولنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وانظُرْ إلَى العظَامِ كَيْفَ نُنشزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾** [البقرة : ٢٥٩] .

قال هشام بن الكلبي : ثم أوحى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام، فيما بلغني أني عامر بيت المقدس فأخرج إليها فأنزلها، فخرج حتى قدمها وهي خراب فقال في: نفسه سبحان الله! أمرني الله أن أنزل هذه البلدة وأخبرني أنه عامرها فمتي يعمرها؟ ومتي يحيها الله بعد موتها ؟ ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلة من طعام فمكث في نومه سبعين سنة حتى هلك بختنصر والملك الذي فوقه وهو لهراسب وكان ملكه مائة وعشرين سنة وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب وكان موت بختنصر في دولته فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب وإن السباع قد كثرت في أرض فلسطين فلم يبق بها من الإنس أحد، فنادى في أرض بابل في بني إسرائيل أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع وملك عليهم رجلا من آل داود وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبني مسجدها، فرجعوا فعمروها وفتح الله لأرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تبنى ؟ وكيف تعمر ؟ ومكث في نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة وقد عهد المدينة خرابا فلما نظر إليها عامرة آهلة قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير. قال : فأقام بنو إسرائيل بها ورد الله عليهم أمرهم فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف. ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان يعني بعد ظهور النصاري عليهم. هكذا حكاه ابن جرير في تاريخه عنه. وذكر ابن جرير أن لهراسب كان ملكاً عادلاً سائساً لمملكته قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد وأنه كان ذا رأي جيد في عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل. ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مائة سنة ونيف، نزل عن الملك لولده بشتاسب، فكان في زمانه ظهور دين المجوسية؛ وذلك أن رجلاً كان اسمه زرادشت كان قد صحب إرميا عليه السلام فأغضبه فدعا عليه أرميا عليه السلام فبرص زرادشت، فذهب فلحق بأرض آذربيجان وصحب بشتاسب فلقنه دين المجوسية الذي اخترعه من تلقاء نفسه فقبله منه بشتاسب وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً من أباه منهم .

ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب، وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين، وقد ناب بختنصر نصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وعمر دهراً طويلاً قبحه الله. والمقصود أن هذا الذي ذكره ابن جرير من أن هذا المار على هذه القرية هو أرميا عليه السلام. قال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهما وهو قوي من حيث السياق المتقدم وقد روي عن علي وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بريدة وغيرهم أنه عزير. وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف والله أعلم.

وَهَذه قصَّة العــزيــر

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر: هو عزير بن جروة ويقال: ابن سوريق بن عديا بن أيوب بن درزنا بن عري بن تقي بن أسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران. ويقال: عزير بن سروخا جاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق. ثم ساق من طريق أبي القاسم البغوي عن داود بن عمرو عن حبان بن على عن محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً لا أدري العين بيع أم لا ولا أدري أكان عزير نبيا أم لا ؟

ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن عن محمد بن إسحاق السجزي عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي ذؤيب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. ثم روي من طريق إسحاق بن بشر وهو متروك عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس أن عزيراً كان ممن سباه بختنصر وهو غلام حدث فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة .قال: ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه، قال: وكان يذكر مع الأنبياء حتى محى الله اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد عن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن عبد الله بن سلام أن عزيراً هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه. وقال إسحاق بن بشر: نبأنا سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب وسعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن ومقاتل وجوبير عن الضحاك عن ابن عباس وعبد الله بن إسماعيل السدي عن أبيه عن مجاهد عن ابن عباس وإدريس عن جده وهب بن منبه، قال إسحاق: كل هؤلاء حدثوني عن حديث عزير وزاد بعضهم على بعض قالوا بإسنادهم إن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيماً خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ، ودخل الخربة وهو على حماره، فنـــزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب، فنـــزل في ظل تلك الخربة وأخرج قصعة ، معه فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة ، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل ليأكله ، ثم استلقي على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط، فنظر سقف تلك البيوت، ورأى ما فيها ، وهي قائمة على عروشها ، وقد باد [1] أهلها ورأى عظاما بالية فقال:

(١) باد : هلك .

﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] فلم يشك أن الله يحييها ولكن قالها تعجباً فبعث الله ملك الموت فقبض روحه، فأماته الله مائة عام، فلما أتت عليه مائة عام وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث قال: فبعث الله إلى عزير ملكاً فخلق قلبه ليعقل قلبه وعينيه لينظر بهما فيعقل ،كيف يحيى الله الموتي ؟ ثم ركب خلقه وهو ينظر ،ثم كسي عظامه اللحم والشعر والجلد، ثم نفخ فيه الروح كل ذلك وهو يرى ويعقل فاستوى جالساً، فقال له الملك : كم لبثت ؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة وبعث في آخر النهار والشمس لم تغب فقال أو بعض يوم ولم يتم لي يوم، فقال له الملك بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك يعني الطعام الخبز اليابس وشرابه العصير الذي اعتصره في القصعة فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير ،والخبز يابس فذلك قوله **﴿لَم يتَسنَّه ﴾** يعني لم يتغير وكذلك التين والعنب غض [١] لم يتغير شيء من حالهما فكأنه أنكر في قلبه، فقال له الملك: أنكرت ما قلت لك انظر إلى حمارك فنظر إلى حماره قد بليت عظامه ، وصارت نخرة فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركبه الملك وعزير ينظر إليه ثم ألبسها العروق والعصب ثم كساها اللحم، ثم أنبت عليها الجلد والشعر، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظن القيامة قد قامت فذلك قوله : **﴿وانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وِلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً﴾** [البقرة : ٢٥٩] يعني وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضا في أوصالها حتى إذا صارت عظاماً مصوراً حماراً بلا لحم ثم انظر كيف نكسوها لحماً ؟ فلما تبين له قال: اعلم أن الله على كل شيء قدير من إحياء الموتى وغيره، قال: فركب حماره حتى أتي محلته فأنكره الناس، وأنكر الناس، وأنكر منــزله، فانطلق على وهم منه ، حتى أتي منــزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة، قد أتى عليها مائة وعشرون سنة ،كانت أمة لهم فخرج عنهم عزير وهي بنت عشرين سنة ، كانت عرفته وعقلته فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة. فقال لها عزير : يا هذه أهذا منــزل عزير ؟ قالت : نعم ، هذا منــزل عزير فبكت وقالت: ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً وقد نسيه الناس قال: فإني أنا عزير ،كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني قالت: سبحان الله فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة، فلم نسمع له بذكر قال: فإني أنا عزير ،قالت: فإن عزيراً رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادع الله أن يرد على بصري حتى أراك، فإن كنت عزيراً عرفتك. قال: فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال: قومي بإذن الله فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما أنشطت من عقال، فنظرت فقالت: أشهد أنك عزير وانطلقت إلى محلة بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم ، وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثماني عشرة سنة ، وبني بنيه شيوخ في المجلس فنادتهم. فقالت: هذا عزير قد جاءكم فكذبوها.فقالت: أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد على بصري وأطلق رجلي وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه، قال: فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه،

---

(١) غض : طرى .

فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير، فقالت بنو إسرائيل :فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال فاكتبها لنا، وكان أبوه سروخا وقد دفن التوراة أيام بختنصر في موضع لا يعرفه أحد غير عزير، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب. قال: وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ، ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكر التوراة فجددها لبني إسرائيل، فمن ثمّ قالت اليهود: عزير بن الله، للذي كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل ، وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل. والقرية التي مات فيها يقال لها : «سايراباذ» . قال ابن عباس : فكان كما قال الله تعالى: ﴿**ولنجعلك آية للناس**﴾ يعني لبني إسرائيل. وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب ؛ لأنه مات وهو ابن أربعين سنة فبعثه الله شاباً كهيئته يوم مات ، قال ابن عباس: بعث بعد بختنصر وكذلك قال الحسن . وقد أنشد أبو حاتم السجستاني في معني ما قاله ابن عباس:

واســـــودَّ رأسٍ شاب من قبلهِ ابنــهُ ومن قبلهِ ابنُ ابنهِ فــــهو أكـــــبرُ
يـــــري ابنه شيخاً يدبّ على عصـــا ولحيته سَـــوداء والرأس أشــــــقرُ
ومـــــا لابنـــهِ حَيْلٌ ولا فضْلُ قـــوّةٍ يقومُ كما يمشـــي الصبيّ فيعْـــــثرُ
يعـــــدّ ابنه في الناسِ تسعينَ حجـــة وعشرِين لا يجري ولا يَتَبخـــــتُر
وعمــــــرُ أبيـــــهِ أرْبَعُون أمرّهَـــــا ولابنَ ابنَه تسعونَ في الناسِ عبـــــر
فمـــا هُو في المعْقولِ إن كنتَ داريا وإن كنتَ لاَتَـــدْري فبالجهـــل تُعذَرُ

نبوءة العزير

المشهور أن عزيراً نبي من أنبياء بني إسرائيل ،وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى ،وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها على بني إسرائيل ،كما قال وهب بن منبه: أمر الله ملكاً فنـــزل بمغرفة من نور فقذفها في عزير فنسخ التوراة حرفاً بحرف حتى فرغ منها. وروى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ**﴾ [التوبة : ٣٠] لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كتبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه وقول بني إسرائيل لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب، فرماه طوائف منهم وقالوا عزير ابن الله. ولهذا يقول كثير من العلماء : إن تواتر التوراة انقطع في زمن العزير، وهذا متجه جدا إذا كان العزير غير نبي كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن البصري ، وفيما رواه إسحاق ابن بشر عن مقاتل بن سليمان عن عطاء وعن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه ومقاتل عن عطاء بن أبي رباح . قال: كان في الفترة تسعة أشياء بختنصر وجنة صنعاء وجنة سبأ وأصحاب الأخدود . وأمر حاصورا . وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل ومدينة أنطاكية وأمر تبع . وقال

إسحاق بن بشر أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن .قال :كان أمر عزير وبختنصر في الفترة. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « **إن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي** »[1].
وقال وهب بن منبه كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام. وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيراً كان في زمن موسى بن عمران وأنه استأذن عليه فلم يأذن له، يعني لما كان من سؤاله عن القدر، وأنه انصرف وهو يقول:مائة موتة أهون من ذل ساعة ،وفي معني قول عزير مائة موتة أهون من ذل ساعة قول بعض الشعراء:

قـــــد يَصْبِر الحرُّ على السّيـــــفِ ويـــــأنَفُ الصـــبرَ على الحيْف [2]
ويؤثــــرُ الموتَ على حَالــةٍ يعجــزُ فيهــا عن قِرى الضّيــفِ [3]

فأما ما روى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونوف البكالي وسفيان الثوري وغيرهم من أنه سأل عن القدر فمحي اسمه من ذكر الأنبياء فهو منكر وفي صحته نظر ،وكأنه مأخوذ من الإسرائيليات، وقد روي عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني عن نوف البكالي قال : قال عزير فيما يناجي ربه: يا رب تخلق خلقاً فتضل من تشاء وتهدي من تشاء ، فقيل له: أعرض عن هذا ، فعاد فقيل له : لتعرض عن هذا أو لأمحون اسمك من الأنبياء ، إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون ، وهذا لا يقتضي وقوع ما توعد عليه لو عاد فما محي اسمه، والله أعلم.

وقد روى الجماعة سوي الترمذي من حديث يونس بن يزيد عن الزهري عن سعيد وأبي سلمة عن أبي هريرة ، وكذلك رواه شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ، ثم أمر بها فأحرقت بالنار، فأوحى الله إليه هلا نملة واحدة** »[4]. فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريج عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه أنه عزير، وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري أنه عزير. فالله أعلم .

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **كٓهيعص. ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِياً . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً . وإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي وكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ولِياً . يَرِثُنِي ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً . يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِياً. قَالَ رَبِّ أَنَّى**

---

(١) رواه البخارى (٣٤٤٢) .
(٢) الحيف : الموت .
(٣) قرى الضيف : أطعمه .
(٤) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٠١٩) ومسلم (٢٢٤١ / ١٤٨) .

يَكُونُ لِي غُلامٌ وكَانَت امْرَأَتِي عَاقراً وقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عتياً . قَالَ كَذَلكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وقَدْ خَلَقْتُكَ من قَبْلُ ولَمْ تَكُ شَيْئاً . قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِياً . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِه منَ المحْرَاب فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وعَشياً . يَا يَحْيَى خُذ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِياً.وحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وزَكَاةً وكَانَ تَقِياً.وبَراً بِوَالِدَيْهِ ولَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِياً.وسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وِلِدَ ويَوْمَ يَمُوتُ ويَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾[مريم:١-١٥].

قال تعالى : ﴿ وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحْرَابَ وجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَك هَذَا قَالَتْ هُوَ منْ عند اللَّه إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حسَاب . هُنَالكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء . فَنَادَتْهُ المَلائكَةُ وهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحْرَاب أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلمَة مِّنَ اللَّه وسَيِّداً وحَصُوراً ونَبِياً مِّنَ الصَّالحِينَ . قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً واذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ والإِبْكَارِ﴾ [آل عمران : ٣٧ - ٤١] .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿وزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وأَنتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ووَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ ويَدْعُونَنَا رَغَباً ورَهَباً وكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٩ ، ٩٠] .

وقال تعالى : ﴿ وزَكَرِيَّا ويَحْيَى وعِيسَى وإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[الأنعام:٨٥]

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل: زكريا بن برخيا.ويقال : زكريا بن دان يقال : زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود ابن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلناطة بن ناحور بن شلوم بن بهناشاط بن إينامن ابن رحبعام بن سليمان بن داود أبو يحيى النبي عليه السلام من بني إسرائيل. دخل البثينة من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى. وقيل : إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى والله أعلم. وقد قيل غير ذلك في نسبه ،ويقال فيه: زكريا بالمد وبالقصر ،ويقال:زكري أيضاً.

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام، وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر، وكانت امرأته عاقراً في حال شبيبتها وقد أسنت أيضاً حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته، ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس فقال تعالى : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِياً﴾. [مريم:٣] قال قتادة عند تفسيرها : إن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي. وقال بعض السلف: قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضراً عنده مخافته فقال: « يارب يا رب يا رب فقال الله : لبيك لبيك لبيك » ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وهَنَ العَظْمُ مِنِّي ﴾ [مريم:٤] أي ضعف وخار من الكبر ﴿ واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ [مريم : ٤] استعارة من اشتعال النار في الحطب أي غلب على سواد الشعر شيبة كما قال ابن دريد في مقصورته :

أما تَرى رَأسِي حـــــاكي لونَهُ طرّةَ [١] صُبحٍ تحتَ أذيالِ الدُّجـــا
واشتعلَ المبيضُّ في مُسْـــــودِّه مثلَ اشتعالِ النارِ في جَمرِ الغَضـــا[٢]
وآضَ [٤] عــودُ اللهو يُبساً ذاوياً من بعدِ ما قدْ كان مجّاجَ الثّـــرى [٣]

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً ، وهكذا قال زكريا عليه السلام: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وهَنَ العَظْمُ مِنِّي واشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً** ﴾ وقوله : ﴿ **ولَمْ أَكُنْ بِدُعَائكَ رَبِّ شَقِياً** ﴾ [مريم : ٤] أي ماعودتني فيما أسألك إلا الإجابة وكان الباعث له على هذه المسألة ، أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير أوانها ولا في آوانها ، وهذه من كرامات الأولياء فعلم أن الرزاق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً ، وإن كان قد طعن في سنه ﴿ **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾ [آل عمران : ٣٨] وقوله : ﴿ **وإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن ورَائي وكَانَتِ امْرَأَتِي** ﴾ [مريم : ٥] قيل: المراد بالموالي: «العصبة» وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل ، بما لا يوافق شرع الله وطاعته، فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقيا مرضيا ولهذا قال : ﴿ **عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ** ﴾ أي من عندك بحولك وقوتك ﴿ **ولِياً . يَرِثُنِي** ﴾ [مريم : ٥] أي في النبوة والحكم في بني إسرائيل ﴿ **ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً** ﴾ [مريم : ٦] يعني كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء ، فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي وليس المراد ههنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ،ووافقهم ابن جرير ههنا وحكاه عن أبي صالح من السلف لوجوه. أحدها ما قدمناه عند قوله تعالى: ﴿ **ووَرِثَ سليمانُ دَاودَ** ﴾ [النمل:١٦] أي في النبوة والملك كما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء المروي في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « **لا نورث ما تركنا فهو صدقة** » [٥] فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث، ولهذا منع الصديق ما كان يختص به في حياته إلى أحد من وُرَّاثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضي الله عنهم واحتج عليهم الصديق في منعه إياهم بهذا الحديث وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ،وعلي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وأبو هريرة ، وآخرون رضي الله عنهم. الثاني : أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء « **نحن معاشر الأنبياء لا نورث** » وصححه. الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنـــزوا لها، أو يلتفتوا إليها أو

(١) الطرّة : طرف كل شيء .
(٢) الغضا : واحدته ((غضاة)) : شجر من الأثل خشبة من أصلب الخشب وجمره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفئ. ((لسان العرب)) (غضي)
(٣) الثرى : التراب المبلل .
(٤) آض : تحوّل .
(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٣٧١٢) ومسلم (١٧٥٧/ ٤٩) .

يهمهم أمرها، حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها. الرابع: أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه مالا يكون زخيرة له يخلفه من بعده، وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهمه إن شاء الله.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون. أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « كان زكريا نجاراً » [1] . وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن حماد بن سلمة به.

وقوله : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِياً ﴾ . [مريم:٧] وهذا مفسر بقوله : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وحَصُوراً ونَبِياً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩] فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد والحالة هذه له ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً﴾ [مريم : ٨] أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير ؟ قيل كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة والأشبه والله أعلم أنه كان أسن من ذلك ﴿وكَانَت امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقراً لا تلد والله أعلم. كما قال الخليل : ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر:٥٤] وقالت سارة: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ وهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٧٢،٧٣] وهكذا أجيب زكريا عليه السلام قال له الملك الذي يوحي إليه بأمر ربه : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُو عَلَيّ هَيِّنٌ ﴾ أي هذا سهل يسير عليه ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبلُ وَلَم تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم :٩] أي قدرته ، أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، أفلا يوجد منك ولداً وإن كنت شيخاً ؟ وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ووَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ ويَدْعُونَنَا رَغَباً ورَهَباً وكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت. وقيل: في لسانها شيء أي بذاءة ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أي علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِياً﴾ [مريم : ١٠] يقول: علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً، وأنت في ذلك سوى الخلق صحيح المزاج، معتدل البنية، وأمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب، واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار، فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿ فَأَوْحَى إِلَيهِم أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وعَشِياً ﴾ [مريم :١١] . والوحي ههنا هو الأمر الخفي، إما بكتابة كما قاله مجاهد والسدي، أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة. قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة اعتقل لسانه من غير مرض. وقال ابن زيد: كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٧٩/ ١٦٩) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيا ﴾ [مريم:١٢]، يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه. قال عبد الله بن المبارك قال معمر قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا، قال: وذلك قوله: ﴿ وآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيا ﴾ وأما قوله: ﴿ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : لا أدري ما الحنان. وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك ﴿ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي رحمة من عندنا، رحمنا بها زكريا فوهبنا له الولد. وعن عكرمة ﴿ وَحَنَانًا ﴾ أي محبة عليه، ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس، ولا سيما على أبويه وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما. وأما الزكاة فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل. والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره [١]. ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً وترك عقوقهما قولا وفعلا فقال : ﴿ وبَراً بِوَالِدَيْهِ ولَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِياً﴾ [مريم:١٤] ثم قال:﴿وسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وِلِدَ ويَوْمَ يَمُوتُ ويَوْمَ يُبْعَثُ حَياً﴾ [مريم:١٥] هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ،فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر ،فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه ولهذا يستهل صارخاً ،إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد [٢] همومها وغمها ،وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار ،وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة [٣] الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور فمن مسرور ومحبور، ومن محزون ومثبور وما بين جبير وكسير ،وفريق في الجنة وفريق في السعير. ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

وَلَدتْكَ أُمــُّك باكياً مُســـتصرِخاً   والنـــاسُ حولَكَ يَضْحكــونَ سُروراً
فاحرِصْ لنفســــِك أن تكونَ إذا   بَكَوْا في يومِ موتــِك ضاحكاً مَسْرُوراً

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى في كل موطن منها فقال : ﴿ وسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وِلِدَ ويَوْمَ يَمُوتُ ويَوْمَ يُبْعَثُ حَياً﴾ [مريم : ١٥] وقال سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة :إن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التقيا. فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني فقال له الآخر: استغفر لي، أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني سلمت على نفسي وسلم الله عليك ، فعرف والله فضلهما، وأما قوله في الآية الأخرى : ﴿ وسَيِّداً وحَصُوراً ونَبِياً مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٩] فقيل: المراد بالحصور الذي لا يأتي النساء، وقيل :غير ذلك وهو أشبه لقوله : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] .

---

(١) زواجره : ما ينهى عنه .
(٢) يكابد : يقاسى ويتحمل المشاق فى فعله .
(٣) العرصة : كل بقعه بين الدور واسعة ليس فيها بناء كما فى مختار الصحاح .

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عفان. حدثنا حماد. أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحي بن زكريا، وما ينبغي لأحد يقول: أنا خير من يونس بن متى » [١]. علي بن زيد بن جدعان تكلم فيه غير واحد من الأئمة وهو منكر الحديث. وقد رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق أبي عاصم العبداني عن على بن زيد بن جدعان به مطولا ثم قال ابن خزيمة: وليس على شرطنا. وقال ابن وهب : حدثني ابن لهيعة عن عقيل عن ابن شهاب قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يوما وهم يتذاكرون فضل الأنبياء. فقال قائل : " موسى كليم الله ". وقال: قائل : "عيسى روح الله وكلمته" .وقال قائل: " إبراهيم خليل الله ". فقال: « أين الشهيد أين الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب » [٢] . قال ابن وهب: يريد يحيى بن زكريا. وقد رواه محمد بن إسحاق – وهو مدلس – عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب: حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب ما كان من يحيى بن زكريا » [٣] . فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن ههنا. ثم قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن سعيد بن المسيب مرسلا. ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة عن يحيى بن سعيد الأنصاري ثم قد رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني خطيب دمشق حدثنا محمد بن الأصبهاني حدثنا أبو خالد الأحمر عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو قال : « ما أحد لا يلقي الله بذنب إلا يحيى بن زكريا ». ثم تلا : ﴿وسيداً وحَصُوراً﴾ ثم رفع شيئاً من الأرض فقال : «ما كان معه إلا مثل هذا ثم ذبح ذبحاً» وهذا موقوف من هذه الطريق وكونه موقوفاً أصح من رفعه والله أعلم، وأورده ابن عساكر من طرق عن معمر من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر وهو ضعيف عن عثمان بن سباح عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ عن النبي ﷺ بنحوه. وروي من طريق أبي داود الطيالسي وغيره عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نعيم عن أبيه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ: « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام».

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني: حدثنا إسحاق بن أحمد حدثنا إبراهيم ين يوسف حدثنا أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول خرج عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان فصدم يحيى امرأة فقال له عيسى يا ابن خالة لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك أبدا قال: وما هي يابن خالة قال: امرأة صدمتها. قال: والله ما شعرت بها. قال: سبحان الله بدنك معي فأين روحك ؟ قال: معلق بالعرش ولو أن قلبي اطمئن إلى جبريل لظننت أني ما عرفت الله طرفة

---

(١) ضعيف : رواه أحمد (١/٢٥٤) وفى سنده على بن زيد بن جدعان .

(٢) ضعيف : لإرساله وفى سنده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٣) ضعيف : فى سنده ابن إسحاق وهو مدلس وقد عنعن .

عين. فيه غرابة وهو من الإسرائيليات. وقال إسرائيل عن أبي حصين عن خيثمة قال كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه أينما جنهما الليل أويا فلما أراد أن يتفرقا قال له يحيى أوصني قال لا تغضب قال: لا أستطيع إلا أن أغضب قال: لا تقتن مالا قال : أما هذه فعسى .

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلا على روايتين فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال هرب من قومه فدخل شجرة فجاؤوا فوضعوا المنشار عليهما فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنّ [1] فأوحى الله إليه لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها فسكن أنينه حتى قطع باثنتين . وقد روي هذا في حديث مرفوع سنورده بعد إن شاء الله. وروى إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب أنه قال الذي انصدعت له الشجرة هو شعيا فأما زكريا فمات موتاً فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال : « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن. فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن فقال : يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن. وأولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً فإن مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف [2] فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وآمركم بذكر الله عز وجل كثيراً، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصينا فتحصن فيه وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل» قال : وقال رسول الله ﷺ: « وأنا آمركم بخمس الله

(١) أنّ : من الأنين وهو التوجع .
(٢) خلوف : تغير رائحة الفم .

أمرني بهن، بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم » قال يارسول الله وإن صام وصلى قال: « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل »[1].

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد عن أبان بن يزيد عن يحيى بن أبي كثير به. وكذلك رواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي وموسي بن إسماعيل كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به. ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار عن محمد بن شعيب بن سابور عن معاوية ابن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري به. رواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطري عن معاوية بن سلام عن أخيه به. ثم قال: تفرد به مروان الطاطري عن معاوية بن سلام. قلت : وليس كما قال. ورواه الطبراني عن محمد بن عبدة عن أبي نوبة الربيع بن يافع عن معاوية بن سلام عن أبى سلام عن الحارث الأشعري فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري فذكر نحو هذه الرواية. ثم روي الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس . قال: ذكر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات وذكر نحو ما تقدم. وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الشجر ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان . ويقول: من أنعم منك يا يحيى؟ وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن، فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل. وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال: كان طعام يحيى بن زكريا العشب وأنه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار [2] على عينيه لخرقه.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا أبو صالح. حدثنا الليث. حدثني عقيل عن ابن شهاب. قال: جلست يوما إلى أبي إدريس الخولاني وهو يقص. فقال: ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً؟ فلما رأي الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً، إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معايشهم. وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام، فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه فقال: يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرته قائم تبكي

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٤/١٣٠و٢٠٢) والطيالسى (١١٦١و١١٦٢) والترمذى (٢٨٦٣و٢٨٦٤) وأبويعلى (١٥٧١) والطبرانى فى «الكبير» (٣٤٢٧و٣٤٢٨و٣٤٣٠) وابن خزيمة (٩٣٠) وابن حبان (٦٢٣٣- إحسان) والحاكم (١/١١٧ ، ١١٨) والآجرى فى «الشريعة» (ص٨) .

(٢) القار : القطران .

فيه فقال: يا أبت ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة [١] لا تقطع إلا بدموع البكائين فقال له : ابك يابني فبكيا جميعا. وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه . وروي ابن عساكر عنه أنه قال: إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم فكذا ينبغي للصديقين أن لا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل. ثم قال: كم بين النعيمين؟ وكم بينهما؟ وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه .

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا في قتله أسبابا من أشهرها: أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسها منه. فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله، وجاء برأسه ودمه في طشت إلى عندها؛ فيقال : إنها هلكت من فورها وساعتها. وقيل: بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك، فتمنع عليها الملك، ثم أجابها إلى ذلك، فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طشت. وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاق بن بشر في كتابه المبتدأ حيث قال: أنبأنا يعقوب الكوفي عن عمرو بن ميمون عن أبيه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به رأى زكريا في السماء فسلم عليه . وقال له: « يا أبا يحيى خبرني عن قتلك كيف كان؟ ولم قتلك بنو إسرائيل؟ » قال: يامحمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه، وكان أجملهم وأصبحهم وجها، وكان كما قال الله تعالى: ﴿ سَيِّداً وحَصُوراً ﴾ وكان لا يحتاج إلى النساء فهوته امرأة ملك بني إسرائيل، وكانت بغية فأرسلت إليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها فأجمعت على قتل يحيى، ولهم عيد يجتمعون في كل عام وكانت سنة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب. قال: فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته وكان بها معجبا، ولم تكن تفعله فيما مضي، فلما أن شيعته قال الملك سليني فما سألتيني شيئاً إلا أعطيتك قالت أريد دم يحيى بن زكريا قال لها سليني غيره قالت هو ذاك .قال: هو لك قال فبعثت جلاوزتها [٢] إلى يحيى، وهو في محرابه يصلي وأنا إلى جانبه أصلي، قال: فذبح في طشت وحمل رأسه ودمه إليها. قال فقال: رسول الله ﷺ : «فما بلغ من صبرك؟ » قال ما انفلت [٣] من صلاتي، قال: فلما حمل رأسه إليها فوضع بين يديها، فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل: قد غضب إله زكريا لزكريا فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا، قال: فخرجوا في طلبي ليقتلوني وجاءني النذير فهربت منهم

---

(١) مفازة : الأرض الصعبة المقفرة .

(٢) الجلاوز واحده : الجِلْواز الذى يخف فى الذهاب والمجئ بين يدي الأمير (الشرطي لجلوزته فى ذهابه ومجيئه) .

(٣) انفلت: تخلص . وَافْتَلَتَ الكلام : ارتجله . وأُفْتُلِت: مات فجأة. وبأمر كذا : فوجئ به قبل أن يستعد له .

وإبليس أمامهم يدلهم علي، فلما تخوفت أن لا أعجزهم عرضت لي شجرة فنادتني، وقالت إلي إلي وانصدعت لي ودخلت فيها. قال: وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي والتأمت الشجرة وبقي طرف ردائي خارجاً من الشجرة، وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس: أما رأيتموه دخل هذه الشجرة هذا طرف ردائه، دخلها بسحره، فقالوا نحرق هذه الشجرة فقال إبليس: شقوه بالمنشار شقا. قال: فشققت مع الشجرة بالمنشار قال له النبي ﷺ « هل وجدت له مسا أو وجعاً ؟» قال: لا إنما وجدت ذلك الشجرة التي جعل الله روحي فيها. هذا سياق غريب جدا وحديث عجيب ورفعه منكر وفيه ما ينكر على كل حال ولم ير في شيء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام إلا في هذا الحديث وإنما المحفوظ في بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسراء، فمررت بابني الخالة يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث فإن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران. وقيل: بل أشياع وهي امرأة زكريا أم يحيى هي أخت حنة امرأة عمران أم مريم فيكون يحيى ابن خالة مريم فالله أعلم.

ثم اختلف في مقتل يحيى بن زكريا هل كان في المسجد الأقصى أم بغيره؟ على قولين : فقال الثوري عن الأعمش عن شمر بن عطية قال: قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبيا منهم يحيى بن زكريا عليه السلام، وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب. قال: قدم بخت نصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي فسأل عنه فأخبروه فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن. وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضي أنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري فالله أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال: رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق، أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير وفي رواية كأنما قتل الساعة. وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة فالله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في المستقصى في فضائل الأقصى من طريق العباس بن صبح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولي معاوية قال : كان ملك هذه المدينة يعني دمشق هداد بن هداد، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة، قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثا. ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتي يحيى بن زكريا، فقال لا تحل لك حتى تنكح زوجا غيرك، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك بإشارة أمها فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك ، وبعث

إليه وهو قائم يصلي بمسجد جيرون من أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول له لا :تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها [١] وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ففعل، فلفظت الأرض جثتها، عند ذلك ووقعوا في الذل والفناء، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفا. قال سعيد بن عبد العزيز : وهي دم كل نبي، ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام، فقال: أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن، بإذن الله فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس، فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة وسبا منهم ثم رجع عنهم.

قصّة عيسى ابن مريم عليه من الله أفضل الصلاة والسّلام

قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية، منها في الرد على النصاري عليهم لعائن الله الذين زعموا أن لله ولداً تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً!! وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم، ويدعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة وهم الذات المقدسة، وعيسى ومريم على اختلاف فرقهم، فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بين فيها أن عيسى عبد من عباد الله خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات، وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم وقال له كن فكان سبحانه وتعالى. وبين أصل ميلاد أمه مريم، وكيف كان من أمرها، وكيف حملت بولدها عيسى، وكذلك بسط ذلك في سورة مريم كما سنتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته فقال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ **إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ ونُوحاً وآلَ إبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إذْ قَالَت امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إنَّكَ أنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . فَلَمَّا وضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إنِّي وضَعْتُهَا أنثَى واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وضَعَتْ ولَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وإنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وإنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّه إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾[آل عمران : ٣٣ - ٣٧] .

يذكر تعالى أنه اصطفي آدم عليه السلام، والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثم خصص. فقال: وآل إبراهيم فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق. ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا، والد مريم عليها السلام. وقال محمد

---

(١) الحقو : الكشح وهو ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي .

ابن إسحاق: وهو عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا ابن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهفاشاط بن أيشا بن أيان بن رحبعام بن سليمان بن داود. وقال أبو القاسم بن عساكر: مريم بنت عمران بن ماثان بن ألعازر بن أليود بن أخنز ابن صادوق بن عيازوز بن ألياقيم بن أيبود بن زريابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون ابن ميشا بن حزقيا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط بن إيشابن إيبا بن رحبعام ابن سليمان بن داود عليه السلام، وفيه مخالفة كما ذكره محمد بن إسحاق ولا خلاق أنها من سلالة داود عليه السلام، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور ، وقيل : زوج خالتها أشياع فالله أعلم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يوماً طائراً يزق فرخا له فاشتهت الولد، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرراً أي حبيساً في خدمة بيت المقدس. قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها[1] فحملت بمريم عليها السلام :**﴿فَلَمَّا وَضَعَتهَا قَالَت رَبِّي إِنِّي وَضَعتُها أنثى والله أعلَمُ بِمَا وَضَعتْ﴾** وقرئ بضم التاء **﴿وَلَيسَ الذَّكَرُ كَالأنثى﴾**، أي في خدمة بيت المقدس وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداما من أولادهم .

وقولها: **﴿ وإنِّي سَمَّيْتُها مَريمَ ﴾** استدل به على تسمية المولود يوم يولد وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله[2]. وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً : « **كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق راسه** » [3]رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي وجاء في بعض ألفاظه ويدمي بدل ويسمي وصححه بعضهم والله أعلم.

وقولها: **﴿ وإنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾** ، قد استحيب لها في هذا كما تقبل منها نذرها فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « **ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها** » ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم : **﴿ وإنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾** أخرجاه من حديث عبد الرزاق [4] ورواه ابن حرير عن أحمد بن الفرج عن بقية عن عبد الله بن الزبيدي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

---

(١) أى : نكحها زوجها .

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (٥٤٧٠) ومسلم (٢١١٩ / ١٠٩) .

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٥/٧، ٨،١٢،١٧،١٨،٢٢) وأبو داود(٢٨٣٨) والنسائى(٧/١٦٦) والترمذى (١٥٢٣) وابن ماجه (٣١٦٥) والطيالسى (٩٠٩) والدارمى (٢/٨١) والحاكم (٤/٢٣٧) والبيهقى فى « السنن» (٩/ ٢٩٩) وأبو نعيم فى «الحلية» (٦/١٩١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى . وقال الترمذى: حسن صحيح .

(٤) **متفق عليه**: رواه البخارى (٤٥٤٨) ومسلم (٦٠١٨) وأحمد (٢/٢٧٤، ٢٧٥) .

وقال أحمد أيضاً: حدثنا إسماعيل بن عمر حدثنا ابن أبي ذؤيب عن عجلان مولى المشمعل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بإصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى** »[١]. تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن عمر ابن الحارث عن أبي يونس عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه. وقال أحمد: حدثنا هشيم. حدثنا حفص بن ميسرة عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان في حضنيه إلا ما كان من مريم وابنها ألم تر إلى الصبي حين يسقط؟ كيف يصرخ؟» قالوا: بلى يا رسول اللّه قال« ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه» [٢] وهذا على شرط مسلم و لم يخرجه من هذا الوجه، ورواه قيس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم** » ثم قرأ رسول الله ﷺ : **﴿ وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾** وكذا رواه محمد ابن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بأصل الحديث. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك. حدثنا المغيرة هو ابن عبد الله الحزامي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال : « **كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد إلا عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب** »[٣]. وهذا على شرط الصحيحين و لم يخرجوه من هذا الوجه.

وقوله : **﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾** ذكر كثير من المفسرين، أن أمها حين وضعتها لفتها في خروقها، ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها. والظاهر إنها إنما سلمتها إليهم بعد الرضاعة وكفالة مثلها في صغرها. ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبد بها دونهم، من أجل أن زوجته أختها أو خالتها على القولين، فشاحنوه في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم، وذلك أن الخالة بمنــزلة الأم.

قال اللّه تعالى : **﴿ وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾** أي بسبب غلبه لهم في القرعة كما قال تعالى : **﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ومَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ومَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾**. [آل عمران : ٤٤] قالوا: وذلك أن كلا منهم ألقي قلمه معروفاً به؛ ثم حملوها ووضعوها في موضع، وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث [٤] فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا عليه السلام، فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية، وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر فأيهم جــرى

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٦/ ١٤٧) وأحمد (٢٨٨/٢) .

(٢) **صحيح** : رواه أحمد (٣٦٨/٢) ومعنى حضنيه : جانبيه ، ولكزه : طعنه بإصبعه .

(٣) **صحيح** : رواه أحمد (٥٢٣/٢) والحجاب : هو المشيمة التى تنــزل مع المولود .

(٤) الحنث : الإثم والحلف فى اليمين .

قلمه على خلاف جريه في الماء فهو الغالب، ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جرية الماء وسارت أقلامهم مع الماء، ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة، فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعدا فهو الغالب، ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها، إذ كان أحق بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة. قال الله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران :٣٧] .

قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواه، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى أنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها ﴿ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾؟ فتقول : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ أي رزق رزقنيه اللّه: ﴿ إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه وإن كان قد أسن وكبر : ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨] . قال بعضهم: قال: يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه ، هب لي ولداً وإن كان في غير أوانه، فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره في قصته: ﴿ وإذْ قَالَتِ المَلائكَةُ يَا مَرْيَمُ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكِ واصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ واسْجُدِي وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ومَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ومَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إذْ يَخْتَصِمُونَ . إذْ قَالَتِ المَلائكَةُ يَا مَرْيَمُ إنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وجِيهاً فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ومِنَ المُقَرَّبِينَ . ويُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وكَهْلاً ومِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ولَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ . ويُعَلِّمُهُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنجِيلَ . ورَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ ومَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. ومُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ولأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ . إنَّ اللَّهَ رَبِّي ورَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران:٤٢-٥١] .

يذكر الله تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها ، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب وبشرت بأن يكون نبيا شريفاً ﴿ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ ﴾ أي في صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكذلك في حال كهولته [1] فدل على

(١) الكهولة : هى المرحلة التى تلى الشباب وتسبق الشيخوخة .

أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها ، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة ، فيقال : إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفطرت[1] قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها فقول الملائكة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ أي اختارك واجتباك ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢]. يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها كقوله لموسى : ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ وكقوله عن بني إسرائيل : ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[الدخان:٣٢].

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها ، وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكي عملاً من بني إسرائيل وغيرهم. ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] محفوظ العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها ووجد بعدها ؛ لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره ، فلا يمتنع على هذا أن يكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله : ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ إذ لم يعارضه غيره والله أعلم.

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال وليس في النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة : ٧٥] فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها والله أعلم. وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ رضي الله عنهن وأرضاهن.

وقد روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عديدة عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن على بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد »[2].

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق . أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك من نساء العالمين بأربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد »[3] . ورواه الترمذي عن أبي بكر بن زانجويه عن عبد الرزاق به وصححه ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي وابن عساكر من طريق تميم ابن زياد كلاهما عن أبي جعفر الرازي عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ ».

---

(١) تفطرت : تشققت .

(٢) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٣٢) ومسلم (٢٤٣٠ / ٦٩) .

(٣) صحيح : رواه أحمد (١٣٥/٣) والترمذى (٣٨٧٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب قال : كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال : « **خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه لزوج في ذات يده** » [١] قال أبو هريرة : ولم تركب مريم بعيراً قط. وقد رواه مسلم في صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب . حدثني موسى بن على سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « **خير نساء ركبن الإبل ، نساء قريش ، أحناه على ولد في صغره، وأرأفه بزوج على قلة ذات يده** » قال أبو هريرة : وقد علم رسول الله ﷺ أنّ ابنة عمران لم تركب الإبل [٢] . تفرد به وهو على شرط الصحيح. ولهذا الحديث طرق أُخر عن أبي هريرة.
وقال أبو يعلى الموصلي : حدثنا زهير . حدثنا يونس بن محمد . حدثنا داود بن أبي الفرات عن علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط ، فقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « **أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون** » [٣]
ورواه النسائي من طرق عن داود بن أبي هند . وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث . حدثنا يحيى بن حاتم العسكري أنبأنا بشر بن مهران بن حمدان . حدثنا محمد بن دينار عن داود بن هند عن الشعبي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ: « **حسبك منهن أربع سيدات نساء العالمين : فاطمة بنت محمد ، وخديجة بنت خويلد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران**».

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا وهب بن منبه . حدثنا خالد بن عبد الله الواسطي عن محمد ابن عمرو عن أبي سلمة عن عائشة أنها قالت لفاطمة : أرأيت حين أكببت على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت ؟ قالت : أخبرني أنه ميت من وجعه هذا فبكيت ، ثم أكببت عليه فأخبرني أني أسرَع أهله لحوقاً به وإني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت [٤] وأصل هذا الحديث في الصحيح. وهذا إسناد على شرط مسلم وفيه إنهما أفضل الأربع المذكورات.

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد ، حدثنا عثمان بن محمد . حدثنا جرير عن يزيد هو ابن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي نعم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « **فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران** »[٥] إسناده حسن وصححه الترمذي ولم يخرجوه وقد روي نحوه من حديث على بن أبي طالب ولكن في إسناده ضعف.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٢٧ / ٢٠١) .
(٢) صحيح :رواه أحمد (٢/٢٦٩و٢٧٥) .
(٣) صحيح :رواه أبو يعلى (٢٧٢٢) وأحمد (١/٣١٦و٣٢٢) .
(٤) رواه مسلم (٢٤٥٠ / ٩٧) .
(٥) حسن :رواه أحمد (٣/٨٠) .

والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع. ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ، ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة ، لكن ورد حديث إن صح عين الاحتمال الأول فقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : أنبأنا أبو الحسن بن الفراء وأبوغالب وأبو عبد الله ابنا البنا قالوا : أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة أنبأنا أبو طاهر المخلص حدثنا أحمد بن سليمان حدثنا الزبير- هو ابن بكار - حدثنا محمد بن الحسن عن عبد العزيز بن محمد عن موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « **سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران، ثم فاطمة ، ثم خديجة ، ثم آسية امرأة فرعون** » . فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بثم التي للترتيب فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء ، وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التي وردت بواو العطف التي لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه والله أعلم.

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازي عن داود الجعفري عن عبد العزيز بن محمد وهو الدراوردي عن إبراهيم بن عقبة عن كريب عن ابن عباس مرفوعاً فذكره بواو العطف لا بثم الترتيبية فخالفه إسناداً ومتناً فالله أعلم. فأما الحديث الذي رواه ابن مردويه من حديث شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : « **كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث، مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** ». وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمداني عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « **كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** » [1]. فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه ولفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية ولعل المراد بذلك في زمانهما، فإن كلا منهما كفلت نبيا في حال صغره فآسية كفلت موسى الكليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضي الله عنها وأرضاها، وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها، لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها متن في حياة النبي ﷺ ، وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكراً غيرها، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة، بل ولا في غيرها أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فأنزل براءتها من فوق سبع سموات، وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين والأحسن

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤١١) ومسلم (٧٠/٢٤٣١) .

الوقف فيهما رضي الله عنهما وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ :« **وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** » يحتمل أن يكون عاما بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عاما بالنسبة إلى ما عدا المذكورات والله أعلم.

والمقصود ههنا ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام فإن الله طهرها واصطفاها على نساء عالمي زمانها، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا. وقد ورد في حديث أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم. وقد ذكرنا في التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله ﴿**ثيبات وأبكارا**﴾[التحريم :٥] . قال: فالثيب آسية ، ومن الأبكار مريم بنت عمران. وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم فالله أعلم.

قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية. حدثنا محمد بن سعد العوفي. حدثنا أبي. أنبأنا عمي الحسين حدثنا يونس بن نفيع عن سعد بن جنادة هو العوفي قال: قال رسول الله ﷺ : « **إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران؛ وامرأة فرعون ؛ وأخت موسى** » [1] . وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن عرعرة. حدثنا عبد النور بن عبد الله حدثنا يونس بن شعيب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ : « **أشعرت أن الله زوجني مريم بنت عمران؛ وآسية بنت مزاحم؛ وكلثم أخت موسى** » رواه ابن جعفر العقيلي من حديث عبد النور به وزاد؛ فقلت: هنيئا لك يا رسول الله. ثم قال العقيلي: وليس بمحفوظ. وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الحسن عن يعلي بن المغيرة عن ابن أبي داود قال: دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها: « **بالكره مني ما أرى منك يا خديجة، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً، أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى؛ وآسية امرأة فرعون؟** » قالت : وقد فعل الله بك ذلك يا رسول الله قال: « **نعم** ». قالت : بالرفاء والبنين.

وروى ابن عساكر من حديث محمد بن زكريا الغلابي، حدثنا العباس بن بكار. حدثنا أبو بكر الهزلي عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهي في مرض الموت، فقال: « **يا خديجة إذا لقيت ضرائرك فأقرئيهن مني السلام** ». قالت : يا رسول الله وهل تزوجت قبلي؟ قال :« **لا ولكن الله زوجني مريم بنت عمران. وآسية بنت مزاحم. وكلثم أخت موسى** » .

وروى ابن عساكر من طريق سويد بن سعيد، حدثنا محمد بن صالح بن عمر عن الضحاك ومجاهد عن ابن عمر قال : نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أرسل به وجلس يحدث رسول الله ﷺ إذ مرت خديجة فقال جبريل: من هذه يا محمد؟ قال: « **هذه صديقة أمتي** ». قال جبريل: معي إليها رسالة من الرب عز وجل يقرئها السلام ويبشرها ببيت في الجنة من قصب بعيد من اللهب لا

---

(١) ضعيف : رواه الطبراني في «الكبير» (٥٢/٦) رقم (٥٤٨٥) وقال الهيثمي في «المجمع» (٢١٨/٩) : فيه من لم أعرفهم .

نصب[١] فيه ولا صخب. [٢] قالت: الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله ما ذلك البيت الذي من قصب؟ قال: « **لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم، وهما من أزواجي يوم القيامة** » . وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لاصخب فيها ولا وصب في الصحيح ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جدا.

وكل من هذه الأحاديث في أسانيدها نظر. وروي ابن عساكر من حديث أبي زرعة الدمشقي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني معاوية عن صفوان بن عمرو عن خالد بن معدان عن كعب الأحبار أن معاوية سأله عن الصخرة يعني صخرة بيت المقدس، فقال: الصخرة على نخلة والنخلة على نهر من أنهار الجنة وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط[٣] أهل الجنة حتى تقوم الساعة. ثم رواه من طريق إسماعيل عن عياش عن ثعلبة بن مسلم عن مسعود عن عبد الرحمن عن خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ بمثله . وهذا منكر من هذا الوجه بل هو موضوع قد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن عن ابن عابد أن معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس فذكره . قال الحافظ ابن عساكر: وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه. قلت: وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقاه من الإسرائيليات التي منها ما هو مكذوب مفتعل وضعه بعْض زنادقتهم أو جهالهم وهذا منه والله أعلم.

ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مريم البتول

قال الله تعالى : ﴿ **واذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إذ انتَبَذَتْ منْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً. فَاتَّخَذَتْ من دُونِهِمْ حجَاباً فَأَرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنَا فَتمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً . قَالَتْ إنِّي أَعُوذُ بالرَّحْمَنِ منكَ إن كُنتَ تَقياً . قَالَ إنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّك لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكياً . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ولَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ولَمْ أَكُ بَغياً . قَالَ كَذَلك قَالَ رَبُّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ولنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ورَحْمَةً مِّنَّا وكَانَ أَمْراً مَّقْضياً . فَحمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ به مَكَاناً قَصياً . فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إلَى جذْعِ النَّخْلَة قَالَتْ يَا لَيْتَنِي متُّ قَبْلَ هَذَا وكُنتُ نَسْياً مَّنسياً . فَنَادَاهَا من تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّك تَحْتَك سَرِياً. وهُزِّي إلَيْك بجذْعِ النَّخْلَة تُسَاقطْ عَلَيْك رُطَباً جَنياً . فَكُلِي واشْرَبِي وقَرِّي عَيْناً فَإمَّا تَرَيِنَّ منَ البَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إنِّي نَذَرْتُ للرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إنسياً. فَأَتَتْ به قَوْمَهَا تَحْملُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جئْت شَيْئاً فَرِياً . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوك امْرَأَ سَوْءٍ ومَا كَانَتْ أُمُّك بَغياً . فَأَشَارَتْ إلَيْه قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المَهْد صَبياً . قَالَ إنِّي عَبْدُ اللَّه آتَانِيَ الكِتَابَ وجَعَلَنِي نَبياً . وجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً . وبَراً بِوَالِدَتِي**

---

(١) نصب : تعب .

(٢) صخب : شدة الصوت والضجيج .

(٣) السمط : العقد .

ولَمْ يَجْعَلْني جَبَّاراً شَقياً . والسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ ولِدتُ ويَوْمَ أمُوتُ ويَوْمَ أُبْعَثُ حَياً . ذَلكَ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذي فيه يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ للَّه أن يَتَّخذَ من ولَد سُبْحَانَهُ إذَا قَضَى أمْراً فَإنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ . وإنَّ اللَّهَ رَبِّي ورَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقيمٌ. فَاخْتَلَفَ الأحْزَابُ منْ بَيْنهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذينَ كَفَرُوا من مَّشْهَد يَوْمٍ عَظيمٍ﴾ [مريم١٦- ٣٧] .

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها، كما ذكر في سورة آل عمران قرن بينهما في سياق واحد وكما قال في سورة الأنبياء : ﴿وزَكَرِيَّا إذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْني فَرْداً وأنتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ووَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ في الخَيْرَات ويَدْعُونَنَا رَغَباً ورَهَباً وكَانُوا لَنَا خَاشعينَ . والَّتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فيهَا من رُّوحنَا وجَعَلْنَاهَا وابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمينَ﴾ [الأنبياء ٨٩ -٩١] .

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس، وأنه كفلها زوج أختها أو خالها نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام، وأنه اتخذ لها محراباً وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه، وألها لما بلغت اجتهدت في العبادة، فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها [1] به زكريا عليه السلام، وألها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولداً زكيا، يكون نبيا كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات، فتعجبت من وجود ولد من غير والد، لألها لا زوج لها ولا هي ممن تتزوج، فأخبرها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، فاستكانت[2] لذلك وأنابت، وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه لألهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل، وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لابد من استقاء ماء أو تحصيل غذاء ، فبينما هي يوماً قد خرجت لبعض شؤولها ﴿ وَانتَبَذَتْ﴾ أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً ﴾ [مريم : ١٧] فلما رأته ﴿قَالَتْ إنِّي أَعُوذُ بالرَّحْمَن منكَ إن كُنتَ تَقياً﴾. [مريم: ١٨] قال أبو العالية: علمت أن التقي ذو نهية، وهذا يرد قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه تقي فإن هذا قول باطل، بلا دليل وهو من أسخف الأقوال ﴿ قَالَ إنَّمَا أنَا رَسُولُ رَبِّك﴾ أي خاطبها الملك قائلا: ﴿ إنَّمَا أنَا رَسُولُ رَبِّك ﴾ [مريم : ١٩] لست ببشر ولكني ملك بعثني الله إليك ﴿ لأهَبَ لَك غُلاماً زَكياً ﴾ أي ولداً زكياً ﴿ قَالت أنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ﴾ أي كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ؟! ﴿ ولَم يَمْسَسْني بَشَرٌ ولَم أكُ بَغيًا ﴾ أي ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة ﴿ قَالَ كَذَلك قَالَ رَبُّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي فأجابها الملك عن تعجبها من

(١) غبطها : تمنى ذلك الخير له والغبطة يقال لها الحسد المشروع .
(٢) استكان : سَلّمَ .

وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً: ﴿ كَذَلِك قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ولا تكونين ممن تبغين[1] ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ، أي وهذا سهل عليه ويسير لديه فإنه على ما يشاء قدير.

وقوله : ﴿ ولِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثي، وخلق عيسى من أنثي بلا ذكر وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى. وقوله: ﴿ ورَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره، في طفوليته وكهوليته، بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له وينـــزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد. وقوله: ﴿ وكَانَ أَمْراً مَقْضِياً ﴾ . يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها، يعني أن هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره، وقرره وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختاره ابن جرير و لم يحك سواه والله أعلم. ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وكَانَ أَمْراً مَقْضِياً ﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى : ﴿ومَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾. فذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ في جيب درعها فنـــزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها. ومن قال إنه نفخ في فمها، أو أن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج[2] من فمها، فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة في محالها من القرآن، فإن هذا السياق يدل على أن الذي أرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام، وأنه إنما نفخ فيها و لم يواجه الملك الفرج بل نفخ في جيبها فنـــزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ يدل على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها، كما روي عن أبي ابن كعب ولا في صدرها كما رواه السدي بإسناده عن بعض الصحابة، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَحملتْهُ ﴾ أي حملت ولدها ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِياً﴾ ؛ وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعاً وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقها فذكر غير واحد من السلف منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بني إسرائيل يقال له: يوسف بن يعقوب النجار وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى، وليس لها زوج، فعرض لها ذات يوم في الكلام، فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم؛ فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت : نعم فمن خلق الشجر الأول. ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت : نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، قال لها : فأخبريني خبرك . فقالت : إن الله بشرني ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وجِيهاً فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ومِنَ الْمُقَرَّبِينَ. ويُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وكَهْلاً ومِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥ ، ٤٦] ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا والله أعلم .

---

(١) تبغين من البِغَاء : بِغَاءُ الأمة زنت ؛ والبَغِيّ جمع بَغَايا : المرأة الزانية الفاجرة .

(٢) ولج : دخل .

وذكر السدي بإسناده عن الصحابة أن مريم دخلت يوماً على أختها. فقالت لها أختها أشعرت أني حبلى؟. فقالت مريم: وشعرت أيضاً أني حبلى؟ فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك وذلك قوله : ﴿ مُصدِّقًا بكَلِمَة من الله ﴾ ومعنى السجود ههنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان في شرع من قبلنا وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم. وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعاً معاً فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام؛ لأن الله تعالى جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص. رواه ابن أبي حاتم وروي عن مجاهد قال: قالت مريم: كنت إذا خلوت حدثني وكلمني وإذا كنت بين الناس سبح في بطني.

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر، كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن، إذ لو كان خلاف ذلك لذكر. وعن ابن عباس وعكرمة، أنها حملت به ثمانية أشهر، وعن ابن عباس ما هو إلا أن حملت به فوضعته. قال بعضهم : حملت به تسع ساعات ، واستأنسوا لذلك بقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ به مَكَاناً قَصياً . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه لقوله : ﴿ فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج : ٦٣] وكقوله : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عظَاماً فَكَسَوْنَا العظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالقينَ ﴾ . [المؤمنون: ١٤] ، ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه.

قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا. قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم، وانتبذت مكاناً قصياً . وقوله : ﴿ فَأَجَاءها الْمَخَاضُ إلى جِذْعِ النخلة ﴾ أي فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة، وهو بنص الحديث الذي رواه النسائي بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً والبيهقي بإسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً ببيت لحم؛ الذي بني عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره هذا البناء المشاهد الهائل. ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي متُّ قَبْلَ هَذَا وكُنتُ نَسْياً مَّنسيا﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات [1]في المسجد، المنقطعات إليه المعتكفات فيه ومن بيت النبوة والديانة، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نَسْياً مَّنسيا﴾ أي لم تخلق بالكلية. وقوله : ﴿ فَنَادَاهَا من تَحْتِهَا﴾ وقرئ "من تحتها" على الخفض، وفي المضمر قولان أحدهما أنه جبريل، قاله العوفي عن ابن عباس، قال: ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم، وهكذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدي وقتادة، وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية : هو ابنها

(١) المجاورات : المعتكفات .

عيسى، واختاره ابن جرير. وقوله : ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً ﴾ قيل: النهر، وإليه ذهب الجمهور، وجاء فيه حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح. وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم: أنه ابنها، والصحيح الأول لقوله : ﴿ وهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً ﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال : ﴿ فَكُلِي واشْرَبِي وقَرِّي عَيْناً ﴾. ثم قيل: كان جذع النخلة يابساً، وقيل: كانت نخلة مثمرة فالله أعلم. ويحتمل: أنها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك؛ لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر، وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان ﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً﴾ قال عمرو بن ميمون: ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرطب؛ ثم تلا هذه الآية.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسن؛ حدثنا شيبان، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي؛ حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأنصاري عن عمرو بن رويم عن على بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ : « أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم، وليس من الشجر شيء يلقح غيرها » (١) وقال رسول الله ﷺ : « أطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكن رطب فتمر، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران » (٢)
وكذا رواه أبو يعلي في مسنده عن شيبان بن فروخ عن مسروق بن سعيد، وفي رواية مسرور ابن سعد. والصحيح مسرور بن سعيد التميمي، أورد له ابن عدي هذا الحديث عن الأوزاعي به، ثم قال: وهو منكر الحديث، ولم أسمع بذكره إلا في هذا الحديث.

وقال ابن حبان: يروي عن الأوزاعي المناكير الكثيرة، التي لا يجوز الإحتجاج بمن يرويها. وقوله : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِياً ﴾ [مريم: ٢٦] . وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها قال : ﴿ كلى وأشربى وقرى عيناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً ﴾ [مريم:٢٦] أي فإن رأيت أحداً من الناس ﴿ فَقُولِي ﴾ له أي بلسان الحال والإشارة: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً ﴾ أي صمتاً، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام قاله قتادة والسدي وابن أسلم. ويدل على ذلك قوله : ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيا﴾ فأما في شريعتنا فكره للصائم صمت يوم إلى الليل. وقوله تعالى:﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِياً ﴾ [مريم : ٢٧، ٢٨] .

---

(١) ضعيف جداً:رواه أبو يعلى (٤٥٥) وابن عدى فى « الكامل » (٤٣١/٦) والعقيلى فى « الضعفاء » (٤٣٠) وابن الجوزى فى «الموضوعات» (١٨٣،١٨٤/١) وأبو نعيم فى «الحلية» (١٢٣/٦) وفى سنده مسرور ابن سعيد . قال بن عدى : مسرور غير معروف وهو منكر الحديث . وقال العقيلى : حديثه غير محفوظ ولا يعرف إلا به. وقال ابن عساكر عروة لم يدرك عليا، والحديث غريب، والتميمى مجهول. وانظر «الضعيفة»(٢٦٣).

(٢) ضعيف جدا: رواه أبو يعلى (٤٥٥) وهو تتمة الحديث السابق .

ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب: أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها، فكروا على محلتها والأنوار حولها، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها : ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً ﴾ أي أمراً عظيماً منكراً. وفي هذا الذي قالوا نظر، مع أنه كلام ينقض أوله آخره؛ وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملت بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله. قال ابن عباس وذلك بعدما تعالت من نفاسها بعد أربعين يوماً. والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً ﴾ والفرية هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال ثم قالوا لها : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ قيل: شبهوها بعابد من عباد زمانهم، كانت تساميه في العبادة، وكان اسمه هارون، وقيل شبهوها برجل فاجر في زمانهم اسمه هارون. قاله سعيد بن جبير، وقيل: أرادوا بهارون أخا موسى شبهوها به في العبادة. وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهارون نسباً، فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفي على أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفظيع ، وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجا الله موسى وقومه، وأغرق فرعون وملأه، فاعتقد أن هذه هي هذه وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قررنا في التفسير مطولا ولله الحمد والمنة . وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هارون، وليس في ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها والله أعلم .

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، سمعت أبي يذكره عن سماك عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرأون : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم »[1] وكذا رواه مسلم والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن إدريس. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه وفي رواية : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم » وذكر قتادة وغيره: أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون حتى قيل: إنه حضر بعض جنائزهم بشر كثير منهم ممن يسمي بهارون أربعون ألفاً فالله أعلم.

والمقصود أنهم قالوا : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبي اسمه هارون، وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير ولهذا قالوا : ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِياً﴾ أي لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم [2] ، لا أخوك ولا أمك ولا أبوك، فاتهموها بالفاحشة العظمى، ورموها بالداهية الدهياء، فذكر ابن جرير في تاريخه: أنهم اتهموا بها زكريا، وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه، وقد انشقت له الشجرة فدخلها، وأمسك إبليس بطرف

---

(١) رواه مسلم (٢١٣٥ / ٩) .

(٢) سجية : سمة وصفة .

ردائه فنشروه فيها كما قدمنا. ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار، فلما ضاق الحال، وانحصر المجال، وامتنع المقال، عظم التوكل على ذي الجلال، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال، ﴿ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ** ﴾ أي خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه. فعندها ﴿ **قَالُوا** ﴾ من كان منهم جباراً شقيا ﴿**كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيا**﴾ أي كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير، لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده، ولا يميز بين محض وزبدة، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والتنقص لنا والازدراء[1] إذ لا تردين علينا قولا، نطقيا بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبيا فعندها ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً. وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً . وَبَراً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً . وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَياً**﴾ . [مريم : ٣٠ – ٣٣] . هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم فكان أول ما تكلم به أن ﴿ **قَالَ إِنِّي عبدُ اللهِ** ﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية، وأن الله ربه فنـــزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله، وابن أمته ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون، وقذفوها به ورموها بسببه بقوله : ﴿ **آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً**﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم كما قال تعالى : ﴿ **وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً** ﴾ [النساء : ١٥٦] وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنا في زمن الحيض لعنهم الله فبرأها الله من ذلك، وأخبر عنها أنها صديقة، واتخذ ولدها نبيا مرسلاً أحد أولي العزم الخمسة الكبار ولهذا قال : ﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ** ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصحابة تعالى وتقدس ﴿ **وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً** ﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد، بالصلاة والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهي تشمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة، وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف، وقري الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات، وسائر وجوه الطاعات، وأنواع القربات.

ثم قال : ﴿ **وَبَراً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً**﴾ أي وجعلني برا بوالدتي، وذلك أنه تأكد حقها عليه، لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطي كل نفس هداها!!. ﴿ **وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً** ﴾ أي لست بفظ ولا غليظ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته. ﴿ **وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَياً** ﴾ . وهذه الأماكن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام. ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه قال : ﴿ **ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾[مريم:٣٤، ٣٥]

(١) الازدراء : السخرية .

كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران: ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ والذِّكْرِ الحَكِيمِ . إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ المُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُمْ ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِينَ . إنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ ومَا مِنْ إِلَهٍ إلاَّ اللَّهُ وإنَّ اللَّهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ . [آل عمران : ٥٨ - ٦٣] .

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً، يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم ، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم، وهم العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة، فجعلوا يناظرون في أمر المسيح، فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك، وبين أمر المسيح، وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله، وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكصوا [١] وامتنعوا عن المباهلة [٢] وعدلوا إلى المسالمة والموادعة، وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسيح: يا معشر النصاري لقد علمتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية، وأن يبعث معهم رجلاً أميناً، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح وقد بينا ذلك في تفسير آل عمران، وسيأتي بسط هذه القضية في السيرة النبوية إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح فقال لرسوله : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم:٣٤] يعني من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله ولهذا قال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥] أي لا يعجزه شيء ولا يكترثه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] وقوله: ﴿ وإِنَّ اللَّهَ رَبِّي ورَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم :٣٦] هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم وأن هذا هو الصراط المستقيم.

قال الله تعالى : ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧] أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه فمن قائل من اليهود: إنه ولد زانية، واستمروا على كفرهم وعنادهم، وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا: هو الله. وقال آخرون: هو ابن الله؛ وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه،

(١) نكص : فرَّ .

(٢) المباهلة : التضرع والدعاء .

وهؤلاء هم الناجون، المثابون، المؤيدون، المنصورون، ومن خالفهم في شيء من هذه القيود، فهم الكافرون الضالون الجاهلون، وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ٣٧].

قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل. أنبأنا الوليد. حدثنا الأوزاعي. حدثني عمير بن هانئ. حدثني جنادة بن أبي أمية عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « **من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل** ». قال الوليد: فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير عن جنادة، وزاد« **من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء** » [1].
وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن جابر به ومن طرق أخري عن الأوزاعي به.

بيان أن الله تعالى مُنَزَّهٌ عن الولد

قال تعالى في آخر هذه السورة:﴿**وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ ولَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إداً**﴾[مريم: ٨٨ ، ٨٩] أي شيئاً عظيماً ومنكراً من القول وزوراً ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وتَنشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبَالُ هَداً . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ ولَداً . ومَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ ولَداً . إن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً.لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وعَدَّهُمْ عَداً.وكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً** ﴾[مريم:٩٠– ٩٥].

فبين أنه تعالى لا ينبغي له الولد، لأنه خالق كل شيء ومالكه وكل شيء فقير إليه، خاضع ذليل لديه، وجميع سكان السموات والأرض عبيده، وهو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه كما قال تعالى : ﴿ **وجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وخَلَقَهُمْ وخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ . بَدِيعُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ ولَدٌ ولَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وكِيلٌ.لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾[الأنعام :١٠٠-١٠٣]

فبين أنه خالق كل شيء، فكيف يكون له ولد، والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا نظير له، ولا شبيه له، ولا عديل له، فلا صاحبة له، فلا يكون له ولد كما قال تعال: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ . ولَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص: ١ – ٤] يقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله، ﴿**الصمدُ**﴾ وهو السيد الذي كمل في علمه وحكمته، ورحمته وجميع صفاته ﴿ **لَم يَلِدْ** ﴾ أي لم يوجد منه ولد ﴿ **لَم يَلِدْ ولَم يُولَد** ﴾ أي و لم يتولد عن شيء قبله ﴿**ولَم يَكُنْ لَه كُفُواً أَحَدٌ** ﴾ أي وليس له عدل ولا مكافئ ولا مساو فقطع النظير المداني الأعلي والمساوي، فانتفى أن يكون له ولد، إذ لا يكون الولد إلا متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨ / ٤٦) .

وقال تبارك وتعالى وتقدس: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ولا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إلاَّ الحَقَّ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ ورُسُلِهِ ولا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ واحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ ولَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ وكَفَى بِاللَّهِ وكِيلاً . لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ ولا المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ ومَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ ويَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً . فَأَمَّا الَذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ويَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وأَمَّا الَذِينَ اسْتَنكَفُوا واسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ولا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ولِياً ولا نَصِيراً﴾ [النساء : ١٧١ - ١٧٣].

ينهي تعالى أهل الكتاب ومن شاهِهم، عن الغلو والإطراء في الدين، وهو مجاوزة الحد، فالنصارى لعنهم الله غلوا وأطروا المسيح، حتى جاوزوا الحد، فكان الواجب عليهم، أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول، التي أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة، حملت منها بولدها عيسى عليه السلام، والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقال: بيت الله، وناقة الله، وعبد الله، وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفاً لها وتكريماً . وسمى عيسى بها لأنه كان بها من غير أب ، وهي الكلمة أيضاً التي عنها خلق وبسببها وجد ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : ٥٩] وقال تعالى : ﴿ وقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ ولَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ . بَدِيعُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾. [البقرة : ١١٦ ، ١١٧] .

وقال تعالى : ﴿وقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ . [التوبة: ٣٠] فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى عليهم لعائن الله كل من الفريقين ادَّعوا على الله شططا [١] وزعموا أن له ولداً، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً ، وأخبر أهم ليس لهم مستند فيما زعموه، ولا فيما ائتفكوه[٢] إلا مجرد القول ، ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة، تشابهت قلوبهم؛ وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول، صدر عن واجب الوجود الذي يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول وأنه صدر عن العقل الأول، عقل ثان، ونفس وفلك، ثم صدر عن الثاني كذلك، حتى تناهت العقول إلى عشرة، والنفوس إلى تسعة، والأفلاك إلى تسعة، باعتبارات فاسدة ذكروها، واختيارات باردة أوردوها، ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر. وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة، بنات اللّه وأنه صاهر سروات الجن فتولد منهما الملائكة تعالى الله عما يقولون وتنــزه عما يشركون كما قال تعالى :

---

(١) شططاً : الشطط : مجاوزة الحدّ والتباعد عن الحق .

(٢) الإفك : الكذب .

﴿ وجَعَلُوا المَلائكَةَ الَذينَ هُمْ عبَادُ الرَّحْمَنِ إنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ويُسْأَلُونَ﴾[الزخرف: ١٩] وقال تعالى:﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ ولَهُمُ البَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا المَلائكَةَ إنَاثاً وهُمْ شَاهِدُونَ . أَلا إنَّهُم مِّنْ إفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . ولَدَ اللَّهُ وإنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى البَنَاتِ عَلَى البَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ. أَفَلا تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ. فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وجَعَلُوا بَيْنَهُ وبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً ولَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . إلاَّ عِبَادَ اللَّهِ المُخْلَصِينَ ﴾[الصافات:١٤٩-١٦٠].

وقال تعالى : ﴿ وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ ولَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . ومَن يَقُلْ مِنهُمْ إنِّي إلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.[الأنبياء: ٢٦ - ٢٩] .

وقال تعالى في أول سورة الكهف وهي مكية : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَذي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ ولَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً . قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ويُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً . ويُنذِرَ الَذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ ولَداً . مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ولا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إن يَقُولُونَ إلاَّ كَذِباً﴾ [الكهف : ١ - ٥] .

وقال تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ ولَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ إنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ . قُلْ إنَّ الَذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٨ - ٧٠] فهذه الآيات المكيات الكريمات، تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى، الذين ادعوا وزعموا بلا علم، أن لله ولداً سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

ولما كانت النصارى عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة من أشهر من قال بهذه المقالة ذكروا في القرآن كثيراً للرد عليهم وبيان تناقضهم، وقلة علمهم، وكثرة جهلهم، وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم؛ وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب . قال الله تعالى: ﴿ ولَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ . [النساء: ٨٢] فدل على أن الحق يتحد ويتفق والباطل يختلف ويضطرب. فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله تعالى، وطائفة قالوا هو ابن الله ، وطائفة قالوا: هو ثالث ثلاثة، جل الله.قال الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ ومَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ولِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. [المائدة : ١٧] فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم، وبين أنه الخالق القادر على كل شيء المتصرف في كل شيء، وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه. وقال في أواخرها : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي ورَبَّكُمْ إنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ ومَأْوَاهُ النَّارُ ومَا

للظَّالمينَ منْ أنصَارٍ . لَقَدْ كفَرَ الذينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ ثَالثُ ثَلاثَة ومَا منْ إلَه إلاَّ إلَهٌ واحدٌ وإن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذين كفرُوا منهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ . أَفَلا يَتُوبُونَ إلَى اللَّه ويَسْتَغْفرُونَهُ واللَّهُ غفورٌ رَّحيمٌ . مَا المَسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ وأُمُّهُ صدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٢- ٧٥] .

حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقدراً، فأخبر أن هذا صدر منهم، مع أن الرسول إليهم هو عيسى ابن مريم، قد بين لهم أنه عبد مربوب مخلوق مصور في الرحم داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار، وعدم الفوز بدار القرار والخزي في الدار الآخرة والهوان والعار ولهذا قال : ﴿ إنَّهُ مَن يُشْرِكْ باللَّه فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْه الجَنَّةَ ومَأْوَاهُ النَّارُ ومَا للظَّالمينَ منْ أنصَارٍ ﴾ ثم قال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَذينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ ثَالثُ ثَلاثَة ومَا منْ إلَه إلاَّ إلَهٌ واحدٌ ﴾ قال ابن جرير وغيره: المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة. أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن على اختلافهم في ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنسطورية عليهم لعائن الله كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك، ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطس وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة، وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة، ولهذا قال تعالى : ﴿ومَا منْ إلَه إلاَّ إلَهٌ واحدٌ ﴾ أي وما من إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفء له ولا صاحبة له ولا ولد ثم توعدهم وهددهم فقال: ﴿ وإن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَذينَ كَفَرُوا منهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ ﴾ ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار، والعظائم التي توجب النار فقال: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إلَى اللَّه ويَسْتَغْفرُونَهُ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحيمٌ﴾ ثم بين حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول، وأمه صديقة، أي ليست بفاجرة، كما يقوله اليهود لعنهم الله وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا وقوله : ﴿ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما، أي ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهاً تعالى الله عن قولهم وجهلهم علوا كبيراً. وقال السدي وغيره: المراد بقوله ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَذينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ ثَالثُ ثَلاثَة ﴾ زعمهم في عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله يعني كما بين تعالى كفرهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة : ﴿ وإذْ قَالَ اللَّهُ يَا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ للنَّاس اتَّخذُوني وأُمِّيَ إلَهَيْنِ من دُون اللَّه قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لي بحَقٍّ إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلمْتَهُ تَعْلَمُ مَا في نَفْسي ولا أَعْلَمُ مَا في نَفْسكَ إنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوب . مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ مَا أَمَرْتَني به أَن اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي ورَبَّكُمْ وكُنتُ عَلَيْهمْ شَهيداً مَّا دُمْتُ فيهمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَني كُنتَ أَنتَ الرَّقيبَ عَلَيْهمْ وأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ . إن تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عبَادُكَ وإن تَغْفرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أَنتَ العَزيزُ الحَكيمُ ﴾ [المائدة : ١١٦ - ١١٨] .

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع[١] والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى، وزعم أنه ابن الله؛ أو أنه الله. أو أنه

(١) التقريع : التأنيب .

شريكه، تعالى الله عما يقولون، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له: **﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾** أي تعاليت، أن يكون معك شريك **﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾** أي ليس هذا يستحقه أحد سواك **﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾** . وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب **﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾** حين أرسلتني إليهم، وأنزلت على الكتاب الذي كان يتلي عليهم، ثم فسر ما قال لهم بقوله : **﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾** أي خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم **﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾** أي رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلصتني منهم وألقيت شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه، فلما كان ذلك **﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** . ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عز وجل والتبري من أهل النصرانية : **﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾** أي وهم يستحقون ذلك **﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾** . وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك ولهذا قال : **﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾** ولم يقل الغفور الرحيم.

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية ليلة حتى أصبح **﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** وقال « إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً »[1] وقال: **﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ . لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ . بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ . وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾** [الأنبياء : ١٦ – ٢٠] . وقال تعالى : **﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾** [الزمر ٤ ، ٥] .

وقال تعالى : **﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ . سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾** [الزخرف : ٨١ ، ٨٢] .

وقال تعالى : **﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾** [الإسراء : ١١١] .

وقال تعالى : **﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾** [الإخلاص : ١ – ٤] .

---

(١) حسن : رواه أحمد (١٤٩/٥) والنسائي (١٧٧/٢) وابن ماجه (١٣٥٠) .

وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك،، يزعم: أن لي ولداً وأنا الأحد الصمد، الذي لم ألِدْ ولم أولَدْ ولم يكن لي كفوا أحد** »[1].

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لا أحد أصبر على أذي سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم** » [2] ولكن ثبت في الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته** » ثم قرأ **﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾** [3] [هود:١٠٢]

وهكذا قوله تعالى : **﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾** [الحج: ٤٨].

وقال تعالى : **﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾** [لقمان:٢٤] وقال تعالى : **﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾** [يونس:٦٩، ٧٠] وقال تعالى : **﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾** [الطارق : ١٧] .

منشأ عيسى ابن مريم عليهما السلام

وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريباً من بيت المقدس. وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار وهي راكبة على حمار ليس بينهما وبين الإكاف[4] شيء، وهذا لا يصح والحديث الذي تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم كما ذكرنا ومهما عارضه فباطل.

وذكر وهب بن منبه أنه لما ولد خرت الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها وأن الشياطين حارت في سبب ذلك حتى كشف لهم إبليس الكبير، أمر عيسى فوجدوه في حجر أمه والملائكة محدقة به، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره، فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا هذا لمولد عظيم في الأرض فبعث رسله ومعهم ذهب ومر ولبان هدية إلى عيسى، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك، فسأل عن ذلك الوقت، فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس، واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد، فأرسلهم إليه بما معهم، وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه فلما وصلوا

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤) .

(٢) **متفق عليه** : رواه البخاري (٧٣٧٨) و مسلم(٢٨٠٤ / ٤٩) .

(٣) **متفق عليه** : رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣ / ٦١) .

(٤) الإكاف : برذعة الحمار .

إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها: إن رسل ملك الشام إنما جاؤوا ليقتلوا ولدك فاحتملته فذهبت به إلى مصر، فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره. فذكر منها أن الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالا من داره، وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج، فلم يدر من أخذه وعز ذلك على مريم عليها السلام، وشق على الناس وعلى رب المنـــزل وأعياهم أمرها، فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجل أعمى، وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه. فقال للأعمى: احمل هذا المقعد وانهض به فقال: إني لا أستطيع ذلك .فقال: بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار، فلما قال ذلك صدقاه فيما. قال: وأتيا بالمال فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغير جدا.

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده، فلما اجتمع الناس وأطعمهم، ثم أراد أن يسقيهم شرابا – يعني: خمراً– كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان لم يجد في جراره شيئاً، فشق ذلك عليه، فلما رأى عيسى ذلك منه، قام فجعل يمر على تلك الجرار، ويمر يده على أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب. فتعجب الناس من ذلك جدا وعظموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالا جزيلا فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا عثمان بن ساج وغيره عن موسى بن وردان عن أبي نضرة عن أبي سيد وعن مكحول عن أبي هريرة قال: إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بهذا الكلام الذي تكلم به وهو طفل، فمجد الله تمجيداً، لم تسمع الآذان بمثله، لم يدع شمساً ولا قمراً ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال : اللهم أنت القريب في علوك المتعال في دنوك الرفيع على كل شيء من خلقك. أنت الذي خلقت سبعاً في الهواء بكلماتك مستويات طباقاً أجبن وهن دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك، فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك، وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك، وجعلت فيهن مصابيح يهتدي بهن في الظلمات الحيران، فتباركت اللهم في مفطور سمواتك وفيما دحوت [١] من أرضك، دحوتها على الماء فمسكتها على تيار الموج الغامر فأذللتها إذلال التظاهر ، فذل لطاعتك صعبها واستحيى لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار، ومن بعد الجداول ينابيع الغزار. ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار، ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتاداً على ظهر الماء، فأطاعت أطوادها [٢]

(١) دحوت : دحا : بَسَطَ .

(٢) الأطواد : الجبال .

وجلمودها [١] فتباركت اللهم فمن يبلغ بنعته نعتك، أمن يبلغ بصفته صفتك تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب لا إله إلا أنت سبحانك، سترت السموات عن الناس لا إله إلا أنت سبحانك، إنما يغشاك من عبادك الأكياس [٢] ، نشهد أنك لست بإله استحدثناك، ولا رب يبيد ذكره، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذكرك، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك ،نشهد أنك أحد صمد لم يلد و لم يولد و لم يكن لك كفوا أحد .

وقال إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام، بعد أن كلمهم طفلا حتى بلغ ما يبلغ الغلمان، ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان، فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى: ﴿ **وبِكُفْرِهِمْ وقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً** ﴾ [النساء : ١٥٦] قال: فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكتاب، فجعل لا يعلمه المعلم شيئاً إلا بدره إليه فعلمه أبا جاد، فقال عيسى: ما أبوجاد؟ فقال المعلم: لا أدري، فقال عيسى: كيف تعلمني ما لا تدري ؟ فقال المعلم :إذاً فعلمني فقال له عيسى : فقم من مجلسك فقام فجلس عيسى مجلسه، فقال: سلني. فقال المعلم: ما أبوجاد؟ فقال عيسى : الألف آلاء الله. والباء بهاء الله والجيم بهجة الله، وجماله. فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد.

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابه على كل كلمة بحديث طويل موضوع لا يسأل عنه ولا يتمادى، وهكذا روى ابن عدي من حديث إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود عن مسعد بن كدام عن عطية عن أبي سعيد رفع الحديث في دخول عيسى إلى الكتاب وتعليمه المعلم معني حروف أبي جاد وهو مطول لا يفرح به. ثم قال ابن عدي: وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد لا يرويه غير إسماعيل، وروى ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة قال: كان عبد الله بن عمر يقول : كان عيسى ابن مريم، وهوغلام يلعب مع الصبيان، فكان يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك؟ فيقول: نعم، فيقول : خبأت لك كذا وكذا، فيذهب الغلام منهم إلى أمه، فيقول لها: أطعميني ما خبأت لي، فتقول: وأي شيء خبأت لك؟ فيقول: كذا وكذا. فتقول: من أخبرك؟ فيقول: عيسى ابن مريم؛ فقالوا: والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم، فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم، فسمع ضوضاءهم [٣] في بيت فسأل عنهم، فقالوا: إنما هؤلاء قردة وخنازير، فقال: اللهم كذلك فكانوا . كذلك رواه ابن عساكر.

---

(١) الجلمود : الصخر .

(٢) الكيس : الفطن الذكي .

(٣) الضوضاء : الفوضى ، والصراخ .

وقال إسحاق بن بشر: عن جو[illegible] عن الضحاك عن ابن عباس قال :وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله ففشا ذلك في اليهود، وترعرع عيسى، فهمت به بنو إسرائيل، فخافت أمه عليه فأوحي الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر فذلك قوله تعالى: **﴿وجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ آيَةً وآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ ومَعِينٍ﴾** [المؤمنون: ٥٠].

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة، التي ذكر الله من صفاتها أنها ذات قرار ومعين، وهذه صفة غريبة الشكل، وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستو يقر عليه وارتفاعه متسع ومع علوه فيه عيون الماء المعين وهو «الجاري السارح على وجه الأرض» . فقيل: المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس ولهذا **﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾** [مريم: ٢٤] وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف. وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق. وقيل : ذلك بمصر كما زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم والله أعلم. وقيل : هي الرملة. وقال إسحاق بن بشر : قال لنا إدريس عن جده عن وهب بن منبه: قال إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمر الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا ، قال: فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملهما على حمار [illegible] جاء بهما إلى إيليا. وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتي وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله ففشا [1] فيهم أمره .

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

قال أبو زرعة الدمشقي: حدثنا عبد الله بن صالح؛ حدثني معاوية بن صالح، عمن حدثه قال : أنزلت التوراة، على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان . ونزل الزبور على داود في اثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان. وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة. وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم في ثماني عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاما. وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان .

وقد ذكرنا في التفسير عند قوله : **﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾** [البقرة :٨٥] الأحاديث الواردة في ذلك وفيها: أن الإنجيل أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان.

وذكر ابن جرير في تاريخه: أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وقال إسحاق بن بشر: وأنبأنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ومقاتل عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة قال أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم : يا عيسى جدَّ في أمري ولا تهن واسمع وأطع يا ابن الطاهرة

(١) فَشَا : فشا الخبر ذاع وانتشر .

البكر البتول إنك من غير فحل وأنا خلقتك آية للعالمين، إياي فاعبد وعلي فتوكل، خذ الكتاب بقوة، فسر لأهل السريانية بلغ من بين يديك أني أنا الحق الحي القائم الذي لا أزول، صدقوا النبي الأمي العربي صاحب الجمل والتاج، وهي « العمامة » والمدرعة والنعلين والهراوة وهي «القضيب» الأنجل العينين الصلت الجبين، الواضح الخدين الجعد الرأس الكث اللحية المقرون الحاجبين الأقنى الأنف المفلج [(١)] الثنايا، البادي العنفقة [(٢)] الذي كأن عنقه إبريق فضة، وكأن الذهب يجري في تراقيه، له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب، ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره، شثن [(٣)] الكف والقدم، إذا التفت التفت جميعاً وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر ، وينحدر من صبب [(٤)] عرقه في وجهه كاللؤلؤ وريح المسك تنفح منه ولم ير قبله ولا بعده مثله، الحسن القامة الطيب الرمح نكاح النساء، ذا النسل القليل إنما نسله من مباركة لها بيت يعني في الجنة من قصب لا نصب فيه ولا صخب، تكفله يا عيسى في آخر الزمان، كما كفل زكريا أمك له منها فرخان مستشهدان وله عندي منـزلة ليست لأحد من البشر. كلامه القرآن ودينه الإسلام وأنا السلام طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه.

بيان شجرة طوبى ما هى ؟

قال عيسى: يا رب وما طوبى؟ قال : (غرس شجرة أنا غرستها بيدي، فهي للجنان كلها أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم، وبردها برد الكافور، وطعمها طعم الزنجبيل، وريحها ريح المسك من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً) . قال عيسى: يا رب اسقني منها. قال: « حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبي . قال يا عيسى أرفعك إلى. قال: رب ولم ترفعني؟ قال: (أرفعك ثم أهبطك في آخر الزمان، لترى من أمة ذلك النبي العجائب ولتعينهم على قتال اللعين الدجال أهبطك في وقت صلاة ثم لا تصلي بهم لأنها مرحومة ولا نبي بعد نبيهم) .

وقال هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه :أن عيسى. قال: « يا رب أنبئني عن هذه الأمة المرحومة قال : أمة أحمد هم علماء حكماء، كأنهم أنبياء يرضون مني القليل من العطاء، وأرضى منهم باليسير من العمل، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله. يا عيسى هم أكثر سكان الجنة لأنه لم تذل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت به رقابهم » . رواه بن عساكر وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلي عن عبد الله بن عوسجة قال: أوحي الله إلى عيسى ابن مريم :

---

(١) الفلج : تباعد ما بين الأسنان .

(٢) العنفقة : الشعيرات الخفيفة بين الشفة السفلى والذقن .

(٣) شثنت كفُه : غَلُظت وخشنت .

(٤) الصبب : تصبب النهر يكون فى حدور .

أنزلني من نفسك كهمك ، واجعلني ذخراً لك في معادك، وتقرب إلي بالنوافل أحبك، ولا تول غيري فأخذلك، اصبر على البلاء وارض بالقضاء، وكن لمسرتي فيك فإن مسرتي أن أطاع فلا أعصى ، وكن مني قريباً، وأحيي ذكري بلسانك، ولتكن مودتي في صدرك تيقظ من ساعات الغفلة واحكم في لطيف الفطنة وكن لي راغباً راهباً، وأمت قلبك في الخشية لي، وراع الليل لحق مسرتي، واظم نهارك ليوم الري عندي، نافس في الخيرات جهدك واعترف بالخير حيث توجهت، وقم في الخلائق بنصيحتي، واحكم في عبادي بعدلي ، فقد أنزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان، وجلاء الأبصار من غشاء الكلال، ولا تكن حلسا [١] كأنك مقبوض وأنت حي تنفس . يا عيسى ابن مريم ما آمنت بي خليقة إلا خشعت، ولا خشعت لي إلا رجت ثوابي ، فاشهدك أنها آمنة من عقابي ما لم تغُير أو تُبدل سنتي. يا عيسى ابن مريم البكر البتول ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها، وارتفعت رغبته فيما عند إلهه، وكن في ذلك تلين الكلام، وتفشي السلام، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار، حذار ما هو آت من أمر المعاد، وزلازل شدايد الأهوال قبل أن لا ينفع أهل ولا مال، واكحل عينك بملول[٢] الحزن إذا ضحك البطالون، وكن في ذلك صابراً محتسباً وطوبى لك أن نالك ما وعدت الصابرين ارج من الدنيا بالله يوما بيوم وذق مذاقه ما قد حرب منك ، أين طعمه ؟ وما لم يأتك كيف لذته ؟ فرح من الدنيا بالبلغة وليكفك منها الخشن الجشيب ، قد رأيت إلى ما يصير، اعمل على حساب فإنك مسؤول ، لو رأت عيناك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك.

وقال أبو داود في كتاب القدر : حدثنا محمد بن يحيى بن فارس . حدثنا عبد الرزاق . حدثنا معمر عن الزهري عن ابن طاووس عن أبيه قال : لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال : أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك ؟ قال إبليس : فارق بذروة هذا الجبل فتردي منه فانظر هل تعيش أم لا ؟ فقال ابن طاوس عن أبيه فقال عيسى : أما علمت أن الله قال : لا يجربني عبدي ؟ فإني أفعل ما شئت . وقال الزهري : إن العبد لا يبتلي ربه ولكن الله يبتلي عبده. قال أبوداود : حدثنا أحمد بن عبدة . أنبأنا سفيان عن عمرو عن طاوس ، قال : أتي الشيطان عيسى ابن مريم . فقال : أليس تزعم أنك صادق فأت هوة فألق نفسك ؟ قال : ويلك أليس قال : يا ابن آدم لا تسألني هلاك نفسك فإني أفعل ما أشاء ؟ وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع حدثنا حسين بن طلحة سمعت خالد بن يزيد . قال : تعبد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين أقام يوماً على شفير جبل فقال الشيطان : أرأيت إن ألقيت نفسي هل يصيبني إلا ما كتب لي؟ قال : أني لست بالذي ابتلي ربي ولكن ربي إذا شاء ابتلاني وعرفه أنه الشيطان ففارقه. وقال

(١) الحلس : الذى لا يبرح المكان .

(٢) ملول : جمع ملة وهى الرماد الحار ينضج فيه الخبز .

أبوبكر بن أبي الدنيا : حدثنا شريح بن يونس . حدثنا على بن ثابت عن الخطاب بن القاسم عن أبي عثمان . قال : كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل فأتاه إبليس . فقال : أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر ؟ قال : نعم ، قال : ألق نفسك من هذا الجبل وقل قدر على ؟ فقال : يا لعين الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عزّ وجلّ .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا الفضل بن موسى البصري . حدثنا إبراهيم بن بشار سمعت سفيان بن عيينة . يقول : لقي عيسى ابن مريم إبليس . فقال له إبليس : يا عيسى ابن مريم الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت في المهد صبياً. و لم يتكلم فيه أحد قبلك ، قال : بل الربوبية للإله الذي أنطقني ثم يميتني ثم يحييني ، قال : فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى ، قال : بل الربوبية لله الذي يحيي ويميت من أحييت ثم يحييه . قال : والله إنك لإله في السماء وإله في الأرض ، قال : فصكه جبريل صكة بجناحيه فما نباها دون قرون الشمس ، ثم صكه أخرى بجناحيه فما نباها [1] دون العين الحامية ، ثم صكه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه وفي رواية فأسلكه فيها حتى وجد طعم الحمأة ، فخرج منها وهو يقول : ما لقي أحدُ من أحد ما لقيت منك ، يابن مريم. وقد روي نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر . فقال الحافظ أبو بكرٌ الخطيب : أخبرني أبو الحسن بن رزقويه : أنبأنا أبو بكر أحمد بن سبدي : حدثنا أبومحمد الحسن بن على القطان ، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار ، أنبأنا على بن عاصم ، حدثني أبو سلمة سويد عن بعض أصحابه . قال : صلى عيسى ببيت المقدس فانصرف، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه فجعل يعرض عليه ويكلمه ويقول له: إنه لا ينبغي لك أن تكون عبداً فأكثر عليه وجعل عيسى يحرص على أن يتخلص منه ، فجعل لا يتخلص منه فقال فيما يقول : لا ينبغي لك يا عيسى أن تكون عبداً قال : فاستغاث عيسى بربه فأقبل جبريل وميكائيل فلما رآهما إبليس كف فلما استقر معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل إبليس بجناحه فقذفه في بطن الوادي . قال : فعاد إبليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك . فقال لعيسى : قد أخبرتك أنه لا ينبغي أن تكون عبداً إن غضبك ليس بغضب عبد وقد رأيت مالقيت منك حين غضبت ولكن أدعوك لأمر هو لك ، آمر الشياطين فليطيعوك فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك ، أما أني لا أقول أن تكون إلهاً ليس معه إله ولكن الله يكون إلها في السماء وتكون أنت إلها في الأرض ، فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربه وصرخ صرخة شديدة ، فإذا إسرافيل قد هبط فنظر إليه جبريل وميكائيل ، فكف إبليس ، فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصكك به عين الشمس ، ثم ضربه ضربة أخري فأقبل إبليس يهوي ومر عيسى وهو بمكانه . فقال : يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً فرمي به في

---

(١) نباها : أبعدها .

عين الشمس ، فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية . قال : فغطوه فجعل كلما صرخ غطوه في تلك الحمأة قال والله ما عاد إليه بعد .

قال : وحدثنا إسماعيل العطار حدثنا أبو حذيفة قال : واجتمع إليه شياطينه فقالوا : سيدنا: قد لقيت تعباً . قال : إن هذا عبد معصوم ليس لي عليه من سبيل وسأضل به بشراً كثيراً وأبث فيهم أهواء مختلفة وأجعلهم شيعاً ويجعلونه وأمه إلهين من دون الله ، قال : وأنزل الله فيما أيد به عيسى وعصمه من إبليس قرآنا ناطقاً بذكر نعمته على عيسى فقال : ﴿ **يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعَلَى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القُدُسِ** ﴾ [المائدة : ١١٠] يعني إذ قويتك بروح القدس يعني جبريل ﴿ **تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وكَهْلاً وإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإِنجِيلَ وإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ** ﴾ [المائدة : ١١٠] الآية كلها وإذ جعلت المساكين لك بطانة وصحابة أعوانا ترضى بهم وصحابة وأعواناً ، يرضون بك هادياً وقائداً إلى الجنة فذلك فاعلم خلقان عظيمان من لقيني بهما فقد لقيني بأزكي الخلائق وأرضاها عندي .

وسيقول لك بنو إسرائيل : صمنا فلم يتقبل صيامنا، وصلينا فلم يقبل صلاتنا ،وتصدقنا فلم تقبل صدقاتنا، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بكاؤنا ، فقل لهم : ولم ذلك ؟ وما الذي يمنعني أن ذات يدي ؟ قلت : أو ليس خزائن السموات والأرض بيدي أنفق منها كيف أشاء ؟ وإن البخل لا يعتريني أو لست أجود من سأل وأوسع من أعطى أو أن رحمتي ضاقت وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي ، ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسى ابن مريم عدواً أنفسهم بالحكمة التي تورث في قلوبهم ما استأثروا به الدنيا آثره على الآخرة لعرفوا من أين أوتوا وإذاً لأيقنوا أن أنفسهم هي أعدى الأعداء لهم وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام ؟ وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربونني ويستحلون محارمي ؟ وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها ؟ يا عيسى إنما أجزي عليها أهلها وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء ؟ ازددت عليهم غضباً .

يا عيسى وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من عبدني وقال فيكما بقولي : أن أجعلهم جيرانك في الدار ورفقاءك في المنازل وشركاءك في الكرامة، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من اتخذك وأمك إلهين من دون الله أن أجعلهم في الدرك الأسفل من النار، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أني مثبت هذا الأمر على يدي عبدي محمد وأختم به الأنبياء والرسل، ومولده بمكة ومهاجره بطيبة، وملكه الشام، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب [١] في الأسواق، ولا يزر بالفحش ولا قوال بالخنا أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلقاً كريماً وأجعل التقوي ضميره ، والحكم معقوله والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته

---

(١) السخب : الصّخب .

والإسلام ، ملته اسمه أحمد أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأغني به بعد العائلة [١] وأرفع به بعد الضعة ، أهدي به وأفتح به بين آذان صم، وقلوب غلف، وأهواء مختلفة متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إخلاصاً لاسمي، وتصديقاً لما جاءت به الرسل ، ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل في مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم ، يصلون لي قياماً وقعوداً وركعاً وسجوداً، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً ، قرباتهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم وقربانهم في بطونهم ، رهبان بالليل ليوث في النهار ، ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم .

وسنذكر ما يصدق كثيراً من هذا السياق مما سنورده من سورتي المائدة والصف إن شاء الله وبه الثقة. وقد روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسي ، دخل حديث بعضهم في بعض . قالوا : لما بعث عيسى ابن مريم وجاءهم بالبينات ، جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به فيقولون : ما أكل فلان البارحة ؟ وما ادخر في منـــزله ؟ فيخبرهم فيزداد المؤمنون إيماناً والكافرون والمنافقون شكًّا وكفراناً .

وكان عيسى مع ذلك ليس له منـــزل يأوي إليه ، إنما يسيح في الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به ، فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي فقال لها : مالك أيتها المرأة ؟فقالت : ماتت ابنة لي ، لم يكن لي ولد غيرها وإني عاهدت ربي أن لا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت ، أو يحييها الله لي فانظر إليها . فقال لها عيسى : أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت ؟ قالت: نعم . قالوا : فصلى ركعتين . ثم جاء فجلس عند القبر فنادى يافلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي . قال: فتحرك القبر . ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله . ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب ، فقال لها عيسى : ما أبطأ بك عني ؟ فقالت : لما جاءتني الصيحة الأولى بعث الله لي ملكاً فركّب خلقي . ثم جاءتني الصيحة الثانية . فرجع إلي روحي ، ثم جاءتني الصيحة الثالثة . فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عيني من مخافة القيامة . ثم أقبلت على أمها . فقالت : يا أماه ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين؟ يا أماه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا ، يا روح الله وكلمته سل ربي أن يردني إلى الآخرة وأن يهون على كرب الموت ، فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض .

فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضبا. وقدمنا في عقيب قصة نوح أن بني إسرائيل سألوه أن يحيي لهم سام بن نوح فدعا الله عزّ وجلّ وصلى لله فأحياه الله لهم فحدثهم عن السفينة

(١) العائل : الفقير .

وأمرها ثم دعا فعاد ترابا. وقد روى السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس في خبر ذكره وفيه أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل مات وحمل على سريره ، فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عزّ وجلّ فأحياه الله عزَّ وجلَّ ، فرأي الناس أمراً هائلا ومنظراً عجيباً .

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة : ١١٠ ، ١١١] .

يذكره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خلقه إياه من غير أب بل من أم بلا ذكر وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى . ثم إرساله بعد هذا كله . ﴿وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ في اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ولهذا قال : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِروحِ القُدُسُ ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه وقرنه معه في حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿تكلمَ الناسَ في المَهدِ وكَهْلاً﴾ أي تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك﴿وإذْ عَلّمتك الكتابَ والحكمةَ﴾ أي الخط والفهم نص عليه بعض السلف ﴿والتوراةَ والإنجيلَ ﴾ وقوله : ﴿ وإذْ تَخلقُ من الطينِ كهَيئة الطيرِ بِإذْني ﴾ أي تصوره وتشكله من الطين على هيئته عن أمر الله له بذلك ﴿ فتنفخُ فيه فتكونُ طَيراً بإذني ﴾ أي بأمري يؤكد تعالى بذكر الإذن له في ذلك لرفع التوهم وقوله : ﴿وتُبْرِئُ الأكمه ﴾ قال بعض السلف : وهو الذي يُولَد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ﴿ والأبرصَ ﴾ هو الذي لا طب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً ﴿ وإذْ تُخرجُ الموتَى ﴾ أي من قبورهم أحياء بإذني وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً متعددة مما فيه كفاية .

وقوله : ﴿ بِإذْني وإذْ كَفَفْتُ بَني إسْرَائِيلَ عَنكَ إذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنات فَقالَ الَذينَ كَفرُوا مِنهُمْ إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذي وسلامة له من الردى .

وقوله: ﴿وإذْ أَوْحَيْتُ إلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾ قيل : المراد بهذا الوحي وحي الهام أي أرشدهم الله إليه ودلهم عليه كما قال : ﴿ وأَوْحَى رَبُّكَ إلَى النَّحْلِ ﴾ [النحل : ٦٨] ﴿ وأَوْحَيْنَا إلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ﴾ [القصص : ٧] وقيل : المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق ولهذا استجابوا قائلين ﴿ آمَنَّا واشْهَدْ بَأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ : ﴿ هُوَ الَذي أَيَّدَكَ بنَصْرِهِ وبالْمُؤْمنينَ . وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفقْتَ مَا في الأَرْضِ جَميعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولَكنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٢ ، ٦٣] وقال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكتَابَ والْحكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنجيلَ. ورَسُولاً إِلَى بَني إسْرَائيلَ أَنِّي قَدْ جئْتُكُم بآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفخُ فيه فَيَكُونُ طَيْراً بِإذْنِ اللَّه وأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وأُحْيِي المَوْتَى بإذْنِ اللَّه وأُنَبِّئُكُم بمَا تَأْكُلُونَ ومَا تَدَّخرُونَ في بُيُوتكُمْ إنَّ في ذَلكَ لآيَةً لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمنينَ . ومُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ منَ التَّوْرَاة ولأُحلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وجئْتُكُم بآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطيعُونِ . إنَّ اللَّهَ رَبِّي ورَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صرَاطٌ مُّسْتَقيمٌ . فَلَمَّا أَحَسَّ عيسَى منْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَاري إِلَى اللَّه قَالَ الحَوَاريُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّه آمَنَّا باللَّه واشْهَدْ بأَنَّا مُسْلمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا بمَا أَنزَلْتَ واتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهدينَ . ومَكَرُوا ومَكَرَ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ المَاكرِينَ ﴾[آل عمران : ٤٨ - ٥٤].

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء فبعث بآيات بهرت الأبصار، وخضعت لها الرقاب ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجري الخارق على يديه تصديقاً له ، أسلموا سراعاً و لم يتلعثموا .

وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأني لحكيم إبراء الأكمة ؟ الذي هو أسوأ حالاً من الأعمي والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به وعلي قدرة من أرسله .

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث في زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنــزيل من حكيم حميد ، فلفظه معجز تحدي به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عزّ وجل والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين ، استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة ، فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته وذلك حين همّ به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ، فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم، وألقي

شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه، وهم يعتقدونه عيسى وهم في ذلك غالطون ، وللحق مكابرون وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه وكلا الفريقين في ذلك مخطئون .

قال تعالى : ﴿ **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [آل عمران :٥٤] وقال تعالى : ﴿ **وإذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ إنِّي رَسُولُ اللَّه إلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاة ومُبَشِّراً برَسُول يَأْتي مِنْ بَعْدي اسْمُهُ أحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بالْبَيِّنَات قَالُوا هَذَا سحْرٌ مُّبِينٌ . ومَنْ أَظْلَمُ ممَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّه الكَذبَ وهُوَ يُدْعَى إلَى الإسْلامِ واللَّهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالمينَ . يُرِيدُونَ ليُطْفئُوا نُورَ اللَّه بأَفْوَاههمْ واللَّهُ مُتمُّ نُوره ولَوْ كَرِهَ الكَافرُونَ** ﴾ [الصف :٦-٨] إلى أن قال بعد ذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّه كَمَا قَالَ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ للْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إلَى اللَّه قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّه فَآمَنَت طَّائفَةٌ منْ بَني إسْرَائيلَ وكَفَرَت طَّائفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهرِينَ** ﴾ [الصف : ١٤] .

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه إقامة للحجة عليهم وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى : ﴿ **الَّذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجدُونَهُ مَكْتُوباً عندَهُمْ في التَّوْرَاة والإنجيلِ يَأْمُرُهُم بالْمَعْرُوف ويَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ ويُحلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَات ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائثَ ويَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ والأَغْلالَ الَّتي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئكَ هُمُ المُفْلحُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

قال محمد بن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ، قال : « **دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام** »[1]. وقد روي عن العرباض بن سارية وأبي أمامة عن النبي ﷺ نحو هذا وفيه "دعوة أبي إبراهيم وبشري عيسى" وذلك أن إبراهيم لما بني الكعبة قال : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم** ﴾ [البقرة : ١٢٩] الآية ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى ، قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم، وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق ، أحمد وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام .

قال الله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الصف : ٦] يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ .

ثم حرض تعالى عبادة المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله، ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**

---

(١) **صحيح** : رواه ابن إسحاق كما فى «السيرة النبوية» لابن هشام (١/١٠٥،١٠٦) والحاكم (٢/٦٠٠) والبيهقى فى «دلائل النبوة» (١/٨٣ ، ٨٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [الصف : ١٤] أي من يساعدني في الدعوة إلى الله **﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾** وكان ذلك في قرية يقال لها الناصرة فسموا بذلك النصارى، قال الله تعالى : **﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾** [الصف : ١٤] يعني لما دعا عيسى بني إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى ، منهم من آمن ومنهم من كفر، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكمالهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير ، بعث إليهم رسلاً ثلاثة أحدهم شمعون الصفا فآمنوا واستجابوا، وليس هؤلاء هم المذكورون في سورة يس لما تقدم تقريره في قصة أصحاب القرية وكفر آخرون من بني إسرائيل، وهم جمهور اليهود فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى : **﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾** [آل عمران : ٥٥] الآية . فكل من كان إليه أقرب ، كان عالياً فمن دونه ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه ، من أنه عبد الله ورسوله ، كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به، ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود عليهم لعائن الله كان النصارى قاهرين لليهود في أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله .

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى : **﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾** [المائدة :١١٢ -١١٥] .

قد ذكرنا في التفسير الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار ابن ياسر وغيرهم من السلف ، ومضمون ذلك أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً ، فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم ،وأجابهم إلى طلبتهم، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم، وآخرهم ، لغنيهم وفقيرهم ، فوعظهم عيسى في ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها ، فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل .

فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه، ولبس مسحاً من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء، وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا .

فأنزل الله تعالى المائدة من السماء، والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين وجعلت تدنو قليلاً قليلاً، وكلما دنت سأل عيسى ربه عزّ وجلّ أن يجعلها رحمة لا نقمة، وأن يجعلها بركة

وسلامة ، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام، وهي مغطاه بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول : " بسم الله خير الرازقين " فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة. ويقال : وخل. ويقال: ورمان : وثمار، ولها رائحة عظيمة جدا ، قال الله لها كوني فكانت.

ثم أمرهم بالأكل منها . فقالوا : لا نأكل حتى تأكل . فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال . لها ، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى، وكانوا قريباً من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها ، فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن فندم الناس على ترك الأكل منها ، لما رأوا من إصلاح حال أولئك. ثم قيل : إنها كانت تنـــزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل : إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف. ثم كانت تنـــزل يوماً بعد يوم كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوما بعد يوم. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء فشق ذلك على كثير من الناس، وتكلم منافقوهم في ذلك فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير.

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً ، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي ، حدثنا سفيان ابن حبيب ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن خلاس عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ . قال : "نزلت المائدة من السماء خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير " ثم رواه ابن جرير عن بندار عن ابن أبي عدي عن سعيد عن قتادة عن خلاس عن عمار موقوفاً. وهذا أصح وكذا رواه من طريق سماك عن رجل من بني عجل عن عمار موقوفاً وهو الصواب. والله أعلم.

وخلاس عن عمار منقطع . فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً في هذه القصة فإن العلماء اختلفوا في المائدة . هل نزلت أم لا ؟ فالجمهور أنها نزلت ، كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولاسيما قوله : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ كما قرره ابن جرير والله أعلم. وقد روي ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبي الحسن البصري أنهما قالا : لم تنـــزل وأنهم أبوا نزولها حين قال : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٥] ولهذا قيل : إن النصارى لا يعرفون خبر المائدة وليس مذكوراً في كتابهم مع أن خبرها مما يتوفر الدواعي على نقله والله أعلم. وقد تقصينا الكلام على ذلك في التفسير فليكتب من هناك. ومن أراد مراجعته فلينظروه من ثَمّ ولله الحمد والمنة .

فصل فقد الحواريين نبيهم عيسى

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا رجل سقط اسمه ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبو هلال محمد بن سليمان عن بكر بن عبد الله المزني . قال : فقد الحواريون نبيهم عيسى . فقيل لهم . توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشي على الماء يرفعه الموج

مرة، ويضعه أخرى، وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤتزر بنصفه ، حتى انتهى إليهم . فقال له بعضهم : قال أبو هلال : ظننت أنه من أفاضلهم ألا أجيء إليك يا نبي الله ؟ قال : بلى . قال : فوضع إحدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى ، فقال : أوه غرقت يانبي الله . فقال : أرني يدك يا قصير الإيمان ، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء. ورواه أبوسعيد بن الأعرابي عن إبراهيم بن أبي الجحيم عن سليمان بن حرب عن أبي هلال عن بكر بنحوه. ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن على بن الحسن بن سفيان حدثنا إبراهيم بن الأشعث عن الفضيل بن عياض . قال : قيل لعيسى : بأي شيء تمشي على الماء ؟ قال : بالإيمان واليقين. قالوا : فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت . قال : فامشوا إذاً، قال : فمشوا معه في الموج فغرقوا . فقال لهم عيسى : مالكم ؟ فقالوا : خفنا الموج . قال : ألا خفتم رب الموج ؟ قال : فأخرجهم . ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها . ثم بسطها ، فإذا في إحدى يديه ذهب وفي الأخرى مدر أو حصى . فقال : أيهما أحلى في قلوبكم ؟ قالوا : هذا الذهب . قال : فإنهما عندي سواء. وقدمنا في قصة يحيى بن زكريا عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ولا يأوي إلى منـــزل ولا أهل ولا مال ولا يدخر شيئاً لغد. قال بعضهم : كان يأكل من غزل أمه صلوات الله وسلامه عليه .

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال : كان عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول : لا ينبغي لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ويسكت .

وعن عبد الملك بن سعيد بن بحر أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى[1].

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر حدثنا جعفر بن بلقان أن عيسى كان يقول : « **اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهناً بعملي فلا فقير أفقر مني ، اللهم لا تشمّت بي عدوي، ولا تسؤ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تسلط علي من لا يرحمني** » .

وقال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد : كان عيسى يقول : لا نصيب حقيقة الإيمان حتى لا نبالي من أكل الدنيا. قال الفضيل : وكان عيسى يقول : فكرت في الخلق فوجدت من لم يخلق أغبط عندي ممن خلق .

وقال إسحاق بن بشر عن هشام بن حسان عن الحسن قال : إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة. قال : وإن الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى . قال : وبينما عيسى يوما نائم على حجر قد توسده، وقد وجد لذة النوم إذ مر به إبليس فقال : يا عيسى ألست تزعم

---

(١) الثكلى : المرأة التي فقدت ولدها .

أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا ؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا . فقال : فأخذ الحجر ورمى به إليه وقال : هذا لك مع الدنيا .

وقال معتمر بن سليمان : خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتبان حافياً باكياً شعثاً مصفر اللون من الجوع ، يابس الشفتين من العطش . فقال : السلام عليكم يابني إسرائيل ، أنا الذي أنزلت الدنيا منـــزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر أتدرون أين بيتي ؟ قالوا : أين بيتك يا روح الله ؟ قال : بيتي المساجد وطيبـــي الماء وإدامي الجوع وسراجي القمر بالليل وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس ، وريحاني بقول الأرض ولباسي الصوف وشعاري خوف رب العزة وجلسائي الزمنى [1] والمساكين ، أصبح وليس لي شيء وأمسي وليس لي شيء وأنا طيب النفس غير مكترث فمن أغنى مني وأربح. رواه ابن عساكر .

وروى في ترجمة محمد بن الوليد بن أبان بن حبان أبي الحسن العقيلي المصري ؛ حدثنا هانئ بن المتوكل الإسكندراني عن حيوة بن شريح ، حدثني الوليد بن أبي الوليد عن شفي بن نافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺقال : « أوحى الله تعالى إلى عيسى ، أنْ يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان ، لئلا تعرف فتؤذى ، فوعزتي وجلالي لأزوجنك ألف حوراء ولأولمن عليك أربعمائة عام » . وهذا حديث غريب رفعه، وقد يكون موقوفاً من رواية شفي بن نافع عن كعب الأحبار أو غيره من الإسرائيليين والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك عن سفيان بن عيينة عن خلف بن حوشب : قال : قال عيسى للحواريين : كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا .

وقال قتادة : قال عيسى عليه السلام: سلوني فإني لين القلب وإني صغير عند نفسي.

وقال إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال عيسى للحواريين: كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين بحق ما أقول لكم أن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وأن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وأن عباده الله ليسوا بالمتنعمين ، بحق ما أقول لكم إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله.

وروي نحوه عن أبي هريرة . وقال أبو مصعب عن مالك : أنه بلغه أن عيسى كان يقول : « يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير وإياكم وخبز البر [2] فإنكم لن تقوموا بشكره » .

وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال : كان عيسى يقول : اعبروا الدنيا ولا تعمروها، وكان يقول : حب الدنيا رأس كل خطيئة والنظر يزرع في القلب الشهوة .

---

(١) الزمنى : الزمانة العاهة . عدم – تعطل – بعض الأعضاء .
(٢) البر : القمح .

وحكي وهيب بن الورد مثله وزاد وربَّ شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً، وعن عيسى عليه السلام: (يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت، وكن في الدنيا ضيفاً، واتخذ المساجد بيتاً، وعلم عينك البكاء وجسدك الصبر، وقلبك التفكر، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة) . وعنه عليه السلام أنه قال : (كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قراراً) . وفي هذا يقول سابق البربري.

لكمُ بيوتٌ بمستَنّ السيوفِ وهَلْ ... يُبْنَى على الماءِ بيتٌ أُسُّــه مَدَرُ [1]

وقال سفيان الثوري : قال عيسى ابن مريم : (لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء) .

وقال إبراهيم الحربي عن داود بن رشيد عن أبي عبد الله الصوفي قال : قال عيسى: (طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله) . وعن عيسى عليه السلام : (إن الشيطان مع الدنيا وفكره من المال، وتزينه مع الهوى واستمكانه عند الشهوات).

وقال الأعمش عن خيثمة : كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول : هكذا فاصنعوا بالقري. وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام : طوبى لحجر حملك ولثدي أرضعك. قال : طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه. وعنه طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته. وعنه: طوبى لعين نامت و لم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير إثم .

وعن مالك بن دينار قال : مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا : ما أنتن ريحها !! فقال : ما أبيض أسنالها !! لينهاهم عن الغيبة .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا الحسين بن عبد الرحمن عن زكريا بن عدي قال : قال عيسى ابن مريم : يا معشر الحواريين ارضوا بدني الدنيا ، مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا. قال زكريا وفي ذلك يقول الشاعر :

أري رجــالاً بأدْنى الـــدين قد قَنعوا ... ولا أراهــم رَضوا في العيش بالـــدّون

فاستَغْنِ بالدينِ عنْ دُنْيَا الملوكِ كمَــا ... استغْنَى الملوكُ بدُنياهُم عن الـــدِّيـــنِ

وقال أبو مصعب عن مالك : قال عيسى ابن مريم عليه السلام: (لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية) .

وقال الثوري : سمعت أبي يقول عن إبراهيم التيمي ؛ قال : قال عيسى لأصحابه : (بحق أقول لكم من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير) . وقال مالك

(١) مدر : البيت من الطين .

ابن دينار : قال عيسى : « إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس» . وقال عبد الله بن المبارك : أنبأنا سفيان عن منصور عن سالم بن أبي الجعد قال: قال عيسى: اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح ، لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها فإن قلتم : نحن أعظم بطوناً من الطير ، فانظروا إلى هذه الأباقير من الوحوش والحمر فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها. وقال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبد الله عن يزيد بن ميسرة قال : قال الحواريون للمسيح : يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه قال : آمين آمين بحق ما أقول لكم ، لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلا أهلكه بذنوب أهله ، إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الأحجار التي تعجبكم شيئاً ، إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك.

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه : أخبرنا أبو منصور أحمد بن محمد الصوفي، أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوركانية قالت : حدثنا أبو محمد عبدالله بن عمر بن عبدالله بن الهشيم، إملاء ، حدثنا الوليد بن أبان إملاء .حدثنا أحمد بن جعفر الرازي . حدثنا سهيل ابن إبراهيم الحنظلي . حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز عن المعتمر عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « **مرَّ عيسى عليه السلام على مدينة خربة فأعجبه البنيان ، فقال : أي رب مر هذه المدينة أن تجيبني ، فأوحى الله إلى المدينة أيتها المدينة الخربة جاوبي عيسى قال : فنادت المدينة عيسى حبيبي وما تريد مني ؟ قال : ما فعل أشجارك ؟ وما فعل أنهارك ؟ وما فعل قصورك ؟ وأين سكانك ؟ . قالت : حبيبي جاء وعد ربك الحق ، فيبست أشجاري ونشفت أنهاري وخربت قصوري ومات سكاني. قال : فأين أموالهم ؟ فقالت : جمعوها من الحلال والحرام موضوعة في بطني. لله ميراث السموات والأرض. قال : فنادى عيسى عليه السلام" فعجبت من ثلاث أناس طالب الدنيا والموت يطلبه، وباني القصور والقبر منـــزله، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه ، ابن آدم لا بالكثير تشبع ولا بالقليل تقنع ، تجمع مالك لمن لا يحمدك وتقدم على رب لا يعذرك ، إنما أنت عبد بطنك وشهوتك، وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك، وأنت يابن آدم تري حشد مالك في ميزان غيرك** » هذا حديث غريب جدا وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك.

وقال سفيان الثوري عن أبيه عن إبراهيم التيمي قال: قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء ، فإن قلب الرجل حيث كنـــزه . وقال ثور بن يزيد عن عبد العزيز بن ظبيان . قال : قال عيسى ابن مريم : من تعلم وعلم وعمل دعي عظيماً في ملكوت السماء. وقال أبو كريب : روي أن عيسى عليه السلام قال : لا خير في علمٍ لا يعبر معك الوادي ويعبر بك النادي.

وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعا : « أن عيسى قام في بني إسرائيل. فقال : يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ؛ وأمر تبين غيه فاجتنبوه ؛ وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عزّ وجلّ » وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن رجل عن عكرمة قال : قال عيسى : لاتطرحوا اللؤلؤ إلى الخنـــزير ، فإن الخنـــزير لايصنع باللؤلؤ شيئاً، ولا تعطوا الحكمة من لايريدها فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لايريدها شر من الخنـــزير).

وكذا حكي وهب وغيره عنه . وعنه أنه قال لأصحابه : (أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم وإن فيكم خصلتين من الجهل الضحك من غير عجب والصبحة من غير سهر) . وعنه أنه قيل له : من أشد الناس فتنة ؟ قال : (زلة العالم فإن العالم إذا زل يزل بزلته عَالَمُ كثير. وعنه أنه قال: يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم ، قولكم شفاء وعملكم داء ، مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها) . وقال وهب : قال عيسى: (ياعلماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلوها ولاتدعوا المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه) . وقال مكحول: (التقى يحي وعيسى فصافحه عيسى وهو يضحك ، فقال له يحيى : يابن خالة مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت ؟) . فقال له عيسى : مالي أراك عابساً كأنك قد يئست ؟ فأوحي الله إليهما أن أحبكما إلي أبشكما بصاحبه) . وقال وهب بن منبه : وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال: (قد كنتم فيما هو أضيق منه من أرحام أمهاتكم فإذا أحب الله أن يوسع وسع) .و قال أبو عمر الضرير : بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً. والآثار في مثل هذا كثيرة جدا. وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرفاً صالحاً اقتصرنا منها على هذا القدر والله الموفق للصواب .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء في حفظ الرب

وبيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب

قال الله تعالى : ﴿ ومَكَرُوا ومَكَرَ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ . إذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إنِّي مُتَوَفِّيكَ ورَافِعُكَ إلَيَّ ومُطَهِّرُكَ مِنَ الَذِينَ كَفَرُوا وجَاعِلُ الَذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَذِينَ كَفَرُوا إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ثُمَّ إلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران : ٥٤ ، ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وكُفْرِهِم بآيَاتِ اللَّه وقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً . وبِكُفْرِهِمْ وقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً . وقَوْلِهِمْ إنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّه ومَا قَتَلُوهُ ومَا صَلَبُوهُ ولَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وإنَّ الَذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ومَا قَتَلُوهُ يَقِيناً . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إلَيْهِ وكَانَ اللَّهُ

عَزِيزاً حَكِيماً . وإن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ويَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٩] فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم ، على الصحيح المقطوع به، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان.

قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق : كان اسمه داود بن نورا ، فأمر بقتله وصلبه فحصروه في دار ببيت المقدس وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ألقي شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ، ورفع عيسى من روزنة [1] ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه ، فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له وسلم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب وضلوا بسبب ذلك ضلالا مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً وأخبر تعالى بقوله : ﴿ وإن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء:١٥٩] أي بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة فإنه ينـــزل ويقتل الخنـــزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام ، كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء، وكما سنورد ذلك مستقصى في كتاب الفتن والملاحم عند أخبار المسيح الدجال فنذكر ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذي الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال .

وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء. قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان . حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً، منهم من الحواريين يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بي اثني عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي ؟ فقام شاب من أحدثهم سنا . فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب . فقال : أنا . فقال : أنت هو ذاك فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء. قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثني عشر مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق . فقالت طائفة : كان الله فينا ماشاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية،و قالت فرقة : كان فينا ابن الله ماشاء . ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ماشاء . ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها . فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمد ﷺ.قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى:﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط

(١) الروزنة : الكوة .

مسلم ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية به نحوه، ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبي معاوية وهكذا ذكر غير واحد من السلف وممن ذكر ذلك مطولا محمد ابن إسحاق بن يسار ، قال : وجعل عيسى عليه .السلام يدعو الله عزّ وجلّ أن يؤخر أجله يعني ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول في دين الله . قيل : وكان عنده من الحواريين اثني عشر رجلا : بطرس . ويعقوب بن زبدا . ويحنس أخو يعقوب . وأندراوس . وفليبس . وأبرثلما . ومتي . وتوماس . ويعقوب بن حلقبا . وتداوس . وفتاتيا . ويودس كريايوطا . وهذا هو الذي دلّ اليهود على عيسى. قال ابن إسحاق : وكان فيهم رجل آخر اسمه : سرجس كتمته النصارى ، وهو الذي ألقي شبه المسيح عليه فصلب عنه ، قال : وبعض النصارى يزعم أن الذي صلب عن المسيح وألقي عليه شبهه هو : يودس بن كريايوطا والله أعلم.

وقال الضحاك عن ابن عباس : استخلف عيسى شمعون ، وقتلت اليهود يودس الذي ألقي عليه الشبه . وقال أحمد بن مروان : حدثنا محمد بن الجهم . قال : سمعت الفراء يقول في قوله : ﴿ ومَكَرُوا ومَكَرَ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] قال : إنّ عيسى غاب عن خالته زماناً فأتاها فقام رأس الجالوت اليهودي ، فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ، ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى ، فطمس الله عينيه عن عيسى ، ثم خرج إلى أصحابه فقال : لم أره ومعه سيف مسلول فقالوا : أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه فقال جلّ ذكره: ﴿ومَا قَتَلُوهُ ومَا صَلَبُوهُ ولَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء:١٥٧] وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمي عن هارون بن عنترة عن وهب بن منبه. قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم : سحرتمونا لتبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً ، فقال عيسى لأصحابه : من يشتري منكم نفسه اليوم بالجنة ؟. فقال رجل : أنا . فخرج إليهم . فقال : أنا عيسى وقد صوره الله على صورة عيسى ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثمّ شبه لهم ، وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى ، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ورفع الله عيسى من يومه ذلك .

قال ابن جرير : وحدثنا المثني . حدثنا إسحاق . حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم . حدثني عبد الصمد بن معقل : أنه سمع وهباً يقول : إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال : أحضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم ، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ، ويمسح أيديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه، فقال : ألا من رد على شيئاً الليلة مما أصنع فليس مني ولا أنا منه ، فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك . قال: أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي ، فليكن لكم بي أسوة؟.

فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعظم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسي لكم ، وأما حاجتي التي استعنتكم عليها فتدعون الله وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي ، فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم ، حتى لم يستطيعوا دعاء ، فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله !! أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها ؟!. فقالوا : والله ما ندري مالنا ، والله لقد كنا نسمر [(١)] فنكثر السمر ، وما نطيق الليلة سمراً وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه، فقال : يذهب بالراعي ، وتتفرق الغنم ، وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به نفسه. ثم قال : الحق ليكفرن بي أحدكم ، قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين. فقالوا : هذا من صحابه فجحد. وقال : ما أنا بصاحبه فتركوه. ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ، ثم سمع صوتَ ديك فبكي وأحزنه. فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود ، فقال : ماتجعلون لي إن دللتكم على المسيح ؟. فجعلوا له ثلاثين درهماً ، فأخذها ودلهم عليه ، وكان شبّه عليهم قبل ذلك ، فأخذوه ، واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ، ويقولون : أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر [(٢)] الشيطان ، وتبرئ المجنون أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل ؟ ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم فمكث سبعاً. ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون ، جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب ، فجاءهما عيسى . فقال : علام تبكيان ؟ قالتا : عليك . فقال : إني قد رفعني الله إليه ، ولم يصبني إلا خير ، وإن هذا شيء شبه لهم ، فأمرا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود ، فسأل عنه أصحابه . فقالوا : إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه . فقال : لو تاب لتاب الله عليه. ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له : يحيى . فقال : هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم. وهذا إسناد غريب عجيب وهو أصح مما ذكره النصارى من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعه ، فأراها مكان المسامير من جسده ، وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب ، وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل وزيادة باطلة في الإنجيل على خلاف الحق ومقتضى النقل.

وحكي الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه : أن مريم سألت من بيت الملك بعدما صلب المصلوب بسبعة أيام ، وهي تحسب أنه ابنها أن ينـــزل جسده ، فأجابهم إلى ذلك ودفن هناك فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح ؟ فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى : ألا تستترين ؟ فقالت : وممن استتر ؟ فقالت : من هذا الرجل الذي

---

(١) السمر : حديث الليل .

(٢) نَهَرَ : زجر .

هو عند القبر ؟. فقالت أم يحيى : إني لا أرى أحدا ، فرجت مريم أن يكون جبريل ، وكانت قد بعد عهدها به فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل وعرفته : يا مريم أين تريدين ؟ فقالت : أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به فقال : يا مريم إنّ هذا ليس المسيح إنّ الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا ، ولكن هذا الفتى الذي ألقي شبهه عليه وصلب وقتل مكانه. وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به، فهم يبكون عليه ، فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة [1] كذا وكذا فإنك تلقين المسيح . قال : فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة. فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة، فلما رآها أسرع إليها وأكبّ عليها ، فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل ، وقال: يا أمه إن القوم لم يقتلوني ، ولكن الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك ، والموت يأتيك قريباً فاصبري واذكري الله كثيراً ، ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت. قال: وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة رضي الله عنها وأرضاها.

وقال الحسن البصري : كان عُمْر عُيسى عليه السلام يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة وفي الحديث : « **إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً [2] مكحلين ابناء ثلاث وثلاثين** » [3] وفي الحديث الآخر : « **على ميلاد عيسى وحُسن يوسف** » . وكذا قال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة [4].

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه ويعقوب بن سفيان الفسوي في تاريخه عن سعيد بن أبي مريم عن نافع بن يزيد عن عمارة بن غزية عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان : أن أمه فاطمة بنت الحسين، حدثته أن عائشة كانت تقول : أخبرتني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها : « أنه لم يكن نبي كان بعده نبي إلا عاش الذي بعده نصف عمر الذي كان قبله » . وأنه أخبرني : « **أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أراني إلا ذاهب على رأس ستين** » . وهذا لفظ الفسوي فهو حديث غريب.

قال الحافظ ابن عساكر : والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر ، وإنما أراد به مدة مقامه في أمته ، كما روي سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة . قال : قالت فاطمة: قال لي رسول الله ﷺ : « **أن عيسى ابن مريم مكث في بني إسرائيل أربعين سنة** » . وهذا

---

(١) الغيضة : المكان الملتف بالشجر .

(٢) الأمرد : الشاب الذى لم تنبت لحيته بعد .

(٣) **حسن**: رواه أحمد (٥/٢٤٣) والترمذى (٢٥٤٥) .

(٤) **ضعيف** :فى سنده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف . وقال ابن القيم : وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة ، فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه «زاد المعاد» (١/٨٤) .

منقطع. وقال جرير والثوري عن الأعمش عن إبراهيم مكث عيسى في قومه أربعين عاماً ويروي عن أمير المؤمنين عليّ أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثاني والعشرين من رمضان ، وتلك الليلة في مثلها توفي عليّ بعد طعنه بخمسة أيام . وقد روي الضحاك عن ابن عباس أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها ، وجاءته مريم فودعته وبكت ، ثم رفع وهي تنظر ، وألقي إليها عيسى برداً له وقال : هذا علامة ما بيني وبينك يوم القيامة ، وألقي عمامته على شمعون ، وجعلت أمه تودعه بإصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها، وكانت تحبه حبا شديداً لأنه توفر عليها حبه من جهتي الوالدين إذ لا أب له ، وكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً . وكانت كما قال بعض الشعراء :

وَكُنتُ أرَى كالموتِ مِنْ بينِ ساعةٍ فَكَيْفَ ببينٍ (١) كانَ مَوْعِدُهُ الحشْرُ ؟

وذكر إسحاق بن بشر عن مجاهد بن جبير أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل الذي شبه لهم، وهم يحسبونه المسيح وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك ، تسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس ، فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم وهو ملك دمشق في ذلك الزمان ، فقيل له : إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله ، وكان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ، ويفعل العجائب ، فعدوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم ، فبعث فجيء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه فبايعهم في دينهم ، وأعلي كلمتهم وظهر الحق على اليهود ، وعلت كلمة النصارى عليهم ، وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه ، وجيء بالجذع الذي صلب عليه ذلك الرجل فعظمه فمن ثمّ عظّمت النصارى الصليب . ومن هاهنا دخل دين النصرانية في الروم ، وفي هذا نظر من وجوه. أحدها : أن يحيى بن زكريا نبي لا يقر على أن المصلوب عيسى ، فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق. الثاني : أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلا بعد ثلاثمائة سنة ، وذلك في زمان قسطنطين بن قسطن باني المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره. الثالث : أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم ألقوه بخشبته ، جعلوا مكانه مطرحاً للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات ، فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور ، فعمدت أمه هيلانة الحرانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح ، ووجدوا الخشبة التي صلب عليها المصلوب ، فذكروا أنه ما مسها ذو عاهة إلا عوفي ، فالله أعلم أكان هذا أم لا ؟ وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذي بذل نفسه كان رجلا صالحاً أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى في ذلك اليوم حتى عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلئ ؟. ومن ثمّ اتخذوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقبلوها. وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة ، فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يقال لها : القمامة باعتبار

(١) البين : الفراق .

ما كان عندها ، ويسمونها القيامة يعنون التي يقوم جسد المسيح منها. ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قبلة اليهود ، فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس ، فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو المسجد الأقصى .

ذكر صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥] قيل : سمي المسيح لمسحه الأرض ، وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام. وقيل : لأنه كان ممسوح القدمين .

وقال تعالى : ﴿ وقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى ونُورٌ﴾ [المائدة : ٤٦] وقال تعالى: ﴿ وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة : ٨٧] والآيات في ذلك كثيرة جدا وقد تقدم ما ثبت في الصحيحين : « ما من مولود إلا والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد ، فيستهل صارخا إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن في الحجاب »[1] . وتقدم حديث عمير بن هانئ عن جنادة عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ».[2] رواه البخاري وهذا لفظه ومسلم.

وروى البخاري ومسلم من حديث الشعبي عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه : قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أدبّ الرجل أمته فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران، وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بي فله أجران، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران » . [3] هذا لفظ البخاري. وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى . أنبأنا هشام عن معمر (ح) ، وحدثني محمود . حدثنا عبد الرزاق . أنبأنا معمر عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة . قال : قال النبي ﷺ : « ليلة أسري بي لقيت موسى . قال : فنعته فإذا رجل حسبته قال : مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة » . قال : «ولقيت عيسى فنعته النبي ﷺ . فقال : ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس» . يعني الحمام « ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » الحديث [4] وقد تقدم في قصتي إبراهيم وموسي ، ثم قال : حدثنا

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٣١) ومسلم (٢٣٦٦ / ١٤٦) .
(٢) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨ / ٤٦) .
(٣) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٤٦) ومسلم (١٥٤ / ٢٤١) .
(٤) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٣٧) ومسلم (١٦٨ / ٢٧٢) .

محمد بن كثير أنبأنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عمر . قال: قال النبي ﷺ : « رأيت عيسى وموسى وإبراهيم. فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر. وأما موسى فآدم جسيم سبط[١] كأنه من رجال الزط » [٢] تفرد به البخاري.وحدثنا إبراهيم بن المنذر . حدثنا أبو ضمرة حدثنا موسى بن عقبة عن نافع . قال : قال عبد الله بن عمر : ذكر النبيﷺ يوما بين ظهراني الناس المسيح الدجال . فقال : « إن الله ليس بأعور ، إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه طافية وأراني الليلة عند الكعبة في المنام ، فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال ، تضرب لمته بين منكبيه رَجِل الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت من هذا ؟ فقالوا : المسيح ابن مريم. ثم رأيت رجلاً وراءه جعد قطط [٣] أعور عين اليمني كأشبه من رأيت بابن قَطن واضعاً يده على منكبي رجل يطوف بالبيت . فقلت : من هذا ؟ فقالوا : المسيح الدجال » [٤]. ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة. ثم قال البخاري : تابعه عبد الله بن نافع . ثم ساقه من طريق الزهري عن سالم بن عمر . قال الزهري : وابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية. فبيّن صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحيين، مسيح المهدي . ومسيح الضلالة ، ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ويعرف الآخر فيحذره الموحدون. وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد . حدثنا عبد الرزاق . أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قال : «رأى عيسى ابن مريم رجلا يسرق . فقال له : أسرقت ؟ قال : كلا . والذي لا إله إلا هو . فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عينى»[٥] وكذا رواه محمد بن رافع عن عبد الرزاق. وقال أحمد : حدثنا عفان. حدثنا حماد بن سلمة عن حميد الطويل عن الحسن وغيره عن أبي هريرة . قال : ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ . قال : « رأى عيسى رجلا يسرق . فقال : يا فلان أسرقت ؟ فقال : لا والله ما سرقت ، فقال : آمنت بالله وكذبت بصري »[٦] . وهذا يدل على سجية طاهرة ، حيث قدم حلف ذلك الرجل فظن أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذبا على ما شاهده منه عياناً فقبل عذره ورجع على نفسه ، فقال : آمنت بالله أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك. وقال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف . حدثنا سفيان عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة غُرْلاً » [٧] . ثم قرأ ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وعْداً عَلَيْنَا إنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] فأول الخلق يُكسى إبراهيم ، ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال ، فأقول أصحابي : فيقال : إنهم لن يزالوا

(١) سبط : طويل .
(٢) رواه البخارى (٣٤٣٨) .
(٣) قطط : القصير الجعد من الشعر .
(٤) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٣٩) ومسلم (١٦٩ / ٢٧٥) .
(٥) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٤٤) ومسلم (٢٣٦٨ / ١٤٩) .
(٦) صحيح: رواه أحمد (٣٨٣/٢) .
(٧) غرلاً : الأغرل : من لم يختتن .

مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم : ﴿ **وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [المائدة : ١١٧ - ١١٨]" (١) تفرد به دون مسلم من هذا الوجه. وقال أيضاً : حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي . حدثنا سفيان سمعت الزهري يقول أخبرني عبد اللّه بن عبد الله عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله » (٢).

وقال البخاري :حدثنا إبراهيم . حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى وكان في بني إسرائيل رجل يقال له:جريج يصلي إذ جاءته أمه فدعته . فقال : أجيبها أو أصلي . فقالت : اللهم لاتمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكان جريج في صومعة فعرضت له امرأة وكلمته فأبي فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً . فقيل لها : ممن ؟ قالت : من جريج فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبوه ، فتوضأ وصلى ثم أتي الغلام . فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : فلان الراعي، قالوا : أنبني صومعتك من ذهب ؟ قال : لا إلا من طين. وكانت امرأة ترضع ابناً لها في بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة . فقالت : اللهم اجعل ابني مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب ، فقال : اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديها يمصه » . قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص أصبعه « ثم مُر بأمة فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فترك ثديها . فقال: اللهم اجعلني مثلها . فقالت : لم ذلك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون: سرقت وزنت ولم تفعل » (٣).

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان. حدثنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة أن أبا هريرة: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي » (٤) . تفرد به البخاري من هذا الوجه. ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي داود الحفري عن الثوري عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن أبي هريرة .وقال أحمد : حدثنا وكيع. حدثنا سفيان الثوري عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ: « أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام والأنبياء إخوة أولاد علات ، وليس بيني وبين عيسى نبي »(٥). وهذا إسناد صحيح على شرطهما و لم يخرجوه من هذا الوجه وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه(٦)

(١) رواه البخارى (٣٤٤٧) .
(٢) رواه البخارى (٣٤٤٥) .
(٣) رواه البخارى (٣٤٣٦) .
(٤) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٤٢) ومسلم (٢٣٦٥ / ٤٤) .
(٥) صحيح : رواه أحمد (٤٦٣/٢)
(٦) رواه مسلم (١٤٥/٢٣٦٥) .

وقال أحمد : حدثنا يحيى عن ابن أبي عروبة . حدثنا قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعلات[١] ، ودينهم واحدو أمهاتهم شتى ، وأنا أولي الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فأعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، سبط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين ممصرتين ، فيكسر الصليب ويقتل الخنـــزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتى يهلك في زمانه كلها غير الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب ، وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً ، والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضا ، فيمكث ما شاء الله أن يمكث ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه »[٢] . ثم رواه أحمد عن عفان عن همام عن قتادة عن عبد الرحمن عن أبي هريرة فذكر نحوه وقال « فيمكث أربعين سنة. ثم يتوفي ويصلي عليه المسلمون »[٣] . ورواه أبو داود عن هدبة بن خالد عن همام بن يحيى به نحوه .

وروى هشام بن عروة عن صالح مولي أبي هريرة عنه أن رسول الله ﷺ قال: « فيمكث في الأرض أربعين سنة » . وسيأتي بيان نزوله عليه السلام في آخر الزمان في كتاب الملاحم كما بسطنا ذلك أيضاً في التفسير عند قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ وإن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ويَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ [النساء : ١٥٩] وقوله : ﴿ وإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف : ٦١] الآية. « وإنه ينـــزل على المنارة البيضاء بدمشق ، وقد أقيمت صلاة الصبح ، فيقول له إمام المسلمين : تقدم يا روح الله فصلِ، فيقول : لا ! بعضكم على بعض أمراء مكرمة الله هذه الأمة »[٤]. وفي رواية « فيقول له عيسى : إنما أقيمت الصلاة لك فيصلي خلفه. ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لُدّ فيقتله بيده الكريمة »[٥]. وذكرنا أنه قوي الرجاء حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بيض ، وقد بنيت أيضاً من أموال النصارى حين حرقوا التي هدمت وما حولوها ، فينـــزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنـــزير ، ويكسر الصليب ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام[٦] وأنه يخرج من فج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليثنينهما[٧] ويقيم أربعين سنة . ثم يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه » . وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر

---

(١) علات : أولاد الرجل من نسوة شتى .

(٢) **صحيح** : رواه أحمد (٢/٤٤٠) وأبو داود (٤٣٢٤) والحاكم (٢/٥٩٥) وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) **صحيح** : رواه أحمد (٢/٤٠٦و٤٣٧) .

(٤) رواه مسلم (٣٨٨) كتاب الإيمان : باب نزول عيسى ابن مريم .

(٥) **صحيح** : رواه أحمد (٣/٤٢٠) والترمذى (٢٢٤٤) وقال : حسن صحيح .

(٦) **متفق عليه**: رواه البخارى (٤/٤١٤) ومسلم (٣٨٢و٣٨٣) .

(٧) رواه مسلم (٢٩٧٨) كتاب الحج : باب إهلال النبى ﷺ وهديه . ومعنى ليثنينهما : أى يحرم بالحج والعمرة معاً أى يقرن بينهما .

ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه عن عائشة مرفوعاً أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية ولكن لا يصح إسناده. وقال أبو عيسى الترمذي : حدثنا زيد بن أخزم الطائي . حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة . حدثني أبو مودود المدني . حدثنا عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده . قال : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم عليهم السلام يدفن معه. قال أبو مودود : وقد بقي من البيت موضع قبر[1]. ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن كذا قال. والصواب الضحاك بن عثمان المدني.

وقال البخاري : هذا الحديث لا يصح عندي ولا يتابع عليه وروى البخاري عن يحيى بن حماد عن أبي عوانة عن عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال: الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة [2] وعن قتادة خمسمائة وستون سنة، وقيل : خمسمائة وأربعون سنة ، وعن الضحاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. والمشهور ستمائة سنة. ومنهم من يقول ستمائة وعشرون سنة بالقمرية لتكون ستمائة بالشمسية والله أعلم . وقال ابن حبان في صحيحه : ذكر المدة التي بقيت فيها أمة عيسى على هديه .

حدثنا أبو يعلى . حدثنا أبو همام . حدثنا الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « **لقد قبض الله داود من بين أصحابه فما فتنوا ولا بدلوا ، ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتي سنة** » [3] وهذا حديث غريب جداً وإن صححه ابن حبان. وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وعيّن كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم. وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة : لوقا ومتى ومرقس ويوحنا وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخرى ، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما متى ويوحنا ومنهم اثنين من أصحابه وهما مرقس ولوقا فالله أعلم . وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من

---

(١) **ضعيف** : رواه الترمذى (٣٦١٧) والبخارى فى «التاريخ الكبير» (٢٦٣/١) وقال : هذا لا يصح عندى.
(٢) رواه البخارى (٣٩٤٨) .
(٣) **ضعيف** : رواه ابن حبان (٦٢٣٦– إحسان) وفى سنده الوضين بن عطاء سيئ الحفظ . وقال ابن أبى حاتم فى «المراسيل» ص (٢٢٦) سألت أبى عن حديث يرويه نصر بن علقمة عن جبير بن نفير ، عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **لقد قبض الله داود** ... » قال أبى نصر بن علقمة عن جبير بن نفير مرسل ، ونصر بن علقمة لم يدرك جبير بن نفير .

بولس اليهودي وكان ظالماً غاشما مبغضاً للمسيح ولما جاء به. وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد. ثم رجمه حتى مات رحمه الله. ولما سمع بولس أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله فتلقاه عند كوكباً ، فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه. فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح ، فجاء إليه واعتذر مما صنع وآمن به فقبل منه ، وسأله أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره . فقال : اذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك ، فجاء إليه فدعا فرد عليه بصره وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبدالله ورسوله وبنيت له كنيسة باسمه فهي : كنيسة بولس المشهورة بدمشق من زمن فتحها الصحابة رضي الله عنهم حتى خربت في الزمان الذي سنورده إن شاء الله تعالى.

فصل : اختلاف أصحاب المسيح بعد رفعه

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال . كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف . كما أوردناه عند قوله : ﴿ **فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾ [الصف:١٤] قال ابن عباس وغيره : قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء . وقال آخرون : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله . فالأول هو الحق . والقولان الآخران : كفر عظيم كما قال: ﴿ **فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [مريم:٣٧] وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة . ونقصان . وتحريف . وتبديل ، ثم بعد المسيح بثلثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمي والبلية الكبري. اختلف البتاركة الأربعة . وجميع الأساقفة . والقساوسة . والشمامسة . والرهابين في المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط . واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينية وهم : المجمع الأول فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات ، فسموا : الملكية ودحض من عداهم وأبعدهم ، وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أديوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله ، فسكنوا البراري . والبوادي . وبنوا الصوامع . والديارات . والقلايات . وقنعوا بالعيش الزهيد و لم يخالطوا أولئك الملل والنحل وبنت الملكية الكنائس الهائلة عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان ، فحولوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدي.

بيان بناء بيت لحم والقيامة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح . وبنت أمه هيلانة القيامة يعني على قبر المصلوب ، وهم يسلمون لليهود أنه المسيح . وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القـــوانين

والأحكام ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة ، وأحلوا أشياء هي حرام بنص التوراة ، ومن ذلك الخنـــزير ، وصلوا إلى الشرق و لم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس ، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى. ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجـــرته إلى المدينة ستة عشـــر أو سبعة عشر شهراً . ثم حول إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل. وصوروا الكنائس و لم تكن مصورة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم ، التي يسمونها بالأمانة وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة . وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني . واليعقوبية أصحاب يعقوب البرادعي أصحاب المجمع الثالث : يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها ، وها أنا أحكيها وحاكي الكفر ليس بكافر لا بث على ما فيها من ركة الألفاظ . وكثرة الكفر . والخبال [١] المفضي [٢] بصاحبه إلى النار ذات الشواظ . فيقولون : « نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وكل ما لا يرى وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور ، نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساو للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء ، من أجلنا نحن البشر . ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء ، وتانس . وصلب على عهد ملاطس النبطي . وتألم . وقبر . وقام في اليوم الثالث كما في الكتب. وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب ، وأيضاً فسيأتي بجسده ليدبر الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه وروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له ، وبمجد الناطق في الأنبياء كنسبة واحدة جامعة مقدسة يهوليه ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا . وأنه حي قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه آمين .

كتاب أخبار الماضين من بني إسرائيل وغيرهم

إلى آخر زمن الفترة سوى أيام العرب وجاهليتهم فإنا سنورد ذلك بعد فراغنا من هذا الفصل إن شاء الله تعالى قال الله تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً** ﴾ [طه : ٩٩]. وقال: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾. [يوسف : ٣] .

خبر ذي القرنين

قال الله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً . فَأَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ووَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً . قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ**

(١) الخبل : الفساد .

(٢) المفضى : الموصل .

يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً . وأَمَّا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى وسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً. ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً . كَذَلِكَ وقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً . ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وجَدَ من دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً . قَالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وبَيْنَهُمْ سَداً . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ رَدْماً . آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً . فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ومَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً. قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وكَانَ وعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ [الكهف : ٨٣ -٩٨].

ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا وأثنى عليه بالعدل ، وأنه بلغ المشارق والمغارب وملك الأقاليم وقهر أهلها وسار فيهم بالمعدلة التامة ، والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط. والصحيح أنه كان ملكاً من الملوك العادلين وقيل : كان نبيا. وقيل : رسولاً. وأغرب من قال : ملكا من الملائكة. وقد حكى هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فإنه سمع رجلا يقول لآخر: ياذا القرنين مه أما كفاكم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ؟! ذكره السهيلي. وقد روي وكيع عن إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : كان ذو القرنين نبيا.

وروي الحافظ ابن عساكر من حديث أبي محمد بن أبي نصر عن أبي إسحاق بن إبراهيم ابن محمد بن أبي ذؤيب . حدثنا محمد بن حماد . أنبأنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي ذؤيب عن المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أدْرِي أَتُبعُ كانَ لعِيناً أمْ لا ولا أدْري الحُدُودُ كفاراتُ لأهلِهَا أمْ لا ولا أدْرِي ذُو القرنينِ كانَ نبياً أم لا ». وهذا غريب من هذا الوجه.

وقال إسحاق بن بشر عن عثمان بن الساج عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان ذو القرنين ملكا صالحاً رضي الله عمله وأثني عليه في كتابه وكان منصوراً ، وكان الخضر وزيره. وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه ، وكان عنده بمنـــزلة المشاور الذي هو من الملك بمنـــزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم.

وقد ذكر الأزرقي وغيره : أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام . وروي عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما : أن ذا القرنين حج ماشياً وأن إبراهيم لما سمع بقدومه تلقاه ودعا له ورضاه ، وأن الله سخر لذي القرنين السحاب يحمله حيث أراد والله أعلم.واختلفوا في السبب الذي سمي به ذا القرنين . فقيل: لأنه كان في رأسه شبه القرنين. وقال وهب بن منبه: كان له قرنان من نحاس في رأسه وهذا ضعيف. وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك فارس والروم وقيل: لأنه بلغ قرني الشمس غرباً وشرقاً، وملك ما بينهما من الأرض وهذا أشبه من غيره وهو قول الزهري. وقال الحسن

البصري : كانت له غديرتان [١] من شعر يطافهما ، فسمي ذا القرنين . وقال إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد بن سمعان عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : دعا ملكا جباراً إلي الله فضربه على قرنه فكسره ورضه. ثم دعاه فدق قرنه الثاني فكسره فسمي ذا القرنين.

وروي الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن على بن أبي طالب أنه سئل عن ذي القرنين ، فقال: كان عبداً ناصحَ الله فناصحه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات فسمي ذا القرنين. وهكذا رواه شعبة القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل عن على به. وفي بعض الروايات عن أبي الطفيل عن على . قال : لم يكن نبيا ، ولا رسولاً ، ولا ملكا، ولكن كان عبداً صالحاً.

وقد اختلف في اسمه فروي الزبير بن بكار عن ابن عباس : كان اسمه عبدالله بن الضحاك ابن معد . وقيل: مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون بن نبت ابن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن قحطان.

وقد جاء في حديث : أنه كان من حمير وأمه رومية ، وأنه كان يقال له: ابن الفيلسوف لعقله. وقد أنشد بعض الحمريين في ذلك شعراً يفتخر بكونه أحد أجداده فقال :

قَد كانَ ذُو القرنَيْنِ جدّي مُسْلماً ... مَلْكـاً تدينُ له الملـوكُ وتَحشـدُ
بلغَ المشـارقَ والمغَـاربَ يَبتغـي ... أسبابَ أمرٍ مِنْ حَكيمٍ مُرشـد
فَرَأي مغيبَ الشمْسِ عندَ غُروبِهَا ... في عيْنِ ذي خلبٍ وثأطِ حَرْمـد[٢]
مِنْ بَعْـده بُلقـيسُ كانتْ عـمّتي ... مَلَكتهُمْ حتى أتاهـا الهـدْهـد

قال السهيلي : وقيل كان اسمه: مرزبان بن مرزبة. ذكره ابن هشام وذكر في موضع آخر أن اسمه : الصعب بن ذي مرائد وهو أول التبابعة وهو الذي حكم لإبراهيم في بئر السبع . وقيل: إنه أفريدون بن أسفيان الذي قتل الضحاك وفي خطبة قس : يا معشر إياد بن الصعب ذو القرنين ملك الخافقين وأذل الثقلين وعمر ألفين. ثم كان ذلك كلحظة عين ثم أنشد ابن هشام للأعشي.

والصّعبُ ذُو القَرنَيْنِ أصبحَ ثاوياً [٣] ... بالحنوِ في جَدَثٍ أشمَّ مقيماً

وذكر الدارقطني وابن ماكولا : أن اسمه هرمس . ويقال: هرويس بن قيطون بن رومي بن لنطي بن كشلوخين بن يونان بن نافث بن نوح فالله أعلم. وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة قال: إسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام. فأما ذو القرنين الثاني فهو إسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن

(١) الغديرة : خصلة الشعر .
(٢) ثأط حرمد : الطين الأسود .
(٣) ثاوياً : أثوى بالمكان : أطال الإقامة به .

رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون بن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومي ابن الأصفر بن يقز بن العيص بن إسحاق بن إبرهيم الخليل كذا نسبه الحافظ ابن عساكر في تاريخه. المقدوني اليوناني المصري ، باني إسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم ، وكان متأخراً عن الأول بدهر ، طويل كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة . وكان أرسطاطاليس الفيلسوف وزيره ، وهو الذي قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم. وإنما نبهنا عليه لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد ، وإن المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطاطاليس وزيره فيقع بسبب ذلك خطأ كبير وفساد عريض طويل كثير ، فإن الأول كان عبداً مؤمنا صالحاً وملكا عادلا ، وكان وزيره الخضر وقد كان نبيا على ما قررناه قبل هذا. وأما الثاني فكان مشركا وكان وزيره فيلسوفاً وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة. فأين هذا من هذا؟ لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الامور. فقوله تعالى : **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾** كان سببه أن قريشاً سألوا اليهود عن شيء يمتحنون به علم رسول الله ﷺ فقالوا لهم: سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية خرجوا لا يدري ما فعلوا ، فأنزل الله تعالى قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين. ولهذا قال : **﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾** أي من خبره وشأنه **﴿ ذِكْراً﴾** أي خبراً نافعاً كافياً في تعريف أمره وشرح حاله فقال: **﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾** أي وسعنا مملكته في البلاد ، وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة والمقاصد الجسيمة. قال قتيبة عن أبي عوانة عن سماك عن حبيب بن حماد قال : كنت عند على بن أبي طالب ، وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ؟ فقال له : (سخّر له السحاب ومدّ ت له الأسباب وبسط له في النور). وقال: أزيدك ؟ فسكت الرجل وسكت على رضي الله عنه.

وعن أبي إسحاق السبيعي عن عمرو بن عبد الله الوادعي سمعت معاوية يقول : ملك الأرض أربعة : سليمان بن داود النبى عليهما السلام. وذو القرنين ، ورجل من أهل حلوان. ورجل آخر. فقيل له : الخضر قال : لا. وقال الزبير بن بكار: حدثني إبراهيم بن المنذر عن محمد بن الضحاك عن أبيه عن سفيان الثوري قال: بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة : (مؤمنان وكافران ، سليمان النبى وذو القرنين . ونمرود . وبخت نصر) وهكذا قال سعيد بن بشير سواء. وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال : (كان ذو القرنين ملك بعد النمرود ، وكان من قصته أنه كان رجلا مسلماً صالحاً أتي المشرق والمغرب ، مدّ الله له في الأجل ونصره حتى قهر البلاد واحتوي على الأموال وفتح المدائن ، وقتل الرجال وجال في البلاد والقلاع ، فسار حتى أتي المشرق والمغرب فذلك قول الله : **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾** أي خبراً **﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾** أي علماً بطلب أسباب المنازل.

قال إسحاق: وزعم مقاتل أنه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز ، فمن اتبعه على دينه وتابعه عليه وإلا قتله. وقال ابن عباس ، ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعبيد بن يعلي والسدي وقتادة والضحاك: ﴿ وآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ يعني علماً . وقال قتادة ومطر الوراق: معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني تعليم الألسنة كان لا يغزو قوماً إلا حدثهم بلغتهم والصحيح أنه يعم كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها ، فإنه كان يأخذ من كل أقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر.

وذكر بعض أهل الكتاب : أنه مكث ألفا وستمائة سنة يجوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له وفي كل هذه المدة نظر والله أعلم.

وقد روي البيهقي وابن عساكر حديثاً متعلقا بقوله : ﴿ وآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ مطولاً جدا وهو منكر جدا. وفي إسناده محمد بن يونس الكديمي وهو متهم فلهدا لم نكتبه لسقوطه عندنا والله أعلم. وقوله : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي طريقاً ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ يعني من الأرض انتهى إلى حيث لا يمكن أحداً أن يجاوزه ، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له: أوقيانوس الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات ، التي هي مبدأ الأطوال على أحد قولي أرباب الهيئة ؛ والثاني من ساحل هذا البحر كما قدمنا. وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته، ﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ والمراد بها البحر في نظره ، فإن من كان في البحر أو على ساحله يري الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه ولهذا . قال : ﴿وَجَدَهَا﴾ أي في نظره ولم يقل : فإذا هي تغرب في عين حمئة أي ذات حمأة. قال كعب الأحبار: وهو الطين الأسود. وقرأه بعضهم حامية. فقيل: يرجع إلى الأول. وقيل: من الحرارة وذلك من شدة المقابلة لوهج ضوء الشمس وشعاعها. وقد روي الإمام أحمد عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب : حدثني مولي لعبد الله بن عمرو عن عبد الله : قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال : « في نَارِ الله الحَامِيَة لوْلا مَا يَزَعُهَا [1]مِنْ أمْرِ الله لأحْرَقَتْ مَا عَلَى الأرضِ»[2] فيه غرابة وفيه رجل مبهم لم يسم ورفعه فيه نظر، وقد يكون موقوفاً من كلام عبد الله بن عمرو ، فإنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب المتقدمين فكان يحدث منها والله أعلم.

ومن زعم من القصاص ، أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس ، وصار يمشي بجيوشه في ظلمات مدداً طويلة فقد أخطأ وأبعد النجعة [3]. وقال ما يخالف العقل والنقل .

---

(١) يزعها ، يزجرها ويمنعها .

(٢) ضعيف :رواه أحمد (٢ /٢٠٧) والطبرى فى تفسيره (١٦ / ١٠) وفى سنده مجهول وهو مولى عبد الله ابن عمرو .

(٣) النجعة : طلب الكلأ فى مواضعه . والمنتجع : موضع يقصده الناس فى طلب الكلأ .

بيان طلب ذي القرنين عين الحياة

وقد ذكر ابن عساكر من طريق وكيع عن أبيه عن معتمر بن سليمان عن أبي جعفر الباقر عن أبيه زين العابدين خبراً مطولا جدا فيه : أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له: رناقيل فسأله ذو القرنين هل تعلم في الأرض عيناً يقال لها : عين الحياة ؟ فذكر له صفة مكانها فذهب ذو القرنين في طلبها . وجعل الخضر على مقدمته فانتهي الخضر إليها في واد في أرض الظلمات فشرب منها ولم يهتد ذو القرنين إليها. وذكر اجتماع ذي القرنين ببعض الملائكة في قصر هناك ، وأنه أعطاه حجراً فلما رجع إلى جيشه سأل العلماء عنه ، فوضعوه في كفة ميزان، وجعلوا في مقابلته ألف حجر مثله فوزنها حتى سأل الخضر فوضع قباله حجراً ، وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به. وقال : هذا مثل ابن آدم لا يشبع حتى يواري بالتراب فسجد له العلماء تكريماً له وإعظاماً والله أعلم. ثم ذكر تعالى أنه حكم في أهل تلك الناحية ﴿ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً . قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّه فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً** ﴾[الكهف:٨٦ ،٨٧] أي فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجر عند الكافر ﴿ **وأَمَّا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً** ﴾ [الكهف: ٨٨] فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة وعطف عليه الإحسان منه إليه ، وهذا هو العدل والعلم والإيمان، قال الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً** ﴾ [الكهف: ٨٩] أي سلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق ، فيقال : إنه رجع في ثنتي عشرة سنة ﴿ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً**﴾ [الكهف :٩٠] أي ليس لهم بيوت ولا أكنان[1] يستترون بها من حر الشمس. قال كثير من العلماء: ولكن كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبه القبور، قال الله تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ وقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْه خُبْراً**﴾ [الكهف:٩١] أي ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه ونكلؤه بحراستنا في مسيره ذلك كله من مغارب الأرض إلى مشارقها.

وقد روي عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما من السلف : أن ذا القرنين حج ماشياً فلما سمع إبراهيم الخليل بقدومه تلقاه ، فلما اجتمعا دعا له الخليل ووصاه بوصايا ويقال : إنه جيء بفرس ليركبها فقال : لا أركب في بلد فيه الخليل فسخر الله له السحاب ، وبشره إبراهيم بذلك فكانت تحمله إذا أراد. وقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً**﴾ يعني غشما. يقال : إنهم هم الترك أبناء عم يأجوج ومأجوج، فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم ، وأفسدوا في بلادهم ، وقطعوا السبل عليهم ، وبذلوا له حملا وهو الخراج على أن يقيم بينه وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم

---

(١) أكنان : الكنُّ : وقاء كل شيء وسترهُ ، وهو البيت أيضاً .

فامتنع من أخذ الخراج اكتفاءً بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة ﴿ **قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ** ﴾ [الكهف:٩٥] . ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالاً وآلات ليبني بينهم وبينهم سداً وهو الردم بين الجبلين ، وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما ، وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر وهو النحاس المذاب. وقيل : الرصاص والصحيح الأول ؛ فجعل بدل اللبن حديداً وبدل الطين نحاساً ، ولهذا قال تعالى: ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ** ﴾ أي يعلوا عليه بسلالم ولا غيرها ﴿ **وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾ أي بمعاول ولا فؤوس ولا غيرها ، فقابل الأسهل بالأسهل والأشد بالأشد ﴿ **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي** ﴾ أي قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده ، أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم في تلك المحلة ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي** ﴾ أي الوقت الذي قدر خروجهم على الناس في آخر الزمان ﴿ **جَعَلَهُ دَكَّاءَ** ﴾ أي مساويا للأرض ولابد من كون هذا ولهذا قال : ﴿ **وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ** ﴾ [الأنبياء : ٩٦ ، ٩٧] الآية، ولذا قال ههنا : ﴿ **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ** ﴾ يعني يوم فتح السد على الصحيح ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا** ﴾ [الكهف:٩٩] وقد أوردنا الأحاديث المروية في خروج يأجوج ومأجوج في التفسير ، وسنوردها إن شاء الله في كتاب « الفتن والملاحم »من كتابنا هذا إذا انتهينا إليه ، بحول الله وقوته وحسن توفيقه ومعونته وهدايته.

قال أبو داود الطيالسي عن الثوري : بلغنا أن أول من صافح ذو القرنين، وروي عن كعب الأحبار أنه قال لمعاوية : إن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصي أمه إذا هو مات أن تصنع طعاماً ، وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن وتأذن لهن فيه إلا من كانت ثكلي فلا تأكل منه شيئا ، فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه فقالت لهن: سبحان الله ! كلكن ثكلى؟ فقلن: أي والله ما منا إلا من أثكلت ، فكان ذلك تسلية لأمه. وذكر إسحاق ابن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب وصية ذي القرنين وموعظة أمه موعظة بليغة طويلة فيها حكم وأمور نافعة . وأنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة وهذا غريب.

قال ابن عساكر: وبلغني من وجه آخر أنه عاش ستا وثلاثين سنة. وقيل : كان عمره ثنتين وثلاثين سنة. وكان بعد داود بسبعمائة سنة وأربعين سنة. وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومائة وإحدى وثمانين سنة. وكان ملكه ست عشرة سنة. وهذا الذي ذكره إنما ينطبق على إسكندر الثاني لا الأول ؛وقد خلط في أول الترجمة وآخرها بينهما والصواب التفرقة كما ذكرنا اقتداء بجماعة من الحفاظ ، والله أعلم. وممن جعلهما واحداً الإمام عبد الملك بن هشام راوي السيرة ؛ وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السهيلي رحمه الله إنكاراً بليغاً ؛ ورد قوله ردا شنيعاً ، وفرق بينهما تفريقاً جيداً كما قدمنا قال : ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسموا بذي القرنين تشبهاً بالأول . والله أعلم.

ذكر أمتي يأجوج ومأجوج

وصفاتهم وما ورد من أخبارهم وصفة السد

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه ؛ ثم الدليل على ذلك ما ثبت في الصحيحين من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يقولُ اللهُ تعالَى يومَ القيامة : يَا آدمُ قمْ فابعثْ بعثَ النَّار منْ ذريتكَ . فيقولُ : يا ربِّ وما بعثُ النَّارِ . فيقولُ : منْ كلِ ألف تسعمائةُ وتسعةُ وتسعونَ إلى النَّارِ وواحدُ إلى الجنَّة ، فحينئذ يشيبُ الصغيرُ ﴿ **وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾ [الحج : ٢] " قالوا : يا رسول الله أينا ذلك الواحد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أَبْشِرُوا فإنَّ منْكُمْ وَاحِداً ومنْ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ أَلْفاً » [١]، وفي رواية فقال : « أَبْشِروا فَإنَّ فيكم أمَّتينِ مَا كَانَتَا فِي شيءٍ إلا كَثَّرَتَاهُ » أي غلبتاه كثرة، وهذا يدل على كثرتهم وإنهم أضعاف الناس مراراً عديدة. ثم هم من ذرية نوح لأن الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل الأرض بقوله : ﴿ **رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً**﴾ [نوح: ٢٦] وقال تعالى : ﴿**فَأَنجَيْنَاهُ وأَصْحَابَ السَّفِينَةِ**﴾ [العنكوت : ١٥] وقال : ﴿**وجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ**﴾ [الصافات : ٧٧] وتقدم في الحديث المروي في المسند والسنن أن نوحاً ولد له ثلاثة، وهم : سام . وحام ويافث . فسام أبو العرب ؛ وحام أبو السودان ؛ ويافث أبو الترك. فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك وهم مغل المغول وهم أشد بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم. وقد قيل : إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه، فلهذا قيل لهم الترك.

ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم فاختلطت بتراب فخلقوا من ذلك ، وأنهم ليسوا من حواء فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النووي [٢] في شرح مسلم وغيره وضعفوه ، وهو جدير بذلك إذ لا دليل عليه بل هو مخالف لما ذكرناه ، من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن. وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدا. فمنهم من هو كالنخلة السحوق ، ومنهم من هو غاية في القصر ، ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى ، فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان. والصحيح : أنهم من بني آدم وعلي أشكالهم وصفاتهم. وقد قال النبي ﷺ : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ وطُولُهُ ستُّونَ ذِرَاعاً ثم لَمْ يَزَلْ الخَلقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآن » [٣]. وهذا فيصل في هذا الباب وغيره. وما قيل من أن

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢/٣٧٩) .

(٢) فى المطبوعة : النواوى والصحيح ما أثبتناه .

(٣) متفق عليه : رواه البخارى (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨/٢٨٤١) .

أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً ، فإن صح في خبر قلنا به وإلا فلا نرده ، إذ يحتمله العقل والنقل أيضاً قد يرشد إليه والله أعلم. بل قد ورد حديث مصرح بذلك إن صح . قال الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصبهاني . حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات . حدثنا أبو داود الطيالسي . حدثنا المغيرة عن مسلم عن أبي إسحاق عن وهب بن جابر عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « إنّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ من وَلَدِ آدَم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناسِ معائِشَهم ، ولن يموت منهم رجلٌ إلا تركَ من ذريّته ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تأويل . وتاريس . ومنسك » وهو حديث غريب جدا وإسناده ضعيف. وفيه نكارة شديدة. وأما الحديث الذي ذكره ابن جرير في تاريخه أن رسول الله ﷺ ذهب إليهم ليلة الإسراء ، فدعاهم إلى الله فامتنعوا من إجابته ومتابعته ؛ وأنه دعا تلك الأمم التي هناك : تاريس . وتأويل . ومنسك . فأجابوه ، فهو حديث موضوع اختلقه أبو نعيم عمرو بن الصبح أحد الكذابين الذين اعترفوا بوضع الحديث والله أعلم.

فإن قيل : فكيف دلّ الحديث المتفق عليه أهم فداء المؤمنين يوم القيامة وأهم في النار و لم يبعث إليهم رسل . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ؟ [الإسراء : ١٥] فالجواب أهم لا يعذبون إلا بعد قيام الحجة عليهم والإعذار إليهم . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ فإن كانوا في زمن الذي قبل بعث محمد ﷺ قد أتتهم رسل منهم ، فقد قامت على أولئك الحجة ، وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسلاً فهم في حكم أهل الفترة ، ومن لم تبلغه الدعوة . وقد دل الحديث المروي من طرق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ يُمْتَحَنُ فِي عرَصَاتِ [1] القِيَامَة ، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الجَنَّةَ. ومَنْ أَبَى دَخَلَ الَنَّار » وقد أوردنا الحديث بطرقه وألفاظه وكلام الأئمة عليه عند قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ . وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري إجماعاً عن أهل السنة والجماعة ، وامتحاهم لا يقتضي نجاهم ولا ينفي الإخبار عنهم بأهم من أهل النار ؛ لأن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب ، وقد أطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد له ، فهم لا يجيبون الداعي إلى يوم القيامة ، فيعلم من هذا أهم كانوا أشد تكذيباً للحق في الدنيا لو بلغهم فيها ، لأن في عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذبا في الدنيا فإيقاع الإيمان هناك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه في الدنيا والله أعلم. كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:١٢] وقال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨]. وأما الحديث الذي فيه أن رسول الله ﷺ دعاهم ليلة الإسراء فلم يجيبوا ؛ فإنه حديث منكر بل موضوع وضعه عمرو بن الصبح.

---

(١) عرصات : جمع عَرصَة : وهى فسحة فى الدار .

وأما السد ، فقد تقدم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنحاس وساوى به الجبال الصم الشامخات الطوال ، فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجل منه ، ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم. قال البخاري : وقال رجل للنبي ﷺ : رأيت السد . قال : « وَكَيْفَ رَأَيْتَهُ ؟ » قال: مثل البرد المحبر [1] فقال: « رَأَيْتَهُ هَكَذَا ؟ » [2]. ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم ، ولم أره مسنداً من وجه متصل أرتضيه ، غير أن ابن جرير رواه في تفسيره مرسلا فقال : حدثنا بشر . حدثنا يزيد . حدثنا سعيد عن قتادة . قال : ذكر لنا أن رجلا قال: يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: « انْعَتْهُ لِيَ » قال : كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء . قال: «قَدْ رَأَيْتَهُ » وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلاً من جهته وكتب لهم كتباً إلى الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد حتى ينهوا إلى السد ، فيكشفوا عن خبره ، وينظروا كيف بناه ذو القرنين على أي صفة ؟. فلما رجعوا أخبروا عن صفته ، وأن فيه باب عظيماً وعليه أقفال ، وأنه بناء محكم شاهق منيف جدا ، وأن بقية اللبن الحديد والآلات في برج هناك ، وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد ومحلته في شرقي الأرض في جهة الشمال في زاوية الأرض الشرقية الشمالية، ويقال : إن بلادهم متسعة جداً ، وإنهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة ، واصطياد من البر ومن البحر ، وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم. فإن قيل : فما الجمع بين قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوه وَمَا اسْتَطَاعُوا لَه نَقْباً ﴾ وبين الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : استيقظ رسول الله ﷺ من نوم محمراً وجهه وهو يقول : « لا إله إلاّ اللهُ ويلٌ للعرب من شرٍّ قَد اقْتَرَبَ؛ فُتِحَ اليومُ مِنْ رَدمِ يَأجُوجَ ومَأجوجَ مثلُ هذه » (وحلق تسعين) قلت: يا رسولَ الله أَنَهْلكُ وفينا الصالحونَ؟ قال: « نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ » [3]. وأخرجاه في الصحيحين من حديث وهيب عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « فُتِحَ اليومَ مِن ردمِ يأجُوجَ ومأجُوجَ مثلُ هذَا »[4] وعقد تسعين ؟. فالجواب أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن . وأن هذا استعارة محضة وضرب مثل فلا إشكال. وأما على قول من جعل ذلك إخباراً عن أمر محسوس ، كما هو الظاهر المتبادر فلا إشكال أيضاً. لأن قوله :﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوه وَمَا اسْتَطَاعُوا لَه نَقْباً﴾ أي في ذلك الزمان؛ لأن هذه صيغة خبر ماض فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قدراً وتسليطهم عليه بالتدريج قليلاً قليلاً حتى يتم الأجل وينقضي الأمر المقدور فيخرجون كما قال الله تعالى : ﴿وهم

(١) البرد المحبّر : الثوب المنمق .

(٢) رواه البخارى (٣٣٤٧) .

(٣) متفق عليه : رواه البخارى (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠ / ٢) .

(٤) متفق عليه : رواه البخارى (٣٣٤٧) ومسلم (٣/٢٨٨١) .

مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] ولكن الحديث الآخر أشكل من هذا ، وهو ما رواه الإمام أحمد في مسنده قائلاً: حدثنا روح . حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة . حدثنا أبورافع عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ يأجَوجَ ومأجوجَ ليحفِرُونَ السدَّ كلَّ يومٍ حتىَّ إذَا كادوا يروْنَ شعاعِ الشمسِ ؛ قالَ الذي عليهِمْ : ارجِعُوا فستحفِرُونهُ غداً فيعودُونَ إليه كأشدَّ مَا كانَ ، حتَّى إذَا بلغَتْ مدتُهُمْ وأرادَ اللهُ أنْ يَبعثهُمْ علَى الناسِ حفرُوا ، حتَّى إذَا كادُوا يروْنَ شُعاعَ الشمسِ . قالَ الذي عليهِمْ : ارجِعُوا فستحفِرُون غَداً إنْ شاءَ اللهُ ويستثْنِي ، فيَعُودونَ إليْهِ وهُوَ كهيئةِ يومِ تركُوهُ فيحفِرُونهُ ويَخرُجُونَ علَى الناسِ ، فيسْتَقُون المياهَ وتتحصَّنَ النَّاسُ في حصونِهِمْ ، فيَرْمونَ بسهامِهِمْ إلَى السَّماء فترْجعُ وعليْهَا كهيئةِ الدمِ ، فيقولُونَ : قَهرْنَا أهلَ الأَرضِ ، وعَلَوْنا أهلَ السَّماء ، فيبعثُ اللهُ عليهِمْ نغفاً [١] في أقْفائِهِمْ فيقْتُلهمْ بِها ». قال رسول الله ﷺ : « والذِي نفسُ محمدٍ بيدِهِ إنَّ دوابَّ الأرضِ لَتسْمنُ ، وتشكرُ شكراً مِن لحومِهِم ودمائِهِم »[٢] . ورواه أحمد أيضا عن حسن بن موسى عن سفيان عن قتادة به، وهكذا رواه ابن ماجه من حديث سعيد عن قتادة ، إلا أنه قال حديث أبورافع ، ورواه الترمذي من حديث أبي عوانة عن قتادة به. ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه [٣] فقد أخبر في هذا الحديث أنَّهمْ كلَّ يَوم يَلحسُونهُ حتَّى يَكادُوا يَنظرُونَ شُعاعَ الشَّمسِ مِن ورائِهِ لرقته فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً ، وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار كما قاله بعضهم فقد استرحنا من المؤنة ، وإن كان محفوظاً فيكون محمولاً على أن صنيعهم هذا يكون في آخر الزمان عند اقتراب خروجهم كما هو المروي عن كعب الأحبار أو يكون المراد بقوله : **﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾** أي نافذاً منه فلا ينفي أن يلحسوه ولا ينفذوه والله أعلم. وعلي هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في الصحيحين عن أبي هريرة :« فُتحَ اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه »، وعقد تسعين أى فتح فتحا نافذا فيه والله أعلم.

قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى : **﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً . إذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتنَا من لَّدُنكَ رَحْمَةً وهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وزِدْنَاهُمْ هُدًى . ورَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِه إلَهاً لَّقَدْ قُلْنَا إذاً شَطَطاً . هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا من دُونه آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَان بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً . وإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ومَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن**

(١) نغفاً : دود فى أنوف الإبل والغنم .

(٢) صحيح : رواه أحمد (٢ / ٥١٠ ، ٥١١) والترمذى (٣١٥٣) وابن ماجه (٤٠٨٠) وابن حبان (١٩٠٨ - موارد) والحاكم (٤ / ٤٨٨) وصححه ووافقه الذهبى . وانظر "الصحيحة" (١٧٣٥) .

(٣) وفى نسخة الشيخ شاكر . قال : هذا حديث حسن غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه مثل هذا .

رَّحْمَتِه ويُهَيِّئ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً . وتَرَى الشَّمْسَ إذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ وإذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وهُمْ في فَجْوَة مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّه مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَد ومَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ ولياً مُّرْشداً . وتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وهُمْ رُقُودٌ ونُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وذَاتَ الشِّمَالِ وكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالْوَصِيد لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً ولَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً . وكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِه إِلَى المَدِينَة فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ولْيَتَلَطَّفْ ولا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً . إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ولَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً . وكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وعْدَ اللَّه حَقٌّ وأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً . سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ويَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ ويَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً ولا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً . ولا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً . إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ واذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً . ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وازْدَادُوا تِسْعاً . قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ولا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ [الكهف : ٩ -٢٦].

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة وغيره : أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألوهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها ، ليختبروا ما يجيب به فيها ، فقالوا : سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يدري ما صنعوا . وعن رجل طواف في الأرض . وعن الروح . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ [الإسراء ٨٥] ﴿ ويسأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنين﴾ [الكهف:٨٣] وقال ههنا : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كَانُوا مِن آيَاتِنَا عَجَباً ﴾ أي ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة ، والآيات الباهرة والعجائب الغريبة. والكهف هو الغار في الجبل. قال شعيب الجبائي: واسم كهفهم ؛ حيزم وأما الرقيم فعن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما المراد به ؟ وقيل : هو الكتاب المرقوم فيه أسماؤهم ، وما جرى لهم كتب من بعدهم اختاره ابن جرير وغيره. وقيل: هو اسم الجبل الذي فيه كهفهم. قال ابن عباس وشعيب الجبائي: واسمه بناجلوس. وقيل: هو اسم وادٍ عند كهفهم وقيل : اسم قرية هنالك والله أعلم.

قال شعيب الجبائي : واسم كلبهم : حمران ، واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم يدل على أن زمانهم متقدم على ما ذكره بعض المفسرين أنهم كانوا بعد المسيح وأنهم كانوا نصاري. والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام. قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم : كانوا في زمن ملك يقال له : دقيانوس وكانوا من أبناء الأكابر، وقيل : من أبناء الملوك واتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم ، فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود

للأصنام ، والتعظيم للأوثان ، فنظروا بعين البصيرة ، وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة ، وألهمهم رشدهم ، فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء ، فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له. ويقال : إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه إليه من التوحيد، انحاز عن الناس واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد كما صح في البخاري : « الأَرْوَاحُ جُنُودُ مُجندةُ فَما تَعارَفَ مِنهَا ائْتلفَ ومَا تَناكَرَ مِنهَا اختَلفَ ». [1] فكل منهم سأل الآخرعن أمره وعن شأنه فأخبره ما هو عليه ، واتفقوا على الانحياز عن قومهم والتبري منهم ، والخروج من بين أظهرهم والفرار بدينهم منهم ، وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور. قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وزِدْنَاهُمْ هُدًى ورَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾[الكهف :١٣،١٥] أي بدليل ظاهر على ما ذهبوا إليه وصاروا من الأمر عليه ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ومَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ [الكهف: ١،١٦] أي وإذ فارقتموهم في دينهم وتبرأتم مما يعبدون من دون الله ، وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله كما قال الخليل: ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف:٢٦،٢٧] وهكذا هؤلاء الفتية قال بعضهم: إذ قد فارقتم قومكم في دينهم ، فاعتزلوهم بأبدانكم لتسلموا منهم أن يوصلوا إليكم شرا ﴿ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾ [الكهف : ١٦] أي يسبل عليكم ستره ، وتكونوا تحت حفظه وكنفه ، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ، كما جاء في الحديث « اللهُمَّ أحْسِنْ عاقِبَتَنا فِي الأُمُورِ كُلِّها وأَجِرنَا مِن خِزْيِ الدُّنيَا ومِن عَذَابِ الآخِرَةِ »[2] ثم ذكر تعالى : صفة الغار الذي آووا إليه، وأن بابه موجه إلى نحو الشمال وأعماقه إلى جهة القبلة ، وذلك أنفع الأماكن أن يكون المكان قبليا وبابه نحو الشمال فقال : ﴿ وتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ وقرئ :﴿ تزوّر عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ وإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف : ١٧] فأخبر : أن الشمس يعني في زمن الصيف وأشباهه، تشرق أول طلوعها في الغار في جانبه الغربي، ثم تشرع في الخروج منه قليلاً قليلاً وهو ازورارها ذات اليمين ، فترفع في جو السماء ، وتتقلص عن باب الغار . ثم إذا تضيفت للغروب، تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلاً قليلاً إلى حين الغروب ، كما هو المشاهد بمثل هذا المكان ، والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه . ﴿ وهُم فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ ﴾ [الكهف : ١٧] أي بقاؤهم على هذه الصفة دهراً طويلا من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذي أجسادهم في هذه المدة الطويلة من

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٩٠١) ومسلم (١٥٩/٢٦٣٨) .

(٢) **حسن** : رواه أحمد (٤ / ١٨١) والطبرانى فى " الكبير " (٢ / ٣٣) رقم (١١٩٦) وفى " الدعاء " (١٤٣٦) وابن حبان (٩٤٩) .

آيات الله وبرهان قدرته العظيمة ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ومَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ ولِياً مُّرْشِداً . وتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف : ١٧ ، ١٨] قال بعضهم : لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض ﴿ ونُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وذَاتَ الشِّمَالِ﴾ . قيل : في كل عام يتحولون مرة من جنب إلى جنب ، ويحتمل أكثر من ذلك فالله أعلم ﴿وكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف : ١٨] قال شعيب الجبائي: اسم كلبهم حمران وقال غيره : الوصيد أسكفة الباب. والمراد أن كلبهم الذي كان معهم ، وصحبهم حال انفرادهم من قومهم لزمهم ولم يدخل معهم في الكهف ، بل ربض على بابه ووضع يديه على الوصيد ، وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أكرموا به فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان في كلب هؤلاء صار باقياً معهم ببقائهم ، لأن من أحب قوماً سعد بهم، فإذا كان هذا في حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام ؟ !! وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأ خبراً طويلا أكثره متلقي من الإسرائيليات وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه كاختلافهم في اسمه ولونه.

وأما اختلاف العلماء في محلة هذا الكهف فقال كثيرون : هو بأرض أيلة. وقيل : بأرض نينوي ، وقيل : بالبلقاء ، وقيل : ببلاد الروم ، وهو أشبه والله أعلم. ولما ذكر الله تعالى ما هو الأنفع من خبرهم والأهم من أمرهم ووصف حالهم حتى كأن السامع راء ، والمخبر مشاهد لصفة كهفهم وكيفيتهم في ذلك الكهف ، وتقلبهم من جنب إلى جنب ، وأن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. قال :﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً ولَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾[الكهف١٧، ١٨] أي لما عليهم من المهابة والجلالة في أمرهم الذي صاروا إليه ، ولعل الخطاب ههنا لجنس الإنسان المخاطب لا بخصوصية الرسول ﷺ كقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾[التين:٧] أي أيها الإنسان؛ وذلك لأن طبيعة البشرية تفر من رؤية الأشياء المهيبة غالباً ولهذا قال : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً ولَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ ودل على أن الخبر ليس كالمعاينة كما جاء في الحديث ، لأن الخبر قد حصل ولم يحصل الفرار ولا الرعب. ثم ذكر تعالى : أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمائة سنة وتسع سنين ، فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩] أي بدراهمكم هذه ، يعني التي معهم إلى المدينة ، ويقال : كان اسمها دفسوس ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ أي أطيب مالاً ﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي بطعام تأكلونه وهذا من زهدهم وورعهم ﴿ وَلْيَتلطَّفْ ﴾ أي في دخوله إليها ﴿ولا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً . إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ولَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ [الكهف:١٩،٢٠] أي إن عدتم في ملتهم بعد إذا أنقذكم الله منها ، وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يوماً أو بعض يوم أو أكثر من ذلك ، ولم يحسبوا أنهم قد رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة ، وقد تبدلت الدول أطواراً عديدة وتغيرت البلاد ومن عليها ، وذهب أولئك القرن

الذين كانوا فيهم . وجاء غيرهم ، وذهبوا وجاء غيرهم. ولهذا لما خرج أحدهم وهو تيذوسيس فيما قيل ، وجاء إلى المدينة متنكراً لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه ، تنكرت له البلاد واستنكره من يراه من أهلها ، واستغربوا شكله وصفته ودراهمه فيقال: إنهم حملوه إلى متوليهم وخافوا من أمره أن يكون جاسوساً أو تكون له صولة[١] يخشون من مضرتها ، فيقال: إنه هرب منهم ويقال: بل أخبرهم خبره إلى إخوانه ومن معه وما كان من أمرهم، فانطلقوا معه ليريهم مكانهم، فلما قربوا من الكهف ، دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقة أمرهم ومقدار ما رقدوا ، فعلموا أن هذا أمر قدّره الله فيقال: إنهم استمروا راقدين ويقال:بل ماتوا بعد ذلك.

وأما أهل البلدة فيقال: إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار وعمَّى الله عليهم أمرهم ويقال: لم يستطيعوا دخوله حَسًّا [٢] ويقال مهابة لهم.

واختلفوا في أمرهم فقائلون يقولون : **﴿ ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً ﴾** أي سدوا عليهم باب الكهف، لئلا يخرجوا أو لئلا يصل إليهم ما يؤذيهم ، وآخرون وهم الغالبون على أمرهم قالوا : **﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيهِمْ مَسْجِداً ﴾** أي معبداً يكون مباركاً لمجاورته هؤلاء الصالحين. وهذا كان شائعا فيمن كان قبلنا فأما في شرعنا فقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لَعنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارَى اتَّخذُوا قُبورَ أنبيائِهم مَساجِد** » [٣] يحذر ما فعلوا وأما قوله : **﴿ وكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا﴾**[الكهف :٢١] فمعني أعثرنا أطلعنا على أمرهم الناس. قال كثير من المفسرين: ليعلم الناس أن المعاد حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة ، ثم قاموا كما كانوا من غير تغير منهم ، فإنّ من أبقاهم كما هم قادر على إعادة الأبدان وإن أكلتها الديدان، وعلي إحياء الأموات وإن صارت أجسامهم وعظامهم رفاتا، وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون **﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾** [يس:٨٢]. هذا ويحتمل عود الضمير في قوله ليعلموا إلى أصحاب الكهف، إذ علمهم بذلك من أنفسهم أبلغ من علم غيرهم بهم، ويحتمل أن يعود على الجميع والله أعلم. ثم قال تعالى : **﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ويَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ ويَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾**[الكهف: ٢٢] فذكر اختلاف الناس في كميتهم، فحكى ثلاثة أقوال ، وضعف الأولين ، وقرر الثالث ، فدل على أنه الحق إذ لو قيل غير ذلك لحكاه، ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهاه فدل على ما قلناه، ولما كان النــزاع في مثل هذا لا طائل تحته ولا جدوى عنده أرشد نبيه ﷺ إلى الأدب في مثل هذا الحال إذا اختلف الناس فيه أن يقول الله أعلم. ولهذا قال : **﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾** [الكهف :٢٢] وقوله : **﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَلِيلٌ﴾**

---

(١) صولة : سطوة .

(٢) حَسًّا : الحَسُّ: الحيلة . فى اللسان (حَسَّ) .

(٣) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٤٥٣) ومسلم (٢/٥٣٠) .

[الكهف : ٢٢] أي من الناس ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً﴾ [الكهف :٢٢] أي سهلا ولا تتكلف أعمال الجدال في مثل هذا الحال، ولا تستفت في أمرهم أحداً من الرجال، ولهذا أبهم تعالى عدهم في أول القصة فقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ ولو كان في تعين عدهم كبير فائدة لذكرها عالم الغيب والشهادة، وقوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً . إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ واذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾[الكهف:٢٣ ، ٢٤]. أدب عظيم أرشده الله تعالى إليه وحث خلقه عليه ، وهو ما إذا قال أحدهم إني سأفعل في المستقبل كذا فيشرع له أن يقول : إن شاء الله، ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه ، لأن العبد لا يعلم ما في غد، ولا يدري أهذا الذي عزم عليه مقدر أم لا؟ وليس هذا الاستثناء تعليقاً وإنما هو الحقيقي، ولهذا قال ابن عباس : يصح إلى سنة، ولكن قد يكون في بعض المحال لهذا، ولهذا كما تقدم في قصة سليمان عليه السلام حين قال : « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له : قل : إن شاء الله، فلم يقل، فطاف فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان» قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده لو قال : إن شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته »[1]. وقوله : ﴿ واذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف :٢٤] وذلك لأن النسيان قد يكون من الشيطان، فذكر الله يطرده عن القلب، فيذكر ما كان قد نسيه. وقوله : ﴿ وقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾ . [الكهف :٢٤] ؛ أي إذا اشتبه أمر وأشكل حال والتبس أقوال الناس في شيء، فارغب إلى الله ييسره لك، ويسهله عليك، ثم قال: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وازْدَادُوا تِسْعاً﴾. لما كان في الإخبار بطول مدة لبثهم فائدة عظيمة ذكرها تعالى، وهذه التسع المزيدة بالقمرية وهي لتكميل ثلثمائة شمسية، فإن كل مائة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف : ٢٦] أي إذا سئلت عن مثل هذا وليس عندك في ذلك نقل فرد الأمر في ذلك إلى الله عزّ وجلّ ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ [الكهف:٢٦] أي هو العالم بالغيب فلا يطلع عليه إلا من شاء من خلقه ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وأَسْمِعْ﴾ [الكهف ٢٦] يعني أنه يضع الأشياء في محالها لعلمه التام بخلقه وبما يستحقونه . ثم قال : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ولا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ [الكهف :٢٦] أي ربك المنفرد بالملك والمتصرف وحده لا شريك له.

قصّة الرجلين المؤمن والكافر

قال الله تعالى في سورة الكهف بعد قصة أهل الكهف : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـذِهِ أَبَداً . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٢٠) ومسلم (٢٣/١٦٥٤) .

رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً . لَّكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً . وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً . فعسَىَ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً . أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىَ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً . وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ إلى قوله: ﴿ **هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وخَيْرٌ عُقْباً**﴾ [الكهف : ٣٢-٤٤].

قال بعض الناس : هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعا .

والجمهور : أنه أمر قد وقع وقوله ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً** ﴾ يعني لكفار قريش في عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء، وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم، كما قال تعالي : ﴿ **واضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ**﴾ [يس:١٣] كما قدمنا الكلام على قصتهم قبل قصة موسى عليه السلام، والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا، ويقال : إنه كان لكل منهما مال فأنفق المؤمن ماله في طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه. وأما الكافر فإنه اتخذ له بساتين وهما الجنتان المذكورتان في الآية على الصفة والنعت المذكور. فيهما أعناب ونخيل تحف تلك الأعناب والزروع في ذلك، والأنهار سارحة ههنا وههنا للسقي والتنـــزه، وقد استوثقت فيهما الثمار، واضطربت فيهما الأنهار، وابتهجت الزروع والثمار، وافتخر مالكها على صاحبه المؤمن الفقير، قائلا له : ﴿ **أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وأَعَزُّ نَفَراً**﴾ أي أوسع جنانا، ومراده أنه خير منه، ومعناه ماذا أغنى عنك إنفاقك ما كنت تملكه في الوجه الذي صرفته فيه، كان الأولي بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلي، فافتخر على صاحبه ﴿ **ودَخَلَ جَنَّتَهُ وهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**﴾ أي وهو على غير طريقة مرضية قال: ﴿ **مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً**﴾ وذلك لما رأي من اتساع أرضها، وكثرة مائها وحسن نبات أشجارها، ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها ، وزروعها دارّة لكثرة مياهها. ثم قال : ﴿**ومَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾ فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية، وكذب بوجود الآخرة الباقية الدائمة. ثم قال : ﴿ **ولَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنهَا مُنقَلَباً**﴾ أي ولئن كان ثَمَّ آخرة ومعاد فلأجدن هناك خيراً من هذا ؛ وذلك لأنه اغتر بدنياه، واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلا لحبه له، وحظوته عنده، كما قال العاص بن وائل فيما قص الله من خبره وخبر خباب بن الأرت في قوله : ﴿ **أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً ووَلَداً. أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً**﴾ [مريم : ٧٧، ٧٨] وقال تعالى إخباراً عن الإنسان إذا أنعم الله عليه : ﴿ **لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ومَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ولَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى**﴾ [فصلت : ٥٠].

قال الله تعالى : ﴿ **فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ﴾ [فصلت:٥٠] وقال قارون : ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي** ﴾[القصص: ٧٨] أي لعلم الله بي أني أستحقه قال الله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [القصص: ٧٨] . وقد قدمنا الكلام على قصته في أثناء قصة موسى. وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى- إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾ [المؤمنون:٥٥ ، ٥٦] . ولما اغتر هذا الجاهل بما خول به في الدنيا فجحد الآخرة، وادعى أنها إن وجدت ليجدن عند ربه خيراً مما هو فيه، وسمعه صاحبه يقول ذلك قال له : ﴿ **وهو يحاوره** ﴾ أي يجادله ﴿ **أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** ﴾ [الكهف :٣٧] أي أجحدت المعاد وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب. ثم من نطفة . ثم صورك أطواراً ، حتى صرت رجلاً سويا سميعاً بصيراً، تعلم وتبطش وتفهم، فكيف أنكرت المعاد ، والله قادر على البداءة ﴿ **لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي** ﴾ [الكهف:٣٨] أي لكن أنا أقول بخلاف ما قلت ، وأعتقد خلاف معتقدك ﴿ **هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً** ﴾ [الكهف:٣٨] أي لا أعبد سواه وأعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها، ويعيد الأموات، ويجمع العظام الرفات، وأعلم أن الله لا شريك له في خلقه، ولا في ملكه، ولا إله غيره، ثم أرشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال : ﴿ **وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ﴾ [الكهف:٣٩] ولهذا يستحب لكل من أعجبه شيء من ماله أو أهله أو حاله، أن يقول كذلك، وقد ورد فيه حديث مرفوع في صحته نظر.

قال أبو يعلى الموصلي : حدثنا جراح بن مخلد، حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا عيسى بن عون،حدثنا عبد الملك بن زرارة عن أنس، قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ماشاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفه دون الموت** » وكان يتأول هذه الآية ﴿ **وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ﴾ [1] قال الحافظ أبو الفتح الأزدي عيسى بن عون ، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس لا يصح . ثم قال المؤمن للكافر : ﴿ **فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ** ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ **وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ** ﴾ [الكهف:٤٠] قال ابن عباس والضحاك وقتادة :أي عذابا من السماء. والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذي يقتلع زروعها وأشجارها ﴿ **فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً** ﴾ وهو التراب الأملس الذي لا نبات فيه ﴿ **أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً** ﴾ [الكهف:٤١]و هو ضد المعين السارح ﴿ **فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً** ﴾ [الكهف:٤] يعني فلا تقدر على استرجاعه . قال الله تعالى : ﴿ **وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ** ﴾ [الكهف : ٤٢] أي جاءه أمر

---

(١) **ضعيف** : رواه أبو يعلى فى " الكبير " كما فى " المطالب العالية " (٤٠٣٦) النسخة المسندة . وقال الأزدى : عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح .

أحاط بجميع حواصله، وخرب جنته ودمرها ﴿ **فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** ﴾ [الكهف:٤٢] أي خربت بالكلية، فلا عودة لها، وذلك ضد ما كان عليه أمّل حيث قال : ﴿ **مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً** ﴾ وندم على ما كان سلف منه من القول الذي كفر بسببه بالله العظيم فهو يقول : ﴿ **يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً** ﴾ [الكهف:٤٢]. قال الله تعالى: ﴿ **وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً** ﴾ أي لم يكن أحد يتدارك ما فرط من أمره ، وما كان له قدرة في نفسه على شيء من ذلك كما قال تعالى :﴿ **فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ** ﴾ [الطارق:١٠]و قوله : ﴿ **الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ** ﴾ [الكهف:٤٤] ومنهم من يبتدئ بقوله : ﴿ **هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ** ﴾ وهو حسن أيضا لقوله: ﴿ **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً** ﴾ [الفرقان:٢٦] فالحكم الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب في تلك الحال، وفي كل حال لله الحق. ومنهم من رفع الحق جعله صفة للولاية وهما متلازمتان وقوله ﴿ **هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً** ﴾ [الكهف:٤٤] أي معاملته خير لصاحبها ثوابا ، وهو الجزاء ، وخير عقبا ، وهو العاقبة في الدنيا والآخرة. وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر بها ولا يثق بها، بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه في كل حال نصب عينيه. وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه. وفيها أنّ من قدم شيئا على طاعة الله والإنفاق في سبيله عذب به، وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده. وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق ، وإن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة. وفيها أن الندامه لا تنفع إذا حان القدر، ونفذ الأمر الحتم، والله المستعان وعليه التكلان .

قصّة أصحاب الجنة

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ . فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ . وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [القلم:١٧-٣٣]. وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم، فقابلوه بالتكذيب والمخالفة، كما قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ** ﴾ [إبراهيم:٢٨، ٢٩]. قال ابن عباس : هم كفار قريش فضرب تعالى لهم مثلا بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار التي قد انتهت واستحقت أن تجد وهو الصرام، [1] ولهذا قال ﴿ **إِذْ**

---

(١) الصرام : القطع وقطاف الثمر .

أَقْسَمُوا﴾ فيما بينهم ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ أي ليجدنها وهو الاستغلال ﴿ مُصْبِحِينَ﴾ أي وقت الصبح ، حيث لا يراهم فقير ولا محتاج فيعطوه شيئاً، فحلفوا على ذلك، ولم يستثنوا في يمينهم، فعجزهم الله، وسلط عليها الآفة التي أحرقتها، وهي السفعة التي اجتاحتها، ولم تُبق بها شيئاً يُنتفع به، ولهذا قال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي كالليل الأسود المنصرم من الضياء، وهذه معاملة بنقيض المقصود ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي فاستيقظوا من نومهم، فنادى بعضهم بعضاً قائلين :﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار، ويكثر السؤال ﴿ فَانطَلَقُوا وهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين : ﴿ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي اتفقوا على هذا ، واشتوروا عليه ﴿ وغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي انطلقوا مجدين في ذلك قادرين عليه ، مضمرين على هذه النية الفاسدة.

وقال عكرمة والشعبي : ﴿وغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ﴾ أي غضب على المساكين، وأبعد السدي في قوله : أن اسم حرثهم حرد ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي وصلوا إليها ونظروا ما حل بها، وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضرة والحسن والبهجة، فانقلبت بسبب النية الفاسدة، فعند ذلك ﴿ قَالُوا إنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي قد تهنا عنها وسلكنا غير طريقها، ثم قالوا : ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا ، وحرمنا بركة حرثنا ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾. قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو أعدلهم وخيرهم . ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ قيل : تستثنون، قاله مجاهد والسدي وابن جرير . وقيل : تقولون : خيراً بدل ما قلتم من الشر ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾. فندموا حيث لا ينفع الندم، واعترفوا بالذنب بعد العقوبة، وذلك حيث لا ينجع [1]، وقد قيل : إن هؤلاء كانوا إخوة،و قد ورثوا هذه الجنة من أبيهم، وكان يتصدق منها كثيراً فلما صار أمرها إليهم ، استهجنوا أمر أبيهم، وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً، فعاقبهم الله أشد العقوبة، ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار، وحثّ على ذلك يوم الجداد، كما قال تعال : ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] ثم قيل : كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها ضروان، وقيل : من أهل الحبشة والله أعلم. قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ العَذَابُ﴾ أي هكذا نعذب من خالف أمرنا ، ولم يعطف على المحاويج من خلقنا ﴿ ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي أعظم وأحكم من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. وقصة هؤلاء شبيهةٌ بقوله تعالى: ﴿وضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ والْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . ولَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وهُمْ ظَالِمُونَ. [النحل:١١٢ ، ١١٣] قيل: هذا مثل مضروب لأهل مكة . وقيل : هم أهل مكة أنفسهم ، ضربهم مثلا لأنفسهم، ولا ينافي ذلك والله أعلم أ . هـــ .

---

(١) ينجع : ينفع .

قصّة أصحاب أيلة الذين اعتدوا في سبتهم

قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ واسئَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ البَحْرِ إذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً ويَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وإذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٦] وقال تعالى في سورة البقرة ﴿ولَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ومَا خَلْفَهَا ومَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٦٥-٦٦] وقال تعالى في سورة النساء: ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء:٤٧].

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم : هم أهل أيلة، زاد ابن عباس : بين مدين والطور. قالوا: وكانوا متمسكين بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان، فكانت الحيتان قد ألفت منهم السكينة في مثل هذا اليوم، وذلك أنه كان يحرم عليهم الاصطياد فيه، وكذلك جميع الصنائع والتجارات والمكاسب، فكانت الحيتان في مثل يوم السبت يكثر غشيانها لمحلتهم من البحر، فتأتي من ههنا وههنا ظاهرة آمنة مسترسلة، فلا يهيجونها ولا يذعرونها ﴿ ويَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾ ؛ وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت قال الله تعالى : ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي نختبرهم بكثرة الحيتان في يوم السبت ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقهم المتقدم، فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها في يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشصوص [1]، وحفروا الحفر التي يجري معها الماء إلى مصائد قد أعدوها إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها،ففعلوا ذلك في يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت علقت بهذه المصايد، فإذا خرج سبتهم أخذوها، فغضب الله عليهم ولعنهم لما احتالوا على خلاف أمره، وانتهكوا محارمه بالحيل التي هي ظاهرة للناظر، وهي في الباطن مخالفة محضة، فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين : فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه في ذلك الزمان. وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا بل أنكروا على الذين نهوا وقالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ [الأعراف:١٦٤] يقولون : ما الفائدة في نهيكم هؤلاء ؟ وقد استحقوا العقوبة لا محالة، فأجابتهم الطائفة المنكرة بأن قالوا : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنقوم به خوفا من عذابه ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ولعل هؤلاء يتركون ما هم عليه من هذا الصنيع، فيقيهم الله عذابه ويعفو عنهم إذا هم رجعوا واستمعوا .قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأنعام :

(١) الشصوص : الشصص : حديدة عقفاء يصاد بها السمك وتسمى (السنارة) .

٤٤] أي لم يلتفتوا إلى من نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع ﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف : ١٦٥] وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المرتكبون الفاحشة ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ وهو الشديد المؤلم الموجع ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف : ١٦٥] . ثم فسر العذاب الذي أصابهم بقوله : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[الأعراف: ١٦٦]. وسنذكر ما ورد من الآيات في ذلك.

والمقصود هنا أن الله أخبر أنه أهلك الظالمين ، ونجى المؤمنين المنكرين، وسكت عن الساكتين. وقد اختلف فيهم العلماء على قولين : فقيل : إنهم من الناجين، وقيل : إنهم من الهالكين، والصحيح الأول عند المحققين ، وهو الذي رجع إليه ابن عباس إمام المفسرين ، وذلك عن مناظرة مولاه عكرمة،فكساه من أجل ذلك حلة سنية تكرمه. قلت : وإنما لم يذكروا مع الناجين لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم تلك الفاحشة،إلا أنهم كان ينبغي لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به من الإنكار القولي ، الذي هو أوسط المراتب الثلاث التي أعلاها الإنكار باليد ذات البنان وبعدها الإنكار القولي باللسان، وثالثها الإنكار بالجنان، فلما لم يذكروا نجوا مع الناجين إذ لم يفعلوا الفاحشة بل أنكروها، وقد روى عبد الرزاق عن ابن جريج عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس وحكي مالك عن ابن رومان وشيبان عن قتادة وعطاء الخراساني ما مضمونه ، أن الذين ارتكبوا هذا الصنع اعتزلهم بقية أهل البلد ، ونهاهم من نهاهم منهم، فلم يقبلوا فكانوا يبيتون وحدهم ويغلقون بينهم وبينهم أبواباً حاجزاً لما كانوا يترقبون من هلاكهم، فأصبحوا ذات يوم وأبواب ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها، وارتفع النهار واشتد الضحاء، فأمر بقية أهل البلد رجلاً أن يصعد على سلالم ويشرف عليهم من فوقهم، فلما أشرف عليهم إذا هم قردة لها أذناب يتعاوون ويتعادون،ففتحوا عليهم الأبواب فجعلت القردة تعرف قراباتهم، ولا يعرفهم قراباتهم، فجعلوا يلوذون بهم . ويقول لهم الناهون : ألم ننهكم عن صنيعكم ؟ فتشير القردة برؤوسها أن نعم. ثم بكي عبد الله بن عباس وقال : إنا لنري منكرات كثيرة ولا ننكرها ولا نقول فيها شيئاً. وقال العوفي عن ابن عباس: صار شباب القرية قردة وشيوخها خنازير. وروى ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس : أنهم لم يعيشوا إلا فواقا . ثم هلكوا ما كان لهم نسل .

وقال الضحاك عن ابن عباس :أنه لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل هؤلاء ولم يشربوا ولم ينسلوا، وقد استقصينا الآثار في ذلك في تفسير سورة البقرة والأعراف. ولله الحمد والمنة. وقد روى ابن أبي حاتم ، وابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وخنازير وإنما هو مثلٌ ضربه الله ﴿ كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة: ٥] وهذا صحيح إليه وغريب منه جدا ومخالف لظاهر القرآن ولما نص عليه غير واحد من السلف والخلف والله أعلم.

قصة أصحاب القرية

﴿ إذ جاءها المُرسَلُون ﴾ تقدم ذكرها قبل قصة موسى عليه السلام.

قصةُ سبأ

سيأتي ذكرها في أيام العرب إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

قصةُ قارون وقصة بلعام

تقدمتا في قصة موسى وهكذا قصة الخضر . وقصة فرعون . والسحرة كلها في ضمن قصة موسى. وقصة البقرة تقدمت في قصة موسى. وقصة﴿ الَذينَ خرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وهُمْ أُلوفٌ حَذَرَ المَوْت﴾ [البقرة : ٢٤٣] في قصة حزقيل. وقصة ﴿ المَلأ مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [البقرة : ٢٤٦] في قصة شمويل. وقصة ﴿الذي مَرَّ على قريةٍ﴾ [البقرة : ٢٥٩] في قصة عزير.

قصّة لقمان

قال تعالى : ﴿ ولَقَدْ آتَيْنا لُقْمَانَ الحكْمَةَ أن اشكُرْ للّه ومَن يَشكُرْ فإنَّمَا يَشكُرُ لنَفسه ومَن كَفرَ فإنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَميدٌ . وإذْ قَالَ لُقمَانُ لابْنِه وهُوَ يَعظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشرك بالله إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ . ووَصَّيْنَا الإنسَانَ بوَالدَيْه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وهْناً عَلَى وهْنٍ وفصَالُهُ في عَامَيْنِ أن اشكُرْ لي ولوَالدَيْكَ إلَيَّ المَصيرُ . وإن جَاهَدَاكَ عَلَى أن تُشرِكَ بي مَا لَيسَ لَكَ به علْمٌ فَلا تُطعْهُمَا وصَاحبْهُمَا في الدُّنْيَا مَعْرُوفاً واتَّبعْ سَبيلَ مَنْ أَنَابَ إلَيَّ ثُمَّ إلَيَّ مَرْجعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . يَا بُنَيَّ إنَّهَا إن تَكُ مثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن في صَخْرَةٍ أَوْ في السَّمَوَاتِ أَوْ في الأَرْضِ يَأْتِ بهَا اللّهُ إنَّ اللّهَ لَطيفٌ خَبيرٌ . يَا بُنَيَّ أَقمِ الصَّلاةَ وأْمُرْ بالْمَعْرُوف وانْهَ عَنِ المُنكَرِ واصْبرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إنَّ ذَلكَ منْ عَزْمِ الأُمُورِ . ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ ولا تَمْشِ في الأَرْضِ مَرَحاً إنَّ اللّهَ لا يُحبُّ كُلَّ مُختَالٍ فَخُورٍ . واقْصدْ في مَشْيكَ واغْضُضْ من صَوْتكَ إنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَميرِ﴾[لقمان:١٢-١٩].

هو لقمان بن عنقاء بن سدون. ويقال: لقمان بن ثاران حكاه السهيلي عن ابن جرير والقتيبي. قال السهيلي : - وكان نوبيا من أهل أيلة - قلت : وكان رجلاً صالحاً ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة. ويقال : كان قاضيا في زمن داود عليه السلام فالله أعلم. وقال سفيان الثوري عن الأشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان عبداً حبشيا نجاراً. وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير : قلت لجابر بن عبدالله : ما انتهى إليكم في شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النوبة. وقال يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ذو مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة. وقال الأوزاعي :حدثني عبدالرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد : لا تحزن من أجل أنك أسودٌ ، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ومهجع مولى عمر ولقمان الحكيم

كان أسود نوبيا ذا مشافر. وقال الأعمش عن مجاهد : كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين. وفي رواية مصفح القدمين. وقال عمر بن قيس :كان عبداً أسود غليظ الشفتين مصفح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم فقال له : ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا ؟ . قال :نعم، قال : فما بلغ بك ما أري ؟ . قال : صدق الحديث، و الصمت عما لا يعنيني.رواه ابن جرير عن ابن حميد عن الحكم عنه.

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي يزيد بن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم لحكمته، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال: ألست عبد ابن فلان الذي كنت ترعي غنمي بالأمس ؟ قال : بلي، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدر الله وأداء الأمانة . وصدق الحديث ، وترك مالا يعنيني، وقال ابن وهب : أخبرني عبد الله بن عياش الفتياني عن عمر مولي عفرة . قال: وقف رجل على لقمان الحكيم . فقال :أنت لقمان؟ أنت عبد بني النحاس ؟ . قال : نعم، قال : فأنت راعي الغنم الأسود ؟ قال: أما سوادي فظاهر فما الذي يعجبك من أمري ؟ قال : وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولك . قال: يابن أخي إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك، قال : ما هو ؟ قال لقمان: غضي بصري، وكفي لساني، وعفة مطعمي، وحفظي فرجي، وقيامي بعدتي، ووفائي بعهدي، و تكرمتي ضيفي، وحفظي جاري، وتركي مالا يعنيني، فذاك الذي صيرني كما ترى.

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عمرو بن واقد، عن عبدة بن رباح، عن ربيعة، عن أبي الدرداء أنه قال يوما وذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتي عن أهل، ولا مال، و لا حسب،و لا خصال، ولكنه كان رجلاً ضمضامة [1] سكيتاً طويل التفكر، عميق النظر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد يبزق،و لا يتنحنح، ولا يبول، ولا يتغوط، ولا يغتسل،و لا يعبث، ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج، وولد له أولاد فماتوا، فلم يبك عليهم، وكان يغشي السلطان، ويأتي الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي. ومنهم من زعم أنه عرضت عليه النبوة فخاف أن لا يقوم بأعبائها، فاختار الحكمة لأنها أسهل عليه. وفي هذا نظر والله أعلم، وهذا مروي عن قتادة كما سنذكره. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق وكيع عن إسرائيل عن جابر الجعفي عن عكرمة أنه قال : كان لقمان نبيا وهذا ضعيف لحال الجعفي.

والمشهور عن الجمهور: أنه كان حكيماً وليا ولم يكن نبيا، وقد ذكره الله تعالى في القرآن فأثني عليه، وحكى من كلامه فيما وعظ به ، ولده الذي هو أحب الخلق إليه وهو أشفق الناس عليه ، فكان من أول ما وعظ به أن قال : ﴿ **يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لظلمٌ عظيمٌ** ﴾. فنهاه

---

(١) الضمضام : الجسيم والجريء .

عنه وحذره منه. وقد قال البخاري : حدثنا قتيبة، حدثنا جرير عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت **﴿ الَذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بظُلْم﴾** شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله -ﷺ- : « إنه ليس بذاك، ألم تسمع إلى قول لقمان: **﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾** ؟ »[1] رواه مسلم من حديث سليمان بن مهران الأعمش به، ثم اعترض تعالى بالوصية بالوالدين وبيان حقهما على الولد وتأكده وأمر بالإحسان اليهما حتى ولو كانا مشركين ، ولكن لايطاعان على الدخول في دينهما ، إلى أن قال مخبراً عن لقمان فيما وعظ به ولده : **﴿ يَا بُنَيَّ إنَّهَا إن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾** . [لقمان: ١٦] ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبة خردل . فإن الله يسأل عنها ويحضرها حوزة الحساب، ويضعها في الميزان كما قال تعالى : **﴿ إنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾** .

وقال تعالى : **﴿ونَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وإن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾** [الأنبياء:٤٧] وأخبره أن هذا الظلم لو كان في الحقارة كالخردلة، ولو كان في جوف صخرة صماء لا باب ولا كوة، أو لو كانت ساقطة في شيء من ظلمات الأرض، أو السموات في اتساعهما وامتداد أرجائهما، لعلم الله مكانها **﴿ إنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾** أي علمه دقيق، فلا يخفي عليه الذر مما تراءى للنواظر أو تواري كما قال تعالى : **﴿ ومَا تَسْقُطُ من ورَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا ولا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [الأنعام:٥٩]. وقال: **﴿ومَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ والأَرْضِ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [النمل:٧٥]. وقال : **﴿عَالِمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [سبأ:٣] .

وقد زعم السدي في خبره عن الصحابة أن المراد بهذه الصخرة الصخرة التي تحت الأرضين السبع، وهكذا حكي عن عطية العوفي وأبي مالك والثوري والمنهال بن عمر وغيرهم، وفي صحة هذا القول من أصله نظر. ثم إن في هذا هو المراد نظر آخر ، فإن هذه الآية نكرة غير معرفة، فلو كان المراد بها ما قالوه لقال : فتكن في الصخرة، وإنما المراد فتكن في صخرة أي صخرة كانت كما قال الإمام أحمد.

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله - ﷺ- قال : « **لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان** » ثم قال : **﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾** [لقمان : ١٧][2] أي أدها بجميع واجباتها من حدودها وأوقاتها وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها، وما شرع

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٤٧٧٦) ومسلم (١٩٧/١٢٤) .

(٢) **ضعيف** :رواه أحمد (٣ / ٢٨) وابن حبان (٥٦٧٨) وهو من رواية دراج عن أبى الهيثم . ورواية دراج عن أبي الهيثم ضعيفة . وفى طريق أحمد بن لهيعة وهو ضعيف ولكن تابعة عمرو بن الحارث عند ابن حبان .

فيها، واجتنب ما ينهي عنه فيها. ثم قال : ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي بجهدك وطاقتك، أي إن استطعت باليد فباليد، وإلا فبلسانك، فإن لم تستطع فبقلبك، ثم أمره بالصبر فقال : ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ وذلك أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في مظنة أن يعادي وينال منه، ولكن له العاقبة، ولهذا أمره بالصبر على ذلك،ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج وقوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان : ١٧] التي لا بد منها ولا محيد عنها. وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان : ١٨] قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك ويزيد بن الأصم وأبو الجوزاء وغير واحد : معناه لا تتكبر على الناس، وتميل خدك حال كلامك لهم وكلامهم لك على وجه التكبر عليهم، والازدراء لهم. قال أهل اللغة : وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها فتلتوي رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبر الذي يميل وجهه إذا كلم الناس، أو كلموه على وجه التعظم عليهم.

قال أبو طالب في شعره :

وكُنَّا قديماً لا نُقـرّ ظُلامةً إذا ما ثَنَوا صُعْر الخدود نُقيمُها[1]

وقال عمرو بن حيي التغلبي :

وكنّا إذا الجبّارُ صَعَّرَ خدَّهُ أقمْنا لَهُ مِنْ مَيْلِه فتقوّما

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان : ١٨] ينهاه عن التبختر في المشية على وجه العظمة والفخر على الناس ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء:٣٧]. يعني لست بسرعة مشيك تقطع البلاد في مشيتك هذه،ولست بدقك الأرض برجلك تخرق الأرض بوطئك عليها، و لست بتشامخك وتعاظمك وترفعك تبلغ الجبال طولاً، فاتئد على نفسك فلست تعدو قدرك. وقد ثبت في الحديث « بينما رجل يمشي في برديه يتبختر فيهما، إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلل فيها إلى يوم القيامة »[2]. وفي الحديث الآخر : «إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة لا يحبها الله »[3] كما قال في هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ولما نهاه عن الاختيال في المشي، أمره بالقصد فيه، فإنه لا بد له أن يمشي، فنهاه عن الشر، وأمره بالخير، فقال : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي لا تتباطأ مفرطاً، ولا تسرع إسراعاً مفرطاً، ولكن بين ذلك قواماً ، كما قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ [الفرقان:٦٣] ثم قال : ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ يعني إذا تكلمت لا تتكلف رفع صوتك، فإن أرفع الأصوات

---

(١) صعَر : المَيَل في الخد خاصة .

(٢) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٨٥) ومسلم (٢٠٨٨/٤) .

(٣) صحيح: رواه أحمد (٥ / ٦٣ ، ٦٤) وأبو داود (٤٠٨٤) عن جابر بن سليم رضى الله عنه.

وأنكرها صوت الحمير. وقد ثبت في الصحيحين الأمر بالاستعاذة عند سماع صوت الحمير بالليل، فإنها رأت شيطانا [١] ، ولهذا نهي عن رفع الصوت حيث لا حاجة إليه، ولا سيما عند العطاس، فيستحب خفض الصوت وتخمير الوجه، كما ثبت به الحديث من صنيع رسول الله ﷺ فأما رفع الصوت بالأذان وعند الدعاء إلى الفئة للقتال، وعند الإهلاك ونحو ذلك، فذلك مشروع، فهذا مما قصه الله تعالى عن لقمان عليه السلام في القرآن من الحكم والوصايا النافعة الجامعة للخير المانعة من الشر، وقد وردت آثار كثيرة من أخباره ومواعظه، وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمى بحكمة لقمان ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله تعالى.

قال الإمام أحمد : حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا سفيان، أخبرني نهيك بن يجمع الضبي، عن قزعة،عن ابن عمر، قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « **إنَّ لقمان الحكيم** كان يقول : إن الله إذا استودع **شيئاً حفظه** » [٢] .وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله ﷺ قال : « **قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني إياك والتقنع فإنه مخونة بالليل مذمة بالنهار** » وقال أيضاً : حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عمارة، حدثنا ضمرة،حدثنا السري بن يحيي قال : قال لقمان : يابني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك وحدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن المسعودي عن عون بن عبدالله قال : قال لقمان لابنه: يا بني إذا أتيت نادي قوم فأدمهم بسهم الإسلام يعني السلام، ثم اجلس بناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم،و إن أفاضوا في غير ذلك فحول عنهم إلى غيرهم ، وحدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا ضمرة عن حفص بن عمر، قال : وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتى نفد الخردل فقال: يا بني لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفطر. قال: فتفطر ابنه. وقال أبوالقاسم الطبراني : حدثنا يحيي بن عبد الباقي المصيصي،حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي،عن ابن سفيان المقدسي، عن خليفة ابن سلام، عن عطاء ابن أبي رباح،عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من أهل الجنة لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن** ». قال الطبراني : يعني الحبشي. وهذا حديث غريب منكر، وقد ذكر له الإمام أحمد في كتاب الزهد ترجمة ذكر فيها فوائد مهمة جمة، فقال : حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن رجل، عن مجاهد: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ**﴾ قال : الفقه والإصابة في غير نبوة. وكذا روي عن وهب بن منبه . وحدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن أشعث، عن عكرمة، عن ابن عباس قال : كان لقمان عبدا حبشيا، وحدثنا أسود، حدثنا حماد،

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٣٣٠٣) ومسلم (٨٢/٢٧٢٩) .

(٢) حسن : رواه أحمد (٢ / ٨٧) .

عن علي بن يزيد، عن سعيد بن المسيب : أن لقمان كان خياطاً. وحدثنا سياد حدثنا جعفر، حدثنا مالك يعني بن دينار. قال : قال لقمان لابنه: يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة. وحدثنا يزيد، حدثنا أبو الأشهب، عن محمد بن واسع، قال : كان لقمان يقول لابنه، يا بني اتق الله ولا ترى الناس أنك تخشي الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر.

وحدثنا يزيد بن هارون ووكيع قالا : حدثنا أبو الأشهب عن خالد الربعي، قال: كان لقمان عبدا حبشيا نجاراً، فقال له سيده : اذبح لي شاة، فذبح له شاة، فقال : ائتني بأطيب مضغتين فيها، فأتاه باللسان والقلب، فقال : أما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟ قال : لا، قال : فسكت عنه ما سكت، ثم قال له : اذبح لي شاة فذبح له شاة، فقال له : وألق أخبثها مضغتين، فرمى باللسان والقلب، فقال : أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب، فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما وإذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا.

وحدثنا داود بن رشيد، حدثنا ابن المبارك، حدثنا معمر عن أبي عثمان رجل من أهل البصرة، يقال له الجعد أبو عثمان قال : قال لقمان لابنه : لا ترغب في ود الجاهل فيرى أنك ترضي عمله، ولا تهاون بمقت الحكيم فيزهده فيك. وحدثنا داود بن أسيد ، حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة ، عن شريح بن عبيد الحضرمي ، عن عبد الله بن زيد قال : قال لقمان : ألا إن يد الله على أفواه الحكماء لا يتكلم أحدهم إلا ماهيّأ الله له.

وحدثنا عبد الرزاق سمعت بن جريج قال : كنت أقنع رأسي بالليل ، فقال لي عمر : أما علمت أن لقمان قال : القناع بالنهار مذلة معذرة أو قال معجزة بالليل، فلم تقنع رأسك بالليل؟ . قال : قلت له : إنّ لقمان لم يكن عليه دين. وحدثني حسن بن الجنيد، حدثنا سفيان: قال لقمان لابنه : يا بني ما ندمت على السكوت قط، وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وحدثنا عبد الصمد ووكيع قالا : حدثنا أبو الأشهب عن قتادة أن لقمان قال لابنه : يا بني اعتزل الشر يعتزلك، فإن الشر للشر خلق. وحدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه، قال: مكتوب في الحكمة يا بني إياك والرغب ، فإن الرغب كل الرغب يبعد القريب من القريب ويزيل الحكم كما يزيل الطرب. يا بني إياك وشدة الغضب، فإن شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم.

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا نافع بن عمر ، عن ابن أبي مليكة، عن عبيد بن عمير قال : قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني اختر المجالس على عينك فإذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجل، فاجلس معهم فإنك إن تك عالما ينفعك علمك، وإن تك غبيا يعلموك، وإن يطلع الله عليهم برحمة تصيبك معهم. يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر الله فيه فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمك ، وإن تك غبيا يزيدوك غبيا، وإن يطلع اللّه إليهم بعد

ذلك بسخط يصيبك معهم. يابني لا تغبطوا أمراء رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين، فإن له عند الله قاتلاً لا يموت .

وحدثنا أبومعاوية ، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه. قال :مكتوب في الحكمة : « بني لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء ». وقال : مكتوب في الحكمة أو في التوراة : « الرفق رأس الحكمة »، وقال:مكتوب في التوراة : « كما ترحمون تُرحمون » وقال : مكتوب في الحكمة : « كما تزرعون تحصدون » وقال : مكتوب في الحكمة « أحب خليلك وخليل أبيك ». وحدثنا عبد الرزاق عن معمر ، عن أيوب ، عن أبي قلابة قال: قيل للقمان : أي الناس أصبر؟ قال صبر لا يتبعه أذي. قيل : فأي الناس أعلم؟ قال : من ازداد من علم الناس إلى علمه. قيل : فأي الناس خير ؟ قال : الغني. قيل : الغني من المال ؟ قال : لا . ولكن الغني الذي إذا التمس عنده خير وجد وإلا أغنى نفسه عن الناس.

وحدثنا سفيان – هو ابن عيينة– قال : قيل للقمان أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً. وحدثنا أبو الصمد ، عن مالك بن دينار قال: وجدت في بعض الحكمة يبدد الله عظام الذين يتكلمون بأهواء الناس ، ووجدت فيها لا خير لك في أن تعلم ما لم تعلم، ولما تعمل بما قد علمت ، فإن مثل ذلك رجل احتطب حطباً فحزم حزمة ، ثم ذهب يحملها فعجز عنها فضم إليه أخري. وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا الحكم بن أبي زهير وهو الحكم بن موسى، حدثنا الفرج بن فضالة ، عن أبي سعيد، قال : قال لقمان لابنه : يابني لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور في أمرك العلماء. وهذا بمجموع ما ذكره الإمام أحمد في هذه المواضع وقد قدمنا من الآثار كثيراً لم يروها كما أنه ذكر أشياء ليست عندنا والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الوليد، حدثنا زيد بن يحيي بن عبيد الخزاعي، حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة . قال : خيرّ الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة على النبوة قال : فأتاه جبريل وهو نائم فدر عليه الحكمة، قال : فأصبح ينطق بها. قال سعد : سمعت قتادة يقول: قيل للقمان: كيف اخترت الحكمة على النبوة، وقد خيرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إليّ بالنبوة عزمة لرجوت فيه الفوز منه، ولكنت أرجو أن أقوم بها، ولكن خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحبَ إلى. وهذا فيه نظر لأن سعيد ابن بشير عن قتادة قد تكلموا فيه، والذي رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ﴾ قال : يعني الفقه والإسلام، ولم يكن نبيا ولم يوحَ إليه. وهكذا نص على هذا غير واحد من السلف منهم مجاهد وسعيد بن المسيب وابن عباس والله أعلم.

قصّة أصحاب الأخدود

قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ . والْيَوْمِ المَوْعُودِ . وشَاهِدٍ ومَشْهُودٍ. قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. ومَا نَقَمُوا مِنْهُمْ

إلاّ أن يُؤمِنُوا بِاللَّه العَزِيزِ الحَمِيد الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ﴾ [البروج:١-١٠].

قد تكلمنا على ذلك مستقصى في تفسير هذه السورة ولله الحمد، وقد زعم محمد بن إسحاق : أهم كانوا بعد مبعث المسيح، وخالفه غيره فزعموا : أهم كانوا قبله. وقد ذكر غير واحد : أن هذا الصنيع مكرر في العالم مراراً في حق المؤمنين من الجبارين الكافرين، ولكن هؤلاء المذكورين في القرآن قد ورد فيهم حديث مرفوع، وأثر أورده ابن إسحاق وهما متعارضان وها نحن نوردهما لتقف عليهما. قال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلي، عن صهيب، أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر الساحر ، قال للملك : إني قد كبرت سني وحضر أجلي فادع إلىّ غلاماً فلأعلمه السحر ، فدفع إليه غلاماً ، فكان يعلمه السحر،و كان بين الملك وبين الساحر راهب، فأتي الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتي الساحر ضربه . وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتي أهله ضربوه، وقالوا : ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب . فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسني أهلي وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسني الساحر . قال : فبينا هو ذات يوم إذ أتي على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال : اليوم أعلم أمر الساحر أحب إلىّ الله أم أمر الراهب ؟ قال : فأخذ حجراً . فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها. ومضى فأخبر الراهب بذلك . فقال :أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلي، فإن ابتليت فلا تدل عليّ، فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء، ويشفيهم الله على يديه، وكان جليس للملك، فعمي فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة . فقال : اشفني ولك ما ههنا أجمع، فقال : ما أنا أشفي أحدا إنما يشفي الله عزّ وجلّ ، فإن آمنت به ودعوت الله شفاك فآمن فدعا الله فشفاه. ثم أتي الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك : يا فلان من رد عليك بصرك ؟ فقال : ربي، قال : لا . ربي وربك الله . قال : أولك رب غيري ؟ قال : نعم ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فأتي به . فقال : أي بني بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء قال : ما أشفي أنا أحداً، إنما يشفي الله عزّ وجلّ . قال : أنا ؟. قال : لا. قال : أولك رب غيري؟. قال : ربي وربك الله، قال فأخذه أيضاً بالعذاب، ولم يزل به حتى دلّ على الراهب . فأتي الراهب فوضع فقال : ارجع عن دينك،فأبي ، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال : للأعمي ارجع عن دينك فأبي ، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه. وقال للغلام : ارجع عن دينك فأبي، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا،و قال : إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه. فذهبوا به فلما علوا الجبل قال : اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدهدهوا [1] أجمعون، وجاء الغلام يتلمس ،

---

(١) دهده : دحرج .

حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال: كفانيهم الله، فبعث به مع نفر في قرقرة [1]، فقال : إذا لججتم البحر فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه في البحر ، فلججوا به البحر فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك . فقال : ما فعل أصحابك ؟. فقال : كفانيهم الله. ثم قال : للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي. ثم قل : بسم الله رب الغلام فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، ففعل ووضع السهم في كبد القوس ثم رماه وقال : بسم الله رب الغلام فوقع السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات . فقال الناس : آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام. فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فحفر فيها الأخاديد ، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، وقال: فكانوا يتعادون فيها ويتواقعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق »[2]. كذا رواه الإمام أحمد ورواه مسلم والنسائي من حديث حماد بن سلمة، زاد النسائي وحماد بن زيد كلاهما عن ثابت به، ورواه الترمذي من طريق عبد الرزاق عن معمر، عن ثابت، بإسناده نحوه وجرى إيراده كما بسطنا ذلك في التفسير .

وقد أورد محمد بن إسحاق هذه القصة على وجه آخر ، فقال : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب، وحدثني أيضاً بعض أهل نجران عن أهلها : أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان، وكان في قريه من قراها قريباً من نجران ، ونجران هي القرية العظمى التي إليها جماع أهل تلك البلاد ، ساحر يعلّم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزلها فيمون ولم يسموه لي بالاسم الذي سماه ابن منبه، قالوا : رجل نزلها فابتني خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحر، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر، فبعث التامر ابنه عبد الله بن التامر مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يري من عبادته وصلاته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم، فوحد الله وعبده، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه فكتمه إياه، وقال له : يابن أخي إنك لن تحمله، أخشي ضعفك عنه، والتامر لا يظن إلا أن ابنه عبد الله يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه، وتخوف ضعفه فيه، عمد إلى قداح فجمعها،ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه في قدح، لكل اسم قدح، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً . ثم جعل يقذفها قدحاً قدحاً، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه، فوثب القدح حتى خرج منها لن تضره شيئا فأخذه ، ثم أتي به صاحبه ، فأخبره أنه قد علم

---

(١) قرقرة : الأرض المطمئنة اللينة .

(٢) رواه مسلم (٣٠٠٥/٧٣) .

الاسم الأعظم الذي قد كتمه، فقال : وماهو؟ قال : كذا وكذا، قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بماصنع، قال: أي ابن أخي قد أصبته، فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل. فجعل عبد الله ابن التامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال : يا عبدالله أتوحد الله وتدخل في ديني وأدعو الله لك فيعافيك عما أنت فيه من البلاء ؟، ودعا له فعوفي حتى رفع شأنه إلى ملك نجران فدعاه فقال: أفسدت عليَّ أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثلن بك ، قال : لا تقدر على ذلك فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ما به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يلقي فيها شيء إلا هلك ، فيلقي به فيها فيخرج ليس به بأس. فلما غلبه ، قال له عبد الله بن التامر : والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به، فإنك إن فعلت سلطت عليّ فقتلتني. قال : فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله بن التامر . ثم ضربه بعصاً في يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله، وهلك الملك مكانه، واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر. وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحكمه ، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحزاب، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران[1].

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل نجران عن عبد الله بن التامر فالله أعلم أي ذلك كان . قال : فسار إليهم ذو نواس بجنده فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل فخدّوا الأخدود ، وحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم، فقتل منهم قريباً من عشرين ألفاً ففي ذي نواس وجنده أنزل الله على رسوله : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ**﴾ [البروج:٤،٥] الآيات. وهذا يقتضي أن هذه القصة غير ما وقع في سياق مسلم، وقد زعم بعضهم أن الأخدود وقع في العالم كثيراً ، كما قال ابن أبي حاتم. حدثنا أبي، حدثنا أبي اليمان، أنبأنا صفوان عن عبد الرحمن بن جبير قال : كانت الأخدود في اليمن زمان تُبّع، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، واتخذ أتونا وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفي العراق في أرض بابل في زمان بختنصر حين صنع الصنم، وأمر الناس فسجدوا له فامتنع دانيال وصاحباه عزريا ومشايل، فأوقد لهم أتوناً [2] وألقي فيها الحطب والنار، ثم ألقاهما فيه،فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً وأنقذهم منها، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط فأكلتهم النار. وقال أسباط عن السدي في قوله : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ**﴾ : قال : كان الأخدود ثلاثة: خد بالشام. وخد بالعراق . وخد باليمن . رواه ابن أبي حاتم. وقد استقصيت ذكر أصحاب الأخدود والكلام على تفسيرها في سورة البروج ولله الحمد والمنة.

---

(١) **ضعيف**: لإرساله ولجهالة أهل نجران .

(٢) الأتون : ما يقام من الحجارة فتوقد فيه النار حتى تصير الحجارة - كَلْساً - لون الغبرة يميل إلى السواد .

بيان الإذن في الرواية عن أخبار بني إسرائيل

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد، حدثنا همام ، حدثنا زيد عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال : قال : « حدثوا عني ولا تكذبوا عليَّ ومن كذب عليّ متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » [١]. وقال أيضاً : حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال : قال : « لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه » [٢] وقال : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، حدثوا عني ولا تكذبوا عليّ » قال : « ومن كذب عليّ » . قال همام : أحسبه قال : « متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » [٣] وهكذا رواه مسلم والنسائي من حديث همام ورواه أبو عوانة الإسفراييني عن أبي داود السجستاني، عن هدبة، عن همام، عن زيد بن أسلم به، ثم قال : قال أبو داود أخطأ فيه همام، وهو من قول أبي سعيد كذا قال، وقد رواه الترمذي عن سفيان، عن وكيع، عن سفيان بن عيينة، عن زيد بن أسلم ببعضه مرفوعاً فالله أعلم.

قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم، أنبأنا الأوزاعي، حدثنا حسان بن عطية، حدثني أبو كبشة السلولي أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ -يعني- يقول : " بلغوا عني ولو آية وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[٤]. ورواه أحمد أيضا عن عبد الله بن نمير وعبد الرزاق كلاهما عن الأوزاعي به [٥]. وهكذا رواه البخاري عن أبي عاصم النبيل عن الأوزاعي به، وكذا رواه الترمذي عن بندار، عن أبي عاصم، ثم رواه عن محمد بن يحيى الذهلي، عن محمد بن يوسف العرياني، عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن حسان بن عطية. وقال : حسن صحيح.

وقال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثني أبو موسى، حدثنا هشام بن معاوية، حدثنا أبي عن قتادة، عن أبي حسان عن عبدالله بن عمرو، وقال : كان نبي الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بني إسرائيل حتى نصبح ما نقوم فيها إلا لمعظم صلاة، ورواه أبو داود عن محمد بن مثنى ثم قال البزار : حدثنا محمد ابن مثنى ، حدثنا عفان ، حدثنا أبو هلال عن قتادة ، عن أبي حسان ، عن عمران بن حصين قال : كان رسول الله ﷺ يحدثنا عامة ليله عن بني إسرائيل لا يقوم إلا لمعظم صلاة [٦] قال البزار وهشام : احفظ من أبي هلال يعني أن الصواب عن عبد الله بن عمرو، لا عن عمران بن حصين والله أعلم .

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٤٦/٣) .

(٢) رواه أحمد (١١٥٣٦) .

(٣) رواه مسلم (٧٢/٣٠٠٤) وأحمد (٥٦/٣) .

(٤) صحيح : رواه أحمد (١٥٩/٢) .

(٥) رواه البخارى (٣٤٦١) .

(٦) صحيح : رواه أحمد (٤٣٧/٤) وأبو داود (٣٦٦٣) والصواب أنه من حديث عبد الله بن عمرو، وليس عن عمران بن حصين كما قال البزار والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى هو القطان، عن محمد بن عمرو، وحدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال :« حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » . [١] إسناد صحيح و لم يخرجوه. وقال الحافظ أبو يعلي : حدثنا أبوخيثمة، حدثنا وكيع، حدثنا ربيع بن سعد الجعفي ، عن عبدالرحمن بن سابط، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « حدثوا عن بني إسرائيل فإنه قد كان فيهم الأعاجيب » . ثم أنشأ يحدّث ﷺ قال : « خرجتْ طائفة من بني إسرائيل ، حتى أتوا مقبرة من مقابرهم ، فقالوا : لو صلينا ركعتين ودعونا الله عزّ وجلّ فيخرج لنا رجلاً قد مات نسائله يحدثنا عن الموت، ففعلوا فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك القبور بين عينيه أثر السجود . فقال: يا هؤلاء ما أردتم إليّ فقد مت منذ مائة عام ، فما سكنت عني حرارة الموت حتى الآن ؟ فادعوا الله أن يعيدني كما كنت» [٢]، وهذا حديث غريب إذا تقرر جواز الرواية عنهم، فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً، فأما ما يعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذي بأيدينا عن المعصوم، فذاك متروك مردود لا يعرج عليه، ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته أن تعتقد صحته لما رواه البخاري قائلاً، حدثنا محمد بن يسار، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا على بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهلَ الكتابِ ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » [٣] تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وروي الإمام أحمد من طريق الزهري عن أبي نملة الأنصاري، عن أبيه أنه كان جالساً عند رسول الله ﷺ فقال : إذ جاء رجلُ من اليهود فقال : يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ :« الله أعلم» . فقال اليهودي : أنا أشهد أنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان حقاً لم تكذبوهم وإن كان باطلاً لم تصدقوهم » [٤] تفرد به أحمد . وقال الإمام أحمد : حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشيم ، أنبأنا مجالد عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب وقال : « أمتهوكون[٥] فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي به لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٢/٤٧٤) .

(٢) ضعيف : فى سنده الربيع بن سعد الجعفى ، قال الذهبى : لا يكاد يعرف . " الميزان " (٢/٢٧٣٧) .

(٣) رواه البخارى (٧٣٦٢) .

(٤) ضعيف : رواه أحمد (٤/١٣٧) وأبو داود (٣٦٤٤) وفى سنده ابن أبى نملة وهو مقبول كما فى "التقريب" (٢/٣٠٧) .

(٥) أمتهوكون : متهورون .

فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي به لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » [١]
تفرد به أحمد وإسناده على شرط مسلم.

فهذه الأحاديث دليلُ على أهم قد بدلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية ، وحرفوها وأوّلوها ووضعوها على غير مواضعها، ولا سيما ما يبدونه من المعربات التي لم يحيطوا بها علماء، وهي بلغتهم فكيف يعبرون عنها بغيرها؟ ولأجل هذا وقع في تعريبهم خطأ كبير، ووهم كثير، مع ما لهم من المقاصد الفاسدة والآراء الباردة، وهذا يتحققه من نظر في كتبهم التي بأيديهم، وتأمل ما فيها من سوء التعبير، وقبيح التبديل والتغيير، وبالله المستعان وهو نعم المولي ونعم النصير . وهذه التوراة التي يبدونها ويخفون منها كثيراً فيما ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير، يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه، وما أبدوه وما أخفوه، وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب، باطلة من حيث معناها وألفاظها. وهذا كعب الأحبار من أجود من ينقل عنهم، وقد أسلم في زمن عمر، وكان ينقل شيئاً عن أهل الكتاب، فكان عمر رضي الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق، وتأليفا لقلبه فتوسع كثير من الناس في أخذ ما عنده، وبالغ أيضاً هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها ما يساوي مداده. ومنها ما هو باطل لا محالة. ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذي بأيدينا.

وقد قال البخاري: وقال أبو اليمان : حدثنا شعيب عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدّث رهطاً من قريش بالمدينة. وذُكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب[٢]، يعني من غير قصد منه.

وروى البخاري من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على رسوله أصدق الكتب بالله ، تقرأونه محضا لم يُشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا الا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟، لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم [٣] .

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل والله أعلم .

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٣٨٧/٣) .
(٢) رواه البخارى (٧٣٦١) .
(٣) رواه البخارى (٧٣٦٣) .

قصّة جريج أحد عُبّاد بني إسرائيل

قال الإمام أحمد : حدثنا وهب بن جرير ، حدثني أبي ، سمعت محمد بن سيرين يحدث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ، عيسى ابن مريم قال : وكان في بني إسرائيل رجل عابد يقال له : جريج، فابتني صومعة وتعبد فيها ، قال : فذكر بنو إسرائيل عبادة جريج، فقالت بغي منهم : لئن شئتم لأفتننه، قالوا : قد شئنا ذاك ، . قال : فأتته فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأمكنت نفسها من راع كان يؤوي غنمه إلى أصل صومعة جريج ، فحملت فولدت غلاماً . فقالوا : ممن ؟ قالت : من جريج ، فأتوه فاستنزلوه فشتموه وضربوه وهدموا صومعته، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : إنك زنيت بهذه البغى فولدت غلاماً . فقال : وأين هو ؟ قالوا : هو هذا . قال : فقام فصلّى ودعا . ثم انصرف إلى الغلام فطعنه بإصبعه فقال : بالله يا غلام من أبوك ؟ فقال : أنا ابن الراعي، فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبلونه. وقالوا : نبني صومعتك من ذهب . قال: لا حاجة لي في ذلك ابنوها من طين كما كانت. قال : وبينما امرأة في حجرها ابن لها ترضعه إذ مر بها راكب ذو شارة فقالت : اللهم اجعل ابني مثل هذا. قال : فترك ثديها وأقبل على الراكب، فقال : اللهم لا تجعلني مثله،قال : ثم عاد إلى ثديها فمصه. قال أبوهريرة : فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي صنيع الصبي ووضع إصبعه في فيه يمصها. ثم مرت بأمة تضرب فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلها. قال : فترك ثديها ، وأقبل على الأمَة . فقال : اللهم اجعلني مثلها، قال : فذاك حين تراجعا الحديث. فقالت: خلفي مرَّ الراكب ذو الشارة . فقلت : اللهم اجعل ابني مثله، فقلت : اللهم لا تجعلني مثله ومررت بهذه الأمَة فقلت : اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت : اللهم اجعلني مثلها، فقال : يا أمتاه إن الراكب ذو الشارة جبار من الجبابرة، وإن هذه الأمة يقولون : زنت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق. وهي تقول حسبي الله »[1]. وهكذا رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، وفي المظالم عن مسلم بن إبراهيم، ومسلم في كتاب الأدب عن زهير بن حرب ، عن يزيد بن هارون كلاهما عن جرير بن حازم به طريق أخرى . وسياق آخر .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد بن هلال ، عن أبي رافع، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كان جريج يتعبد في صومعته قال : فأتته أُمّه . فقالت : يا جريج أنا أمك وكلمني » . قال : وكان أبو هريرة يصف كيف كان رسول الله ﷺ وضع يده على حاجبه الأيمن قال : «وصادفته يصلي . قال : يارب أمي وصلاتي فاختار صلاته ، فرجعت أمه ثم أتته فصادفته: فقالت: يا جريج أنا أمك فكلمنى ، فقال : يا رب أمي وصلاتى فاختار صلاته ، فقالت : اللهم هذا جريج وإنه ابني وإني كلمته فأبي أن يكلمني ، اللهم فلا تمته حتى تريه المومِسَاتِ. ولو دعت عليه أن يفتتن لافتتن » قال : « وكان راع يأوي إلى ديره فخرجت امرأة فوقع عليها الراعي. فولدت غلاماً، فقيل : ممن هذا ؟. فقالت : هو من صاحب الدير، فأقبلوا بفؤوسهم

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٣٦) ومسلم (٨/٢٥٥٠) .

ومساحيهم وأقبلوا إلى الدير فنادوه فلم يكلمهم، فأقبلوا يهدمون ديره، فنــزل إليهم فقالوا : سل هذه المرأة » قال : « أراه تبسم » ، قال : « ثم مسح رأس الصبي . فقال : من أبوك ؟. قال : راعي الضأن، قالوا: يا جريج نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة ؟. قال: « لا ولكن أعيدوه كما كان ». ففعلوا [1]. ورواه مسلم في الاستيذان عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة به سياق آخر:
قال الإمام أحمد : حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنبأنا ثابت عن أبي رافع، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل رجل يقال له : جريج كان يتعبد في صومعته ، فأتته أمه ذات يوم فنادته ، فقالت : أي جريج أي بُنَيَّ أشرف أكلمك، أنا أمك ، أشرف عليَّ فقال : أي ربي صلاتي وأمي ، فأقبل على صلاته، ثم عادت فنادته مراراً . فقالت : أي جريج أي بني أشرف عليَّ فقال : أي رب صلاتي وأمي فأقبل على صلاته ، فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه المومسة، وكانت راعية ترعي غنما لأهلها، ثم تأوي إلى ظل صومعته فأصابت فاحشة فحملت فأخذت. وكان من زنى منهم قتل، فقالوا: ممن ؟. قالت : من جريج صاحب الصومعة. فجاءوا بالفؤوس والمساحى فقالوا : أي جريج أي مُرَائِي انزل، فأبي وأقبل على صلاته يصلي، فأخذوا في هدم صومعته فلما رأى ذلك نزل ، فجعلوا في عنقه وعنقها حبلاً، فجعلوا يطوفون بهما في الناس، فوضع أصبعه على بطنها. فقال: أي غلام من أبوك ؟. فقال: أبي فلان راعي الضأن، فقبلوه وقالوا: إن شئت بنينا صومعتك من ذهب وفضة، قال: أعيدوها كما كانت »[2]. وهذا سياق غريب وإسناده على شرط مسلم، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه.

فهؤلاء ثلاثة تكلّموا في المهد : عيسى ابن مريم عليه السلام وقد تقدم الكلام على قصته . وصاحب جريج ابن البغي من الراعي كما سمعت واسمه يابوس، كما ورد مصرحا به في صحيح البخاري . والثالث : ابن المرأة التي كانت ترضعه، فتمنت له أن يكون كصاحب الشارة الحسنة، فتنمي أن يكون كتلك الأمة المتهومة بما هي بريئة منه، وهي تقول : حسبي الله ونعم الوكيل كما تقدم في رواية محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعا. وقد رواه الإمام أحمد عن هوذة، عن عوف الأعرابي، عن خلاس، عن أبي هريرة [3] عن النبي ﷺ بقصة هذا الغلام الرضيع وهو إسناد حسن.

وقال البخاري : حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب،حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن الأعرج،حدثه أنه سمع أبا هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « بينما امرأة ترضع ابنها إذ مر بها راكب وهي ترضعه فقالت : اللهم لا تمت ابني حتى يكون مثل هذا، فقال : اللهم لا تجعلني مثله. ثم رجع في الثدي ومر بامرأة تُجَرُّ وَيُلْعَبث بِهَا، فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه. فقال : اللهم اجعلني مثلها، فقال : أما الراكب فإنه كافر. وأما المرأة فإنهم يقولون : إنها تزني وتقول : حسبي اللّه، ويقولون : تسرق .

(١) رواه مسلم (٧/٢٥٥٠) .
(٢) صحيح : رواه أحمد (٢/٣٨٥) .
(٣) حسن : رواه أحمد (٢/٣٩٥) .

وتقول : حسبي الله » [١]. وقد ورد في من تكلم في المهد أيضا شاهد يوسف، كما تقدم، وابن ماشطة آل فرعون والله أعلم.

قصّة برصيصا

وهي عكس قضية جريج، فإن جريجاً عُصم وذلك فتن. قال ابن جرير : حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي، أنبأنا أبي، عن أبيه، عن جده، عن الأعمش ، عن عمارة، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية:﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر : ١٦ ، ١٧]. قال ابن مسعود : وكانت امرأة ترعي الغنم، وكان لها إخوة أربعة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب، قال : فنـــزل الراهب ففجر بها، فحملت فأتاه الشيطان، فقال له : اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل تُصدق ويُسمع قولك فقتلها، ثم دفنها، قال : فأتي الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها، ثم دفنها في مكان كذا وكذا. فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا بل قصها علينا، قال : فقصها فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الآخر : وأنا والله قد رأيت ذلك. قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء، فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه. ثم انطلقوا به، فأتاه الشيطان فقال : إنى أنا أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه قال : فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه، وأُخِذَ فَقُتِلَ. وهكذا روى عن ابن عباس وطاووس ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقد روى عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب – رضي الله عنه – بسياق آخر . فقال ابن جرير : حدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا النضر بن شميل، أنبأنا شعبة عن أبي إسحاق، سمعت عبيدالله بن نهيك، سمعت علياً يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة فقال : لإخوتها عليكم بهذا القس فيداويها قال : فجاءوا بها إليه فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته، فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك إنك أعنتني، أنا صنعت هذا بك، فأطعني أنجك مما صنعت بك ، اسجد لي سجدة، فسجد له قال : إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر : ١٦] .

---

(١) رواه البخارى (٣٤٦٦) .

قصّة الثلاثة الذين أووا إلى الغار فانطبق عليهم

فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ففرج عنهم . قال الإمام البخاري : حدثنا إسماعيل ابن خليل ، أخبرنا على بن مسهر، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر : أنّ رسول الله ﷺ قال : « بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فآووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق. فليدع كل رجل منكم بما يعلم إنه قد صدق فيه، فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق من [1] أرز ، فذهب وتركه ، وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً، وأنه أتاني يطلب أجره فقلت : اعمد إلى تلك البقرة فسقها ، فقال لي : إنما لي عندك فرق من أرز، فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق، فساقها ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنا فانساخت عنهم الصخرة. فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي ، فأبطأت عنهما ليلة ، فجئت وقد رقدا، وأهلي وعيالي يتضاغون [2]من الجوع، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء. فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة عم من أحبّ الناس إلَيّ، وأني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرت، فأتيتها بها فدفعتها إليها ، فأمكنتني من نفسها فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلابحقه ، فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا » [3]، رواه مسلم عن سويد بن سعيد، عن على بن مسهر به. وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن مروان بن معاوية، عن عمرو ابن حمزة بن عبد الله بن عمر، عن سالم، عن أبيه، عن النبى ﷺ بنحوه. ورواه الإمام أحمد من حديث وهب بن منبه، عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ بنحوٍ من هذا السياق وفيه زيادات ورواه البزار من طريق أبي إسحاق عن رجل من بجيلة عن النعمان بن بشير مرفوعاً مثله، ورواه البزار في مسنده من حديث أبي حنش،عن على بن أبي طالب عن النبي ﷺ بنحوه.

خبرُ الثلاثة الأعمى ، والأبرص ، والأقرع

روى البخاري ومسلم من غير وجه عن همام بن يحيى، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة، أن أبا هريرة حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأعمي وأقرع بدا لله أن يبتليهم فبعث الله إليهم ملكاً فأتي الأبرص فقال له :

---

(١) فرق : مكيال بالمدينة يسع ثلاثة آصع .

(٢) يتضاغون : يصيحون ويصرخون .

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٣/١٠٠) .

أي شيء أحب إليك ؟ . فقال : لون حسن وجلد حسن قد قذرني الناس، قال : فمسحه فذهب عنه فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسنا. فقال : أي المال أحب إليك ؟ . قال: الإبل أو قال البقر – هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع . قال أحدهما : الإبل . وقال الآخر : البقر – فأعطي ناقة عشراء فقال : يبارك لك فيها. قال : وأتي الأقرع . فقال له : أي المال أحب إليك ؟ . قال : شعر حسن ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس ، فمسحه فذهب وأعطي شعراً حسناً. قال :فأى المال أحب إليك ؟ . قال: البقر، فأعطاه بقرة حاملاً . وقال : يبارك لك فيها. قال : وأتي الأعمى . فقال: أي شيء أحب إليك ؟ . قال : يرد الله إليّ بصري. فأبصر به الناس، قال : فمسحه فردّ الله إليه بصره، قال : فأي المال أحب إليك ؟ . قال : الغنم، فأعطاه شاة والداً فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم. ثم إنه أتي الأبرص في صورته وهيئته، فقال : رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ [1] عليه في سفري، فقال له : إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله عزّ وجلّ ؟ فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال : إن كنت كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنت. وأتي الأقرع في صورته وهيئته . فقال له : مثل ما قال لهذا ، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت. وأتي الأعمي في صورته فقال رجل مسكين وابن سبيل ، وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك : أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري فقال : قد كنت أعمي فردّ الله إليّ بصري، وفقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزّ وجلّ ، فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك» [2]. **هذا لفظ** البخاري في أحاديث بني إسرائيل.

حديث الذي استلف من صاحبه ألف دينار فأداها

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن محمد، حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن ابن هرمز عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺأنه ذكر : " أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال : ائتني بشهداء أشهدهم، قال : كفي بالله شهيداً، قال: ائتني بكفيل، قال : كفي بالله كفيلاً ، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى. فخرج في البحر فقضي حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجّله، فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ثم زجج [3] موضعها، ثم أتي بها البحر. ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت : كفي بالله كفيلا فرضي بذلك، وسألني شهيداً : فقلت : كفي بالله شهيداً فرضي بذلك ، وإني قد جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً،

---

(١) أتبلَغُ : أجهد .

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٦٤) ومسلم (٢٩٦٤/١٠) .

(٣) زجج الموضع : دققه وطوّله .

وأني استودعتكها فرمي بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه، فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلى بشيء؟ قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركبا قبل.هذا الذي جئت فيه ؟ ، قال : فإن الله أدي عنك الذي بعثت به الخشبة فانصرف بألفك راشداً هكذا " [1] رواه الإمام أحمد مسنداً، وقد علقه البخاري في غير موضع من صحيحه بصيغة الجزم عن الليث بن سعد، وأسنده في بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه، والعجب من الحافظ أبي بكر البزار كيف رواه في مسنده عن الحسن بن مدرك عن يحيى بن حماد، عن أبي عوانة، عن عمر بن سلمة، عن أبيه عن أبي هريرة عن النبيﷺ بنحوه. ثم قال : لا يروى إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد .

قصّة أخرى شبيهة بهذه القصّة في الصّدق والأمانة

قال البخاري : حدثنا إسحاق بن نصر ، . أخبرنا عبد الرزاق عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :«شترى رجلُ من رجلٍ عقاراً له ، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال له : الذي اشتري العقار خذ ذهبك مني إنما اشتريت منك الأرض : ولم أبتع منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها فتحاكما إلى رجلٍ فقال: الذي تحاكما إليه ألكما ولد ؟ . قال أحدهما : لي غلام، وقال الآخر: لي جارية. قال : أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه، وتصدقا »[2]. هكذا روى البخاري هذا الحديث في أخبار بني إسرائيل وأخرجه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به. وقد روى أن هذه القصة وقعت في زمن ذي القرنين. وقد كان قبل بني إسرائيل بدهور متطاولة والله أعلم..

قال إسحاق بن بشر في كتابه المبتدأ عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة، عن الحسن : إنّ ذا القرنين كان يتفقد أمور ملوكه وعماله بنفسه، وكان لا يطلع على أحد منهم خيانة إلا أنكر ذلك عليه، وكان لا يقبل ذلك حتى يطّلع هو بنفسه. قال : فبينما هو يسير متنكراً في بعض المدائن، فجلس إلى قاضٍ من قضاهم أياماً لا يختلف إليه أحد في خصومة، فلما أن طال ذلك بذي القرنين ، و لم يطّلع على شيء من أمر ذلك القاضي، وهمّ بالانصراف ، إذا هو برجلين قد اختصما إليه، فادّعى أحدهما فقال : أيها القاضي إني اشتريت من هذا داراً عمرها ووجدت فيها كنـــزاً، وإني دعوته إلى أخذه فأبي عليّ، فقال له القاضي : ما تقول ؟ قال : ما دفنت وما علمت به، فليس هو لي ولا أقبضه منه، قال المدعي : أيها القاضي مر من يقبضه فتضعه حيث

---

(١) رواه البخارى (١٤٩٨) وأحمد (٢ /٣٤٨) .

(٢)متفق عليه :رواه البخارى (٣٤٧٢) ومسلم (٢١/١٧٢١) .

أحببت، فقال القاضي : تفر من الشر وتدخلني فيه ما أنصفتني وما أظن هذا في قضاء الملك. فقال القاضي : هل لكما أمراً نصف مما دعوتماني إليه ؟. ، قالا: نعم. قال للمدعي : ألك ابن؟. قال :نعم ، وقال للآخر : ألك ابنة ؟ . قال : نعم. قال : اذهبا فزوج ابنتك من ابن هذا وجهزهما من هذا المال، وادفعا فضل ما بقي إليهما يعيشان به فتكونا ملياً بخيره وشره. فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك، ثم قال للقاضي : ما ظننت أنّ في الأرض أحد يفعل مثل هذا، أو قاض يقضي بمثل هذا. فقال القاضي وهو لا يعرفه : وهل أحد يفعل غير هذا ؟ . قال ذو القرنين : نعم، قال القاضي : فهل يمطرون في بلادهم ؟ فعجب ذو القرنين من ذلك، وقال: بمثل هذا قامت السموات والأرض.

قصّةُ أخرى

قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن أبي عدي عن شعبة، عن قتادة، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : «كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل، فأتي راهبا فسأله فقال : هل من توبة ؟ . قال : لا ، فقتله فجعل يسأل فقال له رجل : إئتِ قرية كذا وكذا فأدركه الموت ، فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب،فأوحى الله إلى هذه أن تقربي،وأوحى إلى هذه أن تباعدي،وقال: قيسوا ما بينهما فوجِد إلى هذه أقرب بشبر،فغُفِر له ».[1] هكذا رواه ههنا مختصراً. وقد رواه مسلم عن بندار به، ومن حديث شعبةَ ومن وجه آخر عن قتادة به مطولاً .

حديث آخر

قال البخاري : حدثنا على بن عبد الله،حدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزناد عن الأعرج، عن أبي سلمة عن أبي هريرة، قال صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، ثم أقبل على الناس : فقال : « بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت : إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث. فقال : الناس سبحان الله بقرة تكلم فقال: فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ». [2] ثُمّ قال : « وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة ، فطلب حتى كأنه استنقذها منه ، فقال له الذئب : هذا استنقذها مني فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري ، فقال الناس : سبحان الله!! ذئب يتكلم قال : فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما »[3]. ثم قال : وحدثنا على قال : حدثنا سفيان عن مسعر، عن سعد بن على بن المديني، ومسلم عن محمد بن عباد كلاهما عن سفيان بن عيينة،

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٧٠) ومسلم (٤٧/٢٧٦٦) .
(٢) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٧١) ومسلم (١٣/٢٣٨٨) .
(٣) متفق عليه : رواه البخارى (٣٦٦٣) ومسلم (١٣/٢٣٨٨) .

وأخرجاه من طريق شعبة كلاهما عن مسعر به. وقال الترمذي حسن صحيح، وأخرج مسلم الطريق الأول من حديث سفيان بن عيينة، وسفيان الثوري كلاهما عن أبي الزناد.

حديث آخر

قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله،حدثنا إبراهيم عن سعد عن أبيه، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال : « **إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدَّثون وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب** » [١] لم يخرجه مسلم من هذا الوجه وقد روى عن إبراهيم ابن سعد، عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها [٢] .

حديثٌ آخر

قال البخاري : حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك، عن ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن ، أنه سمع معاوية بن سفيان عام حج على المنبر، فتناول قُصة من شعر كانت في يدي حَرَسِيٍّ فقال : يا أهل المدينة أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه، ويقول: « **إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم** »[٣] . وهكذا رواه مسلم وأبو داود من حديث مالك، وكذا رواه معمر ويونس وسفيان بن عيينة عن الزهري بنحوه. وقال الترمذي: حديث صحيح. وقال البخاري : حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا عمرو بن مرة . قال : سمعت سعيد ابن المسيب قال : قدم معاوية بن أبي سفيان المدينة آخر قدمة قدمها، فخطبنا فأخرج من كمه كبة شعر وقال : ما كنت أرى أحداً يفعل هذا غير اليهود . إن النبي ﷺ سماه الزور يعني الوصال في الشعر [٤]، تابعه غندر عن شعبة، والعجب أن مسلماً رواه من غير وجه عن غندر، عن شعبة، ومن حديث قتادة عن سعيد بن المسيب به.

حديث آخر

قال البخاري : حدثنا سعيد بن تليد، حدثنا ابن وهب قال : أخبرني جرير بن حازم عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة : قال : قال رسول الله ﷺ : «**بينما كلب يطيف بركية** [٥] **كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنــزعت مَوْقَها** [٦] **فسقته فغفر لها به** »[٧] ورواه مسلم عن أبي الطاهر بن السرح عن ابن وهب به

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٩) .
(٢) رواه مسلم (٢٣٩٨/٢٣) .
(٣) متفق عليه : رواه البخاري (٣٤٦٨) ومسلم (٢١٢٧/١٢٢) .
(٤) متفق عليه : رواه البخاري (٥٩٣٨) ومسلم (٢١٢٧/١٢٣) .
(٥) الركية : البئر .
(٦) موقها : خفٌّ غليظ يُلْبس فوق الخفّ .
(٧) متفق عليه : رواه البخاري (٣٤٦٧) ومسلم (٢٢٤٥/١٥٥) .

حديثٌ آخر

قال البخاري : حدثنا عبد الله بن أسماء، حدثنا جويرية عن نافع، عن عبدالله بن عمر. أن رسول الله ﷺقال : « عُذّبت امرأةٌ في هرةٍ سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، فلا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » [١]. وكذا رواه مسلم عن عبد الله بن محمد بن أسماء به .

حديثٌ آخر

قال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا المستمر بن الريان، حدثنا أبو نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺقال : « كان في بني إسرائيل امرأة قصيرة، فصنعت رجلين من خشب، فكانت تمشي بين امرأتين قصيرتين، واتخذت خاتماً من ذهب ، وحشت تحت فصه أطيب الطيب والمسك، فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفخ ريحه» [٢] رواه مسلم من حديث المستمر ، وخليد بن جعفر كلاهما عن أبي نضرة، عن أبي سعيد مرفوعاً قريباً منه. وقال الترمذي : حديث صحيح .

حديثٌ آخر

قال البخاري : حدثنا آدم، حدثنا شعبة عن منصور، سمعت ربعي بن حراش يحدث عن ابن مسعود قال : قال النبي ﷺ: « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت» [٣] تفرد به البخاري دون مسلم، وقد رواه بعضهم عن ربعي بن حراش، عن حذيفة مرفوعا وموقوفاً أيضاً. والله أعلم .

حديثٌ آخر

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا عبد الحميد يعني بن بهرام، حدثنا شهر ابن حوشب قال : قال أبو هريرة : قال : قال رسول الله ﷺ: « بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء ، فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته سغبة [٤]شديدة ، فقال لامرأته : عندك شيء ؟ . قالت : نعم أبشر أتاك رزق الله فاستحثها فقال : ويحك ابتغي إن كان عندك شيء ؟ . قالت : نعم هنيئة نرجو رحمة الله، حتى إذا طال عليه المطال، قال : ويحك قومي فابتغي إن كان عندك شيء فأتيني به ، فإني قد بلغت الجهد وجهدت. فقالت : نعم الآن ينضج التنور فلا تعجل، فلما أن سكت عنها ساعة وتحينت أيضاً أن أقول لها قالت : من عند نفسها لو قمت فنظرت إلى تنوري،

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٨٢) ومسلم (٢٢٤٢/١٥١) .

(٢) رواه مسلم (٢٢٥٢/١٨) .

(٣) رواه البخارى (٣٤٨٤) .

(٤) السغبة : الجوع مع التعب .

فقامت فوجدت تنورها ملآن من جنوب الغنم، ورحاها تطحن، فقامت إلى الرحى فنفضتها واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم » قال أبو هريرة : فو الذي نفس أبي القاسم بيده عن قول محمدﷺ لو أخذت ما في رحيبها و لم تنفضها لطحنت إلى يوم القيامة [(١)]. وقال أحمد : حدثنا أبو عامر، حدثنا أبو بكر عن هشام، عن محمد، عن أبي هريرة . قال : دخل رجلٌ على أهله فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأت امرأته ما لقي قامت إلى الرحى فوضعتها، وإلى التنور فسجرته [(٢)]، ثم قالت : اللهم ارزقنا، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً. قال : فرجع الزوج . قال : أصبتم بعد شيئا ؟ . قالت امرأته : نعم من ربنا، فرفعتها إلى الرحى، ثم قامت فذكر ذلك للنبيﷺ قال : «أما أنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة » قال شهدت النبيﷺ وهو يقول : «والله لأن يأتي أحدكم بحزمة حطب . ثم يحمله فيبيعه فيستعفف منه خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله » [(٣)].

قِصّة الملكين التائبين

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا المسعودي ، عن سماك بن حرب، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، قال : بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته فتفكّر فعلم أن ذلك منقطع عنه ، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه، فانساب ذات ليلة من قصره وأصبح في مملكة غيره، وأتي ساحل البحر، فكان به يضرب اللبن بالأجر فيأكل ويتصدق بالفضل، و لم يزل كذلك حتى رقي أمره إلى ملكهم، فأرسل إليه فأبي أن يأتيه، فركب إليه الملك، فلما رآه ولّي هارباً، فركض في أثره فلم يدركه، فناداه يا عبد الله إنه ليس عليك مني بأس، فقام حتى أدركه، فقال له : من أنت رحمك الله ؟ . فقال : أنا فلان بن فلان صاحب مملكة كذا وكذا، ففكرت في أمري فعلمت إنما أنا فيه منقطع، وأنه قد شغلني عن عبادة ربي عزّ وجلّ ، فتركته وجئت ههنا أعبد ربي، فقال له : ما أنت بأحوج لما صنعت مني، قال : فنــزل عن دابته فسيبها وتبعه فكانا جميعاً يعبدان الله عزّ وجلّ ، فدعوا الله أن يميتهما جميعاً فماتا. قال عبد الله: فلو كنت برملية مصر لأريتكم قبورهما بالنعت الذي نعت لنا رسول اللهﷺ [(٤)].

حديثٌ آخر

قال البخاري : حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عوانة عن قتادة، عن عقبة بن عبد الغافر، عن أبي سعيد، عن النبيﷺ «إن رجلا كان قبلكم رغسه [(٥)] الله مالاً فقال لبنيه لما حضر : أي أب كنت

(١) حسن رواه أحمد (٢ / ٤٢١) .
(٢) سجرته : أضرمته وأجّجته .
(٣) صحيح : رواه أحمد (٢ / ٥١٣) .
(٤) ضعيف : رواه أحمد (١ / ٤٥١) وفى سنده المسعودى وكان قد اختلط والراوى عنه هو يزيد بن هارون وقد روى عنه بعد الاختلاط .
(٥) الرغس : النعمة والخير : وأرغسه الله مالاً : أكثر له وبارك فيه .

لكم ؟ . قالوا : خير أب، قال : **فإني لم أعمل خيراً قط فإذا مت فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم أذروني في يوم عاصف. ففعلوا فجمعه الله عز وجل فقال : ما حملك؟ فقال: مخافتك، فتلقاه برحمته »** [١] ورواه في مواضع أخر، ومسلم من طرق عن قتادة به. ثم رواه البخاري ومسلم من حديث ربعي بن حراش عن حذيفة، عن النبيﷺ بنحوه [٢]، ومن حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه [٣].

حديثٌ آخر

قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا ابراهيم بن سعد عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، قال : فلقى الله فتجاوز عنه»**[٤] وقد رواه في مواضع أخر ومسلم من طريق الزهري به .

حديثٌ آخر

قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثني مالك عن محمد بن المنكدر عن أبي النضر مولي عمر بن عبيد الله، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة ابن زيد ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون ؟ قال أسامة : قال رسول الله ﷺ : **"الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل وعلي من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه»**[٥]. قال أبو النضر : لا يخرجكم إلا فراراً منه. ورواه مسلم من حديث مالك، ومن طرق أخر عن عامر بن سعد به: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داود بن أبي الفرات، حدثنا عبدالله بن بريدة عن يحيى بن يعمر، عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون أخبرني : « **أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء من عباده وأنّ الله جعله رحمة للمؤمنين ، ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، إلا كان له مثل أجر شهيد** » [٦] . تفرد به البخاري عن مسلم من هذا الوجه.

حديث آخر

قال البخاري : حدثنا قتيبة، حدثنا ليث عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسولالله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترئ

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٤٧٨) ومسلم (٢٧/٢٧٥٧) .
(٢) **متفق عليه** : رواه البخارى (٦٤٧٠) ومسلم (٢٦/١٥٦٠) .
(٣) رواه البخارى (٣٤٨١) .
(٤) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٤٨٠) ومسلم (٣١/١٥٦٢) .
(٥) **متفق عليه** : رواه البخارى (٣٤٧٣) ومسلم (٩٢/٢٢١٨) .
(٦) رواه البخازى (٣٤٤٧) .

عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟ » ثم قام فخطب، ثم قال : « إنما هلك الذين من قبلكم. أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » [(١)] .
وأخرجه بقية الجماعة من طرق عن الليث بن سعد به .

حديثٌ آخر

وقال البخاري : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة، حدثنا عبد الملك بن ميسرة سمعت النـــزال بن سبرة الهلالي عن ابن مسعود قال : سمعت رجلا قرأ، وسمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية وقال : كلاكما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » [(٢)]. تفرد به البخاري دون مسلم .

حديثٌ آخر

قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم عن صالح، عن ابن شهاب قال : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : إنّ أبا هريرة قال : إنّ رسول الله ﷺ قال : « إنّ اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم » [(٣)]. تفرد به دون مسلم، وفي سنن أبي داود « صَلُّوا في نعالكم، خالفوا اليهود . » [(٤)] .

حديثٌ آخر : « لعن الله اليهود »

قال البخاري : حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو، عن طاووس، عن ابن عباس سمعت عمر يقول : قاتل الله فلاناً ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها » [(٥)] رواه مسلم من حديث ابن عيينة. ومن حديث عمرو بن دينار به . ثم قال البخاري : تابعه جابر وأبو هريرة عن النبي ﷺ ولهذا الحديث طرق كثيرة وسيأتي في باب الحيل من كتاب الأحكام إن شاء الله وبه الثقة .

حديثٌ آخر : « أمر بلال أن يُشفع الأذان... »

قال البخاري : حدثنا عمران بن ميسرة، حدثنا عبد الوارث،حدثنا خالد عن أبي قلابة،عن أنس بن مالك قال : ذكروا النار والناقوس فذكروا اليهود والنصارى « فأمر بلالاً أن يشفع

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٧٥) ومسلم (١٦٨٨) .
(٢) رواه البخارى (٢٤١٠) .
(٣) رواه البخارى (٣٤٦٢) .
(٤) صحيح : رواه أبو داود (٦٥٢) عن شداد بن أوس رضى الله عنه .
(٥) متفق عليه : رواه البخارى (٣٤٦٠) ومسلم (٧٢/١٥٨٢) .

الأذان وأن يوتر الإقامة » (١) . وأخرجه بقية الجماعة من حديث أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي به. والمقصود من هذا مخالفة أهل الكتاب في جميع شعارهم فإن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة كان المسلمون يتحينون وقت الصلاة بغير دعوة إليها. ثم أمر من ينادي فيهم وقت الصلاة الصلاة الجامعة . ثم أرادوا أن يدعوا إليها بشيء يعرفه الناس، فقال قائلون : نضرب بالناقوس، وقال آخر : نوري ناراً، فكرهوا ذلك لمشابهة أهل الكتاب، فأرى عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري في منامه الأذان، فقصها على رسول الله ﷺ فأمر بلالاً فنادى كما هو مبسوط في موضعه من باب الأذان في كتاب الأحكام .

حديثٌ آخر

قال البخاري:حدثنا بشر بن محمد، أنبأنا عبد الله، أنبأنا معمر ويونس عن الزهري، أخبرني عبيد الله أن عائشة وابن عباس قالا: لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة (٢) على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (٣) يحذر ما صنعوا، وهكذا رواه في غير موضع، ومسلم من طرق عن الزهري به.

حديثٌ آخر

قال البخاري : حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا أبو غسان . قال : حدثني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه »، فقلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال النبي ﷺ : « فمن ؟» (٤) وهكذا رواه مسلم من حديث زيد بن أسلم به .

والمقصود من هذا الإخبار عما يقع من الأقوال والأفعال المنهي عنها شرعاً، مما يشابه أهل الكتاب قبلنا، أن الله ورسوله ينهيان عن مشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم حتى ولو كان قصد المؤمن خيراً، لكنه تشبه ففعله في الظاهر فعلهم، وكما نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لئلا تشابه المشركين الذين يسجدون للشمس حينئذ، وإن كان المؤمن لا يخطر بباله شيء من ذلك بالكلية، وهكذا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة : ١٠٤]. فكان الكفار يقولون للنبي ﷺ في كلامهم معه : راعنا أي انظر إلينا ببصرك، واسمع كلامنا. ويقصدون بقولهم راعنا من الرعونة، فنهي المؤمنين أن يقولوا ذلك، وإن كان لا يخطر ببال أحد منهم هذا أبداً.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٤٥٧) ومسلم (٢/٣٧٨) .

(٢) الخميصة : كساء أسود مربع .

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٤٥٣، ٣٤٥٤) ومسلم (٢٢/٥٣١) .

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٦/٢٦٦٩) .

فقد روى الإمام أحمد والترمذي من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بُعثتُ بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبدَ الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم، فليس للمسلم أن يتشبه بهم لا في أعيادهم، ولا مواسمهم، ولا في عباداتهم »، [1] لأن الله تعالى شرف هذه الأمة بخاتم الأنبياء الذي شرع له الدين العظيم القويم الشامل الكامل الذي لو كان موسى بن عمران الذي أنزلت عليه التوراة وعيسى ابن مريم الذي أنزل عليه الإنجيل حين لم يكن لهما شرع متبع، بل لو كانا موجودين، بل وكل الأنبياء لما ساغ لواحد منهم أن يكون على غير هذه الشريعة المطهّرة المشرّقة المكرّمة المعظّمة، فإذا كان الله تعالى قد من علينا بأن جعلنا من أتباع محمد ﷺ فكيف يليق بنا أن نتشبه بقوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل ؟ ، قد بدّلوا دينهم وحرّفوه وأوّلوه، حتى صار كأنه غير ما شرّع لهم أولا. ثم هو بعد ذلك كله منسوخ والتمسك بالمنسوخ حرام، لايقبل الله منه قليلاً ولا كثيراً ولا فرق بينه وبين الذي لم يشرع بالكلية والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

حديثٌ آخر

قال البخاري : حدثنا قتيبة، حدثنا الليث عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: **« إنما أجلكم في أجل من خلا من قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال : من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟، فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ، ثمّ قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ؟، ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى المغرب على قيراطين؟،ألا لكم الأجر مرتين ؟، فغضب اليهود والنصارى . فقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً »** قال الله تعالى: هل ظلمتكم من حقكم شيئا ؟، فقالوا : لا ، قال : فإنه فضلي أوتيه من أشاء . [2] وهذا الحديث فيه دليلٌ على أن مدة هذه الأمة قصيرة بالنسبة إلى ما مضى من مدد الأمم قبلها، لقوله ﷺ **« إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، فالماضي لا يعلمه إلا الله ، كما أن الآتي لا يعلمه إلاهو، ولكنه قصير بالنسبة إلى ما سبق ولا اطلاع لأحد على تحديد ما بقي إلا الله عزّ وجلّ »**. كما قال الله تعالى: **﴿ لا يُجَلِّيها لِوَقتِها إلاَّ هُو﴾** [الأعراف: ١٨٧] وقال : **﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾** [النازعات : ٤٢ -٤٤]. وما تذكره بعض الناس من الحديث المشهور عند العامة من أنه عليه السلام : لا يؤلف تحت الأرض ، فليس له أصل في كتب الحديث، وورد فيه حديث أن

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد (٢ / ٥٠ ، ٩٢) .

(٢) رواه البخارى (٣٤٥٩) .

الدنيا جمعة من جمع الآخرة ، وفي صحته نظر. والمراد من هذا التشبيه بالعمال تفاوت أجورهم، وأن ذلك ليس منوطاً بكثرة العمل وقلته بل بأمور أُخر معتبرة عند الله تعالى، وكم من عمل قليل أجدي مالا يجديه العمل الكثير، هذه ليلة القدر العمل فيها أفضل من عبادة ألف شهر سواها، وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ أنفقوا في أوقات لو أنفق غيرهم من الذهب مثل أحد ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه من تمر، وهذا رسول الله ﷺ بعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، وقبضه وهو ابن ثلاث وستين على المشهور، وقد برز في هذه المدة التي هي ثلاث وعشرون سنة في العلوم النافعة، والأعمال الصالحة على سائر الأنبياء قبله، حتى على نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ويعمل بطاعة الله ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين، فهذه الأمة إنما شرفت وتضاعف ثوابها ببركة سيادة نبيها وشرفه وعظمته، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد : ٢٨ ، ٢٩] .

فصل أخبار بني إسرائيل كثيرة جدا

وأخبار بني إسرائيل كثيرة جدا في الكتاب والسنة النبوية، ولو ذهبنا نتقصى ذلك لطال الكتاب ، ولكن ذكرنا ما ذكره الإمام أبو عبد الله البخاري في هذا الكتاب، ففيه مقنع وكفاية وهو تذكرة وأنموذج لهذا الباب والله أعلم.

وأما الأخبار الإسرائيلية فيما يذكره كثير من المفسرين والمؤرخين فكثيرة جدا، ومنها ما هو صحيح موافق لما وقع، وكثير منها بل أكثرها مما يذكره القصاص مكذوب مفترى، وضعه زنادقتهم وضلالهم، وهي ثلاثة أقسام : منها ما هو صحيح لموافقته ما قصه الله في كتابه أو أخبر به رسول الله ﷺ، ومنها ما هو معلوم البطلان لمخالفته كتاب الله وسنة ، رسوله ومنها ما يحتمل الصدق والكذب. فهذا الذي أمرنا بالتوقف فيه فلانصدقه ولا نكذبه، كما ثبت في الصحيح : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم،وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم »[1]. وتجوز روايته مع هذا الحديث المتقدم وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[2].

تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوارة على يدي موسى بن عمران عليه السلام، وكانت كما قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:

(١) رواه البخاري (٧٣٦٢) .

(٢) رواه مسلم (٣٠٠٤/٧٢) .

١٥٤] وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَذي جَاءَ به مُوسَى نُوراً وهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ [الأنعام:٩١] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وهَارُونَ الفُرْقَانَ وضِيَاءً وذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨] وقال تعالى : ﴿ وآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبِينَ . وهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى ونُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَذينَ أَسْلَمُوا لِلَّذينَ هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا من كِتَابِ اللَّهِ وكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ ولا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ومَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها برهة من الزمان، ثم شرعوا في تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وابداء ما ليس منها. كما قال الله تعالى : ﴿ وإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ ومَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ ويَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ومَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ويَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:٧٨] فأخبر تعالى : أنهم يفسرونها ويتأولونها ويضعونها على غير مواضعها ، وهذا مالا خلاف فيه بين العلماء ، وهو أنهم يتصرفون في معانيها ويحملونها على غير المراد، كما بدّلوا حكم الرجم بالجلد، والتحميم مع بقاء لفظ الرجم فيها، وكما أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، مع أنهم مأمورون بإقامة الحد والقطع على الشريف والوضيع. فأما تبديل ألفاظها . فقال قائلون : بأنها جميعها بدّلت . وقال آخرون : لم تبدل واحتجّوا بقوله تعالى : ﴿ وكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة:٤٣] وقوله : ﴿ الَذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾[الأعراف:١٥٧] الآية وبقوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:٩٣] وبقصة الرجم فإنهم كما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر وفي صحيح مسلم عن البراء بن عازب. وجابر بن عبد الله، وفي السنن عن أبي هريرة وغيره، لما تحاكموا إلى رسول الله ﷺ في قصة اليهودي واليهودية الذين زنيا . فقال لهم : « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم »؟ . فقالوا : نفضحهم ويُجْلَدُون، فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة، فلما جاءوا بها وجعلوا يقرأونها ويكتمون آية الرجم التي فيها، ووضع عبد الله بن صوريا يده على آية الرجم. وقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له رسول الله ﷺ : « ارفع يدك يا أعور » فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما. وقال : «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه». وعند أبي داود أنهم لما جاءوا بها نزع الوسادة من تحته فوضعها تحتها، وقال : آمنت بك وبمن أنزلك [1]، وذكر بعضهم أنه قام لها ولم أقف على إسناده والله أعلم.

وهذا كله يشكل على ما يقوله كثير من المتكلمين وغيرهم: أن التوراة انقطع تواترها في زمن بختنصر، ولم يبق من يحفظها إلا العزير، ثم العزير إن كان نبيا فهو معصوم والتواتر إلى

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٣٦٣٥) ومسلم (٢٧/١٦٩٩) .

المعصوم يكفي، اللهم إلا أن يقال : إنها لم تتواتر إليه، لكن بعده زكريا ويحيى وعيسى وكلهم كانوا متمسكين بالتوراة، فلو لم تكن صحيحة معمولاً بها لما اعتمدوا عليها وهم أنبياء معصومون. ثم قد قال الله تعالى فيما أنزل على رسوله محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلي جميع الأنبياء منكراً على اليهود في قصدهم الفاسد ، إذ عدلوا عما يعتقدون صحته عندهم، وإنهم مأمورون حتما إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ، وهم يعاندون ما جاء به، لكن لما كان في زعمهم ما قد يوافقهم على ما ابتدعوه من الجلد والتحميم المصادم لما أمر الله به حتماً ، وقالوا: إن حكم لكم بالجلد والتحميم، فاقبلوه وتكونون قد اعتذرتم بحكم نبي لكم عند الله يوم القيامة وإن لم يحكم لكم بهذا بل بالرجم، فاحذروا أن تقبلوا منه فأنكر الله تعالى عليهم في هذا القصد الفاسد الذي إنما حملهم عليه الغرض الفاسد، وموافقة الهوى لا الدين الحق فقال : **﴿ وكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ومَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى ونُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾** [المائدة : ٤٣ ، ٤٤] . الآية. ولهذا حكم بالرجم، قال : « **اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه** » وسألهم ما حملهم على هذا ولم تركوا أمر الله الذي بأيديهم ؟ فقالوا : إن الزنا قد كثر في أشرافنا، ولم يمكننا أن نقيمه عليهم، وكنا نرجم من زنى من ضعفائنا، فقلنا: تعالوا إلى أمر نَصف نفعله مع الشريف والوضيع، فاصطلحنا على الجلد والتحميم، فهذا من جملة تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم وتأويلهم الباطل، وهذا إنما فعلوه في المعاني مع بقاء لفظ الرجم في كتابهم، كما دل عليه الحديث المتفق عليه. فلهذا قال : من قال هذا من الناس : إنه لم يقع تبديلهم إلا في المعاني، وأن الألفاظ باقية وهي حجّة عليهم إذ لو أقاموا ما في كتابهم جميعه لقادهم ذلك إلى اتباع الحق، ومتابعة الرسول محمد ﷺ كما قال تعالى: **﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ ويَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** [الأعراف : ١٥٧] الآية وقال تعالى **﴿ولَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ والإِنجِيلَ ومَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ ومِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾** [المائدة : ٦٦] الآية وقال تعالى : **﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ والإِنجِيلَ ومَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾** [المائدة:٦٨] الآية وهذا المذهب وهو القول بأن ، التبديل إنما وقع في معانيها لا في ألفاظها ، حكاه البخاري عن ابن عباس في آخر كتابة الصحيح ، وقرر عليه ولم يرده وحكاه العلامة فخر الدين الرازي في تفسيره عن أكثر المتكلمين.

ليس للجنب لمس التوراة

وذهب فقهاء الحنفية إلى أنه لا يجوز للجنب مس التوراة وهو محدث ، وحكاه الحناطي في فتاويه عن بعض أصحاب الشافعي وهو غريب جداً. وذهب آخرون من العلماء إلى التوسط في هذين القولين منهم شيخنا الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية رحمه الله، فقال : أما من ذهب إلى

أنها كلّها مبدلة من أولها إلى آخرها ولم يبق منها حرف إلاّ بدلوه، فهذا بعيد وكذا من قال: لم يبدل شيء منها بالكلية بعيد أيضاً، والحق أنه دخلها تبديل وتغيير، وتصرفوا في بعض ألفاظها بالزيادة والنقص، كما تصرفوا في معانيها وهذا معلوم عند التأمل، ولبسطه موضع آخر والله أعلم كما في قوله في قصة الذبيح، اذبح ابنك وحيدك، وفي نسخة : بكر بن إسحاق، فلفظة إسحاق مقحمة مزيدة بلا مرية ، لأن الوحيد وهو البكر إسماعيل لأنه ولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة، فكيف يكون الوحيد البكر إسحاق ؟ وإنما حملهم على ذلك حسد العرب أن يكون إسماعيل غير الذبيح ، فأرادوا أن يذهبوا بهذه الفضيلة لهم، فزادوا ذلك في كتاب الله افتراء على الله وعلي رسوله ﷺ وقد اغترّ بهذه الزيادة خلق كثير من السلف والخلف، ووافقوهم على أن الذبيح إسحاق ، والصحيح الذبيح إسماعيل كما قدمنا والله أعلم. وهكذا في توراة السامرة في العشر الكلمات زيادة، الأمر بالتوجه إلى الطور في الصلاة، وليس ذلك في سائر نسخ اليهود والنصارى.

وهكذا يوجد في الزبور المأثور عن داود عليه السلام مختلفاً كثيراً، فيه أشياء مزيدة ملحقة فيه ، وليست منه والله أعلم.

قلت : وأما ما بأيديهم من التوراة المعربة، فلا يشك عاقل في تبديلها وتحريف كثير من ألفاظها، وتغيير القصص والألفاظ والزيادات والنقص البين الواضح، وفيها من الكذب البين والخطأ الفاحش شيء كثير جدا، فأما ما يتلونه بلسانهم ويكتبونه بأقلامهم فلا اطلاع لنا عليه، والمظنون بهم أنهم كذبة خونة يكثرون الفرية على الله ورسله وكتبه .

وأما النصارى ، فأناجيلهم الأربعة من طريق : مرقس ولوقا ومتى ويوحنا أشد اختلافاً وأكثر زيادة ونقصاً، وأفحش تفاوتا من التوراة، وقد خالفوا أحكام التوراة والإنجيل في غير ما شيء قد شرعوه لأنفسهم، فمن ذلك صلاتهم إلى الشرق وليست منصوصاً عليها ولا مأموراً بها في شيء من الأناجيل الأربعة وهكذا تصويرهم كنائسهم وتركهم الختان، ونقلهم صيامهم إلى زمن الربيع وزيادته إلى خمسين يوماً، وأكلهم الخنـــزير ووضعهم الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة والرهبانية، وهي ترك التزويج لمن أراد التعبد وتحريمه عليه ، وكتبهم القوانين التي وضعتها لهم الأساقفة الثلاثمائة والثمانية عشر ، فكل هذه الأشياء ابتدعوها ووضعوها في أيام قسطنطين ابن قسطن باني القسطنطينية، وكان زمنه بعد المسيح بثلاثمائة سنة، وكان أبوه أحد ملوك الروم وتزوج أمه هيلانة في بعض أسفاره للصيد من بلاد حران، وكانت نصرانية على دين الرهابين المتقدمين، فلما ولد لها منه قسطنطين المذكور تعلم الفلسفة وبهر فيها، وصار فيه ميل بعض الشيء إلى النصرانية التي أمه عليها فعظم القائمين بها بعض الشيء ، وهو على اعتقاد الفلاسفة، فلما مات أبوه واستقل هو في المملكة سار في رعيته سيرة عادلة، فأحبه الناس وساد فيهم وغلب على ملك الشام بأسره مع الجزيرة، وعظم شأنه وكان أول القياصرة. ثم اتفق اختلاف في زمانه

بين النصارى ومنازعة بين بترك الإسكندرية أكصندروس وبين رجل من علمائهم . يقال له : عبد الله بن أريوس، فذهب أكصندروس إلى أن عيسى ابن الله، تعالى الله عن قوله، وذهب ابن أريوس إلى أن عيسى عبد الله ورسوله، واتبعه على هذا طائفة من النصارى، واتفق الأكثرون الآخسرون على قول بتركهم، ومنع ابن أريوس من دخول الكنيسة هو وأصحابه، فذهب يستعدي على أكصندروس وأصحابه إلى ملك قسطنطين، فسأله الملك عن مقالته فعرض عليه عبد الله بن أزيوس ما يقول في المسيح من أنه عبد الله ورسوله ، واحتج على ذلك، فمال إليه وجنح إلى قوله، فقال له قائلون : فينبغي أن تبعث إلى خصمه فتسمع كلامه، فأمر الملك بإحضاره وطلب من سائر الأقاليم كل أسقف، وكل من عنده في دين النصرانية، وجمع البتاركة الأربعة من القدس وأنطاكية ورومية والإسكندرية، فيقال : إنهم اجتمعوا في مدة سنة وشهرين ما يزيد على ألفي أسقف، فجمعهم في مجلس واحد وهو المجمع الأول من مجامعهم الثلاثة المشهورة، وهم مختلفون اختلافاً متبايناً منتشراً جدا. فمنهم الشرذمة على المقالة التي لا يوافقهم أحد من الباقين عليها، فهؤلاء خمسون على مقالة. وهؤلاء ثمانون على مقالة أخرى ، وهؤلاء عشرة على مقالة، وأربعون على أخرى، ومائة على مقالة، ومائتان على مقالة، وطائفة على مقالة ابن أريوس، وجماعة على مقالة أخرى، فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم حار فيهم الملك قسطنطين مع أنه سيئ الظن بما عدا دين الصابئين من أسلافه اليونانيين، فعمد إلى أكثر جماعة منهم على مقالة من مقالاتهم فوجدهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً قد اجتمعوا على مقالة أكصندروس، ولم يجد طائفة بلغت عدتهم، فقال : هؤلاء أولى بنصر قولهم لأنهم أكثر الفرق، فاجتمع بهم خصوصاً ووضع سيفه وخاتمه اليهم، وقال: إني رأيتكم أكثر الفرق قد اجتمعتم على مقالتكم ، هذه، فأنا أنصرها وأذهب إليها فسجدوا له وطلب منهم أن يضعوا له كتابا في الأحكام، وأن تكون الصلاة إلى الشرق لأنها مطلع الكواكب النيرة، وأن يصوّروا في كنائسهم صوراً لها جثث، فصالحوه على أن تكون في الحيطان . فلما توافقوا إلى ذلك أخذ في نصرهم وإظهار كلمتهم وإقامة مقالتهم ، وإبعاد من خالفهم وتضعيف رأيه وقوله ، فظهر أصحابه بجاهه على مخالفيهم وانتصروا عليهم وأمر ببناء الكنائس على دينهم، وهم الملكية نسبة إلى دين الملك، فبني في أيام قسطنطين بالشام وغيرها في المدائن والقرى أزيد من اثنتي عشرة ألف كنيسة ، واعتني الملك ببناء بيت لحم.يعني على مكان مولد المسيح،وبنت أمه هيلانة قمامة بيت المقدس على مكان المصلوب الذي زعمت اليهود والنصارى بجهلهم وقلة علمهم أنه المسيح عليه الصلاة والسلام، ويقال: إنه قتل من أعداء أولئك وخدَّ لهم الأخاديد [١] في الأرض ، وأجج فيها النار وأحرقهم بها كما ذكرناه في سورة

---

(١) الأخاديد : الحفر المستطيلة فى الأرض .

البروج، وعظّم دين النصرانية، وظهر أمره جداً بسبب الملك قسطنطين، وقد أفسده عليهم فساداً لا إصلاح له، ولا نجاح معه ولا فلاح عنده، وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم، وكثرت كنائسهم على أسماء عبادهم، وتفاقم كفرهم وعظمت مصيبتهم، وتخلد ضلالهم، وعظم وبالهم، ولم يهد الله قلوبهم، ولا أصلح بالهم، بل صرف قلوبهم عن الحق وأمال عن الاستقامة حالهم، ثم اجتمعوا بعد ذلك مجمعين في قضية النسطورية واليعقوبية، وكل فرقة من هؤلاء تكفّر الأخرى، وتعتقد تخليدهم في نار جهنم، ولا ترى مجامعتهم في المعابد والكنائس، وكلهم يقول : بالأقانيم[1] الثلاثة : أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة، ولكن بينهم اختلاف في الحلول والاتحاد فيما بين اللاهوت والناسوت، هل تدرعه [2] أو حلّ فيه أو اتحد به، واختلافهم في ذلك شديد وكفرهم بسببه غليظ ، وكلّهم على الباطل إلا من قال من الأريوسية أصحاب عبد الله ابن أريوس : إن المسيح عبد الله ورسوله وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، كما يقول المسلمون فيه سواء ، ولكن لما استقرّ أمر الأريوسية على هذه المقالة تسلّط عليهم الفرق الثلاثة بالابعاد والطرد حتى قلّوا ، فلا يعرف اليوم منهم أحد فيما يعلم والله أعلم .

كتابُ الجامعِ لأخبار الأنبياء المتقدمين

قال الله تعالى : **﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾** [البقرة:٢٥٣] الآية. وقال تعالى : **﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً . وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً . رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾** [النساء:١٦٣-١٦٥].

وقد روى ابن حبان في صحيحه ، وابن مردويه في تفسيره وغيرهما من طريق إبراهيم بن هشام عن يحيى بن محمد الغساني الشامي وقد تكلموا فيه، حدثني أبي عن جدي ، عن أبي إدريس ، عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « **مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا** » قلت : يا رسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : « **ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير** » قلت : يا رسول الله من كان أولهم ؟ . قال : « **آدم** » قلت : يا رسول الله نبي مرسل؟ . قال: « **نعم خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلا** » ثم قال: « **يا أبا ذر أربعة سريانيون : آدم . وشيث . ونوح. وخنوخ . وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم . وأربعة من العرب : هود . وصالح . وشعيب . ونبيك**

---

(١) الأقنوم : الأصل .

(٢) تدرعه : جعله درعاً والمقصود اتّحد به .

يا أبا ذر. وأول نبي من بني إسرائيل : موسى . وآخرهم عيسى . وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك »[١]. وقد أورد هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزي في الموضوعات، وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال : حدثنا محمد بن عوف حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معان بن رفاعة ، عن علي بن زيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : قلت : يا رسول الله : كم الأنبياء؟ . قال : « **مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً**»[٢]. وهذا أيضاً من هذا الوجه ضعيف، فيه ثلاثة من الضعفاء معان وشيخه وشيخ شيخه.

وقد قال الحافظ أبو يعلي الموصلي : حدثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجوهري البصري،حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدي عن يزيد الرقاشي، عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « **بعث الله ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف إلى بني إسرائيل وأربعة آلاف إلى سائر الناس** » [٣]موسى وشيخه ضعيفان أيضا. وقال أبو يعلي أيضا : حدثنا أبو الربيع، حدثنا محمد بن ثابت العبدي، حدثنا معبد بن خالد الأنصاري ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « **كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ثم كان عيسى، ثم كنت أنا** » [٤] يزيد الرقاشي ضعيف. وقد رواه الحافظ أبو بكر الإسماعيلي عن محمد ابن عثمان بن أبي شيبه : حدثنا أحمد بن طارق، حدثنا مسلم بن خالد، حدثنا زياد بن سعد عن محمد بن المنكدر، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ « **بعثت على أثر ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل** ». وهذا إسناد لا بأس به، لكني لا أعرف حال أحمد بن طارق هذا، والله أعلم .

حديثٌ آخر

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : وجدت في كتاب أبي بخطة : حدثني عبد المتعال بن عبد الوهاب، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، حدثنا مجالد عن أبي الوداك قال : قال أبو سعيد : هل تقر الخوارج بالدجال ؟ . قال : قلت : لا، قال رسول الله ﷺ :« **إني خاتم ألف نبي أو أكثر وما بعث الله نبيا يُتبع إلا وحذر أمته منه، وإني قد بين لي فيه ما لم يبين لأحد منهم، وأنه أعور وأنّ ربكم ليس**

---

(١) **ضعيف جدا** :رواه ابن حبان (٣٦١ – إحسان) وأبو نعيم فى " الحلية " (١/ ١٦٦ – ١٦٨) وفى سنده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى الدمشقى ، وهو متروك . وكذبه أبو حاتم وأبو زرعة .

(٢) **ضعيف** :فى سنده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف . والقاسم شيخه ضعيف .

(٣) **ضعيف** :رواه أبو يعلى (٤١٣٢) وأبو نعيم فى " الحلية " (٣ / ٥٣ ، ١٦٣) وفى سنده موسى بن عبيدة الربذى ويزيد الرقاشى وهما ضعيفان .

(٤) **ضعيف جدا** :رواه أبو يعلى (٤٠٩٢) وفى سنده محمد بن ثابت العبدى وهو لين الحديث ، ومعبد بن خالد الأنصارى مجهول ، ويزيد الرقاشى ضعيف .

بأعور، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة [١] **في حائط مجصص، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري، معه من كل لسان، ومعه صورة الجنة خضراء، يجري فيها الماء وصورة النار سوداء تُداخن »** [٢]
وهذا حديث غريب وقد روى عن جابر بن عبد الله فقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو ابن على، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا مجالد عن الشعبي، عن جابر، قال : قال رسول الله ﷺ **« إني لخاتم ألف نبي أو أكثر ، وأنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال ، وأنه قد تبين لي فيه ما لم يتبين لأحد منهم وأنه أعور، وأن ربكم ليس بأعور »**. وهذا إسناد حسن، وهو محمول على ذكر عدد من أنذر قومه الدجال من الأنبياء لكن في الحديث الآخر : « **ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الدجال** » فالله أعلم.

وقال البخاري : حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن فرات. يعني القزاز . قال : سمعت أبا حازم يحدّث . قال : قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبي ﷺ قال : « **كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وأنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون** » قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ . قال : « **فُوا ببيعة الأول فالأول أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم** » [٣] وكذا رواه مسلم عن بندار ومن وجه آخر عن فرات به نحوه .

وقال البخاري : حدثنا عمرو بن حفص، حدثنا أبي، حدثني الأعمش، حدثني شقيق قال : قال عبد الله هو ابن مسعود : كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربة قومه، فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول : « **اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون** » [٤] رواه مسلم من حديث الأعمش به نحوه. وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم، عن رجل عن أبي سعيد الخدري قال : وضع رجل يده اليمنى على النبي ﷺ فقال : والله ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حمّاك، فقال النبي ﷺ: « **إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر ، إن كان النبي من الأنبياء ليبتلي بالقُمَّل حتى يقتله ، وإن كان النبي من الأنبياء ليُبتلي بالفقر حتى يأخذ العباء فيجوبها** [٥] **، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء** » [٦]
هكذا رواه الإمام أحمد من طريق زيد بن أسلم عن رجل، عن أبي سعيد، وقد رواه بن ماجه

---

(١) نخامة : ما يدفع من الصدر والأنف .

(٢) **ضعيف** :رواه أحمد (٣ / ٧٩) والحاكم (٢ / ٥٩٧) وفى سنده مجالد بن سعيد وهو ضعيف وعبد المتعال بن عبد الوهاب الأنصارى مجهول، والحديث صححه الحاكم وتعقبه الذهبى بقوله : مجالد ضعيف.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢/٤٤) .

(٤) رواه البخارى (٣٤٧٧) .

(٥) الجوب : القطع .

(٦) **صحيح** :رواه أحمد (٤ / ٩٣) وأبو يعلى (١٠٤٥) وابن ماجه (٤٠٢٤) والحاكم (٤ / ٣٠٧) وصححه ووافقه الذهبى .

عن دحيم، عن ابن أبي فديك، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد فذكره. وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع، حدثنا سفيان بن عاصم بن أبي النجود، عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ . قال: « **الأنبياء. ثم الصالحون. ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلي الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف، عليه ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة** » (١)

ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عاصم بن أبي النجود. وقال الترمذي : حسن صحيح وتقدم في الحديث: « **نحن معشر الأنبياء أولاد علات دينا واحدًا وأمهاتنا شتى** » (٢) والمعني أن شرائعهم وإن اختلفت في الفروع ونسخ بعضها بعضاً، حتى انتهي الجميع إلى ما شرع الله لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين، إلا أن كل نبي بعثه الله فإنما دينه الإسلام وهو التوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء:٢٥] وقال تعالى : ﴿ **واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾ [الزخرف:٤٥] وقال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ**﴾ [النحل:٣٦] الآية. فأولاد العلات أن يكوت الأب واحداً، والأمهات متفرقات، فالأب بمنـــزلة الدين، وهو التوحيد والأمهات بمنـــزلة الشرائع في اختلاف أحكامها. كما قال تعالى : ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**﴾ [المائدة:٤٨] وقال : ﴿ **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ**﴾ [الحج٦٧] وقال : ﴿ **وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا**﴾[البقرة:١٤٨] على أحد القولين في تفسيرها .

والمقصود أن الشرائع وإن تنوعت في أوقاها إلا أن الجميع آمرة بعبادة الله وحده لا شريك له، وهو دين الإسلام الذي شرعه الله لجميع الأنبياء، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره يوم القيامة، كما قال تعالى : ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران:٨٥] وقال تعالى : ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾[البقرة:١٣٠-١٣٢] وقال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا**﴾ [المائدة : ٤٤] الآية. فدين الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو الإخلاص له وحده دون ما سواه،والإحسان أن يكون علي الوجه المشروع في ذلك،الوقت المأمور به ولهذا لا يقبل الله من أحد عملا بعد أن بعث محمداً ﷺ على ما شرعه له كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي**

---

(١) رواه الترمذى (٢٣٩٨) وابن ماجة (٤٠٢٣) وأحمد (١٤٨١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد (١ / ١٧٢، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٥) والترمذى (٢٣٩٨) والدارمى (٢/ ٣٢٠) وابن ماجه (٤٠٢٣) وابن حبان(٦٩- موارد) والحاكم (١ / ٤١،٤٠) وقال الترمذى: حسن صحيح.

رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف:١٥٨] وقال تعالى : ﴿ وأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود:١٧]. وقال رسول الله ﷺ : « بعثت إلى الأحمر والأسود »[1]. قيل : أراد العرب والعجم ، وقيل : الإنس والجن، وقال ﷺ: « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم »[2]. والأحاديث في هذا كثيرة جداً. والمقصود أن إخوة العلات، أن يكونوا من أب واحد وأمهاتهم شتى، مأخوذ من شرب العلل بعد النهل. وأما إخوة الأخياف، فعكس هذا أن تكون أمهم واحدة من آباء شتى. وإخوة الأعيان فهم الأشقاء من أب واحد وأم واحدة والله سبحانه وتعالى أعلم. وفي الحديث الآخر « نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة » [3] وهذا من خصائص الأنبياء أنهم لا يورثون، وما ذاك إلا لأن الدنيا أحقر عندهم من أن تكون مخلفة عنهم، ولأن توكلهم على الله عزّ وجلّ في ذراريهم أعظم وأشد، وآكد من أن يحتاجوا معه إلى أن يتركوا لورثتهم من بعدهم مالا يستأثرون به. عن الناس، بل يكون جميع ما تركوه صدقة لفقراء الناس، ومحاويجهم وذو خلتهم. وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء عليهم السلام مع خصائص نبينا ﷺ وعليهم أجمعين في أول كتاب النكاح من كتاب الاحكام الكبير حيث ذكره الأئمة من المصنفين اقتداء بالإمام أبي عبد الله الشافعي رحمة الله عليه وعليهم أجمعين. وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن أن عبد رب الكعبة . قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو ، وهو جالس في ظل الكعبة . فسمعته يقول: بينا نحن مع رسول الله ﷺ في سفر إذ نزل منـــزلاً فمنا من يضرب خباءه، ومنا من هو في جشره[4]، ومنا من ينتضل [5] إذ نادي مناديه : الصلاة جامعة . قال: فاجتمعنا . قال : فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال : « إنه لم يكن نبي قبلي إلا دلّ أمته على خير ما يعلمه لهم ، وحذرهم ما يعلمه شراً لهم، وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها، وإن آخرها سيصيبها بلاء شديد وأمور ينكرونها، تجيء فتن يريق بعضها بعضا، تجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي. ثم تنكشف. ثم تجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه. ثم تنكشف فمن سره منكم أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه موتته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر. وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتي إليه، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر ». قال : فأدخلت رأسي من بين الناس فقلت: أنشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟. قال: فأشار بيده إلى أذنيه وقال: « سمعته أذناي ووعاه قلبيَ » قال : فقلت : هذا ابن عمـــك يعني معاوية يأمرنـــا أن نأكل أموالنـــا

---

(١) رواه مسلم (٣/٥٢١) .

(٢) ضعيف : رواه أحمد : (٣ / ٤٧٠ ، ٤٧١) وفى سنده جابر الجعفى وهو ضعيف .

(٣) متفق عليه : رواه البخارى (٣٠٩٤) ومسلم (٤٩/١٧٥٧) .

(٤) الجشر : إخراج الدّواب للرعى .

(٥) النضل : الهزل والتعب والإعياء .

بيننا بالباطل ، وأن نقتل أنفسنا وقد قال الله تعالى : { **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** } [النساء : ٢٩] قال : فجمع يديه فوضعهما على جبهته ، ثم نكس هنيهة . ثم رفع رأسه : فقال : أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله. ورواه أحمد أيضاً عن وكيع عن الأعمش به ، وقال فيه : « **أيها الناس إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم وينذره ما يعلمه شراً لهم** ». وذكر تمامه بنحوه وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش به. ورواه مسلم أيضا من حديث الشعبي عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ بنحوه [١].

ذكر أخبار العرب

قيل : إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتحية والإكرام. والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل ، وقد قدمنا أن العرب العاربة منهم : عاد . وثمود . وطسم . وجديس . وأميم . وجرهم . والعماليق . وأمم آخرون لا يعلمهم إلا الله ، كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام وفي زمانه أيضاً. فأما العرب المستعربة ، وهم : عرب الحجاز فمن ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وأما عرب اليمن وهم حمير ، فالمشهور أنهم من قحطان واسمه مهزم ، قاله ابن ماكولا ، وذكروا أنهم كانوا أربعة إخوة ، قحطان . وقاحط . ومقحط . وفالغ، وقحطان بن هود. وقيل هو هود. وقيل : هود أخوه . وقيل : من ذريته . وقيل : إن قحطان من سلالة إسماعيل حكاه ابن إسحاق وغيره : فقال بعضهم : هو قحطان بن تيمن بن قيذر بن إسماعيل. وقيل : غير ذلك في نسبه إلى إسماعيل . والله أعلم.

وقد ترجم البخاري في صحيحه على ذلك فقال:باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام.

حدثنا مسدد ، حدثنا يحيي عن يزيد بن أبي عبيد ، حدثنا سلمة رَضي الله عَنه قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسيوف فقال : «**ارموا بني إسماعيل وأنا مع بني فلان لأحد الفريقين** » [٢] فأمسكوا بأيديهم فقال : «**ما لكم ؟** » . قالوا : وكيف نرمي وأنت مع بني فلان ؟ فقال :« **ارموا وأنا معكم كلكم** » [٣].

انفرد به البخاري وفي بعض ألفاظه : « **ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ارموا وأنا مع ابن الأدرع فأمسك القوم** » . فقال : « **ارموا وأنا معكم كلكم** ».

قال البخاري : وأسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة يعني وخزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم ، كما سيأتي بيانه ، وكانت

---

(١) رواه مسلم (٤٦/١٨٤٤) .
(٢) رواه البخارى (٣٥٠٧) .
(٣) رواه البخارى (٢٨٩٩) .

الأوس والخزرج منهم ، وقد قال لهم عليه الصلاة والسلام : « **ارموا بني إسماعيل** » فدل على أنهم من سلالته ، وتأوله آخرون على أن المراد بذلك جنس العرب ، لكنه تأويل بعيد إذ هو خلاف الظاهر بلا دليل ، لكن الجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليمن وغيرهم ليسوا من سلالة إسماعيل ، وعندهم أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين : قحطانية . وعدنانية، فالقحطانية شعبان : سبأ . وحضرموت. والعدنانية شعبان أيضاً : ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان والشعب الخامس : وهم قضاعة مختلف فيهم ، فقيل : إنهم عدنانيون ، قال ابن عبد البر : وعليه الأكثرون .

ويروى هذا عن ابن عباس وابن عمر، وجبير بن مطعم وهو اختيار الزبير بن بكار وعمه مصعب الزبيري ، وابن هشام وقد ورد في حديث قضاعة بن معدر ولكنه لا يصح قاله ابن عبد البر وغيره : ويقال : إنهم لن يزالوا في جاهليتهم وصدر من الإسلام ينتسبون إلى عدنان ، فلما كان في زمن خالد بن يزيد بن معاوية وكانوا أخواله انتسبوا إلى قحطان ، فقال في ذلك أعشى ابن ثعلبة في قصيدة له :

أبلــغْ قُضاعــةَ في القرطــاسِ أنَّهُــمُ ... لولا خلائفُ آلِ اللّــهِ ما عُتِقــوا[1]

قــالتْ قضــاعةُ: إنَّا من ذوي يُمْــنٍ ... واللهُ يُعلم ما برّوا ومــا صَدقـــوا

قد ادّعــوا والداً مــا نــالَ أمَّــهُمُ ... قــد يَعلَمُــونَ ولكنْ ذلكَ الفَــرَقُ

وقد ذكر أبو عمرو السهيلي أيضاً من شعر العرب ما فيه إبداع في تفسيره قضاعة في انتسابهم إلى اليمن والله أعلم ، والقول الثاني : أنهم من قحطان وهو قول ابن إسحاق والكلبي وطائفة من أهل النسب.

قال ابن إسحاق : وهو قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقد قال بعض شعرائهم وهو عمرو بن مرة صحابي له حديثان :

يا أيّهــا الــداعــي ادعُنــا وأبشــرْ ... وكنْ قُــضــاعــياً ولا تُــنـــــزرِ

نحنُ بَنُــو الشيــخِ الهجــانِ الأزهــرِ ... قضـــاعةُ بنُ مالــكِ بنِ حمْيــرِ[2]

النسَبُ المعــروفُ غــيرُ المنــكَرِ ... في الحجَرِ المنقوشِ تحــتَ المنبــرِ

قال بعض أهل النسب : هو قضاعة بن مالك بن عمر بن مرة ، بن زيد ، بن حمير وقال ابن لهيعة عن معروف بن سويد عن أبي عشابة محمد بن موسى ، عن عقبة بن عامر : قال : قلت: يا رسول الله أمّا نحن من معد ؟ . قال : لا قلت : فممن نحن ؟ قال: أنتم قضاعة بن مالك بن حمير ، قال أبو عمير بن عبد البر : ولا يختلفون أن جهينة بن زيد بن أسود بن أسلم

---

(١)القرطاس : الصحيفة .

(٢) الهجان : الكريم العالي النسب . والأزهر : المشهور .

ابن عمران بن إلحافِ بن قضاعة قبيلة عقبة بن عامر الجهني ، فعلى هذا قضاعة في اليمن في حمير ابن سبأ وقد جمع بعضهم بين هذين القولين بما ذكره الزبير بن بكار وغيره من أن قضاعة امرأة من جرهم ، تزوجها مالك بن حمير فولدت له قضاعة ، ثم خلف عليها معد بن عدنان وابنها صغير ، وزعم بعضهم أنه كان حملاً فنسب إلى زوج أمه كما كانت عادة كثير منهم ينسبون الرجل إلى زوج أمه والله أعلم.

وقال محمد بن سلام البصري النسابة : العرب ثلاثة جراثيم : العدنانية . والقحطانية . وقضاعة . قيل له : فأيهما أكثر العدنانية أو القحطانية ؟ . فقال : ما شاءت قضاعة أن تيامنت، فالقحطانية أكثر ، وإن تعددت . فالعدنانية أكثر ، وهذا يدل على أنهم يتلومون في نسبهم ، فإن صح حديث ابن لهيعة المقدم فهو دليل على أنهم من القحطانية والله أعلم. وقد قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣] قال علماء النسب : يقال شعوب. ثم قبائل ثم عمائر. ثم بطون. ثم أفخاذ. ثم فصائل. ثم عشائر. والعشيرة أقرب الناس إلى الرجل وليس بعدها شيء.

ولنبدأ أولاً بذكر القحطانية ، ثم نذكر بعدهم عرب الحجاز ، وهم العدنانية وما كان من أمر الجاهلية ليكون ذلك متصلاً بسيرة رسول الله ﷺ إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

وقد قال البخاري : (باب ذكر قحطان) . حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا سليمان بن بلال . عن ثور بن زيد ، عن أبي المغيث ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال «**لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه** » .[1] وكذا رواه مسلم عن قتيبة ، عن الدراوردي ، عن ثور بن زيد به . قال السهيلي : وقحطان أول من قيل له : أبيت اللعن ، وأول من قيل له : أنعم صباحاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة عن جرير ، حدثني راشد بن سعد المقراي . عن أبي حَيٍّ عن ذي فجر أن رسول الله ﷺ قال : «**كان هذا الأمر في حمير فنـــزعه الله منهم فجعله في** قريش (و س ي ع ودال ي هــــــ م) » قال عبد الله: هكذا كان في كتاب أبي وحيث حدثنا به تكلم به على الاستواء يعني : « **وسيعود إليهم** »[2].

قِصّة سَبَأ

قال الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الكَفُورَ . وَجَعَلْنَا**

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٧١١٧) ومسلم (٢٩١٠/٦٠) .

(٢) حسن : رواه أحمد (٤ / ٩١) .

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ . فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ : ١٥ ــ ١٩]

قال علماء النسب منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن . قحطان . قالوا : وكان أول من سبأ من العرب فسمي سبأ لذلك . وكان .يقال له : الرائش ، لأنه كان يعطي الناس الأموال من متاعه. قال السهيلي : ويقال: إنه أول من تتوج ، وذكر بعضهم أنه كان مسلماً . وكان له شعر بَشَّرَ فيه بوجود رسول الله ﷺ فمن ذلك قوله :

سيملـــكُ بعدَنـــا مُلْكـــاً عظيمـــاً ... نـــبيٌّ لا يرخِّـــصُ فـــي الحـــرام
ويمـــلكُ بعـــدَه منْهُـــمُ مُلـــوكٌ ... يَدينـــُون العـــبادَ بغـــيرِ ذامِ
ويمـــلَكُ بعـــدَهم مَـــنّا مُلـــوكٌ ... يصيـــرُ الملـــكُ فينـــا باقتسَـــامِ
ويمـــلكُ بعـــدَ قحطـــان نـــبيٌّ ... تقـــيٌّ جـــبَيْنُـــهُ خـــيرُ الانـــامِ
يُســـمَّي أحمـــداً يا ليـــتَ أنّـــي ... أُعَمّـــرُ بعـــدَ مَبْعَثـــه بعـــامِ
فَأَعْضـــدُه وأَحْبُـــوهُ بنَصْـــري ... بكُـــلِّ مُـــدجَّـــجٍ وبَكُـــلِّ رامِ[1]
مَتَى يَظهـــرْ فَكُونُـــوا نَاصـــرِيهِ ... ومَـــنْ يَلْقَـــاهُ يُبلغْه سَـــلامـــي

حكاه ابن دحية في كتابه « التنوير في مولد البشير النذير ».

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة ، عن عبد الرحمن بن وعلة ، قال: سمعت عبد الله بن العباس يقول : إنّ رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال « **بل هو رجل ولد عشرة . فسكن اليمن منهم ستة. وبالشام منهم أربعة. فأما اليمانيون : فمذحج . وكندة . والأزد . والأشعريون . وأنمار . وحمير. وأما الشامية : فلخم . وجذم . وعاملة . وغسان** »[2] وقد ذكرنا في التفسير أن فروة بن مسيك الغطيفي هو السائل عن ذلك ، كما استقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه هناك ولله الحمد .

والمقصود : أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها ، وقد كان فيهم التبابعة بأرض اليمن واحدهم تبع ، وكان لملوكهم تيجان يلبسونها وقت الحكم ، كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك ، وكانت العرب تسمي كل من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت تبعاً ، كما يسمون من ملك الشام مع الجزيرة قيصر ، ومن ملك الفرس كسرى ، ومن ملك مصر فرعون ، ومن ملك الحبشة النجاشي ، ومن ملك الهند بطليموس ، وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس ، وقد قدمنا قصتها مع سليمان عليه السلام ، وقد كانوا في غبطة عظيمة وأرزاق دارة

---

(١) عَضَدَ : ساند .

(٢) **ضعيف** :رواه أحمد (١ / ١١٦) وفى سنده ابن لهيعة وهو ضعيف .

وثمار وزروع كثيرة ، وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد ، فلما بدلوا نعمة الله كفراً أحلوا قومهم دار البوار.

قال محمد بن إسحاق : عن وهب بن منبه أرسل الله اليهم ثلاثة عشر نبيا ، وزعم السدي أنه أرسل إليهم اثني عشر ألف نبي ، فالله أعلم. والمقصود أنهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال وسجدوا للشمس من دون الله وكان ذلك في زمان بلقيس وقبلها أيضاً واستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[سبأ :١٦، ١٧].

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف من المفسرين وغيرهم : أن سد مأرب كان صنعته أن المياه تجري من بين جبلين . فعمدوا في قديم الزمان فسدوا ما بينهما ببناء محكم جدا، حتى ارتفع الماء فحكم على أعالي الجبلين وغرسوا فيها البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة ، وزرعوا الزروع الكثيرة . ويقال : كان أول من بناه سبأ بن يعرب وسلط إليه سبعين واديا يفد إليه ، وجعل له ثلاثين فرضة يخرج منها الماء ومات و لم يكمل بناؤه فكملته حمير بعده ، وكان اتساعه فرسخاً في فرسخ ، وكانوا في غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة ، حتى ذكر قتادة وغيره أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها فتمتلئ من الثمار ما يتساقط فيه من نضجه وكثرته ، وذكروا : أنه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الدواب المؤذية لصحة هوائهم وطيب فنائهم كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : ١٥] . وكما قال تعالى : ﴿وإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم : ٧] فلما عبدوا غير الله وبطروا نعمته وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم وطيب ما بينها من البساتين وأمن الطرقات ، سألوا أن يباعد بين أسفارهم وأن يكون سفرهم في مشاق وتعب ، وطلبوا أن يبدلوا بالخير شرا، كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسلوى ، البقول . والقثاء . والفوم . والعدس . والبصل. فسلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ : ١٦] .

قال غير واحد أرسل الله على أصل السد الفأر وهو الجرذ ويقال : الخلد ، فلما فطنوا لذلك أرصدوا عندها السنانير فلم تغن شيئا إذ قد حم القدر و لم ينفع الحذر كلا لا وزر ، فلما تحكم في أصله الفساد سقط وأنهار فسلك الماء القرار فقطعت تلك الجداول والأنهار ، وانقطعت تلك الثمار ، ومادت تلك الزروع والأشجار، وتبدلوا بعدها برديء الأشجار والأثمار ، كما قال العزيز الجبار:﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد هو الأراك وثمره البرير وأثل وهو الطرفاء. وقيل يشبهه وهو حطب لا ثمر له ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ : ١٦] وذلك لأنه لما كان يثمر النبق كان قليلاً مع أنه ذو شوك كثير وثمره

بالنسبة إليه ، كما يقال في المثل: «لحم جمل غث [١] على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى» . ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الكَفُورَ﴾ [سبأ : ١٧] أي إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا وكذب رسلنا وخالف أمرنا وانتهك محارمنا وقال تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ : ١٩] .وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها ، وينتقلوا عنها فتفرقوا في غور البلاد ونجدها أيدي سبأ شذر مذر ، فنـزلت طوائف منهم الحجاز ومنهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة ، وكان من أمرهم ما سنذكره ، ومنهم المدينة المنورة اليوم فكانوا أول من سكنها ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير فحالفوا الأوس والخزرج وأقاموا عندهم ، وكان من أمرهم ما سنذكره ، ونزلت طائفة أخرى منهم الشام وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم ، وسنذكرهم عند ذكر فتوح الشام في زمن الشيخين رضي الله عنهما.

قال محمد بن إسحاق : حدثني أبو عبيدة . قال : قال الأعشى بن قيس بن ثعلبة وهو ميمون بن قيس :

وفـي ذاكَ للمـؤتَسـي أسـوةٌ ... ومـأربُ عـفّى عليهـا العَـرِم [٢]
رُخـامٌ بَنَتْـه لهـم حميـرٌ ... إذا جـاءَ مـوّارُهُ لـم يَـرُمْ [٣]
فَـأَرْوى الـزرعَ وأعـنانَـهَـا ... على سعـةِ مَـاؤهـم إذ قَسَـم
فصاروا أيـاديَ مـا يَقـْدِرُو ... ن على شُـربِ طفلٍ إذا مـا فُطِـم

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة : أن أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم عمرو بن عامر اللخمي ولخم هو ابن عدي بن الحارث بن مرة بن أزد بن زيد بن مهع بن عمرو ابن عريب بن يشجب بن زيد بن كهلان بن سبأ. ويقال : لخم بن عدي بن عمرو بن سبأ . قاله ابن هشام . قال ابن إسحاق : وكان سبب خروجه من اليمن فيما حدثني أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرذا يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم ، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي ، وعرض أمواله فقال: أشراف من أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو : فاشتروا منه أمواله ، وانتقل في ولده . وولد ولده وقالت الأزد : لا نتخلف عن

---

(١) غُثّ : فَسُدَ .
(٢) عفّى : محى : العرم : السيل الذى قوض سدّ مأرب .
(٣) موّاره : الماء المتدفق .

عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالا ، ففي ذلك قال عباس بن مرداس :

وعكٌّ ابن عدنانَ الّذين تلعّبوا ... بغسّانَ حتى طُردوا كلَّ مَطرد

قال : فارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلاد ، فنـــزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزل الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مراً ، ونزلت أزد السراة ، السراة ونزلت أزد عمان عمان ، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ، وفي ذلك أنزل الله هذه الآيات . وقد روى عن السدي : قريب من هذا وعن محمد بن إسحاق في روايته أن عمرو بن عامر كان كاهناً . وقال غيره : كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة فأخبرت بقرب هلاك بلادهم ، وكأنهم رأوا شاهد ذلك في الفأر الذي سلط على سدهم ففعلوا ما فعلوا والله أعلم. وقد ذكرت قصته مطولة عن عكرمة فيما رواه ابن أبي حاتم في التفسير.

فصل : وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أصيبوا بسيل العرم بل أقام أكثرهم بها ، وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السد فتفرقوا في البلاد وهو مقتضى الحديث المتقدم عن ابن عباس أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن ، بل إنما تشاءم منهم أربعة وبقي باليمن ستة ، وهم ، مذحج . وكندة . وأنمار . والأشعريون .وأنمار – هو أبو خثعم – وبجيلة . وحمير . فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن واستمر فيهم الملك والتبابعة ، حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة بالجيش الذي بعثه صحبة أميريه أبرهة وأرياط نحواً من سبعين سنة ، ثم استرجعه سيف ابن ذي يزن الحميري ، وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل كما سنذكره مفصلا قريباً إن شاء الله تعالى : وبه الثقة وعليه التكلان. ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن عليا ، وخالدَ بنَ الوليد . ثم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل ، وكانوا يدعون إلى الله تعالى ويبينون لهم الحجَج . ثم تغلب على اليمن الأسود العنسي وأخرج نواب رسول الله ﷺ منها فلما قتل الأسود استقرت اليد الإسلامية عليها في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما سنبين ذلك بعد البعثة إن شاء الله تعالى.

قصّة رَبيعة بن نصر بن أبي حَارثة بن عمرو بن عَامر

المتقدم ذكره اللخمي كذا ذكره ابن إسحاق . وقال السهيلي ، ونساب اليمن تقول : نصر بن ربيعة بن نصر بن الحارث بن نمارة بن لخم . وقال الزبير بن بكار: ربيعة بن نصر بن مالك بن شعوذ بن مالك بن عجم بن عمرو بن نمارة بن لخم ولخم أخو جذام ، وسمي لخماً لأنه لخم أخاه أي لطمه فعضه الآخر في يده فجذمها [1] فسمي جذاما . وكان ربيعة أحد ملوك حمير التبابعة وخبره مع شق وسطيح الكاهنين وإنذارهما بوجود رسول الله ﷺ ، أما سطيح فاسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن غسان ، وأما شق فهو ابن

(١) جذم : قطع .

صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قيس بن عبقر بن أنمار بن نزار ، ومنهم من يقول : أنمار ابن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نابت بن مالك بن زبد بن كهلان بن سبأ . ويقال: إنّ سطيحاً كان لا أعضاء له وإنما كان مثل السطيحة ووجهه في صدره ، وكان إذا غضب انتفخ وجلس ، وكان شق نصف إنسان ، ويقال : إن خالد بن عبد الله بن القسري كان من سلالته وذكر السهيلي أنهما ولدا في يوم واحد ، وكان ذلك يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية ، ويقال : إنها تفلت في فم كل منهما فورث الكهانة ، عنها وهي امرأة عمرو بن عامر المتقدم ذكره والله أعلم. قال محمد بن إسحاق : وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هائلة هالته وفظع بها فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفا ولا منجماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتني وفظعت[1] بها فأخبروني بها وبتأويلها ، فقالوا : اقصصها علينا ، نخبرك بتأويلها ، فقال : إني أن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها لأنه لا يعرف تأويلها ، إلا من عرفها قبل أن أخبره يها ، فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى شق وسطيح فإنه ليس أحد أعلم منهما فهما يخبرانه بما سأل عنه ، فبعث إليهما فقدم إليه سطيح قبل شق . فقال له : إني رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها فأخبرني بها فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها . فقال : أفعل « رأيت حممة [2]خرجت من ظلمة. فوقعت بأرض تهمة. فأكلت منها كل ذات جمجمة ». فقال له الملك: ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح فما عندك في تأويلها ؟ قال : « أحلف بما بين الحرتين من حنش لتهبطن أرضكم الحبش. فليملكن ما بين أبين إلى جرش ». فقال له الملك : يا سطيح إن هذا لغائظ موجع فمتي هو كائن أفي زماني أم بعده ؟ . فقال : لا وأبيك بل بعده بحين. أكثر من ستين أو سبعين. يمضين من السنين قال : أفيدوم ذلك من سلطانهم أم ينقطع ؟ . قال : بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين . قال : ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليهم أرم ذي يزن. يخرج عليهم من عدن. فلا يترك منهم أحداً باليمن. قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ . قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ . قال : نبي زكي. يأتيه الوحي من قبل العلي . قال : وممن هذا النبي ؟ . قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر . يكون الملك في قومه إلى آخر ؟ . الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال : نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون. يسعد فيه المحسنون ويشقي فيه المسيئون. قال : أحق ما تخبرني ؟ . قال : نعم. والشفق والغسق والفلق إذا اتسق إن ما أنبأتك به لحق. قال : ثم قدم عليه شق . فقال له : كقوله لسطيح وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان ؟ . قال : « نعم رأيت حممة خرجت من ظلمة. فوقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة. فلما قال له ذلك :

---

(١) فظعت : فظع الأمر : شديد شنيع جاوز المقدار والحد .

(٢) الحممة : جمعها حمم : كل ما احترق بالنار . ومن ذلك الحُمم التى تقذفها البراكين .

عرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد ، إلا أن سطيحاً قال : وقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة. وقال شق : وقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة فقال له الملك : ما أخطأت يا شق منها شيئا فما عندك في تأويلها ؟ . فقال : أحلف بما بين الحرتين من إنسان. ليتزلن أرضكم السودان فليغلبن على كل طفلة البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران فقال له الملك : وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن ؟ . أفي زماني أم بعده ؟. قال : لا بل بعده بزمان. ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن. ويذيقهم أشد الهوان. قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟ . قال : غلام ليس بدني ولا مدن يخرج عليهم من بيت ذي يزن. قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ . قال : بل ينقطع برسول مرسل يأتي بالحق والعدل من أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل. قال : وما يوم الفصل ؟ . قال يوم يجزي فيه الولات يدعي فيه من السماء بدعوات ، تسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع الناس فيه للميقات ، يكون فيه لمن اتقي الفوز والخيرات. قال : أحق ما تقول ؟ . قال : أي ورب السماء والأرض. وما بينهما من رفع وخفض. إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض. قال ابن اسحاق : فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالا : فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له : سابور بن خرزاذ فأسكنهم الحيرة . قال ابن إسحاق : فمن بقية ولد ربيعة بن نصر النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر يعني الذي كان نائبا على الحيرة لملوك الأكاسرة وكانت العرب تفد إليه وتمتدحه وهذا الذي قاله محمد بن إسحاق : من أن النعمان بن المنذر من سلالة ربيعة بن نصر ، قاله أكثر الناس . وقد روى ابن إسحاق أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جيء بسيف النعمان بن المنذر ، سأل جبير بن مطعم عنه ممن كان ؟. قال : من أشلاء قنص بن معد بن عدنان. قال ابن إسحاق : فالله أعلم أي ذلك كان؟.

قصة تبع أبي كرب مع أهل المدينة وكيف أراد غزو البيت الحرام ثم شرفه وعظمه وكساه الحلل فكان أول من كساه

قال ابن إسحاق : فلما هلك ربيعة بن نصر رجع ملك اليمن كله إلى حسان بن تبان أسعد أبي كرب وتبان أسعد تبع الآخر بن كنكيكرب بن زيد وزيد تبع الأول بن عمرو ذي الأذعار بن أبرهة ذي المنار بن الرائش بن عدي بن صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب كهف الظلم بن زيد بن سهل بن عمرو بن قس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث ابن قطن بن عريب ابن زهير بن أنس بن الهميسع بن العربجج والعربجج هو حمير بن سبأ الأكبر بن يعرب بن يشجب بن قحطان. قال عبد الملك بن هشام: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

قال ابن إسحاق : وتبان أسعد أبو كرب هو الذى قدم المدينة وساق الحبرين من اليهود إلى اليمن وعمرّ البيت الحرام وكساه وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن نصر ، وكان قد جعل

طريقه حين رجع من غزوة بلاد المشرق على المدينة ، وكان قد مر بها في بدأته فلم يهج أهلها وخلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة [١] فقدمها وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها ، فجمع له هذا الحي من الأنصار ورئيسهم عمرو بن طلحة أخو بني النجار ثم أحد بني عمرو بن مبذول واسم عامر بن مالك بن النجار ، واسم النجار- تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة عمرو بن عامر.

وقال ابن هشام : عمرو بن طلحة هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار . وطلة أمه وهي بنت عامر بن زريق الخزرجية.

قال ابن إسحاق : وقد كان رجل من بني عدي بن النجار يقال له : أحمر عدا على رجل من أصحاب تبع وجده يجد عذقاً له فضربه بمنجله فقتله وقال : إنما التمر لمن أبره فزاد ذلك تبعاً حنقاً عليهم فاقتتلوا فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فيعجبه ذلك منهم، ويقول : والله إن قومنا لكهام [٢]وحكي ابن إسحاق عن الأنصار أن تبعا إنما كان حنقه على اليهود أنهم منعوهم منه.

قال السهيلي : ويقال : إنه إنما جاء لنصرة الأنصار أبناء عمه على اليهود الذين نزلوا عندهم في المدينة على شروط ، فلم يفوا بها واستطالوا عليهم والله أعلم.

قال ابن إسحاق : فبينما تبع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة عالمان راسخان حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها ، فقالوا له : أيها الملك لاتفعل، فإنك إن أبيت إلا ماتريد حيل بينك وبينها ، ولم نأمن عليك جل العقوبة فقال لهما : ولم ذلك ؟ . قالا : هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان تكون داره وقراره . فتناهي ورأي أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة وأتبعها على دينهما. قال ابن إسحاق : وكان تبّعٌ وقومه أصحاب أوثان يعبدونها فتوجه إلى مكة ، وهي طريقه إلى اليمن حتى إذا كان بين عسفان وأمج أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان فقالوا له : أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثراً غفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلي . قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده ، وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده ، فلما أجمع لما قالوا ، أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك . فقالا له : ماأراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، مانعلم بيتاً لله عزّ وجلّ اتخذه في الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعا . قال : فماذا تأمراني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه؟. قالا : تصنع عنده مايصنع أهله تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذلل له حتى

---

(١) غيلة : غدراً .

(٢) الكهام ، والكهيم : الكليل البطيء المسن الذى لا مال عنده .

تخرج من عنده ، قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ . قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عليه السلام ، وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله وبالدماء التي يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك أو كما قالا له . فعرف نصحهما وصدق حديثهما . وقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم. ثم مضي حتى قدم مكة . فطاف بالبيت ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل وأرى في المنام أن يكسوا البيت فكساه الخُصُف [1] . ثم أُري في المنام أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعافر . ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملأ والوصائل ، وكان تبع فيما يزعمون أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جرهم وأمرهم بتطهيره وأن لا يقربوه دماً ولا ميتة ولاً مئلاتا وهي المحايض وجعل له باباً ومفتاحاً ، ففي ذلك قالت سبيعة بنت الأحب : تذكر ابنها خالد به عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب، وتنهاه عن البغي بمكة وتذكر له ما كان من أمر تبع فيها.

أَبُـــيَّ لا تَظْلِـــمْ بمـــ ـــكَّة لا الصغيرَ ولاَ الكبيرْ
واحفَـــظْ محـــارِمَهـــا بُـــ ـــنَّى ولا يَغُـــرَّنْكَ الغـــرورْ
أَبُنَـــيَّ مَـــن يَظْـلـمْ بمـ ـــكَّـــة يلقَ أطرافَ الشُّرُورْ
أَبُنَـــيَّ يَضْـــرِبْ وجـــهَـــه ويلـــجْ بخدّيـــه السَّعيـــر
أبنـــي قـــد جـــرّبْتُهـــا فوجـــدتُ ظالمَهَـــا يَبُـــور
اللّـــهُ آمنَهـــا ومـــا بُنيتْ بعَرْصَتَهـــا قُصـــور[2]
واللّـــهُ آمـــنَ طَيـــرَهـــا والعصمُ تأمَنُ فـــي ثَبيـــر[3]
ولقـــدْ غـــزاهـــا تُبَّـــع فكَســـا بنيتّهـــا الحبيـــر
وأذلّ ربـــي ملـــكَـــهُ فيهـــا فـــأوفـــى بالنّـــذُور
يمشـــي إليَهـــا حافيـــاً بفنائهـــا ألفـــا بعيـــر
ويظـــلّ يُطعـــمُ أهلَهـــا لَحـــمَ المهـــارَي والجَـــزور
يسقيهمُ العسَـــلَ المصفّـــى والرحيـــضَ مـــن الشـــعيـــر
والفيـــلَ أهلـــكَ جيشَـــه يُرمـــون فيهـــا بالصّخـــور
والملْـــك فـــي أقصَـــي البلا د وفي الأعاجـــم والخُـــزور
فاسمع إذا حُدِّثـــت وافهـــم كَيـــف عَـــاقبـــةُ الأمـــور

---

(١) الخُصفُ : الأثواب الغليظة .

(٢) العرصة : الساحة . وفناء الدار .

(٣) ثبير : جبل في ظاهر مكة .

قال ابن إسحاق : ثم خرج تبع متوجها إلى اليمن بمن معه من الجنود وبالحبرين ، حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه ، فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمن ، قال ابن إسحاق : حدثني أبو مالك بن ثعلبة بن أبي مالك القرظي . قال : سمعت إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدالله يحدّث أن تبعاً لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك ، وقالوا : لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه . وقال : إنه خير من دينكم . قالوا : تحاكمنا إلى النار . قال : نعم قال : وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأخذ الظالم ولا تضر المظلوم ، فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديها حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه فخرجت النار إليهم ، فلما أقلبت نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فزجرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها ، فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما و لم تضرهما ، فاصفقت عند ذلك حمير على دينهما فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن.

قال ابن إسحاق : وقد حدثني محدث أن الحبرين ومن خرج من حمير إنما اتبعوا النار ليردوها وقالوا : من ردها فهو أولي بالحق ، فدنا منها رجال حمير بأوثانهم ليردوها فدنت منهم لتأكلهم فحادوا عنها و لم يستطيعوا ردها ، فدنا منها الحبران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة وهي تنقص عنهما حتى رداها لي مخرجها الذي خرجت منه ، فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما والله أعلم ، أي ذلك كان. قال ابن إسحاق : وكان رئام بيتاً لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون فيه إذ كانوا على شركهم ، فقال الحبران لتبع : إنما هو شيطان يفتنهم بذلك فخل بيننا وبينه . قال : فشأنكما به ، فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمين كلباً أسود فذبحاه ثم هدما ذلك البيت فبقاياه اليوم كما ذكر لي بها آثار الدماء التي كانت تهراق عليه ، وقد ذكرنا في تفسير الحديث الذي ورد عن النبي ﷺ : « **لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان أسلم** » [1] . قال السهيلي : ورروي معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال: « **لا تسبوا أسعد الحميري فإنه أول من كسي الكعبة** ».

قال السهيلي وقد قال تبع حين أخبره الحبران عن رسول الله ﷺ شعراً :

شهـــدْتُ علـــى أحمَـــدٍ أنـــــه ... رسولُ منَ اللـــه بـــاريَ النســـمْ

فلو مُـــدَّ عمـــري إلى عُمـــره ... لكنـــتُ وزيـــراً له وابـــنَ عمْ

(١) **ضعيف** : رواه أحمد (٥ / ٣٤٠) والطبراني في " الكبير " (٦ / ٢٠٣) رقم (٦٠١٣) عن سهل بن سعد الساعدي ، وقال الهيثمي في " المجمع " (٨ / ٧٦) فيه عمرو بن جابر وهو كذاب أ . هـ ، والحديث رواه أيضاً الطبراني في الكبير (١١ / ٢٣٥) رقم (١١٧٩٠) وقال الهيثمي في " المجمع " (٨ / ٧٦) فيه أحمد بن أبي بزة المكي و لم أعرفه .

وجاهدتُ بالسيــفِ أعــداءَه وفرّجتُ عــن صَــدْرِه كلَّ همْ

قال : ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الأنصار ويحفظونه بينهم وكان عند أبي أيوب الأنصاري رَضي الله عنه وأرضاهٌ. قال السهيلي : وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب « القبور» أن قبراً حفر بصنعاء فوجد فيه امرأتان معهما لوح من فضة مكتوب بالذهب وفيه هذا قبر لميس وحبي ابنتي تبع ، ماتا وهما تشهدان : أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

ثم صار الملك فيما بعد إلى حسان بن تبان أسعد وهو أخو اليمامة الزرقاء التي صلبت على باب مدينة جو فسميت من يومئذ اليمامة. قال ابن إسحاق : فلما ملك ابنه حسان بن أبي كرب تبان أسعد سار بأهل اليمن يريد أن يَطَأَ بِهِمْ أرض العرب وأرض الأعاجم ، حتى إذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير وقبائل اليَمن السير معه ، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهليهم ، فكلموا أخاً له يقال له : عمرو . وكان معه في جيشه ، فقالوا له : أقتل أخاك حسان ونملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا ، فأجابهم فاجتمعوا على ذلك إلا ذارعين الحميري ، فإنه نهى عمراً عن ذلك فلم يقبل منه فكتب ذو رعين رقعة فيها هذان البيتان :

ألا مَــنْ يشتــري سَهــَراً بنَــوم سعيدٌ مَنْ يبيتُ قَريــــرَ عَيْــــن
فأما حِميــرٌ غدَرتْ وخانَتْ فمعــذِرةُ الإله لذي رُعَيــن

ثم استودعها عمراً. فلما قتل عمرو أخاه حسان ورجع إلى اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فسأل الأطباء والحذاق من الكهان والعرافين عما به فقيل له : إنه والله ما قتل رجل أخاه قط أو ذا رحم بغياً إلا ذهب نومه وسلط عليه السهر فعند ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه فلما خلص إلى ذي رعين. قال له : إن لي عندك براءة. قال : وما هي ؟ . قال : الكتاب الذي دفعته إليك فأخرجه فإذا فيه البيتان فتركه ورأى أنه قد نصحه وهلك عمرو فمرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا.

وثوب لخنيعة ذي شناتر على ملك اليمن

وقد ملكها سبعاً وعشرين سنة

قال ابن إسحاق : فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت الملك، يقال له : لخنيعة ينوف ذو شناتر فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم، وكان مع ذلك أمرءا فاسقاً يعمل عمل قوم لوط، فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه في مشربة له قد صنعها لذلك لئلا يملك بعد ذلك. ثم يطلع من مشربته تلك إلى حرسه ومن حضر من جنده قد أخذ مسواكاً فجعله في فيه ليعلمهم أنه قد فرغ منه، حتى بعث إلى زرعة ذي نواس بن تبان أسعد أخي حسان وكان صبياً صغيراً حين قتل أخوه حسان ثم شب غلاماً جميلا وسيما ذا هيئة وعقل فلما أتاه رسوله عرف ما يريد منه فأخذ سكينا جديداً لطيفاً فخبأه بين قدميه ونعله؛ ثم أتاه فلما

خلا معه وثب إليه فواثبه ذو نواس فوجأه [1]حتى قتله؛ ثم حزّ رأسه فوضعه في الكوة التي كان يشرف منها ووضع مسواكه [2] في فيه. ثم خرج على الناس، فقالوا له : ذا نواس أرطب أم يباس ؟ . فقال : سل نخماس استرطبان ذو نواس استرطبان لا باس فنظروا إلى الكوة فإذا رأس لخنيعة مقطوع. فخرجوا في أثر ذي نواس حتى أدركوه فقالوا : ماينبغي أن يملكنا غيرك إذ أرحتنا من هذا الخبيث فملكوه عليهم، واجتمعت عليه حمير، وقبائل اليمن فكان آخر ملوك حمير وتسمي يوسف فأقام في ملكه زماناً، وبنجران بقايا من أهل دين عيسي ابن مريم عليه السلام على الإنجيل أهل فضل واستقامة من أهل دينهم لهم رأس يقال له : عبد الله بن الثامر. ثم ذكر ابن إسحاق سبب دخول أهل نجران في دين النصاري وأن ذلك كان على يدي رجل يقال له : فيميون كان من عباد النصاري بأطراف الشام وكان مجاب الدعوة وصحبه رجل يقال له : صالح فكانا يتعبدان يوم الأحد ويعمل فيميون بقية الجمعة في البناء وكانا يدعوان للمرضي والزمني [3]وأهل العاهات فيشفون ثم استأسره وصاحبه بعض الأعراب فباعوهما بنجران فكان الذي اشتري فيميون يراه إذا قام في مصلاه بالبيت الذي هو فيه في الليل يمتلئ عليه البيت نوراً فأعجبه ذلك من أمره وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة يعلقون عليها حلي نسائهم ويعكفون عندها فقال فيميون لسيده : أرأيت إن دعوت الله على هذه الشجرة فهلكت أتعلمون أن الذي أنتم عليه باطل ؟ قال : نعم فجمع له أهل نجران وقام فيميون إلى الصلاة فدعا الله عليها فأرسل الله عليها قاصفاً فجعفها [4]من أصلها ورماها إلى الأرض فاتبعه أهل نجران على دين النصرانية وحملهم على شريعة الإنجيل حتى حدثت فيهم الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرض فمن هنالك كانت النصرانية بنجران من أرض العرب ثم ذكر ابن إسحاق : قصة عبد الله بن الثامر حين تنصر على يدي فيميون وكيف قتله وأصحابه ذو نواس وخد لهم الأخدود، وقال ابن هشام : وهو الحفر المستطيل في الأرض مثل الخندق وأجج فيه النار وحرقهم بها وقتل آخرين حتى قتل قريباً من عشرين ألفاً كما قدمنا ذلك مبسوطاً في أخبار بني إسرائيل وكما هو مستقصي في تفسير سورة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج : ١] من كتابنا التفسير ولله الحمد.

خروج الملك باليمن من حمير إلى الحبشة السودان

كما أخبر بذلك شق وسطيح الكاهنان، وذلك أنه لم ينج من أهل نجران إلا رجل واحد يقال له : دوس ذو ثعلبان على فرس له، فسلك الرمل فأعجزهم فمضي على وجهه ذلك حتى أتي قيصر ملك الروم فاستنصره على ذي نواس وجنوده وأخبره بما بلغ منهم، وذلك لأنه نصراني على دينهم. فقال له: بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين

---

(١) وجأ : طعن .

(٢) المسواك : عودٌ من الطيب يدلك به الفم .

(٣) الزمني : أصحاب العاهات .

(٤) جفف : قلع .

وهو أقرب إلى بلادك. فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره. فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلا منهم؛ يقال له : أرياط ومعه في جنده أبرهة الأشرم، فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس، وسار إليه ذو نواس في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن. فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه، فلما رأي ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه فرسه في البحر. ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح [1] البحر. حتى أفضي به إلى غمرة فأدخله فيها، فكان آخر العهد به ودخل أرياط اليمن وملكها.

وقد ذكر ابن إسحاق هاهنا : أشعاراً للعرب فيما وقع من هذه الكائنة الغريبة ، وفيها فصاحة وحلاوة وبلاغة وطلاوة ولكن تركنا إيرادها خشية الإطالة وخوف الملالة وبالله المستعان.

خروج أبرهةَ الأشرم على أرياطَ واختلافهما

قال ابن إسحاق : فأقام أرياط بأرض اليمن سنين في سلطانه ذلك؛ ثم نازعة أبرهة حتى تفرقت الحبشة عليهما. فانحاز إلى كل منهما طائفة. ثم سار أحدهما إلى الآخر. فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط إنك لن تصنع بأن تلقي الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئا شيئا، فأبرز لي وأبرز لك، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده، فأرسل إليه أرياط أنصفت فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً لحيما وكان ذا دين في النصرانية وخرج إليه أرياط وكان رجلاً جميلاً عظيماً طويلاً وفي يده حربة له. وخلف أبرهة غلام يقال له : عتودة يمنع [2] ظهره فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهه يريد يافوخه. فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته فبذلك سمي أبرهة الأشرم. وحمل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله وانصرف جند أرياط إلى أبرهة. فاجتمعت عليه الحبشة باليمن وودي أبرهة أرياط. فلما بلغ ذلك النجاشي ملك الحبشة الذي بعثهم إلى اليمن غضب غضباً شديداً على أبرهة وقال : عدا على أميري فقتله بغير أمري ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته فحلق أبرهة رأسه وملأ جرابا من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشي ثم كتب إليه : أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا في أمرك وكــل طاعته لك إلا أني كنت أقوي على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس منه. وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك وبعثت إليه بجراب تراب من أرضي ليضعه تحت قدمه فيبر قسمه في. فلما انتهي ذلك إلى النجاشي رضي عنه وكتب إليه أن أثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري فأقام أبرهة باليمن .

---

(١) ضحضاح : الماء اليسير – القريب من القعر .

(٢) يمنع ظهره : يحميه من الخلف .

سبب قصد أبرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل : ١ – ٥] .

قيل : أول من ذلل الفيلة : إفريدون بن أثفيان الذي قتل الضحاك قاله الطبري وهو أول من اتخذ للخيل : السرج. وأما أول من: سخر الخيل وركبها فطهمورث وهو الملك الثالث من ملوك الدنياويقال : إن أول من ركبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب والله تعالى أعلم.

ويقال : إن الفيل مع عظمة خلقه يفرق [1] من الهر. وقد احتال بعض أمراء الحروب في قتال الهنود بإحضار سنانير إلى حومة الوغي فنفرت الفيلة.

قال ابن إسحاق : ثم إن أبرهة بنى القليس بصنعاء كنيسة لم يُرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكتب إلى النجاشي إني قد بنيت لك كنيسة لم ين مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب.

فذكر السهيلي: أن أبرهة استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخرهم فيها أنواعاً من السخر. وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة. وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة وركب فيها صلباناً من ذهب وفضة. وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس وجعل ارتفاعها عظيما جدا واتساعها باهراً فلما هلك بعد ذلك أبرهة وتفرقت الحبشة كان من يتعرض لأخذ شيء من بنائها وأمتعتها أصابته الجن بسوء. وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين – كعيب وامرأته – وكان طول كل منهما ستون ذراعاً . فتركها أهل اليمن على حالها. فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح أول خلفاء بني العباس فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضوها حجراً حجراً ودرست آثارها إلى يومنا هذا.

قال ابن إسحاق : فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي غضب رجل من النسأة من كنانة الذين ينسئون[2] شهر الحرام إلى الحل بمكة أيام الموسم كما قررنا ذلك عند قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة : ٣٧] الآية قال ابن إسحاق: فخرج الكناني حتى أتى القليس فقعد فيه، أي أحدث حيث لا يراه أحد ، ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر أبرهة بذلك. فقال: من صنع هذا ؟. فقيل له : صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك: إنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا، فغضب فجاء فقعد فيها أي أنه ليس لذلك بأهل. فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه. ثم أمر الحبشة فتهيأت

(١) فرق : فزع الخوف .

(٢) ينسئون شهر الحرام : كانت العرب تفعله فى الجاهلية . فنهى الله عزَّ وجَلَّ عنه .

وتجهزت. ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقا عليهم حين سمعوا: بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له : ذو نفر. فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريده من هدمه وإخرابه. فأجابه من أجابه إلى ذلك. ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتي به أسيراً. فلما أراد قتله قال له ذو نفر : يا أيها الملك لا تقتلني فإنه عسي أن يكون بقائي معك خيراً لك من القتل. فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق وكان أبرهة رجلاً حليماً ثم مضي أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم، وهما- شهران وناهس - ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له نفيل أسيراً فأتي به فلما هم بقتله قال له نفيل أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم - شهران وناهس - بالسمع والطاعة. فخلي سبيله، وخرج به معه يدله. حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف في رجال ثقيف، فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف. وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم.

قال ابن إسحاق : واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة. قال : فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة. فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس. فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت قبره العرب فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس، وقد تقدم في قصة ثمود : أن أبا رغال كان رجلاً منهم وكان يمتنع بالحرم فلما خرج منه أصابه حجر فقتله وأن رسول الله ﷺ قال لأصحابه « **وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب** » فحفروا فوجدوهما قال : وهو أبو ثقيف.

قلت: والجمع بين هذا وبين ما ذكر ابن إسحاق : أن أبا رغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلي ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول أيضا والله أعلم. وقد قال جرير :

إذا ماتَ الفَرَزْدَقُ فارجُمُوه ... كرجمِكُـــمُ لِقَبْـــــرِ أبي رُغَالِ

الظاهر أنه الثاني. قال ابن إسحاق : فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له : الأسود بن مفصود على خيل له حتى انتهي إلى مكة. فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم. وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم - وهو يومئذ كبير قريش وسيدها - فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله. ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك. وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة. وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له : إن الملك يقول : إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا لنا دونه

بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حربي فائتني به فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له : عبد المطلب بن هاشم. فجاءه فقال له : ما أمره به أبرهة. فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ومالنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام – أو كما قال – فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه فقال له حناطة : فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتيه بك. فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذي نفر وكان له صديقاً – حتى دخل عليه وهو في محبسه فقال له: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له : ذو نفر وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشيا ؟ ما عندي غناء في شيء مما نزل بك إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي. فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك. فقال : حسبي. فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت. قال : أفعل. فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة وهو الذي يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال فائذن له عليك فليكلمك في حاجته فأذن له أبرهة قال : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه. فنـــزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال له : ذلك الترجمان فقال : حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي فلما قال له ذلك : قال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه. فقال: ما كان ليمتنع مني . قال: أنت وذاك. فرد على عبد المطلب إبله.

قال ابن إسحاق : ويقال : إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة يعمر بن نفاثة بن عدي، بن الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة سيد بني بكر وخويلد بن واثلة سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم ذلك. فالله أعلم أكان ذلك أم لا ؟ .

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في رؤوس الجبال. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده. وقال عبد المطلب – وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هُـــــــمَّ إنَّ العبــــــدَ يمـــــــنعُ رَحْلَــه فامنَــعْ رِحَالَــك

لا يَغلبـــــنّ صـــليبُهُـــــمٌ ... ومحـــالُهم غــــدْراً مِحَالَــــك
إن كنـــتَ تاركَـــهم وقبــــ ... ــلَتَنَا فَـــأَمْــــرٌ مَا بَدَالَـــكَ

قال ابن هشام : هذا ما صح له منها. وقال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال يتحرزون [1] فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه، فقال : أبرك محمود وارجع راشداً من حيث أتيت. فإنك في بلد الله الحرام وأرسل أذنه. فبرك الفيل.

قال السهيلي : أي سقط إلى الأرض وليس من شأن الفيلة أن تبرك؛ وقد قيل : إن منها ما يبرك كالبعير فالله أعلم.

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبي فضربوا رأسه بالطبرزين [2] ليقوم فأبي فأدخلوا محاجن [3] لهم في مراقه فبزغوه [4] بها ليقوم فأبي فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها، حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك وليس كلهم أصابت وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاؤا. ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن فقال نفيل في ذلك :

ألا حيِّيـــت عنّـــــا يـــــا رُدَينا ... نَعمنـــاكُم مــــعَ الإصباحِ عَيْنـــا
ردينــــــةُ لَـــو رأيتِ فــــلا تَريـــــه ... لـــدي جنبِ المحصّـــبِ ما رأينـــا
إذًا لعذَرْتنـــي وحمَـــــدت أمــــري ... ولم تأس على ما فـــاتَ بينـــا
حَمــــدتَ اللهَ إذْ أبَصَـــــرتَ طيـــــراً ... وخفتُ حجـــــارةً تُلقَـــي علَيـــا
وَكَـــــلٌّ القـــومِ يسألُ عن نُفَيْـــل ... كـــأنّ عليَّ للحُبْشَـــانِ دَيْنـــا

قال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة تمت قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر. فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

---

(١) التحرز : التحصن فى موضع حصين .
(٢) الطبرزين : الفأس .
(٣) المحجن : العصا المعوجّة ، أو كلُّ معوج .
(٤) بزغ : شرَط .

قال ابن إسحاق : حدثني يعقوب بن عتبة : أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رؤي بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام.

قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمداً ﷺ كان مما يعدد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله مارد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾ [الفيل : ١ - ٥] .

ثم شرع ابن إسحاق وابن هشام : يتكلمان على تفسير هذه السورة والتي بعدها، وقد بسطنا القول في ذلك في كتابنا التفسير بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى وله الحمد والمنة.

قال ابن هشام : الأبابيل الجماعات، ولم تتكلم لها العرب بواحد علمناه. قال : وأما السجيل فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة : أنه عند العرب الشديد الصلب. قال وزعم بعض المفسرين : أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة: وأنها سنج وجل، فالسنج الحجر، والجل الطين. يقول : الحجارة من هذين الجنسين الحجر والطين. قال : والعصف ورق الزرع الذي لم يقصب. وقال الكسائي : سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل إبيل. وقال كثيرون من السلف: الأبابيل الفرق من الطير التي يتبع بعضها بعضا من ههنا وههنا. وعن ابن عباس كان لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب وعن عكرمة كانت رؤوسها كرؤوس السباع خرجت عليهم من البحر وكانت خضراً. وقال عبيد بن عمير : كانت سوداً بحرية في مناقيرها وأكفها الحجارة. وعن ابن عباس كانت أشكالها كعنقاء مغرب وعن ابن عباس كان أصغر حجر منها كرأس الإنسان، ومنها ما هو كالإبل. وهكذا ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق وقيل : كانت صغاراً. والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة، حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي شيبة؛ حدثنا أبومعاوية عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن عبيد بن عمير. قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل، بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار، حجرين في رجليه وحجراً في منقاره، قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم. ثم صاحت وألقت ما في رجليها ومناقيرها. فما يقع حجر على رأس رجل إلاّ خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً .

وقد تقدم أن ابن إسحاق .قال : وليس كلهم أصابته الحجارة، يعني بل رجع منهم راجعون إلى اليمن حتى أخبروا أهلهم بما حلّ بقومهم من النكال؛ وذكروا : أن أبرهة رجع وهو

يتساقط أنملة أنملة فلما وصل إلى اليمن انصدع صدره فمات - لعنه الله - . وروي ابن إسحاق. قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن سمرة، عن عائشة. قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. وتقدم أن سائس الفيل كان اسمه أنيسا فأما قائده فلم يسم والله أعلم.

وذكر النقاش في تفسيره أن السيل احتمل جثثهم فألقاها في البحر . قال السهيلي : وكانت قصة الفيل أول المحرم من سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين .

قلت : وفي عامها وُلِدَ رسول الله ﷺ على المشهور. وقيل : كان قبل مولده بسنين كما سنذكر إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

ثم ذكر ابن إسحاق ما قالته العرب من الأشعار في هذه الكائنة العظيمة التي نصر الله فيها بيته الحرام، الذي يريد أن يشرفه ويعظمه ويطهره ويوقره ببعثة محمد ﷺ ، وما يشرع له من الدين القويم، الذي أحد أركانه الصلاة بل عماد دينه ، وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهرة، ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش إذ ذاك على النصاري الذين هم الحبشة: فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها من مشركي قريش وإنما كان النصر للبيت الحرام وإرهاصا وتوطئة لبعثة محمد ﷺ فمن ذلك ما قاله عبد الله بن الزبعري السهمي :

تنكّلوا عن بطنِ مكّةَ إنّها ... كانتْ قديماً لا يُرام حَريمُها[1]

لم تُخلَقِ الشّعري ليالِيَ حُرِّمت ... إذْ لا عزيزَ من الأنام يرومُها

سائلْ أميرَ الحبْشِ عنها ما رأي ... فلسوفَ يُنبي الجاهلينَ عليمُها

ستّون ألفاً لم يَؤوبوا أرضَهم ... بلْ لم يعشْ بعدَ الإيابِ سَقيمُها

كانتْ بها عادُ وجُرهُم قبلَهم ... واللّهُ من فوقِ العبادِ يُقيمها

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت الأنصاري المدني :

ومنْ صُنعه يومَ فيلِ الحُبو ... شِ إذْ كلمّا بعثُوه رَزَم[2]

محاجَنهُم تحتَ أقرابِه ... وقدْ شرّموا أنفَه فانخرَم

وقد جَعلوا سوْطَه مُغْولاً ... إذا يَمّموه قَفاهُ كَلَم

فولّي وأدْبَر أدراجَهُ ... وقدْ باءَ بالظلم من كانَ ثَم

فأرسلَ من فوقهم حاصباً ... فَلَفّهُم مثلَ لفّ القزَم

---

(١) وقيل أيضاً : تنكّبوا : أى ارجعوا خوفاً .

(٢) رزم : صوّت .

تحضّ على الصّبر أحبارُهم ... وقد ثأجوا كثُؤاجِ الغَنَم

ومن ذلك قول أبي الصلت ربيعة بن أبي ربيعة وهب بن علاج الثقفي قال ابن هشام ويروي لأمية بن أبي الصلت :

إن آيات ربِّنا ثاقباتٌ ... ما يُماري فيهنّ إلا الكَفُورُ
خلَق الليلَ والنهارَ فكلٌّ ... مستبينٌ حسابُهُ مقدورُ
ثم يجلو النهارَ ربٌّ رحيمٌ ... بمهاة شعاعها منشورُ
حبسَ الفيلَ بالمغمس حتى ... صارَ يحبو كأنّه معقورُ
لازماً حلقة الجِران كما قُـ ... ـدَّ من صخرِ كبكبٍ محدور[1]
حولَه من ملوكَ كِندَةَ أبطالَ ... ملاويثُ في الحَروبِ صقورَ
خلفوه ثم ابذعَرّوا جميعاً ... كلُّهم عظُم ساقِه مكسورُ[2]
كل دينٍ يومَ القيامة عند اللـ ... ـه إلا دينَ الحنيفةِ بور

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت أيضاً :

فقَوموا فَصلّوا ربَّكم وتمسحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعِندكُمَ منهُ بلاءٌ مصدَّقٌ ... غداةَ أَبي يكسوم هادي الكتائبَ
كَتيبتُهُ بالسَّهْلِ تمشي ورَجْله ... على القاذفاتِ في رؤسِ المناقب
فلما أتاكم نصرُ ذِي العرش رَدَّهُم ... جنود المليكِ بين ساف وحصب[3]
فولوا سِراعاً هاربين ولم يؤبْ ... إلى أهلهِ م الَحبش غير عصائب

ومن ذلك قول عبيد الله بن قيس الرقيات في عظمة البيت وحمايته بهلاك من أراده بسوء :

كادَه الأشرمُ الذي جاء بالفيـ ... ـلِ فولّي وجيشُهُ مَهْزُومُ
واستهلت عليهم الطير بالجنـ ... ـدَل حتى كأنه مَرجُومُ
ذاك من يغزهِ من الناس يرِ ... جعْ وهو فلٌ من الجيوشِ ذميم

قال ابن إسحاق وغيره : فلما هلك أبرهة ملك الحبشة بعده ابنه يكسوم. ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة وهو آخر ملوكهم. وهو الذي انتزع سيف بن ذي يزن الحميري الملك من يده بالجيش الذين قدم بهم من عند كسري أنو شروان كما سيأتي بيانه .

وكانت قصة الفيل في المحرم سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين، وهو الثاني إسكندر بن فلبس المقدوني الذي يؤرخ له الروم، ولما هلك أبرهة وابناه وزال ملك الحبشة عن

---

(١) قدَّ : اقتطع .
(٢) ابذعرّوا : تفرقوا وفرّوا .
(٣) ساف وحاصب : رياح شديده ، تسفُّ التراب .

اليمن، هجر القليس الذي كان بناه أبرهة وأراد صرف حج العرب إليه لجهله وقلة عقله. وأصبح يبابا لا أنيس به. وكان قد بناه على صنمين، وهما : كعيب وامرأته، وكانا من خشب طول كل منهما ستون ذراعاً من السماء ، وكانا مصحوبين من الجان، ولهذا كان لا يتعرض أحد إلى أخذ شيء من بناء القليس وأمتعته إلا أصابوه بسوء. فلم يزل كذلك إلى أيام السفاح أول خلفاء بني العباس، فذكر له أمره وما فيه من الأمتعة والرخام الذي كان أبرهة نقله إليه من صرح بلقيس الذي كان باليمن فبعث إليه من خربه حجراً حجراً؛ وأخذ جميع ما فيه من الأمتعة والحواصل هكذا ذكره السهيلي والله أعلم.

خروج الملك عن الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذي يزن

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : فلما هلك أبرهة ملك الحبشة يكسوم بن أبرهة وبه كان يكني، فلما هلك يكسوم ملك اليمن من الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة. قال : فلما طال البلاء على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري وهو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس، بن وائل بن الغوث، بن قطن، بن عريب، بن زهير، بن أيمن، بن الهميسع، بن العريجج، وهو حميربن سبأ- وكان سيف يكنى أبا مرة - حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكي إليه ما هو فيه وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم هو ويخرج إليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن فلم يُجبْهُ . فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسري على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحبشة. فقال له النعمان : إن لي على كسري وفادة في كل عام فأقم عندي حتى يكون ذلك ففعل ثم خرج معه فأدخله على كسري وكان كسري يجلس في إيوان مجلسه الذي فيه تاجه وكان تاجه مثل القنقل [1] العظيم فيما يزعمون يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة معلقا بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك، وكانت عنقه لا تحمل تاجه إنما يستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك ثم يدخل رأسه في تاجه فإذا استوي في مجلسه كشف عنه الثياب فلا يراه أحد لم يره قبل ذلك إلا برك هيبة له. فلما دخل عليه طأطأ رأسه فقال الملك : إن هذا الأحمق يدخل على من هذا الباب الطويل ثم يطأطئ رأسه. فقيل : ذلك لسيف فقال : إنما فعلت هذا لهمي لأنه يضيق عنه كل شيء . ثم قال : أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة. قال كسري : أي الأغربة الحبشة أم السند ؟ قال : بل الحبشة فجئتك لتنصرني ويكون ملك بلادي لك : فقال له كسري: بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورط جيشا من فارس بأرض العرب لا حاجة لي بذلك، ثم أجازه بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة فلما قبض ذلك منه سيف خرج فجعل ينثر تلك الورق للناس،فبلغ ذلك الملك فقال :

---

(١) القنقل : هو مكيال يسع ثلاثة وثلاثين منٌّ . حكاه السهيلي .

إن لهذا لشأنا ثم بعث إليه فقال : عمدت إلى حباء الملك تنثره للناس. قال : وما أصنع بحباك؟. ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة يرغبه فيها، فجمع كسري مرازبته فقال لهم : ما ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له ؟. فقال. قائل : أيها الملك إن في سجونك رجالا قد حبستهم للقتل فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم وإن ظفروا كان ملكا أزددته، فبعث معه كسري من كان في سجونه. وكانوا ثمانمائة رجل واستعمل عليهم وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسباً وبيتاً فخرجوا في ثمان سفائن فغرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه وقال له : رجلي ورجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً فقال له وهرز: أنصفت وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن وجمع إليه جنده فأرسل إليهم وهرز: ابنا له ليقاتلهم فيختبر قتالهم، فقتل ابن وهرز : فزاده ذلك حنقا عليهم فلما تواقف الناس على مصافهم. قال وهرز : أروني ملكهم. فقالوا له : أتري رجلا على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؟ قال : نعم. قالوا : ذلك ملكهم فقال : اتركوه قال فوقفوا طويلا. ثم قال : علام هو ؟. قالوا : قد تحول على الفرس. قال : اتركوه فتركوه طويلا ثم قال: علام هو ؟. قالوا : على البغلة. قال وهرز : بنت الحمار ! ذل وذل ملكه إني سأرميه فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أؤذنكم فإني قد أخطأت الرجل وإن رأيتم القوم قد استداروا به ولاثوا فقد أصبت الرجل فاحملوا عليهم. ثم وتر قوسه وكانت فيما يزعمون لا يوترها غيره من شدتها وأمر بحاجبيه فعصبا له ثم رماه فصك الياقوتة التي بين عينيه وتغلغلت النشابة في رأسه حتى خرجت من قفاه، ونكس عن دابته واستدارت الحبشة ولاثت به، وحملت عليهم الفرس فانهزموا فقتلوا وهربوا في كل وجه، وأقبل وهرز ليدخل صنعاء حتى إذا أتي بابها. قال : لا تدخل رايتي منكسة أبداً . اهدموا هذا الباب فهدم، ثم دخلها ناصباً رايته فقال سيف بن ذي يزن الحميري :

يظـنُ النسانُ بالملكيـ … ـن أنّهما قد التأما
وَمَنْ يَسْمَعْ بلأمِهما … فإن الخطب قد فَقما
قتلنا القَيْلَ مسروقا … وَرَوّينا الكثيبَ دما
وإنّ القيلَ قيلُ النا … س وهرز مقسَم قسَما
يذوقُ مشعشَعاً حتى … نفيء السبي والنَعما

ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على سيف يهنئونه بعود الملك إليه وامتدحوه. فكان من جملة من وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم، فبشره سيف برسول الله ﷺ وأخبره بما يعلم من أمره وسيأتي ذلك مفصلا في باب البشارات به عليه الصلاة والسلام.

قال ابن إسحاق : وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي قال ابن هشام ويروي لأمية بن أبي الصلت :

ليطلبِ الوتَرَ أمثالَ ابـــنُ ذي يَزَن ... ريّـــم[١] في البحرِ للأعـــداءِ أحوالا
يمَّــمَ قيصــراً لمــا حــانَ رحلتــه ... فلــم يــجد عندَه بعض الّذي سالا
ثــم انثني نحو كســـري بعدَ عاشرةٍ ... مــن الســنين يهيــن النفسَ والمالا
حتى أتــي ببني الأحــرارِ يحملُهُــم ... إنــك عَمري لقــد أسرعتَ قَلقالا[٢]
لله درُّهمَ مــن عصْــبة خــرجوا ما ... إن أري لهــمُ فــي النــاسِ أمثــالا
غُلبــاً مــرازبةً بيضــاً أســـاورةً ... أَســـداً تُرَبَّدُ في الغَيْضـــات أشــبالا
يرمُـــون عن شُــدُف كــأنها غبط ... بزمْخــرِ يُعجــل المــرمي إعجالا[٣]
أرسلتَ أُسداً على سودً الكلاب فقد ... أضحــي شريدُهُمُ فــي الأرضِ فُلاَّلا
فاشربْ هنيئاً عليكَ التــاجُ مرتفقــاً ... فــي رأس غمــدان دارا منك محلالا
واشربْ هنيئاً فقد شالتْ نعــامَتُهم ... وأسبــلِ اليــومَ في بــُرديْك إسبالا
تلكَ المكارمُ لاقِعبانِ مــن لبنٍ شِيبــا ... بماءٍ فعــادا بعـــدُ أبــوالا[٤]

يقال : - إن غمدان - قصر باليمن بناه يعرب بن قحطان وملكه بعده واحتله وائلة بن حمير بن سبأ ويقال : كان ارتفاعه عشرين طبقة فالله أعلم.

قال ابن إسحاق : وقال عدي بن زيد الحميري وكان أحد بني تميم :

ما بعـــدَ صنعــاءَ كــان يعمُــرُها ... ولاة مــلكِ جــــزْل مَــواهبُها
رفعهـــا مــــن بني لذي قزع الـــ ... ـــمزْنِ وتنـــدي مسكــاً محاربُها
محفــوفة بالجبـــالِ دون عـــري الـــ ... ـــكائـــد ما يُــرتقَــي غواربُها
يأنَـــس فيهــا صــوتُ النهام إذا ... جــاوبَهــا بالعشـــي قاصبها[٥]
ســاقتْ إليهَا الأسباب جندَ بني الـــ ... أحرارِ فــرسانُهــا مــواكبهــا
وفـــوّزتْ بالبغـــال توسَق بالحـــ ... ـــتفِ وتَسعــي بها تــوالبُهــا[٦]
حتى يراهـــا الأقوالُ من طرفِ المـــ ... ـــنقَــل مخضــرّةً كتــائبهـــا[٧]
يـــومَ ينـــادون آل بـــربــر واليكـــ ... ـــسُــومَ لا يفلحــن هاربهـــا

(١) عمرى : أصله لعمرى حذفت اللام للضرورة ، والقلقال : شدة الحركة . وبنى الأحرار : الفرس.
(٢) الشدف : جمع شدفاء : وهى القسى الفارسية ، والغبط : الهوادج ، شبه بها القسى لعلوها والزمخر: القصب الفارسى ، والسهم الدقيق .
(٣) ثالث نعامتهم : أى هلكوا ، وأصل النعامة : باطن القدم .
(٤) روى هذا البيت للنابغة الجعدى فى قصيدة .
(٥) النهام كغراب : طائر ، أو ذكر البوم . والقاصب : الذى يزمر فى القصب .
(٦) التوالب : جمع تولب ، وهو الجحش .
(٧) المنقل كمقعد : الطريق فى الجبل ، والمراد من أعالى حصونها .

فكـــان يـــوماً بـــاقي الحديث وزا | لت أمـــة ثـــابتٌ مـــراتبهـــا
وبُـــدّل الهيـــجُ بالزرافـــة والأ | يـــام خُـــون جَـــمٌّ عجـــائبها
بعـــدَ بني تُبّــع نخـــاورة | قـــد اطْمـــأنّتْ بهـــا مَرازبـــهَـــا

قال ابن هشام: وهذا الذي عنى سطيح بقوله يليه إرم ذي يزن يخرج عليهم من عدن، فلايترك منهم أحداً باليمن. والذي عنى شق بقوله: غلام ليس بدني ولا مدن يخرج من بيت ذي يزن.

قال ابن إسحاق : وأقام وهرز والفرس باليمن فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء الذين باليمن اليوم. وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها أرياط إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة وأخرجت الحبشة اثنتين وسبعين سنة توارث ذلك منهم أربعة : أرياط ثم أبرهة ثم يكسوم بن أبرهة ثم مسروق بن أبرهة.

ما آل إليه أمر الفرس باليمن

قال ابن هشام : ثم مات وهرز فأمرَّ كسري ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن. ثم مات المرزبان فأمرَّ كسري ابنه التينجان ثم مات فأمر ابن التينجان، ثم عزله عن اليمن وأمرَّ عليها باذان وفي زمنه بعث رسول الله ﷺ. قال ابن هشام : فبلغني عن الزهري أنه قال : كتب كسري إلى باذان أنه بلغني أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه، فبعث باذان بكتاب كسري إلى رسول الله ﷺ فكتب إليه رسول الله ﷺ « إن الله قد وعدني أن يقتل كسرى في يوم كذا وكذا من شهر كذا »، فلما أتى باذان الكتاب وقف لينتظر وقال : إن كان نبياً فسيكون ما قال : فقتل الله كسرى في اليوم الذي قال رسول الله ﷺ . [1] قال ابن هشام : على يدي ابنه شيرويه. قلت : وقال بعضهم : بنوه تمالأوا على قتله، وكسرى هذا – هو أبرويز بن هرمز بن أنو شروان بن قباز – ، وهو الذي غلب الروم في قوله تعالى : ﴿ الٓـم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ [الروم : ١ – ٣] كما سيأتي بيانه. قال السهيلي : وكان قتله ليلة الثلاثاء لعشر خلون من جمادي الأولي سنة تسع من الهجرة. وكان والله أعلم لما كتب إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام فغضب ومزق كتابه كتب إلى نائبه باليمن يقول له : ما قال. وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لرسول باذان : « إن ربي قد قتل الليلة ربك » فكان كما قال رسول الله ﷺ :قتل تلك الليلة بعينها، قتله بنوه لظلمه بعد عدله بعد ما خلعوه وولوا ابنه شيرويه فلم يعش بعد قتله أباه إلا ستة أشهر أو دونها. وفي هذا يقول خالد بن حق الشيباني :

وَكسْـــري إذ تقسّمه بنـــــوه | بأسياف كما اقتســـم اللحامَ
تمخّضَتِ المنونُ لـــه بيـــــومٍ | ألا ولكـــلّ حاملة تـــمـــامُ

(١) ضعيف : لانقطاعه وإرساله .

قال الزهري : فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول اللّٰه ﷺ فقالت الرسل : إلى من نحن يا رسول اللّٰه ؟ قال : « **أنتم منا وإلينا أهل البيت** ». قال: الزهري : ومن ثم . قال رسول اللّٰه ﷺ :سلمان منا أهل البيت . قلت : والظاهر أن هذا كان بعد ماهاجر رسول اللّٰه ﷺ إلى المدينة ولهذا بعث الأمراء إلى اليمن لتعليم الناس الخير ودعوتهم إلى اللّٰه عزّ وجلّ ، فبعث أولا خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب، ثم أتبعهما أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل. ودانت اليمن وأهلها للإسلام ومات باذان فقام بعده ولده شهر بن باذان، وهو الذي قتله الأسود العنسي حين تنبأ وأخذ زوجته كما سيأتي بيانه وأجلي عن اليمن نواب رسول اللّٰه ﷺ فلما قتل الأسود عادت اليد الإسلامية عليها. وقال ابن هشام : وهذا هو الذي عني به سطيح بقوله. نبي زكي يأتي الوحي من قبل العلي. والذي عني شق بقوله : بل ينقطع برسول مرسل، يأبتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل.

قال ابن إسحاق : وكان في حجر باليمن فيما يزعمون كتاب الزبور كتب بالزمان الأول: لمن ملك ذمار لحمير الأخيار ؟ لمن ملك ذمار للحبشة الأشرار؟ لمن ملك ذمار لفارس الأحرار ؟ لمن ملك ذمار لقريش التجار ؟ وقد نظم بعض الشعراء هذا المعني فيما ذكره المسعودي :

حيـــن شُدّت ذمارُ قِيلَ: لمنْ أنـــ ـــت ؟ فقالت: لحميَـــرِ الأخيار!
ثـــم سِيلتْ مَنْ بعدِ ذاك ؟ فقالـــ ـــتَ : أنا للحُبْشِ أخبثِ الأشرار!
ثم قالـــوا: مَنْ بعد ذاك؟ لمَنْ أنـــ ـــت ؟ فقـــالت: لفارسِ الأحرار!
ثم قالوا : مَنْ بعد ذاك ؟ لِمَنْ أنـــ ـــت ؟ فقالت: إلى قريش التجار!

وقال: إن هذا الكلام الذي ذكره محمد بن إسحاق، وجد مكتوبا عند قبر هود عليه السلام حين كشفت الريح عن قبره بأرض اليمن وذلك قبل زمن بلقيس بيسير في أيام مالك بن ذي المنار أخي عمرو ذي الأذعار بن ذي المنار ويقال: كان مكتوبا على قبر هود أيضاً وهو من كلامه عليه السلام حكاه السهيلي واللّٰه أعلم.

قصّة السّاطرون صاحب الحضر

وقد ذكر قصته هاهنا عبد الملك بن هشام لأجل ما قاله بعض علماء النسب: إنّ النعمان ابن المنذر الذي تقدم ذكره في ورود سيف بن ذي يزن عليه وسؤاله في مساعدته في رد ملك اليمن إليه إنه من سلالة الساطرون صاحب الحضر وقد قدمنا عن ابن إسحاق أن النعمان بن المنذر من ذرية ربيعة بن نصر وأنه روي عن جبير بن مطعم أنه من أشلاء قيصر بن معد بن عدنان فهذه ثلاثة أقوال في نسبه فاستطرد ابن هشام في ذكر صاحب الحضر. والحضر حصن عظيم بناه هذا الملك وهو الساطرون على حافة الفرات وهو منيف مرتفع البناء، واسع الرحبة والفناء، دوروه بقدر مدينة عظيمة وهو في غاية الإحكام والبهاء والحسن والسناء، وإليه يجيء ما

حوله من الأقطار والأرجاء. واسم الساطرون الضيزن بن معاوية بن عبيد بن أجرم من بني سليح ابن حلوان بن إلحاف بن قضاعة كذا نسبه ابن الكلبي. وقال: غيره كان من الجرامقة وكان أحد ملوك الطوائف وكان يقدمهم إذا اجتمعوا الحرب عدوهم من غيرهم وكان حصنه بين دجلة والفرات.

قال ابن هشام : وكان كسري سابور ذو الأكتاف غزا الساطرون ملك الحضر وقال غير ابن هشام : إنما الذي غزا صاحب الحضر سابور بن أردشير بن بابك أول ملوك بني ساسان أذل ملوك الطوائف ورد الملك إلى الأكاسرة. وأما سابور ذو الأكتاف بن هرمز فبعد ذلك بدهر طويل والله أعلم ذكره السهيلي.

قال ابن هشام : فحصره سنتين، وقال غيره : أربع سنين، وذلك لأنه كان أغار على بلاد سابور في غيبته بأرض العراق فأشرفت بنت الساطرون وكان اسمها النضيرة فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلا، فدست إليه أتتزوجني إنْ فتحت لك باب الحضر؟. فقال: نعم ! فلما أمسي ساطرون شرب حتى سَكر وكان لا يبيت إلا سكرانَ فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه وبعثت بها مع مولي لها ففتح الباب ويقال: بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع فولجوا منه إلى الحضر، ويقال : بل دلتهم على طلسم كان في الحضر وكان في علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء وتخضب رجلاها بحيض جارية بكر زرقاء. ثم ترسل فإذا وقعت على سور الحضر سقط ذلك الطلسم فيفتح الباب ففعل ذلك فانفتح الباب، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخربه وسار بها معه فتزوجها فبينما هي نائمة على فراشها ليلا إذ جعلت تململ لا تنام فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس. فقال لها سابور: أهذا الذي أسهرك ؟! قالت : نعم. قال : فما كان أبوك يصنع بك ؟ . قالت: كان يفرش لي الديباج، ويلبسني الحرير، ويطعمني المخ، ويسقيني الخمر. قال : أفكان جزاء أبيك ما صنعت به ؟ . أنت إلي بذلك أسرع، فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها ففيه يقول أعشـــي بن قيس بن ثعلبة :

ألـــم تَـــرَ للحضْــر إذْ أهلُــهُ ... بنعمي؟ وهلْ خـــالدُ مَن نَعـــم[1]؟
أقـــامَ بـــه شاهبـــورُ الجنـــــو ... دَ حوْليْـــن تضربُ فيه القَدم[2]
فلمّـــا دعـــا ربّـــــه دعوةً ... أنـــابَ إليــــه فلـــم ينتقـــم
فهـــل زادَهُ ربُـــــهُ قـــوّةً ... ومثْـــــل مجــــاوره لم يقـــم؟
وكـــانَ دعـــا قـــومَه دعـــوةً ... هلموا إلى أمركـــم قـــد صـــرم
فمـــــوتوا كـــراماً بأسيافكـــم ... أري الموتَ يجشِمـــه من جشـــم

وقال عدي بن زيد في ذلك :

(١) في رواية من سلم .
(٢) جمع قدوم وهو معروف .

والحضْـرُ صابتْ عليـه داهيةٌ من فوقـه أيـد مناكِبهــا
ربيّــةٌ لـم تــوقّ والـدَهـا لحينهـا إذ أضـاعَ راقبهـا
إذ غبقتــه صهبـاءَ صـافيةٌ والخمـر وهـل يَهيمُ شاربُها؟
فـأسلمتْ أهلَهـا بليلتهـا تظـنّ أن الرئيـسَ خاطـبُهـا
فكانَ حظُّ العروسِ إذ جُشِرَ الـ ـصبحُ دمـاء تجري سبائبُها[1]
وخرّبَ الحضر واستبيح وقـد أحرقَ في خدرهـا مشاجبهـا[2]

وقال عدي بن زيد أيضا :

أيهـا الشامـتُ المعيِّرُ بالـدهـ ـرأأنت المبـرّءُ الموفـورُ ؟!
أم لديـك العهـدَ الوثيق من الأ يامِ بل أنتَ جاهـلٌ مغـرورُ !
مـن رأيـت المنـونَ خلـدنَ أمَ من ذَا عليه من أن يضامَ خفيـرُ
أيْـنَ كسـري الملـوك أنـو شروان أم أيْنَ قَبلـه سابـورُ ؟
وبنو الأصفـر الكرام ملـوك الـ روم لم يبقَ منهـم مذكـورُ
وأخو الحضر إذ بنـاه وإذ دجلـ ـة تجبـي إليـه والخـابورُ
شـاده مرمـراً وجللـه كلـ ـساً فللطير فـي ذُراهُ وكـورُ
لـم يهبـه ريـبُ المنـون فبا نَ الملك عنـه فبابه مهجـور
وتـذكـر رَبَّ الخـورنـق إذ أشرف يوماً وللهـدي تفكير
سـرّه مالـه وكثـرةُ ما يمـ لك والبـرُ مُعْرضـاً والسَّديـرُ
فأرعـوي قلبـه وقال: ومـا عـ ـطةُ حـيّ إلى الممات يصـيرُ
ثـم أضحَوا كأنهـم ورقٌ جـفَّ فألْـوَت به الصَبـا والدبـورُ

قلت : ورب الخورنق الذي ذكره في شعره رجل من الملوك المتقدمين وعظه بعض علماء زمانه في أمره الذي كان قد أسرف فيه وعتا وتمرد فيه وأتبع نفسه هواها و لم يراقب فيها مولاها فوعظه بمن سلف قبله من الملوك والدول وكيف بادوا و لم يبق منهم أحد، وأنه ما صار إليه عن غيره إلا وهو منتقل عنه إلى من بعده، فأخذته موعظته وبلغت منه كل مبلغ فارعوي لنفسه، وفكر في يومه وأمسه، وخاف من ضيق رمسه. فتاب وأناب ونزع عما كان فيه وترك الملك ولبس زي الفقراء وساح في الفلوات وحظي بالخلوات وخرج عما كان الناس فيه من اتباع الشهوات وعصيان رب السموات وقد ذكر قصته مبسوطة الشيخ الإمام موفق بن قدامة المقدسي رحمه الله في كتاب التوابين وكذلك أوردها بإسناد متين الحافظ أبو القاسم السهيلي في « كتاب الروض » الأنف المرتب أحسن ترتيب وأوضح تبيين .

(١) سبائبها : وهى كالعمامة ونحوها .
(٢) مشاجبها : جمع مشجب ، وهو ما يعلّق عليه الثياب .

خبر ملوك الطوائف

وأما صاحب الحضر وهو ساطرون فقد تقدم أنه كان مقدما على سائر ملوك الطوائف وكان من زمن أسكندر بن فليبس المقدوني اليوناني وذلك لأنه لما غلب على ملك الفرس دارا ابن دارا وأذل مملكته وخرَّب بلاده واستباح بيضة قومه ونهب حواصله ومزق شمل الفرس شذر مذر عزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شمل ولا يلتئم لهم أمر فجعل يقر كل ملك على طائفة من الناس في إقليم من أقاليم الأرض ما بين عربها وأعاجمها فاستمر كل ملك منهم يحمي حوزته ويحفظ حصته ويستغل محلته فإذا هلك قام ولده من بعده أو أحد قومه فاستمر الأمر كذلك قريبا من خمسمائة سنة حتى كان أزدشير بن بابك من بني ساسان بن بهمن بن أسفنديار بن يشتاسب بن لهراسب فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه ورجعت الممالك برمتها إليه وأزال ممالك ملوك الطوائف ولم يبق منهم تالد ولا طارف. وكان تأخر عليه حصار صاحب الحضر الذي كان أكبرهم وأشدهم وأعظمهم إذ كان رئيسهم ومقدمهم فلما مات أزدشير تصدي له ولده سابور فحاصره حتى أخذه، كما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر بني إسماعيل وما كان من أمور الجاهلية إلى زمان البعثة

تقدم ذكر إسماعيل نفسه عليه السلام مع ذكر الأنبياء. وكيف كان من أمره حين احتمله أبوه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع أمه هاجر فأسكنها بوادي مكة بين جبال فاران حيث لا أنيس به ولا حسيس وكان إسماعيل رضيعاً. ثم ذهب وتركهما هنالك عن أمر الله له بذلك ليس عند أمه سوي جراب فيه تمرو وكاء فيه ماء فلما نفد ذلك أنبع الله لهاجر زَمْزم التي هي طعام طعم وشفاء سقم كما تقدم بيانه في حديث ابن عباس الطويل الذي رواه البخاري رحمه الله [1]. ثم نزلت جرهم وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين عند هاجر بمكة على أن ليس لهم في الماء شيء إلا ما يشربون منه وينتفعون به فاستأنست هاجر بهم وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرهم في كل حين يقال : إنه كان يركب البراق من بلاد بيت المقدس في ذهابه وإيابه ثم لما ترعرع الغلام وَشَبَّ وبلغ مع أبيه السعي كانت قصة الذبح كما تقدم بيان أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح ثم لما كبر تزوج من جرهم امرأة ثم فارقها وتزوج غيرها وتزوج بالسيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي وجاءته بالبنين الاثني عشر كما تقدم ذكرهم وهم : نابت وقيذر. ومنشا. ومسمع. وماشي. ودما. وأذر. ويطور. ونبشي. وطيما. وقيذما هكذا ذكره محمد بن إسحاق وغيره عن كتب أهل الكتاب وله ابنة واحدة اسمها نسمة وهي التي زوجها من ابن أخيه العيصو بن إسحاق بن إبراهيم فولد له منها الروم وفارس والأشبان أيضا في أحد القولين.

---

(١) رواه البخارى (٣٣٦٤) .

ثم جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون في أنسابهم إلى ولديه : نابت وقيذر، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور الحاكم في مكة والناظر في أمر البيت وزمزم نابت بن إسماعيل وهو ابن أخت الجرهميين، ثم تغلبت جرهم على البيت طمعا في بني أختهم فحكموا بمكة وما والاها عوضا عن بني إسماعيل مدة طويلة فكان أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت مضاص بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن عيبر بن نبت بن جرهم، وجرهم بن قحطان ويقال : جرهم بن يقطن بن عيبر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح الجرهمي. وكان نازلا بأعلي مكة بقعيقعان. وكان السميدع سيد قطوراء نازلا بقومه في أسفل مكة وكل منهما يعشر من مر به مجتازاً إلى مكة. ثم وقع بين جرهم وقطوراء فاقتتلوا فقتل السميدع واستوثق الأمر لمضاض وهو الحاكم بمكة والبيت لا ينازعه في ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم بمكة وبغيرها وذلك لخؤولتهم له ولعظمة البيت الحرام. ثم صار الملك بعده إلى ابنه الحارث. ثم إلى عمرو بن الحارث. ثم بغت جرهم بمكة وأكثرت فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام حتى ذكر أن رجلا منهم يقال له : إساف بن بغي وامرأة يقال لها : نائلة بنت وائل اجتمعا في الكعبة فكان منه إليها الفاحشة فمسخهما اللّه حجرين فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما فلما طال المطال بعد ذلك بمدد عُبدا من دون اللّه في زمن خزاعة كما سيأتي بيانه في موضعه. فكانا صنمين منصوبين يقال لهما : إساف ونائلة. فلما أكثرت جرهم البغي بالبلد الحرام تمالأت عليهم خزاعة الذين كانوا نزلوا حول الحرم وكانوا من ذرية عمرو بن عامر الذي خرج من اليمن لأجل ما توقع من سيل العرم كما تقدم. وقيل : إن خزاعة من بني إسماعيل فاللّه أعلم.

والمقصود : أنهم اجتمعوا لحربهم وآذنوهم بالحرب واقتتلوا واعتزل بنو إسماعيل كلا الفريقين فغلبت خزاعة وهم : بنو بكر بن عبد مناة وغبشان وأجلوهم عن البيت فعمد عمرو ابن الحارث بن مضاض الجرهمي وهو سيدهم إلى غزالي الكعبة وهما من ذهب وحجر الركن وهو الحجر الأسود وإلى سيوف محلاة وأشياء أخر فدفنها في زمزم وعلّم زمزم وارتحل بقومه فرجعوا إلى اليمن. وفي ذلك يقول عمرو بن الحارث بن مضاض :

وقائلة والدمعُ سكْبٌ مبادرُ   وقد شرقتْ بالدمع منها المحاجرُ:
كأنْ لمْ يكنْ بين الحجُون إلى الصَّفا   أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكّةَ سامرُ
فقلتُ لها والقلبُ مني كأنَّما   يُلجلجُه بين الجناحَيْنِ طائرُ:
بلي نحنُ كُنَّا أهلَها فأزالنا   صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ
وكنا ولاةَ البيتِ منْ بعد نابت   نَطُوْفُ بذاك البيت والخيرُ ظاهرُ
ونحن وَلينا البيتَ من بعد نابتٍ   بعزّ فما يحظي لَدينا المُكاثرُ
ملَكنا فعززنا فأعظمْ بملكنا   فليس لحيٍّ غيرنا ثَم فاخرُ
ألم تَنْكحُوا من خيرِ شخصٍ علمتُه؟   فأبناؤُه منا ونحنُ الأصاهرُ
فإنْ تَنْثَني الدنياَ علينا بحَالها   فإنَّ لها حالاً وفيها التشاجرُ
فأخرجَنا منها المليكُ بقَدرة   كذلك ياللناس تجري المقادرُ

أقـــولُ إذا نـــامَ الخلـــيّ ولم أَنَمْ: إذا العرشُ لا يبعد سهيـــلٌ وعامـــرُ
وبـــدِّلتُ منها أَوْجُهـــاً لا أحـــبّها قبائـــل منهـــا حميـــرُ ويحابـــــرُ
وصـــرْنا أحاديثاً وكُنا بغبطـــــة بذلك عضَّتنا السنـــونُ الغـــوابـــرُ
فسحّـــتْ دموعُ العينَ تبْكي لبلـــدةً بها حَـــرَمُ أمْـــنٌ وفيها المشاعـــرُ
وتبكي لبَيْتِ ليس يُـــؤْذَي حَمامُـــهُ يظلُّ به أمناً وفيـــه العصـــافـــرُ
وفيه وحوشٌ لا تـــرامُ أنيســـةٌ إذا خرجَتْ منـــه فليســـت تغـــادرُ

قال ابن إسحاق وقال عمرو بن الحارث بن مضاض أيضاً : يذكر بني بكر وغبشان الذين خلفوا بعدهم بمكة :

يا أيها الناسُ سيروا إنَّ قُصـــارَكم أَنْ تصبحوا ذاتَ يـــومٍ لا تسيرونا
حُثّـــوا المطيَّ وأَرْخوا من أَزِمَّتِـــهَا قبـــلَ الممـــاتِ وقضّوا ما تقضونا
كنا أناساً كما كنتـــم فغيّـــرنـــا دهـــر فأنتم كمـــا صِرْنَا تَصيرونـــا

قال ابن هشام : هذا ما صح له منها. وحدثني بعض أهل العلم بالشعر : أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب، وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن ولم يسم قائلها وذكر السهيلي لهذه الأبيات إخوة وحكي عندها حكاية معجبة وإنشادات معربة. قال : وزاد أبو الوليد الأزرقي في كتابه « فضائل مكة » على هذه الأبيات المذكورة المنسوبة إلى عمرو بن الحارث ابن مضاض :

قـــد مالَ دهـــرٌ علينـــا ثم أهلكَنا بالبغـــي فينا وبـــزّ النـــاسَ ناسونا
واستخبِروا في صنيع الناس قبلَكـــم كما استبـــانَ طـــريقٌ عنـــده الهونا
كنـــا زماناً ملـــوكَ النـــاسِ قبلَكـــم بمسكنٍ في حَـــرامِ اللَّه مسكـــونا

قصّة خزاعة وعمرو بن لحي وعبادة العرب للأصنام

قال ابن إسحاق : ثم إن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بني بكر بن عبد مناة، وكان الذي يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشاني، وقريش إذ ذاك حُلول وصرم وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة. قالوا : وإنما سميت خزاعة خزاعة، لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدونَ الشام فنـــزلوا بمر الظهران فأقاموا به. قال عون بن أيوب الأنصاري ثم الخزرجي في ذلك :

فلمّا هبطْنا بطـــنَّ مـــرّ تخزّعت خُـــزاعةُ منا في حلـــولِ كراكرِ
حمتْ كلَّ وادٍ من تِهامـــةَ واحتمـــت بصُـــمّ القَنـــا والمرهَفـــاتِ البواتـــرِ

وقال أبو المطهر إسماعيل بن رافع الأنصاري الأوسي :

فلما هَبَطْنَا بطـــنَ مكـــةَ أَحْمَدَتْ خـــزاعةُ دارَ الآكل المتحـــامل
فحلّت أكاريساً وشتّتْ قنابـــلاً عـــلى كل حيّ بينَ نجد وساحـــل
نَفَوا جُرْهماً عن بطـــنِ مكّـــةَ واحتبَوا بِعِزٍ خزاعـــيٍّ شـــديـــدِ الكواهـــلِ

فوليت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان آخرهم حليل بن حبشية ابن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي ، الذي تزوج قصي بن كلاب ابنته حبى فولدت له بنيه الأربعة : عبد الدار . وعبد مناف . وعبد العزي . وعبدا . ثم صار أمر البيت إليه كما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه إن شاء اللّه تعالى وبه الثقة. واستمرت خُزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمائة سنة وقيل : خمسمائة سنة واللّه أعلم. وكانوا [سوس] [1] في ولايتهم وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحي لعنه اللّه فإنه أول من دعاهم إلى ذلك وكان ذا مال جزيل جداً. يقال : إنه فقأ أعين عشرين بعيراً وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف بعير وكان من عادة العرب أن من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها لأنه يدفع بذلك العين عنها. وممن ذكر ذلك الأزرقي . وذكر السهيلي : أنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة وكسي عشرة آلاف حلة في كل سنة يطعم العرب ويحيس لهم الحيس [2] بالسمن والعسل ويلت لهم السويق. قالوا: وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم .

قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق ، ويقال : ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا. فقال : لهم ألا تعطوني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟. فأعطوه صنماً يقال له " هبل " فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه

قال ابن إسحاق : ويزعمون : أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفُسَح في البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيث ما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه .

وفي الصحيح عن أبي رجاء العطاردي. قال : كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب ، وجئنا بالشاة فحلبناها عليه . ثم طفنا بها.

قال ابن إسحاق : واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات . وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم

---

(١) هكذا في الأصل . ولعلها : [سوء]يؤكد ذلك ما بعدها كما يستفاد ويدرك من السياق .

(٢) الحيس : طعام مركب من تمر وسمن وسويق .

عليه السلام يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفات والمزدلفة وهدي البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه. فكانت كنانة وقريش إذا هلوا . قالوا : لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. فيوحدونه بالتلبية . ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده. يقول اللّه تعالى لمحمد ﷺ : **﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾** [يوسف:١٠٦] أي ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكا من خلقي.

وقد ذكر السهيلي وغيره : أن أول من لبي هذه التلبية عمرو بن لحي . وأن إبليس تبدي له في صورة شيخ فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه ويقول كما يقول واتبعه العرب في ذلك.

وثبت في الصحيح أن رسول اللّه ﷺ كان إذا سمعهم يقولون : لبيك لا شريك لك يقول: « قَد قَد »[1] أي حسب حسب. وقد قال البخاري : حدثنا إسحاق بن إبراهيم . حدثنا يحيي ابن آدم . حدثنا إسرائيل عن أبي حفص عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **« إن أول من سيب** السوائب وعبد الأصنام، أبو خزاعة عمرو بن عامر وإني رأيته يجر أمعاءه في النار » [2]. تفرد به أحمد من هذا الوجه. وهذا يقتضي أن عمرو بن لحي هو أبو خزاعة الذي تنسب إليه القبيلة بكمالها كما زعمه بعضهم من أهل النسب فيما حكاه ابن إسحاق وغيره ولو تركنا بمجرد هذا لكان ظاهراً في ذلك بل كالنص ولكن قد جاء ما يخالفه من بعض الوجوه فقال البخاري ، وقال أبواليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري. قال : سمعت سعيد بن المسيب . قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس – والسائبة – التي كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء. قال : وقال أبو هريرة : قال النبي ﷺ : **« رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في** النار. كان أول من سيب السوائب » [3] . وهكذا رواه البخاري أيضاً ومسلم من حديث صالح بن كيسان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة به. ثم قال البخاري ورواه ابن الهاد عن الزهري : قال الحاكم : أراد البخاري رواه ابن الهاد عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهري كذا قال .

وقد رواه أحمد عن عمرو بن سلمة الخزاعي عن الليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: **« رأيت عمرو بن عامر يجر قصبه في** النار، وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة »[4]. ولم يذكر بينهما عبد الوهاب بن بخت كما قال الحاكم : فاللّه أعلم.

---

(١) رواه مسلم (١١٨٥/٢٢) .

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٥٢٠) ومسلم (٥١/٢٨٥٦) .

(٣) رواه البخارى (٣٥٢١) كتاب المناقب : باب قصة خزاعة .

(٤) صحيح : رواه أحمد (٣٦٦/٢) والسائبة والبحيرة : كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وحرموا ركوبها ودرها ولا تطرد وعن ماء ولاعن مرعى . وكان يقول الرجل

وقال أحمد أيضا : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : « **رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، وهو أول من سيب السوائب** ». وهذا منقطع من هذا الوجه. والصحيح الزهري عن سعيد عنه كما تقدم وقوله في هذا الحديث والذي قبله الخزاعي يدل على أنه ليس والد القبيلة بل منتسب إليها مع ما وقع في الرواية من قوله أبو خزاعة تصحيف من الراوي من أخو خزاعة أو أنه كان يكني بأبي خزاعة ولا يكون ذلك من باب الإخبار بأنه أبو خزاعة كلهم والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن أبا صالح السمان حدثه : أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي : « **يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبة في النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه** ». فقال أكثم : عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله قال : « **لا إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي** » [1] . ليس في الكتب من هذا الوجه وقد رواه ابن جرير عن هناد بن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله وليس في الكتب أيضاً. وقال البخاري : حدثني محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني . حدثنا حسان بن إبراهيم . حدثنا يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « **رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب** » [2]. تفرد به البخاري. وروى الطبراني من طريق صالح عن ابن عباس مرفوعا في ذلك. والمقصود أن عمرو بن لحي لعنه الله كان قد ابتدع لهم أشياء في الدين غير بها دين الخليل فاتبعه العرب في ذلك فضلوا بذلك ضلالا بعيدا بيناً فظيعاً شنيعاً وقد أنكر الله تعالى عليهم في كتابه العزيز في غير ما آية منه فقال تعالى : ﴿**ولا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ**﴾ [النحل :١١٦] الآية. وقال تعالى : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ ولا سَائِبَةٍ ولا وصِيلَةٍ ولا حَامٍ ولَكِنَّ الَذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾ [المائدة :١٠٣] وقد تكلمنا على هذا كله مبسوطاً وبينا اختلاف السلف في تفسير ذلك فمن أراده فليأخذه من ثَمَّ ولله الحمـــد والمنة. وقال تعالى ﴿ **ويَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّارَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُون** ﴾ [النحل : ٥٦] . وقال تعالى : ﴿ **وجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ والأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ**

= إذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى: فناقتى سائبة وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها ، وقيل : كان الرجل إذا أعتق عبيداً قال : هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث .

(١) **صحيح** : رواه ابن إسحاق كما فى " السيرة النبوية " لابن هشام (٥٢/١) والحاكم (٦٠٥/٤) وصححه ووافقه الذهبى .

(٢) رواه البخارى (٤٦٢٤) .

لشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ومَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ ولِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ولَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ ومَا يَفْتَرُونَ وقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ومُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ومَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1]
[الأنعام : ١٣٦ – ١٤٠]

باب جهل العرب

حدثنا أبو النعمان : "حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام : ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ومَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾ [الأنعام:١٤٠] وقد ذكرنا تفسير هذه الآية وما كانوا ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التي ظنها كبيرهم عمرو بن لحي – قبحه الله – مصلحة ورحمة بالدواب والبهائم ، وهو كاذب مفتر في ذلك ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام فيه ، بل قد تابعوه فيما هوأطم من ذلك واعظم بكثير وهو عبادة الأوثان مع الله عزّ وجلّ . وبدلوا ما كان الله بعث به إبراهيم خليله من الدين القويم والصراط المستقيم ، من توحيد عبادة الله وحده لا شريك له وتحريم الشرك ،وغيروا شعائر الحج ومعالم الدين بغير علم ولا برهان ، ولا دليل صحيح ولا ضعيف – واتبعوا في ذلك من كان قبلهم من الأمم المشركين وشابهوا قوم نوح وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام ولهذا بَعث الله إليهم نوحا وكان أول رسول بُعثِ ينهي عن عبادة الأصنام كما تقدم بيانه في قصة نوح ﴿ **وقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولا تَذَرُنَّ وداً ولا سُوَاعاً ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً . وقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً**﴾ [نوح:٢٣ ، ٢٤] الآية قال ابن عباس : كان هؤلاء قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم فلما طال عليهم الأمد عبدوهم . وقد بينا كيفية ما كان من أمرهم في عبادتهم بما أغني عن إعادته ههنا.

قال ابن إسحاق وغيره : ثم صارت هذه الأصنام في العرب بعد تبديلهم دين إسماعيل. فكان " **ود** " لبني كلب بن مرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة. وكان منصوباً بدومة الجندل وكان "**سواع** " لبني هذيل بن إلياس بن مدركة بن مضر. وكان منصوبا بمكان يقال له : رهاط. وكان " **يغوث** " لبني أنعم من طيء ولأهل جرش من مذحج ، وكان منصوباً بجرش. وكان " **يعوق** " منصوباً بأرض همدان من اليمن لبني خيوان بطن من همدان. وكان " نسر " منصوباً بأرض حِمْير لقبيلة يقال لهم : ذو الكلاع.

---

(١) رواه البخارى (٣٥٢٤) .

قال ابن إسحاق : وكان لخولان بأرضهم صنم يقال له : " **عم** " أنس يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله – فيما يزعمون – فما دخل في حق "عم أنس" من حق الله الذي قسموه له تركوه له . وما دخل في حق الله من حق (عم أنس) ردوه عليه وفيهم أنزل الله ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا**﴾ [الأنعام : ١٣٦] قال: وكان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة صنم يقال له " **سعد** " صخرة بفلاة من أرضهم طويلة فأقبل رجل منهم بإبل له مؤبَّلة ليقفها عليه التماس بركته فيما يزعم فلما رأته الإبل وكانت مرعية لا تركب . وكان الصنم يهراق عليه الدماء نفرت منه ، فذهبت في كل وجه ، وغضب ربها وأخذ حجراً فرماه به . ثم قال : لا بارك الله فيك نفرت على إبلي ثم خرج في طلبها فلما اجتمعت له قال :

أتينا إلى سعد ليجمـــعَ شملنـــا ... فشتّتنا سعـــدٌ فـــلا نحنُ من سعد

وهل سعدُ إلّا صخرةٌ بتنوفة[1] ... من الأرضِ لا يدعو لغيٍّ ولا رُشْدَ

قال ابن إسحاق : وكان في دوس صنم لعمرو بن حممة الدوسي. قال : وكانت قريش قد اتخذت صنما على بئر في جوف الكعبة يقال له : " **هُبَل** "وقد تقدم فيما ذكره ابن هشام أنه أول صنم نصبه عمرو بن لحي لعنه الله.

قال ابن إسحاق : واتخذوا " **إسافاً** " " **ونائلة** " على موضع زمزم ينحرون عندهما . ثم ذكر أنهما كانا رجلا وامرأة فوقع عليها في الكعبة فمسخهما الله حجرين. ثم قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة : أنها قالت : سمعت عائشة تقول : ما زلنا نسمع أنَّ " إسافاً " "ونائلة " كانا رجلا وامرأة من جُرهم أحدثا في الكعبة فمسخهما الله عزّ وجلّ حجرين والله أعلم. وقد قيل : إن الله لم يمهلهما حتى فجر فيها بل مسخهما قبل ذلك فعند ذلك نصبا عند الصفا والمروة، فلما كان عمرو بن لحي نقلهما فوضعهما على زمزم وطاف الناس بهما وفي ذلك يقول أبو طالب :

وحيث يُنيخُ الأشعرونَ ركابَهُم ... بمفضيّ السيولِ من أساف ونائلِ

وقد ذكر الواقدي : أن رسول الله ﷺ لما أمر بكسر نائلة يوم الفتح خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل والثبور. وقد ذكر السهيلي : أن « **أجا** » و « **سلمى** » وهما جبلان بأرض الحجاز إما سميا باسم رجل اسمه أجا بن عبد الحي فجر بسلمي بنت حام ، فصلبا في هذين الجبلين فعرفا بهما . قال : وكان بين أجا وسلمي صنم لطيء يقال له « **فلس**».

قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره

(١) أى مفازة .

تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله. قال فلما بعث اللّٰه محمد ﷺ بالتوحيد قالت قريش : **﴿ أجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً إنّ هَذا لِشَيْءٍ عُجاب ﴾** [ص : ٥] .

قال ابن إسحاق : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما تهدي للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها. وهي مع ذلك تعرف فضل الكعبة عليها لأنها بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده. وكانت لقريش وبني كنانة « **العزي** » بنخلة، وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هاشم ، وقد خربها خالد بن الوليد زمن الفتح كما سيأتي. قال : وكانت « **اللات** » لثقيف بالطائف وكانت سدنتها وحجابها بني معتب من ثقيف . وخربها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة بعد مجيء أهل الطائف كما سيأتي. قال : وكانت « **مَناة** » للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة على ساحل البحر من ناحية المشّلل بقديد وقد خربها أبو سفيان أيضا وقيل : على بن أبي طالب كما سيأتي. قال : وكان « **ذو الخلصة** » لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة ، وكان يقال له : الكعبة اليمانية، ولبيت مكة الكعبة الشامية وقد خربه جرير بن عبد اللّٰه البجلي كما سيأتي قال : وكان « **فِلْس** » لطى ومن يليها بجبلي طى بين أجا وسلمي، وهما جبلان مشهوران كما تقدم. قال : وكان « **رآم** » بيتا لحمير وأهل اليمن كما تقدم ذكره في قصة تبع أحد ملوك حمير وقصة الحبرين حين خرباه وقتلا منه كلباً أسود. قال : وكانت « **رضاء** » بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . ولها يقول : المستوغر واسمه كعب بن ربيعة بن كعب :

ولقــد شَدَدْتُ على رُضاءِ شــَدةً فتركتُها قفــــراً بقاعٍ أســحما
وأعان عبد اللّٰه في مكرُوهها وبمثلِ عبد اللّٰه أغشــي المحرما

ويقال : إن المستوغر هذا عاش ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة. وكان أطول مضر كلها عمراً وهو الذي يقول :

ولقد سئمتُ من الحياةِ وطــولِهــَا وعمرتُ من عــدد الســنين مئينا
مائة حَدَتْها بعــدها مائتان لــى وازددتُ من عدد الشهور ســنينا
هل ما بقي إلاّ كما قد فاتنا ؟ يومُ يمرّ وليلــةُ تــحــدونـــا

قال ابن هشام : وتروي هذه الأبيات لزهير بن جناب بن هبل. قال السهيلي: ومن المعمرين الذين جازوا المائتين والثلاثمائة زهير هذا. وعبيد بن شربة، ودغفل بن حنظلة النسابة، والربيع بن ضبع الفزاري. وذو الأصبع العدواني، ونصر بن دهمان بن أشجع بن ربث بن غطفان، وكان قد إسود شعره بعد ابيضاضه وتَقَوَّم ظَهَرهُ بعد إعْوجاجه. قال : وكان « ذو الكعبات لبكر »، وتغلب بن وائل وأياد بسنداد وله يقول أعشي بن قيس بن ثعلبة :

بَيْنَ الخورنقِ والسديرِ وبارقٍ والبيتِ ذي الشرُفاتِ من سنداد

وأول هذه القصيدة :

ولقد علمتُ وإنْ تطاولَ بي المدي أنّ السبيلَ سبيلُ ذي الأعواد
ماذا أؤمّل بعد آل محرّق ؟ تركوا منازلَهم وبعد إيادَ
نزلوا بأنقرة يسيلُ عليهمُ ماءُ الفراتِ يجيء من أطوادَ
أرضُ الخورنقِ والسديرِ وبارقٍ والبيتِ ذي الكَعَباتِ من سندادَ
جَرَتِ الرياحُ على محلّ ديارهم فكأنّما كانوا على ميعادِ
وأرى النعيمَ وكلما يُلهي به يوماً يَصيرُ إلى بلى ونَفادَ

قال السهيلي : الخورنق قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده، وبناه رجل يقال له سنمار في عشرين سنة ولم يُر بناء أعجب منه فخشي النعمان أن يبني لغيره مثله فألقاه من أعلاه فقتله ففي ذلك يقول الشاعر :

جزاني جَزاه اللّه شرَّ جَزائه جزاءَ سنّمارٍ وما كانَ ذا ذنْب
سوي رصْفة البنيانَ عشرينَ حجّةً يعدّ عليهِ بالقرامد والسكب [1]
فلما انتهي البنيانُ يوماً تمامه وآضَ كمثل الطودِ والباذخِ الصعْب
رمي بسنّمارٍ على حُقّ رأسه وذاك لعمرُ اللّهِ من أقبحِ الخطبِ

قال السهيلي : أنشده الجاحظ في كتاب « الحيوان » والسنمار من أسماء القمر والمقصود أن هذه البيوت كلها هدمت. لما جاء الإسلام جهز رسول اللّه ﷺ إلى كل بيت من هذه سرايا تخربه ، وإلى تلك الأصنام من كسرها حتى لم يبق للكعبة ما يضاهيها ، وعبد اللّه وحده لا شريك له ، كما سيأتي بيانه وتفصيله في مواضعه إن شاء اللّه تعالى ، وبه الثقة.

خبر عدنان جدّ عرب الحجاز

لا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام . واختلفوا في عدة الآباء بينه وبين إسماعيل على أقوال كثيرة فأكثر ما قيل : أربعون أبا وهو الموجود عند أهل الكتاب ، أخذوه من كتاب رخيا كاتب أرميا بن حلقيا على ما سنذكره . وقيل : بينهما ثلاثون . وقيل : عشرون . وقيل : خمسة عشر . وقيل : عشرة . وقيل : تسعة . وقيل : سبعة. وقيل : إن أقل ما قيل في ذلك : أربعة لما رواه موسى بن يعقوب عن عبد اللّه بن وهب بن زمعة الزمعي عن عمته عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال : « **معد بن عدنان بن أدد بن زند بن**

---

(١) القرامد : جمع قرمد . قال صاحب القاموس : القرمد : حجارة لها فروق تنضج ويبنى بها ، والخزف المطبوخ والآجر كالقرميد والسكب : النحاس أو الرصاص .

اليري بن أعراق الثرى » . قالت: أم سلمة فزند هو : الهميسع . واليرى هو : نابت . وأعراق الثري هو : إسماعيل لأنه ابن إبراهيم وإبراهيم لم تأكله النار كما أن النار لا تأكل الثري . قال الدارقطني : لا نعرف زنداً إلا في هذا الحديث، وزند بن الجون وهو أبو دلامة الشاعر.

قال الحافظ أبو القاسم السهيلي وغيره من الأئمة : مدة ما بين عدنان إلى زمن إسماعيل أكثر من أن يكون بينهما أربعة أباء، أو عشرة، أو عشرون، وذلك أن معد بن عدنان كان عمره زمن بخت نصر ثنتي عشرة سنة. وقد ذكر أبوجعفر الطبري وغيره أن اللّٰه تعالى أوحي في ذلك الزمان إلى أرمياء بن حلقيا أن اذهب إلى بختنصر فأعلمه أني قد سلطته على العرب وأمر اللّٰه أرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق كي لا تصيبه النِقمة فيهم فإني مستخرج من صُلبه نبيا كريماً أختم به الرسُل ففعل أرميا ذلك ، واحتمل معداً على البراق إلى أرض الشام فنشأ مع بني إسرائيل ممن بقي منهم بعد خراب بيت المقدس ، وتزوج هناك امرأة اسمها معانة بنت جوشن من بني دب بن جرهم قبل أن يرجع إلى بلاده . ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتمحضت جزيرة العرب ، وكان رخيا كاتب أرمياء . قد كتب نسبه في كتاب عنده ليكون في خزانة أرمياء فيحفظ نسب معد كذلكِ واللّٰه أعلم. ولهذا كره مالك رحمه اللّٰه رفع النسب إلى ما بعد عدنان.

قال السهيلي : وإنما تكلمنا في رفع هذه الأنساب على مذهب من يري ذلك و لم يكرهه كابن إسحاق . والبخاري . والزبير بن بكار . والطبري . وغيرهم من العلماء وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك ، وقال له : من أين له علم ذلك ؟. فقيل له : فإلى إسماعيل فأنكر ذلك أيضاً وقال : ومن يخبره به وكره أيضاً أن يرفع فى نسب الأنبياء مثل أن يقال : إبراهيم بن فلان بن فلان هكذا ذكره المعيطى فى كتابه .

قال : وقول مالك هذا نحو مما روى عن عُروة بن الزبير . أنه قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل ، وعن ابن عباس : أنه قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون، وروى عن ابن عباس أيضاً : أنه كان إذا بلغ عدنان يقول : كذب النسابون مرتين أو ثلاثا ، والأصح عن ابن مسعود مثله. وقال عمر بن الخطاب : إنما تنسب إلى عدنان، وقال أبوعمر بن عبد البر في كتابه « الأنباه في معرفة قبائل الرواه » روى ابن لهيعة عن أبي الأسود : أنه سمع عروة بن الزبير يقول : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان إلا تخرصا. وقال أبو الاسود : سمعت أبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وكان من أعلم قريش بأشعارهم وأنسابهم يقول : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان في شعر شاعر ولا علم عالم.

قال أبو عمر : وكان قوم من السلف منهم عبد اللّٰه بن مسعود وعمرو بن ميمون الأزدي ومحمد بن كعب القرظي إذا تلوا ﴿ والَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ اللَّهُ﴾ [إبراهيم : ٩] قالوا : كذب النسابون.

قال أبو عمر رحمه اللّٰه : والمعني عندنا في هذا غير ما ذهبوا والمراد أن من ادعي إحصاء بني آدم فإنهم لا يعلمهم إلا اللّٰه الذي خلقهم، وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهات قبائلها واختلفوا في بعض فروع ذلك.

قال أبو عمر : والذي عليه أئمة هذا الشأن في نسب عدنان . قالوا : عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام وهكذا ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة.

قال ابن هشام : ويقال : عدنان بن أديعي عدنان بن أد بن أدد ثم ساق أبو عمر بقية النسب إلى آدم كما قدمناه في قصة الخليل عليه السلام. وأما الأنساب إلى عدنان من سائر قبائل العرب فمحفوظة شهيرة جدا لا يتماري فيها اثنان والنسب النبوي إليه أظهر وأوضح من فلق الصبح . وقد ورد حديث مرفوع بالنص عليه كما سنورده في موضعه بعد الكلام على قبائل العرب ، وذكر أنسابها وانتظامها في سلك النسب الشريف ، والأصل المنيف إن شاء اللّٰه تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه العزيز الحكيم. وما أحسن ما نظم النسب النبوي الإمام أبو العباس عبد اللّٰه بن محمد الناشئ في قصيدته المشهورة المنسوبة إليه وهي قوله:

مدحت رسولَ الله أبغي بمدحه	وفُورَ حظوظي من كريم المآرب
مدحتُ امرءاً فاقَ المديحَ موحّداً	بأوصافه عن مُبعد ومقاربَ
نَبياً تسامى في المشارق نوره	فلاحتْ هواديه [1] لأَهْلِ المغارب
أتتنا به الأنباء قَبلَ مَجيئه	وشاعتْ به الأخبار في كَلّ جانب
وأصبحت الكهّان تهتفُ باسمه	وتنفي به رجمَ الظنون الكواذب
وأنطقت الأصنامُ نطقاً تبرّأتَ	إلى الله فيه من مقال الأكاذب
وقالَت لأهل الكفر قولاً مبيناً:	أتاكم نبي من لؤي بن غالب
ورامَ استراقَ السمع جنٌّ فزيلّت	مقاعدَهم منها رجوُم الكواكبِ
هدانا إلى ما لم نكنْ نهتدي له	لطول العمى من واضحات المذاهب
وجاء بآياتٍ تبّينُ أنّها	دلائلُ جبّارٍ مثيبٍ معاقب
فمنها انشقاقُ البدرِ حين تعمّمت	شعوبَ الضّيا منه رؤوس الأخاشب[2]
ومنها نبوع الماء بينِ بنانه	وقد عدم الورّاد قربَ المشارب
فروى به جّما غفيراً وأسلهت	بأعناقه طوعاً أكفُّ المذانب[3]
وبئر طغت بالماء من مسٍّ سهمه	ومن قَبلُ لم تسمحْ بمذقةُ شارب

(١) جمع هدى وهو الطريقة والسيرة .

(٢) الأخشب : الجبل الخشن العظيم ، والأخاشب : جبال الصمات .

(٣) المَذانب : يقال ((سالت المَذانب)) أى : مسايل الماء .

وضرعِ مـــراه فُاستدر وّلم يكـــنْ ... به درة تصغى إلى كـــف حـــالب
وُنطقِ فصيحٍ مـــن ذراعِ مبينـــةَ ... لكيد عـــدو للعـــداوة نـــاصب
وإخبارِه بالأمـــر من قبل كونـــه ... وعند بـــواديه في العـــواقب
ومن تلَكم الآيات وحيُ أتَى بـــه ... قريبُ المآتي مستجـــم العجـــائب
تقاصرتِ الأفكـــارُ عنه فلمِ يطـــعْ ... بليغـــاً ولم يخطر على قلب خاطب
حوى كَل علم واحتوى كلِّ حكمة ... وفـــاتَ مرامَ المســـتمرّ المـــواربِ
أتانا به لا عـــن رؤيّـــةِ مـــرتىء ... ولا صحف مسمل ولا وصفِ كاتب
يواتيه طـــوراً في إجـــابـــة سائلٍ ... وإفتاء مســـتفت ووعـــظَ مخاطب
وإتيانِ برهـــانٍ وفـــرضِ شـــرائعٍ ... وقصٍّ أحـــاديثٍ ونصٍّ مـــآرب
وتصريـــفِ أمثـــال وتثبيت حجـــة ... وتعريفِ ذيَ جحـــد وتوقيف كاذب
وفي مجمع النَادي وفي حومـــة الوغَى ... وعندَ حـــدوثِ المعضَـــلات الغرائب
فيأتي على ما شئتَ من طـــُرقـــاته ... قويم المعاني مســـتدر الضـــرائب
يصدّق منه البعضُ بعضـــاً كـــأنما ... يلاَحـــظ معنـــاه بعـــين المراقب
وعَجزُ الورى عن أن يجيئـــوا بمثلِ ما ... وصفناُه معلـــومُ بطـــولِ التَجارب
تأبى بعبـــد الله أكـــرم والـــد ... تبلّج[1] منـــه عـــن كريمَ المناسب
وشيبةُ ذي الجَمدِ الـــذي فخرتْ به ... قريشُ على أهـــل العلى والمناصب
ومن كان يستســـقى الغمام بوجهه ... ويصدر عـــن آرائـــه في النوائب
وهاشم البـــاني مشـــيد افتخـــاره ... بغرّ المســـاعي وامتنـــانِ المواهب
وعبـــدُ مناف وهو علّم قومه اشـــ ... ـــتطاط الأماني واحتّكـــام الَرغـــائب
وإن قصيـــاً مـــن كـــريم غراســـه ... لفي منهلِ لم يدنُ من كف قاضب
به جَمـــعَ اَلهُ القبائلَ بعـــــدما ... تقسّمها نهـــبُ الأكـــفّ السوالبِ
وحلَّ كلابُ من ذرى المجـــدِ معقلاً ... تقَاصَرَ عنـــه كـــل دانٍ وغـــائب
ومرةُ لم يحلل مـــريرَة عـــزمه ... سِفاهُ سفيـــهٍ أو مُحُـــوبةٌ حائب [2]
وكعبُ عـــلا عن طالب المجد كعبه ... فنال بأدنى الســـعي أعـــلا المراتب
وألوى لـــؤي بالعُـــداَة فطُوّعت ... له همم الشُمّ الأنـــوفِ الأغـــالب
وفي غالب بـــأسُ أبى البأسء دونهم ... يدافعُ عنهـــم كلُّ قَـــرنِ معالب
وكانت لفهرٍ في قـــريشَ خطابُة ... يعوذُ بها عنـــدَ اشـــتجارِ المَخاطبِ
وما زالَ منهـــم مَالكُ خيَر مـــالك ... وأكرمَ مصحـــوب وأكرم صاحب

---

(١) تبلج : أضاء وأشرق .

(٢) الحوب : الهلاك .

وللنضْرِ طولٌ يقصُرُ الطَّرفُ دونَـه ... بحيثُ التـقى ضوءَ النجومِ الثواقب[(١)]
لعمري لقد أبـــدى كنـانةُ قبله ... محاسنَ تــأبى أن تطـوّعَ لغــالب
ومن قبله أبقى خُزَيَمـــةَ حَمْـدَه ... تليدَ تــراُث عن حَميد الأقارب[(٢)]
ومدركةٌ لم يدرك النــاسُ مثـــلَّهُ ... أعــف وأعـــلى عن دَنّيٍ المكاسب
وإلياسُ كان اليأس منـــه مقــارِناً ... لأعـــدائه قبـــل اعتداد الكتائب
وفي مُضرٍ يستجمُع الفخـــر كله ... إذا اعتركت يوماً زحوفُ المَقانب[(٣)]
وحلّ نزارٌ مِّن ريـــاسة أهـــله ... محلاً تسـامى عــن عيـون الرواقب
وكان معدٌّ عـــدةً لـــوليـــه ... إذا خاف من كيــدِ العدوَ المحاربِ
وما زال عـــدنانُ إذا عُدَّ فضلُـهُ ... توحِّد فيه عــن قريـــنٍ وصــاحب
وأد تأدىَ الفضلُ منـــه بغـــاية ... وأرث حواه عُـــن قُروم أشايب[(٤)]
وفي أددِ حلــمُ تــزّينَ بالحجاً ... إذا الحُلمُ أزهـــاهُ قطوبُ الحواجب
وما زالَ يســتعلي هميسع بالعَلى ... ويتبع آمـــال البعيـــد المراغب[(٥)]
ونبتِ بنتَهُ دوحـــةُ العـزّ وابتنى ... معاقلَهُ في مشمخـــرٍّ الأَهـــاضبِ
وحيــزتْ لقيـــذار سماحةُ حاتمٍ ... وحكَمـــة لقمـانٍ وهَمّـة حُاجبَ
هُمواَ نسلُ إسماعيــلَ صادق وعده ... فمـا بعده في الفخر مسـعىً لذاهب
وكان خليلُ الله أكــرمَ مــن عَنت ... لــه الأرض ما ماشٍ عليها وراكب[(٦)]
وتارخٌّ ما زالــتْ لـــه أريحّيّةَ ... تُبيّــن مُنــه عن حميـد المضارب
وناحوُر نحّار العـــدى حُفظت له ... مآثر لما يُحصهـــا عــدُّ حـــاسب
وأشرعُ في الهيجـــاءَ ضيـغمُ غابة ... يقدّ الطلى بالمــرهَفات القواضب[(٧)]
وأرغو نابُ في الحــروب محكـم ... ضنينُ عــلى نفس المشـــحّ المغاب
وما فالغُ في فضله تِلـــو قوًمـــهِ ... ولا عـــابرُ من دونهم في المراتب[(٨)]
وشالخُ وأرفخشذ وسـام سمتْ بهِم ... سجايا حمتهـــم كــلّ زار وعائب
وما زال نوحٌ عندي ذي العرش فاضلاً ... يعددّه في المصطفـــينَ الأَطـــايب

---

(١) الثواقب : سطعت وانتشرت وأضاءت .
(٢) التليد : المال الموروث .
(٣) المقانب : الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين .
(٤) القروم : الأسياد .
(٥) هميسع : القويُّ ، والطويل .
(٦) عنت : حضعت .
(٧) الضيغم : من أسماء الأسد . المرهفات : المرهف السيف المرقق . قواضب سيوف شديدة القطع.
(٨) فالغ : فَلَغَ : ثَلَغَ .

ولمكَ أبـوهُ كـان في الروْع رائعاً ... جريئاً على نفس الكـميّ المضـارب
ومن قبل لمكٍ لم يـزل متـوشلخٌ ... يذودُ العدى بالذائـدات الشوازب
وكـانت لإدريسَ النبيِّ منـازلُ ... مـن اللهَ لم تقـرن بهمّةَ راغـبَ
ويارِدُ بحـرٌ عنـد آلِ سـراته ... أبيّ الخـزايا مستدقّ المـآرب
وكانت لمهلاَيِيلَ فهـمَ فُضـائلِ ... مهـذبة مـن فاحشـات المثالب
وقينانُ من قبلُ اقتنى مـجدَ قومهِ ... وفـاد بشأوِ الفضل وَخْدَ الركائب
وكـان أنوشُ ناشَ للمجـد نفسه ... ونزهّهـا عن مُرديـات المطالب
وما زال شـيثُ بالفضـائل فاضلاً ... شريفاً بريئاً من ذميـم المعـائب
وكلّهُمُ من نـورِ آدمَ أقبسـوا ... وعن عودهِ أجنـوا ثمـارَ المِنـاقب
وكان رسولَ الله أكَـرمَ منجبٍ ... جرى في ظَهور الطيبّين المنـاجـبِ
مقابـلة أبـاؤه ، أمهـاتهُ ... مبّرأة مـنْ فاضحـات المثـالبَ
"عليه سلام الله في كـل شـارق ... ألاح لنا ضـوءاً وفي كـل غارب

هكذا أورد القصيدة الشيخ أبو عمر بن عبد البر وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي في تهذيبه من شعر الأستاذ أبي العباس عبد اللّه بن محمد الناشي المعروف بابن شرشير . أصله من الأنبار ورد بغداد . ثم ارتحل إلى مصر فأقام بها حتى مات سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، وكان متكلما معتزلياً يحكي عنه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتابه المقالات فيما يحكي عن المعتزلة ، وكان شاعراً مطبقاً حتى أن من جملة اقتداره على الشعر كان يعاكس الشعراء في المعاني فينظم في مخالفتهم ويبتكر ما لا يطيقونه من المعاني البديعة والألفاظ البليغة حتى نسبه بعضهم إلى التهوس والاختلاط وذكر الخطيب البغدادي أن له قصيدة على قافية واحدة قريباً من أربعة آلاف بيت ذكرها الناجم وأَرّخَ وفاته كما ذكرنا.

قلت : وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته وعلمه وفهمه ، وحفظه وحُسن لفظه ، واطلاعه واضطلاعه ، واقتداره على نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره ، وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره ، فرحمه اللّه وأثابه ، وأحسن مصيره وإيابه.

أصول أنساب قبائل عرب الحجاز إلى عدنان

وذلك لأن عدنان ولد له ولدان : معد . وعك. قال السهيلي : ولعدنان أيضاً ابن اسمه الحارث . وآخر يقال له : المذهب. قال : وقد ذكر أيضا في بنيه الضحاك. وقيل : إن الضحاك ابن لمعد . لا ابن عدنان. قال : وقيل : إن عدن الذي تعرف به مدينة عدن وكذلك أبين كانا ابنين لعدنان ، حكاه الطبري . فتزوج عك في الأشعريين وسكن في بلادهم من اليمن فصارت لغتهم واحدة فزعم بعض أهل اليمن أنهم منهم فيقولون : عك بن عدنان بن عبد اللّه بن الأزد ابن يغوث . ويقال : عك بن عدنان بن الذيب بن عبد اللّه بن الأسد ويقال : الريث بدل الذيب . والصحيح ما ذكرنا من أنهم من عدنان. قال عباس بن مرداس :

وعكّ بن عدنانَ الذين تلعّبوا بغسّانَ حتى طُرّدوا كلَّ مَطرد

وأما معد فولد له أربعة : نزار . وقضاعة . وقنص . وإياد ، وكان قضاعة بكره وبه كان يكني وقد قدمنا الخلاف في قضاعة ولكن هذا هو الصحيح عند ابن إسحاق وغيره والله أعلم.

وأما قُنص فيقال : إنهم هلكوا و لم يبق لهم بقية ، إلا أن النعمان بن المنذر الذي كان نائبا لكسري على الحيرة كان من سلالته على قول طائفة من السلف وقيل بل كان من حِمْيَر كما تقدم . والله أعلم.

وأما نزار، فولد له: ربيعة. ومضر. وأنمار، قال ابن هشام: وإياد بن نزار.كما قال الشاعر:

وفُتـــوٍ حُســـنُ أوجههـــــم مـــن إيـــاد بـــنِ نـــزارِ بـــن معـــدٍّ

قال : وإياد . ومضر شقيقان أمهما : سودة بنت عك بن عدنان وأم ربيعة وأنمار شقيقة بنت عك بن عدنان. ويقال : جمعة بنت عك بن عدنان : قال ابن إسحاق : فأما أنمار فهو والد خثعم ، وبجيلة قبيلة جرير بن عبد الله البجلي . قال : وقد تيامنت فلحقت باليمن. قال ابن هشام : وأهل اليمن يقولون : أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ.

قلت : والحديث المتقدم في ذكر سبأ يدل على هذا ، والله أعلم.

قالوا : وكان مضر أول من حدا . وذلك لأنه كان حسن الصوت فسقط يوما عن بعيره فوثبت يده فجعل يقول : وايدياه وايدياه فأعنقت الإبل لذلك. قال ابن إسحاق : فولد مضر ابن نزار رجلين : إلياس . وعيلان . وولد لإلياس : مدركة . وطابخة . وقمعة . وأمهم : خندف بنت عمران بن إلحاف بن قضاعة . قال ابن إسحاق : وكان اسم مدركة عامراً ، واسم طابخة عمراً . ولكن اصطادا صيداً فبيناهما يطبخانه إذ نفرت الإبل فذهب عامر في طلبها حتى أدركها ، وجلس الآخر يطبخ فلما راحا على أبيهما ذكرا له ذلك . فقال لعامر : أنت مدركة . وقال لعمرو : أنت طابخة . قال : وأما قمعة فيزعم نساب مضرأن خزاعة من ولد عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس ، قلت والأظهر أنه منهم لا والدهم ، وأنهم من حمير كما تقدم ، والله أعلم.

قال ابن إسحاق : فولد مدركة خزيمة وهذيل وأمهما امرأة من قضاعة . وولد خزيمة كنانة وأسدا وأسدة والهُون . قال : وولد كنانة بن خزيمة النضر . ومالكا . وعبد مناة وملكان. زاد أبو جعفر الطبري في أبناء كنانة على هؤلاء الأربعة : عامراً. والحارث. والنضير. وغنما. وسعداً. وعوفاً. وجرولاً. والجدال. وغزوان.

قريش نسباً واشتقاقاً وفضلاً وهم بنو النضر بن كنانة

قال ابن إسحاق : وأم النضر بَرةٌ بنت مُرّ بن أد بن طابخة . وسائر بنيه لامرأة أخري وخالفه ابن هشام ، فجعل برة بنت مر أم النضر ومالك وملكان. وأم عبد مناة هالة بنت سويد ابن الغطريف من أزد شنوءة. قال ابن هشام : النضر هو قريش فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي. وقال : ويقال : فهر بن مالك هو قرشي فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي. وهذان القولان قد حكاهما غير واحد من أئمة النسب كالشيخ أبي عمر بن عبد البر والزبير بن بكار . ومصعب وغير واحد. قال أبوعبيد وابن عبد البر : والذي عليه الأكثرون : أنه النضر بن كنانة لحديث الأسعد بن قيس . قلت : وهو الذي نص عليه هشام بن محمد بن السائب الكلبي وأبو عبيدة معمر بن المثني وهو جادة مذهب الشافعي رضي اللّه عنه. ثم اختار أبو عمر أنه فهر بن مالك واحتج بأنه ليس أحد اليوم ممن ينتسب إلى قريش إلا وهو يرجع في نسبه إلى فهر بن مالك . ثم حكي اختيار هذا القول عن الزبير بن بكار ومصعب الزبيري وعلي بن كيسان . قال : وإليهم المرجع في هذا الشأن وقد قال الزبير بن بكار : وقد أجمع نساب قريش وغيرهم أن قريشاً إنما تفرقت من فهر ابن مالك ، والذي عليه من أدركت من نساب قريش أن ولد فهر بن مالك قرشي . وأن من جاوز فهر بن مالك بنسبه فليس من قريش . ثم نصر هذا القول نصراً عزيزاً وتحامي له بأنه ونحوه أعلم بأنساب قومهم وأحفظ لما آثرهم ، وقد روي البخاري من حديث كليب بن وائل. قال : قلت لربيبة النبي ﷺ يعني زينب في حديث ذكره أخبرني عن النبي ﷺ : أكان من مضر ؟ قالت : فممن كان إلا من مضر من بني النضر بن كنانة [1]. وقال الطبراني : حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني : حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي . حدثنا الحسن بن صالح عن أبيه جفشيش الكندي قال : جاء قوم من كندة إلى رسول اللّه ﷺ فقالوا: أنت منا وادعوه، فقال : « **لا نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفى من أبينا** » [2] .

وقال الإمام أبو عثمان سعيد بن يحيي بن سعيد حدثنا أبي حدثنا الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : جاء رجل من كندة يقال له : الجفشيش إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول اللّه إنّا نزعم أن عبد مناف منا فأعرض عنه ثم عاد فقال مثل ذلك فقال النبي ﷺ : « **لا نحن بنو النضر ابن كنانة لا نقف أمنا ولا ننتفى من أبينا** » [3] فقال الأشعث : ألا كنت سكت من المرة الأولي ؟. فأبطل ذلك قولهم على لسان نبيه ﷺ ، وهذا غريب أيضا من هذا الوجه والكلبي ضعيفِ واللّه أعلم.

---

(١) رواه البخارى (٣٤٩٢) كتاب المناقب .

(٢) **حسن** : رواه الطبرانى فى " الكبير " (٢/٢٨٥، ٢٨٦) رقم (٢١٩٠) وأحمد (٥/٢١١و٢١٢) وابن ماجه (٢٥١٢) وانظر " الصحيحة " (٢٣٧٥) .

(٣) رواه ابن ماجة (٢٦١٢) وأحمد (٢١٩٠٤) .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا بهز وعفان . قالا : حدثنا حماد بن سلمة. قال : حدثني عقيل بن أبي طلحة . وقال . عفان عقيل بن طلحة السلمي عن مسلم بن الهيضم عن الأشعث ابن قيس : أنه قال : أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة. قال عفان : لا يروني أفضلهم . قال : فقلت : يا رسول الله إنا نزعم أنكم منا . قال : فقال رسول الله ﷺ : « **نحن بنو النضر بن كنانة لا نقف أمنا ولا ننتفي من أبينا**». قال: فقال الأشعث بن قيس: فوالله لا أسمع أحداً نفي قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد [1] . وهكذا رواه ابن ماجه من طرق عن حماد بن سلمة به، وهذا إسناد جيد قوي وهو فيصل في هذه المسألة فلا التفات إلى قول من خالفه والله أعلم ولله الحمد والمنة.وقد قال جرير بن عطية التميمي يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان:

فما الأمّ التي ولَدَتْ قريشـــاً بمُقرِفَـــة النّجـــارِ ولا عقيـــمِ
وما قِـــرْمٌ بأنجبَ من أبيكم ولا خالٌ بأكـــرمَ من تميـــمِ

قال ابن هشام : يعني أم النضر بن كنانة ، وهي : برة بنت مرّ أخت تميم بن مر.

وأما اشتقاق قريش. فقيل: من التقرش وهو التجمع بعد التفرق ، وذلك في زمن قصي بن كلاب فإنهم كانوا متفرقين فجمعهم بالحرم كما سيأتي بيانه وقد قال حذافة بن غانم العدوي :

أبوكم قُصَيّ كان يُدعى مُجمِّعا به جَمّع اللّهُ القبائلَ من فِهْر

وقال بعضهم : كان قصي يقال له : قريش . قيل : من التجمع والتقرش : التجمع كما قال أبو خلدة اليشكري :

إخوةٌ قَرّشوا الذنوبَ عَلَيْنا في حديث من دهرِنا وقديمِ

وقيل : سميت قريش من التقرش وهو التكسب والتجارة حكاه ابن هشام رحمه الله. وقال الجوهري : القرش الكسب والجمع ، وقد قرش يقرش قال الفراء : وبه سميت قريش وهي قبيلة وأبوهم النضر بن كنانة فكل من كان من ولده فهو قرشي دون ولد كنانة فما فوقه. وقيل : من التفتيش . قال هشام بن الكلبي : كان النضر بن كنانة تسمى قريشاً : لأنه كان يقرش عن خلة الناس وحاجتهم فيسدها بماله ، والتقريش : هو التفتيش ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم فسموا بذلك من فعلهم وقرشهم قريشاً وقد قال الحارث بن حلزة في بيان : أن التقرش التفتيش :

أيُّها الناطقُ المقرِّش عنّا عندَ عمرٍو فهـــلْ لـــه إبقاء ؟

حكي ذلك الزبير بن بكار . وقيل : قريش تصغير قرش وهو دابة في البحر قال بعض الشعراء :

---

(١) **حسن**: رواه أحمد (٥/٢١١و٢١٢) وابن ماجه (٢٦١٢) .

وقريشٌ هي التي تسكن البحــ ـــرَ بهـــا سُمّيــت قريشٌ قريشا

قال البيهقي : أخبرنا أبو نصر بن قتادة أنبانا أبو الحسن على بن عيسي الماليني . حدثنا محمد بن الحسن بن الخليل النسوي أن أبا كريب حدثهم ، حدثنا وكيع بن الجراح عن هشام ابن عروة عن أبيه عن أبي ركانة العامري ، أن معاوية قال لابن عباس : فلم سميت قريش قريشاً؟. فقال : لدابة تكون في البحر تكون أعظم دوابه . فيقال لها : القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته. قال : فأنشدني في ذلك شيئا فأنشده شعر الجمحي إذ يقول :

وقريشٌ هي التي تسكنُ البحـــر بها سميـــّت قــــريشُ قريشــــا
تأكـــــلُ الغثَّ والسميـــنَ ولا تتركنَّ لذي الجنـــاحيـــن ريشـــا
هكـــذا في البلاد حـــيُّ قريـــش يأكلون البـــلادَ أكـــلاً كميشـــا
ولهـــــم آخـــرَ الزمـــان نبيٌّ يُكثرُ القتـــلَ فيهمُ والخموشـــا

وقيل : سموا بقريش بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة ، وكان دليل بني النضر وصاحب ميرتهم . فكانت العرب تقول : قد جاءت عير قريش قالوا : وابن بدر بن قريش هو الذي حفر البئر المنسوبة إليه التي كانت عندها الوقعة العظمي يوم الفرقان يوم التقي الجمعان والله أعلم.

ويقال : في النسبة إلى قريش قرشي وقريشي ، قال الجوهري : وهو القياس. قال الشاعر :

لكُـــــلِّ قريشـــــيّ عليـــه مهابةٌ سريعٌ إلى داعي النَّدا والتكرم

قال : فإذا أردت بقريش الحي صرفته ، وإن أردت القبيلة منعته قال الشاعر في ترك الصرف:

* وكفـــي قريـــشَ المعضلات وسادَها *

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي عمر والأوزاعي . قال : حدثني شداد أبو عمار . حدثني واثلة بن الأسقع . قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله اصطفي كنانة من ولد إسماعيل واصطفي قريشاً من كنانة واصطفي هاشما من قريش واصطفاني من بني هاشم** »[1] . قال أبوعمر ابن عبد البر : يقال بنو عبد المطلب فصيلة رسول الله ﷺ وبنو هاشم فخذه وبنو عبد مناف بطنه وقريش عمارته وبنو كنانة قبيلته ومضر شعبه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين.

ثم قال ابن إسحاق : فولد النضر بن كنانة مالكا ومخلداً . قال ابن هشام والصلت : وأمهم جميعا بنت سعد بن الظرب العدواني. قال كثير بن عبد الرحمن وهو كُثير عزَّة أحد بني مُلَيح بن عمرو من خزاعة :

أَلَيْسَ أبي بالصّلت أم ليس إخوتـــي؟ لكـــلِّ هجـــان من بني النضر أزهرا

(١) رواه مسلم (١/٢٢٧٦) .

رأيت ثيابَ العصب مختلطَ السّدي … بنا وهمْ والحضرميّ المخصَّرا
فإن لم تكونوا من بني النضر فاتركوا … أراكاً بأذنابِ الفَواتجِ أخضرا

قال ابن هشام : وبنو مليح بن عمرو يعزون إلى الصلت بن النضر

قال ابن إسحاق : فولد مالك بن النضر فهو بن مالك وأمه جندلة بنت الحارث بن مضاض الأصغر وولد فهر غالبا ومحاربا والحارث وأسداً ، وأمهم ليلي بنت سعد بن هذيل بن مدركة.

قال ابن هشام : وأختهم لأبيهم جندلة بنت فهر. قال ابن إسحاق : فولد غالب بن فهر لؤي بن غالب وتيم بن غالب وهم الذين يقال لهم : بنو الأدرم ، وأمهما سلمي بنت عمرو الخزاعي.

قال ابن هشام : وقيس بن غالب وأمه سلمي بنت كعب بن عمرو الخزاعي وهي أم لؤي، قال ابن إسحاق : فولد لؤي بن غالب أربعة نفر كعبا وعامراً وسامة وعوفا. قال ابن هشام : ويقال: والحارث وهم جشم بن الحارث في هزان من ربيعة وسعد بن لؤي وهما بنانة في شيبان ابن ثعلبة وبنانة حاضنة لهم خزيمة بن لؤي وهم عايذة في شيبان بن ثعلبة.

ثم ذكر ابن إسحاق : خبر سامة بن لؤي وأنه خرج إلى عمان فكان بها وذلك لشنآن كان بينه وبين أخيه عامر فأخافه عام فخرج عنه هاربا إلى عمان وأنه مات بها غريبا ، وذلك أنه كان يرعي ناقته فعلقت حية بمشفرها فوقعت لشقها . ثم نهشت الحية سامة حتى قتلته فيقال إنه كتب بأصبعه على الأرض :

عينُ فابكي لسامةَ بنِ لؤيّ … عُلقَتْ ما بسامة العَلاَّقه
لا أري مثلَ سامةَ بن لؤي … يَومَ حلّوا به قتيلاً لناقه
بلّغا عامراً وكعبا رسولاً … أن نفسي إليهما مشتاقه
إن تكن في عُمانَ داري فإن … يغالبيّ خَرجتُ من غير فاقه
رُب كأسٍ هرقتَ يا ابن لؤي … حَذَر الموتِ لم تكن مهراقه
رُمتَ دفعَ الحتوف يا ابن لؤي … ما لمن رامَ ذاكَ بالحتف طاقه
وخروس السري تركت رزيّاً … بعد جِدّ وحِدّةٍ ورشاقه

قال ابن هشام : وبلغني أن بعض ولده أتي رسول اللّٰه ﷺ فانتسب إلى سامة بن لؤي فقال له رسول اللّٰه ﷺ « آلشاعر ؟. » فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول اللّٰه أردت قوله :

ربَّ كأسٍ هرقتَ يا ابن لؤي … حذَرَ الموتِ لم تَكنْ مهراقه

فقال أجل : وذكر السهيلي عن بعضهم : أنه لم يعقب. وقال الزبير : ولد أسامة بن لؤي غالبا والنبيت والحارث . قالوا : وكانت له ذرية بالعراق يبغضون عليا ومنهم على بن الجعد كان يشتم أباه لكونه سماه عليا ومن بني سامة بن لؤي محمد بن عرعرة بن اليزيد شيخ البخاري.

وقال ابن إسحاق : وأما عوف بن لؤي فإنه خرج فيما يزعمون في ركب من قريش حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أبطئ به ، فانطلق من كان معه من قومه فأتاه ثعلبة بن سعد وهو أخوه في نسب بني ذبيان فحبسه وزوجه والتاطه وآخاه فشاع نسبه في ذبيان وثعلبة فيما يزعمون.

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير – أو محمد بن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن الحصين – أن عمر بن الخطاب قال : لو كنت مدعيا حيا من العرب أو ملحقهم بنا لادعيت بني مرة بن عوف ، إنا لنعرف منهم الأشباه ، مع ما نعرف من موقع ذلك الرجل حيث وقع يعني عوف بن لؤي .

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم : أن عمر بن الخطاب قال لرجال منهم من بني مرة: إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه. قال ابن إسحاق : وكان القوم أشرافا في غطفان هم سادتهم وقادتهم قوم لهم صيت في غطفان وقيس كلها ، فأقاموا على نسبهم . قالوا: وكانوا يقولون : إذا ذكر لهم نسبهم : ما ننكره وما نجحده ، وإنه لأحب النسب إلينا . ثم ذكر أشعارهم في انتمائهم إلى لؤي.

قال ابن إسحاق : وفيهم كان البَسْلُ ، وهو تحريم ثمانية أشهر لهم من كل سنة من بين العرب ، وكانت العرب تعرف لهم ذلك ويأمنونهم فيها ويؤمنونهم أيضا قلت: وكانت ربيعة ومضر إنما يحرمون أربعة أشهر من السنة وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم واختلفت ربيعة ومضر في الرابع ورجب . فقالت : مضر هو الذي بين جمادي وشعبان ، وقالت ربيعة : هو الذي بين شعبان وشوال وقد ثبت في الصحيحين [1] عن أبي بكرة أن رسول اللّه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض السنة إثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » فنص على ترجيح قول مضر لا ربيعة وقد قال اللّه عزّ وجّل:﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ مِنهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ**﴾[التوبة:٣٦] فهذا رد على بني عوف بن لؤي في جعلهم الأشهر الحرم ثمانية فزادوا على حكم اللّه وأدخلوا فيه ما ليس منه وقوله في الحديث ثلاث متواليات رد على أهل النسيء الذين كانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر. وقوله فيه : ورجب مضر رد على ربيعة. قال ابن إسحاق : فولد كعب ابن لؤي ثلاثة، مرة، وعديا، وهصيصا وولد مرة، ثلاثة أيضا : كلاب بن مرة، وتيم بن مرة، ويقظة بن مرة من أمهات ثلاث. قال : وولد كلاب رجلين : قصي بن كلاب ، وزهرة بن كلاب ، وأمهما فاطمة بنت سعد بن سيل أحد الجُدَرَة من جعثمة الأسد من اليمن حلفاءَ بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وفي أبيها يقول الشاعر :

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٤٧) ومسلم (٢٩/١٦٧٩) .

ما نري في الناسِ شخصًا واحداً مَـــن علمناه كسعـــد بن سيل
فارســاً أضبطَ فيــه عســـرة وإذا مــا واقف القـــرنَ نـــزل
فارساً يستدرج الخيـــلُ كما اســـتدرجَ الحر القطامـــيُّ الحجـــل

قال السهيلي: سيل–اسمه خير بن جمالة–وهو أول من طليت له السيوف بالذهب والفضة.

قال ابن إسحاق : وإنما سمو الجدرة لأن عامر بن عمرو بن خزيمة بن جعثمة تزوج بنت الحارث بن مضاض الجرهمي . وكانت جرهم إذ ذاك ولاة البيت فبني للكعبة جداراً فسمي عامر بذلك الجادر . فقيل لولده : الجدرة لذلك .

خبر قصي بن كلاب وما ارتجاعه ولاية البيت
إلى قريش وانتزاعه ذلك من خزاعة

وذلك أنه لما مات أبوه كلاب تزوج أمه ربيعة بن حرام من عذرة ، وخرج بها وبه إلى بلاده ، ثم قدم قصي مكة وهو شاب فتزوج حبي ابنة رئيس خزاعة حليل بن حبشية. فأما خزاعة فزعم أن حليلاً أوصي إلى قصي بولاية البيت لما رأي من كثرة نسله من ابنته ، وقال : أنت أحق بذلك مني. قال ابن إسحاق : ولم نسمع ذلك إلا منهم ، وأما غيرهم فإنهم يزعمون أنه استغاث بأخوته من أمه ، وكان رئيسهم رزاح بن ربيعة وأخوته وبني كنانة وقضاعة ، ومن حول مكة من قريش وغيرهم فأجلاهم عن البيت ، واستقل هو بولاية البيت لأن إجازة الحجيج كانت إلى صوفة وهم بنو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، فكان الناس لا يرمون الجمار حتى يرموا ، ولا ينفرون من مني حتى ينفروا ، فلم يزل كذلك فيهم حتى انقرضوا، فورثهم ذلك بالقُعْدَد بنو سعد بن زيد مناة بن تميم ، فكان أولهم صفوان بن الحارث ابن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، وكان ذلك في بيته حتى قام على آخرهم الإسلام وهو كرب بن صفوان. وكانت الإجازة من المزدلفة في عدوان حتى قام الإسلام على آخرهم وهو أبو سيارة عميلة بن الأعزل ، وقيل : اسمه العاص واسم الأعزل خالد ، وكان يجيز بالناس على أتان له عوراء مكث يدفع عليها في الموقف أربعين سنة ، وهو أول من جعل الدية مائة ، وأول من كان يقول : أُشرق ثبير كيما نغير ، حكاه السهيلي.

وكان عامر بن الظرب العدواني لا يكون بين العرب نائرة إلا تحاكموا إليه فيرضون بما يقضي به ، فتحاكموا إليه مرة في ميراث خنثي فبات ليلته ساهرا يتروي ماذا يحكم به فرأته جارية له كانت ترعي عليه غنمه اسمها " سُخيلة " . فقالت له : مالك لا أبالك الليلة ساهراً ؟. فذكر لها ما هو مفكر فيه وقال : لعلها يكون عندها في ذلك شيء فقالت : اتبع القضاء المبال فقال: فرجتها والله يا سخيلة وحكم بذلك .

قال السهيلي : وهذا الحكم من باب الاستدلال بالأمارات والعلامات وله أصل في الشرع قال اللّه تعالى : ﴿ وجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[يوسف : ١٨] حيث لا أثر لأنياب الذئب فيه وقال تعالى : ﴿ إن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ . وَإن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦، ٢٧]. وفي الحديث أنظروها فإن جاءت به أورق جعدا جماليا فهو للذي رميت به. قال ابن إسحاق : وكان النسيء في بني فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. قال ابن إسحاق : وكان أول من نسأ الشهور على العرب القَلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي . ثم قام بعده ابنه عباد . ثم قلع بن عباد . ثم أمية بن قلع . ثم عوف بن أمية . ثم كان آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن قلع بن عباد بن حذيفة ، وهو القلمس فعلي أبي ثمامة قام الإسلام . وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فخطبهم فحرم الأشهر الحرم فإذا أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم ، وجعل مكانه صفرا ﴿ لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة : ٣٧] فيقول: اللهم إني أحللت أحد الصفرين الصفر الأول وأنسأت الآخر للعام المقبل فتتبعه العرب في ذلك ففي ذلك يقول مفتخرا عمير بن قيس أحد بني فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، ويعرف عمير بن قيس هذا بجدل الطعان :

لقد علمتْ معدٌّ أنّ قومي ... كرامُ الناس أنَّ لهم كراما
فأيُّ الناسِ فاتونا بوِتر؟ ... وأيُّ الناسِ لم نعلك لجاما؟
ألسنا الناسئينَ على معدٍّ ... شهورَ الحِلّ نَجْعلُها حرامًا ؟

وكان قصي في قومه سيداً رئيساً مطاعاً معظماً والمقصود أنه جمع قريشاً من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب ، واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على جرب خزاعة وإجلائهم عن البيت ، وتسليمه إلى قصي فكان بينهم قتال كثيرة ، ودماء غزيرة ثم تداعوا إلى التحكيم ، فتحاكموا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فحكم بأن قصيا أولي بالبيت من خزاعة ، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع بشدخه تحت قدميه ، وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداة وأن يخلي بين قصي وبين مكة والكعبة فسمي يعمر يومئذ : الشداخ.

قال ابن إسحاق : فولي قصي البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة وتملك على قومه ، وأهل مكة فملكوه إلا أنه أقر العرب على ما كانوا عليه لأنه يري ذلك دينا في نفسه لا ينبغي تغييره فأقر آل صفوان وعدوان والنسأة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه حتى جاء الإسلام فهدم اللّه به ذلك كله . قال : فكان قصي أول بني كعب أصاب ملكا أطاع له به قومه وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله وقطع مكة رباعا بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة.

قلت : فرجع الحق إلى نصابه، ورد شارد العدل بعد إيابه، واستقرت بقريش الدار، وقضت من خزاعة المراد والأوطار[١] ، وتسلمت بيتهم العتيق القديم لكن بما أحدثت خزاعة من عبادة الأوثان ونصبها إياها حول الكعبة ونحرهم لها وتضرعهم عندها واستنصارهم بها وطلبهم الرزق منها وأنزل قصي قبائل قريش أباطح مكة وأنزل طائفة منهم ظواهرها ، فكان يقال : قريش البطاح ، وقريش الظواهر ، فكانت لقصي بن كلاب جميع الرئاسة من حجابة البيت ، وسدانته ، واللواء ، وبنى داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات سماها دار الندوة إذا أعضلت قضية اجتمع الرؤساء. من كل قبيلة فاشتوروا فيها وفصلوها ، ولا يعقد عقد لواء ولا عقد نكاح إلا بها ولا تبلغ جارية أن تدرع فتدرع إلا بها ، وكان باب هذه الدار إلى المسجد الحرام. ثم صارت هذه الدار فيما بعد إلى حكيم بن حزام بعد بني عبد الدار فباعها في زمن معاوية بمائة ألف درهم فلامه على بيعها معاوية، وقالت : بعت شرف قومك بمائة ألف ؟ فقال : إنما الشرف اليوم بالتقوي والله لقد ابتعتها في الجاهلية بزق خمر وها أنا قد بعتها بمائة ألف وأشهدكم أن ثمنها صدقة في سبيل الله فأينا المغبون ؟ ذكره الدارقطني في أسماء رجال الموطأ وكانت إليه ساقية الحجيج ، فلا يشربون إلا من ماء حياضه ، وكانت زمزم إذ ذاك مطموسة من زمن جرهم قد تناسوا أمرها من تقادم عهدها ولا يهتدون إلى موضعها ، قال الواقدي : وكان قصي أول من أحدث وقيد النار بالمزدلفة ليهتدي إليها من يأتي من عرفات. والرفادة وهي إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم.

قال ابن إسحاق : وذلك أن قصياً فرضه عليهم فقال لهم يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق بالضيافة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا ، فكانوا يخرجون لذلك في كل عام من أموالهم خرجا فيدفعونه إليه فيصنعه طعاما للناس أيام منى ، فجري ذلك من أمره في الجاهلية حتى قام الإسلام . ثم جري في الإسلام إلى يومك هذا ، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمني للناس حتى ينقضي الحج.

قلت : ثم انقطع هذا بعد ابن إسحاق . ثم أمر بإخراج طائفة من بيت المال فيصرف في حمل زاد وماء لأبناء السبل القاصدين إلى الحج ، وهذا صنيع حسن من وجوه يطول ذكرها ، ولكن الواجب أن يكون ذلك من خالص بيت المال من أحل ما فيه ، والأولي أن يكون من جوالي الذمة لأنهم لا يحجون البيت العتيق ، وقد جاء في الحديث من استطاع الحج فلم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا.

وقال قائلهم في مدح قصي وشرفه في قومه :

---

(١) أوطار : جمع وطر : الحاجة والبغية .

قصيّ لعمري كان يدعي مجمّعاً به جمع اللّه القبائلَ من فِهر
هموا ملأوا البطحاء مجداً وسؤدَداً وهم طَردوا عنا غُواة بنيَ بكر

قال ابن إسحاق : ولما فرغ قصي من حربه ، انصرف أخوه رزاح بن ربيعة إلى بلاده بمن معه ، وإخوته من أبيه الثلاثة ، وهم : حن . ومحمود . وجلهمة. قال رزاح في إجابته قصيا :

ولما أتي من قصيٍّ رسولٌ فقال الرسول: أجيبوا الخليلا
نهضْنا إليه نقودُ الجيادَ ونطرحُ عنّآ الملولَ الثقيلا
نسيرُ بها الليلَ حتى الصبا ح ونكمي النهارَ لئلا نزولا
فهنّ سراعٌ كوردِ القطا يُجبْنَ بنا من قُصَيٍّ رسولا
جمعنا من السّرّ من أشمَذين [1] ومن كلَ حيّ جمعنا قبيلا
فيالَك حلبةُ ما ليلةُ تزيدُ على الألفِ سيبًا رسيلا
فلما مَرَرْنَ على عسجر وأسهلنَ من مستناخِ سبيلا
وجاوزنَ بالرُّكنِ من ورقا نَ وجاوزْنَ بالعرجِ حَيًّا حلولا
مَرَرْنَ على الحلي ما ذُقنه وعالجنَ من مرّ ليلا طويلا
نُدني من العوْذ أَفْلاَءَها إرادةَ أنْ يسترقَّنَّ الصهيلا
فلما انتهينا إلى مكّة أبحنا الرجالَ قبيلا قبيلا
نَعاورُهُم ثَمّ حدَّ السيو فِ وفي كلِّ أوْبِ خلسنا العقولا
نخبّزهم بصلابِ النسو رِ خبزَ القويّ العزيزِ الذليلا
قتلنا خزاعَة في دارها وبكَراً قتلنا وجيلاً فجيلا
نفيناهمُ من بلاد المليـ ـكِ لا يحلّون أرضاً سهولا
فأصبح سَبْيُهُمُ في الحديـ ـدِ ومن كل حيٍّ شَفَيْنا الغَليلاَ

قال ابن إسحاق : فلما رجع رزاح إلى بلاده نشره اللّه ونشر حُناً، فهما قبيلا عذرة إلى اليوم.

قال ابن إسحاق : وقال قصي بن كلاب في ذلك :

أَنَا ابنْ العاصمينَ بني لُؤَيّ بمكّةَ منزلي وبها ربيتُ
إلى البطحاءِ قدْ علمتْ معدّ ومروتُها رضيتُ بها رضيتُ
فلستُ لغالبِ أنْ لم تأثّلْ بها أولادُ قيدرَ والنبيتُ
رزاحُ ناصِري وبه أُسامي فلستُ أخافُ ضيماً ما حييتُ

وقد ذكر الأموي عن الأشرم عن أبي عبيدة عن محمد بن حفص : أن رزاحا إنما قدم بعدما نفي قصي خزاعة ، واللّه أعلم.

---

(١) اسم جبلين ، ويقال : اسم قبيلتين .

فصل : ثم لما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه ، من رئاسات قريش وشرفها من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة إلى ابنه عبد الدار وكان أكبر ولده. وإنما خصصه بها كلها لأن بقية أخوته عبد مناف وعبد الشمس وعبدا كانوا قد شرفوا في زمن أبيهم وبلغوا في قومهم شرفاً كبيراً فأحب قصي أن يلحق بهم عبد الدار في السؤدد فخصصه بذلك فكان أخوته لا ينازعونه في ذلك فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم في ذلك . وقالوا : إنما خصص قصي عبدالدار بذلك ليلحقه بإخوته ، فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه ، وقال بنو عبدالدار : هذا أمر جعله لنا قصي فنحن أحق به ، واختلفوا اختلافا كثيراً ، وانقسمت بطون قريش فرقتين ففرقة بايعت عبد الدار . وحالفتهم ، وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفوهم على ذلك ، ووضعوا أيديهم عند الحلف في جفنة فيها طيب . ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة ، فسموا حلف المطيبين. وكان منهم من قبائل قريش بنو أسد بن عبد العزي بن قصي وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث بن فهر وكان مع بني عبد الدار بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي . واعتزلت بنو عامر بن لؤي ومحارب بن فهر الجميع فلم يكونوا مع واحد منهما . ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبدمناف . وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار . فانبرم الأمر على ذلك واستمر.

وحكي الأموي عن الأشرم عن أبي عبيدة قال : وزعم قوم من خزاعة أن قُصَيًّا لما تزوج حبي بنت حليل ، ونقل حليل عن ولاية البيت جعلها إلى ابنته حبي ، واستناب عنها أبا غبشان سليم بن عمرو بن لؤي بن ملكان بن قصي بن حارثة بن عمرو بن عامر فاشتري قصي ولاية البيت منه بزق حمر وقعود فكان يقال : (أخسر من صفقة أبي غبشان) ولما رأت خزاعة ذلك اشتدوا على قصي ، فاستنصر أخاه فقدم بمن معه وكان ما كان . ثم فوض قصي هذه الجهات التي كانت إليهِ من السدانة والحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية إلى ابنه عبدالدار – كما سيأتي تفصيله وإيضاحه ، وأقر الإجازة من مزدلفة في بني عدوان ، وأقر النسيء في فقيم ، وأقر الإجازة وهو النفر في صوفة . كما تقدم بيان ذلك كله مما كان بأيديهم قبل ذلك.

قـــال ابـــن إسحاق : فولد قصي أربعة نفر ، وامرأتين : عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العـــزي ، وتخمر وبرة، وأمهم كلهم حُبّي بنت حُليل بن حُبْشيّة بن سلول بن كعب بن عمرو الخـــزاعي ، وهو آخر من ولي البيت من خزاعة ومن يده أخذ البيت قصي بن كلاب. قال ابن هشام : فولد عبد مناف بن قصي أربعة نفر : هاشماً . وعبد شمس . والمطلب ، وأمهم : عاتكة بـــنت مرة بن هلال . ونوفل بن عبد مناف . وأمه واقدة بنت عمرو المازنية. قال ابن هشام : وولد لعبد مناف أيضاً : أبو عمرو . وتماضر . وقلابة وحية ، وريطة . وأم الأخثم وأم سفيان. قـــال ابن هشام : وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة : عبد المطلب ، وأسداً ، وأبا صيفي . ونضلة . والشفاء . وخالدة . وضعيفة . ورقية . وحية . فأم عبد المطلب ورقية

سلمي بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار من المدينة وذكر أمهات الباقين قال: وولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة وهم العباس وحمزة وعبدالله وأبو طالب واسمه عبد مناف لا عمران- والزبير. والحارث- وكان بكر أبيه ، وبه كان يكني - وجحل ومنهم من يقول : حجل - وكان يلقب بالغيداق لكثرة خيره - والمقوم ، وضرار ، وأبو لهب - واسمه عبد العزي - وصفية . وأم حكيم البيضاء . وعاتكة . وأميمة . وأروي . وبرة . وذكر أمهاتهم إلى أن قال : وأم عبد الله . وأبي طالب . والزبير . وجميع النساء إلا صفية فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . قال : فولد عبد الله محمداً رسول الله ﷺ سيد ولد آدم . وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي - ثم ذكر أمهاتها فأغرق إلى أن قال - فهو أشرف ولد آدم حسباً وأفضلهم نسباً من قبل أبيه وأمه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين. وقد تقدم حديث الأوزاعي عن شداد أبي عمار عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله اصطفي كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفي قريشاً من كنانة ، واصطفي هاشماً من قريش ، واصطفاني من بني هاشم** » [1]. رواه مسلم . وسيأتي بيان مولده الكريم وما ورد فيه من الأخبار والآثار وسنورد عند سرد النسب الشريف فوائد أخر ليست هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان.

ذكر جُمَل من الأحداث في الجاهليّة

قد تقدم ما كان من أخذ جرهم ولاية البيت من بني إسماعيل ، طمعوا فيهم لأنهم أبناء بناتهم . وما كان من توثب خزاعة على جرهم وانتزاعهم ولاية البيت منهم . ثُم ما كان من رجوع ذلك إلى قصي وبنيه واستمرار ذلك في أيديهم إلى أن بعث الله رسوله ﷺ فأقر تلك الوظائف على ما كانت عليه.

ذكر جماعة مشهورين في الجاهلية

خبر خالد بن سنان العبسي الذي كان في زمن الفترة وقد زعم بعضهم : أنه كان نبيا والله أعلم.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن زهير التستري . حدثنا يحيي بن المعلي بن منصور الرازي . حدثنا محمد بن الصلت . حدثنا قيس بن الربيع عن سالم الأفطس عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس : قال : جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبي ﷺ فبسط لها ثوبه .

---

(١) رواه مسلم (١/٢٢٧٦) .

وقال: « بنت نبي ضيعه قومه » [١] . وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يحيي بن المعلي بن منصور عن محمد بن الصلت عن قيس عن سالم عن سعيد عن ابن عباس. قال : ذكر خالد بن سنان عند رسول الله ﷺ فقال : « ذاك نبي ضيعه قومه » . ثم قال : ولا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه وكان قيس بن الربيع ثقة في نفسه إلا أنه كان رديء الحفظ وكان له ابن يدخل في أحاديثه ما ليس منها والله أعلم.

قال البزار : وقد رواه الثوري عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير مرسلا ، وقال الحافظ أبو يعلي الموصلي : حدثنا المعلي بن مهدي الموصلي : قال : حدثنا أبو عوانة عن أبي يونس عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من عبس يقال له : خالد بن سنان . قال لقومه : إني أطفئ عنكم نار الحرتين . فقال له رجل من قومه والله يا خالد ما قلت لنا قط إلا حقا فما شأنك وشأن نار الحرتين تزعم أنك تطفئها فخرج خالد ومعه أناس من قومه فيهم عمارة بن زياد فأتوها فإذا هي تخرج من شق جبل فخط لهم خالد خطة فأجلسهم فيها فقال : إن أبطأت عليكم فلا تدعوني بإسمي فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضا ، فاستقبلها خالد فجعل يضربها بعصاه وهو يقول : بدا بدا بدا كل هدي زعم ابن راعية المعزي أني لا أخرج منها وثيابي بيدي حتى دخل معها الشق فأبطأ عليهم . فقال لهم عمارة بن زياد : والله إن صاحبكم لو كان حيا لقد خرج إليكم بعد . قالوا : فادعوه باسمه. قال : فقالوا : إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه فدعوه باسمه فخرج وهو آخذ برأسه فقال: ألم أنهكم أن تدعوني باسمي؟ فقد والله قتلتموني فادفنوني فإذا مرت بكم الحمر فيها حمار أبتر فأنبشوني فإنكم تجدوني حياً فدفنوه فمرت بهم الحمر فيها حمار أبتر . فقلنا : أنبشوه فإنه أمرنا أن ننبشه فقال لهم عمارة : لا تنبشوه لا والله لا تحدث مضر أنا ننبش موتانا وقد كان قال لهم خالد : إن في عكن امرأته لوحين فإن أشكل عليكم أمر فانظروا فيهما فإنكم ستجدون ما تسألون عنه . قال : ولا يمسهما حائض فلما رجعوا إلى امرأته سألوها عنهما فأخرجتهما إليهم وهي حائض فذهب ما كان فيهما من علم .

قال أبو يونس: قال سماك بن حرب : سئل عنه النبي ﷺ فقال : « **ذاك نبي أضاعه قومه** » قال : أبو يونس : قال سماك بن حرب : إن ابن خالد بن سنان أتي النبي ﷺ فقال : مرحبا بابن أخي فهذا السياق موقوف على ابن عباس وليس فيه أنه كان نبيا ، والمرسلات التي فيها أنه نبي

---

(١) **ضعيف** : رواه الطبرانى فى " الكبير " (٣٤٩/١١) رقم (١٢٢٥٠) والبزار (٢٣٦١ - كشف) وابن عدى فى " الكامل " (٢٠٦٩/٩) وأبو نعيم فى أخبار أصبهان (١٨٧/٢) وقال البزار : رواه النورى عن سالم عن سعيد بن جبير مرسلاً ، وأسنده قيس ولم نسمع أحداً يحدث به عن محمد بن الصلت إلا يحيى ، وإنما يحفظ هذا الحديث من حديث الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس أن ابنه خالد بن سنان دخلت على رسول الله ﷺ فقال : " مرحباً بابنة نبى ضيعه قومه " قلت : والكلبى كذاب . قال شيخنا الألبانى فى "الضعيفة " بعد أن أورده فيه (٢٩٩/١) ومع ضعف الحديث فإنه معارض كما قال الهثيمى (٢١٤/٨) للحديث الصحيح : " أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم - الأنبياء أخوة لعلات " .

لا يحتج بها هاهنا ، والأشبه أنه كان رجلا صالحاً له أحوال وكرامات فإنه إن كان في زمن الفترة . فقد ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن أولى الناس بعيسى ابن مريم أنا لأنه ليس بيني وبينه نبي** » [1]. وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً لأن الله تعالى قال: ﴿ **لتنذرَ قوْماً مَّا أتاهُم مِّن نَّذيرٍ مِّن قَبْلكَ** ﴾ [السجدة:٣] ، [والقصص : ٤٦] وقد قال غير واحد من العلماء إن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل نبيا في العرب إلا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء الذي دعا به إبراهيم الخليل باني الكعبة المكرمة التي جعلها الله قبلة لأهل الأرض شرعا وبشرت به الأنبياء لقومهم حتى كان آخر من بشر به عيسى ابن مريم عليه السلام ، وبهذا المسلك بعينه يردّ ما ذكره السهيلي وغيره من إرسال نبي من العرب يقال له : شعيب بن ذي مهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مدين ، وبعث إلى العرب أيضا حنظلة بن صفوان ، فكذبوهما فسلط الله على العرب بختنصر فنال منهم من القتل والسبي نحو ما نال من بني إسرائيل وذلك في زمن معد بن عدنان ، والظاهر أن هؤلاء كانوا قوما صالحين يدعون إلى الخير . والله أعلم. وقد تقدم ذكر عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف في أخبار خزاعة بعد جرهم.

حاتم الطائي أحد أجواد الجاهلية

وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي بن أحزم بن أبي أحزم واسمه هرومة بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيئ أبو سفانة الطائي والدعدي بن حاتم الصحابي ، كان جواداً ممدوحاً في الجاهلية وكذلك كان ابنه في الإسلام ، وكانت لحاتم مآثرو أمور عجيبة ، وأخبار مستغربة في كرمه يطول ذكرها ولكن لم يكن يقصد بها وجه الله والدار الآخرة وإنما كان قصده السمعة والذكر قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن معمر . حدثنا عبيد بن واقد القيسيُ حدثنا أبو نصر هو الناجي عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال: ذكر حاتم عند النبي ﷺ فقال: « **ذاك أراد أمراً فادركه** » حديث غريب قال الدارقطني: تفرد به عبيد بن واقد عن أبي نصر الناجي، ويقال: إن اسمه حماد.

قال ابن عساكر : وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين أبي نصر الناجي وبين أبي نصر حماد ولم يسم الناجي ، ووقع في بعض روايات الحافظ ابن عساكر عن أبي نصر شيبة الناجي والله أعلم.

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن إسماعيل . حدثنا سفيان عن سماك بن حرب عن مري ابن قطري عن عدي بن حاتم . قال : قلت لرسول الله ﷺ : إن أبي كان يصل الرحم ويفعل ويفعل فهل له في ذلك ؟ يعني من أجر . قال: « **إن أباك طلب شيئا فأصابه** »[2]. وهكذا رواه أبويعلي عن القواريري عن غندر عن شعبة عن سماك به. وقال : « **إن أباك أراد أمراً فادركه** »

(١) رواه البخارى (٣٤٤٢) .

(٢) رواه أحمد (٤ / ٣٧٩) .

يعني الذكر ، وهكذا رواه أبو القاسم البغوي عن على بن الجعد عن شعبة به سواء وقد ثبت في الصحيح في الثلاثة الذين تسعر بهم جهنم منهم الرجل الذي ينفق ليقال : إنه كريم فيكون جزاؤه أن يقال : ذلك في الدنيا وكذا في العالم والمجاهد وفي الحديث الآخر في الصحيح: أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة فقالوا له : كان يقري الضيف ويعتق ويتصدق فهل ينفعه ذلك ؟ فقال : **« إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين »** [١] هذا وقد كان من الأجواد المشهورين أيضاً المطعمين في السنين الممحلة والأوقات المرملة.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ . حدثني أبو بكر محمد بن عبد الله بن يوسف العماني . حدثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبد الواحد الكوفي حدثنا ضرار بن صرد حدثنا عاصم بن حميد عن أبي حمزة الثمالي عن عبد الرحمن بن جندب عن كميل بن زياد النخعي . قال : قال على بن أبي طالب : يا سبحان الله ما أزهد كثيراً من الناس في خير عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يري نفسه للخير أهلا فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشي عقابا لكان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق فإنها تدل على سبيل النجاح. فقام إليه رجل وقال : فداك أبي وأمي يا أمير المؤمنين أسمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم ! وما هو خير منه لما أتي بسبايا طيء وقعت جارية حمراء . لعساء [٢] . زلفاء . عيطاء. شماء الأنف . معتدلة القامة والهامة . درماء الكعبين . خدلجة الساقين . لفاء الفخذين . خميصة[٣] الخصرين . ضامرة [٤] الكشحين مصقولة [٥] المتنين. قال فلما رأيتها أعجبت بها . وقلت : لأطلبن إلى رسول الله ﷺ فيجعلها في فيء فلما تكلمت أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها . فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي وإن أبي كان يحمي الذمار ، ويفك العاني ، ويشبع الجائع ، ويكسو العاري ، ويقري الضيف ويطعم الطعام ، ويفشي السلام . ولم يرد طالب حاجة قط وأنا ابنة حاتم طيئ. فقال النبي ﷺ : **« يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً لو كان أبوك مؤمنا لترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله تعالى يحب مكارم الأخلاق »**. فقام أبو بردة بن نيار . فقال : يا رسول الله، والله يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال رسول الله ﷺ : **« والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق »** [٦] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٢٤٩٤٦) عن عائشة رضى الله عنها .

(٢) لعساء : فى شفتها سواد مستحسن .

(٣) زلفاء : ملساء . عيطاء : طول العنق . درماء : ملساء لينة ومستوية . خدلجة ممتلئة ضخمة . لفاء : كثيرة لحم الفخذين . خميصة : ضامرة الخصر .

(٤) ضامر : هزال ، رَقَّ وقلّ لحمه . الكشح : ما بين السُّرَّةِ ووسط الظهر .

(٥) ملساء .

(٦) **ضعيف جدا** : رواه البيهقى فى " الدلائل " (٥ / ٣٤١) وفى سنده خرار بن حرد وهو متروك .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني عمر بن بكر عن أبي عبد الرحمن الطائي – هو القاسم ابن عدي – عن عثمان عن عركي بن حليس الطائي عن أبيه عن جده وكان أخا عدي بن حاتم لأمه . قال : قيل لنوار امرأة حاتم : حدثينا عن حاتم . قالت : كل أمره كان عجباً أصابتنا سنة حصت كل شيء فاقشعرت لها الأرض واغبرت لها السماء وضنت المراضع على أولادها وراحت الإبل حدبا حدابير ما تبض بقطرة وحلقت المال وإنا لفي ليلة صنّبر بعيدة ما بين الطرفين إذ تضاغي الأصبية من الجوع عبد اللّه وعدي وسفانة . فواللّه إن وجدنا شيئاً نعللهم به ، فقال : إلى أحد الصبيان فحمله وقمت إلى الصبية فعللتها فواللّه إن سكتا إلا بعد هدأة من الليل . ثم عدنا إلى الصبي الآخر فعللناه حتى سكت ، وما كاد . ثم افترشنا قطيفة لنا شامية ذات خمل فأضجعنا الصبيان عليها ونمت أنا وهو في حجرة والصبيان بيننا . ثم أقبل على يعللني لأنام ، وعرفت ما يريد فتناومت . فقال : مالك أنمت؟ فسكت . فقال : ما أراها إلا قد نامت وما بي نوم فلما أدلهم الليل وتهورت النجوم وهدأت الأصوات وسكنت الرجل إذ جانب البيت قد . رفع : فقال: من هذا ؟ . فولي حتى قلت إذاً قد أسحرنا أو كدنا عاد فقال : من هذا؟. قالت : جارتك فلانة يا أبا عدي ما وجدت على أحد معولا غيرك أتيتك من عند أصبية يتعاوون عواء الذئاب من الجوع قال : أعجليهم على قالت النوار فوثبت فقلت : ماذا صنعت ؟ أضطجع واللّه لقد تضاغي أصبيتك فما وجدت ما تعللهم فكيف بهذه وبولدها ؟ . فقال : اسكتي فواللّه لأشبعنك إن شاء اللّه . قالت : فأقبلت تحمل اثنين وتمشي جنبتيها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها فقام إلى فرسه فوجأ بحربته في لبته . ثم قدح زنده وأوري ناره . ثم جاء بمدية فكشط عن جلده . ثم دفع المدية إلى المرأة . ثم قال : دونك . ثم قال : ابعثي صبيانك فبعثتهم . ثم قال : سوءة أتأكلون شيئا دون أهل الصرم ، فجعل يطوف فيهم حتى هبوا وأقبلوا عليه والتفع في ثوبه ثم اضطجع ناحية ينظر إلينا واللّه ما ذاق مزعة ، وإنه لأحوجهم إليه فأصبحنا وما على الأرض منه إلا عظم وحافر.

وقال الدارقطني : حدثني القاضي أبو عبد اللّه المحاملي . حدثنا عبد اللّه بن أبي سعد . وحدثنا عثيم بن ثوابة بن حاتم الطائي عن أبيه عن جده . قال : قالت : امرأة حاتم لحاتم يا أبا سفانة أشتهي أن آكل أنا وأنت طعاما وحدنا ليس عليه أحد ، فأمرها فحولت خيمتها من الجماعة على فرسخ وأمر بالطعام فهيئ وهي مرخاة ستورها عليه وعليها فلما قارب نضج الطعام كشف عن رأسه . ثم قال :

فلا تطبخي قدري وستُرك دُونَها ... عليّ إذنْ ما تطبخيـــــن حَرامُ
ولكنْ بهـــذاكَ اليفـــاعِ فأوقـــدي ... بجزلٍ إذا أوقـــدتِ لا بضـــرامِ

قال : ثم كشف الستور . وقدم الطعام ودعي الناس فأكل وأكلوا . فقالت : ما أتممت لي ما قلت ؟ . فأجابها فإني لا تطاوعني نفسي ونفسي أكرم على من أن يثني على هذا وقد سبق لي السخاء ثم أنشأ يقول :

أمارسُ نفسي البخلَ حتى أعزّهـا وأتركُ نفسَ الجود ما أستثيرهـا
ولا تشتكيني جارتي غيرَ أنّها إذا غاب عنهـا بعلُها لا أزورها
سيبلغُهـا خيـري ويرجعُ بعلُهـا إليها ولم تقصُـرْ عليها ستـورها

ومن شعر حاتم :

إذا مـا بتُّ أشـربُ فـوق ريّ لسكرٍ في الشراب فلا رويت
إذا مـا بت أختلُ عرسَ جاري ليخفيني الظلامُ فلا خفيت
أأفضح جارتي وأخونُ جاري ؟ فـلا واللّه أفعـلُ مـا حييت

ومن شعره أيضاً :

ماضـرّ جـاراً لي أجـاورُهُ أنْ لا يكـونَ لبابـه سترُ
أُغضـي إذا ما جَارتـي بَـرزَتْ حـتى يـُواريَ جـارتي الخـدْرُ

ومن شعر حاتم أيضاً :

وما من شيمتي شتمُ ابنِ عمّـي وما أنا مُخْلفٌ مَـن يرتجيني
وكلمـة حاسـد من غير جـرم سمعـتُ وقلتُ: مـرّي فانقـذيني
وعابُـوها عَلـيَّ فلـم تَعبْـني ولم يعـرَقْ لها يومـا جبيني
وذي وجهيـن يلقاني طليقاً وليـس إذا تغيَّبَ يأتسيني
ظفـرتُ بعيبـه فكفَفْـتُ عنـه محافظـةً علـى حَسَبي وديني

ومن شعره :

سلي البائسَ المقرورَ يا أمَّ مالك إذا ما أتاني بين نـاري ومجزري
أأبسط وجهـي إنّـه أولُ القـرى وأبذلُ معروفي له دون مُنْكَـرى ؟

وقال أيضاً :

وإنّك إنْ أعطيْتَ بَطنَـكَ سُـؤلَه وفرجَـك نالا منتهَى الذمِّ أجمعا

وقال القاضي أبو الفرج المعافي بن زكرياء الجريري : حدثنا الحسين بن القاسم الكوكبي ، حدثنا أبو العباس المبرد أخبرني الثوري عن أبي عبيدة. قال : لما بلغ حاتم طيئ قول المتلمس :

قليـلُ المال تُصلحه فيبـقي ولا يبقي الكثيرُ على الفَسـاد
وحِفـظُ المالَ خيرٌ مـن فَنـاه وعسفٍ فـي البـلادِ بغيـر زادِ

قال : ماله قطع اللّه لسانه حمـــل الناس على البخل فهلا قال :

فلا الجـــودُ يُفني المالَ قبـــلَ فَنَـــائه ولا البخلُ في مال الشحيح يزيدُ
فـــلا تلتمسْ مـــالاً بعيـــش مقتّرٍ لكـــلّ غد رزقٌ يعودُ جـــديـــدُ
ألم تَرَ أنّ المالَ غَـــادٍ ورائـــحٌ وأنّ الذي يُعْطيـــك غيرُ بعيـــدِ؟

قال القاضي أبو الفرج : ولقد أحسن في قوله : وإن الذي يعطيك غير بعيد. ولو كان مسلما لرجي له الخير في معاده وقد قال اللّه في كتابه : ﴿واسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[النساء: ٣٢]. وقال تعالى : ﴿ وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦]. وعن الوضاح بن معبد الطائي قال: وفد حاتم الطائي على النعمان بن المنذر فأكرمه وأدناه ، ثم زوده عند انصرافه جملين ذهباً وورقاً غير ما أعطاه من طرائف بلده فرحل، فلما أشرف على أهله تلقته أعاريب طيئ. فقالت : يا حاتم أتيت من عند الملك وأتينا من عند أهالينا بالفقر فقال: حاتم هلم فخذوا ما بين يدي فتوزعوه فوثبوا إلى ما بين يديه من حباء النعمان فاقتسموه. فخرجت إلى حاتم طريفة جاريته فقالت له : اتق اللّه وأبق على نفسك، فما يدع هؤلاء ديناراً ولا درهما ولا شاة ولا بعيراً. فأنشأ يقول :

قالت طـــريفةُ: ما تَبقي دراهمُنـــا وما بنا سَرَفٌ فيهـــا ولا خـــرَقُ
إنْ يفـــنَ ما عندنا فاللّهُ يـــرزقُنـــا ممَّنْ ســـوانا ولســـنا نحـــنُ نرتزقُ
ما يألفُ الدرهمُ الكاريُّ خِرقَتَنـــا ألاّ يمـــرّ عليهـــا ثـــم ينطلقُ؟
إنّـــا إذا اجتمعَتْ يومـــاً دراهمُنَا ظلّت إلى سُبُلِ المعـــروفِ تســـتبقُ

وقال أبو بكر بن عياش : قيل لحاتم : هل في العرب أجود منك ؟. فقال : كل العرب أجود مني . ثم أنشأ يحدث.قال:نزلت على غلام من العرب يتيم ذات ليلة وكانت له مائة من الغنم فذبح لي شاة منها وأتاني بها فلما قرب إلى دماغها . قلت:ما أطيب هذا الدماغ! . قال : فذهب فلم يزل يأتيني منه حتى قلت : قد اكتفيت،فلما أصبحت إذا هو قد ذبح المائة شاة وبقي لا شيء له؟ . فقيل : فما صنعت به ؟ . فقال:ومتي أبلغ شكره ولو صنعت به كل شيء . قال:على كل حال فقال : أعطيته مائة ناقة من خيار إبلي. وقال محـ د بن جعفر الخرائطي في كتاب مكارم الأخلاق: حدثنا العباس بن الفضل الربعي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني حماد الراوية ومشيخة من مشيخة طيئ، قالوا : كانت غنية بنت عفيف بن عمرو بن امرئ القيس أم حاتم طيئ، لا تمسك شيئا سخاء وجوداً ؛ وكان إخوتها يمنعونها فتأبى. وكانت امرأة موسرة، فحبسوها في بيت سنة يطعمونها قوتها لعلها تكف عما تصنع. ثم أخرجوها بعد سنة وقد ظنوا أنها قد تركت ذلك الخلق، فدفعوا إليها صِرمة من مالها، وقالوا: استمتعي بها، فأتتها امرأة من هوازن - وكانت تغشاها - فسألتها فقالت : دونك هذه الصِرمة فقد واللّه مسني من الجوع ما آليت أن لا أمنع سائلا . ثم أنشأت تقول :

لَعَمري لقدماً عضّني الجوعُ عضةً فآليتُ أن لا أمنعَ الدهرَ جـائعـا
فقـولا لهَذا اللائمي اليَومَ: أعفني وإنْ أنتَ لم تفعلْ فعض الأصابعـا
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا
ومـاذا تـرونَ اليومَ إلا طبيعـةً فكيف بتركي يا ابن أمي الطبائعا ؟!

وقال الهيثم بن عدي، عن ملحان بن عركي بن عدي بن حاتم عن أبيه عن جده، قال : شهدت حاتما يكيد بنفسه، فقال لي : أي بني ! إني أعهد من نفسي ثلاث خصال : واللّه ما خاتلت جارة لريبة قط، ولا اؤتمنت على أمانة إلا أديتها، ولا أوتي أحد من قبلي بسوء. وقال أبـو بكر الخرائطي : حدثنا علي بن حرب، حدثنا عبد الرحمن بن يحيي العدوي، حدثنا هشام ابن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي مسكين – يعني جعفر بن المحرر بن الوليد – عن المحرر مولى أبي هريرة، قال : مر نفر من عبد القيس بقبر حاتم طيئ فنـزلوا قريبا منه فقام إليه بعضهم- يقال له أبو الخيبري – فجعل يركض قبره برجله. ويقول : يا أبا جعد أقرنا، فقال له بعض أصحابه : ما تخاطب من رمة وقد بليت ؟ . وأجنهم الليل، فناموا. فقام صاحب القول فزعاً: يقول: يا قوم! عليكم بمطيكم؛ فإن حاتم أتاني في النوم وأنشدني شعراً، وقد حفظته يقول:

أبـا الخيبـريّ وأنـتَ امرؤ ظلـومُ العشيـرة شتّامُها
أتيتَ بصحبـك تبغـي القِرى لدى حفـرة قد صَدَتْ هَامُهـا
أتبغي لي الذّنبَ عنـدَ المبيـ ـتِ وحولَك طيئٌ وأنعامـُها؟
وإنـا لنُشْبِـعُ أضيـافنـا ونأتـي المطـيّ فنعتامُهـا

قال : وإذا ناقة صاحب القول تكوس عقيراً فنحروها، وقاموا يشتوون ويأكلون. وقالوا : واللّه لقد أضافنا حاتم حياً وميتاً. قال : وأصبح القوم وأردفوا صاحبهم وساروا فإذا رجل ينوه بهم راكباً جملاً ويقود آخر. فقال : أيّكم أبو الخيبري ؟ . قال : أنا، قال : إن حاتما أتاني في النوم فأخبرني أنه قرى أصحابك ناقتك، وأمرني أن أحملك، وهذا بعير فخذه ؛ ودفعه إليه .

شيء من أخبار عبد اللّه بن جدعان

هو عبد اللّه بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة سيد بني تيم وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه. وكان من الكرماء الأجواد في الجاهلية المطعمين للمسنتين، وكان في بدء أمره فقيراً مملقاً، وكان شريرا يكثر من الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته، وأبغضه حتى أبوه. فخرج ذات يوم في شعاب مكة حائراً بائراً، فرأى شقا في جبل فظن أن يكون به شيئا يؤذي، فقصده لعله يموت فيستريح مما هو فيه. فلما اقترب منه إذا ثعبان يخرج إليه ويثب عليه، فجعل يحيد عنه ويثب فلا يغني شيئا، فلما دنا منه إذا هو من ذهب وله عينان هما ياقوتتان، فكسره وأخذه ودخل الغار، فإذا فيه قبور لرجال من ملوك

جرهم، ومنهم الحارث بن مضاض الذي طالت غيبته فلا يُدرى أين ذهب ؟ ، ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومدد ولايتهم، وإذا عندهم من الجواهر واللآلئ والذهب والفضة شيء كثير، فأخذ منه حاجته . ثم خرج وعلّم باب الغار . ثم انصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه وسادهم، وجعل يطعم الناس، وكلما قل ما في يده، ذهب إلى ذلك الغار فأخذ حاجته ثم رجع. فممن ذكر هذا عبد الملك بن هشام في كتاب التيجان وذكره أحمد ابن عمار في كتاب ري العاطش وأنس الواحش وكانت له جفنة يأكل منها الراكب على بعيره، ووقع فيها صغير فغرق، وذكر ابن قتيبة وغيره : أن رسول الله ﷺ قال : « **لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عُمَيّ أي : وقت الظهيرة** » . وفي حديث مقتل أبي جهل أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « **تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشجة في ركبته، فإني تزاحمت أنا وهو على مأدبة لابن جدعان فدفعته فسقط على ركبته فانهشمت، فأثرها باق في ركبته فوجدوه كذلك** ».

وذكروا : أنه كان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن، حتى سمع قول أمية بن أبي الصلت :

ولقـــدْ رأيـــتُ الفاعلين وفعلَهـــم ... فـــــرأيتُ أكرمَهـــم بني الديّـــان
البّرّ يلبـــكُ بالشهـــاد طعَامهـــم ... لا مـــا يعللنـــا بنـــو جـــدعـــان

فأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفي بعير تحمل البر والشهد والسمن، وجعل مناديا ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة أن : هلموا إلى جفنة ابن جدعان. فقال أمية في ذلك :

لـــــه داعٍ بمكـــــةَ مشمعـــــلّ ... وآخـــرُ فـــوق كَعبتهـــا ينـــادي
إلى ردحٍ من الشيـــــزى مـــلاءٍ ... لبـــاب البـــر يلبـــكُ بالشهـــاد

ومع هذا كله فقد ثبت في الصحيح لمسلم : أن عائشة قالت : يا رسول الله إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقري الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟. فقال : « **لا إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين** » [1].

امرؤ القيس بن حجر الكندي صاحب إحدي المعلّقات

وهي أفخرهن وأشهرهن التي أولها :

قِفَا نَبكِ مِنْ ذِكْـــرَى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام . حدثنا أبو الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ : « **امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار** »[2] وقد روي هذا الحديث عن هشام جماعة كثيرون منهم بشر بن الحكم، والحسن بن عرفة، وعبد الله بن

---

(١) رواه مسلم (٢١٤/٣٦٥) .

(٢) **ضعيف جدا** : رواه أحمد (٢٢٨/٢) وفى سنده أبى الجهم وهو ضعيف جدا ، وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر على هذا الحديث رقم (٧١٢٧) .

هارون- أمير المؤمنين - المأمون أخو الأمين ويحيى بن معين، وأخرجه ابن عدي من طريق عبد الرزاق عن الزهري به، وهذا منقطع ورديء من وجه آخر عن أبي هريرة ولا يصح من غير هذا الوجه.

وقال الحافظ ابن عساكر : هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر - آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة أبويزيد - ويقال : أبو وهب . ويقال : أبو الحارث الكندي. كان بأعمال دمشق وقد ذكر مواضع منها في شعره ؛ فمن ذلك قوله:

قفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ وَمَنْـــزِلِ بسِقْطِ اللّوى بَيْنَ الدَّخـــُولِ فَحَوْمَلِ
فَتُوضَحَ فالَمقراةَ لم يعفُ رسمُهــــا لِمَا نسجَتْها من جَنـــوبٍ وشَمْألِ

قال : وهذه مواضع معروفة بحوران. ثم روي من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي حدثني فروة بن سعيد بن عفيف بن معدي كرب، عن أبيه، عن جده. قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل وفد من اليمن، فقالوا : يا رسول الله لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرئ القيس. قال : وكيف ذاك ؟. قالوا: أقبلنا نريدك حتى إذا كنا ببعض الطريق أخطأنا الطريق فمكثنا ثلاثا لا نقدر على الماء، فتفرقنا إلى أصول طلح وسمر، ليموت كل رجل منا في ظل شجرة، فبينا نحن بآخر رمق إذا راكب يوضع على بعير، فلما رآه بعضنا قال-والراكب يسمع:

ولما رأتْ أنّ الشـــريعـــــةَ هَمُّهـــا وأنَّ البياضَ مـــنْ فَـــرائصِها دامـــي
تَيَمَّمَتِ العيـــنَ التـــي عند ضارجٍ يُفيءُ عليها الظلّ عَرْمَضُهـــا طامـــي

فقال الراكب : ومن يقول هذا الشعر وقد رأى ما بنا من الجهد ؟ قال : قلنا: امرؤ القيس ابن حُجر . قال: والله ما كذب هذا ضارج عندكم فنظرنا فإذا بيننا وبين الماء نحو من خمسين ذراعا فحبونا إليه على الركب فإذا هو كما قال امرؤ القيس عليه العرمض يفيء عليه الظل . فقال رسول الله ﷺ : « **ذاك رجل مذكور في الدنيا منسي في الآخرة، شريف في الدنيا خامل في الآخرة، بيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار** » .

وذكر الكلبي : أن امرأ القيس أقبل براياته يريد قتال بني أسد حين قتلوا أباه فمر بتبالة وبها ذو الخُلصة وهو صنم وكانت العرب تستقسم عنده فاستقسم فخرج القدح الناهي . ثم الثانية . ثم الثالثة كذلك فكسر القداح وضرب بها وجه ذي الخلصة وقال: عضضت بأير أبيك لو كان أبوك المقتول لما عوقتني. ثم أغار على بني أسد فقتلهم قتلا ذريعا . قال ابن الكلبي : فلم يستقسم عند ذي الخلصة حتى جاء الإسلام . وذكر بعضهم أنه امتدح قيصر ملك الروم يستنجده في بعض الحروب ويسترفده فلم يجد ما يؤمله عنده فهجاه بعد ذلك . فيقال : إنه سقاه سما فقتله فألجأه الموت إلى جنب قبر امرأة عند جبل يقال له : عسيب فكتب هنالك :

أجـــارتَنـــا إنّ المـــــزارَ قريـــبُ وإنّي مقيمٌ ما أقامَ عسيـــــبُ

أجارتَنـــا إنَّا غريبـــان ههنـــا ... وكـــلُّ غريـــبٍ للغريبِ نسيبُ

وذكروا أن المعلقات السبع كانت معلقة بالكعبة، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيما لشأنها فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع فالأولى: لامرئ القيس بن حجر الكندي كما تقدم وأولها :

قِفَا نَبك مِنْ ذِكْرىَ حَبيبٍ وَمَنْزِلِ ... بسقْطِ اللّوى بَيْنَ الدَّخُولِ فحوملِ

والثانية : للنابغة الذبياني : واسمه زياد بن معاوية . ويقال : زياد بن عمرو بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مُرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض وأولها :

يا دارَ ميّـــةَ بالعليـــاءِ فالَسّنَدِ ... أَقْوَتْ وطَالَ عليها سَالِفُ الأَبدَ

والثالثة : لزهير بن أبي سُلمى ربيعة بن رياح المزني وأولها :

أمِـــنْ أمّ أوْ فى دمنةٌ لم تَكلّمِ ... بحَـــوْمانةِ الدَّراجِ فالمُتَثَلّـــمِ ؟

والرابعة : لطَرَفَةَ بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل وأولها :

لخَولةَ أطـــلالٌ ببُـــرقَةِ ثَهْمَـــدِ ... تلوحُ كباقي الْوَشْمِ في ظَاهرِ الْيَدِ

والخامسة : لعنترة بن شداد بن معاوية بن قُراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب بن قُطَيعةَ بن عبس العبسي، وأولها :

هـــل غادرَ الشعراءُ مِنْ مُتردّمِ ؟ ... أم هـــل عَرفْتَ الدارَ بعدَ توهُّمِ ؟

والسادسة : لعلقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس أحد بني تميم، وأولها :

طحَا [1] بكَ قلبٌ في الحسانِ طرُوبُ ... بُعيَـــدُ الشبابِ عصرَ حانَ مَشيبُ

والسابعة : - ومنهم من لا يثبتها في المعلقات وهو قول الأصمعي وغيره - وهي للبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية بن بكر بن هوازن ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر، وأولها :

عفتِ الديارُ مَحلُّهـــا فَمُقَامُها ... بِمنًى تَأبّدَ غَوْلُها فَرِجَامُها

---

(١) طحا القلب : ذهب فى كل شيء ، بَعُدَ .

فأما القصيدة التي لا يعرف قائلها فيما ذكره أبو عبيدة والأصمعي والمبرد وغيرهم فهي قوله :

هَـــلْ بالْطُلُولِ لِسَائِلٍ ردُّ ؟ أَمْ هَلْ لَها بتكلُّم عهدُ ؟

وهي مطولة وفيها معاني حسنة كثيرة .

أخبار أميّة بن أبي الصلت الثقفي

قال الحافظ بن عساكر : هو أمية بن أبي الصلت عبد اللّه بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة ابن عزة بن عوف بن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن أبو عثمان . ويقال : أبو الحكم الثقفي شاعر جاهلي قدم دمشق قبل الإسلام . وقيل : إنه كان مستقيما ، وإنه كان في أول أمره على الإيمان . ثم زاغ عنه وأنه هو الذي أراده اللّه تعالى بقوله : ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْنَاهُ آيَاتنَا فَانسَلَخَ منْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ منَ الغَاوينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥].

قال الزبير بن بكار : فولدت رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف أمية - الشاعر - ابن أبي الصلت؛ واسم أبي الصلت : ربيعة بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن ثقيف. وقال غيره : كان أبوه من الشعراء المشهورين بالطائف وكان أمية أشعرهم.

وقال عبد الرزاق: قال الثوري : أخبرني حبيب بن أبي ثابت : أن عبد اللّه بن عمرو : قال في قوله تعالى : ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْنَاهُ آيَاتنَا فَانسَلَخَ منْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ منَ الغَاوينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥] : هو أمية بن أبي الصلت وكذا رواه أبو بكر بن مردويه عن أبي بكر الشافعي عن معاذ بن المثنى عن مسدد عن أبي عوانة عن عبد الملك بن عمير عن نافع بن عاصم ابن مسعود قال : إني لفي حلقة فيها عبد اللّه بن عمرو فقرأ رجل من القوم الآية التي في الأعراف ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْنَاهُ آيَاتنَا فَانسَلَخَ منْهَا﴾ [الأعراف : ١٧٥] فقال هل تدرون من هو ؟. فقال بعضهم : هو صيفي بن الراهب. وقال آخر : بل هو بلعم رجل من بني إسرائيل فقال: لا ! قال: فمن ؟. قال: هو أمية بن أبي الصلت. وهكذا قال أبوصالح والكلبي وحكاه قتادة عن بعضهم. وقال الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز. حدثنا عبد اللّه بن شبيب الربعي حدثنا محمد بن مسلمة بن هشام المخزومي. حدثنا إسماعيل بن الطريح بن إسماعيل الثقفي. حدثني أبي عن أبيه عن مروان بن الحكم عن معاوية بن أبي سفيان عن أبيه.

قال : خرجت أنا، وأمية بن أبي الصلت الثقفي تجاراً إلى الشام فكلما نزلنا منـــزلا أخذ أمية سفراً له يقرؤه علينا. فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فجاؤوه وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم. ثم رجع في وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما وقال لي: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله؟. قلت : لا إرب لي فيه واللّه لئن حدثني بما أحب لا أثق به ولئن حدثني بما أكره لأحدن منه. قال: فذهب وخالفه شيخ من النصارى فدخل عَلَيَّ فقال : ما يمنعك أن تذهب إلى هذا

الشيخ ؟. قلت: لست على دينه قال: وإنْ فإنّك تسمع منه عجباً وتراه. ثم قال لي: أثقفي أنت؟. قلت: لا ولكن قرشي . قال: فما يمنعك من الشيخ ؟. فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم. قال: فخرج من عندنا ومكث أمية عندهم حتى جاءنا بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح كئيباً حزينا ساقطا غبوقه على صبوحه ما يكلمنا ولا نكلمه. ثم قال : ألا ترحَل ؟ قلت: وهل بك من رحيل ؟ . قال: نعم ! فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين. ثم قال في الليلة الثالثة: ألا تحدث يا أبا سفيان ؟. قلت: وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك قال: أما إن ذلك لشيء لست فيه إنما ذلك لشيء وجلت منه من منقلبي قلت: وهل لك من منقلب ؟ . قال : أي والله لأموتن ثم لأحيين قلت: هل أنت قابل أمانتي ؟ قال: على ماذا ؟ قلت: على أنك لا تبعث ولا تحاسب. قال: فضحك. ثم قال : بلى ! والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن وليدخلن فريق الجنة وفريق النار. قلت : ففي أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟. قال: لا علم لصاحبي بذلك، لا فيّ ولا في نفسه، قال: فكنا في ذلك ليلتين يعجب مني وأضحك منه حتى قدمنا غوطة دمشق فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين، فارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فلما رأوه جاءوه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيْعَتهم فما جاء إلا بعد منتصف النهار فلبس ثوبيه وذهب إليهم، حتى جاء بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه، فوالله ما نام ولا قام وأصبح حزينا كئيبا لا يكَلمنا ولا نكلمه. ثم قال : ألا ترحل ؟ قلت : بلى إن شئت، فرحلنا كذلك من بثه وحزنه ليالي. ثم قال لي : يا أبا سفيان هل لك في المسير لنتقدم أصحابنا ؟ قلت: هل لك فيه ؟ قال: نعم ! فسرنا حتى برزنا من أصحابنا ساعة. ثم قال : هيا صخر. فقلت : ما تشاء . قال: حدثني عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المظالم والمحارم ؟. قلت: إي والله. قال : ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ . قلت: إي والله! قال: وكريم الطرفين وسط في العشيرة ؟. قلت: نعم ! قال: فهل تعلم قرشياً أشرف منه؟. قلت: لا والله لا أعلم قال: أمحوج هو ؟. قلت: لا - بل هو ذو مال كثير. قال: وكم أتى عليه من السن ؟. فقلت: قد زاد على المائة. قال: فالشرف والسن والمال أزرين به قلت: ولم ذاك يزري به لا والله بل يزيده خيراً ؟ قال: هو ذاك. هل لك في المبيت؟. قلت: لي فيه. قال: فاضطجعنا حتى مر الثقل. قال: فسرنا حتى نزلنا في المنـــزل وبتنا به. ثم ارتحلنا منه، فلما كان الليل. قال لي: يا أبا سفيان. قلت: ما تشاء. قال: هل لك في مثل البارحة ؟. قلت: هل لك فيه؟. قال : نعم، فسرنا على ناقتين بختيتين [1] حتى إذا برزنا قال : هيا صخر، هيه عن عتبة بن ربيعة. قال: قلت: هيا فيه قال: أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟. قلت: إي والله إنه ليفعل . قال: وذو مال . قلت : وذو مال. قال: أتعلم قرشيا أسود منه ؟ . قلت : لا والله ما أعلم . قال : كم أتى له من السن ؟. قلت : قد زاد على المائة. قال: فإن السن

(١) ناقة بختية : ناقه خراسانية .

والشرف والمال أزرين به ؟ . قلت: كلا واللّه ما أزرى به ذلك وأنت قائل شيئا فقله. قال: لا تذكر حديثي حتى يأتي منه ما هو آت. ثم قال: فإن الذي رأيت أصابني أني جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ثم قلت : أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر. قال : هو رجل من العرب. قلت: قد علمت أنه من العرب. فمن أي العرب هو؟. قال : من أهل بيت يحُجه العرب. قلت: وفينا بيت تحجه العرب قال: هو من إخوانكم من قريش. فأصابني واللّه شيء ما أصابني مثله قط وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة، وكنت أرجو أن أكون إياه قلت: فإذا كان ما كان فصفه لي قال: رجل شاب حين دخل في الكهولة. بُدُوّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها، وهو محوج كريم الطرفين متوسط في العشيرة أكثر جنده من الملائكة. قلت: وما آية ذلك؟ قال: قد رجفت الشام منذ هلك عيسى ابن مريم عليه السلام ثمانين رجفَة كلها فيها مصيبة وبقيت رجفة عامة فيها مصائب. قال أبو سفيان : فقلت هذا واللّه الباطل لئن بعث اللّه رسولاً لا يأخذه إلا مسناً شريفاً. قال أمية : والذي حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان تقول: إن قول النصراني حق. هل لك في المبيت ؟. قلت: نعم لي فيه؛ قال: فبتنا حتى جاءنا الثقل، ثم خرجنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة مرحلتان ليلتان أدركنا راكب من خلفنا فسألناه، فإذا هو يقول : أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها وأصابتهم فيها مصائب عظيمة.

قال أبو سفيان : فأقبل على أمية ، فقال : كيف ترى قول النصرانى يا أبا سفيان ؟ .

قلت : أرى وأظن والله إن ما حدثك به صاحبك حق . قال : أبو سفيان فقدمنا مكة فقضيت ما كان معى ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً فكنت بها خمسة أشهر ثم قدمت مكة فبينا أنا فى مزلى جاءنى الناس يسلمون عَلَىّ ويسألون عن بضاعتهم حتى جاء فى محمد بن عبد الله وهند عندى تلاعب صبيانها فسلم على ورحب بى وسألنى عن سفرى ومقاص و لم يسألنى عن بضاعته . ثم قام . فقلت لهند : والله إن هذا ليعجبنى ما من أحد من قريش له معى بضاعة إلا وقد سألنى عنها وما سألنى هذا عن بضاعته . فقالت لى هند : أو ما علمت شأنه . فقلت : وأنا فزع ما شأنه؟. قالت : يزعم أنه رسول الله فوقذتنى وتذكرت قول النصرانى فرجفت حتى قالت لى هند : مالك ؟ . فانتبهت . فقال : إن هذا لهو الباطل لهو أعقل من أن يقول هذا . قالت: بلى . والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه ، وإن له لصاحبة على دينه . فقلت : هذا هو الباطل . قال : وخريف فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بى قد لقيته . فقلت له : إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومى فأبى عَلَىّ. وقال : إذن لا آخذها . قلت : فأرسل فخذها وأنا منك مثل ما آخذ من قومى فأرسل إلى بضاعته فأخذها وأنا آخذ منك فيها ما آخذ من قومى فأرسل إلى بضاعته فأخذها ، وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره . قال أبو سفيان : فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن . ثم قدمت الطائف . فنــزلت على أمية بن أبى الصلت . فقال : ومن ؟ . قلت: محمد بن عبد الله . قال :

ابن عبد المطلب . قلت : ابن عبد المطلب . ثم قصصت عليه خبر هند . قال : فالله يعلم . وأخذ يتصبب عرقاً . ثم قال : والله يا أبا سفيان لعله . إن وصفته لِيَ ولئن ظهر وأنا حَيٌّ لأطلبن من الله عزّ وجلّ فى نصره عذراً . قال : ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءنى هنالك استهلاله ، وأقبلت حتى نزلق على أمية بن أبى الصلت بالطائف . فقلت : يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته . فقال : قد كان لعمرى . قلت : فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟ . فقال : والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً . قال أبو سفيان : وأقبلت إلى مكة فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يضربون ويحقرون . قال أبوسفيان: فجعلت أقول : فأين جنده من الملائكة ؟ قال : فدخلنى ما يدخل الناس من النفاسة[1] . وقد رواه الحافظ البيهقى فى كتاب " الدلائل " من حديث إسماعيل بن طريح به . ولكن سياق الطبرانى الذى أودناه تم وأطول . والله أعلم .

وقال الطبراني : حدثنا بكر بن أحمد بن نفيل، حدثنا عبد اللّٰه بن شبيب، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثنا مجاشع بن عمرو الأسدي، حدثنا ليث بن سعد عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، عن عروة بن الزبير، عن معاوية بن أبي سفيان عن أبي سفيان بن حرب، أن أمية ابن أبي الصلت كان بغزة أو بإيلياء، فلما قفلنا قال لي أمية: يا أبا سفيان هل لك أن تتقدم على الرفقة فنتحدث؟ قلت : نعم ! قال : ففعلنا. فقال لي : يا أبا سفيان إيه عن عتبة بن ربيعة؟ قال: كريم الطرفين ويجتنب المحارم والمظالم:. قلت : نعم. قال: وشريف مسن؟ قلت : وشريف مسن؛ قال : السن والشرف أزريا به. فقلت له : كذبت ما ازداد سناً إلا ازداد شرفاً. قال : يا أبا سفيان إنها كلمة ماسمعت أحداً يقولها لي منذ تبصرت فلا تعجل عليَّ حتى أخبرك. قال : قلت : هات. قال : إني كنت أ.حد في كتبي نبيا يبعث من حرتنا هذه فكنت أظن بل كنت لا أشك أني أنا هو، فلما دارست أهل العلم إذا هو من بني عبد مناف فنظرت في بني عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة، فلما أخبرتني بسنه عرفت أنه ليس به حين جاوز الأربعين ولم يوحَ إليه. قال أبو سفيان : فضرب الدهر ضربه فأوحى إلى رسول اللّٰه ﷺ وخرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة فمررت بأمية فقلت له كالمستهزئ به : يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته؛ قال : أما إنه حق فاتبعه؛ قلت : ما يمنعك من إتباعه؟. قال : ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف إني كنت أحدثهن أنّي هو. ثم يرينني تابعاً لغلام من بني عبد مناف. ثم قال أمية : كأني بك يا أبا سفيان قد خالفته، ثم قد ربطت كما يربط الجدي حتى يؤتي بك إليه فيحكم فيك بما يريد.

وقال عبد الرازق : أخبرنا معمر عن الكلبي. قال : بينا أمية راقد ومعه ابنتان له إذ فزعت إحداهما فصاحت عليه؛ فقال لها : ما شأنك؟. قالت : رأيت نسرين كَشَطَا [2] سقف البيت

---

(١) النفاسة : التفاخر .

(٢) كشطا : كشفا ورفعاه عن موضعه .

فنــزل أحدهما إليك فشق بطنك، والآخر واقف على ظهر البيت؛ فناداه، فقال : أوعي؟. قال: نعم. قال: أزكي؟. قال : لا فقال : ذاك خير أريد بأبيكما فلم يفعله. وقد روي من وجه آخر بسياق آخر. فقال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهري عن سعيد بن المسيب : قال: قدمت الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة وكانت ذات لُبٍّ وعقل وجمال وكان رسول الله ﷺ بها معجباً. فقال لها ذات يوم : « **يا فارعة هل تحفظين من شعر أخيك شيئا ؟** » فقالت : نعم؛ وأعجب من ذلك ما قد رأيت. قالت : كان أخي في سفر فلما انصرف بدأني فدخل على فرقد على سريري وأنا أحلق أديما في يدي، إذ أقبل طائران أبيضان أو كالطيرين أبيضين فوقع على الكوة إحداهما ودخل الآخر فوقع عليه، فشق الواقع عليه ما بين قصه إلى عانته؛ ثم أدخل يده في جوفه فأخرج قلبه فوضعه في كفه. ثم شمه فقال له الطائر الآخر : أوعى؟. قال : وعى. قال : أزكى ؟. قال : أبي. ثم رد القلب إلى مكانه، فالتأم الجرح أسرع من طرفة عين ثم ذهبا، فلما رأيت ذلك دنوت منه فحركته. فقلت : هل تجد شيئا؟. قال : لا إلا توهينا [1] في جسدي- وقد كنت أرتعبت مما رأيت - فقال : ما لي أراك مرتاعة؟ . قالت : فأخبرته الخبر. فقال : خير أريد بي. ثم صرف عني. ثم أنشأ يقول:

باتتْ همومِي تَسري طـوارقُها ... أكفّ عيني والدمـعُ سابقُها [2]
مما أتانـي مـن اليقـين ولم ... أُوتَ بـراةً يقـصُّ نـاطقهـا
أم مَـن تلظّي عليـه واقـدة ... النار محيطٌ بهـم سـرادقها
أم أسكن الجنـة التي وعُـدَ ... الأبرارُ مَصفْـوُفَـةٌ نَمـارِقُهَـا
لا يستـوي المـنـزلانِ ثَمّ ولا ... الأعمالُ لا تستوي طـرائقُهـا
هما فريقان فرقـةٌ تدخـلُ ... الجـنّةَ حفّتْ بهـم حدائقُهـا
وفـرقةٌ منهم قد أُدخلت النـ ... ـارَ فساءتهُـمُ مرافقهـا
تعاهدتْ هذه القلـوبُ إذا ... همـت بخيرٍ عاقَتْ عـوائقُها
وصدّها للشقاءِ عن طَلَـب الـ ... ـجنة دنيـاً اللّه ماحقُهـا
عبدٌ دعـا نفسَـه فعاتَبَهـا ... يعلـم أنّ البصيـرَ رامقُهـا
ما رغّب النفسَ في الحيـاةِ وإن ... تحيـى قليـلاً فالموتُ لا حقها
يوشك منْ فرّ مـن منيّتـه ... يـوماً على غـرّةٍ يـوافقها
إن لَم تَمُتْ غِبطةً تَمُتْ هـرمـاً ... للموتِ كـأسٌ والمرءُ ذائقهـا

---

(١) توهيناً : من الوهن وهو الضعف .

(٢) الطوارق : المصائب وصروف الدهر .

قال : ثم انصرف إلى رحله فلم يلبث إلا يسيراً حتى طعن في حيارته، فأتاني الخبر فانصرفت إليه، فوجدته منعوشاً قد سجي عليه فدنوت منه، فشهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف ورفع صوته. وقال : لبيكما لبيكماها أنا ذا لديكما، لا ذو مال فيفديني، ولا ذو أهل فتحميني. ثم أغمي عليه إذ شهق، شهقة، فقلت : قد هلك الرجل. فشق بصره نحو السقف فرفع صوته. فقال : لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما، لا ذو براءة فاعتذر، ولا ذو عشيرة فانتصر. ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف. فقال : لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما، بالنعم محفود وبالذنب محصود، ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة. فقال : لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما :

إنْ تغفرِ اللهُمَّ تغفرْ جمّا ... وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألَمّا

ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة فقال:

كلُّ عيشٍ وإنْ تطاولَ دهراً ... صائرٌ مرّةً إلى أنْ يزولا
ليتني كُنتُ قبلَ ما قدْ بدا ... لي في قلالِ الجبالِ أرعي الوعولا [١]

قالت : ثم مات. فقال رسول اللهﷺ : «**يا فارعة إن مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها** » [٢] . الآية وقد تكلم الخطابي على غريب هذا الحديث. وروي الحافظ ابن عساكر عن الزهري إنه قال قال أمية ابن أبي الصلت :

ألا رسولٌ لنا منّا يخبّرنا ... ما بعدَ غايتنا منْ رأسِ مجرانا

قال : ثم خرج أمية بن أبي الصلت إلى البحرين وتنبأ رسول اللهﷺ وأقام أمية بالبحرين ثماني سنين ثم قدم الطائف فقال لهم : ما يقول محمد بن عبد الله ؟ . قالوا : يزعم أنه نبي هو الذي كنت تتمنى. قال : فخرج حتى قدم عليه مكة فلقيه. فقال: يا ابن عبد المطلب ما هذا الذي تقول ؟ قال : أقول : إني رسول الله وأنّ لا إله إلا هو. قال : إني أريد أن أكلمك فعدني غداً . قال : فموعدك غدا . قال : فتحب أن آتيك وحدي أو في جماعة من أصحابي، وتأتيني وحدك أو في جماعة من أصحابك فقال رسول اللهﷺ : أي ذلك شئت . قال : فإني آتيك في جماعة فأت في جماعة قال : فلما كان الغد غدا أمية في جماعة من قريش قال : وغدا رسول الله ﷺ معه نفر من أصحابه حتى جلسوا في ظل الكعبة. قال : فبدأ أمية فخطب ثم سجع ثم أنشد الشعر حتى إذا فرغ الشعر. قال: أجبني يا ابن عبد المطلب. فقال رسول اللهﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿ **يس والقرآن الحكيم** ﴾ [يس : ١] حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر رجليه. قال : فتبعته قريش يقولون : ما تقول يا أمية ؟. قال : أشهد أنه على الحق. فقالوا : هل تتبعه؟. قال : حتى أنظر في أمره؛ قال : ثم خرج أمية إلى الشام وقدم رسول اللهﷺ المدينة فلما قتل

---

(١) قلة الجبل : القمة .

(٢) **ضعيف** : فى سنده إسحاق بن بشر وهو ضعيف .

أهل بدر قدم أمية من الشام حتى نزل بدراً. ثم ترحل يريد رسول اللّٰه ﷺ فقال قائل: يا أبا الصلت ما تريد ؟. قال : أريد محمداً. قال : وما تصنع ؟ . قال : أومن به وألقي إليه مقاليد هذا الأمر. قال : أتدري من في القليب؟. قال : لا. قال : فيه عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما ابنا خالك – وأمه ربيعة بنت عبد شمس – قال: فجدع أذني ناقته وقطع ذنبها . ثم وقف على القليب يقول :

مــــا ذا ببَــدرٍ فالعقنــ ... قلُ [(١)] مرازبةٍ حجاجح [(٢)]

القصيدة إلى آخرها كما سيأتي ذكرها بتمامها في قصة بدر إن شاء اللّٰه. ثم رجع إلى مكة والطائف وترك الإسلام. ثم ذكر قصة الطيرين وقصة وفاته كما تقدم وأنشد شعره عند الوفاة :

كـــلُّ عيـــشٍ وإن تطـــاول ... دهـــراً صائـــرٌ مـــرةً إلى أن يزولا

ليتنـــي كنتُ قـــبلَ ما قد بـــدا ... لي في قلالِ الجبـــالِ أرعى الوعولا

فاجعل الموتَ نصْبَ عينيك واحذرْ ... غَـــوْلَةَ الدهـــرِ إنّ للدهرِ غـــولا

نائلاً ظفـــرُها القساورَ والصدعانُ ... والطفلُ في المنـــار الشـــكيـــلا

وبغـــاثُ النيافِ واليعفـــرُ النا ... فرَ والعوهجُ البـــرامُ الضئيـــلا [(٣)]

فقوله : القساور جمع قسورة وهو الأسد. والصدعان ثيران الوحشَ واحدها صدع. والطفل الشكل من حمرة العين، والبغاث الرخم، والنياف الجمال، واليعفر الظبي، والعوهج ولد النعامة. يعني أن الموت لا ينجو منه الوحوش في البراري ولا الرخم الساكنة في رؤوس الجبال، ولا يترك صغيراً لصغره ولا كبيراً لكبره. وقد تكلم الخطابي وغيره على غريب هذه الأحاديث. وقد ذكر السهيلي في كتابه «التعريف والإعلام» : أن أمية بن أبي الصلت أول من قال : باسمك اللهم، وذكر عند ذلك قصة غريبة، وهو أنهم خرجوا في جماعة من قريش في سفر فيهم حرب ابن أمية والد أبي سفيان؛ قال : فمروا في مسيرهم بحية فقتلوها فلما أمسوا جاءتهم امرأة من الجان فعاتبتهم في قتل تلك الحية ومعها قضيب فضربت به الأرض ضربة نفرت الإبل عن آخرها، فذهبت وشردت كل مذهب، وقاموا فلم يزالوا في طلبها حتى ردوها، فلما اجتمعوا جاءتهم أيضا فضربت الأرض بقضيبها فنفرت الإبل فذهبوا في طلبها، فلما أعياهم ذلك؛ قالوا : واللّٰه هل عندك لما نحن فيه من مخرج ؟. فقال : لا واللّٰه ولكن سأنظر في ذلك؛ قال : فساروا في تلك المحلة لعلهم يجدون أحداً يسألونه عما قد حل بهم من العناء، إذا نار تلوح على بعد فجاءوها فإذا شيخ على باب خيمة يوقد ناراً وإذا هو من الجان في غاية الضآلة والدمامة فسلموا عليه فسألهم عَمَّالَهُمْ فيه فقال: إذا جاءتكم فقل باسمك اللهم، فإنها تهرب فلما اجتمعوا وجاءتهم

---

(١) العقنقل : الوادى العظيم المتسّع والكثيب المتراكم .

(٢) حجاجح : أسياد .

(٣) بغاث : طائر أصغر من الرخم بطيء الطيران . النياف : من الجمال والنوق الطويل فى ارتفاع . اليعفر : نوع من الظباء من أضعفها عدوًا . النافر : نَفَران الظبى : شرد وأبعد . البرام : الفتّال .

الثالثة، والرابعة. قال في وجهها أمية باسمك اللهم فشردت ولم يقر لها قرار؛ لكن عدت الجن على حرب بن أمية فقتلوه بتلك الحية، فقبره أصحابه هنالك حيث لا جار ولا دار ففي ذلك يقول الجان :

وقبـــــرُ حـــربٍ بمكانٍ قفْرُ ... وليس قُربَ قبرِ حربٍ قبرُ

وذكر بعضهم : أنه كان يتفرس في بعض الأحيان في لغات الحيوانات، فكان يمر في السفر على الطير فيقول لأصحابه : إن هذا يقول كذا وكذا فيقولون : لا نعلم صدق ما يقول حتى مروا على قطيع غنم قد انقطعت منه شاة ومعها ولدها فالتفتت إليه فثغت كأنه تستحثه. فقال: أتدرون ما تقول له ؟. قالوا : لا . قال : إنها تقول أسرع بنا لا يجيء الذئب فيأكلك كما أكل الذئب أخاك عام أول ، فأسرعوا حتى سألوا الراعي هل أكل له الذئب عام أول حملا بتلك البقعة ؟. فقال : نعم، قال : ومرَّ يوماً على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها ويرغو. فقال : إنه يقول لها : إنك رحلتيني وفي الحداجة مخيط فأنزلوا تلك المرأة وحلوا ذلك الرحل فإذا فيه مخيط كما قال.

وذكر ابن السكيت : أن أمية بن أبي الصلت بينما هو يشرب يوما إذ نعب غراب. فقال : له بفيك التراب مرتين. فقيل له : ما يقول ؟. فقال : إنه يقول: إنك تشرب هذا الكأس الذي في يدك. ثم تموت. ثم نعب الغراب. فقال : إنه يقول : وآية ذلك أني أنزل على هذه المزبلة فآكل منها فيعلق عظم في حلقي فأموت. ثم نزل الغراب على تلك المزبلة فأكل شيئاً فعلق في حلقه عظم فمات. فقال أمية : أما هذا فقد صدق في نفسه ولكن سأنظر هل صدق في أم لا ؟. ثم شرب ذلك الكأس الذي في يده؛ ثم اتكأ فمات. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مهدي عن الثوري عن عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

* أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خلا اللَّهَ بَاطِلُ * .

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم » [(١)].

فقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا زكريا، بن إسحاق، حدثنا إبراهيم بن ميسرة أنه سمع عمرو بن الشريد يقول : قال الشريد : كنت ردفاً لرسول الله ﷺ فقال لي : « أمعك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ » قلت : نعم ! قال « فأنشدني » فأنشدته بيتاً فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتاً إيه حتى أنشدته مائة بيت. قال : ثم سكت النبي ﷺ وسكت [(٢)] وهكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة عن أبي تميم بن ميسرة به. ومن غير وجه عن عمرو بن

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٦١٤٧) ومسلم (٣/٢٢٥٥) .

(٢) رواه مسلم (٢٢٥٥/١) .

الشريد عن أبيه الشريد بن سويد الثقفي عن النبي ﷺ وفي بعض الروايات فقال رسول الله : « إن كاد يسلم» وقال يحيي بن محمد بن صاعد : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري؛ حدثنا أبوأسامة؛ حدثنا حاتم بن أبي صفرة عن سماك بن حرب عن عمرو بن نافع عن الشريد الهمداني وأخواله ثقيف. قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع فبينا أنا أمشي ذات يوم إذ وَقْعُ ناقة خلفي، فإذا رسول الله ﷺ فقال : « الشريد؟ » فقلت : نعم. قال : ألا أحملك ؟. قلت : بلى. وما من إعياء ولكني أردت البركة في ركوبي مع رسول الله ﷺ فأناخ فحملني فقال : « **أمعك من شعر أمية بن أبي الصلت؟**.» قلت : نعم ! قال : « **هات**» فأنشدته. قال: أظنه، قال : مائة بيت فقال : « **عند الله علم أمية بن أبي الصلت**» [(١)] ثم قال ابن صاعد : هذا حديث غريب فأما الذي يروي أن رسول الله ﷺ قال في أمية: « **آمَنَ شعره وكفر قلبه**» [(٢)] فلا أعرفه والله أعلم.

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن محمد، هو أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ صدق أمية في شيء من شعره قال :

زحــلٌ وثورٌ تحتَ رِجل يمينه ... والنّسر للأخرى وليثٌ مرصد
والشمس تبــدو كلَّ آخرِ ليلة ... حمــراءَ يُصبــح لونها يتورّد
تأبى فما تَطلُعْ لنــا في رِسلهـــاً ... إلا معذّبـــة وإلا جـلـــد

فقال رسول الله ﷺ: « **صدق**» [(٣)] وفي رواية أبي بكر الهذلي عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال : إن الشمس لا تطلع حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقول لها : اطلعي اطلعي، فتقول: لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله، فإذا همّت بالطلوع أتاها شيطان يريد أن يثبطها [(٤)] فتطلع بين قرنيه وتحرقه، فإذا تضيفت للغروب عزمت لله عزّ وجلّ فيأتيها شيطان يريد أن يثبطها عن السجود فتغرب من قرنيه وتحرقه. أورده ابن عساكر مطولاً. ومن شعره في حملة العرش :

فمن حاملٍ إحدى قوائمِ عــرشهِ ... ولولا إلهُ الخلقِ كــلّوُا وأبلــدوا
قيامٌ على الأَقــدامِ عَانُــونَ تحتــه ... فرائصُهم من شــدّةِ الخوفِ ترعدُ

رواه ابن عساكر وروي عن الأصمعي أنه كان ينشد من شعر أمية :

مجّــدوا اللّهَ فهــــو للمجدِ ... أهْلٌ ربُّنا في الســماء أمسى كبيرا
بالبناء الأعلي الذي سَبَق النــــ ... ـــاس وسوّى فوقَ الســماء سريرا
شرجعاً لا ينالُــه بصرُ العــينِ ... تري دُونَــــه الملائكَ صورا [(٥)]

---

(١) ضعيف رواه الطبراني فى " الكبير " (٧ / ٣٢٠ ، ٣٢١) رقم (٧٢٥٩) .
(٢) رواه ابن الأنبارى فى " المصاحف" وابن عساكر عن ابن عباس كما فى كنــز العمال (٧٩٨٠).
(٣) ضعيف رواه أحمد (١ / ٢٥٦) وفى سنده ابن إسحاق وهو مدلس وقد عنعن .
(٤) ثبط : عاق وبطأ عن الأمر .
(٥) الشرجع : العالى المنيف .

ثم يقول الأصمعي : الملائك جمع ملك والصور جمع أصور وهو المائل العنق وهؤلاء حملة العرش.ومن شعر أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان التيمي:

أأذكـرُ حاجَتي أم قد كفانـي ... حيـاؤكَ ؟ إنّ شيَـمتَك الحيـاءُ
وعلمُـك بالحقوق وأنتَ فرعٌ ... لك الحسَبُ المهذّبُ والسـناءُ
كـريمٌ لا يغيّـرُهُ صَبَـاحٌ ... عن الخُلُـقِ الجميلِ ولا مسـاءُ
يباري الريـحَ مكرمةً وجـودا ... إذا ما الكلـبُ أحجره الشتـاء
وأرضُـكَ أرضُ مَكرمة بنتهـا ... بنـو تَيْـمٍ وأنتَ لها سـماء
إذا أثنى عليـك المرءُ يوماً ... كفـاه مِن تعرّضه الثنـاء

وله فيه مدائح أُخر. وقد كان عبد الله بن جدعان هذا من الكرماء الأجواد الممدحين المشهورين، وكان له جفنة يأكل الراكب منها وهو على بعيره من عرض حافتها وكثرة طعامها، وكان يملأها لباب البر (١) يلبك بالشهد والسمن، وكان يعتق الرقاب ويعين على النوائب، وقد سألت عائشة النبي ﷺ أينفعه ذلك ؟ « فقال : « **إنه لم يقل يوما من الدهر : (رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)** » ومن شعر أمية البديع :

لا ينكثون الأرضَ عند سـؤالهم ... كتطلّب العـلاّت بالعيـدانِ
بل يُسفرون وجوهَهم فترى لهـا ... عنـد السـؤالِ كأحسن الألوانِ
وإذا المقـلّ أقام وسْط رحالهمْ ... ردّوه ربَّ صـواهـلٍ وقيـانِ (٢)
وإذا دعوتَهُـمُ لكُلِّ مُلمّـةٍ ... سدّوا شعـاعَ الشمسِ بالفرسانِ

آخر ترجمة أمية بن أبي الصلت.

بحيرا الراهب

الذي توسم في رسول الله ﷺ النبوة وهو مع عمه أبي طالب حين قدم الشام في تجار من أهل مكة، وعمره إذ ذاك اثني عشرة سنة، فرأي الغمامة تظله من بينهم. فصنع لهم طعاماً ضيافة واستدعاهم كما سيأتي بيان ذلك في السيرة، وقد روى الترمذي في ذلك حديثاً بسطنا الكلام عليه هنالك (٣) وقد أورد له الحافظ ابن عساكر شواهد وسائغات في ترجمة بحيرا، ولم يورد ما رواه الترمذي وهذا عجب وذكر ابن عساكر أن بحيرا كان يسكن قرية يقال لها : الكفر بينها وبين بصري ستة أميال، وهي التي يقال لها : (دير بحيرا). قال : ويقال : إنه كان يسكن قرية يقال لها : منفعة بالبلقاء وراء زيرا والله أعلم.

---

(١) البّر : القمح .
(٢) المقل : الفقير . الصواهل : الخيل . القيان : العبيد .
(٣) انظر الحديث فى سنن الترمذى رقم (٣٦٢٠) وهو حديث صحيح .

ذكر قَسّ بن سَاعِدة الإيادي

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب " هواتف الجان " : حدثنا داود القنطري؛ حدثنا عبد اللّه بن صالح؛ حدثني أبو عبد اللّه المشرقي عن أبي الحارث الوراق، عن ثور بن يزيد، عن مورق العجلي، عن عبادة بن الصامت. قال : لما قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال : « **يا معشر وفد إياد ما فعل قس بن ساعدة الإيادي؟.** » قالوا : هلك يا رسول اللّه. قال : « **لقد شهدته يوماً بسوق عكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدني أحفظه** » فقام إليه أعرابي من أقاصي القوم فقال : أنا أحفظه يا رسول اللّه. قال : فسّر النبي ﷺ بذلك قال : فكان يسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : يا معشر الناس اجتمعوا فكل من فات فات، وكل شيء آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج، نجوم تزهر، وجبال مرسية، وأنهار مجرية، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ما لي أري الناس يذهبون فلا يرجعون؟! أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا؟! أقسم قس باللّه قسماً لا ريب فيه. إن للّه ديناً هو أرضى من دينكم هذا ثم أنشأ يقول :

فـــي الذاهبيـــن الأوليــــــ ـــن مـــــن القرون لنا بصـــائر
لما رأيـــــتُ مـــــــــوارداً للموت ليس لهـــا مصـــــــادر
ورأيتُ قـــــومي نحـــوهـــا يمضي الأصاغــرُ والأكـــابـــــر
لا مَـــن مضى يأتي إليــــــ ـــك ولا مـــن الباقين غابـــــر
أيقنتُ أني لا محــــــــالةَ حيثُ صار القـــــومُ صائــــر

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه، وقد رواه الطبراني من وجه آخر فقال في كتابه « المعجم الكبير » : حدثنا محمد بن السري بن مهران بن الناقد البغدادي، حدثنا محمد بن حسان السهمي، حدثنا محمد بن الحجاج عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس. قال : قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ فقال : « **أيكم يعرف القس بن ساعدة الإيادي؟** » قالوا : كلنا يعرفه يا رسول اللّه قال : « **فما فعل ؟.** » قالوا : هلك قال : «**فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس وهو يقول : يا أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور [1] ، وبحار لا تغور. وأقسم قس قسما حقا لئن كان في الأمر رضي ليكون بعده سخط. إن للّه لديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه. مالي أري الناس يذهبون ولا يرجعون. أرضوا بالمقام فأقاموا. أم تركوا فناموا؟.**» ثم قال رسول اللّه ﷺ : « **أفيكم من يروي شعره ؟.** » فأنشده بعضهم :

---

(١) تمور : تروح وتجيء ، أى الجريان والتحرك .

فـــــي الذاهبيـــن الأوليـــــ ـــــن من القرون لنـــا بصائرْ
لما رأيـــــتُ مـــــــوارداً للموتِ ليس لهاَ مصــــــادر
ورأيتُ قـــــومـــي نحوهـــا يمضي الَأصاغرُ والأكـــابـــــر
لا يرجــــــع المـــاضي إليّ ولا مـــن الباقين غابــــــر
أيقنتُ أنـــي لا محـــالةَ حيثُ صارَ القومُ صـــائر [1]

وهكذا أورده الحافظ البيهقي في كتابه " دلائل النبوة " من طريق محمد بن حسان السمتي به، وهكذا رويناه في الجزء الذي جمعه الأستاذ أبو محمد عبد اللّٰه بن جعفر بن درستويه في أخبار قس، قال : حدثنا عبد الكريم بن الهيثم الديرعى قولي : عن سعيد بن شبيب عن محمد بن الحجاج عن إبراهيم الواسطي نزيل بغداد – ويعرف بصاحب الفراسة –. وقد كذبه يحيي بن معين وأبو حاتم الرازي والدارقطني، واتهمه غير واحد منهم ابن عدي بوضع الحديث، وقد رواه البزار وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجاج هذا ورواه ابن درستويه وأبو نعيم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وهذا الطريق أمثل من التي قبلها وفيه إن أبا بكر هو الذي أورد القصة بكمالها نظمها ونثرها بين يدي رسول اللّٰهﷺ ، ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث أحمد بن موسي بن إسحاق الحطمي. حدثنا عليّ بن الحسين بن محمد المخزومي؛ حدثنا أبوحاتم السجستاني، حدثنا وهب بن جرير عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عباس. قال قدم وفد بكر بن وائل على رسول اللّٰهﷺ فقال لهم: «**ما فعل حليف لكم يقال له : قس بن ساعدة الأيادي ؟** » وذكر القصة مطولة. وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة أحمد بن أبي طالب الحجار إجازة إن لم يكن سماعاً. قال : أجاز لنا جعفر بن على الهمداني. قال : أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفي سماعاً، وقرأت على شيخنا الحافظ أبي عبد اللّٰه الذهبي أخبرنا أبو على الحسن بن علي بن أبي بكر الخلال سماعاً. قال : أخبرنا جعفر بن على سماعاً. قال : أخبرنا السلفي سماعا أخبرنا أبو عبد اللّٰه محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي أخبرنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسي السعدي أخبرنا أبو القاسم عبيد اللّٰه بن أحمد ابن على المقرئ؛ حدثنا أبو محمد عبد اللّٰه بن جعفر بن درستويه النحوي. قال : حدثنا إسماعيل ابن إبراهيم بن أحمد السعدي – قاضي فارس –، حدثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيي بن درهم الطائي – من أهل حران –، حدثنا أبو عمرو سعيد بن يربع عن محمد بن إسحاق، حدثني بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه قال : كان الجارود ابن المعلي بن حنش بن معلي العبدي نصرانياً حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها عالماً بسير الفرس وأقاويلها بصيراً بالفلسفة والطب ظاهر الدهاء والأدب، كامل الجمال ذا ثروة ومال وأنه

---

(١) موضوع : رواه الطبرانى فى "الكبير" (١٢ / ٦٩ ، ٧٠) رقم (١٢٥٦١) والبيهقى فى "الدلائل" (١ / ٤٥٦) وفى سنده محمد بن الحجاج اللخمى وهو كذاب كما قال الهيثمى "المجمع" (٩ / ٤١٩) .

قدم على النبي ﷺ وافداً في رجال من عبد القيس ذوي آراء وأسنان وفصاحة وبيان وحجج وبرهان فلما قدم على النبي ﷺ وقف بين يديه وأشار إليه وأنشأ يقول :

يا نبيَّ الهُدي أتتك رجالٌ ... قطعت فدفداً وآلاً فَآلاَ[1]
وطوتْ نحوك الصحاصحَ تهوي ... لا تعدّ الكلالَ فيك كلالا[2]
كل بهماء قصّر الطرفُ عنها ... أرقلتها قلاصُنا إرقالا[3]
وطوتها العتاقُ يجمح فيها ... بكماة كَأنجمٍ تتلالا[4]
تبتغي دفع بأس يومٍ عظيمٍ ... هائلٍ أوجعَ القلوبَ وهالا
ومزادا لمحشر الخلْق طُراً ... وفراقاً لمن تمادي ضلالا
نحو نورٍ من الإله وبرهانٍ ... وبِرّ ونعمة أن تنالا
خصّكَ اللّه يابنَ آمنةَ الخـ ... ير بها إذ أتت سجَالاً سجالاً
فاجعلِ الحظَّ منكَ يا حجة اللـ ... ـهِ جزيلاً لا حظَّ خُلفٍ أحالا

قال : فأدناه النبي ﷺ وقرب مجلسه، وقال له : « **يا جارود لقد تأخر الموعود بك وبقومك** » فقال الجارود : فداك أبي وأمي أما من تأخر عنك فقد فاته حظه وتلك أعظم حوبة واغلظ عقوبة وما كنت فيمن رآك أو سمع بك فعداك واتبع سواك وإني الآن على دين قد علمت به قد جئتك وها أنا تاركه لدينك أفذلك مما يمحص الذنوب والمآثم والحوب ؟ ويرضي الرب عن المربوب فقال له رسول اللّه ﷺ : « **أنا ضامن لك ذلك واخلص الآن للّه بالواحدانية ودع عنك دين النصرانية** » فقال الجارود : فداك أبي وأمي مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لاشريك له واشهد أنك محمد عبده ورسوله. قال : فأسلم وأسلم معه أُناس من قومه فسر النبي ﷺ بإسلامهم، واظهر من إكرامهم ما سروا به وابتهجوا به. ثم أقبل عليهم رسول اللّه ﷺ فقال : « **أفيكم من يعرف قس بن ساعدة الإيادي ؟.** » فقال الجارود : فداك أبي وأمي كلنا نعرفه وإني من بينهم لعالم بخبره واقف على أمره، كان قس يا رسول اللّه سبطا من أسباط العرب عمر ستمائة سنة تقفر منها خمسة أعمار في البراري، والقفار يضج بالتسبيح على مثال المسيح لا يقره قرار ولا تكنه دار ولا يستمتع به جار. كان يلبس الأمساح [5] ويفوق السياح، ولا يفتر من رهبانيته، يتحسي في سياحته بيض النعام ويأنس بالهوام، ويستمتع بالظلام، يبصر فيعتبر، ويفكر فيختبر، فصار لذلك واحداً تضرب بحكمته الأمثال، وتكشف به الأهوال. وأدرك رأس

---

(١) الفدفد : الفلاة .

(٢) الصحاصح : ما استوى من الأرض .

(٣) أرقلت القلاص المفازة : قطعتها والقلاص : النوق .

(٤) العتاق : الخيول الضامرة . الكماة : الفرسان .

(٥) الأمساح : الأثواب الدائرة . والسياح : من السوح فى الفياض .

الحواريين سمعان، وهو أول رجل تأله من العرب ووحّد، وأقر وتعبد، وأيقن بالبعث والحساب، وحذر سوء المآب، وأمر بالعمل قبل الفوت، ووعظ بالموت وسلم بالقضا، على السخط والرضا، وزار القبور، وذكر النشور ، وندب بالأشعار، وفكر في الأقدار، وأنبأ عن السماء والنماء، وذكر النجوم وكشف الماء، ووصف البحار، وعرف الآثار، وخطب راكباً، ووعظ دائباً، وحذر من الكرب، ومن شدة الغضب، ورسَّل الرسائل وذكر كل هائل، وأرغم في خطبه، وبين في كتبه، وخوّف الدهر، وحذر الأزر[1] ، وعظم الأمر، وجنب الكفر، وشوق إلى الحنيفية، ودعا إلى اللاهوتية. وهو القائل في يوم عكاظ : شرق وغرب، ويتم وحزب، وسلم وحرب، ويابس ورطب، وأجاج [2] وعذب، وشموس وأقمار، ورياح وأمطار، وليل ونهار، وأناث وذكور، وبرار وبحور، وحب ونبات، وآباء وأمهات، وجمع وأشتات، وآيات في إثرها آيات، ونور وظلام، ويسر وإعدام، ورب وأصنام، لقد ضل الأنام، نشوّ مولود، ووأد مفقود، وتربية محصود، وفقير وغني، ومحسن ومسيء، تباً لأرباب الغفلة، ليصلحن العامل عمله، وليفقدن الآمل أمله، كلا بل هو إله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والأنثي، رب الآخرة والأولي. أما بعد : فيا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟. وأين الآباء والأجداد؟. وأين العليل والعواد [3] ؟. كل له معاد يقسم قس برب العباد، وساطح المهاد، لتحشرن على الانفراد، في يوم التناد، إذا نفخ في الصور، ونقر في الناقور، وأشرقت الأرض، ووعظ الواعظ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ، فويل لمن صدف عن الحق الأشهر، والنور الأزهر، والعرض الأكبر، في يوم الفصل، وميزان العدل، إذا حكم القدير، وشهد النذير، وبعد النصير، وظهر التقصير، ففريق في الجنة وفريق في السعير. وهو القائل :

ذكَـرَ القلبُ من جـواه ادّكـارُ ... وليالٍ خـلالهـنّ نهـارُ
وسجـالُ هـواطلُ من غمـام ... ثـرنَ ماءً وفي جـواهنّ نـارُ [4]
ضـوءها يطمس العيون وأرعاد ... شـداد في الخـافقين تطـار
وقصور مشيدة حوت الخـ ... ـير وأخـري خلت بهن قفـار
وجبـال شوامـخ راسيـات ... وبحار مياههـن غـزار
ونجوم تلوح فـي ظلم الليـ ... ـل نراها فـي كـل يوم تدار
ثـم شمس يحثهـا قمر الليـ ... ـل وكـل متـابـع مـوَّار
وصغيـر وأشمـط وكبـير ... كلهم في الصعيد يـوما مـزار [5]

---

(١) الأزر : القوّة .

(٢) أجاج : مالح .

(٣) العوّاد : زوّار المريض .

(٤) سجال : يقال : سَجَلَ المطر : انصبّ بغزارة .

(٥) أشمط : عجوز .

وكبيـــر ممـــا يقصـــر عنـــــــه ... حـــدسه الخاطـــر الذي لا يحـــار
فالذي قد ذكرت دل على اللـــ ... ـــه نفوساً لها هدى واعتبـــــار

قال : فقال رسول اللّه ﷺ : « مهما نسيت فلست أنساه بسوق عكاظ، واقفاً على جمل أحمر يخطب الناس : (اجتمعوا فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، وقولوا : وإذا قلتم : فاصدقوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأحياء وأموات، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وضوء وظلام، وليل وأيام، وبر وآثام، إن في السماء خبراً، وإن في الأرض عبراً، يحار فيهن البصرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تغور، وبحار لا تفور، ومنايا دوان، ودهر خوان، كحد النطاس[1] ، ووزن القسطاس. أقسم قس قسماً، لا كاذباً فيه ولا آثماً، لئن كان في هذا الأمر رضي، ليكونن سخط. ثم قال : أيها الناس إنّ للّه ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه ، وهذا زمانه وأوانه. ثم قال : ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ . أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟» والتفت رسول اللّه ﷺ إلى بعض أصحابه فقال : « أيكم يروي شعره لنا؟» فقال أبو بكر الصديق : فداك أبي وأمي أنا شاهد له في ذلك اليوم حيث يقول :

في الذاهبيـــن الأوليـــــــــ ... ـــن من القرون لنا بصـــائر
لما رأيـــتُ مـــــــوارداً ... للموت ليس لـــهـــا مصـــــادر
ورأيتُ قـَــوْمِـــــيَ نحوها ... يمضـــي الأصاغـــرُ والأكـــابـــر
لا يـــــرجعُ الماضـــي إليّ ... ولا من البـــاقين غـــــابـــر
أيقنتُ أنـــّي لا محـــالـــــةَ ... حيثُ صارَ القـــومُ صـــائـــر

قال : فقام إلى رسول اللّه ﷺ شيخ من عبد القيس عظيم الهامة، طويل القامة، بعيد مابين المنكبين فقال : فداك أبي وأمي وأنا رأيت من قس عجبا. فقال له رسول اللّه ﷺ : « ما الذي رأيت يا أخا بني عبد القيس؟. » فقال : خرجت في شبيبتي أربع [2] بعيراً لي فَدَّعَنّي أقفو أثره في تنائف [3] قفاف ذات ضغابيس [4] وعرصات جثجاث [5] بين صدور جذعان، وغمير حوذان، ومهمه ظلمان، ورصيع ليهقان، فبينا أنا في تلك الفلوات أجول بسبسبها [6]وأرنق [7] فدفدها[8] إذا أنا بهضبة في نشزاتها أراك كباث مخضوضلة [9] وأغصانها متهدلة [10] كأن بريرها حب

---

(١) النطاس : العالم والطبيب الحاذق.
(٢) أربع : الرّبعّ : الموضع يرتبعون فيه فى الربيع .
(٣) تنائف : التنوفة : المفازة .
(٤) ضغابيس : أشواك .
(٥) جثجاث : نبات .
(٦) الأرض البعيدة المستوية .
(٧) تكور الماء .
(٨) المكان الغليط – المكان المرتفع .
(٩) منداة مبللة .
(١٠) مرسلة إلى أسفل مرخاة .

الفلفل وبواسق [١] أقحوان، وإذا بعين خرارة وروضة مدهامة، وشجرة عارمة، وإذا أنا بقس بن ساعدة في أصل تلك الشجرة وبيده قضيب. فدنوت منه وقلت له : أنعم صباحا ! فقال : وأنت فنعم صباحك ! وقد وردت العين سباع كثيرة فكان كلما ذهب سبع منها يشرب من العين قبل صاحبه ضربه قس بالقضيب الذي بيده. وقال : اصبر حتى يشرب الذي قبلك فذعرت من ذلك ذعراً شديداً، ونظر إلى فقال : لا تخف. وإذا بقبرين بينهما مسجد فقلت ما هذان القبران؟. قال : قبرا أخوين كانا يعبدان اللّه عزّ وجلّ بهذا الموضع فأنا مقيم بين قبريهما أعبد اللّه حتى ألحق بهما فقلت له : أفلا تلحق بقومك فتكون معهم في خيرهم وتباينهم على شرهم؟. فقال لي : ثكلتك أمك أو ما علمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم واتبعوا الأضداد وعظموا الأنداد ثم أقبل على القبرين وأنشأ يقول :

خليليّ هُبّا طالما قد رقَدتُما ... أجد كُما لا تَقضيان كَراكُما [٢]
أرى النومَ بين الجلد والعَظمِ منكما ... كأنّ الذّي يسقي العقارَ [٣]
سقاكما أمِن طولِ نومٍ لا تُجيبانِ داعياً ... كأنّ الذي يسقي العقارَ سقاكما؟
ألم تعلَما أني بنجرانَ مفرَداً ... ومالي فيه من حبيبٍ سواكما
مقيمٌ على قبريكما لستُ بارحاً ... إيابَ الليالي أو يجيبَ صَداكما
أبكيكما طولَ الحياة وما الّذي ... يردّ علي ذي لوعة أنْ بكاكما؟
فلو جُعلتْ نفسٌ لنفسِ امرئٍ فدِّي ... لجدتُ بنفسي أن تكونَ فداكما
كأنكما والموتُ أقربُ غاية ... بروحيَ في قَبريكما قدْ أتاكما

قال: فقال رسول اللّه ﷺ : « **رحِم اللّه قساً أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة واحدة** »[٤]
وهذا الحديث غريب جداً من هذا الوجه وهو مرسل إلا أن يكون الحسن سمعه من الجارود واللّه أعلم.

وقد رواه البيهقي : والحافظ أبو القاسم بن عساكر من وجه آخر من حديث محمد بن عيسي بن محمد بن سعيد القرشي الأخباري ، حدثنا أبي ، حدثنا علي بن سليمان بن علي عن علي بن عبد اللّه ، عن عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنهما. قال: قدم الجارود بن عبد اللّه فذكر مثله أو نحوه مطولاً بزيادات كثيرة في نظمه ونثره، وفيه ما ذكره عن الذي ضل بعيره فذهب في طلبه قال : فبت في واد لا آمن فيه حتفي، ولا أركن إلى غير سيفي، أرقب الكوكب، وأرمق الغيهب [٥] ، حتى إذا الليل عسعس [٦] ، وكاد الصبح أن يتنفس، هتف بي هاتف يقول :

---

(١) عين الماء – النخلة بحملها .
(٢) الكرى : النعاس .
(٣) العقار : النخل .
(٤) **ضعيف جدا** : وهو من مراسيل الحسن البصرى .
(٥) الغيهب : الظلمة .
(٦) عسعس الليل : اشتّد سواده .

يا أيها الراقدُ في الليلِ الأحمّ قد بعث اللّهُ نبياً في الحَرَمْ
من هاشمٍ أهلُ الوفاءِ والكرمِ يجلو دجيّاتِ الدياجي والبُهَم[1]

قال : فأدرت طرفي فما رأيت له شخصاً ولا سمعت له فحصاً، قال فأنشأت أقول :

يا أيها الهاتفُ في داجي الظُّلَم أهلاً وسهلاً بك من طيْفٍ ألَمّ
بَيِّنْ هَداكَ اللّهُ في لحنِ الكلم ماذا الذي تدعو إليه يُغتنمُ

قال : فإذا أنا بنحنحة وقائلاً يقول : ظهر النور، وبطل الزور، وبعث اللّه محمداً بالحبور، صاحب النجيب الأحمر، والتاج والمغفر، والوجه الأزهر، والحاجب الأقمر، والطرف الأحور، صاحب قول : شهادة أن لا إله إلا اللّه. وذلك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض أهل المدر والوبر ثم أنشأ يقول :

الحمدُ للّه الّذي لم يخلقِ الخلقَ عبثْ
لم يُخلنا يوماً سُدى من بعدِ عيسى واكترث
أرسلَ فينا أحمداً خيرَ نبيٍّ قد بُعث
صلى عليه اللّهُ ما حجّ له ركبٌ وحثّ

وفيه من إنشاء قس بن ساعدة :

يا ناعيَ الموتِ والملحود في جدث عليهمُ من بقايا قولهمْ خرَق[2]
دعهم فإنّ لهم يوماً يصاحُ بهم فهم إذا انتبهوا من نومهمْ أرقوا
حتى يعودوا بحال غير حالهمُ خلقاً جديداً كمَا منْ قبله خُلقوا
منهم عُراةٌ ومنهم في ثيابهمُ منها الجديدُ ومنها المنهجُ الخَلق[3]

ثم رواه البيهقي عن محمد بن عبد اللّه بن يوسف بن أحمد الأصبهاني، حدثنا أبو بكر أحمد ابن سعيد بن فرضخ الأخميمي بمكة. حدثنا القاسم بن عبد اللّه بن مهدي حدثنا أبو عبيد اللّه سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي حمزة الثمالي عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس. فذكرالقصة وذكر الإنشاد قال : فوجدوا عند رأسه صحيفة فيها :

يا ناعيَ الموتِ والملحود في جدث عليهمُ من بقايا قولهمْ خرَق
دعهم فإنّ لهم يوماً يصاحُ بهم فهم إذا انتبهوا من نومهمْ أرقوا
حتى يعودوا بحال غير حالهمُ خلقاً جديداً كمَا منْ قبله خُلقوا
منهم عُراةٌ ومنهم في ثيابهمُ منها الجديدُ ومنها المنهجُ الخَلق

---

(١) الدياجي : الظلمات . البُهَمُ : مشكلات الأمور — ما اشتبه واستغلق . واستبهم من الأمور .
(٢) خرَقٌ : كذب .
(٣) المنهج الخلقُ : الرثُّ البالي .

فقال رسول الله ﷺ : «والذي بعثني بالحق لقد آمن قس بالبعث » وأصله مشهور، وهذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة ، وقد تكلم أبو محمد بن درستويه على غريب ما وقع في هذا الحديث وأكثره ظاهر إن شاء الله تعالي وما كان فيه غرابة شديدة نبهنا عليه في الحواشي.

وقال البيهقي : أخبرنا أبو سعيد بن محمد بن أحمد الشعيثي؛ حدثنا أبو عمرو بن أبي طاهر المحمد آباذي لفظاً، حدثنا أبو لبابة محمد بن المهدي الأبيوردي، حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن هبيرة، حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أنس بن مالك قال : قدم وفد إياد على النبيﷺ فقال: «ما فعل قس بن ساعدة ؟ » . قالوا: هلك. قال: «أما إني سمعت منه كلاماً أرى إني أحفظه » فقال بعض القوم : نحن نحفظه يا رسول الله. قال : «هاتوا » : فقال قائلهم : إني واقف بسوق عكاظ. فقال : «يا أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا، كل من عاش مات، وكل من مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرسية، وأنهار مجرية، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، أري الناس يموتون ولايرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا؟. أقسم قسٌ قسماً بالله لا آثم فيه، إن لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه » ثم أنشأ يقول :

في الذاهبيـــن الأوليـــن من القرون لنـا بصائر
لما رأيـتُ مصارعـاً للقـوم ليس لها مصـادر
ورأيتُ قومـي نحوهـا يمضـي الأصاغـر والأكابر
أيقنتُ أنـي لا محـالَة حيثُ صار القومُ صائر[1]

ثم ساقه البيهقي من طريق أُخر قد نبهنا عليها فيما تقدم؛ ثم قال بعد ذلك كله : وقد روي هذا الحديث عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بزيادة ونقصان. وروي من وجه آخر عن الحسن البصري منقطعاً، وروي مختصراً من حديث سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة. قلت : وعبادة بن الصامت كما تقدم وعبد الله بن مسعود كما رواه أبو نعيم في كتاب " الدلائل " عن عبد الله بن محمد بن عثمان الواسطي، عن أبي الوليد طريف بن عبيد الله مولى علي بن أبي طالب بالموصل، عن يحيى بن عبد الحميد الحماني، عن أبي معاوية عن الأعمش، عن أبي الضحي عن مسروق، عن ابن مسعود فذكره. وروي أبو نعيم أيضاً حديث عبادة المتقدم وسعد بن أبي وقاص. ثم قال البيهقي : وإذا روي الحديث من أوجه أخر وإن كان بعضها ضعيفاً دلَّ على أن للحديث أصلا والله أعلم.

زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرظ بن رزاح بن عدي ابن كعب بن لؤي القرشي العدوي. وكان الخطاب والد عمر بن الخطاب عمه وأخاه لأمه.

(١) ضعيف : رواه البيهقي في " الدلائل " (٢ / ١ ، ١٠٢) .

وذلك لأن عمرو بن نفيل كان قد خلف على امرأة أبيه بعد أبيه وكان لها من نفيل أخوه الخطاب قاله الزبير بن بكار ومحمد بن إسحاق. وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان وفارق دينهم، وكان لا يأكل إلا ماذبح على اسم الله وحده، قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق : حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري. ثم يقول : اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لاأعلم، ثم يسجد على راحلته وكذا رواه أبو أسامة عن هشام به وزاد وكان يصلي إلى الكعبة ويقول : إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم. وكان يحيي الموءودة ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها ادفعها إليّ أكفلها فإذا ترعرعت فإن شئت فخذها وإن شئت فادفعها.[1] أخرجه النسائي من طريق أبي أسامة وعلقه البخاري فقال : وقال الليث : كتب إلى هشام بن عروة عن أبيه به وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق : وقد كان نَفَر من قريش زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي، وعثمان بن الحويرث بن أسد ابن عبد العزي، وعبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر بن صبرة بن برة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسعد بن أسد بن خزيمة. وأمه أميمة بنت عبد المطلب. وأخته زينب بنت جحش التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد مولاه زيد بن حارثة كما سيأتي بيانه. حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض، وقالوا : تصادقوا وليكتم بعضهم على بعض. فقال قائلهم : تعلمن والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه ما وثن يعبد - لا يضر ولا ينفع - فابتغوا لأنفسكم، فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلها. والحنيفية دين إبراهيم، فأما ورقة بن نوفل فتنصر واستحكم في النصرانية وابتغي الكتب من أهلها حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب ولم يكن فيهم أعدل أمراً وأعدل ثباتاً من زيد بن عمرو بن نفيل اعتزل الأوثان، وفارق الأديان، من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دين الحنيفية دين إبراهيم، يوحد الله ويخلع من دونه ولا يأكل ذبائح قومه فآذاهم بالفراق لما هم فيه. قال : وكان الخطاب قد آذاه أذي كثيراً، حتى خرج منه إلى أعلي مكة ووكل به الخطاب شبابا من قريش وسفهاء من سفهائهم . فقال : لا تتركوه يدخل فكان لا يدخلها إلا سرا منهم، فإذا علموا به أخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم، أو يتابعه أحد إلى ما هو عليه. وقال موسى بن عقبة : سمعت من أرضى يحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل، كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض لم تذبحوها على غير اسم الله ؟. إنكاراً لذلك وإعظاماً له. وقال يونس عن ابن إسحاق : وقد كان زيد بن

---

(١) رواه البخارى (٣٨٢٨) .

عمرو بن نفيل قد عَزَمَ على الخروج من مكة فضرب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم، وكانت امرأته صفية بنت الحضرمي كلما أبصرته قد نهض للخروج وأراده آذنت الخطاب بن نفيل فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب في أهل الكتاب الأول دين إبراهيم ويسأل عنه، ولم يزل في ذلك فيما يزعمون حتى أتى الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها حتى أتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم، فقال له الراهب : إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه، ولكنه قد أظل خروج نبي وهذا زمانه. وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منها فخرج سريعاً حين قال له الراهب : ما قال، يريد مكة. حتى إذا كان بأرض لخم عدوا عليه فقتلوه فقال ورقه يرثيه :

رشدتَ وأنعمتَ ابنَ عمرو وإنّما ... تجنبتَ تنـوّراً مـن النارِ حـاميـا
بدينــكَ ربّاً ليسَ ربٌّ كمثلــه ... وتركك أوثانَ الطواغي كما هيـــا
وقد تُـدركُ الإنسانَ رحمةُ ربِّهِ ... وإن كانَ تحتَ الأرضِ سَبْعِين واديا

وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة : حدثنا أحمد بن طارق الوابشي. حدثنا عمرو بن عطية عن أبيه، عن ابن عمر، عن زيد بن عمرو بن نفيل : أنه كان يتأله في الجاهلية فانطلق حتى أتى رجلاً من اليهود، فقال له : أحب أن تدخلني معك في دينك؟. فقال له اليهودي : لا أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من غضب اللّه. فقال : من غضب اللّه أفر. فانطلق حتى أتى نصرانيا فقال له : أحب أن تدخلني معك في دينك، فقال : لست أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من الضلالة. فقال : من الضلالة أفر. قال له النصراني : فإني أدلك على دين إن تبعته اهتديت. قال: أي دين؟. قال : دين إبراهيم. قال : فقال : اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم عليه أحيى وعليه أموت. قال : فذكر شأنه للنبي ﷺ فقال : « **هو أمة وحده يوم القيامة** » [1] . .

وقد روي موسي بن عقبة عن سالم عن ابن عمر نحو هذا. وقال محمد بن سعد : حدثنا علي بن محمد بن عبد اللّه بن سيف القرشي عن إسماعيل، عن مجالد، عن الشعبي، عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب. قال : قال زيد بن عمرو بن نفيل : شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما فكنت بالشام وما والاها حتى أتيت راهباً في صومعة فذكرت له اغترابي عن قومي وكراهتي عبادة الأوثان واليهودية والنصرانية. فقال له : أراك تريد دين إبراهيم يا أخا أهل مكة إنك لتطلب دينا ما يوجد اليوم أحد يدين به وهو دين أبيك إبراهيم، كان حنيفا لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك، فالحق ببلدك فإن اللّه يبعث من قومك في بلدك من يأتي بدين إبراهيم الحنيفية وهو أكرم الخلق على اللّه. وقال يونس

---

(١) رواه البخارى (٣٨٢٧) .

عن ابن إسحاق : حدثني بعض آل زيد بن عمرو بن نفيل : إن زيداً كان إذا دخل الكعبة قال : لبيك حقا حقا ، تعبداً ورقا ، عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم، إذ قال : إلهي أنفي لك عان راغم، مهما تجشمني فإني جاشم، البر أبغي لا أنحال، ليس مهجر كمن قال. وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا المسعودي عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي عن أبيه عن جده أن زيد بن عمرو وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فقال لزيد بن عمرو : من أين أقبلت يا صاحب البعير؟. فقال : من بنية إبراهيم، فقال: وما تلتمس ؟. قال : ألتمس الدين، قال : ارجع فإنه يوشك أن يظهر في أرضك. قال : فأما ورقة فتنصر، وأما أنا فعزمت على النصرانية فلم يوافقني فرجع وهو يقول:

* لبيكَ حقّا حقا تَعبُّداً ورِقّا * البر أبغي لا أنحالِ * فهل مهجِّر كَمَن قال [1]

آمنت بما آمن به إبراهيم وهو يقول : أنفي لك عان راغم، مهما تجشمني فإني جاشم، ثم يخر فيسجد. قال : وجاء ابنه يعني سعيد بن زيد أحد العشرة – رضي اللّه عنه – فقال : يا رسول اللّه إن أبي كما رأيت وكما بلغك فاستغفر له، قال : « **نعم فإنه يبعث يوم القيامة أمّة واحدة** » قال : وأتي زيد بن عمرو بن زيد على رسول اللّه ﷺ ومعه زيد بن حارثة وهما يأكلان من سفرة لهما، فدعواه لطعامهما. فقال زيد بن عمرو : يا ابن أخي أنا لا آكل مما ذبح على النصب. وقال محمد بن سعد، حدثنا محمد بن عمرو، حدثني أبو بكر بن أبي سبرة عن موسى بن ميسرة، عن بن أبي مليكة، عن حجر بن أبي أهاب. قال : رأيت زيد بن عمرو وأنا عند صنم بوانة بعد ما رجع من الشام وهو يراقب الشمس فإذا زالت استقبل الكعبة فصلي ركعة سجدتين، ثم يقول : هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلي له ولا آكل ما ذبح له ولا استقسم الأزلام، وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت. وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبي فيقول : لبيك لا شريك لك ولا ند لك. ثم يدفع من عرفة ماشياً، وهو يقول : لبيك متعبداً مرقوقا.

وقال الواقدي : حدثني علي بن عيسى الحكمي عن أبيه عن عامر بن ربيعة. قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا انتظر نبياً من ولد إسماعيل. ثم من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيته فاقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفي عليك، قلت : هلم ! قال : " هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينه حمرة. وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد؛ وهذا البلد مولده ومبعثه؛ ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره، فإياك أن تخدع عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون : هذا الدين وراءك وينعتونه. مثل ما نعته لك، ويقولون : لم

---

(١) المهجر : من الهاجرة وهى شدة الحرّ .

يبقَ نبي غيره " . قال عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرت رسول اللّه ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرئه منه السلام، فرد عليه السلام وترحم عليه وقال : « قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا » .

وقال البخاري في صحيحه : ذكر زيد بن عمرو بن نفيل. حدثنا محمد بن أبي بكر؛ حدثنا فضيل بن سليمان؛ حدثنا موسى بن عقبة؛ حدثني سالم عن عبد اللّه بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينـزل على النبي ﷺ الوحي، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبي أن يأكل منها. ثم قال زيد : إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلاما ذكر اسم اللّه عليه. وأن زيد بن عمرو يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول : " الشاة خلقها اللّه وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض، ثم يذبحونها على غير اسم اللّه؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له " . قال موسى بن عقبة : وحدثني سالم بن عبد اللّه ولا أعلمه إلا يحدث به عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم، فقال : إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني، فقال : إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب اللّه، قال زيد : وما أفر إلا من غضب اللّه تعالي ولا أحمل من غضب اللّه شيئا ولا أستطيعه، فهل تدلني على غيره؟. قال : ما أعلمه إلا أن تكون حنيفا. قال زيد : وما الحنيف ؟. قال : دين إبراهيم عليه السلام، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا اللّه، فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله. فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنه الله ، فقال زيد : وأفر إلا من لعنة الله فهل تدلني على غيره؟. قال : ما أعلمه إلا أن تكون حنيفا . قال : وما الحنيف؟. قال : دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولانصرانياً ولا يعبد إلا اللّه. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج فلما برز رفع يديه؛ فقال : اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم. قال : وقال الليث : كتب إلى هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر. قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش واللّه ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها فإذا ترعرعت. قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها [1] انتهي ما ذكره البخاري.

وهذا الحديث الأخير قد أسنده الحافظ بن عساكر من طريق أبي بكر بن أبي داود عن عيسي بن حماد، عن الليث، عن هشام، عن أبيه عن أسماء فذكر نحوه. وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه : عن أسماء. قالت : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش إياكم والزنا فإنه يورث الفقر. وقد ساق ابن عساكر هاهنا أحاديث غريبة جدا وفي بعضها نكارة شديدة. ثم أورد من طرق متعددة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « **يبعث يوم القيامة أمّة وحده** » فمن ذلك ما رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة؛

(١) رواه البخارى (٣٨٢٦) .

حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر، قال : سئل رسول اللّٰه ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم، ويسجد. فقال رسول اللّٰه ﷺ: «يحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسي بن مريم. » إسناده جيد حسن. وقال الواقدي : حدثني موسى بن شيبة عن خارجة بن عبد اللّٰه بن كعب بن مالك. قال : سمعت سعيد بن المسيب يذكر زيد بن عمرو بن نفيل. فقال : توفي وقريش تبني الكعبة قبل أن ينــزل الوحي على رسول اللّٰه ﷺ بخمس سنين، ولقد نزل به وإنه ليقول : أنا على دين إبراهيم فأسلم ابنه سعيد بن زيد واتبع رسول اللّٰه ﷺ وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رسول اللّٰه ﷺ فسألاه عن زيد بن عمرو ابن نفيل، فقال : « **غفر اللّٰه له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم** »[1] قال : فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لايذكره ذاكر منهم إلا ترحم عليه واستغفر له، ثم يقول سعيد بن المسيب : رحمه اللّٰه وغفر له. وقال محمد بن سعد عن الواقدي : حدثني زكريا بن يحيي السعدي، عن أبيه. قال: مات زيد بن عمرو بن نفيل بمكة ، ودفن بأصل حراء، وقد تقدم أنه مات بأرض البلقاء من الشام لما عدا عليه قوم من بني لخم فقتلوه بمكان يقال له : ميفعة واللّٰه أعلم.

وقال الباغندي عن أبي سعيد الأشج، عن أبي معاوية، عن هشام، عن أبيه عن عائشة : قالت : قال رسول اللّٰه ﷺ: « **دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين** ». وهذا إسناد جيد وليس هو في شيء من الكتب. ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل رحمه اللّٰه ما قدمناه في بدء الخلق من تلك القصيدة :

إلى اللّٰه أهـــــدي مدْحَتِي وثنائيا ... وقولاً رضيًّا لا يني الدهــرَ باقيا
إلى الملِكِ الأعلي الذَي ليس فوقَه ... إله ولا ربٌّ يكــونُ مدانــيا

وقد قيل : إنها لأمية بن أبي الصلت واللّٰه أعلم. ومن شعره في التوحيد ما حكاه محمد بن إسحاق والزبير بن بكار وغيرهما :

وأسلمتُ وجهــي لمن أسلمتْ ... له الأرضُ تحمــلُ صخراً ثقــالا
دَحــاها فلمّــا استوتْ شَدّها ... سواءً وأرسى عليهـــا الجَبالا[2]
وأسلمتُ وجهي لِمَنْ أسلمتْ ... له المزْنُ تحملُ عَذْبـــاً زلالا[3]
إذا هيَ ســــيقَت إلى بلدة ... أطاعــتْ فصبّتْ عليها ســجالا
وأسلمــتُ وجهيَ لمن أسلمــتْ ... له الريحُ تُصـرَّف حالاً فحَــالا

---

(١) رواه البخارى (١٤٣/٧) .

(٢) دحاها : بسطها .

(٣) المزن : السحابة الممطرة .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني هشام بن عروة؛ قال : روي أبي أن زيد بن عمرو قال :

أربٌّ واحدٌ أم ألفُ ربٍّ ؟ — أدينُ إذا تقسّمت الأمورُ؟
عزلْتُ اللاتَ والعُزّي جميعاً — كذلك يفعلُ الجَلْد الصبورُ
فلا العُزّى أدينُ ولا ابنتيها — ولا صنمَيْ بني عمروٍ أزورُ
ولا غُنماً أدين وكان ربّاً — لنا في الدهرِ إذْ حلمي يسيرُ
عجبتُ وفي الليالي مُعجباتٌ — وفي الأيامِ يعرفُها البصيرُ
بأنّ اللّهَ قد أفني رجالاً — كثيراً كان شأنُهمُ الفُجورُ
وأبْقي آخرينَ ببِرِّ قوم — فَيربلُ [1] منهمُ الطفلُ الصغيرُ
وبينا المرءُ يعثرُ ثابَ يوماً — كما يتروّح الغُصنُ النضيرُ
ولَكِنْ أعبدُ الرحمنَ ربِّي — ليغفرَ ذنبيَ الربُّ الغفورُ
فتقوي اللّه ربّكمُ احفظوها — متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرارَ دارُهمُ جِنانٌ — وللكفارِ حاميةٌ سعيرُ
وخزيٌ في الحياةِ وإن يموتوا — يُلاقوا ما تضيقُ به الصدورُ

وهذا تمام ما ذكره محمد بن إسحاق من هذه القصيدة. وقد رواه أبو القاسم البغوي عن مصعب بن عبد اللّه، عن الضحاك بن عثمان، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال : قال هشام بن عروة عن أبيه : عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قال زيد بن عمرو بن نفيل :

عزلتُ الجنَّ والجنّانَ عنِّي — كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصبورُ
فلا العُزَّى أدين ولا ابنتيه — ولا صنمي بني طَسْمٍ أديرُ
ولا غنما أدينُ وكان ربّاً — لنا في الدهر إذ حِلمي صغيرُ
أربٌّ واحدٌ أم ألفُ ربٍّ ؟ — أدين إذا تَقَسَّمتَ الأمورُ؟
ألم تَعْلَمْ بأنَّ اللّهَ أَفْنَى — رجالاً كان شَأنُهم الفجورَ
وأبقَى آخرين ببرِّ قوم — فيربُو منهم الطفلُ الصغيرُ
وبينا المرء يعثرُ ثابَ يوماً — كما يتروحُ الغُصْنُ النضيرُ

قالت : فقال ورقة بن نوفل:

رشدتَ وأنعمتَ ابن عمرو وإنّما — تجنبتَ تنوراً من النارِ حاميا
لدينك ربّاً ليس كمثله — وتركك جنّان الجبال كما هيا
أقَولُ إذا أهبطتُ أرضاً مخوفةً — :حنانَيْكَ لا تُظهر عليّ الأعاديا

(1) يربل : ينمو .

حنانيكَ إن الجن كانت رجاءَهم — وأنتَ إلــهي ربَّنــا ورجــائيا
لتدركنَّ المرءَ رحمـــــــــةُ ربِّه — وإن كان تحتَ الأرض سبْعين واديا
أديـــنُ لربٍّ يستجيبُ ولا أرى — أدينُ لِمَنْ لا يسمـــعُ الدهرَ واعيا
أقـــول إذا صليّتُ في كلّ بَيعــةِ — : تباركْتَ قد أكثرتُ باسمك داعيا

تقدم أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام هو، وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبيد اللّه بن جحش، فتنصروا إلا زيداً؛ فإنه لم يدخل في شيء من الأديان بل بقي على فطرته من عبادة اللّه وحده لا شريك له متبعاً ما أمكنه من دين إبراهيم على ما ذكرناه. وأما ورقة بن نوفل فسيأتي خبره في أول المبعث. وأما عثمان بن الحويرث فأقام بالشام حتى مات فيها عند قيصر. وله خبر عجيب ذكره الأموي ومختصره أنه لما قدم على قيصر فشكي إليه ما لقي من قومه كتب له إلى ابن جفنة ملك عرب الشام ليجهز معه جيشاً لحرب قريش، فعزم على ذلك فكتبت إليه الأعراب تنهاه عن ذلك لما رأوا من عظمة مكة، وكيف فعل اللّه بأصحاب الفيل، فكساه ابن جفنة قميصاً مصبوغا مسموما فمات من سمه، فرثاه زيد بن عمرو ابن نفيل بشعر ذكره الأموي تركناه اختصاراً وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين أو نحوها واللّه سبحانه. وتعالى أعلم.

شيء من الحوادث في زمن الفترة فمن ذلك بنيان الكعبة

وقد قيل : إن أول من بناه آدم، وجاء في ذلك حديث مرفوع عن عبد اللّه بن عمرو وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف، وأقوي الأقوال : إن أول من بناه الخليل عليه السلام. كما تقدم، وكذلك رواه سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة، عن علي بن أبي طالب قال : ثم تهدم فبنته العمالقة، ثم تهدم فبنته جرهم، ثم تهدم فبنته قريش. قلت : سيأتي بناء قريش له وذلك قبل المبعث بخمس سنين، وقيل : بخمس عشرة سنة . وقال الزهري : كان رسول اللّه ﷺ قد بلغ الحلم. وسيأتي ذلك كله في موضعه إن شاء اللّه وبه الثقة .

ذكر كعب بن لؤي

روي أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن بن زبالة، عن محمد بن طلحة التيمي، عن محمد ابن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة : قال : كان كعب بن لؤي يجمع قومه يوم الجمعة، وكانت قريش تسميه العروبة فيخطبهم فيقول: " أما بعد فاسمعوا وتعلموا، وافهموا واعلموا، ليل ساج، ونهار ضاح، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين، والأنثي والذكر، والروح وما يهيج إلى بلى ، فصلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وثمروا أموالكم. فهل رأيتم من هالك رجع ، أو ميت نشر ؟ الدار أمامكم، والظن

غير ما تقولون، حرمكم زينوه وعظموه، وتمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم ؛ وسيخرج منه نبي كريم، ثم يقول :

نهارٌ وليلٌ كلُّ يـــــوم بحادث سواءٌ علينا ليلُها ونهـــارُهـــا
يؤوبـــان بالأحداث حتى تأوّبا وبالنعَم الضافي علينـــا ستورهـــا
على غفلة يأتي النَبيُّ محمدُ فيخبـــرُ أخباراً صدوقٌ خبيرهـــا

ثمَّ يقول : والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر، ويد ورجل، لتنصبت فيها تنصب الجمل، ولأرقلت بها إرقال العجل، ثم يقول :

يا ليتنـــــي شاهداً نجواءَ دَعوتَه حينَ العشيرةُ تبغي الحقَّ خِذلانا

قال : وكان بين موت كعب بن لؤي ومبعث رسول الله ﷺ خمسمائة عام وستون سنة .

تجديد حفر زمزم

على يدي عبد المطلب بن هاشم التي كان قد درس رسمها بعد طم جرهم لها إلى زمانه.

قال محمد بن إسحاق : ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم في الحجر وكان أول ما ابتدي به عبد المطلب من حفرها كما حدثني يزيد بن أبي حبيب المصري عن مرثد بن عبد الله المزني، عن عبد الله بن رزين الغافقي : أنه سمع علي بن أبي طالب يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها. قال : قال عبد المطلب : إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت، فقال لي : احفر طيبة. قال : قلت : وما طيبة ؟. قال : ثم ذهب عني. قال : فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت، فجاءني، فقال : احفر برة. قال : قلت : وما برة ؟. قال : ثم ذهب عني؛ فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فجاءني، فقال : احفر المضنونة. قال : قلت : وما المضنونة ؟. قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني ، قال : احفر زمزم. قال: قلت : وما زمزم ؟. قال: لا تنـــزف أبداً ولا تزم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل. قال : فلما بين لي شأنها ودل على موضعها وعرف أنه قد صدق؛ غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب وليس له يومئذ ولد غيره، فحفر فلما بدا لعبد المطلب الطمي [1] كبّر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته. فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقا فأشركنا معك فيها. قال : ما أنا بفاعل إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم. قالوا له : فانصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها. قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا : كاهنة بني سعد بن هذيم قال : نعم وكانت بأشراف الشام فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أمية

(١) الطمي : الماءُ .

وركب من كل قبيلة من قريش نفر فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز، حتى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب وأصحابه فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم فأبوا عليهم، وقالوا: إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فقال عبد المطلب : إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوة : فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته. ثم واروه حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه. فقالوا : نعمّا أمرت به فحفر كل رجل لنفسه حفرة. ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى، ثم إنّ عبد المطلب قال لأصحابه : ألقينا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض لا نبتغي لأنفسنا لعجز فعسى أن يرزقنا ماء ببعض البلاد فارتحلوا حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه؛ ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم. ثم دعا قبائل قريش وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال، فقال : هلموا إلى الماء فقد سقانا اللّه فجاءوا فشربوا واستقوا كلهم؛ ثم قالوا : قد واللّه قضي لك علينا واللّه ما نخاصمك في زمزم أبداً إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم.

قال ابن إسحاق : فهذا ما بلغني عن علي بن أبي طالب في زمزم قال ابن إسحاق : وقد سمعت من يحدث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أمر بحفر زمزم :

ثم ادع بالماءِ الرِّوَي غيرِ الكـــدِرِ ... يسقي حجيـجَ اللّه في كل مبر

ليسَ يخافُ منه شيء ما عَمَـــرْ

قال : فخرج عبد المطلب حين قيل له، ذلك إلى قريش : فقال: تعلمون أني قد أمرت أن أحفر زمزم. قالوا : فهل بُيِّن لك أين هي ؟. قال : لا ! قالوا : فارجع إلى مضجعك الذي رأيت فيه مارأيت فإن يك حقا من اللّه يبين لك وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك فرجع ونام فأتي فقيل له : احفر زمزم. إنك، إن حفرتها لن تندم. وهي تراث من أبيك الأعظم. لا تنــزف أبداً ولا تزم تسقي الحجيج الأعظم. مثل نعام جافل لم يقسم. ينذر فيها ناذر بمنعم. تكون ميراثا وعقداً محكم. ليست لبعض ما قد تعلم. وهي بين الفرث والدم.

قال ابن إسحاق : فزعموا : أن عبد المطلب حين قيل له ذلك : قال : وأين هي؟ . قيل. له : عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غداً. فاللّه أعلم أي ذلك كان. قال: فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره. زاد الأموي ومولاه أصرم فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين أساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما، فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر فقامت إليه قريش، وقالت : واللّه لا نتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر

عندهما، فقال عبد المطلب لابنه الحارث : زُدْ [١] عني حتى احفر فوالله لأمضين لما أمرت به فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطمي فكبر وعرف أنه قد صدق، فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالتين من ذهب اللتين كانت جرهم قد دفنتهما ووجد فيها أسيافاً قلعية وأدرعاً. فقالت له قريش : يا عبد المطلب لنا معك في هذا شرك وحق؛ قال : لا ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم نضرب عليها بالقداح قالوا : وكيف نصنع قال : اجعل للكعبة قدحين ولي قدحين ولكم قدحين فمن خرج قدحاه على شيء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شيء له. قالوا : أنصفت فجعل للكعبة قدحين أصفرين وله أسودين ولهم أبيضين ثم أعطوا القداح للذي يضرب عند هبل وهبل أكبر أصنامهم ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد : أعل هبل يعني هذا الصنم. وقام عبد المطلب يدعو الله. وذكر يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق أن عبد المطلب جعل يقول :

اللهـــم أنتَ الملكُ المحمودُ ... ربـيَ أنتَ المبـدُئ المعيـــدُ
وممســـكُ الراسيَة الجلمودُ ... من عنـدك الطارفُ والتليدُ [٢]
إن شئتَ ألهمتَ كمَا تريـــدُ ... لَموضـعِ الحليـــةِ والحديد
فَبَيِّنِ اليـــومَ لمـــا تريـــدُ ... إني نَـذَرتُ العاهـدَ المعهـودَ
اجعلــــه ربِّ لي فلا أعـودُ

قال : وضرب صاحب القداح فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش. فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة، وضرب في الباب الغزالين من ذهب فكان أول ذهب حلية للكعبة فيما يزعمون. ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحاج وذكر ابن إسحاق وغيره أن مكة كان فيها أبيار كثيرة قبل ظهور زمزم في زمن عبد المطلب، ثم عددها ابن إسحاق وسماها وذكر أماكنها من مكة وحافريها إلى أن قال : فعفت زمزم على البئار كلها، وانصرف الناس كلهم إليها لمكانها من المسجد الحرام ولفضلها على ما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلي سائر العرب. وقد ثبت في صحيح مسلم في حديث إسلام أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال في زمزم : « **إنها لطعام طعم. وشفاء سقم** » . [٣]وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن الوليد، عن عبد الله بن المؤمل، عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : « **ماء زمزم لما شرب منه** » [٤] وقد رواه ابن ماجه من حديث عبد الله بن

---

(١) أزد : دافع .

(٢) الجلمود: الصخر . الطارف : الحديث من المال . التليد : القديم .

(٣) رواه مسلم (١٣٢/٢٤٧٣) .

(٤) حسن : رواه أحمد (٣٥٧/٣و٣٧٢) وابن ماجة (٣٠٦٢) والعقيلى فى " الضعفاء " (٣٠٣/٢) والبيهقى فى " السنن " (١٤٨/٥) والخطيب فى " تاريخه " (١٧٩/٣)وانظر " الإرواء " (١١٢٣).

المؤمل وقد تكلموا فيه ولفظه «ماء زمزم لما شرب له» ورواه سويد بن سعيد عن عبد اللّه بن المبارك عن عبد الرحمن بن أبي الموالي عن محمد بن المنكدر، عن جابر عن النبيﷺ قال: «ماء زمزم لما شرب له» ولكن سويد بن سعيد ضعيف والمحفوظ عن ابن المبارك عن عبد اللّه بن المؤمل كما تقدم وقد رواه الحاكم عن ابن عباس مرفوعا «ماء زمزم لما شرب له» وفيه نظر واللّه أعلم. وهكذا روي ابن ماجه أيضا والحاكم عن ابن عباس أنه قال لرجل: إذا شربت من زمزم فاستقبل الكعبة واذكر اسم اللّه وتنفس ثلاثا وتضلع [1] منها فإذا فرغت فاحمد اللّه فإن رسول اللّه ﷺ قال: «**إن آية ما بيننا وبين المنافقين لا يتضلعون من ماء زمزم**»[2] وقد ذكر عن عبدالمطلب أنه قال: اللهم إني لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل. وقد ذكره بعض الفقهاء عن العباس بن عبد المطلب، والصحيح أنه عن عبد المطلب نفسه فإنه هو الذي جدد حفر زمزم كما قدمنا واللّه أعلم.

وقد قال الأموي في مغازيه: حدثنا أبو عبيد أخبرني يحيي بن سعيد عن عبد الرحمن بن حرملة سمعت سعيد بن المسيب يحدث أن عبد المطلب ابن هاشم حين احتفر زمزم قال: لا احلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل. وذلك أنه جعل لها حوضين حوضاً للشرب، وحوضاً للوضوء. فعند ذلك قال: لا أحلها لمغتسل لينـــزه المسجد عن أن يغتسل فيه. قال أبو عبيد قال الأصمعي: قوله وبل اتباع قال أبو عبيد: والاتباع لايكون بواو العطف وإنما هو كما قال معتمر بن سليمان: إن بل بلغة حمير مباح ثم قال أبو عبيد: حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم ابن أبي النجود: أنه سمع ذراً أنه سمع العباس يقول: لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل؛ وحدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن عبد الرحمن بن علقمة، أنه سمع ابن عباس يقول ذلك وهذا صحيح اليهما، وكأنهما يقولان ذلك في أيامهما على سبيل التبليغ والإعلام بما اشترطه عبد المطلب عند حفره لها فلا ينافي ما تقدم واللّه أعلم. وقد كانت السقاية إلى عبد المطلب أيام حياته. ثم صارت إلى ابنه أبي طالب مدة؛ ثم اتفق أنه أملق [3]في بعض السنين فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف إلى الموسم الآخر وصرفها أبو طالب في الحجيج في عامه فيما يتعلق بالسقاية، فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شيء فقال لأخيه العباس: أسلفني أربعة عشر ألفا أيضا إلى العام المقبل أعطيك جميع مالك فقال له العباس: بشرط إن لم تعطني تترك السقاية لي اكفكها فقال: نعم، فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبي طالب ما يعطي العباس فترك له السقاية فصارت إليه؛ ثم من بعده صارت إلى عبد اللّه ولده. ثم إلى علي ابن عبد اللّه بن عباس، ثم إلى داود بن على، ثم إلى سليمان بن على، ثم إلى عيسي بن على، ثم أخذها المنصور واستناب عليها مولاه أبا رزين ذكره الأموي.

---

(١) تضلع: امتلأ شبعًا رياً حتى بلغ الماء أضلاعه.

(٢) **ضعيف**: رواه ابن ماجة (٣٠٦١) وانظر "الإرواء" (١١٢٥).

(٣) أملق: افتقر واحتاج.

نذر عبد المطلب ذبح ولده

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب فيما يزعمون : نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم : لئن ولد له عشرة نفر. ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم للّه عند الكعبة. فلما تكامل بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه وهم : الحارث. والزبير. وحجل. وضرار. والمقوم. وأبو لهب. والعباس. وحمزة. وأبو طالب. وعبد اللّه. جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء للّه عزّ وجلّ بذلك فأطاعوه، وقالوا : كيف نصنع ؟. قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً. ثم يكتب فيه اسمه. ثم ائتوني، ففعلوا ثم أتوه، فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدي للكعبة، وكان عند هبل قداح سبعة وهي الأزلام التي يتحاكمون إليها إذا أعضل عليهم أمر من عقل أو نسب أو أمر من الأمور جاءوه فاستقسموا بها فما أمرهم به أونهتهم عنه امتثلوه. والمقصود أن عبد المطلب لما جاء يستقسم بالقداح عند هبل خرج القدح على ابنه عبد اللّه وكان أصغر ولده وأحبهم إليه، فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبداللّه وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى أساف ونائلة ليذبحه فقامت إليه قريش من انديتها فقالوا : ما تريد يا عبد المطلب ؟. قال : أذبحه فقالت له قريش وبنوه إخوة عبد اللّه : واللّه لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا. وذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق : أن العباس هو الذي اجتذب عبد اللّه من تحت رجل أبيه حين وضعها عليه ليذبحه فيقال : إنه شج وجهه شجاً لم يزل في وجهه إلى أن مات، ثم أشارت قريش على عبد المطلب أن يذهب إلى الحجاز فإن بها عرافة لها تابع فيسألها عن ذلك. ثم أنت على رأس أمرك إن أمرتك بذبحه فاذبحه، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته، فانطلقوا حتى أتوا المدينة فوجدوا العرافة وهي سجاح فيما ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق بخيبر فركبوا حتى جاءوها فسألوها، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله فرجعوا من عندها، فلما خرجوا قام عبد المطلب يدعو اللّه ثم غدوا عليها. فقالت لهم : قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم ؟ . قالوا : عشر من الإبل، وكانت كذلك. قالت : فارجعوا إلى بلادكم. ثم قرّبوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم، فخرجوا حتى قدموا مكة فلما أجمعوا على ذلك الأمر قام عبد المطلب يدعو اللّه. ثم قربوا عبد اللّه وعشراً، من الإبل ثم ضربوا فخرج القدح على عبد اللّه فزادوا عشراً، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد اللّه فزادوا عشراً، فلم يزالوا يزيدون عشراً عشراً ويخرج القدح على عبد اللّه حتى بلغت الإبل مائة. ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل، فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب وهو قائم عند هبل يدعو اللّه: قد انتهى رضي ربك يا عبد المطلب. فعندها زعموا أنه قال : لا حتى أضرب عليها بالقداح ثلاث مرات فضربوا ثلاثاً ويقع القدح فيها على الإبل فنحرت، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع. قال ابن هشام : ويقال : ولا سبع . وقد روي : أنه لما بلغت الإبل مائة خرج على عبد اللّه أيضا

فزادوا مائة أخرى، حتى بلغت مائتين فخرج القدح على عبد اللّه فزادوا مائة أخرى، فصارت الإبل ثلاثمائة. ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فنحرها عند ذلك عبد المطلب، والصحيح الأول واللّه أعلم. وقد روي ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلي عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد عن الزهري، عن قبيصة بن ذؤيب : أن ابن عباس سألته امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الإبل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب. وسألت عبد اللّه بن عمر فلم يفتها بشيء بل توقف. فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة. فقال : إنهما لم يصيبا الفتيا، ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها و لم يأمرها بذبح الإبل، وأخذ الناس بقول مروان بذلك، واللّه أعلم.

تزويج عبد المطلب ابنه عبد اللّه من آمنة بنت وهب الزهرية

قال ابن إسحاق : ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد اللّه فمر به – فيما يزعمون– على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي وهي : أم قتال – أخت ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى بن قصي وهي عند الكعبة – فنظرت إلى وجهه فقالت : أين تذهب يا عبد اللّه؟. قال : مع أبي. قالت : لك مثل الأبل التي نحرت عنك وقعْ علي الآن. قال : أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، فخرج به عبد المطلب حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة، بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وهو يومئذ سيد بني زهرة سنا وشرفاً فزوجه ابنته آمنة بنت وهب، وهي يومئذ سيدة نساء قومها، فزعموا أنه دخل عليها حين أملكها مكانه فوقع عليها فحملت منه برسول اللّه ﷺ ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت. فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت بالأمس؟. قالت له : فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك حاجة. وكانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل – وكان قد تنصر واتبع الكتب – أنه كائن في هذه الأمة نبي فطمعت أن يكون منها فجعله اللّه تعالى في أشرف عنصر وأكرم محتد وأطيب أصل كما قال تعالي : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] وسنذكر المولد مفصلا ومما قالت أم قتال بنت نوفل من الشعر تتأسف على ما فاتها من الأمر الذي رامته وذلك فيما رواه البيهقي من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق رحمه اللّه :

عليكَ بآل زهرةَ حيثُ كانوا ... وآمنةَ التي حَمَلت غلاما
ترى المهديَّ حينَ نَزَا عليها ... ونوراً قد تَقَدّمه إماما[1]

إلى أن قالت :

فكلُّ الخَلْق يرجوهُ جميعاً ... يسودُ الناسَ مهتدياً إماما
يراه اللّهُ من نور صَفَاه ... فأذهبَ نورُه عنا الظلاما
وذلكَ صُنْعُ رَبِّك إذْ حَبَاهُ ... إذا ما سارَ يوماً أو أقاما
فيهدي أهلَ مكةَ بعدَ كفرٍ ... ويفرضُ بعدَ ذلكمُ الصياما

---

(١) نزا : وثب .

وقال أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي : حدثنا علي بن حرب، حدثنا محمد بن عمارة القرشي، حدثنا مسلم بن خالد الزنجي، حدثنا ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : لما انطلق عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه، مر به على كاهنة من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب، يقال لها : فاطمة بنت مر الخثعمية فرأت نور النبوة في وجه عبد الله. فقالت: يا فتى هل لك أن تقع على الآن وأعطيك مائة من الإبل ؟. فقال عبد الله :

أمـا الحرامُ فالممـاتُ دونَهُ ... والحِلُّ لا حِـلَّ فأستبينـه
فكيفَ بالأمرِ الذي تبغينَه ... يحمي الكريمُ عرضَه ودِينَه

ثم مضى مع أبيه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فأقام عندها ثلاثاً. ثم إن نفسه دعته إلى ما دعته إليه الكاهنة فأتاها. فقالت : ما صنعت بعدي ؟. فأخبرها. فقالت : والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون في. وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد. ثم أنشأت فاطمة تقول :

إني رأيـتُ مخيـلة لمعتْ ... فتـلألأتْ بحناتم[1] القَطْـر
فلمـا أتهـا نـوراً يضيء له ... ما حـولَه كـإضاءة البَـدر[2]
ورجوتُها فخـراً أبـوءُ بـه ... ما كـلُّ قادحٍ زنـدَه يُـوري
لله مـا زُهـريـةٌ سلبت ... ثوبيك ما استَلبتَ وما تدري؟!

وقالت فاطمة أيضاً :

بني هاشمٍ قد غادرتْ من أخيكُمُ ... أمينـةُ إذ للبـاه يعتـركـان
كما غادرَ المصباحُ عند خُموده ... فتائلَ قد ميثَت لهَ بـدهـان[3]
وما كل ما يحوي الفتـى من تلاده ... بحزمٍ ولا مـا فـاته لتوَاني[4]
فأجملْ إذا طـالبتَ أمـراً فإنَّه ... سيكْفيكَـه جَـدّان يعتلجـان
سيكفيكـه إما يـدٌ مقفلَـةٌ ... وإما يـدٌ مبسـوطةٌ ببنانَ
ولما حَوَتْ مـه أمينةُ ما حَوَتْ ... حَوَتْ منه فخراً ما لذلك ثانَ

وروى الإمام أبو نعيم الحافظ في كتاب " دلائل النبوة " من طريق يعقوب بن محمد الزهري، عن عبد العزيز بن عمران عن، عبد الله بن جعفر، عن ابن عون عن المسوّر بن مخرمة عن ابن عباس. قال : إن عبد المطلب قدم اليمن في رحلة الشتاء فنـزل على حبر من اليهود.

---

(١) الحناتم : السحائب السود .

(٢) لما : اشتمل .

(٣) ميثت : لُيِّنت .

(٤) التلاد : المال الموروث .

قال: فقال لي رجل من أهل الديور – يعني أهل الكتاب – : يا عبد المطلب أتأذن لي أن انظر إلى بعضك ؟. قال : نعم إذا لم يكن عورة. قال : ففتح إحدي منخري فنظر فيه ثم نظر في الآخر. فقال : أشهد أن في إحدي يديك ملكاً وفي الأخري نبوة وإنا نجد ذلك في بني زهرة فكيف ذلك ؟. قلت : لا أدري. قال : هل لك من شاغة ؟. قلت وما الشاغة ؟. قال : زوجة. قلت : أما اليوم فلا. قال : فإذا رجعت فتزوج فيهم. فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة فولدت حمزة وصفية. ثم تزوج عبد اللّه بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول اللّه ﷺ فقالت قريش حين تزوج عبد اللّه بآمنة : فلج أي فاز وغلب عبد اللّه على أبيه عبد المطلب.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب سيرة رسول الله ﷺ

قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ولما سأل هرقل ملك الروم لأبي سفيان تلك الأسئلة عن صفاته عليه الصلاة والسلام قال : كيف نسبه فيكم ؟ قال: هو فينا ذو نسب قال : كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها يعني في أكرمها أحساباً وأكثرها قبيلة صلوات الله عليهم أجمعين.

فهو سيد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة. أبو القاسم. وأبو إبراهيم. محمد. وأحمد. والماحي الذي يمحي به الكفر. والعاقب الذي ما بعده نبي. والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه. والمقفي. ونبي الرحمة. ونبي التوبة. ونبي الملحمة. وخاتم النبيين. والفاتح. وطه. ويس. وعبد الله.

قال البيهقي : وزاد بعض العلماء فقال : سماه الله في القرآن رسولاً. نبيا. أميناً. شاهداً مبشراً. نذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً. ورؤوفا رحيماً. ومذكراً. وجعله رحمة ونعمة وهادياً.

وسنورد الأحاديث المروية في أسمائه عليه الصلاة والسلام في باب نعقده بعد فراغ السيرة فإنه قد وردت أحاديث كثيرة في ذلك اعتنى بجمعها الحافظان الكبيران : أبو بكر البيهقي، وأبوالقاسم ابن عساكر. وأفرد الناس في ذلك مؤلفات حتى رام بعضهم أن يجمع له عليه الصلاة والسلام ألف اسم. وأما الفقيه الكبير أبو بكر بن العربي المالكي شارح الترمذي بكتابه الذي سماه " الأحوذي " فإنه ذكر من ذلك : أربعة وستين اسماً والله أعلم.

وهو ابن عبد الله وكان أصغر ولد أبيه عبد المطلب؛ وهو الذبيح الثاني المفدى بمائة من الإبل كما تقدم.

قال الزهري : وكان أجمل رجال قريش وهو أخو : الحارث. والزبير. وحمزة. وضرار. وأبي طالب – واسمه عبد مناف – وأبي لهب – واسمه عبد العزي – والمقوم – واسمه عبد الكعبة– وقيل : هما اثنان. وحجل واسمه المغيرة. والغيداق وهو كبير الجود – واسمه نوفل – ويقال : إنه حجل. فهؤلاء أعمامه عليه الصلاة والسلام. وعماته ست وهن : أروي. وبرة. وأميمة. وصفية. وعاتكة. وأم حكيم – وهي البيضاء – وسنتكلم على كل منهم فيما بعد إن شاء الله تعالى. كلهم أولاد عبد المطلب – واسمه شيبة – يقال : لشيبة كانت في رأسه ويقال له: شيبة الحمد لجوده. وإنما قيل له عبد المطلب : لأن أباه هاشما لما مر بالمدينة في تجارته إلى الشام نزل على عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن خندف بن عدي بن النجار الخزرجي النجاري وكان سيد قومه فأعجبته ابنته سلمى فخطبها إلى أبيها فزوجها منه، واشترط

عليه مقامها عنده . وقيل : بل اشترط عليه أن لا تلد إلا عنده بالمدينة، فلما رجع من الشام بني بها وأخذها معه إلى مكة، فلما خرج في تجارة أخذها معه وهي حبلي فتركها بالمدينة ودخل الشام فمات بغزة ووضعت سلمي ولدها فسمته شيبة، فأقام عند أخواله بني عدي بن النجار سبع سنين ثم جاء عمه المطلب بن عبد مناف فأخذه خفية من أمه فذهب به إلى مكة. فلما رآه الناس ورأوه على الراحلة قالوا : من هذا معك ؟ فقال : عبدي، ثم جاءوا فهنأوه به وجعلوا يقولون له : عبد المطلب لذلك فغلب عليه وساد في قريش سيادة عظيمة وذهب بشرفهم ورآستهم. فكان جماع أمرهم عليه، وكانت إليه السقاية والرفادة بعد المطلب، وهو الذي جدد حفر زمزم بعد ما كانت مطمومة من عهد جرهم، وهو أول من طلي الكعبة بذهب في أبوابها من تينك الغزالتين اللتين من ذهب وجدهما في زمزم مع تلك الأسياف القلعية ، قال ابن هشام : وعبد المطلب أخو : أسد. وفضلة. وأبي صيفي. وحية. وخالدة. ورقية. والشفاء. وضعيفة. كلهم أولاد هاشم واسمه: عمرو وإنما سمي هاشما: لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في سني المحل [1] كما قال مطرود بن كعب الخزاعي في قصيدته وقيل للزبعري والد عبد اللّٰه :

عمرو الذي هَشَم الثريدَ لقومه ورجالُ مكةَ مُسْنتون عجافُ[2]
سُنّتْ إليّه الرحلتان كلاهما سَفَرُ الشتاءِ ورِحلةُ الأصيافِ

وذلك لأنه أول من سن رحلتي : الشتاء والصيف وكان أكبر ولد أبيه. وحكي ابن جرير: أنه كان توأم أخيه عبد شمس وأن **هاشماً** خرج ورجله ملتصقة برأس **عبد شمس** فما تخلصت حتى سال بينهما دم، فقال الناس : بذلك يكون بين أولادهما حروب، فكانت وقعة بني العباس مع بني أمية بن عبد شمس سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة. وشقيقهم الثالث – **المطلب** – وكان المطلب أصغر ولد أبيه وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال. ورابعهم **نوفل** من أم أخرى وهي واقدة بنت عمرو المازنية، وكانوا قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرياسة، وكان يقال لهم: المجيرون وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم ليدخلوا في التجارات إلى بلادهم، فكان هاشم قد أخذ أماناً من ملوك الشام والروم وغسان، وأخذ لهم عبد شمس من النجاشي الأكبر ملك الحبشة، وأخذ لهم نوفل من الأكاسرة، وأخذ لهم المطلب أمانا من ملوك حمير. ولهم يقول الشاعر :

يا أيُّها الرجلُ المحوّلُ رحلَه ألاَّ نزلتَ بآلِ عبدِ منافِ ؟

وكان إلى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه، وإليه وإلى أخيه المطلب نسب ذوي القربى، وقد كانوا شيئاً واحداً في حالتي الجاهلية والإسلام، لم يفترقوا، ودخلوا معهم في الشعب، وانخذل عنهم بنو عبد شمس ونوفل. ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته :

---

(١) سنى المحل : سنى الجدب والقحط .

(٢) عجاف : هُزال .

جزى اللَّهُ عنا عبدَ شمسٍ ونوفلاً　　عُقوبةَ شرٍّ عاجلاً غير آجلِ

ولا يعرف بنو أب تباينوا في الوفاة مثلهم، فإن هاشماً مات بغزة من أرض الشام، وعبد شمس مات بمكة، ونوفل مات بسلامان من أرض العراق، ومات المطلب - وكان يقال له : القمر لحسنه - بريمان من طريق اليمن. فهؤلاء الإخوة الأربعة المشاهير وهم هاشم، وعبد شمس، ونوفل، والمطلب. ولهم أخ خامس ليس بمشهور وهو أبو عمرو واسمه عبد، وأصل اسمه عبدقصي. فقال الناس : عبد بن قصي درج ولا عقب له. قاله الزبير بن بكار وغيره : وأخوات ست وهن : تماضر. وحية. وريطة. وقلابة. وأم الأخثم. وأم سفيان. كل هؤلاء أولاد عبدمناف، ومناف اسم صنم وأصل اسم عبد مناف المغيرة. وكان قد رأس في زمن والده، وذهب به الشرف كل مذهب. وهو أخو عبد الدار الذي كان أكبر ولد أبيه وإليه أوصي بالمناصب كما تقدم. وعبد العزي وعبد وبرة وتخمر وأمهم كلهم حبى بنت حليل بن حبشي بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي وأبوها آخر ملوك خزاعة وولاة البيت منهم، وكلهم أولاد قصي واسمه زيد. وإنما سمي بذلك : لأن أمه تزوجت بعد أبيه بربيعة بن حزام بن عذرة فسافر بها إلى بلاده وابنها صغير فسمي قصياً لذلك. ثم عاد إلى مكة وهو كبير ولم شعث قريش وجمعها من متفرقات البلاد، وزاح يد خزاعة عن البيت، وأجلاهم عن مكة وأرجع الحق إلى نصابه وصار رئيس قريش على الإطلاق وكانت إليه الوفادة والسقاية - وهو سنها - والسدانة والحجابة واللواء وداره الندوة كما تقدم بسط ذلك كله - ولهذا قال الشاعر :

قُصَيّ، لعَمري كان يُدعى مجمِّعاً　　به جمعَ اللَّهُ القبائلَ من فِهْرِ

وهو أخو زهرة كلاهما ابنا كلاب أخي تيم ويقظة أبي مخزوم ثلاثتهم أبناء مرة أخي عدي وهصيص وهم أبناء كعب، وهو الذي كان يخطب قومه كل جمعة ويبشرهم بمبعث رسول اللَّه ﷺ وينشد في ذلك أشعاراً كما قدمنا، وهو أخو عامر وسامة وخزيمة وسعد والحارث وعوف، سبعتهم أبناء لوي أخي تيم الأدرم وهما أبناء غالب أخي الحارث ومحارب ثلاثتهم أبناء فهر، وهو أخو الحارث وكلاهما ابن مالك. وهو أخو الصلت ويخلد، وهم بنو النضر الذي إليه جماع قريش على الصحيح كما قدمنا الدليل عليه، وهو أخو مالك وملكان وعبد مناة وغيرهم كلهم أولاد كنانة أخي أسد وأسدة والهون أولاد خزيمة، وهوأخو هذيل وهما ابنا مدركة - واسمه عمر وأخو طابخة واسمه عامر وقمعة ثلاثتهم أبناء إلياس وأخو إلياس هو غيلان والد قيس كلها وهما ولدا مضر أخي ربيعة. ويقال لهما : الصريحان من ولد إسماعيل وأخواهما أنمار وإياد تيامنا، أربعتهم أبناء نزار أخي قضاعة - في قول طائفة ممن ذهب إلى أن قضاعة حجازية عدنانية - وقد تقدم بيانه كلاهما أبناء معد بن عدنان.

وهذا النسب بهذه الصفة لا خلاف فيه بين العلماء فجميع قبائل عرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله تعالي : ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي**

الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى : ٢٣] لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ نسب يتصل بهم. وصدق ابن عباس رضي الله عنه فيما قال : وأزيد مما قال، وذلك أن جميع قبائل العرب العدنانية تنتهي إليه بالآباء وكثير منهم بالأمهات أيضاً كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره في أمهاته وأمهات آبائه وأمهاتهم ما يطول ذكره. وقد حرره ابن إسحاق رحمه الله والحافظ بن عساكر وقد ذكرنا في ترجمة عدنان نسبه وما قيل فيه، وأنه من ولد إسماعيل لا محالة، وإن اختلف في كم بينهما أبا ؟ على أقوال قد بسطناها فيما تقدم والله أعلم.

وقد ذكرنا بقية النسب من عدنان إلى آدم وأوردنا قصيدة أبي العباس الناشئ المتضمنة ذلك، كل ذلك في أخبار عرب الحجاز ولله الحمد.

وقد تكلم الإمام أبو جعفر ابن جرير رحمه الله في أول تاريخه على ذلك كلاماً مبسوطاً جيداً محرراً نافعاً. وقد ورد حديث في انتسابه عليه السلام إلى عدنان وهو على المنبر، ولكن الله أعلم بصحته كما قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر بن حفص المقرئ – ببغداد –، حدثنا أبو عيسى بكار بن أحمد بن بكار حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى بن سعد – إملاء سنة ست وتسعين ومائتين – حدثنا أبو جعفر محمد بن أبان القلانسي، حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامي، حدثنا مالك بن أنس عن الزهري عن أنس وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : بلغ النبي ﷺ أن رجالاً من كندة يزعمون أنهم منه وأنه منهم فقال : « إنما كان يقول ذلك العباس وأبو سفيان بن حرب فيأمنا بذلك. وإنا لن ننتفي من آبائنا، نحن بنو النضر بن كنانة » قال : وخطب النبي ﷺ فقال : «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرها، فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية. وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي، فأنا خيركم نفساً، وخيركم أبا » [(١)] وهذا حديث غريب جدا من حديث مالك. تفرد به القدامي وهو ضعيف. ولكن سنذكر له شواهد من وجوه أخر. فمن ذلك قوله: «خرجت من نكاح لا من سفاح » قال عبد الرزاق : أخبرنا ابن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه أبي جعفر الباقر في قوله تعالى : ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم﴾ [التوبة : ١٢٨] قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، قال: وقال رسول الله ﷺ : « إني خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وهذا مرسل جيد. وهكذا رواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصنعاني عن يحيى بن أبي بكير عن عبد الغفار بن القاسم عن جعفر بن محمد عن أبيه. قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله

(١) ضعيف : رواه البيهقي في " الدلائل " (١/١٧٤ ، ١٧٥) وفي سنده عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامي وهو ضعيف .

أخرجني من النكاح ولم يخرجني من السفاح » وقد رواه ابن عدي موصولا فقال : حدثنا أحمد بن حفص حدثنا محمد بن أبي عمرو العدني المكي. حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال : أشهد على أبي حدثني عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب أن النبيﷺ قال : « **خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء** » هذا غريب من هذا الوجه ولايكاد يصح. وقال هشيم : حدثنا المديني عن أبي الحويرث عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **ما ولدني من نكاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام** » وهذا أيضاً غريب أورده الحافظ ابن عساكر ثم أسنده من حديث أبي هريرة وفي إسناده ضعف واللّه أعلم.

وقال محمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر حدثني محمد بن عبد اللّه بن مسلم عن عمه الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت : قال رسول اللّهﷺ : «**ولدت من نكاح غير سفاح** ». ثم أورد ابن عساكر من حديث أبي عاصم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** ﴾ [الشعراء : ٢١٩] قال : « **من نبي إلى نبي حتى أخرجت نبيا** » . ورواه عن عطاء. وقال محمد بن سعد : أخبرنا هشام بن محمد الكلبي عن أبيه. قال : كتبت للنبيﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئا مما كان من أمر الجاهلية. وثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّهﷺ : «**بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه** » [(١)] وفي صحيح مسلم من حديث الأوزاعي عن شداد أبي عمار عن واثلة بن الأسقع أن رسول اللّهﷺ قال : «**إن اللّه اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم** » [(٢)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن عبد اللّه بن الحارث بن نوفل، عن المطلب بن أبي وداعة قال : قال العباس : بلغهﷺ بعض ما يقول الناس : « فصعد المنبر فقال: من أنا ؟ قالوا : أنت رسول اللّه. قال : «**أنا محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب، إن اللّه خلق الخلق فجعلني في خير خلقه وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً. فأنا خيركم بيتاً ونفساً** » [(٣)] صلوات اللّه وسلامه عليه دائما أبدا إلى يوم الدين. وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا عبيد اللّه بن موسى عن إسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد اللّه بن الحارث بن نوفل، عن العباس بن عبد المطلب. قال : قلت : يا رسول اللّه إنّ قريشا إذا التقوا لقي بعضهم بعضا بالبشاشة، وإذا

---

(١) رواه البخاري (٣٥٥٧) .

(٢) رواه مسلم (١/٢٢٧٦) .

(٣) صحيح: رواه أحمد (١/٢١٠) .

لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها. فغضب رسول اللّهﷺ عند ذلك غضباً شديداً. ثم قال : «والذي نفس محمد بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم للّه ولرسوله » [(١)] فقلت : يا رسول اللّه إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم فجعلوا مثلك كمثل نخلة في كبوة من الأرض. فقال رسول اللّهﷺ : « إن اللّه يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم، ثم لما فرقهم [قبائل] جعلني في خيرهم قبيلة.ثم حين جعل البيوت جعلني في خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » [(٢)] ورواه أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن فضيل عن يزيد بن أبي زياد عن عبد اللّه بن الحارث عن ربيعة بن الحارث قال بلغ النبيﷺ فذكره بنحو ما تقدم ولم يذكر العباس . وقال يعقوب بن سفيان : حدثني يحيي بن عبد الحميد. حدثني قيس بن عبد اللّه عن الأعمش عن عليلة [(٣)] بن ربعي عن ابن عباس . قال: قال رسول اللّهﷺ : «إن اللّه قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً، فذلك قوله **﴿ لأَصْحَابَ اليَمِينِ﴾ [الواقعة : ٣٨]** **﴿ وأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾** [الواقعة : ٤١] فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً، فذلك قوله **﴿ فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ﴾** [الواقعة: ٨] **﴿ والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾** [الواقعة : ١٠] فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة فذلك قوله: **﴿ وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عندَ اللّه أَتْقَاكُمْ إنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** [الحجرات : ١٣] وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على اللّه ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً وذلك قوله: **﴿ إنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾** [الأحزاب : ٣٣]، فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب ». وهذا الحديث فيه غرابة ونكارة وروي الحاكم والبيهقي من حديث محمد بن ذكوان خال ولد حماد بن زيد عـــــن عمرو بن دينار عن ابن عمرقال : إنا لقعود بفناء النبيﷺ إذ مرت به امرأة، فقال بعض القوم : هذه ابنة رسول اللّهﷺ قال أبو سفيان : مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن. فانطلقت المرأة فأخبرت النبيﷺ فجاء رسول اللّهﷺ : يعرف في وجهه الغضب. فقال : «ما بال أقوال تبلغني عن أقوام إن اللّه خلق السماوات سبعاً فاختار العلياء منها فأسكنها من شاء من خلقه، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم فأنا خيار من خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم » [(٤)] هذا أيضاً حديث غريب.

وثبت في الصحيح أن رسول اللّهﷺ قال : «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر** » [(٥)] وروي الحاكم والبيهقي أيضاً من حديث موسي بن عبيدة، حدثنا عمرو بن عبد اللّه بن نوفل عن الزهري، عن أبي أسامة أو أبي سلمة، عن عائشة رضَي اللّه عنها قالت : قال رسول اللّه :

---

(١)صحيح: رواه أحمد (١/٢٠٧) .

(٢)صحيح: رواه أحمد (١/٢١٠) .

(٣) هكذا فى المطبوعة والصواب عباية كما ذكره العقيلى فى الضعفاء (٣/٤١٥) .

(٤)ضعيف : رواه الحاكم (٤/٧٣) وفى سنده حماد بن واقد الصغار وحمد بن ذكوان وهما ضعيفان.

(٥) رواه مسلم (١/٢٢٧٦) .

« قال لي جبريل : قلّبت الأرض من مشارقها ومغاربها، فلم أجد رجلا أفضل من محمد، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم» قال الحافظ البيهقي : وهذه الأحاديث وإن كان في رواتها من لا يحتج به فبعضها يؤكد بعضاً ومعنى جميعها يرجع إلى حديث واثلة بن الأسقع والله أعلم.

قلت : وفي هذا المعنى يقول أبو طالب يمتدح النبي ﷺ :

إذا اجتمعت يوماً قريشُ لمفخرٍ ... فعبدُ منافٍ سرُّها وصميمها
فإن حَصلتْ أشرافُ عبد منافها ... ففي هاشم أشرافُها وقديمها
وإن فَخَرتْ يوماً فإنّ محمداً ... هو المصطفى من سرّها وكريمها
تداعتْ قريُش غثها وسمينُها ... علينا فلم تظفر وطاشت حُلومها[1]
وكنّا قديماً لا نقر ظلامةً ... إذا ما ثنوا صُعر الخدود نقيمها
ونحمي حماها كل يوم كريهة ... ونضربُ عن أحجارها من يرومها
بنا انتعشَ العودُ الذواءُ وإنّما ... بأكنافنا تندى وتنمى أرومَها

وقال أبو السكن زكريا بن يحيى الطائي في الجزء المنسوب إليه المشهور : حدثني عمر بن أبي زحر بن حصين عن جده حميد بن منهب قال : قال جدي خريم بن أوس : هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه منصرف من تبوك، فأسلمت، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يارسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال رسول الله ﷺ « قل : لا يفضض الله فاك» فأنشأ يقول:

من قبلها طبتَ في الظلال وفي ... مستودعٍ حيثُ يُخصفُ الورقُ
ثم هبطتَ البلادَ لا بَشرٌ أنـ ... ـت ولا مُضْغةٌ ولا علقُ
بل نطفةٌ تركبُ السفينَ وقد ... ألجمَ نَسراً وأهلَه الغَرَقُ
تنقل من صلبٍ إلى رحمٍ ... إذا مضى عالمٌ بدا طبق
حتى احتوى بيتكَ المهيمنُ ... من خندف علياءَ تحتها النطق[2]
وأنتَ لما ولدتَ أشرقت الأرض ... وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياءِ وفي الـ ... ـنورِ وسُبُلِ الرشادِ نَخترقُ

وقد روى هذا الشعر لحسان بن ثابت، فروي الحافظ أبو القاسم بن عساكر من طريق أبي الحسن بن أبي الحديد، أخبرنا محمد بن أبي نصر حدثنا عبد السلام بن محمد بن أحمد القرشي، حدثنا أبو حصين محمد بن إسماعيل بن محمد التميمي، حدثنا محمد بن عبد الله الزاهد

---

(١) الحلوم : العقول .

(٢) الخندف : الكبير والبطر .

الخراساني، حدثني إسحاق بن إبراهيم بن سنان، حدثنا سلام بن سليمان أبو العباس المكفوف المدائني، حدثنا ورقاء بن عمر عن ابن أبي نجيح عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : فداك أبي وأمي أين كنت وآدم في الجنة ؟ قال : فتبسم حتى بدت نواجذه. ثم قال : « كنت في صلبه وركب بي السفينة في صلب أبي نوح وقذف بي في صلب أبي إبراهيم، لم يلتق أبواي على سفاح قط، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة، صفتي مهدي لا ينشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما، وقد أخذ الله بالنبوة ميثاقي وبالإسلام عهدي، ونشر في التوراة والإنجيل ذكري، وبين كل نبي صفتي تشرق الأرض بنوري والغمام بوجهي، وعلمني كتابه وزادني شرفاً في سمائه وشق لي اسماً من أسمائه فذو العرش محمود وأنا محمد وأحمد، ووعدني أن يحبوني بالحوض والكوثر، وأن يجعلني أول شافع وأول مشفع. ثم أخرجني من خير قرن لأمتي، وهم الحمادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» قال ابن عباس فقال حسان بن ثابت في النبي ﷺ:

قبلها طبتُ في الظـلالِ وفي ... مستـــودِعٍ يوم يخصف الورقُ
ثم سكنتُ البلادَ لا بشــر ... أنت ولا نطفة ولا علـــــقُ
مطهّـرُ تُــركب السفين ... وقد ألجم نسراً وأهلــه الغــرقُ
تَنَقّــلَ من صلبٍ إلى رحـــمٍ ... إذا مضى طبــق بـــدا طبق

فقال النبي ﷺ: « يرحم الله حسانا» فقال علي بن أبي طالب : وجبت الجنة لحسان ورب الكعبة. ثم قال الحافظ ابن عساكر : هذا حديث غريب جدا.

قلت : بل منكر جدا والمحفوظ أن هذه الأبيات للعباس رضي الله عنه ثم أوردها من حديث أبي اليسكن زكريا بن يحيي الطائي كما تقدم. قلت : ومن الناس من يزعم أنها للعباس ابن مرداس السلمي فالله أعلم :

تنبيه :قال القاضي عياض - في كتابه الشفاء - : وأما أحمد الذي أتى في الكتب وبشرت به الأنبياء فمنع الله بحكمته أن يسمى به أحد غيره ولا يدعى به مدعو قبله، حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك. وكذلك محمد لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبيا يبعث اسمه محمد. فسمي قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] وهم : محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي. ومحمد بن سلمة الأنصاري. ومحمد بن البراء الكندي. ومحمد بن سفيان بن مجاشع. ومحمد بن حمران الجعفي. ومحمد بن خزاعي السلمي لا سابع لهم. ويقال : إن أول من سمي محمداً : محمد بن سفيان بن مجاشع. واليمن تقول : بل محمد بن اليحمد من الأزد. ثم إن الله حمي كل من تسمي به أن يدعي النبوة أو يدعيها له أحد، أو يظهر عليه سبب يشكل أحدا في أمره حتى تحققت الشيمتان له ﷺ لم ينازع فيهما. هذا لفظه.

باب مولد رسول اللّه ﷺ

ولد صلوات اللّه عليه وسلامه يوم الإثنين ؛ لما رواه مسلم في صحيحه من حديث غيلان ابن جرير بن عبد اللّه بن معبد الزماني عن أبي قتادة أنّ أعرابيا قال : يا رسول اللّه، ما تقول في صوم يوم الإثنين ؟ فقال : «ذاك يوم ولدت فيه، وأنزل علي فيه » [(١)] وقال الإمام أحمد : حدثنا موسي بن داود : حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران ، عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال : ولد رسول اللّهﷺ يوم الإثنين، واستنبئ يوم الإثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الإثنين ، وقدم المدينة يوم الإثنين ، وتوفي يوم الإثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الإثنين[(٢)]. تفرد به أحمد ورواه عمرو بن بكير عن ابن لهيعة وزاد نزلت سورة المائدة يوم الإثنين: ﴿ **اليومَ أَكْمَلْتُ لكُم دينَكُم** ﴾ [المائدة :٣] . وهكذا رواه بعضهم عن موسي بن داود به وزاد أيضا وكانت وقعة بدر يوم الإثنين . وممن قال هذا يزيد بن حبيب وهذا منكر جداً. قال ابن عساكر والمحفوظ أن بدراً ونزول : ﴿ **اليومَ أكملتُ لكُم دينَكم** ﴾ يوم الجمعة وصدق ابن عساكر.ـوروى عبد اللّه بن عمر عن كريب، عن ابن عباس ولد رسول اللّهﷺ يوم الإثنين وتوفي يوم الإثنين . وهكذا روي من غير هذا الوجه عن ابن عباس أنه ولد يوم الإثنين . وهذا ما لا خلاف فيه إنه ولدﷺ يوم الإثنين . وأبعد بل أخطأ من قال : ولد يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من ربيع الأول، نقله الحافظ ابن دحية فيما قرأه في كتاب " أعلام الروي بأعلام الهدي " لبعض الشيعة. ثم شرع ابن دحية في تضعيفه وهو جدير بالتضعيف إذ هو خلاف النص. ثم الجمهور على : أن ذلك كان في شهر ربيع الأول فقيل : لليلتين خلتا منه قاله ابن عبدالبر في "الاستيعاب" ورواه الواقدي عن أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني. وقيل : لثمان خلون منه حكاه الحميدي عن ابن حزم. ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم .

ونقل ابن عبد البر عن أصحاب التاريخ : أنهم صححوه وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسي الخوارزمي، ورجحه الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه « التنوير في مولد البشير النذير » وقيل : لعشر خلون منه نقله ابن دحية في كتابه ورواه ابن عساكر عن أبي جعفر الباقر. ورواه مجالد عن الشعبي كما مر. وقيل:لثنتي عشرة خلت منه نص عليه ابن إسحاق ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن عفان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس أنهما قالا : ولد رسول اللّهﷺ عام الفيل يوم الإثنين الثامن عشر من شهر ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات. وهذا هو المشهور عند الجمهور واللّه أعلم. وقيل: لسبعة عشر

---

(١) رواه مسلم (١١٦٢/١٩٧) .

(٢) ضعيف : رواه أحمد (٢٧٧/١) والطبراى فى " الكبير " (٢٣٧/١٢) رقم (١٢٩٨٤) وفى سنده ابن لهيعة وهو ضعيف .

خلت منه كما نقله ابن دحية عن بعض الشيعة. وقيل : لثمان بقين منه نقله ابن دحية من خط الوزير أبي رافع بن الحافظ أبي محمد بن حزم عن أبيه والصحيح عن ابن حزم الأول : أنه لثمان مضين منه كما نقله عند الحميدي وهو أثبت .

والقول الثاني : أنه ولد في رمضان نقله ابن عبد البر عن الزبير بن بكار وهو قول غريب جدا وكان مستنده أنه عليه الصلاة والسلام أوحي إليه في رمضان بلا خلاف، وذلك على رأس أربعين سنة من عمره فيكون مولده في رمضان، وهذا فيه نظر والله أعلم. وقد روي خيثمة بن سليمان الحافظ عن خلف بن محمد كردوس الواسطي عن المعلي بن عبد الرحمن، عن عبد الحميد بن جعفر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال : " ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين في ربيع الأول؛ وأنزلت عليه النبوة يوم الإثنين في أول شهر ربيع الأول وأنزلت عليه البقرة يوم الإثنين في ربيع الأول " وهذا غريب جداً رواه ابن عساكر. قال الزبير ابن بكار : " حملت به أمه في أيام التشريق في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطي. وولد بمكة بالدار المعروفة بمحمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان " ورواه الحافظ بن عساكر من طريق محمد بن عثمان بن عقبة بن مكرم عن المسيب بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده قال : حمل برسول الله ﷺ في يوم عاشوراء في المحرم وولد يوم الإثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل. وذكر غيره : أن الخيزران وهي أم هارون الرشيد لما حجت أمرت ببناء هذه الدار مسجداً. فهو يعرف بها اليوم.

وذكر السهيلي : أن مولده عليه الصلاة والسلام كان في العشرين من نيسان. وهذا أعدل الزمان والفصول وذلك لسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة لذي القرنين فيما ذكر أصحاب الزيج. وزعموا أن الطالع كان لعشرين درجة من الجدي وكان المشترى وزحل مقترنين في ثلاث درج من العقرب وهي درجة وسط السماء. وكان موافقاً من البروج الحمل وكان ذلك عند طلوع القمر أول الليل نقله كله ابن دحية والله أعلم.

قال ابن إسحاق : وكان مولده عليه السلام عام الفيل وهذا هو المشهور عن الجمهور. قال إبراهيم بن المنذر الحزامي : وهو الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل. وقد رواه البيهقي من حديث أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل . وقال محمد بن إسحاق : حدثني المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قيس بن مخرمة . قال : ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل، كنا لدَين [1] . قال : وسأل عثمان رضي الله عنه قباث بن أشيم أخا بني يعمر بن ليث أنت أكبر أمَ رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله

---

(١) حسن : رواه ابن إسحاق كما فى " السيرة النبوية " (١٠٢/١) والترمذى (٣٦١٩) وأحمد (٢١٥/٤) والطبرانى فى " الكبير" (٣٤٣/١٨) رقم (٨٧٣) أبو نعيم فى " دلائل النبوة " (١٠١) والحاكم (٦٠٣/٢) وقوله (لِدَيْنِ) يقال فلان : لِدَة فلان إذا وُلِدَ معه فى وقت واحد .

ﷺ أكبر مني وأنا أقدم منه في الميلاد. ورأيت خَزَق الفيل أخضر محيلاً . ورواه الترمذي والحاكم من حديث محمد بن إسحاق به.

قال ابن إسحاق : وكان رسول اللّه ﷺ عام عكاظ ابن عشرين سنة.

وقال ابن إسحاق : كان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة. وكان بناء الكعبة بعد الفجار بخمسة عشر سنة، والمبعث بعد بنائها بخمس سنين. وقال محمد بن جبير بن مطعم : كانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة، وبناء الكعبة بعد عكاظ بعشر سنين، والمبعث بعد بنائها بخمس عشرة سنة. وروى الحافظ البيهقي من حديث عبد العزيز بن أبي ثابت المديني حدثنا الزبير بن موسي عن أبي الحويرث. قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكناني ثم الليثي : يا قباث أنت أكبر أم رسول اللّه ﷺ ؟ قال : رسول اللّه ﷺ أكبر مني، وأنا أسن. ولد رسول اللّه ﷺ عام الفيل، ووقفت بي أمي على روث الفيل محيلا أعقله. وتنبأ رسول اللّه ﷺ على رأس أربعين سنة. وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا يحيى بن عبد اللّه بن بكير، حدثنا نعيم - يعني ابن ميسرة - عن بعضهم عن سويد بن غفلة أنه قال : أنا لِدة رسول اللّه ﷺ ولدت عام الفيل. قال البيهقي : وقد روي عن سويد بن غفلة أنه قال : أنا أصغر من رسول اللّه ﷺ بسنتين. قال يعقوب : وحدثنا إبراهيم بن المنذر؛ حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت، حدثني عبد اللّه بن عثمان بن أبي سليمان النوفلي عن أبيه، عن محمد بن جبير بن مطعم. قال : " ولد رسول اللّه ﷺ عام الفيل، وكانت بعده عكاظ بخمس عشرة سنة، وبني البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل، وتنبأ رسول اللّه ﷺ على رأس أربعين سنة من الفيل " .

والمقصود : أن رسول اللّه ﷺ وُلد عام الفيل على قول الجمهور فقيل : بعده بشهر، وقيل: بأربعين يوماً، وقيل : بخمسين يوماً - وهو أشهر - وعن أبي جعفر الباقر كان قدوم الفيل للنصف من المحرم، ومولد رسول اللّه ﷺ بعده بخمس وخمسين ليلة، وقال آخرون : بل كان عام الفيل قبل مولد رسول اللّه ﷺ بعشر سنين. قاله ابن أبزى. وقيل : بثلاث وعشرين سنة رواه شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده كما تقدم .

وقيل : بعد الفيل بثلاثين سنة. قاله موسي بن عقبة عن الزهري رحمه اللّه. واختاره موسي ابن عقبة أيضا رحمه اللّه. وقال أبو زكريا العجلاني : بعد الفيل بأربعين عاما، رواه ابن عساكر وهذا غريب جدا، وأغرب منه ما قال خليفة بن خياط : حدثني شعيب بن حبان عن عبد الواحد بن أبي عمرو عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال : ولد رسول اللّه ﷺ قبل الفيل بخمس عشرة سنة وهذا حديث غريب ومنكر وضعيف أيضا، قال خليفة بن خياط: والمجتمع عليه أنه عليه السلام ولد عام الفيل.

صفة مولده الشريف عليه الصلاة والسلام

قد تقدم أن عبد المطلب لما ذبح تلك الإبل المائة عن ولده عبد الله حين كان نذر ذبحه فسلمه الله تعالى لما كان قدر في الأزل من ظهور النبي الأمي ﷺ خاتم الرسل، وسيد ولد آدم من صلبه، فذهب كما تقدم فزوجه أشرف عقيلة في قريش : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة الزهرية، فحين دخل بها وأفضى إليها حملت برسول الله ﷺ وقد كانت أم قتال رقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل توسمت ما كان بين عيني عبد الله قبل أن يجامع آمنة من النور، فودت أن يكون ذلك متصلاً بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ وأنه قد أزف زمانه فعرضت نفسها عليه. قال بعضهم : ليتزوجها وهو أظهر والله أعلم . فامتنع عليها، فلما انتقل ذلك النور الباهر إلى آمنة بمواقعته إياها كأنه تندم على ما كانت عرضت عليه. فتعرض لها لتعاوده. فقالت : لا حاجة لي فيك وتأسفت على ما فاتها من ذلك وأنشدت في ذلك ما قدمناه من الشعر الفصيح البليغ. وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ فإنه كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] وقد تقدم الحديث المروي من طريق جيد أنه قال عليه الصلاة والسلام : « ولدت من نكاح لا من سفاح » (١) .

والمقصود : أن أمه حين حملت به توفي أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمه على المشهور. قال محمد بن سعد : حدثنا محمد بن عمر – هو الواقدي –. حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدي. وحدثنا سعيد بن أبي زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال : خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة في عير من عيران قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا فمروا بالمدينة وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال : أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقدموا مكة فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله. فقالوا : خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض. فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث. فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة فرجع إلى أبيه فأخبره، فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجداً شديداً، ورسول الله ﷺ يومئذ حمل. ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفي خمس وعشرون سنة.

قال الواقدي : هذا هو أثبت الأقاويل في وفاة عبد الله وسنه عندنا. قال الواقدي : وحدثني معمر عن الزهري : أن عبد المطلب بعث عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمراً فمات. قال محمد بن سعد : وقد أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، وعن عوانة بن الحكم. قالا : توفي عبد الله بن عبد المطلب بعد ما أتى على رسول الله ﷺ ثمانية وعشرين شهراً. وقيل:

---

(١) سبق تخريجه .

سبعة أشهر. وقال محمد بن سعد : والأول أثبت أنه توفي ورسول اللهﷺ حمل. وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن حسن عن عبد السلام عن ابن خربوذ. قال : توفي عبد الله بالمدينة ورسول اللهﷺ ابن شهرين، وماتت أمه وهو ابن أربع سنين، ومات جده وهو ابن ثمان سنين، فأوصي به إلى عمه أبي طالب. والذي رجحه الواقدي وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه عليه الصلاة والسلام توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه وهذا أبلغ اليتم وأعلي مراتبه. وقد تقدم في الحديث: «ورؤيا أمي الذي رأت حين حمل بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ».

وقال محمد بن إسحاق : فكانت آمنة بنت وهب أم رسول اللهﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت برسول اللهﷺ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي : « أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، من كل بر عاهد وكل عبد رائد، يذود عني ذائد، فإنه عند الحميد الماجد، حتى أراه قد أتى المشاهد ». وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام، فإذا وقع فسميه محمداً. فإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في الإنجيل أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في القرآن محمد. وهذا وذاك يقتضي أنها رأت حين حملت به عليه السلام، كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام. ثم لما وضعته رأت عياناً تأويل ذلك كما رأته قبل ذلك ها هنا والله أعلم.

وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر – هو الواقدي –، حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهري. وقال الواقدي : حدثنا موسى بن عبدة عن أخيه ومحمد بن كعب القرظي. وحدثني عبد الله بن جعفر الزهري عن عمته أم بكر بنت المسود عن أبيها، وحدثنا عبد الرحمن ابن إبراهيم المزني وزياد بن حشرج عن أبي وجزة، وحدثنا معمر عن أبي نجيح عن مجاهد، وحدثنا طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس : دخل حديث بعضهم في حديث بعض. أن آمنة بنت وهب. قالت : لقد علقت به – تعني رسول اللهﷺ – فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب، ثم وقع إلى الأرض معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء. وقال بعضهم : وقع جاثياً على ركبتيه، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رؤيت أعناق الإبل ببصرى ، رافعاً رأسه إلى السماء. وقال الحافظ أبو بكرٌ البيهقي : أنبأنا محمد بن عبد الله الحافظ؛ أنبأنا محمد بن إسماعيل؛ أنبأنا محمد بن إسحاق، حدثنا يونس بن مبشر بن الحسن، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري حدثنا عبد العزيز بن عمران حدثنا عبد الله بن عثمان بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم عن أبيه عن ابن أبي سويد الثقفي عن عثمان بن أبي العاص، حدثتني أمي : أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول اللهﷺ ليلة ولدته، قالت : فما شيء أنظره في البيت إلا نور وإني أنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول ليقعن عليَّ.

وذكر القاضي عياض عن الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف : أنها كانت قابلته وأنها أخبرت به حين سقط على يديها واستهل سمعت قائلا يقول : يرحمك الله، وإنه سطع منه نور رؤيت منه قصور الروم.

قال محمد بن إسحاق : فلما وضعته بعثت إلى عبد المطلب جاريتها – وقد هلك أبوه وهي حبلى، ويقال : إن عبد الله هلك والنبي ﷺ ابن ثمانية وعشرين شهراً فالله أعلم أي ذلك كان– فقالت : قد ولد لك غلام فانظر إليه، فلما جاءها أخبرته وحدثته بما كانت رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت أن تسميه. فأخذه عبد المطلب فأدخله على هبل في جوف الكعبة، فقام عبد المطلب يدعو ويشكر الله عزّ وجلّ ويقول :

الحمدُ لله الذي أعطـــــاني ... هـــــذا الغلامَ الطيِّبَ الأردانِ
قد سادَ في المهدِ على الغلمانِ ... أعيذُه بالبيت ذي الأركـــانِ
حتى يكــــونَ بُلغةَ الفتيانِ ... حتى أراه بالـــغَ البنيـــانِ
أعيــذه من كــل ذي شَنآنَ ... من حاســد مضطرب العنــانِ
ذي همَّة ليس له عينــــانَ ... حتى أراه رافـــعَ اللســـانِ
أنتَ الذي سُمِّيتَ في القرآنِ ... فـــي كتُب ثابتـــة المثانـــي

أحمدُ مكتوبُ على اللسانِ

وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ؛ أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد بن حاتم الدرابودي– بمرو –، حدثنا أبو عبد الله البوشنجي، حدثنا أبو أيوب سليمان بن سلمة الخبائري، حدثنا يونس بن عطاء بن عثمان بن ربيعة بن زياد بن الحارث الصدائي – بمصر –، حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه. قال : ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً، قال : فأعجب جده عبد المطلب وحظي عنده. وقال : ليكونن لابني هذا شأن فكان له شأن [1] . وهذا الحديث في صحته نظر وقد رواه الحافظ ابن عساكر من حديث سفيان بن محمد المصيصي عن هشيم عن يونس بن عبيد عن الحسن عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من كرامتي على الله أني ولدت مختونا ولم ير سوأتي أحد » ثم أورده من طريق الحسن بن عرفة عن هشيم به. ثم أورده من طريق محمد بن محمد بن سليمان – هو الباغندي –، حدثنا عبد الرحمن بن أيوب الحمصي؛ حدثنا موسى بن أبي موسى المقدسي حدثني خالد بن سلمة عن نافع عن ابن عمر. قال : ولد رسول الله ﷺ مسرورا مختونا. وقال أبو نعيم : حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد الغطريفي، حدثنا الحسين بن أحمد بن عبد الله المالكي، حدثنا سليمان بن سلمة الخبائري، حدثنا يونس بن عطاء، حدثنا الحكـــم بن

---

(١) لم يثبت حديث في ولادته ﷺ مختوناً كما قال ابن القيم في " زاد المعاد " (٨١/١) .

أبان، حدثنا عكرمة عن ابن عباس، عن أبيه العباس. قال : ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً، فأعجب ذلك جده عبد المطلب وحظي عنده، وقال : ليكونن لابني هذا شأن، فكان له شأن. وقد ادعي بعضهم صحته لما ورد له من الطرق حتى زعم بعضهم أنه متواتر وفي هذا كله نظر، ومعني مختوناً أي مقطوع الختان، ومسروراً أي مقطوع السرة من بطن أمه. وقد روي الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن عيينة البصري، حدثنا علي بن محمد المدائني السلمي، حدثنا سلمة بن محارب بن مسلم بن زياد عن أبيه عن أبي بكرة أن جبريل ختن النبي ﷺ حين طهر قلبه وهذا غريب جدا . وقد روي : أن جده عبد المطلب ختنه وعمل له دعوة جمع قريشاً عليها والله أعلم.

وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ؛ أنبأني محمد بن كامل القاضي – شفاها – أن محمدًا ابن إسماعيل حدثه – يعني السلمي – حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح عن أبي الحكم التنوخي. قال : كان المولود إذا ولد في قريش دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح يكفأن عليه برمة [1] ، فلما ولد رسول الله ﷺ دفعه عبد المطلب إلى نسوة فكفأن عليه برمة، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة قد انفلقت عنه باثنتين ووجدنه مفتوح العينين شاخصاً ببصره إلى السماء. فأتاهن عبد المطلب فقلن له : ما رأينا مولوداً مثله وجدناه قد انفلقت عنه البرمة، ووجدناه مفتوحا عينيه شاخصا ببصره إلى السماء. فقال : احفظنه فإني أرجو أن يكون له شأن، أو أن يصيب خيراً، فلما كان اليوم السابع ذبح عنه ودعا له قريشا فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنـــا على وجهه ما سميته ؟ قال : سميته محمداً، قالوا : فما رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟. قال : أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض قال أهل اللغة : كل جامع لصفات الخير يسمي محمداً كما قال بعضهم :

إليك – أبيتَ اللعنَ – أعملتُ ناقتي ... إلى الماجدِ القـــرْمِ الكريمِ المحمَّدِ

وقال بعض العلماء : ألهمهم الله عزّ وجلّ أن سموه محمدا لما فيه من الصفات الحميدة ليلتقي الاسم والفعل، ويتطابق الاسم والمسمى في الصورة والمعنى، كما قال عمه أبو طالب ويروى لحسان :

وشَـــــقَّ له مِـــنَ اسمِه ليُجلّــهُ ... فذو العرشِ محمــــودُ وهذا محمدُ

وسنذكرَ أسماءه عليه الصلاة والسلام. وشمائله وهي صفاته الظاهرة وأخلاقه الطاهرة. ودلائل نبوته. وفضائل منـــزلته في آخر السيرة إن شاء الله.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ؛ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن شيبان الرملي؛ حدثنا أحمد بن إبراهيم الحبلي؛ حدثنا الهيثم بن جميل،

(١) برمة : قدر من حجارة .

حدثنا زهير عن محارب بن دنار عن عمرو بن يثربي عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت : يا رسول الله ! دعاني إلى الدخول في دينك أمارة لنبوتك، رأيتك في المهد تناغي القمر وتشير إليه بإصبعك، فحيث أشرت إليه مال قال : « إني كنت أحدثه ويحدثني ويلهيني عن البكاء، وأسمع وجبته[1] حين يسجد تحت العرش». ثم قال : تفرد به الليثي وهو مجهول .

فيما وقع من الآيات ليلة مولده عليه الصلاة والسلام

قد ذكرنا في باب هواتف الجان ما تقدم من خرور كثير من الأصنام ليلتئذ لوجوهها وسقوطها عن أماكنها، وما رآه النجاشي ملك الحبشة، وظهور النور معه حتى أضاءت له قصور الشام حين ولد، وما كان من سقوطه جاثياً رافعاً رأسه إلى السماء، وانفلاق تلك البرمة عن وجهه الكريم، وما شوهد من النور في المنـــزل الذي ولد فيه ودنو النجوم منهم وغير ذلك.

حكى السهيلي عن تفسير بقي بن مخلد الحافظ : أن إبليس رن أربع رنات : حين لعن، وحين أهبط، وحين ولد رسول الله ﷺ وحين أنزلت الفاتحة. قال محمد بن إسحاق : وكان هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة قالت : كان يهودي قد سكن مكة يتجر بها فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺقال في مجلس من قريش : يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم : والله ما نعلمه . فقال : الله أكبر، أما إذا أخطأكم فلا بأس، انظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس. لا يرضع ليلتين ، وذلك أن عفريتاً من الجن أدخل أصبعه في فمه فمنعه الرضاع فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله . فقالوا : قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمدا ، فالتقى القوم . فقالوا : هل سمعتم حديث اليهودي ؟ وهل بلغكم مولد هذا الغلام؟ فانطلقوا حتى جاءوا اليهودي فاخبروه الخبر. قال : فاذهبوا معي حتى أنظر إليه. فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة . فقالوا : أخرجي إلينا ابنك فأخرجته وكشفوا له عن ظهره. فرأي تلك الشامة. فوقع اليهودي مغشياً عليه. فلما أفاق قالوا له : مالك ويلك؟ قال: قد ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل، فَرُحتُم بها يا معشر قريش. والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب.

وقال محمد بن إسحاق : حدثني صالح بن إبراهيم عن يحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة . قال : حدثني من شئت من رجال قومي ممن لا أتهم عن حسان بن ثابت. قال : إني لغلام يفعة ابن سبع سنين – أو ثمان سنين– أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي في يثرب يصرخ

(١) الوجبة : صوتُ الساقط .

ذات غداة يا معشر يهود فاجتمعوا إليه – وأنا أسمع – فقالوا : ويلك مالك ؟ . قال : قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة. وروى الحافظ أبو نعيم في كتاب " دلائل النبوة " من حديث أبي بكر بن عبد الله العامري عن سليمان بن سحيم وذريح بن عبد الرحمن كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه . قال : سمعت أبي مالك بن سنان يقول : جئت بني عبدالأشهل يوما لأتحدث فيهم ونحن يومئذ في هدنة من الحرب، فسمعت يوشع اليهودي يقول: أظل خروج نبي يقال له : أحمد يخرج من الحرم. فقال له ، خليفة بن ثعلبة الأشهلي – كالمستهزئ به : ما صفته ؟ . فقال : رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حمرة يلبس الشملة ويركب الحمار سيفه على عاتقه ، وهذا البلد مهاجره. قال : فرجعت إلى قومي بني خدرة وأنا يومئذ أتعجب مما يقول يوشع فأسمع رجلاً منا يقول ويوشع يقول هذا وحده ؟! كل يهود يثرب يقولون هذا. قال أبي – مالك بن سنان – :فخرجت حتى جئت بني قريظة فأجد جمعاً فتذاكروا النبيﷺ . فقال الزبير بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره ، ولم يبقَ أحدٌ إلا أحمد وهذا مهاجره. قال أبو سعيد : فلما قدم النبيﷺ أخبره أبي هذا . فقال رسول اللهﷺ : «**لو أسلم الزبير لأسلم ذووه من رؤساء اليهود إنما هم له تبع** » وقال أبو نعيم : حدثنا عمر بن محمد حدثنا إبراهيم بن السندي ، حدثنا النضر بن سلمة ، حدثنا إسماعيل بن قيس بن سليمان بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد بن الربيع سمعت زيد بن ثابت يقول : كان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبيﷺ ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي وأنه لا نبي بعده. واسمه أحمد ومهاجره إلى يثرب ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنكروا وأحسدوا وكفروا. وقد أورد هذه القصة الحافظ أبو نعيم في كتابه من طرق أخري ولله الحمد.

وقال أبو نعيم ومحمد بن حبان : حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم ، حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد، قال : قال زيد بن عمرو بن نفيل : قال الموذبان حبر من أحبار الشام : قد خرج في بلدك نبي – أو هو خارج – قد خرج نجمه فأرجع فصدقه واتبعه.

ذكر ارتجاس [1] إيوان كسرى وسقوط الشرفات
وخمود النيران ورؤيا الموبذان وغير ذلك من الدلالات

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب " هواتف الجان " : حدثنا علي بن حرب ، حدثنا أبو أيوب يعلى بن عمران – من آل جرير بن عبد الله البجلي –، حدثني مخزوم بن هانئ المخزومي عن أبيه – وأتت عليه خمسون ومائة سنة – قال : لما كان

(١) ارتجاس : ارتجاف .

الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمدْ قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأي الموبذان إبلا صعاباً تقود خيلا عراباً قد قعطت دجلة وانتشرت في بلادهم، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فتصبر عليه تشجعاً، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره . ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده. قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟ قالوا : لا ، إلا أن يخبرنا الملك، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران فازداد غماً إلى غمه، ثم أخبرهم بما رأي وما هاله، فقال الموبذان : وأنا - أصلح الله الملك - قد رأيت في هذه الليلة رؤيا ثم قص عليه رؤياه في الإبل، فقال أي : شيء يكون هذا يا موبذان ؟ . قال : حدث يكون في ناحية العرب - وكان أعلمهم من أنفسهم - فكتب عند ذلك: من كسري ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر ؛ أما بعد فوجه إليّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغساني، فلما ورد عليه قال له: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه؟. فقال: لتخبرني أو ليسألني الملك عما أحب، فإن كان عندي منه علم وإلا أخبرته بمن يعلم. فأخبره بالذي وجه به إليه فيه. قال : علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام ، يقال له: سطيح . قال : فَأته فاسأله عما سألتك عنه، ثم ائتني بتفسيره. فخرج عبد المسيح حتى انتهي إلى سطيح وقد أشفى على الَضريح. فسلم عليه وكلمه فلم يرد إليه سطيح حواباً فأنشأ يقول :

أصمٌّ أم يسمعُ غطريفَ اليَمــنَ ... أم فــادَ فازَ لم به شأوَ العــنن[1]
يا فاصلَ الخطة أَعَيتْ مَنْ ومن ... أتاكَ شيخُ الحــيِّ مــن آل سنن
وأمُّــه من آلِ ذئب بنِ حجَن ... أزرقُ نهمُ الناب صــرّارُ الأذن[2]
أبيضُ فضفاضُ الرداء والبــدَن ... رسولُ قَيْل العُجْم يسري للوسن[3]
تجوبُ بي الأرضَ علنداةُ شــزِن ... لا يَرْهَبُ الرعدَ ولا رَيبَ الزمن[4]
ترفعني وجنا وتهوي بي وجــن ... حتى أتي عاري الجآجي والقطن[5]
إنه في الريحِ بوغــاءُ الدِّمن ... كأنما حُثحِثَ من حضني ثكن[6]

قال : فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول : عبد المسيح، على جمل مشيح، أتى سطيح وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بني ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا

---

(١) العنن : الجهد والمشقة .
(٢) صرار الأذن : الأذن لها طنين .
(٣) الوسن شدة النوم .
(٤) علنداة شزن : الأرض الصعبة الغليظة .
(٥) الجآجى والقطن : الصدر ما بين الوركين .
(٦) ثكن : جبلُ .

الموبذان، رأي إبلاً صعاباً، تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادها يا عبدالمسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً. يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وكلما هو آت آت. ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول :

شَمِّرْ فإنــَّك ماضـــي العزمِ شـــمِّير	لا يُفزعنّـــك تفـــــــــريقٌ وتغييرُ
إنْ يُمسِ مُلكُ بني ساسان أفرطهم	فإنّ ذا الدهرِ أطــــــــوارٌ دهارير[1]
فــربّما ربّما أضحَــوا بمنــزلــة	يخافُ صَــــــولَهم الأُسْدُ المهاصير
منهم أخو الصَّرح بهرامٌ وإخوتــهُ	والهـــرْمُـــزانُ وشابــــــورٌ وسابور
والناسُ أولادُ عـــلات فمن عَلموا	أنْ قــد أقـــــلَّ فمحقورٌ ومهجورُ
وربّ قـــومٍ لهم صحْبان ذي أُذُن	بدتْ تلهّيهمُ فيـــــــه المزاميـــــرُ
وهـــــم بنو الأم إما إن رأوا نَشَبـــاً	فذاك بالغيب محفــوظٌ ومنصــــــورُ[2]
والخيـــرُ والشرّ مقرونان في قَرَنٍ	فالخيــــرُ متَّبـــــعٌ والشرّ محذورُ

قال : فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قال له سطيح، فقال كسرى : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور، فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافه عثمان رَضي اللّه عنه. ورواه البيهقي من حديث عبد الرحمن بن محمد بن إدريس عن علي بن حرب الموصلي بنحوه.

قلت : كان آخر ملوكهم – الذي سلب منه الملك يزدجرد بن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان وهو الذي انشق الإيوان في زمانه. وكان لأسلافه في الملك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة. وكان أول ملوكهم خيومرت بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح.

أما سطيح هذا فقال الحافظ ابن عساكر في تاريخه : هو الربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن الأزد. ويقال : الربيع ، بن مسعود وأمه ردعا بنت سعد ابن الحارث الحجوري وذكر غير ذلك في نسبه. قال : وكان يسكن الجابية .ثم روي عن أبي حاتم السجستاني قال : سمعت المشيخة منهم أبو عبيدة وغيره . قالوا : وكان من بعد لقمان بن عاد. ولد في زمن سيل العرم ، وعاش إلى ملك ذي نواس ، وذلك نحو من ثلاثين قرناً ، وكان مسكنه البحرين ، وزعمت عبد القيس : أنه منهم ، وتزعم الأزد أنه منهم ، وأكثر المحدثين يقولون : هو من الأزد ولاندري ممن هو ، غير أن ولده يقولون : إنه من الأزد. وروي عن ابن عباس أنه قال: لم يكن شيء من بني آدم يشبه سطيحاً ، إنما كان لحماً على وضم [3] ليس فيه

---

(١) الدهارير : تغيرات الدهور واختلافها .

(٢) النشب : المال .

(٣) الوضم : كل ما يُقطع عليه اللحم .

عظم ولا عصب إلا في رأسه وعينيه وكفيه وكان يطوى كما يطوى الثوب من رجليه إلى عنقه. ولم يكن فيه شيء يتحرك إلا لسانه. وقال غيره : إنه كان إذا غضب انتفخ وجلس. ثم ذكر ابن عباس أنه قدم مكة فتلقاه جماعة من رؤسائهم منهم عبد شمس وعبد مناف أبناء قصي فامتحنوه في أشياء فأجابهم فيها بالصدق، فسألوه عما يكون في آخر الزمان. فقال : " خذوا مني ومن إلهام اللّه إياي : أنتم الآن يا معشر العرب في زمان الهرم سواء بصائركم وبصائر العجم، لا علم عندكم ولا فهم، وينشأ من عقبكم ذوو فهم، يطلبون أنواع العلم فيكسرون الصنم، ويتبعون الردم، ويقتلون العجم، يطلبون الغنم. ثم قال : والباقي الأبد، والبالغ الأمد ليخرجن من ذا البلد، نبي مهتد، يهدي إلى الرشد، يرفض يغوث والفند، يبرأ عن عبادة الضدد، يعبد رباً انفرد، ثم يتوفاه اللّه بخير دار محموداً، من الأرض مفقوداً، وفي السماء مشهوداً، ثم يلي أمره الصديق إذا قضي صدق، وفي رد الحقوق لا خرق ولا نزق [1]، ثم يلي أمره الحنيف، مجرب غطريف [2]، قد أضاف المضيف، وأحكم التحنيف. ثم ذكر عثمان ومقتله وما يكون بعد ذلك من أيام بني أمية ثم بني العباس. وما بعد ذلك من الفتن والملاحم – ساقه ابن عساكر بسنده عن ابن عباس بطوله. وقد قدمنا قوله لربيعة بن نصر ملك اليمن حين أخبره برؤياه قبل أن يخبره بها. ثم ما يكون في بلاد اليمن من الفتن وتغيير الدول حتى يعود إلى سيف بن ذي يزن– فقال له : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ . قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟. قال : نبي زكي، يأتيه الوحي من قبل العلي ، قال : وممن هذا النبي؟ . قال : من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر ، قال : وهل للدهر من آخر؟ . قال : نعم،،يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون ويشقي فيه المسيئون ، قال : أحق ما تخبرني ؟ قال: نعم والشفق والغسق والقمر ، إذا اتسق ، إنّ ما أنبأتك عليه لحق ". ووافقه على ذلك شق سواء بسواء بعبارة أخري كما تقدم.ومن شعر سطيح قوله:

عليكم بتقوى اللّه في السرّ والجهْر ولا تُلبسوا صدْقَ الأمانـة بالغَـــدْر
وكونوا لجارِ الجنْبِ حِصناً وُجُنَّةً[4] إذا ما عَرتـهُ النائباتُ [3] مـن الــدهر

وروي ذلك الحافظ بن عساكر ؛ ثم أورد ذلك المعافي بن زكريا الجريري فقال: وأخبار سطيح كثيرة وقد جمعها غير واحد من أهل العلم. والمشهور أنه كان كاهناً وقد أخبر عن النبي ﷺ وعن نعته ومبعثه. وروى لنا بإسناد اللّه به أعلم أن النبي ﷺ سئل عن سطيح فقال: « **نبي ضيعه قومه**» .

---

(١) نزق : سفه .
(٢) غطريف : السيد الشريف .
(٣) الجُنَّةَ : الدرع والوقاية .
(٤) النائبات : واحدها النائبة المصيبة و « نائبات الدهر » مصائبه ونوازله .

قلت : أما هذا الحديث فلا أصل له في شيء من كتب الإسلام المعهودة ولم أره بإسناد أصلا. ويروى مثله في خبر خالد بن سنان العبسي ولا يصح أيضاً وظاهر هذه العبارات تدل على علم جيد لسطيح ، وفيها روائح التصديق لكنه لم يدرك الإسلام كما قال الجريري. فإنه قد ذكرنا في هذا الأثر أنه قال لابن أخته : يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً يملك منهم ملوك. وملكات، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت ، ثم قضى سطيح مكانه ، وكان ذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بشهر – أو شية – أي أقل منه – وكانت وفاته بأطراف الشام مما يلي أرض العراق – فالله أعلم بأمره وما صار إليه. وذكر ابن طرار الحريري أنه عاش سبعمائة سنة. وقال غيره : خمسمائة سنة، وقيل : ثلاثمائة سنة فالله أعلم. وقد روى ابن عساكر : أن ملكاً سأل سطيحاً عن نسب غلام اختلف فيه فأخبره على الجلية في كلام طويل مليح فصيح. فقال له الملك : يا سطيح ألا تخبرني عن علمك هذا ؟ . فقال : إنّ علمي هذا ليس مني ولا بجزم ولا بظن ، ولكن أخذته عن أخ لي قد سمع الوحي بطور سيناء. فقال له: أرأيت أخاك هذا الجني أهو معك لا يفارقك ؟ . فقال : إنه ليزول حيث أزول، ولا أنطق إلا بما يقول. وتقدم: أنه ولد هو وشق بن مصعب بن يشكر بن رهم بن بسر بن عقبة الكاهن الآخر ولدا في يوم واحد، فحملا إلى الكاهنة طريفة بنت الحسين الحميدية فتفلت في أفواههما فورثا منها الكهانة وماتت من يومها. وكان نصف إنسان . ويقال : إن خالد بن عبد الله القسري من سلالته، وقد مات شق قبل سطيح بدهر.

وأما عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن نفيلة الغساني النصراني فكان من المعمرين، وقد ترجمه الحافظ بن عساكر في تاريخه ، وقال : هو الذي صالح خالد بن الوليد على [1]. وذكر له معه قصة طويلة وأنه أكل من يده سم ساعة فلم يصبه سوء لأنه لما أخذه قال : " بسم الله وبالله رب الأرض والسماء الذي لا يضر مع اسمه أذى. ثم أكله فعلته غشية فضرب بيديه على صدره ثم عرق وأفاق رَضِي الله عنه وَذكر لعبد المسيح أشعاراً غير ما تقدم.

وقال أبو نعيم : حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبه ، حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا المسيب بن شريك ، حدثنا محمد بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده. قال : كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعي عيصاً من أهل الشام وكان متخفرا بالعاص بن وائل ، وكان الله قد آتاه علماً كثيراً ، وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طيب ورفق وعلم. وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة في كل سنة فيلقي الناس ويقول: إنه يوشك أن يولد فيكم مولود ، يا أهل مكة يدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه،

(١) بياض في الأصل .

ومن أدركه واتبعه أصاب حاجته ، ومن أدركه فخالفه أخطأ حاجته ، وباللّٰه ما تركت أرض الخمر والخمير والأمن ولا حللت بأرض الجوع والبؤس والخوف إلا في طلبه ، وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه فيقول ما جاء بعد. فيقال له : فصفه فيقول : لا. ويكتم ذلك للذي قد علم أنه لاق من قومه مخافة على نفسه أن يكون ذلك داعية إلى أدني ما يكون إليه من الأذي يوماً. ولماكان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول اللّٰه ﷺ خرج عبد اللّٰه بن عبد المطلب حتى أتى عيصا فوقف في أصل صومعته ثم نادي : يا عيصاه. فناداه : من هذا ؟ . فقال : أنا عبداللّٰه، فأشرف عليه ، فقال : كن اباه ، فقد ولد المولود الذي كنت أحدثكم عنه يوم الإثنين، ويبعث يوم الإثنين ، ويموت يوم الإثنين ؛ قال : فإنه قد ولد لي مع الصبح مولود. قال فما سميته؟ . قال : محمداً ، قال : واللّٰه لقد كنت أشتهي أن يكون هذا المولود فيكم أهل البيت لثلاث خصال نعرفه بها منها ، أنّ نجمه طلع البارحة ، وأنه ولد اليوم ، وأن اسمه محمد. انطلق إليه فإن الذي كنت أخبركم عنه ابنك. قال : فما يدريك أنه ابني ولعله أن يولد في هذا اليوم مولود غيره ؟ . قال : قد وافق ابنك الاسم ولم يكن اللّٰه ليشبه علمه على العلماء فإنه حجة. وآية ذلك أنه الآن وجع فيشتكي أياماً ثلاثة، فيظهر به الجوع ثلاثاً . ثم يعافي. فاحفظ لسانك فإنه لم يحسد أحد حسده قط ولم يبغ على أحد كما يبغي عليه. أن تعش حتى يبدو مقاله . ثم يدعو لظهر لك من قومك ما لا تحتمله إلا على صبر وعلي ذل فاحفظ لسانك ودار عنه . قال: فما عمره ؟ . قال : إن طال عمره وإن قصر لم يبلغ السبعين، يموت في وتر دونها من الستين في إحدى وستين أو ثلاث وستين في أعمار جل أمته. قال : وحمل برسول اللّٰه ﷺ في عاشر المحرم. وولد يوم الإثنين لثنتي عشرة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل هكذا رواه أبو نعيم وفيه غرابة.

حواضنه ومراضعه عليه الصلاة والسلام

كانت أم أيمن واسمها بركة تحضنه، وكان قد ورثها عليه الصلاة والسلام من أبيه فلما كبر اعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة، فولدت له أسامة بن زيد رَضي اللّٰه عنهم. وأرضعته مع أمه عليه الصلاة والسلام مولاة عمه أبي لهب ثويبة قبل حليمة السعدية. أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث الزهري عن عروة بن الزبير عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبية بنت أبي سفيان. قالت : يا رسول اللّٰه أنكح أختي بنت أبي سفيان – ولمسلم عزة بنت أبي سفيان – فقال رسول اللّٰه ﷺ : « **أو تحبين ذلك ؟** » قلت : نعم ! لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال النبي ﷺ : « **فإن ذلك لا يحل لي** » قلت : فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة – وفي رواية درة بنبت أبي سلمة قال « **بنت أم سلمة ؟** » قلت: نعم ، . قال : « إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي. إنها لابنة أخي من الرضاعة ارضعتني وأبا

سلمة ثوبية. فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن » [(١)] زاد البخاري قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر خيبة. فقال له : ماذا لقيت؟ . فقال أبو لهب : لم ألق بعدكم خيراً غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثوبية - وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

وذكر السهيلي وغيره : أن الرائي له هو أخوه العباس. وكان ذلك بعد سنة من وفاة أبي لهب بعد وقعة بدر. وفيه أن أبا لهب بعد وقعة بدر. وفيه أن أبا لهب قال للعباس: إنه ليخفف على في مثل يوم الاثنين. قالوا : لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله أعتقها من ساعته فجوزي بذلك لذلك.

رضاعه عليه الصلاة والسلام

من حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية وما ظهر عليه من البركة وآيات النبوة

قال محمد بن إسحاق : فاسترضع له عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبي ذؤيب، واسمه عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر قال واسم أبي - رسول الله ﷺ الذي أرضعه - يعني زوج حليمة ، الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن. وأخوته عليه الصلاة والسلام- يعني من الرضاعة - عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة بنت الحارث ، وهي " الشيماء " . وذكروا : أنها كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمه إذ كان عندهم.

قال ابن إسحاق : حدثني جهم بن أبي جهم مولى لامرأة من بني تميم كانت عند الحارث ابن حاطب، ويقال له : مولى الحارث بن حاطب. قال : حدثني من سمع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال : حدثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت : قدمت مكة في نسوة ، وذكر الواقدي بإسناده أنهن كن عشرة نسوة من بني سعد بن بكر ، يلتمسن بها الرضعاء من بني سعد، نلتمس بها الرضعاء في سنة شهباء [(٢)] فقدمت على أتان لي قمراء ، كانت أذمّت بالركب[(٣)] ومعي صبي لنا وشارف لنا والله ما تبض بقطرة. وما ننام ليلتنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك ما نجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه. ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً. فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل : إنه يتيم تركناه . قلنا :

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٥١٠١) ومسلم (١٦/١٤٤٩) .

(٢) سنة شهباء : لا خضرة فيها ولا مطر .

(٣) أذمَّت بالركب : أى جاءت بما تذم عليه . أو يكون من قولهم : بئر ذمَّة أى قليلة الماء .

ماذا عسي أن تصنع إلينا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ؟ ؛ فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري. فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع. لا نطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. فقال : لا عليك أن تفعلي فعسي أن يجعل الله لنا فيه بركة. فذهبت فأخذته فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن. فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي. وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا. فبتنا بخير ليلة فقال صاحبي حين أصبحنا : يا حليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة. ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ؟ فلم يزل الله عزّ وجلّ يزيدنا خيراً. ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى مايتعلق بها حمار ، حتى إن صواحبي ليقلن: ويلك يا بنت أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا ؟ . فأقول : نعم ، والله إنها لهي ، فقلن : والله إن لها لشأناً. حتى قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضنا من أرض الله أجدب منها فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبنا فتحلب ما شئنا وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن ، وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى إنهم ليقولون لرعاهم – أو لرعيانهم – : ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم. فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعا ما فيها قطرة لبن وتروح أغنامي شباعاً لبناً نحلب ما شئنا. فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شباباً لا تشبّه الغلمان. فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً [(١)] فقدمنا به على أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة. فلما رأته أمه قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى فإنا نخشي عليه وباء مكة. فوالله ما زلنا بها حتى قالت : نعم. فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بهم لنا جاء أخوه ذلك يشتد فقال : ذاك أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتقعا لونه. فاعتنقه أبوه ، وقال : يا بني ما شأنك ؟ . قال : « **جاءني رجلان عليهما ثياب بيض أضجعاني وشقا بطني . ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه . ثم رداه كما كان فرجعنا به معنا .** » فقال أبوه ياحليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا نرده إلى أهله ، قبل أن يظهر به ما نتخوف. قالت حليمة : فاحتملناه فلم ترع أمه إلا به. فقدمنا به عليهما . فقالت : ما ردكما به يا ظئر [(٢)] فقد كنتما عليه حريصين ؟ . فقالا : لا ، والله إلا أن الله قد أدّى عنا وقضينا الذي علينا وقلنا : نخشي الإتلاف والأحداث نرده إلى أهله. فقالت : ما ذاك بكما فأصدقاني

(١) جفراً : قويا على الأكل .

(٢) ظئر : العاطفة على غيرها ، والمرضعة له .

شأنكما ؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره» . فقالت : أخشيتما عليه الشيطان، كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل. والله إنه لكائن لابني هذا شأن ألا أخبركما خبره؟ قلنا بلى ! قالت : حملت به فما حملت حملاً قط أخف منه فأريت في النوم حين حملت به ، كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام ؛ ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود، معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء، فدعاة عنكم. وهذا الحديث قد روي من طرق أخر وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي.

وقال الواقدي : حدثني معاذ بن محمد عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : خرجت حليمةُ تطلب النبي ﷺ وقد وجدت البهم تقيل فوجدته مع أخته . فقالت : في هذا الحر ؟ . فقالت أخته: يا أمه ما وجد أخي حراً. رأيت غمامة تظلل عليه إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت ، حتى انتهى إلى هذا الموضع.

وقال ابن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له : أخبرنا عن نفسك قال : « **نعم أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بهم [1] لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً ، فاضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها. ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا ألقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم ، ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم، فقال : دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم** » [2] وهذا إسناد جيد قوي.

وقد روى أبو نعيم الحافظ في " الدلائل " من طريق عمر بن الصبح وهو أبو نعيم عن نور ابن يزيد عن مكحول عن شداد بن أوس هذه القصة مطولة جداً ولكن عمر بن صبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع. فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يفرح به ثم قال : وحدثنا أبوعمرو بن حمدان ، حدثنا الحسن بن نفير ، حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا بقية بن الوليد عن بحير بن سعيد ، عن خالد بن معدان ، عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي ، عن عتبة بن عبدالله: أنه حدّثه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : فكيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ . قال : « **كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم نأخذ معنا زاداً ، فقلت يا أخي : اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا فانطلق أخي ومكثت عند البهم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ . فقال : نعم ! فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي**

---

(١) بَهم : أولاد الضأن والمعز .

(٢) حسن :رواه ابن إسحاق كما فى " السيرة النبوية " لابن هشام (١ / ١٠٥ ، ١٠٦) والحاكم (٢ / ٦٠٠) والبيهقى فى " الدلائل " (١ / ٨٣ ، ٨٤) .

فشقاه. فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه : ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي ، ثم قال : ائتني بماء برد فغسلا به قلبي ثم قال : ائتني بالسكينة فذرها في قلبي ثم قال أحدهما لصاحبه : خطه فخاطه وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه : اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر علي بعضهم. فقال : لو أن أمته وزنت به لمال بهم ، ثم انطلقا فتركاني ، وفرقت فرقاً شديداً، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت فأشفقت أن يكون قد لبس بي ، فقالت : أعيذك بالله. فرحلت بعيراً لها وحملتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقال : أديت أمانتي وذمتي وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها. وقالت : إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام»[1]

ورواه أحمد من حديث بقية ابن الوليد به. وهكذا رواه عبد الله بن المبارك وغيره عن بقية بن الوليد به. وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي داود الطيالسي حدثنا جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشي أخبرني عمير بن عمر بن عروة ابن الزبير. قال: سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبي ذر الغفاري قال : قلت : يا رسول الله : كيف علمت أنك نبي حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبي ؟ قال : « يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة فوقع أحدهما على الأرض، وكان الآخر بين السماء والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ . قال : هو هو. قال : زنه برجل فوزنني برجل فرجحته » وذكر تمامه، وذكر شق صدره وخياطته وجعل الخاتم بين كتفيه قال : « فما هو إلا أن وليا عني فكأنما أعاين الأمر معاينة » ثم أورد ابن عساكر عن أبي بن كعب بنحو ذلك. ومن حديث شداد بن أوس بأبسط من ذلك. وثبت في صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء ، فقال : هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طشت من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعني ظئره – فقالوا : إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس : وقد كنت أري أثر ذلك المخيط في صدره [2] . وقد رواه ابن عساكر من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث ، عن عبد ربه بن سعيد ، عن ثابت البناني ، عن أنس أن الصلاة فرضت بالمدينة، وأن ملكين أتيا رسول الله ﷺ فذهبا به إلى زمزم فشقا بطنه فأخرجا حشوته في طشت من ذهب فغسلاه بماء زمزم ثم لبسا جوفه حكمة وعلماً. ومن طريق ابن وهب أيضا عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهري ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن عامر بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس قال : أتي رسول الله ﷺ ثلاث ليال قال : خذوا خيرهم وسيدهم، فأخذوا رسول الله ﷺ فعمد به إلى زمزم فشق جوفه ، ثم أتي بتور من ذهب فغسل جوفه ، ثم ملئ حكمة وإيماناً. وثبت من رواية سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس. وفي الصحيحين من طريق

---

(١) حسن : رواه أحمد (٤ / ١٨٤ ، ١٨٥) والدارمى (١/ ٢٠) رقم (١٣) والحاكم (٢ / ٦١٦) .

(٢) رواه مسلم (١٦٢/٢٦١) .

شريك بن أبي نمر عن أنس وعن الزهري ، عن أنس ، عن أبي ذر وقتادة ، عن أنس ، وعن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ في حديث الإسراء كما سيأتي قصة شرح الصدر ليلتئذ وإنه غسل بماء زمزم، ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرتين مرة وهو صغير ومرة ليلة الإسراء ليتأهب للوفود إلى الملأ الأعلي ولمناجاة الرب عزّ وجلّ والمثول بين يديه تبارك وتعالي[1] .

وقال ابن إسحاق : وكان رسول اللّه ﷺ يقول لأصحابه : « **أنا أعربكم، أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر** »[2] وذكر ابن إسحاق : أن حليمة لما أرجعته إلى أمه بعد فطامه مرت به على ركب من النصارى ، فقاموا إليه عليه الصلاة والسلام فقلبوه ، وقالوا : إنا سنذهب بهذا الغلام إلى ملكنا فإنه كائن له شأن ، فلم تكد تنفلت منهم إلا بعد جهد. وذكر : أنها لما ردته حين تخوفت عليه أن يكون أصابه عارض، فلما قربت من مكة افتقدته فلم تجده فجاء جده عبد المطلب فخرج هو وجماعة في طلبه، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به جده، فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوذه ويدعو له ثم رده إلى أمة آمنة .

وذكر الأموي من طريق عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي – وهو ضعيف – عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب قصة مولده عَليه الصلاة والسلام وَرضاعه من حليمة على غير سياق محمد ابن إسحاق. وذكر : أنّ عبد المطلب أمر ابنه عبد اللّه أن يأخذه فيطوف به في أحياء العرب ليتخذ له مرضعة ، فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعه . وذكر : أنه أقام عندها ست سنين تزيره جده في كل عام فلما كان من شق صدره عندهم ما كان ردته إليهم . ، فأقام عند أمه حتى كان عمره ثماني سنين ماتت فكفله جده عبد المطلب فمات ، وله عليه الصلاة والسلام عشر سنين ، فكفله عماه شقيقا أبيه الزبير وأبو طالب، فلما كان له بضع عشرة سنة خرج مع عمه الزبير إلى اليمن. فذكر : أنهم رأوا منه آيات في تلك السفرة ، منها أن فحلاً من الإبل كان قد قطع بعض الطريق في واد ممرهم عليه فلما رأى رسول اللّه ﷺ برك حتى حك بكلكله[3] الأرض فركبه عليه الصلاة والسلام. ومنها أنه خاض بهم سيلاً عرماً فأيبسه اللّه تعالى حتى جاوزوه ؛ ثم مات عمه الزبير وله أربع عشرة سنة فانفرد به أبو طالب.

والمقصود أن بركته عليه الصلاة والسلام حلت على حليمة السعدية وأهلها وهو صغير ؛ ثم عادت على هوازن بكمالهم فواضله حين أسرهم بعد وقعتهم ، وذلك بعد فتح مكة بشهر . فمتوا إليه برضاعه فأعتقهم وتحنن عليهم وأحسن إليهم كما سيأتي مفصلا في موضعه إن شاء اللّه تعالي .

---

(١) رواه مسلم (١٦٢/٢٦٠) .

(٢) **ضعيف** : رواه ابن إسحاق كما فى " السيرة النبوية " لابن هشام (١ / ١٠٦) بدون إسناد. ورواه ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدى مرسلاً كما فى " كشف الخفاء " (١ / ٢٣٢) وكنــز العمال (٣١٨٨٤) .

(٣) الكلكل : الصدر .

قال محمد بن إسحاق: في وقعة هوازن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال: كنا مع رسول اللّه ﷺ بحنين فلما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول اللّه إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا منَّ اللّه عليك. وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول اللّه إن ما في الحظائر [1] من السبايا خالاتك وحواضنك [2] اللاتي كن يكفلنك، فلو أنَّا أملحنا [3] ابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهم مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت خير المكفولين. ثم أنشد:

أُمْنُنْ علينا رسولَ اللّه في كَرَمٍ ... فإنّك المرءُ نرجوهُ وندّخر
امننْ على بيضة قد عاقَها قَدَرٌ ... ممزَّقٌ شَمْلُها في دَهْرِها غيرُ [4]
أبقتْ لنا الدهرَ هتّافاً على حَزَنٍ ... على قلوبهم الغَمّاءُ والغَمَرُ
إن لم تَداركَها نعماءُ تنشرُها ... يا أرجحَ الناسِ حِلماً حين يُخْتَبَرُ
امْنُنْ على نسوةٍ قد كنتَ تَرضعُها ... إذ فُوكَ يملؤُه من محضها دَرَرُ
امْنُنْ على نِسْوَةٍ قد كنتَ تَرْضَعها ... وإذ يَزينُك ما تأتي وما تذَرُ
لا تجعلَنّا كَمَنْ شَالَتْ نَعامتُهُ ... واستبْقِ منّا فإنَّا معشر زُهُرُ
إنَا لَنَشْكُرُ للنّعمى وإنْ كفرتْ ... وَعِندَنا بعدَ هذا اليومِ مدَّخَرُ

وقد رويت هذه القصة من طريق عبيد اللّه بن رماحس الكلبي الرملي ، عن زياد بن طارق الجشمي ، عن أبي صرد زهير بن جرول - وكان رئيس قومه - قال : لما أسرنا رسول اللّهﷺ يوم حنين فبينا هو يميز بين الرجال والنساء وثبتُ حتى قعدت بين يديه أسمعته شعراً، أذكره حين شب ونشأ في هوازن حيث أرضعوه :

أُمْنُنْ علينا رسولَ اللّه في دعة ... فإنّك المرءُ نرجوهُ وننتظرُ
امْنُنْ على بيضة قد عاقَها قَدَرٌ ... ممزَّقٌ شَمْلُها في دهرها غيرُ
أبْقَتْ لنا الحربُ هتّافاً على حَزَنٍ ... على قلوبهم الغّماءُ والغمرُ
إن لم تَداركَها نعماءُ تنشرُها ... يا أرجحَ الناسِ حِلماً حين يُختبرُ
امننْ على نسوةٍ قد كنتَ تَرضعُها ... إذ فُوكَ تملؤُه مَن محضها الدَرر
إذ أنت طفلٌ صًغيرٌ كنتَ تَرْضَعها ... وإذ يَزينُك ما تأتي وما تذَرُ
لا تجعَلنا كَمَنْ شَالَتْ نَعامتُه ... واستبْقِ منّا فانا معشر زُهُر
إنَّا لنشكُرُ للنّعمى وإنْ كفرتْ ... وعندَنا بعدَ هذا اليوم مدَّخرُ

(١) الحظائر : جمع حظيرة وأصلها ما يضع للإبل والغنم ليكفها ويمنعها من الإفلات .
(٢) حواضنك : يقصد حليمة السعدية فهى من بنى سعد بن بكر وهم من هوازن .
(٣) أملحنا : أى أرضعنا .
(٤) بيضة : جارية .

فألْبَسِ العفــو مَن قد كنتَ تَرضَعه ... مــن أمهــاتكَ إنَ العفوَ مشتَــهرُ
إنّــا نؤمّــــلُ عفــــواً منْكَ تُلبسه ... هــذي البريّــةَ إذ تعفــــو وتنتصرُ
فاغفِــــرْ عَفَا اللّهُ عما أنتَ راهبُـــه ... يومَ القيامةِ إذ يُهــدى لك الظَفَرُ

قال : فقال رسول اللّه ﷺ : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو للّه ولكم » فقالت الأنصار : وما كان لنا فهو للّه ولرسوله ﷺ. [1] وسيأتي أنه عليه الصلاة والسلام أطلق لهم الذرية وكانت ستة آلاف ما بين صبي وامرأة، وأعطاهم أنعاماً وأناسي كثيراً. حتى قال أبوالحسن بن فارس : فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذ خمسمائة ألف درهم. فهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا، فكيف ببركته على من اتبعه في الدار الآخرة .

فصل في رجوعه إلى أمه ووفاتها وذكر زيارته في قبرها

قال ابن إسحاق : بعد ذكر رجوعه عليه الصلاة والسلام إلى أمه آمنة بعد رضاعة حليمة له ، فكان رسول اللّه ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، وجده عبد المطلب في كلاءة اللّه وحفظه، ينبته اللّه نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب.

قال ابن إسحاق : حدثني عبد اللّه بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن أم رسول اللّه ﷺ أمنة توفيت وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيره إياهم. فماتت وهي راجعة به إلى مكة. وذكر الواقدي بأسانيده أن النبي ﷺ خرجت به أمه إلى المدينة ومعها أم أيمن وله ست سنين، فزارت أخواله. قالت أم أيمن : فجاءني ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا لي : أخرجي إلينا أحمد ننظر إليه، فنظرا إليه وقلباه ، فقال أحدهما لصاحبه : هذا نبي هذه الأمة وهذه دار هجرته، وسيكون بها من القتل والسبي أمر عظيم. فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به، فماتت بالأبواء وهي راجعة وقد قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ؛ حدثنا أيوب بن جابر عن سماك ، عن القاسم ابن عبد الرحمن ، عن ابن بريدة عن أبيه قال : خرجنا مع رسول اللّه ﷺ حتى إذا كنا بِوَدَّان قال : « مكانكم حتى آتيكم » فانطلق ثم جاءنا وهو ثقيل، فقال: « إني أتيت قبر أم محمد فسألت ربي الشفاعة – يعني لها – فمنعنيها، وإني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، وكنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام فكلوا وامسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن الأشربة في هذه الأوعية فاشربوا ما بدا لكم » [2] وقد رواه البيهقي من طريق سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان ، ابن بريدة عن أبيه قال : انتهي النبي ﷺ إلى رسم قبر فجلس وجلس الناس حوله، فجعل يحرك رأسه

---

(١) حسن : رواه ابن إسحاق كما فى " السير النبوية " لابن هشام (٤ / ٨٨ ، ٨٩) وأحمد (٢ / ١٨٤) والنسائى (٢ / ١٣٣) والبيهقى فى " السنن" (٦ / ٣٣٦ ، ٣٣٧) والطبرانى فى "تاريخه" (٣ / ٨٦ ، ٨٧) .

(٢) ضعيف : رواه أحمد (٥ / ٣٥٦ ، ٣٥٧) وفى سنده أيوب بن جابر السحيمى وهو ضعيف .

كالمخاطب . ثم بكى فاستقبله عمر ، فقال : ما يبكيك يا رسول الله ؟ . قال : « **هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فأبي علي، وأدركتني رقتها فبكيت** ». قال : فما رؤيت ساعة أكثر باكيا من تلك الساعة [1]. تابعه محارب بن دثار عن بريدة عن أبيه. ثم روى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن بحر بن نصر ، عن عبد الله بن وهب؛ حدثنا ابن جريج عن أيوب بن هاني ، عن مسروق بن الأجدع ، عن عبد الله بن مسعود. قال : خرج رسول الله ﷺ ينظر في المقابر وخرجنا معه، فأمرنا فجلسنا ثم تخطي القبور حتى انتهي إلى قبر منها - فناجاه طويلا . ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكياً فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ ثم إن رسول الله ﷺ أقبل علينا فتلقاه عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ . لقد أبكانا وأفزعنا. فجاء فجلس إلينا فقال : « **أفزعكم بكائي ؟** » قلنا : نعم ! قال : « إن القبر الذي رأيتموني أناجي قبر آمنة بنت وهب، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي، واستأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه، ونزل على : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ولَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ . ومَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وعَدَهَا إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إنَّ إبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** ﴾ [التوبة : ١١٣ ، ١١٤] **فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة فذلك الذي أبكاني** » [2] غريب و لم يخرجوه. وروى مسلم عن أبي بكر ابن أبي شيبة ، عن محمد بن عبيد ، عن يزيد بن كيسان ، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : زار النبي ﷺ قبر أمه فبكي وأبكى من حوله ؛ ثم قال : « **استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور تذكركم الموت** »[3].

وروي مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت عن أنس أن رجلا قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: « **في النار** » فلما قفا دعاه فقال : « **إن أبي وأباك في النار** »[4].

وقد روى البيهقي من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين عن إبراهيم بن سعد عن الزهري ، عن عامر بن سعد عن أبيه. قال : جاء أعرابيٌ إلى النبي ﷺ : فقال إن أبي كان يصل الرحم، وكان، وكان، فأين هو ؟ قال : « **في النار** » قال: فكأن الأعرابي وجد من ذلك، فقال: يا رسول الله أين أبوك ؟ . قال : « **حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار** » قال : فأسلم الأعرابي بعد ذلك . فقال : لقد كلفني رسول الله ﷺ تبعاً ، مامررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار [5]. غريب و لم يخرجوه من

---

(١) **صحيح** : رواه البيهقى فى " الدلائل " (١ / ١٨٩) .

(٢) **ضعيف** : رواه البيهقى فى " الدلائل " (١ / ١٨٩ ، ١٩٠)

(٣) رواه مسلم (٩٧٦/١٠٥) .

(٤) رواه مسلم (٢٠٣/٣٤٧) .

(٥) **صحيح** : رواه البيهقى فى " الدلائل " (١ / ١٩١ ، ١٩٢) والطبرانى فى " الكبير " (١ / ١٤٥) رقم (٣٢٦) والبزار (٩٣ - كشف) وابن السنى فى " عمل اليوم والليلة " (٥٨٨) والضياء فى "الأحاديث المختارة " (١ / ٣٣٣) .

هذا الوجه. وقال الإمام أحمد :حدثنا أبو عبد الرحمن ؛ حدثنا سعيد – هو ابن أبي أيوب – حدثنا ربيعة بن سيف المعافري ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد اللّٰه بن عمرو. قال : بينما نحن نمشي مع رسول اللّٰه ﷺ إذ بصر بامرأة لا يظن أنه عرفها، فلما توسط الطريق وقف حتى انتهت إليه، فإذا فاطمة بنت رسول اللّٰه ﷺ فقال: « **ما أخرجك من بيتك يا فاطمة ؟** ». فقالت : أتيت أهل هذا البيت فترحمت إليهم ميتهم وعزيتهم. قال: « **لعلك بلغت معهم الكدى** » [1] قالت : معاذ اللّٰه أن أكون بلغتها معهم وقد سمعتك تذكر في ذلك ما تذكر. قال : « **لو بلغتيها معهم مارأيت الجنة حتى يراها جد أبيك** » [2] ثم رواه أحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي من حديث ربيعة بن سيف بن ماتع المعافري الصنمي الإسكندري، وقد قال البخاري: عنده مناكير. وقال النسائي : ليس به بأس وقال مرة: صدوق، وفي نسخة ضعيف. وذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان يخطئ كثيراً ، وقال الدارقطني : صالح . وقال ابن يونس في تاريخ مصر: في حديثه مناكير توفي قريباً من سنة عشرين ومائة، والمراد بالكدي القبور – وقيل: – النوح –.

والمقصود أن عبد المطلب مات على ما كان عليه من دين الجاهلية خلافاً لفرقة الشيعة فيه، وفي ابنه أبي طالب على ما سيأتي في وفاة أبي طالب، وقد قال البيهقي – بعد روايته هذه الأحاديث في كتابه " دلائل النبوة " : وكيف لا يكون أبواه وجده عليه الصلاة والسلام بهذه الصفة في الآخرة وقد كانوا يعبدون الوثن، حتى ماتوا ولم يدينوا دين عيسى ابن مريم عليه السلام، وكفرهم لا يقدح في نسبه عليه الصلاة والسلام لأن أنكحة الكفار صحيحة. ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم فلا يلزمهم تجديد العقد ولا مفارقتهن إذا كان مثله يجوز في الإسلام وباللّٰه التوفيق. انتهى كلامه.

قلت : وأخباره ﷺ عن أبويه وجده عبد المطلب بأنهم من أهل النار لا ينافي الحديث الوارد عنه من طرق متعددة ، أنّ أهل الفترة والأطفال والمجانين والصم يمتحنون في العرصات يوم القيامة، كما بسطناه سنداً ومتناً في تفسيرنا عند قوله تعالى : ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء :١٥] فيكون منهم من يجيب ومنهم من لا يجيب. فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب فلا منافاة وللّٰه الحمد والمنة.

وأما الحديث الذي ذكره السهيلي وذكر أن في إسناده مجهولين إلى ابن أبي الزناد عن عروة عن عائشة – رضي اللّٰه عنها – أن رسول اللّٰه ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه ، فأحياهما وآمنا به،

---

(١) الكدى : المقصود هنا المقابر .

(٢) **ضعيف** : رواه أحمد (٢ / ١٦٩) وأبو داود (٣١٢٣) والنسائى (٤ / ٢٧) والحاكم (١ / ٣٧٣) والبيهقى فى " الدلائل " (١ / ١٩٢) وفى سنده ربيعة بن سيف بن ماتع وهو يروى مناكير والحديث ضعفه النسائى .

فإنه حديث منكر جدا . وإن كان ممكناً بالنظر إلى قدرة الله تعالى. لكن الذي ثبت في الصحيح يعارضه والله أعلم .

فصل في كونه ﷺ بعد وفاة أبويه مع جده عبد المطلب وعمه أبي طالب

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم – يعني بعد موت أمه آمنة بنت وهب – فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له. قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه. فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه. فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع. وقال الواقدي : حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري ؛ وحدثنا عبد الله ابن جعفر عن عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله. ، وحدثنا هاشم بن عاصم الأسلمي عن المنذر ابن جهم. ، وحدثنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد. ، وحدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز عن أبي الحويرث. ، وحدثنا ابن أبي سبرة عن سليمان بن سحيم عن نافع عن ابن جبير – دخل حديث بعضهم في بعض – قالوا : كان رسول الله ﷺ يكون مع أمه آمنة بنت وهب، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه ويدخل عليه إذا نام. وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك : دعوا ابني إنه يؤسس ملكاً.

وقال قوم من بني مدلج لعبد المطلب: احتفظ به فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم الذي في المقام منه. فقال عبد المطلب لأبي طالب : اسمع ما يقول هؤلاء ! فكان أبو طالب يحتفظ به. وقال عبد المطلب لأم أيمن – وكانت تحضنه –: يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني وجدته مع غلمان قريب من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة. وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول عليَّ بابني فيؤتى به إليه.

فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته . ثم مات عبد المطلب ودفن بالحجون.

وقال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمان سنين هلك جده عبد المطلب بن هاشم. ثم ذكر جمعه بناته وأمره إياهن أن يرثينه. وهن : أروى . وأميمة، . وبرة، . وصفية، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء . وذكر أشعارهن وما قلن في رثاء أبيهن وهو يسمع قبل موته وهذا أبلغ النوح. وبسط القول في ذلك وقد قال ابن هشام : ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر.

قال ابن إسحاق : فلما هلك عبد المطلب بن هاشم وليّ السقاية وزمزم بعده ابنه العباس، وهو من أحدث إخوته سنا فلم تزل إليه حتى قام الإسلام ، وأقرها في يده رسول اللّه ﷺ. وكان رسول اللّه ﷺ بعد جده عبد المطلب مع عمه أبي طالب لوصية عبد المطلب له به، ولأنه كان شقيق أبيه عبد اللّه أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم. قال: فكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول اللّه ﷺ وكان إليه ومعه. وقال الواقدي : أخبرنا معمر عن ابن نجيح عن مجاهد ؛ وحدثنا معاذ بن محمد الأنصاري عن عطاء عن ابن عباس ؛ وحدثنا محمد بن صالح وعبد اللّه بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة - دخل حديث بعضهم في حديث بعض - قالوا : لما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول اللّه ﷺ فكان يكون معه، وكان أبو طالب لا مال له وكان يحبه حبا شديداً لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه. وَصَبَّ به أبو طالب [1] صبابة لم يصب مثلها بشيء قط. وكان يخصه بالطعام وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول اللّه ﷺ شبعوا. فكان إذا أراد أن يغديهم قال: كما أنتم حتى يأتي ولدي. فيأتي رسول اللّه ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم وإن لم يكن معهم لم يشبعوا فيقول أبو طالب : إنك لمبارك. وكان الصبيان يصبحون رمصا [2] شعثاً ويصبح رسول اللّه ﷺ دهيناً كحيلاً.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا علي بن ثابت عن طلحة بن عمرو سمعت عطاء بن أبي رباح سمعت ابن عباس يقول : كان بنو أبي طالب يصبحون رمصاً عمصاً ويصبح رسول اللّه ﷺ صقيلاً دهيناً وكان أبو طالب يقرب إلى الصبيان صفحتهم أول البكرة، فيجلسون وينتهبون ويكف رسول اللّه ﷺ يده فلا ينتهب معهم. فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة.

وقال ابن إسحاق : حدثني يحيى بن عباد بن عبد اللّه بن الزبير أن أباه حدثه أن رجلا من لهب كان عائفاً [3] فكان إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم. قال فأتى أبو طالب رسول اللّه ﷺ وهو غلام مع من يأتيه قال: فنظر إلى رسول اللّه . ثم شغله عنه شيء. فلما فرغ قال : الغلام عليَّ به. فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل يقول : ويلكم ردوا علي الغلام الذي رأيته آنفاً فواللّه ليكونن له شأن. قال : وانطلق به أبو طالب.

فصل في خروجه عليه الصلاة والسلام مع عمه أبي طالب إلى الشام وقصته مع بحيرى الراهب

قال ابن إسحاق : ثم إنَّ أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام. فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير صب به رسول اللّه ﷺ - فيما يزعمون - فرق له أبو طالب وقال : واللّه

---

(١) وصب : الصبابة : رقة الشوق وحرارته .

(٢) رمصا : وسخ أبيض فى مجرى الدمع من العينين .

(٣) عائف : متكهناً .

لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً - أو كما قال - فخرج به. فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له : بحيرى في صومعة له. وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب فيها إليه يصير علمهم عن كتاب فيما يزعمون. يتوارثونه كابراً عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى - وكانوا كثيراً ما يمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم - حتى كان ذلك العام. فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون : أنه رأى رسول الله ﷺ في الركب حتى أقبلو وغمامة تظلله من بين القوم. ثم أقبلوا فنـــزلوا في ظل شجرة قريباً منه. فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها. فلما رأى ذلك بحيرة نزل من صومعته وقد أمر بطعام فصنع. ثم أرسل إليهم. فقال: إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم كبيركم وصغيركم وعبدكم وحركم. فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم. ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيري: صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم ، فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما رآهم بحيرى لم ير الصفة التي يعرف ويجده عنده فقال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي . قالوا: يا بحيري ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدثنا سنا ، فتخلف في رحالنا. قال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. قال : فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا. ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رأى بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم ، وتفرقوا قام إليه بحيرى ، وقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه. وإنما قال له بحيرى ذلك : لأنه سمع قومه يحلفون بهما. فزعموا : أن رسول الله ﷺ قال له : « **لا تسألني باللات والعزى شيئاً. فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما** ». فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ؟ فقال له: سلني عما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره. فجعل رسول الله ﷺ يخبره. فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه موضعه من صفته التي عنده، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب . فقال : ما هذا الغلام منك ؟ . قال: ابني قال بحيرى: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه ؟ قال: مات وأمه حبلى به . قال: صدقت ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود. فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنَّه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبوطالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

قال ابن إسحاق : فزعموا فيما روى الناس أن زريراً، وتماما، ودريسما – وهم نفر من أهل الكتاب – قد كانوا رأوا رسول الله ﷺ مثلما رأى بحيرى في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب فأرادوه فردهم عنه بحيرى. فذكرهم الله ومايجدون في الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه حتى عرفوا ما قال لهم ، وصدقوه . بما قال . فتركوه وانصرفوا عنه. وقد ذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق أن أبا طالب قال في ذلك ثلاث قصائد هكذا ذكر ابن إسحاق هذا السياق من غير إسناد منه. وقد ورد نحوه من طريق مسند مرفوع.

فقال الحافظ أبو بكر الخرائطي: حدثنا عباس بن محمد الدوري ، حدثنا قراد أبو نوح حدثنا يونس عن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى ، عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش. فلما أشرفوا على الراهب – يعني بحيرى – هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم قال: فنـــزل وهم يحلون رحالهم. فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ فقال: هذا سيدُ العالمين وفي رواية البيهقي زيادة : هذا رسول رب العالمين، بعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: وما علمك ؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبقَ شجرة ولا حجر إلاّ خرّ ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه. ثم رجع فصنع لهم طعاما فلما أتاهم به – وكان هو في رعية الإبل – فقال: أرسلوا إليه فأقبل وغمامة تظله. فلما دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فَيْءِ الشجرة ، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه. قال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه . قال: فبينما هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألاّ يذهبوا به إلى الروم ، فإنّ الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه فالتفت فإذا هو بسبعة نفر من الروم قد أقبلوا. قال: فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم ؟ قالوا: جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبقَ طريق إلا بعث إليه ناس وإنا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: فهل خلفكم أحد هو خير منكم ؟ قالوا: لا إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ . فقالوا: لا. قال : فبايعوه وأقاموا معه عنده. قال : فقال الراهب: أنشدكم الله أيكم وليه ؟ . قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبو بكر وبلالاً وزوده الراهب من الكعك والزيت [1].
هكذا رواه الترمذي عن أبي العباس الفضل بن سهل الأعرج عن قراد أبي نوح به. والحاكم والبيهقي ، وابن عساكر من طريق أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم عن عباس بن محمد الدوري به. وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي مولاهم، ويقال له : الضبي ويعرف بقراد . سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج

(١) **صحيح** : رواه الترمذي (٣٦٢٠) ولكن ذكر بلال فيه منكر .

لهم البخاري، ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ولم أر أحداً جرحه ومع هذا في حديثه هذا غرابة، قال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال عباس الدوري: ليس في الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبي نوح وقد سمعه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفراده. حكاه البيهقي وابن عساكر.

قلت : فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة. ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق في جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة وعلى كل تقدير فهو مرسل. فإن هذه القصة كانت ولرسول ﷺ من العمر فيما ذكره بعضهم ثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصحابة – رضي الله عنهم – ، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة.

الثاني : أن الغمامة لم تذكر في حديث أصح من هذا.

الثالث : أن قوله وبعث معه أبوبكر وبلالاً إن كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك ثنتي عشرة سنة ، فقد كان عمر أبي بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشرة، وعمر بلال أقل من ذلك، فأين كان أبو بكر إذ ذاك ؟ ثم أين كان بلال ؟ كلاهما غريب اللهم إلا أن يقال : إن هذا كان ورسول الله ﷺ كبيرا. إما بأن يكون سفره بعد هذا أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك ثنتي عشرة سنة غير محفوظ، فإنه إنما ذكره مقيداً بهذا الواقدي. وحكى السهيلي عن بعضهم : أنه كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك تسع سنين والله أعلم. قال الواقدي : حدثني محمد ابن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين. قالوا : لما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج به عمه أبو طالب إلى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة ونزلوا بالراهب بحيرى. فقال لأبي طالب : بالسر ما قال. وأمره أن يحتفظ به فرده معه أبو طالب إلى مكة. وشب رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها لما يريد من كرامته حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطةً، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى. ماروئي ملاحياً [1] ولا ممارياً أحداً، حتى سماه قومه الأمين. لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة فكان أبو طالب يحفظه ويحوطه وينصره ويعضده حتى مات.

وقال محمد بن سعد : أخبرنا خالد بن معدان ؛ حدثنا معتمر بن سليمان : سمعت أبي يحدث عن أبي مجلز أن عبد المطلب – وأبا طالب شك خالد – قال: لما مات عبد الله عطف على محمد فكان لا يسافر سفراً إلا كان معه فيه، وإنه توجه نحو الشام فنـزل منـزلاً فأتاه فيه راهب. فقال: إن فيكم رجلاً صالحاً . ثم قال: أين أبو هذا الغلام ؟ . قال : فقال: ها أنا ذا

---

(١) ملاحياً : لائماً ومعاتباً .

وليه- أو قيل : هذا وليه- قال: احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام ، إنّ اليهود حسّد وإني أخشاهم عليه. قال: ماأنت تقول ذلك ؟ ، ولكن اللّه يقوله. فرده وقال: اللّهم إني أستودعك محمداً ثم إنه مات.

قصة بحيرى

حكى السهيلي عن سير الزهري أن بحيرى كان حبراً من أحبار يهود.

قلت : والذي يظهر من سياق القصة أنه كان راهباً نصرانيا واللّه أعلم. وعن المسعودي أنه كان من عبد القيس وكان اسمه جرجيس. وفي كتاب " المعارف " لابن قتيبة سمع هاتف في الجاهلية قبل الإسلام بقليل يهتف ويقول : ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة : بحيرى، ورئاب بن البراء الشني ، والثالث : المنتظر. وكان الثالث المنتظر هو الرسولﷺ قال ابن قتيبة : وكان قبر رئاب الشني . وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندهما طش، وهو المطر الخفيف.

فصل في منشئه عليه الصلاة والسلام

ومرباه وكفاية اللّه له، وحياطته، وكيف كان يتيماً فآواه وعائلاً فأغناه

قال محمد بن إسحاق : فشب رسول اللّه ﷺ يكلؤه اللّه ويحفظه من أقذار الجاهلية، لما يريد من كرّامته ورسالته حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنــزهاً وتكرما، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع اللّه فيه من الأمور الصالحة وكان رسول اللّهﷺ فيما ذكر لي يحدث عما كان اللّه يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال : «لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك. قال: فأخذته فشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليَّ من بين أصحابي ». وهذه القصة شبيهة بما في الصحيح عند بناء الكعبة حين كان ينقل هو وعمه العباس فإن لم تكنها فهي متقدمة عليها كالتوطئة لها واللّه أعلم.

قال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار : أنه سمع جابر بن عبد اللّه يقول : لما بنيت الكعبة ذهب رسول اللّه ﷺ ينقل الحجارة. فقال العباس لرسول اللّهﷺ : اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم قام فقال : «إزاري » فشد عليه إزاره [1] أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق. وأخرجاه أيضاً من حديث روح بن عبادة عن زكريا بن أبي إسحاق عن عمرو بن دينار عن جابر بنحوه.

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٣٨٢٩) ومسلم (٣٤٠/٧٦) .

وقال البيهقي : أخبرنا أبو عبد اللّٰه الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا : أخبرنا أبوالعباس محمد بن يعقوب ؛ حدثنا محمد بن إسحاق الصاغاني ؛ حدثنا محمد بن بكير الحضرمي ؛ حدثنا عبد الرحمن بن عبد اللّٰه الدشتكي ؛ حدثنا عمرو بن أبي قيس عن سماك عن عكرمة ؛ حدثني ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت، قال: وأفردت قريش رجلين رجلين، الرجال ينقلون الحجارة، وكانت النساء تنقل الشيد. قال: فكنت أنا وابن أخي وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة، فإذا غشينا الناس ائتزرنا، فبينما أنا أمشي ومحمد أمامي قال: فخر وانبطح على وجهه، فجئت أسعى وألقيت حجري وهو ينظر إلى السماء فقلت: ماشأنك ؟ فقام وأخذ إزاره قال : « **إني نهيت أن أمشي عرياناً** ». قال: وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون.

وروى البيهقي من حديث يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق ، حدثني محمد بن عبد اللّٰه ابن قيس بن مخرمة ، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ، عن أبيه ، عن جده علي بن أبي طالب. قال: سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: « **ماهممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتاهما عصمني اللّٰه عزّ وجلّ فيهما. قلت ليلة لبعض فتيان مكة – ونحن في رعاء غنم أهلها – : فقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان فقال: بلى. قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير فقلت: ماهذا ؟ . قالوا: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر وضرب اللّٰه على أذني فواللّٰه ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: مافعلت ؟ فقلت ما فعلت شيئاً . ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت . مثل الذي سمعت تلك الليلة. فسألت فقيل: نكح فلان فلانة، فجلست أنظر وضرب اللّٰه على أذني فواللّٰه ما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: مافعلت؟. فقلت: لا شيء ثم أخبرته الخبر، فواللّٰه ماهممت ولاعدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني اللّٰه عزّ وجلّ بنبوته** » [1] وهذا حديث غريب جدا وقد يكون عن علي نفسه ويكون قوله في آخره: « **حتى أكرمني اللّٰه عزّ وجلّ بنبوته** » مقحماً واللّٰه أعلم.

وشيخ ابن إسحاق هذا ذكره ابن حبان في الثقات. وزعم بعضهم : أنه من رجال الصحيح. قال شيخنا في تهذيبه : ولم أقف على ذلك واللّٰه أعلم.

وقال الحافظ البيهقي : حدثني أبو عبد اللّٰه الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا الحسن بن علي بن عفان العامري ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي

---

(١) **ضعيف** : رواه الحاكم (٤ / ٢٤٥) والبيهقى فى " الدلائل " (٢ / ٣٣) والطبرانى فى "تاريخه" (٢ / ٣٤) والفاكهى فى "تاريخ مكة" (ص ٧) والبخارى فى " التاريخ الكبير " (١ /١٣٠ / ٣٨٩) وابن حبان (٦٢٧٢ – إحسان) وأبو نعيم فى " الدلائل " (١٢٨) وفى سنده محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة ، وهو لم يوثقة غير ابن حبان .

سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، عن أسامة بن زيد ، عن زيد بن حارثة. قال : كان صنم من نحاس يقال له : أساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا. فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررت مسحت به ، فقال رسول الله ﷺ : « **لا تمسه** » قال زيد: فطفنا فقلت في نفسي : لأمسنه حتى أنظر مايكون، فمسحته فقال رسول الله ﷺ « **ألم تنه ؟** » ، قال البيهقي : زاد غيره عن محمد بن عمرو بإسناده قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً قط حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه.

وتقدم قوله عليه الصلاة والسلام لبحيرى حين سأله باللات والعزى: « **لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئاً بغضها** ».

فأما الحديث الذي قاله الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو سعد الماليني ؛ أنبأنا أبو أحمد ابن عدي الحافظ ؛ حدثنا إبراهيم بن أسباط ؛ حدثنا عثمان بن أبي شيبة ؛ حدثنا جرير عن سفيان الثوري ، عن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يشهد مع المشركين مشاهدهم . قال: فسمع ملكين خلفه وأحدهما يقول لصاحبه : اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله ﷺ قال : كيف نقوم خلفه وإنما عهده باستلام الأصنام ؟ قال : فلم يعد بعد ذلك يشهد مع المشركين مشاهدهم. فهو حديث أنكره غير واحد من الأئمة على عثمان بن أبي شيبة حتى قال الإمام أحمد فيه: لم يكن أخوه يتلفظ بشيء من هذا. وقد حكى البيهقي عن بعضهم أن معناه أنه شهد مع من يستلم الأصنام وذلك قبل أن يوحى إليه والله أعلم. وقد تقدم في حديث زيد بن حارثة أنه اعتزل شهود مشاهد المشركين حتى أكرمه الله برسالته. وثبت في الحديث : أنه كان لايقف بالمزدلفة ليلة عرفة بل كان يقف مع الناس بعرفات كما قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق. حدثني عبدالله بن أبي بكر عن عثمان بن أبي سليمان عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه جبير. قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على دين قومه، وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم، توفيقاً من الله عزّ وجلّ.

قال البيهقي : معنى قوله على دين قومه : ما كان بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه دائماً.

قلت : ويفهم من قوله هذا أيضاً : أنه كان يقف بعرفات قبل أن يوحى إليه. وهذا توفيق من الله له ورواه الإمام أحمد عن يعقوب، عن محمد بن إسحاق به. ولفظه رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينـزل عليه وإنه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفع معهم توفيقاً من الله[1]. وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن عمرو، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه. قال:

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٤ / ٨٢) .

أضللت بعيراً لي بعرفة فذهبت أطلبه فإذا النبي ﷺ واقف فقلت : إن هذا من الحُمس [١] ما شأنه ههنا [٢] ؟ وأخرجاه من حديث سفيان بن عيينة به .

ذكر شهوده عليه الصلاة والسلام حرب الفجار

قال ابن إسحاق : هاجت حرب الفجار ورسول اللّه ﷺ ابن عشرين سنة، وإنما سمي يوم الفجار : بما استحل فيه هذان الحيان - كنانة وقيس عيلان - من المحارم بينهم. وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس. وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة. حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس.

وقال ابن هشام : فلما بلغ رسول اللّه ﷺ أربع عشرة سنة - أو خمس عشرة سنة - فيما حدثني به أبو عبيدة النحوي عن أبي عمرو بن العلاء هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان. وكان الذي هاجها أن عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن أجاز لطيمة - أي تجارة - للنعمان ابن المنذر. فقال البراض بن قيس - أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة - : أتجيزها على كنانة ؟ . قال: نعم وعلى الخلق. فخرج فيها عروة الرحال وخرج البراض يطلب غفلته. حتى إذا كان بتيمُن ذي طلال بالعالية غفل عروة فوثب عليه البراض فقتله في الشهر الحرام، فلذلك سمي الفجار، وقال البراض في ذلك :

وداهيــــة تهـــــمُّ النـــــاسَ قبـــــلي ... شددتُ لها بني بَكْــرٍ ضُلُوعِــــي
هدمـــــتُ بهـــا بيــــوتَ بني كـــــلابٍ ... وأرضعتُ الموالـــــيَ بالضـــروعِ
رفعــتُ له بـــذي طـــلاّلَ كفّـــــي ... فخــرّ يَميدُ كالــجِذْعِ الصريــعِ

وقال لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب:

وأبلــغْ - إن عرضـــــتَ - بني كــــلابٍ ... وعــــامــــرَ والخطوبُ لها موالي
وأبلـــغ - إن عرضـــــتَ - بني نُمَيْــــرٍ ... وأخوالَ القتيلِ بنـــــي هـــــلالِ
بأنّ الوافـــدَ الرحّـــالَ أمســـى ... مُقيماً عنـــــد تَيْمُنَ ذي طلال

قال ابن هشام : فأتى آت قريشاً فقال : إن البراض قد قتل عروة، وهو في الشهر الحرام بعكاظ. فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم. ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم. فاقتتلوا حتى جاء الليل فدخلوا الحرم فأمسكت هوازن عنهم، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً والقوم متساندون على كل قبيل من قريش وكنانة رئيس منهم وعلى كل قبيل من قيس رئيس

---

(١) الحُمس : هم قريش ومن ولدت سمَّوا حمساً ؛ لأنهم متحمسون فى بيتهم وتشددوا به .
(٢) رواه البخارى (١٦٦٤) ومسلم (١٢٢٠) وأحمد (٤ / ٨٠) .

منهم. قال : وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم. أخرجه أعمامه معهم وقال رسول الله ﷺ : « كنت أُنبِّل على أعمامي » أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

قال ابن هشام : وحديث الفجار طويل هو أطول مما ذكرت وإنما منعني من استقصائه قطعه حديث سيرة رسول الله ﷺ .

وقال السهيلي : والفجار بكسر الفاء على وزن قتال. وكانت الفجارات في العرب أربعة ذكرهن المسعودي. وآخرهن فجار البراض هذا. وكان القتال فيه في أربعة أيام، يوم شمطة، ويوم العبلاء، وهما عند عكاظ، ويوم الشرب – وهو أعظمها يوما – وهو الذي حضره رسول الله ﷺ وفيه قيدا رئيس قريش وبني كنانة وهما حرب بن أمية وأخوه سفيان أنفسهما لئلا يفروا. وانهزمت يومئذ قيس إلا بني نضر فإنهم ثبتوا. ويوم الحريرة عند نخلة ثم تواعدوا من العام المقبل إلى عكاظ. فلما توافوا الموعد ركب عتبة بن ربيعة جمله ونادى يا معشر مضر علام تقاتلون ؟. فقالت له هوازن : ما تدعو إليه ؟. قال: الصلح، قالوا: وكيف ؟. قال: نُدي [1] قتلاكم ونرهنكم رهائن عليها، ونعفو عن دياتنا. قالوا: ومن لنا بذلك؟. قال: أنا، قالوا: ومن أنت ؟. قال: عتبة بن ربيعة: فوقع الصلح على ذلك وبعثوا إليهم أربعين رجلاً فيهم حكيم بن حزام فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهن في أيديهم عفوا عن دياتهم وانقضت حرب الفجار. وقد ذكر الأموي حروب الفجار وأيامها واستقصاها مطولا فيما رواه عن الأثرم. وهو المغيرة بن علي عن أبي عبيدة معمر بن المثنى فذكر ذلك.

فصل في شهوده عليه الصلاة والسلام حلف الفضول

قال الحافظ البيهقي : أخبرنا أبو سعيد المالييني؛ أنبأنا أبو أحمد بن عدي الحافظ، حدثنا يحيى ابن علي بن هاشم الخفاف ، حدثنا أبو عبد الرحمن الأزدي، حدثنا إسماعيل بن علية عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه. قال : قال رسول الله ﷺ: « شهدت مع عمومتي حلف المطيبين فما أحب أن أنكثه » أو كلمة نحوها–وإن لي حمر النَّعم »[2] قال : وكذلك رواه بشر بن المفضل عن عبد الرحمن. قال: وأخبرنا أبو نصر بن قتادة؛ حدثنا أبو عمرو بن مطر، حدثنا أبوبكر بن أحمد بن داود السمناني، حدثنا معلى بن مهدي، حدثنا أبوعوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة. قال : قال رسول الله ﷺ : « ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين، وما أحب أن لي حمر النعم وأني كنت نقضته. » قال : والمطيبون : هاشم، وأمية، وزهرة، ومخزوم. قال البيهقي : كذا روي هذا التفسير مدرجاً في الحديث ولا أدري قائله، وزعم بعض أهل السير : أنه أراد حلف الفضول فإن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين.

---

(١) نُدى قتلاكم : ندفع ديّاتهم .

(٢) رواه البيهقى فى " الدلائل " (٢ / ٣٧ ، ٣٨) والصواب أن الحلف الذى حضره النبى ﷺ هو حلف الفضول .

قلت : هذا لا شك فيه، وذلك أن قريشاً تحالفوا بعد موت قصي وتنازعوا في الذي كان جعله قصي لابنه عبد الدار من السقاية، والرفادة، واللواء، والندوة، والحجابة، ونازعهم فيه بنو عبد مناف وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش وتحالفوا على النصرة لحزبهم فأحضر أصحاب بني عبد مناف جفنة فيها طيب فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا. فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت. فسموا المطيبين كما تقدم، وكان هذا قديماً ولكن المراد بهذا الحلف حلف الفضول وكان في دار عبد الله بن جدعان كما رواه الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر. قالا: قال رسول الله ﷺ : «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يَعُدْ ظالم مظلوماً** » [(١)] . قالوا : وكان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة في شهر ذي القعدة، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر. وذلك لأن الفجار كان في شعبان من هذه السنة، وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب، وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار ومخزوماً وجمحا وسهماً وعدي بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل وزبروه - أي انتهروه - فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس - وقريش في أنديتهم حول الكعبة - فنادى بأعلى صوته :

يا آلَ فِهْـــرٍ لمظلـــوم بضاعتُه ... ببـــطنِ مكةَ نائي الدارِ والنَّفَرِ
ومحرمٍ أشعثٍ لم يقضِ عمـــرتَه ... يا للرجالِ وبين الحجرِ والحَجَـــرِ
إنّ الحَـــرامَ لمن أتَّتْ كرامتُه ... ولا حرامَ لثوبِ الفاجرِ الغَدِرِ

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة. وما رسي ثبير وحراء مكانهما. وعلى التأسي في المعاش. فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر. ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه. وقال الزبير بن عبد المطلب في ذلك :

حلفتُ لَنعقـــدَنْ حلْفاً عليهم ... وإنْ كُنـــا جميعاً أهـــلَ دارِ
نسمِّيـــهِ الفُضـــولَ إذا عَقدْنا ... يُعَزُّ به الغريبُ لـــذي الجـــوارِ
ويعلمُ مَـــن حوالي البيتِ أنَّا ... أباةُ الضيـــمِ نمنعُ كـــلَّ عارِ

وقال الزبير أيضاً :

---

(١) سنده مرسل .

إنّ الفضولَ تعاقدوا وتحالفــوا ألا يُقيمَ ببطنِ مكــةَ ظالــــم
أمرٌ عليه تعاقدُوا وتَوَاثَقُوا فالجارُ والمُعْتَــرُّ فيهمُ سالمُ

وذكر قاسم بن ثابت - في غريب الحديث - : أن رجلاً من خثعم قدم مكة حاجاً - أو معتمراً - ومعه ابنة له يقال لها : القتول من أوضأ نساء العالمين، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيبها عنه. فقال الخثعمي: من يعديني على هذا الرجل ؟. فقيل له : عليك بحلف الفضول. فوقف عند الكعبة ونادى يا آل حلف الفضول : فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب، وقد انتضوا أسيافهم يقولون : جاءك الغوث فما لك ؟. فقال: إن نبيهاً ظلمني في بنتي وانتزعها مني قسراً، فساروا معه حتى وقفوا على باب داره، فخرج إليهم. فقالوا له: أخرج الجارية ويحك فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه، فقال: أفعل، ولكن متعوني بها الليلة، فقالوا: لا والله ولا شخب [1] لقحة فأخرجها إليهم وهو يقول :

راحَ صَحْبِــي ولم أحيّي القَتولا لم أودّعهــمُ وداعــاً جميــــلاً
إذا أجدّ الفضـــولَ أنْ يمنعوها قــد أراني ولا أخافُ الفُضولاً
لا تخالي أني عشيّةَ راحَ الركْـ ـــبُ هُنتم علي أنْ لا يزولاً

وذكر أبياتاً أخر غير هذه. وقد قيل : إنما سمي هذا حلف الفضول لأنه أشبه حلفاً تحالفته جرهم على مثل هذا من نصر المظلوم على ظالمه. وكان الداعي إليه ثلاثة من أشرافهم اسم كل واحد منهم فضل : وهم الفضل بن فضالة، والفضل بن وداعة، والفضل بن الحارث. هذا قول ابن قتيبة. وقال غيره: هم الفضل بن شراعة، والفضل بن قضاعة، والفضل بن وداعة وقد أورد السهيلي هذا رحمه الله.

قال محمد بن إسحاق بن يسار : وتداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه. وكان حلفهم عنده بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة. فتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا كانوا معه وكانوا على من ظلمه حتى يرد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

قال محمد بن إسحاق : فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر قنفذ التيمي : أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول : قال رسول الله ﷺ: « **لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت** » [2].

---

(١) الشخب : ما خرج من الضرع من اللبن .

(٢) **مرسل صحيح**: رواه ابن إسحاق كما في " السيرة النبوية " (١ / ٨٦) فإن طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرى لم يسمع من النبى ﷺ، ولكن للحديث شواهد تقويه منها حديث الحميدى السابق وهو أيضاً =

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثي :أن محمد بن إبراهيم ابن الحارث التيمي، حدثه أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان – والوليد يومئذ أمير المدنية، أمره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان – منازعة في مال كان بينهما بذي المروة فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له الحسين : أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول. قال: فقال عبد الله بن الزبير : وهو عند الوليد حين قال له الحسين : ما قال – وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً. قال: وبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال : مثل ذلك. وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال : مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي.

تزويجه عليه الصلاة والسّلام خديجة بنت خويلد

قال ابن إسحاق : وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال على مالها مضاربة. فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج لها في مال، تاجرا إلى الشام وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار. مع غلام لها يقال له : ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى نزل الشام، فنـــزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة. فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة ؟ . فقال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي. ثم باع رسول الله ﷺ سلعته – يعني تجارته – التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري. ثم أقبل قافلاً [1] إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة – فيما يزعمون – إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريبا، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملائكة إياه وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من كرامتها. فلما أخبرها ميسرة ما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له – فيما يزعمون – : يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسِطَتِكَ [2] في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت نفسها عليه وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً. كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ

= مرسل ، ورواه أحمد (١٦٥٥ ، ١٦٧٦) من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً دون قوله "ولو دعيت فى الإسلام لأجبت " وسنده صحيح .

(١) قافلاً : راجعاً .

(٢) وسطتك : فسره السهيلى : من الوسط وقال : فلان أوسط القبيلة أعرفها : وأولاها بالصميم .

ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام.

قال ابن هشام : فأصدقها عشرين بكرة وكانت أول امرأة تزوجها و لم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

قال ابن إسحاق : فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم : القاسم وكان به يكنى، والطيب والطاهر، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

قال ابن هشام : أكبرهم القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر. وأكبر بناته رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة.

قال البيهقي عن الحاكم : قرأت بخط أبي بكر بن أبي خيثمة، حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري قال: أكبر ولده عليه الصلاة والسلام القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية. وكان أول من مات من ولده القاسم، ثم عبد الله. وبلغت خديجة خمساً وستين سنة، ويقال : خمسين. وهو أصح. وقال غيره: بلغ القاسم أن يركب الدابة والنجيبة ثم مات بعد النبوة، وقيل : مات وهو رضيع، فقال رسول الله ﷺ : « إن له مرضعاً في الجنة يستكمل رضاعه » والمعروف أن هذا في حق إبراهيم.

وقال يونس بن بكير : حدثنا إبراهيم بن عثمان عن القاسم عن ابن عباس قال: ولدت خديجة لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة : القاسم، وعبد الله، وفاطمة، وأم كلثوم، وزينب، ورقية. وقال الزبير بن بكار: عبد الله هو الطيب وهو الطاهر، سمي بذلك ؛ لأنه ولد بعد النبوة فماتوا قبل البعثة. وأما بناته فأدركن البعثة ودخلن في الإسلام وهاجرن معه ﷺ قال ابن هشام: وأما إبراهيم فمن مارية القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب إسكندرية من كورة أنصنا [1] وسنتكلم على أزواجه وأولاده عليه الصلاة والسلام في باب مفرد لذلك في آخر السيرة إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

قال ابن هشام : وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة فيما حدثني غير واحد من أهل العلم، منهم أبو عمرو المدني، وقال يعقوب بن سفيان: كتبت عن إبراهيم بن المنذر، حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي، حدثني غير واحد أن عمرو بن أسد زَوّج خديجة من رسول الله ﷺ وعمره خمساً وعشرين سنة وقريش تبني الكعبة. وهكذا نقل البيهقي عن الحاكم : أنه كان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة وكان عمرها إذ ذاك خمساً وثلاثين — وقيل : خمساً وعشرين سنة.

---

(١) أنصنا : مدينة من نواحى الصعيد شرقى النيل .

وقال البيهقي: باب ما كان يشتغل به رسول اللّٰه ﷺ قبل أن يتزوج خديجة

أخبرنا أبو عبد اللّٰه الحافظ؛ أخبرنا أبو بكر بن عبد اللّٰه؛ أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا سويد بن سعيد؛ حدثنا عمرو بن أبي يحيى بن سعيد القرشي عن جده سعيد عن أبي هريرة. قال: قال رسول اللّٰه ﷺ : « ما بعث اللّٰه نبياً إلا راعي غنم » فقال له أصحابه: وأنت يا رسول اللّٰه؟ قال: « وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط » [١] رواه البخاري عن أحمد بن محمد المكي عن عمرو بن يحيى به. ثم روى البيهقي من طريق الربيع بن بدر - وهو ضعيف - عن أبي الزبير عن جابر. قال: قال رسول اللّٰه ﷺ : « آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص » [٢] وروى البيهقي من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس : أن أبا خديجة زوج رسول اللّٰه ﷺ وهو - أظنه - قال : سكران [٣]. ثم قال البيهقي : أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أخبرنا عبد اللّٰه بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان قال: حدثني إبراهيم بن المنذر حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي، حدثني عبد اللّٰه بن أبي عبيد بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن مقسم بن أبي القاسم مولى عبد اللّٰه بن الحارث بن نوفل أن عبد اللّٰه بن الحارث حدثه أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول اللّٰه ﷺ خديجة وما يكثرون فيه يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إني كنت له تِرباً [٤]وكنت له إلفاً وخدنا [٥]. وإني خرجت مع رسول اللّٰه ﷺ ذات يوم حتى إذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعها، فنادتني فانصرفت إليها ووقف لي رسول اللّٰه ﷺ. فقالت : أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة ؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته فقال: « بلى لعمري » فذكرت لها قول رسول اللّٰه ﷺ فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة، وصفرت لحيته، وكلمت أخاها فكلم أباه وقد سقي خمراً فذكر له رسول اللّٰه ﷺ ومكانه وسألته أن يزوجه فزوجه خديجة وصنعوا من البقرة طعاماً. فأكلنا منه، ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً. فقال : ماهذه الحلة ؟وما هذه الصفرة وهذا الطعام ؟ فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عمارا: هذه حلة كساكها محمد بن عبد اللّٰه ختنك، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة، فأنكر أن يكون زوجه، وخرج يصيح حتى جاء الحجر، وخرج بنو هاشم برسول اللّٰه ﷺ فجاءوه فكلموه. فقال: أين

---

(١) رواه البخارى (٢٢٦٢) .

(٢) قلوص : النوق .

(٣) **ضعيف**: رواه البيهقى فى " الدلائل " (٢ / ٧٢ ، ٧٣) وفى سنده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

(٤) الترب : من وُلد معك وهو الصديق من نفس العمر .

(٥) الخَدن : الصاحب .

صاحبكم الذي تزعمون أني زوجته خديجة ؟. فبرز له رسول اللّه ﷺ فلما نظر إليه. قال: إن كنت زوجته فسبيل ذاك وإن لم أكن فعلت فقد زوجته[١].

وقد ذكر الزهري في سيره أن أباها زوجها منه وهو سكران وذكر نحو ما تقدم حكاه السهيلي. قال المؤملي : المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه وهذا هو الذي رجحه السهيلي. وحكاه عن ابن عباس وعائشة. قالت: وكان خويلد مات قبل الفجار، وهو الذي نازع تبعاً حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن، فقام في ذلك خويلد وقام معه جماعة من قريش ثم رأى تبع في منامه ما روعه، فنـــزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه .

وذكر ابن إسحاق : في آخر السيرة أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي زوجها رسول اللّه ﷺ فاللّه أعلم.

فصل فيما ذكرت خديجة من حاله ﷺ لابن عمها ورقة

قال ابن إسحاق : وقد كانت خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وكان ابن عمها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه – فقال ورقة : لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه – أو كما قال– فجعل ورقة يستبطئ الأمر. ويقول : حتى متى ؟. وقال في ذلك :

لججتُ وكنتُ في الذكرى لجوجاً ... لهـــمٍّ طالمـا بعث النَّشيجـا[٢]
ووصْفٍ مِـنْ خديجةَ بَعد وَصْفٍ ... فقد طـــالَ انتظاري يا خديجاً
ببطـــنِ المكَّتَيْنِ على رَجَـــائِي ... حَديثَــك أن أرى منـه خُروجَـا
بما خَبـــرْتنا مـــن قـــول قسٍّ ... من الرهبـــان أكـرهُ أن يعُوجـا
بأنَّ محمــــداً سيســـودُ قوماً ... ويخصِمُ من يَكـونَ لـه حَجيجـا
ويظهرُ في البــــلاد ضيـاءَ نُور ... يقومُ بـه البريَّة أن تمــوجـا
فيلقى مـــن يحـــاَربُه خساراً ... ويَلقى من يُســالمُه فلُوجـــا[٣]
فياليتني إذا مـــا كــان ذاكُم ... شَهدْتُ وكُنـتُ أوَّلهم ولُوجـا
وَلُوجاً في الـــذي كَرِهَتْ قريشٌ ... ولو عجَّـــت بمكَّتها عَجيجـا
أُرجِّى بالذي كَـــرهـوا جميعـا ... إلى ذي العرش إنْ سَفَلُـوا عُروجـا

---

(١) ضعيف جدا :رواه البيهقى فى " الدلائل " (٢ / ٧١ ، ٧٢) وفى سنده عمر بن أبى بكر الموصلى وهو ضعيف جدا .

(٢) النشيجا : الغصَّة فى الحلق .

(٣) الفلوج : الظَّفُر والفوز .

وهل أمرُ السفالة غيرُ كفر ... بمن يختارُ من سَمَكَ البُرُوجَا؟
فإن يَبْقَوا وأبقَ يَكنْ أمورٌ ... يَضجُّ الكافرون لها ضَجيجَا
وإنْ أَهْلِكْ فكُلُّ فَتًى سَيَلْقَى ... مِنَ الأقدارِ مُتْلفةً خُروجا

وقال ورقة أيضاً فيما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق عنه :

أتبكرُ أم أنتَ العشيّة رائحٌ ... وفي الصدر من إضماركَ الحزنُ قادحُ؟
لفرقة قومٍ لا أحبُّ فِراقَهم ... كأنّك عنهم بعدَ يومين نازحُ
وأخبارُ صِدقٍ خُبِّرتْ عن محمد ... يُخبّرها عنهُ إذا غابَ ناصحُ
أتاك الذي وجَّهتَ يا خيرَ حُرَّةٍ ... بغور النّجْدَيْنِ حيثُ الصحصَاح
إلى سوق بُصرى في الركَاب التي غَدتْ ... وهن من الأحمال قُعصُ دوالح[1]
فيخبُرنَا عن كلِّ خَيرٍ بعلمه ... وللحقِّ أبوابَ لهنّ مفاتح
بأنَّ ابنَ عبدِ الله أحمَدَ مُرْسَلٌ ... إلى كل من ضمّتْ عليه الأباطح
وَظَنِّي به أن سوفَ يبعث صَادقاً ... كما أرسل الْعَبْدان هودُ وصالح
وموسىَ وإبراهيمَ حتى يُرى له ... بهاء ومنشورُ من الذِّكر واضح
ويتبعه حَيّا لؤيٍ وغالب ... شبابُهم والأشيَبُون الجحاجح
فإن أبقَ حتى يدركَ الناسَ دهرُهُ ... فإني به مستبشرُ الودِّ فارح
وإلاّ فَإنّي يا خديجةُ فاعلمي ... عن أرْضِك في الأرضِ العريضَةِ سائح

وزاد الأموي :

فمتَّبعٌ دينَ الذي أسَّسَ الْبِنَا ... وكانَ له فضلٌ على الناسِ راجحُ
وأسّسَ بنياناً بمكّةَ ثابتاً ... تلألأُ فيهِ بالظلامِ المصابح
مَثاباً لأفناء القبائلِ كلِّها ... تخبَّ إليه اليَعْمُلاتِ الطلائح[2]
حراجيجُ[3] أمثال القِداح منَ السُّرَى ... يعلّق في أرسَاغهنّ السرايحُ

ومن شعره فيما أورده أبو القاسم السهيلي في روضه :

لقد نصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم ... :أنا النذيرُ فلا يغرركُمُ أَحَدُ
لا تعبدَنّ إلهاً غيرَ خالقكم ... فإن دعَوْكم فقولوا بيننا حَدَدُ
سُبْحانَ ذي العرشِ سبحاناً يدومُ له ... وقبلَنا سبّح الجوديّ والجَمَد
مسخَّرُ كلُّ ما تحتَ السماء له ... لا ينبغي أن يناوي مُلكَهُ أحدُ

(١) الدلح : أن يمشى البعير بالحمل وقد أثقله
(٢) اليعملات الطلائح : إبلٌ طلاحية .
(٣) حراجيج : جمع . حرجيج : الناقة الطويلة .

لا شـــــيءَ مما نَرى تبقى بَشاشتـُه يبقى الإلهُ ويـــــودي المالُ والولد
لم تُغـــنِ عن هرْمز يوماً خزائنــه والخُلدَ قد حـاولتْ عادٌ فما خلدوا
ولا سليمانُ إذ تجـري الرياحُ بـــه والجـنُّ والإنسُ فيمـــا بينها مَرَد
أيـــنَ الملوكُ التي كانت لعزّتــها مـــن كـلّ أوب إليها وافد يَفدُ ؟
حـوضٌ هنالك مورودٌ بلا كـَذب لا بدّ من ورده يـــوماً كما وردوا

ثم قال هكذا نسبه أبو الفرج إلى ورقة، قال: وفيه أبيات تنسب إلى أمية بن أبي الصلت :

قلت : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يستشهد في بعض الأحيان بشيء من هذه الأبيات والله أعلم.

فصل في تجديد قريش بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنين

ذكر البيهقي بناء الكعبة قبل تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة. والمشهور أن بناء قريش الكعبة بعد تزويج خديجة كما ذكرناه بعشر سنين. ثم شرع البيهقي في ذكر بناء الكعبة في زمن إبراهيم كما قدمناه في قصته، وأورد حديث ابن عباس المتقدم في صحيح البخاري وذكر ما ورد من الإسرائيليات في بنائه في زمن آدم ولا يصح ذلك، فإن ظاهر القرآن يقتضي أن إبراهيم أول من بناه مبتدئاً وأول من أسسه، وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها مشرفة في سائر الأعصار والأوقات قال الله تعالى : ﴿ إنّ أوّلَ بَيْت وضِعَ للنّاسِ لَلّذي ببَكّة مُبَارَكاً وهُدًى للْعَالَمينَ . فيه آيَاتٌ بيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْرَاهيمَ ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمناً ولله عَلَى النّاسِ حجُّ البَيْتِ مَن استَطَاعَ إلَيْه سَبيلاً﴾ [آل عمران : ٩٦ ، ٩٧] وثبت في الصحيحين عن أبي ذر قال : قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟. قال : « المسجد الحرام » قلت: ثم أي ؟ قال : «المسجد الأقصى » قلت: كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » [١] وقد تكلمنا على هذا فيما تقدم، وإنّ المسجد الأقصى أسسه إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام. وفي الصحيحين : « أن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة » [٢]. وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو عبد الله الصفار، حدثنا أحمد بن مهران، حدثنا عبيد الله، حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو. قال : كان البيت قبل الأرض بألفي سنة، ﴿ وإذا الأرضُ مُدّتْ ﴾ [الانشقاق : ٣] قال: من تحته مدت. قال: وقد تابعه منصور عن مجاهد .

قلت : وهذا غريب جدا وكأنه من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك وكان فيهما إسرائيليات يحدث منها وفيهما منكرات وغرائب.

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٣٦٦) ومسلم (١/٥٢٠) .
(٢) متفق عليه : رواه البخاري (١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣/٤٤٥) .

ثم قال البيهقي : أخبرنا أبو عبد اللّه الحافظ، أخبرنا أبو جعفر محمد بن محمد بن عبد اللّه البغدادي، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدثنا أبو صالح الجهني، حدثني ابن لهيعة عن يزيد ابن أبي الخير عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص. قال: قال رسول اللّه ﷺ : «بعث اللّه جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما: ابنيا لي بيتاً، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل، حتى أجابه الماء نودي من تحته حسبك يا آدم، فلما بنيا أوحى اللّه تعالى إليه أن يطوف به وقيل له : أنت أول الناس، وهذا أول بيت، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه ».

قال البيهقي : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً.

قلت : وهو ضعيف، ووقفه على عبد اللّه بن عمرو أقوى وأثبت واللّه أعلم.

وقال الربيع : أنبأنا الشافعي، أنبأنا سفيان عن ابن أبي لبيد عن محمد بن كعب القرظي - أو غيره - قال : حجّ آدم فلقيته الملائكة. فقالوا : بر نسكك يا آدم لقد حججنا قبلك بألفي عام. وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثني بقية - أو قال : ثقة - من أهل المدينة عن عروة بن الزبير أنه قال : ما من نبي إلا وقد حجّ البيت إلا ما كان من هود وصالح.

قلت : وقد قدمنا حجهما إليه. والمقصود الحج إلى محله وبقعته وإن لم يكن ثم بناء واللّه أعلم. ثم أورد البيهقي حديث ابن عباس المتقدم في قصة إبراهيم عليه السلام بطوله وتمامه وهو في صحيح البخاري. ثم روي البيهقي من حديث سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة قال: سأل رجل علياً عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وهُدًى لِّلعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٦] أهو أول بيت بني في الأرض ؟ قال: لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة للناس والهدى، ومقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً. وإن شئت نبأتك كيف بناؤه. إن اللّه تعالى أوحى إلى إبراهيم أن ابْنِ لي بيتا في الأرض، فضاق به ذرعا، فأرسل إليه السكينة، وهي ريح خجوج لها رأس فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت. ثم تطوقت في موضع البيت تطوق الحية، فبنى إبراهيم حتى بلغ مكان الحجر. قال لابنه: أبغني حجراً فالتمس حجراً حتى أتاه به فوجد الحجر الأسود قد ركب. فقال لأبيه: من أين لك هذا ؟. قال: جاء به من لا يتكل على بنائك، جاء به جبريل من السماء فأتمه. قال: فمر عليه الدهر فانهدم فبنته العمالقة، ثم انهدم فبنته جرهم، ثم انهدم فبنته قريش ورسول اللّه ﷺ يومئذ رجل شاب. فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه. فقالوا: نحكّم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة، فكان رسول اللّه ﷺ أول من خرج عليهم فقضى بينهم أن يجعلوا في مرط [1] . ثم ترفعه جميع القبائل كلهم.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا حماد بن سلمة وقيس وسلام كلهم عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة، عن علي بن أبي طالب. قال : لما انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش، فلما

(١) مرط : ثوب .

أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضمه فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب، فدخل رسول اللّه ﷺ من باب بني شيبة فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فرفعوه، وأخذه رسول اللّه ﷺ فوضعه، قال يعقوب بن سفيان: أخبرني أصبغ بن فرج أخبرني ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال: لما بلغ رسول الله ﷺ الحلم جمرت امرأة الكعبة فطارت شرارة من مجمرها في ثياب الكعبة فاحترقت فهدموها حتى إذا بنوها فبلغوا موضع الركن اختصمت قريش في الركن أي القبائل تلي رفعه. فقالوا: تعالوا نحكّم أول من يطلع علينا، فطلع عليهم رسول اللّه ﷺ وهو غلام عليه وشاح نمرة فحكّموه فأمر بالركن فوضع في ثوب، ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن فكان لا يزداد على السن الأرضي حتى دعوه الأمين قبل أن ينـــزل عليه الوحي، فطفقوا لا ينحرون جزوراً إلا التمسوه فيدعو لهم فيها، وهذا سياق حسن، وهو من سير الزهري، وفيه من الغرابة. قوله : فلما بلغ الحلم. والمشهور أن هذا كان ورسول اللّه ﷺ عمره خمس وثلاثون سنة، وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار رحمه اللّه.

وقال موسي بن عقبة : كان بناء الكعبة قبل المبعث بخمس عشرة سنة. وهكذا قال مجاهد وعروة، ومحمد بن جبير بن مطعم، وغيرهم. فاللّه أعلم.

وقال موسى بن عقبة : كان بين الفجار وبين بناء الكعبة خمس عشرة سنة.

قلت : وكان الفجار وحلف الفضول في سنة واحدة إذ كان عمر رسول اللّه ﷺ عشرون سنة وهذا يؤيد ما قال محمد بن إسحاق. واللّه أعلم.

قال موسى بن عقبة : وإنما حمل قريشاً على بنائها أن السيول كانت تأتي من فوقها، من فوق الردم الذي صفوه فخربه فخافوا أن يدخلها الماء. وكان رجل يقال له : مليح سرق طيب الكعبة. فأرادوا أن يشيّدوا بنيانها وأن يرفعو بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا فأعدوا لذلك نفقة وعمالاً. ثم غدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر أن يمنعهم الذي أرادوا. فكان أول رجل طلعها وهدم منها شيئاً الوليد بن المغيرة فلما رأوا الذي فعل الوليد تتابعوا فوضعوها فأعجبهم ذلك. فلما أرادوا أن يأخذوا في بنيانها أحضروا عمالهم فلم يقدر رجل منهم أن يمضي أمامه موضع قدم. فزعموا : أنهم رأوا حيَّةً قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبها. فأشفقوا منها شفقة شديدة، وخشوا أن يكونوا قد وقعوا مما عملوا في هلكة. وكانت الكعبة حرزهم ومنعتهم من الناس وشرفاً لهم. فلما سقط في أيديهم والتبس عليهم أمرهم قام فيهم المغيرة بن عبد اللّه بن مخزوم فذكر ما كان من نصحه لهم وأمره إياهم أن لا يتشاجروا ولا يتحاسدوا في بنائها. وأن يقتسموها أرباعا. وأن لا يدخلوا في بنائها مالاً حراماً. وذكر: أنهم لما عزموا على ذلك ذهبت الْحَيَّةُ في السماء وتغيبت عنهم ورأوا أن ذلك من اللّه عزّ وجلّ. قال : ويقول بعض الناس : إنه اختطفها طائر وألقاها نحو أجياد.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : فلما بلغ رسول اللّه ﷺ خمساً وثلاثين سنة ، اجتمعت قُريش لبناء الكعبة وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها. وإنما كانت رضماً [١] فوق القامة. فأرادوا رفعها وتسقيفها وذلك أن نفراً سرقوا كنــز الكعبة، وإنما كان في بئر في جوف الكعبة. وكان الذي وجد عنده الكنــز دويك مولى لبني مليح بن عمرو بن خزاعة. فقطعت قريش يده وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك. وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم. فتحطمت. فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها. قال الأموي : كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم تحمل آلات البناء من الرخام والخشب والحديد سرحها قيصر مع باقوم الرومي إلى الكنيسة التي أحرقها الفرس للحبشة، فلما بلغت مرساها من جدة بعث اللّه عليها ريحا فحطمتها.

قال ابن إسحاق : وكان بمكة رجل قبطي نجار فتهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها. وكانت حَيَّةٌ تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى إليها كل يوم. فتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احْزَأَلَّتْ [٢] وَكَشَّتْ وفتحت فاها، فكانوا يهابونها، فبينما هي يوماً تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث اللّه عليها طائراً فاختطفها فذهب بها. فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون اللّه تعالى قد رضي ما أردنا، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا اللّه الْحَيَّةَ.

وحكى السهيلي عن رزين أن سارقاً دخل الكعبة في أيام جرهم ليسرق كنــزها. فانهار البئر عليه حتى جاءوا فأخرجوه وأخذوا منه ما كان أخذه، ثم سكنت هذا البئر حَيَّةٌ رأسها كرأس الجدي وبطنها أبيض وظهرها أسود فأقامت فيها خمسمائة عام وهي التي ذكرها محمد بن إسحاق.

قال محمد بن إسحاق : فلما أجمعوا أمرهم لهدمها وبنيانها قام أبو وهب عمرو بن عايد بن عبد بن عمران بن مخزوم – وقال ابن هشام: عايد بن عمران بن مخزوم– فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه. فقال : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً. لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس – والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم. ثم رجح ابن إسحاق أن قائل ذلك أبو وهب بن عمرو – قال: وكان خال أبي النبي ﷺ وكان شريفاً ممدحاً.

وقال ابن إسحاق : ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة. فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم. وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم. وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى

---

(١) الرضم : صخورٌ عظام يرضم بعضها فوق بعض فى الأبنية .

(٢) احزألت : أى تجمعت تريد الوثوب .

ولبني عدي بن كعب، وهو الحطيم. ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه. فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع اللهم إنا لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا : ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا من هدمها. فأصبح الوليد غادياً على عمله فهدم وهدم الناس معه – حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس – أساس إبراهيم عليه السلام – أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً – ووقع في صحيح البخاري عن يزيد بن رومان كأسنمة الإبل – قال السهيلي: وأرى رواية السيرة كالألسنة وهماً. والله أعلم.

قال ابن إسحاق : فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة (١) بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها. فانتهوا عن ذلك الأساس.

وقال موسى بن عقبة : وزعم عبد الله بن عباس أن أولية قريش كانوا يحدثون أن رجلاً من قريش لما اجتمعوا لينـــزعوا الحجارة إلى تأسيس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، عمد رجل منهم إلى حجر من الأساس الأول فرفعه وهو لا يدري أنه من الأساس الأول، فأبصر القوم برقة تحت الحجر كادت تلتمع بصر الرجل، ونزا الحجر من يده فوقع في موضعه وفزع الرجل والبناة. فلما ستر الحجر عنهم ما تحته إلى مكانه عادوا إلى بنيانهم، وقالوا : لا تحركوا هذا الحجر ولا شيئا بحذائه.

قال ابن إسحاق : وحدثت أن قريشاً وجدوا في الركن كتاباً بالسريانية فلم يعرفوا ما هو، حتى قرأه لهم رجل من يهود، فإذا هو أنا الله ذو بكة، خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض، وصورت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها –قال ابن هشام: يعني جبلاها– مبارك لأهلها في الماء واللبن .

قال ابن إسحاق : وحدثت أنهم وجدوا في المقام كتاباً فيه : مكة الله الحرام، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل، لا يحلها أول من أهلها. قال: وزعم ليث بن أبي سليم أنهم وجدوا في الكعبة قبل مبعث النبي ﷺ بأربعين سنة – إن كان ما ذكر حقا – مكتوباً فيه : من يزرع خيراً يحصد غبطة، ومن يزرع شراً يحصد ندامة. يعملون السيئات ويجزون الحسنات ؟ أجل كما يجتني من الشوك العنب.

وقال سعيد بن يحيى الأموي : حدثنا المعتمر بن سليمان الرقي عن عبد الله بن بشر الزهري – يرفع الحديث إلى النبي ﷺ – قال : « وجد في المقام ثلاثة أصفح، في الصفح الأول : إني

(١) عتلة : رافعة .

أنا الله ذو بكة، صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء وباركت لأهلها في اللحم واللبن؛ وفي الصفح الثاني : إني أنا الله ذو بكة، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي. فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته . وفي الصفح الثالث : إني أنا الله ذو بكة، خلقت الخير والشر وقدرته . فطوبى لمن أجريت الخير على يديه وويل لمن أجريت الشر على يديه ».

قال ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة. ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى. حتى تحاوروا أو تحالفوا، وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً. ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة. فسموا لعقة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا. فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم – وكان عامئذ أسن قريش كلها . قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه. ففعلوا. فكان أول داخل دخل رسول اللهﷺ . فلما رأوه. قالوا : هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر . قال رسول اللهﷺ : «هلموا إلي ثوباً » فأتي به وأخذ الركن فوضعه فيه بيده . ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب. ثم ارفعوه جميعاً » . ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيدهﷺ . ثم بنى عليه. وكانت قريش تسمي رسول اللهﷺ الأمين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد، حدثنا ثابت – يعني أبا يزيد – حدثنا هلال يعني ابن حبان عن مجاهد عن مولاه – وهو السائب بن عبد الله – أنه حدثه إنه كان فيمن بنى الكعبة في الجاهلية قال : وكان لي حجر – أنا نحته أعبده من دون الله – قال : وكنت أجيء باللبن الخاثر [1] الذي آنفه على نفسي فأصبه عليه فيجيء الكلب فيلحسه ثم يشغر فيبول عليه. قال : فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر ولا يرى الحجر أحد. فإذا هو وسط أحجارنا مثل رأس الرجل يكاد يترايا منه وجه الرجل. فقال بطن من قريش : نحن نضعه وقال آخرون : نحن نضعه فقالوا: اجعلوا بينكم حكما. فقالوا: أول رجل يطلع من الفج. فجاء رسول اللهﷺ : فقالوا: أتاكم الأمين. فقالوا له: فوضعه في ثوب. ثم دعا بطونهم فرفعوا نواحيه فوضعه هوﷺ [2].

قال ابن إسحاق : وكانت الكعبة على عهد النبيﷺ ثماني عشرة ذراعا وكانت تكسى القباطي [3] ثم كسيت بعد البرور. وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف

---

(١) خثر اللبن : غلُظ زبده .

(٢)**صحيح** : رواه أحمد (٣ / ٤٢٥) والحاكم (١ / ٤٥٨) وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) القباطي : الأكسية من القماش تنسب إلى الأقباط أهل مصر .

قلت : وقد كانوا أخرجوا منها الحجر - وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام- قصرت بهم النفقة أي لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم. وجعلوا للكعبة باباً واحداً من ناحية الشرق. وجعلوه مرتفعا لئلا يدخل إليها كل أحد فيدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة -رَضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها : « ألم تَرَيْ أن قومك قصرت بهم النفقة. ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، وأدخلت فيها الحجر » [1] ، ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار إليه رسول الله ﷺ وجاءت في غاية البهاء والحسن والسناء كاملة على قواعد الخليل. لها بابان ملتصقان بالأرض شرقياً وغربياً. يدخل الناس من هذا ويخرجون من الآخر. فلما قتل الحجاج بن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان - وهو الخليفة يومئذ - فبما صنعه ابن الزبير واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه. فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه فعمدوا إلى الحائط الشامي فحصوه وأخرجوا منه الحجر ورصوا حجارته في أرض الكعبة، فارتفع بابها وسدوا الغربي واستمر الشرقي على ما كان عليه، فلما كان في زمن المهدي - أو ابنه المنصور - استشار مالكاً في إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير. فقال مالك رحمه الله : إني أكره أن يتخذها الملوك ملعبة. فتركها على ما هي عليه. فهي إلى الآن كذلك.

وأما المسجد الحرام : فأول من أخر البيوت من حول الكعبة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - اشتراها من أهلها وهدمها، فلما كان عثمان اشترى دوراً وزادها فيه. فلما ولي ابن الزبير أحكم بنيانه، وحسن جدرانه وأكثر أبوابه. ولم يوسعه شيئا آخر. فلما استبد بالأمر عبد الملك االبن مروان زاد في ارتفاع جدرانه وأمر بالكعبة فكسيت الديباج. وكان الذي تولى ذلك بأمره الحجاج بن يوسف. وقد ذكرنا قصة بناء البيت والأحاديث الواردة في ذلك في تفسير سورة البقرة عند قوله: ﴿ وإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة : ١٢٧] وذكرنا ذلك مطولا مستقصى فمن شاء كتبه هاهنا ولله الحمد والمنة.

قال ابن إسحاق : فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا قال الزبير بن عبد المطلب، فيما كان من أمر الْحَيَّةِ التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها :

عَجبْتُ لمَا تصـــوَّبت العقابُ ... إلى الثعبان وهي لها اضطرابُ
وقـــد كَانتْ تكونُ لهاَ كشيشٌ ... وأحيـــاناً يكـــونُ لها وثابُ
إذا قُمنا إلى التأسيس شـــدَّتْ ... تُهيِّبُنا البناءَ وقـــــد نُهـــابُ
فلما أن خَشينـــا الزجْرَ جاءتْ ... عُقَـــابٌ تَتْلَئِبُّ لهـــا انصبابُ[2]
فضمَّتْهـــا إليهـــا ثـــم خلَتْ ... لنا البنيانَ ليسَ لهـــا حجـــابُ

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى (١٥٨٦) ومسلم (٤٠١/١٣٣٣) .

(٢) تتلئبُّ : تسرع .

فقمنـــا حـــــــاشدينَ إلى بناء لَنَا منْــهُ القواعـــــدُ والترابُ
غـــــداةَ يــرفَّع التأسيسُ منهُ وليسَ عــــلى مَســـاوينا ثيابُ
أعــزَّ بــــــه المليكُ بني لؤَي فليسَ لأَصلـــــه منهم ذَهابُ
وقــد حشَدتْ هناك بَنُو عَديّ ومُـــرَّةُ قَـد تَقَدَّمها كلابُ
فبوّأنا المليــكُ بِذَاكَ عِزاً وعِنْدَ اللّهِ يُلْتَمَسُ الثـــوَابُ

وقد قدمنا في فصل ما كان اللّه يحوط به رسول الله ﷺ من أقذار الجاهلية، أنه كان هو والعباس عمه ينقلان الحجارة، وأنه عليه الصلاة والسلام لما وضع إزاره تحت الحجارة على كتفه نهي عن خلع إزاره فأعاده إلى سيرته الأولى.

فصل في سبب تسمية قريش الحمس

وذكر ابن إسحاق ما كانت قريش ابتدعوه في تسميتهم الحمس، وهو الشدة في الدين والصلابة. وذلك لأنهم عظّموا الحرم تعظيماً زائداً بحيث التزموا بسببه أن لا يخرجوا منه ليلة عرفة. وكانوا يقولون : نحن أبناء الحرم وقطان بيت اللّه. فكانوا لا يقفون بعرفات مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عليه السلام، حتى لا يخرجوا عن نظام ما كانوا قرروه من البدعة الفاسدة. وكانوا لا يدخرون من اللبن أقطاً ولا سمناً ولا يسلون شحماً وهم حرم. ولا يدخلون بيتاً من شعر ولا يستظلون إن استظلوا إلا ببيت من أدَم. وكانوا يمنعون الحجيج والعمار – ما داموا محرمين – أن يأكلوا إلا من طعام قريش، ولا يطوفوا إلا في ثياب قريش، فإن لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الحمس وهم قريش وما ولدوا ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة طاف عريانا، ولو كانت امرأة، ولهذا كانت المرأة إذا اتفق طوافها لذلك وضعت يدها على فرجها وتقول :

اليـــومَ يَبْدُو بعضُه أو كُلُّه وَبَعْــدَ هَذَا اليــــومِ لا أَحِلُّهُ

فإن تكرم أحد ممن يجد ثوب أحمسي، فطاف في ثياب نفسه فعليه إذا فرغ من الطواف أن يلقيها فلا ينتفع بها بعد ذلك. وليس له ولا لغيره أن يمسها. وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقي قال بعض الشعراء :

كفـــى حَــــزَناً كرى عليه كَأَنَّه لقي بَيْنَ أَيْدي الطائفين حريمُ

قال ابن إسحاق : فكانوا كذلك حتى بعث اللّه محمداً ﷺ وأنزلَ عليه القرآن رداً عليهم فيما ابتدعوه فقال : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة : ١٩٩] أي جمهور العرب من عرفات ﴿ واسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩] وقد قدمنا أن رسول اللّه ﷺ كان يقف بعرفات قبل أن ينـــزل عليه توفيقاً من اللّه له، وأنزل اللّه عليه ردًّا عليهم فيما كانوا حرموا من اللباس والطعام على الناس ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِد وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣١ ، ٣٢] الآية. وقال زياد البكائي عن ابن إسحاق : ولا أدري أكان ابتداعهم لذلك قبل الفيل أم بعده ؟ .

مبعث رسول اللّه ﷺ تسليما كثيراً
وذكر شيء من البشارات بذلك

قال محمد بن إسحاق رحمه اللّه : وكانت الأحبار من اليهود والكهان من النصارى ومن العرب قد تحدثوا بأمر رسول اللّه ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه، أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فعما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه. قال اللّه تعالى : **﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإِنجِيلِ﴾**[الأعراف: ١٥٧] الآية وقال اللّه تعالى : **﴿ وإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾** [الصف: ٦]. وقال اللّه تعالى **﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ ورِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ومَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾** [الفتح : ٢٩] الآية.

و قال اللّه تعالى: **﴿ وإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾** [آل عمران : ٨١] وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : « **ما بعث اللّه نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وليتبعنه** » يعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشروا وأمروا باتباعه.

وقد قال إبراهيم عليه السلام فيما دعا به لأهل مكة : **﴿ رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾** [البقرة : ١٢٩] الآية.

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج بن فضالة، حدثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة قال: قلت : يا رسول اللّه، ما كان بدء أمرك ؟ قال : « **دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام** » وقد روى محمد بن إسحاق، عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول اللّه ﷺ عنه مثله ومعنى هذا أنه أراد بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره وانتشاره، فذكر دعوة إبراهيم الذي تنسب إليه العرب، ثم بشرى عيسى الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل كما تقدم. يدل هذا على أن من بينهما من الأنبياء بشروا به أيضا.

أما في الملأ الأعلى فقد كان أمره مشهوراً مذكوراً معلوماً من قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد ابن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العرباض بن سارية. قال: قال رسول

الله ﷺ : « إني عبد الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين ترين » [(١)]. وقد رواه الليث عن معاوية بن صالح وقال : إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام. وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا منصور بن سعد عن بديل بن ميسرة، عن عبد الله ابن شقيق، عن ميسرة الفجر. قال : قلت : يا رسول الله متي كنت نبيا ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد .» تفرد بهن أحمد.

وقد رواه عمر بن أحمد بن شاهين في كتاب " دلائل النبوة " من حديث أبي هريرة فقال: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز – يعني أبا القاسم البغوي–، حدثنا أبو همام الوليد بن مسلم عن الأوزاعي. حدثني، يحى عن أبي سلمة عن أبي هريرة. قال : سئل رسول الله ﷺ متى وجبت لك النبوة ؟. قال: « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » [(٢)] ورواه من وجه آخر عن الأوزاعي به. وقال : « وآدم منجدل في طينته ». وروي عن البغوي أيضاً عن أحمد بن المقدام عن بقية بن سعيد بن بشير، عن قتادة عن أبي هريرة – مرفوعاً – في قول الله تعالى : **﴿ وإذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ومِنكَ ومِن نُوحٍ ﴾** [الأحزاب : ٧] قال رسول الله ﷺ : «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث » ومن حديث أبي مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر عن الشعبي عن ابن عباس: قيل : يا رسول الله متي كنت نبياً ؟. قال : «وآدم بين الروح والجسد ».

وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع، إذ كانت وهي لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما بعض ذكر أموره ولا يلقي العرب ذلك فيه بالاً. حتى بعثه الله تعالى، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها، فلما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر زمان مبعثه حجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تعقد لاستراق السمع فيها، فرموا بالنجوم فعرفت الشياطين أن ذلك لأمر حدث من أمر الله عزّ وجلّ. قال: وفي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ **﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ولَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾** [الجن : ١ ، ٢] إلى آخر السورة. وقد ذكرنا تفسير ذلك كله في كتابنا التفسير، وكذا قوله تعالى : **﴿ وإذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [الأحقاف : ٢٩ ، ٣٠] الآيات، ذكرنا تفسير ذلك كله هناك.

---

(١) حسن : رواه أحمد (٤ / ١٢٧) والطبراني فى " الكبير " (١٨ / ٢٥٢) رقم (٦٢٩) وابن سعد فى "الطبقات " (١ /١ / ٩٦) والحاكم (٢ / ٤١٨) والبيهقى فى " الدلائل " (١ / ٨٠ ، ٨١) .

(٢) ضعيف : فى سنده الوليد بن مسلم وهو مولى وقد عنعن .

قال محمد بن إسحاق : حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن أول العرب فزع للرمي بالنجرم حين رمي بها – هذا الحي من ثقيف– وإنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له : عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان أدهى العرب وأمكرها، فقالوا له: يا عمرو ألم تَرَ ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال : بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء، لما يصلح الناس في معايشهم هي التي يرمى بها، فهو والله طي الدنيا، وهلاك هذا الخلق وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق فما هو ؟.

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم : أن امرأة من بني سهم – يقال لها : الغيطلة– كانت كاهنة في الجاهلية جاءها صاحبها ليلة من الليالي فانقض تحتها، ثم قال : أدر ما أدر يوم عقر ونحر، فقالت قريش حين بلغها ذلك ما يريد ؟ ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها. ثم قال: شعوب ما شعوب ؟ تصرع فيه كعب بجنوب. فلما بلغ ذلك قريشا. قالوا : ماذا يريد ؟ إن هذا لأمر هو كائن فانظروا ما هو، فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب، فعرفوا أنه كان الذي جاء به إلى صاحبته.

قال ابن إسحاق : وحدثني علي بن نافع الجرشي أن جنباً – بطناً من اليمن– كان لهم كاهن في الجاهلية، فلما ذُكر أمر رسول الله ﷺ وانتشر في العرب، قالت له : جنب انظر لنا في أمر هذا الرجل واجتمعوا له في أسفل جبله. فنـــزل إليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له، فرفع رأسه إلى السماء طويلا، ثم جعل ينـــزو، ثم قال : أيها الناس إن الله أكرم محمداً واصطفاه، وطهر قلبه وحشاه ،ومكثه فيكم، أيها الناس قليل. ثم اشتد في جبله راجعاً من حيث جاء، ثم ذكر ابن إسحاق قصة سواد بن قارب وقد أخرناها إلى هواتف الجان.

فصل ما يتصل بذلك من البشارات

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه. قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام – مع رحمة الله تعالى وهداه لنا – أن كنا نسمع من رجل من يهود – وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا يزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرَم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسول الله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به. فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به. ففينا وفيهم نزلت هذه الآية ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[البقرة : ٨٩].

وقال ورقاء عن ابن أبي نجيح عن علي الأزدي : كانت اليهود تقول : اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس يستفتحون به – أي يستنصرون به – رواه البيهقي. ثم روى من

طريق عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : قال: كانت اليهود بخيبر تقاتل غطفان، فكلما التقوا هزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء. فقالوا : اللهم نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا به. فأنزل اللّه عزّ وجلّ : ﴿ وكانوا من قَبْلُ يَستَفتِحُونَ عَلَى الَّذينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة : ٨٩] الآية. وروى عطية عن ابن عباس نحوه. وروي عن عكرمة من قوله نحو ذلك أيضاً.

وقال ابن إسحاق : وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد عن سلمة بن سلام بن وقش – وكان من أهل بدر – قال: كان لنا جار من يهود في بني عبدالأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف علي بني عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سنا على فروة لي مضطجع فيها بفناء أهلي، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار. قال : فقال : ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان أو ترى هذا كائناً ؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟ قال: نعم، والذي يحلف به ويود أن له تحطه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه، وأن ينجون من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك يا فلان فما آية ذلك ؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده إلى نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه ؟ قال – فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سنا – فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فواللّه ما ذهب الليل والنهار حتى بعث اللّه رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً. قال : فقلنا له: ويحك يا فلان ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال: بلى ولكن ليس به. رواه أحمد عن يعقوب عن أبيه عن ابن عباس. ورواه البيهقي عن الحاكم بإسناده من طريق يونس بن بكير [(١)].

وروى أبو نعيم في «الدلائل» عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن محمد بن سلمة قال : لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهودي واحد يقال له : يوشع، فسمعته يقول – وإني لغلام في إزار – : قد أظلكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت. ثم أشار بيده إلى بيت اللّه، فمن أدركه فليصدقه. فبعث رسول اللّه ﷺ فأسلمنا وهو بين أظهرنا لم يسلم حسداً وبغيا. وقد قدمنا حديث أبي سعيد عن أبيه في أخبار يوشع هذا عن خروج رسول الله ﷺ وصفته ونعته وأخبار الزبير بن باطا عن ظهور كوكب مولد رسول الله ﷺ، ورواه الحاكم عن البيهقي بإسناده من طريق يونس بن بكير عنه.

قال ابن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال : قال لي : هل تدري عم كان إسلام ثعلبة بن سعيد، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد – نفر من بني هدل،

(١) رواه أحمد (١٥٨٤١) .

إخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليتهم، ثم كانوا سادتهم في الإسلام ؟ . قال : قلت: لا، قال: فإن رجلاً من اليهود من أرض الشام يقال له : ابن الهيبان قدم علينا قبل الإسلام بسنين فحل بين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له : اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة، فنقول له : كم ؟. فيقول : صاعاً من تمر، أو مدين من شعير. قال: فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقي لنا، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ويسقي. قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً. قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟. قال : قلنا: أنت أعلم قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أَتَوَكَّفُ [1] خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجرة، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه فلا تسبقن إليه يامعشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء ، وسبي الذراري فيمن خالفه فلا يمنعنكم ذلك منه. فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر بني قريظة. قال : هؤلاء الفتية - وكانوا شباباً أحداثاً - : يابني قريظة والله إنه للنبي الذي عهد إليكم فيه ابن الهيبان. قالوا: ليس به. قالوا: بلى والله إنه لهو بصفته. فنـزلوا فأسلموا فاحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

قال ابن إسحاق فهذا ما بلغنا عن أحبار يهود.

قلت : وقد قدمنا في قدوم تبع اليماني وهو أبو كرب تبان أسعد إلى المدينة ومحاصرته إياها، وأنه خرج إليه ذانك الحبران من اليهود فقالا له: إنه لا سبيل لك عليها، أنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان فثناه ذلك عنها. وقد روى أبو نعيم في الدلائل من طريق الوليد بن مسلم، حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف، بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده. قال : قال عبد الله ابن سلام : إن الله لما أراد هدي زيد بن سعية. قال زيد: لم يبقَ شيءٌ من علامات النبوة إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ، حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. قال: فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، فذكر قصة إسلافه للنبي ﷺ مالا في ثمرة، قال: فلما حلَّ الأجل أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه - وهو في جنازة مع أصحابه - ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت : يامحمد ألا تقضيني حقي ؟. فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطل، قال: فنظر إلى عمر وعيناه يدوران في وجهه كالفلك المستدير. ثم قال: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتفعل ما أرى ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم. ثم قال : « أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن

---

(١) أَتَوَكَّفُ: أنتظر الخبر .

الأداء، وتأمره بحسن التباعة، اذهب به يا عمر فاقضه حقه. وزد عشرين صاعاً من تمر » فأسلم زيد بن سعية - رضي الله عنه - . وشهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وتوفي عام تبوك رحمه الله.

ثم ذكر ابن إسحاق رحمه الله : إسلام سلمان الفارسي - رضي الله عنه وأرضاه - . فقال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس. قال: حدثني سلمان الفارسي - من فيه - قال: كنت رجلاً فارسيا من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها : جي [(١)] وكان أبي دهقان [(٢)] قريته وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية، حتى كنت قطن النار [(٣)] التي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يوماً. فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد. ثم قال لي: ولا تحتبس عني فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري. قال: فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون. وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم. وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها. ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين ؟ قالوا: بالشام، فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن أمره كله. فلما جئت قال: أي بني أين كنت ألم أكن أعهد إليك ما عهدته ؟ قال : قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني ليس في ذلك الدين خير؛ دينك ودين آبائك خير منه. قال : قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا. قال: فخافني فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته.

قال : وبعثت إلى النصارى. فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشام فجاءوني النصارى فأخبروني بهم. فقلت : إذا قضوا حوائجهم وأرادو الرجعة إلى بلادهم فآذنوني. قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها. قلت : من أفضل أهل هذا الدين علماً ؟. قالوا: الأسقف في الكنيسة. قال: فجئته. فقلت له : إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك وأتعلم منك فأصلي معك. قال: ادخل فدخلت معه، فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئاً

(١) جي : مدينة ناحية أصبهان القديمة .

(٢) الدهقان : شيخ القرية العارف بالفلاحة ، يلجأ إليه فى معرفة ذلك .

(٣) قطن النار : هو خادمها الذى يخدمها ويمنعها من أن تنطفئ . والفرس كانوا مجوساً يعبدون النار.

كنـــزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال: وابغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع. ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه. فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها كنـــزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً. قال: فقالوا: لي وما علمك بذلك ؟ قال: فقلت لهم: أنا أدلكم على كنـــزه، قالوا: فدلنا. قال : فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقا، فلما رأوها قالوا : لا ندفنه أبداً. قال : فصلبوه ورجموه بالحجارة. وجاءوا برجل آخر فوضعوه مكانه. قال سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً. قال: فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله. قال: فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة. فقلت له: إني قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى فإلى من توصي بي ؟ وبم تأمرني به ؟ قال : أي بني والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه. لقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان وهو على ما كنت عليه فألْحق به. قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل. فقلت: يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، فقال لي: أقم عندي.

فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلي من توصي بي؟ وبم تأمرني ؟ به قال: يا بني والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به، فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباي. فقال: أقم عندي فأقمت عنده. فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له: يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي؟ ، وبم تأمرني؟ . قال: يا بني والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجل بعمورية من أرض الروم فإنه على مثل ما نحن عليه. فإن أحببت فَأْتِه فإنه على أمرنا. فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري فقال: أقم عندي فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم. قال: واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله فلما حضر. قلت له: يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان؛ ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني ؟ قال : أي بني، والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجره إلى الأرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت أن تلحق

بتلك البلاد فافعل. قال: ثم مات وغيب ومكثت بعمورية ما شاء اللّه أن أمكث. ثم مر بي نفر من كلب تجار. فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه. قالوا: نعم فأعطيتهموها وحملوني معهم حتى إذا بلغوا وادي القري ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة، فواللّه ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمت بها وبعث رسول اللّه ﷺ فأقام بمكة ما أقام ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة فواللّه إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل. وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه. فقال: يا فلان قاتل اللّه بني قيلة. واللّه إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي. قال سلمان: فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننت أني ساقط على سيدي فنـــزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة. ثم قال: مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك. قال : فقلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال. قال: وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته. ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ – وهو بقباء – فدخلت عليه. فقلت له : إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم. قال: فقربته إليه، فقال رسول اللّه ﷺ لأصحابه: «كلوا » وأمسك يده فلم يأكل، فقلت في نفسي : هذه واحدة. ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئاً وتحول رسول اللّه ﷺ إلى المدينة. ثم جئته فقلت له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل رسول اللّه ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال : فقلت في نفسي: هاتان ثنتان. قال: ثم جئت رسول اللّه ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه. ثم استدبرته أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي ؟ فلما رآني رسول اللّه ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي. فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي. فقال لي رسول اللّه ﷺ : «**تحول** » فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس. فأعجب رسول اللّه ﷺ أن يسمع ذاك أصحابه. ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول اللّه ﷺ بدر وأحد. قال سلمان : ثم قال لي رسول اللّه ﷺ: « **كاتب يا سلمان** » فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير [1] وأربعين أوقية. فقال رسول اللّه ﷺ، لأصحابه: «**اعينوا أخاكم** » فأعانوني

(١) فقير النخلة : حفرة تحفر للفسيلة إذا حولت لتغرس فيها .

في النخل : الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة ودية والرجل بعشرة. يعين الرجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية. فقال لي رسول اللّه ﷺ : « ذهب ياسلمان ففقرت لها، فإذا فرغت فأتني أكن أنا أضعها بيدي ». قال : ففقرت، وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت جئته [١] فأخبرته فخرج رسول الله ﷺ معى إليها . فجعلنا نقرب إليه الودى ويضعه رسول الله ﷺ بيده حتى إذا فرغنا والذى نفسى سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة . فأديت النخل وبقى عليّ المال ، فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن . فقال : ما فعل الفارسى المكاتب ؟ . قال : فدعيت له قال : "خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان " قال : قلت : وأين تقع هذه مما عليّ يا رسول الله ؟ . قال : "خذها فإن الله سيؤدى بها عنك " قال : فأخذتها فوزنت لهم منها – والذى نفسى سلمان بيده– أربعين أوقية . فأوقيتهم حقهم وعتق سلمان. فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرا ثم لم يفتنى معه مشهد.

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن رجل من عبد القيس عن سلمان أنه قال لما قلت: وأين تقع هذه من الذي على يا رسول اللّه ؟. أخذها رسول اللّه ﷺ فقلبها على لسانه. ثم قال : «خذها فأوفهم منها » . فأخذتها فأوفيتهم منها حقهم كله أربعين أوقية.

وقال محمد بن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة حدثني من لا أتهم عن عمر بن عبد العزيز بن مروان. قال: حدثت عن سلمان أنه قال لرسول اللّه ﷺ حين أخبره أن صاحب عمورية : قال له : إيت كذا وكذا من أرض الشام، فإن بها رجلاً بين غيضتين يخرج كل سنة من هذه الغيضه مستجيزا يعترضه ذوو الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلا شفي، فأسأله عن هذا الدين الذي تبتغي فهو يخبرك عنه، قال سلمان: فخرجت حتى جئت حيث وصف لي فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هناك حتى يخرج لهم تلك الليلة، مستجيزا من إحدى الغيضتين إلى الأخرى. فغشيه الناس بمرضاهم لا يدعو لمريض إلا شفي وغلبوني عليه فلم أخلص إليه حتى دخل الغيضة التي يريد أن يدخل إلا منكبه. قال : فتناولته : فقال: من هذا ؟ والتفت إلي قال : قلت: يرحمك اللّه أخبرني عن الحنيفية دين إبراهيم، قال: إنك لتسأل عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم، قد أظلك زمان نبي يبعث بهذا الدين من أهل الحرم، فأته فهو يحملك عليه. ثم دخل فقال رسول اللّه ﷺ لسلمان : « لئن كنت صدقتني يا سلمان لقد لقيت عيسى ابن مريم » [٢] .

---

(١) صحيح : رواه ابن إسحاق كما فى السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٣٥ – ١٤٠) وأحمد (٥/٤٤١– ٤٤٤) وابن سعد فى " الطبقات " (٤ / ٦ / ٥٣ – ٥٧) وابن الأثير فى أسد الغابة (٢ / ٤١٧ – ٤١٩) والطبرانى فى " الكبير " (٦٠٦٥) والخطيب فى تاريخه (١ / ١٦٤ – ١٦٩) .

(٢) ضعيف : رواه ابن إسحاق كما فى " السيرة النبوية " لابن هشام (١ / ١٤٠) وأحمد (٥ / ٤٤٤) وابن سعد فى " الطبقات " (٤ / ٥٧) وفى سنده مجهول . وقال السهيلى : إن الرجل المبهم فى الإسناد وهو الحسن بن عمارة وهو ضعيف .

هكذا وقع في هذه الرواية. وفيها رجل مبهم وهو شيخ عاصم بن عمر بن قتادة. وقد قيل : إنه الحسن بن عمارة ثم هو منقطع بل معضل بين عمر بن عبد العزيز، وسلمان – رضي الله عنه – قوله لئن كنت صدقتني يا سلمان لقد لقيت عيسى بن مريم غريب جداً بل منكر. فإن الفترة أقل ما قيل فيها : إنها أربعمائة سنة، وقيل : ستمائة سنة بالشمسية، وسلمان أكثر ما قيل : إنه عاش ثلاثمائة سنة وخمسين سنة. وحكى العباس بن يزيد البحراني إجماع مشايخه على أنه عاش مائتين وخمسين سنة. واختلفوا فيما زاد إلى ثلاثمائة وخمسين سنة والله أعلم. والظاهر أنه قال : لقد لقيت وصي عيسى بن مريم فهذا ممكن بالصواب .

وقال السهيلي : الرجل المبهم هو الحسن بن عمارة وهو ضعيف وإن صح لم يكن فيه نكارة لأن ابن جرير ذكر أن المسيح نزل من السماء بعد ما رفع فوجد أمه وامرأة أخرى يبكيان عند جذع المصلوب فأخبرهما أنه لم يقتل وبعث الحواريين بعد ذلك. قال: وإذا جاز نزوله مرة جاز نزوله مراراً، ثم يكون نزوله الظاهر حين يكسر الصليب، ويقتل الخنـــزير، ويتزوج حينئذ امرأة من بني جذام، وإذا مات دفن في حجرة روضة رسول الله ﷺ .

وقد روى البيهقي في كتاب " دلائل النبوة " : قصة سلمان هذه من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق كما تقدم ورواها أيضاً عن الحاكم عن الأصم ، عن يحيى بن أبي طالب. حدثنا علي بن عاصم، حدثنا حاتم بن أبي صغيرة عن سماك بن حرب عن يزيد بن صوحان أنه سمع سلمان يحدث كيف كان أول إسلامه. فذكر قصة طويلة وذكر أنه كان من رامهرمز وكان له أخ أكبر منه غني وكان سلمان فقيراً في كنف أخيه، وأن ابن دهقانها كان صاحباً له وكان يختلف معه إلى معلم لهم، وأنه كان يختلف ذلك الغلام إلى عباد من النصارى في كهف لهم، فسأله سلمان أن يذهب به معه إليهم. فقال له: إنك غلام وأخشى أن تنم عليهم فيقتلهم أبي، فالتزم له أن لا يكون منه شيء يكرهه فذهب به معه فإذا هم ستة – أو سبعة – كأن الروح قد خرجت منهم من العبادة يصومون النهار ويقومون الليل يأكلون الشجر وما وجدوا، فذكر عنهم أنهم يؤمنون بالرسل المتقدمين، وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته أيده بالمعجزات. وقالوا له: يا غلام إنّ لك رباً وإنّ لك معاداً وإنّ بين يديك جنةً وناراً، وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة لا يرضى الله بما يصنعون وليسوا على دينه؛ ثم جعل يتردد مع ذلك الغلام إليهم، ثم لزمهم سلمان بالكلية، ثم أجلاهم ملك تلك البلاد وهو أبو ذلك الغلام الذي صحبه سلمان إليهم عن أرضه، واحتبس الملك ابنه عنده وعرض سلمان دينهم على أخيه الذي هو أكبر منه، فقال: إني مشتغل بنفسي في طلب المعيشة فارتحل معهم سلمان حتى دخلوا كنيسة الموصل فسلّم عليهم أهلها، ثم أرادوا أن يتركوني عندهم فأبيت إلا صحبتهم فخرجوا، حتى أتوا وادياً بين جبال فتحدر إليهم رهبان تلك الناحية يسلمون عليهم واجتمعوا إليهم وجعلوا يسألونهم عن غيبتهم عنهم ، ويسألونهم عني، فيثنون علي خيراً، وجاء

رجل معظم فيهم فخطبهم فأثنى على اللّٰه بما هو أهله وذكر الرسل وما أيدوا به وذكر عيسى ابن مريم وأنه كان عبد اللّٰه ورسوله وأمرهم بالخير ونهاهم عن الشر، ثم لما أرادوا الانصراف تبعه سلمان ولزمه قال: فكان يصوم النهار ويقوم الليل من الأحد إلى الأحد فيخرج إليهم ويعظهم ويأمرهم وينهاهم، فمكث على ذلك مدة طويلة، ثم أراد أن يزور بيت المقدس فصحبه سلمان إليه قال: فكان فيما يمشي يلتفت إليّ ويقبل عليَّ فيعظني ويخبرني أن لي رباً وأن بين يدي جنةً وناراً وحساباً، ويعلمني ويذكرني نحو ما كان يذكر القوم يوم الأحد؛ قال فيما يقول لي : يا سلمان إن اللّٰه سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد يخرج من تهامة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة وهذا زمانه الذي يخرج فيه، وقد تقارب فأما أنا فإني شيخ كبير ولا أحسبني أدركه فإن أدركته أنت فصدقه واتبعه، قلت له: وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه قال: وإن أمرك ، فإن الحق فيما يجيء به ورضى الرحمن فيما قال. ثم ذكر قدومهما إلى بيت المقدس وأن صاحبه صلى فيه هاهنا وهاهنا، ثم نام وقد أوصاه أنه إذا بلغ الظل مكان كذا أن يوقظه فتركه سلمان حيناً آخر أزيد مما قال ليستريح، فلما استيقظ ذكر اللّٰه ولام سلمان على ترك ما أمره من ذلك، ثم خرجا من بيت المقدس فسأله مقعد فقال: يا عبد اللّٰه سألتك حين وصلت فلم تعطني شيئاً وها أنا أسألك فنظر فلم يجد أحداً فأخذ بيده، وقال: قم بسم اللّٰه فقام، وليس به بأس ولا قلبة [1] كأنما نشط من عقال. فقال لي: يا عبد اللّٰه احمل علي متاعي حتى أذهب إلى أهلي فأبشرهم، فاشتغلت به ثم أدركت الرجل فلم ألحقه ولم أدر أين ذهب، وكلما سألت عنه قوماً. قالوا : أمامك حتى لقيني ركب من العرب من بني كلب فسألتهم فلما سمعوا لغتي أناخ رجل منهم بعيره فحملني خلفه حتى أتوا بي بلادهم. فباعوني فاشترتني امرأة من الأنصار فجعلتني في حائط لها وقدم رسول اللّٰه ﷺ . ثم ذكر ذهابه إليه بالصدقة والهدية ليستعلم ما قال صاحبه، ثم تطلب النظر إلى خاتم النبوة فلما رآه آمن من ساعته. وأخبر رسول اللّٰه ﷺ خبره الذي جرى له. قال : فأمر رسول اللّٰه ﷺ أبا بكر الصديق فاشتراه من سيدته فأعتقه، قال: ثم سألته يوماً عن دين النصارى فقال: لا خير فيهم. قال: فوقع في نفسي من أولئك الذين صحبتهم ومن ذلك الرجل الصالح الذي كان معي ببيت المقدس فدخلني من ذلك أمر عظيم حتى أنزل اللّٰه على رسول اللّٰه ﷺ : **﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾** [المائدة : ٨٢] فدعاني رسول اللّٰه ﷺ فجئت وأنا خائف فجلست بين يديه فقرأ بسم اللّٰه الرحمن الرحيم : **﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾** الآيات. ثم قال:« يا سلمان أولئك الذين كنت معهم وأصحابك لم يكونوا نصارى كانوا مسلمين » فقلت: يا رسول اللّٰه والذي بعثك بالحق لهو أمرني باتباعك. فقلت له: فإن أمرني بترك دينك

---

(١) القلبة : دَاءٌ وألم من علة .

وما أنت عليه ؟ قال: " **نعم فاتركه فإن الحق وما يرضى الله فيما يأمرك** " . وفى هذا السياق غرابة كثيرة ، وفيه بعض المخالفة لسياق محمد بن إسحاق . وطريق محمد بن إسحاق أقوى إسناداً وأحسن اقتصاصاً وأقرب إلى ما رواه البخارى فى صحيحه من حديث معتمر بن سليمان بن طرخان التيمى عن أبيه ، عن أبي عثمان النهدى ، عن سلمان الفارسى أنه تداوله بضعة عشر ، من رب إلى رب ، أى من معلم إلى معلم ومرب إلى مثله [١] والله أعلم .

قال السهيلي : تداوله ثلاثون سيداً من سيد إلى سيد، فاللّه أعلم. وكذلك استقصى قصة إسلامه الحافظ أبو نعيم في «الدلائل» وأورد لها أسانيد وألفاظاً كثيرة، وفي بعضها أن اسم سيدته التي كاتبته حلبسة، فاللّه أعلم .

ذكر أخبار غريبة في ذلك

قال أبو نعيم في «الدلائل» : حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن زكرياء الغلابي، حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبي السوية المنقري، حدثنا عباد بن كسيب عن أبيه عن أبي عتوارة الخزاعي عن سعير بن سوادة العامري. قال: كنت عشيقاً لعقيلة من عقائل الحي، أركب لها الصعب والذلول [٢] لا أبقي من البلاد مسرحا أرجو ربحا في متجر إلا أتيته، فانصرفت من الشام بحرث وأثاث أريد به كبة الموسم ودهماء العرب، فدخلت مكة بليل مسدف [٣] فأقمت حتى تعرى عني قميص الليل فرفعت رأسي فإذا قباب مسامتة شَعَف الجبال، مضروبة بأنطاع [٤] الطائف وإذا جزر تنحر وأخرى تساق، وإذا أكلة وحثثة على الطهاة يقولون : ألا عجلوا ألا عجلوا، وإذا رجل يجهر على نشز [٥] من الأرض، ينادي يا وفد اللّه ميلوا إلى الغداء. وأنيسان على مدرجة يقول : يا وفد اللّه من طعم فليرح إلى العشاء، فجهرني مارأيت فأقبلت أريد عميد القوم، فعرف رجل الذي بي، فقال: أمامك، وإذا شيخ كأن في خديه الأساريع [٦]، وكأن الشمرى توقد من جبينه، قد لاث على رأسه عمامة سوداء قد أبرز من ملائها جمة فينانة كأنها سماسم. قال: في بعض الروايات تحته كرسي سماسم [٧] ومن دونها نمرقة بيده قضيب متخصر به حوله مشايخ جلس نواكس الأذقان ما منهم أحد يفيض بكلمة. وقد كان نمى إلي خبر من أخبار الشام أن النبي الأمي هذا أوان نجومه، فلما رأيته ظننته ذلك. فقلت : السلام عليك يا رسول اللّه. فقال : مَهٍ مَهٍ [٨]، كلا وكأن قد وليتني إياه فقلت: من

---

(١) رواه البخارى (٣٩٤٦) .
(٢) الصعب والذلول : الناقة التى يصعب ركوبها أو يسهل .
(٣) مسدف : مظلم .
(٤) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب بقطع الرأس .
(٥) نشز : مرتفع
(٦) الأساريع : الحظوظ .
(٧) سماسم – الأولى : عيدان السمسم ، والثانية : خشب أسود كالآبنوس .
(٨) مَهٍ مَهٍ : اسم فعل أمر ومعناه اكْفُفْ .

هذا الشيخ ؟. فقالوا: هذا أبونضلة، هذا هاشم بن عبد مناف، فوليت وأنا أقول هذا والله لأمجد آل جفنة - يعني ملوك عرب الشام من غسان كان يقال لهم: آل جفنة - وهذه الوظيفة التي حكاها عن هشام هي الرفادة يعني إطعام الحجيج زمن الموسم.

وقال أبو نعيم : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا محمد بن أحمد بن أبي يحيى حدثنا سعيد بن عثمان، حدثنا علي بن قتيبة الخراساني، حدثنا خالد بن إلياس عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي الجهم عن أبيه عن جده. قال: سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب. قال : بينا أنا نائم في الحجر إذ رأيت رؤيا هالتني ففزعت منها فزعاً شديداً، فأتيت كاهنة قريش وعليَّ مطرف خز وجمتي تضرب منكبي فلما نظرت إليَّ عرفت في وجهي التغيير وأنا يومئذ سيد قومي. فقالت : ما بال سيدنا قد أتانا متغير اللون ؟. هل رابه من حدثان الدهر شيء ؟. فقلت لها: بلى! وكان لا يكلمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى، ثم يضع يده على أم رأسها. ثم يذكر حاجته ولم أفعل لأني كبير قومي. فجلست فقلت: إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحجر كأن شجرة تنبت قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب،وما رأيت نوراً أزهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً. ورأيت العرب والعجم ساجدين لها وهي تزداد كل ساعة عظما ونوراً وارتفاعاً ساعة تخفي وساعة تزهر، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها. فإذا دنوا منها أخرهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم. فرفعت يدي لأتناول منها نصيباً، فمنعني الشاب . فقلت: لمن النصيب ؟. فقال: النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك إليها. فانتبهت مذعوراً فزعاً فرأيت وجه الكاهنة قد تغير، ثم قالت : لئن صدق رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ويدين له الناس.

ثم قال - يعني عبد المطلب - لأبي طالب، لعلك تكون هذا المولود. قال: فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعد ما ولد رسول الله ﷺوبعد ما بعث. ثم قال: كانت الشجرة والله أعلم أبا القاسم الأمين، فيقال لأبي طالب : ألا تؤمن ؟ فيقول: السبة والعار.

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد بن زكريا الغلابي، حدثنا العباس بن بكار الضبي، حدثنا أبو بكر الهذلي عن عكرمة عن ابن عباس. قال : قال : العباس خرجت في تجارة إلى اليمن في ركب - منهم أبو سفيان بن حرب، فقدمت اليمن فكنت أصنع يوماً طعاماً وأنصرف بأبي سفيان وبالنفر ويصنع أبو سفيان يوماً، ويفعل مثل ذلك، فقال لي في يومي الذي كنت أصنع فيه : هل لك يا أبا الفضل أن تنصرف إلى بيتي وترسل إلي غداءك ؟. فقلت: نعم. فانصرفت أنا والنفر إلى بيته وأرسلت إلى الغداء فلما تغدى القوم قاموا واحتبسني. فقال: هل علمت ياأبا الفضل أن ابن أخيك يزعم أنه رسول الله ؟. فقلت: أي بني أخي؟. فقال أبوسفيان: إياي تكتم؟. وأي بني أخيك ينبغي أن يقول هذا إلا رجل واحد ؟. قلت: وأيهم

على ذلك؟. قال : هو محمد بن عبد اللّه، فقلت: قد فعل ؟. قال: بلى قد فعل. وأخرج كتاباً باسمه من ابنه حنظلة بن أبي سفيان فيه : أخبرك أن محمداً قام بالأبطح . فقال: « أنا رسول أدعوكم إلى اللّه عزّ وجلّ » فقال العباس : قلت أجده: يا أبا حنظلة صادق. فقال: مهلاً يا أبا الفضل فواللّه ماأحب أن يقول مثل هذا، إني لا أخشى أن يكون على ضير من هذا الحديث يا بني عبد المطلب، إنه واللّه ما برحت قريش تزعم أن لكم هنة [1] وهنة، كل واحدة منها غاية. لنشدتك يا أبا الفضل هل سمعت ذلك ؟. قلت: نعم قد سمعت. قال : فهذه واللّه شؤمتكم. قلت: فلعلها يمنتنا قال : فما كان بعد ذلك إلا ليال حتى قدم عبد اللّه بن حذافة بالخبر وهو مؤمن، ففشا ذلك في مجالس اليمن، وكان أبو سفيان يجلس مجلساً باليمن يتحدث فيه حبر من أحبار اليهود، فقال له اليهودي: ماهذا الخبر ؟. بلغني أن فيكم عم هذا الرجل الذي قال ما قال؟. قال أبو سفيان : صدقوا وأنا عمه، فقال اليهودي : أخو أبيه ؟. قال: نعم ! قال: فحدثني عنه قال : لا تسألني ما أحب أن يدعي هذا الأمر أبداً، وما أحب أن أعيبه وغيره خير منه، فرأى اليهودي أنه لا يغمس عليه ولايحب أن يعيبه. فقال اليهودي : ليس به بأس على اليهود، وتوراة موسى. قال العباس : فناداني الحبر، فجئت فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد، وفيه أبو سفيان بن حرب والحبر، فقلت للحبر: بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منا زعم أنه رسول اللّه ﷺ وأخبرك أنه عمه، وليس بعمه. ولكن ابن عمه وأنا عمه وأخو أبيه. قال: أخو أبيه ؟. قلت: أخو أبيه، فأقبل على أبي سفيان. فقال : صدق ؟. قال: نعم صدق، فقلت: سلني فإن كذبت فليرد علي، فأقبل علي. فقال: نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة [2] أو سفهة ؟. قلت: لا وإله عبد المطلب ولا كذب ولا خان، وأنه كان اسمه عند قريش الأمين. قال: فهل كتب بيده؟. قال العباس: فظننت: أنه خير له أن يكتب بيده فأردت أن أقولها ثم ذكرت مكان أبي سفيان يكذبني ويرد علي فقلت: لا يكتب فوثب الحبر ونزل رداؤه. وقال: ذبحت يهود، وقتلت يهود. قال العباس: فلما رجعنا إلى منـــزلنا، قال أبو سفيان: يا أبا الفضل إن اليهود تفزع من ابن أخيك، قلت: قد رأيت ما رأيت، فهل لك يا أبا سفيان أن تؤمن به ، فإن كان حقا كنت قد سبقت وإن كان باطلا فمعك غيرك من أكفائك ؟. قال: لا أؤمن به حتى أرى الخيل في كداء، قلت: ما تقول ؟. قال: كلمة جاءت على فمي إلا أني أعلم أن اللّه لا يترك خيلا تطلع من كداء. قال العباس: فلما استفتح رسول اللّه ﷺ مكة ونظرنا إلى الخيل وقد طلعت من كداء، قلت: يا أبا سفيان تذكر الكلمة ؟. قال: إي واللّه إني لذاكرها فالحمد للّه الذي هداني للإسلام. وهذا سياق حسن عليه البهاء والنور وضياء الصدق وإن كان في رجاله من هو متكلم فيه واللّه أعلم.

---

(١) هنة وهنة : أشياء وأشياء .

(٢) صبوة : عشق .

وقد تقدم ما ذكرناه في قصة أبي سفيان مع أمية بن أبي الصلت، وهو شبيه بهذا الباب وهو من أغرب الأخبار وأحسن السياقات وعليه النور. وسيأتي أيضا قصة أبي سفيان مع هرقل ملك الروم حين سأله عن صفات رسول الله ﷺ وأحواله، واستدلاله بذلك على صدقه ونبوته ورسالته. وقال له : كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أكن أظن أنه فيكم، ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقيه. ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ولئن كان ما تقول حقا ليملكن موضع قدمي هاتين. وكذلك وقع ولله الحمد والمنة.

وقد أكثر الحافظ أبو نعيم من إيراد الآثار والأخبار عن الرهبان والأحبار والعرب. فأكثر وأطيب وأحسن وأطيب رحمه الله ورضي عنه.

قصّة عمرو بن مرة الجهني

قال الطبراني: حدثنا علي بن إبراهيم الخزاعي الأهوازي. حدثنا عبد الله بن داود بن دلهاث ابن إسماعيل بن عبد الله بن شريح بن ياسر بن سويد صاحب رسول الله ﷺ ، حدثنا أبي عن أبيه دلهاث عن أبيه إسماعيل أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه أن أباه ياسر بن سويد. حدثه عن عمرو بن مرة الجهني. قال: خرجت حاجا في جماعة من قومي في الجاهلية، فرأيت في نومي وأنا بمكة نورا ساطعاً من الكعبة حتى وصل إلى جبل يثرب وأشعر جهينة. فسمعت صوتاً بين النور وهو يقول: انقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبعث خاتم الأنبياء. ثم أضاء إضاءة أخرى، حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن، وسمعت صوتا من النور وهو يقول: ظهر الإسلام، وكسرت الأصنام، ووصلت الأرحام، فانتبهت فزعا فقلت لقومي: والله ليحدثن لهذا الحي من قريش حدث - وأخبرتهم بما رأيت فلما انتهينا إلى بلادنا جاءني رجل يقال له: أحمد قد بعث فأتيته فأخبرته بما رأيت. فقال: « يا عمرو بن مرة أنا النبي المرسل إلى العباد كافة. أدعوهم إلى الإسلام، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام، وعبادة الله ورفض الأصنام، وحج البيت وصيام شهر رمضان من اثني عشر شهرا. فمن أجاب فله الجنة، ومن عصى فله النار، فآمن يا عمرو يؤمنك الله من هول جهنم » فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله آمنت بما جئت من حلال وحرام، وإن رغم ذلك كثيرا من الأقوام. ثم أنشدته أبياتا قلتها حين سمعت به. وكان لنا صنم. وكان أبي سادنا له فقمت إليه فكسرته. ثم لحقت بالنبي ﷺ وأنا أقول:

شهدتُ بأنّ اللّهَ حــقٌّ وأنّنــي ... لآلهَة الأحجــــارِ أولُ تــاركِ
وشمّرتُ عن ساق الإزارِ مُهَاجِراً ... إليكَ أجوبُ القفرَ بعدَ الدكادكِ[1]
لأصحبَ خيرَ الناسِ نفساً ووالداً ... رسولَ مليكُ الناسِ فوقَ الحبائكِ[2]

---

(١) الدكادك : الأرض الغليظة .

(٢) الحبائك : النجوم في السماء ذات الطرائق الحسنة أو الخَلْق الحسن .

فقال النبيﷺ : «مرحبا بك يا عمرو بن مرة » فقلت: يا رسول الله ابعثني إلى قومي. لعل الله يمن عليهم بي كما من علي بك. فبعثني إليهم. وقال : «**عليك بالرفق والقول السديد ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً** » فذكر أنه أتى قومه، فدعاهم إلى ما دعاه إليه رسول الله ﷺ فأسلموا كلهم. إلا رجلا واحداً منهم، وإنه وفد بهم إلى رسول اللهﷺ فرحب بهم وحياهم. وكتب لهم كتابا هذه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من الله على لسان رسول الله ﷺ ، بكتاب صادق، وحق ناطق مع عمرو بن مرة الجهني لجهينة بن زيد : أن لكم بطون الأرض وسهولها، وتلاع الأودية وظهورها، تزرعون نباته وتشربون صافيه، على أن تقروا بالخمس، وتصلوا صلاة الخمس وفي التبيعة والصريمة إن اجتمعتا وإن تفرقتا شاة شاة ، ليس على أهل الميرة صدقة ، ليس الوردة اللبقة وشهدم على نبيناﷺ من حضر من المسلمين بكتاب قيس بن شماس » . وذكر شعرا قاله عمرو بن مرة في ذلك كما هو مبسوط في " المسند الكبير " وبالله الثقة وعليه التكلان.

وقال الله تعالى : ﴿ **وإذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ومِنكَ ومِن نُوحٍ وإبْرَاهِيمَ ومُوسَى وعيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وأَخَذْنَا مِنهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً** ﴾ [الأحزاب : ٧] قال كثيرون من السلف : لما أخذ الله ميثاق بني آدم يوم ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** ﴾ [الأعراف : ١٧٢] أخذ من النبيين ميثاقا خاصاً ؛ وأكد مع هؤلاء الخمسة أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار الذين أولهم نوح وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد روى الحافظ أبو نعيم في كتاب " دلائل النبوة " من طرق عن الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة: سئل النبيﷺ متى وجبت لك النبوة ؟. قال: «**بين خلق آدم ونفخ الروح فيه** » (١) وهكذا رواه الترمذي من طريق الوليد بن مسلم. وقال : حسن غريب من حديث أبي هريرة، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن الزبير الحلبي، حدثنا أبو جعفر النفيلي، حدثنا عمرو بن واقد عن عروة بن رويم عن الصنابحي. قال : قال عمر: يارسول الله، متى جعلت نبيا ؟. قال : «**وآدم منجدل في الطين** » (٢) ثم رواه من حديث نصر بن مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر الجعفي عن الشعبي عن ابن عباس. قال : قيل: يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال :«**وآدم بين الروح والجسد** » وفي الحديث الذي أوردناه في قصة آدم حين استخرج الله من صلبه ذريته خص الأنبياء بنور بين أعينهم. والظاهر- والله أعلم - أنه كان على قدر منازلهم ورتبهم عند الله. وإذا كان الأمر كذلك فنور محمدﷺ كان أظهر وأكبر وأعظم منهم كلهم. وهذا تنويه عظيم وتنبيه ظاهر على شرفه وعلو قدره. وفي هذا المعنى الحديث الذي . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي . حدثنا معاوية بن صالح عن

---

(١) **حسن** : رواه الترمذى (٣٦٠٩) .

(٢) سبق تخريجه .

سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرباض بن سارية. قال: قال رسول الله ﷺ :« **إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات المؤمنين ترين** »[1] ورواه الليث وابن وهب عن عبد الرحمن بن مهدي، وعبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح وزاد: « إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام»[2] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن. حدثنا منصور بن سعيد عن بديل عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر. قال: قلت : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟. قال : « **وآدم بين الروح والجسد** » [3] إسناده جيد أيضاً، وهكذا رواه إبراهيم ابن طهمان وحماد بن زيد وخالد والحذاء عن بديل بن ميسرة به. ورواه أبو نعيم عن محمد بن عمر بن أسلم عن محمد بن بكر بن عمرو الباهلي عن شيبان عن الحسن بن دينار عن عبد الله ابن سفيان عن ميسرة الفجر. قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبياً ؟. قال : « **وآدم بين الروح والجسد** ».

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه " دلائل النبوة " : حدثنا أبو عمرو بن حمدان حدثنا الحسن ابن سفيان، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم عن خليد بن دعلج وسعيد عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، في قوله تعالى : ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ**﴾ [الأحزاب : ٧] قال : « **كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث** » ثم رواه من طريق هشام ابن عمار عن بقية عن سعيد بن نسير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعا مثله. وقد رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة وشيبان عن قتادة. قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال مثله. وهذا أثبت وأصح والله أعلم.

وهذا إخبار عن التنويه بذكره في الملأ الأعلى وأنه معروف بذلك بينهم بأنه خاتم النبيين وآدم لم ينفخ فيه الروح، لأن علم الله تعالى بذلك سابق قبل خلق السموات والأرض لا محالة فلم يبق إلا هذا الذي ذكرناه من الأعلام به في الملإ الأعلى والله أعلم.

وقد أورد أبو نعيم من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة الحديث المتفق عليه :« **نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم** » [4] وزاد أبو نعيم في آخره : فكان ﷺ آخرهم في البعث وبه ختمت النبوة. وهو السابق يوم القيامة. لأنه أول مكتوب في النبوة والعهد. ثم قال : ففي هذا الحديث الفضيلة لرسول الله ﷺ لما أوجب الله له النبوة قبل تمام خلق آدم. ويحتمل أن يكون هذا

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) **صحيح** : رواه أحمد (٥ / ٥٩) .

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٨٧٦) ومسلم (١٩٤٥) .

الإيجاب هو ما أعلم الله ملائكته ما سبق في علمه وقضائه من بعثته له في آخر الزمان وهذا الكلام يوافق ما ذكرناه ولله الحمد.

وروى الحاكم في " مستدركه " من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم – وفيه كلام – عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة. قال : يارب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي، فقال الله : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد ؟. فقال: يارب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله. فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت يا آدم أنه لأحب الخلق إليّ وإذ قد سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك »[١] قال البيهقي : تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف والله أعلم.

وقد قال الله تعالى : ﴿وإذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ٨١ فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[آل عمران ٨١ ، ٨٢] .

قال علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وهذا تنويه وتنبيه على شرفه وعظمته في سائر الملل وعلى ألسنة الأنبياء وإعلام لهم ومنهم برسالته في آخر الزمان، وإنه أكرم المرسلين وخاتم النبيين. وقد أوضح أمره وكشف خبره وبين سره، وجلى مجده ومولده وبلده إبراهيم الخليل في قوله عليه السلام حين فرغ من بناء البيت : ﴿ رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٩] فكان أول بيان أمره على الجلية والوضوح بين أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل أكرم الأنبياء على الله بعد محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهما وعلى سائر الأنبياء. ولهذا قال الإمام أحمد: حدثنا أبوالنضر، حدثنا الفرج – يعني ابن فضالة – ،حدثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة .قال : قلت: يا نبي الله ما كان بدء أمرك ؟ .قال : « دعوة أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام» [٢] تفرد به الإمام أحمد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة. وروى الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب المولد من طريق بقية عن صفوان ابن عمرو عن حجر بن حجر عن أبي مريق أن أعرابيا . قال: يا رسول الله أي شيء كان أول

---

(١) موضوع: رواه الحاكم (٢ / ٦٢٥) وقال صحيح وتعقبه الذهبي بقوله : بل موضوع وعبد الرحمن واه.
(٢) رواه أحمد (٥ /٢٦٢) والطبراني فى " الكبير" (٨ / ١٧٥) رقم (٧٧٢٩) وفى "مسند الشاميين " (١٥٨٢) وابن سعد فى " الطبقات " (١ / ١٠٢) وابن عدى فى "الكامل" (١ / ١٦٥) وأبو نعيم فى " الدلائل " (٣١٧) والبيهقى فى " الدلائل " (١ /٧٩) وفى سنده الفرج بن فضالة وهو ضعيف ولكن للحديث شواهد قوية .

نبوتك ؟. فقال: «أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم ». ورأت أم رسول الله ﷺ في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام، وقال الإمام محمد بن إسحاق ابن يسار : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك. قال: « دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى. ورأت أمي حين حبلت كأنه خرج منها نور أضاءت له بُصرى من أرض الشام » [(١)] إسناده جيد أيضاً. وفيه بشارة لأهل محلتنا أرض بصرى وإنها أول بقعة من أرض الشام خلص إليها نور النبوة، ولله الحمد والمنة . ولهذا كانت أول مدينة فتحت من أرض الشام وكان فتحها صلحاً في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، كما سيأتي بيانه. وقد قدمها رسول الله ﷺ مرتين في صحبة عمه أبي طالب وهو ابن اثنتي عشرة سنة وكانت عندها قصة بحيرى الراهب كما بيناه. والثانية ومعه ميسرة مولى خديجة في تجارة لها. وبها مبرك الناقة التي يقال لها : ناقة رسول الله ﷺ بركت عليه فأثر ذلك فيها فيما يذكر. ثم نقل وبني عليه مسجد مشهور اليوم. وهي المدينة التي أضاءت أعناق الإبل عندها من نور النار التي خرجت من أرض الحجاز سنة أربع وخمسين وستمائة وفق ما أخبر به رسول الله ﷺ في قوله: « تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى » وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان. وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] الآية.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل عن الجريري عن أبي صخر العقيلي حدثني رجل من الأعراب قال : جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ. فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعنّ منه. قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجملهم. فقال رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجدني في كتابك ذا صفتي ومخرجي ؟ » فقال برأسه هكذا- أي لا - فقال ابنه : إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال : « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ثم ولي كفنه والصلاة عليه [(٢)]. هذا إسناد جيد وله شواهد في الصحيح عن أنس ابن مالك رضي الله عنه. وقال أبو القاسم البغوي حدثنا عبد الواحد بن غياث- أبو بحر -،

---

(١) صحيح : رواه ابن إسحاق كما فى " السيرة النبوية لابن هشام (١ /١١٥) والحاكم (٢ / ٦٠٠) والبيهقى فى " الدلائل (١ /٨٣ ، ٨٤) .

(٢) صحيح : رواه أحمد (٥ / ٤١١) وأبو صخر العقيلى هو عبد الله بن قدامة وهو مختلف فى صحبته ، وجزم البخارى ومسلم وابن حبان أن له صحبة كما فى " التعجيل " ص ٥٦١ .

حدثنا عبد العزيز بن مسلم؛ حدثنا عاصم بن كليب عن أبيه عن الصلتان بن عاصم وذكر: أن خاله قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ شخص بصره إلى رجل فإذا يهودي عليه قميص وسراويل ونعلان. قال: فجعل النبي ﷺ يكلمه وهو يقول : يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: « **أتشهد أني رسول الله ؟.** » قال: لا. قال رسول الله ﷺ : «**أتقرأ التوراة ؟.** » قال: نعم. قال: «**أتقرأ الإنجيل ؟.** » قال: نعم. قال: « **والقرآن ؟.** » قال: لا. ولو تشاء قرأته. فقال النبي ﷺ : « **فبم تقرأ التوراة والإنجيل، أتجدني نبياً ؟.** » قال: إنا نجد نعتك ومخرجك. فلما خرجت رجونا أن تكون فينا. فلما رأيناك عرفناك أنك لست به. قال رسول الله ﷺ: « **ولم يا يهودي ؟** » قال: إنا نجده مكتوباً، يدخل من أمته الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ولا نرى معك إلا نفراً يسيراً. فقال رسول الله ﷺ : «**إن أمتي لأكثر من سبعين ألفاً وسبعين ألفاً** ». هذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرجوه.

وقال محمد بن إسحاق عن سالم مولى عبد الله بن مطيع عن أبي هريرة : قال : أتى رسول الله ﷺ يهود فقال : «**أخرجوا أعلمكم.** » فقالوا: عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله ، فناشده بدينه، وما أنعم الله به عليهم، وأطعمهم من المنّ والسلوى، وظللهم به من الغمام « **أتعلمني رسول الله ؟.** » قال: اللهم نعم. وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وأن صفتك ونعتك لمبين في التوراة ولكنهم حسدوك. قال: « **فما يمنعك أنت ؟.** » قال : أكره خلاف قومي. وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم. وقال سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن ابن عباس : أنه كان يقول كتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر « **بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله صاحب موسى، وأخيه، والمصدق بما جاء به موسى، ألا إن الله قال لكم : يا معشر يهود وأهل التوراة، إنكم تجدون ذلك في كتابكم : إن محمداً ﴿رَّسُولُ اللَّهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ ورِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ومَثَلُهُمْ فِي الإنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وأَجْراً عَظِيماً﴾** [الفتح : ٢٩] **وإني أنشدكم بالله وبالذي أنزل عليكم، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسلافكم وأسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاكم من فرعون وعمله إلا أخبرتمونا هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟. فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم قد تبين الرشد من الغي. وأدعوكم إلى الله وإلى نبيه ﷺ** » .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب المبتدأ عن سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب الأحبار، وروي غيره عن وهب بن منبه أن بختنصر بعد أن خرب بيت المقدس واستذل بني إسرائيل بسبع سنين رأى في المنام رؤيا عظيمة هالته فجمع الكهنة والحزار، وسألهم عن رؤياه تلك. فقالوا: ليقصها الملك حتى نخبره بتأويلها. فقال : إني نسيتها، وإن لم تخبروني بها إلى

ثلاثة أيام قتلتكم عن آخركم. فذهبوا خائفين وجلين من وعيده. فسمع بذلك دانيال عليه السلام وهو في سجنه. فقال للسجان : اذهب إليه فقل له : إن هاهنا رجلا عنده علم رؤياك وتأويلها. فذهب إليه فأعلمه فطلبه، فلما دخل عليه لم يسجد له. فقال له: ما منعك من السجود لي ؟. فقال : إن الله آتاني علماً وعلمني وأمرني أن لا أسجد لغيره. فقال له بختنصر: إني أحب الذين يوفون لأربابهم بالعهود. فأخبرني عن رؤياي. قال له دانيال : رأيت صنماً عظيماً رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، أعلاه من ذهب ووسطه من فضة، وأسفله من نحاس، وساقاه من حديد، ورجلاه من فخار، فبينا أنت تنظر إليه قد أعجبك حسنه وإحكام صنعته قذفه الله بحجر من السماء. فوقع على قمة رأسه حتى طحنه واختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديده وفخاره حتى تخيل لك أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يميزوا بعضه من بعض لم يقدروا على ذلك. ونظرت إلى الحجر الذي قذف به يربو ويعظم وينتشر حتى ملأ الأرض كلها فصرت لا ترى إلا الحجر والسماء. فقال له بختنصر: صدقت هذه الرؤيا التي رأيتها فما تأويلها؟. فقال دانيال: أما الصنم : فأمم مختلفة في أول الزمان وفي وسطه وفي آخره ؛ وأما الحجر الذي قذف به الصنم : فدين يقذف الله به هذه الأمم في آخر الزمان فيظهره عليها فيبعث الله نبياً أميا من العرب فيدوخ به الأمم، والأديان كما رأيت الحجر دوخ أصناف الصنم ويظهر على الأديان، والأمم كما رأيت الحجر ظهر على الأرض كلها، فيمحص الله به الحق ويزهق به الباطل ويهدي به أهل الضلالة ويعلم به الأميين ويقوي به الضعفة ويعز به الأذلة وينصر به المستضعفين. وذكر تمام القصة في إطلاق بختنصر بني إسرائيل على يدي دانيال عليه السلام.

وذكر الواقدي بأسانيده عن المغيرة بن شعبة في قصة وفوده على المقوقس ملك الإسكندرية وسؤاله له عن صفات رسول الله ﷺ قريباً من سؤال هرقل لأبي سفيان صخر بن حرب، وذكر: أنه سأل أساقفة النصارى في الكنائس عن صفة رسول الله ﷺوأخبروه عن ذلك وهي قصة طويله ذكرها الحافظ أبو نعيم في " الدلائل ". وثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺمرّ بمدارس اليهود فقال لهم: « يا معشر اليهود أسلموا فوالذي نفسي بيده إنكم لتجدون صفتي في كتبكم» الحديث . وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود. حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن على عن عطاء بن يسار. قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص. فقلت: أخبرني عن صفات رسول الله ﷺفي التوراة، فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيموا الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله يفتح به أعينا عمياً وآذانا صما وقلوبا غلفا [1] . ورواه البخاري عن محمد بن سنان العوفي عن فليح به. ورواه أيضاً عن عبد الله – قيل : ابن

(١) رواه البخاري (٢١٢٥) .

رجاء، وقيل : ابن صالح - عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال بن علوية ولفظه قريب من هذا وفيه زيادة. ورواه ابن جرير من حديث فليح عن هلال عن عطاء وزاد قال عطاء: فلقيت كعب فسألته عن ذلك فما اختلف حرفا، وقال في البيوع. وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرناه أبو الحسين بن المفضل القطان. حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان. حدثنا أبو صالح. حدثنا الليث. حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار عن ابن سلام: أنه كان يقول : إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ " إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزئ السيئة بمثلها ولكن يعفو ويتجاوز ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله يفتح به أعيناً عمياً وآذانا صما وقلوبا غلفا ". وقال عطاء بن يسار : وأخبرني الليثي : أنه سمع كعب الأحبار يقول : مثل ما قال ابن سلام.

قلت : وهذا عن عبد الله بن سلام أشبه؛ ولكن الرواية عن عبد الله بن عمرو أكثر، مع أنه كان قد وجد يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب وكان يحدث عنهما كثيراً، وليعلم أن كثيراً من السلف كانوا يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب فهي عندهم أعم من التي أنزلها الله على موسى وقد ثبت شاهد ذلك من الحديث. وقال يونس عن محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن ثابت بن شرحبيل عن ابن أبي أوفى عن أم الدرداء قالت: قلت لكعب الأحبار : كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة ؟ . قال: نجده محمدًا رسول الله اسمه المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق وأعطي المفاتيح فيبصر الله به أعينا عوراً ويسمع آذانا وقراً ويقيم به ألسنا معوجة حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يعين به المظلوم ويمنعه. وقد روي عن كعب من غير هذا الوجه. وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي الوليد الفقيه عن الحسن بن سفيان حدثنا عتبة بن مكرم حدثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم حدثنا حمزة بن الزيات عن سليمان الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة عن أبي هريرة : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص : ٤٦] قال: نودوا يا أمة محمد استجبت لكم قبل أن تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني. وذكر وهب بن منبه أن الله تعالى أوحى إلى داود في الزبور يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد صادقا سيداً لا أغضب عليه أبدا، ولا يغضبني أبداً وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وفرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء. إلى أن قال : يا داود إني فضلت محمداً وأمته على الأمم كلها. والعلم بأنه موجود في كتب أهل الكتاب معلوم من الدين ضرورة وقد دل على ذلك آيات كثيرة في الكتاب العزيز تكلمنا عليها في مواضعها ولله الحمد. فمن ذلك قوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ

الكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ وإذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّنَا إنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٢ ، ٥٣] وقال تعالى: **﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** [البقرة : ١٤٦] وقال تعالى : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إن كَانَ وعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾** [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] أي إن كان وعد ربنا بوجود محمد وإرساله لكائن لا محالة فسبحان القدير على ما يشاء لا يعجزه شيء. وقال تعالى إخباراً عن القسيسين والرهبان **﴿ وإذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾** [المائدة: ٨٣] وفي قصة النجاشي وسلمان وعبد اللّٰه بن سلام وغيرهم كما سيأتي شواهد كثيرة لهذا المعنى ولله الحمد والمنة.

وذكرنا في تضاعيف قصص الأنبياء ما تقدم الإشارة إليه من وصفهم لبعثة رسول اللّٰه ﷺ ونعته وبلد مولده ودار مهاجره ونعت أمته في قصة موسى وشعيا وأرمياء ودانيال وغيرهم وقد أخبر اللّٰه تعالى عن آخر أنبياء بني إسرائيل وخاتمهم عيسى بن مريم أنه قام في بني إسرائيل خطيبا قائلا لهم **﴿ إِنِّي رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾** [الصف : ٦]. وفي الإنجيل البشارة بالفارقليط والمراد محمد ﷺ وروى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن عمرو عن العيزار بن حرب عن عائشة رضي اللّٰه عنها : أن رسول اللّٰه ﷺ قال : **«مكتوب في الإنجيل لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها بل يعفو ويصفح »** .

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا فيض البجلي حدثنا سلام بن مسكين عن مقاتل بن حيان قال : " أوحى اللّٰه عزّ وجلّ إلى عيسى بن مريم جد في أمري واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول - أنا خلقتك من غير فحل فجعلتك آية للعالمين فإياي فاعبد فبين لأهل سوران بالسريانية، بلغ من بين يديك إني أنا الحق القائم الذي لا أزول صدقوا بالنبي الأمي العربي صاحب الجمل والمدرعة والعمامة - وهي التاج - والنعلين والهراوة - وهي القضيب - الجعد الرأس الصلت الجبين المقرون الحاجبين الأنجل العينين الأهدب الأشفار الأدعج [١] العينين الأقنى[٢] الأنف الواضح الخدين الكث اللحية عرقه في وجهه كاللؤلؤ ريح المسك ينضح منه كأن عنقه إبريق فضة وكأن الذهب يجري في تراقيه له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب ليس في بطنه شعر غيره ششن الكف والقدم إذا جاء مع الناس غمرهم وإذا مشى كأنما يتقلع من الصخر ويتحدر من صبب ذو النسل القليل- وكأنه أراد الذكور من صلبه - " هكذا رواه البيهقي في " دلائل النبوة " من طريق يعقوب بن سفيان. وروى البيهقي عن عثمان بن الحكم

---

(١) الأدعج : الدعج سواد العين مع سعتها .

(٢) الأقنى : البارز .

ابن رافع بن سنان حدثني بعض عمومتي وآبائي أنهم كانت عندهم ورقة يتوارثونها في الجاهلية حتى جاء الله بالإسلام وبقيت عندهم فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ذكروها له وأتوه بها مكتوب فيها بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب. هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان يبلون أطرافهم ويوترون على أوساطهم ويخوضون البحور إلى أعدائهم فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان، وفي عاد ما أهلكوا بالريح، وفي ثمود ما أهلكوا بالصيحة : بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب. ثم ذكر قصة أخرى قال فعجب رسول الله ﷺ لما قرأت عليه فيها.

وذكرنا عند قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ **الذي يَجدونَه مَكتوباً عِندهُم في التوراةِ والإنجيلِ** ﴾ [الأعراف : ١٥٧] قصة هشام بن العاص الأموي حين بعثه الصديق في سرية إلى هرقل يدعوه إلى الله عزّ وجلّ. فذكر أنه أخرج لهم صور الأنبياء في رُقعة من آدم إلى محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهم أجمعين على النعت والشكل الذي كانوا عليه. ثم ذكر أنه لما أخرج صورة رسول الله ﷺ قام قائماً إكراماً له. ثم جلس وجعل ينظر إليها ويتأملها. قال : فقلنا له: من أين لك هذه الصورة ؟. فقال : إن آدم سأل ربه أن يريه جميع الأنبياء من ذلك، فأنزل عليه صورهم، فكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين، فدفعها إلى دانيال. ثم قال: أما والله إن نفسي قد طابت بالخروج من ملكي وأني كنت عبداً لأشركك ملكة حتى أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا. فلما أتينا أبا بكر الصديق فحدثناه بما رأينا وما أجازنا وما قال لنا، قال: فبكى وقال : مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ثم قال أخبرنا رسول الله ﷺ : « **أنهم واليهود يجدون نعت محمد عندهم** » . رواه الحاكم بطوله فليكتب ها هنا من التفسير. ورواه البيهقي في " دلائل النبوة " .

وقال الأموي : حدثنا عبد الله بن زياد عن ابن إسحاق بن زياد عن إسحاق. قال : وحدثني يعقوب بن عبد الله بن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه عن جده عمرو بن أمية. قال : قدمت برقيق من عند النجاشي أعطانيهم. فقالوا لي: ياعمرو لو رأينا رسول الله لعرفناه من غير أن تخبرنا، فمر أبو بكر. فقلت:أهو هذا؟. قالوا : لا، فمر عمر. فقلت: أهو هذا ؟. قالوا: لا فدخلنا الدار فمر رسول الله ﷺ فنادوني ياعمرو هذا رسول الله ﷺ فنظرت فإذا هو هو من غير أن يخبرهم به أحد، عرفوه بما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم وقد تقدم إنذار سبأ لقومه وبشارته لهم بوجود رسول الله ﷺ في شعر أسلفناه في ترجمته فأغنى عن إعادته، وتقدم قول الحبرين من اليهود لتبع اليماني حين حاصر أهل المدينة إنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان فرجع عنها ونظم شعرا يتضمن السلام على النبي ﷺ .

قصة سيف بن ذي يزن وبشارته بالنبي

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتابه " هواتف الجان " : حدثنا علي بن حرب. حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم. حدثنا عمرو بن بكر - هو ابن بكار القعنبي - عن أحمد بن القاسم عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن عبد الله بن عباس. قال : لما ظهر سيف بن ذي يزن. قال ابن المنذر - واسمه النعمان بن قيس - على الحبشة وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بسنتين أتته وفود العرب وشعراؤها تهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من حسن بلائه، وأتاه فيمن أتاه وفود قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبدشمس أبي عبد الله وعبد الله بن جدعان، وخويلد بن أسد في أناس من وجوه قريش فقدموا عليه صنعاء، فإذا هو في رأس غمدان الذي ذكره أمية أبي الصلت :

واشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مرتفعاً ... في رأسِ غَمدانَ داراً منك محلالا

فدخل عليه الآذن، فأخبره بمكانهم فأذن لهم، فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام. فقال له: إن كنت ممن يتكلم بين يدي فقد أذنا لك، فقال له عبد المطلب: إن الله قد أحلك أيها الملك محلا رفيعا صعباً منيعا، شامخا باذخا، وأنبتك منبتا طابت أرومته، وعذبت جرثومته[1]، وثبت أصله، وبسق فرعه في أكرم موطن وأطيب معدن فأنت - أبيت اللعن - ملك العرب وربيعها الذي تخصب به البلاد، ورأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد. وسلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف. فلن يخمد من هم سلفه ولن يهلك من أنت خلفه، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجك من كشف الكرب الذي قد فدحنا، وفد التهنئة لا وفد المرزئة. قال : وأيهم أنت أيها المتكلم؟. قال: أنا عبد المطلب بن هاشم. قال: ابن أختنا ؟. قال: نعم، قال: ادن فأدناه، ثم أقبل عليه وعلى القوم. فقال : مرحبا وأهلا وناقة ورحلا، ومستناخا سهلا، وملكا ربحلا[2] يعطي عطاء جزلا. قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فأنتم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم، ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال: يا عبد المطلب إني مفض إليك من سر علمي ما لو يكون غيرك لم أبح به. ولكني رأيتك معدنه فأطلعتك طليعه فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره، إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا خبراً عظيما، وخطراً جسيما فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة. فقال عبدالمطلب: أيها الملك مثلك سر وبر، فما هو فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمر ؟. قال: إذا ولد بتهامة، غلام به علامة بين كتفيه شامة كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم

---

(١) عذبت : طَابَتْ وَكَرُمَتْ . الجرثومة : الأصل .

(٢) ربحلاً : كثير العطاء .

القيامة. قال عبد المطلب - أبيت اللعن - : لقد أبت بخير ما آب به وافد، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما أزداد به سرورا. قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أوقد ولد واسمه محمد. يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه. ولدناه مراراً والله باعثه جهاراً، وجاعل له منا أنصاراً يعزهم أولياءه ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان ويخمد النيران، يعبد الرحمن ويدحر الشيطان، قوله فصل وحكمه عدل يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله. فقال عبد المطلب: أيها الملك - عز جدك وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمراك. فهذا نجاري فهل الملك سار لي بإفصاح؟ فقد أوضح لي بعض الإيضاح. فقال ابن ذي يزن : والبيت ذي الحجب والعلامات على النقب إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب، فخر عبد المطلب ساجدا. فقال: ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك؟. فقال: أيها الملك كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقا فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب فجاءت بغلام سميته محمداً فمات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه. قال ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت : فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فإني لست آمن إن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة فيطلبون له الغوائل [1] وينصبون له الحبائل فهم فاعلون أو أبناؤهم ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مملكته فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن بيثرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره ولولا أني أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه أمره ولأوطأت أسنان العرب عقبه، ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك. قال: ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء وبمائة من الإبل وحلتين من البرود وبخمسة أرطال من الذهب وعشرة أرطال فضة وكرش مملوء عنبراً وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له : إذا حال الحول فأتني فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاد ولكن ليغبطني بما يبقي لي ولعقبي من بعدي ذكره وفخره وشرفه، فإذا قيل له : متى ذلك ؟ قال: سيعلم ولو بعد حين قال: وفي ذلك يقول أمية بن عبد شمس :

جَلَبْنـــا النُّصـحَ تحقبُه المطايا ... على أكـــوارِ أجمالٍ ونُوقِ
مقلَّفَـــةً [3] مـراتعُها تعالى ... إلى صنعاءَ من فَـجٍّ عَميـقِ
تـؤمُّ بنا ابنَ ذي يَزَن وتَقـري ... بـذات بُطـونها ذَمّ الطريق
وترعَي مـن مَخَايله بُروقـا ... مُواصلةَ الوميضِ إلى بُروق [2]
فلمّـا واصلتْ صَنعاءَ حلّتْ ... بدارِ المُلْكِ والحَسَب العريق

(١) الغوائل : الدواهي .
(٢) مخائله : كرمه وخيرته .
(٣) مقلفه : النبات الأخضر .

وهكذا رواه الحافظ أبو نعيم في " الدلائل " من طريق عمرو بن بكير بن بكار القعنبي. ثم قال أبو نعيم: أخبرت عن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن عبد ربه بن محمد بن عبد العزيز بن عفير بن عبد العزيز بن السفر بن عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن، حدثني أبي أبو يزن إبراهيم، حدثنا عمي أحمد بن محمد أبو رجاء به، حدثنا عمي محمد بن عبد العزيز، حدثني عبدالعزيز بن عفير عن أبيه عن زرعة بن سيف بن ذي يزن الحميري. قال: لما ظهر جدي سيف ابن ذي يزن على الحبشة. وذكره بطوله. وقال أبو بكر الخرائطي: حدثنا أبو يوسف يعقوب بن إسحاق القلوسي، حدثنا العلاء بن الفضل بن أبي سوية أخبرني أبي عن أبيه عبد الملك بن أبي سوية عن جده أبي سوية عن أبيه خليفة. قال: سألت محمد بن عثمان بن ربيعة بن سواة بن خثعم بن سعد فقلت: كيف سماك أبوك محمداً ؟. فقال: سألت أبي عما سألتني عنه، فقال: خرجت رابع أربعة من بني تميم أنا منهم، وسفيان بن مجاشع بن دارم، وأسامة بن مالك بن جندب بن العقيد، ويزيد بن ربيعة بن كنانة بن حربوص بن مازن، ونحن نريد ابن جفنة ملك غسان فلما شارفنا الشام نزلنا على غدير عليه شجرات، فتحدثنا فسمع كلامنا راهب، فأشرف علينا. فقال: إن هذه لغة ما هي بلغة هذه البلاد. فقلنا : نعم نحن قوم من مضر، قال: من أي المضرين؟. قلنا: من خندف. قال : أما إنه سيبعث وشيكا نبي خاتم النبيين، فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا. فقلنا : ما اسمه ؟. قال : اسمه محمد. قال: فرجعنا من عند ابن جفنة فولد لكل واحد منا ابن فسماه محمداً. يعني أن كل واحد منهم طمع في أن يكون هذا النبي المبشر به ولده.

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطي : حدثنا عبد الله بن أبي سعد، حدثنا حازم بن عقال بن الزهر بن حبيب بن المنذر بن أبي الحصين بن السموأل بن عاديا، حدثني جابر بن جدان بن جميع ابن عثمان بن سماك بن الحصين بن السموأل بن عاديا. قال: لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر الوفاة اجتمع إليه قومه من غسان فقالوا: إنه قد حضرك من أمر الله ماترى وكنا نأمرك بالتزوج في شبابك فتأبى وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين، وليس لك ولد غير مالك. فقال : لن يهلك هالك ترك مثل مالك إن الذي يخرج النار من الوثيمة [1] قادر أن يجعل لمالك نسلا ورجالا بسلا وكل إلى الموت ثم أقبل على مالك. وقال : أي بني المنية ولا الدنية، العقاب ولا العتاب، التجلد ولا التلدد [2] القبر خير من الفقر، إنه من قل ذل، ومن كر فر، من كرم الكريم الدفع عن الحريم. والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصطبر، وكلاهما سينحسر، ليس يثبت منهما الملك المتوج، ولا اللئيم المعلهج [3]، سلم ليومك حياك ربك، ثم أنشأ يقول :

---

(١) الوثيمة : ما يكون من شرر إذا قدحت الحجارة بالزند .

(٢) التلدد : الحيرة .

(٣) المعلهج : الأحمق اللئيم .

شهِـــــدتُ السبايا يــومَ آلِ محرِّق ... وأدركَ أمــري صيحةَ اللّه في الحِجْرِ
فلم أرَ ذا مُــــلكٍ من الناسِ واحداً ... ولا سُــوقةً إلا إلى المــوتِ والقبرِ
فعــلّ الذي أردى ثمــوداً وجُرهماً ... سيعقبُ لي نَسْــلاً على آخرِ الدهرِ
تقــرّ بهم مِــنْ آلِ عمرو بنِ عامرِ ... عيونٌ لدى الداعي إلى طَلَبِ الوِتْرِ[1]
فإن لم تَــــكُ الأيامُ أبلينَ جدّتي ... وشيبّــْنَ رأسي والمشيبُ مع العُمرِ
فــإنّ لنا ربّــاً عــلا فوقَ عرشه ... عَليماً بما يأتي مــن الخيــرِ والشرِ
ألم يأتِ قــومــي أن للّه دعــوةً ... يفــوزُ بهــا أهـــلُ السعادة والبرِ
إذا بُعثَ المبعــوثُ مــن آل غالبٍ ... بمكــةَ فيما بيـــن مكةَ والحَجْــرِ
هنـــالك فابغــوا نَصرَهُ ببلادِكم ... بنــي عامرٍ إنّ السعادةَ في النَصــرِ

قال : ثم قضى من ساعته.

باب في هواتف الجان

وقد تقدم كلام شق وسطيح لربيعة بن نصر ملك اليمن في البشارة بوجود رسول اللّه ، رسول ذكي يأتي إليه الوحي من قبل العلي. وسيأتي في المولد قول سطيح لعبد المسيح : إذا كثرت التلاوة وغاضت بحيرة ساوة وجاء صاحب الهراوة يعني بذلك رسول اللّه ﷺ كما سيأتي بيانه مفصلا.

وقال البخاري [2] ؛ حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي، حدثني ابن وهب، حدثني عمرو – هو محمد بن زيد – أن سالماً حدثه عن عبد اللّه بن عمر. قال: ما سمعت عمر يقول لشيء قط: إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن. بينما عمر بن الخطاب جالس إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم، علي بالرجل، فدعي به. فقال: له ذلك. فقال : ما رأيت كاليوم استقبل به رجلاً مسلماً. قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني. قال: كنت كاهنهم في الجاهلية، قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟. قال: بينما أنا في السوق يوماً جاءتني أعرف فيها الفزع. فقالت :

ألـــم تــرَ الجــنّ وإبلاسَها ... ويأسَهــا من بعدِ أنكاسِها ؟
وَلُحوقِها بالقلاص وأحلاسهــا [3]

قال عمر: صدق بينا أنا نائم عند آلهتهم جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول : " يا جليح أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا اللّه

---

(١) الوتر : الثأر .

(٢) رواه البخارى (٣٨٦٣) .

(٣) القِلاص : النوق الشابة . الحلس : كساء على ظهر البعير تحت البرذعة .

فوثب القوم " ، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا. ثم نادى يا جليح أمر نجيح، رجل فصيح يقول : لا إله إلا اللّٰه، فقمت فما نشبنا أن قيل : هذا نبي. تفرد به البخاري.

وهذا الرجل هو سواد بن قارب الأردي. ويقال : السدوسي من أهل السراة من جبال البلقاء له صحبة ووفادة. قال أبو حاتم: وابن منده روى عنه سعيد بن جبير، وأبو جعفر محمد ابن علي، وقال البخاري: له صحبة. وهكذا ذكره في أسماء الصحابة أحمد بن روح البرذعي الحافظ، والدارقطني، وغيرهما. وقال الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري : سواد بن قارب بالتخفيف وقال عثمان الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي كان من أشراف أهل اليمن ذكره أبو نعيم في " الدلائل " . وقد روي حديثه من وجوه أخر مطولة بالبسط من رواية البخاري.

وقال محمد بن إسحاق : حدثني من لا أتهم عن عبد اللّٰه بن كعب مولى عثمان بن عفان أنه حدث : أن عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه بينما هو جالس في الناس في مسجد رسول اللّٰه ﷺ إذ أقبل رجل من العرب داخل المسجد يريد عمر بن الخطاب. فلما نظر إليه عمر. قال: إن الرجل لعلي شركه ما فارقه بعد أو لقد كان كاهنا في الجاهلية فسلم عليه الرجل ثم جلس، فقال له عمر: هل أسلمت ؟. قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فهل كنت كاهنا في الجاهلية ؟. فقال الرجل: سبحان اللّٰه يا أمير المؤمنين، لقد خلت في واستقبلتني بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليت ما وليت. فقال عمر: اللهم غفراً قد كنا في الجاهلية على شر من هذا نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان حتى أكرمنا اللّٰه برسوله وبالإسلام. قال: نعم واللّٰه يا أمير المؤمنين لقد كنت كاهنا في الجاهلية. قال: فأخبرني ما جاء به صاحبك. قال: جاءني قبل الإسلام بشهر أو شيعه. فقال : ألم تر إلى الجن وإبلاسها، وإياسها من دينها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها؟.

قال ابن إسحاق : هذا الكلام سجع ليس بشعر قال عبد اللّٰه بن كعب:

فقال عمر عند ذلك يحدث الناس : واللّٰه إني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش قد ذبح له رجل من العرب عجلا، فنحن ننتظر قسمه أن يقسم لنا، إذ سمعت من جوف العجل صوتا ما سمعت صوتا قط أشد منه، وذلك قبل الإسلام بشهر أو شيعه[1] يقول: " يا ذريح أمر نجيح رجل يصيح يقول لا إله إلا اللّٰه " . قال ابن هشام: ويقال : رجل يصيح بلسان فصيح يقول : لا إله إلا اللّٰه قال: وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر :

عجبـــت للجـــنّ وإبـــلاسها ... وشـــدّها العيسَ [2] بأحـــلاسها
تهوي إلى مكـــةَ تَبْغي الْهُـــدَى ... ما مُؤْمِنُـــو الجنِّ كأنجاسِـــها

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا يحيى بن حجر بن النعمان الشامي، حدثنا علي بن منصور الأنباري عن محمد بن عبد الرحمن الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي. قال: بينما عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه ذات يوم جالس إذ مر به رجل. فقيل : يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار ؟. قال: ومن هذا؟. قالوا: هذا سواد بن قارب الذي أتاه رئيه[3] بظهور رسول اللّٰه ﷺ

(١) شيعه : دون الشهر بقليل . وشيع كل شيء ما هو له تَبَعُ .
(٢) العيسُ : بالكسر الإبل البيض التى يخالط بَيَاضها شيء من الشقرة .
(٣) رَئِيّ : من الجن أى مَسٌّ .

قال: فأرسل إليه عمر. فقال له: أنت سواد بن قارب؟. قال: نعم. قال : فأنت على ما كنت عليه من كهانتك ؟ قال: فغضب. وقال: ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا سبحان الله ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك، فأخبرني ما أنبأك رئيك بظهور رسول الله ﷺ ؟. قال: نعم يا أمير المؤمنين بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتاني رئيي، فضربني برجله، وقال: قم يا سواد بن قارب، واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ثم أنشأ يقول :

عجبتُ للجنِّ وتطْلاَبها — وشَدِّها العيسَ بأقتابها[1]
تهوي إلى مكةَ تبغي الهدى — ما صادقُ الجنِّ ككذابها
فارحلْ إلى الصفوةِ مِنْ هاشمٍ — ليسَ قُدامَاها كأذنابها

قال قلت: دعني أنام فإني أمسيت ناعساً. قال: فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله، وقال: قم يا سواد بن قارب واسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، إنه بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته، ثم أنشأ يقول :

عجبتُ للجنّ وتخْيارها — وشَدِّها العيسَ بأكْوارها[2]
تهوي إلى مكّةَ تبغي الهُدى — ما مُؤمِنُو الجنِّ ككفّارها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ — بينَ رَوابيها وأحْجارها

قال : قلت: دعني أنام، فإني أمسيت ناعساً، فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله. وقال : قم يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ثم أنشأ يقول :

عجبتُ للجنّ وتحساسها — وشدِّها العيسَ بأحلاسها
تهوي إلى مكّةَ تبغي الهُدى — ما خَيِّرُ الجنِّ كأنجاسها
فارحلْ إلى الصفوةِ مِنْ هاشمٍ — واسمُ بعينيكَ إلى رَاسها

قال : فقمت وقلت: قد امتحن الله قلبي، فرّحلت ناقتي ثم أتيت المدينة - يعني مكة - فإذا رسول الله ﷺ في أصحابه فدنوت فقلت : اسمع مقالتي يا رسول الله . قال : هات فأنشأت أقول :

---

(١) القتب : الإكاف على سنام البعير .
(٢) أكوارها : واحدها الكُورُ بالضم : الرحل بأداته .

أتاني نجيـــيّ بعدَ هدْءٍ ورقْـــدة … ولم يكُ فيما قد تلـــوْتُ بكاذبِ
ثـــلاثَ ليالٍ قولُه كـُـلَّ ليلـــةً … أتاكَ رسولٌ مـــــن لؤيّ بنِ غالب
فشمّرتُ عنْ ذيلي الإزارَ ووسّطتْ … بيَ الدعلبُ[1] الوَجناءُ غُبْرَ السَبَاسب[2]
فأَشهـــدُ أنّ اللّهَ لا شــــيءَ غيره … وأنّكَ مأمـــونٌ على كـُـلِّ غالـــبَ
وأنّـــك أدني المرسَليـــن وسيلةً … إلى اللّه يا ابنَ الأكرمين الأطايـــبَ
فَمُـــرْنا بما يأتيك يا خيرَ مَنْ مشى … وإنْ كان فيما جاء شَيّبُ الذوائب[3]
وكنْ لي شفيعاً يومَ لا ذو شفاعةٍ … سواكَ بمغنٍ عـــن سوادِ بنِ قـــاربِ

قال: ففرح رسول اللّه ﷺ وأصحابه بمقالتي فرحاً شديداً، حتى رؤي الفرح في وجوههم. قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فالتزمه وقال: قد كنت أشتهي أن أسمع هذا الحديث منك فهل يأتيك رئيك اليوم ؟. قال: أما منذ قرأت القرآن فلا، ونعم العوض كتاب اللّه من الجن. ثم قال عمر : كنا يوماً في حي من قريش يقال لهم : آل ذريح وقد ذبحوا عجلا لهم والجزار يعالجه إذ سمعنا صوتا من جوف العجل - ولا نرى شيئا - قال: يا آل ذريح، أمر نجيح صائح يصيح بلسان فصيح يشهد أن لا إله إلا اللّه، وهذا منقطع من هذا الوجه ويشهد له رواية البخاري وقد تساعدوا على أن السامع الصوت من العجل هو عمر بن الخطاب واللّه أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتابه الذي جمعه في هواتف الجان : حدثنا أبو موسى عمران بن موسى المؤدب، حدثنا محمد بن عمران بن محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، حدثنا سعيد بن عبيد اللّه الوصابي عن أبيه عن أبي جعفر محمد بن علي. قال : دخل سواد بن قارب السدوسي على عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه. فقال: نشدتك باللّه يا سواد بن قارب، هل تحسن اليوم من كهانتك شيئاً ؟. فقال : سبحان اللّه يا أمير المؤمنين ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل ما استقبلتني به قال: سبحان اللّه يا سواد ما كنا عليه من شركنا أعظم مما كنت عليه من كهانتك، واللّه يا سواد لقد بلغني عنك حديث إنه لعجيب من العجب، قال: إي واللّه يا أمير المؤمنين إنه لعجب من العجب. قال: فحدثنيه. قال: كنت كاهناً في الجاهلية، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني نجيي فضربني برجله. ثم قال: يا سواد اسمع أقل لك، قلت: هات قال :

عجبتُ للجـــنّ وَأنْجَاسهـــا … ورَحْلِهـــا العيسَ بأحلاسها
تهـــوي إلى مكةَ تبغي الهَدى … ما مؤمنوها مثـــلُ أرجاســـها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشم … واسمُ بعينيـــكَ إلى رأسها

(١) الدعلبى الوجناء : الناقة القوية .
(٢) السباسب : السبسب : المفازة .
(٣) الذوائب : مفردها الذُؤابة : الشعر المضفور من شعر الرأس .

قال : فنمت ولم أحفل بقوله شيئاً، فلما كان الليلة الثانية : أتاني فضربني برجله ثم قال لي: قم يا سواد بن قارب اسمع أقل لك، قلت: هات. قال :

عجبتُ للجنّ وتطلابِها ... وشدِّها العيسَ بأقتابِها
تهوي إلى مكةَ تبغي الهدى ... ما صادقُ الجنّ ككذابِها
فارحلْ إلى الصفوةِ مِنْ هاشمٍ ... ليس المقادمُ كأذنابِها

قال: فحرك قوله مني شيئاً ونمت فلما كانت الليلة الثالثة : أتاني فضربني برجله ثم قال: يا سواد بن قارب أتعقل أم لا تعقل ؟ قلت: وما ذاك ؟ قال: ظهر بمكة نبي يدعو إلى عبادة ربه فالحق به، اسمع أقل لك. قلت: هات قال :

عجبتُ للجنّ وتنفارِها[1] ... ورَحْلِها العيسَ بأكْوارِها
تهوي إلى مكّةَ تبغي الهُدى ... ما مؤمنو الجنِ ككفّارِها
فارحلْ إلى الصفوةِ مِنْ هاشمٍ ... بينَ رَوابِيها وأحْجارِها

قال: فعلمت أن اللّه قد أراد بي خيراً. فقمت إلى بردة لي ففتقتها ولبستها ووضعت رجلي في غرز ركاب الناقة. وأقبلت حتى انتهيت إلى النبي ﷺ فعرض علي الإسلام فأسلمت، وأخبرته الخبر. فقال :« **إذا اجتمع المسلمون فأخبرهم** » فلما اجتمع المسلمون قمت فقلت :

أتاني نجيي بعَد هُدْءٍ ورَقْدة ... ولم يكَ فيما قد بَلَوتُ بكاذبِ
ثلاثَ ليالٍ قولُه كلَّ ليلةً ... :أتاكَ رسولٌ من لؤيّ بنِ غالبِ
فشمرتُ عن ذيلي الإزارَ ووسَّطتْ ... بيَ الدعلبُ الوجناءُ غُبْرُ السباسبِ
وأعلمُ أنْ اللّهَ لا ربَّ غيرَه ... وأنّك مأمونٌ على كُلّ غائبِ
وأنّك أَدْنَى المرسَلينَ وسيلةً ... إلى اللّه يا ابن الأكرمينِ الأطايبِ
فَمُرنا بما يأتيك يا خيرَ مرسَلٍ ... وإن كانَ فيما جاءَ شَيْبُ الذوائبِ

قال: فسر المسلمون بذلك، فقال عمر: هل تحس اليوم منها بشيء ؟. قال: أما إذ علمني اللّه القرآن فلا . وقد رواه محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن عمر بن حفص. قال : لما ورد سواد بن قارب على عمر. قال : يا سواد بن قارب ما بقي من كهانتك ؟. فغضب وقال: ما أظنك يا أمير المؤمنين استقبلت أحداً من العرب بمثل هذا، فلما رأى ما في وجهه من الغضب، قال : انظر سواد للذي كنا عليه قبل اليوم من الشرك أعظم. ثم قال: يا سواد حدثني حديثاً كنت أشتهي أسمعه منك، قال: نعم، بين أنا في إبل لي بالسراة ليلا وأنا نائم وكان لي نجيٌّ من الجن أتاني فضربني برجله. فقال لي : قم يا سواد بن قارب فقد ظهر بتهامة نبي يدعو إلى الحق وإلي طريق مستقيم، فذكر القصة كما تقدم وزاد في آخر الشعر :

---

(١) تنفارها : نفارها جزعت وشردت وأبعدت .

وَكُنْ لِـي شَفِيعاً يَوْمَ لا ذُو قَرَابَةٍ   سِواكَ بِمُغْنٍ عن سوادِ بنِ قاربِ

فقال رسول اللّه ﷺ : « سِرْ في قومك وقل هذا الشعر فيهم » .

ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن الحكم بن يعلى بن عطاء المحاربي عن عباد بن عبد الصمد عن سعيد بن جبير. قال: أخبرني سواد بن قارب الأزدي. قال: كنت نائما على جبل من جبال السراة فأتاني آت فضربني برجله – وذكر القصة أيضاً

ورواه أيضا من طريق محمد بن البراء عن أبي بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن البراء. قال قال سواد بن قارب : كنت نازلا بالهند فجاءني رئي ذات ليلة فذكر القصة. وقال بعد إنشاد الشعر الأخير فضحك رسول اللّه ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : « أفلحت يا سواد » وقال أبونعيم: في " كتاب دلائل النبوة ": حدثنا عبد اللّه بن محمد بن جعفر، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن، حدثنا علي بن حرب ،حدثنا أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب عن أبيه عن عبد اللّه العماني. قال: كان منا رجل يقال له : مازن بن العضوب يسدن صنما بقرية يقال لها: سمايا، من عمان، وكانت تعظمه بنو الصامت وبنو حطامة ومهرة وهم أخوال مازن. أمه زينب بنت عبد اللّه بن ربيعة بن خويص أحد بني نمران قال مازن: فعترنا يوما عند الصنم عتيرة – وهي الذبيحة – فسمعت صوتا من الصنم يقول : يا مازن اسمع تسر، ظهر خير وبطن شر، بعث نبي من مضر، بدين اللّه الأكبر، فدع نحيتا من حجر. تسلم من حَرِّ سَقَر. قال : ففزعت لذلك فزعاً شديداً. ثم عترنا بعد أيام عتيرة أخرى، فسمعت صوتاً من الصنم يقول : اقبل إليّ اقبل، تسمع ما لا تجهل، هذا نبي مرسل، جاء بحق منـــزل، فآمن به كي تعدل عن حَرِّ نار تشعل وقودها الجندل. قال مازن : فقلت : إن هذا لعجب، وإن هذا الخير يراد بي وقدم علينا رجل من الحجاز فقلت : ما الخبر وراءك ؟. فقال : ظهر رجل يقال له : أحمد، يقول لمن أتاه : أجيبوا داعي اللّه، فقلت : هذا نبأ ما سمعت، فثرت إلى الصنم فكسرته جذاذا وركبت راحلتي حتى قدمت على رسول اللّه ﷺ فشرح اللّه صدري للإسلام، فأسلمت، وقلت :

كسّرتُ بَاجرًا أجذاذاً وكانَ لنا   رَبّاً نُطيفُ به ضـــلاّ بتضلال

فالهاشمـــيُّ هَدانا من ضـــلالتنا   ولم يكُـــنْ دينـــهُ مِّني على بالِ

يا راكباً بلّغَنْ عَمْراً وإخـــوتَها   إنِّي لَمِنْ قالَ رَبّـــي باجرُ قالي

يعني بعمرو الصامت وإخوتها حطامة. فقلت : يا رسول اللّه إني امرؤ مولع بالطرب وبالهلوك من النساء وشرب الخمر، وألحت علينا السنون فأذهبن الأموال وأهزلن السراري وليس لي ولد. فادع اللّه أن يذهب عني ما أجد ويأتينا بالحيا، ويهب لي ولدا فقال النبي ﷺ : « اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن، وبالحرام الحلال وبالإثم والعهد عفة وآته بالحيا، وهب له ولدا » . قال فأذهب اللّه عني ما أجد وأخصبت عمان وتزوجت أربع حرائر وحفظت شطر القرآن، ووهب لي: حيان بن مازن وأنشأ يقول :

إليــكَ رســولَ اللّه خبّتْ مطيتي تَجُوبُ الفيافي من عمانَ إلى العرج[١]
لتشفعَ لي يا خيْرَ مَنْ وطىءَ الحصى فيغفرُ لــي ربــي فأرجعُ بالفلج[٢]
إلى معشرٍ خالفتُ في اللّه دينهــم فلا رَأْيُهم رأيي ولا شَرْجُهم شرجي[٣]
وكنتُ امرءًا بالخمرِ والعهرِ مولعاً شبابيَ حتى آذنَ الجســمُ بالنهــج[٤]
فبــدَّلني بالخمرِ خــوفاً وخشيــةً وبالعهرِ إحصــاناً فحصــنَ لي فرجي
فأصبحت همي في الجهــاد ونيّتي فللّهِ ما صومي وللّه ما حَجّــــي

قال : فلما أتيت قومي أنبوني وشتموني، وأمروا شاعرهم لهم فهجاني .فقلت : إن رددت عليه فإنما أهجو نفسي. فرحلت عنهم. فأتتني منهم زلفة عظيمة، وكنت القيم [٥]بأمورهم. فقالوا: يابن عم : عبنا عليك أمرا وكرهنا ذلك. فإن أبيت ذلك فارجع وقم فأمورنا وشأنك وما تدين به. فرجعت معهم وقلت :

لَبُغْضُكُــم عِنْدَنَا مُــرٌّ مذاقتــــه وَبغْضُنا عندكمْ يا قــــوَمنا لَبَنُ
لا يَفْطِنُ الدهرُ إن بثتْ معائبكــم وكُلّكم حيــن يُثني عَيْبَنا فَطِــــنُ
شاعرُنا مُقْحَــمٌ عنكم وشاعركم في حــــدبنا مُبلغٌ في شــتمنا لَسِنُ
ما في القلوبِ عليكم فاعلموا وغرٌ وفي قلوبكمْ البغضاءُ والإِحَــنُ[٦]

قال مازن : فهداهم اللّه بعد إلى الإسلام جميعا.

وروى الحافظ أبو نعيم من حديث عبد اللّه بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد اللّه قال : إن أول خبر كان بالمدينة بمبعث رسول اللّه ﷺ أن امرأة بالمدينة كان لها تابع من الجن، فجاء في صورة طائر أبيض فوقع على حائط لهم، فقالت له: لم لا تنــزل إلينا فتحدثنا ونحدثك، وتخبرنا ونخبرك ؟ فقال لها: إنه قد بعث نبي بمكة حرم الزنا ومنع منا القرار .

وقال الواقدي : حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز عن الزهري عن علي بن الحسين ، قال: إن أول خبر قدم المدينة عن رسول اللّه ﷺ إن امرأة تدعى فاطمة كان لها تابع، فجاءها ذات يوم، فقام على الجدار فقالت : ألا تنــزل ؟ فقال : لا إنه قد بعث الرسول الذي حرم الزنا.

وأرسله بعض التابعين أيضاً وسماه بابن لوذان وذكر أنه كان قد غاب عنها مدة، ثم لما قدم عاتبته فقال: إني جئت الرسول فسمعته يحرم الزنا فعليك السلام.

---

(١) خبّت : ضرب من سير الإبل .
(٢) الفلج : الفوز والنصر .
(٣) الشرج : المثل .
(٤) النهج : البلى الذى يسرع إلى القلوب .
(٥) القَيِّم على الأمر : متولّيه .
(٦) الإحن : واحدها الإحنة : الحقد .

وقال الواقدي : حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة. قال : قال عثمان بن عفان : خرجنا في عير إلى الشام - قبل أن يبعث رسول الله ﷺ - فلما كنا بأفواه الشام - وبها كاهنة - فتعرضتنا، فقالت: أتاني صاحبي فوقف على بابي، فقلت: ألا تدخل. فقلت: لا سبيل إلى ذلك، خرج أحمد وجاء أمر لا يطاق، ثم انصرفت فرجعت إلى مكة فوجدت رسول الله ﷺ قد خرج بمكة يدعو إلى الله عزّ وجلّ.

وقال الواقدي : حدثني محمد بن عبد الله الزهري. قال : كان الوحي يسمع فلما كان الإسلام منعوا، وكانت امرأة من بني أسد يقال لها سعيرة لها تابع من الجن، فلما رأى الوحي لا يستطاع أتاها فدخل في صدرها فضج في صدرها فذهب عقلها فجعل يقول من صدرها:وضع العناق، ومنع الرفاق، وجاء أمر لا يطاق، وأحمد حرم الزنا.

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطي : حدثنا عبد الله بن محمد البلوي - بمصر-، حدثنا عمارة ابن زيد؛ حدثنا عيسى بن يزيد عن صالح بن كيسان عمن حدثه عن مرداس بن قيس السدوسي. قال: حضرت النبي ﷺ - وقد ذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عندمخرجه- . فقلت: يا رسول الله قد كان عندنا في ذلك شيء أخبرك أن جارية منا يقال لها : الخلصة :لم يعلم عليها إلا خيراً، إذ جاءتنا فقالت: يا معشر دوس العجب العجب لما أصابني، هل علمتم إلا خيراً ؟. قلنا: وما ذاك ؟. قالت: إني لفي غنمي إذ غشيتني ظلمة ووجدت كحس الرجل مع المرأة فقد خشيت أن أكون قد حبلت. حتى إذا دنت ولادتها وضعت غلاما أغضف[1] له أذنان كأذني الكلب فمكث فينا حتى إنه ليلعب مع الغلمان . إذ وثب وثبة، وألقى إزاره وصاح بأعلى صوته، وجعل يقول: يا ويلة يا ويلة، يا عولة يا عولة، يا ويل غنم، يا ويل فهم، من قابس الخيل النار والله وراء العقبة، فيهن فتيان حسان نجبة. فركبنا وأخذنا للأداة وقلنا: يا ويلك ماترى ؟. فقال : هل من جارية طامث؟. فقلنا : ومن لنا بها ؟ فقال شيخ منا : هي والله عندي عفيفة الأم. فقلنا : فعجلها فأتي بالجارية : وطلع الجبل. وقال للجارية: اطرحي ثوبك وأخرجي في وجوههم، وقال : للقوم اتبعوا أثرها، وقال: لرجل منا يقال : له أحمد بن حابس : يا أحمد بن حابس عليك أول فارس. فحمل أحمد فطعن أول فارس فصرعه وانهزموا فغنمناهم. قال: فابتنينا عليهم بيتاً وسميناه ذا الخلصة، وكان لا يقول : لنا شيئاً إلا كان كما يقول حتى إذا كان مبعثك يارسول الله. قال لنا يوماً: يا معشر دوس نزلت بنوا الحارث بن كعب فركبنا. فقال: لنا أكدسوا الخيل كدساً، أحشوا القوم رمسا، أنفوهم غدية واشربوا الخمر عشية. قال : فلقيناهم فهزمونا وغلبونا فرجعنا إليه . فقلنا: ما حالك ؟ وما الذي صنعت بنا؟. فنظرنا إليه وقد احمرت عيناه وانتصبت أذناه وانبرم غضباناً حتى كاد أن ينفطر وقام فركبنا واغتفرنا هذه له ومكثنا بعد ذلك حينا. ثم دعانا، فقال: هل لكم في غزوة تهب لكم عزا وتجعل

---

(١) اغضف : المتثنى والمسترخى الأذنين .

لكم حرزاً، ويكون في أيديكم كنـــزاً ؟. فقلنا: ما أحوجنا إلى ذلك. فقال: اركبوا فركبنا، فقلنا : ما تقول ؟ فقال : بنو الحارث بن مسلمة، ثم قال: قفوا فوقفنا. ثم قال: عليكم بفهم، ثم قال : ليس لكم فيهم دم، عليكم بمضر هم أرباب خَيْلٍ وَنَعَمٍ. ثم قال : لا، رهط دريد بن الصمة قليل العدد وفي الذمة. ثم قال : لا، ولكن عليكم بكُعب بن ربيعة وأسكنوها ضيعة عامر ابن صعصعة فليكن بهم الوقيعة. قال : فلقيناهم فهزمونا وفضحونا فرجعنا، وقلنا : ويلك ماذا تصنع بنا ؟ . قال: ما أدري كذبني الذي كان يصدقني اسجنوني في بيتي ثلاثا ثم ائتوني. ففعلنا به ذلك. ثم أتيناه بعد ثالثة ففتحنا عنه فإذا هو كأنه حجرة نار، فقال: يا معشر دوس حرست السماء وخرج خير الأنبياء. قلنا: أين ؟. قال : بمكة وأنا ميت فادفنوني في رأس جبل فإني سوف أضطرم ناراً وإن تركتموني كنت عليكم عاراً فإذا رأيتم اضطرامي وتلهبي فاقذفوني بثلاثة أحجار، ثم قولوا مع كل حجر: باسمك اللهم فإني أهدى وأطفى. قال: وإنه مات فاشتعل ناراً ففعلنا به ما أمر وقد قذفناه بثلاثة أحجار نقول مع كل حجر : بسمك اللهم فخمد وطفى وأقمنا حتى قدم علينا الحاج فأخبرونا بمبعثك يارسول اللّٰه. غريب جداً. وروى الواقدي عن أبيه عن ابن أبي ذئب عن مسلم بن جندب عن النضر بن سفيان الهذلي عن أبيه. قال : خرجنا في عير لنا إلى الشام فلما كنا بين الزرقا ومعان قد عرسنا من الليل فإذا بفارس يقول وهو بين السماء والأرض : أيها النيام هبوا فليس هذا بحين رقاد قد خرج أحمد فطردت الجن كل مطرد ففزعنا ونحن رفقة حزورة كلهم قد سمع بهذا فرجعنا إلى أهلنا فإذا هم يذكرون اختلافاً بمكة بين قريش في نبي قد خرج فيهم من بني عبد المطلب اسمه أحمد. ذكره أبو نعيم. وقال الخرائطي: حدثنا عبد اللّٰه بن محمد البلوي - بمصر - ، حدثنا عمارة بن زيد ، حدثني عبد اللّٰه بن العلاء . حدثني يحيى بن عروة عن أبيه أن نفراً من قريش منهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وزيد بن عمرو بن نفيل وعبد اللّٰه بن جحش بن رئاب وعثمان بن الحويرث كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه قد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً كانوا يعظمونه وينحرون له الجزور. ثم يأكلون ويشربون الخمر ويعكفون عليه فدخلوا عليه في الليل فرأوه مكبوباً على وجهه، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه إلى حاله، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً، فأخذوه فردوه إلى حاله فانقلب الثالثة فلما رأوا ذلك اغتموا له وأعظموا ذلك. فقال عثمان بن الحويرث:ما له قد أكثر التنكس إن هذا لأمر قد حدث وذلك في الليلة التي ولد فيها رسول اللّٰه ﷺ فجعل عثمان يقول :

أيا صنـــــمَ العيدِ الذي صُفَّ حولَه ... صَناديدُ وفد من بعيدٍ ومـــــن قُرْبِ
تنكّستَ مغلـــــوَباً فما ذاكَ قلْ لنا ... : أذاكَ سفيهٌ أم تنكَّســـتَ للعَتْبِ ؟
فإن كـــــانَ مـــن ذنبٍ أتينا فإنّنا ... نَبوءُ بإقــــــرار ونلوي عنِ الذنْبِ
وإن كنتَ مغلوباً ونُكّستَ صاغراً ... فما أنتَ في الأوثانِ بالسيّـــد الربِّ

قال: فأخذوا الصنم فردوه إلى حاله فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول:

تـردّى لمولـود أنارتْ بنـوره جميعُ فجاج الأرض في الشّرْق والغربِ
وخرّت له الأوثـانُ طرّاً وأرعدتْ قلوبُ ملـوك الأرض طرّاً من الرعْبِ
ونـارُ جميع الفُرْس باخت وأظلمتْ وقد بات شاهُ الفرس في أعْظم الكَرْبِ
وصدّتْ عـن الكهان بالغيب جنّها فلا مخبـرٌ عنهم بحـقّ ولا كذبِ
فيا لقُصَيٍّ ارجعـوا عن ضلالكم وهبوا إلى الإسلام والمنـزل الرحبِ

قال: فلما سمعوا ذلك خلصوا نجيا. فقال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، فقالوا: أجل، فقال لهم ورقة بن نوفل تعلمون والله ما قومكم على دين ولقد أخطئوا الحجة وتركوا دين إبراهيم ما حجر تطيفون به لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر يا قوم التمسوا لأنفسكم الدين. قال: فخرجوا عند ذلك يضربون في الأرض ويسألون عن الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام فأما ورقة بن نوفل فتنصر وقرأ الكتب حتى علم علماً. وأما عثمان بن الحويرث فسار إلى قيصر فتنصر وحسنت منـزلته عنده. وأما زيد بن عمرو بن نفيل فأراد الخروج فحبس. ثم إنه خرج بعد ذلك فضرب في الأرض حتى بلغ الرقة من أرض الجزيرة فلقي بها راهباً عالما فأخبره بالذي يطلب. فقال له الراهب: إنك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه، ولكن قد أظلك زمان نبي يخرج من بلدك يبعث بدين الحنيفية فلما قال له ذلك. رجع يريد مكة فغارت عليه لخم فقتلوه، وأما عبد الله بن جحش فأقام بمكة حتى بعث النبي ﷺ ثم خرج من خرج إلى أرض الحبشة، فلما صار بها تنصر وفارق الإسلام فكان بها حتى هلك هنالك نصرانياً. تقدم في ترجمة زيد بن عمر بن نفيل له شاهد.

وقد قال الخرائطي: حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح أبو بكر الوراق؛ حدثنا عمرو بن عثمان؛ حدثني أبي. حدثنا عبد الله بن عبد العزيز؛ حدثني محمد بن عبد العزيز عن الزهري عن عبد الرحمن بن أنس السلمي عن العباس بن مرداس: أنه كان يعر في لقاح له نصف النهار إذ طلعت عليه نعامة بيضاء عليها راكب عليه ثياب بياض مثل اللبن، فقال: يا عباس بن مرداس ألم تر أن السماء قد كفت أحراسها، وإن الحرب تجرعت أنفاسها، وإن الخيل وضعت أحلاسها، وإن الذي نزل بالبر والتقوى، يوم الاثنين ليلة الثلاثاء، صاحب الناقة القصوى؟. قال: فرجعت مرعوبا قد راعني ما رأيت وسمعت حتى جئت وثناً لنا يدعى الضماد، وكنا نعبده ونكلم من جوفه، فكنست ما حوله، ثم تمسحت به وقبلته فإذا صائح من جوفه يقول:

قـلْ للقبائـلِ مـنْ سليم كلّها هلكَ الضمادُ وفازَ أهلُ المسجدِ
هلـكَ الضمـادُ وكان يُعبَدُ مرّةً قبلَ الصـلاة مـع النبيّ محمدِ

إن الذي ورِث النبــوّة والهدى ... بعد ابــنِ مريمَ من قريشٍ مهتد

قال : فخرجت مرعوبا حتى أتيت قومي فقصصت عليهم القصة وأخبرتهم الخبر وخرجت في ثلاثمائة من قومي بني حارثة إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة فدخلنا المسجد فلما رآني رسول الله ﷺ قال لي : « يا عباس كيف كان إسلامك» ؟ . فقصصت عليه القصة. قال : فسر بذلك، وأسلمت أنا وقومي. ورواه الحافظ أبو نعيم في الدلائل من حديث أبي بكر بن أبي عاصم عن عمرو بن عثمان به. ثم رواه أيضا من طريق الأصمعي حدثني الوصافي عن منصور بن المعتمر عن قبيصة بن عمرو بن إسحاق الخزاعي عن العباس بن مرداس السلمي. قال : أول إسلامي أن مرداساً أبي لما حضرته الوفاة أوصاني بصنم له يقال : ضماد فجعلته في بيت وجعلت آتيه كل يوم مرة فلما ظهر النبي ﷺ سمعت صوتا مرسلا في جوف الليل راعني فوثبت إلى ضماد مستغيثا وإذا بالصوت من جوفه وهو يقول :

قــــل للقبيلــة مـــن سُليمِ كُلِّها ... : هَلَكَ الأنيسُ وَعَاشَ أَهْلُ المسجد
أَوْدَى ضمادُ وكــــان يُعْبَــدُ مَرّةً ... قبل الكتـــاب إلى النبي محمــــدَ
إنّ الذي وَرِثَ النــبوةَ والهدى ... بعد ابـــنِ مريمَ مِنْ قُرَيشٍ مُهتَدَ

قال فكتمته الناس فلما رجع الناس من الأحزاب بينا أنا في إبلي بطرف العقيق من ذات عرق راقداً سمعت صوتا وإذا برجل على جناح نعامة وهو يقول : النور الذي وقع ليلة الثلاثاء مع صاحب الناقة العضباء في ديار إخوان بني العنقاء، فأجابه هاتف من شماله وهو يقول :

بَشِّرِ الجـنُّ وَإِبْـلاَسَهـــا[(١)] ... أنْ وَضَعَتْ المطيّ أحلاسَها
وكلأَتِ السمـــاءُ أحراسَهـــا

قال : فوثبت مذعوراً وعلمت أن محمداً مرسل، فركبت فرسي واحتثثت السير حتى انتهيت إليه فبايعته، ثم انصرفت إلى ضماد فأحرقته بالنار. ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فأنشدته شعراً أقول فيه :

لعمـرُك إنِّــي يــومَ أجعلُ جاهلاً ... ضماداً لِربّ العالميــن مشـاركا
وتــركي رسولَ اللّه والأوسَ حوله ... أولـئــك أنصــارٌ له ما أولئكا
كتاركِ سهلِ الأرضِ والحَزْن يبتغي ... ليسلكَ في وعْث الأمورِ المسالكا[(٢)]
فآمنتُ باللّه الذي أنــا عبــــدُهُ ... وخالفتُ من أَمَسَــى يريدُ المهالكا
ووجّهتُ وجهي نحو مكةَ قاصــداً ... أبايع نبـــيّ الأكــرميــن المبارَكا
نبيّ أتانا بعــدَ عيســى بناطـــق ... من الحــقِّ فــيه الفصلُ فيه كذلكا

---

(١) إبلاس : الإنكسار والحزن .
(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض وَقَلّمَا يكون إلا مرتفعًا .

أميـــنٌ على القرآنِ أولُ شافـعٍ وأولُ مبعوثٍ يجيبُ الملائكـا
تلافَى عُرَى الإسلامِ بعدَ انتقاضها فأحكمَهـا حتى أقامَ المناسكا
عنيتُـكَ يا خيـرَ البـريّةِ كلَّها توسطتَ في الفرعَين والمجدِ مالكـا
وأنتَ المصفّى مِنْ قريشٍ إذا سَمَتْ على ضمرها تبقى القرون المباركـا
إذا انتسبَ الحيّـانِ كعبٌ ومالكٌ وَجَدْنَاكَ محضاً والنساءَ العـواركا

قال الخرائطي : وحدثنا عبد اللّه بن محمد البلوي بمصر، حدثنا عمارة بن زيد ،حدثنا إسحاق بن بشر وسلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق، حدثني شيخ من الأنصار يقال : له عبد اللّه بن محمود من آل محمد بن مسلمة قال : بلغني أن رجالا من خثعم كانوا يقولون : إن مما دعانا إلى الإسلام إنا كنا قوما نعبد الأوثان فبينما نحن ذات يوم عند وثن لنا إذ أقبل نفر يتقاضون إليه يرجون الفرج من عنده لشيء شجر بينهم إذ هتف بهم هاتف يقول :

يا أيُّها الناسُ ذوو الأجسـامِ مِـنْ بَيْـنِ أشياخٍ إلى غلامِ
ما أنتمُ وطائشُ الأحـلامِ ومسندُ الحُكـمِ إلى الأصنامِ ؟
أكلُّكـم فـي حيرةٍ نيـامِ أم لا تَـروْن ما الذي أمامي؟
مِنْ ساطعٍ يجلو دُجـى الظلامِ قـد لاحَ للناظـرِ مـن تِهَامِ
ذاك نبـيٌّ سيّـدُ الأنامِ قـد جاء بعد الكُفْرِ بالإسلامِ
أكـرَمه الرحمـنُ مِنْ إمامِ ومـن رسـولٍ صادقِ الكلامِ
أعَـدَلُ ذي حكمٍ مِنْ الأحكامِ يأمرُ بالصـلاةِ والصيـامِ
والبِـرِّ والصِّلاتِ للأرحامِ ويـزجـرُ الناسَ عـن الآثامِ
والرجسِ والأوثـانِ والحرامِ مِنْ هاشـمٍ في ذِرْوَةِ السّنامِ

مُسْتَعْلِناً في البلـدِ الحـرامِ

قال فلما سمعنا ذلك تفرقنا عنه وآتينا النبيﷺ فأسلمنا.

وقال الخرائطي : حدثنا عبد اللّه البلوي، حدثنا عمارة، حدثني عبيد اللّه بن العلاء، حدثنا محمد بن عكبر عن سعيد بن جبير : أن رجلا من بني تميم يقال له : رافع بن عمير- وكان أهدى الناس للطريق وأسراهم بليل، وأهجمهم على هول، وكانت العرب تسميه لذلك دعموص العرب لهدايته وجراءته على السير - فذكر عن بدء إسلامه قال : إني لأسير برمل عالج ذات ليلة إذ غلبني النوم فنـزلت عن راحلتي وأنختها وتوسدت ذراعها ونمت وقد تعوذت قبل نومي فقلت : أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن من أن أوذي أو أهاج فرأيت في منامي رجلا شاباً يرصد ناقتي وبيده حربة يريد أن يضعها في نحرها، فانتبهت لذلك فزعاً فنظرت يميناً وشمالا فلم أر شيئاً، فقلت : هذا حلم ثم عدت فغفوت فرأيت في منامي مثل رؤياي الأولى. فانتبهت

فدرت حول ناقتي فلم أر شيئاً وإذا ناقتي ترعد، ثم غفوت فرأيت مثل ذلك . فانتبهت فرأيت ناقتي تضطرب والتفت فإذا أنا برجل شاب كالذي رأيت في المنام بيده حربة ورجل شيخ ممسك بيده يرده عنها وهو يقول : .

يا مالكَ بـنَ مُهَلهِلِ بن دثـارِ ... مَهْلاً فدىً لك مئـزري وإزاري
عَن ناقة الإنسيّ لا تعرضْ لهـا ... واخترْ بها ما شئتَ من أثـواري
ولقد بَدا ليَ منكَ ما لَم أحتسبْ ... ألا رعيتَ قَرابتـي وذماري ؟
تسمـو إليـه بحَرْبة مسمومة ... تبّـاً لفعلكَ يـا أبا الغفارِ
لولا الحيـاءُ وأنّ أهلَكَ جيرةٌ ... لعلمتَ ما كَشَفْتَ من أخباري

قال فأجابه الشاب وهو يقول:

أأردتَ أنْ تعلو وتخفضَ ذكرنـا ... فـي غيـر مُزرية أبا العيزار؟
ما كـانَ فيهمْ سيدُ فيما مضى ... إنّ الخيارُ هُمـو بنو الأخيارِ
فاقصـدْ لقصدك يا مَعكبرُ إنما ... كان المجيرُ مُهلهـلَ بنَ دثارِ

قال : فبينما هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش. فقال الشيخ للفتى : قم يا ابن أخت فخذ أيها شئت فداء لناقة جاري الإنسي، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً وانصرف. ثم التفت إلى الشيخ . فقال : يا هذا إذا نزلت واديا من الأودية فخفت هوله فقل : أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي ولا تعذ بأحد من الجن فقد بطل أمرها. قال : فقلت له : ومن محمد هذا؟. قال: نبي عربي لا شرقي ولا غربي بعث يوم الاثنين. قلت : وأين مسكنه ؟ . قال : يثرب ذات النخل. قال فركبت : راحلتي حين برق لي الصبح وجددت السير حتى تقحمت المدينة فرآني رسول الله ﷺ فحدثني بحديثي قبل أن أذكر له منه شيئا ودعاني إلى الإسلام فأسلمت. قال سعيد بن جبير وكنا نرى أنه هو الذي أنزل الله فيه ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن : ٦] وروى الخرائطي من طريق إبراهيم بن إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن داود بن الحسين عن عكرمة عن ابن عباس عن علي. قال: إذا كنت بواد تخاف السبع، فقل : أعوذ بدانيال والجب، من شر الأسد. وروى البلوي عن عمارة بن زيد عن إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق، حدثني يحيى بن عبد الله بن الحارث عن أبيه عن ابن عباس قصة قتال علي الجن بالبئر ذات العلم التي بالجحفة حين بعثه رسول الله ﷺ يستقي لهم الماء فأرادوا منعه وقطعوا الدلو فنـزل إليهم، وهي قصة مطولة منكرة جدا والله أعلم.

وقال الخرائطي : حدثني أبو الحارث محمد بن مصعب الدمشقي وغيره، حدثنا سليمان ابن بنت شرحبيل الدمشقي، حدثنا عبد القدوس بن الحجاج حدثنا خالد بن سعيد عن الشعبي عن رجل. قال : كنت في مجلس عمر بن الخطاب وعنده جماعة من أصحاب النبي ﷺ يتذاكرون فضائل القرآن، فقال بعضهم : خواتيم سورة النحل، وقال بعضهم : سورة يس، وقال علي :

فأين أنتم عن فضيلة آية الكرسي ؟ . أما إنها سبعون كلمة في كل كلمة بركة. قال : وفي القوم عمرو بن معدي كرب لا يحير جوابا، فقال : أين أنتم عن بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال عمر: حدثنا يا أبا ثور. قال : بينا أنا في الجاهلية إذ جهدني الجوع فأقحمت فرسي في البرية فما أصبت إلا بيض النعام، فبينا أنا أسير إذا أنا بشيخ عربي في خيمة، وإلى جانبه جارية كأنها شمس طالعة ومعه غنيمات له، فقلت : له استأسر ثكلتك أمك. فرفع رأسه إلي وقال : يا فتى إن أردت قري فأنزل؛ وإن أردت معونة أعناك. فقلت له : أستأسر فقال :

عَــرضْنا عَليكَ النّزْلَ منّا تَكرُّماً فَلم ترعوي جَهْلاً كفعل الأشائم[1]
وَجئتَ بِبُهتانٍ وزورٍ ودونَ ما تَمنيَّتُهُ بالبِيضِ حــزُّ الغَلاصِمِ[2]

قال ووثب إلي وثبة وهو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم. فكأني مثلت تحته. ثم قال : أقتلك أم أخلي عنك ؟. قلت بل : خل عني. قال : فخلي عني. ثم إن نفسي جاذبتني بالمعاودة. فقلت : استأسر ثكلتك أمك فقال :

بِبســـم اللّهِ والرَّحْــمــنِ فُزْنَا هُنــــــالكَ والرحيمُ به قَهَرْنا
وما تُغني جَلادَةُ ذي حِفاظٍ إذا يــوماً لمعــركةٍ بَــرَزْنا

ثم وثب لي وثبة كأني مثلت تحته. فقال : أقتلك أم أخلي عنك ؟. قال : قلت : بل خل عني. فخلي عني فانطلقت غير بعيد. ثم قلت في نفسي :يا عمرو أيقهرك هذا الشيخ؟ والله للموت خير لك من الحياة، فرجعت إليه فقلت له: استأسر ثكلتك أمك. فوثب إلى وثبة وهو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم فكأني مثلت تحته، فقال : أقتلك أم أخلي عنك ؟. قلت : بل خل عني فقال : هيهات، يا جارية ائتيني بالمدية فأتته بالمدية فجز ناصيتي وكانت العرب إذا ظفرت برجل فجزت ناصيته استعبدته، فكنت معه أخدمه مدة. ثم إنه قال : يا عمرو أريد أن تركب معي البرية وليس بي منك وَجَلٌ، فإني ببسم الله الرحمن الرحيم لواثق. قال : فسرنا حتى أتينا واديا أشباً مهولاً مغولاً. فنادى بأعلى صوته بسم الله الرحمن الرحيم. فلم يبق طير في وكره إلا طار. ثم أعاد القول فلم يبق سبع في مربضه إلا هرب، ثم أعاد الصوت فإذا نحن بحبشي قد خرج علينا من الوادي كالنخلة السحوق، فقال : لي يا عمرو إذا رأيتنا قد اتحدنا. فقل : غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم. قال : فلما رأيتهما قد اتحدا قلت : غلبه صاحبي باللات والعزى فلم يصنع الشيخ شيئاً، فرجع إلي وقال : قد علمت أنك قد خالفت قولي. قلت : أجل ولست بعائد، فقال : إذا رأيتنا قد اتحدنا فقل : غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم، فقلت : أجل فلما رأيتهما قد اتحدا قلت غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم، فاتكأ عليه الشيخ فبعجه

---

(١) ارعوى : اهتدى بعد ضلال .

(٢) الغلاصم : اللحم بين الرأس والعنق .

بسيفه فاشتق بطنه فاستخرج منه شيئاً كهيئة القنديل الأسود. ثم قال : يا عمرو هذا غشه وغله[١]. ثم قال : أتدري من تلك الجارية ؟ قلت : لا، قال : تلك الفارعة بنت السليل الجرهمي من خيار الجن. وهؤلاء أهلها بنو عمها يغزونني منهم كل عام رجل ينصرني الله عليه ببسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال : قد رأيت ما كان مني إلى الحبشي وقد غلب على الجوع فأتني بشيء آكله، فأقحمت بفرسي البرية فما أصبت إلّا بيض النعام، فأتيته به فوجدته نائما، وإذا تحت رأسه شيء كهيئة الخشبة، فاستللته فإذا هو سيف عرضه شبر في سبعة أشبار، فضربت ساقيه ضربة أبنت الساقين مع القدمين، فاستوى على قفا ظهره وهو يقول : قاتلك الله ما أغدرك يا غدار!. قال عمر : ثم ماذا صنعت ؟. قلت : فلم أزل أضربه بسيفي حتى قطعته إربا إربا. قال : فوجم لذلك ثم أنشأ يقول :

بالغدرِ نلْتَ أخا الإسلام عن كَثَبِ ... مَا إنْ سمعتُ كَذا في سالفِ العَرَبِ
والعُجْمُ تأنفُ مما جئتَــه كَرَمــاً ... تَبّاً لما جئْتَــه في السيّــدَ الأربِ[٢]
إني لأعجَــبُ أنّي نلــتُ قتْلَتَــهُ ... أم كَيفَ جازاك عند الذّنب لم تَنبَ؟
قِرْمٌ عفا عنكَ مرّآت وقد عَلَقــتْ ... بالجسمِ منكَ يداهُ موضعَ العَطَــبِ
لو كنتَ آخذُ في الإسلامِ ما فعلوا ... في الجاهليّة أهلُ الشّرك والصُلُــبِ
إذاً لنالتُك من عَدلْي[٣] مُشَطَّبَةً ... تدعو لذائقِهــا بالــوَيْلِ والحرَبِ

قال : ثم ما كان من حال الجارية ؟. قلت : ثم إني أتيت الجارية. فلما رأتني قالت : ما فعل الشيخ ؟ . قلت : قتله الحبشي، فقالت . كذبت بل قتلته أنت بغدرك . ثم أنشأت تقول :

يا عينُ جُودي للفارسِ المــغوارِ ... ثُمَّ جُودي بــواكفــات[٤] غِزارِ
لا تملّــي البكــاءَ إذْ خانك الــد ... هــرُ بوافٍ حقيقــــةً صبــارِ
وتقــيٍّ وذي وقــارٍ وحِلْــم ... وعــديــلِ الفخارِ يومً الفخارِ
لهفَ نفســي على بقائك عمرو ... أسلمتــكَ الأعمــارُ للأقــدارِ
ولعمري لَوْ لم تــرمْهُ بغــدرٍ ... رُمتَ ليثاً كصارِمٍ بتّــــارِ

قال : فأحفظني قولها فاستللت سيفي ودخلت الخيمة لأقتلها فلم أر في الخيمة أحداً فاستقت الماشية وجئت إلى أهلي. وهذا أثر عجيب. والظاهر أن الشيخ كان من الجان وكان ممن أسلم وتعلم القرآن، وفيما تعلمه بسم الله الرحمن الرحيم. وكان يتعوذ بها.

---

(١) غلّه : الحقد .

(٢) الأرب : العاقل .

(٣) العدل : الجزاء .

(٤) الواكفات : الدمع المنسكب .

وقال الخرائطي : حدثنا عبد اللّه بن محمد البلوي؛ حدثنا عمارة بن زيد .قال : حدثني عبد اللّه بن العلاء عن هشام بن عروة عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت : كان زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل يذكران أنهما أتيا النجاشي بعد رجوع أبرهة من مكة، قالا : فلما دخلنا عليه. قال : لنا أصدقاني أيها القرشيان ؟ هل ولد فيكم مولود أراد أبوه ذبحه فضرب عليه بالقداح فسلم ونحرت عنه إبل كثيرة ؟ . قلنا : نعم. قال : فهل لكما علم به ما فعل ؟. قلنا: تزوج امرأة يقال لها: آمنة بنت وهب تركها حاملا وخرج قال: فهل تعلمان ولد أم لا ؟. قال ورقة بن نوفل : أخبرك أيها الملك إني ليلة قد بت عند وثن لنا كنا نطيف به، ونعبده إذ سمعت من جوفه هاتفا يقول :

وُلِدَ النبـــــيّ فذلّتِ الأمـــلاكُ ... وَنَأى الضـــلالُ وأَدْبَرَ الإِشراكُ

ثم انتكس الصنم على وجهه. فقال زيد بن عمرو بن نفيل عندي كخبره أيها الملك. قال : هات. قال : أنا في مثل هذه الليلة التي ذكر فيها حديثه خرجت من عند أهلي وهم يذكرون حمل آمنة حتى أتيت جبل أبي قبيس أريد الخلو فيه لأمر رابني إذ رأيت رجلا نزل من السماء له جناحان أخضران، فوقف على أبي قبيس ثم أشرف على مكة فقال : ذل الشيطان وبطلت الأوثان ولد الأمين. ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب فرأيته قد جلل ما تحت السماء وسطع نور كاد أن يختطف بصري وهالني ما رأيت. وخفق الهاتف بجناحيه حتى سقط على الكعبة. فسطع له نور أشرقت له تهامة. وقال : ذكت الأرض وأدت ربيعها. وأومأ إلى الأصنام التي كانت على الكعبة فسقطت كلها. قال النجاشي : وَيْحَكُمَا أُخْبِرْكما عما أصابني، إني لنائم في الليله التي ذكرتما في قبة وقت خلوتي، إذ خرج علي من الأرض عنق ورأس، وهو يقول : حل الويل بأصحاب الفيل، رمتهم طير أبابيل، بحجارة من سجيل هلك الأشرم المعتدي المجرم، وولد النبي الأمي، المكي الحرمي، من أجابه سعد، ومن أباه عند. ثم دخل الأرض فغاب فذهبت أصيح فلم أطق الكلام، ورمت القيام فلم أطق القيام، فصرعت القبة بيدي. فسمع بذلك أهلي فجاءوني فقلت: حجبوا عني الحبشة فحجبوهم عني، ثم أطلق عن لساني ورجلي.

وسيأتي إن شاء اللّه تعالى في قصة المولد رؤيا كسري في سقوط أربع عشرة شرافة من إيوانه، خمود نيرانه ورؤيا موبذانه، وتفسير سطيح لذلك على يدي عبد المسيح. وروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخه في ترجمة الحارث بن هانئ بن المدلج بن المقداد بن زمل بن عمرو العذري عن أبيه عن جده عن أبيه عن زمل بن عمرو العذري : قال : كان لبني عذرة صنم يقال له : حمام وكانوا يعظمونه وكان في بني هند بن حرام بن ضبة بن عبد بن كثير بن عذرة وكان سادنه رجلا يقال له : طارق، وكانوا يعترون عنده. فلما ظهر رسول اللّه ﷺ سمعنا صوتاً يقول : يا بني هند بن حرام. ظهر الحق وأودى صمام و دفع الشرك الإسلام. قال : ففزعنا لذلك وهالنا فمكثنا أياماً. ثم سمعنا صوتاً وهو يقول : يا طارق يا طارق. بعث النبي

الصادق، بوحي ناطق، صدع صادع بأرض تهامة، لناصريه السلامة، ولخاذليه الندامة، هذا الوداع مني إلى يوم القيامة. قال زمل : فوقع الصنم لوجهه. قال : فابتعت راحلة ورحلت حتى أتيت النبي ﷺ مع نفر من قومي وأنشدته شعراً قلته :

إليكَ رسولَ اللّه أعملتُ نصَّها وكلّفتُها حَزْناً وغَوراً من الرملِ
لأنصرَ خيرَ الناسِ نصراً مؤزّراً وأعقدَ حبلاً من حبالك في حبلي
وأشهدُ أنْ اللّهَ لا شيءَ غيرَهُ أدينُ به ما أثقلتْ قدمي نعلي

قال : فأسلمت وبايعته. وأخبرناه بما سمعنا فقال : « ذاك من كلام الجن ». ثم قال : « يا معشر العرب إني رسول اللّه إليكم وإلى الأنام كافة، أدعوهم إلى عبادة اللّه وحده، وإني رسوله وعبده، وأن تحجوا البيت وتصوموا شهراً من اثني عشر شهراً وهو شهر رمضان فمن أجابني فله الجنة نزلا، ومن عصاني كانت النار له منقلبا ». قال : فأسلمنا وعقد لنا لواء. وكتب لنا كتابا نسخته : « بسم اللّه الرحمن الرحيم من محمد رسول اللّه لزمل بن عمرو، ومن أسلم معه خاصة إني بعثته إلى قومه عامداً فمن أسلم ففي حزب اللّه ورسوله. ومن أبى فله أمان شهرين. شهد علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري » ثم قال ابن عساكر : غريب جداً .

وقال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في مغازيه : حدثني محمد بن سعيد - يعني عمه - قال : قال محمد بن المنكدر : إنه ذكر لي عن ابن عباس. قال : هتف هاتف من الجن على أبي قبيس فقال :

قبّحَ اللّه رأيكم آلَ فهرٍ ما أدقَّ العقولَ والأفهامَ
حينَ تُعصى لمَن يعيبُ عَلَيها دينَ آبائها الحماة الكرام
حالفَ الجنَّ جنُّ بُصرى عليكم ورجالَ النخيلِ والآطَامِ[1]
يوشكُ الخيلُ أن تردْها تَهادى تقتلُ القومَ في حَرام بهام
هَلْ كريمٌ منكمْ لَهُ نفسُ حرٍّ مَاجدِ الوالدَيْنِ والأعمام
ضاربٌ ضربةً تكونُ نَكالاً ورَواحاً مِنْ كُربة واغتمام

قال ابن عباس فأصبح هذا الشعر حديثا لأهل مكة يتناشدونه بينهم. فقال رسول اللّه ﷺ : « هذا شيطان يكلم الناس في الأوثان يقال له : مسعر، واللّه مخزيه » فمكثوا ثلاثة أيام فإذا هاتف يهتف على الجبل يقول :

نحنُ قَتَلْنا في ثلاث مسْعرا إذْ سفّهَ الجنَّ وسنَّ المنكَرا
قنَّعْتُهُ سَيفاً حُساماً مُشهراً بشتمِه نبيَّنا المطهَّرا

---

(١) الآطام : القصر وكل حصن مبني بحجارة .

فقال رسول الله ﷺ : « هذا عفريت من الجن اسمه : سمج آمن بي سميته عبد الله أخبرني أنه في طلبه ثلاثة أيام » فقال عليٌّ : جزاه الله خيراً يا رسول الله.

وقد روى الحافظ أبو نعيم في الدلائل قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدثنا أبو الفضل محمد بن عبد الرحمن بن موسي بن أبي حرب الصفار. حدثنا عباس بن الفرج الرياشي حدثنا سليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت عن أبيه عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس عن سعد بن عبادة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى حضرموت في حاجة قبل الهجرة، حتى إذا كنت في بعض الطريق ساعة من الليل فسمعت هاتفا يقول:

أبا عَمْـرو ناوبَنـــــي السُّهودُ وراحَ النومُ وامتنـــــعَ الهجودُ
لذكْـر عصــــابة سَلفوا وبادوا وكـــلُّ الخلـــــق قَصْرُهم يبيد
تــــولَّوا وارديـــنَ إلى المنايا حياضاً ليــسَ منهلُهـــا الـــورودُ
مضَوا لسبيلهمْ وبقيـــتُ خَلفـاً وَحيـــــداً ليسَ يُسعفني وحيدُ
سُدى لا أستطيـــع عــلاجَ أمــر إذا ما عالج الطفـــلُ الوليـــدُ
فــلأياً مــا بقيــتُ إلى أنـــاسٍ و قدْ باتــتْ بمهْلكهــا ثمـــودُ
وعادٌ والقرونُ بــذي شُعـــوبٍ سَــواءٌ كلُّهــمَ إرَمٌ حصيدُ(١)

قال : ثم صاح به آخر : يا خرعب ذهب بك العجب. إن العجب كل العجب بين زهرة ويثرب. قال : وما ذاك يا شاحب ؟. قال : نبي السلام، بعث بخير الكلام إلى جميع الأنام، فأخرج من البلد الحرام إلى نخيل وآطام. قال : ما هذا النبي المرسل والكتاب المنــزل، والأمي المفضل ؟. قال : رجل من ولد لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة. قال : هيهات فات عن هذا سني، وذهب عنه زمني لقد رأيتني والنضر بن كنانة نرمي غرضا واحداً، ونشرب حلبا بارداً، ولقد خرجت به من دوحة في غداة شبمة وطلع مع الشمس وغرب معها، يروي ما يسمع ويثبت ما يبصر. ولئن كان هذا من ولده لقد سل السيف، وذهب الخوف، ودحض الزنا، وهلك الربا. قال : فأخبرني ما يكون ؟. قال : ذهبت الضراء والبؤس والمجاعة، والشدة والشجاعة، إلا بقية في خزاعة. وذهبت الضراء والبؤس، والخلق المنفوس إلا بقية من الخزرج والأوس. وذهبت الخيلاء والفخر، والنميمة والغدر، إلا بقية في بني بكر. يعني ابن هوازن. وذهب الفعل المندم والعمل المؤثم، إلا بقية في خثعم. قال : أخبرني ما يكون ؟ قال : إذا غلبت البرة، وكظمت الحرة، فأخرج من بلاد الهجرة، وإذا كف السلام، وقطعت الأرحام فأخرج من البلد الحرام. قال: أخبرني ما يكون؟. قال: لولا أذن تسمع، وعين تلمع لأخبرتك بما تفزع. ثم قال :

لا منـــــامٌ هَـــدَأْتَه بنعيــــمِ يا ابنَ غوطٍ ولا صباحٌ أتـــانا

(١) شُعوب : القبيلة العظيمة . إرم : قبيلة بائدة .

قال : ثم صرصر صرصرة كأنها صرصرة حبلى، فذهب الفجر فذهبت لا نظر فإذا عظاية وثعبان ميتان. قال : فما علمت أن رسول اللّه ﷺ هاجر إلى المدينة إلا بهذا الحديث. ثم رواه عن محمد بن جعفر عن إبراهيم بن على عن النضر بن سلمة عن حسان بن عبادة بن موسي عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر عن ابن عباس عن سعد بن عبادة. قال : لما بايعنا رسول اللّه ﷺ ليلة العقبة خرجت إلى حضر موت لبعض الحاج، قال : فقضيت حاجتي ثم أقبلت حتى إذا كنت ببعض الطريق نمت، ففزعت من الليل بصائح يقول :

أبا عمـــــــرٍو ناَوبني السّهودُ   وراحَ النـــومُ وانقطـــعَ الهجودُ

وذكر مثله بطوله.

وقال أبو نعيم : حدثنا محمد بن جعفر. حدثنا إبراهيم بن على. حدثنا النضر بن سلمة حدثنا أبو غزية محمد بن موسي عن العطاف بن خالد الوصابي عن خالد بن سعيد عن أبيه. قال: سمعت.تميما الداري يقول : كنت بالشام حين بعث النبي ﷺ ، فخرجت لبعض حاجتي فأدركني الليل. فقلت : أنا في جوار عظيم هذا الوادي الليلة. قال : فلما أخذت مضجعي إذا أنا بمناد ينادي – لا أراه – عُذْ باللّه فإن الجن لا تجير أحداً على اللّه فقلت : أيم اللّه تقول. فقال: قد خرج رسول الأميين رسول اللّه وصلينا خلفه بالحجون. فأسلمنا واتبعناه وذهب كيد الجن، ورميت بالشهب. فانطلق إلى محمد رسول رب العالمين فأسلم. قال تميم: فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب فسألت راهبا وأخبرته الخبر. فقال الراهب : قد صدقوك يخرج من الحرم ومهاجره الحرم وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه. قال تميم : فتكلفت الشخوص حتى جئت رسول الله ﷺ فأسلمت.

وقال حاتم بن اسماعيل عن عبد اللّه بن يزيد الهذلي عن عبد اللّه بن ساعدة الهذلي عن أبيه : قال :كنا عند صنمنا سواع، وقد جلبنا إليه غنما لنا مائتي شاة قد أصابها جرب، فأدنيناها منه لنطلب بركته فسمعت مناديامن جوف الصنم ينادي قد ذهب كيد الجن، ورمينا بالشهب لنبي اسمه أحمد. قال : فقلت : غويت واللّه. فصدقت وجه غنمي منجداً إلى أهلي فرأيت رجلا. فخبرني بظهور النبي ﷺ . ذكره أبو نعيم هكذا معلقا. ثم قال : حدثنا عمر بن جعفرُ حدثنا إبراهيم بن السنديُ حدثنا النضر بن سلمة. حدثنا محمد بن مسلمة المخزوميُ حدثنا يحيى بن سليمان عن حكيم بن عطاء الظفري – من بني سليم من ولد راشد بن عبد ربه – عن أبيه عن جده عن راشد بن عبد ربه. قال : كان الصنم الذي يقال له : سواع بالمعلاة من رهط تدين له هذيل وبنو ظفر بن سليم فأرسلت بنو ظفر راشد بن عبد ربه بهدية من سليم إلى سواع. قال راشد : فألقيت مع الفجر إلى صنم قبل صنم سواع، فإذا صارخ يصرخ من جوفه : العجب كل العجب من خروج نبي من بني عبد المطلب، يحرم الزنا والربا والذبح للأصنام. وحرست السماء، ورمينا بالشهب العجب كل العجب. ثم هتف صنم آخر من جوفه ترك الضمار وكان يعبد : خرج النبي أحمد، يصلي الصلاة ويأمر بالزكاة والصيام، والبر والصلات للأرحام. ثم هتف من جوف صنم آخر هاتف يقول :

إن الذي ورِثَ النبـوّةَ والهـدى ... بعـد ابنِ مريـمَ من قريشٍ مهتد
نبيٌ أتى يخبـر بما سبـق ... وبما يكونُ اليـوم حقـا أو غد

قال راشد : فألفيت سواعاً مع الفجر وثعلبان يلحسان ما حوله، ويأكلان ما يهدى له، ثم يعوجان عليه ببولهما، فعند ذلك يقول راشد بن عبد ربه :

أربٌّ يبولُ الثُّعلبانُ برأسِهِ ... لقد ذَلّ من بالتْ عليه الثعالبُ

وذلك عند مخرج النبي ﷺ ومهاجره إلى المدينة وتسامع الناس به فخرج راشد حتى أتي النبي ﷺ المدينة ومعه كلب له، واسم راشد يومئذ ظالم، واسم كلبه راشد فقال النبي ﷺ : **«ما اسمك ؟»** قال : ظالم. قال : **« فما اسم كلبك ؟. »** قال : راشد، قال : **« اسمك راشد، واسم كلبك ظالمُ »** وضحك النبي ﷺ. وبايع النبي ﷺ وأقام بمكة معه. ثم طلب من رسول الله ﷺ. قطيعة بوهاط – ووصفها له – فاقطعه رسول اللّه ﷺ بالمعلاة من وهاط شأو الفرس، ورميته ثلاث مرات بحجر، وأعطاه إداوة مملوءة من ماء وتفل فيها. وقال له : **« فرغها في أعلا القطيعة ولا تمنع الناس فضلها »** ففعل فجعل الماء معينا يجري إلى اليوم فغرس عليها النخل. ويقال : إن وهاط كلها تشرب منه فسماها الناس ماء الرسول ﷺ. وأهل وهاط يغتسلون بها وبلغت رمية راشد الركب الذي يقال له : ركب الحجر، وغدا راشد على سواع فكسره.

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا علي بن إبراهيم الخزاعي الأهوازى حدثنا أبو محمد عبد اللّه بن داود بن دلهاث بن إسماعيل بن مسرع بن ياسر بن سويد صاحب رسول اللّه ﷺ ، حدثنا أبي عن أبيه دلهاث عن أبيه إسماعيل : أن باه عبد اللّه؛ حدثه عن أبيه مسرع بن ياسر : أن أباه ياسر، حدثه عن عمرو بن مرة الجهني أنه كان يحدث : قال : خرجت حاجاً في جماعة من قومي في الجاهلية. فرأيت في المنام وأنا بمكة نوراً ساطعاً من الكعبة حتى أضاء في جبل يثرب وأشعر جهينة. فسمعت صوتا في النور وهو يقول : انقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبعث خاتم الأنبياء، ثم أضاء إضاءة أخري حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن. فسمعت صوتا في النور وهو يقول : ظهر الإسلام، وكسرت الأصنام، ووصلت الأرحام، فانتبهت فزعاً، فقلت لقومي : واللّه ليحدثن في هذا الحي من قريش حدث وأخبرتهم بما رأيت. فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنا رجل فأخبرنا أن رجلا يقال له: أحمد قد بعث فأتيته فأخبرته بما رأيت، فقال : **« يا عمرو بن مرة إني النبي المرسل إلى العباد كافة أدعوهم إلى الإسلام، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام، وعبادة اللّه ورفض الأصنام، وحج البيت. وصيام شهر من اثني عشر شهراً وهو شهر رمضان ، فمن أجاب فله الجنة. ومن عصي فله النار، فآمن يا عمرو بن مرة يؤمنك اللّه من نار جهنم. »** فقلت : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنك رسول اللّه. آمنت بكل ما جئت به من حلال وحرام، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام، ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به وكان لنا صنم وكان أبي سادنا له فقمت إليه فكسرته. ثم لحقت النبي ﷺ وأنا أقول :

شهـــدتُ بأنّ الله حـــقٌ وأنّنِـــي ... لآلهة الأحجـــارِ أولُ تـــارك
فشمَّرتُ عن ساقي إِزار مهاجــــر ... إِلَيكَ أدبّ الغَوْرَ بعدَ الدكادك [١]
لأصحبَ خيرَ الناسِ نَفساً وَوالداً ... رسولَ مليكِ الناسِ فوقَ الحبائك[٢]

فقال النبي ﷺ : « مرحباً بك يا عمرو بن مرة ». فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي إبعث بي إلى قومي، لعل الله أن يمن بي عليهم كما من بك علي، فبعثني إليهم، وقال : « عليك بالقول السديد ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً. » فأتيت قومي فقلت لهم : يابني رفاعة، ثم يا بني جهينة إني رسول من رسول الله إليكم أدعوكم إلى الجنة، وأحذركم النار، وآمركم بحقن الدماء، وصلة الأرحام، وعبادة الله، ورفض الأصنام، وحج البيت، وصيام شهر رمضان، شهر من اثني عشر شهراً. فمن أجاب فله الجنة. ومن عصي فله النار. يامعشر جهينة إن الله – وله الحمد – جعلكم خيار من أنتم منه وبغض إليكم في جاهليتكم ما حبب إلى غيركم من الرفث؛ لأنهم كانوا يجمعون بين الأختين، ويخلف الرجل على امرأة أبيه، والترات [٣] في الشهر الحرام. فأجيبوا هذا النبي المرسل ﷺ من بني لؤي بن غالب. تنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة، سارعوا سارعوا في ذلك يكون لكم فضيلة عند الله. فأجابوا إلا رجلا منهم قام فقال : يا عمرو بن مرة أمرّ الله عليك عيشك، أتأمرنا أن نرفض آلهتنا ونفرق جماعتنا بمخالفة دين آبائنا إلى ما يدعو هذا القرشي من أهل تهامة ؟. لا ولا مرحباً ولا كرامة، ثم أنشأ يقول :

إنّ ابـــنَ مُـــرّةَ قد أتى بمقالة ... ليستْ مقالةَ من يُريدُ صَلاحـــــا
إنـــــي لأحسَب قـــولَه وفَعالَهُ ... يوماً وإنْ طـــــالَ الزمانُ رياحا
أَتسفّهُ الأشياخَ ممن قد مضـــى ... مَن رامَ ذلكَ لا أصابَ فَلاحـــا

فقال عمرو بن مرة : الكاذب مني ومنك أمر الله عيشه، وأبكم لسانه، وأكمه بصره. قال عمرو بن مرة: والله ما مات حتى سقط فوه وكان لا يجد طعم الطعام، وعمي وخرس. وخرج عمرو بن مرة ومن أسلم من قومه حتى أتوا النبي ﷺ، فرحب بهم وحباهم وكتب لهم كتاباً هذه نسخته : " بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله على لسان رسول الله بكتاب صادق، وحق ناطق، مع عمرو بن مرة الجهني لجهينة بن زيد إن لكم بطون الأرض وسهولها، وتلاع [٤] الأودية وظهورها، ترعون نباته وتشربون صافيه. على أن تقروا بالخمس وتصلوا الصلوات الخمس، وفي التبعة والصريمة شاتان إن اجتمعتا، وإن تفرقتا فشاة شاة ليس على أهل الميرة صدقة، ليس الوردة اللبقه ". وشهد من حضرنا من المسلمين بكتاب قيس بن شماس رضي الله عنهم. وذلك حين يقول عمرو بن مرة :

---

(١) الدكادك : أرض فيها غلَظ .

(٢) الحبائك : طريقة النجوم فى السماء . فيقال : ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الحُبُكِ ﴾ [الذاريات : ٧] . أى ذات الطرائق الحسنة.

(٣) الترات : العيوب .

(٤) التلاع : ما انهبط من الأرض .

ألـــم تـــرَ أنّ اللّهَ أَظهـــرَ دينَـــــه ... وبيَـــنَ برهانَ القُـــــرانِ لعامـــــرِ
كتابٌ مـــنَ الرحمنِ نور لجمعنـــــا ... وأحـــــلافنا في كلٍّ باد وحَاضـــر
إلى خيرِ من يمشي على الأرضَ كلّها ... وأفضلها عند اعتكـــارِ الصـــّرائر[١]
أطعنـــاً رســـولَ اللّه لمـــا تقطّعتْ ... بطونُ الأعادي بالظُّبَـــــى والخواطر
فنحـــنُ قَبيـــلٌ قد بنى المجدُ حولَنـــا ... إذا اجتُلبت في الحـــربِ هامُ الأكابر
بنو الحربِ نفْـــريها بأيـــدِ طويلـــة ... وبيضٍ تـــلالا في أكفّ المغـــــاور
تـــرى حوله الأنصارَ تحميً أميرَهم ... بسُمرِ العـــوالي والصِّفـــاح البواتر
إذا الحـــربُ دارت عند كل عظيمة ... ودار ترحاها باللّيوث الهـــواصـــر
تبلّجَ منـــهُ اللونُ وازداد وجهه ... كَمثلِ ضياء البدّر بينَ الزواهـــــر

وقال أبو عثمان سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه : حدثنا عبد اللّه، حدثنا أبو عبد اللّه، حدثنا المجالد بن سعيد والأجلح عن الشعبي، حدثني·شيخ من جهينة. قال : مرض منا رجل مرضا شديداً فثقل حتى حفرنا له قبره وهيأنا أمره فأغمي عليه ثم فتح عينيه وأفاق فقال : أحفرتم لي ؟. قالوا : نعم، قال : فما فعل الفُصَل - وهو ابن عم له- ؟. قلنا : صالح مر آنفا يسأل عنك، قال : أما إنه يوشك أن يجعل في حفرتي أنه أتاني آت حين أغمي على .فقال : ابك هبل؟. أما ترى حفرتك تنتثل[٢]، وأمك قد كادت تثكل؟. أرأيتك أن حولناها عنك بالمحول، ثم ملأناها بالجند، وقذفنا فيها الفصل، الذي مضى فأجزأك، وظن أن لن يفعل. أتشكر لربك، وتصل وتدع دين من أشرك وضل ؟. قال : قلت : نعم. قال : قم قد برئت. قال : فبرئ الرجل ومات الفصل فجعل في حفرته. قال الجهيني : فرأيت الجهيني بعد ذلك يصلي ويسب الأوثان ويقع فيها.

وقال الأموي : حدثنا عبد اللّه. قال : بينما عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه في مجلس يتحدثون عن الجن، فقال : خريم بن فاتك الأسدي : ألا أحدثك كيف كان إسلامي ؟. قال : بلي، قال : إني يوما في طلب ذود لي منها على أثر تنصب وتصعد، حتى إذا كنت بأبرق العراق أنخت راحلتي وقلت : أعوذ بعظيم هذه البلدة أعوذ برئيس هذا الوادي، فإذا بهاتف يهتف بي :

ويحكَ، عُذْ باللّه ذي الجلالِ ... والمجـــــــدِ والعلياءِ والإفضالِ
ثم اتلُ آيات من الأنفالِ ... ووحِّدِ اللّهَ ولا تَبـــالـــــي

قال : فذعرت ذعراً شديداً ثم رجعت إلى نفسي فقلت :

يا أيّها الهاتفُ ما تقولُ ... أرُشْـــــدٌ عندك أم تضليلُ ؟
بَيِّنْ هَـــدَاك اللّهُ مـــــا الحويلُ[٣]

قال : فقال :

---

(١) الصرائر : تمازج الأصول ، يعني أنه أصغى الناس أصلاً .
(٢) تنتثل : نثل الحفرة : استخرج ترابها .
(٣) الحويل : الرشد والصواب .

هـــذا رسولُ اللّه ذو الخيرات   بيثربَ يــــدعو إلى النَّجـــــاة
يأمر بالبرِّ وبالصـــــلاةِ   ويــزَعُ الناسَ عن الهَنَات[1]

قال: قلت له: واللّه لا أبرح حتى آتيه وأومن به، فنصبت رجلي في غرز راحلتي وقلت:

أرشِدْني أرْشِـــدْني هُـــديتا   لا جُعتَ ما عشتَ ولا عَريتـــا
ولا برحـــتَ سيـــداً مقيتا   لا تـــُؤثر الخيرَ الذي أُتينـــا
على جميع الجـــنِّ ما بقيتــــا

فقال:

صاحبَكَ اللّهُ وأدى رَحْلكا   وعظَّمَ الأجـــرَ وعَافى نفسَكا
آمِنْ به أفلجَ ربِّي حقّكا   وانصرْه نصراً عزيزاً نَصْرَكا

قال: قلت: من أنت عافاك اللّه، حتى أخبره إذا قدمت عليه؟. فقال: أنا ملك بن مالك، وأنا نقيبه على جن نصيبين. وكفيت إبلك حتى أضمها إلى أهلك إن شاء اللّه. فقال فخرجت حتى أتيت المدينة يوم الجمعة والناس أرسال إلى المسجد والنبيﷺ على المنبر كأنه البدر يخطب الناس، فقلت: أنيخ على باب المسجد حتى يصلي وادخل عليه فاسلم وأخبره عن إسلامي، فلما أنخت خرج إلى أبو ذر فقال: مرحبا وأهلا وسهلا قد بلغنا إسلامك، فأدخل فصل، ففعلت، ثم جئت إلى رسول اللّهﷺ فأخبرني بإسلامي. فقلت: الحمد للّه. قال: «أما إن صاحبك قد وفى لك وهو أهل ذلك، وأدي إبلك إلى أهلك».

وقد رواه الطبراني في ترجمة خريم بن فاتك من معجمه الكبير قائلا: حدثنا الحسين بن إسحاق اليسيري، حدثنا محمد بن إبراهيم الشامي، حدثنا عبد اللّه بن موسى الإسكندري، حدثنا محمد بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة. قال: قال خريم بن فاتك لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين ألا أخبرك كيف كان بدء إسلامي؟. قال: بلى! فذكره غير أنه قال: فخرج إلى أبو بكر الصديق فقال: أدخل، فقد بلغنا إسلامك، فقلت: لا أحسن الطهور، فعلمني فدخلت المسجد فرأيت رسول اللّهﷺ كأنه البدر وهو يقول: «ما من مسلم توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى صلاة يحفظها ويعقلها إلا دخل الجنة» فقال لي عمر: لتأتيني على هذا ببينة أو لأنكلن بك، فشهد لي شيخ قريش عثمان بن عفان فأجاز شهادته. ثم رواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن محمد بن تيم عن محمد بن خليفة عن محمد بن الحسن عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب لخريم بن فاتك: حدثني بحديث يعجبني فذكر مثل السياق الأول سواء.

وقال أبو نعيم: حدثنا سليمان بن أحمد. حدثنا أبو عبد الملك أحمد بن إبراهيم القرشي الدمشقي، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن بن بنت شرحبيل حدثنا إسماعيل بن عياش عن يحيى بن

---

(١) الهنات: الداهية.

أبي عمرو الشيباني عن عبد الله بن الديلمي. قال : أتى رجل ابن عباس فقال : بلغنا أنك تذكر سطيحا تزعم أن الله خلقه، لم يخلق من بني آدم شيئا يشبهه . قال : قال : نعم إن الله خلق سطيحاً الغساني لحماً على وضم ولم يكن فيه عظم ولا عصب إلا الجمجمة، والكفان. وكان يطوي من رجليه إلى ترقوته كما يطوى الثوب، ولم يكن فيه شيء يتحرك إلا لسانه. فلما أراد الخروج إلى مكة حمل على وضمة فأتي به مكة، فخرج إليه أربعة من قريش عبد شمس، وهاشم ابنا عبد مناف بن قصي، والأحوص بن فهر، وعقيل بن أبي وقاص فانتموا إلى غير نسبهم وقالوا: نحن أناس من جمح أتيناك بلغنا قدومك، فرأينا أن إتياننا إياك حق لك واجب علينا وأهدى إليه عقيل صفيحة هندية، وصعدة ردينية، فوضعت على باب البيت الحرام لينظروا، هل يراها سطيح أم لا ؟ . فقال : يا عقيل ناولني يدك فناوله يده فقال : يا عقيل والعالم الخفية، والنافر الخطية، والذمة الوفية، والكعبة المبنية، إنك للجائي بالهدية، الصفيحة الهندية، والصعدة الردينية. قالوا : صدقت يا سطيح، فقال : والآتي بالفرح، وقوس قزح، وسائر الفرح، واللطيم المنبطح، والنخل والرطب والبلح، إن الغراب حيث مرّ سنح، فأخبر أن القوم ليسوا من جمح، وإن نسبهم من قريش ذي البطح قالوا: صدقت يا سطيح نحن أهل البيت الحرام، أتيناك لنـــزورك لما بلغنا من علمك. فأخبرنا عما يكون في زماننا هذا وما يكون بعده فلعل أن يكون عندك في ذلك علم قال : الآن صدقتم، خذوا مني ومن إلهام الله إياي، أنتم يا معشر العرب في زمان الهرم، سواء بصائركم وبصائر العجم، لا علم عندكم ولا فهم، وينشو من عقبكم ذوو فهم، يطلبون أنواع العلم، فيكسرون الصنم، ويبلغون الردم، ويقتلون العجم، يطلبون الغنم، قالوا : يا سطيح فمن يكون أولئك ؟ . فقال لهم : والبيت ذي الأركان، والأم والسكان لينشئون من عقبكم ولدان يكسرون الأوثان، وينكرون عبادة الشيطان، ويوحدون الرحمن وينشرون دين الديان، يشرفون البنيان، ويستفتون الفتيان، قالوا: يا سطيح من نسل من يكون أولئك ؟. قال : وأشرف الأشراف، والمفضي للإشراف، والمزعزع الأحقاف [1] ، والمضعف لأضعاف، لينشئون الألاف من عبد شمس وعبد مناف، نشوءا يكون فيه اختلاف. قالوا : يا سوءتاه يا سطيح مما تخبرنا من العلم بأمرهم ومن أي بلد يخرج أولئك ؟ فقال : والباقي الأبد، والبالغ الأمد، ليخرجن من ذا البلد، فتى يهدي إلى الرشد يرفض يغوث والفند، يبرأ من عبادة الضدد، يعبد رباً انفرد، ثم يتوفاه الله محموداً، من الأرض مفقوداً، وفي السماء مشهوداً. ثم يلي أمره الصديق إذا قضى صدق، في رد الحقوق لا خرق ولا نزق ثم يلي أمره الحنيف، مجرب غطريف، ويترك قول العنيف. قد ضاف المضيف. وأحكم التحنيف. ثم يلي أمره داعياً لأمره مجرباً، فتجتمع له جموعاً وعصباً، فيقتلونه نقمة عليه وغضباً، فيؤخذ الشيخ فيذبح بها فيقوم به رجال خطبا. ثم يلي أمره الناصر يخلط الرأي برأي المناكر يظهر في الأرض العساكر ثم يلي بعده

(١) الأحقاف : المعوج من الرمل .

ابنه يأخذ جمعه ويقل حمده. ويأخذ المال ويأكل وحده، ويكثر المال بعقبه من بعده، ثم يلي من بعده عدة ملوك لا شك الدم فيهم مسفوك، ثم بعدهم الصعلوك يطويهم كطي الدرنوك [١]. ثم يلي من بعده عظهور [٢] يقضي الحق ويدني مصر يفتتح الأرض افتتاحاً منكراً، ثم يلي قصير القامة، بظهره علامة يموت موتا وسلامة. ثم يلي قليلا باكر، يترك الملك بائر يلي أخوه بسنته سابر [٣]، يختص بالأموال والمنابر ثم يلي من بعده أهوج، صاحب دنيا ونعيم مخلج، يتشاوره معاشره وذووه، ينهضون إليه يخلعونه بأخذ الملك ويقتلونه، ثم يلي أمره من بعده السابع، يترك الملك محلا ضائع، بنوه في ملكه كالمشوه جامع، عند ذلك يطمع في الملك كل عريان، ويلي أمره اللهفان. يرضي نزاراً جمع قحطان، إذا التقيا بدمشق جمعان بين بنيان ولبنان، يصنف اليمن يومئذ صنفان. صنف المشورة، وصنف المخذول. لا ترى الأحياء محلول. وأسيراً مغلول. بين القراب والخيول. عند ذلك تخرب المنازل وتسلب الأرامل، وتسقط الحوامل وتظهر الزلازل، وتطلب الخلافة وائل، فتغضب نزار فتدني العبيد والأشرار، وتقصي الأمثال والأخيار. وتغلو الأسعار في صفر الأصفار يقتل كل حيا منه، ثم يسيرون إلى خنادق وإنها ذات أشعار وأشجار تصد له الأنهار ويهزمهم أول النهار، تظهر الأخيار فلا ينفعهم نوم ولا قرار. حتى يدخل مصراً من الأمصار، فيدركه القضاء والأقدار. ثم يجيء الرماة تلف مشاة، لقتل الكماة، وأسر الحماة وتهلك الغواة هنالك يدرك في أعلي المياه. ثم يبور الدين، وتقلب الأمور، وتكفرالزبور، وتقطع الجسور، فلا يفلت إلا من كان في جزائر البحور، ثم تبور الحبوب، وتظهر الأعاريب ليس فيهم معيب على أهل الفسوق والريب في زمان عصيب، لو كان للقوم حيا، وما تغني المنى. قالوا : ثم ماذا يا سطيح ؟. قال : ثم يظهر رجل من أهل اليمن كالشطن [٤] ، يذهب الله على رأسه الفتن. وهذا أثر غريب كتباه لغرابته وما تضمن من الفتن والملاحم. وقد تقدم قصة شق وسطيح مع ربيعة بن نصر ملك اليمن، وكيف بشر بوجود رسول الله ﷺ . وكذلك تقدم قصة سطيح مع ابن أخته عبدالمسيح حين أرسله ملك بني ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان. وذلك ليلة مولد الذي نسخ بشريعته سائر الأديان .

تم الجزء الثانى من البداية والنهاية ويليه الجزء الثالث وأوله

باب كيفية بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ

****

(١) الدرنوك : ضرب من الثياب أو البسط .
(٢) عظهور : الفاجر السيئ الخلق .
(٣) سابر : كاشف وواضح .
(٤) الشطن : الحبل الطويل .

فهرس الجزء الأول

فهرس الجزء الثانى من البداية والنهاية